التعليق المختصر المبين

على

قرة عيون الموحدين

في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين

حاشية العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن

على

كتاب التوحيد للشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب

تعليق

فضيلة الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

ترتيب وتخريج وتعليق

د. حنان بنت علي بن محمد اليماني

المكتبة الأسدية

مكة المكرمة

التعليق المختصر المبين

على

قرة عيون الموحدين

© المكتبة الأسدية للنشر والتوزيع ، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفوزان ، صالح بن فوزان

التعليق المختصر المبين على قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين حاشية العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن على كتاب التوحيد.

صالح بن فوزان الفوزان ؛ حنان علي محمد اليماني- مكة المكرمة ، ١٤٣٩هـ

٩٥٢ ص ؛ ١٧×٢٤ سم .

ردمك : ٣-٨-٦٢-٩٠٦٢-٦٠٣-٩٧٨

١- التوحيد / أ. اليماني ، حنان علي محمد (محقق) ب. العنوان

ديوي ٢٤٠ — ١٤٣٩/٤٩

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٤٩

ردمك: ٣-٨-٦٢-٩٠٦٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م

المكتبة الأسدية للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

مكة المكرمة - العزيزية الشمالية

بجوار مدخل جامعة أم القرى

ت: ٠٥٢٧٣٠٣٧-٠٥٥٧٠٥٠٦

alasadi2000@hotmail.com

التعليق المختصر المبين

على

قرة عيون الموحدين

في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين

حاشية العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن

على

كتاب التوحيد للشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب

تعليق

فضيلة الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

ترتيب وتخريج وتعليق

د. حنان بنت علي بن محمد اليماني

المكتبة الأسدية

مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان   وفقه الله لما يحب ويرضى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .... وبعد

فهذا كتابكم " الشرح المختصر المبين على قرة عيون الموحدين " قد اكتمل، وقمت بمراجعته حتى خرج بصورته النهائية.

هذا، وأسأل الله العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يحوز على رضاكم، وأن يبارك فيكم وفي علمكم.

وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مقدمته

حنان بنت علي محمد اليماني

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

سيكون بعنوان: المتلخص إلخ

وقد سبق منه طبعاً شكراً له بصورة صحيحة

١٠٨٥ / ١٤٢٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وبعد: فأرى طباعته بصورته الحالية للانتفاع به بمشيئة الله الجميع

صالح بن فوزان الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء

في ٢/١١/١٤٢٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ... أما بعد :

فهذا كتابٌ في شرح « قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين » حاشية العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ﷬ على كتاب « التوحيد » لجدِّه الإمام محمد بن عبد الوهاب ﷬ قام بشرحه فضيلة الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان - نفع الله بعلمه ، وفسح له في أجله - .

فهذا الكتاب المبارك شرحٌ على شرح لأشرف العلوم على الإطلاق ، ألا وهو علم التوحيد ، أول واجب على المكلفين ، وأول ما يُسأل عنه العبد في قبره ، وأساس السلامة من عذاب الله يوم القيامة ، وأصل قبول الأعمال .

ولما لهذا الشرح من أهمية بالغة ، رغبت في المساهمة في نشر هذا العلم الجليل ، عن طريق الاعتناء بهذا الشرح المبارك ترتيباً ، وتعليقاً ، وتخريجاً ، وسميته : « التعليق المختصر المبين على قرة عيون الموحدين » .

وحتى يكون القارئ على بيِّنة بمنهج الكتاب ، فإنني سأورد ذلك في النقاط التالية :

١ - قمت بتفريغ المادة الصوتية لشرح قرة عيون الموحدين ، مستعينة بالله تعالى ، ثم ببعض طالبات العلم اللاتي شاركن في ذلك .

٢ - طابقت التفريغ بالاستماع للمادة مرة أخرى ؛ تداركاً لما قد يقع من تصحيف أو تحريف أو سقط أثناء التفريغ .

٣ - طابقت متن القرة مع الطبعة التي اعتنى بها الشيخ إسماعيل الأنصاري ﷬ والتي طبعتها الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، وقد اخترتها لمقاربتها للطبعة التي قُرئت على الشيخ في هذا الشرح .

٤ - قسمت الصفحة إلى ثلاثة أقسام : الأول : متن « قرة عيون الموحدين » ، والثاني : شرح الشيخ على المتن المذكور ، والثالث : هامش التعليق والتخريج من قبل المحقق .

٥ - كتبت الآيات القرآنية بالرسم العثماني ، وعزوتها إلى مواضعها في القرآن الكريم ، بذكر اسم السورة ، ورقم الآية .

٦ - خرَّجت الأحاديث والآثار التي أوردها الشيخ في أثناء شرحه وحرصت على عدم الإطالة في التخريج ، إذ إن الغاية هي إثبات صحة الحديث سنداً أو متناً .

٧ - وثَّقت النصوص التي أوردها الشيخ من كتب أهل العلم ، بعزوها إلى مصادرها الأصلية ، وكذلك الأبيات الشعرية بقدر الاستطاعة .

٨ - حرصت على الاستفادة من الأسئلة التي في آخر كل درس ، وذلك باختيار ما فيه زيادة توضيح للدرس ، أو إجابة عن مسألة يكثر ورودها ، ووضعت هذه المسألة في الهامش .

٩ - صدَّرت كل باب من أبواب « قرة عيون الموحدين » بباب كتاب « التوحيد » الموافق له ، وذلك ليكون القارئ على علم بنصوص الباب الذي يشرحه المصنِّف .

هذا وأسأل الله العظيم أن يبارك في علم شيخنا وعمله ، وأن ينفع بهذا الشرح المبين كل مسلم موحِّد ، وأن يجزي كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب خير الجزاء ، وأن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم . هو وليُّ ذلك والقادر عليه .

وصلِ اللهم وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين

وكتبته

حنان بنت علي اليماني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .. أما بعد :

فقد ألف الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ﷺ « كتاب التوحيد » في بيان توحيد الألوهية ، وهو توحيد العبادة ، وهو أعظم أنواع التوحيد وأهمها ، وخصَّ الشيخ ﷺ هذا الكتاب في هذا النوع لكثرة الخطأ فيه ؛ ولأنه هو الأساس ؛ فلا يصح التوحيد إلا إذا صح توحيد الألوهية .

وهذا الكتاب ألَّفه الشيخ ﷺ ، وجعله على أبواب ، كل باب يختص ببيان حكم من أحكام التوحيد ، وحكم من أحكام الشرك بالله ﷻ ؛ الذي هو ضد التوحيد ، فهو بيان لحقيقة التوحيد ، وما يضاده ويناقضه من الشرك الأكبر ، أو ما ينقِّصه من الشرك الأصغر ، فجميع أبواب الكتاب تدور على بيان التوحيد ، وبيان الشرك الأكبر والأصغر ، وفي بعض الأبواب ذِكْر الأسماء والصفات ، ولكن الغالب على الكتاب أنه في توحيد الألوهية - توحيد العبودية - .

وهذا الكتاب تأتي أهميته من ناحية أن الشيخ ﷺ بناه على الأدلة من الكتاب والسنة ، وكلام السلف على هذه الأدلة ، ولم يكن على نمط كُتب العقائد الأخرى المبنية على علم الكلام ، أو قواعد المنطق ، أو قال فلان وعلان ، إنما هو مبني على الكتاب والسنة ، فيورد في الباب ما يناسبه من الآيات والأحاديث ، ثم يُعقِّب الباب في بيان فقه هذه الآيات والأحاديث ، وذلك ببيان ما تشتمل عليه من المسائل .

وقد شُرح هذا الكتاب عدة شروح ، فأول من شرحه حفيده الشيخ سليمان ابن الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ بشرح حافل

يتضمن كثيراً من العلوم في هذا الباب ، وسماه « تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد »[١] ، ثم جاء من بعده فاختصروا هذا الشرح ، وأول من اختصره الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ﷺ حفيد الشيخ المجدد ، وابن عم الشيخ سليمان ، وقد اختصره في كتاب سماه « فتح المجيد لِشرح كتاب التوحيد » ، ثم توالت الشروح والحواشي على هذا الكتاب .

فممن اختصره أيضاً : الشيخ حمد بن عتيق ﷺ في كتاب سماه « إبطال التنديد باختصار شرح كتاب التوحيد » ، وهو كتاب مختصر من شرح الشيخ سليمان بن عبد الله ﷺ .

وكذلك ممن اختصر « تيسير العزيز الحميد » : الشيخ سليمان بن حمدان - المعاصر - الذي توفي من سنين قليلة ﷺ في كتابه « الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد » ، وهو مطبوع .

ثم جاءت الحواشي ، ومنها : هذه الحاشية « قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين » ، وهي حاشية للشيخ عبد الرحمن بن حسن ، مؤلِّف « فتح المجيد » ، وهي حافلة بالمعلومات - كما ستجدون ذلك فيها إن شاء الله تعالى .

وكذلك الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﷺ كتب حاشية على « كتاب التوحيد » سماها : « حاشية كتاب التوحيد » ، وهي مطبوعة .

وكذلك ممن شرح هذا الكتاب عالم من علماء الشارقة ، يُقال له : حامد ابن محسن ، وقد طُبع كتابه أخيراً[٢] ، وشرحه عالم من علماء

---

(١) وقد اخترمته المنية فمات ولم يتمه ، بل وقف على الباب الحادي والستين (باب ما جاء في المصورين) ، فاختصره الشيخ عبد الرحمن بن حسن وأكمل شرحه إلى نهاية الكتاب .

(٢) واسم الكتاب « فتح الله الحميد المجيد شرح كتاب التوحيد » ، للشيخ حامد بن محمد بن حسين بن محسن (ت ١٣١٧ هـ) بتحقيق : الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ﷺ طُبع عام ١٤١٧ هـ ، ونشرته دار المؤيد .

اليمن[(١)] ، وسمعت أنه طُبع شرحه أيضاً .

وكتب عليه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي ﷺ كتاباً سماه : « القول السديد في مقاصد التوحيد » يشرح فيه تراجم « كتاب التوحيد » ويبين مقاصد الشيخ من هذه التراجم ، ولذلك قال : « في مقاصد التوحيد » ، وهو كتاب مفيد .

فهذا الشرح[(٢)] كان محل اهتمام العلماء ، وكتب على ضوئه أيضاً الإمام العلامة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني رسالة سماها : « تطهير الاعتقاد من أدران الشرك والإلحاد » ، وهي أيضاً في توحيد العبودية ، وهي على نمط كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ إلا إنها مختصرة مفيدة .

كذلك كتب الشيخ محمد بن علي الشوكاني ﷺ كتاباً سماه « الدر النضيد في كلمة التوحيد » ، وهو مطبوع .

فصار هذا الكتاب - أي كتاب التوحيد - هو البداية في هذه الكتب التي توالت من بعده ، وكان العلماء يهتمون بهذا الكتاب ويحفِّظونه لتلاميذهم ، ويشرحونه ، وكان الناس من طلبة العلم يحفظون هذا الكتاب ، ويعتنون به ؛ لأنه خلاصة وزبدة التوحيد ، ولأنه ليس فيه قال فلان أو فلان ، وإنما فيه قال الله ، وقال رسول الله ﷺ من الكتاب والسنة .

فهذه نبذة عن أهمية هذا الكتاب ، الذي بين أيدينا الآن .

---

(١) وهو الشيخ عبد الهادي بن محمد بن عبد الهادي البكري العجيلي (ت ١٢٦٢ هـ) . شرحه في كتاب سماه : « تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد » ، وقام بتحقيقه د. حسن بن علي العواجي في رسالة علمية من الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية ، وطبعتها مكتبة أضواء السلف ، عام ١٤١٩ هـ (الطبعة الأولى) .

(٢) يقصد « تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد » .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

١ - كتاب التوحيد

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

وقوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: ٣٦].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ؛ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ... ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جبلٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يا معاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ، وما حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟». قُلْتُ: اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى الله أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً». قلتُ: يَا رَسُولَ الله! أَفَلا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ فِي الصحيحين.

١ - كتاب التوحيد

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن ﷺ في حاشيته على « كتاب التوحيد » للشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ :

* قوله في « كتاب التوحيد » : (بسم الله الرحمن الرحيم)(١) : الكلام على البسملة بيِّن مذكور في الشرح(٢) ، والبداءة بها سنة ، كما فعل البخاري وغيره من العلماء(٣) ، اتباعاً للسنة في مدراسلات النبي ﷺ للملوك وغيرهم ،

---

(١) بدأ الشيخ كتابه بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) ، وهذه هي السُّنَّة ، فكل كتاب سواء كان كتاب علم ، أو كتاب رسالة لأحد ، فإنه يُبدأ بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) ؛ لأن الله ﷻ افتتح كل سورة بالبسملة - سوى سورة براءة - ، وكذلك النبي ﷺ كان يفتتح رسائله إلى الملوك والرؤساء ، وإلى عماله وأمرائه بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) ، وكتبها سليمان ﷺ في رسالته إلى بلقيس ملكة سبأ ، قالت : ﴿ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ . إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [سورة النمل : ٢٩-٣٠] . فبدأ كتابه بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) ، فهذه سُنَّة الأنبياء عَلَيهِمُ السَّلامُ ؛ أنهم يبدأون كتبهم ورسائلهم بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) .

(٢) يقول الشيخ : والكلام على البسملة مستوفى في الشرح ؛ لأنه هو الأصل وهو « تيسير العزيز الحميد » ، وكذلك « فتح المجيد » استوفى فيه الكلام على البسملة ومعناها .

فقوله : (بسم الله) : الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره : ابتدئ ببسم الله ، أو أستعين ببسم الله .

واسم الله ﷻ يشمل جميع أسمائه ؛ لأن المفرد إذا أضيف يَعُمّ . وقوله : (بسم الله) : أي بأسماء الله ﷻ التي لا يعلمها إلا الله .

(الله) : لفظ الجلالة ، علم على ذاته ﷻ ، لا يُسمى به غيره . ومعناه : ذو الألوهية ، أي العبودية .

(الرحمن الرحيم) : اسمان من أسمائه يتضمنان صفة الرحمة .

هذا ملخص شرح البسملة .

(٣) كما أن الله ﷻ يفتتح السور بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) ، والنبي ﷺ يفتتح الرسائل والكتب التي يرسلها بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) ، فكذلك العلماء يفتتحون كتبهم =

وفي الأمر بالبداءة بها حديث معروف(١) .

* قوله : (كتاب التوحيد) : المراد بالتوحيد : توحيد العبادة(٢) ، وكل

بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) كما فعل المصنِّف هنا ، وكما فعل إمام المحدثين ، الإمام البخاري رحمه الله في « صحيحه » ، وغيرهما من علماء المسلمين يفتتحون المؤلفات والرسائل بالبسملة . فالكتاب الذي لا يُبدأ بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ناقص ومخالف لأدب الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

لأن بعض الكتَّاب الآن ، أو بعض المؤلفين يستبعدون البسملة من كتبهم ، وبعضهم يكتبها في أول الغلاف بعيدة عن أول الكلام . فالسُّنَّة أن تُكتب في بداية الكلام .

(١) وهو قوله ﷺ : « كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله فهو أبتر – أو قال : أقطع »(*) .

وفي رواية : « فهو أجذم » : أي ناقص البركة ، والحديث قالوا فيه مقال ، ولكن يكفي ما جاء في القرآن ، وفي سنة النبي ﷺ في كتبه ورسائله ، ويكفي ما صنعه العلماء .

(٢) لأن أقسام التوحيد ثلاثة :

القسم الأول : توحيد الربوبية ، وهو إفراد الله ﷻ بأفعاله مثل : الخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير ، فكل آية في القرآن تتحدث عن خلق السموات والأرض ، وعن أفعال الله ﷻ ، فهي في توحيد الربوبية .

القسم الثاني : توحيد الألوهية : وهو إفراد الله ﷻ بأفعال العباد التي يتقربون بها إلى الله . ويسمى توحيد العبادة ، وتوحيد القصد والطلب ، كلها أسماء بمعنى واحد ، وكل آية في القرآن تتحدث عن العبادة : كالأمر بالدعاء أو الاستغفار أو الاستعاذة ، فهي آية في توحيد الألوهية .

القسم الثالث : توحيد الأسماء والصفات : وهي أن نثبت لله ﷻ ما أثبته لنفسه من أسمائه وصفاته ، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، وكل آية تتحدث عن أسماء الله ﷻ وصفاته ، فإنها في توحيد الأسماء والصفات ، وكل هذا موجود في القرآن الكريم .

(*) أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » ١٤ / ٣٢٩ (٨٧١٢) ، وقال شعيب الأرنؤوط : « إسناده ضعيف ؛ لضعف قرة بن عبد الرحمن ، وللاضطراب الذي وقع في إسناده ومتنه » . وللحديث طرق كثيرة ، وألفاظ مختلفة جمعها الشيخ الألباني رحمه الله في « إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل » ١ / ٢٩ – ٣٢ (١ ، ٢) وبيَّن ضعفها واضطرابها ، فلتراجع هناك .

=

فالذين يقتصرون على توحيد الربوبية إنما أخذوا طرفاً وتركوا ما هو أهم ؛ لأن بعض الناس - خصوصاً علماء الكلام والمنطق - يقولون : التوحيد هو توحيد الربوبية فقط ، وينكرون تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام ، فعندهم التوحيد قسم واحد .
إذا قلنا : التوحيد قسم واحد ، فبماذا نفسر هذا القسم ؛ هل تريدون توحيد الربوبية فقط ؟ أو توحيد الإلهية فقط ؟ أو توحيد الأسماء والصفات فقط ؟ هذا مجمل .
ثم أيضاً إذا قلنا : التوحيد قسم واحد ، فمعناه أنا جحدنا بقية الأقسام ، ونحن لم نأت بتقسيم من عندنا ، هذا مستوفى ومستقرأ من الكتاب والسنة .
والمقصود من هذه الأنواع الثلاثة : هو توحيد الألوهية - توحيد العبادة - ؛ لأن الرسل عَلَيهِمُ السَّلَامُ من أولهم إلى آخرهم جاءوا بالدعوة إليه ، كلهم يأمرون الناس بعبادة الله ﷻ ، وينهون عن الشرك .
أما توحيد الربوبية فإن العالم مقرُّون به ، لم يجحده أحد، حتى المشركين في عهد النبي ﷺ، كأبي جهل ، وأبي لهب وصناديد الشرك يُقرُّون به ، كما ذكر الله ذلك في القرآن : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [سورة لقمان : ٢٥] . ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [سورة المؤمنون: ٨٦ - ٨٧] ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة يونس : ٣١] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [سورة الزخرف: ٨٧] .

يعترفون بتوحيد الربوبية ، ولذلك الرسل لم يتعرضوا له ؛ لأنهم يقرون به .
وأيضاً هو لا يكفي ، لو أقروا به وحده ولا يدخل الإنسان في الإسلام ، وينجيه من النار ؛ ولذلك قاتل النبي ﷺ المشركين ، وهم يعترفون بتوحيد الربوبية ، فدل على أنه لا يكفي ؛ بل لابد من توحيد الألوهية .
فإن قلت : فلماذا ذكر الله ﷻ توحيد الربوبية في القرآن كثيراً ؟ نقول : هذا لأجل الاستدلال به على توحيد الألوهية ، لا على طلب الإقرار به من الناس ، ومن باب الإلزام للمشركين أنكم كما تقرون بتوحيد الربوبية يلزمكم أن تقروا بتوحيد الألوهية وتخلصوا العبادة لله وحده ، وتتركوا عبادة ما سواه .
ولذلك يُذكر توحيد الربوبية ، ثم يأتي بعده مباشرة توحيد الألوهية . أو يُذكر توحيد
=

رسول يفتتح دعوته لقومه بهذا التوحيد[1] ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾

الألوهية ثم يأتي بعده مباشرة ذكر توحيد الربوبية من باب الاستدلال ، وإقامة البرهان .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [سورة البقرة : ٢١] هذا توحيد الألوهية . ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ... ﴾ إلى آخر الآية من سورة البقرة : ٢٢ . هذا توحيد الربوبية ، ذكره برهاناً على توحيد الألوهية.

ثم قال في آية أخرى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٣] .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٤] . هذا دليل على توحيد الألوهية ، لما قال : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أقام البرهان على ذلك ، فقال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ... إلخ الآية .

(١) كل رسول يفتتح دعوته بأمر الناس بعبادة الله ﷻ ، ولا يأمرهم بالإقرار بالربوبية ؛ لأنهم مقرُّون بها ، إنما يأمرهم بعبادة الله الذي يعترفون بربوبيته ﷻ. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٩] ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [سورة الأعراف : ٦٥] ، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [سورة الأعراف: ٧٣] .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [سورة الأعراف : ٨٥] ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ١٦].

فكل الأنبياء يأمرون أممهم بعبادة الله ، بتوحيد الألوهية ، وينهونهم عن الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] .

هذه الآية فيها أن جميع الرسل جاءوا بالأمر بعبادة الله ، وهو توحيد الألوهية ، ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾: وهو الشرك، وهو عبادة غير الله ﷻ، كما يأتي في الكلام على الآية الكريمة .

[سورة المؤمنون: ٣٢] كما في سورة الأعراف وهود وغيرهما .

❁ وقوله: وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١) [سورة الذاريات : ٥٦] ، دلت الآية على أن الله تعالى خلق الخلق لحكمة عظيمة ، وهي القيام بما وجب عليهم من عبادته وحده ، وبترك عبادة ما سواه ، فَفَعل الأول وهو خَلْقُهم ، ليفعلوا هم الثاني وهي العبادة(٢) .

(١) (وقولِ) : معطوف بالجر على كتاب التوحيد ، أي (كتابُ التوحيدِ وقولِ الله تعالى) ؛ لأن (التوحيد) : مجرور بالإضافة .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ بدأ المصنف الباب بهذه الآية ، وفيها حصر بـ« ما » و« إلا » ، وهذا الأسلوب يسميه البلاغيون : أسلوب الحصر ، أي : لم أخلقهم لشيء من الأشياء سوى العبادة ، فدل على أن توحيد العبادة - توحيد الألوهية - هو الأصل الذي خلق الله الخلق من أجله ، وكفى بذلك في بيان أهمية توحيد الألوهية .

فهذه الآية فيها بيان الحكمة من خلق الجن والإنس ، وهي العبادة ، فمنهم من عبد الله ﷻ ، ومنهم من عبد غيره ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ(*) وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] .

فالأصل أن الله خلقهم للعبادة ، فمن قام بذلك قام بالواجب ، واستحق الجزاء من الله ﷻ ، ومن أخلَّ بذلك استحق العقوبة من الله ﷻ ، لأنه فعل غير ما خُلق له .

(٢) توحيد الربوبية هو أفعاله ﷻ ، وتوحيد الألوهية هو أفعال العباد ، فَفَعل الله ﷻ الأول ، وهو الخَلْق ، ليفعلوا هم الثاني ، وهو العبادة .

(*) سئل شيخنا الشيخ صالح الفوزان - حفظه الله - عن معنى قوله تعالى : ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ فأجاب : يعني وفقه الله ، فالفعل فعل العبد ، وهو مخير في ذلك ، إن شاء فعل ، وإن شاء ترك ، والهداية والتوفيق من الله ﷻ ، والله لا يوفق إلا من كان في قلبه إرادة للخير ، ومحبة له ، فإذا علم الله من قلبه الرغبة في الخير والإقبال عليه وفقه الله ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ . وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ . وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [سورة الليل : ٥ - ١٠] فالسبب من العبد ، والتوفيق من الله ﷻ . أهـ .

قال شيخ الإسلام : والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة .

وقال أيضاً رحمه الله : والعبادة اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته ، وكمال الذل لله ونهايته(١) ، فالحب الخليّ عن ذل ، والذل الخليّ عن حب لا يكون عبادة ،

(١) العبادة في اللغة : التذلل والخضوع ، يقال : طريق معبَّد يعني مذلل للوطء بالأقدام.
فالعبادة هي غاية الذل لله عز وجل مع غاية الحب .
قال الإمام ابن القيم(*) رحمه الله :

وعبادةُ الرحمن غايةُ حبه مع ذلِّ عابده هما قُطْبانِ
وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ العبَادَةِ دَائِرٌ ما دَارَ حتَّى قَامتِ القُطْبَانِ
ومَدَارُهُ بالأَمْرِ أَمْرِ رَسُولِهِ لا بِالهَوَى والنَّفْسِ والشَّيْطَانِ

فهذه هي العبادة : غاية الذل مع غاية الحب ، فمن أحب شيئاً ولم يذل له لم يكن عابداً له ، كحب الإنسان للطعام والشراب والزوجة والصديق لا يُسمى عبادة ؛ لأنه ليس معه ذل .
وكل من ذلَّ لشيء ولم يحبه لم يكن عابداً له ، كخوف الإنسان من الظلَمَة والجبابرة وذله لهم لا يُسمى عبادة ، لأنه ليس معه حب . هذا تعريف للعبادة وهو : اسمٌ يجمع كمال الحب لله ونهايته ، وكمال الذل لله ونهايته(**) .
والتعريف الأول أشمل وهو : العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة(***) .
هذا التعريف ما ترك شيئاً ، كل ما يحبه الله من الأقوال الظاهرة : أي أقوال اللسان مثل : التسبيح والتهليل ، والتكبير ، وتلاوة القرآن ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(****) .
والأعمال الظاهرة : كالصلاة والصيام والحج والجهاد وصلة الأرحام . والأعمال الباطنة وهي الأفعال القلبية مثل : الذل والخشوع ، والخوف والرغبة والرهبة ، والتوكل .
فالعبادة تكون على اللسان ، والقلب ، والجوارح ، فكل بدن الإنسان مشغول بعبادة الله جل جلاله ظاهراً وباطناً ؛ لأنه عبدٌ لله ، خُلق للعبادة .

(*) الكافية الشافية ص ٤٣ (٥١٤ - ٥١٦) .
(**) مجموع الفتاوى ١٠ / ١٩ .
(***) مجموع الفتاوى ١٠ / ١٤٩ .
(****) والأقوال الباطنة : وهي نية القلب وقصده .

وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين(١) .

وقال أيضاً : وأما ما خُلقوا له من محبة الله تعالى ورضاه فهو إرادته الدينية ، فذلك مذكور في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٢) [سورة الذاريات : ٥٦] .

قوله : وقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾(٣) [سورة النحل : ٣٦] .

---

(١) فالحب الذي ليس معه ذل وخضوع لا يسمى عبادة ، والذل الذي ليس معه حب لا يُسمى عبادة ، وإنما العبادة التي تجمع كمال الحب مع كمال الذل .
أما الذين يقولون : إن العبادة هي المحبة فقط - كما تقوله الصوفية - ويقولون : نحن لا نعبد الله خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته ، وإنما نعبده لأننا نحبه فقط ، هذا باطل وضلال ، فالعبادة ليست هي المحبة فقط ؛ بل لابد أن يكون معها ذل ، وانقياد ، وفعل لأوامر الله ، وترك لنواهيه ، حتى تكون عبادة صحيحة .

(٢) قوله : ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ هذه إرادة دينية ، أراد الله منهم أن يعبدوه ، والإرادة الدينية قد تقع وقد لا تقع ، ولو أراد الله من العباد إرادة كونية أن يعبدوه ما تخلَّف أحد عن العبادة ، ولكنه أراد ذلك منهم شرعاً ، والإرادة الشرعية الدينية قد تقع وقد لا تقع .

(٣) هذه الآية الثانية في كتاب « التوحيد » ، فقوله : ﴿ وَلَقَدْ ﴾ اللام : لام القسم ، و﴿ قد ﴾ : حرف تحقيق ، وتقرير الكلام : والله لقد بعثنا . ولذا يسمون هذه اللام باللام الموطئة للقسم .
﴿ بَعَثْنَا ﴾ : أرسلنا ، والبعث هو الإرسال .
﴿ فِى كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ : أي في كل جيل من الناس ، فالله ﷻ لم يترك الناس بدون رسل ، فكل جيل وأمة من الناس جاءهم رسول من الله ، كما جاء لقوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم شعيب ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وكما جاء محمد ﷺ إلى الثقلين : الجن والإنس ، قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [سورة فاطر : ٢٤] . ولما ذكر الله ﷻ الرسل في سورة النساء قال : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [سورة النساء : ١٦٥] . وقال ﷻ : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ =

بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا . رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [سورة النساء: ١٦٣ - ١٦٥] .

فرسالات الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ باقية ومتتابعة من لدن نوح ﷺ إلى محمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ أي : متتابعة ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ ﴾ [سورة المؤمنون : ٤٤] .

فالخلق بلغتهم دعوة الرسل كلهم ، لم يبق أحد لم تبلغه دعوة الرسل(*) إلا المعاندين والمكابرين والجاحدين ، هؤلاء لهم شأن آخر .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ بيان ما جاءت به الرسل : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ : أي الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك . فقوله : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ : هذا الأمر بالتوحيد ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ : هذا النهي عن الشرك .

والطاغوت : مأخوذ من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد ، والخروج عن الحق . والمراد بالطاغوت : كل ما عُبد من دون الله ﷻ وهو راض بالعبادة . فإن لم يكن راضياً بذلك - كما عُبد بعض الرسل والصالحين - كانت عبادته عبادة للشيطان لأنه هو الذي أمر بذلك .

فالطاغوت قد يُراد به المعبود نفسه إذا كان راضياً بذلك وقد يُراد به الشيطان إذا كان المعبود غير راض بذلك ؛ لأن الشيطان هو الذي أمر بعبادة غير الله ﷻ .

فكل شرك هو عبادة للطاغوت ، فدل ذلك على أن جميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جاءوا بالأمر بعبادة الله تعالى ، والنهي عن الشرك ، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله) ؛ لأنها تجمع بين النفي والإثبات : نفي الشرك ، وإثبات التوحيد .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - عمن لم تبلغه الدعوة ما حكمه ؟ فأجاب : هذا فرض نادر أن أحداً ما بلغته الدعوة ، لكن لو قُدِّر ذلك - لكونه يعيش منقطعاً عن العالم - فإنه يُعامل معاملة المشرك من حيث دفنه في غير مقابر المسلمين ، وعدم الصلاة عليه ، وأما في الآخرة فحكمه إلى الله ﷻ يحكم فيه بما شاء . أ.هـ

يخبر تعالى أنه بعث في كل قرن وطائفة من الأمم رسولاً[(١)] يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وينهاهم عن عبادة ما زين لهم الشيطان ، وأوقعهم فيه من عبادة ما سواه ، فمنهم من هدى الله ، ووحّد الله تعالى بالعبادة ، وأطاع رسله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فأشرك مع الله غيره بعبادته[(٢)] ، ولم يقبل هدى الله الذي جاءت به الرسل ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[(٣)] [سورة الأنبياء : ٢٥] . وهذا التوحيد الذي خلقوا له ودعوا إليه هو توحيد الإلهية ، توحيد القصد والطلب[(٤)] . وأما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وتوحيد

فلا يكفي أن الإنسان يعبد الله ، بل لابد أن يجتنب الطاغوت ، وإن مات فإن عبادته تبطل إذا خالطها الشرك .

وكذلك لابد أن يتبرأ من الشرك ، ومن المشركين ، ويعاديهم في الله ﷻ ، أما إذا أقرّهم على ما هم عليه من الشرك ، ولم يتبرأ منهم ، فلا ينفعه التوحيد .

فقوله تعالى : ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ : يشمل ترك عبادة الطاغوت ، ويشمل البراءة أيضاً ممن يعبد الطاغوت .

(١) القرن : الأمّة ، وهو الجيل من الناس . والطائفة : القطعة من البشر .

(٢) مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] ، فهذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، فالناس خلقهم الله لعبادته ، ولكنهم انقسموا إلى قسمين : منهم من عبد الله سبحانه ، ومنهم من أشرك بالله ﷻ ، مما يدل على أن الإرادة الشرعية لا يلزم وقوعها ، قد تقع وقد لا تقع ، فلا يقال : إذا كان الله خلق الخلق لعبادته ، فلماذا حصل الشرك ؟ فنقول : هذه حكمة الله ﷻ ، من أجل الابتلاء والامتحان ، وليترك الاختيار للبشر ، فالإنسان يشرك بإرادته واختياره فيستحق العقاب ، أو يوحّد ويخلص العبادة لله بإرادته واختياره فيستحق الجنة .

(٣) هذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا ... ﴾ تماماً ، فهناك قال : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ ، وهنا قال : ﴿ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ .

(٤) وليس هو توحيد الربوبية ؛ لأن المشركين مقرُّون بتوحيد الربوبية ، ولكن إقرارهم به ،

=

الأفعال فهو توحيد العلم والاعتقاد[١]، وأكثر الأمم قد أقروا به لله[٢].

وأما توحيد الإلهية فأكثرهم قد جحدوه، كما قال تعالى عن قوم هود لما قال لهم: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [سورة المؤمنون: ٣٢]، ﴿ قَالُوٓاْ

واقتصارهم عليه لا يكفيهم، ولا يخرجهم من الكفر. فأبو لهب، وأبو جهل، وصناديد المشركين يقرون بتوحيد الربوبية؛ بل إنهم في حال الشدة يخلصون في توحيد الألوهية، ويخلصون الدعاء لله ﷻ.

(١) ينقسم التوحيد إلى قسمين على سبيل الإجمال:

القسم الأول: التوحيد الخبري العلمي: وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، فكل الآيات التي تخبر عن الله وأفعاله، وأسمائه وصفاته فهي في التوحيد الخبري العلمي.

والقسم الثاني: التوحيد الطلبي القصدي، وهو توحيد الألوهية، وكل الآيات التي تأمر بعبادة الله ودعائه، والتقرب إليه فهي في توحيد الطلب والقصد.

فعلى هذا التقسيم يكون توحيد الأسماء والصفات داخلاً في توحيد الربوبية، وإنما فُصل وصار قسماً ثالثاً لما جاءت الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة الذين ينفون الأسماء والصفات، فجُعل قسماً ثالثاً للرد عليهم، وإلا فهو داخل في توحيد الربوبية.

(٢) أكثر الأمم قد أقروا بتوحيد الربوبية، فقد أقرَّ به المؤمن والكافر، ومن جحده في الظاهر كفرعون عندما قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [سورة النازعات: ٢٤]. وقال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [سورة القصص: ٣٨]. هذا من باب المكابرة، وإلا فهو يقر ويعترف في نفسه وقلبه بتوحيد الربوبية، وأنه لا يستحق العبادة أحد إلا الله ﷻ، ولهذا قال له موسى ﷺ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٢] فموسى ﷺ حلف أن فرعون يعلم أن الربوبية والإلهية لله ﷻ، ولكنه عاند وكابر في الظاهر إبقاءً على رئاسته وملكه بزعمه، فالذين جحدوا في الظاهر وهم قلة، هم معترفون به في الباطن، كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [سورة النمل: ١٤]. ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا ﴾: أي في الظاهر، ﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾: أي في الباطن، ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾: أي من أجل الظلم، والعلو على الناس.

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ [سورة الأعراف : ٧٠] ، وقال مشركو قريش : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[١] [سورة ص : ٥] . وهذه الآية وهي قوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] تبين معنى الآية التي قبلها[٢] وكذلك الآيات

(١) الأمم الكافرة عرفت مقصد الرسل ، وهو أنهم إنما جاءوا يطلبون توحيد الألوهية ، ولذلك قالوا : ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [سورة هود : ٦٢] . ذهبوا للعبادة ، ما قالوا : توحيد الربوبية . ولما قال الرسول ﷺ لقريش : « قولوا لا إله إلا الله »[*] قالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [سورة ص : ٥] ، فهموا أن معنى (لا إله إلا الله) : إفراد الله بالعبادة ، وليس إفراد الله بالربوبية .

فالمشركون يعلمون معنى (لا إله إلا الله) ، وعبَّاد القبور اليوم يدَّعون الإسلام ، وهم لا يعلمون معنى (لا إله إلا الله) ؛ بل علماؤهم المتبحرون في الفقه ، والنحو ، والتفسير ، والحديث لا يعلمون معنى (لا إله إلا الله) ، ولذلك لا ينكرون عبادة القبور ؛ بل قد يمارسونها وهم علماء .

والنبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن ، قال : « إنك تأتي قوماً أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله »[**] ، فقوله : « أهل كتاب » : أي أهل علم ، فدل على أن من العلماء من يحتاج إلى الدعوة إلى التوحيد ، وهذا من العجب العجاب .

(٢) وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، وأنه خلقهم لعبادته ، فمنهم من قام بهذا الواجب ، ومنهم من أخلَّ به ؛ لأن توحيد الألوهية من أفعال العباد التي يفعلونها باختيارهم وإرادتهم ومشيئتهم .

(*) أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » ٢٥ / ٤٠٥ (١٦٠٢٣) ، وقال الأرنؤوط : صحيح لغيره .

(**) أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » ٣ / ٤٩٨ (٢٠٧١) بلفظ : « فادعهم إلى ... » وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، وأخرجه أبو داود في « سننه » ٢ / ٢٤٢ (١٥٨٤) وغيره ، وصححه الألباني ، والحديث مخرج في « الصحيحين » بلفظ : « إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله » صحيح البخاري ٢ / ٥٢٩ (١٣٨٩) ، صحيح مسلم ١ / ٥١ (١٩) .

بعدها ، وأن المراد بالعبادة التي خُلقوا لها : هي العبادة الخالصة التي لم يلبسها شرك بعبادة شيء سوى الله كائناً ما كان(١) ، فلا تصح الأعمال إلا بالبراءة من عبادة كل ما يُعبد من دون الله(٢) .

والله تعالى خلق الثقلين ليعبدوه ، فمنهم من فعل ، ومنهم من أشرك وكفر ، كما قال تعالى في هذه الآية : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ﴾(٣) [سورة النحل : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ

---

(١) فلا يكفي أن الإنسان يعبد الله فقط ، بل لابد أن يتجنب الشرك ، فلو صلى وصام ، وحج واعتمر ، وفعل العبادات كلها ، لكنه يدعو مع الله غيره ، فإن جميع أعماله تصبح هباءً منثوراً ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [سورة الزمر : ٦٥] ، فلا تنفع العبادة إلا مع تجنب الشرك .
ومن هنا يجب على المسلمين كما يتعلمون التوحيد ، أن يتعلموا الشرك بأنواعه وأساليبه حتى يتجنبوه ، وإلا فقد يقع الإنسان في الشرك وهو يظن أنه يعبد الله ، كما قال الله تعالى عن كفار قريش : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [سورة الزمر : ٣] ، فالجهل بالشرك خطير جداً .
والذين يقولون : علّموا الناس التوحيد ، وطريقة أهل السنة والجماعة ، ولا تُعلّموهم الشرك ، والفِرق والطرق الضالة ، هذا ضلال ، بل لابد من معرفة الحق ، ومعرفة الباطل ، من أجل أن يسلك الإنسان طريق الحق ، ويتجنب طريق الباطل ، حتى لا يقع فيه وهو يظن أنه حق .

(٢) لابد من إفراد الله بالعبادة ، وترك عبادة ما سواه ، والبراءة من الشرك وأهله ، وبغضهم . بعض الناس يقولون : اتركوا الناس على عقائدهم ، وعلى ما هم عليه من عبادة القبور ، ومن التصوف والبدع ، ومن سائر الفرق ، واجمعوهم على اسم الإسلام فقط ، نقول : هذا غلط وغش ، وخديعة ومكر ، لا يجوز الجمع بين المتناقضات ؛ بل لابد من بيان الحق ، رضي من رضي ، وسخط من سخط ، فمن أراد الله له الهداية قَبِل ، ومن أراد الغواية والمكابرة قامت عليه الحجة ، وبرئت منه الذمة .

(٣) هذا يدل على أن الهداية بيد الله ﷻ ، فلا يكفي أن الإنسان تعلّم وعرف ، بل لابد من
=

إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة النساء : ٦٤] ، بيَّن أن حكمة الرب في خلق الجن والإنس لا تقتضي أن كلاً يفعل ما خلق له ، وأُرسلت الرسل لأجله ، ولهذه الحكمة أهلك الله من لم يعبده وحده ، ولم يقبل ما جاءت به رسله ، وشرع قتالهم لنبيه ﷺ وأتباعه ، فمنهم من أطاع وهم الأقلون ، ومنهم من عصى وهم الأكثرون(١) .

وهذا التوحيد هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه(٢) ،

هداية الله ﷻ له ، وإلا فكثير من المشركين عندهم علم ومعرفة ، لكن لم يحصلوا على الهداية والتوفيق من الله ﷻ .

(١) خلق الله ﷻ الخلق لعبادته ، هذا هو الأصل ، فمن خرج عن هذا الأصل ، وعبد غير الله صار عبداً للشيطان ، واستحق العقوبة من الله .

والذين يقولون الآن بحرية الأديان والعقائد ، قولهم هذا باطل ، فلا يوجد حرية في الأديان والعقائد ؛ لأن الدين واحد ، والعقيدة واحدة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وما خالفها فهو كفر وضلال ، ولهذا يقول العلامة ابن القيم(*) رحمه الله :

هَرَبوا من الرِّقِّ الذي خُلِقُوا له ... فبلُوا برقِّ النَّفسِ والشَّيطانِ

فمن أبى أن يعبد الله ابتلي بعبادة غيره ﷻ من الشهوات والمحرمات ، والطواغيت ، وغير ذلك ، وأذله الله ﷻ ، وجعله عبداً لعبيده ، عقوبة منه سبحانه ، فهو إما عبدٌ لله ، وإما عبدٌ للشيطان ، ولابد من هذا .

(٢) التوحيد هو الإسلام ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] .

﴿ ٱلدِّينَ ﴾ : التوحيد ، فلا يقبل الله إلا التوحيد ، وكل الأديان المخالفة للتوحيد مردودة كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥] .

فالإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله .

هذا هو الإسلام الذي جاء به جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم .

(*) انظر : الكافية الشافية ص ٢٥٩ (٤٩٥٢) .

كما قال الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسف ﷺ(١) : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ﴾(٢) [سورة يوسف : ٤٠] وهذا هو الدين الذي

(١) الكريم يوسف، ابن الكريم يعقوب، ابن الكريم إسحاق، ابن الكريم إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فيوسف ﷺ من سلسلة أنبياء، وهذا هو الكرم الصحيح.

(٢) لما دخل يوسف ﷺ السجن باشر الدعوة إلى الله ﷻ، وهكذا أهل العلم والصلاح دائماً يحملون همَّ الدعوة إلى الله ﷻ، فينتهزون الفرص في السجن، أو خارجه، أو في المجتمعات، وفي كل مكان. فلما دخل يوسف ﷺ السجن وجدهم يعبدون غير الله ﷻ، ولما استفتوه في الرؤيا، كما قصَّ الله تعالى ذلك في قوله ﷻ : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٣٦].

فلم يبادر ﷺ في الفتوى، حتى دعاهم إلى التوحيد، ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ [سورة يوسف : ٣٧]، فذكر المؤهِّل، وهو العلم الذي علمه الله إياه، ولم يغتر بنفسه، وإنما قال : ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ ﴾ فأثنى على الله ﷻ، والسبب : ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ . وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٣٧ - ٣٨].

ثم بدأ بالدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك، فقال : ﴿ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [سورة يوسف : ٤٠]. وهكذا دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ثم قال : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [سورة يوسف : ٤٠] هذا هو الشاهد كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾، فالأمر له سبحانه، هو الذي يأمر وينهى، وقد أمركم أن لا تعبدوا إلا إياه، فيلزمكم الامتثال لأمر الله تعالى : ﴿ أَمَرَ ﴾ : هذا أمر شرعي ديني، متروك لاختيار الناس ؛ فالناس يفعلون الشرك باختيارهم، ويفعلون التوحيد باختيارهم، هي أعمالهم.

بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وأمر الرسل أن يقيموه ، كما قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [سورة الشورى : ١٣] .

وقال لنبيه محمد ﷺ : ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ [سورة الرعد : ٣٦] ، فأمره أن يعبده وحده وأن يدعو الأمة إلى ذلك ، والقرآن كله في هذا التوحيد ، وبيانه وجزائه ، والرد على من جحده ، كما قال تعالى : ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ . يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة المائدة : ١٥، ١٦] .

وفي حديث معاذ الذي رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، قال : قلت : يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ، ويباعدني عن النار ، فقال : « سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان » ، وذكر الحج ، ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر ، وعموده ، وذروة سنامه » ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد »[1] .

---

(١) هذا حديث معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(*) ، أنه سال النبي ﷺ عن عمل يقربه من الجنة ويباعده من

(*) أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » ٣٦ / ٣٤٤ (٢٢٠١٦) ، وقال الأرنؤوط : صحيح بطرقه وشواهده ، وأخرجه الترمذي في « سننه » ٥ / ١٣ (٢٦١٦) ، وقال : حديث حسن صحيح ، ولم أجده عند أبي داود ، والله أعلم .

=

النار ، فقال له النبي ﷺ : « سألت عن عظيم » : لأن الذي يبعد عن النار ، ويقرب من الجنة ، هذا أمر عظيم ، وهو أهم ما يسأل عنه ويعتنى به .

فأمر التوحيد ومعرفته ، ومعرفة الشرك هذا أهم ما يسأل عنه المسلم ؛ لأجل أن يستقيم عليه ، وفي هذا رد على الذين يهونون من شأن التوحيد ، ويقولون : الناس كلهم مسلمون ، لا تتعرضوا لذكر التوحيد ، خشية أن تنفروهم ، اتركوا الناس وعقائدهم ، ادعوهم إلى اجتماع الكلمة ، وهذا أمر عجيب ، كيف يجتمعون والعقيدة متفرقة ؟ هذا لا يمكن . لا يمكن الجمع بين ضدين : بين مشرك وموحد ، بين مبتدع وسني ، فهؤلاء يهونون من شأن التوحيد ، والدعوة إليه . ويقولون : يجب الاهتمام بجمع شمل المسلمين ، نقول : نعم جمع شمل المسلمين أمر مهم وطيب ، لكن ما الذي يجمع شملهم ؟ لا يجمع شملهم إلا التوحيد ، وترك الشرك .

ما الذي جمع شمل صدر هذه الأمة بعد أن كانوا قبائل متفرقة ، وأجناساً مختلفة ، فجعلهم أمة واحدة ، وإخوة متحابين ؟

التوحيد ، (لا إله إلا الله) هو الذي جمع الله به القلوب ، لما أخلصوا العبادة لله ﷻ ، وتركوا الشرك جمع الله قلوبهم على الهدى .

« وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه » : من فعل السبب ، وأقبل على الله بقلبه ، سهَّل الله له هذا الأمر العظيم ، ويسَّر له ما أراد .

« تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » : هذا هو معنى الشهادتين ؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله تدخل فيها شهادة أن محمداً رسول الله ، وهذا هو الركن الأول من أركان الإسلام .

« وتقيم الصلاة » : أي الصلوات الخمس ، بأن تأتي بها على الوجه المشروع ، بشروطها ، وأركانها ، وواجباتها ، وسننها ، والخشوع فيها ، هذا معنى إقامة الصلاة ؛ أما مجرد هيئة الصلاة من ركوع وسجود وقيام وجلوس ، فليس ذلك إقامة للصلاة ، فلم يقل النبي ﷺ : « وتصلي » ، بل قال : « وتقيم الصلاة » ، وهو الذي جاء الأمر به في القرآن الكريم : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [سورة البقرة: ٤٣] .

وإقامة الصلاة على نوعين :

- إقامة ظاهرة : بالإتيان بمشروعاتها من شروط ، وأركان ، وواجبات .
- إقامة باطنة : بخشوع القلب فيها ، وإقباله على الله ﷻ .

=

فدل على أن الإسلام هو التوحيد(١)، والفرائض من حقوقه(٢)، وقد أجمع الفقهاء على أن الإسلام شرط لصحة الصلاة وغيرها من الأعمال(٣)،

« وتؤتي الزكاة »: التي شرعها الله ﷻ في المال للفقراء والمساكين.

« وتصوم رمضان »، وذكر الحج: هذه أركان الإسلام الخمسة، فإذا أقامها المسلم، فإنه يقيم ما عداها من باب أولى، ولا تقبل بقية الأعمال إلا مع إقامة أركان الإسلام، فمن أخلَّ بأركان الإسلام، أو ببعضها فإنه لا تنفعه بقية الأعمال، ولذلك وجَّه النبي ﷺ إلى إقامة هذه الأركان الخمسة.

ثم قال ﷺ: « ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه »؟ قال: بلى يا رسول الله: وهذه زيادة فائدة.

قال: « رأس الأمر الإسلام »: وهو إخلاص العبادة لله ﷻ، فالتوحيد هو رأس الأمر، وهو الأساس.

« وعموده الصلاة »: عمود الإسلام الصلاة، فكما أن البيت لا يقوم إلا على عمود، فكذلك الإسلام لا يقوم إلا على الصلاة، فإذا فُقدت الصلاة لم يقم الإسلام، وهذا يدل على أهمية الصلاة.

« وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله »: هذه أعلى، فإذا تمت هذه الأمور كلها، جاء الجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، ودحض الشرك وأهله.

(١) كما في قوله ﷺ: « رأس الأمر الإسلام »، وفسره في أول الحديث: « تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً »، فالإسلام هو إسلام الوجه لله ﷻ قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة: ١١٢].

هذا هو التوحيد، وهو الإخلاص، وإسلام الوجه: يعني القصد والنية في القلب لله ﷻ.

(٢) أي: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وبقية الأعمال من حقوق التوحيد، ومكملاته، لكن أعمال بدون توحيد لا فائدة منها، ولا قيمة لها، وإسلام بدون صلاة لا حقيقة له، ولا فائدة منه.

(٣) لا تقبل الصلاة ولا غيرها من الأعمال إلا بالإسلام - يعني بالتوحيد -، وبدون التوحيد لا تقبل الأعمال، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾. وقال تعالى:
=

وهو مقتضى الشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمداً رسول الله[١] .

فمعنى شهادة أن لا إله إلا الله : نفي الشرك والبراءة منه وممن فعله ، وإخلاص العبادة لله وحده[٢] ، والإيمان بالرسول وطاعته[٣] .

وهو معنى الآية الثالثة[٤] ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[٥] [سورة الإسراء : ٢٣] : أي أمر ووصّى ، فقوله : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ ﴾ : فيه

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [سورة إبراهيم : ١٨] ، وقال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾ [سورة النور : ٣٩] فالأعمال بدون توحيد لا قيمة لها ، ولا فائدة منها .

(١) لأن مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله : إخلاص العبادة لله ﷻ . ومقتضى شهادة أن محمداً رسول الله : متابعته ، والعمل بشرعه ، وترك البدع والمحدثات .
فـ(لا إله إلا الله) : تنفي الشرك . و(محمد رسول الله) : تنفي الابتداع في الدين .

(٢) لا يكفي نفي الشرك ، حتى تتبرأ منه ، ومن أهله ، فلا تحبهم ، ولا تناصرهم ، ولا تواليهم ؛ لأنهم أعداء الله ﷻ ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [سورة الممتحنة : ١] .

(٣) الإيمان بأنه رسول الله ، وهذا يقتضي طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، وترك ما نهى عنه وزجر ، وألا يُعبد الله إلا بما شرع . وهذا هو معنى شهادة أن محمداً رسول الله ، فهي ليست مجرد لفظ يُقال باللسان ؛ بل لابد من أن تشتمل على هذه المعاني العظيمة ، حتى تكون شهادة صحيحة .

(٤) بمعنى أن التوحيد هو معنى الآية الثالثة التي ذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ في الباب .

(٥) ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ : أي أمر ووصى ، وليس معناها : حكم وقدّر - كما يقوله أهل الضلال - ؛ لأن الله ﷻ لو قضى وقدّر أن لا يُعبد إلا إياه ما أشرك أحد من الخلق ؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يخالف قضاء الله وقدره .
أما الأمر : فمن الناس من يفعله ويمتثل ، ومنهم من يخالفه ، وكذلك التوحيد .

=

معنى (لا إله) ، وقوله : ﴿ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ فيه معنى (إلا الله)[(١)] ، وهذا هو معنى كلمة الإخلاص[(٢)] .

ومعنى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ : أي أمر أمراً شرعياً ، ووصى ﷻ ألا يُعبد إلا إياه .

والقضاء في اللغة يطلق على عدة معاني : منها الأمر - كما في هذه الآية - ، ومنها : الخبر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [سورة الإسراء : ٤] ، يعني أخبرناهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٦٦] ، يعني : أخبرناهم بذلك .

ومنها : الفراغ ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [سورة النساء : ١٠٣] ، يعني : فرغتم ، وقوله : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ [سورة فصلت : ١٢] ، يعني : فرغ من خلقهن .

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ : أي تخلصوا العبادة لله ﷻ وإذا جاءت ﴿ لا ﴾ و﴿ إِلَّآ ﴾ فمعناها الحصر ، وهذا فيه حصر العبادة لله ﷻ ، ونفيها عما سواه ، وهذا هو الذي أمر الله به في كتابه ، وسنة رسوله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [سورة البينة : ٥] ، وهذه الآية تفسر قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ بأن المراد بالقضاء : الأمر .

(١) أي أن فيها أسلوب حصر بـ(لا) و(إلا) ، مثل : (لا إله إلا الله) ، والحصر هو إثبات الحكم للمذكور ، ونفيه عما سواه .

(٢) كلمة الإخلاص هي (لا إله إلا الله) ، سُميت بذلك لأن معناها : إخلاص العبادة لله ﷻ ، وليست مجرد كلمة تقال باللسان دون معرفة معناها ، ولا العمل بمقتضاها ؛ بل هي كلمة عظيمة لها معنى ، ولها مقتضى .

لما سمع المشركون قول الرسول ﷺ : « قولوا لا إله إلا الله » ، قالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ فهموا أن معنى (لا إله إلا الله) : إفراد الله بالعبادة ، وترك عبادة الأوثان ، والأصنام ، والأولياء ، والصالحين ، فهموا هذا وهم مشركون ، لكنهم ، لا يريدون ذلك بل يريدون البقاء على عبادة الأصنام كما أخبر الله ﷻ عنهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [سورة الصافات : ٣٥ - ٣٦] .

وكثير من ينتسبون اليوم إلى الإسلام لا يفهمون معنى (لا إله إلا الله) ؛ لأنهم يقولونها =

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[١] [سورة آل عمران : ٦٤] وفسرها بقوله: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ فقوله : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ ﴾ : فيه معنى (لا إله) ، وقوله : ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ هو المستثنى في كلمة الإخلاص ، فسبحان الله كيف خفي هذا الموضع ونحوه - مع بيانه ووضوحه - على الأذكياء من متأخري هذه الأمة[٢] ؟!

وهم يعبدون الحسن ، والحسين ، وعبد القادر ، والبدوي ، وغير ذلك ، يذبحون لهم ، وينذرون لهم ، ويستغيثون بهم ، وهذه مصيبة عظيمة عندما ينتسبون إلى شيء وهم لا يعرفونه ولا يحققونه ، بينما المشركون فهموا معنى (لا إله إلا الله) وقالوا : ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا ﴾ التي هي الأصنام ﴿ لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾: يعنون محمداً ﷺ، وصفوه بأنه شاعر، مجنون ، ساحر ، مُعلَّم - يعني أنه تعلم ما يقوله من أهل الكتاب ، أو من قصص الأولين - أقوال مختلفة ، تدل على اضطرابهم وكذبهم .

(١) ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ : المراد بهم اليهود والنصارى ، وفي وصفهم بأنهم أهل كتاب تعيير لهم أنهم أهل كتاب ومع هذا لا يعلمون بكتابهم .

﴿ تَعَالَوْا۟ ﴾ : أي أقبلوا : ﴿ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ : أي كلمة واحدة فاصلة للخصومة ، قاطعة للنزاع بيننا وبينكم ، ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ : هذا هو معنى (لا إله إلا الله) وهذا هو الذي خُلقنا من أجله .

﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: كاتخاذهم المسيح ﷺ إلهاً يعبدونه ، ويقولون : إنه ابن الله - تعالى الله عما يقولون - ، وكما اتخذت اليهود أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، يُشرِّعون لهم، ويُحلِّلون ويُحرِّمون ، ويطيعونهم من غير دليل من كتاب أو سنة.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ : أعرضوا ولم يستجيبوا ، وبقوا على ما هم عليه . ﴿ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ : هذا فيه البراءة منهم ، ومن دينهم ، وإعلان التوحيد لله ﷻ .

(٢) كيف خفي هذا المعنى على الذين يعبدون القبور والأضرحة ، ممن ينتسبون إلى الإسلام ؟! وقد يكون فيهم علماء وفقهاء . لكن هذا ناتج عن الإهمال ، وعدم العناية بهذا الأمر العظيم الذي هو أساس الدين وطريق النجاة .

قال : وقول الله تعالى : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾[1] [سورة النساء : ٣٦] وهذه الآية تبيِّن العبادة التي خُلقوا لها أيضاً ، فإنه تعالى قرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرَّمه ، وهو الشرك في العبادة[2] ، فدلت هذه الآية على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة[3] ، فلا تصح بدونه أصلاً[4] ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[5]

---

(١) هذه الآية تسمى آية الحقوق العشرة ، وأول هذه الحقوق : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ هذا هو معنى (لا إلـه إلا الله) ، فقوله : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ هو معنى الإثبات (إلا الله) ، ﴿ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾ هذا هو معنى النفي (لا إله) ، ففيها معنى (لا إله إلا الله) التي هي كلمة الإخلاص .

(٢) فلا تكفي العبادة فقط ، بل لابد من اجتناب الشرك ؛ لأن المشركين كانوا يعبدون الله ، ويحجون ويتصدقون ، ويخدمون البيت العتيق ، ويخدمون الحجاج ، ويكرمون الضيف ، ويكرمون الجار ، وعندهم أنواع من العبادات والقربات لكنها لم تنفعهم بسبب الشرك ، فالشرك يبطل جميع العبادات .

(٣) وإلا فإنها لا تصح ، فلا يكفي أن الإنسان يعبد الله ، بل لابد أن يترك عبادة ما سواه ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦] ، فقدَّم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ؛ لأن الإيمان بالله لا ينفع مع عدم الكفر بالطاغوت ، هذا أمر يجب التنبه له ، فالإنسان قد يصوم ويصلي ويحج ، ويصل الرحم ، ويبر بالوالدين وهو مشرك ، فتحبط جميع أعماله ، وتكون يوم القيامة هباءً منثوراً .

(٤) لا تصح العبادة بدون البراءة من الشرك ؛ لأن الشرك يبطل العبادة ، مثل الصلاة مع الحدث ، فإنها لا تصح ؛ لأنه بطل شرط من شروط صحة الصلاة ، وهو الطهارة ، فكذلك العبادة إذا أشرك بطلت ، مثل ما يُبطِلُ الحدثُ الصلاة .

(٥) لما ذكر الله ﷻ الأنبياء في سورة الأنعام : ﴿ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ . وَمِنۡ =

[سورة الأنعام : ٨٨] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(١) [سورة الزمر : ٦٥، ٦٦] .

فتقديم المعمول يفيد الحصر ، أي : بل الله فاعبد وحده لا غيره ، كما في فاتحة الكتاب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(٢) [سورة الفاتحة : ٥] وقرر تعالى هذا

ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ ﴾ : أي لو أشرك هؤلاء الأنبياء ﴿ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٨٨] ، وهم أنبياء ، وهذا من باب الفرض ، وإلا فمعلوم أن الأنبياء لا يشركون - وحاشاهم - لكن لو أشرك الأنبياء على شرفهم ، وشرف مقامهم لحبطت أعمالهم ، فكيف بغيرهم ؟!

والشرك ليس خاصاً بعبادة الأصنام ، كما يقوله بعض المغرورين ، بل إن عبادة القبور ، والاستغاثة بالأموات ، والذبح لهم ، والتقرب إليهم مثل عبادة الأصنام ، لا فرق بين اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وهذه القبور التي تعبد من دون الله ﷻ .

فالشرك هو عبادة غير الله سواء كان من الأصنام ، أو الأحجار ، أو الأشجار ، أو القبور ، أو الأنبياء ، أو الأولياء والصالحين ، فكله شرك بالله ﷻ .

(١) في هذه الآية يقول الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ : أي أوحى الله إليك ﴿ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ : أي من الأنبياء ، ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ : أي دعوت غير الله ﷻ ، ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ : يبطل ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ : فإذا كان هذا موجهاً إلى الرسول ﷺ ، أنه لو أشرك - وحاشاه أن يشرك ﷺ - فإنه يبطل جميع عمله ، ويكون من الخاسرين ، فكيف بغيره من الناس ؟! . وهذا من باب تحذير هذه الأمة من الوقوع في الشرك .

فهذه الآية لا تستثني أحداً ، فكل من أشرك بالله ﷻ شركاً أكبر فعمله باطل ، مهما كلّف نفسه به ، وليس هذا خاصاً بأهل الجاهلية ؛ بل هو عام لكل من أشرك بالله إلى أن تقوم الساعة .

(٢) فتقديم المعمول في قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ ، وهو المنصوب ﴿ ٱللَّهَ ﴾ على الفعل : =

التوحيد بقوله : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾(١) [سورة الزمر : ١١] ، والدين هو العبادة بفعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه(٢) كما قال العلامة ابن القيم ﷺ :

والأَمْرُ والنَّهيُ الذي هو دينُه وجَزَاؤُه يومَ المعادِ الثَّاني(٣)

وتقدم أن أصله وأساسه هو توحيد العبادة ، فلا تغفل عما تقدم(٤) .

﴿ فَٱعْبُدْ ﴾ من باب الحصر، والأصل فيه (فاعبد الله) وذلك مثل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أصله : (نعبدك) ، فقدم المعمول ليفيد الحصر، أي : حصر العبادة لله ﷻ ، ونفيها عما عداه فقوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ : أي لا تعبد غيره . وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ : أي لا نعبد سواك .

(١) قل يا محمد للناس : ﴿ إِنِّيٓ أُمِرْتُ ﴾ : أي أمرني الله ﷻ ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي . فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [سورة الزمر : ١١-١٥] ، هذا إعلان أمَرَ الله به رسوله ﷺ ببيان براءته من عبادة المشركين ، وأنه يعبد الله وحده لا شريك له ، هذا دينه ، وهذه ملته .

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ فسمى الدين عبادة ، وسمى العبادة ديناً ، وسمى الدعاء ديناً ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [سورة غافر : ١٤] وسماه عبادة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ [سورة غافر : ٦٠] بعد أمره سبحانه بدعائه وحده لا شريك له في أول الآية : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ .

(٣) والأمر والنهي : الأمر بالتوحيد ، والنهي عن الشرك ، وكذلك الأمر بطاعة الله ﷻ ، والنهي عن المعاصي ، هذا هو دين الله ﷻ أمر ونهي . وجزاؤه يوم المعاد الثاني : يجازي أهل العبادة والتوحيد بالجنة ، ويجازي أهل الشرك بالنار .

(٤) أصل الدين توحيد العبادة - توحيد الألوهية - وهو إفراد الله بالعبادة .أما توحيد الربوبية فلا يكفي ؛ لأن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية فلم ينفعهم ذلك ، لما كانوا يشركون في العبادة .

وقولـــه : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾(١) [سورة الأنعام : ١٥١] أي حرم عليكم الشرك الذي نهاكم عنه بقوله : ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ، فالشرك أعظم ذنب عصي الله به أكبره وأصغره(٢) .

---

(١) لما ذكر الله ﷻ في سورة الأنعام تخرصات أهل الجاهلية ، وخوضهم في الحلال والحرام ، وأنهم حرموا أشياء من الطيبات ، واستباحوا أشياء من المحرمات ، فاستباحوا الميتة وأكلوها ، وحرموا أنواعاً من بهيمة الأنعام ، وحرموا شيئاً من الزروع .قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ [سورة الأنعام : ١٣٨] : يعني ممنوعة محرمة ، هذا تحريم من عند أنفسهم لم يشرّعه الله ﷻ ، ﴿ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ لا يركبونها ﴿ وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ يذبحونها للأصنام ، والأحجار والأشجار .

فلما خاضوا في هذا الأمر ، وحرّموا وحلّلوا من عند أنفسهم قال الله ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا ﴾ : أقبلوا وهلموا إليّ : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ : أي أقرأ ما حرم ربكم عليكم من كتاب الله ﷻ ، وليس من الأهواء والتخرصات ، ولا من تقليد الآباء والأجداد من غير دليل . ثم بدأ بالشرك ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ : وهذا هو أعظم المحرمات بدأ به ﷻ ، وفي ضمنه الأمر بالتوحيد ، وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة ، وهذا حق الله ﷻ : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ : هذا هو الحق الثاني ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [سورة الإسراء : ٢٣] ، ... إلى قوله ﷻ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ ، فذكر في هذه الآيات الثلاث ، عشر وصايا أولها : الوصية بعبادة الله ، وترك عبادة ما سواه ، وآخرها : الأمر باتباع الصراط المستقيم .

(٢) أعظم الذنوب وأكبرها وأخطرها : الشرك ، ولذلك لا يغفره الله ﷻ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] ، وأما بقية الذنوب التي هي غير الشرك ، فهي تحت المشيئة ، إن شاء الله غفرها ، وإن شاء عذّب بها .

وقد وقع الأكثر من متأخري هذه الأمة في هذا الشرك ، الذي هو أعظم المحرمات(١) ، كما وقع في الجاهلية قبل مبعث النبي ﷺ(٢) ، عبدوا القبور والمشاهد ، والأشجار والأحجار ، والطواغيت والجن ، كما عبد أولئك اللات والعزى ، ومناة وهُبل وغيرها من الأصنام والأوثان ، واتخذوا هذا الشرك ديناً(٣) ، ونفروا إذا دُعوا إلى التوحيد أشد نُفرة(٤) .

(١) وقع أكثر المتأخرين من هذه الأمة في عبادة القبور ، ودعاء غير الله ﷻ ، والذبح والنذر لغير الله ، فعادوا إلى الشرك الذي كانت عليه الجاهلية .
وأول من دسّ الشرك في الإسلام : الشيعة الباطنية الذين استولوا على بلاد المغرب ، ومصر ، وأقطاع كبيرة من بلاد المسلمين ، فبنوا المشاهد على القبور ، وأسرجوها ، ونمّقوها وزخرفوها ، حتى افتتن الناس بها ، وتعلقوا بها ، وصاروا يدعونها من دون الله ﷻ ، ودسوا عليهم الشرك في قالب محبة الصالحين وتعظيمهم ، وسموا هذا توسلاً ومحبة وتعظيماً للصالحين ، فوقع الشرك في هذه الأمة من حين ذلك الوقت .
(٢) لا فرق بين شرك هؤلاء المنتسبين للإسلام ، وبين شرك أهل الجاهلية ؛ لأنه كله عبادة لغير الله ﷻ ، وما كان عبادة لغير الله فهو شرك ، سواءً كان المعبود قبراً ، أو شجراً ، أو حجراً ، أو صنماً ، أو حياً ، أو ميتاً .
(٣) اتخذوا تعظيم الصالحين ديناً ، وقالوا : هذا هو الإسلام ، فلبّسوا على الناس بلباس تعظيم الصالحين ، وإكرام الصالحين ، ولا يسمونه شركاً .
(٤) أبغض ما على هؤلاء القبوريين(*) الدعوة إلى التوحيد ؛ لأن فيها إبطالاً لما هم عليه ، وهم لا يريدون ذلك ، كما قال ﷻ في أسلافهم : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٤٥] .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن المراد بالقبوريين ، فأجاب : القبوريون هم الذين يتقربون إلى أصحاب القبور بأنواع من العبادات : كالذبح ، والنذر ، والتبرك ، وغير ذلك . فهم مشركون ؛ لأنهم صرفوا العبادة لغير الله ، أما الذي يعبد الله عند القبور ، يظن أن هذا سبب للإجابة ، أو قبول الدعاء ، فهذا مبتدع ، وعمله هذا وسيلة من وسائل الشرك . أ.هـ

=

واشتد غضبهم لمعبوداتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[1] [سورة الزمر : ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ

فإذا دعاهم مسلم إلى التوحيد قالوا : هذا وهابي ، خارجي ، متشدد ، متطرف .. إلخ الألقاب المنفرة عن دعوة التوحيد ؛ لأن التوحيد عندهم هو عبادة القبور ، ودعاء غير الله ﷻ ، وما خالفه عندهم فهو شرك - نسأل الله العافية - هذا شيء معروف ، وموجود في كتبهم ، أنهم يحذِّرون من التوحيد ، ومن دعوة الرسل ، ويأمرون بالشرك صراحة ، ولكنهم لا يسمونه شركاً ، وإنما يسمونه بأسماء مزخرفة ليغروا العوام والجهال بذلك .

(١) ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ : إذا قلت : أخلصوا العبادة لله وحده ﴿ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ : أي نفرت قلوب الذين لا يؤمنون بيوم القيامة والبعث والجزاء لأنهم يعلمون أن هذا يبطل ما هم عليه ، وهذا مشاهد في كثير من الناس اليوم الذين مردوا على الشرك ، وعبادة القبور والأضرحة ، يتضايقون من كتب التوحيد ، وعلماء التوحيد ، فهذه سنة الله ﷻ في أهل الباطل أنهم لا يقبلون الحق .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ : أي من المعبودات التي يعظمونها كالحسن والحسين ، وأهل البيت ، والبدوي ، والمرغني ، والعيدروس ، وغيرهم ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ : أي يفرحون بالباطل ، لأنهم لما كرهوا الحق ابتلوا بمحبة الباطل ، عقوبة لهم ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٥٢] وفي الآية الأخرى يقول سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ [سورة غافر : ١٢] . فهم لا يؤمنون إلا بالشرك - نسأل الله العافية - .

ما أشبه الليلة بالبارحة ، هذا الذي ذكره الله في المشركين الأولين ، موجود الآن في المشركين المتأخرين الذين ينتسبون إلى الإسلام ، وهو أنهم يفرحون بمن يثني على معبوداتهم ، ويبغضون من نصحهم وأراد لهم النجاة ، والرجوع إلى الحق ، بل ويكرهونه ويلقبونه بالألقاب الشنيعة فيقولون : خارجي ، وهابي ، متشدد .. إلخ ، ولكن هذا لا يضر أهل التوحيد والإخلاص ، فالرسول ﷺ قيل فيه : شاعر ، مجنون ، ساحر ، كذاب ، معلَّم .. إلخ ما قالوه في الرسول ﷺ ، وما ضره ذلك ، وما ضرَّ دينه .

﴿وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾(١) [سورة الإسراء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾(٢) [سورة الصافات: ٣٥، ٣٦].

---

(١) أي : وإذا ذكرت التوحيد وإفراد الله بالعبادة ، ولوا على أدبارهم معرضين ؛ لأنهم لا يريدون أن يتركوا ما هم عليه ، وهذه هي المصيبة التي أهلكت كثيراً من الأمم ، تعصب للباطل ، وحمية الجاهلية .

فالواجب على الإنسان الذي يريد النجاة أن يدور مع الحق حيث دار ، فإذا كان ما عليه حقاً سأل الله الثبات ، وإذا كان ما عليه باطلاً تركه وأقبل على الحق ، وسارع بإنقاذ نفسه من النار . والدعاة إلى الله ﷻ هم أنصح الخلق للخلق ، وأحصرهم على نفع الخلق ، وإنقاذهم من الهلاك .

(٢) يقول الله ﷻ عن أهل النار في أول سورة الصافات : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا﴾ : أي في الدنيا ، ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ : وهذه كلمة التوحيد ، كلمة تثبت التوحيد وتنفي الشرك ، ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾: يستكبرون عن هذه الكلمة، ولا يقبلونها، ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا ءَالِهَتِنَا﴾: فهموا أن معنى (لا إله إلا الله) تَرْكُ آلهتهم ؛ لأنهم عرب فصحاء يعرفون معنى الكلام العربي ، وأن معنى هذه الكلمة : إثبات التوحيد ، ونفي الشرك ، وأن من قالها يجب عليه العمل بها وإلا صار كاذباً في قولها ، وهم لا يريدون التناقض والكذب .

وكثير من مسلمي الوقت الحاضر يقولون : (لا إله إلا الله) ، ويعبدون من دون الله الأضرحة ، ولا يأنفون من التناقض – والعياذ بالله – .

﴿لِشَاعِرٍ﴾ : يعنون الرسول ﷺ ، وصفوه بأنه شاعر ، وحاشا وكلا أن يكون الرسول ﷺ شاعراً ، ولم ينزل عليه الشعر ، وإنما أنزل عليه وحي وقرآن ، كلام الله ﷻ ، وما عُرف النبي ﷺ بالشعر ، ولا يحسن الشعر أيضاً ، قال تعالى : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [سورة يس: ٦٩] . وقال تعالى : ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦] ، فهذا شأن الشعراء ، والله ﷻ برَّأ رسوله ﷺ من ذلك .

﴿مَّجْنُونٍ﴾ : مصاب بالجنون ، وهذا من تناقضهم وأنفتهم ، كيف يكون شاعراً مجنوناً ؟! ولو كان شاعراً مجنوناً كما يقولون ما ظهر دينه ﷺ هذا الظهور الذي غطى مشارق الأرض ومغاربها ، والذي تبين به أنه صادق مصدوق ، وأنه رسول الله حقاً صلوات ربي وسلامه عليه .

علمـوا أن (لا إلـه إلا الله) تنفـي الـشرك الـذي وقعـوا فيـه ، وأنكـروا التوحيد الذي دلت عليه ، فصار أولئك المشركون أعلم بمعنى هـذه الكلمـة (لا إله إلا الله) من أكثر متأخري هذه الأمـة[١] ، لاسيما أهـل العلـم مـنهم الذين لهم دراية في بعض الأحكام وعلم الكلام[٢] .

فجهلوا توحيد العبادة ، وأنكروه ، فوقعوا في الشرك المنافي له وزينوه[٣] ،

---

(١) المشركون الأولون كانوا أعلم بمعنى (لا إله إلا الله) من علماء هؤلاء المتأخرين ، فقد يكون الواحد منهم عالماً متبحراً في النحو ، والفقه ، والبلاغة ، والعلوم ، لكنه في التوحيد صفراً ، ليس عنده شيء ، وعقيدته مبنية على علم الكلام ، وعلم المنطق ، وعلم الجدل ، وليست مبنية على قال الله ، وقال رسوله ﷺ ، ولا يثبتون إلا توحيد الربوبية الذي أثبته المشركون .

فعقائد المتكلمين اليوم كلهم تدور على توحيد الربوبية ، الذي ما أنكره حتى أبو جهل ، وأبو لهب ، أما توحيد الألوهية - الذي هو إفراد الله بالعبادة - هذا لا يدور في قطبهم وهم علماء ، فصار المشركون الأولون أعلم منهم بـ(لا إله إلا الله) .

ولهذا يقول الشيخ المجدد ﷀ في « كشف الشبهات » : (فلا خير في رجلٍ جُهَّال الكفار أعلم منه بمعنى : لا إله إلا الله)(*) .

(٢) أي لهم دراية في الفقه ، والحديث ، والتفسير ، واللغة ، ومع هذا لا يعرفون التوحيد ، بدليل أنهم ما اهتموا به ، ولا دعوا إليه ، ولا قاموا به ، بل يرون أن التوحيد هو أن تقرَّ بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت فقط ، اقرأوا أي كتاب من كتب عقائد أهل الكلام تجدون هذا ، وأيضاً هم لا يستدلون بآية ولا حديث ، وإنما يستدلون بعلم الجدل ، لو كان كذا لكان كذا ، ولو كان كذا لكان كذا .

(٣) لأن من جهل شيئاً وقع فيه ، وهذه مصيبة ، أن الإنسان يجهل الشرك فيقع فيه وهو يظن

(*) كشف الشبهات ص ٧ ، طبعة الرئاسة لإدارة البحوث ، وانظر : شرح كشف الشبهات للشيخ صالح الفوزان ص ٤٧ .

=

وجعلوا توحيد الأسماء والصفات وأنكروه ، فوقعوا في نفيه أيضاً[1] ، وصنَّفوا فيه الكتب ؛ لاعتقادهم أن ذلك حق ، وهو باطل ، وقد اشتدت غربة الإسلام حتى عاد المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، فنشأ على هذا

أنه مسلم موحد ، والواجب معرفة الشرك لكي يحذره ، يقول الشاعر[*] :

عَرَفْتُ الشَّرَ لا للشَّرِ وَلكِنْ لِتَوَقِّيه ... وَمَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَ مِنَ النَّاسِ يَقَع فِيه

ولهذا يقول حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني »[**] ، وهذا هو الفقه العظيم .

(١) كذلك جهلوا توحيد الأسماء والصفات وأنكروه ، وقالوا : هذه الآيات التي فيها الأسماء والصفات ليست على ظاهرها ، لأن ظاهرها يقتضي التشبيه والتجسيم ، فذهبوا في ذلك إلى فريقين : إما أن يفوضوها ، ويقولون : ليس لها معنى معروف ، وإما أن يؤولوها إلى معانٍ أخرى غير معانيها الصحيحة ، فعطلوا أسماء الله وصفاته من مدلولاتها ، التي تقتضي التشبيه والتجسيم - بزعمهم - .

فهل الله ﷻ يخاطب العباد بشيء فيه تجهيل وتضليل ؟ وأن هذه النصوص ليست على ظاهرها ؟ هذا تجهيل وغش ينزه الله ﷻ عنه .

ولهذا يقول أحد كبرائهم : القرآن كله شرك ، لماذا ؟ لأنه كله توحيد ، فالتوحيد يسمونه شركاً ، والشرك يسمونه توحيداً ، وما هذا إلا لانتكاس الفطر - والعياذ بالله - .

وبعضهم يسمي كتاب « التوحيد » لابن خزيمة كتاب الشرك[***] لأنه أثبت الأسماء والصفات لله ﷻ ، وعندهم ذلك شرك لأنه تشبيه وتجسيم - بزعمهم - فانظروا كيف أن الله ﷻ يعمي البصائر ، وينكس الفطر عقوبة لمن أصرَّ على الباطل ، ورفض الحق .

(*) ذكره أبو المظفر الإسفراييني في كتابه « التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين » ص ١٥ .

(**) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١٣١٩ (٣٤١١) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٤٧٥ (١٨٤٧) .

(***) قال ذلك فخر الدين الرازي في كتابه « التفسير الكبير » ٢٧ / ١٥٠ ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى : ١١] ، فقال : (واعلم أن محمد ابن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سماه « بالتوحيد » وهو في الحقيقة كتاب الشرك) .

الصغير، وهرم عليه الكبير[١].

وقد قال النبي ﷺ: « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ »[٢]، وقد

(١) اشتدت غربة الإسلام الصحيح، أما إسلام الدعوى فهوكثير، فالمسلمون الآن بالمليارات - كما يقولون -، لكن الإسلام الصحيح غريب بين أهله المنتسبين إليه، ومن قام به جُهِّل ولُقِّب بالألقاب الشنيعة، وكم يلقى أهل التوحيد من معاداة وخصومات، انظروا في كتب الفرق الضالة، وكيف يوجهون إلى علماء السلف وعلماء التوحيد التهم والافتراءات، ماذا كتب دحلان عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه « الدرر السنية »(*)، من الافتراءات على الشيخ، ولكن هذا لم يضر الشيخ ﵀ ولا دعوته، بل أصبح هذا الكتاب مثبتاً على صاحبه وعلى أتباعه، لأنه سجَّل فيه جهالاته وضلالاته وشهد على نفسه بمعاداة التوحيد وأهله.

(٢) أول ما بدأ الإسلام كان الرسول ﷺ مختفياً في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وليس معه إلا نفر قليل، وكان الإسلام غريباً، ثم أخذ يظهر شيئاً فشيئاً حتى عم المشارق والمغارب، ثم يعود غريباً في آخر الزمان كما بدأ، فالإسلام الصحيح يعود غريباً بين المسلمين المدَّعين للإسلام، فكيف بالكفار؟ هذا خبر عن الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى(**)، قال: « وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » قالوا: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: « الذين يصلحون إذا فسد الناس »(***)، وفي رواية: « الذين يصلحون ما أفسد الناس »(****)، هؤلاء هم الغرباء.

(*) واسمه: « الدرر السنية في الرد على الوهَّابية » لأحمد زيني دحلان، وقد ردَّ عليه الشيخ محمد بشير السهسواني الهندي ﵀ في كتابه « صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان » فتتبع ما عنده من أخطاء بالدليل والبرهان.

(**) سئل شيخنا - حفظه الله - عن قول النبي ﷺ: « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » هل عودته غريباً يتكرر على مر العصور، أم هو في آخر الزمان فقط؟ فأجاب: هذا يتكرر على مر العصور، ولكن يشتد هذا في آخر الزمان، وإلا قد يعتريه غربة في بعض الأماكن، وفي بعض البلاد، لكنها تشتد في آخر الزمان، ولهذا يقول العلامة ابن القيم:

والدين منصـــور وممتحن فلا تعجب فهذه سنة الرحمٰن

(***) أخرجه أبو عمرو الداني في « السنن الواردة في الفتن » ٣/ ٦٣٣ (٢٨٨) بإسناد صحيح، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » ٣/ ٢٦٧ (١٢٧٣).

(****) أخرجه الترمذي في « سننه » ٥/ ١٩ (٢٦٣٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

قال النبي ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة » قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي »[1] . وهذا الحديث قد صح من طرق ، كما

---

(١) هذا حديث جيد مشهور ، أخبر فيه النبي ﷺ عن افتراق الأمم الثلاث : أمة اليهود ، وأمة النصارى ، وأمة الإسلام ، فاليهود افترقوا على إحدى وسبعين فرقة ، ليسوا على دين واحد ، بل هم فرق كثيرة كلهم يشملهم اسم اليهود . والنصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وهم يزعمون أنهم نصارى ، وسوف تفترق أمة محمد ﷺ على ثلاث وسبعين فرقة ، أكثر من اليهود والنصارى . قالوا : هذه أصول الفرق ، وأما الفرق فهي تتفرع إلى أعداد كثيرة ، وهذا خبر من الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى .

ومن يطالع كتب الفرق مثل : « الملل والنحل » للشهرستاني ، أو « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين » لأبي الحسن الأشعري ، وغيرها ، يرى الفرق الكثيرة ، وكل فرقة تنقسم إلى فرق ، من شيعة ، وقدرية ، وجهمية ، ومعتزلة .. إلخ . فرق شتى ، وهذا مصداق ما أخبر به النبي ﷺ ، « كلها في النار » لأنها خالفت الحق . وكونها في النار يختلف باختلاف ما هي عليه ، فقد تكون في النار مخلدة فيها ، إذا كانت مفارقتها تقتضي الردة والكفر ، وقد تكون في النار لا تخلد فيها ، فيكون هذا من باب الوعيد ، فتعذب بقدر ما عندها من المخالفة للحق .

فليس معنى قوله ﷺ : « كلها في النار » : أن كل هذه الفرق كافرة ، بل فيه تفصيل بحسب نوع الافتراق .

فالافتراق ينقسم إلى قسمين : افتراق ضلال فقط ، وافتراق كفر وشرك .

قوله : « إلا واحدة » : يعني أن واحدة منها في الجنة ، وثنتين وسبعين في النار ، ولذلك سميت هذه الواحدة بالفرقة الناجية . « قالوا : من هي يا رسول الله » ، انظر إلى اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم يسألون : من هي ؟ حتى يعرفوها ، فيتبعونها ويتمسكون بمنهجها ، قال : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » : ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه هو الصراط المستقيم ، الذي قال فيه ﷻ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ

ذكره العماد ابن كثير ، وغيره من الحفاظ[١] .

وهو في السنن وغيرها ، ورواه محمد بن نصر في كتاب « الاعتصام » ، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ بعد القرون الثلاثة[٢] .

فلهذا عمَّ الجهل بالتوحيد الذي هو أصل دين الإسلام[٣] ، فإن أصله أن

وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٣] فلا ينجو من النار إلا من كان على مثل ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه في الاعتقاد والعمل والخلق .

(١) هذا حديث جيد ، وإن لم يكن في الصحيحين ، لكن إسناده جيد(*) ، صححه جمع من الحفاظ ، وله طرق يقوي بعضها بعضاً ؛ لأن بعض الناس ينكر هذا الحديث ، وهذا لجهله ، وعدم علمه ومعرفته بالحديث .

(٢) في عهد القرون الثلاثة المفضلة كان المخالفون مكبوتين ، وأهل الحق ظاهرين عليهم ، فلما انقضت القرون الثلاثة ، ظهر الشر ، وجهرت الفرق بضلالها وشرها ، كما قال ﷺ : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » قال الراوي : فلا أدري في الثالثة أو الرابعة قال : « ثم إنه يتخلف من بعدهم خلف تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته »(**) : فلما انقضت القرون المفضلة الأربعة ، أو الثلاثة حدث الشر في الناس ، وظهرت الفرق على مذاهبها وأصولها .

(٣) وفشت القبورية ، وعبادة الأضرحة والأولياء ، بعد القرون المفضلة ، واعتبروا هذا من الدين ، ومن التقرب إلى الله ﷻ ، وأن هؤلاء المقبورين والأولياء وسائط بينهم وبين الله تعالى ، فقاسوا الله ﷻ على ملوك الدنيا ، وقالوا : لا نصل إلى الله إلا بواسطة ، وزيَّن لهم الشيطان هذا ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [سورة الزمر : ٣] ، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة يونس : ١٨] .

(*) أخرجه أبو داود في « سننه » ٥ / ٤ (٤٥٩٦) ، والترمذي في « سننه » ٥ / ٢٥ (٢٦٤٠) وقال : حسن صحيح ، وأخرجه ابن ماجه في « سننه » ٢ / ١٣٢١ (٣٩٩١) .

(**) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٢ / ٩٣٨ (٢٥٠٩) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ١٩٦٣ (٢٥٣٣) واللفظ لمسلم .

=

لا يعبد إلا الله ، وأن لا يُعبد إلا بما شرع ، وقد ترك هذا وصارت عبادة الأكثرين مشوبة بالشرك والبدع[١] ، لكن الله تعالى - ولله الحمد - لم يخل الأرض من قائم له بحججه ، وداع إليه على بصيرة لكي لا تبطل حجج الله وبيناته[٢] التي أنزلها على أنبيائه ورسله ، فله الحمد والشكر على ذلك .

وأما قول عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه ، فليقرأ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ

فظهرت القبورية في المسلمين من ذلك الوقت ، وانتشرت وصارت هي الدين ، وهي التوحيد ، حتى قيض الله ﷻ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله فانبرى لهذا الضلال ، وقام بنصرة الحق ، ونازل هذه الفرق ، وخاصمهم ، وأظهر دين الله ﷻ ، فصار من أعظم المجددين بعد القرون الثلاثة المفضلة عليه رحمة الله ، وبقيت كتبه والحمد لله مناراً يهتدى بها ، وينتفع بها من أراد الله له الخير .

وما دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله إلا من آثار دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكل أهل التوحيد الآن ، والمتمسكين بمنهج السلف من آثار دعوته رحمه الله .

(١) فصاروا يبنون المشاهد على القبور ، ويحثون على زيارتها ، والذبح لها ، والنذر لها ، ومن لا يفعل هذا أو ينكرها ، فإنه يعتبر خارجاً عن الإسلام ، ومبغضاً للأولياء والصالحين .. إلخ ما يقولون ، حتى ظهر الشرك ، والبدع ، والخرافات ؛ لعدم وجود المصلحين في هذه الفترة .

(٢) الله ﷻ لا يخلي الأرض من داعية إلى الله تعالى ، وقائم بالحجة لأجل أن يبقى الحق ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذا من فضله ﷻ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩] ، وقال رسول الله ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها »(*) ، هذا من فضل الله ﷻ ، فمهما كثر الباطل والضلال ، فإنه يوجد والحمد لله من أهل الحق من يقوم بالحجة ، ويبين للناس ، ولكن يقلّون ويكثرون .

(*) أخرجه أبو داود في « سننه » ٤ / ٤٨٠ (٤٢٩١) ، وصححه الألباني .

عَلَيْكُمْ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥١] - إلى قوله - : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ الآية[(1)] [سورة الأنعام : ١٥٣] .

---

(١) هذه الآيات الثلاثة من آخر سورة الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ فيها عشر وصايا ، بدأها ﷺ بالنهي عن الشرك ، وختمها بالأمر باتباع الصراط المستقيم ، الذي هو منهج الرسول ﷺ ، فهي وصايا عظيمة ، ويُقال : إن هذه الوصايا جاءت في الكتب السابقة أيضاً ، التوراة والإنجيل ، وهي مشهورة بالوصايا العشر .

وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، صاحب رسول الله ﷺ ، فقيه الصحابة ، يقول : « من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هذه الآية »[(*)] ؛ (وسبب هذا القول - والله أعلم - ما رواه البخاري في « صحيحه » عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال : « ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده » قال عمر : إن النبي ﷺ غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسبنا ، فاختلفوا وكثر اللغط ، قال : « قوموا عني ، ولا ينبغي عندي التنازع » ، فخرج ابن عباس يقول : « إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابته »[(**)] . فقال ابن مسعود : « من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه ... » الحديث)[(***)] .

فهذا الحبر الجليل بيّن لهم أن الوصية موجودة في القرآن ، وهي هذه الآيات الثلاثة ؛ لأن النبي ﷺ لو كان موصياً ما أوصى إلا بمضمونها ، فقد عاش حياته كلها بعد البعثة يدعو إلى مضمون هذه الآيات الثلاثة ، كأنه أوصى بها وعليها خاتمه .

فالرسول ﷺ ترك الناس بلا وصية ، لأن عندهم الكتاب والسنة ، وقد قال ﷺ : « إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي »[(****)] .

(*) أخرجه الترمذي في « سننه » ٥ / ٢٤٦ (٣٠٧٠) وقال : حسن غريب .

(**) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٥٤ (١١٤) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٢٥٩ (١٦٣٧) واللفظ للبخاري .

(***) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد / للشيخ عبد الرحمن بن حسن ١ / ١٠٣ .

(****) أخرجه الحاكم في « المستدرك على الصحيحين » ١ / ٢٢٣ ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع الصغير وزيادته » ١ / ٥٦٦ (٢٩٣٧) .

قوله : « التي عليها خاتمه » : شبَّه هذه الوصية بوصية كتبت فختمت ، أي فلم تُغيَّر ، ولم تُبدَّل(١) ، أراد أن النبي ﷺ لم يزل يدعو الأمة من حين بعثه الله تعالى إلى أن توفاه صلاة الله وسلامه عليه(٢) .

وقد قال مفروق سيِّد بني شيبان في دعوته ﷺ القبائل في مواسمهم: « وإلى ما تدعو إليه يا أخا قريش » ، فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾(٣) الآيات [سورة الأنعام : ١٥١] إلى ما تضمنته هذه الآيات المحكمات أمراً ونهياً(٤) ، كما قال تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم

(١) لأن الوصية إذا خُتمت من الموصي ثبتت أنها له ، فلا يستطيع أحد أن يزيد فيها ولا ينقص .

(٢) النبي ﷺ أوصى بالكتاب والسنة ، كما قال : « إني قد تركت فيكم ... » الحديث ، والله ﷻ يقول : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٣] ، وقال : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [سورة الأعراف : ٣] ، وهذا يشمل الكتاب والسنة ، فالسنة منزلة من عند الله ﷻ ، والذي يريد النجاة يتبع الكتاب والسنة ، ولا حاجة إلى أن النبي ﷺ يكتب وصية ، بل يكفي ما في الكتاب والسنة لمن أراد الله له الهداية والخير .

والله ﷻ أمرنا عند التنازع بالرد إليها فقال : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [سورة النساء : ٥٩] ، ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ : يعني القرآن ، ﴿ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ : يعني السنة بعد وفاته ﷺ .

(٣) لأن الله ﷻ ذكر قبل هذه الآيات ما تخبطت فيه الجاهلية من التحليل ، والتشريع بغير علم . ثم قال لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا ﴾ : أي أقبلوا عليّ ، ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ : أي أقرأه . فالإنسان لا يحلل ولا يحرِّم من عند نفسه ، وإنما يُحلِّل ما أحلَّه الله ، ويُحرِّم ما حرَّمه الله ، هذا هو المسلم الحقيقي .

(٤) كلها أمر ونهي ، أمر بالتوحيد ، ونهي عن الشرك ، أمرٌ بالعدل ، ونهي عن الجور .

مُّسۡلِمُونَ ﴾ الآيات[١] . [سورة البقرة : ١٣١ ، ١٣٢] .

وأما حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابن عمرو بن أوس الخزرجي ، أبو عبد الرحمن ، عالم في الأحكام ، مات عام ١٨ هـ ، قال : « كنت رديف النبي ﷺ على حمار[٢] ، فقال لي : يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ »[٣] ، فساقه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا لتضمنه معنى الآيات التي

---

(١) أي أن إبراهيم ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وصَّيا ذريتهما بالتوحيد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ ، فكذلك محمد ﷺ أوصى بالتوحيد .

(٢) أي راكب مع النبي ﷺ على حمار ؛ لأنه يجوز الإرداف على الدابة إذا كانت تطيق ذلك ، وهذا يدل على فضل معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، حيث كان رديف سيد الخلق محمد ﷺ . وفيه : تواضع الرسول ﷺ ، وحسن خلقه ، حيث إنه سيد البشر ، ويركب حماراً ، ويردف معه صاحبه .

(٣) فقال لي : « يا معاذ » : هذه هي الدعوة إلى الله ﷻ ، فالعالم يدعو إلى الله الأفراد والجماعات ، ويستغل الفرص .

« أتدري ما حق الله على العباد ، وحق العباد على الله ؟ » : أراد الرسول ﷺ أن يعلمه عن طريق السؤال والجواب ؛ لأن هذا أوقع في النفس ، ولأجل أن يستثير ذاكرته ، ويستحضر ذهنه ، كما جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دينهم عن طريق السؤال والجواب مع الرسول ﷺ وهم يسمعون فهذه طريقة جيدة في التعليم .

« قلت : الله ورسوله أعلم » : هذا فيه دليل على أن الإنسان إذا سئل عن شيء وهو لا يعرفه يقول : الله ورسوله أعلم ، هذا في حياة الرسول ﷺ ، وأما بعد وفاته فيقول : الله أعلم ، ولا يتخرص ، وبعد أن قال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك تطلَّع إلى الإجابة ، ووجَّه ذهنه لها فألقاها عليه النبي ﷺ ، وقال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » : وهذا هو الذي خلقهم من أجله، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦] ، فهو لم يخلقهم ليرزقوه أو ينفعوه ، ما خلقهم إلا لعبادته ، وعبادته سبحانه راجع نفعها إليهم أيضاً ، وأما الله ﷻ فإنه غني عنهم ، وعن عبادتهم ، ولم يقتصر =

تقدمت[(١)] ، وذلك قوله : « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » .

على الأمر بعبادته ، فقال : ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ لأن الإنسان قد يعبد الله ، ولكنه يخلط عبادته بشرك ، وحينئذ لا تصح العبادة حتى تخلص من الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [سورة النساء : ٣٦] ، وقال ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ فلابد مع عبادة الله ﷻ من ترك الشرك ؛ لأن الشرك إذا دخل العبادة أبطلها وأفسدها ولو كانت لله ﷻ ، وهذا يستدعي أن تتعلم ما هي العبادة الصحيحة ، وما هو الشرك حتى تؤدي العبادة على وجهها ، وتتجنب الشرك . هذا حق الله ﷻ على عباده ، وهو أول الحقوق ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [سورة الإسراء : ٢٣] فبدأ بالتوحيد الذي هو حق الله ﷻ .

« وحق العباد على الله » : هذا الحق تكرماً منه وتفضلاً ، هو الذي أوجبه على نفسه بوعده الكريم ، ولم يوجبه عليه أحد ، خلافاً للمعتزلة الذين يقولون : يجب على الله كذا وكذا - تعالى الله عن ذلك - .

« أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » : هذا فيه بشارة عظيمة ، ان من سَلِمَ من الشرك الأكبر والأصغر[(*)] ، ومن كبائر الذنوب ، سلم من العذاب سلامة مطلقة . ومن سلم من الشرك ولكن عنده شيء من المعاصي والكبائر فهذا يسلم من العذاب المؤبد ، ومن الخلود في النار ، ولكن قد يعذب بذنوبه ، ثم يؤول أمره إلى دخول الجنة .

فالشرك لا يُغفر ، وأما ما دونه من الذنوب فإنه تحت المشيئة ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] .

(١) لأن الآيات التي تقدمت ، فيها الأمر بالتوحيد ، والنهي عن الشرك ، وهذا الحديث فيه الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك ، في قوله ﷺ : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - عن تعريف الشرك الأصغر ، فأجاب : كل ما سُمي شركاً في نصوص الكتاب والسنة ولا يخرج من الملة ، فهذا هو الشرك الأصغر . هذا هو الضابط . أهـ .

قال العلامة ابن القيم ﷺ :

حـــقُّ الإلـــهِ عبـــادةٌ بـــالأمرِ لا … بهـوى النفـوس فـذاكَ للـشيطانِ
مِـــن غَـــيرِ إشْراكٍ بـــهِ شَـــيْئاً هُمَـــا … سَـــبَبَا النَّجـــاةِ فَحبَّـــذا الـــسَّبَبَانِ
لم يَـنْجُ مـن غَـضَبِ الإلـهِ ونـارِهِ … إلا الـــذي قَامَـــتْ بِـــه الأَصـــلاَنِ
والنـــاسُ بعـــدُ فمـــشركٌ بإلَهـــهِ … أَو ذُو ابتِـــدَاعٍ أَوْ لَـــهُ الوَصْـــفانِ[1]

(١) هذه أبيات عظيمة(*) تتضمن علماً غزيراً من علم العقيدة والتوحيد .

حقُ الإلهِ عبادةٌ بالأمرِ لا … بهوى النفوسِ فذاكَ للشيطانِ

(حق الإله عبادةٌ) : أن يعبدوه ، وهذا مأخوذ من قوله ﷺ في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « حق الله على العباد أن يعبدوه » ، (بالأمر) : يعني بالشرع ؛ لأن العبادة توقيفية ، فلا يُعبد الله إلا بما شرع ، ولا تصح العبادة إلا بما شرعه الله ، وشرعه الرسول ﷺ .

(لا بهوى النفوس) : لا يجوز لأحد أن يعبد الله بهوى نفسه ، أو استحساناته ، أو بعادات آبائه وأجداده . (فذاك للشيطان) : أي أن الذي يعبد الله بما تهواه نفسه ، هذا لا يعبد الله ، وإنما يعبد الشيطان ، فالعبادة لا تصح إلا بشرطين :

الشرط الأول : الإخلاص لله ﷻ من الشرك .

الشرط الثاني : المتابعة للرسول ﷺ .

مِن غيرِ إشراكٍ به شَيْئاً هُمَا … سَبَبَا النجاةِ فحبَّذا السببانِ

(مِن غيرِ إشراكٍ به شَيْئاً هما) : عبادة الله تعالى من غير إشراك (هما سببا النجاة فحبذا السببان) .

لَـمْ يَنْجُ مِنْ غَضَبِ الإِلَهِ ونَارِهِ … إِلَّا الَّذي قَامَتْ بِهِ الأَصْلَانِ

ما يسلم من النار إلا الذي عبد الله مخلصاً له الدين ، واتبع الرسول ﷺ ، هذان الأصلان في العبادة ، لا تصح العبادة إلا بهما .

والنَّاسُ بَعْدُ فَمُشْرِكٌ بِإِلَـٰهِهِ … أَوْ ذُو ابْتِدَاعٍ أَوْلَهُ الوَصْفَانِ

الناس بعد هذا البيان (فمشرك بإلهه أو ذو ابتداع أوله الوصفان) : ما عنده إخلاص ،

(*) انظر : الكافية الشافية ص ٢١٣ (٣٩٩٢ ، ٣٩٩٣) ، وص ٤٣ (٥١٨ ، ٥١٩) .

فمن صرف شيئاً من العبادة التي هي حقه سبحانه لا يستحقها أحد سواه لغيره ، كالدعاء ، والاستعانة ، فقد آمن بالطاغوت ، وأشرك بالله وكفر[(١)] .

قوله : « وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » : ليس على الله حق واجب بالعقل ، كما تزعمه المعتزلة ، لكن الله سبحانه أحق ذلك على نفسه[(٢)] تفضلاً وإحساناً على الموحدين المخلصين ، الذين لم يلتفتوا في إرادتهم ومهماتهم ، ورغباتهم ورهباتهم إلى أحد سواه ، ولم يتقربوا بما يقولونه ويعملونه من الطاعات إلا إليه وحده ، والله أعلم .

إما مشرك أو مبتدع لا يعبد الله بما شرع الرسول ﷺ ، فمن كان عنده شرك لم يأخذ الأصل الأول : وهو الإخلاص ، ومن كان عنده بدعة لم يأخذ الأصل الثاني : وهو المتابعة .

فأهل الضلالة ثلاثة أقسام :

- إما مشرك وهذا رأس البلاء .
- وإما مبتدع في الدين ، وهذا بلاء خطير وعظيم .
- وإما جامع بينهما - أي بين الشرك والبدعة - والعياذ بالله - ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) هذا هو الأصل الأول ، وهو وجوب إخلاص العبادة لله تعالى ، واجتناب الشرك .

(٢) أي هو الذي أوجب ذلك على نفسه ﷻ ، ولم يوجبه عليه أحد ، وجزاؤه للعباد على طاعاتهم ، وإدخالهم الجنة ، هذا تفضل منه ﷻ ، وإنما الطاعات والعبادات سبب فقط ، وليست ثمناً للجنة ؛ لأن الجنة لا تثمن أبداً .

وأيضاً أعمال العباد لو حوسبوا بها على النعم ، ما قابلت نعم الله ﷻ ، لكنه يكرمهم ويدخلهم الجنة تفضلاً منه وإحساناً .

ولهذا يقول ﷺ : « لن يُدخل أحداً عمله الجنة » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة »[(*)] مع أنه أكمل الخلق عبادة ﷺ .

أما قوله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل : ٣٢] فالباء هنا سببية أي بسبب ما كنتم تعملون ، وليست باء العوض ، كما تقول : اشتريت القلم بريال ، هذه الباء عوضية ، وأما التي في الآية فهي باء السببية أي : بسبب ما كنتم تعملون .

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢١٤٧ (٥٣٤٩) .

٢ - باب فضل التوحيد ، وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢].

عن عُبَادةَ بنِ الصَّامتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَالجنَّةَ حَقٌّ ، والنَّارَ حَقٌّ ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ الجنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ » . أَخْرَجَاهُ .

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ : « فَإِنَّ الله حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ؛ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله » .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ ، قَالَ : « قَالَ مُوسَى : يَا رَبِّ ! عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ . قَالَ : قُلْ يَا مُوسَى : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، قَالَ : كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا . قَالَ : يَا مُوسَى ! لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي والأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ ، وَ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ؛ مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » . رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ، والحَاكِمُ وَصحَّحَهُ.

وللتِّرمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « قَالَ اللهُ تَعَالَى : يَا ابنَ آدَمَ ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً ؛ لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً » .

٢- باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب(١)

قوله : « باب فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب »(٢) . الباب في اللغة :

(١) لما فرغ المؤلف رحمه الله من بيان التوحيد في الباب الأول ، ومن تفسير التوحيد على ضوء الآيات القرآنية ، والحديث النبوي ذكر في هذا الباب فضل التوحيد .
والترتيب بين هذين البابين - بذكر تعريف التوحيد أولاً ، ثم فضله ثانياً - من أبدع ما يكون ؛ لأنه لو بدأ بذكر فضل التوحيد ، قبل أن يبينه ويفسره ما حصل المقصود ، فلابد من بيان الشيء أولاً ، ثم بعد ذلك يُذكر فضله ، لتحصل الفائدة بذلك .

(٢) قوله : « باب فضل التوحيد » : أي ثوابه وأجره ، « وما يكفر من الذنوب » : أي وبيان =

هو المدخل إلى الشيء(١) . قوله : « وما يكفِّر من الذنوب » : (ما) مصدرية ، أي : وتكفيره الذنوب(٢) . ويجوز أن تكون موصولة ، والعائد محذوف ، أي : والذي يكفره من الذنوب(٣) . والمراد بالتوحيد : توحيد العبادة(٤) ، وهو إفراد

ما يُكفَّر من الذنوب بسبب التوحيد ، فالتوحيد يكفر الله به الذنوب التي دون الشرك ، ولو عُذِّب بها فإنه لا يُخلد في النار ، فهو إما أن يسلم من النار نهائياً ، وإما أن يَسْلم من الخلود فيها ، وهذا بفضل التوحيد .

وأما المشرك - والعياذ بالله - فإنه لا طمع له في الجنة ؛ لأن الله ﷻ حرمها عليه ، ومأواه النار ، ولا طمع له في الخروج منها .

فقارن بين فضل التوحيد ، وخطر الشرك ترى العجب العجاب ، ألا يحق لعلم هذا فضله أن يُعتنى به ، وأن يُدرَّس ، وأن تُعرف تفاصيله حتى يكون الإنسان من أهله ، فيحوز هذه الفضائل العظيمة ، فالتوحيد جدير بالعناية ؛ لأنه هو الأصل ، وهو أساس السلامة من عذاب الله ﷻ ، والفوز بالجنة .

فقوله : « وما يكفر الذنوب » : ما : مصدرية ، تُفسَّر ومابعدها بمصدر ، والتقدير : (وتكفيره الذنوب) ، فيقال : (باب فضل التوحيد وتكفيره الذنوب) .

(١) ويكون حسياً : كمدخل البيت ، ومدخل المسجد . ويكون معنوياً : كباب من العلم ، سُمي باباً ؛ لأنه يُدخل منه إلى العلم . وكذلك المؤلفات تشتمل على كتب ، وأبواب ، وفصول ومسائل ؛ لأن هذا أسهل في طلب العلم .

والحاصل أن الباب في العلم هو المدخل المعنوي إلى ما بعده من أنواع التفاصيل المذكورة فيه .

(٢) يعني ليست موصولة ، إنما هي مصدرية تؤوَّل هي وما بعدها بمصدر .

(٣) يجوز أن تكون (ما) موصولة : بمعنى (والذي يكفِّر) ، والعائد - وهو الضمير - محذوف تقديره (هو) : أي والذي يكفِّره هو ؛ لأن (يُكفِّر) فعل يحتاج إلى فاعل ، وهو الضمير (هو) .

(٤) وهو توحيد الألوهية ؛ لأن الذي يكفِّر الذنوب ، ويُخرج من الكفر ، ويُوجب دخول الجنة هو توحيد الألوهية ، وهو الذي بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، وهو توحيد العبادة ، وأما توحيد الربوبية فإنه مركوز في الفطر ولا يُكفِّر الذنوب ، ولا يُخرج من الكفر ، فالاقتصار عليه لا يحصل به المقصود ؛ لأن المشركين كانوا يُقرِّون به فلم ينفعهم ، ولم يُدخلهم في الإسلام .

الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة[(١)] : كالدعاء ، والذبح ، والنذر وغير ذلك[(٢)] . كما قال تعالى : ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[(٣)] [سورة غافر : ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ

(١) العبادة الباطنة التي في القلوب من النيات والمقاصد ، والخشوع ، والرغبة ، والرهبة ، والمحبة ، والإنابة ، والظاهرة تكون على اللسان : كالذكر ، والدعاء ، وقراءة القرآن ، وتكون على الجوارح : كالصلاة ، والجهاد في سبيل الله ، والمشي في طاعة الله تعالى .

(٢) الدعاء عبادة باللسان ينطق بها ، والذبح عبادة فعلية ، ولابد في العبادة القولية والفعلية من اعتقاد القلب ونيته ، والإخلاص لله في ذلك .
والنذر كذلك يكون عبادة قولية إذا تلفظ به ، ويكون عبادة فعلية بأن يفي بالنذر .

(٣) هذا أمر من الله ﷻ بالدعاء أي : اطلبوا من الله حوائجكم من أمر دينكم ودنياكم ، فهو غني كريم سبحانه ، وأكثروا من الدعاء أيضاً ، فإن الله يحب ذلك ، وكلما دعوته زدت عنده محبة وإقبالاً منه ﷻ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ [سورة غافر : ٦٠]، وفي هذه الآية : ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ : بهذا الشرط : ﴿ مُخۡلِصِينَ ﴾ : هذا فيه نفي الشرك . ﴿ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ : سمى الدعاء في هذه الآية ديناً ، كما سماه عبادة في الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي ﴾: أي عن دعائي.
فهذا يدل على أن الدعاء ركن عظيم من أركان العبادة ، وأنه يطلق عليه عبادة من باب المبالغة في الاهتمام به ، كما قال ﷺ : « الدعاء هو العبادة »[(*)] ، فهذا يدل على أهميته ، وأن العبد لا يدعو إلا الله ﷻ ، وهذا هو الإخلاص ، وأما إذا دعا الله ودعا معه غيره فهذا مشرك .
فالمشركون يدعون الله ، لكنهم لم يخلصوا في الدعاء ، بل يدعون معه غيره من الأصنام والأنداد ، والآلهة .
والقبوريون يدعون الله ، ولكنهم لم يخلصوا في الدعاء أيضاً ، بل يدعون معه الموتى ،

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٣٠ / ٣٤٠ (١٨٣٩١) ، وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح وأخرجه أبو داود في « سننه » ٢ / ١٦١ (١٤٧٩) ، والترمذي في « سننه » ٥ / ١٩٤ (٢٩٦٩) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ٱلدِّينَ ﴾[1] [سورة غافر : ٦٥] .

قوله : وقول الله تعالى[2] : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[3] [سورة الأنعام : ٨٢] . واللبس هنا :

وأصحاب القبور ، فهؤلاء دعاؤهم غير خالص فهو غير مقبول عند الله ﷻ .

﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ : ولو كره الكافرون إخلاصكم ، فالكافرون يعادون التوحيد والإيمان ، وهذه سمة الكفار إلى يوم القيامة ، فهم لا يريدون الإسلام ولا المسلمين ، وإن جاملوهم بالألسن ، ونافقوا معهم فهم أعداء ، ولا يجوز الاغترار بهم ؛ بل يجب أن يكون المسلمون على حذر منهم دائماً وأبداً ، ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٨] .

(١) ﴿ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ : سمى الدعاء هنا ديناً ، وسماه في الأول عبادة – يعني في قوله ﷻ - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ .

(٢) (وقولِ الله) : يجوز بالرفع ، لأنه معطوف على باب ، أي : (بابُ فضل التوحيد .. وقولُ الله تعالى) ، ويجوز بالجر ، ويكون معطوفاً على (التوحيد) ، و(التوحيد) : مجرور بالإضافة ، فيقول : (بابُ فضل التوحيدِ ... وقولِ الله تعالى) .

(٣) هذه الآية من جملة ما ذكره الله تعالى عن إبراهيم ﷺ ومحاجته لقومه .

لما دعا إبراهيم ﷺ قومه إلى توحيد الله ﷻ ، وأنكر ما عليه قومه من الشرك والوثنية حاجوه ، وخاصموه، وخوفوه من آلهتهم أن تصيبهم ، فرد عليهم : ﴿ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ ﴾ [سورة الأنعام : ٨٠] : أي تخاصمونني في الله ﷻ ، ﴿ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ : دلّني إلى التوحيد ، ووفقني إليه ، ثم قال : ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ : أي لا يخاف من هذه الأصنام ؛ لأنها ليست بشيء ، لا تضر ولا تنفع ، وإنما هي حجارة يصنعونها على شكل صور ، ويعبدونها من دون الله ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الصافات : ٩٥ - ٩٦] فكيف يخاف منها خليل الله ﷺ ، وكيف يخاف منها أهل التوحيد والإيمان ؟! أبداً أهل التوحيد لا يخافون من غير الله ﷻ ، لا من الأصنام ، ولا

=

من الموتى ، ولا من الجن ، ولا من الشياطين .

وهذا هو الواجب على المسلم ، أن لا يخاف إلا الله ، ولا يخشى إلا الله سبحانه ، ولا يخاف من غيره خوف العبادة ، الذي يكون معه ذل وخضوع ، وتقرب إلى الـمُخوف بالذبح والنذر له ؛ لأن هذا هو الشرك الأكبر .

ثم قال إبراهيم ﷺ : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ : فأنتم أولى بالخوف ؛ لأنكم أشركتم بالله ، أما الموحِّد فإنه لا يخاف من غير الله ﷻ ، ولهذا قال : ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾ : أيهما أحق بالأمن : الذي أشرك وكفر بالله ، أو الذي وحَّد الله وأطاعه ﷻ ؟ تحداهم بهذا السؤال بالبرهان والدليل ، لا بالمغالطة والمجادلة بغير حق ، ثم حكم الله ﷻ في المسألة ، فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فلا يحصل الأمن إلا لأهل التوحيد، وأما أهل الشرك لا يحصل لهم أمن مطلقاً - والعياذ بالله - ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم ﴾ : أي توحيدهم . ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ : أي بشرك ، فالمراد بالظلم هنا : الشرك ؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما نزلت هذه الآية شقَّ عليهم ذلك ، فقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال : « ليس كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان : ١٣] »(*) .

والظلم في اللغة : وضع الشيء في غير موضعه ، ويطلق على النقص كقوله تعالى : ﴿ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [سورة الكهف : ٣٣] يعني لم تنقص منه شيئاً .

والظلم في الشرع : ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وهو أعظمها : ظلم الشرك ، لأنه وضع للعبادة في غير موضعها ، وهذا أعظم الظلم ، فالمشركون أعظم ظلماً ، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها ، ولأنهم تنقصوا حق الله ﷻ .

النوع الثاني : ظلم العباد بالتعدي عليهم ، بأكل أموالهم ، أو ضربهم ، أو قتلهم ، أو الخوض في أعراضهم . وظلم العباد بعضهم لبعض خطير جداً ؛ لأن حقوق العباد

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٦ / ٢٥٤٢ (٦٥٣٨) .

=

الخلط[١] ، والمراد بالظلم هنا : الشرك الأكبر ، لما ثبت في حديث ابن مسعود وغيره مرفوعاً : « إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ »[٢] [سورة لقمان : ١٣] أراد أن من لم يجتنب الشرك

لا تسقط بالتوبة فقط ، بل لابد أن يسمحوا عن حقوقهم ، وإلا فإنه سيُقتص للمظلومين يوم القيامة .

النوع الثالث : ظلم العبد لنفسه بالمعاصي ، التي هي دون الشرك لأنه وضعها في غير موضعها اللائق ؛ حيث عرَّضها لغضب الله ﷻ .

والمراد بالظلم في الآية : ظلم الشرك ، وهو أعظم أنواع الظلم ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فمن خلط عبادته بشرك بطلت ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٨٨] .

وفي قوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ﴾ : وهو السلامة المطلقة من المخاوف ، فالمؤمنون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

- فإن كان المؤمن مخلصاً في توحيده ، ولم يحصل منه شيء من المعاصي ، له الأمن المطلق ، الذي لا خوف معه .

- وإن كان المؤمن موحِّداً ، ولكن عنده شيء من المعاصي ، فهذا له مطلق الأمن ؛ لأنه معرض للوعيد ، ولكنه يأمن من الخلود في النار .

- وأما المشرك فله الخوف المطلق ، الذي ليس معه أمن ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ : يعني في الدنيا ، يكونون على هدى ؛ لأنهم يعبدون الله ﷻ على بصيرة ، لا على جهل وضلال ، وبدع وخرافات .

فهذا فيه فضل التوحيد ، وأنه يحصل به الأمن يوم القيامة ، بخلاف المشرك فإنه ليس له أمن أبداً في الآخرة ، وهو في الدنيا على غير هدى ، وهذا هو الخسار - والعياذ بالله - .

(١) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [سورة البقرة : ٤٢] . أي لا تخلطوا الحق بالباطل ، والهدى بالضلال ، والتوحيد بالكفر ، هذا خلط - والعياذ بالله - .

(٢) خاف الصحابة رضوان الله عليهم من هذه الآية ، لأنهم فهموا أن المراد مطلق الظلم ، فيدخل فيه ظلم العبد لنفسه ، فبيَّن لهم النبي ﷺ أن المراد بالظلم هنا الشرك الأكبر ، =

لم يحصل له أمن ولا اهتداء بالكلية(١) .

وأما من سلم منه فيحصل له من الأمن والاهتداء بحسب مقامه في الإسلام والإيمان(٢) ، فلا يحصل الأمن التام والاهتداء التام إلا لمن لم يلق الله بكبيرة مصراً عليها(٣) . وأما إن كان للموحِّد ذنوب لم يتب منها(٤) حصل له من الأمن والاهتداء بحسب توحيده ، وفاته منه بقدر معصيته(٥) ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(٦) [سورة فاطر : ٣٢] .

وذكر لهم قول لقمان لابنه ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وهذا من تفسير النبي ﷺ ، وإذا جاء التفسير عنه ﷺ وجب الأخذ به ، وعدم الإلتفات إلى غيره ، لأن الرسول ﷺ هو المبين لكتاب الله ، وهذا من تفسير القرآن بالسنة ، وكذلك تفسيره بالقرآن ، لأن الرسول ﷺ أحال إلى الآية الأخرى .

(١) لا أمن في الآخرة ، ولا اهتداء في الدنيا بالكلية ، فالكافر والمشرك لا يحصل لهما أمن ولا هداية مطلقاً ، بخلاف المؤمنين ، فإنه يحصل لهم الأمن التام ، أو الناقص - بحسب إيمانهم - في الآخرة ، وأما في الدنيا فهم على هدى ، لأنهم يسمعون ما أنزل الله ﷻ .

(٢) أما من سلم من الشرك ، فله من الأمن والاهتداء بحسب مقامه ، قد يحصل له الأمن المطلق الذي ليس معه خوف ، وقد يحصل له مطلق الأمن الذي معه وعيد ، وذلك في حق عصاة الموحدين .

(٣) أي أنه من تاب من الذنوب ، ومات وهو ليس عنده ذنوب ، هذا له الأمن المطلق التام ، وهذا هو القسم الأول .

(٤) هذا هو القسم الثاني .

(٥) هذا هو العلم الدقيق ، والفقه الدقيق في كتاب الله تعالى .

(٦) المراد بالكتاب : القرآن العظيم ، لأن من قبلهم عندهم كتب ، ثم جاء القرآن ونسخها كلها ، وأمر الله تعالى باتباع القرآن وحده . فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ : هذا =

فالظالم لنفسه هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً[(١)] ، فهو تحت مشيئة الله ، إن شاء غفر له ، وإن شاء أخذه بذنبه ، ونجّاه بتوحيده من الخلود في النار[(٢)] . وأما المقتصد فهو الذي عمل بما أوجب الله عليه ، وترك ما حرم عليه فقط[(٣)] ، وهذه حال الأبرار . وأما السابق فهو الذي حصل له كمال

تعظيم للقرآن . ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ : أي اخترنا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، أمة محمد ﷺ ، وفي هذا ثناء على هذه الأمة ، وأن الله تعالى اختارهم لحمل هذا الكتاب ودراسته .

ثم قسّم أمة محمد ﷺ إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الظالم لنفسه ، وهو الموحِّد العاصي .

القسم الثاني : المقتصد ، الذي فعل الواجبات وترك المحرمات ، واقتصر على ذلك ، وهؤلاء هم الأبرار .

القسم الثالث : السابق بالخيرات ، وهو المقرّب ، الذي فعل الواجبات والمستحبات ، وترك المحرمات والمكروهات ، وبعض المباحات من باب الاحتياط والورع ، وهؤلاء هم المقربون .

فقسّم هذه الأمة إلى هذه الأقسام الثلاثة ، ثم وعدهم كلهم بالجنة ، فقال تعالى : ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ . وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ . ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ ﴾ : أي تعب ﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴾ [سورة فاطر : ٣٢ - ٣٥] ، فوعدهم الله جميعاً بالجنة ، ولكن تختلف منازلهم فيها ، ويختلف دخولهم فيها ، وهذا فيه دليل واضح لمذهب أهل السنة والجماعة أن أصحاب الكبائر لا يكفرون ؛ لأن الله وعدهم بالجنة ، وجعلهم من المصطفين ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ ﴾ فهذا فيه رد على الخوارج والمعتزلة الذين يكفرون أصحاب الكبائر - والعياذ بالله - .

(١) أي أنه جمع بين طاعة ومعصية ، لكن معصيته لم تصل إلى حد الشرك .

(٢) فالمؤمن وإن دخل النار بذنوبه ، فإنه لا يخلد فيها بسبب التوحيد ، هذا هو فضل التوحيد .

(٣) الاقتصاد هو عدم التوسع في الشيء ، مقتصد في العبادة ، اقتصر على أداء الواجبات ، وتجنب المحرمات .

الإيمان باستفراغه وسعه في طاعة الله علماً وعملاً[١] . فهذان لهما الأمن التام والاهتداء التام في الدنيا والآخرة، فالكل للكل، والحصة للحصة[٢] ؛ لأن كمال الإيمان يمنع صاحبه من المعاصي وعقوباتها فلم يلق ربه بذنب يعاقب به، كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾[٣] [سورة النساء: ٤٧].

وهذا الذي ذكرته في معنى هذه الآية هو معنى ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ، وابن القيم ﷺ في معناها[٤] ، وهو الذي دل عليه القرآن، وهو قول أهل السنة والجماعة خلافاً لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم[٥] .

قوله: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له[٦] ، وأن محمداً عبده

(١) فطبقاتهم هي: الظالم لنفسه، وهم عصاة الموحدين، وأبرار: وهم المقتصدون، ومقربون: وهم السابقون بالخيرات.

(٢) يعني الأمن التام، والاهتداء التام (للكل) : يعني لمن أتى بكل العبادة، وتجنب المعاصي، يحصل له الهداية، والأمن المطلق، (والحصة للحصة) : الذي جاء بتوحيد ومعاصي له أمن، وعليه وعيد.

(٣) هذا تعهد من الله ﷻ لمن شكر وآمن بأنه لا يعذِّبه.

(٤) ذكر الله ﷻ هذه الطبقات الثلاثة في سورة الواقعة: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ [آية ٧]، فذكر المقرَّبين، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشئمة، فصَّلهم في أول السورة، ثم أجملهم في آخرها، فقال: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ . فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ . وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ . فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [سورة الواقعة: ٨٨ - ٩٤]، وكذلك في سورة ﴿ هَلْ أَتَىٰ ﴾ [سورة الإنسان]. ذكر الطبقات الثلاث وشرابهم.

(٥) الذين يكفرون بالكبائر، التي دون الشرك.

(٦) أي اعترف لله ﷻ بالعبودية، بلسانه وقلبه وأفعاله، فالشهادة قول باللسان يتلفظ به،

=

ورسوله(١) ، وأن عيسى عبد الله ورسوله(٢) ، وكلمته ألقاها إلى مريم(٣)

واعتقاد بالقلب ، فيعتقد ما تدل عليه ولابد أن يعرف معناها ، وأن يعمل بمقتضاها ، فلا يعبد إلا الله .

فلابد من هذه الأمور الثلاثة : أن ينطق بها ، وأن يعرف معناها ، وأن يعمل بمقتضاها ، حتى يكون من أهل هذه الشهادة ، أما مجرد التلفظ بها من غير معرفة لمعناها فهذا لا ينفعه بل تصبح مثل اللفظ الأعجمي الذي يردده ولا يدري ما معناه .

وكذلك لو عرف معناها ، ولكنه لم يعمل بمقتضاها فإنها لا تنفعه ؛ لأن المشركين عرفوا معناها ، فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ [سورة ص : ٥] . وقالوا : ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [سورة الصافات : ٣٦] ، ولكن لما لم يعملوا بمقتضاها لم تنفعهم . وهذا مما يؤكد على المسلم وجوب تعلم التوحيد ، ومعنى (لا إله إلا الله) ، والقيام بما تتطلبه هذه الكلمة .

فمعنى (لا إله إلا الله) : لا معبود بحق إلا الله ﷻ(*) . فـ(لا إلـٰه) : إبطال لجميع المعبودات من دون الله . (إلا الله) : إثبات العبادة لله ﷻ .

(١) لابد مع الاعتراف بتوحيد الله ﷻ ، من الاعتراف برسالة النبي ﷺ ، فمن كفر بالرسول ﷺ وجحد رسالته لم تنفعه (لا إلـٰه إلا الله) ؛ لأن اليهود يقولون : (لا إلـٰه إلا الله) ، ولكنهم يكفرون ببعض الأنبياء فلم تنفعهم ، حتى يصدقوا برسالة محمد ﷺ ، ويطيعوه فيما أمر ، ويتركوا ما نهى عنه وزجر ، ويعبدوا الله تعالى بشريعة الرسول ﷺ ، وليس بهواهم ، أو بالبدع والمحدثات .

(٢) عيسى ابن مريم ﷺ عبد الله ورسوله ، ليس له شيء من الربوبية ، كما تقول النصارى : إنه هو الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة - تعالى الله عما يقولون - فقوله : « عبد الله » : هذا ردٌّ على النصارى ، « ورسوله » : هذا ردٌّ على اليهود الذين يجحدون رسالة عيسى ﷺ .

(٣) عيسى (كلمة) : لأنه وُجد بقول الله تعالى : (كن) فيكون ، فهو ليس له أب ، وإنما وُجد من أنثى بلا أب ، والغالب في البشر أنهم يوجدون بين ذكر وأنثى .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - : أن بعض المسلمين يقولون : إن معنى (لا إله إلا الله) إخراج الشيء الفاسد من قلب المسلم ، ووضع الشيء الحسن ، فهل هذا المعنى صحيح ؟ فأجاب : لا ، ليس صحيحاً ، هذا كلام الصوفية . معنى (لا إله إلا الله) : أن لا يُعبد إلا الله ﷻ ، إخراج الشرك ، وإقرار التوحيد . أ.هـ

وروح منه[١] ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »[٢] .

---

(١) المراد بالروح هنا : الروح المخلوقة ، فقوله : « منه » : من : ابتدائية وليست تبعيضية ، مثل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [سورة الجاثية : ١٣] . فـ(من) : ليست تبعيضية كما تقول النصارى : عيسى بعض من الله ؛ لأنه ابن الله – تعالى الله عما يقولون – بل المراد بـ(من) هنا : الابتدائية ، أي من عنده سبحانه ، وبأمره . فعيسى ﷺ روح مخلوقة كسائر الأرواح ، نفخ جبريل ﷺ في جيب مريم ، أو نفخ في فرجها ، فدبَّت النفخة إلى الرحم ، فوُجد الحمل – بإذن الله ﷻ – من غير أب ، والله على كل شيء قدير ، فقد خلق آدم ﷺ من قبل دون أب أو أم ، خلق من تراب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٩] ، فليس خلق عيسى ﷺ من أم بلا أب ، بأعجب من خلق آدم ﷺ ، خلقه من تراب ، بدون أم ولا أب ، فالله على كل شيء قدير ، يخلق ما يشاء ﷻ .

(٢) أن الجنة التي وعدها الله المتقين حق ، وأن النار التي وعدها الله الكافرين حق ، وفي هذا ردٌّ على الملاحدة الذين لا يؤمنون بالجنة والنار ، ولا بالبعث والحساب ، وردٌّ على المشركين الذين يجحدون بالبعث والجزاء يوم القيامة .

فمن اعتقد هذا ، فشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، قاله واعتقده ونطق به « أدخله الله الجنة » هذا وعد من الله تعالى بسبب توحيده أن يدخله الجنة ، ويؤمِّنه من العذاب ، وهذا فيه بيان فضل التوحيد ، وأن صاحبه آمنٌ من العذاب يوم القيامة .

« على ما كان من العمل » : يعني ولو كان عنده ذنوب ومعاصي دون الشرك ، فإنه موعود بدخول الجنة ، إما أن يدخلها ابتداءً من غير تعذيب ، وإما أن يدخلها بعد تعذيبه في النار .

وقيل معنى « على ما كان من العمل » : أي أنه تكون منزلته في الجنة بحسب عمله ؛ لأن أهل الجنة يتفاوتون في الجنة في منازلهم بحسب أعمالهم ، لكن الظاهر هو المعنى الأول .

فهذا الحديث حديث عظيم ، وفيه البراءة من الأديان الثلاثة : دين المشركين ، ودين اليهود ، ودين النصارى . دين المشركين الذين لا يشهدون أن لا إلـه إلا الله ، ودين

=

اليهود الذين لا يشهدون برسالة عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - ، ودين النصارى الذين يعتقدون أن عيسى هو الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، وهذا موجود في كتبهم التي يزعمون أنها الأناجيل ، وهي كذب وبهتان ، هم الذين كتبوها ، وزوَّروها ، وليست هي الأناجيل الذي أنزل على عيسى ﷺ ؛ بل هي أناجيل محرَّفة ومزورة(*) ، ومدخل فيها من الشرك والكفر ما لا يعلمه إلا الله .

وينادون الآن بهذا في إذاعاتهم ، ويوزعون الأناجيل ، ويبشرون بدين المسيح في زعمهم وكذبوا ، ليس هذا هو دين المسيح ، ولا دين أي أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل هو دين الشرك ، لأن عيسى ﷺ - كإخوانه من المرسلين - يدعو إلى التوحيد ، وينهى عن الشرك : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [سورة المائدة : ١١٧] . هذا الذي أمر به عيسى ﷺ ، ولم يقل لهم : اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، وإنما هذا من افترائهم وكذبهم ، وسيفضحهم الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، حينما يقول لعيسى ﷺ : ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ [سورة المائدة : ١١٦] . أنت تعلم ما يصدر مني حتى ما لم أتكلم به ، حتى ما في قلبي ونفسي قبل أن أتكلم ، فأنت تعلم أنني لم أقل هذه المقالة : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [سورة المائدة : ١١٦ ، ١١٧] ، هذا الذي أمرهم به عيسى ﷺ كغيره من إخوانه النبيين ، فالأنبياء كلهم جاءوا بالتوحيد ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] ، ولم يأت نبي من الأنبياء بالشرك - حاشا وكلا - الشرك خلاف دعوة الأنبياء جميعاً عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، فكيف ننسب إلى عيسى ﷺ من بين الرسل أنه دعا إلى الشرك ؟!

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - عن التحريف الواقع على التوراة ، والإنجيل ، هل هو تحريف لألفاظهما أم معانيهما ؟ فأجاب : تحريفهم شامل لتحريف اللفظ ، وتحريف المعنى ؛ بل أدخلوا فيها ما ليس منها من تنقص الله ﷻ ، ونسبة الولد إليه ، والباقي منها حرفوه ، لفظاً أو معنى . أ.هـ

قوله : « من شهد » لا ريب أن الشهادة لا تكون شهادة إلا إذا كانت عن علم ويقين وصدق ، وأما مع الجهل والشك فلا تعتبر ولا تنفع ، فيكون الشاهد والحالة هذه كاذباً لجهله بمعنى الذي شهدته(١) .

وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفياً وإثباتاً(٢) . فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله بقولك : « لا إلـٰه » ، وأثبتت الإلهية لله وحده بقولك : « إلا الله » ، قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾(٣) [سورة آل عمران : ١٨] .

فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضل ، وهم الأكثرون(٤) ، فقلبوا حقيقة المعنى ، فأثبتوا الإلهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور

---

(١) الشهادة ليست مجرد لفظ ، لابد من النطق ومعرفة المعنى والاعتقاد بالقلب ، والعمل به ظاهراً وباطناً .

(٢) كلمة التوحيد (لا إلـٰه إلا الله) : لها ركنان : ركن النفي : (لا إلـٰه) ، وركن الإثبات : (إلا الله) . فلو جئت بالإثبات فقلت : (الله إلـٰه) ما ثبتت ، ولو جئت بالنفي فقط فقلت : (لا إلـٰه) هذا إلحاد فلابد من الجمع بين النفي والإثبات ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ فيه نفي وإثبات ، وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ فيه نفي وإثبات، فلا يكفي الإثبات وحده ، ولا النفي وحده.

(٣) هذه الشهادة (لا إلـٰه إلا الله) ، شهد الله بها ، وملائكته وأولو العلم من خلقه ، فمن أثبت مع الله إلـٰهاً آخر فإنه مخالف لهذه الشهادة من الله تعالى ، ومن ملائكته ، ومن أولي العلم من خلقه .

(٤) لأنهم يقولونها بألسنتهم ، ويعتقدون أنها تنفعهم بمجرد اللفظ ، ويرددونها في الأوراد ، ولكن لا يعرفون معناها ، أو يعرفونه ولكنهم لا يعملون به ، هؤلاء لا تنفعهم (لا إلـٰه إلا الله) ولو رددوها عدد الأنفاس ، لأنهم ليسوا من أهلها .

والمشاهد ، والطواغيت والأشجار ، والأحجار ، والجن وغير ذلك[١] ، واتخذوا ذلك ديناً ، وشبَّهوا وزخرفوا ، واتخذوا التوحيد بدعة ، وأنكروه على من دعاهم إليه[٢] ، فلم يعرفوا منها ما عرف أهل الجاهلية من كفار قريش ونحوهم[٣] ، فإنهم عرفوا معناها ، وأنكروا ما دلت عليه من الإخلاص[٤] ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾[٥] [سورة الصافات : ٣٥، ٣٦] .

والمشركون من أواخر هذه الأمة أنكروا ما أنكره أولئك على من دعاهم إلى ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله من القبور والمشاهد ، والطواغيت ونحوها . فأولئك عرفوا هذا المعنى وأنكروه[٦] ، وهؤلاء جهلوا هذا المعنى

---

(١) أثبتوا المنفي وهو الشرك ، فاعتقدوا الشرك في القبور والأحجار والأشجار والأصنام ، ونفوا المثبت وهو إفراد الله بالعبادة ، فهم خالفوا وعاكسوا هذه الكلمة العظيمة ، وإن كانوا يقولونها بألسنتهم ، ولكن مجرد القول لا ينفعهم .

(٢) فالذي يدعوهم إلى التوحيد ، وترك عبادة القبور والأضرحة يُبدِّعوه ، ويقولون : هذا خارجي ، مبتدع ، جاء بمذهب خامس ، أو دين جديد ، فهم يُبدِّعون أهل التوحيد ، ويمدحون أهل الشرك ، وأنهم هم المسلمون ، وأن الإسلام هو عبادة القبور ، والتقرب إلى الأموات والأولياء والصالحين ، هذا من قلب الحقائق - والعياذ بالله - ولا تستغربوا هذا ، هذا موجود في كتبهم التي يردُّون بها على أهل التوحيد .

(٣) أهل الجاهلية عرفوا معنى (لا إله إلا الله) لكنهم أبوا أن يلتزموا به خشية التناقض ، وهؤلاء ما عرفوا معناها ، ولذلك وقعوا في الشرك ، وهم يقولونها .

(٤) هؤلاء هم المشركون .

(٥) فهم المشركون الأولون أن معنى هذه الكلمة ترك عبادة الأصنام ، وهؤلاء المتأخرون لم يفهموا ذلك .

(٦) ويقولون لمن قال لهم : اتركوا عبادة القبور والأضرحة ، والأولياء والصالحين يقولون :

=

وأنكروه ، فلهذا تجده يقول : (لا إلـٰه إلا الله) وهو يدعو مع الله غيره[(١)] .

قال ابن القيم ﷺ : (الإلـٰه[(٢)] هو الذي تألهـه القلـوب محبـة وإجـلالاً ، وإنابة وإكراماً ، وتعظيماً وذلاً ، وخضوعاً وخوفاً ، ورجاءً وتوكلاً) .

وقال الوزير أبو المظفر[(٣)] ﷺ في « الإفصاح » : (قوله : « شهادة أن لا إلـٰه إلا الله » يقتضي أن يكون الشاهد عالماً بأن لا إلـٰه إلا الله ، كما قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[(٤)] [سورة محمد : ١٩]) قال : (واسم الله مرتفع بعد إلا[(٥)] من

أنت تمقت الأولياء والصالحين وتبغضهم ، فنقول لهم : وأنتم تنقصتم الله ﷻ وأبغضتموه ، ونحن لا نتنقص الأولياء والصالحين ؛ بل نحبهم ، ولكن نقول : ليس لهم حق في العبادة ، لأن العبادة حق لله ﷻ ، وليس في هذا تنقص لهم ، بل أنتم تدَّعون علينا هذا مع أنكم تتنقصون الله ﷻ ، وتشركون به .

(١) لأنه لا يعرف معنى التوحيد ، فلا يعرف أن (لا إلـٰه إلا الله) تبطل الشرك ، فلذلك يستمر على الشرك ، وهو يقول : (لا إله إلا الله) فيتناقص قوله مع عمله - والعياذ بالله - .

(٢) الإلـٰه : مأخوذ من المحبة ، وهو الوَلَه ، وهو الذي تألهه القلوب محبة ، وإجلالاً ، وتعظيماً .

(٣) سمي الوزير لأنه استوزر من بعض الخلفاء ، وكان من أجِلَّة العلماء ﷺ ، وله مؤلف في « الإفصاح بشرح معاني الصحاح » ، وهو شرح للجمع بين الصحيحين ، ولما وصل إلى قول النبي ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »[(*)] كتب على هذا الحديث مجلداً كاملاً من أول الفقه إلى آخر الفقه ، وذكر فيه اختلاف الأئمة الأربعة ﷺ في كل مسألة من باب الاستطراد .

فهذا الكتاب المسمى الآن بـ« الإفصاح في الفقه » هو قطعة من شرح ابن الوزير على كتاب « الجمع بين الصحيحين » .

(٤) قوله : « فاعلم » : هذا شرط من شروط (لا إلـٰه إلا الله) أن يعلم بمعناها ، وأما أنه يردد كلاماً لا يفقه معناه ، فهذا لا يفيده شيئاً .

(٥) أي مرفوع بالضم لأنه إذا لم يذكر المستثنى منه فإنه يجوز في المستثنى الرفع أو النصب .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٣٩ (٧١) ، ومسلم في « صحيحه » ٢ / ٧١٩ (١٠٣٧) .

حيث إنه الواجب له الإلهية ، فلا يستحقها غيره سبحانه) .

قال : (وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله ، فإنك لما نفيت الإلهية ، وأثبت الإيجاب لله سبحانه ، كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله)[١] .

وقال ابن رجب[٢] ﷺ : (الإلـٰه هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالاً ، ومحبة وخوفاً ، ورجاء[٣] وتوكلاً عليه ، وسؤالاً منه ودعاءً له[٤] ، ولا يصلح ذلك كله إلا لله ﷻ ، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه[٥] في قول :

(١) فهذه الكلمة (لا إلـٰه إلا الله) : هي الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله .
الكفر بالطاغوت : بكل ما يُعبد من دون الله .
والإيمان بالله : وهو التوحيد .

(٢) لابن رجب ﷺ رسالة اسمها : « تفسير كلمة الإخلاص » ، أو اسمها : « كلمة الإخلاص » مطبوعة ومتداولة ، وهي رسالة قيمة ، وجديرة بالعناية .

(٣) الإلـٰه هو الذي تصرف له العبادة بجميع أنواعها ، ومنها : الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ، والذبح والنذر ، وسائر العبادات .

(٤) فلا يُسأل إلا هو ، ولا يخاف إلا منه ، ولا يُرجى إلا هو ، ولا يُدعى إلا هو ﷻ ، كل هذا داخل في معنى (لا إلـٰه إلا الله) .

(٥) من دعا غير الله ، أو ذبح لغير الله ، أو نذر لغير الله ، فإنه قد صرف العبادة لغير الله ﷻ ، ولم يكن مخلصاً لله ﷻ ، وإن كان يعبد الله بأنواع من العبادات ، ما دام أنه يعبد معه غيره فعبادته لله باطلة . قال الله ﷻ في الحديث القدسي : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري ، تركته وشركه »[*] وفي رواية : « فأنا منه بريء ، وهو

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٢٨٩ (٢٩٨٥) .

=

« لا إلـه إلا الله » ، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك)(١) .

وقال البقاعي : (« لا إلـه إلا الله » أي انتفى انتفاءً عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم)(٢) . قال : (وهذا العلم هو من أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة ، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً ، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه(٣) ، وإلا فهو جهل صرف) .

قلت(٤) : وهؤلاء المتأخرون جهلوا معنى (لا إلـه إلا الله) وقلبوا حقيقة

للذي أشرك »(*) فإنه سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه ، وصواباً على سنة رسوله ﷺ .

(١) فمُقلٌّ ومستكثر .

(٢) (لا إلـه إلا الله) : (لا) : نافية للجنس من أخوات (إن) . (إلـه) : اسم لا ، والخبر محذوف تقديره (بحق) أي : (لا إلـه بحق) أو (لا إلـه حق) .
وأما تقديره بـ(موجود) فيقال : (لا إلـه موجود إلا الله) فإنه باطل ؛ لأن معناه أن كل الآلهة المعبودة هي الله ، وهذه عقيدة وحدة الوجود - نسأل الله العافية - إذاً لابد من تقدير الخبر (بحق) أي (لا إلـه بحق إلا الله) ؛ لأن هناك آلهة لكن بغير حق ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سورة الحج : ٦٢] .

(٣) العلم ليس مجرد معرفة للأقوال ، ومعرفة للنصوص ، بل لابد من العمل مع العلم ، وأما علمٌ بدون عمل فهذا لا ينفع ، بل هو حجة على صاحبه ، ويكون صاحبه من أول مَن تُسعَّر بهم النار يوم القيامة ، وهو عالم ، لا ينفعه علمه ؛ لأنه لم يعمل به .
فمن عَلِمَ معنى (لا إلـه إلا الله) وجب عليه أن يعمل به ، وأن يخلص العبادة لله تعالى ، ولا يدعو غيره .

(٤) أي قال الشارح أو المعلِّق : الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله .

(*) أخرجه ابن ماجه في « سننه » ٢ / ١٤٠٥ (٤٢٠٢) ، وصححه الألباني .

المعنى إلى معنى توحيد الربوبية ، وهو القدرة على الاختراع[(١)] ، فأثبتوا ما نفته (لا إلـه إلا الله) من الشرك ، وأنكروا ما أثبتته من إخلاص العبادة لله جهلاً منهم[(٢)] ، وقد قال تعالى : ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [سورة الزمر : ٢] .

قال محيي الدين النووي رحمه الله : (اعلم أن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع من أزمان متطاولة ، ولم يبق في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه ، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح)[(٣)] .

(١) في عقائدهم التي ألفوها على قواعد المنطق وعلم الكلام ، يفسرون التوحيد بأنه الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق ، المحيي المميت ، وأن الإلـه : هو القادر على الاختراع ، فـ(لا إلـه) : يعني لا قادر على الاختراع والخلق إلا الله . هذا هو توحيد المشركين ؛ لأنهم يعترفون به ولم ينفعهم .

فهذا التفسير تفسير باطل ، ليس هو معنى التوحيد ، التوحيد هو إفراد الله بالعبادة ، أما الإقرار بالربوبية فهذا لا يكفي ، ولا ينجي من عذاب الله تعالى .

(٢) لأنهم ينكرون على من دعاهم إلى إفراد الله بالعبادة ، وترك عبادة القبور ، ويحتجون بعوائد الناس وما هم عليه من العمل ، وبوجود علماء لم ينكروا عليهم ، فنقول : سبحان الله ، وهل العلم يؤخذ عن الناس ، أم من الكتاب والسنة ؟! لاسيما علم التوحيد ، فإذا كانت مسائل الفقه لا تؤخذ إلا بدليل ، فكيف بمسائل التوحيد .

وهؤلاء العلماء الذين لم ينكروا ما عليه القبوريين ، هؤلاء لا يحتج بهم لأنهم علماء ضلال ، وقد قال النبي ﷺ : « أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين »[(*)] ، لأنهم علماء يُحسن الناس الظن بهم ، فيقودونهم إلى الضلال . وإنما العلماء هم أهل الخشية ، وأهل العمل بالعلم ، وأهل التوحيد ، هؤلاء هم العلماء ، ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام .

(٣) كما قال النبي ﷺ لزينب رضي الله عنها لما قالت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال:

(*) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » – كما في « الإحسان » – ١٥ / ١٠٩ (٦٧١٤) ، وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح .

قوله : (في هذه الأزمان) : يعني القرن الخامس والسادس[١] ، وإذا كان كذلك فما الظن بالقرن العاشر وما بعده[٢] ، وقد استحكمت فيها الغربة[٣] ؟! ولشيخنا محمد بن عبد الوهاب ﷺ في تفسير هذه الكلمة كلام حسن بديع واضح[٤] ، لم يسبق إلى مثله ، فليراجع لمسيس الحاجة إليه .

قوله في الحديث : « وحده لا شريك له » تأكيد لمعنى « لا إلـٰه إلا الله » الـذي

« نعم ، إذا كثر الخبث »(*) . فالمعصية إذا لم تنكر ، ونزلت العقوبة ، فإنها تعم الصالح والطالح ، الطالح لأنه فعل المعصية ، والصالح لأنه لم ينكر فاستحق العقوبة ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الأنفال : ٢٥]. فإذا ترك الناس الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده ، حتى الذين لم يفعلوا المعاصي يقع عليهم العذاب ، لأنهم لم ينكروا ، ولم يغاروا لله ﷻ ، وأما الذين ينكرون فإن الله ينجيهم بسبب إنكارهم ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٥] .

(١) وهو عصر الإمام النووي ﷺ .

(٢) والقرن الخامس عشر ، وما بعده . لأنه كلما تأخر الزمان يَكثر الخَبَث والشر ، ويُقبض العلم ، ويبقى الجهل ، ويحصل الخطر العظيم في آخر الزمان ، وتشتد غربة الدين في آخر الزمان .

(٣) استحكمت الغربة حتى اعتقدوا أن الشرك هو التوحيد ، والتوحيد هو الشرك والكفر ، هل بعد هذه الغربة غربة ؟! هذا هو قول الأولين : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ [سورة ص : ٥] ماالفرق بينهم ؟!

(٤) هذه رسالة مستقلة موجودة في مجموعة التوحيد ، بعنوان : « تفسير التوحيد » ، وهي رسالة جيدة مختصرة .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١٢٢١ (٣١٦٨) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٢٠٧ (٢٨٨٠) .

دلَّت عليه(١) ووضعت له من باب اللف والنشر المقدَّم والمؤخَّر(٢) .

وهو بيان لحقيقة معنى هذه الكلمة ؛ لأنها دلت بجملتها على التوحيد ، فـ« لا إلـٰه » تنفي الشرك في العبادة قليله وكثيره ، وبيَّنه بقوله : « لا شريك له » في إلهيته ، وهي العبادة . وقوله : « وحده » هو معنى « إلا الله » فهو الإلـٰه الحق وحده دون كل ما سواه من أهل السموات والأرض ، كما دلت على ذلك الآيات المحكمات ، ومتواتر الأحاديث ، فتدبر هذا البيان يطلعك على بطلان قول من يقول بجواز دعوة غير الله ، والله تعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾(٣) [سورة الشعراء : ٢١٣] ، وغيرها من الآيات الآتي ذكرها إن شاء الله تعالى(٤) . فقوله : « وحده » تأكيد للإثبات ،

---

(١) « وحده » : هذا تأكيد للإثبات (إلا الله) ، « لا شريك له » : هذا تأكيد للنفي (لا إلـٰه) وقد أتى مقدماً ومؤخراً من باب اللف والنشر غير المرتب عند البلاغيين .
فكلمة (لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له) : (وحده) : تأكيد لآخر الكلمة (إلا الله) ، و(لا شريك له) : تأكيد لأولها (لا إلـٰه) فهو بدأ بتأكيد آخر الكلمة قبل أولها .

(٢) اللف والنشر غير المرتب مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٦] ، بدأ بالشق الأخير فهذا من باب اللف والنشر غير المرتب ، المرتب أن يبدأ بالذين ابيضت وجوههم ، وهذا أسلوب عربي بليغ يأتي في القرآن الكريم .

(٣) لو دعا الرسول ﷺ غير الله تعالى - وحاشاه - لكان من المعذبين ، وفي الآية الأخرى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ، فإذا كان الرسول ﷺ لو أشرك لكان من المعذبين وحبط عمله ، فكيف بغيره ؟
وقال الله ﷻ في الرسل الآخرين : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

(٤) هذا شق الشهادة ، وهو شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ، وهؤلاء القبوريون يشهدون أن محمداً رسول الله ، لكنهم في الحقيقة لا يشهدون أن لا إلـٰه إلا الله ، لأنهم يعبدون غير الله ﷻ .

وقوله : « لا شريك له » تأكيد للنفي .

قوله : « وأن محمداً عبده ورسوله » أي : وشهد أن محمداً عبده ورسوله[١] ، أي : بصدق ويقين ، وذلك يقتضي اتباعه ، وتعظيم أمره ونهيه ، ولزوم سنته ﷺ[٢] ، وأن لا تعارض بقول أحد[٣] ؛ لأن غيره ﷺ يجوز عليه

(١) هذا هو الشق الثاني للشهادة ؛ لأن شهادة أن (لا إلـه إلا الله) لا تكفي إلا مع شهادة (أن محمداً رسول الله) ، وشهادة (أن محمداً رسول الله) لا تكفي إلا مع شهادة (أن لا إلـه إلا الله) ، فلابد من الشهادتين .

(٢) كما أن (لا إلـه إلا الله) ليست مجرد لفظ يُقال باللسان ، بل هي تتضمن المعنى والاعتقاد والعمل ، فكذلك شهادة (أن محمداً رسول الله) ليست مجرد لفظ يقال باللسان ، بل هي تتضمن نطق اللسان ، واعتقاد القلب ، والعمل بمقتضى هذه الشهادة من الاتباع للرسول ﷺ ، وطاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، وترك ما نهى عنه وزجر ، وذلك حتى تصح شهادة (أن محمداً رسول الله) ، أما مجرد التلفظ بها من غير عمل بها فإنها لا تنفع صاحبها .

فالمشركون يشهدون أنه رسول الله بقلوبهم - كما قال تعالى - : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٣٣] . وأبو طالب يقول(*) :

ولقد علمتُ بأنَّ دِينَ محمدٍ ... مِنْ خيرِ أديانِ البريَّةِ دِيناً
لولا الملامةُ أو حَذارُ مسبَّةٍ ... لوجدْتَني سَمْحاً بذاكَ مُبيناً

فهو يعترف أنه رسول الله ، ولكن لم يتبعه من باب الحمية الجاهلية لدين المشركين ، فمجرد الاعتراف برسالته ﷺ لا يكفي ، وفي هذا يقول الله ﷻ : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٧] .

(٣) فتُقدَّم سنَّته ﷺ على كل قول ، مهما كان قائله ، فلا قول لأحد مع رسول الله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(*) ذكره الدياربكري في كتابه : « تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس » ١ / ٣٠١ .

=

الخطأ ، والنبي ﷺ قد عصمه الله تعالى وأمرنا بطاعته ، والتأسي به(١) .

والوعيد على ترك طاعته بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾(٢) [سورة الأحزاب : ٣٦] الآيــة ،

[سورة الحشر : ٧] فالذي يشهد أنه رسول الله ، ولكن لا يأخذ من أحاديث الرسول ﷺ إلا ما يوافق هواه ، وأما ما لم يوافق هواه ، إما أن يفسّره بغير تفسيره ، وإمّا أن يردَّه بالكلام في إسناده ، أو أنه من أحاديث الآحاد .. إلخ ، فهذا لم يشهد أنه رسول الله ﷺ .

(١) الرسول ﷺ معصوم من الخطأ(*) ، ولا يقول إلا حقاً ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [سورة النجم : ٣ ، ٤] . وأما غيره من العلماء فهم محل اجتهاد يخطئون ويصيبون ، فيؤخذ من اجتهادهم وأقوالهم ما وافق الحق، ويترك ما خالف الحق.

ولهذا لا يجب اتباع شخص بعينه إلا الرسول ﷺ ، وأما غيره فإنه يُتّبع فيما اتُّبع فيه الرسول ﷺ ، ولا يُتّبع فيما خالفه فيه ، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (من اعتقد أن أحداً يجب اتباعه غير الرسول ﷺ فإنه يُستتاب ، فإن تاب وإلا قُتل)(**) .

يعني من اعتقد أن شخصاً تجب طاعته وقبول أقواله غير الرسول ﷺ فإنه مرتد عن دين الإسلام ؛ لأن هذا لا يكون إلا في حق الرسول ﷺ ، وأما غيره فإنه يؤخذ من قوله ما وافق سنة الرسول ﷺ ، ويُترك ما خالف سنة الرسول ﷺ .

(٢) أوجب الله ﷻ طاعة الرسول ﷺ ، كما أوجب طاعته سبحانه ؛ لأن الرسول ﷺ مبلغ عن الله ، ومعصوم من الخطأ ، وتجب طاعته بكل حال من غير توقف ، ومن غير شك في قوله ﷺ .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عمن يقول : إن النبي ﷺ معصوم فيما يبلّغه عن ربه ، وليس معصوماً في غير ذلك ، فأجاب : جميع الرسل معصومون فيما يبلّغونه عن الله ﷻ ، هذا بإجماع المسلمين ، ومن اعتقد بأنهم غير معصومين ، فإنه كافر . وكذلك معصومون من كبائر الذنوب ، لا تجوز عليهم كبائر الذنوب ؛ لأنها تجرح العدالة . وأما الصغائر فإنهم معصومون من الاستمرار عليها ، قد يقعون في بعضها ، لكن يتوبون إلى الله ﷻ ، فهم معصومون منها في النهاية ، وقد لا يكونون معصومين منها في البداية . هذا هو التفصيل الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهو المتمشي مع الأدلة . أ.هـ

(**) مجموع الفتاوى ٣٣ / ١٣٤ ، ٤٣٥ بتصرف .

=

وقال : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(١)] [سورة النور : ٦٣] .

قال الإمام أحمد رحمه الله : (عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ، يذهبون إلى رأي سفيان[(٢)] ، والله تعالى يقول : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن

ومن الأدلة على وجوب طاعته : قوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [سورة الحشر : ٧] فـ﴿ ما ﴾ : مصولة من صيغ العموم . ﴿ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ : أي فاقبلوا كل ما أمر به الرسول ﷺ ، ﴿ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ : أي اتركوا كل ما نهى عنه الرسول ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [سورة النساء : ٨٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [سورة النور : ٥٤].

وقال ﷻ : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة النور : ٥٦] . إلى غير ذلك من الآيات ، فطاعة الرسول ﷺ واجب لا خيار فيه .

(١) هذا وعيد من الله ﷻ لمن خالف الرسول ﷺ ، أن تصيبه فتنة في قلبه ، وهو الشرك والزيغ – والعياذ بالله – ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ : أي عقوبة عاجلة أو آجلة بالقتل ، أو بتلف الأموال والأولاد ، هذا في الدنيا ، وفي الآخرة عذاب النار – والعياذ بالله – .

فالذي يخالف الرسول ﷺ متوعد بهاتين العقوبتين :

– عقوبة قلبية : وهي الفتنة ، بأن يُصرف قلبه عن الحق ، وهذه أشد .

– عقوبة بدنية : بأن يُصاب في بدنه بعقوبة مرض ، أو قتل ، أو ضرب ، أو غير ذلك . هذا في الدنيا ، وفي الآخرة عذاب النار أشد وأنكى .

(٢) يعني عجب الإمام أحمد رحمه الله من قوم يعرفون صحة الحديث ، ثم يخالفونه إلى اجتهاد بعض العلماء ، ويقولون : قال فلان . فإذا خالف قول فلان قول الرسول ﷺ فإنه لا يجوز الأخذ به ، وإن كان إماماً جليلاً مثل : سفيان الثوري .

فالأئمة رحمهم الله يجتهدون ويريدون الحق ، منهم من يصيبه ، ومنهم من يخطئه ، ليسوا =

تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(1)] [سورة النور : ٦٣] أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة : الشرك ، لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك)[(2)] . وقد وقع التفريط في المتابعة وتركها ، وتقديم أقوال من يجوز عليهم الخطأ على قوله ﷺ ، لاسيما العلماء ، كما لا يخفى[(3)] .

قوله : « وأن عيسى عبد الله ورسوله » فيه بيان الحق الذي يجب اعتقاده ، كما في الآيات المحكمات[(4)] ، وما فيها من الرد على كفار النصارى ، وهم

معصومين ، وهم لا يتعمدون مخالفة الرسول ﷺ ، بل إن حصل منهم شيء من المخالفة فإنه عن غير قصد ، فهم معذورون ﷺ ومأجورون على اجتهادهم .

لكن لا يجوز لنا وقد عرفنا الخطأ أن نتبعه ، وإن كان قول سفيان ، أو قول الإمام أحمد ، أو قول أبي حنيفة ، أو مالك ، أو الشافعي ، لا يجوز أن نأخذ أقوالهم المخالفة ، فالعصمة ليست لأحد إلا للرسول ﷺ ، الذي لا ينطق عن الهوى .

(١) فإذا كان الذين يذهبون إلى رأي سفيان - وهو الإمام الجليل ، الورع التقي ، الفقيه المجتهد ، المعروف في الأمة - المخالف لسُنَّة النبي ﷺ متوعدون بهذا الوعيد ، فكيف بمن يذهبون إلى رأي من هو أقل من سفيان من أنصاف المتعلمين ، وأصحاب الأهواء والبدع والمحدثات ، ويقولون : هذه أقوال علماء ، ويأخذون بها ، وهي مخالفة لقول الرسول ﷺ ؟!

(٢) هذه الفتنة تصيب القلب ، والذي يصيب القلب أشد من الذي يصيب البدن .

(٣) إذا كان هذا في حق العلماء ، أنه لا يجوز تقليدهم فيما خالف الدليل ، فكيف يجوز تقليد الذين هم ليسوا من العلماء ، بمجرد أن قوله وافق الهوى ، أو وافق رغبة الناس ؟! هذا لا يجوز .

(٤) لأن عيسى ﷺ ضلَّ فيه طائفتان :

الطائفة الأولى : طائفة اليهود ، وقد فرَّطوا في حقه ، وجحدوا رسالته ، وجعلوه - قبحهم الله - ولد بغي ، لأنه ليس له أب .

الطائفة الثانية : طائفة النصارى ، الذين غلوا في حق المسيح ﷺ ، حتى اتخذوه إلـهاً =

ثلاث طوائف : طائفة قالوا : إن عيسى هو الله[(١)] ، وطائفة قالوا : إنه ابن الله[(٢)] ، وطائفة قالوا : إن الله ثالث ثلاثة[(٣)] يعنون عيسى وأمه[(٤)] . فبيَّن الله تعالى في كتابه الحق ، وأبطل الباطل ، فقال : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ

مع الله ﷻ ، وأفرطوا في حقه ﷺ .

فالمسلم يخالف الطائفتين ، فيشهد برسالته ونبوته ، ولكن لا يغلو فيه كما غلت النصارى ، ولا يجفو في حقه كما جفت اليهود .

(١) كما قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [سورة المائدة : ١٧] .

(٢) كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [سورة التوبة : ٣٠] . ويسمونه الابن المخلِّص .

(٣) كما قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [سورة المائدة : ٧٣] . أي الله ، وعيسى ، وروح القدس ، ثم يقولون : إلـٰه واحد ، فكيف تكون الثلاثة شيئاً واحداً ، هذا لا تصدقه العقول ، ولا تتصوره ، ولا نزل به كتاب ولا سنة ، إنما هو شيء ابتدعوه . ولذلك تسمى عقيدتهم بعقيدة التثليث أو المثلَّثة .

(٤) ولذلك أنزل الله قوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [سورة الإخلاص] .

فالله ﷻ ليس له والد ، ولا ولد ، ولا مشابه من خلقه ﷻ ، هذه هي العقيدة الصحيحة في الله ﷻ .

ولهذا يُذكر عن بعض النصارى الذين أسلموا في العصر الحاضر ، لما سُئل عن سبب إسلامه ، قال : لما سمعت هذه السورة - أي سورة الإخلاص - أخذت بقلبي ، فاسترحت من تفكير أخذ عليَّ الليل والنهار ، كيف يكون الثلاثة واحداً ، والواحد ثلاثة فلما سمعت هذه السورة استرحت : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ هذا هو الله ﷻ .

انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾(١) [سورة النساء : ١٧١] ،

---

(١) ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ : الغلو هو الزيادة ، كما غلوا في المسيح ﷺ ، ورفعوه من مرتبة البشرية ، إلى مرتبة الإلهية .

﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ : لا تنسبوا له من الولد والشبه ما نزَّه نفسه عنه . ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ : عيسى ابن مريم رسول الله ، وليس هو الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، فالله ﷻ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ، أما المسيح فهو مولود من أم فكيف يُتصور أنه إلـه مع أنه مولود ؟! ، وهو رسول الله ، والرسول غير المرسِل .

﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ : وهي قوله : (كن) ، فسبب وجود المسيح هو كلمة الله سبحانه (كن) فكان بهذه الكلمة بدون أب ، ولهذا يُقال : المسيح كلمة الله ؛ لأنه خلق بهذه الكلمة .

﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ : عرفنا فيما سبق أن المراد بالروح ، هي الروح المخلوقة ؛ لأن الأرواح كلها مخلوقة ، وعيسى ﷺ روح من جملة الأرواح المخلوقة ، وكلمة (منه) : ليست للتبعيض ، وإنما هي لابتداء الغاية .

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ : ومنهم المسيح ﷺ ، فمن جحد رسالة المسيح ، أو ادعى أنه فوق الرسالة ، فقد كفر بجميع الأنبياء ، لأن من كفر بنبي واحد كفر بجميع الأنبياء .

﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ﴾ : الله ، والمسيح ، وروح القدس كما هو بعض أقوال النصارى .

﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ : إنما الله إلـه واحد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ : (سبحانه) : تنزيه لله ﷻ أن يكون له ولد ؛ لأن الولد يشبه الوالد ، وهو جزء منه ، وهذا تنقص لله ﷻ ، سبحانه أن يكون له ولد .

﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ : فهو غني عن الولد ، له ما في السموات ، وما في الأرض ، فليس هو بحاجة إلى الولد ؛ لأن الذي يحتاج إلى الولد هو الفقير الذي يريد ذرية ، وأما الله ﷻ فهو غني ، له ما في السموات وما في الأرض .

﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ : مفوضاً إليه جميع الأمور ، يتصرف فيها ﷻ ، فليس بحاجة إلى من

=

والآيات بعدها (١) .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (٢) [سورة المائدة : ١٧] **في مواضع من سورة المائدة ، وأخبر تعالى عما قاله المسيح ﷺ وهو في المهد ، فقال : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ**

بعينه ، فهو يدبر الكون ولا يشق عليه سبحانه ، ليس له معين ، ولا ظهير ، ولا شبيه ، ولا مثيل ، ولا ولد ، ولا والد ، غني عن كل ذلك ﷻ .

(١) والآيات بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ [سورة النساء : ١٧٦] ، كلها في سياق تنزيه الله ﷻ عن قول النصارى : أن المسيح ابن الله ، وهذا مما أحدثوه في النصرانية بعد المسيح بقرون ، لما ظهر اليهودي بولس ، الذي ادعى الإيمان بالمسيح ، فغيَّر دين المسيح ، وأدخل فيه الوثنيات والتي منها : قولهم : المسيح ابن الله ، هذا من إحداثيات هذا اليهودي الخبيث ، فغيَّر دين المسيح ﷺ ، وتمَّ له ما أراد من إفساد دين المسيح ، وإدخال الوثنيات على النصارى ، واعتقدوها من غباوتهم وغفلتهم .

(٢) هذا القول الثالث ، يقولون : إن الله هو المسيح – تعالى الله عما يقولون – وقالوا : إنه نزل ليخلص العباد من الخطيئة – خطيئة أبيهم آدم – وقدَّم نفسه للقتل ، فقُتل ، أو صُلب من أجل فداء بني آدم ، ثم في اليوم الثالث ظهر من القبر ، وصعد إلى السماء ، هذا لا يقوله حتى الحيوانات ولا المجانين ، ولا الخنازير لا تقول هذا الكلام ؛ بل تُنَزِّه الله ﷻ ، وهم يقولونه – والعياذ بالله – ، يقولون هذا الكلام في حق الله ﷻ ، ومع هذا نقول : إخواننا المسيحيين(*) ، ودعونا نتقارب معهم ، كيف يتقارب دين الإسلام والتوحيد ، مع دين الوثنية والتثليث ؟!

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – : هل يجوز تسمية النصارى بالمسيحين ، واليهود بالإسرائيليين ؟ فأجاب : على وضعهم الحالي من الوثنية لا يقال لهم : مسيحيون ، يقال لهم : نصارى بما سماهم الله به ، فقد سماهم نصارى ، ولم يسمهم بالمسيحيين ، وسمى اليهود باليهود ، ما سماهم إسرائيليين ، يبقى اسم القرآن عليهم : اليهود والنصارى إلى يوم القيامة ، ما لم يتوبوا ، ويدخلوا في دين الإسلام . أ.هـ

جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا . يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا . وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا . وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا . ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(١) .

---

(١) هذا هو ما جاء به المسيح ﷺ : ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ : ما قال : إني أنا الله ، أو أنا ابن الله ، أو أنا ثالث ثلاثة ، بل قال : إني عبد الله . ﴿ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ : وهو الإنجيل . ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ : أي رسولاً إلى بني إسرائيل . ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ : فهو عبدٌ لله يصلي ، هل الله ﷻ يصلي ؟! هذا شأن العبيد .

﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ : كذلك دفع الزكاة ، فهو عبد من عباد الله يصلي ويزكي ، ويتعبد لله ﷻ : ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ : فهو يموت أيضاً ، هل الله يموت ﷻ ؟! الله ﷻ حي لا يموت ، ولكن عيسى ﷺ يموت ، ولهذا قال في آية أخرى : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [سورة المائدة : ١١٧] فعيسى ﷺ يموت ، فدل ذلك على أنه ليس بإلـه .

﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى ﴾ : هذا أيضاً عبادة ، البر بالوالدة عبادة . وقال : ﴿ بِوَٰلِدَتِى ﴾ : هل الله ﷻ له والدة ؟! تعالى الله عما يقولون : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا . وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾ هل الله يولد ﷻ ؟! ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ هل الله يموت ﷻ ؟! ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ : هل الله يبعث ؟! هذا كله كلام المسيح ﷺ ، وهذه مقالته ذكرها الله ﷻ ليردَّ بها على النصارى ، وهم يقرُّون بأن هذا كلام المسيح ﷺ ؛ لأنه موجود في الإنجيل ؛ ولهذا لما سمعه النجاشي أسلم ، وقال : (إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة)(*) .

(*) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٣٦ .

=

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾(١) [سورة مريم : ٢٧- ٣٦] فبيَّن تعالى الصراط المستقيم الذي من سلكه نجا ، ومن خرج عنه هلك . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾(٢) [سورة آل عمران : ٥٩ - ٦٠] فبيَّن تعالى الصراط المستقيم بياناً شافياً كافياً وافياً ، وأقام حججه على توحيده ، فأحقَّ الحق ،

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ : هذا هو شأنه ، وهذه قصته .

﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ : الله ﷻ بيَّن الحق في عيسى ﷺ ، وردَّ على النصارى ، ثم قال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ : لا يليق به سبحانه أن يتخذ الولد ؛ لأن الولد شبيه بالوالد ، والله لا شبيه له . والوالد بحاجة إلى الولد ، والله غني عن العالمين . ثم قال: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ : نزَّه نفسه عن ذلك .

﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ : فليس بحاجة إلى من يعينه ، بل بمجرد أن يقول للشيء (كن) فيكون بإذن الله ، فليس بحاجة إلى من يعينه أو يؤازره .

(١) ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ : هذا كلام المسيح ﷺ ، قاله لبني إسرائيل وهو في المهد ، ويقوله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [سورة المائدة : ١١٧] .

﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ : جعل العبادة حقاً لله ﷻ .

﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ : طريق معتدل ، هذا هو الذي جاء به المسيح ﷺ .﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ [سورة مريم : ٣٧] هذا بعد المسيح ﷺ حصل الاختلاف في النصارى في شأن المسيح ، منهم طائفة بقيت على الإيمان بالمسيح ، وأنه عبد الله ورسوله ، وبقية النصارى خالفوا في شأن المسيح ﷺ .

(٢) فلا غرابة في خلق عيسى ﷺ من أم بلا أب ، ما دام أن الله ﷻ خلق آدم من تراب من دون أب ولا أم ، فالذي قدر على خلق آدم ﷺ من تراب قادر على خلق عيسى ﷺ من أم بلا أب من باب أولى ، وهو لا يعجزه شيء ﷻ .

وأَبْطَل الباطل ، ولو كره المشركون[١] .

قوله : ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ : أي قوله : (كن) فخلقه بكن فكان[٢]، ففيه إثبات صفة الكلام لله تعالى خلافاً للجهمية أيضاً[٣] .

وقوله : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ : أي من الأرواح التي استخرجها من صلب آدم ﷺ ، وأخذ عليها العهد على أنه تعالى ربهم وإلههم[٤] ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ [سورة الأعراف : ١٧٢] الآيات . وروح عيسى من تلك الأرواح التي خلقها الله تعالى .

---

(١) هم الآن يروجون ما يسمونه بالإنجيل(*) ، أو الكتاب المقدس ، وفيه هذه الكفريات الشنيعة – والعياذ بالله – ولا يستحون على أنفسهم أمام العالم ، فإن هذا الكتاب الذي يُروِّجونه فضيحة لهم ، وليس هو دين المسيح ﷺ ، ولا جاء به المسيح ، وإنما هو من اختلاقهم وتغييرهم ، ويُروِّجونه على أن هذا هو دين المسيح ﷺ .

(٢) من غير أب ، وهو على كل شيء قدير .

(٣) إثبات صفة الكلام من قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن ﴾ .

(٤) فهي روح مخلوقة ، جاء بها جبريل ﷺ بأمر الله تعالى ، ونفخها في مريم عليها السلام ، فتكوَّن المسيح ﷺ من هذه الروح المخلوقة التي نفثها روح القدس جبريل ﷺ .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن حكم قراءة الإنجيل بحجة الاستفادة منه في مناظرة النصارى ، وهل تجوز مناظرتهم ؟ فأجاب : لا تجوز قراءة الإنجيل إلا لعالم متمكن يريد الرد عليهم ، أما الذي يقرأ للاطلاع فقط ، وما عنده تمكن في العلم فلا يجوز له هذا ، هذا خطر عليه ، ولا يجوز الاطلاع على كتب النصارى أو اليهود إلا لعالم متمكن ، يريد الردَّ عليهم ، وإبطال حججهم ؛ لأنه كيف يرد عليهم وهو لم يقرأ ما عندهم ، أما الذي يقرأها من باب الاطلاع أو الثقافة فلا يجوز ؛ لأنه قد ينطلي عليه شيء من ضلالهم وكفرهم . أ.هـ

وذكر ابن جرير عن وهب بن منبِّه قال: « نفخ جبريل في جيب درع مريم حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت »، وعن السدي: أن النفخة دخلت في صدرها فحملت. وقال ابن جريج: يقولون إنما نفخ في جَيْب درعها وكُمِّها). انتهى مختصراً[١].

فجبريل نفخ، والله خلق بقوله: (كن) فكان، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [سورة الحجر: ٢٩]، فسبحان من لا يخلق غيره، ولا يُعبد سواه. لا إلٰه إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون. وقد أورد بعض النصارى على بعض علماء المسلمين قول الله تعالى: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ فقال في الجواب: هذا ليس خاصاً بعيسى ﷺ، بل المخلوقات كلها كذلك[٢]، كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[٣] [سورة الجاثية: ١٣] أي: خلقاً وإيجاداً، وعيسى كذلك خلقه وأوجده كسائر مخلوقاته.

---

(١) أما أين نفخ جبريل ﷺ، فهذا لا يعلمه إلا الله، ولا شأن لنا به، المهم أنه نفخ ﷺ النفخة التي تكوَّن بها المسيح ﷺ، نفخ في درع جيبها، أو في فرجها، الله أعلم.
وفي الآية يقول الله تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [سورة التحريم: ١٢]. فالضمير هنا يرجع إلى فرجها، وفي آية الأنبياء يقول ﷻ: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [آية ٩١].

(٢) كلها منه ﷻ، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [سورة الجاثية: ١٣]، وهل المخلوقات كلها من الله، بمعنى أنها بعض من الله؟! لا لأن (من) ليست تبعيضية بل ابتدائية - كما سبق بيان ذلك -.

(٣) ﴿ مِّنْهُ ﴾: أي خلقاً وإيجاداً، كذلك المسيح ﷺ ﴿ مِّنْهُ ﴾ خلقاً وإيجاداً.

وفي هذا الحديث الرد على اليهود أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله(١) ، فإنهم كانوا هم والنصارى في طرفي نقيض ، فنسبوه إلى أنه ولد بغي - قاتلهم الله - فأكذبهم الله تعالى في كتابه ، وأبطل قولهم ، كما أبطل قول الغلاة من النصارى فيما تقدم من الآيات ونحوها .

فالنصارى غلوا في عيسى بن مريم ﷺ أعظم الغلو ، والكفر والضلال ، واليهود جفوا في حقه غاية الجفاء ، وكلاهما قد ضل ضلالاً بعيداً ، بيَّنه الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه(٢) ، وبيَّن تعالى الحق والصدق ، ورفع قدر المسيح ﷺ ، وجعله من أولي العزم الخمسة المذكورين في سورة الأحزاب والشورى(٣) ، وأمر نبيه ﷺ أن يصبر كما صبروا ، فقال : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ

(١) انتهى من الرد على النصارى في غُلوِّهم في المسيح ﷺ في دعواهم أنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، وقد حذَّرنا النبي ﷺ أن نغلو في حقه كغلوِّ النصارى ، فقال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله »(*) ثم انتقل إلى الردِّ على اليهود .

(٢) والاعتدال أن نقول في المسيح ما قاله الله ورسوله ، فنقول : المسيح عبد الله ورسوله ، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه ، هذه هي عقيدة أهل الحق من أتباع المسيح ، ومن المسلمين .

(٣) في سورة الأحزاب : في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [آية ٧] ، والشورى في قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ [آية ١٣] ، هؤلاء هم أولو العزم من الرسل ذُكر فيهم عيسى ﷺ .

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١٢٧١ (٣٢٦١) .

أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [سورة الأحقاف : ٣٥] ، فهم أفضل الرسل على التحقيق ، والنبي ﷺ أفضلهم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين[١] .

قوله : « وأن الجنة حق » أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة[٢] ، وما فيها من القصور والثمار ، والفواكه والنعيم المقيم ، والنظر إلى وجه الله الكريم ، كما قال تعالى : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [سورة هود : ١٠٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة السجدة : ١٧] . « والنار حق » أعدها الله تعالى لمن كفر به وأشرك به في إلهيته وربوبيته ، وألحد في أسمائه وصفاته ، ومن لم يؤمن بالجنة والنار ، فقد كفر بالقرآن والرسول والـمُرسِل ، فإن الله تعالى بيَّن الجنة وما أعد فيها من النعيم المقيم ، وذكر أنها دار المتقين ، وذكر النار وما فيها من العذاب ، وأنه أعدها لمن كفر به وأشرك .

قوله : « أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »[٣] جواب مَنْ الشَّرطيَّة ، أي : من شهد أن لا إلـه إلا الله إلى آخره ، أدخله الله الجنة ، أي : بإخلاصه وصدقه ،

---

(١) وهذا رفع لشأن المسيح ﷺ ، أن الله ﷻ جعله من أولي العزم ، الذين أمر الله نبيه ﷺ أن يصبر صبرهم .

(٢) هذا رد على المشركين الذين ينكرون البعث ، وهذا كثير في القرآن الكريم ، وفيه براءة من دين المشركين ، لما ذكر البراءة من دين اليهود ، والبراءة من دين النصارى ، ذكر البراءة من دين المشركين .

(٣) هذا جواب (من) الشرطية التي جاءت في أول الحديث ، « من شهد أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » ، فدل هذا على أن من لم يأت بهذه الأمور كلها أنه ليس من أهل الجنة .

والإيمان برسوله وما أرسل به(١) ، وخالف النصارى واليهود في الغلو والجفاء في حق عيسى ، وعلم يقيناً أنه عبد الله ورسوله ، وآمن بالجنة والنار ، فمن كان كذلك أدخله الله الجنة(٢) ، وإن كان مقصراً وله ذنوب(٣) ، فهذه الحسنة العظيمة ترجح بجميع السيئات(٤) .فتدبَّر هذا الحديث فإنه عظيم(٥) . والله أعلم .

قوله : ولهما في حديث عتبان : « فإن الله حرَّم على النار من قال لا إلـٰه إلا الله يبتغي بذلك وجه الله »(٦) .

---

(١) هذا فيه فضل التوحيد ، وفيه شاهد للباب ؛ لأن الباب في بيان فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب ، وهذا الشاهد من الحديث « أدخله الله الجنة » نتيجة لتوحيده .

(٢) من خالف اليهود والنصارى والمشركين أدخله الله الجنة .

(٣) يعني أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ، وإن كان عنده ذنوب ، فإنه يدخل الجنة برحمة الله تعالى ، إما أن يدخلها من أول وهلة ، بأن يغفر الله ذنوبه ، ويدخله الجنة بدون عذاب ، وإنما أن يعذب بذنوبه ثم يدخل الجنة بعد ذلك ، فهو من أهل الجنة إذا مات على ذلك ، وهذا فيه بيان فضل التوحيد ، وبيان ما يكفِّر من الذنوب .

(٤) الحسنة العظيمة هي حسنة التوحيد ، وهي المراد بقوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ [سورة القصص : ٨٩] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ [سورة القصص : ٩٠] . هذه سيئة الشرك .

(٥) هذا الحديث فيه أصول الإيمان ، وفيه فضل التوحيد ، وما يكفِّر من الذنوب .

(٦) حديث عتبان بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له قصة ، لكن المصنف رحمه الله أخذ منه محل الشاهد فقط ، والحديث أصله : أن الرسول ﷺ جاء إلى عتبان بن مالك في منزله ، ومعه بعض أصحابه ، فجلس عند عتبان في بيته ، وسئل عن رجل لم يحضر مجلس الرسول ﷺ يقال له : مالك بن الدُّخشم ، فقال رجل : ذاك منافق ، لا يحب الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « أما يقول : لا إلـٰه إلا الله » قالوا : الله ورسوله أعلم ، أما نحن فلا نرى وده ولا حديثه إلا إلى المنافقين ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله ﷻ حرم النار على من قال لا إلـٰه إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله »(*) .

(*) أخرجه أبو داود الطيالسي في « مسنده » ٢ / ٥٦٧ (١٣٣٧) ، واللفظ له وأخرجه الإمام أحمد بنحوه في « المسند » ٢٧ / ١٠ (١٦٤٨٢) وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح .

قوله : « ولهما » : أي البخاري ومسلم ، وهذا حديث طويل اختصره المصنِّف ، وذكر منه ما يناسب الترجمة ، وهو قوله : « من قال لا إلٰـه إلا الله يبتغي بذلك وجه الله »[(١)] ، وهذا هو حقيقة معناها الذي دلت عليه هذه الكلمة من الإخلاص ونفي الشرك ، والصدق والإخلاص متلازمان لا يوجد أحدهما بدون الآخر[(٢)] ، فإن لم يكن مخلصاً فهو مشرك ، ومن لم يكن صادقاً فهو منافق ، والمخلص أن يقولها مخلصاً الإلهية لمن لا يستحقها غيره ،

---

(١) قوله ﷺ : « من قال لا إلٰـه إلا الله » جواب أول الحديث الذي اختصره المصنف ، وهو : « فإن الله حرم على النار من قال لا إلٰـه إلا الله » .
والرسول ﷺ ذبَّ عن هذا المسلم الغائب بسبب توحيده ، وقوله : « فإن الله حرم على النار » : التحريم : المنع ، أي منعه من دخول النار ، وحرم النار أن تمسه بسبب توحيده ، وفي هذا بيان فضل التوحيد ، وأن الله يحرم صاحبه على النار .
وقوله ﷺ : « من قال لا إلٰـه إلا الله » : أي تلفَّظ بها بلسانه ، معتقداً لمعناها في قلبه ، قاصداً بها وجه الله ﷻ . فقوله : « يبتغي بذلك وجه الله » : قيد يُخرج من قالها نفاقاً ، فدل ذلك على أن التلفظ بها لا يكفي ، حتى يخلص في قولها ، ويقصد بها وجه الله ﷻ ، فهذا يقيد حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي سبق : « من شهد أن لا إلٰـه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ... أدخله الله الجنة » ، فهذا مطلق يقيِّده حديث عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ لأنه لابد أن يكون مع ذلك قاصداً وجه الله ، يعني مخلصاً لله ﷻ ، فلا يقصد بهذه الكلمة طمعاً من مطامع الدنيا ، ولا يقصد بها رياءً ولا سمعة ، ثم فيه أن هذه الكلمة لابد أن يؤتى بها كلها ، فلا يكفي أن يقول (الله ، الله) كما تقوله الصوفية ، أو (هو هو) كما تقوله خواصهم ، فهذا ليس ذكراً لله ﷻ ، ولا يؤدي الغرض المطلوب ، لابد أن يقول : (لا إلٰـه إلا الله) .

(٢) الصدق ينافي النفاق ، والإخلاص ينافي الشرك ، ولابد منها جميعاً ، أي الصدق والإخلاص في هذه الكلمة ، فمن قالها وهو يشرك بالله لم تنفعه (لا إلٰـه إلا الله) ، ومن قالها وهو لا يقصد بها وجه الله كالمنافقين ، لم تنفعه (لا إلٰـه إلا الله) .

وهو الله تعالى ، وهذا التوحيد هو أساس الإسلام الذي قال فيه الخليل ﷺ : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾[١] [سورة البقرة : ١٢٨] ، وقال الخليل ﷺ : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٢] [سورة الأنعام : ٧٩] .

والحنيف هو الذي ترك الشرك رأساً ، وتبرَّأ منه ، وفارق أهله وعاداهم ، وأخلص أعماله الباطنة والظاهرة لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾[٣] [سورة لقمان : ٢٢] ،

---

(١) هذا الإسلام ، وهو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك وأهله[*] .

وهو دين جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو دين جميع المسلمين من أول الخليقة إلى آخرهم ، وهو دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥] .

(٢) ﴿ حَنِيفًا ﴾ : يعني مخلصاً . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ : فيه البراءة من الشرك وأهله

(٣) ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ : هذا هو التوحيد . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ : أي مُتَّبع للرسول ﷺ ، هذا فيه شرطا قبول العمل ، وهما : الإخلاص ، والمتابعة لابد من هذين الشرطين : الإخلاص في قوله ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ ، والمتابعة في قوله : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ فالإحسان هو المتابعة للرسول ﷺ ، وهذا ينفي البدع والمحدثات والخرافات ، فلا يُعبد الله إلا بما شرعه الرسول ﷺ ، وما وافق السنة .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – : هل هناك فرق بين قولنا : (الخلوص من الشرك وأهله) وبين قولنا : (والبراءة من الشرك وأهله) ؟ فأجاب : الأصح البراءة من الشرك وأهله ؛ لأنها صريحة أما الخلوص ليس صريحاً في البراءة . أ.هـ.

فإسلام الوجه هو إخلاص العبادة المنافي للشرك ، وهو معنى الآية ونحوها إجماعاً ، فهذا هو الذي ينفعه قوله : « لا إلـٰه إلا الله »[(١)] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾[(٢)] [سورة البقرة : ٢٥٦] ، وهذا بخلاف من يقولها وهو يدعو غير الله ، ويستغيث به من ميت أو غائب لا ينفع ولا يضر[(٣)] ، كما ترى عليه أكثر الخلق ، فهؤلاء وإن قالوها فقد تلبَّسوا بما يناقضها ، فلا تنفع قائلها إلا بالعلم بمدلولها نفياً وإثباتاً[(٤)] ، والجاهل بمعناها - وإن قالها - فإنها لا تنفعه ؛ لجهله بما وُضعت له الوضع العربي الذي أريد منها من نفي الشرك[(٥)] ، وكذلك إذا عرف معناها بغير تيقُّن له ، فإذا انتفى اليقين وقع الشَّك[(٦)] .

---

(١) إذا كان مخلصاً محسناً ، هذا هو الذي تنفعه (لا إلـٰه إلا الله) .

(٢) العروة الوثقى هي : (لا إلـٰه إلا الله) هذه الكلمة تسمى (لا إلـٰه إلا الله) ، وتسمى الإخلاص ، وتسمى التوحيد ، لها عدة أسماء .

(٣) كثير ممن يقولون (لا إلـٰه إلا الله) الآن لا يخلصون لله ﷻ ، وإنما يدعون غيره من الأموات ، والقبور ، وهي شغلهم الشاغل ، التعلق بالمخلوقين والأولياء والصالحين ، وهم يقولون : (لا إلـٰه إلا الله) فما تنفعهم ، لأنهم لم يخلصوا .

(٤) لأنه لا يمكن أن يعمل بمقتضاها إلا إذا علم معناها ، ولهذا قال ﷻ . ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [سورة محمد : ١٩] .

وقال ﷻ : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٨٦] .

فقوله : ﴿ شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ : أي قال : لا إلـٰه إلا الله . ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ : أي يعلمون معناها ، وإلا كيف يعتقدها ، ويعمل بمقتضاها ، وهو لا يعلم معناها ؟! هذا لا يمكن .

(٥) ولذلك عبَّاد القبور يجهلون معناها ، فصاروا يعبدون القبور ، فآفتهم الجهل بمعنى (لا إلـٰه إلا الله) .

(٦) فلابد من العلم بمعناها ، ولابد من اليقين . قد يعلم الإنسان الشيء ، ولكن لا يعتقده ، فلا ينفع العلم بدون اعتقاد .

ومما قيدت به في الحديث ، قوله ﷺ : « غير شاك » ، فلا تنفع إلا من قالها بعلم ويقين ، لقوله : « صدقاً » من قلبه ، خالصاً من قلبه . وكذلك من قالها غير صادق في قوله فإنها لا تنفعه لمخالفة القلب اللسان كحال المنافقين ، الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم[1] ، وكذلك حال المشرك ، فلا تقبل من مشرك لمنافاة الشرك للإخلاص[2] ، ولما دلّت عليه هذه الكلمة مطابقة ، فإنها دلت على نفي الشرك ، والبراءة منه ، والإخلاص لله وحده لا شريك له مطابقة[3] ، ومن لم يكن كذلك لم ينفعه قوله : (لا إلـٰه إلا الله) ،

---

(١) كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة آل عمران :]

(٢) وإن كان يقول : (لا إلـٰه إلا الله) كعبّاد القبور .

فالمشركون الأولون أبوا أن يقولوها ؛ لعلمهم أنها تقتضي ترك عبادة ما سوى الله ، والمشركون المتأخرون صاروا يقولونها ، وهم يشركون بالله ﷻ ، لجهلهم بمعناها .

(٣) الدلالات ثلاثة أنواع : دلالة مطابقة ، ودلالة تضمن ، ودلالة التزام ، وقد سبق بيان ذلك في « النونية »(*) .

(*) ذكر الشيخ - حفظه الله - في تعليقه على « نونية ابن القيم » : (أن دلالة اللفظ عند الأصوليين ثلاثة أقسام :

- إما دلالة مطابقة .
- أو دلالة تضمن .
- أو دلالة التزام .

لا يخرج لفظ من الألفاظ العربية عن هذه الدلالات . فدلالة المطابقة : دلالة الشيء على تمام معناه . ودلالة التضمن : دلالة الشيء على بعض معناه .

ودلالة الإلتزام : دلالة الشيء على شيء خارج عن معناه) . « التعليق المختصر على القصيدة النونية » ٢ / ٨١٠ .

والمقصود أن كلمة (لا إلـٰه إلا الله) دلت على نفي الشرك ، والبراءة منه ، والإخلاص لله وحده لا شريك له دلالة مطابقة .

كما هو حال كثير من عبدة الأوثان[(١)] ، يقولون : لا إلـه إلا الله ، وينكرون ما دلت عليه من الإخلاص ، ويعادون أهله ، وينصرون الشرك وأهله .

وقد قال الخليل ﷺ لأبيه وقومه : ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾[(٢)] [سورة الزخرف : ٢٦ - ٢٧] وهي لا إلـه إلا الله ، وقد عبَّر عنها الخليل بمعناها الذي وضعت له[(٣)] ، ودلَّت عليه ، وهو البراءة من الشرك ، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، كما تقدم تقريره ، وكذلك من قالها ولم يقبل ما دلت عليه من الإخلاص كان قوله لهذه الكلمة كذباً منه ؛ بل قد عكس مدلولها فأثبت ما نفته من الشرك ، ونفى ما أثبتته من الإخلاص ، فهذا الذي ذكرنا هو حال الأكثرين من هذه الأمة بعد القرون الثلاثة[(٤)] ، وسبب ذلك الجهل بمعناها ، واتباع الهوى ، فيصدفه عن

---

(١) عبدة الأوثان ليس المراد بهم أصحاب الأوثان الأولين ، المراد بهم أصحاب الأوثان الذين يدَّعون الإسلام .

والوثن : كل ما عُبد من دون الله من قبر ، أو شجر ، أو حجر ، أو جن ، أو إنس ، كله يُسمى وثن .

(٢) هذا معنى (لا إلـه إلا الله) ، فقوله : ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ ﴾ : هذا معنى النفي . ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ : هذا معنى الإثبات .

ثم قال : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ ﴾ : أي جعل (لا إلـه إلا الله) التي هي مضمون هذا النفي ، وهذا الإثبات ﴿ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ أي في ذرية إبراهيم ﷺ ، فلا يزال فيهم من يعبد الله ﷻ ، حتى بعث النبي محمد ﷺ ، فأعاد دين إبراهيم ﷺ ، دين التوحيد ، وأزال الشرك والوثنية .

(٣) وهو النفي والإثبات ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ : هذا هو معنى لا إلـه إلا الله .

(٤) الذي ذكرناه من الانحراف في معنى (لا إلـه إلا الله) هو حال كثير من القرون المتأخرة لما بُنيت المشاهد على القبور في عهد الفاطميين الشيعة ، حصل الشرك في هذه الأمة ، وعبدوا الأضرحة والقبور ، وهم يقولون : (لا إلـه إلا الله) ، فيجمعون بين المتناقضات ،
=

اتباع الحق والوحي ، وما بعث الله به رسله من توحيده الذي شرعه لعباده ورضيه لهم .

قوله : وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أنَّ النبي ﷺ قال : « قال موسى عليه السلام : يارب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به ، قال : قل يا موسى : (لا إلـٰه إلا الله) ، قال : يا رب كل عبادك يقولون هذا . قال : يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن - غيري - والأرضين السبع في كِفَّة ، ولا إلـٰه إلا الله في كِفَّة مالت بهن لا إلـٰه إلا الله » رواه ابن حبان ، والحاكم وصححه[1] . فـ« لا » نافية للجنس نفياً عاماً إلا ما استثني ، وخبرها محذوف

بين قول لا إلـٰه إلا الله ، وبين الشرك .

(١) قال الشيخ رحمه الله في باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[*] ، أن رسول الله ﷺ قال : أن موسى بن عمران كليم الله ورسوله إلى فرعون قال لربه : « يا رب علمني شيئاً أدعوك وأذكرك به » ، لما كانت نعمة الله تعالى على موسى عليه السلام نعمة عظيمة ، حيث اصطفاه الله على الناس برسالاته وبكلامه أراد أن يقوم بشكر هذه النعمة ؛ لأنه كلما عظمت النعمة عظم الشكر « يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به » : هذا فيه أن العبادات توقيفية ، لا يجوز الإقدام على شيء منها إلا بأمر الله ﷻ ، وفيه الرد على المبتدعة الذين يتعبدون لله بما تستحسنه عقولهم ، أو بما أدركوا عليه ءاباءهم وأجدادهم من غير دليل ، فإذا كان موسى كليم الله يطلب من ربه أن يعلمه شيئاً يذكره به ، ويدعوه به ، فغيره من باب أولى .

وفيه : أن الأنبياء بحاجة إلى تعليم الله لهم ، كما قال ﷻ لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [سورة طه : ١١٤] ، وقال الله له : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ

(*) حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أخرجه ابن حبان في « صحيحه » - كما في « الإحسان » - ١٤ / ١٠٢ (٦٢١٨) ، والحاكم في « المستدرك » ٢ / ٥٣٤ وصححه ، ووافقه الذهبي ، وصححه الحافظ ابن حجر في « فتح الباري شرح صحيح البخاري » ١١ / ٢٠٨ .

=

عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : ١١٣] فإذا كان الأنبياء بحاجة إلى تعليم الله ﷻ ، وإلى تشريع الله لهم العبادة ، فكيف بغيرهم ممن يبتدع البدع ، ويتقرب بها إلى الله ، ويظن أنها تنفعه عند الله ، وأنه ليس بحاجة إلى الرجوع إلى الشرع ، كما يفعله المبتدعة .

وقوله : « أذكرك وأدعوك به » : هذا فيه أن (لا إلـٰه إلا الله) ذكر ، وأنها دعاء عبادة ؛ لأن الدعاء على قسمين : دعاء عبادة : وهو الثناء على الله ﷻ بأسمائه وصفاته ، ودعاء مسألة : وهو طلب الحوائج من الله ﷻ ، فالذكر دعاء عبادة .

قال الله ﷻ : (قل يا موسى لا إلـٰه إلا الله) : أرشده الله وعلمه أن يذكره ويدعوه بـ(لا إلـٰه إلا الله) ، فدل ذلك على أنها أعظم الذكر ، لأنها كلمة الإخلاص ، والعروة الوثقى ، لأنها جمعت بين النفي والإثبات ، نفي الشرك ، وإثبات التوحيد لله ﷻ مع قلة ألفاظها واختصارها ، وخفتها على اللسان ، فهي كلمة عظيمة ، علمها الله تعالى لموسى ﷺ .

وفي قوله تعالى : (قل يا موسى لا إلـٰه إلا الله) : أنه لابد من النطق بلا إلـٰه إلا الله ، لأن الله تعالى قال له : « قل » ، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إلـٰه إلا الله »(*) ، فلا يكفي أن الإنسان يعترف بها في قلبه ، دون أن يتلفظ بها .

فقال موسى ﷺ لربه : « يا رب ، كل عبادك يقولون هذا » يعني يقولون : (لا إلـٰه إلا الله) . وهو ﷺ يريد أن يخصه الله بشيء يذكره به ؛ لأن نعمته عليه أعظم ، فهذا فيه تيسير هذه الكلمة ، وأن غالب الخلق يقولها ، والشيء إذا عظمت الحاجة إليه يسره الله ﷻ ، فلما كانت البشرية بحاجة إلى هذه الكلمة يسَّرها الله ﷻ .

ثم بيَّن الله ﷻ عظمة هذه الكلمة ، وأنها لا شيء أعظم منها ، فقال : « يا موسى ، لو أن السموات السبع ، وعامرهن غيري » : أي السبع الطباق ، وساكنهن غير الله تعالى ، لأنه ﷻ في السماء ، أي في العلو .

ففي هذا إثبات علو الله ﷻ على عرشه في السموات ، يعني على السموات . هذا إذا أريد بالسماء : المبنية ، فإذا أريد بالسماء : العلو ، فإن (في) على بابها ، وأما إذا أريد بها السموات المبنية فإن (في) تأتي بمعنى (على) ، لأن الله ﷻ ليس في شيء من خلقه ؛ بل

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١٠٧٧ (٢٧٨٦) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٥٢ (٢١) .

=

تقديره : (لا إلـه حق إلا الله) [(١)] . قـال تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ

هو أعظم من كل شيء ، ففي قوله تعالى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سورة الملك : ١٦] إذا أريد بالسماء : المبنية فمعناها : على السماء ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٧] . يعني على الأرض ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [سورة طه : ٧١] ، يعني على جذوع النخل .

« والأرضين السبع » : السبع الطباق ، فهذا فيه أن الأرض سبع طبقات ، وأن كل طبقة لها سكان ، كما أن السماء طبقات ، وكل طبقة لها سكان من الملائكة ، ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [سورة الطلاق : ١٢] أي سبع .

كذلك في الحديث الصحيح : « من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طَوَّق الله يوم القيامة من سبع أرضين »[(*)] .

« وعامرهن » : أي ساكنهن . « في كفة » : يعني في إحدى كفتي الميزان . « ولا إلـه إلا الله في كفة » : يعني في كفة أخرى ، « مالت بهن لا إلـه إلا الله » : أي رجحت بالسموات والأرض ، ومن فيها من السكان ، إلا الله ﷻ في السماء ، فهذا فيه فضل (لا إلـه إلا الله) ، وأنها لا يعادلها شيء ، وفيه شاهد للباب - فضل التوحيد - وأنه يعدل السموات والأرضين ، ومن فيهن من السكان .

فينبغي للمسلم أن يكثر من هذه الكلمة العظيمة ؛ لأنها أعظم الذكر ، ولأنها ترجح بالسموات والأرضين ، ومن فيهن .

(١) هذا إعراب (لا إلـه إلا الله) ، (لا) : نافية للجنس تعمل عمل (إن) تنصب الاسم وترفع الخبر ، ولهذا يقولون : إنها من إخوات (إن) ، وتسمى (إن) وأخواتها ، و(كان) وأخواتها بالنواسخ ؛ لأنها نسخت حكم المبتدأ والخبر ، فالأصل في المبتدأ والخبر : الرفع ، لكن إذا دخلت عليه (إن) تغيَّر الإعراب ، فصار الاسم منصوباً ، والخبر مرفوعاً .

« إلـه » : اسمها مبني معها على الفتح في محل نصب بـ(لا) ؛ لأنه ليس مضافاً ، ولا شبيهاً بالمضاف ، وخبرها محذوف وجوباً تقديره : (بحق) أي (لا إلـه بحق إلا الله) .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١١٦٨ (٣٠٢٦) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٢٣٠ (١٦١٠) ، واللفظ لمسلم .

=

وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾(١) [سورة الحج : ٦٢] ، **فإلهيته تعالى هي الحق ، وكل ما سواه من الآلهة فإلهيته باطلة ،**

وأما من يقول : تقدير الخبر : (موجود) أي : (لا إلـٰه موجود إلا الله) فهذا كفر وإلحاد ؛ لأن الآلهة الموجودة كثيرة منها حق ، ومنها باطل ، وقول : (لا إلـٰه موجود إلا الله) هذا مذهب أهل وحدة الوجود ، حيث يجعل جميع المعبودات هي الله ، فهذا الكلام باطل في إعراب (لا إلـٰه إلا الله) .

والصواب تقدير (بحق) أي (لا إلـٰه بحق إلا الله) ، لينفي الآلهة التي بالباطل ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سورة الحج : ٦٢] ، فأخبر ﷻ أن هناك معبودات وآلهة غير الله ﷻ ، لكن كلها باطلة ، والإلـٰه الحق هو الله ﷻ .

وكذلك الذي يفسر (لا إلـٰه) : أي لا قادر على الاختراع إلا الله ، كما يقوله علماء الكلام ، فهذا أيضاً تفسير باطل ؛ لأن هذا لا يزيد على توحيد الربوبية ، و(لا إلـٰه إلا الله) إنما هي في توحيد الألوهية ، فـ(لا إلـٰه) : أي لا معبود ؛ لأن الإلـٰه معناه المعبود ، والمعنى : لا معبود بحق إلا الله ، هذا هو تفسيرها الصحيح(*) .

(إلا) : أداة استثناء ، تنفي ما قبلها ، وتثبت ما بعدها ، نفت الآلهة المعبودة بالباطل ، وأثبتت الإلـٰه الحق ، وهو الله ﷻ ، والمستثنى إذا كان المستثنى منه منفياً جاز فيه الرفع والنصب . والمستثنى منه هنا منفي بـ(لا) ، فيجوز في المستثنى الرفع والنصب ، والرفع أظهر .

(١) هذه الآية تفسير (لا إلـٰه إلا الله) ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ : هذا معنى (إلا الله) ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ هذا معنى (لا إلـٰه) ، فهي فسرت (لا إلـٰه إلا الله) تماماً .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - عمن يقول : (إن معنى لا إلـٰه إلا الله) : أي لا مشرِّع إلا الله ، فأجاب : هذا غلط ، حصر معناها في المشرِّع أو الحاكمية هذا غلط ، بل التشريع والحاكمية نوع من معاني (لا إلـٰه إلا الله) ، أو فرد من أفراد معاني (لا إلـٰه إلا الله) ؛ بل المراد منها : إفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه .

كما في هذه الآية ونظائرها . فهذه كلمة عظيمة ، هي العروة الوثقى ، وكلمة التقوى ، وكلمة الإخلاص(١) . وهي التي قامت بها السموات والأرض(٢) ، وشُرعت لتكميلها السُّنَّة والفرض(٣) .

ولأجلها جُرِّدت سيوف الجهاد(٤) ، وبها ظهر الفرق بين المطيع والعاصي من

---

(١) (هي العروة الوثقى) : التي قال الله ﷻ : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦] ، فقوله : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ ﴾ هذا هو معنى (لا إلـه إلا الله) ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ (وهي كلمة التقوى) كما قال تعالى في الصحابة رضي الله عنهم : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ﴾ [سورة الفتح : ٢٦] يعني : (لا إلـه إلا الله) ، ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [سورة الفتح : ٢٦] .

(وهي كلمة الإخلاص) : لأنها أخلصت التوحيد لله ﷻ ، وأبطلت الشرك . هذه أسماء لهذه الكلمة العظيمة : كلمة التوحيد ، والعروة الوثقى ، وكلمة الإخلاص ، وكلمة التقوى .

(٢) السموات والأرض قامت بالتوحيد ، ولو فُقد التوحيد في السموات والأرض لخربت ، قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٢] ، ولهذا إذا كان في آخر الزمان ، وفُقدت هذه الكلمة قامت القيامة ، فلا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول : الله الله ، لا تقوم إلا على شرار الخلق ، كما قال ﷺ : « من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ومن يتخذ القبور مساجد »(*) .

(٣) شرعت لتحقيقها العبادات المفروضة ، والعبادات المسنونة ، فهذه العبادات هي مقتضى (لا إلـه إلا الله) ، ولا تصح جميع الأعمال فرضاً أو نفلاً ، إلا بـ(لا إلـه إلا الله) .

(٤) أي ولأجلها جُرِّدت سيوف الجهاد في سبيل الله ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وهو معنى

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٦ / ٢٥٩١ (٦٦٥٧) معلقاً بالجزم ، دون الجملة الأخيرة ، وأخرجه ابن حبان في « صحيحه » - كما في « الإحسان » - ١٥ / ٢٦٠ (٦٨٤٧) وصححه الألباني في « التعليقات الحسان » ٩ / ٤٦٩ (٦٨٠٨) .

=

العباد[(١)]، فمن قالها وعمل بها صدقاً وإخلاصاً، وقبولاً ومحبة ، وانقياداً[(٢)] أدخله

(لا إلـٰه إلا الله) ، ولهذا قال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلـٰه إلا الله »[(*)] فإذا أبو أن يقولوا (لا إلـٰه إلا الله) وجب على المسلمين قتالهم حتى يقولوها .

فالجهاد ما شُرع من أجل الطمع في الممالك أو الأموال ، أو توسيع السلطة ، أو السيطرة على الناس ، ما شُرع إلا لنشر التوحيد وإعلاء كلمة الله في الأرض ، وإزالة الشرك والكفر ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، ومن لم يكن قصده هذا ، فليس هو في سبيل الله . لما سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل رياءً ، فأيُّ ذلك في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله »[(**)] .

(١) وبها ظهر الفرق بين عباد الله ، وعباد الشيطان ؛ فالذين عبدوا الله وحده لا شريك له هم عباد الرحمن ، والذين أشركوا مع الله غيره ، واتبعوا أهواءهم هم عباد الشيطان .

(٢) (فمن قالها) : لابد من القول ، (وعمل بها) : ما يكفي القول لابد من العمل ، ولا يمكن العمل إلا بمعرفة المعنى ، أي معنى (لا إلـٰه إلا الله) ، فلابد من النطق بها باللسان ، ومعرفة معناها ، والعمل بمقتضاها صدقاً وإخلاصاً : ولابد من الصدق والإخلاص في العمل .

الصدق ينفي النفاق ؛ لأن المنافق يقول : (لا إلـٰه إلا الله) لكن ليس صادقاً في قولها .

والإخلاص ينفي الشرك ؛ لأن هناك من يقول : (لا إلـٰه إلا الله) ويدعو غير الله من الأصنام والقبور ، والأضرحة والأولياء ، والصالحين ، هؤلاء لم يخلصوا العبادة لله ، فلم تنفعهم (لا إلـٰه إلا الله) .

وقبولاً : وقبولاً لما تدل عليه ، فيتقبله في قلبه ولا يكرهه . يتقبل ما تدل عليه هذه الكلمة ، ولا يكرهه أو يستثقله .

ومحبة : كذلك يحب هذه الكلمة ، ويحب أهلها ، ويعادي أعداءها .

وانقياداً : كذلك ينقاد لما تدل عليه هـذه الكلمة ، أما إذا فعله من غير انقياد ، وإنما هـو

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٢ / ٥٠٧ (١٣٣٥) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٥١ (٢٠) .

(**) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٦ / ٢٧١٤ (٧٠٢٠) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٥١٣ (١٩٠٤) .

=

الله الجنة على ما كان من العمل(١) .

وفي الحديث الصحيح : « أفضل الدعاء يوم عرفة(٢) ، وأفضل ما قلت

مجاملة ، أو لهوى ، أو لغرض آخر ، فعمله لا ينفعه ، فلابد أن يكون عمله عن انقياد واستسلام لله ﷻ .

فهذه هي شروط (لا إلـه إلا الله) ، سبعة شروط ، جمعها الناظم بقوله :

عِلْمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصِدْقُك مَعْ محبةٍ وانقيادٍ والقَبولِ لَها

العلم ينفي الجهل ، واليقين ينفي الشك ، والإخلاص ينفي الشرك ، والصدق ينفي النفاق ، والمحبة تنفي الكراهية - كراهية هذه الكلمة ، أو كراهية أهلها - والانقياد ينفي الذي يفعل العبادات من غير رغبة فيها ، والقبول لما تدل عليه ، فلا يرد شيئاً مما شرعه الله ورسوله ؛ بل يتقبل ويسلم لما شرعه الله ورسوله . أما الذي عنده تشكك في بعض العبادات ، أو بعض الأوامر ، أو بعض النواهي ، أو استثقال لها ، فهذا يفقد شرطاً من شروط (لا إلـه إلا الله) وبعض المشايخ زادوا شرطاً ثامناً :

وزيدَ ثامِنُها الكفرانُ مِنْكَ بِما سِوى الإلَـهِ مِنَ الأنْدادِ قَدْ أُلِها(*)

أي الكفران بالطاغوت ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّـٰغُوتِ ﴾ .

(١) كما سبق في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، على ما كان من العمل ، ولو كان عنده ذنوب دون الشرك ؛ فإن الذنوب لا تمنعه من دخول الجنة ، إما من أول وهلة ، وإما بعد أن يُعذَّب بذنوبه ، فيدخل الجنة بعد ذلك .

(٢) أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ، وهو اليوم التاسع من ذي الحجة ، الذي يقف فيه الحجاج في عرفات يؤدون الركن الأعظم من أركان الحج ، هذا هو أفضل الأيام - يوم عرفة - قال ﷺ : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير »(**) . هذا فيه أن (لا إلـه إلا الله) هي أفضل الذكر ، وأفضل الدعاء ، سماها دعاءً ؛ لأن الدعاء - كما مر

(*) ذكره الشيخ ابن باز ﵀ مع البيت الذي قبله في كتابه « تحفة الإخوان بأجوبة مهمة تتعلق بأركان الإسلام » ص ٢٤ .

(**) أخرجه الترمذي في « سننه » ٥ / ٥٣٤ (٣٥٨٥) ، وحسنه الألباني .

=

أنا والنبيون من قبلي[١] : لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير »[٢] .

وفي حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً[٣] :

بكم – دعاء عبادة وثناء على الله ، وذكر لله ﷻ . ودعاء مسألة : وهو طلب الحوائج من الله ﷻ .

ففي هذا الحديث أن (لا إلـه إلا الله) هي أفضل الدعاء الذي يقال في أفضل يوم ، وهو يوم عرفة ، سواءً كان من الحجاج ، أو من غير الحجاج ، فهذا يشمل المسلمين في أقطار الأرض ، فيستحب لهم يوم عرفة أن يكثروا من هذه الكلمة .

(١) هذا فيه أن دين الأنبياء واحد ، وهو التوحيد .

(٢) هذا فيه أن (لا إلـه إلا الله) ذكرٌ عند جميع الأنبياء ، كما علمها الله تعالى لموسى ﷺ ، مما يدل على فضلها .

(٣) هذا حديث البطاقة المشهور ، أن رجلاً يؤتى به يوم القيامة عليه تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مدّ البصر ، مملوءة بالسيئات ، ليس فيها حسنة واحدة ، فيقال له : هل لك حسنة ؟ فيقول : لا ، فيقال : إنك لا تظلم ، ثم تخرج له بطاقة – يعني ورقة صغيرة – مكتوب فيها (لا إلـه إلا الله) ، يعني قال هذه الكلمة عن صدق وإخلاص ويقين ، ومات عليها ، فتوضع السجلات في كفة ، وتوضع البطاقة التي فيها (لا إلـه إلا الله) في كفة ، فتطيش السجلات ، وتثقل البطاقة ، ويدخل الجنة .

فكما أن (لا إلـه إلا الله) رجحت بالسموات والأرض ومن فيهن غير الله ، أيضاً رجحت بالسيئات ، فهذه فضيلة أخرى لهذه الكلمة العظيمة ، وهذا الحديث – حديث البطاقة – وغيره مما يدل على أن (لا إلـه إلا الله) يدخل بها صاحبها الجنة ، وينجو من النار ، مقيدة بالأحاديث الأخرى ، أنه لابد من العمل . أما من يقولها وهو لا يعمل بمقتضاها فإنها لا تنفعه . لكن هذا الرجل قالها عن يقين وإخلاص ، ومات على ذلك ، أي مات موحداً وخُتم له بها تائباً إلى الله ﷻ ، فمحا الله جميع ذنوبه . فهذا فيه فضل التوحيد ، وأن الله يكفر به جميع السيئات .

يشهد لهذا : الأحاديث الآتية في آخر الباب . وليس المراد أن مجرد النطق بـ(لا إلـه إلا الله)

=

« يصاح[١] برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً[٢] ، كل سجل منها مدَّ البصر[٣] ، ثم يقال : أتنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقال : ألك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل ، فيقول : لا . فيقال : بلى ، إن لك عندنا حسنة ، وإنه لا ظلم عليك[٤] . فيخرج له

حصل بها هذا الفضل العظيم لهذا الرجل ، بل هو نطق مع اعتقاد ويقين وإخلاص لله ﷻ بدليل الأحاديث الأخرى ، فالأحاديث يقيد بعضها بعضاً ، ويفسر بعضها بعضاً ، فلا نأخذ طرفاً ونترك الأطراف الأخرى . فنقول : النطق بـ(لا إلـه إلا الله) يكفي ، ولو فعل الإنسان ما فعل من الشرك وعبادة غير الله .. إلخ . نقول : لا ، هذا ليس صحيحاً ، الذي يأخذ طرفاً من الأدلة ، ويترك طرفاً هذا من أهل الزيغ ، الذين يأخذون بالمتشابه ، ويتركون المحكم ، قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [سورة آل عمران : ٧] . أما الراسخون في العلم فإنهم يقولون : ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ فيردون المتشابه إلى المحكم ، ويفسرون كلام الله ، وكلام رسوله بعضه ببعض فيقيدون المطلق ، ويخصون العام ، ويفسرون المجمل . هكذا فِعلُ الراسخين في العلم .

(١) يُصاح : يعني ينادى يوم القيامة على رؤوس الخلائق في المحشر .

(٢) سجلاً : السجل هو الدفتر الكبير ، الذي تكتب وتدون فيه الأشياء .

(٣) كل سجل مد البصر : ليس مثل سجلاتكم هذه ، وإنما مد البصر . البصر إلى أين يمتد ؟ يمتد إلى السماء .

(٤) فيقال : « بلى إن لك عندنا حسنة ، وإنه لا ظلم عليك » : هذا دليل على أن التوحيد حسنة ، قال تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ [سورة النمل : ٨٩] هذا هو التوحيد ، ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ يراد بها الشرك ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النمل : ٩٠] فالتوحيد أعظم الحسنات ، والشرك أعظم السيئات ، والعياذ بالله .

والله ﷻ لا يظلم أحداً ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٤٠] . هذا الرجل عصى الله فيما يملأ تسعة وتسعين سجلاً ، ولكن الله حلم عليه ، ولطف به ، وأنصفه ﷻ ، ولم يظلمه .

بطاقة[١] فيها أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السِّجلَّات[٢] ؟ فيُقال : إنك لا تظلم . فتوضع السِّجلَّات في كِفَّة ، والبطاقة في كفة[٣] ، فطاشت السِّجلَّات وثقلت البطاقة »[٤] رواه الترمذي وحسَّنه .

قوله : « لو أن السموات السبع وعامرهن - غيري - » أي كل من في السموات والأرض . وقوله : « غيري » استثنى ممن في السموات نفسه ، لأنه العليُّ الأعلى ، تعالى وتقدس[٥] .

كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] : علو القهر ، وعلو القدر ، وعلو الذَّات .

---

(١) البطاقة : الورقة الصغيرة ، وماذا تكون البطاقة الصغيرة مع تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مدَّ البصر ، من حيث النظر ؟ تطيش البطاقة، لولا ما فيها من التوحيد الذي ثقَّلها.

(٢) يستصغرها ، لكن فيها كلام عظيم ، وهو التوحيد .

(٣) هذا فيه إثبات وزن الأعمال يوم القيامة ، وهذا من كمال عدل الله ﷻ ، وأنه لا يظلم أحداً ، وأنها توزن الحسنات والسيئات يوم القيامة .

(٤) طاشت : يعني ارتفعت وخفت ، وكما أن (لا إلـٰه إلا الله) رجحت بالسموات والأرض ، كذلك رجحت بالسيئات التي هي دون الشرك ، أما لو كان فيها شرك ما نفعه شيء ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] . فحديث البطاقة هذا فيه بيان فضل التوحيد ، إذا سلَّم صاحبه من الشرك ، وأنه لو كانت عنده ذنوب كثيرة - كما سيأتي - ملء الأرض ، أو قراب الأرض ، فإن الله يغفرها .

(٥) وهذا فيه الرد على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ، الذين ينفون علو الله على عرشه . فهم يثبتون علو القهر ، وعلو القدر ، وينفون علو الذات ، وأهل السنة والجماعة يثبتون العلو بجميع أنواعه الثلاثة .

فالثلاثة كلها صفته ، ودلت على كماله ، كما قال الله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [سورة طه : ٥]، وقال : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ الآية [سورة الفرقان : ٥٩] ، في سبعة مواضع من كتابه(١) ، كما قال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾(٢) [سورة فاطر : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾(٣) [سورة النحل : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ(٤) فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾(٥) [سورة المعارج : ٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾(٦) [سورة آل عمران : ٥٥] ، وأمثال هذه

---

(١) آيات الاستواء على العرش في سبعة مواضع من القرآن ، كلها بلفظ واحد ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ واستوى : يعني ارتفع على العرش . والعرش هو سقف المخلوقات ، وأعظم المخلوقات . فالاستواء ثابت على العرش . والعلو أيضاً ثابت ، كلاهما ثابت لله ﷻ ، والجهمية والمعتزلة ينفون الاثنين : العلو والاستواء .

(٢) هذا من أدلة العلو ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ﴾ لأن الصعود لا يكون إلا إلى أعلى . والرفع أيضاً : ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ الرفع لا يكون إلا إلى أعلى فدل على أنه سبحانه في العلو .

(٣) قوله : ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ هذا فيه إثبات العلو والفوقية لله ﷻ .

(٤) العروج هو الصعود ، العروج لا يكون إلا إلى أعلى ، فدل على أن الله في العلو ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ الملائكة خلق من خلق الله وهم عمار السماوات . والروح نوع من الملائكة ، وقيل : الروح جبريل ﷺ ، فعطفه من عطف الخاص على العام .

(٥) يوم القيامة .

(٦) لما مكر اليهود بعيسى ﷺ ، وأرادوا قتله ، حماه الله منهم ، وقال الله له : ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ وليس الوفاة هنا وفاة الموت ، وإنما هي وفاة القبض . ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ : يعني قابضك وفيه الحياة ﷺ . وقيل : المراد بالوفاة وفاة النوم ، يعني : أصابه نوع من النوم ؛ لأن النوم يسمى وفاة . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا
=

الآيات ، فمن سلب علوَّ الله تعالى على خلقه فقد خالف صريح الكتاب والسنة ، وألحد في أسمائه وصفاته .

ومعنى هذه الكلمة : نفي الإلهية عن كل شيء ، سوى ما استثني منها(١) ، وهو الله تعالى وفيه النص على أن الأرضين سبع كالسماوات(٢) لكن هذه

جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [سورة الأنعام : ٦٠] ، أي وفاة النوم ، وقال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [سورة الزمر : ٤٢] فالنوم وفاة ، وفاة صغرى ، فما أصاب عيسى ﷺ هو من هذا النوع من الوفاة الصغرى التي هي النوم ، وليس المراد بالوفاة وفاة الموت ؛ لأن عيسى ﷺ لم يمت بعد ، هو حي ولا يزال حياً إلى أن ينزل في آخر الزمان ، ويقتل الدجال ، ويحكم بشريعة الإسلام ، ثم يموت بعد ذلك ، الموت الذي كتبه الله عليه ؛ لأن الله ﷻ قضى بالموت على كل مخلوق منهم عيسى ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ هذا في آخر الزمان ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة النساء : ١٥٩] .

﴿ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ : رفعه الله من بينهم وهم لا يشعرون ، وألقى الشبه على الذي دلهم على المكان فقتلوه يظنون أنه عيسى ﷺ ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [سورة النساء : ١٥٧] ، ولهذا قال : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٤ ، ٥٥] ، والشاهد في قوله : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ : هذا فيه إثبات العلو لله ؛ لأن الرفع لا يكون إلا إلى أعلى .

(١) ومعنى هذه الكلمة أي (لا إلـٰه إلا الله) نفي الإلهية عن ما سوى الله وإثباتها لله ﷻ ، فليس هناك إله حق إلا الله ، وما عداه فهي آلهة باطلة . المعبودات تسمى آلهة ، تسمى إلـٰه كما قال تعالى : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [سورة ص : ٥] وقال سبحانه ﴿ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ [سورة ص : ٦] .

(٢) لأنه قال : « والأرضين السبع » فنص على أنها سبع ، بينما أشار إلى ذلك في قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [سورة الطلاق : ١٢] المثلية تقتضي المثلية في كل شيء ، ومن ذلك أنها سبع طبقات .

الكلمة العظيمة لا يحصل رجحانها إلا في حق من أتى بقيودها[١] ، التي قيدت بها في الكتاب والسنة ، وقد ذكر سبحانه في سورة براءة وغيرها كثيراً ممن يقولها ولم ينفعهم قولها كحال أهل الكتاب والمنافقين[٢] على كثرتهم وتنوعهم في نفاقهم ، فلم تنفعهم مع ما قام بهم من ترك تلك القيود ، فمنهم من يقولها جاهلاً بما وضعت له ، وبما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه والصدق والإخلاص وغيرها ، كعدم القبول ممن دُعي إليها علماً وعملاً ،

---

(١) ليست مجرد كلمة ، فلا ترجح بالسماوات والأرض إلا لمن أخلص هذه الكلمة لله ﷻ ، وأتى بشروطها ، أما من يقولها مجرد لفظ ، ولا يستحضر معناها ، أو يفسرها بغير تفسيرها الصحيح ، أو يعبد غير الله وهو يقولها هذا لا تنفعه (لا إلـه إلا الله) وجودها كعدمها . ولذلك كثير من الوثنيين الآن وعباد الأضرحة يرددون (لا إلـه إلا الله) في الأوراد ، والصباح ، والمساء ، يأخذون بالفضائل التي وردت لكن لا يعلمون بالمقصود ؛ لذلك يدعون الموتى ، وهذه الأضرحة ، والأولياء والصالحين ، ويرددون هذه الكلمة مجرد ترديد بلا فائدة ، لا ينفون ما نفته ، ولا يثبتون ما أثبتته ، مجرد كلام يرددونه من غير فهم أو من غير عمل – والعياذ بالله – فلا تنفعهم (لا إلـه إلا الله) .

(٢) أهل الكتاب يقولون : (لا إلـه إلا الله) ، وقد قال الله تعالى في سورة براءة : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٩] ، وهم أهل الكتاب يقولون (لا إلـه إلا الله) ، لكن يقولون : المسيح ابن الله ، عزير ابن الله ، ويدعون الموتى ، ويبنون على القبور فلا تنفعهم (لا إلـه إلا الله) . فالله ﷻ أمر بقتالهم وهم أهل كتاب وكذلك المنافقون في سورة التوبة ذكر الله معائبهم ، وكرر صفاتهم في هذه السورة ، حتى سميت السورة الفاضحة ؛ لأنها فضحت المنافقين وهم يقولون : (لا إلـه إلا الله) ، ولم تنفعهم لما لم يقولوها بصدق ، وإنما يقولونها نفاقاً ؛ بل جعلهم الله في الدرك الأسفل من النار ، تحت عبدة الأوثان وهم يقولون : (لا إلـه إلا الله) كما أن أهل الكتاب لما لم يخلصوا لله بل أشركوا مع الله لم تنفعهم هذه الكلمة .

وترك الانقياد بالعمل بما تقتضيه[(١)] .

كحال أكثر من يقولوها قديماً وحديثاً ، ولكن في أواخر هذه الأمة أكثر[(٢)] . ومنهم من يمنعه من محبَّتها والعمل بها ما قام بقلبه من كبر ، أو هوى[(٣)] أو غير ذلك من الأسباب ، وهي كثيرة .

---

(١) مثله الآن أناس مع الأسف يكرهون أن الناس يُبَيَّن لهم التوحيد وينهون عن الشرك ، هذه مصيبة ، هذه كراهية لمدلول هذه الكلمة ، يصفون الذين يدعون إلى التوحيد بأنهم يريدون تفريق المسلمين ويريدون ... إلى آخر ما يقولونه . هذا من كراهية ما تدل عليه ، وعدم القبول لها - نسأل الله العافية - على الإنسان أن يحذر أن يكون من هؤلاء الذين لا يقبلون هذه الكلمة ، ولا ينقادون لها ، وإنما ينقادون لمذاهبهم وأحزابهم ومناهجهم ، وأما من دعا إلى توحيد الله ونهى عن الشرك هذا يعتبرونه ثقيلاً ، منفراً إلى آخر ما يقولون . وأن هناك شيء أهم ، يقولون : هذه جزئيات ، والدعوة إلى وحدة المسلمين وكذا وكذا أهم . سبحان الله ، المسلمون يتحدون بدون توحيد وبدون إخلاص لله ﷻ ؟! لا يمكن هذا . صححوا الأساس أولاً ، ثم بعد ذلك ادعوا إلى الاجتماع . الاجتماع مطلوب ، والتفرق منهي عنه ؛ لكن الله ﷻ قال : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٣] لم يقل : اجتمعوا فقط . بل قال : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ . وحبل الله : هو التوحيد ، هو الدين ، وهو الإسلام ، الاجتماع لا يحصل إلا بالتوحيد والإسلام والإيمان .

(٢) يقولون : لا تشغلوا الناس بالتوحيد ، توحيد توحيد ، سبحان الله هذا سمعناه منهم ، وقرأناه في بعض كتبهم ، هؤلاء يخشى عليهم من الردة إن لم يتوبوا إلى الله ﷻ ، الذي يستثقل التوحيد ، ويستثقل معنى (لا إلـه إلا الله) والدعوة إليه وبيانه للناس ، هذا يكون مرتداً عن دين الله .

(٣) هذا يعرف معناها ، ويعرف مدلولها ، ولكن يمنعه من الإلتزام والعمل بها أشياء : إما محبة في الجاه والسلطة ، وإما هوى في نفسه يتعارض مع مدلول هذه الكلمة ، هذا هو الذي يكون حقاً من المشركين ، ما ترك التوحيد إلا بسبب النخوة الجاهلية ، وتمسكهم بعادات آبائهم وأجدادهم ، كلهم يقولون : ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٢٤] ، ﴿ مَا سَمِعْنَا

=

منها : قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(١) [سورة التوبة : ٢٤] .

وأما أهل الإيمان الخلَّص فهم الذين أتوا بهذه الكلمة ، واجتمعت لهم قيودها التي قيَّدت بها علماً ويقيناً وصدقاً وإخلاصاً ومحبةً وقبولاً وانقياداً(٢) وعادوا في الله ، ووالوا فيه ، وأحبُّوا فيه ، وأبغضوا فيه(٣) وقد ذكرهم الله تعالى في مواضع من سورة براءة وغيرها ، وخصهم بالثناء عليهم ، والعفو عنهم ، وأعد لهم جنته وأنجاهم من النار، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ

بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [سورة ص : ٧] ، ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [سورة هود : ٦٢] ، هذه مقالاتهم .

(١) هذا في ترك الهجرة والجهاد ، إنسان يقول : (لا إلـٰه إلا الله) ، وترك الهجرة مشحة بوطنه وماله ، وترك الجهاد في سبيل الله خوفاً من القتل ، فهذا يدخل في هذه الآية ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾ (فلا إلـٰه إلا الله) تقتضي الهجرة من بلاد الشرك إلى بلاد التوحيد ، وتقتضي الجهاد في سبيل الله لإعلاء هذه الكلمة ونفي ما يضادها ، أما الذي يعمل هذا فقد آثر ما تهواه نفسه على ما يحبه الله ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ يعني : انتظروا . هذا وعيد ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ سماهم فاسقين خارجين عن طاعة الله ﷻ .

(٢) هذه شروط لا إلـٰه إلا الله .

(٣) هذه علامة الإخلاص : المعاداة في الله ، والمحبة في الله ، تحب من يحبه الله ، وتبغض من يبغضه الله .

وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ (١) . وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ (٢) . أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ٧١] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (٣) [سورة التوبة : ١٠٠] **فهؤلاء ومن اتبعهم**

---

(١) هم في ذاتهم أولياء ، بعضهم أولياء بعض . هذه أول صفة المحبة في الله والمعاداة في الله .

(٢) هذه صفاتهم . هذا كله من مضمون لا إلـٰه إلا الله .

(٣) هذه الآية تدل على الاقتداء بالصحابة ؛ لأنهم خير القرون ؛ ولأنهم صحبوا الرسول ﷺ فهم أدرى من غيرهم في أمور الشريعة ؛ لأنهم تلقوها عن الرسول ﷺ مباشرة ، فاتباعهم والاقتداء بهم هذا من أصول عقيدة أهل السنة والجماعة ؛ لأن من أصول عقيدة أهل السنة والجماعة الاقتداء بالسلف الصالح ، ولاسيما الصحابة رضوان الله عليهم ، ولاسيما السابقون الأولون منهم . وقوله : ﴿ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ : الإحسان : معناه الإتقان ، اتقان الشيء وإتمامه ، فالمراد الاقتداء بهم على الوجه المطلوب من غير غلو ، ومن غير تساهل ، ومجرد الانتساب إليهم بالاسم دون التحقيق هذا ليس باتباع لهم ، الذي ينتسب إلى السلف ، ولكنه يخالفهم في العقيدة ، وفيما ثبت عنهم من القول والعمل ، ويقتدي بغيرهم ، هذا ليس تابعاً للسابقين الأولين وإن كان يدَّعي هذا ، العبرة بالتحقيق لا بالدعوى ، والطرف الثاني من يتبعهم ولكن يغلو ويزيد وينسب إليهم أشياء لم تصدر عنهم ، ولم يقولوها ، فهذا أيضاً لم يتبعهم بإحسان ؛ بل خالفهم وأسند إليهم شيئاً لم يقولوه . فكثير من الجهال أو المبتدئين في طلب العلم اليوم ينسبون إلى السلف أشياء لم تثبت عنهم ولم يقولوها وليس لهم مرجع في هذا يرجعون إليه ، فيجب التنبه لهذا الأمر . فقوله تعالى : ﴿ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ : هذا قيد فليس كل من ادعى متابعة السلف والصحابة يكون محقاً ، حتى يتبعهم بإحسان ، وذلك يستدعي معرفة ما هم عليه ، كيف يتبعهم بإحسان =

بإحسان هم أهل (لا إلـه إلا الله)[١] وغير هذه من الآيات في الثناء عليهم وما أعد لهم في الدار الآخرة ، فمن تدبر القرآن وعرف تفاوت الخلق في محبة ربهم وتوحيده ، والعمل بطاعته والهرب من معصيته ، وإيثار ما يحبه تعالى رغبة وعملاً وترك ما يكرهه خشية ورجاء ، واعتبر الناس بأحوالهم وأقوالهم وأعمالهم ونياتهم وإرادتهم وما هم عليه من التفاوت البعيد تبين له خطأ المغرورين[٢] .

كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « الكيس من دان نفسه

وهو لا يدري ولا يعرف ما هم عليه ، لذلك لابد للإنسان أن يدرس ويعرف ويطلع على ما كان عليه السلف الصالح من أجل أن يتبعهم بإحسان ، هذه أمور يجب التفطن لها .
ثم وعدهم الله بهذا الوعد ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ ذلك جزاء من اتبع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بإحسان . جزاؤه الرضوان وهو أعلى شيء ، ولذلك بدأ الله به ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ ثم قال : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ ﴾ هذا الثاني . فالرضوان أعظم من الجنة ، كما قال ﷻ : ﴿ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ ﴾ [سورة التوبة : ٧٢] .

(١) هؤلاء يعني السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان هم أهل (لا إلـه إلا الله) الذين حققوها قولاً وعلماً وعملاً ، هؤلاء هم أهلها ﴿ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ يعني (لا إلـه إلا الله) ، ﴿ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَا ﴾ [سورة الفتح : ٢٦].

(٢) ولا يكتفي بمجرد أخذ الناس على ظواهرهم ؛ بل لابد أن يتحقق من علمهم ، ومن اتباعهم ، ومن تحقيقهم ، لا يكتفي بمجرد انتسابهم للسلف ، أو انتسابهم للصحابة ، حتى يعرف حقيقة ما يدَّعون وما يقولون ؛ لأن كثيراً ممن يدَّعون دعاوى لا يحققونها ، قد يدَّعونها من باب الخديعة والمكر بالمسلمين ، فلا يجوز التسرع مع الناس ، نعم نحن لا نسيء الظن بمن أظهر الخير ، لكن لا نمنحه الثقة ونعتمد عليه حتى نعرف حقيقته .

وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني »[١] .

وقوله : وللترمذي وحسنه ، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم ؛ لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة »[٢] .

---

(١) هذا حديث جامع مانع ، « الكيس » : يعني العاقل من الكياسة ، وهي العقل ، « من دان نفسه » : يعني حاسبها ، الإدانة : المحاسبة ، يحاسب الإنسان نفسه ، ولا يزكيها قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [سورة النجم : ٣٢] بل يحاسب نفسه ويعتبرها مقصرة ومفرطة في جنب الله ، هذا هو العاقل ، أما الذي يزكي نفسه ؛ ويمدح نفسه فهذا ليس بكيس ولا حاذق ، هذا شيء . الشيء الثاني : « عمل لما بعد الموت » لابد من عمل أيضاً فلابد من أمرين : محاسبة النفس والعمل للدار الآخرة . هذا هو العاقل ، « والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني » هذا هو مجرد الانتساب إلى الحق وإلى اتباع الرسول ﷺ ، لكن من غير تحقيق ، ويقول : (لا إلـٰه إلا الله) لكن من غير تحقيق لمعناها وعمل بمقتضاها ؛ بل يتبع نفسه هواها ولو كان في معصية الله أعطاها إياه ، هذا عاجز في الحقيقة ، ويتمنى على الله الأماني ، والأماني رأس مال المفاليس ، يتمنى الإنسان بدون أن يعمل هذا لا يفيده شيئاً .

(٢) هذا الحديث في فضل التوحيد أيضاً ، أن الله ﷻ يقول : « يا ابن آدم » : هذا يسمى بالحديث القدسي ، والحديث القدسي : هو ما يرويه النبي ﷺ عن ربه ﷻ ، فيكون القائل هو الله ، والمتكلم هو الله ، والراوي هو الرسول ﷺ . والفرق بينه وبين الحديث النبوي : أن الحديث القدسي من كلام الله لفظه ومعناه . وأما الحديث النبوي فإن معناه من الله ، ولكن لفظه من النبي ﷺ هذا هو الفرق بين النوعين ، أما من غلط وقال : إن الحديث القدسي لفظه من الرسول ﷺ ومعناه من الله ﷻ ، هذا غلط إذاً ما الفرق بينه وبين الحديث النبوي ؟! هذا من ناحية . الناحية الثانية : أن الرسول ﷺ يقول : قال الله ، وهذا يقول : لا ، ما قال الله ، وإن الذي قال هو الرسول ﷺ هذا غلط واضح ، وما أظن أن أحداً من السابقين تكلم في هذا الكلام ؛ بل كانوا يروون الحديث القدسي كما جاء ، ولا يتعرضون لمثل هذاالكلام . والفرق بين القرآن والحديث القدسي كل منهما كلام الله ،

=

في هذا الحديث ما يبيِّن معنى (لا إلـٰه إلا الله)[1] التي رجحت بجميع

لكن القرآن متعبد بتلاوته ، والحديث القدسي ليس متعبداً بتلاوته . أيضاً القرآن ثبت بالتواتر القطعي ، والحديث القدسي قد يكون آحاداً ليس متواتراً وأيضاً قد يكون صحيحاً ، وقد يكون حسناً ، وقد يكون ضعيفاً بحسب السند .

والحديث فيه أن النبي ﷺ يقول : إن الله ﷻ يقول : « يابن آدم » : هذا خطاب من الله لجنس بني آدم ، والمعنى : يا بني آدم ؛ لأن المفرد إذا أضيف يعم . فقوله : « يا ابن آدم » مثل قوله : يا بني آدم « إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا » القراب : هو ملء الشيء أو ما يقارب ملأه فمعنى قوله ﷺ عن الله ﷻ : « لو أتيتني بقراب الأرض » يعني ملء الأرض أو ما يقارب ملأها « خطايا » يعني ذنوب ومعاصي ، لكنها دون الشرك ؛ ولهذا قيدها بقوله : « ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً » : يعني ذنوب دون الشرك . أما من لقي الله بالشرك فإن الله لا يغفر له كما قال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [سورة النساء : ٤٧] ، يعني دون الشرك من الذنوب والمعاصي ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ﷻ . ففي هذا الحديث فضل التوحيد ؛ لأن من سلم من الشرك ، فإنه أتى بالتوحيد ، فيحصل على هذا الوعد من الله ﷻ ، وهو المغفرة . وهذا يوافق الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ .

قوله : ﴿ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ : ما : هذه موصولة من صيغ العموم ، يعني : يغفر الذنوب التي دون الشرك ، وإن كانت من الكبائر ، فإن الله ﷻ يغفرها إذا شاء سبحانه ، وقد يعذب صاحبها ، ثم يدخله الجنة بعد ذلك .

« ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً » : بهذا القيد ، فدل على فضل التوحيد ، وأن الله يكفر به الذنوب . ودل على أن من لقي الله بالشرك ، فإن الله لا يغفره له ، هذا فيه فضل التوحيد ، وهذا واضح من الحديث . « لأتيتك بقرابها » : أي ملء الأرض مغفرة ، فرحمته ومغفرته وسعت كل شيء ، مغفرته أعظم من ذنوب بني آدم ، فمن ظن أن ذنباً لا تسعه مغفرة الله ، فإنه لم يعرف الله ﷻ ، فمغفرة الله واسعة إلا الشرك فإنه لا يغفر ، ولهذا يقول ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ [سورة النجم : ٣٢] .

(١) « ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً » : هذا معنى (لا إلـٰه إلا الله) ؛ لأن (لا إلـٰه إلا الله) تنفي =

المخلوقات ، وجميع السيئات[١] وأن ذلك هو ترك الشرك قليله وكثيره[٢] وذلك يقتضي كمال التوحيد ، فلا يسلم من الشرك إلا من حقق توحيده ، وأتى بما تقتضيه كلمة الإخلاص ، من العلم واليقين ، والصدق والإخلاص ، والمحبة والقبول والانقياد[٣] ، وغير ذلك مما تقتضيه تلك الكلمة العظيمة كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[٤] [سورة الشعراء : ٨٨، ٨٩] .

الشرك ، وهذا الحديث في أهل (لا إلـه إلا الله) الذين قالوها عارفين بمعناها عاملين بمقتضاها .

(١) (لا إلـه إلا الله) رجحت بجميع المخلوقات ، كما في حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قبل هذا ، حديث : « أن موسى ﷺ قال : يا رب ، علمني شيئاً أذكرك وأدعوك فيه » ... الحديث فيه أن (لا إلـه إلا الله) رجحت بالسماوات ، وحديث البطاقة الذي قبله فيه (لا إلـه إلا الله) رجحت بالسيئات ، وهذا الحديث مثل حديث البطاقة : أن (لا إلـه إلا الله) ترجح بالسيئات التي دون الشرك .

(٢) « لا تشرك بي شيئاً » : كلمة « شيئاً » تعني : تجنب الشرك الأكبر والأصغر ؛ لأن كلمة « شيئاً » في سياق النفي تعم كل شرك ، سواء كان أكبر أو أصغر ؛ لكن الشرك الأكبر لا يغفر لصاحبه ويخلد في النار ، أما الشرك الأصغر فإنه لا يغفر لصاحبه ، لكنه لا يخلد في النار ؛ بل يعذب بقدر ذنبه ، ثم يدخل الجنة . هذا على القول بأن الشرك الأصغر لا يغفر . وهناك من يرى أن الشرك الأصغر يدخل في مغفرة الله ﷻ .

(٣) هذه شروط (لا إلـه إلا الله) ، لا يسلم من الشرك إلا من حقق (لا إلـه إلا الله) بشروطها السبعة التي سبق ذكرها .

(٤) القلب السليم هو الموحد المخلص لله ﷻ ، الذي سلم من الشرك والنيات الخبيثة .

٣ - باب من حقَّق التوحيد ؛ دخل الجنة بغير حساب

وَقَوْل الله تَعالَى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عن حصين بن عبد الرحمن ، قال : كنت عند سعيد بن جبير ، فقال : أيُّكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة ؟ فقلت : أنا . ثم قُلت : أما إنِّي لم أكن في صلاةٍ ، ولكني لُدِغت . قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيتُ . قَالَ : فَمَا حَمَلَكَ على ذلك ؟ قُلتُ : حديثٌ حدَّثناهُ الشعبي . قال : وما حدَّثكم ؟ قلت : حدَّثنا عن بُريدة بن الحصيب ، أنه قال : لا رُقيةَ إلَّا من عينٍ أو حُمَةٍ . قالَ : قَدْ أَحْسَنَ من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدَّثنا ابن عبَّاس عن النبي ﷺ ، أنه قال : « عُرِضَتْ عليَّ الأُمَمُ ، فرأيتُ النبيَّ ومعهُ الرّهطُ ، والنَّبيَّ ومَعَهُ الرَّجُلُ والرجُلانِ ، والنَّبيَّ وليسَ مَعَهُ أحَدٌ ؛ إذْ رُفِعَ لي سوادٌ عظيمٌ فظننتُ أنهم أُمَّتي . فقيل لي : هذا موسى وقومُهُ . فنَظَرْتُ فإذا سوادٌ عظِيمٌ ، فقيل لي : هذه أُمَّتُك ، ومعهم سبعُون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب » . ثُمَّ نَهَضَ ، فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يُشركوا بالله شيئاً ... وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ ، فأخبروه ، فقال : « هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ ، ولَا يَكْتَوُونَ ، وَعَلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ » . فقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ ، فقال : ادْعُ الله أن يَجْعَلَني مِنْهُمْ . فقال : « أَنْتَ مِنْهُمْ » . ثم قام رجلٌ آخر ، فقال : ادعُ الله أن يجعلني منهم . فقال : « سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ » .

٣ - باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

قوله : (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب)[١] : أي ولا عذاب ، كما في الحديث ، وتحقيقه : تصفيته وتخليصه من شوائب الشرك والبدع والإصرار على الذنوب[٢] ، فمن كان كذلك فقد حقق توحيده[٣] ، وتحقيق التوحيد عزيز في الأمة[٤] لا يوجد إلا في أهل الإيمان الخُلَّص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه ، كما قال تعالى في يوسف ﷺ : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] وفي قراءة « المخلِصين »[٥] ، وهم في

---

(١) (باب) أي : هذا باب : مبتدأ وخبر (من حقق التوحيد) : هذا مبتدأ ثاني ، خبره : (دخل الجنة بغير حساب) .

والفرق بين هذا الباب والذي قبله : أن الذي قبله (باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب) في الموحِّد يكون عنده ذنوب ومعاصي ومخالفات دون الشرك ، وقد يكون عنده بدع ومحدثات ، فهذا قد يُحاسب ويُعذب عليها ، لكنه يسلم من الخلود في النار ، وقد يأمن من دخولها أيضاً إذا شاء الله ﷻ ، وأما هذا الباب (من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب) أي أنه بتحقيقه للتوحيد يدخل الجنة من أول وهلة ، فهذا أعلى ، وهو مرقى صعب لا يصل إليه إلا السابقون والمقربون .

(٢) تحقيقه : تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك الأكبر والأصغر ، ومن البدع وهي العبادات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا دليل عليها من كتاب الله وسنة رسوله ، ومن الإصرار على الذنوب ، ولم يقل من الذنوب ؛ لأن الإنسان بشر قد يقع في الذنوب ، لكنه لا يصر عليها ؛ بل يتوب منها ، فيلقى الله وهو تائب من جميع الذنوب ، هذا هو الذي حقق التوحيد ، وهذا مقام رفيع لا يناله إلا المقربون والسابقون من هذه الأمة .

(٣) من كان كذلك خلص التوحيد وصفَّاه من جميع أنواع الشرك ، وتجنب البدع ، وتاب من الذنوب ولقي الله ليس عليه ذنب ، هذا هو الذي حقق التوحيد .

(٤) عزيز في الأمة : يعني قليل ، لا يناله إلا أفراداً من الأمة .

(٥) هذا لا يناله إلا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، ويناله السابقون من أتباعهم .

=

صدر هذه الأمة كثيرون ، وفي آخرها هم الغرباء وقد قلُّوا ، وهم الأعظمون قدراً عند الله[١] . وقال تعالى عن خليله ﷺ : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[٢] [سورة الأنعام : ٧٨ ، ٧٩] ، أي : أخلصت ديني وأفردت عبادتي[٣] للذي فطر السماوات والأرض أي : خلقها وابتدعها على غير مثال سابق[٤] .

ويوسف ﷺ من الأنبياء ، ولما عرضت له الفتنة ، وتجمَّلت له المرأة ، وراودته عن نفسه حماه الله ﷻ من الوقوع في الفاحشة ، لماذا ؟ لأنه من عباده المخلَصين ، وفي قراءة « المخلِصين » هذا هو السبب ، فحماه الله بالإخلاص ، وهذا هو تحقيق التوحيد .

(١) الذين حققوا التوحيد في صدر الأمة كثيرون ، لكن في آخر الزمان يكونون قليلاً وغرباء ، ومضطهدين ومحتقرين في الناس ، هؤلاء هم أهل هذه المرتبة ، كما قال الله تعالى : ﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [سورة الواقعة : ١٣ ، ١٤] .

(٢) هذا هو تحقيق التوحيد : البراءة من الشرك ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ والإخلاص لله ﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ ﴾ أي : نيتي وقصدي وعملي ، ﴿ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗا ﴾: مقبلاً على الله ، معرضاً عما سواه، مهما كلف الأمر ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ بريء من المشركين .

(٣) ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ جاء بها في أول الكلام ، ثم أعاد البراءة من الشرك في آخره ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ تأكيداً لها ، وهذا من تحقيق التوحيد : البراءة من المشركين ، أما الذي لا يتبرأ من المشركين هذا لم يخلص التوحيد لله ﷻ . والتبرؤ منهم يكون بالابتعاد عنهم ومعاداتهم .

(٤) وهو الله ﷻ فطر : يعني خلق ، والفطر : هو إيجاد الشيء من غير مثال سابق . فالله خلق السماوات والأرض من غير مثال سابق ؛ بل ابتدعها سبحانه ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي : ابتدعها من غير أن يسبق لها نظير بقدرته ﷻ . وفطرها أي : خلقها ابتداء . هذا الفطر في اللغة ، يقول العربي : هذه بئري فطرتها بيدي : يعني أنا حفرتها ، ولم يسبق أن حفرها غيري .

﴿ حَنِيفًا ﴾ أي : في حال كوني حنيفاً أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد(١) ، ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٢) . ونظائر هذه الآية في القرآن كثير ، كقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾(٣) [سورة النساء : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ(٤) فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾(٥) [سورة لقمان : ٢٢] ، قال العماد ابن كثير(٦) ﷺ في الآية : (يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله أي : أخلص له

(١) الحنيف هو المائل عن الشرك إلى التوحيد ، متوجه إلى التوحيد ، ومعرض عن الشرك وأهله .

(٢) هذا من باب التأكيد ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ، ﴿ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ : كلها تأكيدات للبراءة من الشرك .

(٣) أسلم وجهه لله : أي نيته وقصده لله ﷻ ، لا ينوي ولا يريد غير الله ﷻ بأعماله ، لا رياء ولا سمعة ، وتجنب الشرك أكبره وأصغره ، هذا معنى إسلام الوجه لله ﷻ وهو الإخلاص لله ﷻ في القول والعمل ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ : أي متبع للشرع ، غير مبتدع ، وكذلك متجنب للإصرار على الذنوب والمعاصي فلا يبقى على ذنب ؛ بل يتوب إلى الله ﷻ .

(٤) مثل التي قبلها ﴿ يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ : يعني يخلص العمل لله ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ : أي يكون عمله موافقاً للشرع ، ليس فيه بدع ومحدثات ؛ لأن الله لا يقبل إلا ما شرع سبحانه ، ولو حسن قصد الفاعل قال ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »(*) .

(٥) وهي (لا إلـه إلا الله) ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ : هذا الإخلاص ، ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ : أي متبع للرسول ﷺ متجنب للبدع ، هذا معنى (لا إلـه إلا الله) .

(٦) العماد : عماد الدين : هذا لقب واسمه : إسماعيل بن كثير ، ويكنى أبا الفداء ، وهو من أئمة التفسير ، ومن أئمة المحدِّثين ، ومن تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٣/ ١٣٤٣ (١٧١٨) .

العمل وانقاد لأوامره ، واتبع شرعه ، ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي : في عمله واتباع ما أمر به ، وترك ما عنه زجر)[١] .

فدلت هذه الآية العظيمة على أن كمال الإخلاص إنما يوجد بترك الشرك والبراءة منه وممن فعله ، *كما تقدم في الباب قبل هذا*[٢] . **قوله : وقول الله تعالى :** ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٣] [سورة النحل : ١٢٠] ،

---

(١) هذا معنى الإسلام والإحسان . الإسلام : يعني الإخلاص ، والإحسان : يعني المتابعة وعدم الابتداع ، وكثير من الناس لا يروق لهم العمل بالسنة ، وإنما يروق لهم العمل بالبدع والمحدثات ، ولا يحرصون على السنة ، وإنما يحرصون على البدع ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه فتنة ، وهذا من الشيطان يريد أن يصدهم عن الحق فتجدهم يتسابقون إلى البدع المخترعة ، ويتناقلونها ويكتبونها ، ويوزعونها على الناس في نشرات ، أو في كتب يحرصون عليها حرصاً ، الشيطان يؤزهم على ذلك ، بينما لا تجدهم يحرصون على السنن ولا يسألون عنها ، ولو علموها فإنهم لا يعملون بها إلا بقصور وقلة ، وهذا من الشيطان ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فأهل البدع ينشطون في بدعهم والسبب شياطين الإنس والجن الذين يحثونهم ويقودونهم إلى هذه الأمور ؛ لأجل القضاء على السنة والشريعة بهذه الطريقة .

(٢) فالإخلاص يعني إفراد الله ﷻ بالقصد والنية والبراءة من المشركين .

(٣) هذا قول المؤلف ﷬ : (بابٌ من حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب) وقول الله . أي : وبابُ قولِ الله تعالى . ويصلح الرفع : وقولُ الله ، يكون معطوفاً على باب : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ هذه صفات إبراهيم ﷺ الذي هو القدوة وهو إمام الحنفاء وأبو الأنبياء صلى الله وسلم عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، ذكر الله له خمس صفات :

الصفة الأولى : أنه كان أمّة ، والأمّة معناه : القدوة ، فالأمة والإمام بمعنى واحد ، أي : القدوة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [سورة البقرة : ١٢٤] يعني قدوة في الخير . وقيل معنى ﴿ كَانَ أُمَّةً ﴾ أنه أول ما بعثه الله لم يكن =

قال العماد ابن كثير ﷺ تعالى : (يمدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، بتبرئته من المشركين ، ومن اليهودية والنصرانية) والمجوسية(١) والأمّة : هو الإمام الذي يقتدى به . والقانت : هو الخاشع

على وجه الأرض مؤمن ؛ بل كان وحده على الإيمان والتوحيد ، فكان غريباً في وجه الأرض ، فلذلك جعله الله أمة ، أي : يقوم مقام أمّة .

الصفة الثانية : قانتاً لله : والقنوت : هو الثبات على الطاعة ، أي : ثابتاً على طاعة الله ﷻ ، مداوماً عليها ، وعدم التزحزح عنها لأي غرض كان ، لا من التهديدات ولا من المغريات . فلا يتأثر بالمغريات فيترك الطاعة ، ولا يتأثر بالتهديدات والوعيد من المخالفين فيترك طاعة الله ﷻ ؛ بل هو ثابت عليها . والقنوت في اللغة : الثبوت والدوام . أما الذي يتزعزع ويتأثر مع الأحداث ، ويتحول عن العبادة وعن الطاعة ، مع أول صارف من شهوة أو شبهة أو تهديد فهذا ليس قانتاً لله .

الصفة الثالثة : ﴿ حَنِيفًا ﴾ : الحنيف هو المقبل على الله بجميع قلبه ووجهه ، المعرض عما سواه . هذا هو الحنيف ، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم ﷺ .

الصفة الرابعة : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ : أنه كان يتبرأ من المشركين ، ولم يقتصر على كونه أمة ، وقانتاً ، وحنيفاً ، بل كان يتبرأ من المشركين ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ هذه من أصول العقيدة : البراءة من المشركين .

الصفة الخامسة : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ : أنه يشكر نعمة الله عليه ، ولا يتكبر بها ، ولا يفخر بها ، ولا ينسى ربه ﷻ ، كما يفعل كثير من الخلق الذين إذا أنعم الله عليهم اغتروا وبطروا ، وتكبروا على الناس وتجبروا ، ما زادته نعم الله إلا شكراً وتعبداً لله ﷻ ، فمن اتصف بهذه الصفات فقد حقق التوحيد . فاعرض نفسك على هذه الصفات ، إن توفرت فيك فأنت قد حققت التوحيد ، فأبشر بوعد الله ﷻ ، وإن كان عندك تقصير فيها أو خلل فعليك بالتوبة ، ولا تقنط من رحمة الله ، وسُدّ الخلل وأصلح النقص ، والله يتوب على من تاب .

(١) من جميع طوائف المشركين ، واليهودية والنصرانية المحرَّفة ليست على دين إبراهيم ﷺ وإنما حدثت بعده ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا =

المطيع . والحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وقال مجاهد : « كان إبراهيم أمة ، أي : مؤمناً وحده ، والناس كلهم إذ ذاك كفار » . قلت : وكلا القولين حق ، فقد كان الخليل ﷺ كذلك ، وقول مجاهد – والله أعلم – لما كان الخليل كذلك في ابتداء دعوته ونبوَّته ورسالته ﷺ ، فمدحه الله تعالى بتبرئته من المشركين .

كما قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (١) . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [سورة مريم : ٤١ ، ٤٢] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٢) . إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ

وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٧] ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٥] فالذين يقولون : إن اليهودية والنصرانية دين إبراهيم يكذبون على الله ﷻ ، ويكذبون على إبراهيم ﷺ والمقصود أن اليهودية والنصرانية المحرَّفة ، أو المنسوخة المحرفة ، أو المنسوخة ، هذه ليست من دين موسى ولا من دين عيسى ولا من دين إبراهيم ﷺ .

(١) الصدِّيق : هو المبالغ في الصدق مع الله ، ومع الخلق ، فلا يصدر عنه كذب أبداً . ولهذا قال ﷺ : « وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، ... وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »(*) .

(٢) شيعته : يعني أتباعه ، هذا معنى الشيعة في اللغة . ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أي شيعة نوح ﷺ ، لما ذكر الله قصة نوح أول الرسل ﷺ قال :

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أي : أتباعه على دينه : إبراهيم والرسل كلهم عليهم الصلاة والسلام دينهم واحد ، وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة وترك عبادة ما سواه والبراءة من الشرك

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٠١٣ (٢٦٠٧) .

=

سَلِيمٍ ﴾(١) [سورة الصافات : ٨٣ ، ٨٤] فهذا - والله أعلم - كان في ابتداء دعوته ﷺ ، ولم يك إذ ذاك على وجه الأرض مسلم غيره(٢) ، وبذلك جاء الحديث .

وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فقد فارق المشركين بالقلب واللسان والأركان(٣) ، وأنكر ما كانوا عليه من الشرك بالله في عبادته ، وكسَّر الأصنام ، وصبر على ما أصابه في ذات الله(٤) ، وهذا هو تحقيق التوحيد ، وهو أساس

وأهله ، هذا دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعاً ، أما اسم الشيعة في الوقت الحاضر ينسب للذين ينتحلون الانتساب إلى أهل البيت ، ومحبة أهل البيت ، هذا اصطلاح حادث ، وشعار مبتدع ؛ لأن كل المسلمين والحمد لله يحبون أهل البيت المستقيمين على طاعة الله ، ويوقرونهم ويكرمونهم ، ويعرفون قدرهم ، هذا ليس خاصاً بالشيعة ؛ بل الشيعة يكذبون ، ليسوا شيعة لأهل البيت ، هم يخالفون أهل البيت ، فأهل البيت أهل توحيد وعقيدة وأهل دين ، والشيعة الآن مشركون ومبتدعون .

(١) صار من شيعة نوح ﷺ ، لأنه جاء ربه بقلب سليم ، وهو الإخلاص لله ﷻ .

(٢) يعني : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ : هذا في أول بعثة إبراهيم ﷺ ، لم يكن على وجه الأرض من هو على دين نوح غير إبراهيم ﷺ ، وفيما بعد صار المسلمون كلهم من شيعة نوح ﷺ ، ومن شيعة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٣) ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ : أي كان مخالفاً ومجانباً لهم من جميع الوجوه ، مقطوع الصلة بالمشركين إلا صلة الدعوة لله ﷻ وإنكار المنكر ، أما صلة المحبة والمودة فهو كان قد تبرأ حتى من أبيه ، واتخذه عدواً وهو من أقرب الناس إليه ، قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [سورة الممتحنة : ٤] هذا دين إبراهيم ﷺ مع أبيه ، مع أقرب الناس إليه ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ١١٤] .

(٤) لما ذهب قوم إبراهيم إلى عيدهم ، اعتذر إبراهيم ﷺ عن الذهاب ، وتعلل بأنه مريض ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [سورة الصافات : ٨٩] فلما ذهبوا إلى عيدهم وفرغت الأصنام ذهب إليها

الدين ورأسه(١) ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٢) [سورة البقرة : ١٣١] وأنت تجد أكثر من يقول : لا إلـه إلا الله ، ويدَّعي الإسلام ، يفعل الشرك بالله في عبادته(٣) يدعو من لا يضرُّ ولا ينفع من الأموات والغائبين ، والطواغيت والجن وغيرهم ، ويحبهم ويواليهم ، ويخافهم ويرجوهم ، وينكر على من دعا إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة ما سواه ، ويزعم أن ذلك بدعة وضلالة ، ويعادي من عمل به وأحبه ، وأنكر الشرك وأبغضه ، وبعضهم لا يَعدُّ التوحيد علماً ، ولا يلتفت إليه لجهله به ، وعدم محبته . فالله المستعان .

وكسَّرها بيده ، فمن يجرؤ على هذا بين أمة ظالمة غاشمة ، وكسَّر أعز شيء عندهم وهو الأصنام ؟! ما يجرؤ على هذا إلا أهل الإخلاص وأهل اليقين بالله ﷻ وهو يتوقع ماذا سيكون منهم ، ولكنه صبر في ذات الله ﷻ فكانت العاقبة له ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ . وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [سورة الصافات : ٩٨] لكن متى هذا ؟ بعد الصبر وتحمل المشقة نال هذه المرتبة .

(١) هذا هو الذي فعله إبراهيم ﷺ هو أساس التوحيد وهو تحقيق التوحيد ، فمن يريد أن يحقق التوحيد فليتبع ملة إبراهيم ﷺ ، ويسير على نهجه ، وعلى منهجه الذي سار عليه رسول الله ﷺ .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة النحل : ١٢٣] فنبينا ﷺ بعثه الله بإحياء ملة إبراهيم ﷺ وإعادتها .

(٢) والإسلام معناه : الاستسلام والانقياد . أسلم : أي استسلم وانقد لربك ﷻ .

(٣) هذا لم يستسلم لله ، وإن قال إنه مسلم بلسانه ، لكن أفعاله تكذبه يقول : أنا مسلم ، أو يقول : لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ، ثم يذهب يدعو ويستغيث بغير الله ، ويتعبد الله بالبدع والخرافات ، هذا ليس صادقاً فيما يقول .

وقوله : وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾(١) [سورة المؤمنون: ٥٧ - ٥٩].

---

(١) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : وقول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ في باب تحقيق التوحيد ، لأن أعظم أنواع تحقيق التوحيد : تصفيته وتخليصه من الشرك الأكبر والأصغر .

وقد ذكر الله ﷻ في الآية صفات عظيمة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ . أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٥٧ - ٦١] فذكر أربع صفات :

الصفة الأولى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ : يعني خائفون ، فالمؤمن يخاف من العقوبة ، ومن غضب الله ، ولا يأمن من مكر الله تعالى ، وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون : إن الإيمان في القلب ، وإذا آمن الإنسان فلا تضره معصية . فبين الله ﷻ في الآية أن هؤلاء مع اجتهادهم في التوحيد والعبادة أنهم خائفون من ربهم .

وفيه رد على الصوفية أيضاً ، الذين يقولون : نحن لا نعبده خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته ، وإنما نعبده لأننا نحبه فقط ، وهذا ضلال . فبيَّن الله ﷻ في الآية أن هؤلاء هم أكمل أهل الإيمان ، ومع هذا هم من خشية ربهم مشفقون . ففيها رد على المرجئة والصوفية الذين لا يجعلون الخوف والرجاء من أنواع العبادة .

الصفة الثانية : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ : يؤمنون بالقرآن جميعه من أوله إلى آخره ، ولا ينكرون شيئاً من ذلك ، ولا يعترضون . وأعظم ما في القرآن : توحيد الله ﷻ بأنواعه الثلاثة : توحيد الربوبية ، والألوهية ، والأسماء والصفات .

وأيضاً : الحلال والحرام ، والوعد والوعيد ، والأخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة ، يؤمنون بذلك كله ، ولا يردون منه شيئاً ، أو يتوقفون فيه ؛ لأنه كلام رب العالمين . قال الله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [سورة البقرة: ٢] ، أي : ليس محلاً للريب والشك ، والتردد . فالمؤمن يؤمن بكتاب ربه ، سواءً عرف معناه أو لم يعرفه ، عرف الحكمة أو لم يعرفها ؛ لأنه كلام الله ﷻ .

=

قال العماد ابن كثير ﷺ : (أي : من إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله ، خائفون وجلون من مكره بهم ، كما قال الحسن البصري : المؤمن من جمع إحساناً وشفقاً . والمنافق من جمع إساءة وأمناً[1] ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ

الصفة الثالثة : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ : تجنبوا الشرك بجميع أنواعه ، فصفت عقيدتهم ، وسلم توحيدهم من أن يخدشه ، أو يناقضه ، أو ينقصه شرك أكبر أو أصغر ، توحيد صافٍ من الشرك .

الصفة الرابعة : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ : أي يؤتون ما ءاتوا من الأعمال الصالحة العظيمة ، ومع هذا لا يعجبهم أعمالهم ، ولا يستكثرونها ، وإنما يعتبرون أنفسهم مقصرين في جنب الله ﷻ . ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ : يعني خائفة ، يخشون أن لا تقبل أعمالهم ، فهم جمعوا بين العمل وبين الخوف أن لا يقبل هذا العمل . فالمؤمن يقدم الأعمال الصالحة مع الخوف أن لا تُقبل ، بخلاف الذي يُدلُّ على الله بأعماله ، ويعجب بها(*) ، ويرى أنه استحق بها الجنة ، وهو لا يدري هل صحت أو لا ؟ هل تُقبلت أو لم تتقبل ؟ قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٧] فهم جمعوا بين عمل ووجَل ، بخلاف من أَمِن مِن مكر الله ، وأعجب بأعماله ، أو من تعلق بالرجاء وترك العمل . ولهذا سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله ﷺ عن هذه الآية : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ، ويتصدقون ، وهم يخافون أن لا تقبل منهم »(**) .

الشاهد من الآية قوله ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ ، ولهذا اقتصر الشيخ ﷺ على ذكر هذه الصفة ، لأنها تفسير تحقيق التوحيد ، وأنه السلامة من الشرك بجميع أنواعه .

(١) المكر معناه : الاستدراج لهم ، والمكر من الله محمود ؛ لأنه بحق لإيصال العقوبة إلى من

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - عن الإعجاب بالنفس في عمل شيء من الطاعات ، هل يدخل ضمن دائرة الشرك ؟ فأجاب : الإعجاب بالنفس والعمل من الكبائر التي تحبط العمل وتبطله ، ولكنه ليس من الشرك . أ. هـ .

(**) أخرجه الترمذي في « سننه » ٥ / ٣٢٧ (٣١٧٥) ، وصححه الألباني .

=

رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية ، لقوله تعالى عن مريم : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [سورة التحريم : ١٢] أي : أيقنت أن ما كان فهو من قدر الله وقضائه ، وما شرعه الله إن كان أمراً فهو ما يحبه الله ويرضاه[١] ، وإن كان نهياً فهو ما يكرهه ويأباه ، وإن كان خبراً فهو حق ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : لا يعبدون معه غيره بل يوحّدونه ويعلمون أنه لا إلـٰه إلا هو الأحد الصمد ، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه لا نظير له) . انتهى .

قلت : فترك الشرك يتضمن كمال التوحيد بمعرفته على الحقيقة ، ومحبته وقبوله والدعوة إليه[٢] ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾[٣] [سورة الرعد : ٣٦] وتضمنت هذه الآية كمال

يستحقها من حيث لا يشعر ؛ لأنه لا يمكر إلا بمن مكر به ، أو مكر بعباده مجازاة وعدل منه ﷻ . أما المكر المذموم فهو : إيصال الأذى خفية إلى من لا يستحقه ، قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٤] ، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٠] ؛ لأن هؤلاء مكروا بأنبياء الله وأرادوا قتلهم بغير حق ، فمكر الله بهم بأن عاقبهم عقوبة لم يشعروا بها أوصلها إليهم بطريق خفي لم يشعروا به جزاء منه ، وعدلاً منه ﷻ . فالمكر منه سبحانه محمود ؛ لأنه بحق . والمكر من المخلوق مذموم ؛ لأنه بغير حق .

(١) الإيمان بآيات الله القرآنية معلومة ، والإيمان بآيات الله الكونية : أي الإيمان بأنها تدل على قدرة الله ﷻ ، وعلى استحقاقه للعبادة .

(٢) وهذا هو تحقيق التوحيد .

(٣) (أن أعبد الله ولا أشرك به) لم يقتصر على قوله ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ ﴾ ؛ بل لابد مع عبادة الله من ترك الشرك ، وإلا فإن العبادة تكون باطلة ولا تنفع صاحبها .

التوحيد وتحقيقه وبالله التوفيق .

قوله : عن حصين بن عبد الرحمن[(١)] : هو الحارثي من تابعي التابعين ، عن

---

(١) هذا الحديث حديث حصين بن عبد الرحمن التابعي الجليل ﷺ قال : « كنت عند سعيد بن جبير » ، وسعيد كذلك تابعي جليل من تلاميذ ابن عباس ، فقال : « أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ » يقوله سعيد بن جبير . الكوكب معناه : الشهاب الذي يرمى به الشيطان على استراق السمع وليس معناه أن الكوكب نفسه يسقط ، وإنما هي شظية وشهاب ينطلق على الشيطان يمنعه من استراق السمع من السماء ، والبارحة : يقولون : أنها تطلق على الليلة الماضية ، سميت بارحة ؛ لأنها برحت أي : ذهبت ، يقال : برح المكان إذا غادر . « أيكم رأى الكوكب الذي انقض ؟ » أي : سقط البارحة قلت : أنا . يقوله حصين ، ثم خاف على نفسه من الرياء أن يقال ما الذي جعله يستيقظ في هذه الساعة خشي على نفسه أن يظن أنه يصلي ويتهجد فكره أن يحمد بما لم يفعل « فقلت : أما إني لم أكن في صلاة » هذا من الإخلاص لله ﷻ والاحتياط وكراهة السلف للرياء ، كراهتهم بأن يحمدوا بما لم يفعلوا « ولكني لدغت » بين السبب الذي من أجله سهر في الليل . واللدغة : هي لدغة ذات السموم من الحيات والعقارب ، والعادة أن من يلدغ يطلب العلاج « قال : فما صنعت ؟ » يعني بعد اللدغة ماذا صنعت ؟ « قلت : ارتقيت » أي : قرأت على نفسي ، أو تركت من يقرأ علي الرقية ، والرقية : هي القراءة على المصاب باللدغة أو غيرها من الأمراض بأن يقرأ أو ينفث على المصاب وهي سبب من أسباب الشفاء بإذن الله وعلاج نافع ، « قال : فما حملك على هذا ؟ » هذا فيه أن الإنسان لا يقدم على شيء إلا بدليل « فقلت : حديث حدثناه الشعبي » ، وهو عامر بن شراحيل الشعبي ، وهو أيضاً تابعي جليل ، اشتهر بالتفسير والحفظ ، حدثنا الشعبي وذكر السند عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا رقية إلا من عين أو حُمَة » : هذا دليل حصين أن الرسول ﷺ قال : « لا رقية إلا من عين » : أي إصابة العين ، وهي الإصابة بسبب نظر الحاسد ، وهذا حق وهو من آيات الله ﷻ ، يجعل في نظر بعض الناس سُمِّية إذا نظر إلى شيء يصيب ، وعلاج الإصابة بالعين معروف هو أن العائن يطلب منه أن يدعو بالبركة للمصاب ، وأيضاً يستغسل ، بأن يطلب منه أن يتوضأ بماء ويؤخذ ما تساقط من أعضائه ويصب على المصاب بالعين ويغسل كذلك ما يلي جسمه من الثياب يغسل بماء
=

وتؤخذ الغُسَالة وتصب على المريض ويشرب منها فيشفى بإذن الله هذا علاج العين .
« أو حُمَة » : هذا محل الشاهد ، الحُمَة : السُّم ، سم العقرب أو سم الحية فدل على جواز الرقية من لدغة الحية أو العقرب ، هذا ما دل عليه حديث الشعبي ، الذي استدل به حصين بن عبد الرحمن . قال سعيد بن جبير ﷺ : « قد أحسن من انتهى إلى ما سمع » : هذا فيه أن من عمل بالدليل الذي بلغه أنه لا حرج عليه ؛ لأنه بنى على دليل .
« ولكن حدثنا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال : عرضت علي الأمم » ... بعضهم يقول ليلة كذا أو في مكان كذا ، وبعض العلماء يقول : لعله ليلة الإسراء ، وبعضهم يقول : لعله رؤيا رآها النبي ﷺ ، والأحسن التوقف ، لأن النبي ﷺ لم يبين لنا متى كان هذا .
« عرضت عليّ الأمم » : أي جيء بالأمم . « فرأيت النبي ومعه الرجل والرجلان » لم يتبعه من قومه إلا رجل واحد أو رجلان فقط وبقية الأمة لم يستجيبوا له . « والنبي ومعه الرهط » والرهط : هم دون العشرة يعني لم يتبعه إلا ما دون العشرة . والبقية على الكفر .
« والنبي وليس معه أحد » يأتي يوم القيامة وليس معه أحد ، كل قومه على الكفر أبوا أن يستجيبوا له ، فهذا فيه دليل على أنه لا يغتر بالكثرة فإن أكثر الناس لا يؤمنون ، لا يعقلون ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٦] ، ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٠٢] . الكثرة لا يغتر بها . هذا النبي يأتي وليس معه إلا رجل أو رجلان ، وبقية أمته كلهم عارضوه ، وبعض الأنبياء معه عشرة أو أقل وبعضهم ليس معه أحد ، هذا دليل على أن الحق لا يعرف بالكثرة لأن أكثر الناس على الضلال ، وعلى الكفر بالله ﷻ ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٣] وأنه لا يزهد بالحق لقلة من يتبعه والآن لو تدعو إلى التوحيد ، وتنهى عن الشرك ، أو تدعو إلى إثبات الأسماء والصفات لله ﷻ ، وتنهى عن التقعيد . قالوا : لا يوجد مسلم ولا مؤمن إلا أنت ؟! أكثر الناس ليسوا على هذا الكلام أكثرهم يدعون الموتى ويدعون القبور ، ويؤلون الصفات ، فهل هم كلهم على ضلال إلا أنت ؟! كذا تقال هذه المقالة ونسمعها ونقرؤها دائماً ، وهي كلام باطل ؛ لأن الحق لا يعرف بكثرة الناس ولا بقلتهم ، الحق يعرف بدليله من الكتاب والسنة ولو لم يكن عليه أحد ، ولو لم يكن عليه إلا قليل فهو الحق لا يتغير « رفع لي سواد عظيم » : سواد عظيم . الكثرة خلق كثيرون « فظننت أنهم أمتي » : ظن ﷺ أنهم أمته ؛ لأنه ﷺ أكثر الأنبياء
=

تابعاً « فقيل لي : هذا موسى وقومه » ؛ فهذا فيه دليل على فضل قوم موسى ، وأنه أتبعه الأكثرون من قومه ، وآمنوا به ، وهذا قبل التبديل والتغيير في بني إسرائيل ، ولذلك اختارهم الله على العالمين ، وفضلهم على العالمين ، يعني عالمي زمانهم ، هذا في أول الأمر قبل التحريف والتبديل ، كان منهم مؤمنون كثيرون على الحق ، لكن لما دخل التغيير والتبديل تغير الوضع كثيراً عما كان في زمن موسى ﷺ ، وزمن الأنبياء الذين جاؤوا من بعده عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، « ثم رفع لي سواد عظيم فقيل لي : هذه أمتك » هذا فيه فضل هذا النبي ﷺ وفضل أمته ، وأنهم أكثر الأمم دخولاً للجنة ، حتى جاء في الحديث أنهم نصف أهل الجنة (*) وجاء في الحديث الآخر أنهم ثلثا أهل الجنة(**) . « فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » : هذا محل الشاهد من الحديث ، « ثم نهض » ﷺ أي قام « فدخل منزله » ، ولم يبين لهم من هم هؤلاء السبعون ، ولحرص الصحابة على الخير بحثوا من هم هؤلاء السبعون ، يريدون أن يقتدوا بهم ، وهذا من حرص السلف على الخير والعمل به ، ما اعتبروا هذا الخبر أمر عادي ، بل اهتموا به ، « فخاض الناس في أولئك » يعني : بحثوا من هم ؟ « فقال بعضهم : لعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ » هذا فضل الصحابة ؛ لأن الصحابة هم أفضل الأمة « وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً وذكروا أشياء » : هذا فيه جواز الاجتهاد والبحث عن العلم ، وأن ذلك كان في زمن النبي ﷺ ، « فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه : من هم هؤلاء السبعون ألف ؟ « فقال : هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » هؤلاء هم السبعون ألف . « لا

(*) أخرج الإمام مسلم في « صحيحه » ١ / ٢٠٠ (٢٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في قبة نحواً من أربعين رجلاً ، فقال : « أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ » قال : قلنا : نعم ، فقال : « أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ » فقلنا : نعم ، فقال : « والذي نفسي بيده ، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة .. » الحديث .

(**) أخرج ابو نعيم في « الحلية » ٧ / ١٠١ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : « لما نزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [سورة الواقعة : ٤٠] قال رسول الله ﷺ : أنتم ربع أهل الجنة ، أنتم ثلث أهل الجنة ، أنتم نصف أهل الجنة ، أنتم ثلثا أهل الجنة » ، قال أبو نعيم : تفرد برفعه ابن المبارك ، عن الثوري .

=

يسترقون » : يعني لا يطلبون من الناس الرقية تجنباً لمذلة السؤال والحاجة إلى غير الله ﷻ ، وإن كان السؤال عند الحاجة جائزاً ، لكن تركه أفضل ، وكان النبي ﷺ يبايع أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً فكان أحدهم يسقط سوطه فلا يقول لأحد : ناولني إياه ، بل هو ينزل ويأخذه وفاء بالبيعة مع رسول الله ﷺ(*) . « ولا يكتوون » الكي : علاج معروف ونافع بإذن الله إذا وافق محله نفع الله به ؛ لأنه يحسم الداء ولكن نظراً لما فيه من التعذيب بالنار فإنه مكروه كراهية تنزيه ، فهم تركوا الكي من أجل ما فيه من الكراهية . « ولا يتطيرون » التطير : هو التشاؤم بالأشخاص ، أو بالطيور ، أو بالأماكن ، أو بالأزمنة ، الإنسان يتطير بها ويعتقد فيها السوء فيترك حاجته ، ويعدل عما عزم عليه تأثراً بالطيرة ، وهذا شرك ، وسيأتي له باب خاص . « وعلى ربهم يتوكلون » هذه الصفة الرابعة الذي حملهم على ترك هذه الأمور هو التوكل على الله ، تركوا المكروهات والمحرمات ، المكروهات : وهي طلب الرقية بسؤال الناس ، والكي. والمحرم : الطيرة ، وهذا كما سبق لكم في تعريف تحقيق التوحيد : أنه تجنب الشرك بجميع أنواعه وتجنب البدع وتجنب المحدثات في الدين والخرافات ، وهؤلاء هم السابقون والمقربون الذين فعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات احتياطاً ، فلذلك صاروا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب . وهذا مطابق للترجمة (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب) هذا هو الشاهد من الحديث . وليس في هذا أن ترك الأسباب مطلوب من المسلم ، لا بل فعل الأسباب مطلوب مع التوكل على الله ﷻ ، وهؤلاء لم يتركوا الأسباب وإنما تركوا أسباباً مكروهة . أما الأسباب التي لا تكره فإنه يجب الأخذ بها ، فلا يجوز ترك الأسباب النافعة ويقال : يكفي التوكل على الله ، كما أنه لا يجوز الاعتماد على الأسباب وحدها ، بل لابد من الأمرين : من التوكل على الله ، والأخذ بالأسباب النافعة التي ليس فيها كراهة ، أما المكروهة فتركها أحسن ، من ذلك الكي وطلب الرقية من الناس . والمكروه إذا احتاج الإنسان إليه تزول الكراهة إذا احتاج الإنسان إلى الكي يكتوي وتزول الكراهة ، إذا احتاج الإنسان إلى الرقية وهو ما يحسن يرقي نفسه ولا جاءه أحد يرقيه ابتداء ، وهو بحاجة إلى الرقية تزول الكراهة ، فيطلب من أهل الخير من يرقيه . فالمكروه إذا احتيج إليه تزول

(*) أخرجه أبو داود في « سننه » ٢ / ٢٩٤ (١٦٤٢) ، وصححه الألباني .

=

الشعبي قال : كنت عند سعيد بن جبير : هو الوالبي مولاهم الفقيه ، عن ابن عباس وخلق ، قال اللالكائي : ثقة إمام حجة . قتله الحجاج بن يوسف ، فما أمهله الله بعده .

قوله : « فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ » يعني كوكباً رجم به تلك الليلة ، يقال : البارحة لليلة الماضية إذا زالت الشمس ، وأما قبل الزوال فيقال : الليلة[1] . قوله : « فقلت : أنا » ، أي : أنا رأيته « ثم قلت : أما

الكراهة ، لكن مع عدم الحاجة إليه تركه أحسن هذا من تحقيق التوحيد . لما سمع هذا عُكَّاشة بن محصن الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وكان ممن أسلم قديماً وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ « قال : يا رسول الله ، ادعُ الله أن يجعلني منهم » . هذا فيه طلب الدعاء من الغير ، تطلب من أهل الخير من أهل التقى والعلم ممن ترجى إجابة دعوتهم ، تطلب منهم الدعاء ؛ لأن عكاشة طلب من الرسول ﷺ ولم ينكر عليه ، ففيه جواز طلب الدعاء من أهل الخير « فقال النبي ﷺ : أنت منهم » ، هذا خبر من الرسول ﷺ ، أخبر عكاشة أنه من السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ، وتحقق هذا فيما بعد ، فإن عُكَّاشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتل شهيداً في حروب الردة ، في حرب طليحة الأسدي الذي ادعى النبوة ، فتحقق فيه خبر الرسول ﷺ ، حيث نال الشهادة في سبيل الله ، مع ما له من السابقة العظيمة في الإسلام والجهاد مع الرسول ﷺ ، ففي هذا دليل من أدلة النبوة وعَلَمٌ من أعلام النبوة ، حيث أخبر النبي ﷺ بخبر ، فوقع كما أخبر ﷺ ، « ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم قال : سبقك بها عكاشة » النبي ﷺ رأى أن هذا الرجل لا يستحق هذه المنزلة ، لكنه لم يواجهه بما يكره ، وهذا من حسن خلقه ﷺ ، لم يقل له : أنت لا تستحق هذا أو لست منهم ، فيحصل للرجل كسوف بال ، أو ردة فعل ، بل واجهه بكلام طيب قال له : « سبقك بها عكاشة » ، ثم أيضاً خشي الرسول ﷺ أن يقوم غير هذا الرجل ويتسلسل الأمر ، فهو سد هذا الباب . فالشاهد من هذا الحديث : قوله : « لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون » تركوا هذه الأشياء الثلاثة ؛ لأنها إما محرمة وإما مكروهة ، وهذا من تحقيق التوحيد .

(١) هذا عند بعض أهل اللغة أنه قبل الزوال يقال : الليلة ، وبعد الزوال : يقال : البارحة .

إني لم أكن في صلاة » قال ذلك حذراً من الشرك[١] ، لئلا يظن الحاضرون أنه قام من الليل للعبادة ، فيكون قد ادَّعى لنفسه ما لم يفعله ، فما أشدَّ حذر التابعين ومن قبلهم من الشرك دقيقه وجليله ، والحذر من أن يحمد بما لم يفعله . فما أعزَّ من سلم من الشرك كما سيأتي[٢] . قوله : « قلت حديث حدثنا الشعبي[٣] ، قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال : « لا رقية إلا من عين أو حمة » هذا الحديث قد روي مرفوعاً ، والشعبي : اسمه عامر بن شراحيل الحميري الشعبي الإمام ، روى عن عمر وعلي وابن مسعود ولم يسمع منهم ، وعن أبي هريرة وعائشة وجرير وابن عباس وخلق . قال الشعبي : ما كتبت سوداء في بيضاء أي كلما سمع حفظه فحدَّث به من حفظه[٤] توفي سنة ثلاث ومائة . وبريدة هو ابن الحصيب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي ، أسلم قبل بدر وعمل على اليمن في أيام النبي ﷺ ، صحابي مشهور . قوله : « لا رقية إلا من عين أو حُمَة » هذا – والله أعلم – في أول الأمر ثم رخص في الرقى إذا كانت بحق ، والله أعلم[٥] . قوله : ولكن حدثنا ابن

(١) الشرك الذي هو الرياء .

(٢) حتى لو أن الإنسان عمل العمل الصالح لا ينبغي له أن يتحدث عنه ، وأن يخبر الناس عنه ؛ لأن هذا يكون من الرياء فكيف إذا لم يكن عمل شيئاً ويريد الناس يمدحونه ، قال الله ﷻ في اليهود ﴿ وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٨] .

(٣) يعني الذي حملني على ما فعلت هو الحديث ؛ لأن السلف لا يعملون شيئاً من الحلال والحرام إلا بدليل .

(٤) كل علمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على غزارته حِفْظٌ في صدره ، ولم يكتب شيئاً من ذلك .

(٥) قوله : « لا رقية إلا من عين » هذا حصر مفاده أنه لا تجوز الرقية إلا من هذين الشيئين ، مع أنه جاءت الأدلة بأن الرقية تصلح من كل مرض فما الجمع بينهما ؟ الجمع بينهما إما أن يقال : =

عباس : هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم النبي ﷺ ، حبر الأمة وترجمان القرآن[(١)] ، دعا له النبي ﷺ فقال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل »[(٢)] ، وصار آية في العلم والفهم ، وكثرة ما روى من الأحاديث على أنه من صغار الصحابة ، لكن طلب الحديث من كبار الصحابة ، فحفظ الأكثر مما كان عندهم رضي الله عنهم أجمعين[(٣)] .

قوله : « قد أحسن من انتهى إلى ما سمع » فيه حسن الأدب مع العلم وأهله[(٤)] ، وأن من فعل شيئاً سئل عن مستنده في فعله هل كان مقتدياً أم لا ، ومن لم يكن معه حجّة شرعية فلا عذر له بما فعله[(٥)] ، ولهذا ذكر ابن عبد البر إجماع أهل العلم على أن المقلِّد ليس من أهل العلم فتفطن لهذا[(٦)] . قوله : إن

هذا كان في أول الأمر « لا رقية إلا من عين أو حُمَة » ، ثم بعد ذلك رخص بالرقية من جميع الأمراض . أو يحمل على الأكمل أي : لا رقية أحسن ولا أتم من الرقية من العين والحمة ولا يمنع ذلك أن يكون هناك رقية من غيرهما من الأمراض . يعني أنفع الرقى وأحسنها ما كان من هذين الداءين ؛ فالحصر هنا حصر إضافي ، وليس حصراً حقيقياً .

(١) إذا قيل ابن عباس لم ينصرف إلا إلى عبد الله رضي الله عنه ، لأنه هو الذي اشتهر بذلك .

(٢) التأويل : هو تفسير القرآن .

(٣) ببركة دعوة الرسول ﷺ ، ولذلك صار يلقب بحبر الأمة وترجمان القرآن ، وكان عمر رضي الله عنه يستشيره على صغر سنه ، كان يُحضره مع كبار المهاجرين والأنصار ، ويستشيره وهو صغير السن ؛ نظراً لعلمه .

(٤) هذه مهمة جداً ، إذا سمعت الدليل لا يجوز لك أن تغمط الدليل ، وتقول : لا يكفي ، وهذا فيه كذا . لا يجوز الاستهانة بأحاديث الرسول ﷺ . الإنسان يقف عند حدِّه معها ويتأدب معها ، فهذا تابعي يقول : « أحسن من انتهى إلى ما سمع » .

(٥) هذا فيه دليل على أنه لابد من الدليل – على أمور الدين من العقيدة والحلال والحرام والأحكام الشرعية – من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ .

(٦) المقلِّد : هو الذي لا يعرف الدليل ولا يعرف مناط الأحكام ، وإنما يأخذ أقوال الناس
=

النبي ﷺ قال : « عُرضت عليَّ الأمم » قلت : فالله أعلم متى عرضت[١] ، وعرضها : أن الله ﷻ أراه مثالها إذا جاءت يوم القيامة الأنبياء ، ومن تبعهم[٢] فمن نجا بالإيمان بالله ، وبما بعث به أنبياءه ورسله من دينه الذي شرعه لهم ، وهو عبادته وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه ، والأخذ بما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه ، كما قال تعالى عن نوح : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾[٣] [سورة نوح : ٢ - ٣] فعبادته : توحيده وطاعته بامتثال ما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه وطاعة رسوله . هذا هو الدين[٤] أن لا يعبد إلا الله ، وأن لا يعبد إلا بما شرع فعلاً وتركاً[٥] .

فقط من غير معرفة لدليلها ومستندها ، هذا ليس بعالم وإنما هو ناقل فقط . العالم هو الذي يعرف الحكم بدليله .

(١) هذا هو الصحيح التوقف ، وإن كان بعضهم يقول : إن هذا ليلة الإسراء ، وبعضهم يقول : إن هذه رؤية منام رآها النبي ﷺ ، وبعضهم يقول : إن الرسول أسري به مرة ثانية في المدينة كل هذا لا دليل عليه ، فالأحسن التوقف ؛ لأن النبي ﷺ ما قال : عرضت علي الأمم ليلة كذا ، أو في مكان كذا فنحن نتوقف .

(٢) الله ﷻ أرى نبيه محمد ﷺ مثال مجيء الأمم يوم القيامة ، صوَّره له سبحانه ، وهذا من معجزاته ﷺ ، وقد قال الله ﷻ : ﴿ سُبْحَٰنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [سورة الإسراء : ١] هذا من آيات الله وقال ﷻ في سورة النجم : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰٓ ﴾ [آية ١٨] .

(٣) فالتقوى والطاعة والخشية لله ﷻ ، وأما الاتباع والاقتداء والطاعة فتكون للرسول ﷺ ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [سورة النساء : ٨٠] .

(٤) لا سبيل إلى طاعة الله إلا بطاعة رسله عليهم الصلاة والسلام ، فلا تعرف عبادة الله إلا بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام .

(٥) « أن لا يعبد إلا الله » هذا دين التوحيد و« لا يعبد إلا بما شرع » هذا دين الاتباع والاقتداء والنهي عن الابتداع في الدين .

وأن يقدِّم طاعة رسوله على ما يحبه ويهواه[(١)] . قوله : « فرأيت النبي ومعه الرهط » الرهط : العشرة فما دون « والنبي ومعه الرجل والرجلان » أي : أتباعه ، « والنبي وليس معه أحد » ، أي : يبعث في قومه ، فلا يتبعه منهم أحد . كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [سورة الحجر : ١٠ - ١١] ، وفيه دليل على أن الناجي من الأمم هم القليل قديماً وحديثاً ، والأكثر غلبت عليهم الطباع البشرية ، فعصوا الرسل فهلكوا ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٦] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٠٢] وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ [سورة الروم : ٤٢] ، وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير[(٢)] والناجون - وإن كانوا أقل القليل - فهم السواد الأعظم ، فإنهم الأعظمون قدراً عند الله وإن قلّوا . فليحذر المسلم أن يغترَّ بالكثرة ، وقد اغترَّ بهم كثيرون ، حتى بعض من يدَّعي العلم[(٣)] اعتقدوا في دينهم ما يعتقده

---

(١) قدِّم طاعة الرسول ﷺ على كل شيء ، لا تُقدِّم على طاعة الرسول شيئاً أبداً لا طاعة والدك ولا طاعة أمك ولا طاعة أي أحد ولا طاعة العالم الفلاني أو طاعة الملك الفلاني ولا طاعة نفسك .

(٢) فلا يغتر بالكثرة إذا كانت على الباطل ، ولا يزهد في القلَّة إذا كانت على الحق . المدار على الحق سواء كان عليه الكثير أو القليل ، والحق لا يعرف بالرجال وإنما يُعرف الرجال بالحق ، هذا هو الصحيح .

(٣) هذا تعليق من الشيخ ﷺ بأن بعض من يدَّعي العلم في وقته ، وفي وقتنا هذا وإلى الأبد يحتجون بالكثرة إذا جئتهم بالأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة على بطلان ما هم عليه =

الجهَّال الضُّلَّال ، ولم يلتفتوا إلى ما قاله الله ورسوله . قوله : « إذ رُفع لي سواد عظيم فظننتُ أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه » ، فيه فضيلة أتباع موسى من بني إسرائيل ممن آمن منهم بالرسل والكتب التي أنزلها الله ، التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وغيرها . وكانت بنو إسرائيل قبل التفرق كثيرين وفيهم الأنبياء ، ثم بعد ذلك حدث ما حدث من اليهود[١] وهذا الحديث يدل على أن التابع لموسى ﷺ كثيرون جداً . وقد قال تعالى : ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الجاثية : ١٦] أي : في زمانهم ، وذلك أن في زمانهم وقبله ممن كفر بالله خلقاً لا يُحصيهم إلا الله ، كحزب جالوت وبختنصَّر وأمثاله[٢] .

ففضَّل الله بني إسرائيل بالإيمان ، فصاروا أفضل أهل زمانهم[٣] وحدث

قالوا : لكن هذا عليه أكثر الناس ، فسبحان الله هل المسلم متعبد بما عليه الناس أم بما في الكتاب والسنة ؟! الواجب الرجوع إلى الحق ، وإن كان عليه القليل هذا هو الواجب على المسلم الذي يخاف الله ويريد النجاة لنفسه ، أما الاحتجاج بما عليه الناس بدون دليل فهذا هو قول الكفرة الذين يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٢٣] ، وفرعون كان يقول : ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [سورة طه : ٥١] ، هذه حجة داحضة يكررها المشركون وأهل الباطل في كل زمان ومكان ، يستدلون بالكثرة نقول : نعم إذا كانت الكثرة على دليل هذا خير ، أما إذا كانت على باطل فلا عبرة بها .

(١) أولهم على حق ، وكانوا يؤمنون بالله وبرسله وبكتبه لكن المتأخرين منهم حرَّفوا وغيَّروا وبدَّلوا وأنكروا نبوة عيسى ﷺ ، ونبوة محمد ﷺ ، فهؤلاء وإن كانوا من بني إسرائيل فإنهم كفار ومن أهل النار ، والفضل إنما هو لمن سبقوا منهم على الإيمان والتوحيد .

(٢) وكان بنو إسرائيل بالذات على الإيمان بالله ﷻ ، وأكثر أهل الأرض على الكفر فلذلك فضلهم الله على العالمين .

(٣) ليس هو مدحاً لبني إسرائيل مطلقاً ؛ بل هو مدح لمن سبقوا على الإيمان بالله ورسله وكتبه .

فيهم ما ذكر الله في سورة البقرة وغيرها[١] من معصيتهم لأنبيائهم واختلافهم في دينهم ، وقد ذكره الله تعالى محتجاً به على اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ ، فتدبر ما ذكره الله تعالى من أحوالهم بعد الاختلاف . قوله : « فنظرت فإذا سواد عظيم » . وفي رواية « قد سد الأفق » ، « فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » . فيه فضيلة هذه الأمة وأنهم أكثر الأمم تابعاً لنبيهم ﷺ ، وقد كثروا في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وفي وقت الخلفاء الراشدين ومن بعدهم فملأوا القرى والأمصار والقِفار ، وكثر فيهم العلم ، واجتمعت لهم الفنون في العلوم النافعة ، فما زالت هذه الأمة على السُّنَّة في القرون الثلاثة المفضلة . وقد قلُّوا في آخر الزَّمان[٢] ، قال شيخنا[٣] رحمه الله في مسائله : وفيه فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية ، فالكمية كثرة العدد ، والكيفية فضيلتهم في صفاتهم[٤] ، كما في هذا الحديث بقوله : « ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب »[٥] . قوله : « ثم نهض

(١) من التحريف والتغيير والتبديل والكفر بالرسل هذا حدث فيما بعد في بني إسرائيل .

(٢) قلوا في آخر الزمان لقوله ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ »(*) فهم كثروا في عهد الخلفاء الراشدين والقرون المفضلة الثلاثة ، وفتحوا الأمصار ونشروا العلم في أرجاء الأرض ، وتبعهم خلق كثير من العرب والعجم حتى كثر سواد الأمة وملأوا الأرض وغالب المعمورة ثم بعد ذلك صاروا ينقصون ويقلون ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ « وسيعود غريباً كما بدأ » في آخر الزمان .

(٣) شيخنا : يعني الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، جده ؛ لأنه قرأ على جدِّه وهو صغير رحمه الله .

(٤) الكمية والكيفية ، الكمية : كثرة عدد الأمة في القرون المفضلة ، والكيفية : ما هم عليه من العلم والعمل وتقوى الله عز وجل ونفع الخلق .

(٥) وفي حديث آخر : « ومع كل واحد من السبعين سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب

(*) سبق تخريجه في (كتاب التوحيد) .

فدخل منزله فخاض الناس في أولئك » أي : الحاضرون له في ذكر هذا الحديث . وفيه أيضاً فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم في مذاكرتهم العلم ، وحرصهم على فهم ما حدَّثهم به نبيهم ﷺ حرصاً على العمل به[١] . وفيه جواز الاجتهاد فيما لم يكن فيه دليل[٢] ؛ لأنهم قالوا ما قالوا باجتهادهم ، ولم ينكر ﷺ ذلك عليهم ، لكن المجتهد إذا لم يكن معه دليل ، لا يجوز له أن يجزم بصواب نفسه ، بل يقول : لعل الحكم كذا وكذا كقول الصحابة رضي الله عنهم في هذا الحديث[٣] .

قوله : « فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه[٤] فقال : هم الذين لا

ولا عذاب »[*] .

(١) كأهل الإيمان والخير إذا ذكرت لهم الفضائل وذكرت لهم الثواب والجنة تشوقوا إلى ذلك وطلبوا بيان الأعمال التي توصل إلى هذا الثواب وإلى هذه الجنة وهؤلاء رجال الآخرة ، أما رجال الدنيا فإنها ينشطون إذا ذكرت لهم الدنيا وذكرت لهم التجارة والمكاسب يسألون أين التجارة وأين المكاسب وما الطريق إلى حصول هذه التجارات ؟ همهم دنياهم أما هؤلاء فهمهم آخرتهم يسألون عما ينجيهم في الآخرة وعما يسبب لهم دخول الجنة .

(٢) لأنهم اجتهدوا في معنى الحديث ، وكلٌّ أدلى بدلوه ، وهذا فيه دليل على أن الاجتهاد له أصل وهو استنباط الأحكام وفهم النصوص .

(٣) فالمجتهد لا يجزم ، ولكن يقول : لعل الحكم كذا وكذا ، أو يمكن أن الحكم كذا وكذا ولا يجزم بصواب نفسه .

(٤) أخبروه بما دار بينهم من النقاش في من هم هؤلاء السبعون ؟

(*) أخرج الإمام أحمد في « المسند » ١ / ٢٠٣ (٢٢) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر وقلوبهم على قلب رجل واحد ، فاستزدت ربي ، فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً » قال الأرنؤوط : إسناده ضعيف لجهالة الراوي عن أبي بكر رضي الله عنه ، والمسعودي : اختلط ، ولكن صححه الألباني بشواهده في « السلسلة الصحيحة » ٣ / ٤٧٣ (١٤٨٤) .

يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » أي : لا يطلبون الرقية من أحد[1] ولا يكتوون إذا كان فيهم ما يستشفى بالكي منه ، ولا يتطيَّرون والطيرة شرك ، فتركوا الشرك رأساً ولم ينزلوا حوائجهم بأحد فيسألونه الرقية فما فوقها ، وتركوا الكيَّ ، وإن كان يراد للشفاء . والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله وتفويضهم أمورهم إليه ، وأن لا تتعلق قلوبهم بشيء سواه في ضمن ما دبَّره وقضاه ، فلا يرغبون إلا إلى ربهم ، ولا يرهبون إلا منه ، ويعتقدون أن ما أصابهم بقدره واختياره لهم ، فلا يفزعون إلا إليه وحده في كشف ضرِّهم ، قال تعالى عن يعقوب ﷺ : ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[2] [سورة يوسف : ٨٦] . قوله : « فقام عكاشة بن محصن » صحابي مشهور شهد بدراً والمشاهد كلها مع النبي ﷺ وهو من بني أسد بن خزيمة ، قتله طليحة بن خويلد شهيداً ، وكان قد سار مع خالد بن الوليد لقتال أهل الرِّدَّة ، فقاتل بني أسد لردَّتها عن الإسلام .

وكان فيهم طليحة وقد ادعى النبوة وصدَّقوه ، فأكرم الله عكاشة على يده

---

(١) لا يسترقون : يعني لا يطلبون الرقية من أحد[*] ؛ لأن هذا فيه سؤال للناس ، وسؤال الناس ذلة ، ومهما أمكن الإنسان الاستغناء عن الناس فإنه مطلوب . جاء في بعض روايات الحديث : « لا يرقون » وهذه الرواية كما قال ابن القيم غلط فالصواب : « لا يسترقون » ، وأما فعل الرقية فهذا عبادة ليس ممنوعاً ؛ بل مطلوب .

(٢) يعني لا إلى أحد من الناس ، وإنما يشكو بثه وحزنه إلى الله ﷻ .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن حكم طلب الرقية عند الحاجة ؟ فأجاب : لا بأس عند الحاجة ، فهي ليست محرمة ، ولكن ترك طلبها من الناس ، هذا من كمال التوحيد ؛ لأن في سؤال الناس ذلة للناس . أ. هـ

لما كان كافراً . ثم بعد ذلك هداه الله إلى الإسلام(١) وجاهد الفرس مع سعد ابن أبي وقاص ، وصار له في الفرس وقائعُ معروفة في السِّير ، وكان ممن استشهد في قتالهم في وقعة الجسر المشهورة(٢) . قوله : « فقال يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم » فيه : أن شفاعة الحي لمن سأله الدعاء إنما كانت بدعائه(٣) ، وبعد الموت قد تعذَّر ذلك بأمور لا تخفى على من له بصيرة(٤) فمن

(١) يعني طليحة ارتد بعد الرسول ﷺ وادعى النبوة ، ثم تاب إلى الله ﷻ وجاهد في سبيل الله وقتل شهيداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حروب فارس . مثل سجاح كانت كاهنة ، وكانت زوجة لمسيلمة الكذاب ، ثم تابت إلى الله ﷻ وأسلمت .

(٢) ولهذا جاء في الحديث : « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة »(*) فمعنى هذا الحديث : أن الإنسان يكون كافراً فيقتل المسلم ، ثم يتوب هذا الكافر ، ويدخل في الإسلام ، فيدخل الجنة مع من قتله بسبب التوبة والإسلام .

(٣) فيه جواز طلب الدعاء من الحي القادر الحاضر(**) إذا كان من أهل الصلاح ومن أهل التقوى وهذا شفاعة . أما الميت فلا يطلب منه شيء ، لا شفاعة ولا دعاء ولا غير ذلك .

(٤) لأن الميت لا يقدر على شيء ولا ينفع نفسه وهو ميت فكيف ينفع غيره . انتهى عمله ، إذا مات ابن آدم انقطع عمله الشخصي ويبقى له عمل غيره : كالدعاء من حي ، أو عمل قدمه لنفسه ، وصار يستمر بعد موته : كالوقف الجاري والصدقة الجارية أو العلم الذي نشره ينفعه الله به وهو ميت ، وهذا من عمله المستمر .

(*) متفق عليه .أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١٠٤٠ (٢٦٧١) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٥٠٤ (١٨٩٠) واللفظ للبخاري .

(**) ذكر الشيخ صالح الفوزان – حفظه الله – في معرض رده على الأسئلة التي في آخر الدرس : أن طلب الدعاء الاستغناء عنه أحسن ، وكون الإنسان يدعو لنفسه أحسن ، وكون الرسول ﷺ قال لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « لا تنسنا يا أخية من صالح دعائك » يقولون : أراد الرسول ﷺ أن يشرِّف عمر بهذه الوصية ، على أن الحديث فيما أعلم فيه مقال ، أو أن الرسول ﷺ أراد أن يبين الجواز ؛ لأن الرسول ﷺ أحياناً ينهى عن شيء ثم يفعله ؛ لبيان أن النهي ليس للتحريم ، إنما هو للكراهة . أ. هـ

سأل ميتاً أو غائباً فقد سأله ما لا يقدر عليه . وكل من سأل أحداً ما لا يقدر عليه إلا الله ، فقد جعله نداً لله تعالى[١] كما كان المشركون كذلك[٢] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢] أنه ربكم وخالقكم ومن قبلكم ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، فلا ترغبوا عنه إلى غيره ؛ بل أخلصوا له العبادة بجميع أنواعها فيما تطلبونه من قليل أو كثير . قوله : « أنت منهم » لما يعلمه ﷺ من إيمانه وفضله وجهاده[٣] ، كما في الحديث « لعل الله اطَّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد

---

(١) والدليل على أن الميت – حتى الرسول ﷺ – لا يطلب منه شيء : أن الصحابة كانوا يطلبون الدعاء من الرسول في حياته ، ولما مات ﷺ لم يكونوا يذهبون إلى قبره ويطلبون منه الدعاء ؛ بل كانوا يطلبون من عمه العباس أن يستسقي لهم ، يعني يطلب من الله لهم الغيث ولم يذهبوا إلى النبي ﷺ وهذا دليل على أن الميت لا يطلب منه شيء سواء كان نبياً ، أو كان صديقاً ، أو كان صالحاً من الصالحين .

(٢) من طلب من أحد شيء لا يقدر عليه إلا الله حياً كان أو ميتاً هذا شرك بأن يطلب أن يشفيه من المرض أو أنه يجلب له الرزق أو يخلق له الولد أو غير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله ، أو ينزل الغيث ، يطلبون من بعض الأشخاص أو من بعض الأموات إنزال الغيث ويشكون إليه ما أصابهم من الجدب . يظنون أن هذا الشخص هو الذي يقدر على إنزال الغيث هذا شرك أكبر – والعياذ بالله – ولا يسألون الله ولا يستغيثون بالله ﷻ إنما يستغيثون بأصحاب القبور وبالأموات ولا يدعون الله ولا يتضرعون إليه ولا يتوبون إليه مما وقع منهم .

(٣) وهذا من الغيب الذي أطلعه الله عليه ، فقد أطلعه الله على أن هذا الرجل يكون من السبعين ألفاً وهذا من معجزاته ، أما نحن فلا نشهد لأحد ولو كان من أصلح الناس لا نشهد له بالجنة ، لكن نرجو له ، وكذلك لا نشهد على أحد بالنار ولو كان من أفسق الناس ؛ لأنه لا ندري ماذا يختم له ، ولكن نخاف عليه .

غفرت لكم »[١] قوله : « ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : سبقك بها عكاشة » والظاهر أنه أراد صلوات الله وسلامه عليه سَدَّ الذريعة ، لئلا يتتابع الناس بسؤال ذلك فيسأله من ليس أهلاً له . وذلك منه ﷺ تعريض كما لا يخفى[٢] .

(١) وعكاشة ممن حضر بدراً .

(٢) وعلم أن هذا الرجل لا يستحق هذه المرتبة ؛ لكنه لم يواجهه بما يكره ، وهذا من حسن خلقه ﷺ .

٤ - باب الخوف من الشرك

وَقَوْلِ اللَّـهِ ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

وقال الخليل ﷺ : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] .

وفي الحديث : « أَخْوَفُ ما أَخَافُ عليْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ » . فسُئِلَ عنه ؟ فَقَالَ : « الرِّيَاءُ » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله قالَ : « مَنْ مَاتَ وهُوَ يدعُو لله نِدّاً ؛ دخَلَ النَّارَ » . رواهُ البُخاريُّ .

ولِـمُسْلِمٍ عن جابر ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ؛ دَخَلَ الجَنَّة ، ومَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ؛ دَخَلَ النَّارَ » .

٤- باب الخوف من الشرك

قوله : باب الخوف من الشرك[1] وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن

---

(١) هذا الباب في غاية المناسبة بعد الأبواب السابقة ؛ لأن الأبواب السابقة كتاب التوحيد ، فضل التوحيد ، من حقق التوحيد ، فإذا أتقن الإنسان هذه الأبواب الثلاثة وعرف التوحيد من الباب الأول ، وعرف فضل التوحيد من الباب الثاني ، وعرف تحقيق التوحيد من الباب الثالث ، بقي عليه أن يخاف من ضد التوحيد وهو الشرك ؛ لأن الإنسان لا يأمن على نفسه أن يقع في الشرك ولو كان من أعلم الناس وأقواهم إيماناً ، فإنه عرضة للابتلاء والامتحان . فالذين يقولون : إن الناس الآن تثقفوا وعرفوا وتجاوزوا مرحلة السذاجة ولا يخاف عليهم من الشرك فلا داعي إلى التحذير منه ؛ لأن الناس يعرفون هذا ، وهذا من الغرور أو التغرير بالنفس فإن الإنسان مهما بلغ من العلم =

والإيمان والتقوى لا يأمن على نفسه من الضلال والزيغ والانحراف والوقوع في الشرك إما عن جهل ، وإما عن انحراف وزيغ وضلال - والعياذ بالله - الإنسان عرضة للفتن ما دام على قيد الحياة ، وقوله : « الخوف من الشرك » الخوف : ضد الأمن وهو توقع المكروه ، والشرك هو عبادة غير الله ﷻ بأن يصرف شيئاً من العبادة لغير الله كالدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والرغبة ، والرهبة ، والاستغاثة ، والاستعانة ، والتوكل ، والذبح للأصنام أو للقبور أو للأشجار والأحجار أو للجن ، أو ينذر لهم ، أو يخاف منهم ، أو يعتقد فيهم أنهم ينفعون أو يضرون من دون الله ﷻ ، وهذا هو الشرك ، وقد وقع فيه خلق كبير وعندهم علم ، وقعت فيه اليهود وعندهم علم ، ووقعت فيه النصارى وعندهم علم ووقع في هذه الأمة بعد القرون المفضلة مع وجود العلم ، فلا يؤمن من الوقوع في الشرك . فالواجب على المسلم أن يحذر منه ، ولا يحذر منه إلا إذا عرف ما هو الشرك حتى يتجنبه .

والشرك ينقسم إلى قسمين : ١ - شرك أكبر يخرج من الملة ويكون صاحبه خالداً مخلداً في النار . ٢ - شرك أصغر لا يخرج من الملة ، ولكنه وسيلة إلى الشرك الأكبر ، وأيضاً هو وإن كان شركاً أصغر فإنه أعظم من الكبائر . الشرك أكبر الكبائر سواء كان أكبر أو أصغر ، فلا يتهاون بالشرك لا الشرك الأكبر ولا الشرك الأصغر . وهذا مما يوجب على المسلم أن يتعلم الشرك ما هي حقيقته ؟ وما هي أنواعه ؟ وما هي أسبابه ؟ حتى يتجنبه ويحذر منه ، ويسأل الله الثبات ؛ لأنه وإن علم فإنه لا يأمن على نفسه الانحراف والزيغ . فاليهود والنصارى وضُلَّال هذه الأمة وقعوا في عبادة الأولياء والصالحين وعبادة الأنبياء وهم عندهم علم ، عبّاد القبور الآن عندهم علم ، أغلبهم عندهم علم ، متخرجون من الجامعات معهم أعلى الشهادات العلمية ، وهم يخضعون للقبور ، ويعبدونها من دون الله ﷻ ، ما نفعهم علمهم ، فلذلك يجب على المسلم الحذر من الشرك فهو بين أمرين : إما أن يقع فيه عن جهل إذا لم يكن يعرف ما هو الشرك وما هي أنواعه فالذي يجهل الشيء يقع فيه ، وقد قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٣٨] وقالوا لمحمد ﷺ : « اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط »(*) بسبب

(*) أخرجه الترمذي في « سننه » ٤ / ٤١٢ (٢١٨٠) ، وصححه الألباني .

يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾(١) [سورة النساء : ٤٨] قال النووي ﷺ : (أما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها . ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة(٢) ، ولا فرق

الجهل . أو يقع فيه لا عن جهل ولكن عن عناد وعن تقليد للآخرين ، المسألة خطيرة جداً .

(١) هذا خبر من الله ﷻ إنه لا يغفر الشرك سواء كان شركاً أكبر أو أصغر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ ، فالشرك غير قابل للمغفرة وهذا يدل على خطورته ، بينما قال ﷻ : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فكل الذنوب التي دون الشرك فإنها تحت المشيئة ، إن شاء الله غفرها ، وإن شاء عذب بها ، ثم يخرج أصحابها من النار إلى الجنة ؛ فمآل الموحدين إلى الجنة إما ابتداء ، وإما بعد تعذيبهم بالنار على ذنوبهم ومعاصيهم فلهم طمع في مغفرة الله ﷻ ، أما المشرك فليس له طمع في مغفرة الله ، قنَّطه الله منه وقطع طمعه لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ فكلمة ﴿ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ : تعني كل شرك ، لا تخص نوعاً من أنواع الشرك ؛ بل كل أنواع الشرك لا يغفرها الله ﷻ لمن مات عليها ولم يستثنِ كما استثنى في آخر الآية ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ ولم يأت بالمشيئة ، بينما جاء بها في قوله لأصحاب الكبائر ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ﷻ ، وهذا مما يدل على خطورة الشرك وإذا كان بهذه الخطورة فكيف لا يخافه الإنسان على نفسه ؟!

(٢) من الناس الآن من يقول : إن اليهود والنصارى مؤمنون ، ولا يجوز تكفيرهم ، وهذه ردة عن الإسلام ؛ لأنه لم يُكفِّر الكافر ، ومن لم يُكفِّر الكافر فهو مثله . اليهود والنصارى على وضعهم الحاضر وبعد بعثة محمد ﷺ وإعراضهم عن إتباعه ، وتكذيبهم لرسالته هم كفار وهم من أهل النار إلا أن يتوبوا إلى الله ﷻ ، ويتبعوا رسول الله ﷺ ، فالذي يقول : إنه لا يجوز تكفيرهم هذا إما أنه جاهل ، وإما أنه مغالط - والعياذ بالله - فيجب عداوة اليهود والنصارى واعتقاد أنهم كفار ، كيف نقول : إن اليهود مؤمنون وهم يجحدون نبوة عيسى ﷺ ونبوة محمد ﷺ ، ويقولون في حق الله المقالات الشنيعة - والعياذ بالله - ؟!

=

عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره[١] ، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ، ثم حكم بكفره بجحده ما يكفر بجحده وغير ذلك[٢] وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به[٣] ، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولاً ، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة ، فإن عُفي عنه دخل الجنة أولاً ، وإلا عُذِّب ثم أُخرج من النار وخُلِّد في الجنة) انتهى[٤] .

وكيف نقول : إن النصارى مسلمون وهم يقولون : المسيح ابن الله أو ثالث ثلاثة أو هو الله ؟! كيف نقول إنهم مؤمنون وإنهم أهل دين . وننادي بالتقارب بين الأديان الثلاثة ؟! يعني نقرب بين الكفر والإيمان ؟! لا يقول هذا إلا جاهل لا يعرف الدين ، أو أنه يعرف لكنه معاند ومخالف لدين الله ﷺ ، فهذه – والعياذ بالله – ظاهرة قبيحة ظهرت في هذا الزمان وهي الدعوة للتقارب ، والحوار بين الأديان الثلاثة . لا فرق بين اليهودي والنصراني وعبدة الأوثان وسائر الكفرة كلهم كفار – والعياذ بالله – .

(١) ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر المعاند الذي يعرف الحق لكنه عانده وأبى أن يتبعه ، وبين الكافر عن جهل ؛ لأنه مطلوب منه أن يتعلم وأن يسأل عن الدين ، أما كونه يعرض ويبقى على ما هو عليه ، فهذا ليس له عذر بعد بعثة النبي محمد ﷺ ، بل بعد إرسال الرسل انقطعت المعذرة قال تعالى : ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [سورة النساء : ١٦٥] ، فبإرسال الرسل قامت الحجة وزال الجهل وانقطعت المعاليل .

(٢) فلا فرق بين الكافر الأصلي الباقي على كفره ، والكافر المرتد الذي أسلم ثم ارتد عن دين الإسلام .

(٣) دخوله الجنة مقطوع له به ، لكن إن كان ليست عنده كبائر دخلها من أول وهلة وإن كانت عنده كبائر فهو تحت المشيئة إن شاء عفا الله عنه ودخلها من أول وهلة ، وإلا عذب ثم دخل الجنة .

(٤) هذا الذي ذكره النووي ؒ هو عقيدة أهل السنة والجماعة .

قلت : هذا قول أهل السنة والجماعة لا اختلاف بينهم في ذلك[١] وهذه الآية من أعظم ما يوجب الخوف من الشرك[٢] لأن الله تعالى قطع المغفرة عن المشرك ، وأوجب له الخلود في النار ، وأطلق ولم يقيد[٣] ، ثم قال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[٤] .

فخصَّص وقيَّد فيما دون الشرك ، فهذا الذنب الذي هذا شأنه لا يأمن أن يقع فيه[٥] ، فلا يرجى له معه نجاة ، إن لم يتب منه قبل الوفاة . قوله : وقال الخليل ﷺ : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[٦] [سورة إبراهيم : ٣٥] أي:

---

(١) هذا مجمع عليه من أهل السنة والجماعة أن من مات على الشرك فإنه من أهل النار قطعاً ، ولا طمع له في الجنة ، ومن مات على التوحيد فهو من أهل الجنة قطعاً ، لكن إن كان سالماً من الكبائر دخل الجنة من أول وهلة وإن كان عنده كبائر فهو تحت المشيئة ومآله إلى الجنة . هذه عقيدة أهل السنة والجماعة .

(٢) وهي قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ فإذا قيل لك : ما هو الذنب الذي لا يُغفر ؟ تقول : الشرك ، لأن الله ﷻ قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ .

(٣) قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [سورة المائدة : ٧٢].

(٤) من أهل الكبائر التي دون الشرك فهم تحت المشيئة .

(٥) هذا الذنب الذي هو الشرك هذا شأنه يعني لا يغفر ، ولا يأمن الإنسان أن يقع فيه فيُحرم من مغفرة الله ، ومن جنته فما الذي يؤمنك ألست بشراً ؟ ألست عرضة للابتلاء والامتحان ما دمت على قيد الحياة ؟ أليس وُجد في الناس من كان مؤمناً ثم ارتد ومات على الكفر أو الشرك ، أما تخاف ؟!

(٦) أي : أبعدني وجنبني عباة الأصنام فإذا كان الخليل على منزلته العظيمة التي ما نالها في الخلق إلا محمد ﷺ يخاف على نفسه مع أن الله اتخذه خليلاً ومع أنه قاوم الشرك وكسّر الأصنام وصبر على ما ناله من الأذى حتى ألقي في النار بسبب موقفه من الشرك والمشركين ، ومع هذا يخاف على نفسه ، لم يأمن على نفسه من الوقوع في الشرك ؛ لأنه بشر ، =

إبراهيم ﷺ خليل الرحمن . والخُلَّة أخصُّ من المحبة(١) ، ولهذا اختص بها الخليلان إبراهيم ومحمد ﷺ(٢) ، ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ ، وهذا أيضاً يخيف العبد ، فإذا كان الخليل إمام الحنفاء الذي جعله الله أمّة وحده ، وابتلاه بكلمات فأتمهن وقال : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [سورة النجم : ٣٧] وأمره بذبح ولده فامتثل أمر ربه ، وكسَّر الأصنام واشتد نكيره على أهل الشرك .

والبشر عرضة للابتلاء والامتحان ما داموا على قيد الحياة ودعا لبنيه أن يجنبهم الله عبادة الأصنام ، وهذا من نصحه ﷺ ، حيث لم يقتصر على نفسه ، بل دعا لذريته ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ ، ثم بين السبب الذي حمله على هذا الخوف وعلى هذا الدعاء ، قال : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٦] ، فلما رأى أن عبادة الأصنام وقع فيها كثير من الناس خشي على نفسه أن يقع . هذا فيه الاعتبار والعظة بما عليه الغير ، والسعيد من وعظ بغيره ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ابتلوا بعبادة الأصنام - والعياذ بالله - وهذا مما يوجب الخوف ، كثرة الشرك في الناس توجب الخوف أن يقع الإنسان فيما وقع فيه الناس وأن يسري إليه البلاء الذي وقع فيه الناس ، ولهذا قال إبراهيم التيمي ﷺ : « ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم »(*) إذا كان إبراهيم خاف على نفسه من الشرك والابتلاء فكيف نأمن نحن على أنفسنا ؟!

(١) الخلة هي أعلى درجات المحبة ، وهي خاصة لم ينلها من الخلق إلا إبراهيم ﷺ ، ومحمد ﷺ ، وأما المحبة فهي عامة لجميع المؤمنين ، فالله يحب المتقين ، ويحب المؤمنين ، ويحب المحسنين ؛ ولهذا الذين يقولون عن محمد ﷺ حبيب الله ، هذا نقص في حقه ﷺ . فالصواب أن يقال عنه : خليل الله ، ولا يكفي أن يُقال : حبيب الله .

(٢) إبراهيم ﷺ بنص القرآن : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [سورة النساء : ١٢٥] ومحمد ﷺ بنص السنة الصحيحة ، فإنه قال : « فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً »(**) .

(*) أخرجه ابن جرير في « تفسيره » ١٣ / ٦٨٧ عند تفسيره للآية ٣٥ من سورة إبراهيم .

(**) أخرجه مسلم في « صحيحه » ١ / ٣٧٧ (٥٣٢) .

ومع ذلك يخاف أن يقع في الشرك الذي هو عبادة الأصنام(١) لعلمه أنه لا يصرفه عنه إلا الله بهدايته وتوفيقه لا بحوله هو وقوته(٢) . وما أحسن ما قال إبراهيم التيمي : « ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم ؟! »(٣) فهذا أمر لا يؤمن من الوقوع فيه ، وقد وقع فيه الأذكياء(٤) من هذه الأمة بعد القرون

---

(١) إبراهيم الذي ابتلي كما قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [سورة البقرة : ١٢٤] لما نجح في الامتحان والابتلاء العظيم قال الله ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ : يعني قدوة ﷺ ، ومن أعظم ذلك أنه حرق بالنار ولكن الله سلمه منها ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٦٩] ، سلم نفسه واستسلم وألقي في النار في ذات الله ﷺ ، ما أشد هذا الامتحان وهو صابر ، ولا يزيد على قوله : حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ لكن بعد ماذا ؟ بعد الابتلاء العظيم والامتحان ، وأمر بذبح ابنه لما بلغ الثمانين وما وُلد له ، ثم وُهِب له الولد على الكبر أراد الله أن يمتحنه في هذا الولد ، فأمره بذبحه ، فبادر امتثالاً لأمر الله فقدَّم محبة الله على محبة الولد . ما أعظم هذا الامتحان الذي أقدم على الأصنام وكل أهل وقته أهل أصنام وأوثان فكسرها أمامهم ، هذا موقف عظيم لا يقوم به إلا الصديقون والخلاصة من الأنبياء ، هذا الخليل الذي له هذه المقامة يخاف على نفسه من الشرك فكيف لا يخافه من دون الخليل ؟! هؤلاء الذين يقولون : الناس تجاوزوا مرحلة السذاجة وتثقفوا وعرفوا وليس عليهم خطر من الشرك ، هذا من الغرور أو من التغرير إما أنهم مغترون بالجهل وإما إنه من التغرير بالناس وتهوين أمر الشرك عليهم حتى لا يهتموا به .

(٢) كذلك في قوله : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ لجأ إلى الله أن يعصمه من عبادة الأصنام ، ولم يعتمد على حوله وقوته ومعرفته وعلمه .

(٣) يعني : الامتحان ، إذا كان إبراهيم ﷺ خاف من الامتحان ، فكيف بغيره ممن هو دونه ؟!

(٤) وقع فيه الأذكياء من الناس عندهم خبرة وعندهم معرفة وعندهم علوم ، ومع هذا تجده يأتي إلى القبر ويبكي عنده ويرفع يديه ويتضرع عند القبر ، يا سيدي فلان أغثني ، أنا في حسبك ، أنا في ضيافتك ، أنا أنا ، وهو على درجة كبيرة من الثقافة ومن العلم ، ومن المعرفة ؛ لكنه - والعياذ بالله - لم ينفعه علمه .

المفضلة[١] ، فاتخذت الأوثان وعُبدت ، فالذي خافه الخليل ﷺ على نفسه وبنيه ، وقع فيه أكثر الأمة بعد القرون المفضلة ، فبنيت المساجد والمشاهد على القبور ، وصرفت لها العبادات بأنواعها ، واتخذ ذلك ديناً[٢] ، وهي أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح ، واللات والعزى ومناة ، وأصنام العرب وغيرهم[٣] .

فما أشبه ما وقع في آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركي العرب وغيرهم[٤] ؛ بل وقع ما هو أعظم من الشرك في الإلهية من شركهم في الربوبية

(١) حدث في هذه الأمة بعد القرون المفضلة الشرك الأكبر ، حينما استولى الفاطميون الشيعة على البلاد الإسلامية وبنوا الأضرحة على القبور ، وصار ذلك سبباً في عبادة القبور من دون الله ﷻ ، وحينما ظهرت الصوفية المستجلبة من صوفية الهند ، أو من صوفية النصارى عندها حدثت الصوفية في المسلمين وعبدت القبور من دون الله ﷻ ، واعتقدوا في الأولياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون .

(٢) فالبناء على القبور سبب للشرك ، فلذلك ينهى عن البناء على القبور ، ويؤمر بهدم البناء على القبور كما أمر النبي ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخليفة الراشد قال له : « لا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته »(*) والمشرف هو المرتفع « إلا سويته » يعني أزلت ارتفاعه لأن بقاءه مرتفعاً سبب للشرك به « ولا صورة إلا طمستها » لأن الصور إذا علقت ونصبت هذا سبب لعبادتها من دون الله كما حصل في قوم نوح .

(٣) لا فرق بين عبادة القبور وعبادة الأصنام من اللات والعزى وغيرها في الجاهلية ، كله عبادة لغير الله ﷻ .

(٤) بل هو أشد مما وقعت فيه الجاهلية ، بلغ الشرك في آخر هذه الأمة من المنتسبين إلى الإسلام أشد مما وقع في الجاهلية ؛ لأن أهل الجاهلية يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة ، أما مشركو هذا الزمان فإنهم يشركون في الرخاء والشدة ؛ بل يزيد شركهم في

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٢ / ٦٦٦ (٩٦٩) بلفظ : « أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » .

=

مما يطول عدُّه . فذكر ﷺ السبب الذي أوجب له الخوف عليه وعلى ذريته بقوله : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾[١] [سورة إبراهيم : ٣٦] . وقد ضلت الأمم بعبادة الأصنام في زمن الخليل وقبله وبعده[٢] ، فمن تدبَّر القرآن عرف أحوال الخلق ، وما وقعوا فيه من الشرك العظيم الذي بعث الله أنبياءه ورسله بالنهي عنه ، والوعيد على فعله ، والثواب على تركه[٣] وقد هلك من هلك بإعراضه عن القرآن وجهله بما أمر الله به ونهى عنه ، نسأل الله الثبات على الإسلام والاستقامة على ذلك إلى أن نلقى الله على التوحيد ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[٤] .

الشدة على شركهم في الرخاء ، فإذا وقعوا في شدة ارتفعت أصواتهم بمناداة الموتى والاستغاثة بهم لينقذوهم مما وقعوا فيه .

(١) وهذا فيه الخوف من الفتنة ، إذا انتشرت الفتنة في الناس فإن أهل الإيمان يخافون منها أن تسري إليهم وإلى أولادهم ، هذا مما يوجب علينا الحذر من هذه الفتن التي انتشرت وعمت وطمت في المجتمعات أن نخاف منها على أنفسنا ، وعلى بيوتنا ، وعلى أولادنا ، فالشر إذا كثر عظم خطره بخلاف إذا قل أو خفي فإنه لا يضر إلا أهله ، لكن إذا ظهر وأعلن فإن الخطر على الجميع .

(٢) من عهد نوح ﷺ والشرك لم يرتفع من الأرض ، لما غلوا في الصالحين ونصبوا صورهم حدث الشرك واستمر ، وسيستمر إلى أن تقوم الساعة .

(٣) الشيء العجيب أن هؤلاء الذين يدعون الأولياء والصالحين أنهم يقرؤون القرآن ويحفظونه وربما يحفظه الواحد منهم بالقراءات السبع أو العشر ، ويتلوه ويرتله ويجوده ، ومع هذا تمر عليه الآيات التي في الشرك ولا يتنبه لها ، وهو يدعو غير الله ، ويذبح لغير الله ، وينذر لغير الله ، وكأن القرآن مجرد ألفاظ يردِّدها من غير أن يتدبرها ويعمل بما فيها .

(٤) هذه دعوات مباركة ختمها بقوله : ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؛ لأن الحول والقوة لله . والإنسان لا يعتمد على نفسه في ترك الشرك ولزوم التوحيد ، إنما يعتمد على الله ﷻ .

وقال تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة المائدة : ١١٨] . ردَّ أمرهم إلى الله كما رد عيسى ﷺ[(١)] وقد بيَّن الله تعالى فيما أنزله على نبيه محمد ﷺ حكمه في أهل الشرك بأنه لا يغفره لهم فلا معارضة ، وقد بيَّن حكمه فيهم في هذا الكتاب العزيز ، الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[(٢)] [سورة فصلت : ٤٢] .

وقوله في الحديث لأصحابه ﷺ : « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » فسئل عنه فقال : « الرياء »[(٣)] . وهذا الحديث رواه الإمام أحمد

---

(١) عيسى ﷺ عندما يقول الله له يوم القيامة ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة المائدة : ١١٦ - ١١٨] ففوض الأمر إلى الله ﷻ ، وهذا من تمام التوحيد .

(٢) فلا نقول : إن قوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ معناه إن أمر المشرك مُفوَّض لا ندري ما جزاؤه ؛ بل جزاؤه بيَّنه الله في القرآن . فالقرآن بيَّن قول المسيح ﷺ أما المشرك لا طمع له في مغفرة الله وأنه محروم من الجنة .

(٣) قول النبي ﷺ للصحابة : « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » دل على أن الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر . الشرك الأكبر مثل : دعاء غير الله والذبح لغير الله ، وصرف شيء من العبادة لغير الله ﷻ ، والشرك الأصغر على قسمين : شرك ظاهر على اللسان ؛ وذلك بالأقوال ، مثل الحلف بغير الله وقول : ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت ، وشرك خفي في القلب وهو الرياء لا يطلع عليه إلا الله ﷻ . ما هو الرياء ؟ الرياء : أن يقوم الإنسان بالعبادة من أجل مدح الناس له ، يتصدق من أجل أن يمدحه الناس ، يخشع في الصلاة من أجل أن يمدحه الناس ، يطلب العلم من أجل مدح الناس له إلى =

والطبراني والبيهقي عن محمود بن لبيد[١] ، فإذا كان يخاف ﷺ على أصحابه الذين وحَّدوا الله في العبادة ، ورغبوا إليه وإلى ما أمرهم به من طاعته ، فهاجروا وجاهدوا من كفر به ، وعرفوا ما دعاهم إليه نبيهم ، وما أنزل الله في كتابه من الإخلاص والبراءة من الشرك ، فكيف لا يخاف من لا نسبة له إليهم في علم ولا عمل ما هو أكبر من ذلك ، وقد أخبر ﷺ عن أمته بوقوع الشرك الأكبر فيهم بقوله في حديث ثوبان الآتي ذكره : « حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين[٢] ، وحتى تعبد فئام من أمتي

غير ذلك ، يقصد بعمله مدح الناس وثناءهم هذا هو الرياء . مأخوذ من الرؤية فإذا أحب الإنسان أن الناس يرون عمله فهذا هو الرياء سماه النبي ﷺ شركاً أصغر ؛ لأنه ليس فيه دعاء لغير الله ولا ذبح لغير الله ولا استغاثة لغير الله وإنما فيه قصد لغير الله فقط وهو يصدر من المؤمن ، ولذلك خافه النبي ﷺ على الصحابة وهم أفضل القرون وأفضل الخلق بعد الأنبياء ، فمن يأمن الرياء بعد صحابة رسول الله ﷺ ، إذا كان يخاف على الصحابة مع ما لهم من جلائل الأعمال فكيف يأمنه من هو دونهم على نفسه . فعلى الإنسان أن يخلص أعماله لله ﷻ ، لا يقصد رياء ولا سمعه هذا هو الخوف من الشرك الأكبر والخوف من الشرك الأصغر ، وهذا ما يدل عليه حديث : « أخوف ما أخاف عليكم » .

(١) لأن المصنف ﷀ ساقه من غير أن يعزوه فعزاه الشارح .

(٢) من علامات الساعة أن جماعات من هذه الأمة يلحقون بالمشركين ، يعني يعبدون الأصنام من دون الله ﷻ سواء كانت أصناماً منحوته أو قبوراً وأضرحة ، لا فرق في ذلك ، وقد وقع ما أخبر به ﷺ ، فمن يقول إن هذه الأمة لا يقع فيها شرك فهذا مخطئ ؛ بل يقع الشرك في هذه الأمة ، كما وقع في الأمم السابقة ، ويقولون : إن أهل البلاد الفلانية لا يقع فيهم شرك ؛ لأن البلد مصونة ومحمية من عند الله فأهلها كلهم أهل توحيد ولا يقع منهم شرك ، ولو كانوا يدعون القبور ويعظمون الموتى أو يقول أحدهم : أنا من المسلمين وأعيش مع المسلمين وفي بلاد المسلمين ، فلا يقع مني شرك نقول : كل هذه اعتبارات لا قيمة لها . الإنسان يقع منه الشرك في أي مكان ، ويقع منه الشرك ولو كان ما كان من العلم والمعرفة ، لا يؤمن الشرك على أحد .

الأوثان »[١] . وقد جرى ما أخبر به ﷺ وعمت به البلوى في أكثر الأقطار حتى اتخذوه ديناً مع ظهور الآيات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة في النهي عنه والتخويف منه[٢] .

كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [سورة المائدة : ٧٢] ، وقال الله تعالى : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ . حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾[٣] [سورة الحج : ٣٠، ٣١] ، وهذا هو تحقيق التوحيد ، كما تقدم في الباب قبله . ثم قال – تعالى – محذراً عباده من الشرك : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[٤] [سورة الحج : ٣١] ، ومن لم تخوفه

---

(١) أخبر النبي ﷺ عن وقوع الشرك في هذه الأمة ووقع كما أخبر ﷺ ، هاهي القبور والأضرحة تعبد من دون الله علناً ؛ بل إنهم في آخر الزمان تعاد الأصنام ، تعاد ذو الخلصة ، وتعاد الأصنام التي كانت في الجاهلية ، ربما يكون الدعوة إلى إحياء الآثار الآن مقدمة لعبادة الأصنام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) فلا يُتساهل في الشرك ولا في أسبابه ؛ بل يجب قطع عروقه ، وقطع أسبابه ، والتحذير منه .

(٣) ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ : الرجس : النجاسة ؛ لأن الشرك نجاسة والعياذ بالله ﴿ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ : الأوثان : جميع ما عبد من دون الله من حجر ، أو شجر ، أو قبر ، أو صنم ، أو غير ذلك ، فكل ما عبد من دون الله فهو وثن ، ولهذا قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد »(*) فجعل الوثن أطلقه على القبر ، فلو عبد قبره ﷺ لصار وثناً ، ولكن الله حماه بدعوة نبيه ﷺ .

(٤) التوحيد علو وارتفاع ، والشرك هبوط وسقوط – والعياذ بالله – سقوط من أعلى ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سورة الحج : ٣١] ، يعني من العلو . خرَّ : يعني سقط ولا

(*) أخرجه مالك في « الموطأ » رواية أبي مصعب الزهري ١ / ٢٢٣ (٥٧٠) ، وصححه الألباني في « فقه السيرة » ص ٥٣ .

هذه الآيات وتزجره عن الشرك في العبادة إذا تدبَّرها فلا حيلة فيه . قوله : وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : « من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار »[1] رواه البخاري .

وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك أيضاً ، والتخويف منه . والند : المثل والشبيه ، فمن دعا ميتاً أو غائباً وأقبل إليه بوجهه وقلبه رغبة إليه ورهبة منه ، سواء سأله أو لم يسأله ، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله[2] ، ولهذا حرَّم الله تعالى اتخاذ الشفعاء ، وأنكر على من فعل ذلك أشد الإنكار[3] ؛ لكونه ينافي الإخلاص ،

يدري أين يقع ، ربما يتخطفه الطير وهو في الهواء ، وربما يحمله الهواء ويرميه في مكان بعيد ، كذلك المشرك لا يدري أين مصيره - والعياذ بالله - ولا أين يقع .

(١) حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه أن من مات على الشرك دخل النار ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [سورة المائدة : ٧٢] ، المشرك ليس له مأوى إلا النار ولا طمع له في دخول الجنة إذا مات على الشرك ، أما لو تاب إلى الله من الشرك قبل الموت فإن الله يغفر له ويدخل الجنة . فالعبرة بالخواتيم ، فإن مات على التوحيد دخل الجنة ، كما في الحديث الذي بعده ، وإن مات على الشرك دخل النار ، ومن يدري متى يموت ؟ الموت غيب لا يعلمه إلا الله ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ [سورة لقمان : ٣٤] ربما يكون الموت أقرب شيء إلى الإنسان ، ففيه الحذر من سوء الخاتمة ، وفيه أن من مات على الشرك فلا مطمع له في الجنة ، ولا في رحمة الله ﷻ ، فهذا مما يوجب على الإنسان أن يسأل الله حسن الخاتمة ، ويوجب عليه إذا كان على شيء من الشرك أن يبادر بالتوبة ، ولا تأخذه المكابرة والمعاندة ، والتقليد الأعمى أن يبقى على شركه ، ويقول : أهل البلد والناس كلهم على هذا فيُهلك نفسه - والعياذ بالله - عليه المبادرة بالتوبة من الشرك لئلا يموت عليه فيدخل النار .

(٢) هذا هو اتخاذ النِّد لله ﷻ ؛ لأن النِّد هو الشبيه ، فمن أشرك بالله شيئاً من الأشياء فقد جعله نداً أي : مساوياً لله ﷻ في العبادة .

(٣) اتخاذ الشفعاء من دون الله ، الذين يدعون الأولياء والصالحين ويذبحون لهم وينذرون =

الذي هو إقبال القلب والوجه على الله في كل ما يخافه العبد ويرجوه ويتقرب به ويدين به[1] ومن المعلوم أنه إذا التفت للشفيع يسأله فقد أعرض بوجهه وقلبه عن الله تعالى إلى غيره ، وذلك ينافي الإخلاص ، ويأتي بيان ذلك في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

قوله : ولمسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار »[2] . قوله :

لهم ويقولون : نحن ما نعبدهم لكن نريد شفاعتهم ، نقول : هذا هو فعل المشركين الأولين سواء ، قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة يونس : ١٨] ، ما قالوا : نحن اتخذناهم شركاء لله ، إنما اتخذوهم على أنهم شفعاء ووسائط لهم عند الله ﷻ .

(١) والشفاعة تُطلب من الله ﷻ ؛ لأنها ملك لله . تقول : اللهم شفع فيَّ نبيك وعبادك الصالحين .

(٢) « لقي الله » : يعني مات ؛ لأن الإنسان إذا مات فقد لقي ربه ﷻ ، « يشرك به شيئاً » : أي شيء من الأشياء بأن يدعو الأولياء والصالحين ، أو الملائكة ، أو الرسل ، أو الأشجار أو الأحجار ، أو غير ذلك ؛ لأن كلمة « شيئاً » تشمل كل ما يعبد من دون الله من حي أو ميت من جامد أو متحرك فالذين يقولون : الشرك هو عبادة الأصنام فقط ، هذا من الجهل والغرور . الشرك هو عبادة غير الله سواء كان من الأصنام أو من غيرها . « من لقيه يشرك به شيئاً دخل النار » فمصير المشرك إلى النار ، ودل على ما دل عليه الحديث الذي قبل أنه لو تاب قبل الموت من الشرك ، ومات على التوحيد أنه يدخل الجنة ، ففيه الحث على سؤال الله حسن الخاتمة ، وفيه الحث على التوبة إلى الله ﷻ قبل الموت ، وفيه أن الإنسان لا يأمن على نفسه من الشرك الذي هلك فيه خلائق كثيرة من الناس « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة » من مات على التوحيد لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . وهذا مجمل تفصله النصوص الأخرى ، وإن كان عنده كبائر فهو تحت المشيئة إن شاء الله غفر له وأدخله الجنة بلا عذاب ، وإن شاء الله عذبه بذنوبه في النار ثم يخرجه منها ، وأما إن لم يكن عنده كبائر ، فإنه يدخل الجنة بلا عذاب ، فلابد من هذا =

« من لقي الله لا يشرك به شيئاً » : هذا هو الإخلاص ، كما تقدم . وقوله : « ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار » : هذا هو الشرك ، فمن لقي الله بالشرك دخل النار قلَّ أو كثر ، أمّا الشرك الأكبر فلا عمل معه ، ويوجب الخلود في النار ، كما تقدم في معنى الآيات . وأما الأصغر كيسير الرياء ، وقول الرجل ما شاء الله وشئت ، وقوله : ما لي إلا الله وأنت ، ونحو ذلك ، فهذا لا يُكَفَّر إلا برجحان السيئات بالحسنات(١) .

قال بعض العلماء : اقتصر على نفي الشرك ؛ لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء ، واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم(٢) ، إذ من كذَّب رسل الله فقد كذَّب الله ، ومن كذَّب الله فهو مشرك . فالمراد من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به ، إجمالاً في الإجمالي ، وتفصيلاً في التفصيلي . انتهى .

التفصيل ، فهذا إطلاق تفسِّره النصوص الأخرى ، وعلى كل حال الحديث يدل على أن الاعتبار بالخواتيم ، وأن من مات على الشرك فهو من أهل النار ، ولو كانت سبقت له أعمال طيبة ، وأعمال صالحة ، فإنها تحبط وتبطل بالشرك ، فإذا مات عليه لن تنفعه أعماله مهما كانت ؛ لأن الشرك يحبط الأعمال ولا يبقى معه عمل . فهذا الباب بمجمله الآيتين والحديثين يدل على الخوف من الشرك ، ففيه المطابقة من هذه الأدلة لما ترجم له الشيخ ﵀ أن الخوف من الشرك عظيم جداً ، ولا يأمن الشرك أحد مهما بلغ .

(١) الشرك الأصغر اختلف فيه العلماء هل يغفر ونفي المغفرة خاصٌّ بالشرك الأكبر ؟ أو لا يغفر فلابد من تعذيبه لكنه لا يخلد في النار ؟ أو يقال : إن رجحت حسناته غُفر له الشرك الأصغر وإلا لم يغفر له ؟ ثلاثة أقوال في هذه المسألة ، والصحيح والله أعلم : أنه لا يغفر ، لابد من تعذيبه ، لكنه لا يخلد في النار ؛ وذلك لعموم قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] هذا عام للأكبر والأصغر ؛ لكنه لا يخلد في النار ، بل يعذب على قدر شركه ، وهذا مما يدل على خطورة الشرك الأصغر .

(٢) يعني أنه ﷺ ما قال : من مات وهو موحِّد ؛ بل قال : « لا يشرك بالله » ؛ لأن نفي الشرك يستلزم التوحيد ، ويتضمن التوحيد ، فالمعنى واحد .

٥ - باب الدعاء إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨]

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أن رسول الله ﷺ لما بعثَ معاذاً إلى اليمن ؛ قال : « إنّك تأتي قوماً من أهل الكتاب ؛ فليَكن أوّل ما تدعوهُم إليهِ شهادة أن لا إلـٰه إلا الله (وفي رواية : إلى أن يوحِّدوا الله) ، فإن هم أطاعوكَ لذلك ؛ فأعلِمهم أن الله افترض عليهم خمس صلواتٍ في كل يوم وليلةٍ ، فإن هم أطاعوك لذلك ؛ فأعلِمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فتُردُّ على فقرائهم ، فإن هم أطاعوكَ لذلك ؛ فإيَّاكَ وكرائمَ أموالِهم ، واتَّقِ دعوة المظلوم ؛ فإنّ ليس بينها وبين الله حجابٌ » . أخرجاه .

ولـهُما : عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأُعطين الرَّاية غداً رجلاً يُحب الله ورسولهُ ، ويُحِبُّهُ الله ورسولُهُ ؛ يفتحُ الله على يديه » . فباتَ الناس يدوكون ليلتهم ؛ أيُّهم يُعطاها ، فلمَّا أصبحوا ؛ غدوا على رسول الله ﷺ ، كُلُّهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : « أينَ عليُّ بن أبي طالبٍ ؟ » . فقيل : هو يَشتكي عينيه . فأرسلوا إليه ، فأُتي به ، فبصقَ في عينَيهِ ، ودعا له ، فبرأ كأن لم يكن به وجعٌ ، فأعطاهُ الرَّايةَ ، فقالَ : « انفُذْ على رِسْلِكَ حتَّى تنزِلَ بساحتهم ثُمَّ ادعُهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله تعالى فيه ، فوالله ؛ لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ » . (يدوكون) ؛ أي : يَخُوضُونَ .

٥- باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

قوله : باب الدعاء إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله(١) وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٢) [سورة يوسف : ١٠٨] قال أبو جعفر بن جرير : (يقول - تعالى

(١) هذا الباب مناسبته لما قبله : أن الأبواب التي قبله في معرفة التوحيد ، وبيان فضله ، وبيان فضل من حقق التوحيد ، ولما عرف المسلم هذه الأبواب الثلاثة وعرف باب الخوف من الشرك وعرف الشرك وخطره حينئذ صار عنده علم في عقيدته تؤهله إلى أن يدعو إلى الله ﷻ ، ويدعو إلى التوحيد ، وأن يحذر من هذا الشرك ، ولا يقتصر على نفسه فقط ، فإنه يجب على من علم علماً أن يبلغه للناس ، وأن يدعو إليه ، ولاسيما في علم العقيدة وعلم التوحيد وما يضاده من الشرك والبدع والخرافات ، لا يسع المسلم أن يقتصر على نفسه يتعلم ويترك الناس على ما هم عليه ، فإن هذا العلم أنزله الله للجميع ، وأمر بتبليغه ونشره للناس ، ونهى عن كتمانه وعدم تبليغه وعدم نشره ؛ لما في ذلك من الأضرار العظيمة قال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] وقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٤] مطلوب من المسلم أن يمتد خيره إلى غيره ، وأن ينفع الناس ويعلمهم مما علمه الله ، وينقذهم من الضلال ، ويعلمهم من الجهل ، فإنه مسؤول عن ذلك أمام الله ﷻ ، فمن علم هذه الأبواب ، عرف التوحيد ، وعرف فضله ، وعرف تحقيقه ، وعرف الشرك وتجنبه ، فإنه لا يكفيه ذلك ؛ بل يجب عليه أن يدعو إلى ذلك ، ولهذا قال ﷺ : « باب الدعاء » أي : الدعوة « إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله » أي : التوحيد ، وتعليم الناس هذا الأمر العظيم .

(٢) أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للناس ﴿ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ : أي : طريقتي ومنهجي الذي أسير عليه ، وهو الدعوة إلى الله ﷻ . ﴿ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ : أي إلى توحيده وعبادته ، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ ، وترك ما نهى عنه ، أو نهى عنه الرسول ﷺ فدلَّت هذه الآية على بيان =

منهج الدعوة، ومقوماتها، وأنها طريقة الرسول ﷺ، وطريقة أتباعه، وذلك كما يلي:

أولاً: قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: فيه وجوب الإخلاص في الدعوة، وأن يكون قصد الداعية وجه الله ﷻ، وليس الدعوة إلى نفسه أو تحصيل طمع من مطامع الدنيا، كمدح الناس وثنائهم، أو الوجاهة والمكانة في المجتمع، أو الظهور والبروز بين الناس، فإن هذا الذي يدعو لهذه الأغراض لا يدعو إلى الله، وإنما يدعو إلى نفسه كما قال الشيخ ﷺ في مسائله.

ثانياً: قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: أي على علم بما يدعو إليه، وما ينهى عنه، وفيه دليل على أنه يشترط في الداعية إلى الله أن يكون عالماً بما يدعو، لأن الجاهل لا يصلح للدعوة؛ لأنه قد يحلل حراماً، أو يحرم حلالاً، أو يقول على الله بلا علم فيضلل الناس.

ثالثاً: قوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾: فيه بيان أن اتِّباع الرسول ﷺ يقتضي الدعوة إلى الله ﷻ، فإذا كان الرسول ﷺ يدعو إلى الله على بصيرة، فإن أتباعه يقتدون به، ويدعون إلى الله على بصيرة.

رابعاً: قوله ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: هذا فيه أن الذي يدعو إلى الله يجب عليه أن يُنَزِّه الله عما لا يليق به من الشرك والنقائص والعيوب، بأن يثبت لله ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، وأن يَحذَر من الشرك والرياء والسمعة، وأن تكون عقيدته صالحة مستقيمة، فالذي عنده ابتداع أو شرك لا يصلح أن يكون داعية؛ لأنه لم يُنَزِّه الله ﷻ.

خامساً: قوله ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: هذا فيه أن الداعية يجب عليه البراءة من أهل الشرك، وعدم موالاتهم ومحبتهم، بل يقاطعهم ويعاديهم في الله ﷻ، وأما الذي يزعم أنه يدعو إلى الله، لكنه لا يتبرأ من المشركين، بل ربما يدعو إلى الحوار بين الأديان أو التقارب بين الأديان، أو ربما يقول: إن اليهود والنصارى إخواننا، كما قالها بعض الجُهَّال ممن يزعمون أنهم من الدعاة إلى الله، أو غير ذلك من المقالات الباطلة، فهذا لم يتبرأ من المشركين، ويجب عليه أن يتعلم أولاً، ويدعو نفسه ثانياً، ثم بعد ذلك يدعو الناس؛ لأن الواجب معاداة المشركين في الله ﷻ، والبراءة منهم ومن دينهم، واعتقاد أنهم كفار مشركون.

فهذه الآية فيها عبر عظيمة، وأسس الدعوة إلى الله ﷻ.

ذكره - لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ هَٰذِهِۦ ﴾ الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان ، والانتهاء إلى طاعته ، وترك معصيته ، ﴿ سَبِيلِيٓ ﴾ وطريقتي ودعوتي ، ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، وحده لا شريك له ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ بذلك ، ويقين علم منّي به ﴿ أَنَا۠ ﴾ ويدعو إليه على بصيرة أيضاً ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ وصدقني وآمن بي[1] ، ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ يقول - تعالى ذكره - : وقل تنزيهاً لله وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه ، أو معبود سواه في سلطانه ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2] يقول : وأنا بريء من أهل الشرك به ، لست منهم ولا هم مني)[3] أ.هـ وهذه الآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر ، الداعون إلى الله تعالى ، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة ، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى ، قاله العلامة ابن القيم رحمه الله[4] وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾[5] [سورة الرعد : ٣٦] . وما زال النبي ﷺ وأصحابه يدعون إلى ما أمر

---

(١) فمن لم يدعو إلى الله وعنده علم وعنده بصيرة فليس على طريقة الرسول ﷺ .

(٢) لذلك على الدعية أن يُنَزِّه الله وأن يُعَظِّم الله عن الشرك ، وعن التعطيل وعن التمثيل ، وأن يثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ ، وينفي عن الله ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ، ولا يقول : أنا لا أتعرض لعقائد الناس ، إذاً ما هي الدعوة إذا صرت لا تتعرض لعقائد الناس ، وتبيين الحق من الباطل فما فائدة دعوتك ؟!

(٣) المشركون سواء كانوا من الوثنيين أو كانوا من أهل الكتاب فإنه يتبرأ منهم .

(٤) أتباع الرسول ﷺ هم أتباعه على البصيرة أما الذين يدَّعون أنهم أتباعه ، ولكنهم يخالفونه في كثير من الأمور ، فهؤلاء وإن انتسبوا إليه فإنهم ليسوا أتباعاً له على الحقيقة .

(٥) لم يقتصر على قوله : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ ﴾ بل قال : ﴿ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ﴾ ؛ لأن العبادة =

الله به من الدعوة إلى توحيده في العبادة ، والنهي عن الشرك به ويجاهدون على ذلك . والآيات في الأمر بذلك كثيرة جداً ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[1] [سورة النساء : ١٢٥] وقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[2] [سورة فصلت : ٣٣] قوله : عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن[3] ، قال له : « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب[4] ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله »[5] الحديث . وأهل الكتاب المذكورون

لا تصح إلا مع نفي الشرك وتجنب الشرك ، ثم قال : ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُواْ ﴾ هذا فيه وجوب الدعوة إلى الله ﷻ ﴿ إليه ﴾ : أي إلى الله لا إلى غيره .

(١) ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ ﴾ : هذا التوحيد ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ : هذا الاتباع للرسول ﷺ .

(٢) ﴿ مَنْ أَحْسَنَ ﴾ : أي لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ، هو أحسن الأقوال . ولا يكفي ﴿ دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بل ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ لابد مع الدعوة من العمل ، أما الذي يدعو الله وهو لا يعمل هذا لا يكفي . قال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٤٤] .

(٣) « بعث معاذاً » : أي أرسله ، ومعاذ : هو معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، « إلى اليمن » : يعني إلى نجران .

(٤) « من أهل الكتاب » : أي يهود ونصارى ، فأخبره بالقوم الذين سيقدم عليهم ، وأنهم أهل كتاب ، وأهل علم ، يجب أن يستعد لمواجهتهم .

وفي هذا بيان أن الداعية يجب أن يعرف حال المدعوين قبل أن يباشر دعوتهم ، يعرف حقيقتهم وأعمالهم ، ويدرس أحوالهم من أجل أن يدعوهم على خِبرة ومعرفة بأحوالهم .

(٥) « فليكن أولُ ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله » يجوز في الإعراب نصب الأول على أنه خبر (ليكن) ورفع الثاني على أنه اسم (يكن) مؤخر ، ويجوز العكس : رفع الأول « ليكن أولُ ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله » وهذا هو الأصل . الأصل تقديم اسم كان وتأخير خبرها . لكن يجوز العكس تقديم الخبر وتأخير الاسم . وفي

=

رواية : « إلى أن يوحدوا الله » هذا دليل على مسائل :

المسألة الأولى : أنه يبدأ بالدعوة إلى التوحيد قبل كل شيء ؛ لأن التوحيد هو أساس العقيدة ، فإذا صلح التوحيد حينئذ تبنى عليه الأعمال ، وإذا لم تصلح العقيدة فلا فائدة من الأعمال . فيجب على الداعية أول ما ينظر في أمر الناس ينظر في عقيدتهم ، فإن كان فيها خلل أو فساد ، فإنه يدعو إلى إصلاحه حتى تكون الأعمال صحيحة ونافعة عند الله ، أما إذا كانت العقيدة فاسدة فإن الأعمال لا تنفع ، وجهد الداعية لا يفيد ، وكانت الرسل أول ما تدعو أقوامها إلى التوحيد يقولون : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [سورة الأعراف: ٥٩] لم يبدأوا بالنهي عن الزنا ، والنهي عن الربا ، وإن كانت هذه محرمات وكبائر ، لكن بدأوا بما هو أهم وهو ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ فعلى هذا المنهج أوصى رسول الله ﷺ عامله أن يسير على منهج الأنبياء ، أما الذي لا يدعو إلى التوحيد ولا يهتم به ، وإنما يدعو إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ويدعو إلى الفضائل والزهد ، ويدعو إلى أشياء جانبية ولا يهتم بالتوحيد هذا مخالف لدعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ودعوته لا تثمر شيئاً ، فمنهج الأنبياء هو البداءة بالدعوة إلى التوحيد ؛ لأنه الأساس « فليكن أول ما تدعوهم » يعني قبل كل شيء .

المسألة الثانية : في هذا أن أهل الكتاب يحتاجون إلى دعوة ، والعلماء يحتاجون إلى دعوة إذا كان عندهم انحراف ، ولا يقال : إنهم علماء ، فهؤلاء أهل كتاب ومع هذا صاروا بحاجة إلى أن يُدعوا إلى أهم شيء وهو شهادة أن لا إلـٰه إلا الله . اليهود والنصارى يقولون : (لا إلـٰه إلا الله) بألسنتهم ولكنهم لا يحققونها بأعمالهم ، فكانوا يشركون بالله ويقولون : المسيح ابن الله ، عزير ابن الله ، وهم يقولون : (لا إلـٰه إلا الله) ، فليس المراد من شهادة أن (لا إلـٰه إلا الله) أو قول (لا إلـٰه إلا الله) مجرد اللفظ والنطق بها ؛ بل لابد من تحقيقها بالاعتقاد والعمل . وقوله ﷺ : « فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـٰه إلا الله » ، مع أنهم يقولونها لكنهم لم يستقيموا عليها . ومثلهم عبّاد القبور اليوم يقولون : (لا إلـٰه إلا الله) بكثرة لكنهم يدعون غير الله ، ويعبدون غير الله ، فلا تفيدهم (لا إلـٰه إلا الله) فهم بحاجة إلى أن يُدعوا إلى شهادة أن (لا إلـٰه إلا الله) ، وإن كانوا يصلون ويصومون ويحجون ويبكون ويقرؤون القرآن إذا كان عندهم شرك فإن هذه الأعمال لا تنفعهم ، وهم بحاجة إلى أن يُدعوا إلى شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ، وإلى الدخول في الإسلام من جديد .

في هذا الحديث من كان في اليمن من اليهود والنصارى إذ ذاك . قوله : « فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله » وكانوا يقولونها ، لكنهم جهلوا معناها الذي دلت عليه من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه[١] .

فكان قولهم لا إلـه إلا الله لا ينفعهم ؛ لجهلهم بمعنى هذه الكلمة ؛ كحال أكثر المتأخرين من هذه الأمة ؛ فإنهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد ، فيأتون بما ينافيها فيثبتون ما نفته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم[٢] ، وينفون ما أثبتته من الإخلاص كذلك ، وظنوا أن معناها : القدرة على الاختراع تقليداً للمتكلمين من الأشاعرة[٣] وغيرهم ، وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقرَّ به المشركون فلم يدخلهم في الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٨٤] إلى قوله : ﴿ فَأَنَّىٰ

(١) ليس المقصود مجرد قول لا إلـه إلا الله ؛ بل المقصود قولها ومعرفة معناها ، والعمل بما تدل عليها شروطها السبعة أو الثمانية التي سبق ذكرها .

(٢) ويقولون : هذا هو الإسلام ، عبادة القبور والتقرب إلى الأموات هو الإسلام ، والذي لا يفعل هذا ليس بمسلم ، يعتبرونه من الخوارج – نسأل الله العافية – .

(٣) المتكلمون : وهم علماء الكلام والنُّظَّار الذين بنوا عقيدتهم على علم الجدل ، والبراهين العقلية – كما يسمونها – ولم يبنوها على الكتاب والسنة .

يقولون : معنى (لا إلـه إلا الله) لا يقدر على الاختراع أو لا يخلق أو لا يرزق إلا الله فيفسرونها بتوحيد الربوبية ، وهذا تفسير باطل لأن هذا كان يُقرُّ به المشركون من قبل ولم يدخلهم في الإسلام ؛ بل قاتلهم رسول الله ﷺ عليه ، واستحل دماءهم وأموالهم . ليس المقصود من التوحيد هو الإقرار بتوحيد الربوبية فقط ؛ بل المراد الإقرار بتوحيد الألوهية وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة .

تُسْحَرُونَ ﴾(١) [سورة المؤمنون : ٨٩] وقوله : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [سورة يونس : ٣١] إلى قوله : ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [سورة يونس : ٣١] ، وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير . وهذا التوحيد قد أقرَّ به مشركو الأمم وأقرَّ به أهل الجاهلية الذين بعث فيهم محمد ﷺ(٢) ، فلم يدخلهم في الإسلام ؛ لأنهم قد جحدوا ما دلت عليه هذه الكلمة من توحيد الإلهية ، وهو إخلاص العبادة ، ونفي الشرك والبراءة منه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٤] ، فهذا التوحيد هو أصل الإسلام ، وقال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣) [سورة يوسف : ٤٠] ، وقال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾(٤) [سورة الروم : ٤٣] وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ

---

(١) دل على أنهم مقرون بتوحيد الربوبية ؛ لأنهم إذا سئلوا لمن الأرض ومن فيها ؛ من خلق السماوات والأرض ؟ من خلقكم ؟ يقولون : الله ، فهم مقرون بتوحيد الربوبية ، ولم يدخلهم في الإسلام .

(٢) يعني : توحيد الربوبية .

(٣) ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ : هذا هو معنى (لا إلـه إلا الله) فيها إثبات التوحيد ، ونفي الشرك ، وهذا هو الذي أمر الله تعالى به : التوحيد ، والنهي عن الشرك .

(٤) والدين القيم : هو القائم على التوحيد والإخلاص لله ﷻ .

كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾[1] [سورة غافر : ١٢]
وقال الله تعالى : ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ . أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[2] [سورة الزمر : ٢ - ٣].

وأمثال هذه الآيات في بيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل ، ونزلت به الكتب في القرآن كثير[3] ، وسنذكر بعض ذلك إن شاء الله تعالى في هذا التعليق . قوله : « فليكن أول » منصوب على أنه خبر « يكن » مقدم و« شهادة » اسمها مؤخر ويجوز العكس وفيه دليل على أن توحيد العبادة هو أول واجب[4] ؛ لأنه أساس الملة وأصل دين الإسلام . وأما قول المتكلمين ومن تبعهم: إن أول واجب معرفة الله بالنظر والاستدلال فذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده ، ولهذا كان مفتتح دعوة الرسل أممهم إلى توحيد العبادة ﴿ أَنِ

---

(١) ﴿ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ﴾ : هذه الآية تصف أهل الشرك أنهم يغضبون إذا أخلص الدعاء لله ، وإذا دعي غيره فإنهم يفرحون بذلك ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ﴾ : هو الذي سبحانه يحكم ويأمر وينهى ، وقد أمر وحكم بعبادته وترك عبادة ما سواه .

(٢) ﴿ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ : من الشرك ، ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ : ما يقبل عنده إلا الدين الخالص .

(٣) وكلها تأمر بعبادة الله ولم تأمر بالإقرار بتوحيد الربوبية ؛ لا توجد آية واحدة أمرت بالإقرار بتوحيد الربوبية ، بل كل الأمر بتوحيد الألوهية ؛ لأن توحيد الربوبية موجود من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يكفي .

(٤) يسأل البعض عن أول واجب : هل هو النظر أو التوحيد ؟ أول واجب هو التوحيد ، أما النظر هذا موجود في الفطر ، لا يحتاج إلى نظر ، فأول ما يؤمر به الإنسان أن يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، هذا المطلوب ، وقول المتكلمين : إن أول واجب هو النظر هذا ما جاءت به الرسل ، ولا نزلت به الكتب .

ﭐعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾[(١)] [سورة المؤمنون : ٣٢] أي لا تعبدوا إلا الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[(٢)] [سورة الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[(٣)] [سورة إبراهيم: ١٠] قال العماد ابن كثير ﷺ : (هذا يحتمل شيئين : أحدهما : أفي وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، والمعنى الثاني : أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ، فلا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنون أنها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى) اهـ . قلت : وهذا الاحتمال الثاني يتضمن الأول[(٤)] . وروى أبو جعفر بن جرير بسنده عن عكرمة ومجاهد وعامر أنهم قالوا : « ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السماوات والأرض فهذا

---

(١) كل الرسل أول ما يأمرون ، يقولون لأممهم : ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [سورة الأعراف: ٥٩] ولم يقولوا : انظروا أولاً ، ثم بعد ذلك اعبدوا الله .

(٢) هذا لجميع الرسل « ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه » بماذا ؟ ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ فكل الرسل جاءوا بالأمر بعبادة الله وإفراده بالألوهية ، ما جاءوا يطالبون الناس بالنظر والاستدلال أولاً ؛ لأن هذا الشيء موجود في الفطرة ، وهم مقرُّون به ومعترفون به لا ينكروه حتى يطلبونه منهم .

(٣) الله ﷻ ليس فيه شك لا في ربوبيته ، ولا في إلهيته ، ولا في أسمائه وصفاته ، حتى يحتاج إلى نظر واستدلال .

(٤) هما تفسيران متقاربان ليس بينهما اختلاف ، سواءً فسّرنا : أفي الله شك أي : في وجوده ؟ أم أفي الله شك أي : في عبادته واستحقاقه للعبادة ؟ المعنيان متقاربان .

إيمانهم »[(١)] ، وعن عكرمة أيضاً تسألهم : من خلق السماوات والأرض ؟ فيقولون : الله ، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره[(٢)] .

وقد تقدم أن (لا إلـه إلا الله) قد قُيِّدت في الكتاب والسنة بقيود ثقال ، منها : العلم واليقين والإخلاص ، والصدق والمحبة والقبول والانقياد[(٣)] ، والكفر بما يعبد من دون الله . فإذا اجتمعت هذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة ، وإن لم تجتمع هذه لم تنفعه ، والناس متفاوتون في العلم بها والعمل ، فمنهم من ينفعه قولها ، ومنهم من لا ينفعه كما لا يخفى[(٤)] . قوله : « فإن هم أطاعوك لذلك[(٥)] فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم

---

(١) لا أحد يدَّعي أن السماوات والأرض مخلوقة لغير الله ، ولا أحد يدَّعي أن شجرة أو حيواناً أو صخرة خلقها غير الله . حتى الملاحدة لا يدَّعون أن هذا الكون خلقه الدولة الفلانية أو الرئيس الفلاني أو المهندس الفلاني ، كلهم يعترفون بفطرهم وألسنتهم أنه لا خالق إلا الله ﷻ .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٦] : هذا معناه : أنهم يقرُّون بربوبيته ويجحدون ألوهيته ، يقرُّون بأنه هو الرب ، ومع هذا يعبدون غيره .

(٣) تقدم أنه لا يكفي التلفظ بـ(لا إلـه إلا الله) فقط ؛ بل لابد من معرفة معناها ، والعمل بمقتضاها بشروطها السبعة أو الثمانية .

(٤) من قال (لا إلـه إلا الله) خالصاً من قلبه نفعته ، ومن قال : (لا إلـه إلا الله) وكفر بما يعبد من دون الله حرمه الله على النار ، فلابد من العمل بشروط (لا إلـه إلا الله) .

(٥) هذا فيه التدرج في الدعوة ، وأن الداعية إلى الله يتدرج يبدأ بالأهم فالأهم ، يبدأ بالتوحيد أولاً ثم ينتقل إلى الصلاة لأنها أهم شيء بعد التوحيد ، الصلاة الركن الثاني من أركان الإسلام ، ثم بعدها ينتقل إلى الزكاة ؛ لأنها قرينة الصلاة في كتاب الله ﷻ . هذا منهج الدعوة الصحيح الذي جاء به رسول الله ﷺ ، فنحن نأخذ منهج الدعوة من سُنَّة الرسول ﷺ ، لا نأخذها من منهج الطائفة الفلانية ، أو الفرقة الفلانية ، أو الجماعة الفلانية ، التي تضع لنفسها منهجاً تسير عليه ، بل نحن نسير على منهج رسول الله ﷺ ،
=

وليلة »[(١)] فيه دليل على أن المشرك لا يطالب بفعل الصلاة إلا إذا أسلم بتركه الشرك باطناً وظاهراً[(٢)] ؛ لأن الإسلام شرط لصحة العبادة كما قال النووي ﷺ ما معناه : إنه يدل على أن المطالبة بالفرائض في الدنيا لا يكون إلا بعد الإسلام ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها ، ويزاد في عذابهم في الآخرة[(٣)] ، والصحيح أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي

ونترك الاصطلاحات والمناهج المحدثات ، والمخططات التي يضعها البشر ، الذي يريد الدعوة إلى الله على الوجه الصحيح يمشي على سيرة الرسول ﷺ : « فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله » وفي رواية : « إلى أن يوحدوا الله » لماذا جاء المصنف ﷺ بهذه الرواية ؟ ليفسِّر بها شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن معنى شهادة أن لا إلـه إلا الله : إفراد الله ﷻ بالعبادة ، هذا هو المقصود من شهادة أن لا إلـه إلا الله ، أما الذي يشهد أن لا إلـه إلا الله ولا يفرد الله بالعبادة ؛ بل يدعو غيره ؛ فهذا لم يشهد أن لا إلـه إلا الله حقيقة ، وإن كان يشهد بها نطقاً ، لكنه لا يشهد بها حقيقة ولا يعمل بمقتضاها .

(١) الفرض : هو الإيجاب ، « افترض عليهم خمس صلوات » : هذا هو الركن الثاني من أركان الإسلام ، فإذا تحقق الركن الأول ، وهو شهادة أن لا إلـه إلا الله ، ننتقل إلى الركن الثاني ، وهو الصلاة ، ولا تنفعهم الصلاة وهم لا يشهدون أن (لا إلـه إلا الله) حقيقة ، وإن كانوا يتلفظون بها ، وعندهم شرك ، حتى يحققوا التوحيد ، فحينئذ ندعوهم إلى الصلاة .

« افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة » : أوجب عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة : صلاة الفجر ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، فتجب المحافظة عليها . أما الذي لا يصلي ، أو يصلي وقتاً دون وقت ، أو يصلي غالب الفروض ويترك بعضها ، فهذا ليس بمسلم ، وإن شهد أن لا إلـه إلا الله ؛ لأنه لم يقم الركن الثاني ، وفي هذا دليل على أهمية الصلاة ، وأنها يُدعى إليها بعد الدعوة إلى التوحيد ؛ لأنها عمود الإسلام ، فينبغي المحافظة عليها من حين يبلغ سن التكليف ، إلى أن يتوفاه الله تعالى .

(٢) وإلا فإنها لا تنفعه الصلاة ، فكيف يؤمر بشيء وهو لا ينفعه ؟!

(٣) قضية هل هم مخاطبون بفروع الشرائع أم غير مخاطبين قضية خلافية ، الظاهر أنه ما تحتها
=

عنه ، وهذا قول الأكثرين[١] ، قوله : « فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم »[٢] . فيه أن

طائل ، المهم أنه لا تصح الأعمال إلا بعد التوحيد هذا المقصود .

(١) يعني يعذبون عليها زيادة على عذاب الكفر والشرك ، فيعذبون على ترك الصلاة ، وعلى ترك الزكاة ، وعلى ترك العبادات ، زيادة على تعذيب الشرك .

(٢) « فإن هم أطاعوك لذلك » : أي قبلوا منك الصلاة وأقاموها انتقل إلى الركن الثالث وهو الزكاة ، الزكاة حق في أموال الأغنياء للفقراء قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [سورة المعارج : ٢٤] الزكاة قرينة الصلاة في اثنين وثمانين موضعاً من كتاب الله ﷻ ، قرن الله الزكاة بالصلاة مما يدل على أهميتها . الزكاة تسمى صدقة ، صدقة واجبة ؛ لأن الصدقة على قسمين : صدقة واجبة ، وصدقة تطوع ، فالزكاة صدقة واجبة ، فرض وركن من أركان الإسلام « تؤخذ من أغنيائهم » : والغني هو الذي يملك النصاب الفاضل عن كفايته ، وكفاية من يعول ، ونصاب كل شيء بحسبه كما بينته السنة « تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم » : هذا فيه بيان مصرف الزكاة وأنها للفقراء . الفقراء : هم أهم أصناف أهل الزكاة ، أهل الزكاة ثمانية أصناف ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [سورة التوبة : ٦٠] ثمانية مصارف أولها : الفقراء ، والفقير : هو من لا يجد شيئاً ، أو يجد شيئاً لا يكفيه لسنته ، أما الذي يجد ما يكفيه لسنته فهذا غني ، لا تحل له الزكاة . وفي هذا الحديث دليل على أنه يجوز صرف الزكاة في صنف واحد من الأصناف الثمانية ، ولا يلزم أنه يعمم الأصناف الثمانية بها ، وفيه دليل على أن الزكاة تصرف في فقراء البلد ، فما دام البلد فيه فقراء فهي حق لهم ولا يجوز نقلها عنهم إلى بلد آخر . لقوله ﷺ : « ترد في فقرائهم » ، وهذا أمر يغفل عنه كثير من الناس . ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث ثلاثة أركان من أركان الإسلام :

الركن الأول : شهادة أن لا إلـه إلاّ الله وفي ضمنه شهادة أن محمداً رسول الله ؛ لأن شهادة أن لا إلـه إلا الله لا تصح إلا مع شهادة أن محمداً رسول الله ، لكنه اقتصر عليها لأن شهادة أن محمداً رسول الله داخلة في ضمنها .

=

الزكاة لا تنفع إلا من وحّد الله وصلى الصلوات الخمس بشروطها وأركانها وواجباتها[١] ، والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله تعالى ، ويدل على هذه

الركن الثاني : الصلاة .الركن الثالث : الزكاة . ونحن نعلم أن أركان الإسلام خمسة ، الركن الرابع : الصيام . والركن الخامس : حج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً ، فلم اقتصر النبي ﷺ على ثلاثة ؟

أجيب عن هذا بأجوبة ، **الجواب الأول** : أن هذا الحديث مختصر . فالرسول ﷺ ذكر أركان الإسلام الخمسة ، لكن الرواة أو بعض الرواة اختصر وذكر هذه الأركان الثلاثة فقط .

والجواب الثاني : أن النبي ﷺ ذكر الأركان التي يقاتل من امتنع منها ، وهي شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . هذه من امتنع منها فإنه يقاتل ، فذكر النبي ﷺ الأمور التي يقاتل من امتنع منها ، ومن العلماء من يقول : أن الرسول ﷺ اقتصر على هذه الأركان الثلاثة ؛ لأنها تجمع بقية أمور الدين شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ، هذا عنوان العقيدة تجمع أمور العقيدة الصحيحة وإقام الصلاة هذا أعظم العبادات ، فإذا حافظ على الصلاة صار محافظاً على ما سواها ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٥] المحافظة على الصلوات الخمس يدعو إلى المحافظة على بقية أمور الدين أما الذي لا يصلي فإنه لا يبالي في بقية أمور الدين ، الزكاة لأن الإنسان إذا أدى الزكاة طيبة بها نفسه وأثر حب الله على حب المال سهل عليه التصدق والإنفاق في سبيل الله وفي جوه البر ، الزكاة تسهل عليه أمور التبرعات والصدقات والإنفاق في سبيل الله ﷻ ، فالرسول ﷺ ذكر أمهات العبادات التي يدخل غيرها في ضمنها وتحتها ، فذكر العبادة القولية وهي الشهادة ، والعبادة البدنية وهي الصلاة ، والعبادة المالية وهي الزكاة ويدخل تحت هذه العبادات العظام غيرها من الأعمال .

(١) فلا تصح زكاته وهو مشرك لم يشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، أو يشهد أن لا إلـٰه إلا الله لكنه لا يصلي لا تنفعه الزكاة ، لأن أول واجب التوحيد ، ثم الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصيام ، ثم الحج ، ثم بقية الأعمال .

الجملة قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾(١) [سورة البينة : ٥] فمن أتى بهذه الأمور أتى ببقية الأركان(٢) لقوة الداعي إلى ذلك ؛ لأن ذلك يقتضي الإتيان بها لزوماً .

قال تعالى : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ ﴾(٣) [سورة التوبة : ٥] قال أنس في الآية : توبتهم خلع الأوثان وعبادتهم ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

وعن ابن مسعود مرفوعاً : « أمرت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزكِّ فلا صلاة له » وقال ابن زيد : « أبى الله أن تقبل الصلاة إلا بالزكاة »(٤)

---

(١) الآية تدل على ما دل عليه الحديث فيها ثلاثة أشياء : ﴿ لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ هذا معنى (لا إلـه إلا الله) ﴿ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ هذا معنى « افترض عليهم خمس صلوات » ﴿ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ ﴾ هذا معنى « افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد لفقرائهم » فجاء الحديث موافقاً لكتاب الله ﷻ .

(٢) هذا هو الحكمة في الاقتصار على هذه الثلاثة ، أن من أتى بهذه الثلاثة أتى ببقية شرائع الإسلام من باب أولى .

(٣) كذلك هذه الآية مثل الحديث ﴿ فَإِن تَابُواْ ﴾ : هذا معنى « شهدوا أن لا إله إلا الله » تابوا من الشرك ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ هذا معنى « افترض عليهم خمس صلوات » ﴿ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ : هذا معنى « افترض عليهم صدقة » فوافق الحديث كتاب الله ﷻ في الإتيان بهذه الثلاثة ؛ لأنها أمهات العبادات ؛ ولأن من حافظ على هذه الثلاث حافظ على غيرها من باب أولى .

(٤) قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة »(*) .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٢ / ٥٠٧ (١٣٣٥) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٥١ (٢٠) .

وفيه بيان مصرف الزكاة(١) . قوله : « فإياك وكرائم أموالهم »(٢) تحذيراً له من أن يتجاوز ما شرعه الله ورسوله في الزكاة ، وهو أخذها من أوساط المال ؛ لأن ذلك سبب لإخراجها بطيب نفس ونية صحيحة(٣) ، وكل ما زاد على المشروع فلا خير فيه ، وهذا أصل ينبغي التفطن له(٤) . قوله : « واتق دعوة المظلوم » يدل على أن العامل إذا زاد على المشروع صار ظالماً لمن أخذ ذلك منه(٥) ، ودعوة المظلوم مقبولة ليس بينها وبين الله حجاب يمنع قبولها(٦) ، وفيه التحذير من الظلم مطلقاً ، فعلى العامل أن يتحرى العدل فيما استعمل فيه ، فلا يظلم بأخذ زيادة على الحق ، ولا يحابي بترك شيء منه ، فعليه أن يقصد العدل من الطرفين والله أعلم(٧) .

---

(١) وهو قوله : « فترد على فقرائهم » : أنها لفقراء البلد .

(٢) هذا فيه أن الزكاة لا تؤخذ من الجيد ولا تؤخذ من الرديء وإنما تؤخذ من المتوسط ، لأنها عدل . فإن أخذت من الجيد فهذا جور وظلم ، وإن أخذت من الرديء فهذا ظلم للفقراء ، ونقص في حقهم ، فإذا أخذت من الوسط فهذا هو العدل .
وقوله : كرائم : يعني نفائس . جمع كريمة : وهو النفيس .

(٣) لا يكون فيها ظلم لا للدافع ولا للمدفوعة إليه ، ففيه توسط .

(٤) لا يجوز الغلو في العبادات ، والزيادة في العبادات .

(٥) هذا نوع من أنواع الظلم ؛ لأن الظلم أنواع كثيرة - والعياذ بالله - أعظمها الشرك ، والمظلوم إذا دعا استجيبت دعوته ، ولو كان كافراً .

(٦) فقوله : « اتق دعوة المظلوم » هذا يشمل الولاة ، والموظفين ، وكل من له سلطة ، أن لا يظلم الناس ويتعدى عليهم ؛ بل يجب عليه العدل .

(٧) الشاهد من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الباب قوله : « فليكن أول ما تدعوهم إليه » : هذا فيه الدعوة إلى الله ، وفيه بيان منهج الدعوة ، وهو أنه يبدأ بالأهم فالأهم ، وأنه يتدرج ، وأنه يعرف أحوال المدعوين من أجل أن يتعامل معهم بما يليق بهم ، وأن خطاب العلماء =

قوله : عن سهل بن سعد أي : ابن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي ، أبو العباس ، صحابي شهير ، وأبوه صحابي أيضاً ، مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة . قوله : « أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه » الحديث(١) فيه البشارة بالفتح وهو علم من أعلام النبوة ، وقد وقع كما أخبر

غير خطاب العوام . العلماء يحتاجون إلى مناظرة وإلى مجادلة كاليهود والنصارى ، أما العوام فلا يحتاجون أكثر من الأمر والنهي ، والداعية يجب أن يكون مؤهلاً لذلك .

(١) حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه ، « أن النبي ﷺ قال يوم خيبر » خيبر : بلد أو حصن من حصون اليهود ، يقع شمال المدينة بينهما مسافة طويلة ، وقد انحاز إليه اليهود الذين جلوا من المدينة ، وانضموا إلى إخوانهم الذين هم في خيبر ، فلما صالح النبي ﷺ المشركين عام الحديبية أمره الله بغزو اليهود في خيبر ، فغزاهم رسول الله ﷺ ، وتسمى غزوة خيبر ، وهي بلاد كثيرة الحصون ، وكثيرة المزارع ، وكثيرة الإنتاج ، وكانت بيد اليهود ، وكان اليهود يستغلونها لمحاربة الإسلام ، فأمر الله نبيه ﷺ بغزوهم وانتزاع خيبر من أيديهم ؛ لتكون قوة للمسلمين ، وللدعوة إلى الله ﷻ ، فغزاهم رسول الله ﷺ وحاصرهم وطال الحصار ، وحصلت على المسلمين مشاق في هذا الحصار ، من مكابدة الجوع ، وطول الحصار ، وبينما هم كذلك بشَّرهم رسول الله ﷺ بالنصر والفتح ، وهذا مما أطلعه الله عليه ، ومن معجزاته ﷺ وقال : « لأعطين الراية غداً » : الراية العَلَم الذي يسير عليه المجاهدون يرفع لهم العلم فيسيرون خلفه ويقتدون به ويجتمعون حوله ، يُسمى الراية ، ويسمى العَلَم « لأعطين الراية غداً » أي : من الغد . « رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » ، وصف هذا الرجل بهذه الصفات العظيمة : أنه يحب الله وروسوله ، وأنه يحبه الله ورسوله . فهذا فيه منقبة لهذا الرجل العظيم ، وفيه أن الله يُحبُّ سبحانه ويوصف بأنه يُحِبّ ، وفيه أن المؤمنين يحبون الله ، كما قال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] « يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » : هذه شهادة من الرسول ﷺ لهذا الرجل ، فعند ذلك الصحابة لحرصهم على الخير صاروا يتساءلون من هو هذا الرجل الذي وصفه الرسول ﷺ بهذه الصفات العظيمة ؟ صاروا يبحثون كل =

الليل « يدوكون » يعني يخوضون كل الليل ، من هو هذا الرجل ؟ كل واحد يرجو أن يكون هو ، حتى قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « ما أحببت الإمارة إلا يومئذ »(*) ، « يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها » كل واحد يفتخر بأن يحمل هذه الراية أو يحصل على هذه الفضيلة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ ، لا طمعاً في الدنيا ، ولا طمعاً في الجاه ، وإنما طمعاً فيما عند الله ﷻ ، « فلما أصبحوا غدوا على رسول الله » : ذهبوا إليه مبكرين من الحرص ، كل واحد منهم يرجو أن يكون ذلك الرجل ، كل واحد منهم مقدم نفسه لله ﷻ بشجاعة وإقدام ورغبة فيما عند الله ﷻ ، فقال النبي ﷺ : « أين علي بن أبي طالب ؟ » « قالوا : هو يشتكي عينيه يا رسول الله » ، وذلك أنه أصابه رمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عينيه فلم يحضر إلى النبي ﷺ ، فأرسلوا إليه فجيء به يقاد من شدة الألم ، « فبصق النبي ﷺ » : يعني نفث في عينيه من ريقه ، « فبرأ كأن لم يكن به وجع » : برأ في الحال ، وهذا من معجزاته ﷺ ، ومن بركات ريقه ﷺ ، ثم « أعطاه الراية » ، وصار ذلك هو الرجل الذي أخبر عنه الرسول ﷺ ، فهذا فيه فضيلة لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ حيث خصَّه النبي ﷺ بهذه البشرى ، وهذه المزية ، وفضائله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثيرة ، من أعظمها : هذه الفضيلة ، وأما حبه لله ورسوله وحب الله ورسوله له فليس هذا خاصاً به ، وإنما كل المؤمنين وكل إخوانه من الصحابة يحب الله ورسوله ويحبهم الله ورسوله ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية(**) لأن الرافضة والشيعة يقولون : هذا دليل على أنه هو الأحق بالخلافة ، لأنه هو الذي اتصف بهذه الصفة . نقول : هذه ليست خاصة به . أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، كل الصحابة كذلك ، ولكن مع هذا النبي ﷺ خص علياً بهذه الخصيصة لا لأنه هو وحده هو الذي يحب الله ورسوله أو يحبه الله ورسوله ؛ بل لأن هذا فضل من الله تفضل به عليه ، « فأعطاه الراية وقال له : انفذ » : يعني اذهب « على رسلك » : يعني بهدوء وسكينة ، لا يكون فيه صخب ولا جلبة ، ولا طيش ولا سرعة في المشي أو ركض ، هذا ليس من صفات المؤمنين ، صفات المؤمنين السكينة والوقار والثبات والهدوء ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ١٨٧١ (٢٤٠٥) .

(**) انظر : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية ٥ / ٤٤ .

=

كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الأنفال: ٤٥] أما الطيش والأصوات واللغط والعجلة هذه من صفات الجبناء ، أما الثبات عند اللقاء ، وعدم الطيش ، وعدم العجلة هذه صفة الشجعان ، ولاسيما أهل الإيمان ، فإنهم يثبتون في المعارك ، وفي لقاء العدو ، ولا يتزعزعون ولا ينهزمون أمام عدوهم مهما بلغ بهم عدوهم من النكاية فإنهم يثبتون « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم » : أي تقرب منهم ، وهذا من تمام الشجاعة أنك تقرب من العدو ، ولا تكون بعيداً عنه تناوشه من بعيد ، بل تقرب منه ومن ساحته لأجل أن تُرعبه وتُرهبه « ثم ادعهم إلى الإسلام » : هذا فيه أن الدعوة إلى الله يبدأ بها قبل القتال ، وأنه لا يجوز البداءة بالقتال قبل الدعوة ، فمن استجاب فإنه يقبل ، ومن لم يستجب فإنه يقاتل بعد أن تبلغه الدعوة وتقوم عليه الحجة ، وهذا محل الشاهد من الحديث ، الدعوة إلى الله وأنها سابقة للقتال في سبيل الله ﷺ ، وذلك يدل على أهميتها ومكانتها من الدين ، ولم يقتصر على قوله : « ادعهم إلى الإسلام » بل بيّن لهم ما هو الإسلام « وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه » : اشرح لهم الإسلام وبيِّنه لهم حتى يعرفوه ، بعض الدعاة يُرَغِّبون في الدين ، يُرَغِّبون في الإسلام ، لكن لا يعرفون ما هو الإسلام وما هي نواقضه ؟ وما هي المكفرات وما هي أركان الإسلام ، وما هي مكملات الإسلام ، وما هي متطلبات الإسلام ؟ وهذا مما يتطلب من الداعية أن يكون عالماً بما يدعو إليه بالتفصيل ، حتى يُبيِّن للناس المطلوب ، والمقصود يُبيِّن للناس حقيقة الإسلام أنه الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك وأهله ، يبيِّن لهم هذا ، وأنه خمسة أركان ، يقوم عليها وأن بقية الأعمال الصالحة مكملات للإسلام منها واجب ومنها مستحب ، وأن المعاصي منقصات أو مناقضات للإسلام ، منها ما هو ردة ومنها ما هو دون ذلك ، يبيِّن لهم هذا الأمر ، ويوضحه لهم ، فهذا أمر مهم جداً في الدعوة إلى الله ﷻ . ثم أقسم ﷺ فقال : « فوالله » : هذا فيه الحلف على الفتوى ، أن الإنسان إذا كان متأكداً من الصواب فإنه يحلف « فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » : فهذا فيه الترغيب في الدعوة ، وأنه لو اهتدى رجل واحد على يدك فإنه خير لك من أموال الدنيا ونفائس الدنيا ؛ لأن حمر النعم هي الإبل الحمر التي لونها أحمر ؛ لأنها أنفس عند العرب فرجل واحد يهديه الله على يديك خير لك من أنفس الأموال . هذا إذا اهتدى على يدك رجل واحد ، كيف إذا اهتدى على

=

رسول الله ﷺ قوله : « يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » قال شيخ الإسلام : (ليس هذا الوصف مختصاً بعليّ(١) ولا بالأئمة ؛ فإن الله ورسوله يُحبُّ كل مؤمن تقي يُحبُّ الله ورسوله(٢) ؛ لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذين لا يتولونه أو يُكفِّرونه أو يفسِّقونه كالخوارج(٣) ،

يديك أُمَّةٌ من الناس ؟ اهتدى على يديك أهل بلد ، أهل إقليم ؟ اهتدى على يديك أجيال متعاقبة من الناس ؟ هذا كما في قوله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلاله كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً »(*) . فهذا فيه فضل الدعوة إلى الله ﷻ ، وفيه بيان منهج الدعوة ، وفيه بيان أن الدعوة تسبق القتال ، وفيه فضيلة لعلي بن أبي طالب ، وفيه عدة معجزات من معجزات الرسول ﷺ التي تدل على صدقه ، حيث أخبر عن أشياء مستقبلة فوقعت كما أخبر ﷺ ، وفيه التبرك بالرسول ﷺ وما ينفصل من جسمه الشريف من ريق أو عرق أو شعر ، وهذا خاص به ﷺ ، وأما غيره فلا يتبرك به ولو كان من أصلح الناس ، كأبي بكر وعمر وعثمان ، والصحابة ما كانوا يتبركون بآثارهم إنما هذا خاص بالنبي ﷺ في حياته ﷺ ، ولا يتبرك بقبره ولا يتبرك بداره التي يقال أنه ولد فيه ، أو الغار الذي جلس فيه ، وغير ذلك من الأمكنة وإنما هذا خاص بما انفصل من جسده ﷺ في حال حياته ؛ لأنه بعد الموت انتهت هذه الآثار ، فلا يبقى عرق ولا ريق ، ولا شعر ، وإن بقي الشعر فإنه لا يستمر ، ويوجد الآن من يروجون على الناس ، ويقولون : هذا شعر الرسول ﷺ ويقولون : هذا وهذا ، ينسبونه للرسول ﷺ ، وهذا كذب .

(١) هذا ردٌّ على الشيعة الذين يقولون : إن علياً أفضل الصحابة ، وأنه أحق بالخلافة .

(٢) نعم ، الله ﷻ يحب كل مؤمن يُحِبُّه ويُحِبُّ رسوله ، ويطيعه ويطيع رسوله ﷺ .

(٣) النواصب : هم الذين يناصبون علياً وأهل بيته العداوة . سموا بالنواصب ؛ لأنهم يناصبون العداوة لعلي وأهل بيته والواجب محبتهم ؛ لقرابتهم من رسول الله ﷺ ، ومحبة أصحاب رسول الله ﷺ سواءً كانوا من أهل البيت أو من غيرهم .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٠١٠ (٢٦٧٤) .

لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم[(١)] ، فإن الخوارج تقول في عليٍّ مثل ذلك ، لكن هذا باطل[(٢)] ، فإن الله ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً)[(٣)] ، وفيه إثبات صفة المحبة لله خلافاً للجهمية ومن أخذ عنهم[(٤)] ، وفيه فضيلة أخرى لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بما خصه به من إعطاء الراية ودعوته أهل خيبر إلى الإسلام[(٥)] ، وقتالهم إذا لم يقبلوا[(٦)] وقد جرى له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قتالهم كرامات مذكورة في السِّير والمغازي ، وفيه مشروعية الدعوة

---

(١) هذه فيها رد على الخوارج وعلى الروافض . الروافض يغلون في علي ، ويكفرون غيره من الصحابة ، ويقولون : فضائلهم التي جاءت في الكتاب والسنة هذه قبل أن يرتدوا . يحكمون على الصحابة بالرِّدة - والعياذ بالله - والخوارج على العكس يُكَفِّرون علياً هؤلاء يغلون في عليّ ، وهؤلاء يُفرِّطون في حق عليّ ويكفرونه ، وكلا الطائفتين ضالة منحرفة عن الحق . والوسط هو موالاة أولياء الله ، ومحبة أصحاب رسول الله جميعاً ، ومحبة الخلفاء الراشدين بالخصوص ، ومحبة قرابة الرسول ﷺ أيضاً بالخصوص ، والصحابة يتفاضلون ويتفاوتون في الفضائل ، وكل يعطى حقه ولا يبخس من حقه شيئاً فلا غلو ولا تفريط ، الواجب الوسط .

(٢) إذا قالت الرافضة : إن الفضائل هذه للصحابة قبل أن يرتدوا . قالت الخوارج : كذلك فضائل عليّ كانت قبل أن يرتد ؛ لأن الخوارج يكفرون علياً ويقولون : ما له من الفضائل فهذه قبل أن يرتد ، فهم يردُّون على الرافضة بمثل قولهم في الصحابة .

(٣) لا يقول الرسول ﷺ عن عليّ يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله على من يعلم الله أنه يموت كافراً ، كما تقول الخوارج - قبحهم الله - .

(٤) يعني من صفات الله أنه يحب المتقين ، ويحب المؤمنين ، والمحسنين .

(٥) الخاصية الأولى : أنه يحبه الله ورسوله هذه شهادة من الرسول ﷺ له والخصيصة الثانية أو الفضيلة الثانية : أن الله يفتح على يديه .

(٦) ولا يُحمِّله الرسول ﷺ هذه المهمة إلا لأهليته وفضيلته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

إلى الإسلام(١) الذي أساسه شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٤] الآية . قوله : « فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه » قال المصنف ﷺ : فيه الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع ومنعها عمن سعى(٢) .

قوله « فأرسلوا إليه » أي النبي ﷺ أرسل إليه من يأتيه به ، وفي صحيح مسلم أن الذي جاء به سعد بن أبي وقاص رضي الله وفي رواية عن إياس بن سلمة ، عن أبيه : أن الذي جاء به سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

قوله : « فبصق في عينيه » أي تفل . قوله « ودعا له فبرأ » هو بفتح الراء والهمزة ، أي عوفي في الحال عافية كاملة ، وذلك بدعوة النبي ﷺ كما في الحديث : فدعا له فاستجيب له ﷺ ، وفيه علم من أعلام النبوة أيضاً ، وذلك كله بالله ومن الله وحده ، وهو الذي يملك الضرّ والنفع ، والعطاء والمنع ، لا إلـٰه غيره ولا رب سواه .

قوله « انفذ » هو بضم (الهمزة والفاء) ، قوله « على رسلك » أمره أن يسير اليهم بأدب وأناة ، « حتى تنزل بساحتهم » الساحة هي ما قرب من حصونهم .

قوله « ثم ادعهم إلى الإسلام » هذا هو شاهد الترجمة ، وهكذا ينبغي

(١) هذا محل الشاهد من الحديث .

(٢) الصحابة يدوكون ليلتهم وذهبوا مبكرين في الغداة ومع هذا لم تحصل لهم ، والذي لم يذهب ولم يسع وهو عليّ حصلت له فهذا فيه الإيمان بالقضاء والقدر .

لأهل الإسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق إلى الإسلام والدخول فيه ، وينبغي لولاة الأمر أن يكون هذا هو معتمدهم ومرادهم ونيتهم ، قال شيخ الإسلام : دين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده ، فأصله في القلب ، والخضوع لله وحده بعبادته دون ما سواه . فمن عبده وحده ، وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً ، ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً ، وأما الإيمان فأصله تصديق القلب وإقراره ومعرفته .

قوله : « وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه » مما أمر به وشرعه من حقوق « لا إلـه إلا الله » وهذا يدل على أن الأعمال من الإيمان ، خلافاً للأشاعرة والمرجئة في قولهم : إنه القول ، وزعموا أن الإيمان هو مجرد التصديق ، وتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة ، لأن الدين ما أمر الله به فعلاً وما نهى عنه تركاً ، وفيه الرد على المشركين المستدلين على الشرك بكرامات الأولياء لدلالتها على فضلهم ، وأمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقع له من الكرامات ما لم يقع لغيره [وله من السابقة والجهاد والفضائل ما ليس لغيره] وقد خدَّ الأخاديد وأضرمها بالنار ، وقذف فيها من غلا فيه ، أو اعتقد فيه بعض ما كان يعتقده هؤلاء المشركون مع أهل البيت وغيرهم ، فصار من أشد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعداً عن الشرك وشدة على من أشرك حتى أحرقهم بالنار . وكذلك عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع ما أعطي من الكرامات صار من أبعد الصحابة عن الشرك وذرائعه . وهما أفضل أهل الكرامات فما زادهم ذلك إلا قوة في التوحيد ، وشدَّة على أهل الشرك والتنديد : كما جرى لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الاستسقاء بالعباس وتعمية قبر دانيال لما وجده الصحابة في بيت

مال الهرمزان ، كما أن المعجزات إنما زادت الرسل قوة في الدعوة إلى التوحيد ، وشدة على أهل الشرك والانكار عليهم وجهادهم ، لكن قد يقع من الأحوال الشيطانية لمن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه ما قد يلتبس على الجهال الذين تلبسوا بالشرك ويظنّون أن ذلك كرامات ، وهي من مكر الشيطان واغوائه لمن لم يعرف الحق من الباطل ، وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الزخرف : ٤٣] فكذلك يجب على كل أحد أن يطلب الحق من القرآن بتدبُّره ، فإنه الصراط المستقيم ، ولا يلتفت إلى ما زخرفته الشياطين ، كما اغترَّ به من اغترَّ في هذه الأمة ومن قبلهم .

قوله : « فوالله » : فيه جواز حلف المفتي على ما أفتى به . قوله « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » حمر النعم - بسكون الميم - الإبل الحمر ، وهي أنفس الأموال عند العرب . وفيه الترغيب في الدعوة إلى الله وطلب الهداية لمن أراد الله هدايته ، ليحصل للداعي إلى الحق هذه الفضيلة العظيمة بهداية من اهتدى ، فلا ينبغي التفريط في هذه المطالب العالية . وبالله التوفيق .

قوله « يدوكون ، أي يخوضون » بيَّن المصنف رحمه الله معنى هذه اللفظة بأن المراد خوض السامعين في هذا الخير ، وتمني حصوله ، والله أعلم .

٦ - باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦ - ٢٨] .

وقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

وقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وفي « الصحيح » : عن النبي ﷺ ؛ أنه قال : « من قال : لا إلـٰه إلا الله ، وكفر بما يُعبد من دون الله ؛ حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله ﷻ » . وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب .

٦ - باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

قوله : (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلـٰه إلا الله)(١) . قوله :

(١) عقد المصنف ﷺ هذا الباب بعد باب الدعاء إلى شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ؛ لأن الذي يدعو إلى شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ويدعو إلى التوحيد ، لابد أن يعرف معنى شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ، فلا يكفي مجرد الدعاء إلى لفظها دون فهم وتفصيل لمعناها ، ولا يكفي الدعاء إلى التوحيد دون معرفة معناه ، ومعرفة ما يضاده من الشرك ، فلابد أن الذي
=

وشهادة أن لا إلـه إلا الله من عطف الدال على المدلول[(١)] ؛ لأن التوحيد هو

يدعو إلى الله يعرف ما هو التوحيد حتى يبيِّنه للناس ، ويعرف ما هو الشرك حتى يُحذِّر الناس منه ، فلا يكفي أن يقول للناس : قولوا لا إلـه إلا الله ، وحِّدوا الله ، اتركوا الشرك ، ابتعدوا عن الشرك ؛ بل لابد أن يشرح لهم معنى التوحيد ، ومعنى (لا إلـه إلا الله) ، ويشرح لهم معنى الشرك ويُبيِّنه لهم ، وهذا معنى البصيرة ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٨] ومعنى قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [سورة النحل : ١٢٥] ولا يمكن أن يكون هناك حكمة وموعظة وجدال بالتي هي أحسن إلا إذا اتصف الداعية إلى الله بالعلم فعرف الحق ودعا إليه ، وعرف الباطل ونهى عنه . ولأن كثيراً من المشركين قديماً وحديثاً يفسرون الشرك بأنه عبادة الأصنام فقط ، وأما دعاء الأولياء والصالحين والملائكة والرسل يقولون : هذا ليس من الشرك ، هذا توسل إلى الله ، وهذا طلب للشفاعة فيفسرون الشرك بغير الشرك ، والتوحيد يقولون : هو توحيد الربوبية ، يكفي بأن تُقِرَّ أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت وأن تعتقد أنه لا أحد يشارك الله في توحيد الربوبية وهذا هو التوحيد عندهم ، وأما الشرك في الألوهية ودعاء غير الله والاستغاثة بغير الله هذا لا يسمونه شركاً ولا يضر عندهم بالتوحيد . التوحيد عندهم هو توحيد الربوبية فقط ولا يدخلون فيه توحيد الألوهية ، وبنوا كتبهم على هذا ، فأيُّ كتاب تقرأه من كتب العقائد عندهم تجده يركز على توحيد الربوبية ، ولا يأتي ذكرٌ لتوحيد الألوهية أبداً ، وهذا ليس هو التوحيد ولو كان هذا هو التوحيد صار المشركون موحِّدين ؛ لأنهم يُقرُّون به ، وصارت دعوة الرسول لهم إلى التوحيد وقتاله لهم في غير محله ؛ لأنهم مُوحِّدون ويثبتون توحيد الربوبية ، ولأجل تلافي هذه الأخطاء لابد أن يعرف الإنسان ما هو التوحيد المطلوب ؟ وما هو الشرك المنهي عنه ؟ حتى يكون على بصيرة من أمره ، ولا يُلبِّس عليه هؤلاء ، وهذا لا يكون إلا بتدبُّر الكتاب والسنة . التوحيد يؤخذ من الكتاب والسنة ، والشرك أيضاً يفهم من الكتاب والسنة لا من اصطلاحات الناس واعتباراتهم وتسمياتهم ؛ لأنها لا قيمة لها إلا ما وافق الكتاب والسنة . ولذلك المصنف ﷺ جاء بآيات أربعة وحديث في تفسير التوحيد .

(١) عطف الدال الذي هو لا إلـه إلا الله على المدلول وهو التوحيد ، من أجل البيان ، وأيضاً ليبين أنه لا فرق بين التوحيد وبين لا إلـه إلا الله .

معنى هذه الكلمة العظيمة ، وذلك يتبين بما ساقه من الآيات والحديث ، لِمَا فيها من زيادة البيان وكشف ما أشكل من ذلك ، وإقامة الحجة على من غالط في معنى لا إلـٰه إلا الله من أهل الجهل والإلحاد(١) .

قوله : وقول الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾(٢) [سورة الإسراء : ٥٧] ، أي : أولئك الذين يدعوهم أهل

(١) في بعض النسخ : من هل الجهاد والإلحاد . وهذا خطأ مطبعي ، والصواب : من أهل الجهل والإلحاد .

(٢) هذه الآية بيّنت أن دعاء غير الله من الأولياء والصالحين والملائكة شرك ، وهؤلاء يقولون : الشرك هو عبادة الأصنام فقط ، وأما الملائكة والأنبياء والصالحين فليسوا أصناماً . ومع هذا سمى الله من تقرب إليهم بشيء من العبادة مشركين ، وهذه الآية بعد قوله ﷻ: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [سورة الإسراء: ٥٦ - ٥٧] وهل الأصنام تتقرب إلى الله وتبتغي إليه الوسيلة ؟! وهل هي تخاف عذاب الله وترجو رحمته ؟! هل الأصنام كذلك ؟! الأصنام جمادات ، لا يكون الخوف والرجاء إلا من العباد ، وسمى دعاءهم وعبادتهم شركاً ، قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ الزعم : هو الكذب ، زعمتم أنهم شركاء لله ﷻ ، هذا زعم باطل ؛ ﴿ مِّن دُونِهِ ﴾ أي : غير الله والأمر هنا ﴿ قُلِ ادْعُوا ﴾ : أمر تعجيز وأمر استنكار مثل : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ هذا أمر تهديد وتعجيز واستنكار ، وليس هو طلب، ولم يطلب منهم أن يدعو غير الله، ولكنه من باب الاستنكار والتعجيز ، وبيان بطلان هذا العمل ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ ﴾ : إذا نزل بكم مرض هذه المعبودات مطلقاً سواء كانت من الأشجار أو من الأحجار أو من الملائكة أو النبيين والصالحين كلها لا تملك كشف الضر بعد نزوله ، إنما الذي يملك ذلك هو الله ﷻ ، ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ : ولا أحد يستطيع نقل المرض من عضو إلى عضو ، أو من إنسان إلى إنسان ، أو من بلد إلى بلد ، =

لا أحد يستطيع هذا إلا الله ﷻ ، وإذا كان كذلك فهي عاجزة ، والعاجز لا يصلح للعبادة ، ثم قال ﷻ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ ﴾ : أي يدعوه المشركون ، وفيه حذف ، أي : أولئك الذين يدعونهم . ﴿ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ : هؤلاء المدعون هم عباد يتقربون إلى الله بالعبادة ، ويبتغون إلى ربهم الوسيلة ، وهي القرب منه ﷻ ، وهي الأعمال الصالحة التي تُقَرِّب إلى الله ﷻ ، هذه هي الوسيلة . وليست الوسيلة ما يقوله عُبَّاد القبور : أن تجعل بينك وبين الله واسطة تتوسل به إلى الله ، ليس هذا هو الوسيلة . الوسيلة التي أمر الله باتخاذها هي الأعمال الصالحة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [سورة المائدة : ٣٥] أي : القرب منه ﷻ ، وذلك بعبادته فلا يُقَرِّب إلى الله إلا عبادة الله ﷻ ، سُمِّيت وسيلة ؛ لأنها تقرب إلى الله ، وليست الوسيلة باتخاذ أشخاص بينالعبد وبين الله ﷻ ، هذا فعل المشركين ولهذا قال : ﴿ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ : هذا تفسير للوسيلة يعني يطلبون القرب إلى الله ﷻ ، ﴿ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ : دل على أنهم عباد محتاجون إلى الله ، فلا يصلحون للعبادة . وهذه الآية عند الجمهور نزلت في قوم كانوا يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً ، والله أخبر أن الملائكة والمسيح وعزيراً كلهم عباد الله يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، وما داموا كذلك فهم لا يصلحون للعبادة . وقيل : نزلت في أناس كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجن ولم يعلم عابدوهم أنهم أسلموا ، فأخبر الله عنهم أنهم أصبحوا مسلمين وأنهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، فتبين بهذا أنها لا تصلح عبادتهم ؛ لأنهم هم أنفسهم عباد ومحتاجون إلى الله ﷻ . ففي هذا إبطال لعبادة الملائكة وعبادة الأنبياء والصالحين ، وأن الشرك ليس خاصاً بعبادة الأصنام ، كما يقوله الجهال أو المعاندون ؛ بل هو عام في كل ما عبد من دون الله من شجر أو حجر أو جن أو إنس أو ملائكة أو رسل أو أنبياء أو أولياء أو غير ذلك ، كما دلت الآية الكريمة على أن الخوف والرجاء من أعظم أنواع العبادة ، وفي هذا رد على الصوفية الذي لا يتعبدون بالخوف والرجاء وإنما يقولون : نحن نعبده بالمحبة فقط . أما الذي يعبده رجاء لجنته وخوفاً من ناره هذه عبادة التجار الذين يتاجرون مع الله ، لكننا نعبده لأننا نحبه لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره كذا يقولون : وصاروا بهذا أفضل من هؤلاء الأنبياء وهؤلاء الملائكة ، وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه .

الشرك ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله من الملائكة والأنبياء والصالحين ؛ كالمسيح وأمه والعزيز فهؤلاء دينهم التوحيد ، وهو بخلاف من دعاهم من دون الله ، ووصفهم بقوله : ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾[١] ، فيطلبون القرب من الله بالإخلاص له ، وطاعته فيما أمر ، وترك ما نهاهم عنه . وأعظم القرب : التوحيد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله ، وأوجب عليهم العمل به والدعوة إليه ، وهذا الذي يقربهم إلى الله ، أي : إلى عفوه ورضاه ، ووصف ذلك بقوله : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [سورة الإسراء : ٥٧] فلا يرجون أحداً سواه ، ولا يخافون غيره ، وذلك هو توحيده[٢] ؛ لأن ذلك يمنعهم من الشرك ، ويوجب لهم الطمع في رحمة الله والهرب من عقابه ، والداعي لهم والحالة هذه قد عكس الأمر ، وطلب منهم ما كانوا ينكرونه من الشرك بالله في دعائهم لمن كانوا يدعونه من دون الله[٣] ، ففيه معنى قوله : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾[٤] [سورة فاطر : ١٤] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ

---

(١) أي المسيح وأمه وعزير والملائكة كلهم هذا وصفهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، فهم عباد فقراء إلى الله يتوسلون إليه بالطاعة ، ولا يصلحون للعبادة .

(٢) الذي يرجو غير الله ويخاف من غير الله هذا ليس من أهل التوحيد ؛ لأنه أشرك في عبادة الرجاء وعبادة الخوف .

(٣) الملائكة والرسل والأنبياء والأولياء والصالحين كلهم ينكرون الشرك بالله ﷻ ويدعون الناس إلى التوحيد فلما مات الأنبياء والرسل عبدوهم من دون الله ، وهم لم يرضوا بذلك في حياتهم .

(٤) يوم القيامة تجحد هذه المعبودات عبادة من عبدها فقوله : ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ : يعني يجحدون وينفون ذلك . الملائكة يقولون : لم تعبدونا ولم نأمركم بذلك ، إنما الذي أمركم بذلك الشيطان ، أما الملائكة ﷺ فهم لا يأمرون إلا بعبادة الله . كذلك الأنبياء

=

ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعۡدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ [سورة الأحقاف : ٦] ، وفيه الرد على من ادعى أن شرك المشركين إنما هو بعبادة الأصنام(١) .

وتبين بهذه الآية أن الله تعالى أنكر على من دعا معه غيره من الأنبياء ، والصالحين ، والملائكة ، ومن دونهم وأن دعاء الأموات والغائبين لجلب نفع ، أو دفع ضر من الشرك الأكبر(٢) الذي لا يغفره الله ، وأن ذلك ينافي ما دلت عليه كلمة الإخلاص ، فتدبر هذه الآية العظيمة يتبين لك التوحيد وما ينافيه من الشرك والتنديد فإنها نزلت فيمن يعبد الملائكة والمسيح وأمه والعزير ، فهم المعنيُّون بقوله : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ [سورة الإسراء : ٥٦] ثم بين تعالى أن هؤلاء المشركين قد خالفوا

والمرسلون يوم القيامة يتبرؤون ممن عبدهم ويقولون : نحن ما دعونا الناس إلا لتوحيد الله ، ونهينا عن الشرك .

(١) هذه مهمة جداً ؛ لأن هناك من فسَّر الشرك بأنه عبادة الأصنام ، ويزعم أن المشركين مقتصرون على عبادة الأصنام . وهذا غير صحيح ، منهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ، ومنهم من يعبد الملائكة والشياطين ، ومنهم من يعبد الجن ، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين . ولهذا يقول الشيخ في القواعد الأربع(*) : (أن النبي ﷺ بُعث إلى أناس متفرقين في عبادتهم ، منهم من يعبد الأشجار والأحجار ، ومنهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد المسيح ، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين ، ليسوا مقتصرين على عبادة الأصنام ، وقاتلهم رسول الله ﷺ ، ولم يفرق بينهم) .

(٢) دعاء الغائبين ولو كانوا أحياء مثل : الملائكة ، والمسيح ﷺ ، ومثل الجن ولو كانوا أحياء ، ما داموا غائبين فلا يُدْعَون . الغائب لا يُدعى إنما يُطلب من الحي الحاضر ما يقدر عليه من نفع أو إعانة أو غير ذلك ، أما الميت والغائب فلا يُطلب منه شيء أبداً .

(*) القواعد الأربع (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب) ١ / ٢٠١ .

من كانوا يدعونه في دينه فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾[١] [سورة الإسراء : ٥٧] .

وقدَّم المعمول ؛ لأنه يفيد الحصر ، يعني يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، لا إلى غيره . وأعظم الوسائل إلى الله تعالى التوحيد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله[٢] ، وخُلِقَ الخَلقُ لأجله[٣] .

ومن التوسل إليه : التوسل بأسمائه ووصفاته[٤] ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٠] ، وكما ورد في الأذكار المأثورة من التوسل بها في الدعوات ، كقوله : « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إلـٰه إلا أنت المنان ، بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام »

---

(١) المشركون الذين دعوا عيسى وعزيراً والملائكة خالفوا من يدعونهم ؛ لأن من يدعونهم هم من أهل التوحيد وأهل العبادة ، وهؤلاء الأتباع من أهل الشرك لا علاقة لهم بعيسى ، ولا علاقة لهم بالملائكة ، ولا بالأولياء ولا الصالحين .

(٢) الوسيلة : هي الأعمال الصالحة ، لا كما يقوله الجُهَّال : أن الوسيلة أن تجعل بينك وبين الله واسطة في قضاء حوائجك ، هذا لم يُشَرِّعه الله . الله لم يأمرنا باتخاذ الوسائل ؛ بل أمرنا بدعائه مباشرة ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [سورة غافر : ١٤] أمرنا بدعائه مباشرة ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [سورة غافر : ٦٠] ، ولم يقل : ادعوني بواسطة فلان ، أو توسلوا إلي بفلان . هذا من القول على الله بلا علم .

(٣) ولهذا لما دعا ذو النون ﷺ وهو في الغم والكرب ، توسل إلى الله بالتوحيد قال تعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٨٧] توسل إلى الله بتوحيده .

(٤) ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ : أي توسلوا إليه بها ، فتقول : يا رحمن أرحمني ، يا غفور اغفر لي ، يا رزاق ارزقني ، يا تواب تب عليّ ، إلى آخره : نتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته ﷻ .

وقوله : « اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إلـٰه إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »(١) ، وغير ذلك من الأعمال الصالحة الخالصة ، التي لم يشبها شرك ، فالتوسل إلى الله هو بما يحبه ويرضاه(٢) ، لا بما يكرهه ويأباه من الشرك(٣) الذي نزه نفسه عنه بقوله : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الطور : ٤٣] ، وقوله: ﴿ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٤) [سورة يوسف : ١٠٨] ، وقوله في الإنكار على من اتخذ الشفعاء : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٥) [سورة يونس : ١٨] .

---

(١) توسل إلى الله بأسمائه وصفاته وتوحيده هذا هو التوسل المشروع .

(٢) وكذلك التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة ، تتوسل إلى الله بطاعته وبعبادته كما توسل أصحاب الغار لما انطبقت عليهم الصخرة توسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة : هذا توسل ببرّه لوالديه ، وهذا توسل بأداء الأمانة ، وهذا توسل إلى الله بالعفة وإحصان فرجه ، ففرّج الله لهم(*) . التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة هذا من الوسيلة النافعة .

(٣) لا بأن تتخذ بينك وبين الله واسطة من المخلوقات تتوسط بينك وبينه ، هذا تَنقُّص لله ﷻ وتشبيه له بملوك الدنيا ، الذين لا يستجيبون إلا بواسطة الشفعاء والوزراء عندهم ، أما الله ﷻ فإنه لا يتوسط عنده بأحد ، وإنما يُدعى مباشرة ويطلب منه مباشرة ﷻ ، والرسول حينما يشفع لا يشفع مباشرة وإنما يدعو الله أولاً أن يأذن له ، ويسجد بين يدي ربه ويدعوه حتى يؤذن له بالشفاعة .

(٤) التسبيح : هو التنزيه ، نَزَّه نفسه عن الشرك .

(٥) الله ﷻ لم يشرع لنا اتخاذ الوسائط من المخلوقات بيننا وبينه ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ كل ما لا يعلمه الله فهو محال ، والله لا يعلم أن بينه وبين خلقه وسائط في قضاء حوائجهم .

(*) حديث أصحاب الغار أخرجه البخاري في « صحيحه » ٢ / ٧٩٣ (٢١٥٢) .

وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير ، يأمر عباده بإخلاص العبادة له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، ويعظِّم عقوبته ، كما قد جرى على الأمم المكذِّبة للرسل فيما جاءوهم به من التوحيد ، والنهي عن الشرك فلم يقبلوا ، فأوقع الله تعالى بهم ما أوقع ، كقوم نوح وعاد وثمود ونحوهم ، فإنهم عصوا الرسل فيما أمروهم به من التوحيد ، وتمسكوا بالشرك ، وقالوا لنوح : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ [سورة هود : ٢٧] وقالوا لهود : ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة هود : ٥٣] الآيات وقالوا لصالح : ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [سورة هود : ٦٢] ، وقالوا لشعيب : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾[1] [سورة هود : ٨٧] .

فتدبر ما قصَّ الله تعالى في كتابه مما دعت إليه الرسل ، وما أوقع بمن عصاهم ، فإن الله تعالى أقام به الحجة على كل مشرك إلى يوم القيامة . وأما ما ورد في معنى الآية عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : « ناس من الجن كانو يُعبدون فأسلموا » ، وفي رواية : « كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم » قلت : وهذا لا يخالف ما تقدم[2] ؛ لأن هذه

(١) لم يقبلوا دعوة الرسل ، وأرادوا البقاء على ما وجدوا عليه آباءهم ، واعتاضوا عن اتباع الرسل باتباع آبائهم - والعياذ بالله - واعتاضوا عن التوحيد بالشرك .

(٢) هذا من معنى الآية . الآية تفسر بعدة معاني ، تفسير بالتفسيرين ، بأنها نزلت في من يعبد الملائكة وعيسى وعزيراً ، وتفسر بأنها في قوم يعبدون ناساً من الجن فأسلموا . فالآية تشمل المعنيين .

الآية حجة على كل من دعا مع الله ولياً من الأولين والآخرين ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في هذه الآية : « وهذه الأقوال كلها حق ، فإن الآية تَعُمُّ من كان معبوده عابداً لله ، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر »[١].

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾[٢] [سورة الزخرف : ٢٦ ، ٢٧] الآية . الكلمة : هي (لا إلـٰه

(١) والمفسرون إذا اختلفوا في تفسير الآية فليس هذا اختلاف تضاد ، وإنما هو اختلاف تنوُّع ، تكون الآية تدل على عدة معاني وكل واحد يأخذ بمعنى من معانيها .

(٢) هذه فيها تفسير شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ﴿ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ بدأ بأبيه أقرب الناس إليه ، وتبرأ منه ومن عبادته وتبرأ من محبته ومن موالاته ، ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ : براء : يعني بريء ومتبرئ منكم ومن معبوداتكم ، وأصل البراءة : البعد عن الشيء والانقطاع عنه فهذا فيه المقاطعة للمشركين ، والمقاطعة لمعبوداتهم ، والابتعاد عنهم ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ : هذا معنى (لا إلـٰه إلا الله) تماماً ؛ لأن فيه نفي وإثبات ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ ﴾ هذا نفي مثل (لا إلـٰه) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ هذا فيه الإثبات (إلا الله) فهذه الكلمة تتضمن معنى شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ، فهي تفسرها ، وأن معناها : البراءة من الشرك وأهله وعبادة الله وحده لا شريك له . هذا معنى (لا إلـٰه إلا الله) : لا معبود بحق إلا الله ﷻ . والترجمة تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلـٰه إلا الله . وهذه الآية فسَّرت (لا إلـٰه إلا الله) ، من أين أتينا بتفسير (لا إلـٰه إلا الله) أتينا به من القرآن وليس معناها لا قادر على الإختراع ولا على الخلق والرزق إلا الله كما يقوله علماء الكلام ؛ فإن هذا لا يزيد على توحيد الربوبية ، وليس هو المطلوب . وفي الآية البراءة من الشرك وأهله ، وأنه من معنى (لا إلـٰه إلا الله) والذي يقول : (لا إلـٰه إلا الله) ولا يتبرأ من الشرك وأهله فإنه لم يقلها حقيقة وإن تلفظ بها ما دام لا يتبرأ من الشرك وأهله . قال ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ ﴾ أي هذه الكلمة ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ جعل هذه الكلمة ﴿ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ : أي في ذرية إبراهيم ، فلا يزال في ذرية إبراهيم من يقول هذه الكلمة ويدعو

=

إلا الله) بإجماع أهل العلم ، وقد عبَّر عنها الخليل ﷺ بمعناها الذي أريد بها ووضعت له ، فعبَّر عن المنفي بها بقوله : ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ وعبر عن ما أثبتته بقوله : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ فقصر العبادة على الله وحده ، ونفاها عن كل ما سواه ببراءته من ذلك ، فما أحسن هذا التفسير لهذه الكلمة وما أعظمه . قال العماد ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ : (أي : هذه الكلمة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان ، وهي لا إلـه إلا الله ، جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله[(١)] من ذرية إبراهيم ﷺ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : إليها قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ يعني لا إلـه إلا الله لا يزال في ذريته من يقولها) . وقول الله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[(٢)] [سورة التوبة :

إليها إلى أن بُعِث محمد ﷺ فأحيا ملة إبراهيم ودعا إلى هذه الكلمة ، وجاهد عليها . هذه ملة إبراهيم ﷺ الحنيفية السمحة .

(١) جعلها الله ﷻ كلمة باقية في ذرية إبراهيم ، فلا يزال في ذرية إبراهيم من يخلص العبادة لله ﷻ .

(٢) هذه الآية في الرد على اليهود والنصارى ، أهل الكتاب ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ ﴾ الأحبار : جمع حَبر ، وهو العالم من علماء اليهود ، ويجوز الكسر والفتح . والرهبان : هم العباد جمع راهب وهو العابد ، والرهبان عند النصارى ، والأحبار عند اليهود . هاتان الطائفتان ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ حيث صاروا يطيعونهم في معصية الله ويحللون لهم الحرام فيستحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه ، وهذا التحليل والتحريم هو من معنى (لا إلـه إلا الله) حق لله ﷻ ، ولا يجوز لأحد أن يُحرِّم أو يُحلِّل إلا بدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فمن حَلَّل أو حَرَّم من =

عند نفسه فقد جعل نفسه شريكاً لله فيما هو من خصائصه ﷻ ومن أطاعه في ذلك وهو يعلم أنه يحلل ويحرم من عند نفسه ، فقد اتخذه رباً وشريكاً لله ﷻ ﴿ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ : المسيح عيسى ابن مريم رسول من عند الله ، والرسل لا يُحَلِّلون ولا يُحَرِّمون من عند أنفسهم ، وإنما يبلغون عن الله ﷻ ، ولا يخترعون شيئاً من عند أنفسهم ، فكيف بغيرهم ؟! ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ هذا فيه تحريم طاعة العلماء والعباد في معصية الله ﷻ ، وأن من أطاعهم في معصية الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله ، وهذه الآية تُفسِّر التوحيد ، وهي أن الطاعة المطلقة في التحليل والتحريم لله ﷻ ، فما أحله الله فهو الحلال ، فليس من حق أحد أن يحرمه ، وما حرمه الله فهو الحرام ، وليس من حق أحد أن يحلله أبداً ، لا الرسل ولا الأحبار ولا الرهبان ولا غيرهم ، هذا حق الله ﷻ .

ولهذا يقول الشيخ ﷺ : وتفسيرها الذي لا إشكال فيه أن طاعة العلماء والعباد في معصية الله(*) يخالف التوحيد ، ويخالف (لا إلـه إلا الله) ؛ لأن من معنى التوحيد ومعنى (لا إلـه إلا الله) أن لا يحرم ولا يحلل إلا الله ﷻ ، وأما رسله فهم مبلغون عن الله ﷻ ، والذي يكل إلى الناس التحليل والتحريم ويطيعهم في ذلك من غير معرفة الدليل والمستند من كتاب الله وسنة رسوله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله ، ولهذا يُروى أن عدي ابن حاتم رضي الله عنه كان نصرانياً ، ثم أسلم وبايع الرسول ﷺ وحسن إسلامه ، ولما سمع هذه الآية وهي تتحدث عن اليهود والنصارى ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال : « يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم » ، فَهِم أن العبادة : الركوع والسجود لهم ، فبين له الرسول ﷺ أن العبادة ليست قاصرة على الركوع والسجود ، والذبح والنذر لهم ؛ بل تشمل طاعتهم في معصية الله فقال رسول الله ﷺ : « أليس يحلون ما حرَّم الله فتُحلُّونه ويُحرِّمون ما أحَلَّ الله فتُحَرِّمونه » ؟ قال : قلت : بلى . قال : « فتلك عبادتهم »(**) ولو لم تركع لهم وتسجد لهم وتذبح لهم وتنذر لهم ، فطاعة

(*) انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٢ / ٧٠ .

(**) أخرجه الترمذي في « سننه » ٥ / ٢٥٩ (٣٠٩٥) بنحوه ، والطبراني في « المعجم الكبير » ١٧ / ٩٢ (٢١٨) واللفظ له ، وحسنه الألباني من رواية الترمذي .

[٣١] الأحبار : هم العلماء ، والرهبان : هم العبَّاد . وهذه الآية قد فسَّرها رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم ، وذلك أنه لما جاء مسلماً دخل على رسول الله فقرأ عليه هذه الآية ، قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم قال : « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وحلَّلوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » رواه أحمد والترمذي وحسَّنه ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني من طرق[١] .

قال السدي : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم[٢] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فصار ذلك عبادة لهم ، وصاروا به لهم

المخلوقين في معصية الخالق في التحليل والتحريم من غير دليل هو عبادة لهم ، لكن إن كان هذا الذي اتبعهم متعمداً وعالماً فعلهم هذا فهو مشرك . الشرك الأكبر المخرج من الملة ، وإن كان غير عالم بذلك هذا هو الشرك الأصغر يكون معذوراً ؛ لأنه جاهل بهذا الأمر ، ولكن يجب عليه أن يتعلم ولا يبقى على جهله .

(١) فدل على أن الشرك ليس مقصوراً على عبادة الأصنام .

(٢) يعني أخذوا بأقوال الرجال ، ولم يرجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ولا تؤخذ من العوائد وما عليه الآباء والأجداد ، وما عليه الأقدمون . هذا دين المشركين الذين يعارضون الرسل بما عليه آباءهم وأجدادهم . رسول من عند الله جاء بشرع الله تعارضونه بما عليه الكفرة والمشركون والآباء والأجداد ؟! هذا معناه تمرد على عبادة الله ﷻ ، وهذا يشمل كل من أخذ باجتهاد مجتهد من الفقهاء بدون معرفة دليله ، لابد أنه يعرف المسند . والأشد من هذا إذا عرف أن قول هذا الفقيه مخالف لكتاب الله ولسنة الرسول ، ولكنه أخذ به لأنه يوافق هواه أو يوافق رغبة الناس – والعياذ بالله – كما يفعل بعض المغرورين ، يتلمسون من الكتب أقوال الرخص وأقوال الفقهاء ، ولو خالفت نصوص الكتاب والسنة . هذا أمر يدخل في طاعة الأحبار والرهبان .

أرباباً من دون الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٠] وقوله ﴿ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [سورة التوبة : ٣١] أي : اتخذوه رباً بعبادتهم له من دون الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ [سورة المائدة : ١١٦] إلى قوله : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة المائدة : ١١٧] ، فمن تدبّر هذه الآيات تبيَّن له معنى (لا إلـٰه إلا الله) ، وتبيَّن له التوحيد الذي جحده أكثر من يدَّعي العلم في هذه القرون وما قبلها من متأخري هذه الأمة . وقد عمَّت البلوى بالجهل به بعد القرون الثلاثة المفضلة ، لما وقع الغلو في قبور أهل البيت وغيرهم وبنيت عليها المساجد ، وبنيت لها المشاهد ، فاتسع الأمر وعظمت الفتنة في الشرك المنافي للتوحيد لما حدث الغلو في الأموات وتعظيمهم بالعبادة ، فبهذه الأمور التي وقع فيها الأكثر ، عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والبدعة سنة والسنة بدعة ، نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير ، وقد قال ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء ، الذين يصلحون إذا فسد الناس » وفي رواية « يصلحون ما أفسد الناس » .

قوله ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ

ٱللَّهِ ﴾(١) الآية [سورة البقرة : ١٦٥] ، الأنداد : الأمثال والنظراء ، كما قاله العماد ابن كثير وغيره من المفسرين . فكل من صرف من العبادة شيئاً لغير الله رغبة إليه أو رهبة منه ، فقد اتخذه نداً لله ؛ لأنه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره .

قال العلامة ابن القيم ﷺ : (فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه ، أي : مع الله بعبادته له . وتوحيد الحب : أن لا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها له . فهذا الحب وإن سُمِّي عشقاً فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله ، فلا يحب إلا الله ، كما في الحديث الصحيح : « ثلاث من كن فيه .. » الحديث ، ومحبة رسوله هي من محبته . ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبة الله ، وإن كانت لغير الله فهي منقصة

(١) الأنداد : هم الشركاء والشبهاء لله والند : هو الشبيه والنظير ، اتخذوهم أنداداً في الركوع والسجود والذبح والنذر ؟ لا ، في المحبة ، يحبونهم كما يحبون الله ﷻ ، هذا هو شرك المحبة . والمحبة أعظم أنواع العبادة فمن أحب أحداً مثل محبة الله وخضع له وذل له كما يخضع لله ويذل لله هذا هو الشرك الأكبر فليس الشرك قاصراً على الذبح والنذر ؛ بل أعظم من ذلك المحبة الذين يحبون الأصنام ويحبون عبادة القبور ويحبون عبادة الأولياء والصالحين هؤلاء أحبوا مع الله وأشركوا بالله في نوع من أعظم أنواع العبادة وهو المحبة ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ فدل على أن التوحيد شامل لجميع أنواع العبادات ، وأن الشرك ليس قاصراً على عبادة الأصنام وإنما هو شامل لكل من جُعل له شركة مع الله ﷻ ، بأي نوع من أنواع العبادة سواء كان حجراً أو شجراً أو صنماً أو وثناً أو جناً أو إنساً أو ملائكة أو أنبياء أو رسلاً أو أولياء أو صالحين أو غير ذلك . العبادة حق لله ﷻ ، فمن أشرك فيها أحداً مع الله كائناً من كان هذا هو الشرك ، فهذا تفسير التوحيد وتفسير الشرك يؤخذ من هذه الآية .

لمحبة الله مضعفة لها ، وتصدق هذه المحبة بأن يكون كراهته لأبغض الأشياء إلى محبوبه ، وهو الكفر بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أو أشد . ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه وحياته شيئاً ، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خير بين الكفر وإلقائه في النار لاختار أن يُلقى في النار ولا يكفر ، كان الله أحب إليه من نفسه ، وهذه المحبة هي فوق ما يجده سائر العشاق والمحبين من محبة محبوبهم ، بل لا نظير لهذه المحبة كما لا مثل لمن تعلقت به ، وهي محبة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد ، وتقتضي كمال الذل والخضوع والتعظيم ، والإجلال والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً ، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان ، ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لا يغفره الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] . والصحيح : أن معنى الآية : والذين آمنوا أشد حباً لله من أهل الأنداد لأندادهم ، كما تقدم بيانه أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً ، كما لا يماثل محبوبهم غيره ، وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته ، وكل مكروه في محبة غيره فهو قرة عين في محبته) انتهى .

قوله : وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « من قال لا إلـه إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله ﷻ »(١) .

---

(١) ثم أعقب ذلك ﵀ بالحديث الصحيح في سنة الرسول ﷺ ، قال : في الصحيح : يعني صحيح مسلم ، عن طارق بن أشيم : أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لا إلـه إلا الله =

وكفر بما يعبد من دون الله حرم دمه وماله وحسابه على الله » تعلق تحريم الدم والمال بشيئين : الأول : النطق بلا إلـٰه إلا الله . الشيء الثاني : الكفر بما يعبد من دون الله فلا يصح النطق بلا إلـٰه إلا الله من غير كفر بما يعبد من دون الله . فمن اعتقد أنه لا إلـٰه إلا الله بقلبه ولكن لم ينطق بلسانه هذا ليس بنطق ، وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون : الإيمان هو التصديق بالقلب ولو لم ينطق فلابد من النطق والتصريح بأن يقول : (لا إلـٰه إلا الله) ولا يكفي هذا ، بل لابد أن يكفر بما يعبد من دون الله . فالذي يقول (لا إلـٰه إلا الله) ثم يدعو غير الله من الأولياء والصالحين ، والقبور والأشجار والأحجار ، هذا ليس من أهل التوحيد وليس بموحد ؛ بل هو مشرك وإن كان يقول : (لا إلـٰه إلا الله) ، لأنه ناقض قوله بفعله ؛ لهذا قدَّم الله الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ، قال تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦] ، لا يكفي الإيمان بالله دون الكفر بالطاغوت فالذي يقول : أنا أعبد الله وأخلص أنواع العبادة لله ، ولكن هؤلاء الذين يدعون القبور والأضرحة لا أحكم عليهم بالكفر ولا بالشرك ويواليهم ويحبهم ولا يتبرأ منهم فهذا ليس بموحد ؛ لأنه لم يتبرأ من الشرك ، ولم يكفر بما يعبد من دون الله ﷻ ، ولم يجعل النطق بها كافياً ، ولم يجعل الكفر بما يعبد من دون الله كافياً بالقلب دون النطق ؛ بل لابد من الأمرين : النطق باللسان والعمل بمعنى (لا إلـٰه إلا الله) « وكفر بما يعبد من دون الله » : أعتقد بطلانه وتبرأ من أهله هذا هو تفسير التوحيد : قول (لا إلـٰه إلا الله) مع الكفر بما يعبد من دون الله (فلا إلـٰه إلا الله) كما سبق لكم لا تنفع إلا بسبعة شروط أولها : أن يكون عارفاً بمعناها الثاني : أن يكون عاملاً بمقتضاها هذه أهم شروط (لا إلـٰه إلا الله) وإلا مجرد الكلام وترديد (لا إلـٰه إلا الله) وهو لم يترك عبادة غير الله أو تركها ولم يتبرأ من الشرك وأهله ، فهذا لا يعتبر من أهل التوحيد ولا تنفعه (لا إلـٰه إلا الله) . وهذا بيان عظيم من الرسول ﷺ وقيد ثقيل لهذه الكلمة ؛ لأنه ليس المقصود مجرد النطق بها ؛ بل لابد من العمل بمدلولها وهو إفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه ، فالذي يدعو الناس إلى (لا إلـٰه إلا الله) يجب أن يبيِّن لهم معناها ، ويبيِّن لهم مقتضاها ويبيِّن لهم بقية الشروط . لا تكفي المجملات . اليهود يقولون : (لا إلـٰه إلا الله) وهم يعبدون عزيراً ، والنصارى يقولونها وهم يعبدون المسيح ابن مريم . عبَّاد القبور كلهم يقولون : (لا إلـٰه إلا الله) ولهم أوراد صباحية ومسائية

=

قوله : « في الصحيح » أي : صحيح مسلم ، عن أبي مالك الأشجعي ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ ، فذكره . وأبو مالك اسمه سعد بن طارق ، كوفي ثقة . مات في حدود الأربعين ومئة .

قوله : « من قال لا إلـٰه إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله » اعلم أن النبي ﷺ علق عصمة المال والدم بأمرين في هذا الحديث : الأول : قول لا إلـٰه إلا الله عن علم ويقين ، كما هو قيد في قولها في غير ما حديث ، والثاني : الكفر بما يعبد من دون الله ، لكن ذكر في هذا الحديث « وكفر » تأكيداً لما دلت عليه ؛ لأن المقام عظيم يقتضي التأكيد .

قوله : « حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » : فيه دليل أنه لا يحرم ماله ودمه إلا إذا قال : لا إلـٰه إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله ، فإن قالها ولم يكفر بما يعبد من دون الله فدمه وماله حلال ، لكونه لم ينكر الشرك ويكفر به ، ولم ينفِه كما نفته لا إلـٰه إلا الله ، فتأمل هذا الموضع فإنه عظيم النَّفع . قال شيخنا : (وهذا من أعظم ما يبيِّن معنى لا إلـٰه إلا الله ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه . فيا لها من مسألة ما أجلها ، ويا له من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للمنازع) انتهى . قوله « وحسابه على الله عز وجل » أي :

ويقولون : (لا إلـٰه إلا الله) بالمئات والآلاف صباحاً ومساء ، لكن مع هذا يعبدون القبور ويذبحون لها وينذرون لها ، إذاً ما معنى (لا إلـٰه إلا الله) ؟!

الله تعالى هو الذي يتولى حسابه ، فإن كان صادقاً جازاه بجنات النعيم ، وإن كان منافقاً عذَّبه العذاب الأليم ، وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر .

قوله : وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب[1] فقد ذكر فيها ﷺ ما بيَّن التوحيد وما ينافيه وما يقرِّب من الشرك وما يوصل إليه من الوسائل ، وبيان ما كان عليه السلف من بُعدهم عن الشرك في العبادة ، وشدة إنكارهم له وجهادهم على ذلك ، وقد جمع هذا الكتاب على اختصاره من بيان التوحيد ما لا يُعذر أحد عن معرفته وطلبه بإقبال وتدبُّر ، وكذلك الرد على أهل الأهواء جميعهم ، فمن حفظه واستحضره وجد ذلك واستغنى به عن غيره في الرد على كل مبتدع ، فتدبره تجد ذلك بيِّناً ، وسيأتي التنبيه على ذلك إن شاء الله تعالى .

---

(١) أبواب الكتاب الباقية كلها في هذا النوع : بيان للتوحيد ، والنهي عن الشرك ، مثل : لبس الحلقة والخيط ، والتبرك بالأشجار والأحجار ، والطيرة ، والسحر ، والكهانة ، كل الأبواب الآتية في التوحيد وتفسر (لا إلـه إلا الله) فهي امتداد لهذا الباب . كل كتاب التوحيد يدور على بيان التوحيد ، وبيان الشرك ، حتى يتضح للناس . فهذا الكتاب من أعظم الكتب نفعاً ؛ لأنه بيَّن التوحيد وبيَّن الشرك لا من قول فلان أو علان ، وإنما من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

٧ - باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٨] .

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه ؛ « أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقةٌ من صُفْرٍ ، فقال : ما هذه ؟ قال : مِنَ الوَاهِنَة . فَقالَ : انْزِعها ؛ فإنَّها لا تزيدُكَ إلَّا وَهْناً ، فإنَّك لوْ مِتَّ وهيَ عليْكَ ؛ ما أفْلَحتَ أبداً » . رواه أحمد بسندٍ لا بأسَ به .

ولَهُ : عن عُقْبة بن عامرٍ مرفوعاً : « مَنْ تَعَلَّقَ تميمةً ؛ فلا أتمَّ اللهُ له ، ومن تعلَّقَ ودَعةً ؛ فلا وَدَعَ اللهُ له » .

وفي رواية : « مَنْ تَعَلَّقَ تميمةً ؛ فقد أشركَ » .

ولابن أبي حاتم عن حُذيفة : « أنَّهُ رأى رجلاً في يده خيطٌ من الحُمَّى ، فقَطَعَهُ ، وتلا قوله : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [يوسف : ١٠٦] » .

٧ - باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما ؛ لرفع البلاء أو دفعه

قوله : (باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما ؛ لرفع البلاء أو دفعه)[1] أي : لرفعه إذا نزل ودفعه قبل أن ينزل ، يعني إذا كان هذا هو

(١) قوله : (من الشرك) : أي من أنواع الشرك ، قد يكون من الشرك الأكبر ، وقد يكون من =

القصد فتعلَّق قلبه به[(١)] في دفع ضر ما قد نزل ، ومما لم ينزل ، وقد صرحت الأحاديث بأن هذا شرك بالله[(٢)] .

قوله : وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ [(٣)] إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[(٤)] [سورة الزمر : ٣٨] .

الشرك الأصغر - كما يأتي - ، (لبس الحلقة) : الحلقة هي : الشيء المستدير الذي يحيط بالعضو كالإصبع والعضد والذراع ، (والخيط) : معروف ، ربط الخيط على العضو . (لرفع البلاء أو دفعه) أي : لهذا الغرض ، أما إذا كان لبس الحلقة والخيط لغير هذا الاعتقاد ، فلا مانع منه إنما إذا كان الغرض منه دفع البلاء الذي لم ينزل أو رفعه إذا نزل فهو شرك بالله ﷻ ؛ لأنه اعتقد بغير الله دفع الضر أو جلب الخير .

(١) إذا كان هذا هو القصد من الحلقة أو الخيط ، أما إذا لم يقصد هذا فهذا ليس بشرك فقال : أنا وضعتها من باب الزينة ، أنا وضعت الخيط أريد أن أربط شيئاً على جسمي أو أربط الثوب على جسمي ، أو أربط حاجة أعلقها تحتاج إلى ربط بالخيط ليس قصدي النفع أو الضر ، هذا لا يدخل فيه ، وما ينهى عن استعمال الحلقة مطلقاً أو الخيط مطلقاً ، إنما يُمنع إذا اعتقد فيه صاحبه أنه ينفع أو يضر ، ولهذا قال : لرفع البلاء أو دفعه ، يعني لا مطلقاً .

(٢) يعني الأحاديث التي في الباب .

(٣) ﴿ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ : ما : موصولة ، وهي عامة من صيغ العموم أي : جميع ما تدعون من دون الله ، ويدخل فيها : الخيط ، والحلقة ، والودعة ، والتميمة .

(٤) أمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يسأل المشركين الذين يعبدون ويدعون غير الله ﷻ : هل هذه الأشياء التي يدعونها ترفع عنهم الضرر وتجلب لهم الخير ؟ وهل هي تقدر على منع ما أراد الله لعباده من خير أو شر ؟ سألهم هذا السؤال فلم يجيبوا ؛ لعلمهم أن هذه الأشياء لا تدفع ولا تنفع وإلا لو كانوا يعتقدون فيها ذلك لأجابوا ، والسؤال مطروح إلى يوم القيامة ، وأي مشرك من هؤلاء موجه له هذا السؤال أن يجيب عليه ، ولم يجب أحد من هؤلاء المشركين قديماً ولا حديثاً ، فدلَّ على بطلان هذا العمل ، وبطلان التعلق بغير الله ،
=

قال مقاتل : فسألهم النبي ﷺ فسكتوا[١] ؛ لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها .

قلت : فإذا كانت آلهتهم التي يدعون من دون الله لا قدرة لها على كشف ضر أراده الله بعبده ، أو إمساك رحمة أنزلها على عبده ، فيلزمهم بذلك أن يكون الله تعالى هو معبودهم وحده لزوماً لا محيد لهم عنه ، وذكر تعالى مثل هذا السؤال عن خليله إبراهيم لمن حاجَّه في الله فقال : ﴿ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢] [سورة البقرة : ٢٥٨] .

وأنه شرك بالله ﷻ ؛ ولهذا قال في ختام الآية : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ : أي الله كافيني عن هذه الأشياء ، فلا حاجة لي بغير الله ﷻ ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ : فالمرء يعتمد على الله ، ولا يعتمد على غيره من الخيوط ، والحلقات ، والخرز ، والودع ، والحجب والحروز ، والتمائم ، وغير ذلك ، يعتمد على الله ، ويتوكل عليه ؛ لأنه سبحانه هو النافع الضار ، وهو الحسب والكافي ، الذي يتعلق به العباد .

(١) سأل المشركين لما أمره الله أن يسألهم سألهم ﷺ فسكتوا ، ولم يجيبوا ؛ لأنهم ليس عندهم جواب ، فدل على بطلان هذا العمل .

(٢) هذا النمرود الملك الجبار لما قال له إبراهيم ﷺ: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ قال الجبار: ﴿ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ ما معنى ﴿ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ يقول : يعفو عن رجل كان مستحقاً للقتل فيكون قد أحياه ويأتي بآخر ويقتله فيكون قد أماته ، هذا من باب المكابرة ، فإبراهيم أعرض عن هذا ولم يرد عليه ، لكن جاء له بشيء لا يستطيع التحيل فيه قال له : إذا كنت تحيي وتميت كما تزعم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ بُهت الذي كفر واختزى أمام الناس ، مع أنه ملك جبار ، فلم يستطع الجواب ، كذلك المشركين ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ بُهتوا ولم يستطيعوا الجواب .

فأقام الله تعالى الحجة على المشركين بما يبطل شركهم بالله ، وتسويتهم غيره به في العبادة بضرب الأمثال وغير ذلك[(١)] وهذا في القرآن كثير ؛ كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[(٢)] [سورة الحج : ٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ[(٣)] وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾

---

(١) القرآن كله براهين وأدلة على التوحيد ، والرد على الشرك والمشركين ، لكن يحتاج إلى تدبر وتأمل .

(٢) الله تحدى آلهتهم كلها وتحداهم أن يخلقوا ذباباً أضعف المخلوقات ، فلم يستطيعوا ، فدلَّ على بطلان آلهتهم ؛ لأنها عاجزة ، وهذا المثل الذي ضربه الله باق ومستمر إلى يوم القيامة لجميع الناس ، يتحداهم الله تعالى أن يخلقوا هذا الذباب الضعيف ، ولم يستطع أحد أن يخلق وأن ينفخ الروح في هذه الأشياء ؛ لأن هذا من خصائص الله ﷻ . الناس يصورون صوراً وينحتون تماثيل ، فإذا رأيتها تظنها إنسان . متكاملة في ملامحها وفي صفاتها ، لكن ليس فيها روح ، لا يستطيعون أن ينفخوا فيها الروح ولا يستطيعون أن يجعلوا فيها دم ولحم وعروق وبصر وسمع ، إنما الصورة فقط ، هذا تعجيز لهم .

(٣) بيت العنكبوت لا يقي من الحر ولا من البرد ، ولا يظلل من الشمس فوجوده كعدمه ، كذلك آلهة المشركين لا تنفع ولا تضر ، فوجودها كعدمها سواء ، مثل بيت العنكبوت . أيضاً بيت العنكبوت ضعيف ، جداً ، أي شيء يمسه لا يستطيع البقاء والمدافعة ، كذلك هذه الآلهة ضعيفة جداً .

[سورة العنكبوت : ٤١-٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ . أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾[١] [سورة النحل : ٢٠ - ٢١] .

ذكر العماد ابن كثير رحمه الله في هذه الآية ، ما رواه ابن أبي حاتم عن قيس بن الحجاج ، عن حنش الصنعاني ، عن ابن عباس مرفوعاً : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك[٢] ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك جفت الصحف ورفعت الأقلام[٣] ، واعمل لله بالشكر في اليقين ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً »[٤] .

---

(١) ﴿ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ : وهذه صفة يشترك فيها كل المخلوقات مهما أوتيت من القوة والقدرة الآن الذين يخترعون الصناعات والطائرات ، والمراكب ، والقاذفات ، والصناعات الدقيقة لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً ، ولا ذرة ، ولا نملة ، فدل ذلك على عجزهم وضعفهم .

(٢) هذا محل الشاهد من الحديث : « اعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك » .

(٣) صحف القضاء والقدر وأقلام القضاء والقدر كل شيء مفروغ منه مقدر ، لا يُغَيَّر ولا يُبَدَّل .

(٤) نصائح عظيمة من الرسول ﷺ لكل مسلم .

قوله : « عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقةٌ[١] من صُفر ، فقال : ما هذه ؟ فقال : من الواهنة ، فقال : انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً ، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً »[٢] . رواه أحمد بسند لا

---

(١) « في يده » : خبر مقدم و« حلقة » مبتدأ مؤخر .

(٢) هذا حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وعن أبيه : « أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صُفْر » ولم يسمِ هذا الرجل ، لكن جاء في رواية أخرى أن هذا الرجل هو عمران نفسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « رأى رجلاً في يده حلقة » : الحلقة : ما أحاط بالشيء « من صفر » : أي من مادة الصفر وهو نوع من الحديد معروف ، « فقال : ما هذه ؟ » : سأله النبي ﷺ سؤال استنكار ما هذه الحلقة ؟ لأي غرض اتخذتها ؟ قال : « من الواهنة » : نوع من المرض أي أنها تقيني من مرض الواهنة على ما كانوا يفعلونه في الجاهلية . هذا اعتقادهم أن من لبسها لا يصيبه هذا المرض . فالرجل بيَّن الغرض من لبس هذه الحلقة ، فقال النبي ﷺ : « انزعها » : انزعها من جسمك ، وانزعها من اعتقادك ، انزعها نزعاً حسياً ، ونزعاً معنوياً ، فلا تعتقد فيها ، والتعليل : « إنها لا تزيدك إلا وهناً » : يعني ضعفاً في الجسم ، وضعفاً في العقيدة ، وتبقى دائماً في وهن ، وفي ضعف ، فتتوقع كل مكروه ؛ لأنك لم تعتمد على الله ﷻ ، ولم تتوكل عليه . فالذي يبتلى بهذه الأشياء تجده دائماً خائفاً وجلاً في كل شيء ، يتوقع الشر من كل شيء . . هذا معنى قوله ﷺ : « لا تزيدك إلا وهناً » الذي يتعلق على غير الله يكون دائماً في قلق ، وفي ضعف ، وفي خوف ، وأما الذي يتوكل على الله فإنه يكون قوياً ثابتاً شجاعاً يعتقد ويؤمن بأنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له ، ويكون قوياً ثابتاً شجاعاً مرتاح النفس والعقيدة ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ﴾ [سورة التوبة : ٥١] العبد يتوكل على الله ﷻ ، وهذه ليست من الأسباب العلاجية أو الطبية ، حتى يقال : إنها من باب العلاج ، ما جعل الله تعالى لبس الحلقة أو عقد الخيط على الذراع أو الساق أو الإصبع أو على العنق سبباً لشيء ، ولا جعله دواء ، وإنما هذه من =

بأس به . قوله : « عمران بن حصين » أي : ابن عبيد بن خلف الخزاعي أبو نُجيد - بنون وجيم مصغر - صحابي ابن صحابي ، أسلم عام فتح خيبر ، ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة .

تزيين الشياطين لإغواء بني آدم(*) ، وقوله : « انزعها » : فيه أمر بإزالة المنكر ، وبيان السبب « فإنها لا تزيدك إلا وهناً » : هذا في الدنيا وأشد من ذلك في الآخرة « فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً » ؛ لأن المشرك لا يفلح أبداً في الآخرة - والعياذ بالله - . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [سورة المائدة : ٧٢] فهذه المعتقدات لهذه المعلَّقات لا تنفع في الدنيا وإنما تضر ، عكس ما يعتقده الناس فيها ، وفي الآخرة تكون عذاباً عليهم ، فدل على أن من مات على الشرك فإنه لا يفلح أبداً ، كما في الحديث : « من لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار » ، فالذي يُعلِّق هذه الأشياء يعتقد فيها أنه تنفع أو تضر هذا حكمه ، فإن كان تعليقه لها يعتقد أنها تدفع الضرر وتجلب النفع بنفسها فهذا شرك أكبر ، وإن كان يعتقد أن النافع الضار هو الله ، ولكن جعل هذه المعلَّقات من باب الأسباب فهذا شرك أصغر ، لأن الله لم يجعل هذه أسباباً للعلاج ، إنما الأسباب النافعة معروفة : الرقية بالقرآن ، والأدوية المباحة « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء »(**) الأدوية المباحة ، ولم يجعل الله لبس الحلقة والخيط سبباً ، فمن جعله سبباً للشفاء فإن هذا عمل باطل وشرك أصغر ، فهي شرك على كل حال ، إما شرك أكبر ، وإما شرك أصغر .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - عن حكم لبس الحلقة للروماتيزم ، فأجاب : هذا إذا ثبت أن فيها علاج للروماتيزم ، ولكن يقولون : أن هذا ليس صحيحاً ، وقد صدر فيه قرار من هيئة كبار العلماء بالمنع ، والأطباء أنكروا أن لها خاصية ، وإنما هذا عمل المشعوذين . أ. هـ

وسئل أيضاً عن حكم ليس دبلة الخطوبة ؛ حيث إنه قد يكون فيها اعتقاد ، فأجاب : هو من هذا الباب ، إذا كانوا يعتقدون أنها تحبب الزوجين بعضهما البعض ، هذا من اعتقاد الجاهلية ، ومن الشرك ، وإلا فهي من العوائد المنقوصة ؛ لأنه ليس من عادة الرجال أنهم يلبسون الدبلة لا في أيام الخطوبة ، ولا في غيرها ، هي عوائد مذمومة ، وإن كان فيها اعتقاد فهي من الشرك . أ. هـ

(**) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢١٥١ (٥٣٥٤) .

قوله : « رأى رجلاً » ، وفي رواية الحاكم : « دخلت على رسول الله ﷺ ، وفي عضدي حلقة صفر ، فقال : ما هذه ؟ ... » الحديث . فالمبهم في رواية أحمد هو عمران راوي الحديث . قوله : « ما هذه » ؟ الظاهر أنه الإنكار عليه(١) .

قوله : « من الواهنة » ، قال أبو السعادات(٢) : « الواهنة : عرق يأخذ في المنكب ، وفي اليد كلها فيرقى منها ، وقيل : هو مرض يأخذ في العضد(٣) ، وهي تأخذ الرجال دون النساء » وإنما نهاه عنها لكونه يظن أنها تمنع عنه هذا الداء أو ترفعه ، فأمره النبي ﷺ بنزعها لذلك ، وأخبر أنها لا تزيده إلا وهناً ، فإن المشرك يعامل بنقيض قصده ؛ لأنه علّق قلبه بما لا ينفعه ولا يدفع عنه ، فإذا كان هذا بحلقه صفر فما الظن بما هو أطم وعظم ؟! كما وقع من عُبَّاد القبور والمشاهد والطواغيت وغيرها(٤) ، كما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل(٥) .

(١) أي سؤال استنكار ، ويحتمل أنه سؤال استفهام ، يعني ما قصدك بهذا الشيء ؟ هل قصدك اعتقاد أو غير اعتقاد ؟

(٢) أبو السعادات : هو ابن الأثير صاحب غريب الحديث(*) .

(٣) المهم أنه نوع من المرض .

(٤) إذا كان هذا في حلقه صفر ، الرسول ﷺ أنكر هذا الإنكار ، وقال : « انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً ، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً » فكيف بالذي هو أعظم من ذلك وهو عبادة القبور والأضرحة والأصنام والطواغيت ؟! هذه أشد من الحلقة .

(٥) يعني يقصد الشارح ﷺ ما وقع في آخر هذه الأمة من عبادة الأضرحة والقبور فالرسول ﷺ أنكر الحلقة مع أن هذا الرجل يعبد الله ، وصحابي جليل وأنكر عليه هذا الإنكار ،

(*) المسمى : « النهاية في غريب الحديث والأثر » / لأبي السعادات ، المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري ، المعروف بابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) .

=

قال المصنِّف ﷺ : (فيه شاهد لكلام بعض الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر[1] ، وأنه لم يعذر بالجهالة) .

لقوله : « فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً »[2] والفلاح هو الفوز والظفر والسعادة .

قوله : « رواه أحمد بسند لا بأس به » ، وهو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ابن هلال بن أسد الشيباني ، أبو عبد الله المروزي[3] ، ثم البغدادي ، إمام أهل عصره ، وأعلمهم بالفقه والحديث ، وأشدّهم ورعاً ، وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنة : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه ، أتته

فكيف بالذين بنوا المشاهد على القبور وذبحوا لها ، ونذروا لها ، وطافوا بها وتبركوا بها ؟! هذا أشد ، ألا ينكر على هذا أشد مما أنكر الرسول ﷺ ؟!

(١) المصنف ﷺ قال هذا في مسائل الباب : أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر ؛ لأنه لو مات ما أفلح أبداً ، مع أنه قد يكون شركاً أصغر ، فكيف بالشرك الأكبر والعياذ بالله ؟!

(٢) الشرك لا يعذر فيه بالجهالة ، وإن من مات على الشرك لم يفلح أبداً ؛ لأن الجهالة زالت بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، والذي يبقى على جهله هذا من تفريطه هو ، وعدم سعيه في النجاة بنفسه ؛ لأن الله أقام الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب ولم يبق للخلق حجة حتى يقولوا ما بلغنا شيء . كثير من المتعالين الآن يلتمسون الأعذار لهؤلاء المشركين وعباد القبور يقولون : اعذروهم بالجهل . إلى متى الجهل ؟! هذا قبل بعثة النبي ﷺ ، أما بعد البعثة فقد زال الجهل والحمد لله ، ولم يبق إلا أن الإنسان يسعى لطلب العلم والسؤال والبحث ، لا يبقى على ما هو عليه بدون سؤال ؛ بل أنهم يسمعون القرآن ويسمعون الأحاديث ، ويسمعون كلام أهل العلم في الدعوة إلى التوحيد ويرفضون هذا ، ويبقون على عوائدهم وعوائد آبائهم هؤلاء جُهَّال ؟!

(٣) المروزي يعني أنه مولود في مرو في المشرق ؛ لأن النسبة إلى مرو يقال : مروزي ، يزيدون الزاي .

الدنيا فأباها، والشبه فنفاها.

روى عن: الشافعي ويزيد بن هارون[١]، وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى القطان، وابن عيينة، وعبد الرزاق، وخلق لا يحصون.

مات سنة إحدى وأربعين ومئتين، وله سبعة وسبعون سنة ﷺ.

قوله: وله عن عقبه بن عامر مرفوعاً: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»[٢] وفي رواية: «من تعلق تميمة

---

(١) من أكبر شيوخه الإمام الشافعي ﷺ.

(٢) ولعقبة بن عامر مرفوعاً، أي: إلى النبي ﷺ، وليس هو من كلام الصحابي: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له» أي: من تعلّق قلبه بتميمة، وعلّقها على جسمه، والتميمة: هي ما يعلق من الخروز والحجب المكتوب عليها كتابات يظنون أنها تدفع العين، أو تشفي من المرض، فهي مثل تعليق الحلقة والخيط إلا أن التميمة تكون مكتوباً فيها، وأما الحلقة والخيط فهي ليس فيها كتابة، وسيأتي في الباب الذي بعده مزيد تفسير لها وبيان حكمها على التفصيل، وقوله: «فلا أتم الله له»: هذا دعاء من النبي ﷺ، أي: لا يتم الله له أموره، ولا يتم له ما أراد، دعاء من النبي ﷺ بأن يعامله الله تعالى بنقيض قصده، فالذي يعلق الحجب والتمائم، والخُروز يريد بها أنها تشفيه من المرض، أو تدفع عنه العين، فالله يعامله بنقيض قصده، فيصاب بالأمراض ويصاب بالعين، ويصاب بالخوف، حتى لو ما أصابه أمراض أو ما أصابه عين في جسمه يصاب بالألم في قلبه وبالخوف والرعب والانزعاج من كل شيء، وهذا شيء مشاهد أن الذين يلتفتون إلى غير الله فإن الله ﷻ يلقي في قلوبهم الرعب والهلع والجزع والخوف من كل شيء والقلق في حياته، بخلاف الذي يتوكل على الله ويعتمد عليه فإنه يكون مطمئن القلب، مرتاح البال، قوي العزيمة، شجاعاً لا يهاب، لأنه يعلم أنه لا يصيبه شيء إلا بقضاء الله وقدره فيكون تعلّقه بالله ﷻ وقوله: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له»: يدل على تحريم تعليق التمائم مطلقاً من غير استثناء، ويأتي في الباب الذي بعده التفصيل والحكم على أنواع التمائم، «ومن تعلق ودعة» الودع: الخرز الذي ينظمونه ويعلقونه على الصبيان أو على أنفسهم يتقون به =

فقد أشرك »[1] .

عقبة بن عامر صحابي مشهور ، فقيه فاضل ، ولي إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين ، ومات قريباً من الستين ، وفي هذا الحديث التصريح أن تعليق التمائم شرك ؛ لما يقصده من علَّقها لدفع ما يضره أو جلب ما ينفعه ، وهذا أيضاً ينافي كمال الإخلاص الذي هو معنى (لا إلـٰه إلا الله) ؛ لأن المخلص لا يلتفت قلبه لطلب نفع أو دفع ضر من سوى الله ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[2] [سورة

العين والضرر . « فلا ودع الله له » : لا ودع : أي لا تركه في دعة وراحة بال ؛ بل يُسلَّط عليه الهموم والوساوس والانزعاج من كل شيء ، والخوف من كل شيء ؛ لأنه فتح على نفسه باب الخوف من المخلوقات ، فيخاف من كل شيء ، فهذا أيضاً دعاء من الرسول ﷺ أنه من تعلق الودع واعتقد فيها أنه لا يتركه الله في دعة وعيش هنيء وراحة . والدعة : ضد القلق والانزعاج .

(١) هذه أشد . الرواية الأولى : فيها الدعاء « فلا أتم الله له » ، وفي هذه الرواية : الخبر ، أن من تعلق تميمة فقد أشرك ، فمن تعلق التميمة على جسمه ، أو على ولده ، أو على دابته ، أو على سيارته ، أو على بيته ، أو على متجره ، ومن تعلق هذه الحجب وهذه الحُروز ، وهذه التمائم على نفسه ، أو على أولاده ، أو على ممتلكاته ، فقد أشرك ؛ لأنه تعلق بغير الله ﷻ ، ومن تعلق بغير الله فقد أشرك . وهذا محل الشاهد ، لأنه قال في الباب الذي قبل هذا : وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب . وهذا الباب من شرح (لا إلـٰه إلا الله) ، لأن معناها : ترك الشرك ، ومن الشرك : تعلق الحلقة والخيط ، فكيف بغيرها مما هو أشد منها ؟!

(٢) ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ : يعني الإخلاص لله ولم يلتفت إلى غير الله في طلب نفع أو دفع ضر ، وإنما يعتمد على الله ﷻ ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي : متبع لسنة الرسول ﷺ فليس مبتدعاً ولا محرِّفاً ، وإنما يتبع ما جاء به الرسول ﷺ وهذان الشرطان هما أساس قبول العمل عند الله سبحانه : الإخلاص والمتابعة . الإخلاص : هو معنى (شهادة أن لا إلـٰه إلا الله) والمتابعة : هو معنى (شهادة أن محمداً رسول الله) .

النساء : ١٢٥] ، فكمال التوحيد لا يحصل إلا بترك ذلك ، وإن كان من الشرك الأصغر فهو عظيم[(١)] ، فإذا كان هذا قد خفي على بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في عهد النبوة ، فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والإيمان[(٢)] بمراتب ، بعد ما حدث من البدع والشرك ؟! كما في الأحاديث الصحيحة ، وتقدمت الإشارة إلى ذلك[(٣)] .

وهذا مما يبيِّن معنى (لا إلـه إلا الله) أيضاً ، فإنها نفت كل الشرك قليله وكثيره ، كما قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٤)] [سورة آل عمران : ١٨] .

---

(١) فلا يتهاون به لأنه شرك أصغر . الشرك الأصغر لا يغفره الله لابد أن يُعذَّب صاحبه ؛ لأنه داخل في عموم قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ ، لكنه لا يخلد في النار ، كما يُخلَّد صاحب الشرك الأكبر .

(٢) إذا كانت هذه الأمور ، وهي حكم تعليق التمائم والخيوط والودع خفيت على الصحابة ، فلذلك بيّن الرسول ﷺ لهم حكمها ، فكيف لا تخفى على من بعدهم ؟! يقولون : لا تشغلون الناس بتعليم التوحيد والنهي عن الشرك . الناس الآن ما هم بحاجة إلى هذا الأمر ؛ لأنهم يفهمون هذه الأشياء : هل هم أفهم من الصحابة ، الذين خفي عليهم بعض هذه الأمور ، وبيَّن الرسول ﷺ لهم ذلك ؟!

(٣) هذه لفتة طيبة من الشيخ رحمه الله ، الذين يقولون : الآن الناس تجاوزوا مرحلة السذاجة وتعلموا وتثقفوا ، ولا خوف عليهم من الشرك هذا من الغرور - والعياذ بالله - هل هم أفضل من الصحابة وقد خفي على بعضهم هذه الأشياء حتى بينها لهم الرسول ﷺ ؟! فالمسلم بحاجة إلى تعلم التوحيد دائماً ؛ لأنه تخفى عليه أمور ، لاسيما والعادات والتقاليد ودعاة الضلال يُلَبِّسون على الناس ، فالمسلم بحاجة إلى من يبيِّن له تفاصيل التوحيد ، وتفاصيل الشرك والابتعاد عنها .

(٤) والشيخ في الباب الماضي يقول : وتفسير هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب ، فهذا تفسير

=

قوله : « فلا أتم الله له » : دعاء عليه . وكذلك قوله : « فلا ودع الله له » : أي لا جعله في دعة وسكون .

قوله : « ولابن أبي حاتم عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٦] »(١) .

بشأن (لا إلـه إلا الله) أن معناها نفي الشرك بجميع أنواعه حتى لبس الحلقة والخيط والودعة والتميمة وغير ذلك ، هذا لا يتناسب مع (لا إلـه إلا الله) .

(١) هذا حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صحابي جليل ، صاحب سرِّ رسول الله ﷺ : « أنه رأى رجلاً قد تعلق تميمة » يعني علَّقها على جسمه « فقطعها حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ » ، فهذا فيه إنكار المنكر باليد لمن يقدر على ذلك ، أما من لا يقدر على إنكار المنكر باليد فإنه ينكره بلسانه ؛ بأن يبين وينصح ويحذر ، ويعظ الناس ، ويذكرهم ، ويبين لهم ، فإن لم يستطع بلسانه فبقلبه بأن يكره ويتابذ ويبتعد عن أهل الشر ، ويبغض عملهم ويبغضهم ، ولا يجتمع معهم إلا مناصحاً ومحذراً . هذه مسألة ، المسألة الثانية : في الحديث الاستدلال بأن هذا شرك بالآية الكريمة ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ فجعل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تعلق التمائم من الشرك ، مثل ما دلَّ عليه الحديث السابق : « من تعلق تميمة فقد أشرك » ، فالآية تدل على هذا الشرك قد يكون أكبر إذا اعتقد أنها تنفع أو تضر بنفسها ، أو يكون أصغر إذا اعتقد أن الضار والنافع هو الله وهي سبب ؛ لأنه جعل ما ليس سبباً جعله سبباً فيكون من الشرك الأصغر ، وفيه ما قال العلماء : أن الصحابة قد يستدلون في الآية النازلة في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر ؛ لأنه كله شرك . مثل ما استدل عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ : قال : هو قول الرجل : لولا الله وأنت ، لولا كذا وكذا ، واستدل بالآية على الشرك الأصغر ؛ لأن الشرك الأصغر داخل في مدلول الآية في قوله : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ الشرك الأصغر من اتخاذ الند لله ﷻ وإن كان أصغر . وقد أشكلت هذه الآية على بعض العلماء : هل يجتمع الإيمان =

ابن أبي حاتم : هو الإمام أبو محمد ، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس المرادي التميمي الحنظلي ، الحافظ صاحب الجرح والتعديل والتفسير وغيرهما ، مات سنة سبع وعشرين وثلاث مئة . وحذيفة : هو ابن اليمان واسم اليمان : حُسَيل - بمهملتين مصغر - ويقال : حِسْل - بكسر ثم سكون - العبسي - بالموحدة - حليف الأنصار[١] ، صحابي جليل من السابقين ، ويقال له : صاحب السِّر[٢] ، وأبوه أيضاً صحابي ، مات حذيفة في أول خلافة عليّ سنة ست وثلاثين . قوله : « رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه[٣] ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٦] فيه دليل على أن هذا شرك[٤] ، وأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يستدلون بالآيات

والشرك ؟ ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ وممن أشكلت عليه شيخنا : الشيخ الشنقيطي رحمه الله في « تفسيره »(*) ، والآية لا إشكال فيها في الحقيقة ؛ لأنها نازلة في عبّاد الأصنام ، الذين يعبدون الله ويعبدون معه غيره ، فهم يؤمنون بتوحيد الربوبية ويشركون بتوحيد الألوهية ، وعلى هذا جميع المشركين من العرب عندهم إيمان بالله ، لكنه مخلوط بالشرك ، فالآية ليس فيها إشكال ، والحمد لله .

(١) يعني هو نسبه من بني عبس ، ولكن كان حليفاً للأنصار والحلف معروف في الجاهلية : يأتي الرجل فينزل مع القبيلة ، ويحالفها ، فيكون كأنه منها ، فهو منها في الحِلْف ؛ لكنه ليس منها في النسب .

(٢) أي : سرّ الرسول ﷺ ؛ لأن الرسول ﷺ كان يفضي إليه بسرّه ، هذا من فضائله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه صاحب سر رسول الله ﷺ لأمانته العظيمة ، وأنه لا يبوح بسر الرسول ﷺ .

(٣) الحمى : هي الحرارة التي تسري في الجسم ، فهي نوع من المرض .

(٤) دليل على أن تعلق الخيط شرك ؛ لأن حذيفة استدل بالآية على منع ذلك وقطعه .

(*) انظر : « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » ٢ / ٢١٩ .

التي نزلت في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر[١] ، لدخوله في الشرك المنهي عنه في الآيات والأحاديث عموماً وخصوصاً ، لما قد عرفت أنه ينافي كمال الإخلاص[٢] إذا كان مثل هذا ، وقد خافه ﷺ على أصحابه ، كما تقدم في قوله : « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » . فإذا كان يقع مثل هذا في تلك القرون المفضَّلة ، فكيف يؤمن أن يقع ما هو أعظم منه ؟! لكن لغلبة الجهل به وقع منهم أعظم مما وقع من مشركي العرب وغيرهم في الجاهلية[٣] ، مما قد تقدَّم التنبيه عليه[٤] ، حتى إن كثيراً من العلماء في هذه القرون اشتد

(١) لأن الشرك الأصغر يشمله لفظ الشرك ، فنحن منهيون عن الشرك الأصغر ، والأكبر . و(لا إلـٰه إلا الله) تنفي الشرك الأكبر ، والأصغر ، لكن الشرك الأكبر يناقض لا إلـٰه إلا الله ، والشرك الأصغر ينقصها .

(٢) الشرك الأصغر ينافي كمال التوحيد ، أما الشرك الأكبر فإنه ينافي التوحيد بالكلية .

(٣) لما أهملوا تعلم التوحيد وتعلم الشرك ، ومعرفة المراد من التوحيد والمراد من الشرك ، والتفتوا إلى تعلم علم الكلام وقواعد المنطق ، وبنوا عقائدهم على ذلك ، وانشغلوا بإثبات وجود الله ، وهذا الذي يدندنون حوله ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة إبراهيم : ١٠] أيحتاج إلى أدلة على إثبات وجود الله ؟! كل عقائدهم مبنية على هذا وهذا تحصيل حاصل ؛ لأنه موجود في الفطر والعقول ، وشواهد الكون والمخلوقات كلها تدل على الخالق ﷻ ، ولم يعيروا اهتماماً بتوحيد الألوهية أبداً ، ولا يأتي لهم على ذكر ولا على بال ، فهذا هو الجهل العظيم من العلماء يظنون أنهم علماء وهم يجهلون توحيد الألوهية الذي بعثت به الرسل ، وأنزلت به الكتب ، فإذا كان العلماء يجهلون فكيف بغيرهم ممن هو دونهم كيف لا يجهلون ؟! فلابد من نشر التوحيد وتعليمه ، وتعلمه والدعوة إليه دائماً وأبداً . العجيب أن دعاة التوحيد خاملون وساكتون ، ودعاة الشرك جادون الليل والنهار ، وينفقون الأموال ولا ييأسون ولا يتعبون .

(٤) لاشك أن الناس إذا أهملوا الكلام في الشرك وتفاصيله فإنهم يقعون فيه ؛ لأنك إذا ما عرفت الخطر وما عرفت مكان الهلاك فحريٌّ أن تقع فيه ، لاسيما والدعاة إليه نشطون .

=

نكيرهم على من أنكر الشرك الأكبر[(١)] ، فصاروا هم والصحابة رضي الله عنهم في طرفي نقيض[(٢)] .

فالصحابة ينكرون القليل من الشرك ، وهؤلاء ينكرون على من أنكر الشرك الأكبر ، ويجعلون النهي عن هذا الشرك بدعة وضلالة !! وكذلك كانت حال الأمم مع الأنبياء والرسل جميعهم ، فيما بُعثوا به من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده[(٣)] ، والنهي عن الشرك به . وقد بعث الله

والشرك موجود يشجع من قبل الكفار . الكفار الآن يدعمون دعاة الشرك دعماً هائلاً ، ويدعمون الفرق الضالة ودعاة البدع ويثبتونهم في المناصب ، كل هذا من أجل اجتثاث الإسلام من أصله ، لأنه إذا ذهب التوحيد ما بقي الإسلام لو يُصلي الليل والنهار ويَصوم ويَحج ويَعتمر ويبذل الأموال وهو على غير توحيد ما أفاد شيئاً . هذا من مكائد الكفار بنا الآن الذي يدعو إلى التوحيد يسمونه إرهابياً أو متطرفاً أو أصولياً ، أو خارجياً . إلى غير ذلك من الألقاب للتنفير من دعاة التوحيد ، ودعاة العقيدة .

(١) هذا كلام الشيخ رحمه الله - وهو في القرن الثالث عشر - في وقته اشتد نكير من يُسمَّون بالعلماء على دعاة التوحيد ، يسمونهم بالخوارج ويضللون دعاة التوحيد ، هذا موجود في كتبهم الآن .

(٢) الصحابة ينكرون الشرك الأصغر وهؤلاء يدعون إلى الشرك الأكبر فصاروا في طرفي نقيض مع صحابة رسول الله ﷺ . هذا حذيفة بن اليمان قطع الخيط وقال : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [سورة يوسف: ١٠٦] ، مع أن تعليق الخيط من الشرك الأصغر ، وهؤلاء يدعون إلى الشرك الأكبر صراحة باسم محبة الأولياء والصالحين ، والإيمان بكراماتهم وأنهم يكونون وسائط بينهم وبين الله فيسمون الشرك بغير اسمه .

(٣) يعني ليس هذا بغريب ؛ لأنه اتخذ مع الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [سورة هود: ٦٢] ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [سورة ص: ٥] : يعني التوحيد شيء عجاب ، والشرك شيء مألوف ، هذا من انتكاس الفطر ، ففِعل هؤلاء المتأخرين عود على بدء ، ليس بغريب قالوا مثل سلفهم من أعداء الرسل .

تعالى خاتم رسله محمداً ﷺ بذلك ، كما بعث به من قبله ، فعكس هؤلاء المتأخرون ما دعا إليه رسول الله ﷺ مشركي العرب وغيرهم ، فنصر هؤلاء ما نهى عنه من الشرك غاية النصرة ، وأنكروا التوحيد الذي بُعث به غاية الإنكار ، فإنه ﷺ لما قال لقريش : « قولوا لا إلـه إلا الله تفلحوا » عرفوا معناها الذي وضعت له ، وأريد منها ، فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [سورة ص : ٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾(١) [سورة الصافات : ٣٥ - ٣٦] ، وفي صحيح البخاري وغيره في سؤال هرقل لأبي سفيان عن النبي ﷺ قال له : فماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : « اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة »(٢) .

---

(١) ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ هم يعرفون معنى (لا إلـه إلا الله) بأنه ترك عبادة ما سوى الله وهؤلاء المتأخرون ممن يدَّعون الإسلام لا يأنفون من قول (لا إلـه إلا الله) وعبادة غير الله يجمعون بين النقيضين .

(٢) هذا جواب أبي سفيان وهو كافر في ذاك الوقت لما سأله هرقل ما استطاع أن يكذب لأنهم يخافون من الكذب وهم مشركون ، يأنفون من الكذب ، فبين له حقيقة دعوة الرسول ﷺ فقال هرقل : هكذا دعوة الأنبياء ، مع أنهم كلهم كفار ، إلا أنهم اعترفوا أن هذه دعوة الأنبياء .

٨ - باب ما جاء في الرقى والتمائم

في « الصحيح » عن أبي بشير الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً : « أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قُطعت » .

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرُّقى والتمائم والتولة شركٌ » . رواه أحمد ، وأبو داود .

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً : « من تعلَّق شيئاً ؛ وُكِلَ إليه » . رواه أحمد ، والتِّرْمذي .

التَّمائمُ : شيءٌ يُعَلَّقُ على الأولاد يتَّقُون به العين ، لكن إذا كان الـمُعلَّقُ من « القرآنِ » ؛ فرخَّص فيه بعض السَّلف ، وبعضهم لم يُرخِّص فيه ، ويجعلُهُ من الـمَنْهِيِّ عنه ، منهم ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

والرُّقى : هي التي تُسَمَّى العزائم ، وخصَّ منها الدَّليل ما خلا من الشِّرْكِ ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فيه رسولُ الله ﷺ مِنَ العَيْنِ والحُمَةِ .

والتِّوَلَةُ : هي شيءٌ يَصنعونَهُ يَزْعُمُونَ أنَّه يُحَبِّبُ المرأةَ إلى زوجها والرَّجُلَ إلى امرأَتِهِ .

وَرَوَى أحمدُ عن رُويفع ؛ قال : قال لي رسولُ الله ﷺ : « يَا رُوَيْفعُ ! لَعَلَّ الحياةَ تطُولُ بِكَ ، فأخبِرِ النَّاسَ أنَّ من عقدَ لحيته ، أَو تقلَّدَ وتراً ، أو استنجى بِرَجِيعِ دابَّةٍ أو عظم ؛ فإن محمداً بريء منهُ » .

وعن سعيد بن جبير ؛ قال : « من قطَعَ تميمةً من إنسانٍ ؛ كان كعدل رقبةٍ » . رواه وكيعٌ .

وَلَهُ : عَنْ إبراهيمَ ، قَالَ : « كانُوا يكرهُونَ التَّمائِمَ كُلَّهَا مِنَ القُرْآنِ وغَيْرِ القُرْآنِ » .

٨- باب ما جاء في الرُّقى والتَّمائم

قوله : (باب ما جاء في الرقى والتمائم)[١] أي : من النهي عن ما لا يجوز من ذلك[٢] .

قوله : « في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً : أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر ، أو قلادة إلا قطعت »[٣] . هذا الحديث في الصحيحين . واسم أبي بشير : قيس

---

(١) فقد جاء في الباب السابق شيء من الأدلة على تحريم استعمال التمائم ، وأما الرقى ففيها التفصيل الذي سيكون ، ولذلك لم يجزم ﷺ بأدلة التحريم ﷺ ، لما في ذلك من التفصيل ، قال : « ما جاء في الرقى » ، ولم يقل في تحريم الرقى ، وهذا من فقهه ﷺ ، فإنه إذا كانت المسألة فيها تفصيل ، أو أن النهي لا يدل على التحريم فإنه لا يأتي بالحكم ، وإنما يقول : باب ما جاء في كذا ، ويأتي إن شاء الله في أثناء الباب تفسير الرقى وتفسير التمائم وتفسير التولة من كلام المصنف . وهذا الباب مكمل للباب الذي قبله ومشبه له ؛ لأن الباب الذي قبله (باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه) وهذا الباب مكمل له هو أيضاً فيما يُعلق من التمائم أو الرقى أو غير ذلك على الأبدان أو الدواب أو غير ذلك لدفع البلاء عن المعلق عليه لما في ذلك من الاعتماد على غير الله ﷻ ، وتعلق القلب بغير الله ، فهذا إما منقص للتوحيد إن كان من الشرك الأصغر ، وإما أنه منافٍ للتوحيد إذا كان من الشرك الأكبر .

(٢) أي من النهي عما لا يجوز من ذلك : هذا هو كلام التفصيل أي : منه ما يجوز ، ومنه ما لا يجوز ، كما يأتي .

(٣) هذا الحديث عن أبي بشير الأنصاري ، صحابي جليل ، قال : أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره فأرسل الرسول ﷺ رسولاً : أي مبلغاً عن الرسول ﷺ : « أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت » : لما كان من عادة الجاهلية أنهم يقلدون الإبل بالقلائد لدفع العين عنها ، فإن الرسول ﷺ أراد أن ينهى عن هذه العادة الجاهلية المنافية للتوحيد ؛ لأن المسلم يجب عليه أن يتوكل على الله ، وأن يعلق قلبه بالله ، وأن لا =

يستعمل من الأدوية إلا ما أباحه الشرع لا مانع من الأدوية واتخاذ الوقاية ، لكن في حدود ما أباحه الشرع « أن لا يبقين » (لا) : ناهية ، و(يبقين) : فعل مجزوم بلا الناهية ، لكن منع من ظهور الجزم اتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، وهذه النون مؤكدة للنهي ؛ ولذلك سميت نون التوكيد ، فاجتمع عندنا مؤكدان : (لا الناهية) و(نون التوكيد الثقيلة) « لا يبقين في رقبة بعير قلادة » : القلادة هي ما يحيط بالعنق سواء كان من الحيوان أو من الإنسان « من وتر » الوتر : هو وتر القوس ، وهو الشيء الذي يجعل في القوس لأجل الرمي ؛ لأن الآلة التي يرمون بها في ذاك الوقت هي القوس . والقوس : عبارة عن عصى لين ويثبت بشيء من طرفيه ، ثم يلف هذا الشيء وينحني هذا القوس ويكون في وسطه خرق فيمد الوتر حتى ينطلق النبل مع الخرق الذي في وسط القوس فيصيب الهدف وكان إذا اخلولق الوتر ، وأرادوا أن يبدلوه بجديد أخذوا القديم وقلدوه في البعير يزعمون أنه يقي من العين ، ولذلك قال : « لا يبقين قلادة من وتر » لأن هذه عادتهم وإلا ليس حصراً للقلادة في الوتر ، لكن هذا بناء على الغالب . قال : « أو قلادة » : هذا شك من الراوي ، هل قال النبي ﷺ : « قلادة من وتر » أو قال : « قلادة » مطلقة ، أو هو من باب التنويع ، فتكون (أو) بمعنى الواو : لا يبقين قلادة من وتر أو قلادة من أي نوع كان ، سواء كانت من الوتر أو غيره ، فيكون من باب التنويع فيدل على نوع القلادة مطلقاً إذا كان القصد منها دفع العين أو اعتقاد أنها تدفع الشر عن البعير فهذا اعتقاد جاهلي ؛ لأنه لا يدفع الشر إلا الله ﷻ . وهذه القلادة لا أثر لها سواء كانت من الوتر أو من غيره « إلا قطعت » : هذا فيه إزالة المنكر ؛ وفيه أن السلطان أو ولي الأمر يزيل المنكر بيده أو بأي وسيلة ، وإنكار المنكر على درجات : إما باليد لصاحب السلطة وإما باللسان لمن ليس له سلطة ، وإما بالقلب لمن لا يقدر على الثنتين ففي هذا إنكار للمنكر باليد لمن يقدر على ذلك ، ومنع وسائل الشرك ، أما إذا كانت القلادة ليس فيها اعتقاد لا مانع منها إذا قلد البعير من أجل أن يُعرف مثلاً خصوصاً قلائد الهدي ﴿ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ [سورة المائدة : ٢] ، القلائد : كانت من عادة الحجاج والمعتمرين الذين يهدون البدن لكي تذبح عبادة لله ﷻ في الحرم وكانوا يقلدونها : يعني يجعلون عليها قلائد حتى يَعرف من رآها أنها هدي فلا يتعرض لها ، فإذا كانت القلادة عن قصد صحيح وهدف مباح فلا بأس منها ، أما إذا كانت القلادة عن قصد شركي أو اعتقاد شركي ، فهذه التي تمنع .

ابن عبيد ، قاله ابن سعد . وقال ابن عبد البر : (لا يوقف له على اسم صحيح) ، وهو صحابي شهد الخندق ومات بعد الستين ، ويقال : إنه جاوز المئة . قوله : « فأرسل رسولاً » هو زيد بن حارثة[١] ، روى ذلك الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » قاله الحافظ .

قوله : « ألا يبقين » - بفتح الياء والقاف - ويحتمل أن يكون - بضم الياء المثناة وكسر القاف -[٢] .

والوتر - بفتحتين - واحد أوتار القوس . وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق[٣] الوتر أبدلوه بغيره ، وقلَّدوا به الدواب ؛ اعتقاداً منهم بهذا أنه يدفع عن الدابة العين[٤] ، ولهذا أمر النبي ﷺ بقطع الأوتار التي عُلِّقت على الإبل ، لما كان أهل الجاهلية يعتقدون ذلك فيها . قوله : « أو قلادة إلا قطعت » يحتمل أن ذلك شك من الراوي[٥] .

---

(١) الرسول ﷺ بعث زيد بن حارثة مولاه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليبلغ هذه للناس . فالسلطان قد يرسل الرسول يبلغ الناس ، وقد يعلق هذا في مجامع الناس بالكتابة التي تقرأ على الناس ، أو الرسائل التي يكتبها ، والآن في الإذاعات والصحف . كلها وسائل لتبليغ الأوامر ، ووسائل للدعوة إلى الله ﷻ ، وإبلاغ الناس الخير ، ونهيهم عن الشر .

(٢) « يَبقين » : مبني للمعلوم ، و« يُبقين » : مبني للمجهول ، والمعنى واحد ، ولكن إن كان مبنياً للمعلوم « لا يَبقين » ، فتكون القلادة : فاعل مرفوع . وإن كان مبنياً للمجهول . « لا يُبقين » ، فتكون القلادة : نائب فاعل .

(٣) اخلولق : يعني رثَّ من كثرة الاستعمال وبَلِي .

(٤) هذا هو الممنوع إذا كانت القلادة يعتقد بها أنها تدفع العين فهذا شرك وممنوع تقليدها من الدواب ومن غيرها .

(٥) يعني هل قال النبي ﷺ قلادة من وتر أو قال : « قلادة » وأطلق . والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم

=

ولأبي داود : « ولا قلادة » بغير شك فعلى هذه الرواية تكون (أو) بمعنى (الواو)[١] .

قال البغوي في « شرح السنة » : (تأوَّل مالك أمره ﷺ بقطع القلائد على أنه من أجل العين ؛ وذلك أنهم كانوا يشدُّون تلك الأوتار والتمائم والقلائد ، ويعلِّقون عليها العُوَد[٢] ، يظنون أنها تعصمهم من الآفات ، فنهاهم النبي ﷺ عنها[٣] ، وأعلمهم أن الأوتار لا ترد من أمر الله شيئاً) . قال أبو عبيد : (كانوا يقلدون الإبل الأوتار لئلا تصيبها العين ، فأمرهم النبي ﷺ بإزالتها ؛ إعلاماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً) . قوله : وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » رواه أحمد وأبو داود[٤] .

ولفظ أبي داود عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود ، أن عبد الله رأى في عنقي خيطاً ، فقال : ما هذا ؟ قلت : خيط رقي لي فيه ، قالت : فأخذه ثم

كانوا يتحفظون في الرواية إذا كان عند أحدهم شك فيها لم يجزم من ورعهم ، وصدقهم في نقل الأخبار .

(١) (أو) لها عدة معاني : منها أنها تأتي بمعنى الواو .

(٢) تأوَّل بمعنى فسَّر الإمام مالك رحمه الله هذا النهي بأنه من أجل أنهم يعتقدون أنه يمنع من العين .

(٣) مثل ما تقدم في (لبس الحلقة) .

(٤) عبد الله بن مسعود صحابي جليل رأى على امرأته شيئاً علقته فنهاها عن ذلك وروى هذا الحديث عند هذه الحادثة ، استدلالاً على ما فعل مع زوجته من منعها من اتخاذ هذه القلادة أو هذا الشيء الذي علقته تتقي به العين .

قطعه ، ثم قال : أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك[(١)] ! سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » . قال المصنف ﷫ : « لكن إذا كان المعلَّق من القرآن ، فرخَّص فيه بعض السلف[(٢)] ، وبعضهم لم يرخِّص

---

(١) الذي له سلطة من ولي الأمر أو نائب ولي الأمر ، أو صاحب البيت ، أو ولي المرأة فإنه يزيل المنكر بيده .

(٢) « **إن الرقى والتمائم والتولة شرك** » هذا الحديث يدل على تحريم تعليق الرقى مطلقاً سواء كانت من القرآن أو من غير القرآن . أما من غير القرآن فهذا محل إجماع ، لكن إذا كان المعلق من القرآن مكتوب فيه آيات من القرآن يعلق على الإنسان للاستشفاء به فهذا موضع خلاف بين العلماء على قولين : القول الأول : أنه ممنوع ، وممن قال بهذا : ابن مسعود راوي الحديث وتلاميذه من التابعين : كعبيدة السلماني وعلقمة والأسود وإبراهيم النخعي كلهم يرون تحريم تعليق الرقى مطلقاً سواء كانت من القرآن أو من غير القرآن لعموم هذا الحديث . والقول الثاني : وهو رواية عن أحمد وجماعة من العلماء أنه لا بأس إذا كان المعلق من القرآن ؛ لأن القرآن جعله الله شفاء ، وليس في تعليقه شيء لأنه كلام الله ﷻ وكان ابن عمر يكتب الآيات ويعلقها على أولاده فدل هذا على الجواز عند هؤلاء ، ولكن الصحيح القول الأول أنه لا يجوز تعليق الرقى سواء من القرآن أو من غير القرآن وهذا ما حكم به علماء هذه البلاد من عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷬ أنهم يمنعون من تعليق الحروز والحجب ، وذلك لأمور : **أولاً** : أن الحديث عام « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » ولا مخصص له **والأمر الثاني** : أن السماح بتعليق شيء من القرآن وسيلة إلى تعليق غيره ، والناس لو فُتح لهم الباب لا يقتصرون على المباح ، وعلى ما كان من القرآن ؛ بل يعلقون ما هبَّ ودبَّ ويقولون : هذا جائز . **الأمر الثالث** : أن تعليق شيء من القرآن وسيلة لامتهانه ؛ لأنه يعلق على الصبيان وعلى الحُيَّض وعلى من يدخل به الخلاء وغيرهم ففي هذا امتهان للقرآن ، ومن هذه الوجوه قالوا : إن الصحيح لا يجوز تعليق شيء لا من القرآن ولا من غير القرآن وإنما الرقية المباحة المتفق عليها هي أن يُقرأ على المريض مباشرة ، يقرأ وينفث عليه مباشرة هذه الرقية المشروعة ، أما الذي يُكتب ويُعلق ، فالصحيح أنه ممنوع .

وقوله : « رخص فيه بعض السلف » دل على أنه ليس محل إجماع .

فيه ، ويجعله من المنهي عنه ، منهم : ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١] .

والمقصود بيان أن هذه الأمور الشركية وإن خفيت ، فقد نهى عنها رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ لكمال علمهم بما دلت عليه (لا إلـٰه إلا الله) من نفي الشرك قليله وكثيره[٢] ؛ لتعلق القلب بغير الله في دفع ضرٍّ أو جلب نفع ، وقد عمت البلوى بما هو أعظم من ذلك بأضعاف مضاعفة[٣] ، فمن عرف هذه الأمور الشركية المذكورة في هذين البابين[٤] ، عرف ما وقع مما هو أعظم من ذلك كما تقدم بيانه[٥] .

وفيه ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من التحذير من الشرك والتغليظ في إنكاره ، وإن كان من الشرك الأصغر فهو أكبر من الكبائر[٦] ، وقد

(١) راوي الحديث ، ويأتي في ختام الباب عن إبراهيم النخعي ، تلميذ ابن مسعود أنه قال : كانوا يقطعون التمائم من القرآن ومن غير القرآن .

(٢) هذا مما تنفيه (لا إلـٰه إلا الله) تنفي تعليق التمائم ؛ لأن في اتخاذها تعلق بها وتوكل على غير الله ﷻ وهذا مما تنفيه هذه الكلمة (لا إلـٰه إلا الله) ؛ ولهذا قال المصنف في باب سبق : (وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب) وهذا من شرح (لا إلـٰه إلا الله) أنها تمنع من تعليق التمائم .

(٣) يقول الشارح الشيخ عبد الرحمن : عمت البلوى - يعني في زمانه - بأمور أعظم من تعليق الرقى والتمائم وذلك بعبادة القبور والذبح لها والنذر لها واتخاذها أوثاناً . إذا كان الصحابة أنكروا تعليق الحروز فكيف بمن يعبد القبور ويذبح لها وينذر لها ويسمون هذا هو الإسلام ، وهذا هو محبة الأولياء والصالحين .

(٤) باب ما جاء في لبس الحلقة وهذا الباب .

(٥) يعني لم يقتصر الناس على تعليق التمائم والحروز والحجب ؛ بل تجاوزوها - والعياذ بالله - إلى عبادة غير الله بعبادة القبور والأموات .

(٦) لم يكونوا يتساهلون بالشرك الأصغر ؛ لأن الشرك الأصغر أعظم من الكبائر لا يُتساهل =

تقدم دليله في الباب الذي قبل هذا . قوله : عن عبد الله بن عكيم مرفوعاً : « من تعلق شيئاً وكل إليه » رواه أحمد والترمذي[(١)] .

وعبد الله بن عُكيم - بضم المهملة مصغر - ويكنى أبا معبد الجهني الكوفي . قال الخطيب : سكن الكوفة وقدم المدائن في حياة حذيفة ، وكان ثقة . قوله : « من تعلق شيئاً وكل إليه »[(٢)] . التعلق : يكون بالقلب وينشأ عنه القول والفعل[(٣)] ، وهو التفات القلب عن الله إلى شيء يعتقد أنه ينفعه ، أو يدفع عنه ، كما تقدم بيانه في الأحاديث في هذا الباب والذي قبله ، وهو ينافي قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[(٤)] [سورة البقرة : ١١٢] ، فإن كان من الشرك

به ، ولأنه يجر إلى الشرك الأكبر فالصحابة رضي الله عنهم ما كانوا يتساهلون في الشرك الأصغر ؛ بل كانوا ينكرونه ويبادرون بإزالته .

(١) من « تعلق شيئاً وكل إليه » : يعني من تعلق قلبه بشيء غير الله وكله الله إليه ، ومن وكله الله إليه فهو خاسر ، فقد تعلق بضعيف مثله ، أو أقل منه لا يدفع عنه ضراً ، ولا يجلب له خيراً فيهلك ، أما من تعلق قلبه بالله ، فإن الله ﷻ يكفيه ويحفظه ؛ لأنه قادر على كل شيء ؛ ولهذا جاء في الأثر : « من خاف الله ﷻ أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله خاف من كل شيء »[(*)] .

(٢) كلمة « شيئاً » تعم كل ما تعلق به القلب من الخيط والحلقة والقلادة وغير ذلك . من اعتقد في شيء أنه يدفع عنه البلاء فإن الله يكله إلى ذلك الشيء الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً .

(٣) والاعتقاد أيضاً .

(٤) فإسلام الوجه يعني الإخلاص لله ﷻ ، وترك الشرك الأكبر والأصغر ، والوجه هنا

(*) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » ٢ / ٣٠٤ (٩٤٣) من قول الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله .

الأصغر ، فهو ينافي كمال التوحيد ، وإن كان من الشرك الأكبر ، كعبادة أرباب القبور والمشاهد والطواغيت ونحو ذلك فهو كفر بالله(١) ، وخروج من دين الإسلام ، ولا يصح معه قول ولا عمل(٢) . قوله : « وكل إليه » : أي وكله الله إلى ما علَّق قلبه به من دون الله ، ومن وكله الله إلى غيره ضل وهلك(٣) .

قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن قاسم ، حدثنا أبو سعيد المؤدب ، حدثنا من سمع عطاء الخراساني ، قال : لقيت وهب بن مُنبِّه ، وهو يطوف بالبيت ، فقلت له : حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز ، قال : نعم ، أوحى الله ﷻ إلى داود ﷺ : « يا داود ، أما وعزتي وجلالي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي ، أعرف ذلك من نيّته فتكيده السماوات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له من بينهن فرجاً ومخرجاً(٤) ، أما وعزتي وعظمتي ما يعتصم عبد من عبيدي بمخلوق

المراد به القصد والنية والعزم ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ ﴾ : توجهه ونيته وقصده إلى الله ﷻ ، وذلك بإخلاص التوحيد ، وتجنب الشرك ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ : متبع للرسول ﷺ ، ويَسْلم من البدع والمحدثات . فإسلام الوجه يسلم به العبد من الشرك ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ : يسلم به العبد من البدع والخرافات والمحدثات ، فهذه الآية جمعت بين الإخلاص والمتابعة .

(١) شرك أكبر وكفر يخرج من الملة .

(٢) الشرك الأكبر لا يصلح معه قول ولا عمل ، محبط للأعمال - والعياذ بالله - ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [سورة الزمر : ٦٥] .

(٣) لما تعلق قلبه بغير الله وكله الله إلى ذلك الغير ، جزاءً له .

(٤) وهذا مصداقه قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [سورة الطلاق : ٢] ، وقوله : ﴿ وَمَن

=

دوني أعرف ذلك من نيّته إلا قطعت أسباب السماء من يده ، وأسخت الأرض من تحت قدميه ، ثم لا أبالي بأي واد هلك(١) » وشاهد هذا في القرآن كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾(٢) [سورة الحج : ٣١] ، فتدبر .

قوله : وروى الإمام أحمد عن رويفع قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا رويفع ، لعل الحياة تطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته ، أو تقلد وتراً ، أو استنجى برجيع دابة ، أو عظم ، فإن محمداً بريء منه »(٣) .

يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [سورة الطلاق : ٣] ، وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [سورة الطلاق : ٤] .

(١) هذا مثل : « من تعلق شيئاً وكل إليه » .

(٢) وهو أن التوحيد صعود وعلو وارتفاع ، والشرك هبوط وسفول - والعياذ بالله - ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ : أي : سقط ، ثم لا يدري في أي مكان يسقط ، كذلك المشرك - والعياذ بالله - ليس له قرار ، بخلاف الموحد فإنه يكون في صعود وارتفاع وطمأنينة وعزة .

(٣) هذا حديث رويفع رَضِيَاللَّهُعَنْهُ ، أن النبي ﷺ قال له : « لعل الحياة تطول بك » : هذا من معجزاته ﷺ ، فإنه أخبر أن رويفع ستطول به الحياة وقد طالت به الحياة ، وعُمِّر رَضِيَاللَّهُعَنْهُ « فأخبر الناس أن من عقد لحيته » : هذا فعل الأعاجم يعقدون لحاهم ، قيل : يعقدونها عند الحروب من باب التشبه ، وقيل : عقد لحيته يعني جعَّدها ، وصار يهتم بكدّها وتحسينها ؛ لأن هذا يدل على الترف . وهذا أيضاً من فعل الأعاجم . « أو تقلد وتراً » : هذا محل الشاهد من الحديث ، يعني جعل عليه قلادة من وتر أو من غيرها يتقي بها العين « أو استجمر برجيع دابة » : يعني يراد به روث الدواب ، لا يجوز الاستجمار به من الخارج ، وإنما يستجمر بالحجارة أو ما يقوم مقامها من الطاهرات ، « أو بعظم » . كذلك العظم لا يجوز الاستجمار به ، هذان ممنوعان : الروث والعظم ، « فإن محمداً بريء منه » : =

رويفع : هو ابن ثابت بن السكن بن عدي بن حارثة الأنصاري نزل مصر وولي برقة[١] ، له ثمانية أحاديث . قال عبد الغني : (ولي طرابلس[٢] فافتتح أفريقية سنة سبع وأربعين) . وقال ابن يونس : (توفي ببرقة سنة ست وخمسين) . قوله : « لعل الحياة تطول بك » ، فقد طالت حياته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما أخبر النبي ﷺ .

قوله : « فأخبر الناس أن من عقد لحيته » . قال الخطابي : (أما نهيه عن عقد اللحية فيفسر على وجهين : أحدهما : ما كانوا يفعلونه في الحرب ، كانوا يعقدون لحاهم ، وذلك من زيِّ بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها) قال أبو السعادات : (تكبراً وعجباً)[٣] . (ثانيهما : أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد)[٤] انتهى . قلت : ويشبه هذا ما يفعله كثير من فتل أطراف

هذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر ؛ لأن الذنب إذا ختم بهذا الوعيد يدل على أنه كبيرة من كبائر الذنوب ، كما قال ﷺ : « من غش فليس منا » دليل على أن الغش كبيرة . « ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » كل هذه إذا ختم الذنب بالبراءة فهذا دليل على أنه كبيرة من كبائر الذنوب ، فدل على أن هذه الأمور كبيرة من كبائر الذنوب ؛ لأنها إما شرك ، وهو تعليق الوتر ، وإما معصية مخالفة لهدي الرسول ﷺ وهو عقد اللحية تشبهاً بالكفار ، قال ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم » وفي رواية « ليس منا من تشبه بغيرنا » . والاستجمار برجيع الدابة أو العظم منهي عنه في أحاديث صحاح فلا يجوز الاستجمار بهاتين المادتين ، ومن استجمر بهما فإنهما لا يطهران .

(١) بُرقة هذه بلدة في المغرب .

(٢) طرابلس مسماها الآن ليبيا ، لأنه يوجد طرابلس في الشام ، وطرابلس في الغرب .

(٣) على كل حال لا يجوز هذا ؛ لأن فيه تشبه بهم .

(٤) وهذا يعني دهنه والعناية باللحية حتى تصير مجعدة ؛ لأن هذا يدل على الترف ، فينبغي أن يعتدل في الأمور ، فلا يجعل لحيته مشوهة ، ولا يجعلها لحية ترف ، وإنما يتوسط في هذا الأمر . وقيل : إن المراد « عقد لحيته » : العبث بها في أثناء الصلاة ؛ لأن هذا يدل على عدم خشوعه .

الشارب ، فيترك أطرافه لذلك وهي بعضه[١] ، وفي حديث زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يأخذ من شاربه فليس منا »[٢] رواه أحمد والنسائي والترمذي وقال : صحيح . وفي الصحيح : « خالفوا المشركين احفوا الشوارب وأعفوا اللحى »[٣] ، وذلك يدل على الوجوب ، وذكر ابن حزم الإجماع[٤] على أنه فرض ، فيتعين النهي عنه لذلك .

قوله : « أو تقلَّد وتراً »[٥] ، فيه مع ما تقدم من أنه شرك ؛ لما كانوا يقصدونه بتعليقه على الدواب وغيرها .

قوله : « أو استنجى برجيع دابة أو عظم ، فإن محمداً بريء منه » هذا دليل على أن هذا والذي قبله من الكبائر ؛ لأن قوله : « فإن محمداً بريء منه » يدل على ذلك . وقول النووي ﷺ : (أي بريء من فعله) . فهذا التأويل

(١) أما تطويل الشارب فهو محرم ؛ لأن النبي ﷺ أمر بإحفاء الشوارب وقصها ، وأما تطويل الشوارب وجعلها سبالات هذا من فعل الجهال ، وهذا مخالف للسنة ، فالشارب لا يترك يطول ؛ بل يتعاهده بالقص والحف ، عملاً بسنة النبي ﷺ .

(٢) هذا يدل على أن ترك الشارب يطول ويصبح سبالات كبيرة من الكبائر لقوله : « فليس منا » .

(٣) « احفوا الشوارب » يعني لا تتركوها تطول « واعفوا اللحى » : يعني اتركوها لا تتعرضوا لها بنتف ولا قص ولا حلق ، بل تترك اللحية وتعفى وفي رواية : « أرسلوا اللحى » ، وفي حديث : « أرخوا » ، و« أرجو » إلى غير ذلك من الأمر بإعفاء اللحى ، وتركها وإرسالها وإرخائها وإكرامها وتوفيرها . لكن حدث الآن العكس من كثير من الناس ، وهو أنهم يعتنون بالشوارب ، ويحلقون اللحى ، أو يقصونها ويحاصرونها من جميع الجوانب ، وهذا خلاف السنة الثابتة عن الرسول ﷺ .

(٤) فدل على الوجوب : أي وجوب إحفاء الشوارب وإعفاء اللحى ، وأن الأمرين واجبان ، وذكر ابن حزم في مراتب الإجماع أنه مجمع على هذا الأمر .

(٥) هذا محل الشاهد من الحديث .

بعيد لعود الضمير إلى « مَنْ »[١] ، وقد ورد النهي عن الاستنجاء بالروث والعظام في أحاديث صحيحة ، كما لا يخفى ، منها ما رواه مسلم في « صحيحه » عن ابن مسعود مرفوعاً[٢] : « لا تستنجوا بالروث ولا العظام ؛ فإنه زاد إخوانكم من الجن »[٣] ، ولما روى ابن خزيمة والدارقطني عن أبي هريرة مرفوعاً : « نهى أن يستنجى بعظم أو روث » وقال : « إنهما لا يطهران »[٤] ، وعليه : لا يجزي الاستنجاء بهما ، كما هو ظاهر مذهب أحمد .

قوله : « وعن سعيد بن جبير »[٥] قال : « من قطع تميمة من إنسان كان

---

(١) يعني تفسير النووي : « أي بريء من فعله » هذا تفسير بعيد ، والظاهر هو التفسير الأول ؛ لأن الرسول ﷺ تبرأ من الشخص نفسه ، وليس القصد التبرؤ من فعله « من عقد لحيته .. » الخ . فالضمير عائد إلى الشخص ، وليس إلى الفعل ، هذا الذي يجعل تأويل النووي رحمه الله بعيداً .

(٢) هذا مشهور في باب قضاء الحاجة من كتب الحديث ، وكتب الفقه ، أنه لا يجوز الاستجمار بهاتين المادتين .

(٣) الروث يكون زاداً لدوابهم ، والعظام تكون زاداً للمسلمين من الجن ، يجعل الله عليها اللحم فيأكلونه .

(٤) هذه العلة : « إنهما لا يطهران » فمن استجمر بهما فإن النجاسة باقية عليه ، خلاف من استجمر بالحجر أو ما يقوم مقامه فإنه يزيل النجاسة ؛ لأن الرسول ﷺ قال : « إنهما لا يطهران » .

(٥) سعيد بن جبير رضي الله عنه ، من أئمة التابعين ، وهو من تلاميذ عبد الله بن مسعود ، قال : « من قطع تميمة من إنسان » والتميمة : هي ما يعلق على الرقبة أو على غيرها من حروز أو حجب ، تعلق على المريض ، كل هذا في نظر عبد الله بن مسعود وأصحابه رضي الله عنهم أن هذا هو المحرم وهو الصحيح لعموم الحديث : « ومن قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة » وجه المشابهة أن من قطع تميمة من الإنسان أنقذه من الشرك ، وأعتقه من الشرك ، والذي أعتق الرقبة من العبودية أيضاً له أجر عظيم ، هذا وجه الشبه .

كعدل رقبة »[١] رواه وكيع هذا عند أهل العلم له حكم الرفع[٢] ؛ لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي فيكون هذا مرسلاً ؛ لأن سعيداً تابعي[٣] ، فعلى هذا يجب النهي عن تعليق التمائم والترغيب في قطعها وأن ذلك مما يجب ، وفيه مع ما تقدم أنه شرك ، وبيان حال السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من تعظيم الشرك قليله وكثيره والنهي عنه[٤] ، فلما اشتدت غربة الإسلام في أواخر هذه الأمة صار إنكار هذا وما هو أعظم منه أعظم المنكرات[٥] حتى عند من ينتسب إلى العلم كما لا يخفى[٦] ، ووكيع : هو ابن الجراح بن وكيع الكوفي ، ثقة إمام صاحب تصانيف ، منها « الجامع » وغيره ، روى عنه الإمام أحمد وطبقته[٧] . مات سنة سبع وتسعين ومائة .

---

(١) يعني يساوي عتق رقبة ؛ لأن هذا إنقاذ من الرق بالعتق ، وهذا إنقاذ من الشرك بالتوحيد .

(٢) قوله : « كان كعدل رقبة » هذا لا يقوله إنسان باجتهاد ، وإنما هذا يتوقف على نص من الشارع .

(٣) فهذا من مراسيل التابعين .

(٤) ما كانوا يتساهلون بالشرك الأصغر ، بل كانوا يبادرون بإنكاره والنهي عنه ، فهذا تعريف بمنهج السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

(٥) صاروا ينكرون على من ينكر هذه الأمور ، يقولون : هذا من الخوارج وهذا حنبلي ، متشدد إلى غير ذلك من الألقاب ، لأن عندهم الإسلام هو ما عليه عُبَّاد القبور والصوفية ، هذا هو الدين عندهم ، ومن أنكره فإنه يكون منكراً للإسلام ، تغيرت الأمور ، فصار المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً عندهم .

(٦) فيهم علماء وفقهاء ، لكن ليس عندهم علم بالتوحيد ، عندهم علم بالفقه ، وقد يكون عندهم علم بالحديث ، وقد يكونوا محدِّثين ، ولكن ليس لهم عناية بالتوحيد ، وأمور التوحيد ، وإنما يسيرون في العقيدة على ما يسير عليه الناس ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٧) يعني هو من مشائخ الإمام أحمد .

قوله : « وله عن إبراهيم قال : كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن » إبراهيم : هو الإمام إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي ، يكنى أبا عمران ثقة من كبار الفقهاء ، مات سنة ست وتسعين ، وله خمسون سنة أو نحوها . قوله : « كانوا يكرهون التمائم » : أراد أصحاب عبد الله بن مسعود ، كعلقمة ، والأسود ، وأبي وائل ، والحارث بن سويد ، وعَبِيَدة السَّلماني ، ومسروق ، والربيع بن خيثم ، وسويد بن غَفَلَة ، وغيرهم . وهم من سادات التابعين ، وفي زمانهم كانوا يطلقون الكراهة على المحرَّم[1] ، وهذا القول هو الصحيح ؛ لأن ما كان من غير القرآن قد تقدم النهي عنه بلا ريب[2] ، وأما إذا كان من القرآن فيتعيَّن النهي عنه لأمور ثلاثة[3] : منها : دخوله في عموم المنهي عنه[4] . ومنها : كونه ذريعة إلى تعليق ما ليس من القرآن ، فيفضي إلى عدم إنكارها[5] . الثالث : أن تعليق القرآن يكون سبباً في امتهانه فإنه من

---

(١) يكرهون : أي يحرِّمون ؛ لأن الكراهة عند السلف على التحريم ، وإنما صارت تطلق على التنزيه عند المتأخرين ، وأما المتقدمين فيطلق الكراهة على التحريم ؛ لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [سورة الإسراء : ٣٨] وقد ذكر سبحانه الشرك ، وقتل النفس ، والزنا ، والخيلاء ، وغير ذلك من الكبائر ، وعقوق الوالدين ، وقال في ختامها : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ يعني محرماً .

(٢) لأن ما كان من التمائم من غير القرآن قد تقدم النهي عنه ، ولا أحد يخالف في ذلك ، وإنما الخلاف فيما كان من القرآن ، فالصحيح أنه لا يجوز أيضاً .

(٣) بدأ الآن يفصِّل القول الأول وهو مذهب ابن مسعود رضي الله عنه وأصحابه .

(٤) ولا دليل على التخصيص ، قال : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » فهذا عام لا مخصص له .

(٥) إذا أبيح للناس تعليق شيء من القرآن تدرجوا إلى تعليق غيره ، وربما يقولون : هذا أحسن يزينها لهم الشياطين ، ويقولون : هذا مجرب فيعلقونه .

علقه فلابد أن يدخل به الخلاء ونحوه[1] . قال المصنِّف ﷺ : « والرُّقى هي التي تسمى العزائم ، وخصَّ منه الدليل ما خلا من الشرك[2] ، فقد رخَّص فيه رسول الله ﷺ من العين والحُمَة[3] ، والتِّولة : شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبِّبُ المرأة إلى زوجها والرَّجل إلى امرأته»[4] . قال الحافظ : (التولة - بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً - شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها وهو ضرب من السحر)[5] والله أعلم .

---

(١) إذا أبيح لهم تعليق القرآن كان هذا سبب في امتهان القرآن ؛ لأنه سيعلق على الصغار الذين لا يتحرزون من النجاسة ، فيعلق على الحيض ، وعلى الذين يدخلون الحمامات وغير ذلك فيكون وسيلة لامتهان القرآن .

(٢) خص الرقى التي تعلق ، فإن كانت من غير القرآن فهذا لا خلاف في منعها وإن كانت من القرآن ففيها خلاف كما تقدم .

(٣) القراءة على المريض ، لا بأس به ، ولا خلاف فيه ؛ لأن الرقية تطلق ويراد بها تعليق شيء من القرآن يسمونها تميمة ، ويطلق ويراد به ما يقرأ على المريض مباشرة ، وهذا لا خلاف في جوازه لقوله ﷺ في حديث حصين بن عبد الرحمن السابق ذكره في باب (من حقق التوحيد) قال : « لا رقية إلا من عين أو حمة » العين معروفة وهو الإصابة بالعين والحسد ، والحُمَة : هو سم الأفاعي والعقارب .

(٤) التِّوَلة : نوع من السحر ، يسمونه الصرف والعطف ، يعملون شيئاً يحبب المرأة إلى زوجها ، يعطفونها عليه ، أو العكس يحبب الزوج إلى زوجته يعطفه عليها ، أو الصرف يصرفه عنها ، ويبغضه لها أو يبغضها له : وهذا من فعل السحرة - والعياذ بالله - ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] هذه التولة .

(٥) فدل هذا على أن السحر شرك ؛ لأن فيه استعانة بالشياطين ، فالساحر يستعين بالشياطين ويتعلم منهم ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] ، فالسحر من تعليم الشياطين ، ومن الاستعانة بالشياطين ، فالساحر مشرك وكافر بالله العظيم .

٩ - بابُ من تبرّك بشجرةٍ أو حجرٍ ونحوِهما

وقول الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ . وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ . أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ . إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٩-٢٣] .

عَن أبي واقِدٍ اللّيثي ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، ونحن حُدثاء عهدٍ بكُفرٍ ، وللمشركين سدرةٌ يعكُفُون عندها وينُوطُونَ بها أسلحتهم ، يُقالُ لها : ذاتُ أنْواطٍ ، فمررنا بسدرةٍ ، فقُلنا : يا رَسُولَ الله ! اجْعل لنا ذاتَ أنْواطٍ كما لـهُمْ ذاتُ أنْواطٍ . فقالَ رسولُ الله ﷺ : « اللهُ أكبرُ ! إنّها السُّنَنُ ! قُلْتُم والذي نفسي بيده كما قالت بنُو إسرائيل لـمُوسى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] ، لتَرْكَبُنَّ سُنَنَ منْ كانَ قبلَكُم » رواه الترمذي ، وصححه .

٩ - بابُ من تبرّك بشجرة أو حجر ونحوهما(١)

(١) قال ﷺ : « باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما ، يعني فقد أشرك ، وإن لم يصرح المؤلف بذلك ؛ لأنه اكتفى ﷺ بما يفيده الحديث والآية التي ساقها ، ويؤخذ من الآية والحديث أن ذلك شرك ، ولكنه من عادته ﷺ أن الحكم إذا كان منصوصاً عليه فإنه يذكره في الترجمة ، وإذا لم يكن منصوصاً عليه ، وإنما يفهم ويستفاد من الأدلة فإنه لا يذكره في الترجمة ؛ بل يتركه للنصوص وما يفهم منها . وهذا من عظيم حرصه ﷺ ، ومن تحفظه من الجزم بالأحكام إلا بنص صريح والفرق بين هذا الباب وما قبله ، أن ما قبله في (لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه) أي : في استعمال هذه الأشياء في دفع الضر ، وأما هذا الباب فإنه لأجل جلب الخير والبركة . فالباب الذي قبله =

قوله : (باب من تبرك[(١)] بشجرة أو حجر ، ونحوهما)[(٢)] ،

دفع الضرر وهذا الباب لجلب الخير والنفع ، وأن ذلك كله مرجعه إلى الله ﷻ ، فهو الذي ينفع ويضر ، وأما غيره فلا ينفع ولا يضر إلا بأمره ﷻ .

(١) قوله : (باب من تبرك) : التبرك معناه : طلب البركة . والبركة هي ثبوت الخير والنفع ودوامه . والتبرك إنما يكون بأسماء الله سبحانه وصفاته ، وبالقرآن الكريم ؛ لأن الله جعله مباركاً وجعله شفاء ، وهو كلامه ﷻ ، وكذلك بأسمائه وصفاته لأنها مباركة . أي : إذا قلت : بسم الله : فمعناه أتبرك باسم الله ، وأستعين باسم الله ، فهذا التبرك بالله ﷻ وبأسمائه وصفاته مشروع ، ومنه ما جاء في دعاء الاستفتاح : « تبارك اسمك » ، أي : البركة تنال بذكرك . وجاء أيضاً هذا في القرآن مثل : قول الله ﷻ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [سورة الفرقان : ١] ، ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الملك : ١] ، وكذلك التبرك بالنبي ﷺ ، وما انفصل عن جسده الشريف من عرق ، أو ريق ، أو شعر ، فهذا يُتبرك به ؛ لأنه ﷺ كان مباركاً ، وأقر أصحابه على التبرك بريقه ، وبشعره ، وبعرقه . وهذا خاص بالنبي ﷺ ، وما انفصل من جسمه الشريف ، ولا يجوز أن يُتبرك بغيره ، مهما بلغ من الصلاح ولا يُتبرك بالصالحين ولا بالأولياء ، إنما هذا خاص بالنبي ﷺ في حياته ﷺ ، ولا يُتبرك بالآثار التي تنسب إليه ﷺ من الأشياء التي استعملها أو الأمكنة التي جلس فيها أو صلى فيها ، فلا يُتبرك بهذه الآثار ؛ لأن هذا من البدع ، ولم يرد عنه ﷺ أنه شرع لأمته أن يتبركوا بحجرته ولا أن يتبركوا بغار حراء ، ولا بغار ثور ؛ ولا الأمكنة التي نزل عليه الوحي فيها ، ولا بدار المولد ، إذا ثبت أنه ولد في هذا المكان ، فلا يتبرك بهذه الأشياء ؛ لأن هذا لم يفعله الرسول ﷺ ، ولا فعله صحابته الكرام ، وهم أعلم الأمة بما يجوز وما لا يجوز ، ولا فعله السلف الصالح ، من القرون المفضلة وإنما يتعلق بهذه الآثار – كما يسمونها – الجهلة والمخرفون ، الذين لا يهمهم الدليل ، وإنما يهمهم ما قاله فلان وعلان وما تهواه أنفسهم ، فالتبرك بالآثار والأشجار كل ذلك محرم ، وشرك ؛ لأنه طلبٌ للبركة من غير الله ﷻ .

(٢) وقوله : « ونحوهما » : يشمل كل ما ذكرنا ، الشجر ، والحجر ، والقبور ، والآثار ، التي تنسب إلى الأنبياء أو الصالحين أو إلى الأولياء ، كلها لا يجوز التبرك بها ، وكله داخل في قوله : « ونحوهما » ، فالتبرك لا يجوز إلا بما جاءت به الأدلة ؛ كالتبرك بأسماء الله وصفاته ،

=

كبقعة[(١)] وقبر ومشهد[(٢)] ونحو ذلك و(مَنْ) اسم شرط والجواب محذوف ، تقديره : فقد أشرك بالله[(٣)] .

والتبرك بالقرآن ، والتبرك بما انفصل من جسد النبي ﷺ ، وذلك في حياته ﷺ لأنه بعد موته لم يبق شيء مما انفصل منه ﷺ ، انقطع هذا بموته ﷺ ، ورحيله عن هذه الدنيا إلى الرفيق الأعلى ﷺ .

(١) كبقعة : يعني من الأرض يتبركون بها ويذهبون إليها لا يوجد بقاع في الأرض تقصد للبركة وللعبادة فيها إلا المساجد الثلاثة : « لا تشد الرحال » أي : لا يسافر لأجل العبادة في مكان « إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ ومسجد الأقصى »[(*)] هذه البقاع التي يُذهب إليها للعبادة ؛ لأن الله شرع العبادة فيها وجعلها من شعائر دينه ﷺ وهي مساجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما عداها فليس هناك بقاع في الأرض تقصد لها ميزة على غيرها أبداً . « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً »[(**)] كل الأرض تصلح للصلاة ، فلا تحتاج أن تذهب تصلي في مكان معين إلا إذا كان حولك مسجد جماعة تذهب إليه ، وأما إذا لا يوجد مسجد للجماعة فصلِّ في المكان الذي أنت فيه ، الأرض كلها لله مالها ميزة بعضها على بعض .

(٢) وقبر : كقبور الصالحين والأولياء يقولون : أنهم يشفعون وينفعون ويدفعون الضرر ، مثل : قبر البدوي ، وقبر فلان ، وقبر فلان ، فيها وفيها ، هذا كله باطل عبادات لغير الله ، والمشاهد : هي نفس المباني التي تكون على القبور يسمونها مشاهد .

(٣) « باب من تبرك بشجرة .. » يعني : « من تبرك بشجرة .. » أين جواب الشرط (من) ؟ مقدر ، تقديره : « فقد أشرك » لكن لم يصرح به المؤلف ؛ لأنه يفهم من الأدلة التي ساقها .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٣٩٨ (١١٣٢) ، ومسلم في « صحيحه » ٢ / ١٠١٤ (١٣٩٧) ، واللفظ للبخاري .

(**) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ١٢٨ (٣٢٨) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٣٧٠ (٥٢١) ، واللفظ للبخاري .

قوله : وقول الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ . وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾[1]

---

(١) قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾ : استفهام إنكاري ، وتعجب أفرأيتم هذه الأصنام ، هل نفعت أو ضرت حتى تتعلقوا بها وتتبركوا بها ؟ هل نفعتكم ؟ هل ضرتكم ؟ هل نفعت نفسها ؟ هل امتنعت لما هُدمت ودافعت عن نفسها ؟ لما هُدِمت في عهد النبي ﷺ أين ذهبت ؟ لو كانت آلهة تنفع أو تضر لدافعت عن نفسها وهل نصرتكم لما سلط الله المسلمين عليكم ؟ هل نفعتكم هذه الأصنام ؟ هل منعتكم ؟ هل أغاثتكم عند الشدائد ؟ هذا توبيخ من الله ﷻ لهؤلاء الذين يعبدون اللات والعزى ومناة ويتبركون بها ، وغيرها من باب أولى ، لكن هذه كانت أكبر الأصنام ، وهي المشهورة عند العرب . واللات : صنم في الطائف لبني ثقيف ويُقرأ (اللاتْ) بالتخفيف ، ويقرأ بالتشديد (اللاتّ) : اسم فاعل ، من لَتَّ يَلُتُّ ؛ لأنه في الأصل رجل صالح بالطائف كان يلت السويق للحجاج ، ويكرم الحجاج ، فلما مات جعلوا قبره وثناً يعبدونه من دون الله ويتبركون به ، هذا على قراءة التشديد (اللاتّ) أي : قبر اللاتّ ، الذي كان يلت السويق ، وأما على رواية التخفيف فهي صخرة في الطائف مكتوب عليها يسمونها اللات ، اشتقوها من اسم الله ﷻ ، وهذا من الإلحاد في أسماء الله سبحانه أن تجعل للمخلوقات ، ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٠] ، فمن الإلحاد فيها أن يسمى بها الأصنام والمخلوقات .

والعزى : صنم أهل مكة ، وكان في وادي نخلة بين مكة والطائف ، وهو عبارة عن شجرات سَمُرٍ ، عليها سور ، وكانوا يتبركون بها ويعبدونها ، والعزى : صنم يقع شمال المدينة عند جبل يقال له : كُدي بين المدينة ومكة ، كانوا في الجاهلية يُحرِمون من عنده للحج والعمرة ويتبركون به ، فلما فتح النبي ﷺ مكة في السنة الثامنة من الهجرة أرسل ﷺ إلى هذه الأصنام من يهدمها ، فأرسل خالد بن الوليد إلى العُزى فهدمها وأرسل علي ابن أبي طالب إلى مناة فهدمها ، وأرسل المغيرة بن شعبة وأبو سفيان بن حرب إلى اللات فهدماها بالطائف ، وبذلك انتهت هذه الأصنام وانتهى دورها ، ولم تنصر نفسها ، ولم تنصر أصحابها .

فهذه الآية فيها بطلان التبرك بالأشجار ؛ لأن العزى شجرة ، وبطلان التبرك بالأحجار ؛ لأن مناة واللات أحجار أيضاً فلم تنفع هذه الأشجار ولا هذه الأحجار .

[سورة النجم : ١٩ - ٢٠] الآيات ، هذه الأوثان الثلاثة هي أعظم أوثان أهل الجاهلية من أهل الحجاز ، فاللات لأهل الطائف ومن حولهم من العرب[١] ، والعزَّى لقريش وبني كنانة ، ومناة لبني هلال[٢] ، وقال ابن هشام : (كانت لهذيل وخزاعة) . واللات - بتخفيف التاء - في قراءة الجمهور ، وقرأ ابن عباس وابن الزُّبير ومجاهد وحميد ، وأبو صالح ورويس ، عن يعقوب - بتشديد التاء - فعلى الأولى قال الأعمش : سمَّوا اللات من الإله ، والعزى من العزيز . وقال ابن كثير : (اللَّات كانت صخرة بيضاء منقوشة ، عليها بيت بالطائف ، له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف[٣] ، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون بها على من عاداهم من أحياء العرب بعد قريش . قاله ابن هشام) وعلى الثانية[٤] : قال ابن عباس : كان رجلاً يلتُّ السويق للحاج ، فمات فعكفوا على قبره ، ذكره البخاري[٥] . قلت : فلا منافاة بين ما ذكره البخاري وغيره من عبادتهم الصخرة ، التي كان يلتُّ السويق عليها باسمه[٦] وعبادة قبره لما مات . وأما العزى فقال ابن جرير : (كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، بين مكة والطائف[٧] كانت قريش

(١) لبني ثقيف ومن حولهم من العرب .
(٢) قالوا : اشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من اسم الله المنان .
(٣) موقعها قريب من مسجد العباس ، لكن مطموس لا يعرف والحمد لله .
(٤) يعني على القراءة الثانية بالتشديد - اللاتّ .
(٥) هو رجل من الصالحين كان يطعم الطعام ويلت السويق للحجاج ، وهم يعتقدون في الصالحين أنهم ينفعون أو يضرون .
(٦) لا منافاة بين القراءتين ، المهم أنهم عبدوها إما لأنها صخرة يتبركون بها ، أو لأنها قبر . المعنى واحد .
(٧) وادٍ يُسمى وادي نخلة ، لا يزال بهذا الاسم إلى الآن بين مكة والطائف على طريق السيل .

يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم ، قال رسول الله ﷺ قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم »)[١] .

ومناسبة هذه الآية للترجمة : أن عبادة المشركين للعزَّى والصخرة ، ومناة إنما كان بالتفات القلوب رغبة إليها في حصول ما يرجون من بركتها من نفع أو دفع ضر[٢] فصارت أوثاناً تعبد من دون الله ، وذلك من شدة ضلال أهل الكفر وفساد عقولهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[٣] [سورة يونس : ١٨] ، فصار عبادة القبور وعبادة الشجر والحجر هو شركُ المشركين ، وقد جرى ذلك وما هو أعظم منه في أواخر هذه الأمة[٤] . قوله : وعن أبي واقد

(١) كان أبو سفيان قبل أن يسلم في غزوة أحد يعتز بالعزى فيقول : لنا العزى ولا عزى لكم فأجابه النبي ﷺ وأمر أصحابه أن يقولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » ، فهذا فيه الرد على المشركين وعلى الأقوال الباطلة ، وأنه لا يُسكت عنها . كان الرسول ﷺ ساكتاً عندما قال أبو سفيان : أفيكم أبو بكر ؟ أفيكم عمر ؟ أفيكم فلان ؟ أفيكم محمد ؟ والرسول ﷺ يقول : لا تجيبوه . فلما قال : لنا العزى ولا عزى لكم ، أجاب الرسول ولم يسكت ، فهذا فيه دليل على وجوب رد الباطل ، وعدم السكوت عنه ، قد يأتي رجل يمدح القبور ، والأضرحة ، ويهوِّن من شأن التوحيد ، فلا يجوز السكوت عنه ؛ لأن هذا يُلَبِّس على الناس .

(٢) وهذا هو العبادة ، ميل القلوب إلى المخلوقات ، واعتقاد أنها تنفع أو تضر ، وإن لم يسمها عبادة ، وهذا المتعلَّق به إلـٰه وإن لم يسمه إلـٰهاً ؛ لأن العبرة بالحقائق لا بالأسماء .

(٣) ما قالوا : نعبدهم ، قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ومع ذلك سمى الله هذا في كتابه عبادة ؛ لأنهم لما كانوا يدعونهم ويخافون منهم ويرجونهم ، صار ذلك عبادة فقال : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الأسماء لا تغير الحقائق .

(٤) من عبادة القبور والأضرحة جرى ما هو أشد مما كان عليه المشركون بحجة أن هذا من التوسل واتخاذ الشفعاء عند الله ، لا من أجل عبادتهم . يقولون : ما نعبدهم ، ولكننا نتوسل بهم لأنهم صالحون فهم يقربوننا إلى الله .

الليثي ، قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سِدْرَةٌ يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذاتُ أَنْواط ، فمررنا بسِدرة ، فقلنا : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ! إنها السنن ، قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٣٨] لتركبن سنن من كان قبلكم » رواه الترمذي وصححه(١) . قوله : « عن أبي واقد » : هو صحابي مشهور ، مات

---

(١) هذا حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وأبو واقد هذا ممن أسلم عام الفتح ، ولذلك قال : « وكنا حدثاء عهد بكفر » ؛ لأن إسلامهم تأخر إلى عام الفتح . « خرجنا مع النبي ﷺ إلى حنين » : يعني إلى غزوة حنين . وحنين : اسم وادي من أودية مكة دون الشرائع ، مما يلي مكة خارج الحرم ، وقد جرت فيه الوقعة ، فسميت وقعة حنين ، ويوم حنين ، وذلك أن الرسول ﷺ لما فتح مكة في رمضان ، وسقطت دولة المشركين في مكة ، خافت قبيلة هوازن أن يصلها رسول الله ﷺ بعد أن فرغ من أهل مكة ، فتجمعوا لغزو الرسول ﷺ وكانوا في الطائف وما حولها ، فبلغ النبي ﷺ ذلك فخرج إليهم في شوال بجيش عظيم ممن جاءوا معه من المدينة ، وممن أسلموا في مكة ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [سورة التوبة : ٢٥] ، وكانت هوازن قد تحصنت في الجبال ، وفي جنبات الوادي ، فدخل المسلمون في الوادي وانقض عليهم المشركون من الجبال ، فحصلت للمسلمين نكبة ، وفرَّ من فرَّ منهم ، ثم ناداهم رسول الله ﷺ ، فتجمعوا عليه وشدوا على المشركين ، فنصرهم الله ﷻ ، وغنم المسلمون أموالهم وذراريهم ونساءهم وسبوهم قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٥ - ٢٦] فنصر الله المسلمين في النهاية ، وإن كان حصل عليهم شدة في أول القتال ، لكن في النهاية صارت لهم ، ثم إن هوازن أسلموا ، وطلبوا من

=

الرسول ﷺ أن يرد عليهم أموالهم ونساءهم ، والنبي ﷺ كان قد وزَّع المغانم ، فطلب من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من طابت نفسه أن يردَّهم ، فطابت أنفسهم كلهم ، وردُّوا ما عندهم على هوازن . هذه غزوة حنين في هذا الوادي ، وهذه نتيجتها ، نصرٌ للإسلام والمسلمين ، والذلة للكفار ، وفي النهاية تاب الله على من تاب منهم ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [سورة التوبة : ٢٧] ، قوله : « خرجنا مع النبي ﷺ ونحن حدثاء عهد بكفر » تقديم للعذر مما وقع منهم ، أن السبب الذي سبب لهم الوقوع في هذا الخطأ هو أنهم حدثاءعهد بكفر ، فهذا فيه دليل على ذم الجهل ، وأن الجهل يوقع صاحبه في الخطأ ولا سيما الجهل بالتوحيد ، فإن الجهل بالتوحيد يوقع صاحبه في الشرك - والعياذ بالله - ، ففيه دليل على وجوب تعلم العقيدة بتفاصيلها ، وفيه مدح العلم ، وذم الجهل ، لاسيما في العقيدة ؛ لأن بعض الناس الآن هانت عليهم العقيدة في زماننا هذا ، خصوصاً من بعض الدعاة ، فلا يهتمون بها ، ويقولون : الناس موحِّدون ، وكل الناس يعرفون التوحيد ، ولا حاجة إلى هذه العناية التامة ، وهذا من جهلهم ، فما وقع هؤلاء القوم فيما وقعوا فيه من هذا الخطأ العظيم إلا بسبب الجهل ، فقوله : « ونحن حدثاء عهد بكفر » : فيه حثٌّ على تعلم العقيدة والتبصر فيها ، وفيه الرد على من يهوِّن في هذا الزمان من شأن العقيدة وتعلمها ويلوم إذا فرَّغوا كتب التوحيد ، واعتنوا بها ، ودعوا إليها يلومهم فيقول : أنتم تكفرون المسلمين وتسيئون الظن بالمسلمين ونقول : لا ، نحن لا نكفر المسلمين ولا نسيء الظن بالمسلمين ، نحن نعلمهم ، لئلا يقعوا في الشرك ، وهذا من النصيحة للمسلمين . قوله : « وللمشركين سدرة » : يعني شجرة « يعكفون عندها » : يعني يقيمون عندها للتبرك « وينوطون بها أسلحتهم » : النوط : هو التعليق ، يعلقون أسلحتهم بها للتبرك ، فهم يقيمون عندها للتبرك ويعلقون أيضاً أسلحتهم وحاجاتهم بها من أجل التبرك بهذه السدرة « فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط » قالوا هذا بسبب الجهل ، طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم شجرة يتبركون بها ، ويعلقون بها أسلحتهم تقليداً للكفار ، فهذا فيه تحريم التشبه بالكفار ، وأن التشبه بهم خطير ، ولا يقتصر على التشبه بالعادات ، وإنما يترقى إلى التشبه بهم في الشرك ، كما يدل عليه هذا الحديث ، وكما حصل من البناء على القبور . فالبناء على القبور وقع في الإسلام بعد القرون المفضلة تشبهاً باليهود والنصارى ؛ لأن اليهود والنصارى يبنون على

=

قبور أنبيائهم ، كما قال النبي ﷺ : « أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله »(*) حذرنا ﷺ من تقليد المشركين ، لاسيما في أمور الدين وأمور العقيدة . المشركون الآن يعظمون الآثار ويجعلون لها أبهة ، ويجعلون لها زيارات . قلدهم بعض المسلمين وصاروا الآن يعتنون بالآثار ويعظمونها وينفقون فيها ، والتوحيد موجود الآن ، لكن قد يجيء وقت يقلُّ العلماء ، وتضعف العقيدة ، ثم يفعلون مثلما فعل الكفار فيعبدون هذه الآثار كما فعل الكفار . الأمر لا يتساهل فيه أبداً . وفيه أيضاً أن الدين لا يـؤخذ من العادات أو مـن الإشكالات ؛ لأنهم استحسنوا هذا ، لكن لم يُقدموا عليه حتى طلبوا من النبي ﷺ ، وهذا من أدبهم ومعرفتهم بأن الدين إنما يؤخذ من الرسول ﷺ فقالوا : « اجعل لنا » طلبوا منه ذلك ؛ لأنه إذا جعل لهم فقد أقرهم على ذلك وشرعه لهم فهم لم يذهبوا لكي يختاروا شجرة يعلقون عليها ؛ بل رجعوا إلى الرسول ﷺ ، وهذا هو الواجب ، أن المسلمين أو ولاة أمر المسلمين إذا أشكل عليهم شيء ورأوا أنه شيء يُستحسن إنهم لا يُقدِمون عليه حتى يسألوا أهل العلم ، ويرجعوا إلى أهله ، فإن كان ذلك جائزاً في الشريعة أجازوه وإن كان حراماً منعوه . هذا هو الواجب ، وهذه فائدة عظيمة في هذا الحديث أننا لا نعتمد على استحساناتنا ، ونقول : نيتنا طيبة ، ونضع أشياء بدون أن نرجع إلى الدين ، وإلى الشرع ، وإلى العلماء ، هذا هو عين الهلاك لأن الناس إذا عملوا ما يريدون ، ولم يرجعوا إلى أهل العلم هذه مصيبة . أو يصفون أهل العلم بأنهم لا يفهمون ، أو أنهم يعوقون التقدم والحضارة ، فيهوِّنون من شأن العلماء ، وآرائهم . وهنا تحدث المصيبة بالأمة ؛ لأن أمور الدين لا يصلح بها إلا الرجوع إلى الشرع وأهل العلم وحملة الشريعة هذا هو الواجب .

قوله : « فقال النبي ﷺ : الله أكبر » : هذا تعظيم لله ﷻ في هذا الفعل ، وقد كان النبي ﷺ إذا استنكر شيئاً ، أو استحسن شيئاً كبَّر ﷺ ولم يكن يصفق ، كما يفعل مقلدة الغرب الآن ؛ لأن هذا الشيء الحسن من صنع الله ﷻ ، وهذا الشيء الكريه يُنَزَّه الله ﷻ عنه ويُعَظَّم . فقوله : « الله أكبر » : هذا تنزيه لله وتعظيم لله عن هذا الشيء العظيم ؛ لأنه شرك .

« الله أكبر ، إنها السنن » أي : الطرق ، جمع سنة ، وهي الطريق يعني سنن الجاهلية . هذا التقليد للكفار هو سنة الجاهلية يقلِّد بعضهم بعضاً ، ولا يرجعون للشرع ، ولا إلى العلماء ،

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٤٥٠ (١٢٧٦) .

وإنما يأخذون من عادات الناس وحضاراتهم ، وما عمله الغرب هو الشيء الحسن . هذه طريقة التقليد والتشبه ، والتي كان يسير عليها المشركون والجاهلية من عهد موسى ﷺ « إنها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده » : هذا خبر من النبي ﷺ وأقسم عليه من باب التأكيد والاهتمام بهذا الأمر وإلا فهو الصادق المصدوق ﷺ ؛ لأنه أمر عظيم وخطر شديد ، وهذا فيه جواز الحلف على الفتوى إذا تأكد منها المفتي ، فإنه يحلف عليها من أجل أن يقنع المستفتي ، ويقنع السامع . قوله : « كما قالت بنوا إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلـهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » : لما أهلك الله فرعون وأغرقه في البحر ، وبنوا إسرائيل ينظرون ، ثم تجاوزوا البحر ﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [سورة الأعراف : ١٣٨ - ١٤١] ، يعني : ما اتعظوا بهذه المواعظ ، ولا شكروا نعمة الله الذي أهلك عدوهم ، وجمد لهم البحر ومشوا عليه ، كأنهم يمشون على البر ، ما شكروا هذه النعمة بسبب الجهل ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ استحسنوا ما عليه الكفار ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ هذا مثل قول هؤلاء « اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط » قالوا لمحمد ﷺ كما قالوا لكليم الله موسى ﷺ ، والجاهلية واحدة في كل زمان . الجهل في كل زمان واحد يهلك أصحابه ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ ﴾ : يعني باطل ومدمَّر ماهم فيه من هذا الدين ، دين الشرك ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ؛ لأنه شرك ، ثم قال : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾ ، مع أن أصحاب محمد ﷺ الذين قالوا هذه المقولة ما قالوا : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا ﴾ قالوا : « اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط » فالرسول ﷺ قال : إن هذه مثل مقالة بني إسرائيل ؛ لأن الذي يتعلق على الأشجار والأحجار جعلها آلهة ، ولو لم يسمها آلهة ، أو قال : هذه مجرد ذكريات ، أو مجرد تنشيط على العبادة أو قال : إنها أشياء مباركة ، ونحن نتبرك بها . ما سموها آلهة ؛ لكن فعلهم هذا يجعلها آلهة . التعلق بالأشجار والأحجار يجعلها آلهة تعبد من دون الله ؛ لأن معنى الإلـه هو الذي يؤله وتحبه القلوب ، وتعبده ، وتستعين به وتستغيث به هذا هو الإلـه ، الذي يستغيث بالأشجار

=

والأحجار والقبور جعلها إلـٰهاً ولو أنه ما سماها إلـٰهاً فالعبرة ليست بالأسماء العبرة بالحقائق . لا نقول : هذه آثار ، وإنما هذه آلهة تعبد من دون الله ولو على المدى البعيد ، فالواجب إتلافها ومحوها وإزالتها نصحاً للأمة ؛ لئلا تقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة وأن لا نتساهل في أمور الشرك وإن كان في الوقت الحاضر لا يوجد شرك ، لكن في المستقبل . أليس إبليس أمر قوم نوح بتصوير الصور لأجل العبادة ، ولم تعبد في أول الأمر لوجود العلماء الذين ينهون عن الشرك ، لكن لما مات العلماء ونسي العلم عبدوا هذه ، فكذلك هذه الآثار يسمونها الآثار النبوية ، وآثار الصالحين ، والمقامات ، إذا هُيئت الآن ، ولو لم تعبد في الوقت الحاضر إلا أنها هُيئت للعبادة في المستقبل ، والشيطان إذا لم يحصل على الشيء الحاضر يؤمل في المستقبل ولو في البعيد . هو حاضر - لعنه الله - ومعه شياطين الإنس والجن أيضاً لا يألون جهداً في صرف الناس عن دين الله ﷻ .إذاً التبرك بهذه الأشياء : الأحجار ، والأشجار ، والقبور ، والأضرحة ، والبنايات ، والمقامات ، شرك بالله ﷻ ، واتخاذٌ لها آلهة من دون الله ولو لم تسم آلهة ولو قيل : إنها تنشط على العبادة ولو قيل : إنها تدل على الحضارة والرقي وفيها عبرة . نقول : بقاؤها والمحافظة عليها وسيلة إلى الشرك طال الزمان أو قصر . قوله : « قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى » بنو إسرائيل : أولاد يعقوب ؛ لأن إسرائيل هو يعقوب ﷺ ، وذريته يقال : لهم بنو إسرائيل ، ومنهم موسى ﷺ ؛ لأن جميع الأنبياء الذين بُعثوا من بعد إبراهيم ﷺ كلهم من ذرية إبراهيم : ذرية إسحاق : وهم أنبياء بني إسرائيل ، وذرية إسماعيل : وهو محمد ﷺ . كلهم أولاد إبراهيم ﷺ ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ (سورة العنكبوت : ٢٧) ثم قال ﷺ مؤكداً على ما سبق من قوله : « إنها السنن ، لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » هذا خبر من النبي ﷺ ، معناه النهي والتحذير . وقد وقع ما أخبر به ﷺ ، وعظم التشبه بالكفار حتى في العبادات والعقائد . فهذه معجزة من معجزاته ﷺ ، حيث وقع كما أخبر ﷺ ، فبنيت المشاهد على القبور والأضرحة ، ووُضعت عليها الستائر ونُذرت لها النذور والذبائح ، وصارت تضاهي المشاعر المقدسة البيت الحرام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . فالحاصل أن هذا الباب باب عظيم وهو يؤكد معنى (لا إلـٰه إلا الله) وأن معناها : أن لا يعبد ولا يتبرك إلا بالله ﷻ ، ولا يُرجى لجلب الخير ودفع الضر إلا الله ، فمن عدل عن ذلك فقد اتخذ

=

سنة ثمان وستين ، وله خمس وثمانون سنة . قوله : « خرجنا مع رسول الله ﷺ » يشير إلى أهل مكة ممن إسلامه قريب إذ ذاك[١] .

قوله : « إلى حنين » : هو اسم واد بشرقي مكة معروف ، قاتل فيه رسول الله ﷺ هوازن ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ [سورة التوبة : ٢٥] ، والوقعة مشهورة عند أهل المغازي والسِّير وغيرهم ، وما جرى فيها من النصر وأخذ أموالهم وسبي ذراريهم ونسائهم كما في الآية الكريمة : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٦] .

قوله : « ونحن حدثاء عهد بكفر » يشير إلى أهل مكة الذين أسلموا

آلهة غير الله ، ولو لم يسمها آلهة ، ولو سماها وسائل أو وسائط أو شفعاء أو غير ذلك . العبرة ليست بالأسماء ، العبرة بالحقائق .

(١) هذا لم يحصل من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم لأنهم متفقهون في الدين وتَقَدَّم إسلامهم والإيمان ثابت في قلوبهم وإنما قال هذا طائفة أسلمت جديداً ، وبسبب الجهل ظنوا أن هذا جائز . قال الشيخ : وفي هذا دليل على أن الإنسان – وهذه فائدة عظيمة – إذا قال كلمة الكفر أو الشرك عن جهل ، ثم نُبِّه فتركها أنها لا تضر ، أما إذا لم يتركها بعد البيان فإنه يكفر ؛ لأن هؤلاء مع الرسول ﷺ لم يكفروا بهذه المقالة لما بُيِّن لهم وتركوا هذا الشيء ، وكذلك بنو إسرائيل لم يكفروا ؛ لأنهم لم يفعلوا لما بَيَّن لهم موسى عليه السلام هذا الباطل كفُّوا عنه وتركوه . فالإنسان إذا فعل الشيء عن جهل ، أو قال الشيء عن جهل ثم بُيِّن له ، فتركه لله عز وجل لا يضره . هذا من العذر بالجهل ، لكن إذا بيِّن له وبلغته الدعوة وقال : هذا ما عليه الناس ، وما عليه أهل بلدي ، وجادل بالباطل ، هذا يكفر – والعياذ بالله – .

قريباً ، فلذلك خفي عليهم هذا الشرك المذكور في الحديث[١] ، بخلاف من تقدم إسلامه . قوله : « وللمشركين سدرة يعكفون عندها » ، عبادة لها وتعظيماً وتبرُّكاً ، لما كانوا يعتقدونه فيها من البركة . قوله : « يقال لها ذات أنواط » ، هو برفع التاء كما لا يخفى . قوله : « ينوطون بها أسلحتهم » أي : يعلقونها .

قوله : « فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم » أي : للمشركين « ذات أنواط » ظنوا أن النبي ﷺ لو جعل لهم ذلك لجاز اتِّخاذها ، لحصول البركة لمن اعتقدها فيها . وأنواط : جمع نوط وهو مصدر سُمِّي به المنوط . قوله : « فقال النبي ﷺ : الله أكبر » : تعظيماً لله تعالى عن أن يجعل له شريكاً في عبادته التي هي حقه على عباده[٢] ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة يونس : ١٠٥] وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ [سورة الروم : ٤٣] وهو الإخلاص ، والشرك ينافي ذلك[٣] ، وتقدم معنى الحنيف[٤] .

وتضمنت هاتان الآيتان وما في معناهما التوحيد ، الذي دلت عليه

---

(١) ففعلوه عن جهل ، قالوا هذه المقالة عن جهل وظنوه حسناً ، ولكن بحسن تصرفهم أنهم لم يقدموا عليه حتى سألوا النبي ﷺ .

(٢) قوله : « شريكاً في عبادته » : لأن طلب البركة عبادة فإذا طلبت من غير الله صارت شركاً . العبادة أنواع كثيرة : منها : طلب البركة ، واعتقاد جلب الخير ودفع الضر ، فهذا لا يكون إلا لله ﷻ .

(٣) والوجه هو القصد والنية بمعنى التوجه أي : أقم توجهك وقصدك ونيتك إلى الله ﷻ .

(٤) الحنيف : هو المقبل على الله المعرض عما سواه .

(لا إلـٰه إلا الله) نفياً وإثباتاً كما تقدم بيانه ، فمن التفت قلبه إلى غير الله لطلب نفع أو دفع ضر فقد أشرك ، والقرآن كله في تقرير هذا الأصل العظيم ، الذي هو أصل دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه .

قوله : « السُّنن » - بضم السين - أي : الطرق ، يشير إلى الطرق التي تخالف دينه الذي شرعه تعالى لعباده(١) .

قوله : « قلتم - والذي نفسي بيده - » حلف النبي ﷺ على ذلك تأكيداً لهذا الخبر وتعظيماً له ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [سورة الأعراف : ١٣٨] ، أخبر أن التبرك بالأشجار والأحجار يجعلها آلهة ، وإن لم يسموها آلهة(٢) ؛ ولذلك شبَّه قولهم هذا بقول بني إسرائيل لموسى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ ، فظهر بهذا الحديث أن التعلق على الأشجار والأحجار وغيرها لطلب البركة بها ، شرك في العبادة كشرك عبادة الأصنام . قوله : « لتركبن سنن من كان قبلكم » أي : اليهود والنصارى ، وقد وقع كما أخبر به النبي ﷺ في هذه الأمة(٣) ، فركبوا طريق من كان قبلهم

---

(١) لأن دين الله صراط واحد وطريق واحد ، أما الضلال فهوطرق كثيرة لا نهاية لها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٣] ، فجعل صراطه واحداً وجعل ما عداه سبلاً كثيرة مختلفة .

(٢) وإن لم يسموها آلهة : أي أصحاب محمد ﷺ ، لم يقولوا : اجعل لنا إلهاً ، قالوا : اجعل لنا ذات أنواط . فذات أنواط هي نفس الآلهة وإن لم تسم آلهة .

(٣) لأن النبي ﷺ في الحديث الآخر لما قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم . قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى قال : فمن ؟ » يعني من القوم إلا هؤلاء .

ممن ذكرنا ، كما هو مذكور في الأحاديث الصحيحة[١] ، كحديث : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » وهو في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وفي رواية : « ومن الناس إلا أولئك ؟ »[٢] .

(١) بل زاد الشرك في هؤلاء المتأخرين عن شرك الأولين ؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون لله في الشدة ، أما هؤلاء المشركون في هذه الأزمنة فشركهم دائم في الرخاء وفي الشدة ؛ بل إذا وقعوا في الشدة زاد شركهم ومناداتهم لمعبوديهم من دون الله ﷻ ، وعندهم لا يخلص من الشدائد إلا أصحاب القبور ، ويزين لهم شياطين الإنس والجن هذا الشيء فيقولون لهم : نحن نخلصكم إذا وقعتم في شيء فنادونا ونحن حاضرين وأحدهم يوصيهم يقول لهم : أنا إذا مت فلا يصدكم عني ذراع من التراب إلجأوا إليّ ونادوني أنا قريب لكم - والعياذ بالله - ، فإذا كان هذا في أتباع اليهود والنصارى وهم أصحاب ديانة ومن أتباع الرسل ، فكيف بغيرهم من المشركين الوثنيين والدهريين الذين لا دين لهم ولا يؤمنون بالرسل ولا بشيء ؟! تقليدهم سواء ، فلا يجوز . تقليد الكفار مطلقاً لا من أهل الكتاب ولا من غيرهم .

(٢) من ضل لا يكون قدوة ولو كان عالماً . اليهود بالذات عندهم علم ، عندهم أحبار ، لكن علماء ضلال - والعياذ بالله - أهل الضلال وإن كانوا علماء لا يطاعون ؛ لأن الله حذرنا من ذلك وأمرنا بتجنب طريقهم ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ فعلماء الضلال مغضوب عليهم ؛ لأنهم تركوا الحق عن علم ومعرفة فغضب الله عليهم ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ : وهم الذين ليس عندهم علم يعبدون الله بالجهل والضلال ، وهم النصارى ومن شابههم .

١٠ - باب ما جاء في الذّبح لغير الله

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢-١٦٣] .

وقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢] .

عن عليٍّ رضي الله عنه قال : حدّثني رسول الله ﷺ بأربع كلماتٍ : « لعنَ اللهُ من ذبحَ لغير الله ، لعنَ اللهُ من لعنَ والديهِ ، لعنَ اللهُ من آوى مُحدثاً ، لعنَ الله من غيّر منار الأرض » . رواه مسلم .

وعن طارق بن شهاب ، أنّ رسول الله ﷺ قال : « دَخَلَ الجنَّة رجلٌ في ذُبابٍ ، ودخلَ النَّار رجلٌ في ذُبابٍ » . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « مرَّ رجُلانِ على قومٍ لهم صنمٌ لا يجوزُهُ أحدٌ حتى يُقرِّب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما : قرِّب . قالَ : ليسَ عندي شيءٌ أُقرِّبُ . قالوا لهُ : قرِّب ولو ذُباباً . فقرَّب ذُباباً ، فخلَّوا سبيلهُ ، فدخلَ النّار . وقالُوا للآخر : قرِّب . قال : ما كُنتُ لأُقرِّب لأحدٍ شيئاً دُونَ الله ﷻ . فضربوا عُنُقَهُ ، فدخلَ الجنَّة » . رواه أحمد .

١٠ - باب ما جاء في الذبح لغير الله

قوله : « باب ما جاء في الذبح لغير الله »(١) .

---

(١) هذا الباب هو من جملة الأبواب التي تشرح معنى (لا إلـه إلا الله) ، كما سبق قول المؤلف رحمه الله ، لما ذكر تفسير (لا إلـه إلا الله) قال : وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب . ومن جملتها هذا الباب ، في أن معنى (لا إلـه إلا الله) : أن لا يُذبح إلا لله ﷻ ، وأن من ذبح لغيره فقد أشرك . فقوله : « باب ما جاء » : يعني من الأدلة في الكتاب والسنة (في) حكم (الذبح لغير الله) وأنه شرك كما يتضح ذلك مما ساقه رحمه الله في هذا =

وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ الآية[1] [سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

الباب وغيره، وقضية الذبح قضية عظيمة ضل فيها كثير من بني آدم في الذبح لغير الله لأغراض مختلفة يزينها لهم الشيطان.

(١) هذا الدليل الأول: أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٤] فقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي ﴾: جميع الصلوات الفرائض والنوافل لا تكون إلا لله، ولا يجوز لعبد أن يصلي لغير الله فريضةً أو نافلة. ﴿ وَنُسُكِي ﴾: النسك هو الذبيحة؛ فكما أنه لا يجوز للإنسان أن يصلي لغير الله فكذلك لا يجوز له أن يذبح لغير الله من الأصنام، والأشجار، والأحجار، والقبور، والأضرحة، والجن، والشياطين، والملوك، والرؤساء من باب التحية ولأجل قدومهم وغير ذلك، كل هذا ذبح لغير الله، وهو مشرك الشرك الأكبر؛ لأن الله قرنها بالصلاة، ولاشك أن من صلى لغير الله فقد أشرك الشرك الأكبر، وكذلك من ذبح لغير الله فقد أشرك الشرك الأكبر المخرج من الملة. فالصلاة عبادة بدنية، والذبح عبادة مالية، وجميع العبادات مالية كانت أو بدنية يجب إخلاصها لله ﷻ.

﴿ وَمَحْيَايَ ﴾: أي ما أحيا عليه في هذه الدنيا، ويجب على الإنسان في جميع عمره من حين يبلغ سن التكليف إلى أن يحضره الأجل وهو موحِّد لله ﷻ، ويقصد جميع أعماله لله ﷻ في جميع عمره. ﴿ وَمَمَاتِي ﴾: ما أموت عليه، فالإنسان يموت على التوحيد وإخلاص العبادة لله ﷻ، ويجب على المسلم أن يخلص لله في حياته وفي حال صحته، وكذلك عند موته وفي حال حضور الأجل ليُختَم له بالتوحيد وهذا فيه تنبيه على أهمية حسن الخاتمة، والغالب أن من استقام على دين الله في عمره وحياته أنه يوفق لحسن الخاتمة، ومن ضيَّع عمره في الشرك والمخالفات، فحريٌّ به أن يُصرَف عن حسن الخاتمة، وتسوء خاتمته إلا أن يتداركه الله ﷻ فيَمُنَّ عليه بالتوبة قبل الموت. ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾: الجار والمجرور ﴿ لِلَّهِ ﴾: خبر (إن)، واسم (إن) ﴿ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ ﴿ لِلَّهِ ﴾: الذي هو الإلـه المعبود،

=

قال ابن كثير رحمه الله : « يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له ، أنه أخلص لله صلاته وذبيحته ؛ لأن المشركين يعبدون الأصنام

﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ : الذي هو مالك كل شيء ، فلا يجوز للعبد أن يشرك بالله الذي هو ربُّه وخالقه ورازقه ومدبِّر أموره ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ : الشرك في الصلاة والشرك في الذبح وغيرها من العبادات ، ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ لا : نافية للجنس ، شريك : هذا عام ، فلا يصلح أن يشرك مع الله أحد لا مَلَك مُقَرَّب ، ولا نبيٌّ مرسل ، ولا ولي من الأولياء ، ولا صالح من الصالحين ، لأن كلمة ﴿ لَا شَرِيكَ ﴾ تنفي جميع الشركاء ، قال : ﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ : أمره الله ﷻ ؛ لأن الذي يأمر وينهى ويشرع هو الله ﷻ ، والرسول ﷺ مبلغٌ عن الله ، وهو أول من يمتثل أمر ربه ؛ لأنه عبد فهو أول من يمتثل أمر ربه ﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ : المنقادين لأمر الله المستسلمين له بالتوحيد والطاعة ؛ لأنه ﷺ هو القدوة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [سورة الأحزاب : ٢١] ، وهذا فيه أن الرسول ﷺ – ولا غيره – لم يبلغ مرتبة الربوبية أو مرتبة الألوهية بل هو عبد من عباد الله ، وهو أكرم عباد الله ، فلا يتخذ إلـهاً مع الله ، ولا رباً مع الله ﷻ ، وقوله : ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ : أي من هذه الأمة ، ليس هو أول المسلمين من الخليقة ؛ لأنه سبقه مسلمون من الرسل وأتباعهم ولكن أول المسلمين من هذه الأمة المحمدية . فهذه الآية شاهدها للترجمة : أن الله ﷻ أمر أن لا يُذبح إلا له سبحانه ، ودلت الآية الثانية ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ : على أن الذبح لغير الله شركٌ ، ينزه الله ﷻ عنه ، ودلت أيضاً أنه لا يستثنى أحد من الخلق مهما بلغت رتبته فإنه لا يصل إلى مرتبة الألوهية والربوبية ، ولا يستحق شيئاً من العبادة ؛ لأن العبادة حق لله ﷻ ، كما دلت الآية أيضاً على أن العبادات مبناها على التوقيف ﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ العبادات لا تكون إلا بدليل من الكتاب والسنة ، ولا تكون العبادات باستحسان الإنسان أو التقليد أو غير ذلك ، هذا يكون من البدع ، « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »(*) .

(*) سبق تخريجه في باب (من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب) .

ويذبحون لها ، فأمره تعالى بمخالفتهم والانحراف عمّا هم فيه ، والإقبال بالقصد والنّية والعزم على الإخلاص لله تعالى » انتهى . فالصلوات الخمس هي أعظم فرائض الإسلام بعد الشهادتين .

وقوله : « صلاتي » يشمل الفرائض والنوافل ، والصلوات كلها عبادة ، وقد اشتملت على نوعي الدعاء : دعاء المسألة ، ودعاء العبادة[1] ، فكما كان فيها من السؤال والطلب فهو دعاء مسألة ، وما كان فيها من الحمد والثناء والتسبيح والركوع والسجود ، وغير ذلك من الأركان والواجبات فهو دعاء عبادة ، وهذا هو التحقيق في تسميتها صلاة ؛ لأنها اشتملت على نوعي الدعاء الذي هو صلاة لغة وشرعاً . كما قرره شيخ الإسلام وابن القيم ﷺ بهذا المعنى .

قوله : ﴿ وَنُسُكِي ﴾ قال الثوري ، عن السدي ، عن سعيد بن جبير : ﴿ وَنُسُكِي ﴾ : ذبحي ، وكذلك قال الضحاك . قوله : ﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾ : أي ما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ : خالصاً لوجهه[2] ، ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ :

---

(١) الصلاة اشتملت على نوعي الدعاء : دعاء العبادة : وهو الثناء على الله ﷻ ، ودعاء المسألة : وهي طلب الحوائج من الله ﷻ ، فالصلاة تشتمل على النوعين : لأنها تكبير ، وتسبيح ، وتهليل ، وتلاوة للقرآن ، وهذا توحيد العبادة . ودعاء : رب اغفر لي ، و﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة الفاتحة : ٦ - ٧] إلى آخر السورة هذا دعاء مسألة ، وأول الفاتحة دعاء عبادة ، وآخرها دعاء مسألة ، فالصلاة تشتمل على نوعي الدعاء ، ولذلك سميت صلاة ؛ لأن الصلاة في اللغة : الدعاء .

(٢) ولذلك جاء في الحديث الاستعاذة من فتنة المحيا والممات ، فتنة المحيا : يعني في الحياة والعمر ، والممات : عند الموت والخاتمة .

أي : من هذه الأمة ، وهذا قول أئمة التفسير[١] ، والمقصود أن هذه الآية دلت على أن أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله كائناً من كان ، فمن صرف منها شيئاً لغير الله ، فقد وقع فيما نفاه تعالى من الشرك بقوله : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٢] ، والقرآن كله في تقرير هذا التوحيد في العبادة وبيانه ونفي الشرك والبراءة منه .

قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾[٣] [سورة الكوثر : ٢] ، قال شيخ الإسلام :

---

(١) فأول مسلم في هذه الأمة هو رسول الله ﷺ .

(٢) العبادات الظاهرة مثل : الصلاة ، والصيام ، والحج ، وأما العبادات الباطنة : فهي أعمال القلب الخوف والرغبة والخشية والرجاء والتوكل ، وغيرها .

(٣) هذه الآية الثانية من الآيات التي استدل بها المصنف ، وهي قوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ هذه مثل الآية التي في سورة الأنعام . قرن النحر مع الصلاة ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ : يعني لا تصلي لغيره ، ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ : أي اذبح له ، ولا تنحر لغيره ، والنحر في الغالب يكون للإبل ، والذبح يكون للبقر والغنم وما شابهها ، فكلٌّ من الذبح والنحر يكون لله ﷻ ، يتعبد به لله ﷻ فمن ذبح أو نحر لغير الله فقد أشرك ، سواء ذبح للأشجار ، والأحجار ، كما يذبحون للات ، والعزى ، ومناة ، أو ذبح للقبور والأضرحة ، كما يذبحون لله وغيره ، أو ذبح للجن لاتقاء شرهم ، أو من باب التداوي ؛ لأن بعض المشعوذين يأمرون المرضى بأن يذبحوا للجن ، فيطيعونهم فيذبحون لغير الله ، فالذبح على سبيل التعبد والتقرب لا يكون إلا لله ، فالله ﷻ قد حرَّم الذبح لغيره ، ومن ذلك النحر ، فعد من المحرمات من بهيمة الأنعام ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٣] : أي ما ذبح باسم الصنم أو باسم القبر أو باسم الولي أو باسم الجن فقوله : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ ﴾ : أي نودي به عند الذبح لغير الله به ، كأن يقول باسم المسيح ، باسم السيد فلان ، هذا أهلَّ به لغير الله فهو حرام ، هذا شر من الميتة لأنه ذبيحة شرك ، وكذلك ما سمي عليه اسم الله لكن القصد منه غير الله كأن يقول اسم الله على الذبيحة ، وهو يقصد أنها للقبر ، أو للولي ، أو للجن حتى ولو ذكر اسم الله عليها ؛ لأن العبرة في القصد وما في القلب ، فما أُهِلَّ به لغير الله يشمل النوعين : يشمل ما ذكر عليه اسم غير الله ، ويشمل ما قُصد به غير الله ﷻ ،
=

(أمره أن يجمع بين هاتين العبادتين ، وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار[١] ، وحسن الظن وقوة اليقين وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عِدَتِهِ ، عكس أهل الكبر والنفرة وأهل الغنى عن الله ، الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم ، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر[٢] ، ولهذا جمع بينهما في قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ الآية) أ.هـ. وقد قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ الآية[٣] [سورة المائدة : ٣] .

ولو سُمِّي عليه اسم الله ﷻ ، فإنه يكون محرماً ، ويكون من الشرك الأكبر ، والغالب أن الذي يُذبح لغير الله لا يذكر عليه اسم الله ، ولذلك يوصي المشعوذون المرضى أن لا يُسموا على الذبيحة : أي لا يقولوا باسم الله ، ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ : أي اذبح له ، وذلك أن الله لما أعطى نبيه الكوثر ، وهو نهر في الجنة ، وقيل : الكوثر : الخير الكثير ، ومنه النهر أيضاً أمره بالشكر ، فقال : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ : شكراً لله على ما أعطاه من الكوثر . ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ أي : مبغضك أيها النبي هو الأبتر ، مقطوع الصلة ، مقطوع الذكر ، وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن محمداً رجل أبتر ليس لديه ذرية ذكور فإذا مات سينقطع ذكره ، فرد الله ﷻ عليهم بقوله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ فالذي يبغض الرسول ﷺ هو الذي سيكون أبتر مقطوع الذكر ، ولا يذكر إلا بالذم واللعن من أعداء الرسول ﷺ ، ليس لهم ذكر ولا لسان صدق في العالمين ولا يُذكرون إلا بالذم والتنقص ، والشاهد من الآية مثل الآية التي قبلها : أن الذبح عبادة ؛ لأن الله قرنه بالصلاة وأمر بأن يُذبح ويُنحر له ﷻ ولا يذبح لغيره .

(١) الصلاة عبادة بدنية فيدخل فيها كل العبادات البدنية ، والنسك عبادة مالية فيدخل فيها كل العبادات المالية ، كلها لله ﷻ .

(٢) إما أنهم لا يذبحون خوفاً من الفقر ، وإما أنهم يذبحون ، لكن لغير الله ، وهذا شرك .

(٣) والشاهد في قوله : ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ : يعني ذبح لغير الله سواء باللفظ أو بالنية والقصد .

قوله : « عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثاً ، لعن الله من غيَّر منار الأرض »[1] رواه مسلم ، وعلي بن أبي طالب : هو الإمام

(١) هذا الدليل من السنة ، بعد أن ذكر الأدلة من القرآن على تحريم الذبح لغير الله ، ذكر الدليل من السنة ، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : « لعن الله من ذبح لغير الله » الكلمة عند اللغويين تطلق ويراد بها النطق ولو كانت حرفاً واحداً هذا عند أهل اللغة ، أما عند النحويين تطلق الكلمة ويراد بها الجُملة ، ولهذا يقول الناظم[*] :

كَلَامُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كَاسْتَقِمْ ... واسْمٌ وفعلٌ ثم حرفٌ الكَلِمْ
وَاحِدُهُ كَلِمةٌ والقَوْلُ عَمْ ... وكَلِمَةٌ بِها كَلامٌ قَدْ يُؤَمْ

وقد يراد بالكلمة الجملة كما ذكر الله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١٠٠] ، الكلمة في قوله : ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ . لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ فهذه جملة وسماها الله كلمة ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ فيراد بالكلمات هنا في الحديث أربع جمل . واللعن معناه : الطرد والإبعاد عن رحمة الله ﷻ ، ولا يكون إلا على كبيرة من كبائر الذنوب ، فمن ضوابط الكبيرة : أن يلعن من فعلها أو ارتكبها ، فإذا لعن الله ﷻ على شيء ، أو لعن الرسول ﷺ على شيء دلَّ على أنه محرم ، وأنه كبيرة من كبائر الذنوب ، فدل على أن ما جاء في هذه الجمل الأربع كله من كبائر الذنوب . « لعن الله من ذبح لغير الله » : قدَّم لعن الذابح لغير الله على الجمل الأخرى لأهمية هذا الأمر ، ولأن الشرك أعظم المحرمات . فأعظم ما أمر الله به التوحيد ، وأعظم ما نهى الله عنه الشرك ، ولذلك قدَّمه الرسول ﷺ في هذا الحديث . وفي قوله : « لغير الله » : لم يستثن شيئاً سواء كان مَلَكاً أو نبياً أو ولياً أو شجراً أو حجراً أو جنّاً أو إنساً أو غيره ، فهو ملعون قد لعنه النبي ﷺ . لأي قصد كان . وهذا هو محل الشاهد من الحديث أن من ذبح لغير الله فإنه ملعون على لسان رسول الله ﷺ ، وأنه لا يستثنى من ذلك شيء ؛ لأن الذبح

*) انظر ألفية ابن مالك ص ٩ .

عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله ﷻ .

« لعن الله من لعن والديه » : هذه الكلمة الثانية ، فالله ﷻ جعل حق الوالدين بعد حقه ، قال تعالى : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ [سورة النساء : ٣٦] ، وقال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ ﴾ [سورة الإسراء : ٢٣] ، وقال : ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥١] . ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ . وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ ﴾ [سورة لقمان : ١٣ - ١٤] ، فدائماً يأتي حق الوالدين بعد حق الله ﷻ ، فحقهم البر والإحسان وردّ الجميل ، والتواضع ، وخفض الجناح لهما ، وعدم إثارة ما يغضبهما بالكلام وبالفعل ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا . وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ [سورة الإسراء : ٢٣ - ٢٤] ، والعقوق من أكبر الكبائر ، ومن الموبقات ، فطاعة الوالد تأتي بعد طاعة الله لكن بالمعروف ، قال تعالى : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ ﴾ [سورة لقمان : ١٥] فلا تطعهما في الشرك ، ولكن يبقى حقهما من الإكرام والإحسان ، ﴿ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ﴾ [سورة لقمان : ١٥] ، فالذي يغير هذا الحكم الإلهي في حق الوالدين ويقابلهما بالعقوق والكلام السيء ، وأقبح الكلام اللعن ، فإذا لعن والديه أو أحدهما فقد لعنه الله ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، والوالدن يشمل الآباء والأجداد والجدات ، مهما علوا يقال لهم والدان ، فلا يجوز للإنسان لعن والديه بأن يتفوه بذلك أو يتسبب في لعن والديه كأن يسب أبا أحد أو أم أحد فيسب أباه في المقابل فيكون الإثم على البادئ والمتسبب وهو الولد ، ولهذا لما سُئل النبي ﷺ : كيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه »(*) فلا يلعن والديه مباشراً ولا تسبباً ، ومن فعل ذلك فإنه مستحق للعنة الله ﷻ . « لعن الله من آوى محدثاً » : هذه الكلمة الثالثة ، آوى : يعني ضمه إليه ودافع عنه وحماه والمحدث هو الذي فعل فعلاً يوجب

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢٢٢٨ (٥٦٢٨) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٩٢ (٩٠) ، واللفظ للبخاري .

=

عليه حد من الحدود ، يوجب عليه إقامة الحد كالزاني ، والسارق ، وشارب الخمر ، وقاطع الطريق ، فمن فعل جريمة تستوجب الحد عليها فلا يجوز لأحد أن يحول بينه وبين إقامة الحد ، فمن حال بين إقامة الحد بشفاعته أو بسلطته فإنه ملعون ، ولهذا جاء في الحديث : « إذا بلغت به السلطان فلعن الله الشافع والمشفع »(*) وأراد أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أن يشفع في امرأة من قريش من بني مخزوم سرقت فتقرر قطع يدها فأراد أسامة أن يشفع لها ، فغضب عليه النبي ﷺ مع أنه يحبه أشد الحب ، وقال له : « أتشفع في حد من حدود الله ، ... إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت لقطعت يدها »(**) ، وهو الصادق المصدوق ﷺ فلا يجوز أن يقوم الإنسان بإسقاط الحد على من تقرر عليه حد سرقة أو حد زنا أو شرب خمر أو غير ذلك من الحدود ، فلابد من تنفيذ الحد إذا ثبت وتقرر ، ومن تدخل بإسقاطه فإنه يكون مضاداً لحكم الله ويكون ملعوناً . ويروى أيضاً « محدَثاً » بفتح الدال : والمحدَث أي ما أحدث في الدين من البدع والخرافات فلا يجوز للمسلم أن يأوي البدع وأن يناصرها ويدافع عنها ، فمن دافع عن البدع وناصرها ، فإنه يكون ملعوناً على لسان رسول الله ﷺ ، ومنهم الذين يؤلفون الكتب في مناصرة البدع ، وصبغتها بصبغة التشريع ويلقون المحاضرات والندوات والخطب ، وينكرون على أهل السنة والجماعة الذين يردون البدع ويحذرون منها ويعيِّروهم ، هؤلاء يدخلون في هذا الحديث « من آوى محدَثاً » ؛ لأنهم آووا المحدَث وهو البدعة - والعياذ بالله - لأن الواجب إنكار البدع والتحذير منها ، والأمر بلزوم السنة والاعتماد عليها ، هذا هو الواجب على المسلمين ، وما أكثر من يناصرون البدع وما أكثر من يناصرون المجرمين ويدافعون عنهم ، ويحولون دون إقامة حدود الله في الأرض - نسأل الله العافية والسلامة - لكنهم معلونون على لسان رسول الله ﷺ فليفعلوا ما شاؤوا ، فإنهم لن يفلتوا من حكم الله ﷻ . والكلمة الرابعة « لعن الله من غيَّر منار الأرض » : المنار هي العلامات ؛ لأنها تنير للناس الصواب

(*) أخرجه الإمام مالك في « الموطأ » - برواية أبي مصعب الزهري - ٢ / ٤٣ (١٨٢٣) .

(**) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١٢٨٢ (٣٢٨٨) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٣١٥ (١٦٨٨) .

=

أبوالحسن الهاشمي ، ابن عم النبي ﷺ ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنهما كان من أسبق السابقين الأولين ، ومن أهل بدر وبيعة الرضوان ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، ورابع الخلفاء الراشدين ، ومناقبه مشهورة رضي الله عنه ، قتله ابن ملجم الخارجي في رمضان سنة أربعين .

قال أبو السعادات : (أصل اللعن : الطرد والإبعاد من الله) .

قوله : « من ذبح لغير الله » ، قال شيخ الإسلام : قوله : « ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦلِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٣] ، ظاهره أنه ما ذبح لغير الله مثل : أن يقال هذا

من الحق . وقالوا : وهذا محمول على المراسيم التي تكون بين أملاك الناس ، يأتي من يقدمها ويؤخرها عن وضعها من أجل أن يأخذ شيئاً من أرض الآخر . يقال : هذا المرسام . وهذا ملعون ، وقد جاء في الحديث : « من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين »(*) ، فالمسألة ليست سهلة ، قدمت مراسيمك وأخذت من حق جيرانك وانتهى الوضع ، الأمر وراءه حساب ووراءه عقوبة ومسؤولية أمام الله ﷻ ، لو أخذت شبراً من أرض شريكك أو أرض جارك - نسأل الله العافية - وقيل : المراد بمنار الأرض : حدود الحرم المكي أو النبوي ، لا يجوز تغيير الحدود ؛ حتى لا يدخل في الحرم شيئاً ليس منه أو يخرج شيئاً من الحرم . وقيل : المراد بمنار الأرض : العلامات التي على الطرق ، وهي اللوحات التي تكون على الطرق ، تهدي المسافرين فإذا أزيلت أو غُيِّرت ضلَّ المسافرون ، وربما يحصل بسبب ذلك هلاك ، وفي الحقيقة أن كل هذه الأمور داخلة في منار الأرض ، يدخل فيها المراسيم ، ويدخل فيها أنصاب الحرم ، يدخل فيها منار الطريق ، ولكن النوع الأول هو آكدها وهي المراسيم ، واقتصر عليه بعض الشُّرَّاح وهو المتأكد ؛ لأنه يفصل بين الحقوق ويمنع الظالم أن يتعدى .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١١٦٨ (٣٠٢٦) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٢٣٠ (١٦١٠) ، واللفظ لمسلم .

ذبيحة لكذا ، وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبح للَّحم ، وقال فيه : باسم المسيح ونحوه ، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه : باسم الله[(١)] ، فإذا حرَّم ما قيل فيه باسم المسيح والزُّهرة ، فلأن يَحرُم ما قيل فيه : لأجل المسيح أو الزُّهرة أو قصد به ذلك أولى . فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله ، فعلى هذا لو ذبح لغير الله متقرباً إليه يحرم وإن قال فيه : بسم الله ، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة ، الذين يتقرَّبون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك ، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال » الخ . قلت : ومن ذلك : الذبح للجن[(٢)] .

قوله : « لعن الله من لعن والديه » يعني أباه وأمه وإن علوا ، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » ، قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه »[(٣)] .

قوله : « لعن الله من آوى محدَثاً » ، هو بفتح الهمزة ممدودة أي : ضمه إليه وحماه . وأما « محدِثاً » ، فقال أبو السعادات : (يروى بكسر الدال وفتحها على

---

(١) ما ذبحناه للحم ويذكر عليه اسم الله هذا مباح ، لكن الذبح لله عبادة : إما واجب ، وإما مستحب .

(٢) الذبح للجن للعبادة ، أو الذبح للجن لاتقاء شرهم ، أو الذبح للجن عندما ينزل منزلاً أو يعمل مصنعاً أو يعمل مشروعاً يذبح للجن عند بداية المشروع لأجل ألا يضروه .

(٣) واللعن محرم ولو لغير الوالدين ؛ لأن المؤمن ليس بالطعان ولا باللعان ، فكيف إذا كان للوالدين ؟!

الفاعل والمفعول ، فمعنى الكسر : من نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يقتص منه ، والفتح : هو الأمر المبتدع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والصبر ، فإنه إذا ارتضى بالبدعة ، وأقرَّ فاعلها ، ولم ينكر عليه فقد آواه) . قال ابن القيم ﷺ : (هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه ، فكلما كان الحدث في نفسه أكبر ، كانت الكبيرة أعظم) .

قوله : « لعن الله من غيَّر منار الأرض » - بفتح الميم - علامات حدودها ، وهي التي توضع لتمييز حق الشركاء إذا اقتسموا ما بينهم في الأرض والدور . قال في « النهاية » : أي : (معالمها وحدودها) .

قلت : وذلك بأن يرفع ما جعل علامة على تميز حقه من حق شريكه ، فيأخذ من حق شريكه بعضه ، فهذا ظلم عظيم ، وفي الحديث : « من ظلم شبراً من الأرض طوَّقه من سبع أرضين يوم القيامة » . فما أجهل أكثر الخلق ، حتى وقعوا بجهلهم وظلمهم فيما يضرهم في دنياهم وأخراهم ، وذلك لضعف الإيمان بالمعاد والحساب على الأعمال والجنة والنار ، نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة .

قوله : عن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب » . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟! قال : « مرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما : قرِّب ! قال : ليس عندي شيء أقرب . قالوا له : قرِّب ولو ذباباً ، فقرب ذباباً فخلوا سبيله فدخل النار ، وقالوا للآخر : قرِّب ! فقال :

ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله ﷻ ، فضربوا عنقه فدخل الجنة » رواه الإمام أحمد[(١)] قوله : « عن طارق » هو : ابن شهاب البجلي الأحمسي ، أبو

(١) هذا الحديث رواه طارق بن شهاب البجلي الأحمسي رضي الله عنه وهو من صغار الصحابة ، يُقال : لم يرو عن الرسول ﷺ شيئاً لصغره ، فيكون رواه عن غيره من الصحابة وهذا لا يضر ؛ لأنه مرسل صحابي . والصحابي لا يرسل إلا عن صحابي مثله ، والصحابة كلهم عدول رضي الله عنهم . وكان النبي ﷺ يقصُّ على أصحابه من قصص الأولين ؛ لأجل العبرة والعظة ، وهذا من معجزاته ﷺ ؛ حيث أنه يخبر عن أشياء لم يكن أدركها أو شاهدها ، وإنما لأن الله تعالى أوحاها إليه وأعلمه بها دليلاً علن صدق رسالته ، قال : « مر رجلان على قوم لهم صنم » : صنم يعبدونه من دون الله ، « لا يجوزه أحد » : يعني لا يمرّ من عنده أحد ، « حتى يقرب له شيئاً » : يعني يذبح أو يتقرب له بشيء من العبادة . يجبرون الناس على أن يعبدوا هذا الصنم . ولا يدعونهم يمرون ، فإذا خضعوا لهذا الصنمُ تقربوا بشيء من أنواع العبادة يسمحون لهم بالدخول ، مثل الجوازات لا يسمحون لأحد يمر إلا ومعه جواز ، والجوازعندهم هو الشرك بالله ، وهذا دليل على حرص المشركين على عبادة غير الله ، ولذلك يبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل حماية الشرك - والعياذ بالله - فقد قاتلوا الرسل وقاتلوا المسلمين من أول الخليفة إلى الآن حماية للشرك وغيرة على الشرك - نسأل الله العافية - يقولون : دعوا الناس أحراراً ، كلاً يتبع ما يراه ، لا تصادرون الحريات وهم- المشركون - يصادرون الحريات ، ولا يتركون المسلمين ، فلو سكت عنهم المسلمون هم لا يسكتون عنهم ، أليسوا الآن يقتلون المسلمين ؟ لا لشيء إلا أن يقولوا : ربنا الله ؟! ما قالوا : الناس أحرار في عبادتهم اتركوا الناس كلاً على دينه ، تعايشوا التعايش السلمي - الذي يسمونه - ما حصل هذا من الكفار ، ولن يحصل أبداً ، لكن كيف نحن نقبل دعاياتهم في التعايش ، كما يقولون ، أبداً إذا تمكنوا من المسلمين فلن يتركوهم على دينهم أبداً . « لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً » : يعني أدنى شيء ؛ لأن مقصودهم الخضوع والانقياد والشرك بالله ﷻ . أما ما يُقرَّب سواء كان قليلاً أو كثيراً هذا لا يهمهم ، المهم أن توافقهم على كفرهم وعلى شركهم « فقالوا لأحدهما : قرِّب قال : ليس عندي شيءٌ أقرِّب » ما قال : هذا شرك ولا يجوز ، وأنا مسلم ، لا أقرب لغير الله . « قالوا له : قرِّب ولو ذباباً » : يعني اذبح لهذا الصنم ولو ذباباً ، فالرجل ذبح الذباب

=

تقرباً إلى الصنم من أجل أن يسمحوا له بالمرور « فخلوا سبيله ، فدخل النار » : لما وافقهم وذبح لغير الله سمحوا له فذهب إلى النار ، هذه عاقبة الشرك وعاقبة المشركين .
« وقالوا للآخر : قرب » ما قال : ما عندي شيء ، قال : « ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله ﷻ » صرح بعقيدته واعتز بدينه ، ولم يُجب ، وهكذا المؤمن يجب أن يعتز بدينه وعقيدته ولا يساوم عليها ، ولا يستحي من ذكرها أو مصارحتهم ، لو عنده أزواج من الإبل ومن الغنم ما تقرَّب بها ، ليست العبرة أنه ليس عنده شيء ، العبرة أنه لا يذبح لغير الله ، هذا هو التوفيق والشجاعة والاعتزاز بالدين والعقيدة ، « فضربوا عنقه » قتلوه « فدخل الجنة » . الموت حاصل حاصل لكن موتاً من بعده الجنة ولا موتاً من بعده النار ، هذا هو المهم .
فهذا الحديث واضح بأن الذبح لغير الله شرك ، ولو كان المذبوح قليلاً ولو كان ذبابة ؛ لأن العبرة ليست في المذبوح ، إنما العبرة بما في القلب ، فالذي سمح أن يذبح لغير الله دخل النار ، والذي لم يسمح دخل الجنة ، هذا هو مفترق الطرق بين الموحِّدين والمشركين ، فمن مات على الشرك دخل النار ، ومن مات على التوحيد دخل الجنة . والشيخ ؒ ذكر من فوائد هذا الحديث : فيه دليل على قرب الجنة والنار ، فما بينك وبين الجنة والنار إلا أن تموت ، والموت قريب ، لا تدري في أي ساعة تموت ، وتصير من أهل الجنة ، أو تموت وتصير من أهل النار ، وهذا مما يوجب على المسلم التمسك بدينه ، لئلا ينزل به الموت وهو على غير دينه ، وعلى غير عقيدته ، فيتأهب للموت في كل لحظة ويكون على استعداد ، يفكر في نفسه وعقيدته ، يكثر من ذكر الله ومن التسبيح والتهليل ، يكثر من ذلك لأجل أن يموت على هذا .
فهذا الحديث فيه أولاً : علمٌ من أعلام نبوته ﷺ ؛ حيث إنه حدَّث عن الأمم الماضية بشيء لم يشاهده .
ثانياً : فيه أن الذبح لغير الله شرك يوجب النار ، ولو كان المذبوح شيئاً يسيراً كالذباب والطائر والدجاج والحبارى والحمام ، فكيف بذبح الرعايا من الغنم والأزواج من الإبل التي تذبح عند قبر البدوي في طنطا أو غيره من الأضرحة ؟! يأتون بقطيع الغنم والإبل والبقر ، وغير طنطا في كل مكان عند القبور إلا هذه البلاد - ولله الحمد - حماها الله بالدعوة المباركة . ونسأل الله أن يثبتها على هذا وأن يكفيها شر الأعداء والحاسدين وأيضاً في البلاد في غير المملكة : الأضرحة تشتغل الليل والنهار بالشركيات والبلاء =

- ولا حول ولا قوة إلا بالله - تعرفون بذلك نعمة التوحيد ونعمة العقيدة ونعمة الدعوة إلى الله ﷻ ونعمة الإخلاص لله ﷻ ، هذه ثمرات الدعوة الصحيحة إلى الله ﷻ ، دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، هي التي تنقي وتطهر الأرض من الشرك والبدع ، أما المذاهب الأخرى والمناهج الأخرى فإنها تجيء بالوباء والشر وكلاً له دعاية ، وكلاً له طريقة ، إلا هذا الطريق الواحد ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٣] ، وقد يستشكل بعض الناس : أليس هذا الرجل مكره ، والمكره معفو عنه ؟ قال الله ﷻ : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [سورة النحل : ١٠٦] ، نقول : هذا ليس بمكره وما اعتذر بأن الذبح لغير الله لا يجوز ، وإنما قال : ما عندي شيء أقرّب ، فدل على أنه مقرٌّ بهذا الأمر ولم ينكر الشرك ، وحتى ولو لم يذبح . إذا أقرَّ الشرك وقال : هذا صحيح ، أو أنتم على حق أو كلاً على عقيدته فإنه يكفر بالله ؛ لأنه أقر الشرك فإذا ذبح له هذا أشد . ومن يذهب إلى مشعوذ أو ساحر ويقول له : اذبح ويذبح ، لكي يعالجه أليس هذا مثل الذبح للصنم ؟! ما الفرق بينهم ، وقد يعالجوه وقتها من باب الابتلاء والامتحان لكن إن لم يتب فهو من أهل النار - نسأل الله العافية - فالواجب على المسلمين أن يتنبهوا لهذا الأمر ، ولا يتساهلوا في أمر العقيدة ، وأشد من ذلك أن الإنسان لا يوالي ويعادي على هذا الأمر ، وأنه يوجد أمم متقدمة ومتحضرة على هذا الشيء . هل هم أكثر حضارة من قوم عاد أو من قوم نوح أو من قوم صالح ، وأصحاب الحجر ؟! فهل نفعتهم حضارتهم ؟! نفعهم تقدمهم ؟! لم ينفعهم . المدار والعبرة بالعقيدة ، فالعقيدة هي سبيل النجاة . أما الدنيا فلا قيمة لها ، إنما القيمة في العقيدة والدين ، هذا هو الذي عليه المدار ؛ لأن المشكلة الجهل بالحق ، وعدم تعلم العقيدة والتساهل في أمرها ، فلذلك يجب العناية بالعقيدة وتدريسها والتأمل فيها لأجل أن يعرف الإنسان الحق من الباطل ، ويعرف ما يضادها ويعرف ما يقويّها ويثبّتها ، العقيدة ليست شيئاً سهلاً . عُبّاد القبور يصلون ويصومون ويحجون ، لكن يعبدون القبور ، ويقولون : هذا هو التوحيد وهذا ماأدركنا عليه آباءنا والعلماء عندنا لم ينكروه ، هذه أعذار عند الله ﷻ ؟! هل تنجيك أمام الله ﷻ ؟! وأنت تقرأ القرآن وتسمع الأحاديث وتسمع كلام المحققين من أهل العلم ، نسال الله أن يثبتنا وإياكم على معرفة الحق أولاً ، ثم القبول والاتباع ثانياً .

عبد الله ، قال أبو داود : رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً[(١)] قال الحافظ : « إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي[(٢)] ، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه شيئاً فروايته عنه مرسل صحابي ، وهو مقبول على الراجح[(٣)] » وكانت وفاته على ما جزم به ابن حبان سنة ثلاث وثمانين . قال ابن القيم ﷺ : (قال الإمام أحمد ﷺ : حدثنا أبو معاوية قال : حدثنا الأعمش ، عن سليمان بن ميسرة ، عن طارق بن شهاب يرفعه قال : « دخل الجنة رجل في ذباب » ... الحديث) .

قوله : « في ذباب »[(٤)] أي : من أجله .

قوله : قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله[(٥)] ؟ كأنهم والله أعلم تقالوا هذا العمل ، وهو تقريب الذباب للصنم ، فبيَّن له ﷺ أن من فعل هذا وما هو أعظم منه وجبت له النار[(٦)] .

قوله : « قال : مر رجلان على قوم لهم صنم ، لا يجوزه أحد حتى يُقرب

---

(١) لم يسمع منه لصغر سنه ، لا لأنه لم يجتمع بالنبي ﷺ اجتماعاً كثيراً وإنما رآه وآمن به ولم يجلس إليه ، لأن الصحبة تحصل برؤية النبي ﷺ مع الإيمان به .

(٢) إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ مؤمناً به في حالة لقائه فإنه يكون صحابياً ، لأن تعريف الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات على ذلك .

(٣) مرسل الصحابي مقبول على الراجح عند المحدثين ، لأن الصحابي لا يخبر إلا عن صحابي مثله ، والصحابة كلهم عدول .

والجهالة إنما تضر في غير الصحابي ، أما إذا كان الراوي من الصحابة وهو مجهول لم يعرف اسمه هذا لا يضر .

(٤) قوله : في ذباب : الباء سببية ، أي : بسبب ذباب .

(٥) لأن ذلك محل عجب كيف دخل النار في ذباب ؟!!!

(٦) لأن العبرة بالتقرب إلى غير الله وليست العبرة بما يُقرَّب قلة أو كثرة .

له شيئاً ، فقالوا لأحدهما : قرِّب ، قال : ليس عندي شيء أقرب ، قالوا له : قرِّب ولو ذباباً ، فقرّب ذباباً فخلو سبيله ، فدخل النار » ؛ لأنه قصد غير الله بقلبه وانقاد بعمله ، فوجبت له النار[1] ، ففيه معنى حديث مسلم - الذي تقدم في باب الخوف من الشرك - عن جابر مرفوعاً : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار »[2] فإذا كان هذا فيمن قرَّب للصنم ذباباً ، فكيف بمن يستسمن الإبل والبقر والغنم ؛ ليتقرَّب بنحرها وذبحها لمن كان يعبده من دون الله[3] ، من ميت أو غائب[4] أو طاغوت[5] أو

(١) لأنه لم يعتذر بأن هذا الشيء لا يجوز بل قال : ليس عنده شيء .. اعتذر بالعدم .

(٢) « يشرك به شيئاً » : وشيئاً : نكرة في سياق الشرط فتعم كل شيء قليلاً كان أو كثيراً ، وهذا في القرآن ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [سورة النساء : ٣٦] يعني أي شيء .

(٣) إذا كان هذا فيمن ذبح الذباب للصنم .. كيف بالذي يختار الإبل السمينة والأبقار والأغنام السمينة ويذبحها للقبور وللأصنام تقرباً إليها ؟؟ هذا أشد - والعياذ بالله - كما يحصل عند القبور الآن(*) .

(٤) من ميت : أي صاحب قبر . أو غائب : من الجن ، يذبح للجن أو الشياطين من أجل أن يحصل له مقصوده ، فهذا يكون مشركاً بالله ﷻ ، مستحقاً لدخول النار .

(٥) أو طاغوت من الطواغيت ، الطاغوت : مأخوذ من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد . ومن الطواغيت من دعا إلى عبادة نفسه والذبح له والنذر له مثل ما يفعله الطواغيت الذين يوصون بأن يذبح لهم ويتقرب إليهم وأن يستغاث بهم .
وكل من عُبد من دون الله وهو راضٍ بالعبادة له فإنه طاغوت ، أمـا الذي يُـعبد من دون

(*) سئل شيخنا حفظه الله : يقوم بعض الناس في بعض البلدان الإسلامية بالذبح عند بعض القبور ، ويقولون : نحن لا نذبح لصاحب القبر ، إنما نوفي بنذر علينا ، ونحن نذبح لله ﷻ . فأجاب : هذا كذب ، ما دام أنهم أتوا عند القبر ، فإنهم يعتقدون فيه ، وإلا لما أتوا عند القبر ، والله ﷻ لم يأمر بالذبح عند القبر ، فهو من الشرك ، ووسيلة من وسائل الشرك . أ.هـ

=

مشهد[١] أو شجر أو حجر أو غير ذلك[٢] وكان هؤلاء المشركون في أواخر هذه الأمة يعدُّون ذلك أفضل من الأضحية في وقتها الذي شُرعت فيه[٣] ، وربَّما اكتفى بعضهم بذلك عن أن يُضحِّي ؛ لشدة رغبته وتعظيمه ورجائه لمن كان يعبده من دون الله[٤] وقد عمَّت البلوى بهذا وما هو أعظم منه[٥] .

قوله : « وقالوا للآخر : قرِّب ، فقال : ما كنت لأقرِّب لأحد[٦] شيئاً دون

الله وهو لم يرض بذلك وينهى عنه مثل الأنبياء والأولياء والصالحين الذين ينكرون الشرك ، لكن لما ماتوا عبدوهم من دون الله . هؤلاء لا يسمون طواغيت في أنفسهم مثل عيسى ﷺ ومثل الأولياء والصالحين ، لكن الشيطان هو الذي أمرهم بذلك فهم يعبدون الطاغوت ، يعني الشيطان ، هو الذي دعاهم إلى عبادة غير الله ﷻ .

(١) المشهد : هو القبر المبني عليه مثل : مشهد الحسين في كربلاء ، ومشهد البدوي في طنطا بمصر .

(٢) أو يذبح لشجرة يتبرك عندها ، كالذبح للات والعزى ومناة .

(٣) هؤلاء يتقربون إلى القبور وإلى الأضرحة ويعتبرون ذلك أفضل من الذبح لله .. أفضل من ذبح الأضحية التي هي نسك وأفضل من ذبح العقيقة للمولود ، يعتبرون الذبح للقبر أفضل من الذبح المشروع الذي يتقرب به إلى الله ﷻ .

(٤) ربما بعضهم لا يضحي ويكتفي بالذبح للقبر ويقول هذا يكفي .

(٥) يعني في آخر الأمة ، يعني أنه بعد القرون المفضلة كثر هذا في الناس - الذبح للقبور - واعتبروه هو الدين وأن الذي لا يذبح للقبور يكون جافياً ومتنقصاً للأولياء والصالحين وخارجاً عن الدين ويسمون الموحدين بالخوارج لماذا ؟ لأنهم خرجوا عن دين المشركين .

(٦) فرق بين الجوابين هذا قال : « ما كنت لأقرب » حتى لو عنده شيء ، حتى لو عنده إبل أو بقر أو غنم ، « ما كنت لأقرب » : هذا من باب الاستحالة أن يقرب لأحد شيئاً - ولو كان حقيراً - دون الله ﷻ . هذا هو الموحِّد الذي جهر بعقيدته وأعلن براءته من الشرك والمشركين ، وهذا واجب المؤمن . أن يتمسك بعقيدته ، وأن يعلن بها ويجهر بها ، لأنها حق .

الله ﷺ[١] ، فضربوا عنقه فدخل الجنة »[٢] ففيه : معرفة قدر الشرك في قلوب أهل الإيمان[٣] ونفرتهم عنه وصلابتهم في الإخلاص ؛ كما في حديث أنس - الذي في البخاري وغيره - الآتي إن شاء الله : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » . وفيه : « وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار »[٤] وفيه : تفاوت الناس في الإيمان[٥] ؛ لأن هذا الرجل الذي قرّب الذباب لم يكن له عمل يستحق به دخول النار قبل ما فعله مع هذا الصنم[٦] ، كما هو ظاهر الحديث والله أعلم .

---

(١) أي : غير الله فالذبح لا يكون إلا لله ﷻ .

(٢) ضربوا عنقه : أي قتلوه ودخل الجنة ، لأنه مات على التوحيد .
دل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ، كما قال ﷺ : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة » .

(٣) امتنع عن الذبح لأنه شرك ولو كان المذبوح شيئاً تافهاً ، لكنه عظّم الشرك وتجنبه ولم يتهاون به ، وهذا واجب المؤمن أنه ما يتساهل في أمور الشرك أبداً .

(٤) هذا كَرِه الشرك وكَرِه أن يعود فيه وصبر على القتل ، فكان من أهل الجنة .

(٥) نعم هذا حمله إيمانه ويقينه على الامتناع عن الشرك وعلى الصبر على القتل ، وهذا حمله ضعف الإيمان على أن يرتد عن الدين ، وذبح لغير الله .

(٦) لأنه كان مسلماً ، ولأنه لو كان كافراً لدخل النار بالكفر ، لم يدخله بالذباب ، فدل على أنه كان مسلماً ، وأنه لما ذبح لغير الله ارتد عن دين الإسلام وصار مشركاً .

١١ - باب لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨] .

عن ثابتِ بن الضحَّاك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : نذرَ رجلٌ أن ينحرَ إبلاً ببوانة ، فسأل النبي ﷺ ؟ فقال : « هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد ؟ » . قالوا : لا . قال : « فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم ؟ » . قالوا : لا . فقال رسول الله ﷺ : « أوفِ بنذرِكَ ؛ فإنّهُ لا وفاء لنذرٍ في معصية الله ، ولا فيما لا يملكُ ابنُ آدم » . رواه أبو داود ، وإسناده على شرطهما .

١١ - باب لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله

قوله : (باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله)(١) . أشار ﷺ إلى ما

(١) هذا الباب تابع للباب الذي قبله ، الباب الذي قبله في الذبح لغير الله ، وهذا الباب في الذبح لله لكنه في مكان كان يذبح فيه لغير الله ، وهذا ممنوع من باب سد الذرائع ، وهو تابع لما قبله فلا يجوز الذبح لغير الله ولا يجوز الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله ؛ لأن هذا من وسائل الشرك ، والنبي ﷺ جاء لسد الطرق والوسائل التي تفضي إلى الشرك ، فنهى عن الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله ، ونهى عن الصلاة عند القبور ، لأن هذا من وسائل عبادة القبور وإن كان المصلي لا يصلي إلا لله ، ونهى عن الدعاء عند القبور وإن كان الداعي لا يدعو إلا الله ، لأن هذا وسيلة لدعوة غير الله ، وسيلة لدعوة القبور ، ونهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها وإن كان المصلي لا يقصد بصلاته إلا الله ، لأن هذا وسيلة إلى عبادة الشمس عند طلوعها أو عند غروبها كما كان المشركون يسجدون لها في هذين الوقتين ، فهذا الباب فيه منع الوسائل التي تفضي إلى الشرك .

كان الناس يفعلونه في نجد وغيرها قبل دعوتهم إلى التوحيد(١) من ذبحهم للجن ، لطلب الشفاء لمرضاهم(٢) ، ويتخذون للذبح لهم مكاناً مخصوصاً في دورهم(٣) ، فنفى الله سبحانه الشرك بهذه الدعوة الإسلامية(٤) ، فلله الحمد على زوال الشرك والبدع والفساد ؛ بطلعة الداعي إلى توحيد رب العباد(٥) .

---

(١) كانوا في نجد يذبحون في الغيران ، وعند الأشجار ، والأحجار ، يتعلقون بها ويطلبون الشفاعة ، والمرأة تطلب الحمل وغير ذلك ، حتى جاء الله بدعوة التوحيد على يد المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ فأزال عن المسلمين وعن بلاد المسلمين هذا الشرك بسبب الدعوة إلى الله ﷻ ، والصدق في الدعوة إلى الله ، فالذبح للأشجار والأحجار والغيران هذا موروث من مواريث الجاهلية .

(٢) أو يذبحون للجن من أجل الشفاء وهذا يفعله المشعوذون ، الآن إذا ذهب إليهم المريض يقولون له : اذبح كذا ولا تسمي عليها الله تقرباً إلى الجن ، وحتى لو قال بسم الله ما دام أنه يقصد التقرب إلى الجن فهو شرك بالله ﷻ ولو ذكر اسم الله عليه ؛ لأن العبرة بالمقصد والنية ولو ذكر اسم الله عليه فهو شرك .

(٣) في دورهم ، أو في الغيران ، أو عند الأشجار ، أو في الأمكنة حسب ما يخطط لهم شياطين الإنس والجن .. المكان الفلاني إذا ذبحت فيه يحصل كذا ، أو تمسحت به يحصل لك كذا وكذا ، أو أخذت من ترابه .

(٤) كما محاه من قبل بدعوة الرسول ﷺ ، فهذه الدعوة تابعة لدعوة الرسول ﷺ وهي تجديد أصل الدعوة دعوة الرسول ﷺ والعلماء يجددونها في كل وقت يبعثهم الله مجددين .

(٥) الحمد لله هذه نعمة عظيمة على هذه البلاد ، ونسأل الله أن يديمها ، ولكن الآن أعداء الإسلام يحاولون أن يزيلوا هذه الدعوة من هذه البلاد ، فصاروا يكتبون ويحضرون ويلقون الشبه ، ويلقون أيضاً الحجج الباطلة ، ويزهدون في هذه الدعوة ، ويقولون : الناس كلهم مسلمين ، يقصدون بالناس عبَّاد القبور والمبتدعة . هذا قصدهم يريدون ألا يكون هناك فرق بين أهل السنة والجماعة ، وبين الفرق الضالة أو القبورية أوالصوفية كلهم مسلمون ، وابن عبد الوهاب ما جاء بشيء ؛ بل هو ظَلّم الناس ، واتهمهم بالكفر والشرك يقولون هذا الآن ويَكْذِبون ، أو يقولون بحرية الرأي ، وحرية القول ، وكل =

قوله وقول الله تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾(1) [سورة التوبة : ١٠٨] أي : مسجد

يدي ما عنده ولا يُمنع أحد ، حتى ما ينكر الشرك ، يقولون : هذا رأي ، وهذه عقيدته ، دعه يجاهر بها ويصرح بها ، هكذا يقولون الآن ، يريدون أن يقتلعوا هذه الدعوة المباركة من أرض التوحيد ومنبع الرسالة ، فإذا اقتلعت هذه من بلاد التوحيد ومن أرض الحرمين الشريفين سهل بقية العالم .

(1) قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ ﴾ لأن الضمير فيه عائد على ما قبله ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [سورة التوبة : ١٠٧ - ١٠٨] .

فقصة هذا المسجد – ويسمى بمسجد الضرار – أن جماعة من المنافقين الذين أظهروا الإسلام مكراً وخداعاً وهم يكيدون للمسلمين ، ويريدون تفريق المسلمين والإيقاع بهم ، اجتمع رأيهم في أن يبنوا مسجداً يجتمعون فيه أو يبنون مكاناً يجتمعون فيه للتشاور للمكر بالمسلمين ، وسموه مسجداً من باب الخداع ولئلا ينكر عليهم ذلك ولأجل الإضرار بمسجد قباء ليصرفوا الناس عن مسجد قباء الذي هو أول مسجد أسس على التقوى ، فأرادوا المضارة بأهل مسجد قباء الذين بنوه وأسسوه على التقوى والإخلاص لله ﷻ ، فهم قصدوا مقصدين قبيحين : المقصد الأول : أرادوا بناء مجمع يجتمعون فيه للتشاور والمكر بالمسلمين . المقصد الثاني : أرادوا أن يصرفوا الناس عن مسجد قباء الذي أسس على التقوى ، فلذلك سمي بمسجد الضرار ، لأنهم يريدون المضارة بالصحابة الذين يصلون في مسجد قباء ، ثم لما أنهوا البناء بقصد هذا الخبث أرادوا التعمية والتغطية على فعلهم هذا ، فجاءوا إلى النبي ﷺ وأخبروه أنهم بنوا هذا المسجد من أجل الرفق بالمسلمين الذين لا يستطيعون الذهاب إلى مسجد قباء لضعفهم ولكبرهم ، أو في الليلة المطيرة أو الليلة الشاتية ، هذا قصدهم في الظاهر وطلبوا من النبي ﷺ أن يصلي فيه ، لأن النبي ﷺ إذا صلى فيه أقرّه ولم يستنكره أحد ؛ لأن النبي ﷺ صلى فيه ، هذا قصدهم ، قصدهم ستر خزيهم والرسول ﷺ لا يعلم الغيب ولم يعلم عن قصدهم ، هذا لا يعلمه إلا الله ﷻ .

=

الضرار المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١) وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ (٢) وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ (٣) وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا

فقال لهم النبي ﷺ : إننا سنخرج إلى غزوة تبوك – كان يتجهز لغزوة تبوك لغزو الروم في تبوك من بلاد الشام – ولكن إذا أتينا نصلي فيه وعدهم ﷺ لأنه لا يعلم الغيب وفي التأخير حكمة من الله ﷻ ، فلما قفل النبي ﷺ من غزوة تبوك ولم يتبق على قدومه إلى المدينة إلا يوم أو وقت يسير جاءه الخبر من الله ﷻ بواسطة جبريل ﷺ فنزلت عليه الآية ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً ... ﴾ إلى قوله : ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ أي : لا تصلي فيه . الرسول ﷺ يصلي لله ، لكن لما كان هذا المكان مبنياً على نية فاسدة ومكر بالمسلمين نهاه الله عن الصلاة فيه ، فدل على أنه لا يتقرب إلى الله في مكان المعصية ومكان الكفر والشرك ومن ذلك الذبح ، فلا يذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله ﷻ ، هذا وجه الاستدلال في الآية الكريمة . لما مُنع النبي ﷺ من الصلاة في هذا المسجد الذي أسس للكفر والنفاق فإنه يمنع الذبح في المكان الذي هو مخصص للشرك من باب أولى .

(١) لأن الله عدد في سورة التوبة طوائف المنافقين وذكر منهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً .

(٢) وهذا رجل يقال له أبو عامر من الخزرج من أهل المدينة ، كان قد قرأ الكتب القديمة في الجاهلية وتلطف وأظهر التنسك ، وصاروا يطلقون عليه أبو عامر العابد ، فلما بُعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة وظهر أمر النبي ﷺ في المدينة حسده ، وأراد الوقوف في وجه الدعوة فلم يتمكن من ذلك ، فذهب إلى الشام يؤلب الكفار على الرسول ﷺ ، ثم كتب إلى المنافقين في المدينة يأمرهم بأن يبنوا مكاناً للاجتماع والتشاور من أجل المكر بالمسلمين إرصاداً لمن حارب الله ورسوله وهو أبو عامر الفاسق سماه النبي ﷺ الفاسق بدل العابد(*) .

(٣) يزيدون الأمر – والعياذ بالله – بأن يحلفوا بالله وهم كاذبون ، ومن صفات المنافقين أنهم يحلفون وهم كاذبون ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة المجادلة : ١٤] من أجل أن يروجوا على الناس ، فما كل من حلف يصدق ، قال الله ﷻ ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ [سورة القلم : ١٠] .

(*) انظر : تفسير ابن كثير ٤ / ٢١٠ مطولاً .

لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾[1] [سورة التوبة : ١٠٧ - ١٠٨] . وهو مسجد قباء ، فقد أُسس على التقوى من أول يوم قدم فيه ﷺ المدينة مهاجراً[2] ، وكان أهل مسجد الضِّرار قد بنوه قبل خُروج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك ، فأتوه فسألوه أن يصلي فيه ، وذكروا له أنهم بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية[3] ، فقال : « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله »[4] ، فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعضه نزل الوحي بخبر المسجد فبعث إليه وهدمه قبل قُدومه إلى المدينة - صلوات الله وسلامه عليه[5] - وأنزل الله فيه هذه الآيات . ووجه مطابقة الآية للترجمة : أن هذا المسجد لما أُسس على معصية الله والكفر به ، صار محل غضب ؛ فنهى الله نبيه ﷺ أن يقوم فيه لوجود العلة المانعة ، وخرج مخرج الخصوص ، والنهى عام[6] ، وما كان مثله من الأمكنة ، مما أعد

---

(١) وهو مسجد قباء ، وقيل : مسجد الرسول ﷺ ، والصحيح أنه يعم المسجدين ، كل منهما أسس على التقوى ، يقال في مسجد الرسول ﷺ وهو أحد المساجد الثلاثة ، ويقال في مسجد قباء ، ويُصلى فيه ؛ لأن النبي ﷺ كان يخرج إليه ويصلي فيه راكباً وماشياً .

(٢) أول ما بُني مسجد قباء لأنه في طريق الرسول ﷺ ، فالنبي ﷺ قدم على أهله وصلى فيه ، يقال له مسجد بني الأشهل من الأنصار ، وهو مسجد قباء لأن المكان أو الحارة التي هو فيها تسمى قباء . بقي لهذا المسجد ولله الحمد الذكر الطيب ، وصار مباركاً ويُصلى فيه ، لأن نية أصحابه الذين أسسوه نية طيبة .

(٣) يظهرون الرحمة والشفقة على المسلمين .

(٤) لأنه ﷺ لا يعلم الغيب ، وكان ﷺ لا يرد سائلاً ، من كرم أخلاقه ﷺ أنه لا يرد سائلاً .

(٥) أرسل النبي ﷺ إلى مسجد الضرار من هدمه وأحرقه قبل قدومه إلى مسجد المدينة ، فدل هذا على وجوب هدم مساجد الضرار .

(٦) نعم ، خرج مخرج الخصوص ، والنهي عام عن كل مكان اتخذ للكفر والشرك فلا يجوز =

للمعصية وخص بفعلها فيه ، فإنه يُعطى حكمه[١] ؛ لأن المعصية صيرته محلاً خبيثاً ، وأثرت فيه بالنهي عن العبادة فيه[٢] ، ويقابل ذلك المساجد ، فإن الله شرّفها ؛ لما بنيت لطاعته والصلاة فيها جمعة وجماعة ، وهي أشرف بقاع الأرض قال تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ﴾[٣] الآية [سورة النور : ٣٦ - ٣٧] فما أحسن هذا القياس[٤] .

ويأتي تقريره إن شاء الله تعالى في الحديث في الباب . قوله : عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه ، قال : نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة ، فسأله النبي ﷺ ، فقال : « هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ » . قالوا : لا . قال : « فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ » . قالوا : لا . فقال رسول الله ﷺ : « أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم »[٥] رواه

للمسلم أن يتعبد لله فيه وإن كانت نيته صالحة ؛ لأن هذا من وسائل الشرك ولأنهم يحتجون بهذا ، ويُلَبّسون على الناس .

(١) هذا يشمل كل من بيّت نية خبيثة وأظهرها بمظهر النية الطيبة ، عمل مشروعاً من المشاريع يُظهر أنه في صالح المسلمين وهو لكيد الإسلام والمسلمين هذا لا يصدّق ولا يساعد ولا يعان على شر ، ليس هذا خاصاً بمسجد الضرار ، بل يعم كل ما اتخذ مكراً وخداعاً وحيلة للإضرار بالإسلام والمسلمين ولو كان ظاهره الخير .

(٢) ومن مساجد الضرار المحرمة : المساجد المبنية على القبور لا تجوز الصلاة فيها ، ويجب هدمها ، فإذا تمكن المسلمون من هدمها هدموها .

(٣) إذن يعني : شرع ، وهي المساجد ، شرع الله بناء المساجد للصلاة فيها ولذكر الله فيها .

(٤) ما أحسن هذا القياس من الشيخ رحمه الله ؛ حيث استدل بهذه الآية ، آية مسجد الضرار على الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله ، وهذا واضح .

(٥) هذا هو الدليل من السنة ، فقوله : « نذر رجل » النذر في اللغة : الإلتزام ، يقال : نذر ،
=

إذا التزم به ، ونذرت دم فلان إذا ألزم نفسه بقتله ، وأما النذر في الشرع : فهو إلتزام عبادة لم تكن واجبة في أصل الشرع ، مثل : صدقة ، صلاة ، صيام ، حج ، عمرة ، .. إلخ .

قوله : « أن يذبح إبلاً ببوانة » بوانة : اسم موضع بين مكة والمدينة ، فجاء الرجل يستفتي النبي ﷺ هل يوفي بنذره ؟! وهكذا ينبغي للمسلم أن يسأل أهل العلم عما أشكل عليه ، ولا يعتمد على رأيه فربما يكون مخطئاً ، فهذا الرجل يسأل النبي ﷺ قبل أن ينفذ ، وهذا هو الواجب ، والرسول ﷺ استفصل ، ولم يبادر بالفتوى ، فقال : « هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ » . والوثن : هو ما عُبد من دون الله من قبر ، أو حجر ، أو شجر ، أو صنم . أما الصنم : فإنه خاص بما كان على صورة إنسان أو حيوان .

والجاهلية : هي ما قبل الإسلام ، وهذه الجاهلية انتهت ببعثة النبي ﷺ وهي منسوبة إلى الجهل وهو عدم العلم ، فلما بعث النبي ﷺ انتهت الجاهلية العامة ، وقد يبقى منها شيء في بعض الناس أو في بعض القبائل ، لكن الجاهلية العامة - ولله الحمد - انتهت ببعثة النبي ﷺ .

فلا يجوز أن يقال : الناس في جاهلية ؛ أو هذا وقت جاهلية ، لكن أن يقال : فلان فيه جاهلية أو أهل البلد الفلاني عندهم شيء من الجاهلية .. نعم هذا يقع ، وقد يبالغ البعض فيقول : هذا في جاهلية أشد من الجاهلية الأولى ، وهذا كلام باطل ؛ لأنه ليس بعد بعثة النبي ﷺ جاهلية عامة .

« قال : هل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ » والعيد : اسم لما يتكرر ويعود في الأسبوع ، أو في الشهر ، أو في السنة ، أو بعد مئة عام ، أو بعد ألف عام ، كل ما يعود ويتكرر يسمى عيداً سواء كان عيداً شرعياً أو عيداً جاهلياً ، فالعيد الشرعي الذي يتكرر : عيد الفطر وعيد الأضحى هذا عيد شرعي يتكرر سنوياً ، والجمعة تتكرر ، وهي عيد الأسبوع ، وهي عيد شرعي كذلك .

والعيد المكاني : هو المكان الذي يجتمع فيه الناس للعبادة في وقت محدد مثل : الاجتماع في منى وعرفة في موسم الحج ، والاجتماع في المسجد الحرام للصلاة والعبادة ، هذه أعياد مكانية شرعية . وأما الأعياد غير الشرعية فهي ما كان من أمور الشرك والكفر ، كما قال ﷺ : « لا تتخذوا قبري عيداً » يعني مكاناً للعبادة تجتمعون عنده لأن هذا يؤول إلى الغلو ،

=

ولهذا لم يكن الصحابة رضوان الله عليهم يجلسون عند قبرالنبي ﷺ ، ولا يقفون عنده ، وإنما كانوا يسلمون عليه إذا قدموا من سفر ويمضون(*) ، ولا يحصل عنده اجتماع .
فلا تجوز العبادة عند القبور ، لا قبر النبي ﷺ ولا غيره ، لأن هذا وسيلة إلى الشرك بالله ﷻ ، وقد قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد » وقال « لا تتخذوا قبري عيداً ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، وحيثما كنتم فصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني »(**) هذا العيد المكاني قد يكون شرعياً وقد يكون بدعياً وشركياً ، فالنبي ﷺ نهى عن العيد البدعي الشركي الذي هو من أعياد الجاهلية ، لم يشرع الله الاجتماع فيه للعبادة وإنما الجاهلية هي التي شرعتها « قالوا : لا » فلما اتضح وتبين أنه لا محذور في هذا المكان ، ليس فيه وثن ، وليس هو من أعياد الجاهلية قال ﷺ : « أوف بنذرك » ، فهذا فيه دليل على أن المفتي يتثبت قبل أن يصدر الفتوى ، ولا يتعجل ، ويستفصل من السائل فالنبي ﷺ استفصل ، أما إذا استعجل المفتي فحري أن يجيب بجواب خطأ ، وتتخذ فتواه فتحاً لباب الشر - والعياذ بالله - ولو لم يقصد هو ، فتكون زلة عالم !! وزلة العالم أشد على الناس من غيرها لأنها تتخذ . فلا ينبغي للعالم أن يستعجل لئلا يزل - والعياذ بالله - حتى ولو لم يقصد فكيف إذا قصد الخطأ ، وقصد الشر بالناس ، وقصد الهوى هذا أشد ، فالفتوى خطرها عظيم ، ليس أمرها سهل وأمر مباح كلٌ يفتي وكلٌ يتكلم هذه من المصائب التي إذا تسوهل فيها ظهر الشر في الأمة ، في أمر الفتوى لابد من الانضباط ، لابد من التحري والتدقيق ، ولهذا يقول الإمام ابن قيم الجوزية ﷺ : المفتي مثل الطبيب لا يصرف الدواء إلا في محله ، ولا يزيد في الدواء على القدر المطلوب ؛ لأنه لو صرف الدواء في غير محله يقتل ، أو صرف دواء أكثر من الحاجة يقتل ، فكذلك المفتي تكون فتواه مثل الدواء

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - عمن يذهب إلى المدينة لزيارة المسجد النبوي ، والصلاة فيه ثم يذهب للسلام على رسول الله ﷺ مرات متكررة في اليوم الواحد ، هل يعتبر ممن جعل قبره عيداً ، فأجاب : نعم ، إذا كرر الزيارة للرسول ﷺ للسلام عليه ، فقد اتخذه عيداً ، أما إذا سلّم عليه أول ما قدم من السفر فهذا سنة ، يسلم عليه أول ما يقدم من السفر ويكفي ، أما أن يتردد عليه ويسلم عليه كل ما دخل المسجد ، فهذا من اتخاذه عيداً ، لأن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لم يكونوا يترددون على قبر الرسول ﷺ ، إنما يفعلون هذا إذا قدموا من سفر ذهبوا وسلموا عليه . أ.هـ.
(**) أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » ١٤ / ٤٠٣ (٨٨٠٤) وقال الأرنؤوط : إسناده حسن .

=

أبو داود ، وإسناده على شرطهما[1] قوله : « عن ثابت بن الضحاك » أي : ابن خليفة الأشهلي ، صحابي مشهور ، روى عنه أبو قلابة وغيره . مات سنة أربع وستين . قوله : « ببوانة » - بضم الباء ، وقيل بفتحها - قال البغوي : (موضع في أسفل مكة ، دون يلملم) قال أبو السعادات : (هضبة من وراء ينبع)[2] قوله : « فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ » فيه : المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن ، ولو بعد زواله[3] ، قاله المصنف ﷺ

يضعها في محلها ويضعها في قدرها ولا يتوسع فيها(*) .

« قال : أوف بنذرك » : هذا فيه دليل على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان نذر طاعة ، ولهذا قال : « فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله » ، لأنه لو كان هذا المكان فيه وثن ، أو فيه عيد من أعياد الكفار صار معصية لله ﷻ ، فلا يجوز الوفاء به ، أما لما كان خالياً من ذلك صار نذر طاعة ، لأن أصل الذبح عبادة لله ﷻ ، فهو طاعة « فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملكه ابن آدم » ، فالشاهد من هذا الحديث أن النبي ﷺ منع من الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله ، وإن كان الذابح لا يقصد إلا الله ﷻ ، لكن هذا فيه تشبه بالمشركين وفيه وسيلة من وسائل الشرك .

(١) على شرطهما أي : على شرط الشيخين البخاري ومسلم ، ومعناه أن الحديث ينطبق عليه شرط البخاري ومسلم ، لكن لم يخرجاه في الصحيحين ، لأن هناك أحاديث ليست في الصحيحين ولا في أحدهما لكن ينطبق عليها الشرط من حيث الصحة : أي : صحة السند .

(٢) يعني : قولان في تحديد موضعها قيل : عند يلملم وهو ميقات أهل اليمن ، وقيل : عند ينبع البلد المعروف .

(٣) ولو بعد زواله ؛ لأنه بعد فتح مكة زالت الأوثان ، أزالها ﷺ وهدمها وطهر الأرض منها ،

(*) انظر : إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤ / ٤٧٠ ، بمعناه .

=

وهو شاهد الترجمة[١] .

قوله : « فهل كان فيه عيد من أعيادهم ؟ » قال شيخ الإسلام : (العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائد إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحوه ، والمراد به هنا : الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية . فالعيد يجمع أموراً ، منها : يوم عائد ، كيوم الفطر ويوم الجمعة ، ومنها : اجتماع فيه ، ومنها : أعمال تتبع ذلك من العادات أو العبادات ، وقد يختص العيد بمكان بعينه ، وقد يكون مطلقاً[٢] ، وكل من هذه الأمور قد يسمّى عيداً : فالزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة : « إن هذا اليوم جعله الله للمسلمين عيداً »[٣] ، والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس : شهدت العيد مع رسول الله ﷺ[٤] والمكان ؛ كقول النبي ﷺ : « لا تتخذوا قبري عيداً »[٥] ، وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه

لكن إذا كان هذا المكان سبق في الجاهلية أنه محل وثن فلا يجوز أن يقصد[*] ؛ لأن هذا فيه إحياء لأمور الجاهلية أو إحياء للشرك . فكيف إذا كان الوثن موجوداً ؟! الأمر أشد .

(١) قاله المصنف : هو الشيخ محمد ﷺ في مسائله .

(٢) ومن الأعياد المحرمة أعياد المناسبات ، مثل عيد مناسبة المولد النبوي ، وعيد مناسبة النصر ، أو الجلوس على العرش . كل هذه أعياد جاهلية سواء كانت زمانية أو مكانية ، ليس للمسلمين إلا عيدان ، عيد الفطر وعيد الأضحى ، وعيد الجمعة في الأسبوع ، لأن الجمعة عيد أسبوعي ، سميت عيداً ؛ لأن الناس يجتمعون فيها لصلاة الجمعة .

(٣) لأنه يتكرر كل أسبوع ، ولأن الناس يجتمعون فيه لصلاة الجمعة .

(٤) شهدت العيد أي : صلاة العيد عيد الفطر أو عيد الأضحى .

(٥) أي : مكاناً تجتمعون فيه ؛ لأنهم إذا اجتمعوا عند القبر آل ذلك إلى عبادته والغلو فيه ،

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – كيف نجمع بين جواز تحويل الكنائس إلى مساجد ، وبين قول المؤلف في المنع من اتخاذ آثار المشركين محلاً للعبادة ؟ فأجاب : أن أصل الكنائس أنها يصلى فيها لله ، لأن النصرانية أصلها دين سماوي – وإن كانت قد غُيِّرت ودخلها التحريف – بخلاف الأوثان فأصلها شرك . أ.هـ.

=

وهو الغالب[(١)] كقول النبي ﷺ : « دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً ») انتهى[(٢)] .

وقد أحدث هؤلاء المشركون أعياداً عند القبور التي تعبد من دون الله ويسمونها عيداً[(٣)] ، كمولد البدوي بمصر

لذلك لا يجوز التجمع عند القبر، بل إذا هو قادم من سفر يمر ويسلم على الرسول ﷺ وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر ويمضي ، فإذا أراد أن يدعو أو يصلي يذهب للمسجد النبوي ، ولا يصلي عند القبر أو يدعو عند القبر ؛ لأن هذا يبعث على الشرك وعلى الغلو إذا رآه الناس والجهال فإنهم يتخذون هذا عبادة وربما يطلبون من الرسول ويستغيثون به ، كما هو الواقع . فلولا أن الله قيض لقبر الرسول ﷺ ما يحميه لرأيتم العجب العجاب ، لكن الحمد لله لا يزال القبر مصوناً ومحفوظاً بحفظ الله ، ثم بولاة الأمور الذين يعتنون بحفظ القبر من الغلو ، ومن الاجتماع عنده ، وهذا من تيسير الله وإجابة لدعوة الرسول ﷺ ، حيث قال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » . قال ابن القيم رحمه الله :

فَأَجَابَ رَبُّ العَالَمِينَ دُعَاءَهُ وَأَحَاطَهُ بِثَلاثَةِ الجُدْرَانِ

فما زال القبر مصوناً ومحفوظاً ، ولا يمكّن أحد من الجلوس عنده ، أو الوقوف طويلاً أكثر من وقوف السلام .

(١) قد يجتمع الزمان والمكان .

(٢) لما غنت الجاريتان الصغيرتان يوم العيد عند الرسول ﷺ ، فأنكر عليهما أبو بكر رضي الله عنه فقال : « دعهما فإن لكل قوم عيداً »(*) ، دل على أن الفرح اليسير في يوم العيد مشروع ، إذا لم يكن فيه منكرات . أما الذين يجعلون يوم العيد حفلات وعرضات وطبول ، فهذا محرم ولا يجوز .

(٣) الشيعة الفاطميون الباطنيون - قبحهم الله - لما حكموا مصر والمغرب أحدثوا فيهم الأعياد الجاهلية : عيد البدوي ، عيد الإمام فلان ، عيد كذا ، وبنوا على القبور ، بنوا على ما يسمونه قبر الحسين ، وما يسمونه قبر الست نفيسة ، إلى آخره ، هذه من مخلفات

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٣٢٤ (٩٠٩) ، ومسلم في « صحيحه » ٢ / ٦٠٧ (٨٩٢) .

وغيره[١] ، بل هي أعظم لما يوجد فيها من الشرك والمعاصي العظيمة .

قال المصنف ﷺ : (وفيه استفصال المفتي ، والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله)[٢] . قلت : وفيه المنع من اتخاذ آثار المشركين محلاً للعبادة ؛ لكونها صارت محلاً لما حرَّم الله من الشرك والمعاصي[٣] ، والحديث وإن كان في النذر ، فيشمل كل ما كان

الشيعة الباطنية وما زالت مع الأسف إلى الآن لأنها لم يقيض لها من الدعاة إلى الله ومن الولاة ما حصل في هذه البلاد من تعاضد الدعاة والولاة على إزالة هذه الشركيات ، فبقيت في مصر إلى الآن . وقبر الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس في مصر هذا كذب ، الحسين قتل في كربلاء ودفن في كربلاء ، ويقال : إن رأسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نقل إلى الشام لأنها محل الخلافة أما أن رأسه في مصر فهذا غير صحيح ، فليس في مصر من بدن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيء ؛ بل يقال إن المدفون فيه نصراني ، وسواء كان نصرانياً أو غيره ، حتى لو أن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كله دفن في هذا المكان لا يجوز بناء المسجد عليه .

(١) فالبدوي يزعمون أنه ولي من أولياء الله ، وأنه لما مات دفن في هذا المكان ، وهم يتخذون الأولياء أرباباً من دون الله ويغلون فيهم ، مع أن البدوي قيل فيه ما قيل من الفجور والشر ، كما هو مذكور في ترجمته .

(٢) ما أحسن هذا ! المفتي لا يستعجل بالفتوى حتى يعرف مقصود المستفتي ويعرف الدوافع التي دفعته ، حتى تكون الفتوى في محلها الصحيح .

(٣) المحال التي كانت للشرك والكفر لا يجوز عبادة الله فيها ، لأن ذلك يبعث على تعظيمها ويعيد لها ما كان في الجاهلية ، بل يجب أن تطمس وأن تنسى ولا يعمل عندها أي شيء ، وهذا في الآثار عموماً : آثار الصالحين ، آثار النبي ﷺ مثل : الأماكن التي سكن فيها أو جلس فيها لا يجوز جعلها محل عبادة وتجمعات ؛ لأن هذا من الغلو الذي ما أنزل الله به من سلطان ، ولهذا لما رأى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوماً يذهبون في الحديبية إلى مكان الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقطعها فقطعت[*] ، حماية للتوحيد ، ولئلا يغلى

(*) انظر : البدع والنهي عنها لابن وضاح ص ٨٨ (١٠٦ ، ١٠٧) .

=

عبادة لله[١] ، إذ لا فرق فلا تفعل في هذه الأماكن الخبيثة التي اتخذت محلاً لما يسخط الله[٢] فبهذا صار الحديث شاهداً للترجمة[٣] .

والمصنف ﷺ لم يرد التخصيص بالذبح ، وإنما ذكر الذبح كالمثال[٤] وقد استشكل جعل محل اللات بالطائف مسجداً[٥] ، والجواب - والله أعلم - :

في هذه الشجرة حتى تعبد من دون الله ، فقطعها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، من باب سد الذرائع . فدل على أنه لا يجوز تتبع الآثار ، ولو كانت آثاراً للصالحين والأنبياء والأولياء ، فكيف إذا كانت آثاراً للمشركين ؟! الأمر أشد .

(١) حتى غير النذر ، فالصلاة في المكان والجلوس فيه ، وذكر الله فيه ، وتلاوة القرآن فيه ، كل العبادات لا تجوز في الأمكنة التي سبق أن كانت متعبدات للمشركين ، وإن كان المسلم لا يقصد إلا الله فلا يعبد الله إلا بشيء مشروع ، لا يكون في هذا المكان ؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك .

(٢) ولهذا لما هدمت اللات والعزى ومناة ، ولم يعتنِ بمكانها نسيت كأنها غير موجودة عند المسلمين ، لأن هذا يبعثها من جديد ، فلا يقال : هذه آثار للتاريخ كما يقولون ، هذا يؤول بها في المستقبل إلى أن تعبد من دون الله ؛ لأن الشيطان يزينها لهم بأنها آثار تاريخية من أجل أن يحيوها ، فإذا أحيوها وبينوها للناس آل الأمر إلى عبادتها كما حصل في قوم نوح ، قال لهم : انصبوها من أجل تذكر أحوال الصالحين والاقتداء بهم ، فلما مات هذا الجيل جاء إلى الجيل المتأخر ، فقال لهم : إن آباءكم ما نصبوها إلا للعبادة فعبدوها من دون الله فآل بهم الأمر إلى الشرك - والعياذ بالله - فلا يجوز الغلو في الصالحين والعظماء أو في صورهم أو مجالسهم .

(٣) « باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله » يعني كان سابقاً يذبح فيه لغير الله ، فالرسول ﷺ في هذا الحديث سأل هل كان فيها ؟ يعني هل كان سابقاً ، يسأل عن تاريخها الماضي ، فهذا فيه شاهد للترجمة .

(٤) لأنه هو الوارد في الحديث فيقاس عليه بقية العبادات .

(٥) ليس صحيحاً ، لم يجعل محل اللات في الطائف مسجداً هذه حكاية باطلة ، يقولون : إن منارة مسجد العباس على محل اللات من يثبت هذا ؟! ما كان المسلمون ليبنوا مسجداً في =

أنه لو ترك هذا المحل في هذه البلدة لكان يُخشى أن تفتتن به قلوب الجهال[١] ، فيرجع إلى جعله وثناً كما كان يفعل فيه أولاً ، فجعله مسجداً والحالة هذه يُنسي ما كان يُفعل فيه ، ويذهب به أثر الشرك بالكلية[٢] ، فاختص هذا المحل لهذه العلة ، وهي قوة المعارض . والله أعلم . قوله : « فأوف بنذرك » وذلك لعدم المانع[٣] . قوله : « فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله » ، فالحديث دلَّ على أن اتخاذ أماكن الشرك والمعاصي لا يجوز أن يعبد الله فيها[٤] ، ونذر ذلك معصية لا يجوز الوفاء به قوله : « ولا فيما لا يملك ابن آدم » ، قال في « شرح المصابيح » : (يعني إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه بأن قال : إن شفى الله مريضي ، فلله علي أن أعتق عبد فلان ونحو ذلك[٥] فأما إذا التزم في الذمة شيئاً بأن قال : إن شفى الله مريضي فلله علي أن أعتق رقبة[٦] ، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها ، فإذا شفى الله مريضه ثبت ذلك في ذمته)[٧] .

محل الصنم أبداً ، هذا إنما هو حكاية ليس لها أصل والذين يعرفون التاريخ يقولون : محل اللات بعيد عن المسجد .

(١) الجواب الصحيح أن يقال : ما ثبت أن محل مسجد ابن عباس هو محل اللات .

(٢) هذا بناء على أن الشيخ صدَّق الرواية هذه ، لكنها غير صحيحة .

(٣) هذا دليل على وجوب الوفاء بالنذر ، إذا كان نذر طاعة ، لأن الإنسان إذا أوجب على نفسه شيئاً مما هو مشروع كالصلاة والصيام والذبح والحج والعمرة يجب عليه ذلك ، لما في حديث عائشة الآتي في باب النذر أن النبي ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه » .

(٤) لأنه معصية لله ، ولو نذر إنسان أن يعبد الله فيها لا يجوز له الوفاء به .

(٥) إذا نذر شيئاً ليس في ملكه ، وإنما هو في ملك غيره هذا لا يلزمه ، ولا ينعقد نذره .

(٦) يعني غير معين ، رقبة عامة فيلزم ، لكن إن قال : عبد فلان أو أمة فلان ، فهذا لا يلزم .

(٧) إن كان يستطيع التنفيذ ، وإلا يكون دَيْناً في ذمته متى استطاع ينفذه .

ففرق بين نذر المعين الذي لا يملكه ، ونذر غير المعين الذي لا يملكه وقت النذر . نذر =

قوله : « رواه أبو داود ، وإسناده على شرطهما » أي : البخاري ومسلم ، وأبو داود اسمه : سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني ، صاحب الإمام أحمد بن حنبل ، ومصنف « السنن » و« المراسيل » وغيرها[1] ثقة إمام حافظ من كبار العلماء ، مات سنة خمس وسبعين ومائتين ﷺ .

المعين : هذا لا يلزم ، وأما نذر غير المعين فهو يلزم وإن كان لا يملكه وقت النذر فيكون ديناً في ذمته .

(١) إمام جليل أبو داود مؤلف السنن ، وهو من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل ومن رواة المذهب الحنبلي ، وله كتاب مطبوع اسمه « مسائل أبي داود » أي : المسائل التي رواها أبو داود عن الإمام أحمد وهي مسائل سئل عنها الإمام أحمد فأجاب عنها فكتبها أبو داود ورواها .

١٢ - باب من الشّرك النذر لغير الله

وقول الله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان : ٧] .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴾ [البقرة : ٢٧٠] .

وفي « الصحيح » عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أنّ رسولَ الله ﷺ قال : « مَنْ نذرَ أن يُطيعَ اللهَ ؛ فليُطِعْهُ ، ومَن نذرَ أن يَعْصيَ الله ؛ فلا يَعْصِهِ » .

١٢ - باب من الشّرك النذر لغير الله

قوله : (باب من الشرك النذر لغير الله)[1] ، وقول الله تعالى :

---

(١) قوله : باب من الشرك : أي من أنواع الشرك .

النذر لغير الله : النذر لغة : الالتزام ، يقال : نذرت الشيء إذا التزمته .

النذر شرعاً : التزام المسلم عبادة لم تكن واجبة عليه في أصل الشرع .

مثل : نذر أن يتصدق ، الصدقة مستحبة في الأصل ، لكن إذا نذرها صارت واجبة .

كذلك الصلاة ما عدا الفرائض نوافل فإذا صلى النوافل هذا مستحب ، لكن إذا نذر أنه يصلي الضحى أو يصلي بالليل ، فإنه يجب عليه الوفاء ، يجب عليه أن يصلي في الوقت الذي نذر الصلاة فيه . يصلي بالليل أو يصلي الضحى أو يصلي بعد الظهر أو بعد المغرب ، نقول : يلزمك الوفاء بهذا ، وإن كان في الأصل مستحب ، لكن تحول من مستحب إلى واجب بسبب النذر .

والنذر عبادة فلا يجوز أن ينذر لغير الله ، فمن نذر لغير الله فقد أشرك شركاً أكبر .

فلو نذر للقبر دراهم يضعها في صندوق القبر يسمونها صناديق النذور ، أو نذر أنه يذبح عند القبر ، أو يصلي عند القبر ، كل هذا شرك بالله ﷻ ، لأنه نذر لغير الله ، فلا يجوز .

والنذر نوع من أنواع العبادة ، فمن صرف النذر لغير الله فقد أشرك بالعبادة . والدليل على أن النذر عبادة قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ [سورة الإنسان : ٧] : أثنى على الأبرار أنهم =

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ ﴾[(١)] [سورة الإنسان : ٧] ، قال العماد بن كثير : (أي : يتعبدون الله فيما أوجب عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع ، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر) . قوله : قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ ﴾[(٢)] [سورة البقرة : ٢٧٠] قال ابن كثير : (يخبر تعالى بأنه

يوفون بالنذر ، فدل على أنه عبادة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ ﴾ [سورة الحج : ٢٩] ، أمر بالوفاء بالنذر ، فدل على أن النذر عبادة ، وقوله ﷻ : ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٠] ، النذر عبادة ؛ لأن النفقةعبادة ، وقد قرنه الله مع النفقة ، وأخبر أنه يعلمه ، وهذا فيه وعد بالجزاء ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ ﴾ أي : سيجازيكم عليه ، فدل على أن النذر عبادة ، لا يجوز أن ينذر لغير الله ، فمن نذر لغير الله فقد أشرك . لو نذر لقبر البدوي أو قبر الحسين ، أو غيرهما ، هذا شرك أكبر يخرج من الملة .

(١) ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ ﴾ : هذا ثناء على الأبرار ، وعدَّ الله ﷻ أن من أعمالهم أنهم يوفون بالنذر ، فدل على أن النذر عبادة .

(٢) قرن النذر بالنفقة دليل على أنه عبادة ، لأن النفقة عبادة .

والنذر كما قال أهل العلم : مكروه[(*)] أن الإنسان ينذر ابتداء ، لأنه يلزم نفسه بشيء لم يوجبه الله عليه ، ويكون في سعة إذا لم ينذر ، إن شاء فعله وإن شاء لم يفعله ، لكن إذا نذر يجب عليه ، فيتحرج بعد ذلك . ولذلك نهى ﷺ عن النذر وقال : « إنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل »[(**)] ، البخيل : الذي لا يأتي العبادة ولا يتصدق ولا ينفق من البخل ، فهذا إذا نذر وجب عليه ما اضطر إلى أن ينفقه وإلى أن يتصدق، أما غير البخيل فإنه يفعل الخير ولو لم ينذر ، يتصدق وينفق ويتبرع ولو لم ينذر .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - : كيف نجمع بين كون النذر مكروهاً ، وكونه عبادة والعبادة محبوبة؟ فأجاب : يكون عبادة بعد أن ينذر ، وأما قبل ما ينذر يكون مكروهاً ، بل البعض يراه محرماً قبل النذر . أ.هـ.

(**) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٣ / ١٢٦١ (١٦٣٩) .

عالم بجميع ما يعمله العاملون من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه)(١) .

قال شيخ الإسلام ﷺ : (وأما النذر لغير الله - كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك - فهو شرك) وقال - فيمن نذر للقبور ونحوه دُهناً لتنوَّر به(٢) ويقول : إنها تقبل النذر كما يقوله بعض المشركين : (فهذا النذر معصية باتفاق المسلمين . لا يجوز الوفاء به ، وكذلك إذا نذر مالاً للسَّدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة(٣) فإن فيهم شبهاً من السدنة التي كانت عند العزى ومناة(٤) يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن

(١) المقصود ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ ﴾ : لاشك أن الله يعلم كل شيء ، يعلم حتى الأعمال الخبيثة والأعمال السيئة ، فعلمُ الله شامل لكل شيء ، لكن المقصود في هذه الآية ﴿ يَعۡلَمُهُۥ ﴾ أي : يعلمه ﷻ ويثيب عليه ، لا يضيع على الله شيء يعلم أعمالك ، ومقاصدك ونياتك .
فمن لازم قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ ﴾ أي : يثيب عليه .

(٢) كانوا في ذلك الوقت ينورون القبور بالزيت ، يضعون الزيت في قارورة أو في قرن من الحجارة يملؤونه زيتاً ، ويجعلون فيه فتيلاً ، أو خرقة يشعلون النار فيها فتضيء الزيت ، فإذا نذر الإنسان زيتاً أو وتداً أو قازاً أو نذر مصابيح كهرباء تركب في المسجد ، أو نذر أن يقود للمسجد بتيار كهربائي هذا نذر طاعة ، يجب عليه الوفاء به . أما لو نذر هذه الأشياء لقبر أو ضريح ، فهذا حرام لا يجوز الوفاء به .

(٣) إذا نذر للسدنة الذين يتولون حفظها وفتحها للناس ، فنذر من ماله أن يعطيهم كي يستعينوا به على السدانة ، هذا حرام ومعصية لأن هذا من التعاون على الإثم والعدوان ، أو نذر للذين يجتمعون فيها بغداء أو عشاء فهذا حرام أيضاً ونذر معصية ، لأنه إعانة على معصية الله ﷻ . لكن لو نذر للصوام الذين يصومون بإفطار أو عشاء ، هذا جائز ، نذر طاعة ، أو نذر لهم ملابس أو كسوة ، هذا طيب .

(٤) لا فرق بين الأضرحة وبين اللات والعزى ، لأن المقصود واحد وهو عبادة غير الله كلها مثل اللات والعزى بل إن اللات أصله قبر لرجل كان يلت السويق للحجاج ، كان رجلاً صالحاً فمات فعبدوا قبره وبنوا عليه بنيَّه .

سبيل الله . والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل ﷺ ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾(١) [سورة الأنبياء : ٥٢] فالنذر لأولئك السَّدنة والمجاورين في هذه البقاع نذر معصية ، وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها) انتهى(٢) . وذلك لأن الناذر لله وحده قد علق رغبته به وحده ؛ لعلمه بأنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع . فتوحيد القصد هو توحيد العبادة(٣) ؛ ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله ، والعبادة إذا صُرفت لغير الله صار ذلك شركاً بالله ؛ لالتفاته إلى غيره تعالى فيما يرغب فيه أو يرهب . فقد جعله شريكاً لله في العبادة ، فيكون قد أثبت ما نفته لا إلـٰه إلا الله من إلـٰهية غير الله ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص(٤) ، وكل هذه الأبواب التي ذكرها المصنف ﷺ : تدل على أن من أشرك مع الله غيره بالقصد والطلب ، فقد خالف ما نفته لا إلـٰه إلا الله ، فعكس مدلولها ، فأثبت ما نفته ونفى ما أثبتته من

---

(١) الذي يعتكفون عند القبور ويجلسون عندها يشبهون الذين أنكر عليهم الخليل ﷺ ، لقوله : ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٥٢] أي : تقيمون عندها تقرباً إليها ، لا فرق بين هذا وهذا كله شرك .

(٢) النصارى يجعلون صليباً على شكل رجل مصلوب يزعمون أن المسيح ﷺ قُتل وصُلب على الخشبة ، ويعكفون عند هذه الصور ، وعند هذا الصليب ، وهذا مثل الذين يعكفون عند القبور .

(٣) توحيد القصد : وهو توحيد النية تكون خالصة لوجه الله ، وهذا هو توحيد العبادة وتوحيد الألوهية .

(٤) لأن الشيخ ﷺ لما ذكر تفسير (لا إلـٰه إلا الله) قال في آخر الباب : وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب . فهذا من الأبواب التي تشرح (لا إلـٰه إلا الله) ، وهو أن من معنى (لا إلـٰه إلا الله) : ألا ينذر إلا لله ﷻ ، ومن نذر لغير الله فقد أثبت ما نفته لا إلـٰه إلا الله .

التوحيد ، وهذا معنى قول شيخنا : (وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب)[١] . فكل شرك يقع أو قد وقع ، فهو ينافي كلمة الإخلاص وما تضمنته من التوحيد[٢] قال الرافعي في « شرح المنهاج »[٣] : (وأما النذر للمشاهد - التي على قبر ولي أو شيخ ، أو على اسم من حلها من الأولياء ، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين - فإن قصد الناذر بذلك وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة تعظيم البقعة أو المشهد أو الزاوية ، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه أو بنيت على اسمه ، فهذا النذر باطل غير منعقد ؛ فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ، ويرون أنها مما يدفع به البلاء ، ويستجلب به النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء ، حتى إنهم

(١) كما سبق في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلـٰه إلا الله قال في خاتمة الباب : وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب كلها تدخل في معنى لا إلـٰه إلا الله نفياً وإثباتاً ؛ لأن كثيراً من الناس لا يفقهون معنى (لا إلـٰه إلا الله) ، يظنون أنه مجرد قول يقال باللسان ولا يفقهون ما تدل عليه وما تطلبه لذلك يشركون ويعبدون غير الله ولا يذبحون للقبور والأضرحة والأصنام وهم يقولون : (لا إلـٰه إلا الله) ، لأنهم ما فهموا معنى (لا إلـٰه إلا الله) يحسبونه كلام يقال باللسان فقط .

(٢) كل شرك ، وليس فقط الذبح لغير الله ؛ بل كل شرك فإنه ينافي معنى (لا إلـٰه إلا الله) ، لأن (لا إلـٰه إلا الله) أثبتت التوحيد ونفت الشرك بجميع أنواعه . أثبتت جميع أنوع العبادات لله ونفت جميع أنواع الشرك عن الله ﷻ ، هذه كلمة عظيمة ، ولذلك تسمى كلمة الإخلاص ، وتسمى العروة الوثقى ، وتسمى كلمة التوحيد ، وتسمى كلمة التقوى فقوله تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [سورة الفتح : ٢٦] هي لا إلـٰه إلا الله ، وقال لنبيه : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [سورة محمد : ١٩] تحتاج إلى معرفة وعلم وفقه بمدلولها ، ليست مجرد لفظ باللسان يقال . من قال (لا إلـٰه إلا الله) صار مسلماً ولو كان يعبد القبور ويعبد الأضرحة ، هذا ليس بمسلم ولا تنفعه (لا إلـٰه إلا الله) .

(٣) الرافعي من فقهاء الشافعية ، و« المنهاج » من كتب الشافعية .

لينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم : أنه استند إليها عبد صالح[١] ، وينذرون لبعض القبور السرج والشمع والزيت ، ويقولون : القبر الفلاني يقبل النذر . يعنون بذلك : أنه يحصل به الغرض المأمول ، من شفاء مريض أو قدوم غائب وسلامة مال ، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة[٢] . فهذا النذر على هذا الوجه باطل لاشك فيه ، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً . ومن ذلك : نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر إبراهيم الخليل ﷺ ، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء . فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركاً وتعظيماً ، ظاناً أن ذلك قربة . فهذا مما لا ريب في بطلانه ، والإيقاد المذكور محرم سواء انتفع به منتفع أم لا) .

وقال الشيخ قاسم الحنفي في شرح « درر البحار » : (النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد ، كأن يكون لإنسان غائب أو مريض أو له حاجة فيأتي إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة ، ويقول : يا سيدي فلان إن رد الله غائبي ، أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الماء كذا ، أو من الشمع والزيت كذا ، فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه : منها : أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ؛ لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق . ومنها : أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك شيئاً ، ومنها : أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى ﷻ واعتقاد ذلك كفر) إلى أن قال : (إذا علمت هذا فما يؤخذ من

---

(١) حجر يتبركون به ؛ لأنه استند إليه عبد صالح . انظر : كيف يعمل الشيطان ببني آدم ؟!

(٢) إذا حصل لهم من الله شيء ، كالذرية ، أو شفاء مريض ، قالوا : هذا بسبب النذر للقبر . ولا ينسبونه لله ﷻ .

الدراهم والشمع والزيت وغيرها ، وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليهم فحرام بإجماع المسلمين)[١] . نقله عنه ابن نجيم في « البحر الرائق »[٢] ونقله المرشدي في تذكرته ، وغيرهما عنه ، وزاد : (وقد ابتلي الناس بهذا لاسيما في مولد البدوي)[٣] ، وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي رحمه الله[٤] في الرد على

---

(١) أراد الشيخ رحمه الله أن ينقل كلام أهل العلم من المذاهب الأربعة على تحريم النذر لغير الله ، فذكر كلام الرافعي فيما سبق وهو من الشافعية وذكر هنا كلام الشيخ قاسم الحنفي من الحنفية بأن من نذر للأضرحة فإن نذره حرام ؛ لأنه نذر معصية ولأن النذر عبادة ، والعبادة لا تجوز إلا لله ﷻ ، فمن فعل العبادة لغير الله فإنه يكون مشركاً الشرك الأكبر . وأيضاً هذا النذر حتى ولو كان لحي فإنه لا يجوز ، لأنه فيما لا يقدر عليه إلا الله كشفاء مريض وإعطاء الولد وغير ذلك ، هذا لا يقدر عليه إلا الله ، لا يقدر عليه لا الأحياء ولا الأموات . فكيف إذا كان النذر لميت ؟ والأموات لا يجوز أن يرتجى منهم شيء ، لأنهم ليس عندهم قدرة على إجابة من دعاهم . كما قال الله ﷻ : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾ [سورة فاطر : ١٤] المجيب ميت ، قد انتقل من هذه الدنيا وصار في دار الآخرة فلا يسمع من دعاه ولا من طلب منه شيئاً ، ولو سمعه ما قدر أن يجيبه لأنه ميت ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [سورة فاطر : ١٤] فهذا نذر معصية . أيضاً المال الذي يؤخذ بموجب هذا النذر حرام ، لأنه نذر في معصية ، فما نتج عنه فإنه حرام ، فالنذور التي تنذر للقبور وللأضرحة كلها من هذا الباب .

(٢) وابن نجيم حنفي ، ووضع قواعد للمذهب الحنفي « قواعد ابن نجيم » ، وهو عالم مشهور ، نقل هذا عن الشيخ قاسم الحنفي .

(٣) ابن نجيم ومن جاء بعده يقولون : أن هذا قد زاد البلاء فيه وتنوع ، كما يفعل عند قبر البدوي في يوم مولده ، يعملون الموالد للأموات ويفعلون في هذه الموالد المنكرات والشركيات .

(٤) هذا من علماء مكة وهو حنفي المذهب متأخر ، لأنه بعد الألف أظنه في المئة بعد الألف(*) وله كتاب مشهور طبع أخيراً في هذا الموضوع(**) .

(*) توفي سنة (١١٢٠ هـ) . هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي ٥ / ٤٢٨ .

(**) وهو كتاب « سيف الله على من كذب على أولياء الله » بتحقيق : علي رضا ، طبعة دار الوطن .

من أجاز الذبح والنذر للأولياء : (فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله تعالى فيكون باطلاً ، وفي التنزيل ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [سورة الأنعام : ١٢١] ، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾(١) [سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]، والنذر لغير الله إشراك مع الله كالذبح لغيره) انتهى(٢) . وفي « الصحيح » عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه(٣) ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه »(٤) . قوله : « وفي الصحيح » أي صحيح البخاري .

(١) الذي يُذبَح للقبور ذُبح لغير الله ، فهو ميتة ولا يحل أكله ، وشرك بالله ﷻ .

(٢) كذلك النذر إذا نذر له مالاً ، فإن هذا النذر يكون شركاً ، لأن النذر عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله ﷻ . فإذا كانت هذه أقوال الأئمة من غير الحنابلة في هذا الموضوع فالذين يقولون : إن هذا من مذهب الحنابلة أو مذهب الوهابية ، فهذا من المغالطات لأن هذا موجود في كتب الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، فالمذاهب الأربعة إذا تتبعتها وجدت هذه الأقوال فيها ، فلم ينفرد به الحنابلة .

(٣) « من نذر أن يطيع الله فليطعه » : من نذر مثلاً أن يتصدق بنصف راتبه دائماً ، ثم لما نجح وتوظف لم يستطع الوفاء بنذره ، فورَّط نفسه المسكين ، ولذلك نهى النبي ﷺ عن النذر قال : « لا تنذروا فإن النذر لا يأتي بخير ، إنما يستخرج به من البخيل »(*) . لو لم ينذر كان في سعة ، إن حصل عنده زيادة من الراتب تصدق وإن لم يحصل عنده زيادة فليس بملزم ، ولكنه بالنذر أصبح ملزماً .

(٤) هذا دليل على أن النذر ينقسم إلى قسمين : نذر طاعة ، ونذر معصية . وأن نذر الطاعة يجب الوفاء به ، وأن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به ، فلو نذر أنه يتصدق ، يصوم ، يحج ، يعتمر ، يصلي من الليل ، يصلي الضحى ، يصلي بعد الظهر يصلي في غير أوقات النهي يجب ذلك ، أما من نذر أن يعصي الله ، كمن نذر أن يشرب الخمر ، أو أن يزني ، أو أن يسرق ... إلخ ، هذا نذر حرام لا يجوز له الوفاء به .

(*) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » كما في « الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان » ١٠ / ٢٢١ (٤٣٧٧) بنحوه ، وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط البخاري .

=

قوله : « عن عائشة » هي أم المؤمنين زوج النبي ﷺ ، وابنة الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وأعلم النساء بحديث رسول الله ﷺ ، تزوجها النبي ﷺ وهي بنت سبع ، ودخل بها وهي ابنة تسع ، وأفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة ففيها خلاف(١) .

كما دل هذا الحديث على أن النذر عبادة ، لأن الرسول ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله » سماه طاعة وسماه معصية ، فدل على أنه عبادة ، فإذا كان عبادة فلا يجوز أن ينذر لغير الله ، أن ينذر للقبر الفلاني أن ينذر للشجرة الفلانية لكذا وكذا لا يجوز ، نذر مبلغاً من المال يوضع في صندوق نذر الحسين لا يجوز حرام ، أو أن يذبح عشر من الإبل عند قبر الحسين .. هذا نذر معصية وشرك لا يجوز ، أو نذر أن يتكفل بتكاليف إضاءة الضريح هذا نذر معصية ؛ لأن النبي ﷺ لعن زوارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج ، لا يجوز إضاءة القبور والمقابر ، لأن هذا يبعث على الغلو فيهم ، لو نذر بخوراً للقبر الفلاني هذا حرام لا يجوز ، وما أكثر من ينذرون هذه النذور الشيطانية الباطلة . لكن لو نذر بخوراً للمسجد هذا طيب ويجب الوفاء به ؛ لأن هذا طاعة .

(١) عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لها خصائص من بين أزواج النبي ﷺ ، منها : أنه لم يتزوج بكراً غيرها ، ومنها : أن النبي ﷺ كان يحبها ويحب أباها زيادة محبة على غيرها ، ومنها : أنها اختصت برواية الحديث عن النبي ﷺ من بين النساء ، كان الصحابة يرجعون إليها في الأحاديث ، ومنها : أنها كانت من جملة المفتين من صحابة رسول الله ﷺ ومنها : أن النبي ﷺ لما مرض مرض الموت استأذن نساءه أن يمرض في بيتها ، فأذنَّ له فمرض في بيتها ومات ﷺ في حجرتها ورأسه في حجرها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، ومنها : أنه دفن في حجرتها ، ولها فضائل كثيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، لكن اختلف العلماء هل هي أفضل من خديجة أو أن خديجة أفضل منها ، والصواب أن لكل من خديجة وعائشة فضائل لا تشاركها فيها الأخرى .لاشك أن خديجة لها فضائل وناصرت الرسول ﷺ في أول البعثة ومواقفها مع الرسول ﷺ مشهورة ، وأنها أم أولاده كلهم إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية ، وأما بقية أبنائه من ذكور وإناث كلهم من خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، ومنها : أن النبي ﷺ كان يحبها حباً شديداً وكان بعد وفاتها يكرم صديقاتها ، وكان يذبح الذبيحة ويتصدق عنها من لحمها بعد وفاتها ،
=

بل لا يقال خديجة أفضل ولا عائشة أفضل[١] ، والتحقيق أن لخديجة من الفضائل في بدء الوحي ما ليس لعائشة من سبقها إلى الإيمان بالنبي ﷺ ، وتأييده في تلك الحال التي بدئ بالوحي فيها كما في « صحيح البخاري » وغيره ، فما زالت كذلك حتى توفيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبل الهجرة ، ولعائشة من العلم بالأحاديث والأحكام ما ليس لخديجة لعلمها بأحوال النبي ﷺ ونزول القرآن بالأحكام وبيان الحلال والحرام ، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، بعد وفاته ﷺ يرجعون إليها فيما أشكل عليهم من أحوال النبي ﷺ ، وحديثه صلوات الله وسلامه عليه ، ورضي عن أصحابه وأزواجه ، توفيت سنة سبع وخمسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

قوله : « من نذر أن يطيع الله فليطعه » ؛ لأنه نذره لله خالصاً فوجب عليه الوفاء به فصار عبادة ، وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة لشرط يرجوه كإن شفى الله مريضي فعلي أن أتصدق بكذا ونحو ذلك ، وجب عليه إن حصل له ما علق نذره على حصوله[٢] إلا أن أبا حنيفة قال : لا يلزمه الوفاء

وفاء بحقها ومكانتها . والصحيح أنه لا تفاضل بين عائشة وخديجة كل منهما لها فضائل لا تشاركها فيها الأخرى .

(١) هذا هو الصحيح أنه ما يفضل بعضهما على بعض ، لأن لكل منهما فضائل خاصة بها .

(٢) نذر الطاعة على قسمين : نذر منجز : يعني غير معلق بشخص ، كأن يقول : لله عليَّ أن أتصدق أو أصوم أو أن أصلي فهذا يجب عليه المبادرة بالوفاء به . النوع الثاني : نذر معلَّق على شرط ، فهذا لا يلزم الوفاء به إلا إذا حصل الشرط كأن يقول : إن شفى الله مريضي لأتصدقن بكذا وكذا ، أو إن نجحت في الامتحان لأصومن عشرة أيام أو ما أشبه ذلك ، فهذا إن حصل الشرط الذي علَّق عليه النذر فإنه يجب عليه الوفاء به ، لأنه نذر طاعة وقد حصل الشرط الذي علقه عليه ، وقد ذم الله المنافقين لأنهم لا يوفون بالعهد الذي تعهدونه لله ﷻ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ .

=

إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع كالصوم ونحوه وأما ما ليس كذلك فلا يوجب عليه الوفاء به[1] . قوله : « ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » زاد الطحاوي : (وليكفر عن يمينه)[2] ، وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية ، واختلفوا هل تجب فيه كفارة يمين ؟ على قولين ، هما روايتان عن أحمد ، إحداهما : تجب وهو المذهب ، وروي عن ابن مسعود وابن عباس ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه .

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٧٥ - ٧٧] ، أما إذا لم يحصل الشرط فإن النذر لا يجب .

(١) أبو حنيفة يرى بأن النذر الذي جنسه واجب من أصل الشرع ، كالصيام والحج والعمرة فيقول : هذا يجب الوفاء به ، أما ما كان جنسه مستحباً فإنه لا يلزم الوفاء به ، وإنما يبقى مستحباً . لكن الجمهور على خلاف هذا ، لقوله ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه » وهذا شامل لما كان واجباً بأصل الشرع ، ولما كان مستحباً بأصل الشرع .

(٢) هذا بالإجماع ، من نذر نذر معصية فإنه يحرم عليه الوفاء به ، لكن هل يكون عليه كفارة يمين ؟ على قولين منهم من يرى أن عليه كفارة يمين ؛ لأنه جاء في بعض الروايات « وكفارته كفارة يمين »(*) ، أو « وليكفر كفارة يمين » كما في رواية الإمام الطحاوي رحمه الله ، ومن العلماء من يرى أنه ليس عليه كفارة ؛ لأنه في هذا الحديث الصحيح قال : « ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » ولم يذكر الكفارة .

(*) أخرجه أبو داود في « سننه » ٣ / ٢٣٣ (٣٢٩٢) ، والترمذي في « سننه » ٤ / ١٠٣ (١٥٢٤) وصححه الألباني .

١٢ - باب من الشِّرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن : ٦] .

عن خَوْلَةَ بنتِ حكيم رَضِيَ اللهُ عَنهَا قالت : سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : « مَنْ نَزَلَ منزِلاً ، فقَالَ : أعُوذُ بكلماتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ؛ لم يَضُرَّهُ شيءٌ حتَّى يرحلَ مِنْ منزِلِهِ ذلكَ » . رواه مسلم .

١٢ - باب من الشِّرك الاستعاذة بغير الله

قوله : (باب من الشرك الاستعاذة بغير الله)(١) .

(١) الاستعاذة : طلب العوذ من الله ، واللجوء إلى المستعاذ به ، والاستعاذة لا تجوز إلا بالله ﷻ ، لأنها عبادة وجميع العبادات لا يجوز صرفها لغير الله ﷻ .
ولوحظ في هذا مسألة كثر السؤال عنها ، وهي الذين يقرؤون على المرضى يسمونهم أهل الرقية ويقولون : نحن نستعين بالجن في كشف المرض ، أو في الإخبار عن العاين الذي أصاب هذا الشخص ولكن لا نستعين بكفار ؛ بل نستعين بمسلمين من الجن ، هذه مقالة فشت الآن وهي مقالة باطلة ، ولا يجوز الاستعانة بالجن مطلقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [سورة الجن : ٦] ، هذا من الاستعاذة بالجن ، ولم يفصل بين مسلمهم وكافرهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٢٨ - ١٢٩] فالله ﷻ أنكر على الجن والإنس ما يحصل بينهم من الاستعاذة والاستعانة ولم يفصل بين مؤمنهم وكافرهم ؛ بل توعدهم بالنار ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ فاستمتاع الجن بالإنس : أن الإنس يتقربون إليهم ويعظمونهم ، =

الاستعاذة الإلتجاء والاعتصام ، فالعائذ قد هرب إلى ربه والتجأ إليه مما يخافه عموماً وخصوصاً ، قال ابن القيم ﷺ : (وما يقوم بالقلب من الإلتجاء إلى الله والاعتصام به والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتذلل له أمر لا تحيط به العبارة) انتهى . وقد أمر الله عباده في كتابه بالاستعاذة به في مواضع كقوله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠٠] وقال : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ

واستمتاع الإنس بالجن : أن الجن يحققون لهم أغراضهم التي يطلبونها منهم ؛ لأن الجن عندهم مقدرة ليست عند الإنس ، فإن استعانوا بهم خدموهم ، لكن في مقابل الشرك والكفر بالله ﷻ ، لاالجني لا يخدم إنسي إلا بمقابل . وهذا باب لا يجوز فتحه ، ومن يدرينا أن هؤلاء مسلمون ؟! فالحاصل أن هذا باب يفتحه هؤلاء الذين يدعون الرقية من أجل الاستغلال واستنزاف أموال الناس ، ولا يجوز أن يُفتى في جواز هذه المسألة ؛ لأن هذا يفتح الباب للشرك بالله ﷻ ، ومن الذي يضبطه ومن الذي يعلم أن هؤلاء مسلمون كما يقال ؟! حتى ولو ثبت أنهم مسلمون الله لم يشرع لنا الاستعانة بالجن ولو كانوا مسلمين ، ما الدليل على جواز الاستعانة بالجن ؟ لا يوجد دليل . إلا إن فلاناً فعل كذا وفلاناً فعل .. هذا ليس بدليل ، هات دليلاً من القرآن على أنه يجوز الاستعانة بالمسلمين من الجن ، هات دليلاً من السنة على أنه يجوز للإنس أن يستعينوا بالمسلمين من الجن ، لا يوجد دليل ، فلا تجوز الاستعانة بالأموات ولا بالغائبين . والجن من عالم الغيب لا نراهم ، فلا يجوز أن نستعين بهم ، وأيضاً هم لا يُؤمَنون على تضليل بني آدم وإغوائهم لأن إمامهم وأباهم الشيطان الأكبر تعهد أن يضل بني آدم ، وأن يدخل بني آدم معه في النار إذا أجابوه ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سورة فاطر : ٦] ، ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ [سورة الإسراء : ٦٢] يعني آدم ﷺ ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فمن الذي يُؤَمِّن المسلمين من بني آدم من شر الجن والشياطين حتى يقولوا هذا مسلم وهذا كافر ، ويستعينون به ؟! والمشكلة أن بعض الناس يصدقونهم في هذا ، أو بعض الناس أفتوهم بالجواز ، وهذا غلط وخلل في العقيدة فيجب التنبه له .

ٱلرَّجِيمِ ﴾ [سورة النحل : ٩٨] وفي المعوذتين وغير ذلك[(١)] فهي عبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله كغيرها من أنواع العبادة .

قوله : وقول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[(٢)] [سورة الجن : ٦] قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله في تفسيره هذه

(١) شرع الله الاستعاذة به سبحانه وأمر بذلك في قوله : ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ عند نزغ الشيطان وعندما يريد المسلم تلاوة القرآن ، وفي سورتي المعوذتين ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ أمر الله ﷺ بالاستعاذة برب الفلق ورب الناس .

(٢) هذا دليل على أن الاستعاذة لا تجوز بغير الله ، لأن الجن لما أسلموا أنكروا ما كان يفعله قومهم في الجاهلية وما كان يفعله الإنس معهم ، كما في سورة الجن لما ذكر ﷻ أن الجن استمعوا إلى الرسول ﷺ وهو يقرأ القرآن فأعجبهم هذا القرآن وعلموا أنه من عند الله ، فأسلموا وذهبوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك ودعوهم إلى الله ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ . قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [سورة الأحقاف : ٢٩ - ٣١] وهذا في مرجعه من الطائف ، لما ذهب إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الله وردوا عليه رداً قبيحاً رجع ﷺ إلى مكة ، فبينما هو يصلي الفجر في مكان يقال له وادي نخلة - يسمى الآن بنخلة اليمانية على جانب الطريق - سمعه الجن فأعجبهم القرآن ، فقالوا هذه المقالة ، وفي سورة الجن ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا . يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا . وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا . وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا . وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [سورة الجن : ١ - ٦] هذا من باب الاستنكار على هؤلاء الإنس الذين يستعيذون بالجن ، أنكروا عليهم هذا ، وأنكروا على الجن أنهم يرضون بهذه الاستعاذة . فدل على أن الاستعاذة لا تجوز إلا بالله ﷻ ، وأنها عبادة لله ﷻ . ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾

=

الآية : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول : أعوذ بعزيز هذا الوادي فزادهم ذلك إثماً ، وقال بعضهم : فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بعزيزهم جراءة عليهم وازدادوا هم بذلك إثماً ، وقال مجاهد : فازداد الكفار طغياناً ، وقال ابن زيد : وزادهم الجن خوفاً)[1] ، وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله[2] . وقال ملا علي قاري الحنفي ﷺ : (لا تجوز الاستعاذة بالجن ، فقد ذم الله الكافرين على ذلك وذكر الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [سورة الأنعام : ١٢٨] الآية . فاستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات ، واستمتاع الجني

من بني آدم ﴿ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ من ذرية الشيطان ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ الجن زادوا الإنس رهقاً يعني خوفاً ، وهكذا كل من خاف من غير الله ولجأ إلى غير الله ، فإن ذلك لا يزيده إلا خوفاً ورعباً بخلاف من لجأ إلى الله واستعاذ بالله فإن ذلك يزيده إيماناً وقوة واطمئناناً . ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [سورة الرعد : ٢٨] فالذي يستعيذ بالله يزيده ذلك ثباتاً واطمئناناً ويقيناً ، أما الذي يستعيذ بغير الله فإن ذلك يزيده خوفاً ورعباً وقلقاً عقوبة له . ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ وقيل : إن الإنس زادوا الجن رهقاً أي عُجباً بأنفسهم وتكبراً ، فالآية محتملة أن الذين زادوا رهقاً هم الجن زادوا الإنس ، أو بالعكس أن الإنس زادوا الجن . والظاهر والله أعلم أن الآية تشمل المعنيين .

(١) وهذه الأقوال لا تتناقض ، كلها تشملها الآية الكريمة ، والمفسرون لا يختلفون كل واحد منهم يأخذ بمعنى مما تحتمله الآية ، والآية تشمل الجميع ، ولذلك يسمون اختلافهم اختلاف تنوع وليس هو اختلاف تضاد .

(٢) الاستعاذة بغير الله لا تجوز بدلالة الكتاب ، وبدلالة السنة ، وبدلالة إجماع أهل العلم على ذلك .

بالإنسي تعظيمه إياه واستعاذته به وخضوعه له) انتهى ملخصاً ، قال المصنف ﷺ : (وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من الشرك)(١) . قوله : وعن خولة بنت حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك »(٢) رواه مسلم .

---

(١) بعضهم يقول : والله فلان استعان بالجن وحصل له مطلوبه ، أو فلان دعا عند القبر الفلاني وحصل له مراده ، شفي من مرضه ، أو رزق ولداً ، ويتخذون هذا دليلاً على الجواز ، فهذا غرور - والعياذ بالله - لأن حصول المطلوب لا يدل على جواز الشيء . الحلال والحرام إنما يستدل عليهما بالكتاب والسنة ، أما إن حصل المطلوب فهذا يحصل لأحد أمرين : إما أن هذا استدراج من الله ﷻ ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة القلم : ٤٤] ، أو يكون صادف قضاء وقدراً ، قدَّر الله إنه يحصل له مقصوده في هذه اللحظة أو في هذه الحالة ، فظن أن هذا بسبب استعانته بالجن ، أو بسبب دعائه عند القبر ، أو بسبب نذره للميت وليس كذلك ، هذا بقضاء الله وقدره . فالحاصل أن حصول الحاجة لا يدل على الجواز .

(٢) هذا حديث خولة بنت حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي زوج عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أنها سمعت النبي ﷺ يقول : « من نزل منزلاً » يعني سواء كان هذا المنزل في البلد أو كان في البر ، سواء كان هذا المنزل مؤقتاً أو منزلاً غير مؤقت . فقال : « أعوذ بالكلمات الله » أي : التجيء إلى الله بكلماته التي هي صفة من صفاته ﷻ ، فيجوز الاستعاذة بالله ﷻ أو بصفة من صفاته ﷻ من باب التوسل إليه ﷻ . وكلمات الله تشمل كلمات الوحي : القرآن ، وتشمل الكلمات الكونية التي يأمر بها ﷻ وينهى بها ويدبر بها الكون ، فكلمات الله على نوعين : كلمات كونية ، وكلمات وحي وقرآن ، والحديث يشملها : الكونية والشرعية وهي القرآن والتوراة والإنجيل والزبور . « لم يضره شيء » إذا قال هذا الكلمة لم يضره شيء لا من الجن ولا من الإنس ، حصل له الأمان حتى يرحل من منزله ذلك ، هذا فيه أمان لبني آدم ، إذا نزلوا منزلاً أن يبادروا بقول هذه الكلمة : أعوذ بكلمات الله التامات .
=

والتامات معناها : الوافيات التي لا يعتريها نقص ، « من شر ما خلق » : ما موصولة أي من شر الذي خلق ؛ لأن الخلق على قسمين : خلق فيه الخير وخلق فيه الشر . فالملائكة والمؤمنون والأنبياء هؤلاء فيهم خير ، وأما الجن والشياطين والكفرة والفسقة والمنافقين فهؤلاء خلق فيهم شر ، فأنت تستعيذ بالله من شرهم ، سواء كانوا من الجن أو من الإنس أو من الدواب أو من الحشرات كلها مخلوقات لله ﷻ ، وقد يكون فيها ما هو شر . فأنت تستعيذ بالله من شر الحيات ومن شر العقارب ومن شر السباع والكلاب ، تستعيذ بالله من شر شياطين الإنس والجن ، هذه كلمة عامة من شر ما خلق ، لأن (ما) من صيغ العموم عند الأصوليين ، والأسماء الموصولة من صيغ العموم ، وأنت تستعيذ بالله من شر كل ذي شر ، وفي القرآن الكريم في سورة الفلق : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ . مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي : من شر الذي خلق من المخلوقات ، من كل مخلوق فيه شر ولا يدفع هذا الشر إلا الخالق ﷻ ، ولو سلطه عليك ما استطاع أحد أن يدفعه فمن استعاذ بكلمات الله التامات عند نزوله المنزل حصل له الأمان ، فلا يضره شيء حتى يرحل من منزله . فهذا فيه دليل على مسائل : **المسألة الأولى** : مشروعية الاستعاذة بالله ﷻ عند نزول المنزل ، سواء كان في السفر أو في الحضر ، وأن يبادر الإنسان بالاستعاذة بالله أول ما ينزل ، وأما الذين يعملون عمل أهل الجاهلية ، الذين كانوا إذا نزلوا منزلاً يقولون : نعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، فهؤلاء يستعيذون بالمخلوقين ، يستعيذون بالجن والشياطين ، هذا فعل الجاهلية ، والمؤمن لا يستعيذ إلا بالله ﷻ ، لا يستعيذ بقبر ولا بجني ولا بإنسي ولا بشيء إلا بالله ﷻ ، وكذلك ما يفعله المشركون ويقلدهم بعض الجهلة ، بأنهم إذا نزلوا منزلاً أو افتتحوا مصنعاً من المصانع يذبحون ذبيحة يتقون بها شر الجن ، ويتقون بها شر العين بزعمهم ، ويذبحون الذبيحة عند نزول المنزل ويلطخون الجدران أو العتبة بدم الذبيحة ، أو يلطخون المكينة عندما تدور وتتحرك في المصنع بدم الذبيحة ، يزعمون أن هذا يكفيهم شر العين ، ويكفيهم شر الشياطين والجن ، فهذا من الشرك بالله ﷻ ، ذبح لغير الله واستعاذة بغير الله ﷻ . **المسألة الثانية** : الحديث فيه دليل على أن القرآن كلام الله ؛ لأن النبي ﷺ شرع الاستعاذة به ، والاستعاذة لا تجوز بالمخلوق ، ولو كان القرآن مخلوقاً كما تقوله الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم ما جازت الاستعاذة به ، ودل على أن القرآن صفة من صفات الله ، وكلام الله عموماً صفة من صفاته ﷻ .

=

« خولة بنت حكيم » بن أمية السلمية يقال لها : أم شريك ، ويقال : إنها هي الواهبة، وكانت قبل تحت عثمان بن مظعون[١] . قال ابن عبد البر : (وكانت صالحة فاضلة) .

قوله : « أعوذ بكلمات الله التامات » شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به بدلاً عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن[٢] فشرع الله تعالى للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته[٣] . قال القرطبي ﷺ : (قيل معناه الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب كما يلحق كلام البشر ، وقيل : معناه الكافية الشافية[٤] وقيل : الكلمات هنا هي القرآن ، فإن الله أخبر عنه أنه هدى وشفاء[٥] ، وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به

وإذا أردت التأمين كما يقولون على سيارتك أو على مالك أو على نفسك ، لا تدفع لشركة تأمين مالاً بالباطل ، التأمين الصحيح هو أنك تستعين بالله ﷻ وتتوكل على الله ﷻ وتدعو الله ، هذا هو التأمين الصحيح الذي يحفظ نفسك ، ويحفظ مالك ، ويحفظ أولادك ، ويحفظ دينك وعقيدتك .

(١) عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من سادات المهاجرين وتوفي في أول الهجرة . كان النبي ﷺ يحبه حباً شديداً وقبّله بعدما توفي وبكى ووضع على قبره حجراً من أجل أن يعرفه فيزوره ويسلم عليه ويدعو له ، وهو من سادات المهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) هذا مما يفعله أهل الجاهلية وما يفعله بعض الناس اليوم الذين بقي فيهم شيء من أمور الجاهلية ، فالجاهلية لم تنقطع نهائياً ، بقي لها جذور وبقايا في الناس .

(٣) ومن صفاته كلمات الله التامات .

(٤) وهذا يشمل الأمرين ، يشمل أنه لا يلحقها نقص فهي تامة ، ويشمل أنها كاملة أيضاً ، بحيث أنه من استعاذ بها فإنه لا يلحقه ضرر ، كافية وشافية .

(٥) والآية عامة ، كلمات الله عامة تشمل كلمات الله الكونية ، وكلمات الله الشرعيةالتي هي القرآن والكتب المنزلة على الأنبياء ؛ لأنها كلام الله ﷻ .

الأذى[(١)] ، وعلى هذا فحق المستعيذ بالله تعالى وبأسمائه وصفاته أن يصدق الله في التجائه إليه[(٢)] ويتوكل في ذلك عليه ويحضر ذلك في قلبه ، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه)[(٣)] قال شيخ الإسلام ﷺ : (وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق ، وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله ليس بمخلوق[(٤)] ، قالوا : لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك ، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك[(٥)]) ، قال ابن القيم ﷺ : (ومن ذبح

(١) النبي ﷺ أرشد الأمة وأعطاها البديل عما يفعله أهل الجاهلية من الشرك والاستعاذة بالجن ، أعطاهم البديل وهو الاستعاذة بالله ﷻ .

(٢) فلو أن أحداً استعاذ بالله فأصابه شيء ، فمعنى هذا أن استعاذته فيها نقص ، لو كانت استعاذته ليس فيها نقص ما أصابه شيء . الإنسان يحاسب نفسه ، يفكر في شأنه ، أن يصدق الله هذا هو الشرط .

(٣) إذا تحققت هذه الصفات في المستعيذ بالله حصل له مطلوبه ، أما إن نقصت هذه الصفات ربما لا يحصل على مطلوبه ، ويلحقه ضرر ، أو يتسلط عليه شيء .

(٤) لأنه لو كان مخلوقاً كما تقوله الجهمية ما جازت الاستعاذة به .

(٥) نهى العلماء عن الحروز وعن العزائم التي تكتب على الأوراق وتعلق على الأولاد أو على المرضى ، نهوا عنها ، خشية أن يدخلها شيء من الاستعاذة بغير الله ، لاسيما وأن الذين يكتبونها إما أن يكونوا جُهَّالاً فلا يعرفون الجائز من غير الجائز ، وإما أن يكونوا كفرة زنادقة ويريدون إضلال الناس وترويج الشرك ، وإما أن يكونوا طامعين في المال ولا يهمهم العقيدة ، هذا هو الغالب على هؤلاء الذين يتعاطون الرقية ، الغالب عليهم أنهم يطمعون في الأموال ، ولذلك يأتون بأمور عجائب في رقيتهم يستعينون بالجن ويقولون : هؤلاء إخواننا وأيضاً يفعلون الأعاجيب يقرأ أحدهم على خزان الماء أو الوايت ، أو يقرأ بالهاتف على المصاب وهو عنه بمسافة أشهر ، أو يجمع الناس في صالة وينفخ عليهم جميعاً أو يقرأ عليهم (بالميكرفون) ، هذه أعاجيب ، ويحمله على هذا الطمع في المال .

للشيطان ودعاه واستعاذ به وتقرب إليه بما يحب فقد عبده[١] إن لم يسم ذلك عبادة ، ويسميه استخداماً[٢] . وصدق ، هو استخدام من الشيطان له فيصير من خدم الشيطان وعابديه ، ولذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما هو يفعل به[٣]) .

قوله : « من شر ما خلق » قال ابن القيم : (من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره إنسياً أو جنياً أو هامة أو دابة أو ريحاً أو صاعقة ، أي نوع كان من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة)[٤] ، و« ما » هاهنا موصولة ليس إلا[٥] ، وليس المراد بها العموم الإطلاقي بل المراد التقييدي الوصفي[٦] ، والمعنى من شر كل مخلوق فيه شر[٧] لا من شر كل ما خلقه الله ، فإن الجنة والأنبياء والملائكة ليس فيهم شر[٨] ، والشر يقال على شيئين : على الألم وعلى ما يفضي إليه .

---

(١) من تقرب إلى الشيطان بما يحبه الشيطان فقد عبده ، وإن لم يسم ذلك عبادة ؛ بل سماه استعانة أو سماه ضرورة يقول : هذا من باب الضرورة ، كل هذا باطل ، الله ﷻ جعل الشفاء في العقيدة الصحيحة ، وفي كتابه الكريم ، والضرورة لا تبيح الشرك .

(٢) استخداماً للجن واستعانة بإخوانه من الجن ، وهذا كلام باطل .

(٣) استخدام الإنس للجن هذا عبادة أما عكسه وهو استخدام الجن للإنس هذا ليس عبادة ، لأن الجن لا يعبدون الإنس ، ولكن الإنس هم الذين يعبدون الجن .

(٤) « من شر ما خلق » ما : هنا عامة ، عامة في كل مخلوق فيه شر من الجن والإنس والرياح والدواب والحشرات والحيات وغير ذلك .

(٥) ليست مصدرية إنما هي موصولة ، أي من شر الذي خلق .

(٦) لأنه ليس كل ما خلق الله فيه شر ، فليس المراد بها العموم المطلق ؛ لأن الله خلق الملائكة وخلق الأنبياء والرسل وخلق الصالحين والمؤمنين ، وهؤلاء ليس فيهم شر .

(٧) أما المخلوق الذي ليس فيه شر فأنت لا تستعيذ منه .

(٨) الجنة مخلوقة ليس فيها شر ، والملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام وعباد الله الصالحون كلهم خير وليس فيهم شر .

١٤- بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ . وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

رَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ؛ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هذا الْمُنَافِقِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ».

١٤ - بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

قوله: (باب من الشرك أن يستغيث بغير الله تعالى أو يدعو غيره)(١)،

(١) قال ﷺ: (باب من الشرك) أي من الشرك الأكبر، (أن يستغيث بغير الله)، والاستغاثة: هي الدعاء وقت الشدة والكربة، (أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره) =

هذا من عطف العام على الخاص ؛ لأن الاستغاثة نوع من الدعاء ، والدعاء أعم ، لأن الدعاء قد يكون في وقت الشدة وقد يكون في غيره ، أما الاستغاثة فلا تكون إلا في وقت الشدة والضيق ، وكلا النوعين إذا صرف لغير الله ، ودعي غير الله ، أو استغيث بغير الله فإنه شرك أكبر ، يخرج من الملة ؛ لأنه عبادة لغير الله ﷻ . وهذا واقع في كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام في القرون المتأخرة ، أنهم يستغيثون بالأموات ، يستغيثون بالقبور والأضرحة ، ويدعون غير الله من الأولياء والصالحين فيقعون في هذا الشرك ، مع أنهم يدَّعون الإسلام وينطقون بالشهادتين ويقرؤون القرآن ، ويقرؤون الأحاديث ، ولكن التقليد الأعمى ودعاة الضلال هم الذين روَّجوا هذه الفتنة وزينوها للناس ، وقالوا : أنها لا تقضى حوائجكم ولا تفرج شدتكم إلا إذا دعوتم هؤلاء ، لأن هؤلاء لهم جاه عند الله ، ودعاؤهم والاستغاثة بهم أمور مجربة ، زينوا لهم هذه الأمور حتى وقعوا في هذا الشرك الأكبر – ولا حول ولا قوة إلا بالله – مع أنهم قد بلغتهم الدعوة ويقرؤون القرآن ، ويقرؤون الأحاديث ويسمعون ، ولكن ظنوا أن ما هم عليه لا تعنيه هذه الآيات ولا تعنيه الأحاديث الصحيحة ، ولذلك استمروا عليه فكان لابد من بحث هذا الأمر ، ولابد من النظر فيه ، ولابد من بيانه للناس ؛ لأنه ما أهلك الناس إلا السكوت عما هم عليه ، سكوت العلماء وسكوت الدعاة إلى الله على هذا الأمر كأنه شيء لا يضر ، أو كأنه شيء لا أهمية له ، سكتوا عنه وهم يسمعونه ويعلمونه ، والدعاة يتكلمون في أمور بعيدة عن حاجة الناس ، ولا يتناولون هذه المواضيع ، يدورون على القرى والبوادي وهم على هذا الشرك ولا يعالجونه ولا ينكرونه ولا يبينونه هذه مصيبة عظيمة ، الدعوة إلى الله يجب أن تتوجه أولاً إلى العقيدة وإلى تحسس ما عليه المدعوون من الشرك والجهل بالتوحيد ، ويركز على هذا أولاً وقبل كل شيء ، إن كان ليس عندهم شيء من هذا فإنهم يحذرون من الوقوع فيه ، وإن كان عندهم شيء من هذا فإنهم يؤمرون بتركه حتى تصبح العقيدة واضحة ، وحتى يزول هذا الخطر الذي غزا المسلمين في ديارهم نتيجة للسكوت عنه وعدم الالتفات إليه ، لأننا مشغولون إما بأمور دنيانا ، وإما بفروع العلم والبحث في أمور لا تنفع إلا بعد تحقيق التوحيد ، فالحث على العبادة والحث على الزهد ، والحث على التقوى ، وتجنب المعاصي ، هذه أمور تنفع ، لكن يتوقف نفعها وتتوقف الاستفادة منها على معرفة التوحيد والعمل به ، والإنسان لو كان عنده معاصي كثيرة من أكل الربا ومن فعل الفواحش لكن ليس عنده شيء من الشرك هذا يُرجى له النفع وإصلاحه سهل ، =

قال شيخ الإسلام ﷺ : (الاستغاثة هي طلب الغوث وهو إزالة الشدة كالاستنصار طلب النصر ، والاستعانة طلب العون) ا.هـ .

قلت : فبين الاستغاثة والدعاء عموم وخصوص مطلق[1] يجتمعان في مادة وهو دعاء المستغيث ، وينفرد الدعاء الذي هو مطلق الطلب والسؤال من غير المستغيث ، وقد نهى تعالى عن دعاء غيره الأخص منه والأعم في كتابه ، كما سيأتي بيانه[2] قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[3] [سورة الجن : ١٨] ، فكل ما قصد به غير الله مما لا يقدر عليه إلا الله كدعوة الأموات والغائبين فهو من الشرك الذي لا يغفره الله[4] ، والأدلة على

لكن لو كان عنده صلاح وورع وليس عنده شيء من التوحيد لا فائدة من عبادته ، ولا فائدة من ورعه ، لأن الشرك لا يغفره الله ﷻ ، وصاحبه محروم من الجنة ، خلاف الموحِّد الذي عنده مخالفات دون الشرك فهذا يرجى له المغفرة ومآله إلى الجنة ولو عذب . وهناك شيء أخطر من شيء ، وشيء أهم من شيء ، فالواجب العناية بالأساس أولاً ثم العناية بعد ذلك بما دونه .

(١) أي : أن الدعاء أعم ، والاستغاثة خاصة .

(٢) الاستغاثة خاصة في وقت الشدة ، والدعاء عام في حال الشدة وفي حال الرخاء ، الدعاء أعم من الاستغاثة .

(٣) ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ ، المساجد المعروفة محل الصلوات ﴿ لِلَّهِ ﴾ فلا يُدعى فيها إلا الله ، فلا تبنى المساجد على القبور ويجب أن تُنزَّه من الشرك ، ومن البدع والخرافات ، لتكون محلاً لعبادة الله وحده لا شريك له ، فهذا فيه وجوب العناية بالمساجد وتطهيرها من الشرك والبدع ، وقيل : المراد بالمساجد مواضع السجود في الصلاة ﴿ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ لا في الصلاة ولا في غيرها .

(٤) إلا بالتوبة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] لكن إذا تاب المشرك تاب الله عليه ، أما إذا مات على الشرك فإنه لا يغفر له .

ذلك من القرآن والسنة أكثر من أن تحصر[(١)] .

وقولــــه : ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[(٢)] [سورة يونس : ١٠٦] ففي هذه الآية النهي عن أن يدعى أحد من

(١) يعني أن الأدلة من الكتاب والسنة على أن الشرك لا يغفر لمن مات عليه أدلة كثيرة .

(٢) هذه الآية وما بعدها آخر سورة يونس - يقول سبحانه لنبيه : ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ : هذا نهي للنبي ﷺ وهو نهي لأمته، ﴿ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ لأن النفع والضر بيد الله ﷻ ، لا أحد ينفعك أو يضرك من الخلق إلا بإذن الله ، إن شاء الله سلط الخلق عليك ضروك ، وإن شاء الله سخَّر الخلق فنفعوك ، فالأمور بيد الله ﷻ ، فهذه الأشياء لا تملك نفعاً لا ضراً في ذاتها ، إنما هي مسخرة ومأمورة فعليك بالتعلق بالله ﷻ ، فلا تدع غير الله في جميع الأحوال ، لا تدع الأضرحة والقبور ، أو الأولياء والصالحين ، أو الأشجار أو الأحجار أو الأصنام ، لا تدع الملائكة ولا الأنبياء ولا تدع أحداً غير الله ﷻ ، وجِّه دعواتك إلى الله ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي : غير الله ﴿ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إلا بإذن الله ﷻ ، ﴿ فَإِن فَعَلۡتَ ﴾ أي : دعوت غير الله ﴿ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الظلم هنا المراد به الشرك ، من الظالمين أي : المشركين ، لأن الشرك هو أعظم الظلم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [سورة لقمان : ١٣] هذا الرسول ﷺ لو فعل ذلك كان من المشركين وهو رسول : لأن الخطاب له فكيف بغيره لو فعل هذا ؟! يكون من الظالمين من باب أولى ، ولا ينفعه ورعه وزهده وتعبده إذا دعا غير الله صارت أعماله كلها هباء منثوراً ، ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ ﴾ هذا برهان ثانٍ على أنه لا يُدعى غير الله ﷻ ، البرهان الأول : مالا ينفعك ولا يضرك إذا كان لا ينفعك ولا يضرك كيف تدعوه ؟ دعوته باطلة . البرهان في ذلك إن يصبك بضرر من مرض أو فقر أو جوع أو فاقة أو حاجة أو غير ذلك من أنواع الضرر ، أي ضرر كان ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ ﴾ هذه نكرة تعم كل ضرر ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ لا يكشف الضر بعد نزوله إلا الله ﷻ ، لو تدعو أي مخلوق أن يشفيك من المرض ، أو أن يغنيك من الفقر ، أو أن ينقذك من الشدة ، ما استطاع أن يكشف ما أنزل الله بك =

دونه تعالى ، وأخبر تعالى أن غيره لا يضر ولا ينفع[(١)] قوله : ﴿ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ١٠٦] ، والظلم في هذه الآية هو الشرك كما قال تعالى عن لقمان : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[(٢)] [سورة لقمان : ١٣] ، ﴿ وَإِن

﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ ﷻ . ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ إذا قدَّر الله لك خيراً فلا أحد يستطيع منعه ، ولو اجتمعت الجن والإنس على أنهم يمنعون ما أراد الله لك من الخير ما استطاعوا أبداً ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ إذاً لماذا تخاف المخلوقين ؟ لماذا تدعو المخلوقين ؟ وهم ليس بيدهم نفع ولا ضر ولا يكشفون الضر عمن دعاهم ، هل هذا إلا من الخبال ! ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ الله ﷻ هو الذي يصيب بالخير والشر والنفع والضر من يشاء لا أحد يعقب على الله أو يمنع ما أراده الله ﷻ ، وهو يخص من يشاء بتدبيره ﷻ تخصيص بعض المخلوقات دليل على قدرته ﷻ وعلى أنه لا نافع ولا ضار إلا هو ﴿ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وهو الغفور لمن تاب يغفر الذنوب ، هذا لما حذر من دعوة غير الله وبين أن غير الله لا ينفع ولا يضر ولا يكشف الضر ولا يمنع الخير فتح باب المغفرة والرجاء لعباده ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ يغفر لمن تاب ، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ يرحم من التجأ إليه ﷻ ودعاه ، هذا ترغيب للعباد برحمة الله ومغفرته وألا ييأسوا ويقنطوا ، وأنه من وقع في شيء من الشرك ولو كان شركاً غليظاً فإنه إذا تاب تاب الله عليه وغفر له فلا يقنط الناس من رحمة الله ولو فعلوا ما فعلوا من الذنوب لا يقنطهم من رحمة الله ، بل يحثهم على التوبة والاستغفار ، ويفتح لهم باب الطمع في مغفرة الله ﷻ لعلهم يتوبون . فهذا ترغيب من الله ﷻ في ترك الشرك ودعاء غير الله ؛ لأنهم لو تابوا - مع أنهم أساؤوا في حق الله ﷻ - تاب الله عليهم وغفر لهم ، هذا من كمال رحمته ﷻ ولطفه بعباده ، أنه لا يعاجلهم بالعقوبة ولا يقنِّطهم من رحمته ، فبابه مفتوح للتائبين ﷻ .

(١) هذا فيه أنه لا يدعى غير الله .

(٢) لقمان ﷺ قال : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فنهاه عن الشرك ثم علَّل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فدلَّ على أن الشرك هو أعظم أنواع الظلم .

يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٧] هـذا في حـق المستغيث ، أخبر الله تعالى أنـه لا يكـشف ضره إلا الله وحـده دون مـا سـواه مطلقاً(١) وقوله : ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ [سورة يونس : ١٠٧] فهذا في حق كل طالب وراغب(٢) أخبر الله تعالى أنه هـو الـذي يتفـضل عـلى مـن سأله ولا يقدر أحد أن يمنعه شيئاً من فضل الله عليه(٣) فهو المعطـي والمـانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع(٤) ، وفي هـذا المعنـى مـا في حـديث ابـن عباس رضي الله عنهما : وفيه : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بـشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك »(٥) .

---

(١) فإن الإنسان إذا وقع في ضر فإنه لا يكشف ضره إلا الله ، فهذا دليل على أن الاستغاثة لا تجوز إلا لله ، لأن المضطر في حال شدة فهو مستغيث ، ولا أحد يقدر على إنقاذه من الشدة إلا الله سبحانه .

(٢) يعني في حال الشدة وغيرها .

(٣) كم في الناس من غني ، وله أعداء لو يقدرون لسلبوا ماله وتركوه أفقر الناس وكم منهم من حسدة له يريدون قطع رزقه لكن لا يقدرون ، هذا دليل على أن الله إذا أراد لأحد رزقاً فلا أحد يقدر على منعه ؛ لأن هناك أغنياء أثرياء وحسادهم كثير ولم يستطيعوا منع خير هذه التجارة وهذا الرزق الذي في أيديهم .

(٤) وهناك فقراء محتاجون ، وكثير من الناس يودون أنهم يصيرون أغنياء لكن لا يستطيعون أن يحولوهم من فقراء إلى أغنياء ، لأن الله أراد لهم أن يكونوا فقراء ، فلا أحد يستطيع أن يجعلهم أغنياء .

(٥) هذه وصايا النبي ﷺ لابن عباس . قال : « يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا استعنت فاستعن بالله ، وإذا سألت فاسأل الله ، واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، =

فمن تدبر هذه الآية وما في معناها علم أن ما وقع فيه الأكثر من دعوة غير الله هو الظلم العظيم ، والشرك الذي لا يغفره الله[(١)] وأنهم قد أثبتوا ما نفته لا إله إلا الله من الشرك في الإلهية ، ونفوا ما أثبتته من الإخلاص[(٢)] كما قال تعالى : ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ . أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾[(٣)] [سورة الإسراء : ٢ - ٣] والدين هو طاعة الله فيما أمر به وشرعه ونهى عنه وحرمه[(٤)] ، وأعظم ما

ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » هذا حديث ابن عباس المذكور في الأربعين النووية وقد شرحه الحافظ ابن رجب في رسالة مستقلة سماه : « نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس » وهي رسالة مطبوعة [(*)] .

(١) وإن كانوا يسمونه توسلاً وتشفعاً ، ومحبة وتعظيماً للصالحين ، ولا يسمونه شركاً ، وأن الله أمر بذلك في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [سورة المائدة : ٣٥] قالوا : إن الوسيلة أن تجعل بينك وبين الله واسطة من الخلق وهذا كلام باطل ؛ لأن الوسيلة المراد بها الأعمال الصالحة التي تقرب إلى الله ﷻ ، ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ أي : من الأعمال الصالحة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ : يعني يطلبون القرب من الله بطاعته .

(٢) من دعا غير الله واستغاث بغير الله فقد خالف كلمة (لا إله إلا الله) ، أثبت ما نفته من الشرك ، ونفى ما أثبتته من التوحيد .

(٣) ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ هذا معنى (لا إلـه إلا الله) ، وقول : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ كذلك هو معنى (لا إله إلا الله) .

(٤) الدين هو عبادة الله ﷻ بفعل أوامره وترك ما نهى عنه .

(*) طُبعت بتحقيق : محمد بن ناصر العجمي ، ونشرته : دار البشائر الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م ، في جزء واحد .

أمر به التوحيد والإخلاص[(١)] وأن لا يقصد العبد بشيء من عمله سوى الله تعالى الذي خلقه لعبادته ، وأرسل بذلك رسله ، وأنزل به كتبه ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [سورة النساء : ١٦٥] **، وأعظم ما نهى عنه الشرك به في ربوبيته وإلهيته ، قوله : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾** [سورة الأحقاف : ٥ - ٦] **فهذه الآية تبيّن وتوضح ما تقرر في الآية قبلها[(٢)] ، فأخبر تعالى أنه لا أضل ممن يدعو أحداً من دونه كائناً من**

---

(١) وأعظم ما نهى عنه الشرك .

(٢) هناك ترك تفسير الآية : ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ لكنها موجودة في « فتح المجيد » ، إلا إن كان أسقطها لخطأ مطبعي وهذه الآية مثل الآيتين السابقتين ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : من غير الله من الأصنام والتماثيل ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ لا تملك الرزق وإنما الرزق بيد الله ﷻ ، فكيف تدعو من ليس بيده رزق ؟ وتنسى الرزاق الجواد الكريم ﷻ ، ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ : اطلبوا الرزق من الله ولا تطلبوه من هذه التماثيل وهذه الأصنام ، وقوله ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ هذه تفيد الحصر ، أي لا تطلبوا الرزق من غيره ﷻ ، ﴿ وَاعْبُدُوهُ ﴾ هذا تعميم بعد تخصيص ؛ لأن طلب الرزق نوع من العبادة ، فهو من عطف العام على الخاص ، فهذه الآية مثل الآيتين الكريمتين التي ذكر الشيخ قبلها ، ثم في الآية إشارة إلى أن العبد يجمع بين طلب الرزق والعبادة ، فلا يجلس في المسجد ويترك طلب الرزق ، ولا يتهالك مع طلب الدنيا وينسى العبادة ؛ لأن الناس بين طرفي نقيض إما أنه ينقطع للعبادة ويترك طلب الرزق ، ويصير عالة على غيره ، وإما أنه يتهالك في طلب الدنيا وطلب الرزق ويترك العبادة ، فالله أمرك بالاثنين : طلب الرزق والعبادة ، وهذا دين الإسلام دين كامل ولله الحمد ليس دين رهبانية مثل رهبانية النصارى ، الذين =

يتركون الدنيا ، ويتفرغون في الصوامع للعبادة ، هذه رهبانية ما كتبها الله عليهم ، الله ﷻ أمر بطلب الرزق وأمر بالعبادة ولا يتنافيان أبداً .

ثم ذكر الآية التي في سورة الأحقاف في أولها : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ : أي لا أحد أشد ضلالاً ، لأن ﴿ مَن ﴾ هذه استفهام بمعنى النفي أي : لا أحد أشد ضلالاً ممن يدعو من دون الله ، لأن الشرك هو أعظم الذنوب وأعظم الظلم ، وأعظم الضلال أيضاً ، والضلال معناه الضياع عن الحق والتيه عن الهدى ، ﴿ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : من غير الله ﴿ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ ﴾ هذه الأصنام وهذه القبور وهذه الأشجار والأحجار لا تستجيب لمن دعاها ، لأنها عاجزة ، وهم يعترفون بذلك ، ويقولون : نحن نعرف أنها جمادات لكن نجعلها وسائط بيننا وبين الله وشفعاء بيننا وبين الله ، فالذي يستجيب هو الله لكن هذه وسائط ، الله لم يأمرك أن تتخذ وسائط بينك وبينه ، بل أمرك بدعائه مباشرة ، فادع الله مباشرة بدون واسطة فلان أو علان ﴿ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ لا يتصور أن هذه المعبودات تستجيب لمن دعاها طول الدنيا إلى أن تقوم الساعة ؛ لأنهم يدعون أمواتاً أو جمادات ، إما أموت في القبور صاروا رمياً وتراباً وإما جمادات من حجارة أو من بنايات أو أشجار لا تملك نفعاً ولا ضراً وسبحان الله تترك الله القادر على كل شيء السميع البصير الذي يراك ويسمعك وهو قادر وغني ويستجيب ، وتنصرف إلى جمادات وأموات ومخلوقات تتعلق بها من دون الله ﷻ ﴿ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ هذا تيئيس لهم بأنهم يدقون باباً مغلقاً لا يُفتح أبداً ﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ فهم أولاً : لا يسمعون من دعاهم وثانياً : لو سمعوا ما استجابوا له ، ولا يقدرون ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ إذاً ما الفائدة من دعاء هؤلاء ؟ والوقوف عند عتباتهم وعند أبوابهم وترك أقرب الأقربين سبحانه وأجود الأجودين الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، لماذا تنحرف عنه وتنصرف إلى غيره ؟! هل هذا إلا من انتكاس الفطر ؟ ﴿ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ هذا في الدنيا ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ يوم القيامة ﴿ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ يوم القيامة يتعادى المعبودون مع العابدين ، ويتبرؤون منهم وهم كانوا في الدنيا يحبونهم حباً شديداً ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥] في الدنيا يحبونهم حباً شديداً ، لكن يوم القيامة

=

إذا تبرؤوا منهم انقلبت المحبة عداوة ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ ينكرون عبادتهم لهم ويتبرؤون منهم ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [سورة البقرة: ١٦٦] يوم القيامة يتبرأ المتبوع على الضلال من التابع ، والمعبود من دون الله ممن عبده ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [سورة البقرة: ٦٣] ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يعني جاحدين لها ، يقولون : أبداً أنتم ما عبدتونا ولا أمرناكم بذلك ولا صلة بيننا وبينكم ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [سورة البقرة : ١٦٦] ، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ . قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سورة سبأ : ٤٠ - ٤١] يعني الشياطين ؛ لأن الشياطين هي التي أمرتهم بذلك ، فهم يعبدون الشياطين ولا يعبدون الملائكة ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ هذا مآلهم يوم القيامة ، في الدنيا لا يستجيبون لهم ولا يسمعون دعاءهم ويوم القيامة يتبرؤون منهم ويعادونهم ، ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [سورة العنكبوت : ٢٥] هذه مقالة إبراهيم ﷺ لقومه يحذرهم من عواقب الأمور ، والعاقل يتفكر في عواقب الأمور ولا ينظر ما عليه الناس ثم يدخل معهم فلا يأخذه التقليد الأعمى إلى أن يغامر مع الناس بدون نظر في العواقب :

وأَحْزَمُ النَّاسِ مَن لو مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ ... لا يَقْرَبُ الوِرْدَ حتى يَعرِفَ الصَّدَرَا(*)

هؤلاء لم يتأملوا في العواقب ؛ بل غامروا وتركوا عبادة الله وعبدوا الأصنام والأموات ، ويوم القيامة هذا مآلهم ، ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ هذا خبر من الله ﷻ عن أمر مستقبل ، ذكر واقعهم في الدنيا ثم ذكر واقعهم وما يكون لهم في الآخرة ، حتى يتضح الأمر أمام الإنسان ولا يكون إمعة ، الأمر واضح جداً ، والنتائج مكشوفة واضحة ، وهذا من رحمة الله بعباده ، أنه ما تركهم في عمى وما تركهم في جهل ، بل بيَّن لهم ﷻ ما كان وما يكون ، فيكونون على وضح النهار ، فما بقي حجة لهؤلاء المشركين يتعلقون بها ،

(*) هذا البيت للشاعر صفي الدين الحلِّي يحرض السلطان الملك الصالح على الاحتراز من المغول ومنافرتهم عند إقبالهم . انظر : جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، لأحمد بن إبراهيم الهاشمي ٢ / ٣٧٧ .

كان وأخبر أن المدعو لا يستجيب لما طلب منه من ميت أو غائب أو ممن لا يقدر على الاستجابة مطلقاً من طاغوت ووثن ، فليس لمن دعا غير الله إلا الخيبة والخسران ، ثم قال تعالى : ﴿ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ كما قال تعالى في آية يونس : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ [سورة يونس : ٢٨] إلى قوله : ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾(١) [سورة يونس : ٢٩] ثم قال : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [سورة الأحقاف : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾(٢) [سورة النحل : ٨٦] فلا يحصل للمشرك يوم القيامة إلا نقيض قصده ، فيتبرأ منه ومن عبادته ، وينكر ذلك عليه أشد الإنكار ، وقد صار المدعو للداعي عدواً ، ثم أخبر تعالى أن ذلك الدعاء عبادة بقوله : ﴿ وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾(٣) [سورة الأحقاف : ٦] ، فدلت أيضاً على أن دعاء غير الله عبادة له ، وأن الداعي له في غاية الضلال ، وقد وقع من

بطلت حجتهم ، ولكن مع هذا لا يزالون مصرّين على ما هم عليه ويعتبرونه هو الدين ، ويعتبرون ما عداه تطرفاً وخروجاً عن الحق ، وغير ذلك مما يقولونه من أنواع العيب على دعاة التوحيد .

(١) ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ جحدوا عبادتهم لهم ؛ لأنهم في الحقيقة إنما يعبدون الشيطان ، لأنه هو الذي أمرهم بذلك .

(٢) ﴿ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ في عبادتكم إيانا في الدنيا .

(٣) في أول الآية : ﴿ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وفي آخر الآية ﴿ وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ ، فسمى الدعاء عبادة .

هذا الشرك في آخر هذه الأمة ما عمّ وطمّ(١) حتى أظهر الله من يبينه بعد أن كان مجهولاً عند الخاصة والعامة(٢) ، إلا من شاء الله تعالى ، وهو في الكتاب والسنة في غاية البيان(٣) لكن القلوب انصرفت إلى ما زيّن لها الشيطان كما جرى للأمم مع الأنبياء والمرسلين لما دعوهم إلى توحيد الله ، جرى لهم من شدة العداوة ما ذكر الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾(٤) ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾(٥) [سورة الذاريات : ٥٢] ويشبه هذه الآية في المعنى ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ . إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ

---

(١) أما أول الأمة في القرون المفضلة ما حصل فيها شيء من عبادة القبور والأضرحة ، إنما حصل هذا بعد انقضاء القرون المفضلة بعد المئة الرابعة ، لما ظهر في الأمة التشيع والصوفية حدث الشرك في القبور .

(٢) أول من جدد هذا الدين بعد القرون المفضلة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فإنه نهض رحمه الله بما آتاه الله من علم وقوة وحجة فجدد هذا الدين ، وجدد العقيدة ، وعاد بالأمة إلى ما كانت عليه في الصدر الأول ، ولقي في سبيل ذلك ما لقي من الأذى والتعذيب حتى على يد العلماء مع الأسف ، دع عنك السلاطين وعباد القبور ، على أيدي العلماء والفقهاء صاروا ضد هذا الشرع إلا من شاء الله . تتلمذ على يد الشيخ علماء قاموا بتجديد هذا الدين من بعده ، كابن القيم وابن كثير والذهبي .

(٣) وآخر من انتفع بعلم الشيخ وتلميذه هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تتلمذ على كتب الشيخين ابن تيمية ، وابن القيم ، وقام بالتجديد في بلاد نجد وغيرها .

(٤) إذا كان هذا حصل للرسول ﷺ قالوا ساحر أو مجنون ، فكيف بغيره من المجددين والدعاة ؟!

(٥) توارثوه وإن لم يتواصوا به ؛ لأن أهل الضلال مذهبهم واحد في قديم الزمان وحديثه ، وإن لم يتواصوا به .

﴿ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[(١)] [سورة فاطر : ١٣ - ١٤] أخبر الله تعالى أن ذلك الدعاء شرك بالله وأنه لا يغفره لمن لقيه به ، فتدبَّر هذه الآيات وما في معناها كقوله : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [سورة الجن : ١٨] ، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [سورة الجن : ٢٠] وهو في القرآن أكثر من أن يستقصى[(٢)] .

قوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾[(٣)] [سورة النحل :٦٢] وهذا مما أقر به مشركو

---

(١) والقرآن مملوء بمثل هذه الآيات ، لكن يحتاج إلى بصيرة وإلى تدبر وإلى عمل ، وإلا فإن القرآن يبقى في حججه وبيناته في المصاحف ، ويبقى الناس في ضلالهم وشركهم ، إذا لم يكن هناك من الدعاة إلى الله ﷻ من يوضح هذا القرآن ويدعو إليه ويفسره للناس ويوضحه لهم ، وجود القرآن وحده لا يكفي ، لابد من دعاة إلى الله ﷻ ومن مجددين لهذا الدين يحملون القرآن ويحملون السنة ويبينون العلم للناس .

(٢) لا يريد أن يتدبر ، وإلا فالقرآن مملوء بهذا .

(٣) قول الله ﷻ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ ﴾ هذا استفهام وتقرير وتوبيخ للمشركين من يجيب المضطر إذا دعاه ؟ هم يعترفون أنه لا يجيب المضطر إذا دعاه إلا الله ، ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [سورة الإسراء : ٦٧] ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [سورة لقمان : ٣٢] ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ . فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [سورة يونس : ٢٢ - ٢٣] .

هذه حالة المشركين الأولين أنهم يخلصون الدعاء في حالة الكرب والشدة ، لأنهم يعلمون أنه لا ينقذ من الشدائد إلا الله جلا وعلا ، فإذا كانوا في حالة الرخاء عادوا إلى شركهم ، قال الشيخ في إحدى رسائله في « القواعد الأربع » : (مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين ، لأن الأولين يشركون في الرخاء ، ويخلصون في الشدة ، ومشركو زماننا شركهم =

العرب وغيرهم في جاهليتهم(١) كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٦٥] أخبر تعالى أنهم يخلصون الدعاء له إذا وقعوا في شدة . قال أبو جعفر بن جرير ﷺ : يقول تعالى : ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ [سورة النمل : ٦٠] يفعل هذه الأشياء بكم وينعم بهذه النعم عليكم ؟ وقوله : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النمل : ٦٢] يقول : تذكراً قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون وتعتبرون

دائماً في الرخاء والشدة)(*) . الآن إذا وقعوا في كرب وفي غرق استغاثوا بالمخلوقين ، يا بدوي ، يا حسين ، يا فلان ، يا رفاعي ، هذا لم يصل إليه المشركون الأولون .. المشركون الأولون عند الكرب يخلصون ؛ لأنهم يعلمون أنه لا ينقذ من الشدائد إلا الله ، وهؤلاء يقولون : الأولياء ينقذون من الشدائد ، وأن فلاناً لما وقع في الغرق هتف باسم فلان فأنقذه من الغرق ، ومد يده إليه وأنقذه إلى البر ، والذي في الحقيقة يفعل هذا معهم هو الشيطان الرجيم ، ولهم قصص في هذا لو قرأتم في « طبقات الأولياء » للشعراني لوجدتم العجب العجاب من هذه الأمور ، وأنهم يتمادحون بأن أولياءهم أنقذوا فلانا وفلانا من البحر ، وعملوا وعملوا ، وهذا كله كذب ومن خداع الشيطان . ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ هل أجابوا وقالوا : نعم ؟ ما أجابوا ، ما قالوا : نعم هناك من يجيب المضطر إذا دعاه وهناك من يكشف السوء غير الله ، فالله ﷻ وجَّه هذا السؤال إليهم ، وهو سؤال تحدي إلى يوم القيامة ، ولا أحد أجاب عليه ، لأنه لا يوجد أحد ينقذ من الشدائد إلا الله ، ولا أحد يكشف السوء إلا الله ، إذاً بطل شرك المشركين .

(١) مُقرُّون أنه لا ينقذ من الشدة إلا الله ، ولذلك لا يفزعون عند الشدائد إلا إلى الله ، وينسون ما كانوا يشركون في حالة الرخاء ، ومعترفون بهذا ، وإذا كان لا ينقذ في الشدائد إلا الله فإنه لا يُدعى إلا الله ﷻ .

(*) القواعد الأربع (ضمن مجموع مؤلفات الشيخ محمد عبد الوهاب) ١ / ٢٠٢ .

حجج الله عليكم يسيراً فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته[١] قوله : وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق . فقال النبي ﷺ : « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله »[٢] الطبراني : هو الإمام الحافظ

---

(١) بغفلة عن القرآن ، والقرآن بين أيديكم .

(٢) هذا الحديث الذي رواه الطبراني ﷺ أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المسلمين ، المنافق : اسم فاعل من نافق ينافق نفاقاً فهو منافق والنفاق الأكبر : هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر . كما عليه المنافقون في زمن النبي ﷺ ، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار ، تحت عُبَّاد الأصنام ، لأن عبَّاد الأصنام مصرِّحون بكفرهم وشركهم ، أما هؤلاء فأخفوا كفرهم بدعوى الإيمان ، فصار عذابهم أشد من عذاب عبدة الأصنام ، في الدرك الأسفل من النار ، لا أحد أسفل منهم في جهنم ، كان منافق لم يسم . لكن جاء في بعض الروايات أنه عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين ، « يؤذي المؤمنين » بكلامه وسبابه لهم وتنقصه لهم وللرسول ﷺ ، وهكذا المنافقون في كل زمان ومكان ، همهم السخرية بالمؤمنين ، وتنقصهم والتماس العيوب لهم ، والتشكيك بالأخطاء بين المسلمين ، وإلقاء العداوة بين المسلمين ، هذه حرفة المنافقين في كل مجتمع ، ولا يكون النفاق إلا مع قوة الإسلام ، إذا قوي الإسلام وُجد النفاق ، وإذا ضعف الإسلام فإنه لا حاجة إلى النفاق ، المنافق يصرِّح بكفره وشره مع ضعف المسلمين ، ولذلك ما كان في مكة قبل الهجرة نفاق ، إنما كان النفاق بعد الهجرة لما قوي الإسلام واعتز المسلمون ظهر النفاق ، فلا يوجد النفاق إلا مع قوة المسلمين ، وكان هذا المنافق ممن أظهر الإسلام وأبطن الكفر ، كان حضُّه دائماً بالوقيعة بالمسلمين ، يؤذي المسلمين بكلامه ولمزه وسخريته « فقال بعضهم » : جاء في بعض الروايات أنه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « قوموا بنا نستغيث برسول الله » أي : نطلب منه أن يمنع شر هذا المنافق عنا ، فقال رسول الله ﷺ : « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله » : هذا فيه دليل على أن الاستغاثة لا تجوز بالمخلوق ، لأنها أشد أنواع الدعاء ، فالذين ينادون الآن : يا رسول الله دائماً في قيامهم وقعودهم وفي احتفالهم بيوم المولد وغير ذلك يستنجدون بالرسول ، يستنجدون بقبره إذا جاؤوا إلى قبره ، والرسول ﷺ

=

سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني ، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها ، روى عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم الدبري وخلق كثير ، مات سنة ستين وثلاثمائة روى هذا الحديث عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قوله : « فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق » الحديث ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ : (إن النبي ﷺ كان يقدر أن يغيثهم منه) قلت : فلعله أراد أن النبي ﷺ كان يقدر أن يترك المنافقين يفعل بهم ما يستحقونه مخافة أن يفتتن بعض المؤمنين من قبيلة المنافق[1] . وفي السنة ما يدل على ذلك

يقول : « إنه لا يستغاث بي ، هؤلاء مخالفون للرسول ﷺ « وإنما يستغاث بالله » ، لكن يرد على هذا الحديث نوع من الاستشكال ، وهو أن الرسول ﷺ كان قادراً على أن يردع هذا المنافق وأن يستجيب للمسلمين فلماذا قال : « إنه لا يستغاث بي » مع أنه قادر ؟ وموسى ﵇ لما استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه نصر الذي من شيعته ، ووكز الذي من عدوه حتى قضى عليه ، فهذا يدل على أنه تجوز الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه ، والرسول قادر على أن يردع هذا المنافق ، فلماذا الرسول أجابهم بهذه الإجابة ؟ قالوا : الرسول ﷺ فعل هذا وإن كان قادراً على إغاثتهم من أجل سد الذرائع التي تفضي إلى الشرك ، ومن أجل التأدب مع الله ﷻ ، لأنه لو أقرَّهم على هذه الكلمة وأغاثهم صار هذا وسيلة إلى أن يدعى رسول الله ﷺ في كل شدة وفي كل مهمة ، والناس على أشد الاستعداد عندما تحصل لهم مناسبة أن يستدلوا بفعل الرسول ﷺ فيقولون : الصحابة استغاثوا به فأغاثهم فلماذا لا نستغيث به وهو ميت ؟ فالرسول ﷺ سد هذا الباب من أصله ، والشيء ولو كان جائزاً إذا كان يفضي إلى المحرم فإنه يصبح غير جائز .

إذاً لا يستغاث به لا حياً ولا ميتاً ولا يطلب منه المدد ، ولا يطلب منه النصر ولا أي شيء بعد وفاته ، فإذا كان هذا في حياته وهو قادر فكيف يفعل هذا معه بعد وفاته ﷺ ؟! هذا حديث عظيم من أحاديث سد الذرائع المفضية إلى المحرم ، فالشيء قد يكون جائزاً في حد ذاته ولكن إذا كان مفضياً إلى محرم فإنه يمنع . هذا ما دل عليه هذا الحديث .

(١) يعني كان يتركهم تأليفاً للمؤمنين من قومهم .

كما فعل مع ابن أُبيّ وغيره ، وقيل : إن النبي ﷺ كان يقدر أن يغيثهم من ذلك المنافق فيكون نهيه ﷺ عن الاستغاثة به حماية لجانب التوحيد ، وسداً لذرائع الشرك[١] ، كنظائره مما للمستغاث به قدرة عليه مما كان يستعمل لغة وشرعاً مخافة أن يقع من أمته الاستغاثة بمن لا يضر ولا ينفع ، ولا يسمع ولا يستجيب من الأموات والغائبين والطواغيت والشياطين والأصنام وغير ذلك ، وقد وقع من هذا الشرك العظيم ما عمت به البلوى كما تقدم ذكره حتى إنهم أشركوهم مع الله في ربوبيته وتدبير أمر خلقه ، كما أشركوهم معه في إلهيته وعبوديته ، والوسائل لها أحكام الغايات في النهي عنها والله أعلم[٢] .

---

(١) هذا هو الصحيح ، أن الرسول ﷺ أراد ألا يطلق هذا اللفظ عليه ، لئلا يفضي هذا إلى الاستغاثة به من دون الله ﷻ ، كما حصل للأولياء والصالحين .

(٢) هذا الحديث من أعظم الأدلة على سد الذرائع ؛ لأن الرسول ﷺ نهاهم عن شيء جائز وهو الاستغاثة به بما يقدر عليه سداً للذريعة ؛ لئلا يستغاث به في شيء لا تجوز الاستغاثة به من الشرك الأكبر .

١٥ - باب قول الله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

قَوْلِ الله تَعَالَى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٩١ - ١٩٢] .

وَقَوْلِهِ : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ . إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣ - ١٤] .

وفِي « الصَّحِيح » عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : « شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ ، فَقَالَ : كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ؟ فَنَزَلَتْ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] » .

وَفِيهِ : عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ : « اللَّهُمَّ العَنْ فُلانًا وَفُلاناً » ؛ بَعْدَمَا يَقُولُ : « سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنا وَلَكَ الحَمْدُ » ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] » .

وَفِي رِوَايَةٍ : (يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ ، وَسُهَيْل بنِ عَمْرٍو ، وَالحَارِثِ بنِ هِشَامٍ ؛ فَنَزَلَتْ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

وَفِيهِ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَامَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ؛ قَالَ : « يَا مَعْشَر قُرَيْشٍ (أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا) ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُم ؛ لاَ أُغْنِي عَنْكُم مِنَ الله شَيْئًا . يَا عَبَّاسُ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ ! لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ الله شَيئاً . يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ الله ﷺ ! لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيئاً . وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَاشِئْتِ ؛ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا » .

١٥ - باب قول الله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾(1) [سورة الأعراف : ١٩١ - ١٩٢] وهذا

---

(١) هذا الباب يشتمل على أدلة بطلان الشرك فقد سبق في الأبواب السابقة بيان أنواع من الشرك ، وفي هذا بيان الأدلة الدالة على بطلان الشرك ، فالله ﷻ قال : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ ﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾ هذا استفهام إنكاري . ﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾ يعني الذين يدعون اللات والعزى ومناة والأصنام والأولياء والصالحين وكل من أشرك بالله ﷻ أياً كان معبوده صنماً أو شجراً أو حجراً أو ولياً من الأولياء أو ملكاً من الملائكة أو نبياً من الأنبياء أو صالحاً من الصالحين كلهم يتصفون بهذه الصفة ﴿ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ فإذا كانوا لا يخلقون شيئاً فكيف يُدْعون من دون الله ﷻ ؟! . لأن العبادة إنما تكون للخالق ﷻ ، ولا تكون للمخلوق الذي لا يستطيع أن يخلق شيئاً ، وهذا باعترافهم ، هم معترفون أنها لا تخلق شيئاً ، ولا يستطيعون أن يقولوا أنها تخلق ، لأن الواقع يكذبهم ، وقد تحداهم الله بذلك فقال :﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ هذا تحدي ، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [سورة الحج :٧٣] فقوله : ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ : هذا إخبار عن المستقبل ؛ لأن الله سبحانه يعلم الغيب ، يعلم ما كان وما يكون ، فلن يستطيعوا أبداً في المستقبل مهما بلغوا من الاختراع ، ومن التقدم العلمي كما يقولون لن يخلقوا أقل شيء وهو الذباب . الذين يصنعون الطائرات والنفاثات ويغزون الفضاء كما يقولون لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، لو اجتمع جميع المهرة والصناع والمهندسين والخبراء في العالم كلهم من أولهم إلى آخرهم لن يخلقوا ذباباً ، لأن الخلق من خصائص الله ﷻ ، لا أحد يستطيع أن يخلق أبدا ، أما أنه ينتفع بما خلق الله ويطلع على أسرار المخلوقات ومنافعها ، فهذا الله هو الذي أطلعه عليه ، وهو الذي خلق هذا الخلق من أجل منافع العباد ومصالحهم ، وهم لم يخلقوها وإنما انتفعوا بها واطلعوا على شيء من أسرارها ومنافعها لمصالحهم ومصالح غيرهم ، أما الخلق فإنه من اختصاص الله ﷻ ، والذي لا يقدر على أن يخلق شيئاً لا يجوز أن يعبد من دون الله ، هذا برهان من براهين التوحيد وبطلان الشرك وهنا قال : ﴿ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ ،

=

ولم يقل : ما لم يخلق شيئاً ، يعني في الحاضر ولا في المستقبل . لو قال (مالا يخلق) ، يمكن يقولون في الماضي لا يستطيعون لكن مع تطور العلم يمكن إنهم يخلقون ، الله ﷻ قطع الطريق عليهم في المستقبل ﴿ لَن يَخْلُقُوا ﴾ في المستقبل إلى يوم القيامة ، وهذا تحدي منه ﷻ إذا كانوا صادقين أنها تستحق العبادة فليبرهنوا على أنها تستطيع أن تخلق شيئاً لا يستطيعون ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ هذه المعبودات مخلوقة ، إذا كانت هي لا تخلق فهي مخلوقة كما قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة الطور : ٣٥] والمخلوق لا يصلح أن يُعبد ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٩٤] تحدي من الله ﷻ ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [سورة النحل : ٢٠] ، فلم يخلقوا أنفسهم ولم يخلقوا غيرهم فبطلت عبادتهم ، هذا برهان قاطع من براهين التوحيد وبطلان الشرك .

والبرهان الثاني : قد يقولون : نعم إنها لا تخلق شيئاً لكنها تستطيع أن تنصرنا وتعيننا فأبطل الله ذلك بقوله :﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ هذه المعبودات كلها لا تستطيع أن تنصر من دعاها أو طلبها ، لأنها جمادات وأحجار وأشجار أو أموات في القبور لا يستطيعون أن ينصروا من دعاهم واستغاث بهم .

﴿ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ لو أصابهم شيء هؤلاء المعبودون ما استطاعوا أن يدفعوا عن أنفسهم ، فإذا كانوا لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ، فكيف يدفعون عن غيرهم ﴿ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ . بإمكان أصغر طفل يكسر الصنم ، ولا يستطيع الصنم أن يمنع نفسه من الطفل ، كذلك لو أن الذباب أخذ ما على الصنم ما استطاع الصنم أن يسترده ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ ذكر ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (أن راشداً كان يسدن صنماً لبني سليم فرأى يوماً ثعلبين يبولان عليه فقال :

أربٌ يبولُ الثعلبان برأسِهِ ... لقد ذَلَّ من بالَتْ علَيه الثَّعالِبُ

ثم شدَّ عليه فكسره ، ثم أتى النبي ﷺ ، فقال له : « ما اسمك ؟ » قال : غاوي بن عبد العزى قال : « أنت راشد بن عبد ربه » فأسلم وحسن إسلامه ، وشهد الفتح مع النبي ﷺ)(*) ا.هـ . لما راجع الصواب عرف أن صنمه هذا لا يستطيع أن ينصر نفسه ولا

(*) ١ / ٣٠٨ .

=

مما احتج به تعالى على المشركين لما وقع منهم من اتخاذ الشفعاء والشركاء في العبادة ؛ لأنهم مخلوقون فلا يصح أن يكونوا هم شركاء لمن هم خلقه وعبيده وأخبر أنهم مع ذلك لا يستطيعون لهم نصراً أي : لمن سألهم النصرة ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [سورة الأعراف : ١٩٢] فإذا كان المدعو لا يقدر أن ينصر نفسه فلأن لا ينصر غيره من باب الأولى ، فبطل تعلق المشرك بغير الله بهذين الدليلين العظيمين[1] وهو كونهم عبيداً لمن خلقهم لعبادته والعبد لا يكون معبوداً ، الدليل الثاني : أنه لا قدرة لهم على نفع أنفسهم فكيف يرجى منهم أن ينفعوا غيرهم ، فتدبر هذه الآية وأمثالها في القرآن العظيم[2] ، وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ . إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ

يستطيع أن يدفع عن نفسه ، أخذ هذا من الواقع ، عند ذلك راجع عقله وصوابه وتاب إلى الله ﷻ وأسلم ﴿ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرًا ﴾ يعني لمن دعاهم ﴿ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾ حتى ولو اعتدى عليهم أحد لا يستطيعون ينصرون أنفسهم . هذا برهان .

(١) نفي الخلق ونفي النصر عن هؤلاء المعبودين من دون الله ﷻ فبطلت عبادتهم ، لا يخلقون ولا ينصرون ، فما الفائدة من عبادتهم ؟ بل يدعى الخالق الذي يقدر على نصر من استغاث به ولجأ إليه ﷻ ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٦] ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال : ١٠] هذا حصر ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٠] النصر بيد الله ﷻ .

(٢) القرآن مملوء بمثل هذه الأدلة التي تدل على بطلان الشرك ، ولكن أين من يتدبر ويتجرد من الهوى والتقليد الأعمى ؟ من تدبر القرآن بصدق وإقبال وتجرد من الهوى والعصبية والتقليد الأعمى نفعه ما في القرآن من الأدلة ، وأما من يقرأ القرآن وهو باق على عصبيته وعلى جهله وعلى تقليده الأعمى فلن ينفعه القرآن ولو يقرأه الليل والنهار ، لو يقرأه بالقراءات العشر أو الخمسة عشر لا ينفعه ، إنما يكون حجة عليه يوم القيامة .

دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾[١] إلى قوله : ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[٢]

---

(١) هذا دليل ثالث وهو عدم الملكية ، لأن الملك كله لله ، الملك بيده سبحانه بيده الملك ، فليس لأحد ملك إلا من ملكه الله ﷻ وهو ملك مؤقت ومستعار .

(٢) أول هذه الآية : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ . إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ في هاتين الآيتين برهان على بطلان الشرك وصحة التوحيد ، فقوله : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ لا أحد ينازع في هذا أن الملك لله ﷻ : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ جميع الأصنام ليس لها ملك ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ أقل شيء وهي القشرة التي تكون على النواة ، فلا أحد يملك شيئاً إلا ما ملكه الله فيه ؛ لأن الملك لله ﷻ يؤتيه من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، فالملك بيده ﷻ ، فكيف تطلب منهم الحوائج وهم لا يملكون القطمير ؟! لا تطلب الحوائج إلا ممن يملكها ويقدر عليها ، هؤلاء فقراء ليس عندهم شيء ، فكيف يطلب منهم قضاء الحوائج ؟ هذا برهان ، البرهان الثاني : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾ لأنهم إما جمادات لا تسمع ولا تبصر ، وإما أموات في قبورهم لا يسمعون من دعاهم ، وإما غائبون كالملائكة لا يسمعون من دعاهم ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾ لأنهم لا يملكون هذا الشيء الذي تطلبونه منهم ، لا يستطيعون الاستجابة بل المفروض في المدعو أنه يستجيب فإذا كان المدعو لا يستجيب فدعاؤه عبث، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ يجحدون عبادتكم إياهم وينكرونها ويقولون : ما أمرناكم بها ، الذي أمركم بها هو الشيطان أما نحن ما أمرناكم أن تعبدونا ولا علاقة لكم بنا . فذكر الله أربعة أشياء تدل على بطلان الشرك :

أولاً : أن هذه المعبودات لا تملك شيئاً ، **ثانياً** : أنها لا تستجيب لمن ناداها ودعاها ، **ثالثاً** : أنها لو سمعت ما قدرت على إجابة الداعي ، **رابعاً** : أنهم يوم القيامة يجحدون عبادة من عبدهم عند الحاجة إليهم ، فبطلت عبادتهم من هذه الوجوه الأربعة ، ثم قال ﷻ : ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ يعني نفسه ﷻ ، هو الذي يعلم الأشياء ويخبر عن علم ، لا عن ظن وتخرص ، فالواجب أن يُقبل خبره ﷻ ، وأن يُؤمن بما قالوا ، لكن المشركين أبوا أن يقبلوا خبر الله وعارضوا قول الله ﷻ ، أنها لا تملك ولا تسمع ولا تجيب ولا تقدر ، عارضوا

=

[سورة فاطر : ١٣ - ١٤] ابتدأ تعالى هذه الآيات بقوله : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [سورة فاطر : ١٣] يخبر الخبير أن الملك له وحده ، والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتدبيره ، ولهذا قال : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [سورة فاطر : ١٣] فإن من كانت هذه صفته فلا يجوز أن يرغب في طلب نفع أو دفع ضر إلى أحد سواه تعالى وتقدس ، بل يجب إخلاص الدعاء له الذي هو من أعظم أنواع العبادة ، وأخبر تعالى أن ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئاً وأنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم ، ولو فرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم ، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشركهم أي ينكرونه ويتبرءون ممن فعله معهم ، فهذا الذي أخبر به الخبير الذي ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة آل عمران : ٥] وأخبر أن

هذا وقالوا : هي تقدر وتستجيب ، والقبر الفلاني إذا جئته ودعوته حصل لك مقصودك ، وفلان دعا عند ضريح فلان وحصل له مقصوده ، فيعارضون قول الله تعالى : ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ الله أخبرنا أنها لا تملك ولا تسمع وأنها لو سمعت لا تستجيب ، وأنه يوم القيامة تتبرأ ممن عبدها ، والمشركون أبوا فعارضوا هذا كله ، ووصفوا معبوداتهم بأنها تملك ما يطلب منها وأنها تسمع من دعاها وأنها تجيبه ، وأنها يوم القيامة تنقذه من العذاب ، وهذه مخالفة لكلام الله وتكذيب لخبر الله ﷻ ، يا سبحان الله إذا قال الشيطان أو المضلل أو دعاة السوء من بني آدم أن هذه الأضرحة تنفع أو تضر يصدقونه ، والله ﷻ يقول ، لا تنفع ولا تضر ويُكذِّبون الله ؟! يصدقون هؤلاء الدجالين ويكذبون الله رب العالمين ؟!! هذا هو واقع عُبَّاد القبور اليوم ، وما أضل الناس إلا دعاة الضلال الذين زينوا لهم الشرك بمؤلفاتهم وبكتبهم ومحاضراتهم ودروسهم يُكذِّبون الله ﷻ ، والله ﷻ يقول : ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وهم يقولون : إنها تنفع وتضر وتعطي وتمنع وتشفع لمن دعاها .. إلخ ويستمرون على عبادتها .

ذلك الدعاء شرك به وأنه لا يغفره لمن لقيه به ، فأهل الشرك ما صدقوا الخبير ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع ، بل قالوا : إن الميت يسمع ، ومع سماعه ينفع[١] فتركوا الإسلام والإيمان رأساً[٢] كما ترى عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمة[٣] قوله : في الصحيح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : « شج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته فقال : « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ » فنزلت ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٨][٤] الآية وفيه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا :

---

(١) قالوا : إن الميت يسمع ومع سماعه ينفع ، والله ﷻ يقول : إنه لا ينفع .

(٢) وإن كانوا يدَّعون الإسلام ولكن تركوه فبقوا على دين المشركين وهم يدَّعون الإسلام ، لا تنفع الدعوى ، الإسلام ليس مجرد دعوى ، يقول الإنسان : أنا مسلم أو يصلي ويصوم ويعمل العبادات ، ثم يشرك بالله ﷻ ، هذا لا ينفعه شيئاً .

(٣) من جهلتهم ومن علمائهم علماء الضلال .

(٤) في الصحيح : أي صحيح البخاري ومسلم ﷺ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : « شج النبي ﷺ » الشجة : الجرح في الرأس والوجه خاصاً ، أما الجرح إن جاء في بقية البدن يقال له : جرح ، ولا يقال : شجة ، فمعنى شُجَّ النبي ﷺ يعني جرح في رأسه ﷺ يوم أحد ، الوقعة المشهورة عند جبل أحد الواقع شمالي المدينة بين النبي ﷺ وأصحابه وبين المشركين حصلت الوقعة ، ونظَّم النبي ﷺ المسلمين وانتصروا في أول المعركة ، ثم إن بعضهم خالف تنظيم الرسول ﷺ فحلت بالمسلمين الهزيمة من أجل هذه المخالفة ، ولو أنهم استمروا على تنظيم الرسول ﷺ لاستمر النصر لهم ، ولكن لما خالف بعضهم عن التنظيم الذي نظمه الرسول ﷺ أصيب المسلمون ، وهذه موعظة للمسلمين إلى يوم القيامة ، أنهم إذا خالفوا أمر الرسول ﷺ فإنهم حريون بالعقوبة ، إذا كان أفضل الأمة وهم الصحابة حصلت عليهم العقوبة بسبب مخالفة بعضهم فكيف بالذين يخالفون في أكثر من هذا ؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله – يوم أحد شج النبي ﷺ وكسرت رباعيته ، فالعقوبة أصابت حتى الرسول ﷺ وهو أفضل الخلق ﷺ ، فدل على بطلان عبادته ، وأنه لا ينفع ولا يضر ، إنما هو رسول مبلغ عن الله ﷻ ، ولا يملك نفعاً ولا ضراً ، بل لا =

سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر : « اللهم العن فلانا وفلانا بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد » ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[1] [سورة آل عمران : ١٢٨] ، وفي رواية : « يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو الحارث بن هشام » فنزلت ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٨] وأسلم هؤلاء وحسن

يدفع عن نفسه ﷺ أصابته الجراحة وأصابه كسر في الرباعية وانهشم المغفر على رأسه ﷺ حتى دخلت بعض حلقاته في رأس الرسول ﷺ ، وسقط في حفرة ﷺ ، أصابه في هذه الوقعة ما أصابه رفعة لدرجاته ﷺ ، ودليل على أنه بشر ﷺ ، إذا قدَّر الله عليه شيئاً فإنه لا يمتنع منه فهو بشر ، لا تجوز عبادته من دون الله ، فإذا كان الرسول ﷺ بشر ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه فغيره من باب أولى . هذا برهان واضح ، فقال ﷺ : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ استبعد ﷺ هدايتهم ، لأن هذا ضلال مبين حملهم على أن يشجُّوا نبيهم الذي يدعوهم إلى الله ويريد لهم الخير ، استبعد ﷺ فلاحهم وهدايتهم ولكن الله يعلم مالا يعلمه الرسول ﷺ ، يعلم أن هؤلاء سيسلمون ويفلحون .

فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ : أنت ليس عليك إلا البلاغ فقط ، وأما الهداية فهي بيد الله والفلاح بيد الله ﷻ فإذا كان الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء وهو أفضل الخلق وأفضل الرسل فكيف بغيره ؟! يقال : إن الولي الفلاني والقبر الفلاني له من الأمر شيء ! هذا يدل على بطلان الشرك ، والتعلق على غير الله ، وأن أحداً من الخلق ليس له من الأمر شيء ، الأمر لله ﷻ حتى الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله فقط ، والأمر بيد الله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

(١) يعني هذا سبب نزول الآية : أن الرسول ﷺ دعا على نفر من قريش لما حصل منهم من محادة لله ولرسوله وقتالهم للمسلمين ، لكن مع هذا لما تابوا تاب الله عليهم ، فالكافر مهما عمل من الأعمال الكفرية والشركية إذا تاب ، تاب الله عليه ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٨] ، وهؤلاء لما تابوا تاب الله عليهم وحسن إسلامهم رضي الله عنهم .

إسلامهم[١] قوله : « في الصحيح » أي الصحيحين علّقه البخاري ، عن حميد وثابت ، عن أنس[٢] ، ووصله أحمد والترمذي والشافعي[٣] عن حميد ، عن أنس ، وقد قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٤] ، وقال

---

(١) وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع النبي ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخير من صلاة الفجر : « اللهم العن فلانا وفلانا » قنت ﷺ يدعو باللعنة ، واللعنة : هي الطرد والإبعاد من رحمة الله ﷻ « اللهم العن فلاناً وفلاناً » بينتهم الرواية التي بعدها أن فلاناً وفلاناً هم : سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية بن خلف والحارث بن هشام ابن عم النبي ﷺ ؛ لأنهم آذوا رسول الله ﷺ وآذوا المسلمين وهؤلاء من صناديد الكفرة ، وكانوا مع أبي سفيان في وقعة أحد يقودون جيوش الكفر ، فلعنهم النبي ﷺ لشدة كفرهم واستبعد وأيس ﷺ من هدايتهم فدعا عليهم في المعركة ، فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ لأن هؤلاء الثلاثة أسلموا وحسن إسلامهم ، فالله يعلم سبحانه مالا يعلم الرسول ﷺ يعلم من شأن هؤلاء ، وأنهم سيسلمون ويحسن إسلامهم ، فدل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب ، وفي هذا بطلان لدعاء غير الله سبحانه ، فإذا كان الرسول لا يعلم الغيب فغيره من باب أولى ، لا تصلح عبادتهم من دون الله ، وهذه القصة فيها دليل على القنوت في النوازل ، إذا نزلت بالمسلمين نازلة فإن الإمام يقنت في صلاة الفجر في الركعة الأخيرة بعد الركوع يدعو على الأعداء الذين داهموا المسلمين وحاصروهم وضايقوهم يدعو عليهم ، وهذه سنة ثابتة ومستمرة ، أن كل ما نزل بالمسلمين فإنه يستحب للإمام الأعظم ولكل إمام في الصلاة أن يقنت في صلاة الفجر يدعو على الكفار حتى يخلص الله المسلمين منهم ، النبي ﷺ قنت يدعو على قوم كما في هذا الحديث وقنت يدعو لقوم من المسلمين المستضعفين أن ينقذهم الله من براثن المشركين الذين منعوهم من الهجرة وضايقوهم في مكة ، قنت ﷺ يدعو لهم بالفرج ، فالقنوت في النوازل ثابت عن النبي ﷺ .

(٢) والمعلّق هو : هو ما ذكر بدون سند . معلقات البخاري هي الأحاديث أو الآثار التي يذكرها بدون سند .

(٣) وصله يعني ذكر سنده .

تعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف : ٥٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة ، والمقصود أن الذي له الأمر كله والملك كله لا يستحق غيره شيئاً من العبادة(١) ، ولهذا المعنى قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾(٢) [سورة القصص : ٥٦] فالذي قال الله تعالى في حقه صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ هو خيرة الله من خلقه ما زال يدعو الناس أن يخلصوا العبادة للذي له الأمر كله وهو الله تعالى(٣) ، فهذا دينه ﷺ الذي بعث به وأمر أن يبلغه أمته ويدعوهم إليه ، كما تقدم في (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله) فإياك أن تتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين الذي شرعه الله ورسوله لهم وخصهم به(٤) .

---

(١) العبادة لا تصلح إلا لمن له الخلق والأمر والتدبير والقدرة ، وأما من لا يقدر أو لا يخلق أو لا يرزق ولا يستطيع قضاء حاجة من دعاه هذا لا يعبد .

(٢) إنك لا تهدي : يعني لا تدخل الإيمان في قلب من تريد ، هذا لا يقدر عليه إلا الله ، أما إنك تهدي يعني إنك تدل وترشد هذا يملكه الرسول ﷺ ، الرسول يملك هداية الدعوة والإرشاد والبيان ولكنه لا يملك هداية التوفيق والإيمان هذه بيد الله ﷻ . وظيفة الرسول هي هداية الدلالة والإرشاد فقط ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى : ٥٢] أما هداية التوفيق هذه بيد الله ﷻ .

(٣) فإذا كان الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء ، فغيره من باب أولى ، وإذا كان الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء فلا تجوز عبادته ، وإنما يجب اتباعه وطاعته ﷺ ، أما العبادة فهي لله ﷻ .

(٤) أن تتبع غير سبيل المؤمنين : من توحيد الله وإخلاص العبادة له ، وتميل إلى عبادة غير الله مما يعبده كثير من الناس من القبور والأضرحة والأولياء والصالحين .

قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٢١٤](١) ، قوله : وفيه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : « يا معشر قريش »(٢) - أو كلمة نحوها(٣) - « اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً(٤) ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً(٥) يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً »(٦) ، قوله : « فيه » أي : في صحيح

(١) وهذا في مكة ، يعني السورة مكية .

(٢) المعشر : هم جماعة الرجل .

(٣) شك الراوي هل قال : يا معشر قريش أو كلمة بمعناها ، وهذا من تحريهم في الرواية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم لا ينسبون إلى الرسول ﷺ إلا شيئاً يجزمون به أنه قاله ، وأما إذا لم يجزموا فإنهم يأتون بالاحتمال أو كلمة نحوها .

(٤) اشتروا أنفسكم بأي شيء ؟ بالإيمان استبدلوا الإيمان بالكفر ، والتوحيد بالشرك .

(٥) بعد أن ناداهم نداء عاما يا معشر قريش لجميع قبيلة قريش ؛ لأنهم عشيرته ﷺ ولأنهم من قريش فالله أمر أن ينذر عشيرته الأقربين ، وهذا يدل على أن الداعي يجب أن يبدأ بأقرب الناس إليه ، يبدأ بأهل بيته وبأقاربه وأهل بلده أقرب الناس إليه ، ثم ينشر الدعوة إلى الله ، أما إنه يبدأ بالبعيدين ويترك القريبين هذا خلاف منهج الدعوة التي أمر الله تعالى بها ، بعض الناس الآن يتركون بلادهم وفيها الشرك وفيها الكفر والإلحاد ويأتون إلى بلاد التوحيد يزعمون أنهم دعاة إلى الله ، وهذا خلاف منهج الدعوة ، إذا كانوا صادقين في دعوتهم ، ونحن نخشى أنهم مغرضون وليسوا بصادقين يريدون أن يفسدوا على أهل التوحيد توحيدهم وعقيدتهم ، فإن كانوا صادقين في دعوتهم فعليهم أن يبدأوا بمن حولهم أما إن كانوا مغرضين أو يريدون التلبيس على أهل التوحيد فهؤلاء أمرهم إلى الله ﷻ وسيفضحهم ويكشف خططهم .

(٦) هذا الحديث يرويه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وأبو هريرة كنيته ، واسمه عبد الرحمن على الصحيح اختلفوا في اسمه ، والصحيح أن اسمه عبد الرحمن كما قال النووي ،
=

عبد الرحمن بن صخر الدوسي من أفاضل الصحابة وأكثر الصحابة رواية للحديث حافظ السنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولا يماثله أحد إلا عبد الله بن عمرو بن العاص ، لأن عبد الله بن عمرو كان يكتب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأما أبو هريرة فكان لا يكتب وإنما كان يحفظ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال : لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ هذا في مكة قبل الهجرة أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فصعد ﷺ على الصفا ونادى : « يا معشر قريش » فاجتمعوا ، فقال : « اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً » اشتروا أنفسكم يعني بالإيمان هذا هو الشرى والاستبدال « لا أغني عنكم من الله شيئاً » إذا كان الرسول ﷺ لا يغني عن قريش قبيلته شيئاً وهم قبيلته فكيف يغني عن غيرهم ؟ ثم خص ﷺ من هو أخص من قريش قرابته أقرب الناس إليه ، فقال : « يا عباس بن عبد المطلب » ، هذا عم الرسول الله ﷺ : « لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً » قال لعمه ولعمته ثم خص أخص من عمه وعمته وهي بنته قال : « يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً » فإذا كان النبي ﷺ قال لقبيلته ولقرابته ولأقرب الناس إليه « لا أغني عنكم من الله شيئاً » ، هذا دليل على بطلان عبادته ﷺ وعبادة غيره من باب أولى ، وأنه لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً ، كما قال ﷺ : ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ [سورة الجن : ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٨] فإذا كان النبي ﷺ لا يملك نفعاً ولا ضراً لنفسه ولا لأقرب الناس إليه فكيف يملكه لغيره ؟

فهؤلاء الذين يتعلقون على الرسول ﷺ ويدعونه من دون الله ويستغيثون به ويطلبون منه المدد : يا رسول الله ، يا رسول الله . هؤلاء هم على دين المشركين الأولين عبدة اللات والعزى ومناة لم يتغير من الأمر شيء ، لأن العبادة حق لله ﷻ لا تجوز لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لولي من الأولياء ولا لأي مخلوق ، العبادة محض حق الله ﷻ . وفي هذا الرد على الذين يتعلقون بقرابته من الرسول ﷺ يسمون أنفسهم آل البيت ويظنون أن هذا يكفيهم وينجيهم من عذاب الله أنهم من أقارب الرسول ﷺ دون أن يشتروا أنفسهم بالإيمان والتوحيد والعمل الصالح يعتمدون على قرابتهم من الرسول . قرابتهم من الرسول لا تنفعهم شيئاً ، هذا عم الرسول أبو لهب ما نفعته قرابته من الله شيئاً ، وأنزل الله فيه

=

البخاري ، واختلف في اسم أبي هريرة وصحح النووي أن اسمه عبد الرحمن ابن صخر[(١)] ، وهو دوسي من حفاظ الصحابة[(٢)] ، حفظ من الحديث ما لم يحفظه غيره[(٣)] ، كما في صحيح البخاري عن وهب بن منبِّه ، عن أخيه :

قرآناً يتلى إلى يوم القيامة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [سورة المسد] هذا عم الرسول ﷺ أبو طالب الذي كان يحمي النبي ﷺ ويدافع عنه لكنه أبى أن يدخل في الإسلام حمية لدين الجاهلية ، وبقي على دين عبد المطلب حتى مات ، أراد النبي ﷺ أن يستغفر له مكافأة لصنيعه فأنزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [سورة التوبة : ١١٣] فسمى أبا طالب مشركاً ، لا يجوز الاستغفار له ؛ لأنه مات على الشرك وعلى ملة عبد المطلب ، مات وخرجت نفسه وهو يقول : هو على ملة عبد المطلب فقال الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [سورة التوبة : ١١٣] سماه مشركاً ونهى رسوله ﷺ عن الاستغفار له ، لأنه مات على الشرك ، فإذا كان هؤلاء قرابة الرسول من أهل النار وهم أعمام الرسول، لأنهم لم يتركوا الشرك ويدخلوا في الإسلام فغيرهم من باب أولى ، ومجرد القرابة لا يكفي حتى بنت الرسول ﷺ أقرب الناس إليه قال لها : « سليني من مالي ما شئت » أنا لا أملك إلا مالي فقط وأما غير ذلك أنا لا أملكه « سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً » فياله من حديث عظيم يقطع علائق الشرك والتعلق على غير الله ﷻ من الأنبياء والصالحين وغيرهم ، ولكن أين التفكير وأين العقول ؟ التقليد الأعمى أخذ الناس ، والهوى أخذ الناس ولم يفكروا في كلام الله وكلام رسوله ﷺ يمشون على العوائد وما قال فلان وعلان ، ويصدقون دعاة الضلال ولا يلتفتون إلى ما في القرآن وما في سنة الرسول ﷺ من الأدلة .

(١) لأنه كان اسمه في الجاهلية عبد شمس بن صخر فسماه النبي ﷺ عبد الرحمن .

(٢) دوسي يعني من قبيلة دوس التي حول الطائف الآن .

(٣) وأكثر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ ، ولذلك يسمى راوية الإسلام ، ولذلك ما =

سمعت أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول : « ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً عنه مني ، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب » مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة ، وهذا الحديث له طرق كثيرة في الصحيحين والمسند والسنن وغيرها .

قوله : قال : « يا معشر قريش » أو كلمة نحوها « اشتروا أنفسكم » ، أي بالإيمان بالله ورسوله واتباعه فيما جاءكم به ، مما أنزل عليه من توحيد الله تعالى في العبادة[١] ، وترك ما كنتم تعبدونه من دونه من الأوثان والأصنام ، فإنهم بذلك الشرك صاروا عبيداً لمن لا يضر ولا ينفع ، ولا يستجيب ولا يسمع إلا هو ، وهم قد عرفوا أن ما كانوا يفعلونه من عبادة غير الله شرك بالله ، فإنهم كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » . فسبحان الله كيف جاز في عقولهم أن المملوك يكون شريكاً لمالكه[٢] ، وقد قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا

أبغض على أهل البدع والضلال والطوائف المنحرفة من أبي هريرة ، لماذا ؟ لأنه حفظ سنة رسول الله ﷺ وهم يبغضون السنة .

(١) يعني بيعوا الكفر والشرك بالتوحيد والإيمان هذا معنى اشتروا .

(٢) هذه تلبية المشركين غيروا تلبية إبراهيم ﷺ (لبيك لا شريك لك) قالوا : لبيك لا شريك لك ، وزادوا عليها : (إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك) ، فكيف يجعلون المملوك شريكاً للمالك ؟! وهم لا يرضون هذا لأنفسهم ، لا يرضون أن يكون عبيدهم ومماليكهم شركاء لهم في أموالهم فكيف يرضون هذا لله ؟! قال ﷻ : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [سورة الروم: ٢٨] الله ﷻ رد عليهم قولهم : (إلا شريكاً هو لك) ، بأنهم لا يرضون هذا لأنفسهم فكيف يرضونه لله ﷻ ؟!

مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [سورة الروم : ٢٨، ٢٩][١] ، **قوله : « لا أغني عنكم من الله شيئاً » هذا هو معنى ما تقدم من أنه تعالى هو المتصرف في خلقه بما شاء مما اقتضته حكمته في خلقه وعلمه بهم ، والعبد لا يعلم إلا ما علمه الله ، ولا ينجو أحد من عذابه وعقابه إلا بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، والبراءة من عبادة ما سواه ، كما قال تعالى :** ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [سورة المائدة : ٧٢][٢] ، **والنبي ﷺ في هذا الحديث أنذر الأقربين نذارة خاصة ، وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً ، وبلغهم وأعذر إليهم ، فأنذر قريشاً ببطونها وقبائل العرب في مواسمها[٣] ، وأنذر عمه وعمته وابنته وهم أقرب الناس إليه ، وأخبر أنه لا**

---

(١) بل اتبعوا أهواءهم بغير علم ، هذه طريقة الظالمين أنهم يتبعون الهوى ويتركون العلم .

(٢) ﴿ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ كلمة عامة تعم كل المشركين حتى ولو كانوا من أقارب الأنبياء أو أقارب الصالحين ، القرابة وحدها لا تنفع ، لابد من الإيمان بالله ﷻ ، نعم قرابة الرسول ﷺ مع الإيمان تنفع ، لكن قرابة الرسول ﷺ مع الكفر والشرك لا تنفع ولا تفيد .

(٣) كان ﷺ ينذر إنذاراً عاماً جميع الناس وجميع القبائل ، ولكنه في هذا الحديث أمره ربه أن ينذر قبيلته وأقرباءه إنذاراً خاصاً ، لأن أولى الناس بدعوتك ومنفعتك هم أقاربك فتبدأ بهم أولاً ، ولأن الناس إذا رأوا اقاربك على الحق صدقوك ، أما إن كنت تدعو الناس وتترك أقاربك يقول الناس : لو كان فيه خيرٌ يبدأ بأقاربه وبأهل بيته .

يغني عنهم من الله شيئاً[1] ، إذا لم يؤمنوا به ويقبلوا ما جاء به من التوحيد وترك الشرك به ، قوله : «سليني من مالي ما شئت » ؛ لأن هذا هو الذي يقدر عليه ﷺ وما كان أمره إلى الله سبحانه فلا قدرة لأحد عليه كما في هذا الحديث ولما مات أبو طالب وكان يحوط رسول الله ﷺ ويحميه ، ولم ينكر ملة عبد المطلب من الشرك بالله ، وقال ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [سورة التوبة : ١١٣][2] فأخبر أن أبا طالب من أصحاب النار[3] لما مات على غير شهادة أن لا إله إلا الله[4] فلم ينفعه حمايته النبي ﷺ من أن يكون من المشركين ولا الاعتراف بأن

(١) وهناك من يعتقد أن اسم محمد ينفعه ؛ لأنه وافق اسم الرسول ﷺ ، كما قال صاحب البردة(*) :

فإنَّ لي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَتِي محمداً وَهُو أَوْفَى الخَلْقِ بالذِّمَمِ .

يقول الذي اسمه محمد يكفيه هذا ، هذه ذمة مع الرسول ﷺ ، مجرد الاسم وهذا هو الضلال - والعياذ بالله - .

(٢) بعض كتاب المسلمين المنخدعين بكلام الرافضة يصفون أبا طالب بأنه مؤمن ويترضون عنه ، والله ﷻ يقول : إنه مشرك قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة التوبة: ١١٣] سماه مشركاً ، وهؤلاء يكذبون القرآن .

(٣) نعم أخبر أنه مشرك ﴿ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، وأخبر أنه من أصحاب النار ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ ومنهم أبو طالب لأن الآية نزلت فيه .

(٤) فدل على أن مجرد القرابة لا تكفي ، فأبو طالب عم الرسول ﷺ وقد بذل الشيء الكثير في حماية الرسول ﷺ لكن لما لم يكن على توحيد لم ينفعه ذلك فالإنسان إذا عمل الأعمال

(*) انظر : مجموع مولد شرف الأنام (قصيدة بردة المديح) ص ١٧٧ .

النبي ﷺ على الحق بدون البراءة من الشرك[١] ؛ لأنه لم يبرأ من ملة أبيه[٢] ، فكل تعلق على غير الله من طلب شفاعة أو غيرها شرك بالله يكون عليه وبالاً في الدنيا والآخرة ، والشفاعة لا تكون إلا لأهل الإخلاص خاصة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [سورة الأنعام : ٥١] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وكذلك الأحاديث ، والله أعلم ، وستأتي في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

الصالحة وهو ليس على التوحيد لم تنفعه أعماله الصالحة ، لم تنفع أبا طالب حمايته للرسول ﷺ لما مات على الشرك ، وهذا دليل على أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد[*] .

(١) هو يعرف أن الرسول ﷺ على حق ومصدِّقٌ بهذا ، وهو القائل :

وَلَقَدْ عَلِمتُ بأنَّ دينَ مُحمدٍ ... مِنْ خَيرِ أَدْيانِ البَرِيَّةِ ديناً
لَولاَ المَلاَمَةُ أو حِذارُ مَسَبَّةٍ ... لَرَأَيْتَنِي سَمْحاً بِذَاك مُبِيناً

فهو - والعياذ بالله - ترك اتباع الحق وخاف من الملامة والمَسَبة من المشركين .

(٢) ولذلك قال في آخر كلمة قالها : هو على ملة عبد المطلب .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - : إذا كانت قرابة الرسول ﷺ لا تنفع المشرك من أقربائه ، فكيف يجاب عما ثبت في الصحيح أن أخف الناس عذاباً في النار أبو طالب ؟ فأجاب : نعم صحيح ، قرابة الرسول ﷺ لا تنفع مع عدم الإيمان ، لأنها لم تنفع أبا طالب سوى منفعة تخفيف ولم تخرجه من النار ، بل صار يقاسي من العذاب ما يرى أنه أشد الكفار في النار عذاباً ، وهو أخفهم عذاباً - والعياذ بالله - أ.هـ .

١٦- **بابُ قول الله تعالى :** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سورة سبأ : ٢٣]

فِي « الصَّحِيحِ » : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النبيِّ ﷺ ، قَالَ : « إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّماءِ ؛ ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ، يَنْفُذُهُمْ ذلِكَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ : ٢٣] ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ ، فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ ، فَيُلقِيها إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلى مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كِذْبَةٍ ، فَيُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا كَذَا : كَذَا وكَذَا ؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ التِي سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ » .

وَعَنِ النَّوَّاسِ بِن سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إذا أراد الله - تعالى - أن يوحي بالأمر ؛ تكلم بالوحي ، أَخَذَتِ السَّماوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ (أو قَالَ : رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ) خَوْفاً مِنَ الله ﷻ ، فإذا سمع ذلك أهل السماوات ؛ صعقوا وخَرُّوا لله سُجَّداً ، فَيَكُونُ أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء ؛ سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق ، وهو العلي الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ﷻ » .

١٦ - بابُ قول الله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة سبأ : ٢٣]

قوله : (باب قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾)(١) .

قوله : (حَتَّى إذا فَزَّعَ عن قلوبهم) أي : زال عنها الفزع قاله ابن عباس وغيره وذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة سبأ : ٢٢](٢) .

---

(١) أي : ما جاء في تفسير هذه الآية ، وأن المراد بالذين فُزِّع عن قلوبهم هم الملائكة ، وغرض المصنف ﷺ من عقد هذا الباب : بيان بطلان عبادة غير الله ؛ لأنه إذا كانت الملائكة تخاف من الله وتفزع عند كلام الله مع عظم خلقتهم وقوتهم وقربهم من الله ، كانوا يخافون ويفزعون فإنه لا تجوز عبادتهم كما كان يعبدهم المشركون ، المشركون كان منهم من يعبد الملائكة فإذا كانت الملائكة لا تجوز عبادتها من دون الله فإن غيرهم من باب أولى ، وقد سبق أن المصنف ﷺ عقد أبواباً في بيان بطلان عبادة الأولياء والصالحين ، وأورد الأدلة على ذلك ، ثم أكمل السياق في بطلان عبادة الملائكة . إذاً فلا تجوز عبادة غير الله لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا من الأولياء والصالحين فضلاً عن غيرهم .

ويفسر هذه الآية الحديثان اللذان يسوقهما المصنف في هذا الباب .

(٢) هذا البرهان الأول ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يعني لا يملكونه استقلالاً ، والبرهان الثاني : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ لا يشاركون المالك وهو الله ﷻ ، والبرهان الثالث : ﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ ولا يعينون الله ﷻ ، فالظهير هو المعين ، بل هو سبحانه القادر على كل شيء ، الغني عن كل شيء ليس بحاجة إلى من يعينه على تدبير الملك وخلق المخلوقات ، والبرهان الرابع : الشفاعة لا تنفع عند الله إلا بإذنه فلا تطلب من الملائكة ولا من الرسل إلا بإذن الله ﷻ ، إذن بطل الشرك من جميع الوجوه ، هذه براهين أربعة على بطلان الشرك .

وقال ابن جرير : (قال بعضهم : الذين فزع عن قلوبهم الملائكة قالوا : وإنما فزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله ﷻ بالوحي) ، قال ابن كثير : (وهو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار)[(١)] ، وقال أبو حيان : (تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴾ إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل ، وأمر الله تعالى به سمعت كجر السلسلة الحديد على الصفوان ، فتفزع عند ذلك تعظيما وهيبة ، قال : وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تتسق هذه الآية على الأولى ، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم ﴾ لم تتصل له هذه الآية بما قبلها)[(٢)] وهذه الآيات تقطع عروق الشرك بأمور أربعة :

الأول : أنهم لا يملكون مثال ذرة مع الله[(٣)] والذي لا يملك مثقال ذرة في السماوات والأرض لا ينفع ولا يضر ، فالله تعالى هو الذي يملكهم ويدبرهم ويتصرف فيهم وحده[(٤)] الثاني : قوله : ﴿ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ ﴾

---

(١) لأن المراد بهم الملائكة ، يقول ابن كثير : (هو الحق الذي لا مرية فيه) لأن أحاديث الرسول ﷺ الآتية تبين هذه ، والسنة تفسر القرآن .

(٢) قوله :﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴾ تدخل فيه الملائكة ؛ لأن (الذين) اسم موصول ، والأسماء الموصولة من صيغ العموم فيدخل فيها الملائكة .

(٣) الأول : ﴿ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾ الذرة : النملة الصغيرة أو الهباءة التي تطير في الهواء ما يملكها من دون الله ﷻ .

(٤) والملك الذي عند الخلق هو من عند الله هو الله الذي ملّكهم فهو ملكه سبحانه وهم عبيده .

أي في السماوات والأرض[١] أي : وما لهم شرك مثقال ذرة من السماوات والأرض[٢] الثالث : قوله : ﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾[٣] ، والظهير : المعين ، فليس لله معين من خلقه ؛ بل هو الذي يعينهم على ما ينفعهم ويدفع عنهم ما يضرهم ؛ لكمال غناه عنهم ، وضرورتهم إلى ربهم فيما قل وكثر من أمور دنياهم وأخراهم . الرابع : قوله : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سورة سبأ : ٢٣][٤] فلا يشفع عنده أحد إلا إذا أذن له كما قال تعالى : ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ [سورة يونس : ٣] .

وأخبر تعالى أن من اتخذ شفيعاً من دونه حرم من شفاعة الشفعاء[٥] قال

---

(١) أي : يعني لا يستقلون بشيء ولا يشاركون بشيء .

(٢) السموات والأرض كلها لله ﷻ ، ليس لأحد فيها شيء ، لا أحد قال اجتمعت الدنيا عندي ، أو رزق السماء لي ، حتى الفراعنة والجبابرة والطواغيت لا أحد ادعى أن شيئاً من السموات والأرض له أو أنه خلق شيئاً من السموات والأرض .

(٣) إذا كان المدعو ليس مالكاً ولا مشاركاً فعلى الأقل يكون معيناً للمالك ، والله ﷻ لا معين له هو الغني عن الإعانة ، بل هو الذي يعين خلقه أما هو ﷻ فلا معين له ولا ظهير .

(٤) المرحلة الأخيرة إذا كان ما له ملك ولا شركة ولا له معاون فلا أقل من أن يكون له واسطة ، الله لا يتوسط أحد عنده إلا بإذنه ، له الشفاعة كلها هو الذي يملك الشفاعة : (قل لله الشفاعة جميعاً ...) لا أحد يشفع عنده إلا إذا أذن فيه ، ليس مثل المخلوقين يشفع الشفعاء عندهم دون أن يتوسطوا ، وبدون إذنهم ، ولو لم يرضوا يشفعون عندهم ، ويفرضون عليهم قبول الشفاعة ، ويضطر الملك أو الرئيس إلى قبول الشفاعة من أجل تأليف الناس لئلا يختلفوا عليه ، أما الله ﷻ فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، خلافاً لغيره من الملوك والرؤساء .

(٥) الذين يطلبون الشفاعة من الأموات والأصنام والأشجار والأحجار ، ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، هذا كلام باطل ، الله ليس عنده شفعاء إلا بإذنه ، والله لم يأذن لهذه الأصنام وهذه المعبودات في الشفاعة .

تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة يونس : ١٨] ؛ لأن اتخاذ الشفعاء شرك ، لقوله تعالى في حقهم : ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١) ، والمشرك منفية عنه الشفاعة في حقه كما قال تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٩٤] وذلك أن متخذ الشفيع لابد أن يرغب إليه ويدعوه ويرجوه ويخافه ويحبه لما يؤمله منه ، وهذه من أنواع العبادة التي لا يصرف منها شيء لغير الله ، وذلك هو الشرك الذي ينافي الإخلاص قوله : في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها ؛ خضعاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - وصفه سفيان بكفه فحرَّفها ، وبدَّد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الكاهن أو الساحر ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس

---

(١) سماه شركاً .

قد قال لنا يوم كذا ، كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء » .

قوله : في الصحيح أي : صحيح البخاري ، ففي هذا الحديث أن من عرف الله تعالى ذَلَّ له تعظيماً ومهابة وخوفاً ، لاسيما عند سماع كلامه تعالى : لأن قوله : إذا قضى الله الأمر ، أي بكلامه ووحيه إلى جبريل[1] ، وقوله : في السماء يدل على العلو ،

(١) ومعنى « قضى الله » يفسره الحديث الذي بعده : « تكلم الله بالوحي » ، وذلك عندما يوحي إلى جبريل ﷺ الموكل بالوحي ، فحينها يتكلم الرب ﷻ بوحيه يكون لذلك رهبة عند الملائكة وترتجف السموات ، والملائكة يفزعون ويخافون من هيبة الرب ﷻ وجلالة كلامه سبحانه ، فلا يدرون ما الذي حدث ، ثم يخرُّون سجداً لله ﷻ ، وفي رواية « يصعقون » يصيبهم الصعق ، وهو الغَشي ، يُغشى عليهم من هيبة الله ويكون أول من يرفع رأسه جبريل ﷺ ، فيكلمه الله بالوحي بما يشاء ؛ لأن جبريل ﷺ هو الملك الموكل بالوحي وهو الروح الأمين الذي ائتمنه الله على وحيه فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر على الملائكة كلما مر بملأ من الملائكة ، أو كلما مر بسماء سأله ملائكتها ، ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول : قال الحق وهو العلي الكبير فيقولون كلهم : قال الحق ، أي : تكلم الله ﷻ بالحق ؛ لأن الله ﷻ لا يتكلم إلا بالحق ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ﴾ الذي في العلو ، عليٌّ بقدره وبذاته فوق مخلوقاته ، وعلي بقهره . جميع أنواع العلو له ﷻ بقدره وقهره وذاته ﷻ ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴾ الذي لا أكبر منه ﷻ ولا أعظم منه ﷻ ، والخلق كلهم بالنسبة إليه لا شيء : ﴿ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فهذا فيه مسائل عظيمة ، فيه المسألة التي أورد المصنف الحديث من أجلها وهي : بطلان عبادة الملائكة ؛ لأنهم عباد يخافون من الله ويفزعون منه ، فليس لهم من العبادة شيء ، وإذا بطلت عبادة الملائكة بطلت عبادة غيرهم من باب أولى ، ثانياً : فيه إثبات صفة الكلام لله ، وأن الله يتكلم بكلام يُسمع ، يسمعه السموات والأرض والملائكة ، ثالثاً : فيه أن المخلوقات كلها تدرك عظمة الله وتخاف منه وترتجف فزعاً عند كلامه . هذا ما يحصل من الملائكة ، ويأتي في الحديث التالي ما يحصل من الشياطين الذين يسترقون السمع .

ففيه إثبات كلام الله وعلوه على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته(١) إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل(٢) وهذا الحديث ونحوه مما احتج به أهل السنة على الجهمية والأشاعرة والكُلاَّبية وغيرهم من أهل البدع(٣) ممن ألحد بالتعطيل في أسماء الله وصفاته، قوله: خضعاناً(٤) هو مصدر خضع(٥) قوله: لقوله: صريح في أنهم سمعوا قوله(٦) وأنه بصوت(٧) وأن ذلك ينفذ جميع الملائكة(٨) أي يسمعونه كلهم(٩)

---

(١) رداً على الذين ينفون العلو من الجهيمة والمعتزلة والأشاعرة والماترودية وغيرهم.

(٢) كما هو القاعدة عند أهل السنة والجماعة.

(٣) الذين ينفون علو الله على عرشه، والذين ينفون كلام الله ﷻ.

(٤) قوله ﷺ: «ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله»: فيه إثبات للآية الأخرى ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [سورة فاطر: ١] يطيرون بها بين السماء والأرض، منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ومنهم من له أربعة أجنحة، ومنهم من له أكثر من ذلك ولا يعلم عظم خلقة الملائكة إلا الله ﷻ ولذلك البشر لا يطيقون رؤية الملائكة على خلقتها، إنما تأتي الملائكة بخلقتها عند العذاب – والعياذ بالله – وعند الموت، وأما قبل ذلك فإنها تأتي بصورة بشر رفقاً ببني آدم فإنهم لا يطيقون رؤية الملك حتى النبي ﷺ كان يأتيه جبريل ﵇ في صورة دحية الكلبي، يكلمه بما أرسله الله به، ولم يره النبي ﷺ على صورته الملكية إلا مرتين: مرة في بطحاء مكة، والثانية ليلة المعراج حينما عرج بالنبي ﷺ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ [سورة النجم: ١٣ – ١٤]، وما عدا ذلك كان يأتي النبي ﷺ بصورة رجل وعنده أصحابه يرونه، وهو يكلم النبي ﷺ.

(٥) منصوب على أنه مفعول لأجله.

(٦) إثبات القول لله ﷻ «خضعانا لقوله» الضمير يرجع إلى الله؛ أضاف القول إليه ودل على إثبات القول لله والكلام له.

(٧) لأن القول والكلام لا يكون إلا بصوت.

(٨) يُسمع، لو كان بدون صوت ما يُسمع.

(٩) يسمعون هذا الصوت العظيم كأنه سلسلة من حديد تُجر على صفوان يعني: على صخرة ملساء ولاشك أن السلسلة إذا جرت الصفوان يعني على الصخرة الملساء يكون لها صوتاً عجيباً، هذا تشبيه لصوت الوحي أو لصوت جبريل ﵇.

قوله : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة سبأ : ٢٣] (١) أي زال عنها الفزع قوله : فيسمعها مسترق السمع(٢) أي الكلمة التي سمعتها الملائكة وتحدَّثوا بها قوله : ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض(٣) وصفه سفيان ، راوي الحديث وهو ابن عيينة بكفه(٤) .

---

(١) « فُزِّع » يعني أزيل عنها الفزع ، وعادت إليهم الطمأنينة .

(٢) هذا دور الشياطين ، الملائكة يخرُّون ويصعقون ويخافون من الله ، ويعظمونه ويسجدون له ، أما الشياطين – لعنهم الله – فإنهم يسترقون السمع من الملائكة ، يرتفعون إلى الجو يركب بعضهم بعضاً حتى يصلوا إلى عنان السماء ، ويقربون إلى السماء الدنيا فيسمعون كلام الملائكة ، يسمعون شيئاً منه ثم إن الله يرسل عليهم الشهب ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [سورة الجن : ٨ - ٩] ، فمنهم من يدركه الشهاب فيحرقه ، ومنهم من يلقي الكلمة على الساحر من بني آدم قبل أن يدركه الشهاب إذا أراد الله ذلك فيلقي الشيطان الكلمة التي سمعها من الملائكة من وحي الله على الكاهن ، والكاهن : هو الذي يدَّعي علم الغيب ، ويتعامل مع الشياطين ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [سورة الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٣] فيأتي الشيطان بهذه الكلمة التي هي حق ، سمعها من السماء فيلقيها على الكاهن الذي يتعامل معه ، ثم الكاهن يكذب معها مئة كذبة ويحدث بها الناس ، فيصدقونه بمئة كذبة من أجل كلمة واحدة ، لا يميزون بين الحق والباطل هذا من لبس الحق بالباطل ويأتي في حديث النواس بن سمعان .

(٣) أي مسترقو السمع من الشياطين يرتفعون في العنان ، يركب بعضهم بعضاً ، كما تركب الأصابع بعضها بعضاً ، كما فعل سفيان راوي الحديث حينما بيَّن لتلاميذه كيف أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً في الجو ، مثلما تركب الأصابع بعضها بعضاً إذا عرضت .

(٤) قوله : « بكفه فحرفها وبدد أصابعه » : « فحرفها » : يعني رفعها وأمال أصابعه واحداً فوق الآخر ، يوضح لتلاميذه كيف تعمل الشياطين في الجو ، « وبدد أصابعه » : أي واحداً فوق واحد ، لكن لم يلتصق بعضها ببعض ، بل بدَّد بينها .

قوله : فيسمع الكلمة يعني مسترق السمع فيلقيها إلى من تحته[(١)] من الشياطين ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن[(٢)] ، الحديث قوله : فيكذب معها ، أي الساحر أو الكاهن مائة كذبة[(٣)] فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء[(٤)] لقبول النفوس للباطل .

---

(١) يسمع الشيطان الكلمة فيلقيها إلى الشيطان ، الذي تحته ، والشيطان الذي تحته يلقيها لمن تحته ، وهكذا حتى تنتهي إلى الكاهن والغالب أنه يدركهم الشهاب فيحرقهم ويبطل كيدهم ؛ لأن الله حرس السماء بالشهب بعد بعثة النبي ﷺ وأحياناً إذا أراد الله ﷻ فإنه لا يدركه الشهاب حتى يلقيها على رئيه من الإنس من الكهنة ، من أجل امتحان الخلق ، ولو شاء الله لأدركه الشهاب وأحرقه ، لكن يشاء الله لحكمة أرادها أن يلقي الكلمة على الكاهن من أجل فتنة الناس .

(٢) هذا دليل على أن الساحر كافر ؛ لأنه يتعامل مع الشياطين ، كذلك الكاهن كافر لأنه يخضع للشياطين ويتعامل معهم .

(٣) ثم لا يبلغها لوحدها ؛ لأنهم لا يريدون الصدق ؛ بل يريدون الكذب ، ولا يحبون هذه الكلمة ، لكن يريدون بها التلبيس على الناس وهذا طريق أهل الضلال الذين يلبسون الحق بالباطل . لماذا يلبسون الحق بالباطل من أجل أن يروجوا الباطل ؛ لأنه لو كان كله باطل ما قبله الناس ، ولكن إذا جعل معه شيء من الحق فغالب الناس الذين ليس لهم بصيرة ولا تمييز يروج عليهم هذا التلبيس ، أما أهل البصيرة وأهل العلم والراسخون في العلم فلا يروج عليهم ذلك أبداً ، يميزون الزيف من الصحيح ، أما عامة الناس والجهال فإنهم لا يميزون فيقبلون الجميع .

(٤) أي يُصدِّقون بكل ما قال ويقولون : أنه صدق في يوم كذا وكذاب بسبب الكلمة التي سُمعت من السماء ، وهذا من تلبيس الحق بالباطل ، يصدِّقون تسعة وتسعين كذبة ، بسببه كلمة واحدة من الحق ، وهذا الذي عليه كثير من الناس أنهم يقبلون الباطل الكثير بسبب حق يسير يكون معه ، وهذا ما عليه أهل التلبيس من الشياطين ، ومن المضللين من بني آدم ، ومن علماء السوء دعاة الضلال لا يدلون بالباطل المكشوف ، وإنما يسترونه بشيء من الحق، أو من الشيء الذي يغطي زيفه، وأخطر ما يكون على الناس هو التلبيس.

قوله : وعن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر - تكلم بالوحي ، أخذت السموات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة خوفاً من الله ﷻ ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صُعقوا وخرُّوا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مرَّ بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق وهو العلي الكبير ، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ﷻ » رواه ابن أبي حاتم بسنده ، عن النواس بن سمعان - بكسر السين - ابن خالد الكلابي ، ويقال له : الأنصاري ، صحابي ويقال : إن أباه صحابي أيضاً وقوله : إذا أراد الله تعالى[1] ، فالإرادة صفة من صفات الله ﷻ ، وهي نوعان شرعية وقدرية[2] كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ [سورة الإسراء : ١٦] ، الآية ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ [سورة الكهف :٨٢] ، وقال : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة يس : ٨٢][3] هذه الآيات ، قوله : أن يوحي بالأمر فيه بيان معنى ما تقدم في الحديث قبله من

---

(١) فيه إثبات صفة الإرادة لله ﷻ .

(٢) الإرادة على نوعين : ١- إرادة كونية وهي التي يخلق بها الله المخلوقات وهي مرادفة للمشيئة مثل قوله : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة يس : ٨٢]
٢- الإرادة الشرعية الدينية مثل قوله : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [سورة النساء : ٢٧] ، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [سورة المائدة : ٦] .

(٣) الإرادة في هذه الآيات الثلاثة إرادة كونية .

قوله : إذا قضى الله الأمر[١] .

قوله : تكلم بالوحي فيه التصريح بأنه يتكلم بالوحي[٢] ، فيوحيه إلى جبريل ﷺ ، ففيه الرد على الأشاعرة في قولهم : إن القرآن عبارة عن كلام الله[٣] ، قوله : أخذت السماوات منه رجفة[٤] - أو قال رعدة شديدة[٥] -

---

(١) قضى : يعني أراد أن يوحي .

(٢) هذا فيه إثبات الكلام لله .

(٣) الأشاعرة يقولون بإثبات الكلام النفسي فقط ، ويقولون : القرآن معناه إلى الله أما ألفاظه فمن الرسول ﷺ عبر عن كلام الله حكاية أو عبارة وهذا باطل ، فالجهمية يقولون : معناه ولفظه كله مخلوق والأشاعرة يقولون : المعنى غير مخلوق ، أما اللفظ فهو مخلوق ، فهم أشبهوا الجهمية من وجه ، وأهل السنة يقولون : هو كلام الله لفظه ومعناه ، اللفظ والمعنى كلام الله ليس مخلوقاً .

(٤) وهذا فيه دليل على أن الجمادات تدرك عظمة الله ﷻ :﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [سورة الإسراء : ٤٤] ، السموات المبنية والجمادات والحجارة وكل شيء يسبح بحمد الله يعني يُنزه الله عن النقائص وعن الشريك ولكن بلغات لا يفهمها الناس ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ .

(٥) رجفة ورعدة بمعنى واحد ، ولكن الراوي يريد التأكد من الرواية فيأت بالاحتمال ولا يجزم وهذا من دقتهم في الرواية ، فإذا كان عندهم تردد بين لفظين يأت باللفظين ولا يأتي إلا بشيء تيقن أن الرسول ﷺ قاله وهذا فيه التحرز من الحديث عن الرسول ﷺ ، وأن الإنسان لا يحدث عن الرسول ﷺ إلا بشيء قد تيقنه ، وأما إن كان عنده شك أو تردد فإنه يأتي بالاحتمال روي عن النبي ، وَرَد عن النبي كذا ، أو يأتي باللفظتين إن تردد بينهما ، فرجفة أو رعدة بمعنى واحد ، ولكن هذا من دقتهم رضي الله عنهم في الرواية ومن ورعهم أن ينسبوا إلى رسول الله ﷺ لفظاً لم يقله وإن كان المعنى واحداً وهذا من الأمانة في الرواية . كثير من الناس لا يتورع يقول : قال الرسول كذا وكذا بدون أن يتثبت ، هل الحديث صحيح أم ليس بصحيح ، والعلماء يقولون : إذا كان الحديث ضعيفاً فلا يقال : قال الرسول ، ولكن يقال : روي أو ورد عن الرسول ، أو جاء عن الرسول كذا وكذا ، ولا يقول : قال الرسول ﷺ إلا إذا كان الحديث صحيحاً .

خوفاً من الله ﷻ[١] ، في هذه معرفة عظمة الله ، ويوجب للعبد شدة الخوف منه تعالى[٢] وفيه إثبات العلو . قوله : فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً[٣] ، هيبة وتعظيماً لربهم وخشية لما سمعوا من كلامه تعالى وتقدس[٤] قوله : فيكون أول من يرفع رأسه جبريل : لأنه ملك الوحي عليه السلام[٥] .

قوله : فيكلمه الله من وحيه بما أراد[٦] فيه التصريح بأنه تعالى يوحي إلى جبريل بما أراده من أمره كما تقدم في أول الحديث . قوله : ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ، وهذا أيضاً من أدلة علو الرب تعالى

---

(١) السموات تخاف من الله ﷻ ، قال الله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [سورة الحشر : ٢١] ، وقال سبحانه : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [سورة الأعراف : ١٤٣] أي جعل الجبل يندك من هيبة الله وعظمته ، وصار الجبل تراباً ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة : ٧٤] فالله ﷻ تخافه المخلوقات جامدها وصامتها وناطقها كلها تخاف من الله ﷻ ، كلها عندها إدراك لعظمة الله ﷻ .

(٢) إذا كانت الملائكة تخاف من الله هذا الخوف الشديد ، والسموات ترجف ، فبنو آدم من باب أولى يجب أن يخافوا من الله .

(٣) صعقوا : يعني غُشي عليهم « وخروا لله سجداً » تعظيماً لله ﷻ .

(٤) هذا فيه وجوب الخشوع عند كلام الله وأن يلين قلب المسلم عند سماع كلام الله .

(٥) لأنه خاص بالوحي عليه السلام ؛ فالملائكة كل صنف منهم له عمل اختصه الله به ، جبريل عليه السلام اختص بالوحي وهذا فيه فضل جبريل عليه السلام ، وأنه أول من يرفع رأسه من الملائكة بأمر الله ﷻ .

(٦) فيه إثبات الكلام وإثبات الإرادة لله ﷻ .

وتقدس ، قوله : « ماذا قال ربنا يا جبريل ؟[١] فيقول : ﴿ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[٢] فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل[٣] ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ﷻ[٤] . وهذا دليل بأنه تعالى قال ويقول[٥] وأهل البدع من الجهمية ومن تلقى عنهم كالأشاعرة جحدوا ما أثبته الله تعالى في كتابه ، وأثبته رسوله ﷺ في سنته من علوه وكلامه وغير ذلك من صفات كماله التي أثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله والمؤمنون من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل السنة والجماعة على ما يليق بجلال الله وعظمته - تشبيهات اختلقوها ما أنزل الله بها من سلطان[٦] .

---

(١) يسأله أهل السموات لأنه يحمل الوحي الذي تكلم الله به فيسألونه ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ هذا فيه سؤال أهل العلم ، الملائكة تسأل جبريل وغيرهم من باب أولى .

(٢) يدل على وجوب اعتقاد أن كلام الله كله حق وحقيقة ليس فيه مجاز ، كما يقول أهل البلاغة .

(٣) تعظيماً لله ﷻ وصفهم لكلام الله بأنه حق .

(٤) جبريل رسول مبلغ ؛ لأن الرسل يكونون من الملائكة ويكونون من الإنس ، فالرسول البشري يتلقى الوحي من الرسول الملكي عن الله ﷻ ، فالقرآن تكلم الله به ﷻ وأوحاه إلى جبريل ، وجبريل نزل به إلى الرسول ﷺ ، والرسول بلّغه لأمته .

(٥) قال في الماضي ويقول في المستقبل ؛ لأن الكلام صفة فعل وصفة يفعلها الله متى ما شاء .

(٦) ولذلك سموا بالمعطلة ؛ لأنهم نفوا أسماء الله وصفاته .

١٧ - باب الشفاعة

وَقَوْلِ الله ﷻ : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٥١] .

وَقَوْلِهِ : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [سورة الزمر : ٤٤] .

وَقَوْلِهِ : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] .

وَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [سورة النجم : ٢٦] .

وَقَوْلِهِ : ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سورة سبأ: ٢٢ - ٢٣] .

قال أبو العباس : (نَفَى الله عمَّا سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عونا لله ، ولم يبق إلا الشفاعة ، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٨] .

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة ؛ كما نفاها القرآن ، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده - لا يبدأ بالشفاعة أولاً - ثم يقال له : « ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعط ، واشفع تُشَفَّع » .

وقال أبو هريرة له ﷺ : من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : « من قال : لا إله إلا الله ؛ خالصاً من قلبه » .

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله .

وحقيقته أن الله – سبحانه – هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ؛ ليكرمه ، وينال المقام المحمود .
فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع ، وتلك قد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص) . انتهى كلامه .

١٧ - باب الشفاعة

قوله : (باب الشفاعة)(١) الشفاعة نوعان : شفاعة منفية في القرآن وهي الشفاعة للكافر والمشرك ، قال الله تعالى : ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا

(١) قال ﷺ : (باب الشفاعة) : سبب إيراد هذا الباب في كتاب التوحيد : أن الشفاعة حصل فيها سوء فهم من المشركين ، وذلك أنهم يعبدون من دون الله الأشجار والأحجار والأصنام والأموات والأولياء والصالحين والملائكة ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فهم اتخذوا الشفاعة حجة لهم في عبادة غير الله ﷻ ، لأنهم يقولون : نحن لا نعتقد في هؤلاء أنهم يخلقون ويرزقون ويدبرون مع الله ولكن نريد شفاعتهم ، يعني وساطتهم عند الله ، والدخول عند الله ، لا نريد منهم إلا أنهم يتوسطون لنا عند الله في قضاء حوائجنا ، فالشيخ ﷺ عقد هذا الباب ليبين بطلان شبهتهم ، وأن الشفاعة وإن كانت حقاً لكنها ليست على الوجه الذي ظنه المشركون ، الشفاعة جاء القرآن ببيانها ، وجاءت السنة ببيانها ، وهي تخالف ما عليه المشركون ، والشفاعة معناها العام في اللغة : الوساطة في قضاء الحاجة عند من هي مطلوبة منه ، سميت شفاعة من الشفع ضد الوتر ؛ لأن طالب الحاجة وتر منفرد ، فإذا انضم إليه وتر آخر صار شفعاً ، فلذلك سميت بالشفاعة ، والمشركون كما يقول الله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [سورة يونس : ١٨] إذا قيل لهم : هذا شرك ، قالوا : لا ، هذا إنما هو طلب للشفاعة فقط ، ونحن لا نشرك بالله ، ولا يزالون على هذا القول إلى الآن ، وإلى ما يشاء الله يفسرون الشرك بغير تفسيره .

خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٤][(١)] ، وقال تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [سورة المدثر : ٤٨][(٢)] ، وقال : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى [(٣)] نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[(٤)] ، ونحو هذه الآيات كقوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[(٥)] [سورة يونس : ١٨] ، يخبر تعالى أن من اتخذ هؤلاء شفعاء عند الله ، أنه لا يعلم أنهم يشفعون له بذلك[(٦)] وما لا يعلمه لا وجود له ، فنفى وقوع هذه الشفاعة ، وأخبر أنها شرك بقوله : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[(٧)][سورة يونس : ١٨] . وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن

---

(١) ولا شفاعة ، فلا أحد يشفع لأحد من أهل الكفر والشرك .

(٢) يعني الكفار والمشركين .

(٣) لا تجزي : يعني لا تشفع .

(٤) ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ : هذا في أهل الشرك ، ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ يعني فدية ، ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ لا أحد يدافع عنهم يوم القيامة كما في الدنيا .

(٥) هذا شأن المشركين قديماً وحديثاً أنهم يعبدون من دون الله بأنواع العبادة ، بالذبح ، والنذر ، والدعاء ، والاستغاثة مالا يضرهم ولا ينفعهم ، لأن الضر والنفع بيد الله ﷻ ، وحجتهم يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، يعني ما نعبدهم لأنهم يخلقون أو يرزقون ، ولكن أردنا منهم الشفاعة فقط والوساطة وهذا باطل ، أبطله الله ﷻ .

(٦) الله ﷻ لا يعلم له شركاء ، ولا يعلم أن أحداً يشفع عنده بغير إذنه ، وما لا يعلمه الله فهو محال ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة يونس : ١٨] لأن الله يعلم كل شيء ﷻ .

(٧) نزه نفسه عنه ، وسماه شركا ، وهم يقولون : لا ، هذا ليس بشرك ، هذا توسل ، وطلب

=

دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[(١)] إلى قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة الزمر : ٣][(٢)] ، فأبطل شفاعة من اتخذ شفيعاً يزعم أنه يقربه إلى الله وهو يبعده عنه وعن رحمته ومغفرته ، لأنه جعل لله شريكاً يرغب إليه ويرجوه ويتوكل عليه ويحبه ، كما يحب الله تعالى أو أعظم[(٣)] .

النوع الثاني : الشفاعة التي أثبتها القرآن[(٤)] ، وهي خالصة لأهل الإخلاص وقيدها تعالى بأمرين :

الأول : إذنه للشافع أن يشفع ، كما قال تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] وإذنه تعالى لا يصدر إلا إذا رحم عبده الموحد المذنب ، فإذا رحمه تعالى أذن للشافع أن يشفع له .

الأمر الثاني : رضاه عمن أذن للشافع فيه ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا

للشفاعة ، والشفاعة واردة في القرآن ، فالله سماه شركاً ، وإن سموه توسلاً وتشفعاً .

(١) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني معبودين ، ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ اعترضوا أنهم يعبدونهم ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ ما عبدناهم لأنهم يخلقون ويرزقون هذا الله ﷻ ، هم مقرُّون بتوحد الربوبية ولكن اتخذوا هؤلاء شفعاء عند الله من دونه .

(٢) سمى هذا كفراً ، وسماه كذباً ، وهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ هذا كذب ، وهذا كفر بالله ﷻ .

(٣) أشركهم مع الله في أنواع العبادات ، في الحب ، وفي الدعاء ، وفي الذبح له ، والنذر له ، والاستغاثة به .

(٤) وهذه خاصة بالمؤمنين بشرطين : أن يأذن الله بها ، وأن يرضى عن المشفوع له .

يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٨] ، فالإذن بالشفاعة له بعد الرضا كما في هذه الآية ، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد(١) .

قوله : وقول الله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾(٢) [سورة الأنعام : ٥١] .

---

(١) لا يرضى الشرك والكفر .

(٢) ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ : أي بالقرآن ، والخطاب للنبي ﷺ ، أنذر بالقرآن ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ : الخوف هو : توقع شيء مكروه ، خلاف البشارة فهي : توقع شيء محبوب ، والانذار أيضاً هو : الإخبار عن شيء مكروه ، ينذرهم : يعني يخوفهم ويحذرهم ، ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ ﴾ : أن يُجمعوا يوم القيامة في المحشر ، والحشر هو : الجمع ؛ لأن الله يجمع الأولين والآخرين ؛ لمجازاتهم على أعمالهم ، ﴿ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ : الله هو رب الجميع سبحانه ، رب المؤمنين ، والمشركين ، والكفار ، والملاحدة وهم عبيده ، ويحشرون إليه سبحانه لمجازاتهم على أعمالهم ، ولا أحد يغيب عن هذا المحشر ، أو يتخلف أو يُنسى أبداً ، كلهم يجتمعون بأمر الله سبحانه وتعالى ، لا مفر من هذا المحشر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [سورة الواقعة : ٥٠] فإذا علموا أنهم سيحشرون إلى ربهم ، فإنهم يستعدون لهذا الحشر بالأعمال الصالحة التي تقيهم من أخطائهم ، ولا ينفع في هذا اليوم إلا التوحيد الخالص ، وأما المشركون والكفار فإنهم في هذا اليوم واقعون في العذاب والخطر ؛ لأنهم لم يقدموا لهذا اليوم ما يقيهم من هذه الأخطار والأهوال ، المؤمن إذا تذكر الحشر واستعد له ، فليس الاستعداد أن الإنسان يعمل ما يشاء ، أو يقلد الناس ويعمل ما يعملون ، ويقول : هذا عمل صالح ينفع يوم القيامة ، لا ينفع في هذا اليوم إلا الإخلاص لله ، والمتابعة للرسول ﷺ ، أما ما عدا هذا فمهما أتعب الإنسان نفسه فإنه لا ينفعه ، يكون هباء منثوراً ، ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [سورة النور : ٣٩] والإخلاص يعني : ترك الشرك ، والمتابعة تعني : ترك البدع والمحدثات التي لم يشرعها الله ﷻ : ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ أي : غيره ،

=

الإنذار هو : الإعلام بأسباب المخافة ، والتحذير منها ، قوله : ﴿ بِهِ ﴾ أي القرآن ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ وهم أهل الإخلاص الذين لم يتخذوا لهم شفيعاً[1] ، بل أخلصوا قصدهم وطلبهم وجميع أعمالهم لله

وليٌّ يتولاه ، ويدبر أمره ، وينجيه من هذا الموقف ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [سورة الانفطار : ١٩] ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ . وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [سورة عبس : ٣٤ - ٣٧] فلا ولي في هذا اليوم إلا الله ﷻ ، والله لا ينفع عنده إلا الإخلاص والعمل الصالح ، كل يتبرأ من الآخر ، حتى الأم تتبرأ من ولدها ، والأب يتبرأ من ولده ، والولد يتبرأ من أبيه وأمه ، والأخ يتبرأ من أخيه ، ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [سورة البقرة : ٤٨] ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ : لا أحد يتولى أمرهم ، ولا أحد يشفع عند الذي يتولى أمرهم وهو الله ﷻ ، لا أحد يتوسط لهم ما داموا إنهم على الكفر وعلى الشرك ، وهم يظنون في هذه الدنيا أن هذه الأصنام ، وهذه الأشجار والأحجار ، وهذه القبور والأضرحة تشفع لهم عند الله ، وهذا الظن ليس بصحيح ليس هذه الشفاعة التي جاء القرآن بها ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [سورة غافر : ١٨] ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [سورة المدثر : ٤٨] الكافر والمشرك ما لهم شفاعة ولا أحد يشفع لهم ، فهؤلاء أتوا الأمر من غير بابه ، أرادوا النجاة ولم يسلكوا مسالكها :

تَرجُو النجاة وَلَـمْ تَسْلُكْ مَسالِكَها .. إنَّ السَّفينَةَ لا تَجْرِي عَلَى اليَبَسِ(*)

فهم سلكوا مسلكاً لا ينجي ، ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ ﴾ : هذا نفي قاطع ﴿ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ : رجاء أنهم يتقون الله ﷻ ، فيستعدون لهذا اليوم ، ويتركون هذه الأعمال الشركية والكفرية ، ما داموا في زمن الإمكان .

(١) قوله : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ : يعني القرآن ، فدل على أن من بلغه القرآن قامت عليه الحجة ، وهذا فيه إبطال للمقالة الرائجة الآن الذين يقولون : إن هؤلاء معذورون بالجهل ، مع

(*) هذا البيت لأبي العتاهية . انظر : زهر الآداب وثمر الألباب ، لأبي إسحاق الحصري القيرواني ٣ / ٨٧١ .

=

وحده ، ولم يلتفتوا إلى أحد سواه فيما يرجون نفعه ويخافون ضره ، قال الفضيل بن عياض : « ليس كل خلقه عاتب ، إنما عاتب الذين يعقلون »(١) .

قوله : ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ، قال الزجاج : موضع (ليس) نصب على الحال ، كأنه قال متخلين من ولي وشفيع(٢) ، والعامل فيه يخافون(٣) ، قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : فيعملون في هذا الدار عملاً ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة(٤) ، وتركوا التعلق على الشفعاء وغيرهم ؛ لأنه ينافي الإخلاص الذي لا يقبل الله من أحد عملا بدونه ؛ لأنه طلب وسؤال من غير الله . قوله : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾(٥) دلت الآية على أن الشفاعة

أنه بلغهم القرآن ، كيف يكونون معذورين بالجهل ؟ وقد بلغهم القرآن ، وقرؤوه ، وحفظوه ، وسمعوه ليلاً ونهاراً ، الله جعل بلوغ القرآن كاف لإقامة الحجة ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٩] .

(١) أما الذين لا يعقلون ويصرون على الكفر ، هؤلاء لا كلام معهم ؛ لأنهم معاندون ، مهما قلت لهم ، ومهما أقمت عليهم الأدلة ، لا يلتفتون لك ؛ لأنهم معاندون ، إنما يقبل الذي عنده تقوى ، وخوف من الله ﷻ ، هذا هو الذي يقبل الموعظة ، والنصيحة .

(٢) ﴿ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ؛ هذه جملة حالية ، في محل نصب ؛ أي : متخلين عن الشفعاء والأولياء؛ لأنه لا ينفع عند الله يوم القيامة إلا العمل الصالح.

(٣) الذي نصب هو قوله : ﴿ يَخَافُونَ ﴾ .

(٤) ويتركون المغالطات والمجادلات الباطلة ، كما يفعله القبوريون الآن وأنصارهم . إذا قرأت في كتبهم والذين يدافعون عنهم وجدتها معارضة للقرآن تماماً - والعياذ بالله - .

(٥) قال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ : أي : غير الله ، ما طلبوا الشفاعة من الله ، طلبوها من غيره ، وهذا الإنكار ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا ﴾ الذي لا يملك الشفاعة تطلب منه وهو لا يملكها ؟ فاقد الشيء لا يعطيه ، ﴿ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ
=

له سبحانه ، لأنها لا تقع إلا لأهل التوحيد بإذنه ﷻ ، كما قال تعالى في الآية السابقة ، وقال تعالى : ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ

شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ : بل هم أحجار جامدة ، وأشجار ، وقبور هامدة ، فكيف يطلب منها الشفاعة ؟! وهي لا تملك شيئاً ، لا الشفاعة ولا غير الشفاعة ، يوم القيامة الملك لله جلَّ وعلا ، ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [سورة غافر : ١٦] لا أحد يملك شيئاً يوم القيامة ﴿أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾ : شيئاً من الأشياء ولو حقيراً ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [سورة فاطر: ١٣] كما في الآية: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة سبأ : ٢٢] الملك لله ﷻ ، الشفاعة أو غير الشفاعة ، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ الشفاعة لله ، فإذا كانت لله فهي تطلب من الله بالأعمال الصالحة والإخلاص لله ﷻ ، تَسبَّب بسبب نافع حتى تنال الشفاعة من الله ﷻ ، حتى يإذن الله لمن يشفع فيك ، الشفاعة ملك لله ، ولا تكون إلا لمن أذن له بالشفاعة ، ومن رضي عنه بالتوحيد ، هذا هو الباب الصحيح الذي تطلب منه الشفاعة ، الإخلاص لله ، وسؤال الله ﷻ ، ولا تطلب الشفاعة من غير الله ، لا من الأموات ، ولا من الأشجار ، ولا من الأحجار ، هؤلاء ضيعوا أعمالهم ، وأعمارهم فيما لا جدوى منه ، عملهم لا يغنيهم شيئاً يوم القيامة ، لذهابهم إلى القبور ، وإلى الأضرحة ، وإلى الأشجار والأحجار ، وإلى الآثار التي يتمسحون بها ، ويتبركون بها ، هذا كله عمل فاسد ، تعب بلا فائدة ، بل هو ضار ، لماذا لا يدعون الله ، ويخلصون العمل لله ، ويتقربون إلى الله ؟ وإذا كانوا يريدون النجاة ويريدون الشفاعة ، ويريدون الخير ، يأتوا الأمور من أبوابها ، أما إنهم يضيعون الأمور ، ويطلبون الأشياء من غير من هي ملك له ، من غير من يقدر عليها ، هذا هو الضلال ، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ ، ما لأحد شيء ، ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ، هذا تعميم من بعد تخصيص ، له الشفاعة ، وله ملك السموات والأرض ، أعم من الشفاعة ، وليس لأحد شيء في السموات ولا في الأرض ، كله لله ﷻ ، ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم .

وفي هذه الآية إبطال لتعلقهم على غير الله من الأشجار والأحجار والقبور والأضرحة ، التي لا تملك الشفاعة ، فكيف تطلب منها شيئاً لا تملكه ؟!

﴿رَبُّكُمْ﴾ [سورة يونس :٣] الآية[1] ، فلا شفاعة إلا لمن هي له سبحانه ؛ ولا تقع إلا ممن أذن له فيها ، فتدبر هذه الآيات العظيمة في اتخاذ الشفعاء[2] .

وقوله : ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الفرقان : ٢] يبطل التعلق على غيره سبحانه ؛ لأنه الذي انفرد بملك كل شيء فليس لأحد في ملكه مثقال ذرة دونه سبحانه وبحمده ، والإسلام هو أن تسلم قلبك ووجهك لله بالإخلاص ، كما في « المسند » عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، أنه قال لرسول الله ﷺ : « فبالذي بعثك بالحق ما بعثك به ؟ قال : « الإسلام » قال : وما الإسلام ؟ قال : « أن تسلم قلبك وأن توجه وجهك إلى الله ، وأن تصلي الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة »[3] ، والآيات في بيان الإخلاص كثيرة ، وهو أن لا يلتفت القلب ولا الوجه في جميع الأعمال كلها إلا الله وحده ، كما قال تعالى : ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة غافر : ١٤] ، فأمره تعالى بإخلاص الدعاء له وحده ، وأخبر أنه الدين الذي تصح معه الأعمال وتقبل ، قال شيخ الإسلام : (الإخلاص محبة الله وإرادة وجهه) .

قوله : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[4] [سورة البقرة : ٢٥٥] تقدم

---

(١) قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ ، الشاهد في قوله : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ ﴾ : هذا نفي للشفعاء ، ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ : إذا أذن ﷻ ، وهو لا يأذن لأهل الشرك .

(٢) اقرأها واعرف تفسيرها ، يتبين لك بطلان ما عليه هؤلاء .

(٣) تسلم قلبك وتوجه وجهك إلى الله ، ولا تتوجه إلى القبور والأضرحة والأشجار والأحجار وغيرها ، وتعلق قلبك بها .

(٤) هذه جزء من آية الكرسي ، التي هي أعظم آية في كتاب الله ، ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى ﴾ : من : هذا
=

معنى هذه الآية .

قوله : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[1] [سورة النجم : ٢٦] فإذا كان هذا في حق الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ . وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] [سورة الأنبياء : ٢٦ - ٢٩] ، فظهر من هذه الآيات المحكمات ما يبيِّن حقيقة الشفاعة المثبتة في القرآن التي هي ملك لله لا يملكها غيره ، وقيد حصولها بقيدين كما في هذه الآية وغيرها ، كما تقدم قريباً

إنكار ؛ أي : لا أحد يشفع عند الله ﷻ إلا بإذنه ، ليس مثل ملوك الدنيا ، ورؤساء الناس في الدنيا ، يشفع الشفعاء عندهم ولو لم يأذنوا ، الله ﷻ لا أحد يتجرأ أن يشفع عنده إلا إذا أذن الله له ، وما دامت كذلك فلا تطلب من غير الله ﷻ : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ .

(١) هذا في سورة النجم ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ : (كم) هذه خبرية ، والسموات مملوءة بالملائكة ، هم سكان السموات ، وهم قريبون من الله ﷻ ، وأيضاً هم أصلح الخلق ؛ لأنهم يعبدون الله لا يفترون ، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٠] لا أحد يعبد الله عبادة أفضل منهم، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾، هذه فيها إثبات الشفاعة بشرطين ، والشرطان مفقودان عند المشركين ، إذاً ليس لهم نصيب في الشفاعة ، هؤلاء أتعبوا أنفسهم في طلبها ، لكن طلبوها من غير وجهها الذي شرعه ﷻ .

(٢) إذا كان هذا في الملائكة وهم أكثر الخلق عبادة ، فكيف بغيرهم ؟ وهؤلاء يقولون : إننا تعلقنا على الأولياء والصالحين ؛ لأن عندهم عبادة ، وعندهم خوف من الله ، والله يقبل شفاعتهم ، الله لا يقبل شفاعة الملائكة وهم أكثر الخلق عبادة ، إلا بإذنه ﷻ .

إذنه للشافع أن يشفع ، كما قال تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ ، ورضاه عمن أراد رحمته ممن أذنب من الموحدين ، فاختصت الشفاعة بأهل الإخلاص خاصة ، وأن اتخاذ الشفعاء من دين المشركين قد أنكره الله عليكم فيما تقدم من الآيات .

قوله : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[1] [سورة سبأ : ٢٢] الآيتين .

وقال أبو العباس[2] : (نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ،

---

(١) هذه الآية التي قطعت عروق الشرك ؛ لأن الله ذكر أن الذين يدعون من دون الله لا يملكون شيئاً في السموات ولا في الأرض ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا الوجه الأول : لا يملكون شيئاً ولا مثقال ذرة ، فإذا كان لا يملك شيئاً كيف تدعوه ؟ فاقد الشيء لا يعطيه ، كذلك هؤلاء يطلبون من أناس لا يملكون شيئاً ﴿ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ ﴾ : هذا الوجه الثاني : إذا لم يكن يملك شيئاً استقلالاً ، ربما يكون شريكاً في المال ، أيضاً ليس له شريك في السموات والأرض ، وليس له شريك في ملكه ﷻ ، إذاً انتفى الوجه الثاني ، لا يملكون ولا يشاركون في المال ، الوجه الثالث : إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً للمالك ، ربما أنه يكون معيناً وظهيراً للمالك ، فيطلب منه أن يتوسط والله ﷻ ليس له معين ولا ظهير ، ﴿ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ ، لا أحد يعين الله ﷻ ، بل هو الغني عما سواه ، القادر على كل شيء ، الوجه الرابع : إذا كان غير مالك ولا شريك ولا ظهير ولا معين ، ربما يشفع عند الذي له الملك وله القدرة فنفى الله ﷻ هذا ، وقال : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ ، إذاً لا تُطلب الشفاعة إلا من الله ﷻ ، تقول : اللهم شَفِّع فيَّ نبيك ، شَفِّع فيَّ عبادك الصالحين ، تقول هذا ، أما إنك تقول : يا فلان اشفع لي ، فلا يجوز أن تطلب من أحد لا يملك الشفاعة . فهذه الآية أبطلت الشرك من جميع وجوهه ، فلم يبق لهم تعلق .

(٢) أبو العباس : أحمد بن عبد السلام بن تيمية الحراني ؓ يكنى أبا العباس ، من باب التكرمة

=

فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عوناً لله ، ولم يبق إلا الشفاعة ، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٨] فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون(١) هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن(٢) ، وأخبر النبي ﷺ : « أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده » ، لا يبدأ بالشفاعة أولاً(٣)، « ثم يقال له : ارفع رأسك ، وقل يُسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع »(٤) .

له ؛ لأن الكنية فيها تكريم للمرء وإلا فهو لم يتزوج ، قال الشاعر :

أكنية حين أناديه لأكرمه .... ولا ألقبه والسوءة اللقبا(*) .

فالكنية فيها تكريم ، فلذلك قال : قال أبو العباس ، فأبو العباس أحمد ابن تيمية تكلم عن هذه الآيات بكلام جيد مفيد ، حصر فيه معنى هذه الآيات في جمل قوية .

(١) (هذه الشفاعة التي يظنها المشركون) : فيدعون الأصنام ، والأوثان ، والقبور ، والأضرحة من أجلها باطلة منتفية ، وهم يتعبون من غير فائدة ، ومن غير طائل ، لو أنهم يعقلون ، ويفكرون ويتدبرون القرآن ، ويتركون التعصب ، والهوى ، وتقليد الآباء والأجداد من غير دليل ، ومن غير برهان ؛ لأن هذا هو الذي يهلك الناس .

(٢) الذين يتعلقون بالمعبودات من دون الله من أجل الشفاعة والمنفعة هذه منفية يوم القيامة ، ما لها أي مجال من النفع ، ولا فائدة منها ، فليتنبه هؤلاء قبل أن يفوت الأوان ، وليرجعوا إلى الصواب .

(٣) الرسول ﷺ وهو أفضل الخلق وأكرم الخلق على الله ﷻ ، وأحبهم إلى الله ، لا يشفع عند الله إلا بعد الاستئذان ، والسجود بين يدي الرب ﷻ ، وهؤلاء يذهبون إلى ما هبَّ ودبَّ ، ويقولون : اشفع لنا .

(٤) هذا هو المقام المحمود : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء : ٧٩] وذلك أن الخلائق إذا اجتمعوا في المحشر ، وطال عليهم القيام والوقوف في المحشر ، تقدموا إلى

(*) انظر : شرح ديوان الحماسة / أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني ص ٨٠٥ .

وقال له أبو هريرة : « من أسعد الناس بشفاعتك[1] ؟ قال : من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه »[2] فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله[3] ، ولا تكون لمن أشرك بالله[4] وحقيقته[5] : أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على

الأنبياء ، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم عند ربهم ، فيعتذرون كلهم ، ولم يبق إلا محمد ﷺ ، فيقول : أنا لها ، ثم يأتي تحت العرش ، ويخر ساجداً بين يدي ربه ﷻ ، ولا يرفع رأسه حتى يؤذن له ، ويقال له : ارفع رأسك ، وسل تعط ، وقل يسمع ، واشفع تشفع(*) ، فعند ذلك يرفع رأسه ﷺ ، ويدعو الله بأن يخلص الخلائق من المحشر ، ويحاسبهم ، فيستجيب الله دعاءه ، ويأتي سبحانه لفصل القضاء بين عباده ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [سورة الفجر : ٢٢] ، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٠] وقضي الأمر إذا شاء الله ﷻ فصل بين عباده ، وحكم بينهم ، فأهل النار يذهبون إلى النار وأهل الجنة يذهبون إلى الجنة وينتهي المحشر بسبب شفاعة محمد ﷺ ، فلذلك سمي المقام المحمود الذي يحمده عليه الأولون والآخرون ، ﷺ .

(١) الرسول يشفع ﷺ ، لكن لا يشفع ابتداء ، ولما سأله أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » ، فلا ينال هذه الشفاعة إلا المخلص الموحد ، من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ، موحداً لله ﷻ ، قالها بلسانه ، معتقداً لها بقلبه ، عاملاً بمقتضاها ظاهراً وباطناً ، هذا الذي ينال شفاعة الرسول ﷺ يوم القيامة ، أهل التوحيد ، وهذا يطابق قوله تعالى : ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ ؛ لأن أهل التوحيد هم الذين يرتضي الله ﷻ أعمالهم ، أما الشرك فإن الله لا يرضاه .

(٢) هذا الشرط مثل قوله تعالى : ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ ، الله لا يرضى إلا الإخلاص والعمل الصالح .

(٣) لأهل الإخلاص خاصة ، دون أهل الشرك ، وأيضاً بإذن الله ، ذكر شرطين : لأهل الإخلاص هذا شرط والشرط الثاني بإذن الله .

(٤) لأن الشرك ينافي الإخلاص .

(٥) حقيقة الشفاعة وتفسيرها : أن الله ﷻ يأذن لمن يريد إكرامه ، أن يشفع لمن شاء من خلقه ، ففيها إكرام للشافع وفيها نفع للمشفوع فيه .

(*) حديث الشفاعة متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه ٤ / ١٦٢٤ (٤٢٠٦) ومسلم في صحيحه ١ / ١٨٢ (١١٣) .

أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء[(١)] من أذن له أن يشفع[(٢)] ؛ ليكرمه وينال المقام المحمود[(٣)] ، فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع[(٤)] ، وقد بيَّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص) [(٥)] انتهى كلامه ﷺ وفيه تحقيق لأمر الشفاعة وجمع للأدلة والله تعالى أعلم .

---

(١) بواسطة دعاء ، وليس بواسطة جاه أحد ولا حق أحد ؛ بل بواسطة دعاء فقط ، أي : أن الشافع يدعو الله ، فالشفاعة دعاء ، ولذلك الذين يصلون على الجنازة يشفعون لها ، بمعنى أنهم يدعون لها بالمغفرة والرحمة ولذلك الشفاعة العظمى لا تكون إلا بعد الدعاء ، بعد أن يدعو رسول الله ﷺ ربه ، ويتضرع إليه .

(٢) إذا أذن للشافع أن يشفع ، الشافع يدعو الله : اللهم اغفر لفلان ، اللهم ارحم فلان ، اللهم أنقذه من النار ، يدعو الله ، هذا معنى الشفاعة .

(٣) وهو الرسول ﷺ .

(٤) في مواضع من القرآن ، وكلها مقيدة بشرطين : الإذن ، والرضا .

(٥) بيَّن لكم الشفاعة ، وحقيقة الشفاعة ، وأنها شفاعتان : شفاعة منفية في القرآن وهي التي يطلبها المشركون من الأصنام والأشجار والأحجار وغير ذلك ، وشفاعة مثبتة ولا تكون إلا لأهل الإيمان وأهل التوحيد ، ما للمشركين فيها نصيب ، وذلك بشرطين : أن يأذن الله للشافع أن يشفع ، وأن يرضى عن المشفوع فيه ، وما معنى يأذن للشافع أن يشفع ؟ أي : أن يدعو الله لغيره .

١٨ - **باب قول الله تعالى** : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص : ٥٦]

وَفِي « الصَّحِيحِ » عَنِ ابنِ المُسَيَّبِ ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ ؛ جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ الله بنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهلٍ ، فَقَالَ لَهُ : « يَا عَمِّ ! قُلْ : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله » . فَقَالَا لَهُ : أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، فَأَعَادَا ، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ : هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ » . فَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : ١١٣] ، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] .

١٨ - باب قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾)(١) [سورة القصص : ٥٦] . **قال ابن كثير ﷺ : (يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد لا تهدي من أحببت ، أي ليس إليك ذلك ، إنما عليك**

(١) أي : ما جاء في سبب نزول هذه الآية وفي تفسيرها ، مما يدل على بطلان التعلق على الأنبياء والأولياء والصالحين ، فهذا الباب مثل الأبواب السابقة في بيان بطلان الشرك ورد شبه المشركين الذين يتعلقون على المخلوقين ، ويدعونهم من دون الله ، ويستغيثون بهم ويزعمون أنهم يقضون حوائجهم ويجيبون دعاءهم وطلباتهم ، فهذه الآية يفسرها سبب النزول الذي أنزلت من أجله ، وهو حديث ابن المسيب الآتي ذكره .

البلاغ والله يهدي من يشاء[١] ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة[٢] ، كما قال تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٢] ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٣] [سورة الأنعام : ١١٧] ، وقال : ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يوسف : ١٠٣] قلت : والمنفي ها هنا هداية التوفيق والقبول ، فإن أمر ذلك إلى الله وحده وهو القادر عليه وأما الهداية المذكورة في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى : ٥٢] فإنها هداية الدلالة والبيان ، فهو المبين عن الله والدال على دينه وشرعه .

قوله : في الصحيح عن ابن المسيب ، عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ ، وعنده عبد الله بن أبي أمية ، وأبو جهل ، فقال له : « ياعم ، قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه رسول الله ﷺ فأعادا ، وكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال النبي ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فأنزل الله ﷻ : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة التوبة : ١١٣] ، الآية ، وأنزل في أبي

---

(١) أنت عليك هداية الدلالة ، وعلى الله هداية التوفيق .

(٢) وله الحجة البالغة ، ولهذا قال : ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فلا يضع الهداية إلا فيمن يصلح لها ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فمن أثر الحق وقبله وفقه الله ، ومن أعرض عن الحق وتعصب للباطل أضله الله عقوبة له .

(٣) ليس عليك هداهم يعني : هداية قلوبهم ، هذه بيد الله ﷻ .

طالب ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ الآية[1] .

---

(١) وأنزل في أبي طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ : إنك يا محمد ، يا أيها الرسول ، إنك لا تهدي هداية التوفيق والقبول من أحببت من عمك أو غيره ، ولكن الله يهدي من يشاء فهداية التوفيق والقبول بيد الله ﷻ لا يملكها غيره .

وأما هداية الدلالة والإرشاد والدعوة فهذه يملكها الرسول ، ويملكها الدعاة إلى الله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الشورى : ٥٢] يعني : تدل عليه وترشد إليه ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ [سورة فصلت : ١٧] ، أي : دللناهم على الحق وبيَّناه لهم ، ولم يبق فيه خفاء عليهم بواسطة نبي الله صالح ﷺ .

والهداية هدايتان : هداية يملكها الرسل والدعاة إلى الله وهي هداية الدلالة والإرشاد والبيان ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة السجدة : ٢٤] ، ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨١] هذه هداية الدلالة ، أما هداية التوفيق وبعث الإيمان في القلوب فهذا لا يملكه إلا الله ، لا يملكه الأنبياء ولا غيرهم من باب أولى ؛ لأن القلوب بيد الله ﷻ ، قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فنحن علينا الهداية الأولى ، هداية الدلالة والإرشاد ، وأما هداية التوفيق فهي على الله ﷻ ، والله ﷻ عليم حكيم لا يضعها إلا فيمن يعلم أنه يصلح له ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ من المعلوم أن المؤمن لا يجوز له أن يحب الكافر فهل الرسول ﷺ يحب أبا طالب وهو مشرك ؟ هذا عليه جوابان :

الجواب الأول : من أحببت هدايته ، المفعول محذوف : (إنك لا تهدي من أحببت هدايته) لابد من هذا التقدير ، وهذا الجواب هو الأولى .

الجواب الثاني : أن المراد بالمحبة هنا : المحبة الطبيعية – فالإنسان يحب قرابته محبة طبيعية لا محبة دينية ، المحبة الدينية لا تجوز إلا للمؤمنين ، أما المحبة الطبيعية فالإنسان بطبعه يميل إلى أقاربه ولو كانوا كفاراً ، ويميل إلى قبيلته هذه محبة طبيعية لا يؤاخذ عليها الإنسان ، أما الممنوع مع الكفار فهي المحبة الدينية ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

=

ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ....﴾ [سورة المجادلة : ٢٢] المراد بالمودة هنا المودة الدينية ، فهذه القصة العظيمة والنظر في الآيات المتعلقة بها تدل على مسائل عظيمة :

المسألة الأولى : بطلان التعلق على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله جلا وعلا ، كجلب الرزق ، ودفع الضرر ، والشفاء من المرض ، وهداية القلوب ، وإنزال المطر ، ، وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله ، هذا لا يطلب إلا من الله ﷻ ، ولا يجوز طلبه من غير الله فإذا كان هذا لا يجوز في حق الأنبياء ففي غيرهم من باب أولى .

المسألة الثانية : فيها مشروعية زيارة المريض ولو كان كافراً ، فإن كان المريض مؤمناً فلأجل توطينه ، وتوسيع الأمر عليه ، وتلقينه الشهادة ؛ لأن المريض يحتاج إلى من يحضره ، ويؤنسه ويوسع عليه الأمر ويبشره ، وإن كان كافراً فلأجل دعوته إلى الله ، فهذا رسول الله ﷺ زار عمه أبا طالب لدعوته إلى الله ، وزار غلاماً يهودياً يحتضر ، فدعاه إلى الله فاستجاب وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ومات على الإسلام(*) ، فزيارة المريض مشروعة ولو كان كافراً من أجل دعوته إلى الله ﷻ .

المسألة الثالثة : فيه ضرر جلساء السوء ، فيجب على الإنسان أن يتجنب جلساء السوء وأن يحذر منهم ، لأنهم يقودونه إلى الشر ، ولا يصحب إلا الأخيار . يقول الناظم(**) :

إذا كُنْتَ في قَومٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ ... وَلاَ تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

ويقول الآخر :

عَنِ الـمَرءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَـإِنَّ الـقَـرِيـنَ بِـالـمُـقَـارِنِ يَـقْـتَـدِي

فهؤلاء الجلساء أثروا على أبي طالب ومات على الشرك ، فهذا فيه ضرر مجالسة أهل السوء وقرناء السوء .

المسألة الرابعة : في الحديث دليل على تحريم الاستغفار للمشركين والترحم عليهم - وإنما هذا خاص بالمؤمنين - سواء كانوا أحياء أو أمواتاً لا يستغفر لهم ، والاستغفار للمشركين لا يقبله الله ، ولو كان من النبي ﷺ ، وقد استغفر لعمه فلم يُستَجَبَ له ﷺ ، فالاستغفار

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٤٥٥ (١٢٩٠) .

(**) هذا البيت والذي بعده ينسب لطرفة بن العبد . انظر : الدر الفريد وبيت القصيد ، محمد بن أيدمر المستعصمي ٣ / ١٠٩ .

للمشركين لا ينفعهم ولو كان المستغفر من الأنبياء أو الصالحين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [سورة النساء: ٤٨] فهذا فيه خطر الشرك والعياذ بالله .

المسألة الخامسة : في الحديث التنبيه على حسن الخاتمة أو سوء الخاتمة فلو أن أبا طالب قال : لا إله إلا الله لختم له بخاتمة خير ودخل الجنة ، ولما لم يقلها صار على ملة عبد المطلب ، على ملة المشركين من أهل النار ففيه أهمية الخاتمة وأن الأعمال بالخواتيم فيجب على المسلم أن يكثر من سؤال الله حسن الخاتمة .

المسألة السادسة : في هذا دليل على بطلان قول الفراضة والشيعة بإسلام أبي طالب ، فهذا حديث صحيح متفق عليه في الصحيحين يدل على أنه مات على الشرك ، وهم يقولون : مات على الإسلام ، ويدَّعون إسلام أبي طالب وإسلام عبد المطلب ، والحديث دليل على كفر الاثنين : كفر أبي طالب ، وكفر عبد المطلب .

المسألة السابعة : فيه خطورة الحميَّة الجاهلية لدين الآباء والأجداد ، وأن الإنسان لا يتعصب لمنهج آبائه وأجداده وأهل بلده مشايخه ومن يعظمهم إذا كان مخالفاً للحق فإنه منهم على الكفر - والعياذ بالله - خُروج من الملة ، إذا احتمى له ودافع عنه وما هلكت الأمم إلا بهذا ، كلهم يحتجون بما عليه آبائهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٠] .

﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [سورة المائدة: ١٠٤] ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ أي على دين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٣] .

هذه حجة المشركين يحتجون بما عليه الآباء ويتركون ما جاءت به الرسل ، فرعون قال لموسى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [سورة طه: ٥١] احتج على موسى ﷺ ، فموسى يدعوه إلى التوحيد وعبادة الله وهو يحتج بما عليه القرون الأولى ، فهذه حجة المشركين مضطردة عندهم ، الاحتجاج بما عليه الآباء والأجداد وهذه هي التي أهلكت الأمم ، الإنسان يتبرأ من هذه الحجة ، لأن الإنسان هدفه الحق والنجاة من النار ، فإذا رأى أن من يعظمهم على الباطل لا يتعصب لهم ، ولا تأخذه الحَميَّة الجاهلية لنصرة مذهبهم ، وترك الحق وهو

=

قوله : وفي الصحيح عن ابن المسيب أي : في الصحيحين ، وابن المسيب هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي ، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين ، اتفق أهل الحديث أن مراسيله أصح المراسيل(١) ، وقال ابن المديني : « لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه » ، مات في التسعين وقد ناهز الثمانين ، وأبوه المسيب صحابي بقي إلى خلافة عثمان رضي الله عنه وكذلك جده حزن صحابي استشهد باليمامة(٢) .

يعلمه ، هذا الذي أهلك الأمم السابقة عارضوا الأنبياء بهذه الحجة ، ولهذا يسميها شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الحجة الملعونة) التي هي من أعظم مسائل الجاهلية - والعياذ بالله - الاحتجاج بما عليه الآباء والأجداد ، وترك الحق ، تعصباً وحمية لهم ولمذهبهم ، وهذا يشمل كل من تعصّب لباطل ، فلا يجوز للمسلم أن يتعصب لباطل ؛ بل إذا تبين له الحق وجب عليه المبادرة إليه ، ولو كان الحق مع أعدائه ؛ لأنه لا يقصد الرجال ، وإنما يقصد الحق ، والحق ضالة المؤمن أنى وجده أخذه فهذا في الحقيقة باب عظيم ، وفيه فقه عزيز ، فقه العقيدة .

المسألة الثامنة : فيه أن الهداية - التي هي هداية القلوب - لا يملكها إلا الله ﷻ ، وأما هداية الدلالة والإرشاد فهذه يستطيعها الدعاة إلى الله ﷻ .

(١) أصح المراسيل مراسيل سعيد بن المسيب ؛ لأنه لا يرسل إلا عن أبي هريرة يعني الراوي الذي أرسل عنه معلوماً .

(٢) أي في وقعة اليمامة في قتال مسيلمة الكذاب .

قوله : « لما حضرت أبا طالب[(١)] الوفاة » أي علاماتها ومقدماتها[(٢)] .

قوله : « جاءه رسول الله ﷺ »[(٣)] يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين ، فإنهما من بني مخزوم وهو أيضاً مخزومي[(٤)] ، وكان الثلاثة إذ ذاك كفاراً ، فقتل أبو جهل على كفره وأسلم الآخران[(٥)] .

---

(١) أبو طالب : ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وهو عم النبي ﷺ ، وهو الذي ربى النبي ﷺ ، يعني كفله بعد جده عبد المطلب ، فإن والد النبي ﷺ عبد الله بن عبد المطلب مات والرسول ﷺ في بطن أمه ، فولد رسول الله فكفله جده عبد المطلب ، ثم لما حضرته الوفاة عهد به إلى ابنه أبي طالب فكفله – أبو طالب أحسن كفالة ، وأحسن إليه ، ولما بعث النبي ﷺ كان أبو طالب يحميه ، ويدافع عنه ، ووقف منه موقف الصابر المناصر ، المدافع عنه ، وهذا من تسخير الله للنبي ﷺ ، وكان أبو طالب سيداً في قريش ، تهابه قريش وتُجِلّه ، فكان يحمي النبي ﷺ ويدفع عنه أذى قومه ، ويصبر على ما يناله في سبيل ذلك ، فكان النبي ﷺ حريصاً على إسلامه غاية الحرص ، ولهذا لما حضرته الوفاة ، أخذت النبي ﷺ الشفقة عليه ، ومن باب رد الجميل إليه حاول ﷺ أن يسلم وأن يموت على التوحيد .

(٢) أي ليس الوفاة التي هي الغرغرة ؛ لأنه عند ذلك لا تقبل التوبة ، « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »(*) ، فقوله : « لما حضرت أبا طالب الوفاة » أي علاماتها وأماراتها في وقت تقبل فيه التوبة .

(٣) فجاءه ﷺ وعنده رجلان أحدهما : عبد الله بن أبي أمية عم سعيد بن المسيب . والثاني : أبو جهل بن هشام ، وكلاهما من بني مخزوم ، وكانا حضرة سوء ، وجلساء شر .

(٤) أي يكون المخزوميين الذين حضروا ثلاثة ، منهم والد سعيد بن المسيب ؛ لأنه مخزومي ، ومخزوم بطن من قريش .

(٥) أسلم أبو سعيد ، وأسلم عبد الله بن أبي أمية المخزومي ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،

(*) أخرجه الترمذي في سننه ٥ / ٥١١ (٣٥٣٧) ، وابن ماجه في سننه ٢ / ١٤٢٠ (٤٢٥٣) ، وحسنه الألباني .

قوله : « ياعم قل لا إله إلا الله »[(١)] أمره بقولها لعلم أبي طالب بأنها دلت على نفي الشرك بالله ، وإخلاص العبادة له وحده[(٢)] ، فإن من قالها عن علم

أما أبو جهل الذي سماه رسول الله ﷺ فرعون هذه الأمة (*) فإنه قتل في وقعة بدر .

(١) قوله ﷺ : (ياعم) كلمة استعطاف وكلمة تأدب معه وتلطف .

وهكذا ينبغي أن يكون الداعية يتلطف مع المدعو خصوصاً إذا كان مع أقاربه ، فإن أقاربه أولى بدعوته ، وأولى بحرصه على هدايتهم ، كما كان إبراهيم ﷺ أول ما بدأ بأبيه : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَـٰنَ .... ﴾ [سورة مريم : ٤٤] ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ...... ﴾ [سورة مريم : ٤٥] يستعطفه بقوله : يا أبت ، فينبغي للداعية أن يكون كذلك مع أقاربه ومع غيرهم من المسلمين يتلطف ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [سورة طه : ٤٤]

قال : « يا عم قل لا إله إلا الله » ، يجوز أن يقول يا عم - بالكسر - ويجوز أن يقول : يا عمُّ على قطع الإضافة ، بالكسر إشارة إلى الياء المحذوفة ، وياعمُّ بالضم - يدل على لغة من لا ينتظم أي : يبنى على الضم لأنه غير مضاف .

قل : لا إله إلا الله : أي تلفظ بها ، أنطق بها .

(٢) أبو طالب يعرف معناها ، وأن معناها : ترك عبادة الأصنام وإفراد الله بالعبادة ، دل على أن المشركين يعرفون معناها ، وأن المتأخرين المنتسبين للإسلام أصحاب الأضرحة لا يعلمون معنى (لا إله إلا الله) ويظنون أنه يكفي قولها . أو بعضهم وهم كثير من علماء الكلام يفسرونها بتوحيد الربوبية ، - لا إله - أي لا قادر على الاختراع والخلق إلا هو ، وهذا هو توحيد الربوبية ، ما جاءوا بشيء ، وهي إنما هي توحيد الألوهية إفراد الله بالعبادة ، لا إفراد الله بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، هذا المشركون يعترفون به ، سبحان الله ! عمى البصائر والتقليد الأعمى يأخذ الإنسان مأخذاً بعيداً ، هم علماء متبحرون في النحو ، وفي الفقه ، وفي علم المنطق ، وعلم الكلام وفي سائر العلوم ، إلا التوحيد فهم ضحلون فيه جداً ، وهذا يبعث على الاهتمام بعلم التوحيد ، الناس تساهلوا بعلم التوحيد ؛ بل منهم من يُحذِّر منه ، يقولون : الناس مسلمون ، لا تشغلوهم بالتوحيد ، فهؤلاء إنما أتوا من الجهل بالتوحيد ، والآن عندنا من يقول هذا مع الأسف يُزهِّد في

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٦ / ٣٧٥ (٣٨٢٤) ، وقال الأرنؤوط : إسناده ضعيف .

=

ويقين وقبول ، فقد أنكر الشرك وتبرأ منه[(١)] ، وكذلك الحاضرون يعلمون بما دلت عليه[(٢)] من نفي الشرك والبراءة منه ، ولهذا عارضوا قول النبي ﷺ بقولهم : أترغب عن ملة عبد المطلب[(٣)] ؟ لأن ملة عبد المطلب الشرك بعبادة الأوثان[(٤)] ،

التوحيد ودراسة العقيدة وأنه يفرق بين الناس ونحن نريد الاجتماع ، الاجتماع على غير العقيدة ؟! هذا ليس اجتماعاً ، بل ضدان لا يجتمعان .

(١) هي ليس مجرد كلمة تقال باللسان ، هي كلمة لها معنى ، ولها وزن ، ولها إلتزام تنفذه وتعمل به ، لا تقولها بلسانك وتعمل ما شئت بهواك .

(٢) ولذلك ذكَّروه بعبادة المشركين منهم وأبيه عبد المطلب ، فهم بعثوا فيه الحمية الجاهلية وأثاروا فيه الغيرة على الجاهلية لذا كان يقول :

لَولَا المَلَامَةُ أو حَذَارُ مَسبَّةٍ ... لَرَأَيتَنِي سَمْحَاً بِذَاكَ مُبِينَاً

سمحاً : يعني باتباع محمد ﷺ .

وهذا يدل على بطلان قول المرجئة الذين يقولون : إن الإيمان : التصديق بالقلب ، وأنه يكفي الإيمان بالقلب ، لأن أبا طالب وغيره ، مصدقون بقلوبهم ، لكن لم ينطقوا به بألسنتهم ، ولم يعملوا بجوارحهم ، فلم يكونوا مؤمنين ، ما نفعهم التصديق بالقلوب .

(٣) هذا في القرآن : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ لما قالوا : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [سورة الصافات : ٣٥ - ٣٦] فهموا أن قولها يلزم ترك عبادة آلهتهم : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ لما قال لهم قولوا : لا إله إلا الله ، فهموا أنها تعني إبطال عبادة الأصنام وتفرد العبادة لله ﷻ .

(٤) هذا فيه رد على الذين يقولون : أن عبد المطلب مؤمن وأن أجداد الرسول مؤمنون ويستدلون بقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٢١٧ - ٢١٩] يقولون : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ أن المراد أجداد الرسول تَنقَّل بين أصلابهم ، وهذا تفسير للآية بغير معناها .

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ : أي قيام الرسول في صلاة الليل مع الذين يقومون يصلون الليل ﴿ السَّاجِدِينَ ﴾ : المراد بهم الذين يصلون ويقومون الليل من الملائكة والآدميين ، ولا يزال الساجدون موجودون في كل زمان ، لا يخلو منهم الكون يسجدون لله ، ويوحدون الله ، ﷻ ، وليس المراد أن أجداد الرسول كانوا ساجدين وكان الرسول يتنقل من صلب إلى صلب ، هذا كلام باطل .

كما كانت قريش وغيرهم في جاهليتهم كذلك[(١)] .

قوله : « كلمة »[(٢)] قال القرطبي : (بالنصب على أنه بدل من لا إله إلا الله ، ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف) قوله : « أحاج لك بها عند الله »[(٣)] لأنه لو قالها في تلك الحال لقبلت منه ودخل بها في الإسلام .

(١) ملتهم عبادة الأصنام اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وكل بيت من بيوت مكة فيه صنم ، وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، هم عبادتهم عبادة الأصنام .

(٢) كلمة : هذا بدل من (لا إله إلا الله) لأن (لا إله إلا الله) جملة في محل نصب مقول القول و« كلمة » بدل منها ، وبدل المنصوب منصوب .

و(لا إله إلا الله) تسمى كلمة الإخلاص ، وكلمة التوحيد ، وكلمة التقوى ، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [سورة الفتح : ٢٦] ، فهي كلمة عظيمة ، قوله : « كلمة » هذا من باب ترغيبه وأنه شيء سهل عليه أن يقول هذه الكلمة فيسعد . ما طلب منه شيء يشق عليه ، ولاسيما أنه في هذه الحالة فأراد أن يخفف عنه الطلب .

(٣) « كلمة أحاج » : على النصب جواب الطلب ، أحاجُّ على الرفع : فعل مضارع مرفوع ويكون استئناف كلام « أحاج لك بها عند الله » : أي أشفع لك بها عند الله يوم القيامة ، لأن شفاعته ﷺ لأهل التوحيد ، فعمه لو قال هذه الكلمة صار من أهل التوحيد(*) ،

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – بأن هناك من يستدل بقصة أبي طالب على أن النطق بالشهادة يكفي لإسلام الإنسان حتى ولو لم يعمل ، فما الرد على ذلك ؟ فأجاب : نعم هذا صحيح ، إذا نطق بالشهادة مؤمناً بها موقنا بها معتقداً لها ومات ولم يتمكن من العمل أنه يكون من أهل التوحيد ، ومن أهل الجنة لأنه لم يتمكن من العمل ، فأبو طالب لو نطق بها موقناً بها معتقداً بها صار من أهل الجنة ولو لم يعمل لأنه ما عنده مجال للعمل ، أما من يقولها في حال السعة والصحة ويترك العمل هذا مرجئ ، هذا من أخبث المرجئة هذا لا يجوز لأن لا إله إلا الله تقتضي العلم والعمل والإخلاص ، ليست كلمة يقولها ويصير مسلماً ولو لم يعمل ، لا هذا ليس بصحيح ، حال الرخاء ليس كحال الضيق الذي يقولها عند الموت مؤقناً بها ويموت عليها يصير من أهل التوحيد ، ويسامح في ترك العمل ؛ لأنه ليس عنده فرصة للعمل معذور ، لا كالذي يترك العمل وهو صحيح مستطيع للعمل ، هذا غير معذور ، هذا الاستدلال تعميمه على كل من هو في حال الصحة أو في حال الموت ، من التلبيس على الناس . ا.هـ

=

قوله : « فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب[1] ؟ » ذكَّراه الحجة

وصار من أهل الشفاعة ، فدل هذا على أن من مات على غير التوحيد أنه لا تناله شفاعة الشافعين ومنهم أبو طالب ، فإنه لا تنفعه قرابته من الرسول ﷺ إلا لو مات على التوحيد أما إذا مات على غير التوحيد فلن تنفعه شفاعة الشافعين ، ولو كان من قرابة رسول الله ﷺ ، فهذا فيه رد على الذين يتعلقون بقرابتهم من رسول الله ﷺ ويقولون : نحن من أهل البيت ونحن ونحن .. ، ولا يحققون التوحيد فإن كونهم من أهل البيت لا ينفعهم شيئاً إلا مع التوحيد ، فهذا أبو طالب لا يحاج له الرسول ﷺ عند الله إلا إذا مات على التوحيد فيالها من بيِّنة ما أوضحها .

(١) فقال له الرجلان المخزوميان (حضرة السوء) : « أترغب عن ملة عبد المطلب » - أي : عبادة الأصنام - لاحظوا فَهْمَ المشركين لكلمة (لا إله إلا الله) يفهمون أنه لو قالها معناه أنه تبرأ من عبادة الأصنام لأن كلمة (لا إله إلا الله) تنفي وتبطل عبادة الأصنام ، فهم يمتنعون من قولها من أجل ذلك ؛ لأنها ليست مجرد لفظ يقال باللسان ؛ بل لها معنى وهو ترك عبادة الأصنام ، ولهذا لما قال لهم رسول الله ﷺ : « قولوا : لا إله إلا الله » قالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [سورة ص : ٥] : يعني يريد منا ألا نعبد إلا إلهاً واحداً ونترك الأصنام ، وكذلك قوله ﷻ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [سورة الصافات : ٣٥ - ٣٦] يفهمون أن كلمة (لا إلـٰه إلا الله) يلزم منها ترك الآلهة غير الله تعالى ، هذا وهم مشركون ، وهؤلاء الذين يعبدون القبور الآن ، ومنهم علماء لا يفهمون معنى (لا إلـٰه إلا الله) ولذلك يقولونها وهم يعبدون القبور ، ما فهموا منها أنها تنفي عبادة القبور ، وأنها تبطل عبادة القبور ، فهذا من العجب أن المشركين الأولين يعرفون معنى (لا إلـٰه إلا الله) وأنها تبطل عبادة القبور ، وأن من قالها يلزمه أن يترك عبادة غير الله ﷻ ، فلذلك أبوا أن يقولوها وهؤلاء يقولونها بالآلاف ولكنهم يناقضونها بالأفعال ، فيدعون الموتى ، ويستغيثون بهم ، ويطوفون بالأضرحة ، ويذبحون وينذرون ، ويحجون للقبور وما فهموا أن عملهم هذا تبطله (لا إلـٰه إلا الله) التي يقولون ، فهذا من العجب العجاب ، سبحان الله !

« قالوا له أترغب عن ملة عبد المطلب » : لأنك لو قلتها معناها أنك رغبت عن ملة عبد المطلب (أبيه) يريدون الاستعطاف ، وأنه لا يجوز له أن يخالف ملة عبد المطلب ،

=

الملعونة[١] التي يحتج بها المشركون على المرسلين ، كقول فرعون لموسى : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[٢] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ

ويدَّعون أن في هذا عيباً على عبد المطلب ، وهذا من باب إثار النخوة الجاهلية فيه ، دين أبيك تتركه ولهذا هو يقول في شعره :

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيرِ أَدْيَانِ البَرِيَّة دِيناً
لَوْلا المَلاَمَةُ أو حَذَارُ مَسَبَّةٍ لَرَأَيْتَني سَمْحَا بِذَاكَ مُبِيناً

هو ما ترك التصريح والنطق بـ (لا إله إلا الله) إلا لأنه يحذر مسبة قريش أو ملامة قريش على ما قاله ، هذا من حمية الجاهلية ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [سورة الفتح : ٢٦] حمية الجاهلية هي الحمية للباطل ، وهم يعرفون أنه باطل ، لكنهم لا يتركونه حمية لقومهم فهذا فيه ضرر الحمية الجاهلية ، وأن الإنسان لا يترك الحق من أجل قومه أو من أجل بلده أو من أجل مشايخه إذا كانوا على ضلال ، لا تأخذه الحمية الجاهلية إلى أن يترك الحق حمية لقومه أو بلده أو جماعته بل يجب عليه اتباع الحق هذا هو شأن المؤمنين الصادقين .

« أترغب عن ملة عبد المطلب ، فأعاد عليه ﷺ » : وهذا من حرصه ﷺ .

وهذا فيه أن الداعية لا ييأس ؛ لأن الذي يدعو إلى الله لا ييأس ، بل يكرر الدعوة ولو لم يستجب له من أول مرة ، يكرر الدعوة ولا ييأس .

فهذا فيه منهج الدعوة إلى الله ﷻ ، خذوا منهج الدعوة من سيرة الرسول ﷺ ، لا تأخذوه من الحزبيات والجماعات والاصطلاحات البشرية ، خذوا منهج الدعوة من دعوة الرسول ﷺ هذا هو المنهج الصحيح ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٢١] أعاد عليه ﷺ ولم ييأس « فأعادا » : أي الرجلان قولهما : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ انظر كيف المشركون يُصِرُّون – والعياذ بالله – على عنادهم ، وعلى حميتهم الجاهلية .

(١) الحجة الملعونة هذه لفظ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في مسائل الجاهلية والحجة الملعونة : هي حجة المشركين التي يعارضون بها الأنبياء .

(٢) فعادٌ يقولون لهود ﷺ : ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا

=

فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

قوله : « فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا »[(١)] فيه مضرة أصحاب السوء والحذر من قربهم والاستماع لهم ، ففيه معنى قول الناظم[(٢)] :

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ وَلَا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدى

قوله : « فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله »[(٣)] .

بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٧٠] فهذه حجة مضطردة عندهم .

(١) أي أعاد عليه الدعوة إلى الله فأعادا عليه مقالتهم الخبيثة ، غيرة على الشرك ، وغيرة على دين عبد المطلب فكان دعاة التوحيد ودعاة الشرك يتجاذبون .

(٢) إذا قيل الناظم المراد به : ابن عبد القوي في منظومة الآداب[(*)] ، لأن ابن عبد القوي له منظومتان : منظومة الفقه وهي لفظ المقنع[(**)] ، ومنظومة الآداب .

(٣) هذا آخر ما قاله : هو على ملة عبد المطلب ، أي : على الشرك ، أي ختم له بالشرك - والعياذ بالله - وأبى أن يقول : (لا إلـٰه إلا الله) . « هو على ملة عبد المطلب » : جاء بضمير الغائب استكراهاً لنقل المتكلم أن يقول : أنا ، ولربما أن أبا طالب قال : أنا ، لكن

(*) منظومة الآداب الشرعية / لمحمد بن عبد القوي المرداوي ، وهي المنظومة التي شرحها السفاريني في كتابه : « غذاء الألباب » ، وهو مطبوع ، ولم أجد فيه هذا البيت ، وقد أحلته في أول الباب إلى « الدر الفريد وبيت القصيد » .

(**) وعنوان الكتاب : « عقد الفرائد وكنز الفوائد » طبع في مجلدين ، على نفقة الشيخ محمد ابن عبد الله الجميح ، وعدد أبياته خمسة عشر ألف بيت في الفقه الحنبلي وقد شرحه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في كتاب بعنوان : « تيسير الكريم الواحد في شرح عقد الفرائد وكنز الفوائد » ، وقد قدمت دارة الملك عبد العزيز هذا الكتاب المهم إلى طلاب المعهد العالي للقضاء لتحقيقه ونشره .

قال الحافظ : (هو تأكيد من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب) ، قال المصنف ﷺ : (وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه)[١] .

قوله : فقال النبي ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك »[٢] اللام لام القسم . قال النووي : (فيه جواز الحلف من غير استحلاف)[٣] . قال ابن فارس : (مات أبو طالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً ، وتوفيت خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد موت أبي طالب بثمانية أيام)[٤] .

الراوي صرفها إلى ضمير الغائب استكراهاً لها ، قال : « هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إلـٰه إلا الله » ، ومات على ذلك ، فهذا فيه دليل على أن أبا طالب مشرك ؛ لأنه مات على الشرك ، وعلى أن عبد المطلب مشرك ، وعلى أن أجداد النبي ﷺ مشركون رداً على الرافضة الذين يدعون إسلام أبي طالب وألّف بعضهم كتاباً سماه (أبو طالب مؤمن قريش) . فالشيعة يزعمون إسلام أبي طالب ، وإسلام عبد المطلب ، وإسلام أجداد النبي ﷺ ؛ بل والمخرِّفون غيرالشيعة يزعمون هذا ، يقولون : لا يليق بالرسول ﷺ أن يكون من أولاد كفار ، هذا لجهلهم ، وإلا فإبراهيم الخليل أبو الأنبياء ﷺ وأبوه كافر ، وما ضره . وهذا نوح ﷺ ابنه كافر أبى أن يركب مع أبيه في السفينة ، وأبوه يقول له : ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٢] فأبى وهو ابن نبي ، وولد نوح أول الأنبياء ، فلا يستغرب أن يكون أبو النبي كافراً ، أو ابنه كافراً ليس بمستغرب .

(١) فيه رد على الشيعة الذين يزعمون إسلام أبي طالب ، وكذلك أسلافه أبوه عبد المطلب وجده إلى آخره .

(٢) هذا من وفاته ﷺ ، وقوله : « ما لم أنه عنك » : فيه التقيد بشرع الله تعالى ، وأنه إذا نهي عن ذلك يمتنع ، فالنبي ﷺ لم تنقطع شفقته على عمه وقال : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، من حرصه ﷺ على رد الجميل مع عمه الذي دافع عنه وحماه .

(٣) أي من باب التأكيد .

(٤) كلاهما كان يؤيد الرسول ﷺ عمه أبو طالب ، وزوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وتوفوا في عام
=

قوله: فأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[1] وهو خبر

واحد ، وبقي الرسول ﷺ ليس معه من يدافع عنه ويؤنسه ويسري عنه ما يصيبه من أذى قومه وعلى إثره خرج إلى الطائف يدعوهم إلى الله فسبوه وردوه ورموه بالحجارة حتى أدموا عقبه ﷺ ، فهذا فيه ما يتعرض له الدعاة من الأذى ، وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتعرضون للأذى ، ويصبرون ويواصلون الدعوة ؛ لأن الإنسان ما دام على الحق لا يلتفت إلى ما يصيبه .

(١) فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ . وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ١١٣ - ١١٥] لما نزلت هذه الآية : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ تأسف أناس من الصحابة بأنهم كانوا يستغفرون لآبائهم ، فخافوا أن يؤاخذوا بفعلهم هذا لما تبين لهم أن هذا أمر غير جائز ، وخافوا أن يضرهم هذا الاستغفار لآبائهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ أي : أن ما فعله الإنسان قبل أن يتبين له الحق أنه لا يؤاخذ به فهم فعلوا هذا قبل أن ينهوا عن الاستغفار ، وهذا لا يضرهم ، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ [سورة القصص : ٥٩] الله ﷻ لا يعذب قبل إقامة الحجة فهذا عذر لهم فيما فعلوه ، ودفع لما حصل لهم من الندم والخوف مما فعلوا أنهم لا يؤاخذون على ما سبق ، فهذا فيه تحريم الاستغفار للكفار والترحم عليهم ، وأنه لا يجوز للمسلم أن يترحم على أموات الكفار ولو كانوا أولي قربى ، فكيف الاستغفار للأباعد ؟! لا يجوز الاستغفار للكفار ، لا للأحياء ولا للأموات ، الحي لا تستغفر له وهو على الشرك ، لا تقل : غفر الله لك ، ولكن قل : هداك الله ، أُدع له بالهداية ، أما الاستغفار فلا يجوز للمشرك سواء كان حياً أو ميتاً ، وإنما الاستغفار للمؤمنين : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [سورة محمد : ١٩] .

بمعنى النهي[١] ، والظاهر أن هذه الآية نزلت في أبي طالب ، فإن الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب في قوله « فأنزل الله » بعد قوله « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » يفيد ذلك[٢] ، وقد ذكر العلماء لسبب نزول هذه الآية أسباباً أُخر فلا منافاة ، الآية الواحدة قد يتعدد نزولها[٣] ، وفيه تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم[٤] .

(١) ما كان : هذا خبر وهو بمعنى النهي أي : لا تستغفروا .

(٢) قوله في الحديث « فأنزل » بالفاء دليل على أن الآية نزلت في قصة أبي طالب .

(٣) الآية الواحدة قد يتعدد نزولها عدة مرات ، وقد تتعدد أسباب نزولها لا مانع من ذلك ايضاً ، والآية من سورة التوبة ، وسورة التوبة مدنية في غزوة تبوك ، لكن لا مانع من نزول آيات منها في مكة ، ثم نزلت في المدينة قد تنزل الآية مرتين أو ثلاث .

(٤) هذه مسألة عظيمة أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولا محبتهم ولا موالاتهم ولو كانوا أقرب الناس إلى الإنسان .

١٩- بابُ مَا جَاءَ أَنْ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدم وتَرْكِهم دِينَهُمْ هُوَ الغُلُوُّ فِي الصالحِينَ

وَقَوْلِ الله ﷻ : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [سورة النساء : ١٧١] .

فِي « الصَّحِيح » عَن ابنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ الله تَعَالَى : ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [سورة نوح : ٢٣] ؛ قَالَ : هذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ، فَلَمَّا هَلَكُوا ؛ أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِم : أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيها أَنْصابًا ، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، فَفَعَلُوا ، وَلَمْ تُعْبَدْ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ ، وَنُسِيَ العِلْمُ ؛ عُبِدَتْ .

وَقَالَ ابنُ القَيِّم : (قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : لَمَّا مَاتُوا ؛ عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِم ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُم ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُم) .

وَعَنْ عُمَرَ ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « لا تُطْرُوني كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَرْيَمَ ، إِنَّمَا أَنَا عَبدٌ ، فَقُولُوا : عَبد الله وَرَسُولُهُ » . أَخْرجَاهُ .

قال : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ والغُلُوَّ ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الغُلُوُّ » .

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ » . قَالَهَا ثَلاثاً .

١٩ - بابُ مَا جَاءَ أَنْ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدم وتَرْكِهم دِينَهُمْ هُوَ الغُلُوُّ فِي الصالحِينَ

قوله : (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين) [(١)] قد أنذر ﷺ أمته من الغلو ، وأبلغ في الإنذار تحذيراً عما وقع

(١) قال ﷺ (باب ما جاء) : أي من الأدلة في الكتاب والسنة ، على (إن سبب كفر بني آدم) الكفر هو : الخروج من الدين والردة في عمله ، لأن الكفر على قسمين : كفر أصلي : وهو
=

ما كان عليه الكفار من المشركين ، والوثنيين ، وكفر بسبب الردة عن الإسلام ، والمراد هنا النوع الثاني ، أنهم يكونوا من المسلمين في أول الأمر ، ثم يرتدوا عن الإسلام بسبب من أسباب الردة ، (بني آدم) : يعني جميع الناس من الأمم السابقة ، والأمم اللاحقة ، السبب هذا مطَّرد في بني آدم ، (وتركهم دينهم) : أي رجوعهم عنه وردتهم ، تركهم بالجر معطوف على الكفر ؛ لأن (سبب) : مضاف ، و(كفر) : مضاف إليه ، فعطف عليه (تركهم) ، والمعطوف على المجرور مجرور كما هو معروف ، و(دينهم) : مفعول ؛ لأن المصدر إذا أضيف يعمل عمل فعله ، (دينهم) : مفعول به لـ(تركهم) ، وقوله : (تركهم دينهم) تأكيد لقوله : (سبب كفر بني آدم) : لأن ترك الدين والكفر بمعنى واحد ، أو أن يكون كفر بني آدم الكفر الأصلي ، وتركهم دينهم ردة ، فيكون مراد الشيخ ﷺ : أن سبب الكفر الأصلي وسبب الردة : هو الغلو . والغلو في اللغة : الزيادة ، يقال : غلا السعر إذا زاد ، وغلا القدر إذا ارتفع فيه الغليان بسبب الحرارة ، فالغلو هو الزيادة لغة ، وشرعاً : هو الزيادة عن الحد المشروع ، بأن يقول قولا فيه الزيادة عن الحد المشروع ، أو يعتقد اعتقاداً في شخص أو في شيء اعتقاداً زائداً عن الحد المشروع ، أو بالفعل بأن يزيد في العبادة عن الحد المشروع ، ويتشدد في الدين ، في التحليل والتحريم فيتشدد في التعبد بالصيام والصلاة وغير ذلك ، يتشدد حتى يشق على نفسه ، هذا غلو ، غلو في العبادة ، وهو في جميع أنواعه محرم ، الغلو بجميع أنواعه محرم ، والتساهل أيضاً محرم ، والمطلوب والمشروع هو الاعتدال بين الإفراط والتفريط ، بين الغلو والتساهل ، بين الإعراض والجفاء ، وبين التشدد ، فلا يكون الإنسان معرضاً وجافياً ، ولا يكون غالياً ومتشدداً ، كما يقول الشاعر(*) :

وَلَا تَغْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الأَمْرِ واقْتَصِدْ   كِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمُورِ ذَمِيمُ

خير الأمور الوسط ، فلا يتساهل الإنسان في دينه ويضيع ، ولا يتشدد ويغلو ، وإنما يكون معتدلاً ، هذا هو المطلوب ، و(الصالحين) : المراد بالصالحين من العباد ، والأنبياء ، والأولياء ، والعلماء ، فلا يغلو الإنسان في الشخص حتى يرفعه فوق منزلته ؛ لأن هذا سبب للشرك ، شركه وعبادته من دون الله ﷻ ، فالغلو في الشخص سبب لعبادته ، والغلو في العبادة سبب لترك العبادة ، فالإنسان بشر يمل ، فيترك العبادة ،

(*) هذا البيت لأبي سليمان الخطابي ، انظر : « العزلة » ص ٩٨ .

=

من جهلة هذه الأمة - كما سيأتي ذكره - .

قوله : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ [سورة النساء : ١٧١][(١)] الآية . الغلو : هو الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد ،

بسبب أنه زاد على نفسه ، وقد قال النبي ﷺ : « فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى »[(*)] ؛ المنبت هو المتشدد ، مثل الذي يكون في سفر فيسرع في السير ، فيكثر من السير ، فراكبته تَكَلّ ، وتعجز ، فيبقى بدون راحلة ، « لا ظهراً أبقى » ، وتبقى المسافة « ولا أرضاً قطع » ، أما إذا كان الإنسان يعمل برفق واعتدال ، فهو كالمسافر الذي يسير برفق واعتدال ؛ فإنه يقطع المسافة ، وتبقى راحلته ، لا تتأثر ، وهذا الدين لا أحد يقدر أن يوغل فيه ، الدين متين كما يقول الرسول ﷺ « ولن يُشَادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه »[(**)] ، لا يمكن أن تحيط به ، النبي ﷺ يقول : « استيقموا ولن تحصوا »[(***)] ، الدين متين لا تقدر أن تحيط به كله ، فلا ترهق نفسك ، ولكن خذ ما تستطيع برفق واعتدال ، وهذا التوسط في العمل سبب للاستمرار في الطاعة ، وأما الغلو في العمل فهو سبب للانقطاع ، ولهذا يقول ﷺ : « عليكم ما تطيقون من الأعمال فإن الله لا يمل حتى تملوا »[(****)] الحاصل أن الغلو مذموم ، ولو كان الإنسان قصده حسناً ، ونيته طيبة ، هذا محرم ، والمقصود بالغلو هنا : هو الغلو في الأشخاص ، الغلو في الصالحين ، الذي سبَّب الشرك عند بني آدم ، كما حصل لقوم نوح لما غلو في الصالحين - كما يأتي في هذا الباب - وكما حصل في هذه الأمة لما غلوا في الأولياء والصالحين ، عبدوا قبورهم بسبب الغلو فيهم - كما يأتي في هذا الباب وفي الأبواب التي بعدها .

(١) الله ﷻ نهى أهل الكتاب أن يغلو في دينهم ، والمراد بأهل الكتاب : اليهود والنصارى ،

(*) أخرجه ابن الأعرابي في « معجمه » ٣ / ٨٩٩ (١٨٨٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » ٢ / ١٨٤ (١١٤٧) ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع الصغير وزيادته » ٢ / ٢٠١ (٢٠٢٠) .

(**) أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٢٣ (٣٩) .

(***) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٣٧ / ٦٠ (٢٢٣٧٨) وقال الأرنؤوط : حديث صحيح ، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح .

(****) أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٣٨٦ (١١٠٠) .

=

(لا تغلو) : أي لا تشددوا وتزيدوا في دينكم ، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [سورة النساء: ١٧١] ؛ لأنهم غلوا في المسيح ، اعتقدوا أنه ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، أو هو الله ، ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [سورة المائدة : ١٧] ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [سورة المائدة : ٧٣] ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة : ٣٠] ، هذا غلو في الشخص حتى جعلوه ابن الله – تعالى الله عن ذلك – وعبدوه من دون الله ، هذا سببه الغلو ، ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ، ليس هو ابناً لله ، ولا هو الله ، ولا ثالث ثلاثة ، وإنما هو رسول الله ، أرسله الله إلى بني إسرائيل ، ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾ [سورة الصف : ٦] ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ [سورة مريم: ٣٠] ، جعلني نبياً ، ما قال جعلني ابناً ، أو جعلني ثالث ثلاثة ، قال : جعلني نبياً ، وقال : أنا عبد الله ، ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ، فهو عبد الله ونبي ، عبدٌ رسول ﷺ ، ليس كما يعتقده النصارى فيه ، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] ، هذا يقرأ بعد قوله تعالى : ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ ، وبعد قوله تعالى : ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ، الآلهة ليست ثلاثة كما تقول النصارى ، وإنما الله إله واحد ﷻ ، ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ . مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ﴾ [سورة المائدة : ٧٣ – ٧٥] ، ليس رباً ، وليس ابناً لله ، ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ ، رسول مثل الرسل السابقين قبله فلماذا تقولون المسيح ابن الله ، ولا تقولون إن الرسل كلهم أبناء الله ، إذا كانت الرسالة تقتضي أن يكون الرسول ابناً لله ، فليكن جميع الرسل إذاً أبناء الله – تعالى الله عن ذلك – ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ ، وأمه مريم صدِّيقة ، والصدِّيق : هو المبالغ في الصدق ، ودرجة الصدِّيقين بعد درجة الأنبياء ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [سورة النساء : ٦٩] ، وقد قال ﷺ : « وإن العبد ليتحرى الصدق حتى يكتب عند =

أي : لا ترفعوا المخلوق عن منزلته التي أنزله الله ، والخطاب وإن كان لأهل الكتاب فهو تحذير لهذه الأمة أن يفعلوا مع نبيهم ﷺ كما فعلت النصارى مع المسيح وأمه ، واليهود مع العزير[1] ، وقد وقع ذلك الشرك في العبادة في هذه الأمة نظماً ونثراً[2] كما في كلام البوصيري والبُرْعي

الله صديقاً »(*) ، الصديق هو كثير الصدق ، الذي لا يصدر منه الكذب ، فعيسى رسول من الرسل ، وأمه صدِّيقة من الصدِّيقين ، وليست كما يقولون أنها ثالث ثلاثة ، ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ﴾ ، كان عيسى ومريم يأكلان الطعام ، فدل على أنهم بشر ، وأنهم مخلوقون ؛ لأن الرب لا يأكل الطعام سبحانه ؛ لأنه ليس في حاجة إلى الطعام ، فالذي يأكل الطعام هذا دليل على نقصه ، وحاجته إلى الطعام ، ولو لم يأكل الطعام هلك ، وكونهما يأكلان الطعام هذا دليل على أنهما ليسا بأرباب ، هذا برهان عقلي على بطلان اعتقاد إلهية المسيح وأمه ﴿ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾ [سورة المائدة : ١١٦] ، والآيتان من سورة النساء ، ومن سورة المائدة ، وإن كان المخاطب بهما بنو إسرائيل فإن اللفظ عام يشمل الجميع ، ويشمل المسلمين ؛ لأن القرآن جاء للمسلمين ، وهاتان آيتان في القرآن ، وليس النهي عن الغلو خاصاً ببني إسرائيل ، أو بأهل الكتاب ، فهذا هو الشاهد من الآية النهي عن الغلو ، وأنه جر أهل الكتاب إلى الشرك بالله ﷻ .

(١) قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾ [سورة التوبة : ٣٠] ، عزير اختلف فيه هل هو نبي ، أو رجل صالح ؟ بعضهم يقول : إنه نبي ، وبعضهم يقول : إنه رجل صالح ، وعلى كل حال إن كان نبياً ففيه الغلو في الأنبياء ، وإن كان صالحاً ففيه الغلو في الصالحين .

(٢) وقع الغلو الذي حذَّر منه ﷺ في هذه الأمة نظماً ونثراً في حقه ﷺ ، كما في قول صاحب البردة ، بردة المديح للبوصيري ، وغيرها من المدائح ، التي يسمونها المدائح النبوية ، ويغلون فيها ، ويصفونه بأوصاف الرب ﷻ ، ويقرؤونها في حفلات الموالد ؛ لأنهم يزعمون أنه مدحاً للرسول ﷺ .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٠١٣ (٢٦٠٧) .

وغيرهما[(١)] ، وفيما فعلوه من الغلو والشرك محادة لله ولكتابه ولرسول الله ﷺ فأين ما وقع فيه هؤلاء الجهلة من قول من قال للنبي ﷺ : « أنت سيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وابن خيرنا »[(٢)] . فكره ذلك النبي ﷺ أشد الكراهة - كما

(١) من الذين قالوا القصائد في مدح النبي ﷺ ، وغلوا فيها ، مثل ما في نهج البردة لأحمد شوقي ، والهمزية النبوية لأحمد شوقي من هذا النمط ، ومثل ما في تشطير البردة لداود بن جرجيس العراقي .

(٢) النبي ﷺ أدب أمته حتى في الأشياء الجائزة ، نهاهم عن قولها ، لما قالوا : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، قال ﷺ : « إنه لا يستغاث بي ، إنما يستغاث بالله »(*) ، هذا من باب سد الذرائع ، وإلا فإنه ﷺ يقدر أن يمنع هذا المنافق من أذى المسلمين ، يقدر أنه يمنعه من هذا ، ولكنه نهاهم من باب سد الذرائع ؛ لئلا يفضي بهم إلى الاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله ، فنهاهم عن الشيء الجائز خوفاً من الوقوع في الشيء الذي لا يجوز ، من باب سد الذرائع ، وكذلك الألفاظ الشركية ، لما قال له رجل : (ماشاء الله وشئت ، قال : « اجعلتني لله نداً » ؟ قل : ما شاء الله وحده »(**) ، مع أن الرسول ﷺ له مشيئة ، ولكنه قال هذا من باب سد الذرائع وتعظيم جانب الله ﷻ ، ولما جاءه وفد وقالوا له : أنت سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا ، قال : « السيد الله ﷻ .. قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان »(***) ولاشك إنه سيد ﷺ ، هو سيد ولد آدم كما في الحديث : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »(****) ، هو سيد ﷺ ، لكنه منعه من

(*) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » كما في « مجمع الزوائد » ١٠ / ١٥٩ ، وقال الهيثمي: (رجاله رجال الصحيح ، غير ابن لهيعة ، وهو حسن الحديث) ، وأورده شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه « الرد على البكري » ١ / ٣٠٧ وقال: (معناه موافق للمعاني المعلومة بالكتاب والسنة) ، ثم ذكر أنه صالح للإعتقاد. انظر : « قرة عيون الموحدين » بتحقيق : عمر آل عباس ، هامش ص ٢٧٩ .

(**) أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » ٣ / ٣٢٩ (١٨٣٩) بلفظ : « أجعلتني لله عدلاً ، بل ما شاء الله وحده » ، وقال الأرنؤوط : صحيح لغيره .

(***) أخرجه أبو داود في « سننه » ٤ / ٢٥٤ (٤٨٠٦) وصححه الألباني .

(****) أخرجه ابن ماجه في « سننه » ٢ / ١٤٤٠ (٤٣٠٨) ، وصححه الألباني .

=

سيأتي في الكلام على هذا الحديث إن شاء الله تعالى، وقول القائل : ماشاء الله وشئت - فقال : « أجعلتني لله نداً[1] ؟ بل ما شاء الله وحده » . قال شيخ الإسلام : (ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم) [2] . قال : (وعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حرَّق الغالية من الرافضة ، فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة فقذفهم فيها[3] ، واتفق

هذه المواجهة في المدح من باب سد الذرائع ، والغلو في مدحه ﷺ ، فإذا كان هذا في الأشياء الجائزة ، فكيف بالأشياء المحرمة ؟ مثل : يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به ، هذه أشياء محرمة والعياذ بالله ، شرك ، فهو نهاهم عن الألفاظ التي أصلها جائز ، خوفاً من الوقوع في شيء لا يجوز ، مخافة منه ﷺ على التوحيد .

(١) أي : شريكاً في المشيئة : « قل : ماشاء الله وحده » .

(٢) (فقد شابههم) : قد شابه اليهود والنصارى ، (بإفراط فيه أو تفريط) : الإفراط : هو الغلو . والتفريط : هو التساهل ، وفيه تشبه باليهود والنصارى ؛ لأن كلا الأمرين حصل منهم ، حصل منهم الإفراط ، وحصل منهم التفريط .

(٣) الغالية الذين قالوا لعلي : أنت الله ، وهم جماعة من الشيعة يعتقدون الألوهية في علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فلما ظهروا في وقت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حرقهم بالنار ، وأقرَّه الصحابة على قتلهم لكن يرون إنه لو قتلهم بالسيف كان أحسن ؛ لأن النبي ﷺ قال : « لا يعذب بالنار إلا رب النار »(*) ، أو كما قال ﷺ والشيعة على أقسام منهم : الشيعة المفضلة الذين يفضلون عليّا على غيره من الصحابة ، هؤلاء أخف الشيعة ، ومنهم : الذين يقولون : إن علياً أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ، وأنهم ظلموه وهذا الذي عليه الجعفرية وغيرهم من الذين يعتقدون أن الخلافة لعلي ، وأن الصحابة اعتدو عليه ، ومنهم : من غلا فيه ورفعه إلى مرتبة الألوهية ، وهم الغالية ، الذين اعتقدوا فيه الألوهية ، ومنهم : من اعتقدوا أن علياً هو الرسول ، وأن جبريل خان الأمانة ، وذهب بها إلى محمد ﷺ ، ويقولون : (خان الأمين وصدها عن حيدرة) ، (خان الأمين) : يعني جبريل عليه السلام . (وصدها عن حيدرة) : وهو علي ، يسمونه حيدرة .

(*) أخرجه أبو داود في « سننه » ٣ / ٥٤ (٢٦٧٣) وصححه الألباني .

الصحابة على قتلهم[(١)] ، لكن ابن عباس مذهبه أن يقتلوا بالسيف من غير تحريق ، وهو قول أكثر العلماء)[(٢)] .

قوله : في الصحيح ، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قول الله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [سورة نوح : ٢٣] . قال : « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم[(٣)] ، عُبِدت »[(٤)] . قوله : في الصحيح ، أي : صحيح البخاري ، وهذا الأثر

---

(١) اتفق الصحابة على قتلهم قتل ردة ، لكن يخالفون علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الوسيلة التي قتلهم بها .

(٢) وهو قول أكثر العلماء فيهم وفي غيرهم ، أنه لا يجوز التحريق بالنار ، وإن كان وقع التحريق بالنار من علي ، ووقع التحريق بالنار للوطية ، وقع هذا من بعض الصحابة ، لكن الذي عليه الأكثر إنه لا يعذب بالنار أبداً ، وإنما يقتلون بالسيف .

(٣) يعني نسي العلم بموت العلماء ، في رواية : (نسخ العلم) : يعني رُفِع ، الرسول ﷺ يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبقِ عالماً ، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فسئلوا فافتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا »[(*)] ، الشيطان لم يأمر بعبادة الصور في وجود العلماء ، لأنهم سينكرون عليهم ، وإنما تجرأ لما فُقِد العلماء ، فهذا فيه ضرر فقد العلماء ، وأن هذا يُنشِّط الشيطان ، وعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد .

(٤) هذا الحديث (تفسير ابن عباس للآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [سورة نوح : ٢٣] قال : هذه أسماء رجال ، غالوا فيهم من قوم نوح ، فلما ماتوا أوحى الشيطان إلى قوم نوح ، لما رآهم حزنوا عليهم وفقدوهم ،

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٥٠ (١٠٠) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٠٥٨ (٢٦٧٣) .

=

فاستغل الشيطان هذه الفرصة ، وقال لهم : صوروا صورهم ، وانصبوها على مجالسهم ، حتى تتذكروا أحوالهم ، وتتذكروا العبادة ، فجاءهم من طريق نصح ، يحثهم على العبادة ، وأن هذه الصور فيها مصلحة ؛ لأنها تذكر بأحوال الصالحين ، وتُنشِّط على العبادة ، وهو يقصد غير ذلك ، يقصد أن هذه الصور في المستقبل تكون أصناماً ، ففعلوا صوروا صوراً ونصبوها ، والأنصاب : جمع نصب ، وهو الصورة التي تُعلَّق ، أو تُنْحَت من الحجر ، أو من الطين ، هذه الأنصاب ، فالأنصاب هي الصور التي تعظم ، للذكريات كما يقولون الآن ، يعلقون الصور ثم يقولون : هذه للذكريات ، وهذا هو فعل قوم نوح ، وإن كانوا في الوقت الحاضر لا يعبدونها ، لكن يأتي وقت في المستقبل يزين الشيطان لأهله أن هذه الصور تنفع وتضر فيعبدونها ، فإذا فُعِل السبب ؛ وُجِدت النتيجة فيما بعد ، وإذا قُطِع السبب . فإنها لا توجد النتيجة ، والشيطان حريص على إضلال بني آدم ، وله نظر بعيد ، هو لا ينظر إلى الجيل الحاضر ؛ لأن الجيل الحاضر يعلم أنهم لن يعبدوا هذه الصور ؛ لأنهم يعرفون التوحيد ، ويعرفون الشرك ، وفيهم العلماء . لكن يكتفي منهم بصورة مُذكِّر ، بزعم أنها تُذَكِّر بأحوال العباد والمجتهدين ، ويظهر هذا بمظهر النصيحة والعبادة ، ثم إذا مات هذا الجيل ، وفُقد العلماء الذين ينهون عن الشرك ، وجاء جيل جاهل جاءهم الشيطان وقال : هذه تنفع وتضر فعبدوها كما حصل لقوم نوح تماماً ، لما هلك أولئك ، ونسخ العلم ، أو نسي العلم ، يعني مات العلماء ، جاء الشيطان إلى من بعدهم ، وقال : إن آباءكم نصبوا هذه الصور لأن تعبد ، وبها كانوا يسقون المطر ، فعبدوها من دون الله ، فحدث الشرك في الأرض ، أول شرك حدث في الأرض بسبب صور الصالحين ، بسبب التصوير ، ولذلك أخبر النبي ﷺ « أن المصورين أشد الناس عذاباً يوم القيامة »(*) ؛ لأن التصوير وسيلة للشرك ، قال ﷺ : « لعن الله المصورين »(**) وقال : « من صور صورة

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢٢٢٠ (٥٦٠٦) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٦٧٠ (٢١٠٩) .

(**) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢٠٤٥ (٥٠٣٢) بلفظ : « لعن النبي ﷺ الواشمة والمستوشمة .... ، ولعن المصورين » .

اختصره المصنف ﷺ والذي في البخاري عن ابن عباس : « صارت الأوثان

في الدنيا » كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة ، وليس بنافخ »(*) ، وقال : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، ويقال لهم : « أحيوا ما خلقتم »(**) ، وقال : « كل مصوِّر في النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه في جهنم »(***) .

ولقد اشتد نكيره ﷺ على التصوير ، وعلى تعليق الصور ؛ لأنه وسيلة إلى الشرك ، وإن كان المصورون في الوقت الحاضر ، أو الناس في الوقت الحاضر ، لا يخفى عليهم حرمة عبادة هذه الصور ؛ لأنهم يعرفون التوحيد ، وفيهم علماء ، وفيهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، لكن في المستقبل إذا انعقد السبب ووجد فإن الشيطان يأتي إلى الجيل في المستقبل ، ويغريهم بالتعلق بهذه الصور ، لاسيما إذا كانت صور معظمين ، كصور الملوك ، والرؤساء ، والصالحين ، والعلماء ، فإن الشيطان يفتنهم بها - والعياذ بالله - الحقيقة إن الصور أوقعت الأمم في الشرك ، أولاً : قوم نوح كما سمعنا ، ثانياً : قوم إبراهيم كانوا يعبدون التماثيل وهي الصور ، ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء : ٥٢] وهي صور ، كذلك اليهود لما صور لهم السامري العجل ، قال : ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [سورة طه : ٨٨] فعبدوا العجل من دون الله ﷻ ، والعجل تمثال على شكل عجل من البقر . فالصور فيها فتن عظيمة ، وإن كان الناس الآن يسمونها فناً من الفنون ويدخلونها في الفنون ويعلمونها على أنها فن ، فهي من عمل الشيطان ، لا يجوز التساهل في شأنها ، ويجب قطع دابرها عن المجتمع المسلم ، فهذا فعل الشيطان مع قوم نوح ، ولما جاءهم نوح ﷺ ينهاهم عن عبادة هذه الصور ، تعصبوا لها : ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ .

(*) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢٢٢٣ (٥٦١٨) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٦٧١ (٢١١٠) .

(**) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٦ / ٢٧٤٧ (٧١١٩) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٦٦٩ (٢١٠٧) ، واللفظ للبخاري .

(***) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٣ / ١٦٧٠ (٢١١٠) .

التي في قوم نوح في العرب بعد ، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل[١] ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع ، أسماء رجال صالحين في قوم نوح » إلى آخره .

قوله : « أن انصبوا » هو بكسر المهملة . قوله « أنصاباً[٢] » جمع نصب وهي الأصنام التي صوروها على صور الصالحين .

قوله : « ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت » الذي في البخاري « ونسخ العلم[٣] » فلعل الذي هنا رواية ، فصارت هذه الأصنام بهذا التصوير على صور الصالحين سلماً إلى عبادتها[٤] ، وكل ما عبد من دون الله من قبر أو مشهد أو صنم أو طاغوت فالأصل في عبادته هو الغلو فيه ، كما لا يخفى على ذوي البصائر[٥] ، كما جرى لأهل مصر وغيرهم ؛ فإن

(١) دومة الجندل شمال الجزيرة ، يسمى الجوف الآن .

(٢) الأنصاب : جمع نصب ، والنصب هو الصورة المنصوبة ، قال تعالى : ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [سورة المائدة : ٣] يعني على الأصنام .

(٣) (نسخ) : يعني زال ؛ لأن النسخ يطلق على معانٍ منها : الإزالة ، تقول : نسخت الشمس الظل إذا أزالته ، ونسخت الرياح آثار الديار إذا أزالتها ، ومنه النسخ المعروف عند الأصوليين وهو : رفع حكم شرعي بإثبات حكم آخر بدليل متأخر .

(٤) هذا يدل على خطر الصور ، والاحتفاظ بها ، ولاسيما تعليقها على الجدران ، فهي وسيلة إلى أن تعبد ولو على المدى البعيد(*) .

(٥) يغلو في حجر حتى يعبده من دون الله ، يغلو في شجرة حتى يعبدها من دون الله ، يغلو في شخص حتى يعبده من دون الله ، فسبب الشرك هو الغلو في الشيء .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - : هل ما يحصل الآن من دعوى لإحياء التراث له علاقة بهذا الباب ؟
فأجاب : نعم ، له علاقة ، إذا دخل في إحياء التراث نشر الصور والتماثيل التي يجدونها تحت الأرض مطمورة ، فيخرجونها ويضعونها في متحف ، فإن هذا الفعل يدخل في هذا الباب أ.هـ.

أعظم آلهتهم أحمد البدوي[١] وهو لا يعرف له أصل ولا فضل[٢] ولا علم ولا عبادة ، ومع هذا[٣] فصار أعظم آلهتهم مع أنه لا يعرف إلا أنه دخل المسجد يوم الجمعة فبال فيه ثم خرج ولم يصل ، ذكره السخاوي عن أبي حيان ، فزين لهم الشيطان عبادته فاعتقدوا أنه يتصرف في الكون ويطفئ الحريق وينجي الغريق ، وصرفوا له الإلهية والربوبية وعلم الغيب ، وكانوا يعتقدون أنه يسمعهم ويستجيب لهم من الديار البعيدة ، وفيهم من يسجد على عتبة حضرته[٤] ، وكان أهل العراق ومن حولهم كأهل عُمان يعتقدون في عبد القادر الجيلاني كما يعتقد أهل مصر في البدوي[٥] ، وعبد القادر من متأخري الحنابلة وله كتاب « الغُنية » ، وغيره ممن قبله وبعده من الحنابلة من هو أفضل

---

(١) غلوا في أحمد البدوي ، وأحمد البدوي هذا ليس له تاريخ معروف ، إلا أنه جاهل ، ادَّعوا أنه وليّ ، وبنوا على قبره ، وصار الناس يأتون إليه بالآلاف ، ويذبحون عنده ، وله مولد معين يأتون إليه وما عرف إلا بأنه دخل المسجد يوم الجمعة وبال فيه ، وخرج ولم يصل فقالوا : هذا وليٌّ ساقطة عنه التكاليف .

(٢) قبر أحمد البدوي في طنطا بمصر .

(٣) ومع ذلك سمي البدوي ، وهو بدوي مجهول .

(٤) البعيد والقريب يسجد على عتبته ، ويطوف به ، القريب منه ، والبعيد يهتف باسمه ، إذا وقع في شدة يهتف باسم أحمد البدوي .

(٥) عبد القادر الجيلاني هذا إمام جليل من الحنابلة ، وليس هو مثل أحمد البدوي ؛ بل هو عالم عابد ، تقي ، وغلوا فيه ، وزعموا أن له كرامات ، فعبدوه من دون الله ، ويُسَمُّون بالقادرية ، وهم من يغلون في عبد القادر الجيلاني . والقادرية : طريقة معروفة من طرق الصوفية ، والقادرية كثيرة ، ينتسبون إلى عبد القادر الجيلاني ، وعبد القادر بريء منهم ، هو عبد صالح ، وعالم من الحنابلة ، وله كتاب في الطب اسمه « الغنية » مطبوع وموجود ، هو من قدماء الحنابلة ، ويوجد من الحنابلة من هو أعلم منه ، وأعلى منه ، ولا عُبد من دون الله ، ولا غُلِي فيه .

منه في العلم والزهد ، لكن فيه زهد وعبادة وفتنوا به أعظم فتنة(١) كما جرى من الرافضة مع أهل البيت ، وسبب ذلك الغلو : دعوى أن له كرامات ، وقد جرت الكرامات لمن هو خير منه وأفضل(٢) كبعض الصحابة والتابعين(٣) ، وهكذا حال أهل الشرك مع من فتنوا به ، وأعظم من هذا عبادة أهل الشام لابن عربي(٤) وهو إمام أهل الوحدة(٥) الذين هم أكفر أهل الأرض(٦) وأكثر من يعتقد فيه هؤلاء ، لا فضل له ولا دين كأناس بمصر وغيرها(٧) ، وجرى في نجد قبل هذه الدعوة مثل هذا(٨) ، وفي الحجاز واليمن وغيرهما من عبادة الطواغيت والأشجار والأحجار والقبور ما عمت به البلوى كعبادتهم للجن

---

(١) عبد القادر فيه زهد وعبادة ﷺ وليس هو من الذين يدعون إلى عبادة غير الله .

(٢) الكرامات لا توجب أن العبد يُعبد من دون الله ، العبادة حق لله ﷻ .

(٣) ولا عُبدوا من دون الله .

(٤) يعبدون حتى الملاحدة ، ابن عربي ملحد ، يقولون : هو أكفر أهل الأرض ؛ لأنه يعتقد بوحدة الوجود ، ويعتقد أنه لا يوجد انقسام بين الخالق والمخلوق ، وأن الكون كله هو الله ، وأن من اعتقد أن هناك خالق ومخلوق فهو مشرك ، والموحد عندهم هو الذي يعتقد بوحدة الوجود ، وأنه لا ينقسم إلى مخلوق وخالق ، هذا هو الموحد عند أهل وحدة الوجود ، وهو إمامهم وهو ابن عربي الحاتمي الطائي مشهور الآن في الشام .

(٥) يعني : وحدة الوجود .

(٦) أكفر أهل الأرض ، لأنهم يعتقدون أن الله هو كل شيء ، كل الكون هو الله ، وأن الكون لا ينقسم إلى خالق ومخلوق ، فمن اعتقد أنه ينقسم إلى خالق ومخلوق فهو مشرك عندهم .

(٧) حتى لو كان له فضل ودين لا يُعتقد به ، لكن الأعجب من ذلك انه ليس فضل ولا دين بل ملحد ، ويعتقدون فيه .

(٨) سرى في بلاد نجد مثل ما في البلاد الأخرى ، كان فيها غيران يذهبون إليها ، وكان فيها نخيل يتعلقون بها ، وكان فيها من أهل وحدة الوجود في العارض والخرج ، فكان فيها من أصناف ما جرى في البلاد الأخرى ، لكن لما مَنَّ الله عليها بظهور الشيخ ﷺ ، وصدع بدعوته ، وجاهد في سبيل الله ، أزال الله عن هذه البلاد ما كان في البلدان الأخرى .

وطلبهم الشفاعة منهم ، والأصل في ذلك الغلو تزيين الشيطان ، وذكر أهل السير أن التلبية من عهد إبراهيم ﷺ : « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك »(١) حتى كان عمرو بن لحي الخزاعي(٢) فبينما هو يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه فقال : لبيك لا شريك لك ، فقال الشيخ : إلا شريكاً هو لك ، فأنكر ذلك عمرو وقال : ما هذا ؟ فقال الشيخ تملكه وما ملك . فإنه لا بأس بهذا ، فقالها عمرو فدانت بها العرب(٣) .

قوله : عن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله »(٤) قوله : عن عمر هو

---

(١) كانت التلبية بالتوحيد ، تلبية إبراهيم ﷺ (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) ، فلما طال الزمان ، في الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ، غيروا دين إبراهيم ، وغيروا التلبية ، قالوا : (لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك) يعنون الأولياء والصالحين ، ليسوا شركاء لله ، لكنهم ملك لله ، (تملكه وما ملك) ، فالنبي ﷺ أعاد التلبية على ملة إبراهيم (لا شريك لك) .

(٢) قبيلة خزاعة قد سيطرت على الحجاز فترة من الزمن ، وكان منهم عمرو بن لحي الخزاعي ، ورث الملك ، وذهب إلى الشام للعلاج ، ورأى أهل الشام يعبدون الأصنام ، فدخل هذا في ذهنه وجلب معه أصناماً من الشام ، ووزعها على الناس ، ومن ذلك الوقت دخل الشرك في العرب ، في ذرية إسماعيل ﷺ ، بسبب عمرو بن لحي .

(٣) لما اقتنع بها عمرو بن لحي وكان مَلِكاً دان به الناس ؛ لأن الناس على دين ملوكهم .

(٤) هذا الحديث عن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ثاني الخلفاء الراشدين ، وأفضل هذه الأمة بعد أبي بكر ، يروي عن الرسول ﷺ أنه قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم »(*) ما معنى الإطراء؟ معناه : الغلو في المدح ، لأن هذا يجر إلى الشرك فابن مريم أطراه النصارى ، ومدحوه ، حتى آل بهم الأمر إلى أن قالوا : إنه ابن الله ،

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١٢٧١ (٣٢٦١) .

وعبدوه من دون الله ، فالنبي ﷺ ينهى هذه الأمة عن الغلو في مدحه ﷺ ، لا بأس أن يمدح ﷺ بصفاته الكريمة ، قد مدحه حسان بن ثابت ، ومدحه الشعراء في وصفه ﷺ ، لكن من دون غلو ، إنما الذي يقول(*) :

يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَالِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمَمِ
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذاً بِيَدِي ... فَضْلاً وإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ القَدَمِ

البوصيري في « البردة » غلا في مدحه ﷺ ، حتى زعم أنه لا يخلص من العذاب إلا الرسول ، وأنه إن لم يخلصه فإنه هالك ، ونسي الله ﷻ ، بل غلا وقال :
(فإن من جودك الدنيا وضرتها) يعني الدنيا والآخرة من جود النبي ﷺ ، فليست لله ﷻ ، (ومن علومك علم اللوح والقلم) ادعى أنه يعلم الغيب ، ويعلم ما في اللوح المحفوظ ، الذي كتب فيه القلم ، الذي أمره الله ﷻ ، هذا من الغلو في حقه ﷺ ، هذا هو الذي جرهم إلى الشرك ، هذا الغلو إذا اعتقدوا أن من جودة الدنيا والآخرة ، وأنه هو الذي ينقذ من النار يوم القيامة ، وينقذ من عذاب الله ، فهذا هو الغلو الذي يؤول إلى الشرك ، وينصرف الناس إلى دعاء الرسول ﷺ ، بسبب هذا المدح الزائد عن حقه ﷺ ، لاشك أن الرسول له حق ، لكن حق الله أعلى ، يقول ابن القيم(**) رحمه الله :

لله حَقٌّ لا يَكُون لغيرِهِ ... ولِعَبدِهِ حَقٌّ هُمَا حَقَّانِ
لَا تَجْعَلُوا الحَقَّينِ حَقًّا وَاحِدا ... مِن غَيرِ تَمْيِيزٍ وَلَا فُرْقَانِ

فالرسول له حق ، لكنه لا يصل إلى حق الله ﷻ ، حق الله هو العبودية ، كما قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه : « أتدري ما حق الله على العباد » .. إلى أن قال : « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً »(***) ، هذا حق الله ، لا يشاركه فيه أحد ، لا نبي ولا أحد ، والرسول له حق وهو : المحبة ، والطاعة ، والاحترام ، والتعزير ، يعني الاحترام والتوقير ، والصلاة والسلام عليه ، هذا من حقوقه ﷺ ، حق الرسالة ، والاتباع ، والمحبة ، والإقتداء به ﷺ أما العبادة فهي حق لله ، الدعاء حق لله ، الاستغاثة حق لله ، العبادة بجميع أنواعها حق لله ،

(*) انظر : مجموع مولد شرف الأنام (قصيدة بردة المديح) ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
(**) انظر : الكافية الشافية ص ٢١٢ (٣٩٨١ ، ٣٩٨٢) .
(***) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢٣١٢ (٥٩١٢) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٥٨ (٣٠) .

ابن الخطاب بن نفيل - بنون وفاء مصغر - العدوي أمير المؤمنين ، وأفضل الصحابة بعد الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ولي الخلافة عشر سنين ونصفاً فامتلأت الدنيا عدلاً ، وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر واستشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .

قوله : « لا تطروني » الإطراء هو الغلو ، « كما أطرت النصارى ابن مريم » ، كما قال تعالى : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [سورة النساء : ١٧١] قوله : « إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » أمرهم ﷺ أن لا يتجاوزوا هذا القول ، وقد أمر الله عباده بالصلاة والسلام عليه ؛ لأن أشرف مقامات الأنبياء العبودية الخاصة والرسالة .

قوله : وقال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو »(1) هذا الحديث ذكره المصنف رحمه الله بدون ذكر راويه ، وقد رواه

ليس للرسول منها شيء ، فمن طلب من الرسول شيئاً مما لا يقدر عليه إلا الله ، فإنه يكون قد غلا فيه ، وأطراه وكذلك من مدحه بما ليس فيه مما هو من حق الله ؛ فقد غلا فيه وأطراه ﷺ ثم قال : « إنما أنا عبد » عبد الله ﷺ ، العبد ليس له من الربوبية والألوهية شيء ، « فقولوا : عبد الله ورسوله » عبد الله : هذا رد على الذين يغلون في الرسول ﷺ ، ورسوله : هذا رد على الذين يجحدون رسالته ﷺ وينكرونها ، ففيه نهي عن الإفراط والتفريط في حقه ﷺ .

(١) هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه ، قد رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما(*) ،

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٥ / ٢٩٨ (٣٢٤٨) وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم ، وأخرجه ابن ماجه في « سننه » ٢ / ١٠٠٨ (٣٠٢٩) وذكر قصة ، وصححه الألباني ، ولم أجده عند الترمذي .

=

الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ، وهذا لفظ رواية أحمد عن ابن عباس ، قال شيخ الإسلام : (هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال) .

قوله : ولمسلم عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : « هلك المتنطعون » قالها ثلاثاً[1] . قال الخطابي : (المتنطع المتعمق في الشيء المتكلف

عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في قصة لقط الجمار ، لما انصرف ﷺ من مزدلفة إلى منى ، أمر الفضل بن العباس أن يلقط له حصى الجمار ، لرمي جمرة العقبة ، فلقط له سبع حصيات مثل حصى الخذف ، وهو الذي يخذف على الأصابع ، وقد وصفوه بأنه فوق الحمص ودون البندق ، فأخذ ﷺ الحصى ، وجعل ينفضها بكفه ﷺ ، ويقول : « أمثال هؤلاء ارموا وإياكم والغلو » ، هذا تحذير ، « إياكم » : بمعنى احذروا ، « والغلو » منصوب على التحذير ثم علل ﷺ هذا النهي بقوله : « فإنما أهلك من كان قبلكم » ؛ يعني من الأمم ، أهلكهم الغلو ؛ وهو الزيادة في العبادات ، وهذا في لقط الجمار وفي غيرها ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ثم أخبر أن ما أهلك الأمم قبلنا إلا الغلو في العبادات ، كما ذكر عن بني إسرائيل ، وكما ذكر عن قوم نوح لما غلوا في الصالحين .

(١) والإمام مسلم رَحِمَهُٱللَّهُ في « صحيحه » ، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ ، قال : « هلك المتنطعون »[*] ، المتنطعون : المراد بهم الذين يتنطعون في الكلام ويظهرون الفصاحة والبلاغة ، ويفخمون النطق ، ويعملون بالغريب في اللغة ، والألفاظ التي لا يعرفها الناس ، من أجل أن يظهر أنهم علماء ، وأنهم يعرفون اللغة العربية والفصاحة ، والمفروض الذي يخطب أو يتحدث إلى الناس ، أنه يحدثهم بما يعرفون ، ويأتيهم بالكلام الذي يفهمونه ، أما أنه يأتي بألفاظ لا يعرفونها ، ولو من اللغة العربية ، لا ينبغي أن يأتي بها ؛ بل يتكلم بحسب المقام ، ويأتي بلغة يفهمها المخاطب وقوله : « هلك المتنطعون » ، هذا دعاء عليهم بالهلاك ، هذا فيه دليل على أن التنطع والغلو في الكلام منهي عنه ، فكيف في العبادة ؟ الغلو في العبادة ، الغلو في الألقاب ، فأخبر أن الذين يعملون هذا أنهم هالكون ، وهو تنطع في الكلام فقط ، فكيف بالذي يتنطع في العبادة ، والذي يتنطع في الأشخاص ويغلو فيهم ؟! هذا أشد .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٠٥٥ (٢٦٧٠) .

في البحث عنه على مذهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم ، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم)[١] . وقال أبو السعادات : (هم المتعمقون الغالون في الكلام المتكلمون بأقصى حلوقهم)[٢] ، وقال النووي : (فيه كراهة التقعر في الكلام بالتشدق ، وتكلف الفصاحة واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة القوم (العوام) ونحوهم) قوله : « قالها ثلاثاً » : أي : قال هذه الكلمة ثلاث مرات مبالغة في التعليم والإبلاغ ، فقد بلَّغ البلاغ المبين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ووجه مناسبة هذا الحديث للترجمة أن الغلو من التنطع والزيادة ؛ لما فيه من الخروج إلى ما يوصل إلى الشرك بالله .

---

(١) التنطع قد يكون في العبادة ، وقد يكون في السؤال ، يسأل أهل العلم عن أشياء غريبة من غير حاجة الناس لها ، هذا من التنطع في طلب العلم وقد يكون التنطع أيضاً في مخاطبة الناس ، بأن يخاطبهم بلغة غريبة عليهم ، هذا من التنطع في الخطاب . والتنطع يكون في اللفظ أيضاً ؛ يخرج الألفاظ بطريقة فيها تنطع ، وفيها زيادة في اللفظ ، وتفخيم للفظ والنطق .

(٢) هذا تنطع في النطق .

٢٠ - بَاب ما جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ الله عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ ؛ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ ؟!

في « الصحيح » عن عائشة ، أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة ، وما فيها من الصور ، فقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح ؛ بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » .

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور ، وفتنة التماثيل .

ولهما : عنها ، قالت : لما نُزِل برسول الله ﷺ ، طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها ؛ كشفها ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ؛ يُحَذِّر ما صنعوا ، ولولا ذلك ، أُبْرِزَ قَبْرُهُ ؛ غير أنه خُشي أن يُتَّخذ مسجداً . أخرجاه .

ولمسلم عن جندب بن عبد الله ، قال : سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً ؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ؛ فإني أنهاكم عن ذلك » .

فقد نهى عنه في آخر حياته ، ثم إنه لعن - وهو في السياق - من فعله .

والصلاة عندها من ذلك ، وإن لم يُبنَ مسجد ، وهو معنى قولها : « خُشي أن يُتَّخذ مسجداً » ؛ فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً ، وكل موضع قُصدت الصلاة فيه ؛ فقد اتُّخذ مسجداً ، بل كل موضع يُصلَّى فيه ؛ يسمى مسجداً ؛ كما قال ﷺ : « جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » .

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » ورواه أبو حاتم في « صحيحه » .

٢٠- بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ ؛ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ ؟!

قوله : (باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده ؟!)(١) فكل ما كان وسيلة إلى الشرك فهو حرام(٢) لكونه يوقع في

---

(١) لما ذكر الشيخ ﷫ في الباب السابق من النهي عن الغلو في الصاحين ، أنه سبب هلاك الأمم السابقة كقوم نوح وغيرهم وما حذر النبي ﷺ من الغلو في الصالحين ، ذكر في هذا الباب أن من الغلو في الصالحين : الدعاء والصلاة والذبح عند قبورهم ، وإن كان الذي يفعل ذلك لا يقصد الأموات ، وإنما يقصد بذلك وجه الله سبحانه ، لكن فِعْله في هذا الموضع منهي عنه ؛ لأنه وسيلة إلى الشرك ، وهو من باب سد الذرائع ؛ لأن الدعاء أو الصلاة أو الذبح عند قبور الأولياء والصالحين يؤول إلى أن تصرف العبادة إلى هؤلاء الصالحين ، فكما سبق من كلام ابن القيم ﷫ أن الشيطان عمل مع قوم نوح مراحل :
أولاً : أغراهم بالعكوف عند قبور الصالحين ، ثانياً : أغراهم بتصوير صورهم ونصبها على مجالسهم ، ثالثاً : أغراهم بعد ذلك بعبادتهم من دون الله ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [سورة نوح : ٢٣] والعكوف عند قبور الصالحين يعني الجلوس عندها وإطالة الجلوس والتردد عليها ، وهذا منهي عنه ، لأنه يؤول إلى الشرك ، ولهذا قال ﷺ : « لا تجعلوا قبري عيداً » يعني عيداً مكانياً ، يجتمعون عند القبر ، ينهى عنه ، والعكوف عند القبور ؛ لأن هذا من وسائل الشرك ، كذلك ينهى من باب أولى من عبادة الله عند القبور ؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك فقوله ﷫ : (باب ما جاء) : يعني من النهي في الكتاب والسنة (من التغليظ) : التغليظ المراد به : شدة النهي (فيمن عبد الله) : قال (عبد الله) ولم يقل : عبد القبر ، وعبادة القبر معروف أنها شرك ، لكن من عبد الله مخلصاً له العبادة لكن عند القبر ، هذا أمر لا يجوز ؛ لأنه وسيلة ، فكيف إذا عبد الرجل الصالح والميت ؟ الأمر أشد ، وهذا يأتي في الباب الذي بعده .

(٢) كل ما كان وسيلة إلى الحرام فهو حرام ، هذه قاعدة لأن الإسلام جاء بسد الذرائع ، وأشد ذلك ما كان وسيلة إلى الشرك ، فهو اشد الوسائل المحرمة ، وهذا ليس خاصاً بالشرك ، فكل ما كان وسيلة إلى الحرام فهو حرام ، لكن أشد ذلك الشرك .

الشرك بالله وعبادة ما سواه كما في الأحاديث ، قوله : في الصحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصور .. الحديث[1] .. قوله « في الصحيح » أي الصحيحين . قوله « أن أم سلمة » هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية ، تزوجها النبي ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربعة وقيل ثلاثة ، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة ، توفيت سنة اثنين وستين . قوله : « ذكرت لرسول الله ﷺ وفي الصحيحين أن أم حبيبة وأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ[2] والكنيسة - بفتح الكاف وكسر النون - ، معبد النصارى ، وقوله : رأتها بأرض الحبشة وما فيها من

---

(١) « في الصحيح » يعني : الصحيحين ، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن أم سلمة وكانت قد هاجرت إلى الحبشة الهجرة الأولى ؛ لأن المشركين ضايقوا المسلمين في مكة مضايقة شديدة ومنعوهم من عبادة الله ﷻ ، وهكذا دائماً أهل الشرك وأهل الكفر يضايقون أهل التوحيد وأهل العقيدة الصحيحة دائماً وأبداً ، وقد ذكرت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما رأته في الكنيسة هناك من الصور ، التي هي سبب الشرك في كل أمة ، فحصل الشرك في قوم نوح بسبب تصوير الرجال الصالحين : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، وحصل الشرك في قوم موسى ﷺ بسبب تصويرهم صورة العجل ، وحصل الشرك في قوم إبراهيم بسبب صور التماثيل ، فالصور فيها فتنة عظيمة لذلك شدد الشارع النكير على المصورين والوعيد عليهم ؛ لأن التصوير جريمة خطيرة وإن كان المفتونين الآن يسمونه بالفن أو الفنون فهو خطير جدا ، والذي يشتغل فيه هذا مفتون - نسأل الله العافية - متوعد بأشد الوعيد .

(٢) أم حبيبة : هي رملة بنت أبي سفيان بن حرب ، تزوجها رسول الله ﷺ وصارت من أمهات المؤمنين ، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش ، لكنه - والعياذ بالله - تنصَّر .

الصور ؛ لأن أم سلمة هاجرت مع زوجها أبي سلمة إلى الحبشة ثم رجعا إلى مكة فهاجرا منها إلى المدينة(١) والحبشة دينهم النصرانية وفيهم من أسلم(٢) قوله : فقال : « أولئك » بكسر الكاف : خطاب للمرأة(٣) ، قوله : « إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح » هذا والله أعلم شك من الراوي(٤) قوله : أولئك شرار الخلق عند الله ولم تذكرا غير بناء المساجد والتصوير ، لكونه ذريعة إلى عبادة من بنوا عليه المسجد وصوروا صورته ، فبذلك صاروا شرار الخلق(٥) فانظر إلى ما وقع في هذه الأمة من ذرائع

---

(١) أم سلمة وأبو سلمة من الذين هاجروا الهجرتين ، الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة ، والذين هاجروا الهجرتين هم من أفضل الصحابة .

(٢) الحبشة : شعب من شعوب أفريقيا ، دينهم النصرانية ، وملكهم يقال له النجاشي .

(٣) « أولئكِ » خطاب لأم سلمة « شرار الخلق عند الله » الذين يبنون المساجد عند القبور هم شرار الخلق ، جمع شر : أي أشد الناس شراً فدل على تغليظ هذا الفعل ، وهذا يطابق قول المصنف ﷺ : « باب ما جاء من التغليظ » : هذا تغليظ ، قول النبي ﷺ : « شرار الخلق » هذا أشد التغليظ ويأتي أيضاً : « إن من شر الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يبنون على القبور » هذا من أشد التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، فإن النصارى إنما قصدهم من ذلك العبادة عند هذا القبر فلذلك بنوا عليه .

(٤) والمعنى واحد ، لكن كان الصحابة يتحرجون من الألفاظ التي ينسبونها للرسول ﷺ فلا ينسبون إليه إلا ما تأكدوا أنه قاله ، وما شكوا فيه فإنهم يأتون بالاحتمال ، هذا من باب الاحتياط في الرواية ، وكثير من الناس اليوم لا يبالون بالتحديث عن الرسول ﷺ ولو كان الحديث موضوعاً ، ولو كان شديد الضعف ، لا يتحرزون من أن ينسب إلى الرسول ﷺ .

(٥) فأم سلمة وأم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لم تذكرا للرسول ﷺ إلا البناء والتصوير(*) ولم تذكرا أنهم كانوا =

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – : هل يدل دخول أم سلمة وأم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى الكنيسة على جواز دخول الكنائس والمعابد للفرجة والسياحة ؟ فأجاب : لا يجوز دخولها للفرجة والسياحة ، حتى لا يصيبك مثل ما أصابهم ، أما أن تدخل من أجل معرفة ما هم عليه والرد عليهم فلا بأس بذلك ، تدخل وأنت منكر لهذا الشيء ، ولكن لتعلم ما هم عليه حتى تعرف نعمة الله عليه ، ولأجل أن ترد عليهم ، وللاعتبار فلا بأس أ.هـ .

الشرك[١] والوقوع فيه مما هو أعظم من هذا ، ومع ذلك يعتقدونه ديناً وهو الشرك الذي حرمه الله وأرسل الرسل وأنزل الكتب بالنهي عنه[٢] قوله : « فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور وفتنة التماثيل[٣] هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٤] لم يذكره المصنف رحمه الله لأن ذلك معلوم عند من يقرأ

يصلون عند هذه القبور ، لكن لما كان البناء والتصوير وسيلة إلى الصلاة اكتفى بذلك .

(١) هذا تعليق من الشارح رحمه الله يقول : انظر إلى ما وقع في هذه الأمة الإسلامية الآن من هذا الأمر العظيم الذي حذَّر منه الرسول ﷺ وهو البناء على القبور ؛ بل عند كثير منهم أن المسجد الذي ليس فيه قبر لا قيمة له ، ولا يتجهون إليه ، وإنما يتجهون إلى المساجد التي فيها القبور ، هذا من شدة الفتنة - والعياذ بالله - .

(٢) يعتقدون أن هذا هو الدين ، وأن من نهى عن تعظيم القبور والبناء عليها والصلاة عندها بل الذبح عندها ودعائها من دون الله وامتنع منه فإنه خارج من الإسلام ، انعكس الأمر فسموا الشرك ديناً وسموا التوحيد شركاً وكفراً وخروجاً من الدين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

(٣) هذا تعليق من الشيخ على هذا الحديث ، هؤلاء النصارى جمعوا بين فتنتين : فتنة القبور وتعظيم القبور والموتى وهذه فتنة خطيرة جداً ، والفتنة الثانية التصاوير ، والتصاوير لا يُتساهل فيها ، تُجعل في البيوت والمتاحف ويُحتفظ بها ، فإن هذا أمر محرم شديد التحريم ، لأنه وسيلة إلى الشرك ولو على المدى البعيد ، يأتي من يعبد هذه الصور ويعظمها ويقول : ما احتُفظ بها إلا لأن لها شأناً ، فيعبدونها من دون الله ﷻ ، فإذا وجدت الوسيلة وجدت الغاية ولو على المدى البعيد ، ولذلك الواجب إتلاف الصور وتكسير هذه الأصنام وهذه التماثيل وإعدامها وإتلافها ، من أجل ألا يفتتن بها الناس ولو على المدى البعيد ، فكيف بمن يجمعها ويهتم بها ويجعل لها دوراً ، هذا مشكل جداً ، وقد يكون له نتائج سيئة في المستقبل لا يعلمها إلا الله .

(٤) هذه العبارة نقلها الشيخ من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية(*) في « التوسل والوسيلة » .

(*) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ٢ / ١٩١ . ولم أقف عليه في « التوسل والوسيلة » والله أعلم .

هذا الكتاب[(١)] قوله : « ولهما » عنها قالت : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح بقميص له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك لأبرز قبره ، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً » أخرجاه[(٢)] ، الخميصة : كساء له

---

(١) لم يذكره : يعني لم يذكر أن هذا من كلام شيخ الإسلام ؛ لأن هذا معلوم أنه من كلام شيخ الإسلام .

(٢) لهما : أي البخاري ومسلم ، وهذا يغني عن قوله بعد نهاية الحديث : « أخرجاه » عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : « لما نزل برسول الله » لأن الرسول ﷺ توفي في بيت عائشة كان رأسه ﷺ في حجرها وهو في الموت ، قالت : « لما نزل برسول الله ﷺ » : يعني نزل به الموت ، « جعل يطرح » : جعل : هذه من أفعال الشروع عند النحويين ، « جعل » : يعني أخذ يطرح ، أي يضع « خميصة » : كساء معروف ، « خميصة له على وجهه » يغطي وجهه بها ﷺ ، وهو يحتضر ، « فإذا اغتم بها » : يعني اغتم نفسه بسبب الغطاء « كشفها » ليتنفس ﷺ ، « فقال وهو كذلك » : يعني في هذه الحالة ، في حالة السياق ، لم ينس ﷺ تبليغ الأمة ، ولم ينس أن ينهى الأمة عن الشرك وهو في هذه الحال ، وهذا من كمال نصحه ﷺ وحرصه على التبليغ ، ولم يشغله ما هو فيه من كرب السياق ومن سكرات الموت عن أداء رسالته ﷺ لاسيما وأن أجله قد حضر ، فيخشى أن يعملوا به كما عملت النصارى ، أو كما عمل أهل الكتاب في أنبيائهم ، يُحذِّرهم ، « لعنة الله على اليهود والنصارى » هذا دعاء على اليهود والنصارى باللعن وهذا من التغليظ ، وهو يطابق الترجمة وهي قول الشيخ ﷺ (باب ما جاء من التغليظ) ، فاللعن هذا تغليظ – والعياذ بالله – « لعنة الله على اليهود والنصارى » السبب : « اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، فلعنهم ﷺ وهم أهل كتاب لما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، استحقوا اللعنة ، وهذا فيه رد على الذين يقولون : لا تعلنوا اليهود والنصارى ، بأن الرسول ﷺ لعنهم ، ولعنهم الله في القرآن : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [سورة المائدة : ٧٨] ، ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ [سورة المائدة : ٦٤] ؛ بل هناك من يقولون : إنهم إخواننا – نسأل الله العافية – واليهود : أتباع موسى ﷺ في الأصل ، وإن كانوا في الأخير انحرفوا عن ديانة موسى ﷺ ،

=

والنصارى : أتباع المسيح في الأصل وإن كانوا بعد ذلك حرفوا وخالفوا دين المسيح ﷺ وسبب اللعنة : « اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » أي : مصليات يصلون عندها ، وهذا فيه شاهد لقول الشيخ : (باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح) عبده بالصلاة وغيرها أو الدعاء والصلاة أو الذبح أو النذر أو غير ذلك ، فلا يعبد الله عند القبور أبداً ؛ لأن هذا وسيلة من وسائل الشرك ، فقوله : « اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » أي : مصليات ، سواء بنوا عليها أو لم يبنوا عليها ، فالصلاة عند القبر معناه اتخاذه مسجداً . أي مصلى ، وكل مكان صلي فيه يسمى مسجداً ، ومنه قوله ﷺ : « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً »(*) أي مصلى صالحاً للصلاة ، فإذا بني عليه فالأمر أشد ، قالت : « يحذر ما صنعوا » أي : أنه عندما قال هذا في هذه الحالة أنه ﷺ يُحذِّر أمته ، ما صنع اليهود والنصارى أن يفعلوا مع قبره ﷺ كما فعل اليهود والنصارى مع قبور أنبيائهم ، قالت : « ولولا ذلك » : أي ولولا خشية أن يفعل عند قبر الرسول ﷺ كما فعل عند قبور السابقين « لأبرز قبره » : يعني لدفن في البقيع مع أصحابه ﷺ ، لكنه دفن في بيته ، خشية أن يتخذ مسجداً ، هذه الحكمة ، فلو قال أحد : لماذا دفن الرسول في بيته ؟ نقول ما قالته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أنه خشي أن يتخذ مسجداً ، أي مصلى يصلى عنده ، لاسيما العوام والجهال فدفن في بيته صيانة له ﷺ حيث لا يقع النظر على قبره أبداً ؛ لأنه محاط بالجدران وسدت جميع النوافذ ، فلا أحد يرى قبره ﷺ ، وإلا لو برز قبره ورآه الناس لرأيت العجب العجاب ، لكن من رحمة الله أن الله صان قبر نبيه ﷺ فلم تره عينٌ بعد دفنه ﷺ إلا من دخل داخل الحجرة ، وهذا أمر ممنوع ، لا أحد يدخل ، وهذا استجابة لدعاء الرسول ﷺ حيث قال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » قال ابن القيم(**) ﷺ :

فأجـابَ ربُّ العَالمين دُعـاءهُ ... وَأحَـاطَهُ بثَلاثَةِ الجُدْرَانِ

حَتى اِغْتَدَتْ أرْجَاؤه بِدُعَائِهِ ... في عِزَّة وحِـمَايةٍ وصِـيَانِ

هذا استجابة لدعوته ﷺ .

(*) متفق عليه : أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ١٦٨ (٤٢٧) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٣٧٠ (٥٢١) .

(**) انظر : الكافية الشافية ص ٢١٥ (٤٠٤٢ ، ٤٠٤٣) .

أعلام(١) والشاهد للترجمة قوله ﷺ : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » فلعنهم ﷺ على تحري الصلاة عندها(٢) وإن كان المصلي إنما يصلي لله ، فمن كان يصلي عند القبور ويتخذها مساجد فهو ملعون(٣) لأنه ذريعة إلى عبادتها(٤) فكيف إذا عبد أهل القبور والغائبين بأنواع العبادة وسألهم مالا قدرة لهم عليه ؟(٥) وهذا هو الغاية التي يكون اتخاذ القبور مساجد ذريعة إليها(٦) واللعنة ليست مختصة باليهود والنصارى ، بل

(١) أعلام يعني خطوط .

(٢) واللعن يقتضي التغليظ ، أي : تغليظ النهي .

(٣) وإن تقرب إلى الله بزعمه ويرجو الثواب فهو عند الله ملعون مطرود من رحمة الله ﷻ ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٤) هذا هو السبب ؛ لأنه ذريعة إلى عبادتها سواء في الحاضر أو في المستقبل .

(٥) كيف إذا فعل ما وقع فيه الناس اليوم من عبادة القبور ، وليس العبادة عند القبور ، وإن كان العبادة عند القبور محرمة شديدة التحريم ، لكن إذا عبدها صار مشركاً الشرك الأكبر ، والأول يكون فاعلاً لوسيلة من وسائل الشرك ، والآن الواقع ليس العبادة عند القبور ، وإنما عبادة القبور ، يستغيثون بالبدوي ، وبالحسين ، وبعلي ، وبعبد القادر الجيلاني ، ويدعونهم من دون الله في السراءوالضراء عند قبورهم أو في البر أو في البحر ، وإذا مسهم شيء أو تضايقوا يقولون : يا رسول الله ، يا حسين ، يا عبد القادر ، يهتفون ، يسمونه الهتّاف فيقولون : (هتفت باسم الولي فأجابني وأغاثني) يعني ما توقعه الرسول ﷺ وقع ، أنه نهى عن هذا ؛ لأنه وسيلة من وسائل الشرك فوقعت الغاية التي تخوفها الرسول ﷺ . وواقع الناس اليوم هو الذي تخوفه الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ في الأول يعبدون الله عندها ، ثم في الأخير يعبدونها من دون الله ﷻ .

(٦) هذه هي الغاية التي نهى الرسول ﷺ من أجلها ، لأنها تؤول إلى هذا الشيء ، وقد وقع ما تخوفه ﷺ في الأمة الإسلامية ، منذ أن بنيت المساجد على القبور في عهد الفاطميين ، أول ما دخل البناء على القبور في عهد الفاطميين من الشيعة ، في مصر وفي غيرها ثم انتشر في كثير من البلاد الإسلامية إلا هذه البلاد لما مَنَّ الله عليها بدعوة الشيخ ، دعوة التوحيد ، =

تعمُّ من فعل فعلهم وما هو أعظم منه[١] وهذا هو الذي أراده ﷺ من لعنة اليهود والنصارى على هذا الفعل تحذيراً لأمته أن يفعلوا ما فعلته اليهود والنصارى فيقع بهم من اللعنة ما وقع بهم قوله : « ولولا ذلك » أي : ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي ﷺ مسجداً[٢] لأبرز قبره مع قبور أصحابه بالبقيع .

قوله : « غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً » رُوي بفتح الخاء وضمها[٣] فعلى الفتح يكون هو الذي خشي ذلك ﷺ وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قُبِض فيه ، وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة فلم يبرزوا قبره خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلواً وتعظيماً[٤] لما أبدى وأعاد من النهي والتحذير ولعن فاعله . قال

وقام بها رجال من أهل العلم وأهل السلطة أزالوا القبور التي كانت فيها ولله الحمد ، بالدعوة إلى التوحيد وتنفيذ كلام الرسول ﷺ .

(١) لا يقال أن هذا خاص باليهود والنصارى ، أما نحن مسلمون لا تشملنا هذه اللعنة كما يقول بعض المغرورين ، نقول : لا ، العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، إذا كان الرسول لعنهم على هذا السبب وهو البناء على القبور فكل من فعل فعلهم فهو ملعون .

(٢) هذا من كلام عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا « لولا ذلك » أي : لولا مخافة أن يُتخذ قبر الرسول مسجداً كما اتخذ قبور الأنبياء من قبل لأبرز قبره ﷺ .

(٣) إذا بُني للمعلوم (خَشي) المراد به الرسول ﷺ ، فأمرهم أن يدفنوه في حجرته ، فيكون دفنهم في حجرته أمرٌ من الرسول ﷺ . والرواية الثانية : (خُشي) أي : خَشِيَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يتخذ مسجداً فدفنوه في بيته .

(٤) فدفن الرسول ﷺ في بيته إما أن يكون بنص من الرسول ﷺ أو اجتهاد من الصحابة ، وهو اجتهاد موفق على ضوء النصوص ؛ لأنه لما نهى عن البناء على القبور والصلاة عند القبور فالصحابة عملاً بهذه الأحاديث دفنوه في بيته ، حفاظاً عليه ، ولكن الأظهر والله أعلم أنه ﷺ هو الذي نص على دفنه ، فقد روي حديث « ما ينبغي لنبي إلا أن يدفن إلا =

القرطبي[1] : (وهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا حيطان تربته ، وسدوا المداخل إليها وجعلوها محدقة بقبره ﷺ[2] ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة ، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره) أ.هـ[3]

قلت : فبذلك صان الله قبره وقبل دعوته[4] بقوله : « اللهم لا تجعل قبري

حيث قبض »[*] ، أو ما هذا معناه ، والغلو في قبره ﷺ قد يقع من بعض الأمة ، أما الصحابة فلا يتوقع منهم ، لكن يأتي من جهال الأمة من يفعل هذا .

(١) هذا القرطبي شارح صحيح مسلم ، وليس القرطبي المفسر .

(٢) ولهذا لا يرى قبره أحد ، هذا من تمام النعمة على هذه الأمة أن الله صان قبر نبينا ﷺ أن يفعل عنده مثل ما يفعل عند سائر القبور ، أو قبور الأنبياء ، لكن ذكر أهل العلم أنه ما عرف قبر نبي على وجه الأرض . كل قبور الأنبياء مجهولة وهذا من رحمة الله لم يعرف قبر إلا قبر النبي ﷺ كان معروفاً سد عليه ؛ بالبناء والإحكام حتى لا يُعبد ، وأما بقية قبور الأنبياء فلا يعلم أين هي ، ولا يُجزم أين هي ، هذا من رحمة الله بالمسلمين .

(٣) الجدران التي على قبر الرسول ﷺ على شكل مثلث ، من الناحية الشمالية من أجل أن المصلين لا يستقبلون القبر ، وإنما يستقبلون رأس المثلث ، هذا من حرصهم على صيانة قبر الرسول ﷺ .

(٤) ولهذا قال ابن القيم[**] :

فَأَجَابَ ربُّ العَالَـمِينَ دُعَاءَهُ   وَأَحَاطَهُ بِثَلاثَةِ الجُدْرَانِ

يعني هذا المثلث ، وهذا من توفيق الله للأمة أنها عملت هذا العمل .

(*) أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » ١ / ٢٠٦ (٢٧) بلفظ : « لن يقبر نبي إلا حيث يموت » وقال الأرنؤوط : حديث قوي بطرقه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع الصغير وزيادته » ٥ / ٤٦ (٥٠٧٧) .

(**) الكافية الشافية ص ٢١٥ (٤٠٤٢) .

وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . قوله : ولمسلم عن (جرير) بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ؛ فإن الله قد اتخذني خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك »(1) قوله : « عن (جرير) بن عبد الله »

---

(١) هذا الحديث فيه عن جرير بن عبدالله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أنه سمع النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس ، قيل : خمس ليال ، وقيل : خمس سنين ، فيحمل أنها خمس ليال وهذا هو الأقرب والله أعلم ، ويحتمل أنها خمس سنين ، يقول : « إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليلاً » ، السبب لأن الله اتخذه خليلاً ، والخلة هي أعلى درجات المحبة ولا تقبل المشاركة فلما اتخذه الله خليلاً اكتفى بخلة الله ﷻ ، فلم يتخذ من أصحابه خليلاً ، وإن كان يحب أصحابه حباً شديداً ﷺ ، لكن الخلة هذه خاصة بربه ﷻ لأنها لا تقبل الاشتراك ، « كما اتخذ إبراهيم خليلاً » ، قال الله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [سورة النساء : ١٢٥] هذا ثابت في القرآن ، وثبتت خلة النبي ﷺ بالسنة الصحيحة ولذلك يقال : الخليلان : إبراهيم ومحمد ﷺ أما بقية الأنبياء والمرسلين والمؤمنين والصالحين فإن الله يحبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٢] ويحب المحسنين ويحب المتوكلين ، لكن لم يتخذ من خلقه خليلاً غير الخليلين إبراهيم ومحمد – صلى الله عليهما وسلم – وهذا هو السبب أنه ﷺ لم يتخذ من أصحابه خليلاً ، قال : « ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » : هذا تنبيه على فضل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنه أفضل الصحابة ، بل أفضل الأمة على الإطلاق ، وقد بلغ من محبة النبي ﷺ له أنه لو جاز له أن يتخذ من أصحابه خليلاً لاتخذ أبا بكر هذا دليل على فضيلة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي حازها بين الصحابة ، وفيه إشارة إلى خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم قال ﷺ – وهذا محل الشاهد – : « ألا وإن من كان قبلكم » يعني : من اليهود والنصارى ، « كانوا يتخذون القبور مساجد » ، أي : مصليات سواء بُني عليها أو لم يُبنَ عليها ، يصلون عندها لله رجاء الإجابة وهو ليس كذلك ؛ لأن هذا =

أي : ابن سفيان البجلي وينسب إلى جده ، صحابي مشهور مات بعد الستين ، قال شيخ الإسلام ﷺ : (أما بناء المساجد على القبور فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه للأحاديث الصحيحة ، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه ، قال : ولا ريب في القطع بتحريمه) ثم ذكر الأحاديث في ذلك - إلى أن قال : (وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين والملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو غيره ، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين)[١] قوله : فقد نهى عنه في آخر حياته[٢] ، ثم إنه

وسيلة من وسائل الشرك ، ولذلك نهى عنه الرسول ﷺ ، فلا يجوز الدعاء عند قبر الرسول ﷺ ولا عند قبر غيره ، ولا تجوز الصلاة عند القبور ولا الذبح عند القبور وإن كان يفعل ذلك يقصد وجه الله إلا أن المكان ليس مكان عبادة ، لأن العبادة عندها وسيلة إلى الشرك ، والإسلام جاء لسد الذرائع ، قال : « ألا فلا تتخذوا القبور مساجد »: هذا نهي منه ﷺ عن الصلاة عند القبور ، ثم أكد ذلك مرة ثانية فقال : « إني أنهاكم عن ذلك » قوله : « فلا تتخذوا القبور مساجد » هذا نهي ، فلماذا قال : « فإني أنهاكم عن ذلك » ؟ من باب التأكيد ، فهذا هو التغليظ الذي أشار إليه المصنف ﷺ في الترجمة (باب ما جاء من التغليظ) أنه نهى عنه مرتين « ألا فلا تتخذوا القبور » ، وجاء بأداة « ألا » للتنبيه ، تدل على أهمية ما بعدها ، فنهى عنه مرتين في موضع واحد ، وهذا من تغليظ النهي عن هذا العمل وفيه شاهد للترجمة .

(١) هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية(*) في « التوسل والوسيلة » .

(٢) علق شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ على هذين الحديثين بهذا الكلام الذي نقله الشيخ محمد ﷺ من كتاب « التوسل والوسيلة » وفيه يقول : إنه ﷺ نهى عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته ، أي : قبل موته بخمس ، هذا في آخر حياته ، ثم إنه نهى عنه في السياق ، وهو ما جاء في حديث عائشة أنه كان في سياق الموت ويطرح الخميصة ويكشفها فقال وهو

(*) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٢ / ١٨٤ ، ولم أقف عليه في « التوسل والوسيلة » والله أعلم .

=

لعن - وهو في السياق - من فعله ، والصلاة عندها من ذلك ، وإن لم يُبن مسجد[1] . وهو معنى قولها : « خشي أن يتخذ مسجداً[2] » ، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً[3] وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً[4] كما قال النبي ﷺ :

كذلك : « ألا لعنة الله على اليهود والنصارى » نهى عنه في آخر حياته كما في حديث جرير ، ثم إنه لعن وهو في السياق كما في حديث عائشة ، وهذا هو التغليظ الشديد في هذا الأمر ، فكيف يُتساهل في هذا الأمر فيظن قوم أن الصلاة والدعاء والذبح عند القبور أنه أفضل ، وأنه مظنة الإجابة ، مع أنه وسيلة إلى الشرك ؟!

(١) الصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد ولو لم يُبن عليها .

(٢) أي : مصلى ؛ لأن الصحابة ما يتوقع منهم أنهم يبنون على قبر الرسول مسجداً ، ولكن قد يصلي عند الجهال ، مجرد صلاة بدون مسجد ، ولذلك دفن ﷺ في بيته ، خشية أن يصلى عنده .

(٣) ما كان الصحابة يبنون عند قبره مسجداً وهم يسمعون هذا النهي من النبي ﷺ ، لكن يخشى من غير الصحابة أن يأتي من الجهال من يصلي عند قبره ﷺ لو كان بارزاً يراه الناس .

(٤) يُشبِّه بعض الجهال أو المغرضين يقولون : أنتم تقولون لا يبنى مساجد على القبور ، ومسجد الرسول ﷺ فيه قبر ، وهذا من جهلهم أو من عنادهم ؛ لأن مسجد الرسول مبني قبل موته بسنين ، أول ما هاجر النبي ﷺ بدأ ببناء المسجد ، ولما مات ﷺ لم يدفن في المسجد ، وإنما دفن في بيته ، خارج المسجد وبقي على هذا في عهد الخلفاء الراشدين كلهم ، وفي صدر خلافة بني أمية ، حتى جاء الوليد بن عبد الملك وكان رجلاً مغرماً بالعمران والبناء ، فأمر بتوسعة المسجد النبوي ، وكان الخلفاء من قبله يوسعون المسجد من الناحية الغربية والشمالية والجنوبية ويتركونها من الناحية الشرقية التي فيها القبر لا يتعرضون له وبقي القبر خارج المسجد إلى أن جاء عهد الوليد فأمر بتوسعة المسجد من الناحية الشرقية وأدخل القبر للمسجد بتصرف من الوليد بن عبد الملك وكان المنفِّذ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأنه كان أميراً على المدينة بأمر الوليد وليس من مشورة العلماء ولا أفتى به أحد من العلماء ، إنما هو عمل قام به السلطان بدون فتوى ، فلا يعتبر هذا دليلاً

=

« جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » هذا ذكره شيخنا ، وهو من تقرير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] على هذه الأحاديث . قوله : ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » ورواه أبو حاتم ابن حبان في « صحيحه »[2] .

ولا يُقال : إن مسجد الرسول مبني على قبر كما يقول هؤلاء الجهال أو المغرضون ، هذا من اللبس على الناس فينبغي معرفة هذه الشبهة ؛ لأنها قوية الآن ، يُشبِّهون بها على الناس ، فإذا عرفت الأصل وعرفت أن هذا إنما هو تصرف من السلطان وليس من العلماء ؛ بل أن العلماء ينكرون هذا أشد الإنكار وحصل في وقته إنكار ، وحصل ضرب لبعض الذين وقفوا ضد هذا العمل ، هذا فعل السلاطين إذا توجهوا لشيء لا أحد يقف في وجوههم إلا من هدي الله منهم ، هذا تصرف السلطان لا شأن للعلماء فيه .

(١) يقول الشارح : (هذا ذكره شيخنا) يعني الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، يعني جده ، وهو منقول من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، لأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب انتفع بكتب شيخ الإسلام ودرسها ، وصار ينقل منها .

(٢) هذا الحديث كما في « مسند الإمام أحمد » وعند الحاكم ، في « مستدركه »(*) أن النبي ﷺ أخبر أن من شرار الناس أي أشدهم شراً - والعياذ بالله - فئتين : **الفئة الأولى** : من تدركهم الساعة وهم أحياء ؛ لأن الساعة لا تقوم وفي الأرض من يقول : الله الله ، إنما تقوم الساعة على الكفار ، أما المؤمنون فإنهم تقبض أرواحهم قبل قيام الساعة ، فلا يحضرون قيام الساعة ، فلا تقوم الساعة وفي الأرض من يعبد الله ﷻ ، أو يقول : الله الله يعني يعبد الله أو يذكر الله ﷻ ، وإنما تقبض أرواح المؤمنين قبل ذلك فيبقى شرار الناس يتهارجون كما يتهارج الحمرُ ، ثم تقوم عليهم الساعة - والعياذ بالله - ، **الفئة الثانية** : الذين يبنون المساجد على القبور من شرار الخلق في الأمم كلها ، في قوم نوح ومن جاء بعدهم إلى هذه الأمة ، فهؤلاء الذين يبنون المشاهد على قبور الأولياء بزعمهم : قبر

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٦ / ٣٩٤ (٣٨٤٤) ، وحسنه الأرنؤوط ، وأخرجه ابن حبان في « صحيحه » ١٥ / ٢٦٠ (٦٨٤٧) ، ولم أقف عليه عند الحاكم .

=

قلت[(١)] : وقد وقع هذا في الأمة كثيراً كما وقع في أهل الجاهلية قبل مبعث النبي ﷺ كما لا يخفى على ذوي البصائر ، وقد زاد هؤلاء المتأخرون من هذه الأمة على ما وقع من أهل الجاهلية من هذا الشرك بأمور : منها : أنهم يخلصون عند الاضطرار لغير الله وينسون الله [(٢)] ومنها : أنهم يعتقدون أن آلهتهم من الأموات يتصرفون في الكون دون الله[(٣)] .

وجمعوا بين نوعي الشرك في الإلهية والربوبية ، وقد سمعنا ذلك منهم مشافهة[(٤)] ومن ذلك قول ابن كمال من أهل عمان وأمثاله : (إن عبد القادر

الحسين ، قبر الست نفيسة ، قبر البدوي ، قبر عبد القادر الجيلاني ، أو غير ذلك من المساجد التي تبنى على القبور وهي بالمئات في بلاد المسلمين الآن ، فهؤلاء الذين يبنون وهؤلاء الذين يصلون في هذه المساجد هم شرار الخلق بشهادة رسول الله ﷺ ، وهم يزعمون أنهم مسلمون ، والرسول ﷺ يقول : هم شرار الخلق - نسأل الله العافية - .

(١) هذا تعليق من الشارح ﷺ .

(٢) بخلاف الجاهلية ، فإنهم يشركون في الرخاء ويوحدون في الشدة ، أما هؤلاء فشركهم في الشدة أشد من شركهم في الرخاء ولا يهتفون بأسماء الأولياء إلا إذا وقعوا في الشدة .

(٣) والجاهلية كانوا يعبدون الأولياء والصالحين ، ولكنهم كانوا يقولون : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر : ٣] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس : ١٨] ويقرون أن الخلق والرزق والإحياء والإماتة والموت والحياة بيد الله ، هذا أهل الجاهلية أما المشركون من هذه الأمة ، فيقولون : هؤلاء الأقطاب والأوتاد يتصرفون في الكون ويرزقون ويعطون حتى قالوا : إنهم يحيون الموتى ويضربون ملك الموت إذا أخذ روح أحد لا يريدون أخذ روحه ، فهم زادوا على أهل الجاهلية ، الجاهلية ما وصلوا إلى هذا النوع من الشرك ، كانوا يوحدون في الربوبية ويشركون في الألوهية ، أما هؤلاء فيشركون في النوعين : توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وهو أشد من الجاهلية .

(٤) الشيخ عبد الرحمن ﷺ عاش في مصر مدة ، قبل أن يأتي إلى نجد ، وسمع من المشركين هناك ، ومن عباد القبور الشيء الكثير .

الجيلاني يسمع من دعاه[١] ومع سماعه ينفع)[٢] فزعم أنه يعلم الغيب وهو ميت ، فلقد ذهب عقل هذا وضل ، فكفر بما أنزل الله في كتابه كقوله : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ[٣] وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [سورة فاطر : ١٤] فما صدقوا الخبير فيما أخبر به عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، ولا آمنوا بما أنزله الله في كتابه ، بل بالغوا وعاندوا في رده وكذبوا وألحدوا وكابروا المعقول والمنقول فالله المستعان[٤] .

(١) ومن هذا قول ابن كمال من أهل عمان ويوجد كتاب في الرد عليه اسمه « الصيِّبُ الهطّال في كشف شبه ابن كمال » وهو لأحد علماء نجد(*) .

(٢) يقول ابن كمال : إن عبد القادر يسمع من دعاه ، وهو ميت ، فلو دعاه في المشرق أو في المغرب أو في البحر يسمعه ، هل قال المشركون الأولون هذا ؟ لا والله ، ما وصل شرك المشركين الأولين إلى هذا الحد .. مشركو الجاهلية ما قالوا هذا .

(٣) الله ﷻ يقول : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ ، وابن كمال يقول : عبد القادر يسمع من دعاه ، يعني كأن الله قد أخطأ في قوله ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ - تعالى الله عن ذلك - لأن ابن كمال أثبت أن عبد القادر يسمع وهو ميت .

(٤) هذا صحيح ، يكابرون ويكذبون المعقول والمنقول ، ويَدَّعون لهؤلاء الأموات العجب العجاب - نسأل الله العافية - .

(*) والكتاب طُبع الطبعة الأولى عام ١٤٣٢هـ في ١٣٨ صفحة ، وعنوانه : « الصيِّب الهطال في كشف شبه ابن كمال » (رسالة في الدفاع عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية) / للشيخ أحمد بن محمد الكتلاني . تحقيق : سليمان الخراشي من مطبوعات دار العاصمة : الرياض .

٢١- باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله

روى مالك في « الموطأ » ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

ولابن جرير بسنده ، عن سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ [سورة النجم : ١٩] ، قال : (كان يَلُتُّ لهم السَّويق ، فمات ؛ ، فعكفوا على قبره) .

وكذا قال أبو الجوزاء ، عن ابن عباس : (كان يلُتُّ السويق للحاج) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » . رواه أهل السنن .

٢١- باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله[(١)]

قوله : (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها[(٢)] أوثاناً تعبد

(١) لما ذكر الشيخ رحمه الله في البابين السابقين الغلو في الصالحين ، وفي الباب الثاني : أن من الغلو في الصالحين الصلاة عند قبورهم أو الدعاء عند قبورهم ، ذكر نوعاً ثالثاً من الغلو : وهو الغلو في القبور بسبب أن فيها رجلاً صالحاً ، والغلو سبق لنا معناه وهو الزيادة عن الحد المشروع في الشخص أو في القبر ، والمشروع في القبور : الوسط لا الغلو فيها ولا التساهل في شأنها . من السنة في القبور أن لا تهان ولا تداس ولا يُجلس عليها ولا تتخذ طرقات وفي المقابل يقابل الامتهان للقبور الغلو فيها والزيادة في تعظيمها ؛ لأن ذلك يؤول إلى عبادتها من دون الله ؛ لأن الغلو فيها وسيلة إلى الشرك والمشروع في القبور الوسط ألا يغلى فيها وألا تهان بل تحفظ لها حرمتها ، ولكن لا يبنى فيها .

(٢) يصيرها : يعني في المستقبل لعل بعض الناس يقول : الناس يعرفون التوحيد ما المانع أن يجعلوا في المقابر كهرباء من أجل من يزوروها بالليل ، ومن يحتاجها لدفن موتاهم على
=

من دون الله) روى مالك في الموطأ : أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[1]

ضوء الكهرباء ولا يقع منهم شرك الآن ، نقول له : أنت قاصر النظر لأنك تنظر إلى الحالة الراهنة ولا تنظر إلى المستقبل ولا تنظر إلى عواقب الأمور ، هذا يؤول إلى الشرك ولو على المدى البعيد ، ومن حكمة الشارع أنه سد الوسائل المفضية إلى الشرك ، وهذا من شر الوسائل المفضية إلى الشرك .

(١) هذا الحديث رواه الإمام مالك مرسلاً في « الموطأ » ، وهو من مراسيل الإمام مالك(*) ورواه الإمام أحمد(**) وغيره موصولاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، وموطأ الإمام مالك هو من أول ما ألف في الأحاديث وفقهها ، يجمع بين الأحاديث وأقوال الصحابة وفتاويهم ، وهو يمتاز بعلو الإسناد على ما جاء بعده من الكتب ، وهو كتاب عظيم اعتنى به العلماء وشرحوه شروحاً كثيرة أهمها وأعظمها : « التمهيد » لابن عبد البر فإنه أعظم شرح لكتاب « الموطأ » والإمام مالك ﷺ هو أحد الأئمة الأربعة ، وهو في الترتيب الزمني بعد الإمام أبي حنيفة ومذهبه معروف ، أحد المذاهب الأربعة الباقية التي دونت وتركت وخدمت وبقيت ولها أتباع . روى مالك في « الموطأ » أن رسول الله ﷺ دعا فقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » هذا دعاء من الرسول ﷺ معناه : يا الله ثم حذفت ياء النداء وعوض عنها الميم في لفظ الجلالة « اللهم » « لا تجعل » : تجعل : فعل مضارع مجزوم بلا الدعائية ، « وثناً » : الوثن هو ما عُبد من دون الله ، وهو أعم من الصنم : الصنم ما عبد من دون الله على شكل إنسان أو حيوان وهو ما يسمى بالتماثيل مثل ما كان عليه قوم إبراهيم يعبدون التماثيل فالصنم عبارة عن الصورة التي من ذوات الأرواح ، أما الوثن : فهو أعم ، كل ما عبد من دون الله يسمى وثناً سواء على صورة أو شجر أو حجر أو قبر أو غير ذلك يسمى وثناً . وأصل الوثن في اللغة : الإقامة من وَثَنَ أي أقام في المكان ، « يُعبد » من دون الله ﷻ ؛ لأن العبادة حق الله ﷻ لا يشاركه فيها قبر ولا شجر ولا حجر ولا جن ولا إنس ولا ملائكة ولا أحد من البشر ولا أنبياء ولا أولياء ، والعبادة حق لله ﷻ بجميع أنواعها ،

(*) سبق تخريجه في باب (الخوف من الشرك) .

(**) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ١٢ / ٣١٤ (٧٣٥٨) وقال الأرنؤوط : إسناده قوي .

=

لا يجوز أن يشرك مع الله أحد ، والشرك هو أعظم الذنوب ، الشرك لا يغفره الله أما ما دونه من الذنوب فإنه تحت المشيئة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] والمشرك حرم الله عليه الجنة فلا طمع له في دخول الجنة بل هو خالد في النار ، هذا الدعاء من النبي ﷺ خاف أن يُعمَل مع قبره ﷺ ما عُمل مع قبور الأنبياء السابقين أن يُتخَذَ مسجداً وأن يُجلس عنده ، وأن يُعبد من دون الله ، كما حصل في الأمم السابقة وهو ﷺ ما دعا بهذا الدعاء إلا من أمر متوقع ، لأن عبادة القبور متوقعة ، وقد وقع ما توقعه ﷺ ، فعبدت القبور من دون الله إلا قبره ﷺ ، فإن الله صانه ببركة دعائه ﷺ من أن يُعمل معه ما عُمل مع قبور الأنبياء أو قبور الصالحين من قبل ، فحماه ودفن في بيته ﷺ حماية له ، وأحاطت به الجدران فلا يراه أحد ، فهذا كله من حماية قبره ﷺ وأجاب الله هذا الدعاء من الرسول ﷺ . قد يقال : إن بعض الجهال عندما يقف عند قبر الرسول يحصل منه شيء من المخالفات ونقول : هذا ليس عند القبر ، هذا في مسجد الرسول ﷺ وليس عند القبر ؛ لأن القبر لا يصل إليه أحد ، وأيضاً الله ﷻ يَسَّر من يمنع الناس من ظهور الشرك عند قبر الرسول ﷺ ، إذا وقع من أحد شيء خِفْيَة فحسابه على الله ، أما شيء يظهر عند القبر نداء أو دعاء هذا ممنوع . وحول القبر ولله الحمد حرس يحرسونه ويردون الناس عن حصول شيء من هذه الأمور ، ومن حماية الله لقبره ﷺ أنه لا يطاف حوله ولا يتيسر الطواف به إنما يمر الزائر ويسلّم على الرسول ﷺ ويُسلّم على صاحبيه وينصرف ، ولا يتمكّن من الطواف به ، ولا الجلوس عنده ، هذا كله من إجابة دعاء الرسول ﷺ ، والشاهد من الحديث والترجمة : أن التعلق بالقبور والغلو فيها يؤول إلى اتخاذها وسائل ؛ لأن هذا معنى قول الرسول ﷺ « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » لأنه حصل أن اتخذت القبور أوثاناً تعبد .

وقوله : « اشتد غضب الله على قوم » دعا عليهم باللعنة ودعا عليهم بالغضب ، وهذا يدل على شناعة هذا الأمر ، وهو اتخاذ القبور مساجد ، « اشتد غضب الله » هذا إخبار من الرسول ﷺ أن الله يغضب أشد الغضب على من غلا في القبور واتخذها مساجد ، رجاء الإجابة أو بنى عليها مساجد ، وهذا غضب الله عليه غضباً شديداً – هذا فيه إثبات الغضب لله ﷻ صفة من صفاته الفعلية على ما يليق به ﷻ ، لكن فيه منع الغلو في القبور وذلك بأن تتخذ مصليات أو يبنى عليها مساجد فإن ذلك وسيلة إلى عبادتها من دون الله .

وذلك أنه ﷺ خاف أن يقع من أمته في حقه كما وقع من اليهود والنصارى في حق أنبيائهم من عبادتهم من دون الله(١) ، وسبب ذلك الغلو فيهم كما قال تعالى : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾(٢) [سورة المائدة : ٧٧] ، وكذلك رغب ﷺ إلى ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، وقد عبدت القبور بأنواع العبادة كما لا يخفى(٣) ، وتقدم في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « ولولا ذلك لأبرز قبره ، غير أنه خشي أن يتخذ

---

(١) وهو لا يخاف إلا من شيء متوقع ، وهذا فيه رد على من يقول : إن الناس تجاوزوا مرحلة السذاجة ومرحلة عبادة القبور ، فنقول : الرسول ﷺ خاف هذا على أمته وخاف هذا على أصحابه ، ولا يخاف ﷺ إلا من أمر متوقع الحصول قد تقول : هذا مستحيل ، الناس عرفوا ، تنظر إلى جيل الحاضر ، ولا تنظر إلى جيل المستقبل ، وأيضاً من يضمن أن هؤلاء لا يفتنون حتى لو كانوا مثقفين ومتعلمين ، وقد فهموا التوحيد ، من يضمن أنهم لا يفتنون ، إبراهيم عليه السلام دعا ربه وقال : ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٥] خاف على نفسه من الشرك ، وخاف على بنيه ، الإنسان عُرضة للفتنة فلا يغتر بعلمه ولا بأهله .

(٢) أهل الكتاب ضلوا في أنبيائهم ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة : ٣٠] هذا غلو في أنبيائهم وغلو في علمائهم وأحبارهم ورهبانهم فأطاعوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة : ٣١] هذا من الغلو في العلماء .

(٣) اعتبروا أن عبادة القبور هي التوحيد وهي الإسلام لأنها تدل على محبة الأولياء والصالحين ، وأن الذي لا يعبدهم ولا يصلي عند قبورهم أنه يبغضهم أو يتنقصهم ، هكذا فسروا أفعالهم القبيحة أنها محبة للصالحين ولا يفسرونها بأنها شرك يفسرونها بغير تفسيرها . يقولون : هذا محبة للصالحين وهؤلاء لهم حق علينا ، نبني على قبورهم ، لتبقى ذكرياتهم ، ويبقى الثناء عليهم ، فلا يُنسون ، هكذا يقولون .

مسجداً »[١] وقد استجاب الله دعوة نبيه ﷺ وصان قبره وأحاطه بثلاثة جدران كما قال العلامة ابن القيم ﷺ :

فَأَجَابَ رَبُّ العَالَـمِينَ دُعَاءَه وَأَحَاطَه بِثَلاثَةِ الجُدْرَانِ

قوله : ولابن جرير بسنده عن سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ قال : كان يلتُّ لهم السويق ، فمات فعكفوا على قبره » كذلك قال أبو الجوزاء ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : « كان يلت السويق للحاج »[٢] ابن جرير هو أبو جعفر ، محمد بن جرير صاحب التفسير

---

(١) هذا كله تقدم أن الحكمة في دفن الرسول ﷺ في بيته ولم يدفن مع أصحابه في البقيع ، الحفاظ عليه من الغلو ويبقى مصوناً محفوظاً لا يصل إليه أحد .

(٢) وهذا فيه تفسير هذه الآية : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ جاء في تفسيرها عن سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وجاء أيضاً من طريق أبي الجوزاء ، عن ابن عباس ، يعني ورد تفسير الآية من طريقين : من طريق سفيان - الظاهر أنه سفيان الثوري كما يقوله الشارح - عن منصور - هو منصور بن المعتمر ، عن مجاهد - هو مجاهد ابن جبر - إمام المفسرين ، تابعي جليل أخذ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وكذلك من طريق أبي الجوزاء : وهو سفيان بن عبد الله الربعي ، وهو أيضاً ممن أخذ عن ابن عباس أنه فسّر هذه الآية ؛ لأن اللات بالتشديد : اسم فاعل من لتَّ السويق يلتُّه إذا خلطه بالسمن ، فكان يلُتُّ السويق يعني يخلطه بالسمن ، ويطعمه للناس من باب الإحسان ، وفي رواية أبي الجوزاء أنه يلت للحاج خاص ، وهذا يدل على أن هذا رجل صالح يخدم الناس في حياته ويعمل لهم الطعام إحساناً منه إليهم فألفوه وأحبوه لصلاحه وإحسانه وفضله ، فلما مات عكفوا على قبره ، أي : جلسوا عند قبره ؛ لأن العكوف معناه المكث في المكان ، فكانوا يعكفون عند قبره : يعني يجتمعون عند قبره تبركاً به فانظروا كيف هذا الغلو في الصالحين ، وفي قبورهم إلى أن عبدوهم من دون الله ؛ لأن اللات صار من أعظم أوثان الجاهلية كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ . وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ هذا على قراءة =

الكبير[١] ، وهو أجلُّ التفاسير وأحسنها ، وهو من أئمة المسلمين المجتهدين[٢] ، وله كتاب الأحكام ﷺ قوله : « كان يلُتُّ لهم السويق فمات ، فعكفوا على قبره » فيه شاهد للترجمة ، فإنهم غلوا فيه لأجل صلاحه واتخذوه وثناً بتعظيمه وعبادته[٣] وصار من أكبر أوثان أهل الجاهلية . قوله : وعن ابن

التشديد - تشديد التاء - وقرئت بالتخفيف : اللات - فقيل : إنه خفف من التشديد تسهيلاً ، وقيل : إن اللات بالتخفيف مأخوذ من اسم الإلـٰه . على كل حال الحديث فيه أن هؤلاء غلوا في قبر هذا الرجل حتى عبدوه وأصبح هذا القبر من أكبر أصنام العرب (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ، فآل بهم الأمر إلى أن عبدوه من دون الله ﷻ ، فدل على أن الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثاناً تعبد من دون الله ، كما قال الشيخ في الترجمة .

(١) ابن جرير هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير الكبير المشهور بتفسير ابن جرير ، وهو إمام المفسرين . وكتابه يعتبر هو المرجع للمفسرين ، جمع فيه تفسير القرآن بالقرآن ، وتفسير القرآن بالأحاديث ، وتفسير القرآن بأقوال الصحابة ، وتفسير القرآن باللغة العربية التي نزل بها ، وهو تفسير حافل .

(٢) مع أنه مفسِّر هو أيضاً فقيه ، وله مذهب يسمى مذهب ابن جرير في الفقه لكنه اندرس ؛ لأنه لم يُهيأ له طلاب دونوا مذهبه وحفظوه بعده مثل الأئمة الأربعة ، لكن يوجد له آراء في الموسوعات الفقهية وفي التفسير .

(٣) اللات : رجل صالح يلت السويق للحجاج أو لعموم الناس ويحسن إليهم فأحبوه ، ولما مات عظَّموا قبره وغلوا فيه فأصبح من أكبر الأوثان في الحجاز ، اللات : لأهل الطائف ، والعزى : لأهل مكة . لهذا يقول أبو سفيان يوم أحد : « لنا العزى ولا عزى لكم » ، فقال النبي ﷺ : أجيبوه فقولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » . ومناة الثالثة الأخرى هذه لأهل المدينة : الأوس والخزرج ، وكانت عند قديد والمشلل ، وكانوا يُحرِمُون عندها للحج ، فلما فتح الله مكة للرسول ﷺ أرسل من يهدم هذه الأوثان فهدمت والحمد لله ، ولم تقم لها قائمة فأرسل المغيرة بن شعبة وأبا سفيان من الحرم إلى اللات في الطائف فهدموها وأرسل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اللات فهدمها ، وأرسل خالد بن الوليد إلى العزى فهدمها .

عباس رضي الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرجُ » رواه أهل السنن وهذا الحديث صحيح . صححه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ويكفيك في الاحتجاج به رواية أهل السنن له ، ولم يذكر أحد منهم له علة ولا معارض له(١) .

---

(١) هذا حديث ابن عباس رواه أهل السنن الأربعة : أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه(*) ، ولم يعترضوا عليه بشيء ، فدل هذا على قوة سنده . « أن رسول الله ﷺ لعن » ومعنى لعن رسول الله : أي دعا باللعنة ، والرسول ﷺ مجاب الدعوة ، دعا باللعنة : أي : أن يطرد الله من رحمته « زائرات القبور » : جمع زائرة ، يعني من النساء اللات يزرن القبور ، لأن المرأة ضعيفة فلا يصلح أن تزور القبور ، لأنها إن رأت قبر قريبها أو حبيبها يحصل منها ما يحصل من الجزع والنياحة ، وأيضاً المرأة أسرع إلى التأثر من الرجل ، فإذا زارت قبور الأولياء والصالحين فإنها بعاطفتها وضعفها أقرب إلى الشرك من الرجال ؛ لذلك لعن ﷺ زائرات القبور(**) ، فدل على تحريم زيارة النساء للقبور ، وأنها كبيرة من كبائر الذنوب ، وجاء في رواية : « لعن الله زَوَّارات القبور »(***) بالتشديد ، جمع زوارة وهي كثيرة الزيارة ، وأما لفظ « زائرات » فمعناه لو زارت مرة واحدة استحقت اللعنة ، وهي أبلغ من رواية زوارات .هذه مسألة . والمسألة الثانية : في قوله : « والمتخذين عليها المساجد والسرج » : وهذا محل الشاهد من الحديث ، أي : ولعن رسول الله ﷺ المتخذين على القبور المساجد ، واتخاذ المساجد على القبور : سبق لنا معناه أنه الصلاة عندها وإن لم يُبن عليها فإذا بُني عليها مسجد فالأمر أشد ، فلعن ﷺ الذين

(*) أخرجه أبو داود في « سننه » ٣ / ٥٥٨ (٣٢٣٦) ، والترمذي في « سننه » ٢ / ١٣٦ (٣٢٠) ، والنسائي في « الصغرى » ٤ / ٩٥ (٢٠٤٣) ، و « الكبرى » ١ / ٦٥٧ (٢١٧٠) وابن ماجه في « سننه » ١ / ٥٠٢ (١٥٧٥) .

(**) سئل شيخنا – حفظه الله – عن دخول النساء للروضة الشريفة وزيارة قبره ﷺ ، فهل يدخلن في هذا الحديث : فأجاب : لا يُسمح لهن بزيارة قبر النبي ﷺ وإنما يسمح لهن بالصلاة في الروضة ، لتحصيل الفضيلة ، ولا يسمح لهن بزيارة قبر الرسول ﷺ ، ممنوعات من هذا . أ.هـ .

(***) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٢٤ / ٤٢٤ (١٥٦٥٧) بلفظ . لعن رسول الله ﷺ .... » ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع الصغير وزيادته » ٥ / ٢٣ (٤٩٨٥) .

=

يصلون عند القبور ؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك وإن كان المصلي لا يقصد القبر ، وإنما يصلي لله ، لكن صلاته في هذا المكان محرمة ، لأن هذا وسيلة إلى الشرك ومن فعله استحق اللعنة ؛ لأن هذه الصلاة غير مشروعة(*) لأن هذا الفعل وسيلة من وسائل الشرك فإذا اتخذت القبور مصليات وصلى عندها آل الأمر إلى عبادتها من دون الله ، وهذا معنى قوله في الترجمة : (أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله) ، « المتخذين عليها المساجد والسرج » : أي : الذين يضيئون المقابر بالسرج والمصابيح أياً كانت هذه السرج باختلاف الأزمان تكون سرجاً من الوتد ، ومن الزيت كما هو معروف عند الأولين ، تكون سرجاً توقد بالقاز كما هو معروف ، تكون سرجاً بالكهرباء بالمصابيح المعروفة الآن ، فلا يجوز إسراج القبور بأي نوع من أنواع السرج ، سواء كان قبراً واحداً أو مقابر ؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك ؛ لأن الناس إذا رأوا هذه المقبرة مضاءة بالمصابيح أو هذا القبر قد علقت عليه القناديل والمصابيح تعلقت قلوبهم به ، وقالوا : ما فعل معه هذا العمل إلا لأنه ينفع ويضر ، فيتعلقون به فهذا فيه تحريم إضاءة المقابر بأي نوع من الإضاءة ، وأن من فعله فهو ملعون فتبقى المقابر بدون إضاءة حماية لها من الغلو ، كما كانت مقابر الصحابة في البقيع وغيرها على عهد الرسول ﷺ ، والعهود المتتالية إلى وقتنا هذا عملاً بالسنة ، وأما إذا احتاج الناس إلى السراج لدفن الميت لا بأس أن يأتوا معهم بسراج متنقل قدر الحاجة ويحملون ميتهم إذا كان في الليل لا مانع من ذلك وهذا ليس إسراجاً للمقابر ، وإنما هذا لأجل الدفن فقط ، ومؤقت وقد فعله النبي ﷺ كما جاء في بعض الروايات أنه لما دفن بالليل أسرج له ﷺ(**) وهذا أمر عارض ، أما الإضاءة الثابتة على المقابر ، كما على الأضرحة الآن ، وكما على مقابر النصارى هذا أمر حرَّمه الرسول ﷺ ، ولعن من فعله ؛ لأنه يؤول إلى الشرك ، فهذا من الغلو في قبور الصالحين إذا أضيئت أو بني عليها مسجد أو صلي عندها ولو لم يُبن عندها مسجد ، فإن هذا وسيلة من وسائل الشرك كما حصل في الأمم السابقة فهذا من سده ﷺ لوسائل الشرك .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – هل تبطل صلاة من صلى عند القبر لله ؛ فأجاب : نعم تبطل صلاة من صلى عند القبر ؛ لأنها صلاة منهي عنها ، والنهي يقتضي الفساد ، فهي صلاة غير صحيحة ؛ لأنها صلاة غير مشروعة ، فإذا كانت غير مشروعة فإنها لا تصح . أ.هـ .

(**) كما أخرج أبو داود في « سننه » ٣ / ٥١٣ (٣١٦٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : رأى ناس ناراً في المقبرة ، فأتوها فإذا رسول الله ﷺ في القبر ، وإذا هو يقول « ناولوني صاحبكم » فإذا هو الرجل الذي كان يرفع صوته بالذكر . ضعفه الألباني وحسنه الأرنؤوط في تخريجه لسنن أبي داود ٥ / ٧٦ (٣١٦٤) ، وقد أخرجه الحاكم في « المستدرك » ٢ / ٣٧٥ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

٢٢ - باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد ، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨]

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا علي ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » . رواه أبو داود بإسناد حسن ، ورواته ثقات .

وعن علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ ، فيدخل فيها ، فيدعو ، فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي ، عن جدي ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا عليَّ ؛ فإن تسليمكم ليبلغني أين كنتم » . رواه في « المختارة » .

٢٢ - باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد ، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

قوله : (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك)[1] قد تقدم فيما سلف من الأبواب قبل هذا . قوله :

---

(١) هذا الباب بالنسبة لما قبله كالعموم بعد الخصوص ؛ لأنه ذكر في الأبواب السابقة أنواعاً من سده ﷺ للوسائل المفضية إلى الشرك من الغلو في الصالحين ، والدعاء ، والصلاة عند قبورهم ، والغلو في قبورهم ، وهذا الباب فيه تعميم في كل ما جاء عنه ﷺ من سد الوسائل التي تفضي إلى الشرك . قوله : (ما جاء في حماية المصطفى) : الحماية معناها المنع ، منع الشيء أن يصل إليه وما يؤثر عليه وجعل حمى عليه أو سور يحميه ، والمصطفى هو النبي ﷺ ، المصطفى معناه المختار ؛ لأن الله اختاره من بني آدم ، والرسل كلهم =

وقول الله تعالى : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة : ١٢٨][1]

مصطفون ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج : ٧٥] أي : يختار ﷻ (جناب التوحيد) الجناب : هو جانب الشيء ، والجناب والجانب هو بمعنى واحد (وسده كل طريق يوصل إلى الشرك) هذا معنى الحماية ، وهو سد كل الوسائل ؛ فهذا من عطف التفسير والبيان ؛ لأن الحماية معناها سد الطرق المفضية للشرك .

(١) قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة : ١٢٨] هذه صفات الرسول ﷺ :

الصفة الأولى : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أنه من أنفسنا أي : من جنسنا ، لم يكن من الجن ولا من الملائكة وإنما كان من جنسنا ، بشر نعرفه ونعرف لغته ، ويجلس معنا ، وهذا من رحمة الله ﷻ أنه جعل الرسل من جنس البشر يبلغوهم ما أنزل الله إليهم ولم يجعلهم من الملائكة ؛ لأن البشر لا يطيقون رؤية الملائكة ، أو يجعلهم من العجم ؛ لأن العرب لا يعرفون لسان العجم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [سورة إبراهيم : ٤] بلسان قومه أي : بلغتهم ، ليبين لهم يعرفون نسبه أيضاً ، يعرفون أمانته وصدقه ﷺ ؛ لأنه كان معروفاً قبل البعثة بالصدق والأمانة ، حتى أن أهل مكة كانوا يودعون عنده ودائعهم ، ويسمونه بالأمين ﷺ هذه الصفة الأولى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ وفي قراءة شاذة (من أَنْفَسِكُم) يعني من خياركم .

الصفة الثانية : ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يعني ما يتعبكم من العنت وهو التعب ، وعزيز عليه : أي شديد عليه ما يشق عليكم ، يشق عليه ما يشق عليكم ، وهو يريد لكم السهولة ويريد رفع الحرج ﷺ ، فلا يرضى لأمته بالمشقة والتعب ، ولهذا كان يحب أن يفعل الشيء ثم يتركه خشية أن يشق على الأمة ، ولهذا قال ﷺ : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء أو عند كل صلاة »(*) ولما صلوا خلفه صلاة التراويح

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٣٠٣ (٨٤٧) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٢٢٠ (٢٥٢) بلفظ « عند كل صلاة » ، وأخرجه الإمام أحمد في « مسنده » ١٢ / ٣٧٤ (٧٤١٢) بلفظ « مع الوضوء » وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

=

ليالي رمضان تخلف عنهم ليلة الثالثة أو الرابعة خشية أن تفرض عليهم فيعجزوا عنها(*) . والشواهدعلى حرصه ﷺ على التخفيف على أمته كثيرة .

الصفة الثالثة : ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ حريص على ما ينفعكم ، حريص على هدايتكم ، حتى قال الله جل وعلا : ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء : ٣] ، لعلك مهلك نفسك من شدة الحرص على إيمانهم ، فقد كان ﷺ حريصاً على هداية الخلق ولا يريد لهم الضلال ولا الكفر ، كان يُعرِّض نفسه للأخطار من أجل إنقاذ أمته من النار ومن الشرك والكفر ، تَعرَّض للأخطار ﷺ في تبليغ الرسالة كما هو معروف من سيرته ﷺ .

الصفة الرابعة : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ : بالمؤمنين خاصة يتصف نحوهم بالرأفة والرحمة ، يرفق بهم ويشفق عليهم ويحنو عليهم ﷺ أما بالكفار فكان يغلظ عليهم ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] وفي آيات الله قوله : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] مع المؤمنين يلينون ويرفقون بهم ويخفضون لهم الجناح ، أما مع الكفار فكانوا يشتدون عليهم ؛ لأنهم أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ ويجاهدونهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة : ٧٣] ، ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [سورة التوبة : ١٢٣] ؛ الكافر لا يصلح معه اللين إذا أبدى العناد ، وأما إذا لم يبد العناد والامتناع ، يدعى بالحكمة واللين لعله يقبل أما إذا ظهر منه عدم القبول وبلغته الدعوة ولم يقبل لا يليق به اللين وإنما يليق به الشدة والغلظة فإذا كانت هذه صفات الرسول ﷺ فهل يليق به أن يترك الشرك ويترك وسائل الشرك التي تفضي إليه ولا يبينها للأمه ، ولا يسدها ، هذا غير لائق بالرسول ﷺ ، هذا هو وجه الشاهد من الآية ، أنه إذا كان يتصف بهذه الصفات العظيمة فلا يليق به أن يتساهل بأمر الشرك وأن لا ينهى عنه ولا يمنع الأسباب التي تفضي إليه .

(*) متفق عليه أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٣١٣ (٨٨٢) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٥٢٤ (٧٦١) .

وجه الدلالة من الآية أنه ﷺ يعز عليه[١] كل ما يؤثم الأمة ويشق عليهم[٢] وأعظم ما يؤثم الأمة ويشق عليهم الشرك بالله قليله وكثيره ، ووسائله وما يقرب منه من كبائر الذنوب ، وقد بالغ ﷺ في النهي عن الشرك وأسبابه أعظم مبالغة كما لا يخفى[٣] وقد كانت هذه حال أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في قطعهم الخيوط التي رقي للمريض فيها[٤] ونحو ذلك من تعليق

---

(١) يَعِزّ عليه من العَزّ وهو الصعوبة .

(٢) يؤثمها يعني يوقعها في الإثم ، أو لا يؤثمها لكن يشق عليها أو يتعبها كان يشق عليه الأمران : لا يؤثمها ولا يتعبها .

(٣) لقد بالغ النبي ﷺ في النهي عن الشرك ، والنهي عن أسبابه ووسائله المفضية إليه ، حماية للتوحيد من أن يتطرق إليه الشرك ، هذا يدل على العناية بالتوحيد ؛ لأنه يجب العناية به وبيانه للناس وبيان الوسائل التي تفضي إلى الشرك ؛ لأن بعض الناس اليوم يقول : اتركوا هذه المسألة ، دعوا الناس على عقائدهم ، يكفي أنهم ينتسبون إلى الإسلام ، إذا ذكرتم التوحيد نفَّرتم الناس ، وفرقتموهم . هذا كلام باطل وإن كانوا يرددونه من يزعمون أنهم من الدعاة إلى الله ، وهذا يتنافى مع الدعوة إلى الله ؛ لأن أصل الإسلام وأصل الدين هو التوحيد ، فإذا بُدِّل عنه تطرق إليه الشرك ، ولأن دعاة الضلال لا يسكتون ولا يَكِلُّون ولا يَمِلُّون فإذا خمل دعاة التوحيد وسكتوا وتهاونوا في الأمر نشط دعاة الضلال وما أكثرهم ، فإذا كان علماء التوحيد مستيقظين وقائمين بالدعوة إلى الله وبيان التوحيد والنهي عن الشرك فإن أعداء الله ينهزمون أمامهم لأنه يبطل شرهم ، وإنما يستفحل أمرهم مع خمول أهل التوحيد وعلماء التوحيد وثقتهم بالواقع وثقتهم بالناس فينشط أهل الضلال ؛ لأن السارق إذا رأى غفلة من الناس استغل الفرصة وسرق أموال الناس ، أما إذا رأى الناس متيقظين وحذرين فإنه يتعب فيجب التنبه لهذا الأمر .

(٤) كما مر في باب ما جاء في الرقى والعزائم أن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قطع الخيط الذي رآه على الرجل ، والنبي ﷺ لما رأى في يد رجل حلقة من صُفر ، قال : « ما هذه » ؟ قال : من الواهنة قال : « انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً ، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً » ، حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول : « من قطع تميمه من إنسان فكأنما أعتق رقبة »

=

التمائم[١] قوله : عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم »[٢] رواه أبو داود بإسناد حسن ورواته ثقات . قال الحافظ محمد بن

وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضاً لما قطع التميمة قال : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٦] سبق هذا ، هذا فعل الصحابة ؛ لأنهم عرفوا هذا من الرسول ﷺ .

(١) التمائم هي التي تعلق على الأولاد سواء كانت من القرآن أو من غيره فلا يجوز تعليقها ؛ لأنها وسيلة إلى الشرك .

(٢) هذا الحديث من الأمثلة التي سد بها النبي ﷺ الطرق المفضية إلى الشرك ، ذكر في هذا الحديث عدة أمور :

الأمر الأول : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً » هذا نهي منه ﷺ للمسلمين أن يجعلوا بيوتهم قبوراً يعني لا يذكر الله فيها ولا يصلى فيها ، ولا يقرأ القرآن فيها تكون مثل القبور ؛ لأن القبور ممنوعة من التعبد عندها ممنوع من قراءة القرآن عند القبور ، ممنوع من الصلاة عند القبور ، ممنوع من الدعاء عند القبور ، فلا تجعلوا بيوتكم مثل القبور ليس فيها ذكر لله ﷻ ، فهذا فيه دليل على أنه لا يصلى عند القبور ولا يدعى عند القبور ، ولا يتعبد لله أي عبادة عند القبور ؛ لأن هذا من وسائل الشرك ، وفيه دليل على مشروعية إحياء البيوت بذكر الله ﷻ والصلاة فيها صلاة النافلة لأنها أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة . الفريضة تؤدى في المساجد ، أما النوافل فالأفضل أن تصلى في البيوت ، يكون للبيوت نصيب من صلاة العبد ينورها بالصلاة ، ويكون فيها ذكر الله وتلاوة القرآن ، والشيطان يفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة ، ولا تجعل من البيت مأوى للشياطين تعمل فيها المعاصي ، وترتفع فيها الأغاني وأصوات المزامير ، ينصب فيها الدش الذي يجلب الأخلاق الفاضحة ، والتفسخ والعري ، والسفور وفعل الفواحش ، بيوت المسلمين لا تكون مثل بيوت الكفار ، بيوت المسلمين يشع منها النور ويشع منها الخير ، هكذا ينبغي أن تكون بيوت المسلمين .

الأمر الثاني : « ولا تجعلوا قبري عيداً » وهذا أيضاً فيه شاهد ثاني « ولا تجعلوا قبري » أي : قبر الرسول ﷺ . قال هذا في حياته ، لأنه يعلم أنه سيموت ، وأنه سيسأل في القبر كغيره من البشر ، لكنه خاف على أمته أن يفعلوا عند قبره مثل ما تفعل الأمم عند قبور

=

أنبيائهم من الغلو ووسائل الشرك ، فلذلك قال : « ولا تجعلوا قبري عيداً » ، العيد : اسم لما يعود ويتكرر في اليوم ، أو في الإسبوع أو في السنة . تكرر في اليوم صلاة الجماعة هذه عيد المسلمين ، يتكرر كل يوم يجتمعون في المساجد ، يتكرر كل أسبوع صلاة الجمعة ، يجتمعون في مسجد واحد ، ويتكرر كل عام في مكة المشاعر ، مشاعر الحج عند الكعبة ، يتكرر كل عام هذا العيد المكاني ، النبي ﷺ نهى أن يجعل قبره عيداً مكانياً يجتمع عنده الناس للتبرك به ﷺ والدعاء عنده والصلاة عنده ، فهذا فيه سده ﷺ للطريق المفضي إلى الشرك ، إذا كان هذا لا يفعل عند قبره ﷺ فكيف يفعل عند بقية القبور ، عند قبور الأولياء والصالحين تجعل محلاً للاعتكاف والجلوس عندها ، والإقامة عندها ، والعبادات عندها رجاء أنها تقبل عندها أكثر من غيرها ، هذه من الوسائل المفضية إلى الشرك ، ولهذا كان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لا يترددون على قبر الرسول ﷺ كل ما دخلوا ذهبوا إليه وسلموا عليه ، وهم أحرص الناس على الخير ، وأحق الناس بالرسول ﷺ يحبونه أشد مما يحبون أنفسهم وأولادهم ، ما كانوا ليترددون على قبره ، لعلمهم أن هذا لا يجوز ، ولأن الرسول نهاهم عن ذلك ما كانوا يسلِّمون عليه إلا إذا قدموا من سفر فقط ، حتى إن الإمام مالك ﷺ كان يكره أن يقول الإنسان : زرت قبر النبي ﷺ ؛ لأنه لم يرد في زيارة قبره حديث خاص وإنما يزار قبره ﷺ لعموم الأحاديث التي أمر النبي فيها بزيارة القبور فيدخل في العموم ؛ بل هو أولى ﷺ ، أما أنه يوجد حديث خاص يأمر بزيارة قبر الرسول ﷺ فلا ، الأحاديث التي يروونها ويتناقلونها كلها باطلة لا تقوم بها حجة إنما هي من كذبهم وافترائهم ، وعندهم كتب مشحونة بالأحاديث فيها الحث على زيارة قبر الرسول وعلى السفر إليه ، وعلى ، وعلى ، كلها باطلة لا تقوم بها حجة ولم يَرْوِهَا الأئمة ، والحمد لله ، وإنما يرويها الخرافيون وأشباههم ، وقد ينسبونها إلى الأئمة من أجل أن تقبل وهم برآء منها : « لا تجعلوا قبري عيداً » أي : محلاً للاجتماع والتردد على قبره ﷺ بل من سلم عليه إذا قدم من سفر فإنه يسلم ويمشي ما كان الصحابة يجلسون عند قبر الرسول ﷺ أو في دكة الأغوات التي يسمونها فهي باطلة ، وهذا معصية للرسول ﷺ ؛ لأن هذا وسيلة من وسائل الشرك .

الأمر الثالث : « وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » الصلاة عليه ﷺ من حقوقه ، فقد أمر الله بها بعد أن ذكر سبحانه أنه صلى عليه وصلت عليه الملائكة ، ثم =

عبد الهادي[(١)] : (هو حديث حسن جيد الإسناد ، وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة) ، نهاهم ﷺ أن يهجروا بيوتهم عن الصلاة فيها كما تهجر القبور عن الصلاة إليها مخافة الفتنة بها وما يفضي إلى عبادتها من دون الله ؛ لأن النهي عن ذلك قد تقرر عندهم فنهاهم أن يجعلوا بيوتهم كذلك[(٢)] قوله :

أمرنا فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٥٦] الصلاة والسلام على الرسول ﷺ مشروعة ، لكن ليس معنى ذلك أن تذهب عند القبر من أجل الصلاة والسلام عليه ، نصلي عليه في أي مكان في المشرق أو المغرب ، ويبلغه ﷺ ؛ ولك الأجر « من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً »[(*)] في أي مكان وقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ ﴾ ولم يقل صلوا عليه وسلموا عند قبره ، بل أطلق ﷺ ، وبيَّن الرسول ﷺ أنه لا خصوصية في الصلاة والسلام عليه عند قبره ؛ بل إن هذا منهي عنه ، صلي وسلم عليه في أي مكان ، هذا فيه مشروعية الصلاة على الرسول ﷺ فقد تجب في بعض الأحيان في الخطبة ، والجمعة ، والعيدين ، والاستسقاء ، والتشهد الأول ، والتشهد الأخير ، وعند ذكره ﷺ ، وفيما عدا ذلك تكون مستحبة ، وكل صلاة تصليها على النبي ﷺ لك فيها عشر صلوات ؛ لأن الحسنة بعشرة أمثالها ، وكل صلاة تبلغ الرسول ﷺ هذا من أمور البرزخ . يعني كيف تبلغ الرسول ؟ الله أعلم بذلك ، كما تعرض عليه أعمال أمته من أمور البرزخ التي لا يعلمها إلا الله ﷻ . الشاهد من هذا الحديث واضح ، أن النبي ﷺ نهى عن اتخاذ قبره عيداً ونهى عن جعل البيوت مقابر . دلَّ على أنه لا تجوز الصلاة عند المقابر ، كما دلت عليه الأحاديث في الأبواب السابقة ، ودل على أن الصلاة والسلام على الرسول مشروعة وأنها تبلغه صلاة من صلى وسلم عليه في أي مكان ، فلا خصوصية للحضور عند قبره ﷺ .

(١) محمد بن عبد الهادي تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الذي ألف كتاب « الصارم المنكي في الرد على السبكي » .

(٢) لما نهاهم عن الصلاة عند القبور نهاهم أن يجعلوا بيوتهم مثل القبور لا يصلى فيها ولا يذكر الله فيها ، وإنما تكون بيوت غفلة وبيوت لهو ولعب .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ١ / ٢٨٨ (٣٨٤) .

« ولا تجعلوا قبري عيداً » فيه شاهد للترجمة ، قال شيخ الإسلام : (العيد اسم لما يعود من الاجتماع على وجه معتاد عائداً إما بعود السنة أو بعود الاسبوع أو الشهر أو نحو ذلك) ، وقال ابن القيم رحمه الله : (العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان)[1] ، مأخوذ من المعاودة والاعتياد ، فإذا كان اسماً للمكان فهو الذي يُقصد فيه الاجتماع ، وانتسابه للعبادة أو لغيرها ، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله أعياداً للحنفاء ومثابة ، كما جعل أيام العيد فيها عيداً[2] ، وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية ، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى[3] ، كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر) قوله : وعن علي بن الحسين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي ، عن جدي ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « لا تتخذوا قبري

---

(١) فلا يجوز الاجتماع في المكان تعظيماً له ؛ لأن هذا من أعمال الجاهلية إلا في الأمكنة التي شرع الله الاجتماع فيها للعبادة كالمساجد مثل : الكعبة المشرفة ، ومنى ومزدلفة وعرفة .

(٢) العيد كما عرفنا قسمان : عيد مكاني وعيد زماني وهو الأيام التي تتكرر ويعظمها الناس ويعطلون فيها أعمالهم . هذا ليس للمسلمين إلا عيدان فقط : عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، ليس هناك أعياداً للمسلمين غير هذين العيدين ، فما زاد فهو من أعياد الجاهلية عيد المولد وعيد المجوس ، وعيد كذا وكذا هذه كلها أعياد جاهلية لا يجوز للمسلمين أن يهتموا بها أو أن يعظموها وأن يخصوها بشيء من بين سائر الأيام .

(٣) هذه ليست تعظيماً للمخلوقين وإنما تعظيماً لشعائر الإسلام ؛ لأن عيد الفطر بعد صيام رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام ، وعيد الأضحى بعد الحج والوقوف بعرفه الذي هو ركن من أركان الإسلام ، كما في الحديث فهي أعياد من أجل آداء العبادات ، ليس من أجل تعظيم أحد ، أو تعظيم مكان ، أو تعظيم مناسبة ، كما يفعله الخرافيون ومن يعملون أعمال الجاهلية .

عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم»[(١)] رواه في «المختارة»[(٢)] هذا الحديث رواه أبو يعلى والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء[(٣)] في «المختارة» قال شيخ الإسلام: (فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب

---

(١) هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، المسمى زين العابدين، وهو من أئمة التابعين، عن أبيه الحسين، عن جده، علي بن أبي طالب، عن رسول الله ﷺ فياله من سند عظيم، فانظر كيف جاء هذا الحديث وهذه السلسلة المباركة الذين هم أقرب الناس إلى الرسول ﷺ، وكيف بلَّغوه للناس وهذا من أمانتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وحرصهم على الأمة «أنه رأى رجلاً» علي بن الحسين رأى رجلاً يأتي إلى فرجة عند قبر النبي ﷺ، الفرجة: الفتحة التي تكون في الجدار؛ لأن قبر الرسول ﷺ كان في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأنه دفن في المكان الذي توفي فيه في بيت عائشة، ولما كانت عائشة على قيد الحياة كان الباب مفتوحاً، وكانت تدخل وتخرج من بيتها، ولما ماتت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سُدَّ الباب وبني؛ حماية لقبر النبي ﷺ، لكن كان به فرجة في الجدار وكان هذا الرجل الجاهل يأتي إلى هذه الفرجة فيدخل ويدعو عند قبر الرسول، فلما رآه علي بن الحسين نهاه عن ذلك وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي، عن جدي، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا تجعلوا قبري عيداً ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً وصلوا علي حيث كنتم» هذا مثل حديث أبي هريرة السابق، لكن هذا فيه واقعة وحادثة حدثت، وحصل عندها إنكار المنكر؛ لأن علي بن الحسين أنكر على هذا الرجل. فيه إنكار المنكر لاسيما الشرك أو وسائل الشرك؛ لأن الرجل ما عمل شركاً، وإنما عمل وسيلة من وسائل الشرك وهي الدعاء عند قبره ﷺ، وفيه: أن من ينكر الشيء يذكر الدليل؛ لأن علي بن الحسين لما أنكر على هذا الرجل ذكر الدليل بسنده عن الرسول ﷺ، هذا من علو الإسناد، وفيه - كما دل عليه حديث أبي هريرة السابق - سد الوسائل المفضية إلى الشرك.

(٢) «المختارة» كتاب للإمام عبد الله بن محمد بن عبد الواحد الحنبلي، و«المختارة» يعني الأحاديث الصحيحة التي اختارها زائدة على ما في الصحيحين.

(٣) ضياء الدين، عبد الله بن محمد بن عبد الواحد الجماعيلي الحنبلي.

الدار ؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم فكانوا له أضبط) انتهى[١] ، قوله : « عن علي بن الحسين » أي : ابن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم ، قال الزهري : ما رأيت قرشياً أفضل منه ، مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح ، قوله : « أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة » - بضم الفاء وسكون الراء - وهي الكوة في الجدار والخوخة ونحوهما[٢] قوله : « فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه » وهذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها[٣] قال شيخ الإسلام : (ما علمت أحداً رخص فيه[٤] ؛ لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً ، ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه[٥] ؛ لأن ذلك لم يشرع ، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي

---

(١) الذي ينتسب للشيعة أو يلصقون أنفسهم بآل البيت ويعظمون قبورهم ويبنون المشاهد انظر إلى هذا الحديث الذي جاء عن أهل البيت ، هذا فيه رد على الشيعة بأهل البيت الذين تقولون أنهم كذا وكذا ، هم أنكروا عليكم هذا الشيء ، فهذا حجة على الشيعة .

(٢) الكوة والخوخة والفرجة هي بمعنى واحد .

(٣) قصد القبور للدعاء والصلاة عندها هذا منهي عنه ؛ لأنه من وسائل الشرك ، أما الذهاب إليها من أجل زيارتها والسلام على الأموات والدعاء لهم هذا مشروع ؛ لأن النبي ﷺ أمر بزيارة القبور . والمشاهد : هي الأضرحة التي يبنونها على القبور مثل : مشهد الحسين ، ومشهد كربلاء ، ومشهد البدوي ، يسمونها مشاهد ، يسمونها مقامات ، يسمونها مساجد أيضاً .

(٤) ما علم أحداً من أهل العلم المعتبرين رخَّص في التعبد عند القبور ، والاجتماع عندها ، كلام الشيخ معناه حكاية الإجماع من علماء الأمة المعتد بهم .

(٥) يعني لا يُشرع له كل ما دخل المسجد ليصلي في مسجد الرسول ﷺ سواء كان من أهل المدينة أو من المقيمين فيها ليس من أهلها أن يذهب ليسلم على الرسول ﷺ ، إنما هذا في أول مرة حينما يقدم من السفر .

قبر النبي ﷺ ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك ، قال : ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها[(١)] ، وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون ، فإذا قضوا الصلاة قعدوا وخرجوا[(٢)] ، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل[(٣)] ، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم ، بل نهاهم عنه في قوله : « لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني » فبيَّن أن الصلاة تصل إليه من بُعد وكذلك السلام ، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد ، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب لما كانت عائشة رضي الله عنها فيها ، وبعد ذلك إلى أن بني الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم[(٤)] ولا لسؤال عن حديث أو علم[(٥)] ، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً

---

(١) هذا كلام الإمام مالك : لا يصلح آخر هذه الأمه إلا ما أصلح أولها ، إذا كان أولهم لم يكونوا يفعلون هذا عند قبر النبي ﷺ فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولا يجوز لآخر هذه الأمة أن يفعلوا هذا الشيء بدعوى أنهم يحبون الرسول ﷺ ، حب الرسول واجب لكن حبه يكون باتباعه ﷺ والاقتداء به ، لا بمخالفته والابتداع في دينه فإن هذا لا يدل على حبه ﷺ .

(٢) قعدوا في مكانهم لطلب علم أو لذكر الله ﷻ في المسجد ، كل يجلس في مصلاه لا يذهبون إلى القبر ، منهم من يقعد ومنهم من يخرج .

(٣) يصلون على الرسول ويسلمون عليه في الصلاة ، في الفريضة والنافلة ، يصلون عليه في أي مكان ولا يختص هذا بالمجيء إلى قبره ؛ لأن المجيء إلى قبره يؤول إلى الشرك ، وسيلة من وسائل الشرك إذا كثر .

(٤) مع أن الباب مفتوح في عهد عائشة رضي الله عنها ، لم يكونوا يذهبون إليه ، لعلمهم أن هذا لا يجوز .

(٥) كانو يسألون عائشة رضي الله عنها عن ما أشكل عليهم من الأحاديث ، ولم يكونوا يسألون الرسول ﷺ في قبره لعلمهم أن هذا لا يجوز .

أو سلاماً[١] فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبيّن لهم الأحاديث ، وأنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج ، كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عند قبره وقبر غيره[٢] ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويحدثهم في الظاهر[٣] ، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر ، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم[٤] ، وأن أرواح الموتى تجسدت لهم فرأوها ، والمقصود أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا

(١) لأن الشيطان تسلط على المتأخرين الخرافيين ؛ وصار يتصوَّر لهم بصورة الميت ، يكلمهم على أنه هو الميت خرج من قبره وهو في الحقيقة الشيطان . الشيطان سوَّل لهم وكلمهم على لسان الميت ، من أجل إضلالهم ، ومن أجل إغرائهم ، وكانوا يقولون : أن الرفاعي لما سلَّم على الرسول أخرج الرسول ﷺ يده من القبر وصافح الرفاعي هذا من الكذب المفترى ، الرسول ﷺ ما أخرج يده لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء والصحابة كيف يخرجها للرفاعي الخرافي هذا من الكذب المفضوح ، لكن كان قصدهم دعاية لهذا المذهب القبيح .

(٢) الشيطان ما فعل هذا في وقت الصحابة ، ولا في عهد التابعين ، ولا في عهد القرون المفضلة ، لعلمهم أن هذا باطل ، ما صنع الشيطان هذا ؛ لأنه لو صنع هذا لردوا عليه ، فلما جاء المتأخرون تسلط عليهم الشيطان ، فصدقوه وظنوا أن هذا هو الميت طلع من قبره أو إن روحه تشكلت وأنه يكلمهم ، وهو الشيطان يصدقوه لجهلهم وبعدهم عن أدلة الكتاب والسنة واعتمادهم على الخرافات والحكايات الباطلة والأحاديث المكذوبة تسلط عليهم الشيطان مع الجهل .

(٣) يقولون : إن الرسول يحضر المولد ، لذلك يقومون له ويقولون : الرسول جاء . هذا من الكذب ما جاء الرسول إلى الصحابة ولا إلى الخلفاء الراشدين إذا اجتمعوا للتشاور فكيف يجيء لهؤلاء الخرافيين الكذبة ؟! هذا من الباطل المكشوف .

(٤) هذا من الباطل ؛ لأن الأموات لا يرجعون إلى الدنيا أبداً ، هذا من المحال والكذب لا الرسول ولا غيره .

يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما كان يفعل من بعدهم من الخلوف) ، قال سعيد بن منصور في « سننه » : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، أخبرني سهيل بن أبي سهيل ، قال : رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند قبر النبي ﷺ فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال : هلم إلى العشاء قلت : لا أريده ، قال : ما لي رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبي ﷺ ، فقال : إذا دخلت المسجد فسلم(١) ، ثم قال لي : إن رسول الله ﷺ قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر ، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم ، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء(٢) . قلت : وهذا أيضاً له قرب النسب(٣) وقرب الدار فنهى عن المجيء إلى القبر للدعاء عنده(٤) ، فالمجيء إلى القبر للسلام عليه وتحري إجابة الدعاء ليس مما شرعه الله ورسوله لهذه الأمة ، ولو كان مشروعاً لما تركه الخلفاء والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من سادات أهل البيت وأئمة التابعين ولما أنكروا على من فعله ، وقولهم هو الحجة ، وهو الذي دلت عليه الأحاديث

---

(١) قال : « إذا دخلت المسجد فسلم » هذا في كل مسجد إذا دخلت تقدم رجلك اليمنى ، وتقول : بسم الله أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم ، اللهم صلِ وسلم على نبينا محمد ، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك . هذا في كل مسجد ، تصلي وتسلم على الرسول ﷺ ، ولا تحتاج للذهاب إلى قبره ﷺ .

(٢) ليس في القرب من قبره ﷺ ميزة على من بَعُدَ عنه ، كلهم سواء ، من صلى وسلم على الرسول رد عليه « ما أنت ومن بالأندلس إلا سواء » ، الأندلس هي أسبانياً اليوم ، ويقصد ضرب المثال .

(٣) هذا أيضاً له قرب النسب كلهم من بيت الرسول ﷺ ، كلهم أحفاد فاطمة بنت الرسول ﷺ .

(٤) هذا أبلغ رد على الشيعة ، هؤلاء أئمة أهل البيت ينكرون هذا الشيء .

كحديث عائشة وحديث الباب وغيرهما ، لعلم السلف بما أراده النبي ﷺ بنهيه عن الغلو وخوفه مما وقع ممن غلا في الدين واتبع غير سبيل المؤمنين كما قال تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾(١) [سورة النساء : ١١٥] ، ولما حدث الشرك بأرباب القبور في هذه الأمة وتعظيمها وعبادتها صارت تشد الرحال إليها لقصد دعائها والاستغاثة بها(٢) ، وبذل نفيس المال تقرباً إليها وتعظيم سدنتها ، فيا لها مصيبة ما أعظمها ، نسأل الله السلامة من هذا

---

(١) فمن بلغته هذه الأحاديث ولكنه لم يلتفت إليها ، وأصر على ما يعمله الخرافيون عند القبور ، فإنه تنطبق عليه هذه الآية : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء : ١١٥] ليختر الإنسان لنفسه النجاة أو الهلاك ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ هذه المشاقة للرسول ﷺ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ قامت عليه الحجة تبين له الهدى والنور ، هذه الأحاديث صحيحة مسندة إلى رسول الله ﷺ ، خصوصاً هذه الأحاديث عن أهل بيت رسول الله ﷺ ، سلسلة ذهبية تتلألأ بالنور كلها تنهى عن هذا الفعل ، فمن بلغته هذه الأحاديث وأصر على ما عليه الخرافيون والقبوريون فقد شاق الرسول ﷺ بعد ما قامت عليه الحجة وتبيَّن له الهدى ، فهو متأهل لهذا الوعيد ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ لأن الله ﷻ إذا لم يقبل العبد الهدى بعد ما تبيَّن له يختم على قلبه ، فلا يقبل الهدى بعد ذلك ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [سورة الأنعام : ١١٠] ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [سورة الصف : ٥] فيخشى على من بلغه الحجة وقام عليه الدليل ولم يتمثل أن يصاب في قلبه بالزيغ والضلال ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور : ٦٣] .

(٢) لم يكتفوا بالدعاء عندها بل كانوا يدعونها ، وهذا ما تؤول إليه الوسائل .

الشرك وما يقرب منه أو يوصل إليه[١] .

(١) لأن القلوب بيد الله ، ونحن لا نأمن على أنفسنا أن نصاب ، الإنسان يحذر ويخاف إبراهيم ﷺ قال : ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٥ - ٣٦] خاف على نفسه فكيف لا نخاف على أنفسنا أن نصاب بمثل ما أصيب به هؤلاء ، فعلينا أن نحذر ونخاف وأن نتعلم التوحيد ونتعلم أمور الشرك ووسائله حتى نتجنبها ، وحتى نحذر ونُحَذِّر منها أما الذي يجهل الشيء فإنه لا يعرفه فكيف يتجنبه وهو لا يعرفه ؛ بل إنه قد ينطلي عليه أنه شيء حسن وشيء طيب ، عبادة لله وتقرب إلى الله إلى آخره ، محبة للصالحين ، محبة للرسول إلى آخر ما يموهون به ، ثم ينخدع الإنسان إذا كان على جهل ينخدع بهذه الأمور ، لاسيما إذا رأى كثرة الناس على هذا الشيء فلا يخلِّص الإنسان إلا الرجوع إلى الكتاب والسنة بنية صادقة وقلب سليم .

٢٣ - باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبدُ الأوثان

وقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٥١] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ٦٠] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف : ٢١] .

عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكُم حذو القُذَّة بالقُذَّةِ ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ ؛ لدَخَلْتُمُوهُ » . قالوا : يا رسولَ الله ! اليهودَ والنَّصارَى ؟ قال : « فَمَنْ ؟ » ؛ أخرجاه .

ولِـمُسْلِمٍ : عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال : « إنَّ الله زوى لي الأرض ، فرأتُ مشارقها ومغاربها ، وإن أُمتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُويَ لي منها ، وأُعطيتُ الكنزين : الأحمر والأبيض ، وإنّي سألتُ ربي لأمّتي ألّا يُهلكها بِسَنَةٍ بِعامَّةٍ ، وألّا يُسَلِّطَ عليهم عدُوًا من سِوَى أنفُسِهم ، فيستبيحَ بَيْضَتَهُم ، وإنَّ رَبِّي قال : يا مُحَمَّدُ ! إنّي إذا قضيتُ قضاءً فإنَّهُ لا يُرَدُّ ، وإنّي أعطيتُكَ لأمَّتِكَ ألّا أُهْلِكَهُم بِسَنَةٍ بِعامَّةٍ ، وألّا أُسَلِّطَ عليهم عدُوًا مِنْ سِوَى أنْفُسِهِمْ ، فيستَبِيحَ بَيْضَتَهُم ، ولو اجْتَمَعَ عليهم مَنْ بِأقطارِها ، حتّى يكون بعضهم يُهلِكُ بعضاً ويَسْبِي بعْضُهُم بعضاً » .

ورواهُ البرقاني في « صحيحه » ، وزاد : « وإنّما أخافُ على أُمّتي الأئمَّةَ

المُضِلِّين ، وإذا وقعَ عليهِمُ السَّيْفُ ؛ لم يُرْفع إلى يوم القيامةِ ، ولا تقُومُ السَّاعةُ حتّى يلحَقَ حَيٌّ من أُمّتي بالمُشْرِكينَ ، وحَتّى تَعْبُدَ فِئَامٌ من أُمَّتِي الأَوْثَانَ ، وإِنَّهُ سيكُونَ في أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثلاثُونَ ، كُلُّهُم يزعُمُ أَنَّهُ نبيٌّ ، وأنا خاتَمُ النَّبيينَ ، لا نَبيَّ بَعْدِي ، ولا تَزَالُ طائِفَةٌ من أُمَّتِي على الحَقِّ منصُورةً ، لا يَضُرُّهُمْ من خَذَلَهُمْ ، حتَّى يأتي أمرُ الله ﷻ » .

٢١- باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

قوله : (باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان »[1] وقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾[2] [سورة النساء : ٥١] الوثن يطلق على كل من قُصِد بنوع من أنواع

(١) هذا الباب أراد به الشيخ ﷺ الرد على من زعم أن هذه الأمة لا يقع فيها شرك ، وأن ما يفعل عند القبور لا يكون شركاً ، وهذه حجة اتخذوها وهي حجة باطلة ؛ لأنه دلت الأدلة على أن هذه الأمة يقع فيها الشرك ، كما وقع في الأمم السابقة ، ولا يبقى على التوحيد إلا من ثبته الله ﷻ .

(٢) قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ : يعني اليهود ، والكتاب المراد به التوراة ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾: سيأتي أن الجبت معناه السحر، وقيل : الكاهن . والطاغوت : ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ، مأخوذ من الطغيان وهو الزيادة عن الحد ، فالطاغوت يدخل فيه كل ما تجاوز الحد ومنه ما عبد من دون الله ﷻ ، ومنه من حكم بغير ما أنزل الله فهو طاغوت ، ومنه من يدعي علم الغيب فهو طاغوت ، وسبب نزول الآية : أن اثنين من زعماء اليهود وهما حيي بن الأخطب وكعب بن الأشرف لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وظهر الإسلام في المدينة ، وجاءت غزوة بدر وانتصر المسلمون غاظ ذلك اليهود ، فذهبوا إلى أهل مكة يستنجدونهم على الرسول ﷺ فسألهم كفار مكة عن حالهم وعن حال محمد ، أيهم خير ؟ فقالوا : وما أنتم وما محمد ؟ قالوا : نحن نفعل كذا ، ونطعم =

الحجيج ، ونسقي الحجيج ، ونكرم الضيفان ، ونعمل ونعمل ، ومحمد صنبور عليل مقطوع النسل لا مال له جاءنا وسفّه أحلامنا ، وعاب آلهتنا ، قالوا لهم : أنتم خير من محمد(*) . قالوا هذا وهم أهل كتاب ، وهم يعلمون أن محمداً رسول الله ، وأن المشركين عُبّاد أوثان ، ولكن حملهم الحسد لرسول الله ﷺ ولأصحابه أنهم قالوا : أنتم خير من محمد ، وهم يعلمون أن محمداً ﷺ على الحق وأنه رسول الله ، وأن كفار قريش على الباطل ، وأنهم عباد أصنام يخالفون حتى اليهود . فسمى الله ذلك إيماناً بالجبت والطاغوت . وسماه كفراً بالله ﷻ فدل على أن من تلفظ بكلام الكفر يكون كافراً ، ولو لم يعتقد هذا الكفر ، ولو كان في قلبه يعتقد بطلان ما يقول ؛ لأن هؤلاء يعتقدون بقلوبهم بطلان هذا القول ، لكن قالوه لهدف يريدونه فسماه الله إيماناً بالطاغوت ، فدل على أن الإيمان بالجبت والطاغوت لا يقتصر على تصديق القلب ؛ بل يكون بالقول باللسان ، فمن قال كلمة الكفر فإنه يكفر ، وفي هذا رد على المرجئة خصوصاً مرجئة هذا العصر الذين يقولون : لا يكفر إلا إذا صدق بقلبه ولو فعل ما فعل ، ولو قال ما قال من عظائم الكفر لا يحكم عليه حتى يعتقد بقلبه ، مع أن كعب بن الأشرف وحيي بن الأخطب لم يعتقدا بقلوبهم ؛ بل كانا يعتقدان بقلوبهم بطلان هذا القول ، ومع هذا حكم الله عليهم بالكفر وقال : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ سماه إيماناً بالجبت والطاغوت ، وهذا كفر ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي : للمشركين من أهل مكة : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ من محمد ﷺ وأصحابه ﴿ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا . أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ [سورة النساء : ٥١ - ٥٢] ، ثم بيّن سبحانه الذي حملهم على هذا ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ [سورة النساء : ٥٣ - ٥٤] يعني محمد ﷺ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فبيّن أن الذي حملهم على هذا الحسد، وهم لا يعتقدونه بقلوبهم، ما المناسبة لذكر هذه الآيات تحت باب أن بعض هذه الأمة

(*) أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » ٣ / ٩٧٤ (٥٤٤١) ، وسعيد بن منصور في التفسير من « سننه » ٤ / ١٢٨٠ (٦٤٨) ، وقال المحقق : سنده ضعيف لإرساله ، وهو صحيح إلى مرسله عكرمة ، وقد روي موصولاً .. ولا يصح . وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد ومنبع الفوائد » ٧ / ٦ : « وفيه يونس بن سليمان الجمال ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

العبادة من دون الله من صنم أو قبر أو غيره ، لقول الخليل ﷺ : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ [سورة العنكبوت : ١٧] مع قوله : ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾[1] [سورة الشعراء : ٧١] .

قوله : وقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عكرمة ، قال : « جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف[2] إلى أهل مكة ، فقالوا : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد ، فقالوا : ما أنتم ومحمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء[3] ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العناة[4] ، ونسقي الحجيج ، ومحمد صنوبر[5] قطَّع أرحامنا ، واتبعه سُرَّاق الحجيج من غفار ،

يعبد الأوثان ؟ المناسبة – ستأتي في هذا الباب – أن النبي ﷺ قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم »(*) وهذا خبر منه ﷺ أن هذه الأمة ستفعل مثل ما تفعل الأمم قبلها من الكفر والشرك وسائر الأعمال حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه ، هذا وجه المناسبة أنه إذا كان في اليهود والنصارى من يؤمن بالجبت والطاغوت فسيكون في هذه الأمة من يتشبه بهم ويؤمن بالجبت والطاغوت .

(١) فدل على أن الأصنام والأوثان بمعنى واحد ، يجتمعان ويفترقان ، يختص الصنم بما هو على صورة حيوان ، والوثن يزيد عليه بكل ما عبد من دون الله سواء كان على صورة أو على غير صورة .

(٢) هذا سبب نزول الآية .

(٣) ننحر الكوم يعني الإبل جمع كوماء وهي السمينة .

(٤) العناة يعني المأسورين .

(٥) « محمد صنبور » : يعني ليس له ذكر ، قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [سورة الكوثر : ٣] فهم الذين قطع الله ذكرهم ودابرهم ، وبقي ذكر محمد ﷺ ، ودينه .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٦ / ٢٦٦٩ (٦٨٨٩) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٠٥٤ (٢٦٦٩) .

فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلاً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إلى قوله : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾(١) [سورة النساء : ٥١] .

قوله : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾(٢) [سورة المائدة : ٦٠] قال البغوي في

---

(١) الشاهد من الآية أنه لو كان في اليهود من يؤمن بالجبت والطاغوت ، فسيكون في هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت .

(٢) لما كان اليهود والنصارى يسخرون من المسلمين ، ويسخرون من دين المسلمين ويعيبونهم كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٧ - ٥٨] ثم قال سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ . قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾(*) [سورة المائدة : ٥٩ - ٦٠] لما كانوا يسخرون من المسلمين ويتنقصونهم بما هو

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ... ﴾ بأن فيها رداً على المخالفين ، لكن هناك من يقول يجب ذكر حسنات المخالفين مقابل الرد عليهم ، فأجاب : ما وجدنا في هذه الآيات ذكر حسنات اليهود ولا النصارى ، وليس غرضنا تعداد الحسنات ، غرضنا رد الباطل فقط . أما الحسنات – إن كان عنده حسنات – فهي عند الله ﷻ ، ونحن لا نحاسب الإنسان على حسناته وسيئاته ؛ بل غرضنا شيء واحد وهو رد الباطل فقط . وفي هذه الآيات لم يذكر الله ﷻ لليهود حسنات وإنما ذكر قبائح ، وكذلك في ردود العلماء من عهد السلف الصالح إلى الآن لم نجد فيها أنهم يذكرون حسنات المردود عليه ، وإنما فيها أنهم يردود على أخطائه ، وما صدر منه . أ. هـ .

=

« تفسيره » : (﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم ﴾ أخبركم ﴿ بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ ﴾

الكمال والشرف ، وهو الإيمان بالله ﷻ والإيمان بالرسل وما أنزل الله على هذه الأمة ، وما أنزل على من قبلها بيّن الله العيب الصحيح ، وأنه فيكم أنتم يا من تعيبون المسلمين . فهذا فيه الرد على المخالفين ، وأنه يجب الرد على أهل الباطل والزيغ ولا يسكت عنهم ، وينبغي فضحهم وكشف أستارهم ، وفيه رد أيضاً على الذين يقولون : لا تردوا على أهل المقالات الفاسدة ، ولا تردوا على أهل الضلال ولا ولا . هذا معناه السكوت عن المنكر ، ومعناه الهزيمة للمسلمين ، والذلة للمسلمين ؛ بل الواجب أنه يُرد على أهل الباطل ، ويُدحض قولهم ، وتذكر معايبهم ، حتى يخرصون ويسكتون ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ ﴾ بشرٍ مما تقولون بزعمكم ﴿ مَثُوبَةً ﴾ : ثواباً ومرجعاً ومرداً عند الله ﴿ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ ﴾ : من هو الذي لعنه الله ، أليس هم اليهود والنصارى ؟! واللعن : هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، وهذا في كتاب الله . لعن اليهود والنصارى في كتاب الله ﴿ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة الفاتحة : ٧] وهم اليهود ، والمغضوب عليه : هو من ترك الحق بعدما عرفه ، وهذه هي صفة اليهود ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾ : كما أخبر الله في سورة الأعراف أنهم لما احتالوا على صيد الحيتان يوم السبت وقد نهاهم الله عن ذلك ، مسخهم الله قردة وخنازير ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٦] فحوَّل الله صورهم إلى صور قردة ومسخها عقوبة لهم ، كما في قصة أصحاب السبت وهذا في اليهود . هل يعيبون المسلمين بعد هذا ؟! ﴿ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ هذا محل الشاهد من الآية ، عبد : فعل ماضي . والطاغوت : مفعول عبدوه من دون الله والطاغوت : الشيطان . عبدوا الشيطان من دون الله ، فإذا كان في اليهود والنصارى من يعبد الطاغوت ، فسيكون في هذه الأمة من يعبد الطاغوت ؛ لأن الرسول ﷺ أخبر أن من هذه الأمة من يتشبه باليهود والنصارى في كل شيء ، وأشد ذلك وأعظمه الشرك ، فكما وقع الشرك في اليهود والنصارى ، فسيقع في هذه الأمة من باب التشبه بهم وقُرئ « وعُبُدُ الطاغوتِ » عُبُدُ : جمع عابد ، وهو مضاف . والطاغوت : مضاف إليه مجرور بالإضافة وعلامة جره الكسرة ، والمعنى واحد أن في اليهود من عبد الطاغوت، وسيكون في هذه الأمة من يتشبه بهم -كما في الحديث الآتي- فيعبد الطاغوت.

يعني قولهم : لم نر أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم[١] ولا ديناً شراً من دينكم ، فذكر الجواب بلفظ الابتداء ، كقوله : ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ ﴾ [سورة الحج : ٧٢] وقوله : ﴿ مَثُوبَةً ﴾[٢] ثواباً وجزاءً نصب على التفسير[٣] ﴿ عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ ﴾ فالقردة : أصحاب السبت ، والخنازير : كفار مائدة عيسى ، وعن علي ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت[٤] ، فشبابهم مسخوا قردة ، ومشايخهم مسخوا خنازير ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ أي : وجعل منهم من عبد الطاغوت ، أي : أطاع الشيطان فيما سوَّل له)[٥] .

وفي تفسير الطبري قرأ حمزة « وعُبُدُ الطَّاغُوتِ » بضم الباء وجر التاء[٦] ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعي والأعمش

---

(١) يعني من المسلمين .

(٢) يعني مرجعاً . المثوبة من الثواب وهو المرجع ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ : قيل مثابة يعني محل اكتساب للثواب وقيل : مرجعاً يعني يذهبون ويرجعون إليه .

(٣) منصوبة للتمييز ، فقوله : (على التفسير) : يعني على التمييز .

(٤) يعني القردة والخنازير كلها في أصحاب السبت هذا مسخ ، ولكن هذا المسخ لا يبقى له نسل ، مسخوا ثم هلكوا ، والقردة الموجودة الآن هذه أصل خلقة ، ليسوا من بني إسرائيل ، هذه حيوانات مخلوقة ؛ لأن الممسوخ لا يبقى ؛ بل يهلك ولا يبقى له نسل .

(٥) وهذا محل الشاهد أن في اليهود من عبد الطاغوت ، فيكون في هذه الأمة من يعبد الطاغوت تشبهاً بهم .

(٦) « عُبُدُ الطاغوتِ » يعني جمع عابد ، وهو مضاف ، و« الطاغوت » : مضاف إليه .

وأبان ابن تغلب وعُبُدَ الطَّاغُوتِ بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء(١) .

قوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا ﴾ [سورة الفرقان : ٣٤] مما تظنون بنا ﴿ وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٦٠] وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشارك ، كقوله : ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴾(٢) [سورة الفرقان : ٢٤] قاله ابن كثير .

قوله : « عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) يعني : « عُبُدُ الطاغوت » و« عُبُدَ الطاغوت » والمعنى واحد .

(٢) يعني أن أفعل التفضيل يأتي أحياناً على غير بابه ، فليس هناك طرفين أحدهما أفضل من الآخر ؛ بل ليس فيه إلا طرف واحد(*) .

(*) جاء في متن كتاب التوحيد دليلاً ثالثاً من القرآن الكريم على هذا الباب ، وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾ [سورة الكهف : ٢١] ، ولم يتعرض له الشارح الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ بالتعليق ، وقد شرحه الشيخ صالح الفوزان حفظه الله فقال : هذه الآية في قصة أصحاب الكهف ، وهم الفتية المؤمنة التي ذكر الله قصتها ، وأن قومهم لما عثروا عليهم أمواتاً في الكهف ، اختلفوا في شأنهم ، قال بعضهم : ﴿ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ ﴾ [سورة الكهف : ٢١] يعني سدوا عليهم الغار واتركوهم ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ ﴾ وهم أهل السلطان وأهل القوة ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾ : أي مصلى ، فدل هذا على أن في الأمم السابقة من يتخذ المساجد على القبور ، وسيكون في هذه الأمة من يتخذ المساجد على القبور ؛ لقوله ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم » هذا الشاهد من هذه الآية الكريمة وقد وقع هذا ، وجد في هذه الأمة من يبني المساجد على القبور ، ويتخذ القبور مصليات ، وهذا مصداق ما أخبر به ﷺ . أ.هـ

« لتتبعن سنن من كان قبلكم[1] حذو القذة بالقذة[2] حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه[3] قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال :

---

(١) إذا جمعت بين الآيات والحديث ظهر لك مطابقة الترجمة ، وهذا من فقهه ﷺ هذه قاعدة أن هذه الأمة ستتشبه بالأمم السابقة في جميع ما يفعلون ومن ذلك الشرك وسيكون في هذه الأمة شرك وكفر .

(٢) « حذو القذة بالقذة » : قذة السهم الريشة التي تكون في السهم كانوا من قبل سلاحهم نبل سهام ، يصنعونها ويزبرون رأس السهم ، يجعلونه حاداً ، ويجعلون له ريشتين متعادلتين من أجل أنه إذا طار في الهواء يتعادل ولا يسقط كالجناحين للطائر ، فلو اختلفت إحدى الريشتين سقط السهم ، وإذا تعادلتا فإنه يمضي إلى الهدف ، فستساوي هذه الأمة الأمم السابقة كتساوي القذة بالقذة ، وهذا وصف دقيق ، وأن هذه الأمة سيكون فيها من يساوي الأمم السابقة فيما تفعل من الشرك والكفر وغير ذلك حذو القذة بالقذة .

(٣) لا تتركوا من أعمالهم شيئاً ، حتى الأعمال التي لا قيمة لها « لو دخلوا جحر ضب » وهو أسوأ الجحور وأعسر الجحور ، لو دخل اليهود والنصارى جحور الضباب لكان في هذه الأمة من يدخلها مع أن هذا الجحر من أعسر الجحور وأشدها مدخلاً ، فهذا من باب الوصف الدقيق أن هذه الأمة ستفعل ما يفعل الأمم السابقة حتى في الأعمال التافهة ، كدخول جحور الضباب لو وجد من يدخل في الجحور لوجد في هذه الأمة من يقلده .
وهذا واقع ومشاهد الآن أن بعض الأمة أو كثير من الأمة يحرص على أن يفعل مثل ما يفعل اليهود والنصارى ، ويعتبرون هذا فخراً لهم ورُقيّاً وتقدُّماً وحضارة ، وأن تركه تأخراً ورجعية ، هذا واقع كما تشاهدون ، وكما تسمعون أن هذه الأمة تسير خلف ركب الأمم السابقة ولو في أتفه الأمور التي لا قيمة لها ولا فائدة منها ، لا في الدين ولا في الدنيا فيقلدونها ، وهذا مصداق ما أخبر به ﷺ ، وهذا واقع مشاهد من الشرك وما دونه . ولما كانت الأمم الآن تعظم الآثار وتعتني بالآثار وتنفق عليها الأموال صار في هذه الأمة من يعظم الآثار ويجمعها ويرتبها ويزينها لا لشيء إلا لأن الكفار يعملون هذا الشيء ونحن نقلدهم ، مع أن ديننا ينهانا عن ذلك ، ولكن لا ينظرون إلى الدين ، ينظرون إلى فعل الأمم السابقة .

فمن ؟ »[(١)] « أخرجاه »[(٢)] . وهذا سياق مسلم ، فبيَّن ﷺ في هذا الحديث أن كل ما وقع من أهل الكتاب مما ذمهم الله به في هذه الآيات وغيرها لابد أن يقع جميعه في هذه الأمة وهو الشاهد للترجمة . قوله : « سَنَن » – بفتح المهملة[(٣)] – أي : طريق من كان قبلكم .

قوله : « حذو القذة » بنصب حذو على المصدر[(٤)] ، والقذة – بضم القاف – واحدة القذذ وهو ريش السهم[(٥)] ، أي : لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه وتشبهوهم في ذلك ، كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى ، فوقع كما

(١) تعجب الصحابة قالوا : نتبع اليهود والنصارى ؟ قال : فمن القوم إلا اليهود والنصارى « فمن » : يعني فمن غيرهم ؟!
وهذا فيه دليل على أنه يكون في هذه الأمة من يتشبه ويقلِّد اليهود والنصارى في جميع أحوالهم ، حتى في الشرك بالله وعبادة الطاغوت ، وغير ذلك من أفعالهم القبيحة ، وهذا موجود كثير .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم حتى لا يقال هذا الحديث ليس صحيحاً ، هذا أعلى شيء في الصحة ؛ لأنه اتفق عليه الشيخان ومعناه واضح ، والواقع يصدقه الآن ، وليقولوا ما شاءوا ، هذا كلام نبينا ﷺ ، الذي لا ينطق عن الهوى . الشاهد منه أن هذه الأمة ستفعل مثل أفعال الأمم السابقة ، ومنها بل أعظمها وأخطرها الشرك والكفر ، وقد حصل هذا .

(٣) ويجوز « سُنن » – بضم السين – على أنه جمع طريقة . السَّنن : طريق والسُّنن : طريق .

(٤) يعني مفعول مطلق مصدره محذوف . تقديره : اتباعاً ، لتتبعن سنن من كان قبلكم اتباعاً ، حذو القذة بالقذة . فقام الوصف مقام الموصوف ، ينوب عن المصدر صفته .

(٥) يعني يجعلون للسهم ريشتين لأجل أن يتعادل إذا أرسل إلى الهدف ، ولو لم يكن فيه سقط ولو كان فيه ريشتين لكن وزنها مختلف أيضاً مال السهم وسقط ولم يتجه للهدف ، فهذه الأمة يكون فيها من يفعل مثل فعل اليهود تماماً كمحاذاة القذة بالقذة ما يترك شيئاً من فعل اليهود والنصارى إلا وفعله وهذا واقع الآن . ما نترك شيئاً من فعلهم إلا وجلبناه لبلادنا ، وأنشأنا له منشآت ، وجعلنا له موازنات من باب التشبه فقط لا غير .

أخبر ﷺ . قال سفيان بن عيينة : « من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبَّادنا ففيه شبه من النصارى »(١) ، انتهى .

قوله : عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها(٢) ، وإن أمتي سيلغ ملكها ما زوي لي منها(٣) ، وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض(٤) ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم .

(١) لأن العلماء في اليهود أكثر والعباد في النصارى أكثر ، فمن فسد من علمائنا ففيه شبه بعلماء اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه بعباد النصارى .

(٢) قوله : « زوى لي الأرض » هذه معجزة من معجزاته ﷺ ، أن الله جمعها له في صورة مُصغَّرة ، فرأى مشارقها ومغاربها والله على كل شيء قدير . ثم أخبر أن مُلك أمته سيبلغ ما زوي له منها في هذه الصورة ، ووقع ما أخبر به ﷺ ، فامتد ملك أمته في المشرق والمغرب ، وسقطت أعظم دولتين على وجه الأرض في وقتهم وهي دولة فارس والروم .

(٣) هذا خبر منه ﷺ وهو معجزة قال : « سيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها » . وقد وقع ما أخبر به ﷺ ، فاتسع ملك أمة محمد حتى بلغ المشرق والمغرب في الفتوحات على عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعهد الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم ، حتى وصلت حدود الإسلام إلى الصين وإلى السند في أقصى المشرق ، ووصلت إلى طنجة والأندلس وحدود فرنسا من المغرب . هذا ما أخبر به ﷺ ، ووقع ما أخبر به ﷺ ، أما الشمال والجنوب فلم يذكر فيه شيئاً ولذلك لم تمتد الفتوحات جنوباً وشمالاً ؛ لأنه - والله أعلم - كل السكان في المشرق والمغرب ، أما الجنوب والشمال فسكانها قليل ، وهي المناطق المتجمدة في الجنوب والشمال ، ليس فيها أحد إلا قليل .

(٤) هذا خبر آخر « أعطيت الكنزين الأحمر » وهو الذهب . « والأبيض » وهو الفضة ، هذا إخبار منه ﷺ أن أمته ستستولي على أموال فارس والروم . أموال فارس من الفضة من الأبيض كالجواهر ، وأموال الروم من الأحمر وهو الذهب ، وقد وقع ما أخبر به ﷺ فاستولى المسلمون على أموال كسرى وقيصر ، وأنفقوها في سبيل الله ﷻ .

وإن ربي قال : يا محمد إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة ، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها[١] ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً » ورواه البرقاني في « صحيحه »[٢] .

---

(١) هذا إخبار منه ﷺ أنه متى اجتمعت هذه الأمة أمة واحدة وجماعة واحدة على الحق ، كما اجتمع المسلمون في عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين ، فلن يستطيع أهل الأرض أن يأخذوا شيئاً من بلاد المسلمين ، ولن يستطيعوا أيضاً أن يدخلوا على المسلمين أفكارهم ومعتقداتهم ؛ بل بالعكس يكون للمسلمين الغلبة والسلطة عليهم كما حصل ، وأنه إذا حصل في هذه الأمة اختلاف فإنه سيتسلط عليهم عدوهم ، وهذا وقع أول ما وقع في الاختلاف على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقتله ، فلما قتلوا الخليفة وقع السيف فيهم ، ولا يرفع إلى يوم القيامة .

(٢) هذا الحديث رواه أبو داود في « سننه »(*) وغيره ، وفيه بشارة وفيه إنذار ، فيه أن الرسول ﷺ دعا ربه أن لا يهلك أمته بسنة بعامة . قيل : الباء زائدة ، والأصل سنة عامة ، وهي ساقطة في بعض الروايات ، ومعنى السنة : الجدب والقحط ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٣٠] يعني بالجدب المتوالي والقحط المتوالي قال ﷺ لما دعا على قريش « اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف »(**) دعا عليهم بالجدب والقحط ، فالرسول دعا ربه أن لا يهلك الأمة بجدب عام على جميع المسلمين ؛ بل يكون الجدب في بعض البلاد دون البعض ؛ لأن هذا أخف من كون الجدب يعم بلاد المسلمين كلها فتهلك أموالهم ومواشيهم ، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يعني من الكفار ، فيستبيحهوا بيضتهم أي : حوزتهم وقوتهم وجماعتهم وبلادهم ، فقال

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٢١٥ (٢٨٨٩) ، وقد أخرجه بالزيادة التي ذكرها المصنف رحمه الله الإمام أبو داود في « سننه » ٤ / ٤٥٠ (٤٢٥٢) ، وابن ماجه في « سننه » ٢ / ١٣٠٤ (٣٩٥٢) وغيرهما ، وصححه الألباني .

(**) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٢٧٧ (٧٧١) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٤٦٦ (٦٧٥) .

وزاد : « وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين[١] ، وإذا وقع عليهم

الله ﷻ : « يا محمد » هذا فيه إثبات الكلام لله ﷻ « إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد » القضاء القدري إذا قضى الله وقدر شيئاً فلابد أن يقع ، لا راد لقضائه ﷻ « وإني أعطيتك لأمتك » : استجاب الله له . « أن لا أهلكهم بسنة بعامة » : يعني لا يعمم الجدب على بلاد المسلمين « وأن لا أسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً » : يعني ما دام المسلمون مجتمعون على كلمة واحدة ، وعلى جماعة واحدة فلن يستطيع أحد من أهل الأرض أن يتسلط عليهم ، هذا أعطاه الله للنبي ﷺ بهذا الشرط ، أعطاه أن لا يسلط عليهم عدوهم من الكفار بشرط أن يكونوا مجتمعين ، وأن يكونوا أمة واحدة غير مختلفين متحابين في الله ، فما دام هذا الشرط موجوداً فلن يتسلط عليهم ، ولن يمكنه الله ، وهذا وقع في أول هذه الأمة ؛ لما كانت أمة واحدة ، ودولة واحدة ، وقيادة واحدة ، تحت طاعة ولي أمرهم منقادين لولي الأمر ، ما استطاع الفرس والروم أن يتسلطوا عليهم ؛ بل سقطوا تحت أقدام المسلمين ، أما إذا اختل هذا الشرط فصار المسلمون يتناحرون فيما بينهم ، ووقع بينهم الخلاف والتفرق وصار بعضهم يقتل بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً ، فإن الله يسلط عليهم العدو ، وهذا وقع كما أخبر به ﷺ لما قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خليفة المسلمين ، وثالث الخلفاء الراشدين ، وقع القتال في الأمة ولا يزال إلى أن تقوم الساعة بسبب أنهم تفرقوا واختلفوا ، وقتل الخليفة الراشد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فمنذ قتل عثمان والأمة في اختلاف وتناحر وتطاحن وقتال وصراعات لا تزال ؛ عقوبة لهم وتسلط عليهم العدو . أخذ العدو بلاد المسلمين ، أين بلاد المسلمين الآن في المشرق والمغرب ؟ أليست تحت سطوة الكفار ؟ أخذ العدو بلادهم وتسلط عليهم ، وإن لم يتسلط عليهم بالسلطة السياسية تسلط عليهم بالاستعمار ، وبالسلطة الفكرية ، فهم تحت سلطة الكفار الآن سياسياً وفكرياً ، بسبب أنهم اختلفوا فيما بينهم ، واستحل بعضهم دم بعض ، وتقاتلوا وتناحروا ، فوقع ما تخوّفه ﷺ ، فالله وعد أنهم ما داموا مجتمعين فلن يسلط عليهم عدوهم ، أما إذا حصل بينهم اختلاف وقتل بعضهم بعضاً وسبى بعضهم بعضاً ، فإن الله يسلط عليهم عدوهم ، وهذا وقع كما أخبر به ﷺ .

(١) أخوف ما تخوّف الرسول ﷺ على أمته : الأئمة أي : القادة المُضِلّين من الأمراء والعلماء ،

=

السيف لم يرفع إلى يوم القيامة(١) ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين(٢) ، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان(٣) ، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون(٤) ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي

من أمراء السوء وعلماء الضلال ، هؤلاء هم الذين يحرفون الأمة ويضلونهم ، أمراء السوء يتسلطون على رقابهم ويجبرونهم على الاعتقادات الباطلة والانحراف عن الدين ، وعلماء الضلال يفتونهم بالضلال ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويصرفون المسلمين عن دينهم بسبب فتاواهم الضالة وآرائهم المنحرفة ، أخطر ما على المسلمين علماء الضلال - والعياذ بالله - .

(١) أخبر ﷺ أنه إذا وقع عليهم السيف فيما بينهم ، يعين إذا تقاتلوا فيما بينهم ، فإنهم يستمرون في هذا ولا يرفع عنهم السيف إلى يوم القيامة ، وهذا وقع بمقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قُتل وقع السيف في الأمة ، ولا يزالون يتقاتلون ويتناحرون إلى أن تقوم الساعة .

(٢) هذا محل الشاهد من الحديث ، « لا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ » من أمة محمد ﷺ . والحيّ معناها القبيلة « بالمشركين » : يلحقون بهم في بلادهم وفي عقيدتهم وفي مذهبهم ، ويتبعونهم . فهذا فيه دليل للترجمة على أن بعض هذه الأمة يلحقون بالمشركين ، فيعبدون الأوثان مثلهم .

(٣) وهذا صريح ، « حتى تعبد فئام » أي : جماعات كثيرة من هذه الأمة تعبد الأوثان . والأوثان يشمل كل ما عبد من دون الله ، ويدخل فيها القبور . والآن كما ترون عبادة القبور على أشدها في الأمصار في البلاد الممتدة ، والمسجد الذي ليس فيه ضريح ليس له قيمة عندهم ، إنما يتزاحمون على المسجد الذي فيه ضريح . وهذا مصداق ما أخبر به الرسول ﷺ .

(٤) هذا خبر آخر معناه النهي والتحذير أنه سيظهر في هذه الأمة من يدعي النبوة ، وعددهم ثلاثون كذاباً ، كلهم يدعي أنه نبي ، ولا نبي بعد محمد ﷺ ؛ لأنه خاتم النبيين ، يعني فلا تصدقوهم واحذروهم ولا تتبعوهم . وأول من ظهر : مسيلمة الكذاب في عهد النبي ﷺ ، والأسود العنسي في اليمن ، وقتل الأسود العنسي في حياة النبي ﷺ ، وقتل مسيلمة الكذاب بعد وفاة النبي ﷺ في عهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وفي وقعة اليمامة . والمختار بن أبي عبيد الثقفي ادعى النبوة في أواخر عهد الصحابة ، وتتابع المتنبؤن الكذبة منهم : سجاح
=

بعدي[١] ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة[٢] لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله ﷻ »[٣] هذا الحديث رواه أبو داود في « سننه » وابن

التميمية امرأة ، لكنها أسلمت وتابت إلى الله ﷻ ، ورجعت إلى الإسلام . وطليحة الأسدي ادعى النبوة ثم تاب إلى الله ، وجاهد في سبيل الله ، واستشهد في إحدى المعارك .

الحاصل أنه وقع مصداق ما أخبر به ﷺ ، وظهر من يدعي النبوة ، والنبي ﷺ قال « ثلاثون » وإذا عددت كبارهم والمشهورين منهم والذين صار لهم أتباع بلغوا هذا العدد .

(١) فمن ادعى النبوة بعده ﷺ فهو كذاب يجب تكذيبه ، ومن صدَّقه فهو كافر . من لم يؤمن بختم النبوة وادعى أنها لم تختم وأنه يأتي بعده نبي فهذا كافر بالله ﷻ ؛ لأن الله ﷻ يقول : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » [سورة الأحزاب : ٤٠] هذا في القرآن وفي السنة : « أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي »(*) وهذا بإجماع المسلمين أنه لا نبي بعد الرسول ﷺ ، فمن ادعى النبوة بعده فهو كذاب ، ومن صدَّقه فهو كافر .

وفي هذا الزمان ادعى النبوة القادياني ، غلام أحمد القادياني من باكستان ، وتبعه طوائف يسمون بالقاديانية ، لهم نشاط الآن ، يصولون ويجولون في المشارق والمغارب ، ولهم أتباع ويدعون إلى اتباع أحمد القادياني وتصديقه ، يبنون مساجد وينشئون مدارس ، والظاهر أنه تمولهم دول الكفر ؛ لأن دول الكفر تمول هذه الطوائف لقلب الإسلام وللقضاء على الإسلام ، فهي تمولهم بالأموال وتشجعهم على هذا الشيء ، ولكن بحمد الله المسلمون حاصروهم وحذَّروا منهم ، وأصدرت رابطة العالم الإسلام منذ سنين قراراً بكفر القاديانية وإبعادهم عن بلاد المسلمين ، وعدم تمكينهم من دخول بلاد المسلمين .

(٢) « منصورة » : هذا فيه رد على من ظهر برأي يقول : إن الطائفة المنصورة غير الفرقة الناجية نقول : لا ، الفرقة الناجية هي الطائفة المنصورة فلا تكون منصورة إلا إذا كانت ناجية ، ولا تكون ناجية إلا إذا كانت منصورة ، فمن فرَّق بينهما هذا خطأ وضلال .

(٣) هذه بشارة أيضاً لا تزال مع هذه الأمور العظيمة المروِّعة ، والحوادث المروِّعة التي أخبر عنها ﷺ فإن الحق سيبقى ، وسيبقى عليه جماعة من أمة محمد ﷺ لا تضرهم هذه

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٣٧ / ٧٩ (٢٢٣٩٥) وقال الأرنؤوط : « إسناده صحيح على شرط مسلم » .

ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف ﷀ .

قوله : « عن ثوبان » وهو مولى النبي ﷺ[١] ولازمه ، ونزل بعده الشام ، ومات بحمص سنة أربع وخمسين .

قوله : « زوى لي الأرض » قال التوربشتي : (زويت الشيء جمعته وقبضته ، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليها اطلاعه على القريب ﷺ ، وحاصله أنه طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره) . قال الطِّيبِي : (جمعها لي حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها) . قوله : « وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها » قال القرطبي : (هـذا الخبر وُجد مُـخـبـرُه كما قال[٢] ، وكان ذلك من دلائل نبوته ﷺ ، وذلك أن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة - بالنون والجيم - ، الذي هو منتهى عمارة المغرب[٣] ، إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر ، وكثير من بلاد الهند والسند والصَّغَد ، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة

الأهوال والحوادث « لا تزال طائفة من أمتي » الطائفة : الجماعة « على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم » طائفة على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله ﷻ . هذا من البشارة ، وأن هذا الدين سبقى ، وسيبقى له رجال يدافعون عنه ويحملونه مهما تساندت الأخطار والحوادث ؛ فإن هذا الدين سيبقى والحمد لله فهذا فيه الحث على أن نكون مع هذه الجماعة ، وهذه الطائفة المنصورة المتمسكة بالحق التي لا تتزعزع مع الحوادث والصوارف ، ولا تزهد في التمسك بالسنة ، لكن هذا يحتاج إلى صبر وثبات ، ويحتاج قبل ذلك إلى علم وبصيرة .

(١) مولى النبي ﷺ يعني عتيق . أعتقه النبي ﷺ .

(٢) كما قال ﷺ .

(٣) يعني وصل إلى الأندلس في أوروبا التي هي الآن أسبانيا ، ووصل إلى حدود فرنسا .

الجنوب والشمال ولذلك لم يذكر ﷺ أنه أريه ، ولا أخبر أن مُلك أمته يبلغه)[١] . قوله : « زوي لي منها » : يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل وأن يكون مبنياً للمفعول . قوله : « وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض » قال القرطبي : (يعني بهما كنز كسرى وهو ملك الفرس ، وقيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما ، وقد قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » وعبر بالأحمر عن كنز قيصر ؛ لأن الغالب عندهم كان الذهب ، وبالأبيض عن كنز كسرى ؛ لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة ، ووجد ذلك في خلافة عمر) .

قوله : « وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة » هكذا ثبت في أصل المصنِّف بالباء وهي رواية صحيحة في « صحيح مسلم » ، وفي بعضها بحذفها . قال القرطبي : (وكأنها زائدة لأن « عامة » صفة « السنة » ، والسنة : الجدب الذي يكون به الهلاك العام) . قوله : « من سوى أنفسهم » أي : من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضاً وسبي بعضهم بعضاً ، كما هو مبسوط في التاريخ[٢] . قوله : « فيستبيح بيضتهم » قال الجوهري : (بيضة كل شيء : حوزته ، وبيضة القوم : ساحتهم) ، وعلى هذا فيكون معنى الحديث : أن الله لا يسلِّط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع

---

(١) الجنوب والشمال مناطق متجمدة . القطب الجنوبي والقطب الشمالي ، فليست هي محل سكنى إلا نادراً .

(٢) كما حصل للمسلمين مما هو مذكور في التاريخ مما يندى له الجبين لو طالعته في « البداية والنهاية » ، و« الكامل » لابن الأثير وغيره ما حصل بين المسلمين وما سلط الله عليهم من التتار بسبب اختلافهم وتفرقهم ، وسلط عليهم الصليبيين . التتار من جهة المشرق والصليبيون من جهة الغرب ، مصداق ما أخبر به ﷺ .

ما حازوه من البلاد والأرض ، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض ، وهي جوانبها ، وقيل : بيضتهم : معظمهم وجماعتهم ، وإن قلُّوا .

قوله : « حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً »[1] الظاهر أن « حتى » هنا لانتهاء الغاية ، أي : أن أمر أمته ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضاً .

قوله : « وإن ربي قال : يا محمد إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد » هذا كما في الحديث « ولا رادّ لما قضيت » . قوله : ورواه البرقاني في « صحيحه » هو الحافظ الكبير أبو بكر ، أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي الشافعي ، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، قال الخطيب : (كان ثبتاً ورعاً ، لم نر في شيوخنا أثبت منه ، عارفاً بالفقه ، كثير التصانيف صنَّف مسنداً ضمَّنه ما اشتمل عليه الصحيحان ، وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة) .

قوله : « وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين » أي : الأمراء والعلماء والعبَّاد ، فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٩] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الصافات : ٧١] . وأمثال هذه الآيات كثيرة في القرآن ، وعن زياد بن حُدَير قال : قال لي عمر : « هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زلَّة العالم وجدال المنافق بالكتاب ،

---

(١) يعني يدفع الله عنهم عدوهم إلى هذه الغاية ، فإذا وجدت هذه الغاية فإن الله يسلط عليهم عدوهم ، وقد حصل ما أخبر به ﷺ .

وحكم الأئمة المضلين » رواه الدارمي .

قوله : « وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة » ، وقد وقع ذلك ، وما زالت الأمة كذلك - نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة - وفيه ما هو حق كقتال أهل التوحيد لأهل الشرك بالله(١) . وجهادهم على تركهم الشرك ، وقد مَنَّ الله بذلك على من أقامهم في آخر هذا الزمان بالدعوة إلى توحيده ، لكن أهل الشرك بدءوهم بالقتال(٢) ، وأظهرهم الله عليهم كما لا يخفى على من تدبر آيات هذا الدين في هذه الأزمنة . قوله : « ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين » الحي واحد الأحياء وهي القبائل : وفي رواية أبي داود « حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين وكم وكم »(٣) . قوله : « وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان »(٤) والفئام مهموز : الجماعات الكثيرة ، قاله أبو السعادات(٥) . وهذا هو شاهد الترجمة ، وقد

---

(١) قتال المسلمين بعضهم لبعض لا يجوز ، لكن قد يكون حقاً مثل : قتال الخوارج وقتال البغاة قطّاع الطرق ، هذا حق ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الحجرات : ٩] ، ومثال قتال عُبَّاد القبور ؛ لأنهم أصبحوا مشركين ، وإن كان أصلهم مسلمين ، لكن إذا عبدوا القبور ارتدوا فيجب قتالهم ، هذا قتال حق .

(٢) يعني الشيخ محمد بن عبد الوهاب في هذه البلاد دعا إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة ، فقام عليه أهل الشرك وبدؤوا بالقتال فقاتهلم ونصره الله عليهم وقامت دولة التوحيد في هذه البلاد .

(٣) يعني يلحقون بهم في دينهم ، هذا الشاهد للترجمة .

(٤) وهذا أيضاً شاهد للترجمة ، رد على الذين يقولون : لا يقع في هذه الأمة شرك ، والذي يُفعل عند القبور ليس بشرك .

(٥) يعني الذين يلحقون بالمشركين ويعبدون الأوثان ليسوا قليلين ؛ بل هم فئام كثيرة من هذه الأمة .

استحكمت بعبادة الأوثان(١) ، حتى إنه لا يعرف أحد في هذه القرون المتأخرة أنكر ما وقع من ذلك ، حتى أقام الله شيخ الإسلام(٢) محمد بن عبد الوهاب ﷺ الذي أنكره ونهى عنه ودعا الناس إلى تركه ، وإلى أن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، فرماه الملوك وأتباعهم بقوس العداوة(٣) ، فأظهره الله بالحجة وأعزَّ أنصاره على من ناوأهم ، وبلغت دعوته مشارق الأرض ومغاربها(٤) ، ولكن من الناس من عرف ومنهم من أنكر ، فانتفع بدعوته الكثير من أهل نجد والحجاز وعمان وغيرهم ، فلله الحمد على هذه النعمة العظيمة جعلنا الله لها شاكرين ذاكرين .

---

(١) الأوثان يعني القبور .

(٢) يعني تفاقمت عبادة القبور في هذه الأمة ، ولكن قيَّض الله من جدَّد الدين ، كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ، ثم حصلت فترة طويلة بينهم وعمَّت الفتنة إلى أن ظهر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في هذه البلاد ، فقام بدعوة التوحيد ما عُرِف أن أحداً بعد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه قام بهذا الأمر إلى أن جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وإن كان هناك دعاة إلى الله لكنه قليل ومحصور ؛ لكن دعوة الجهاد ودعوة التوحيد هذه ما حصلت إلا على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ .

(٣) مع وجود العلماء في القرون التي بين شيخ الإسلام وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، إلا أن الشرك موجود ولا ذكر في التاريخ أن أحداً منهم أنكر هذا الأمر ، فقد كانوا علماء ساكتين لا ينكرون ، رمى الشيخ بقوس العداوة : الملوك الذين خافوا على ملكهم ، وعلماء الضلال . كلهم تكالبوا على دعوة الشيخ ، ولكن الله نصره عليهم ودحض باطلهم نتيجة للصدق والإخلاص والصبر والثبات ، وبهذه الأمور يحصل النصر .

(٤) الآن ولله الحمد اهتدى بسبب هذه الدعوة أناس خارج المملكة في المشرق والمغرب ، وامتدت آثارها ولله الحمد ؛ لأنها حق ونور ينفع مثل المطر أينما حلَّ من الأرض ينفع فاهتدى بها ناس في الهند ، وفي مصر ، وفي المغرب ، وفي إفريقيا وأناس كثير .

قوله : « وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي » قال القرطبي : (قد جاء عددهم معيّناً في حديث حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون منهم أربع نسوة » أخرجه أبو نعيم وقال : هذا حديث غريب ، وحديث ثوبان أصح من هذا) . قال القاضي عياض : (عُدَّ من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة على ضلالته فوُجد هذا العدد فيهم ، ومن طالع كتب الأخبار والتاريخ عرف صحة هذا ، وآخرهم الدجال الأكبر)[١] .

قوله : « وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي » قال الحسن : الخاتم الذي ختم به ، يعني أنه آخر النبيين ، كما قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[٢] [سورة الأحزاب : ٤٠] وإنما ينزل عيسى ﷺ في آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد ﷺ[٣] ، مصلياً إلى قبلته[٤] فهو كآحاد أمته[٥] ، بل هو أفضل هذه الأمة[٦] . قوله : « ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم » قال النووي : (يجوز

---

(١) المسيح الدجال يدَّعي أنه هو الرب .

(٢) إنما يكون بعد النبي ﷺ مجدِّدُون من علماء هذه الأمة يظهرون يجددون هذا الدين إذا حصل فيه اندراس يظهر الله المجددين كالمشايخ المعروفين بالتجديد ، وهذا من رحمة الله ﷻ ، ومن المجدِّدين المسيح عيسى ابن مريم ﷺ حين ينزل في آخر الزمان فإنه يجدد دين محمد ﷺ ويحكم بشريعته .

(٣) فهو مجدِّد من المجددين .

(٤) إلى الكعبة .

(٥) كآحاد أمة محمد ﷺ ، تابع لمحمد ويكون مجدداً لدين محمد ﷺ .

(٦) المسيح أفضل هذه الأمة ، أما الصدِّيق فهو أفضل الصحابة .

أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب ، وفقيه ومحدث ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(١)] وزاهد وعابد ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد ، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض ، ويجوز أن يجتمعوا في بلد واحد[(٢)] ، وأن يكونوا في بعض دون بعض منه ، ويجوز إخلاء الأرض منهم أولاً فأولاً إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فإذا انقرضوا جاء أمر الله) . انتهى ملخصاً مع زيادة فيه ، قاله الحافظ . قال المصنف[(٣)] : (وفيه الآية العظيمة أنهم مع قلّتهم لا يضرهم من خذلهم[(٤)] ولا من خالفهم والبشارة بأن الحق لا يزول بالكلية) . قوله : « حتى يأتي أمر الله » الظاهر أن المراد به ما روي من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة ووقوع الآيات العظام[(٥)] ، ثم لا يبقى إلا شرار الناس . وقوله : « تبارك وتعالى » قال ابن

---

(١) المجدِّدون كل في تخصصه يكون منهم المفسِّر ، ومنهم المحدِّث ، ومنهم الفقيه ، ومنهم عالم العقيدة - وهذا في القمة - الذي يجدد العقيدة ، ومنهم اللغوي والنحوي ، كلهم يتعاونون في تخصصاتهم ويجدِّدون هذا الدين ، كل في تخصصه . ويكون فيهم الأمراء ، إذا قاموا بنصر هذا الدين وتحكيم الشريعة والقيام عليها صاروا مجددين من الأمراء .

(٢) وكل مجدِّد ولو كان في أقصى الأرض ينفع الله به بقية المسلمين ، ويصل تجديده إلى المسلمين في أي مكان .

(٣) المصنف يعني الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ مصنف الكتاب .

(٤) الطائفة قد تكون قليلة حتى قالوا : قد تكون الطائفة واحد ، ومع هذا لا يضرهم من خذلهم مع قلّتهم ؛ لأنهم على الحق وخصومهم على الباطل ، والباطل لا يغلب الحق ، قال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٨] وقال سبحانه : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [سورة الإسراء : ٨١] .

(٥) يعني تقبض أرواح المؤمنين قبل قيام الساعة بمدة ، ثم يبقى شرار الناس على وجه

=

القيم ﷺ : (البركة نوعان[١]: إحداهما : بركة هي فعلة والفعل منها بارك[٢]، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة « على » تارة[٣]، وبأداة « في » تارة[٤] ، والمفعول منها مبارك وهو ما جعل منها كذلك فكان مباركاً بجعله تعالى . والنوع الثاني : بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل منها تبارك[٥] ، ولهذا لا يقال لغيره ذلك[٦] ولا يصح إلا له ﷻ فهو سبحانه المتبارك ، وعبده ورسوله المبارك ، وأما صفته تبارك فمختصة به ، كما أطلقها على نفسه في قوله : ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٤] ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الملك : ١] أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره ، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى

الأرض ليس فيهم من يقول : الله الله ، ثم تقوم عليهم الساعة – والعياذ بالله – فلا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، كما قال ﷺ : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يبنون المساجد على القبور »[*] هؤلاء هم شرار الناس .

(١) البركة هي النماء والثبات والخير .

(٢) بركة هي فعل الرب ﷻ ، والفعل منها بارك ، الذي يبارك هو الله ﷻ ، وأما المخلوق فيقال له : مبارك : اسم مفعول .

(٣) يقال : باركه وبارك عليه ، باركه : هذا تعدى بنفسه ، وبارك عليه : هذا تعدى بحرف الجر .

(٤) بارك فيه . تقول : بارك الله فيك ، يعدى بـ(في) ، ويعدى بـ(على) .

(٥) قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [سورة مريم : ٣١] .

(٦) لا يقال : تبارك علينا يا فلان . هذا لا يجوز ؛ لأن هذا الفعل خاص بالله ، هو الذي يتبارك ﷻ .

(*) سبق تخريجه في باب (فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب) .

وتعاظم ونحوهما ، فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته ، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمته وسعتها ، وهذا معنى قول من قال من السلف : تبارك : تعاظم . وقال ابن عباس : جاء بكل بركة) .

٢٤ - باب ما جاء في السِّحر

وقول الله تعالى : ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

وقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ ﴾ [النساء : ٥١] .

قال عمر : « الجبتُ : السِّحرُ . والطّاغوت : الشّيطانُ » .

وقال جابرٌ : « الطَّواغيت كُهّان كان ينزلُ عليهمُ الشَّيطانُ ، في كُلِّ حيٍّ واحدٌ » .

وعن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أنّ رسولَ الله ﷺ قالَ : « اجْتنبُوا السّبعَ الـمُوبِقاتِ » . قالُوا : يا رسُولَ الله ! ومَا هُنَّ ؟ قالَ : « الشِّرْكُ بالله ، والسِّحْرُ ، وقتلُ النَّفْسِ الّتي حَرَّمَ اللهُ إلّا بالحقِّ ، وأكلُ الرِّبَا ، وأكْلُ مَالِ اليتيمِ ، والتَّوَلِّي يومَ الزَّحْفِ ، وقَذفُ الـمُحْصناتِ الغَافِلاتِ الـمُؤْمنَاتِ » .

وعَنْ جُندَبٍ مرفوعاً : « حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بالسَّيْفِ » . رواهُ التِّرمذي ، وقال : « الصَّحِيحُ : أنّهُ مَوْقُوفٌ » .

وفي « صَحِيحِ البُخَارِيِّ » عن بجالَةَ بن عَبدَةَ ؛ قالَ : « كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ : أنِ اقْتلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وسَاحِرَةٍ » . قَالَ : « فقتلْنَا ثلاثَ سَوَاحِرَ » .

وَصَحَّ عن حفصَة رَضِوَاللَّهُعَنهَا ؛ « أنّها أمرَتْ بِقَتْلِ جاريةٍ لها سَحَرَتْها ، فَقُتِلَتْ » .

وكذَلِكَ صَحَّ عن جُنْدَبٍ .

قالَ أحمدُ : « عن ثلاثَةٍ من أصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ » .

٢٤ - باب ما جاء في السّحر

قوله : (بابُ ما جاء في السحر)[(١)] أي :

(١) يعني من بيان حكمه وتحريمه وبطلانه ، والسحرُ كفرٌ بالله ﷻ ، وكما جاءت به الأدلة ؛ أنه كفر ، وهو أيضاً شرك ؛ لأنه استعانة بالشيطان ، والساحر لا يتوصل إلى السحر إلا بالاستعانة بالشياطين فهو كفرٌ وشركٌ ، ولذلك عقد له المصنِّف ﷺ هذا الباب في كتاب التوحيد ، وذكر في الباب من الآيات والأحاديث ما يُبيّن حكم السحر وحكم الساحر ، حكم السحر أنه كفرٌ وشرك ، وحكم الساحر أنه يُقتل - كما يأتي إن شاء الله تعالى - ، والسحر في اللغة : عبارةٌ عن ما لطُف وخفيَ سببه ، ومنه سُمي السَّحر في آخر الليل لأنه خفيّ ، وسمى النبي ﷺ البلاغة في الكلام والبيان سحراً ، فقال : « وإن من البيان لسحراً »[(*)] بمعنى أنّ البلاغة والبيان تؤثر في النفوس وتجذُبُها إلى الكلام البليغ والفصيح ، فهو سحرٌ لغويّ ، وكذلك سمي النميمة - وهو الوشاية بين الناس - سحراً لأنها تفسد بين الناس ، فهي تعمل عمل السحر ، وأما السحر في الشرع : فإنه عبارةٌ عن تمائم ورقى وعُقد يعملها الساحر وينفث فيها من ريقه فتؤثر بإذن الله في بدن المسحور أو في عقله أو في قلبه ، فالسحر له تأثير إما بالقتل وإما بما هو دون ذلك ، وهو نوعان :

النوع الأول : السحر الحقيقي : وهو الذي يكون ناتجاً عن عمل الساحر من عقد العُقد والنفث فيها ، قال تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [سورة الفلق : ٤] يعني السواحر التي تعقد العقد في الخيوط وتنفث فيها ، والنوع الثاني : سحرٌ تخييلي : ليس له حقيقة ، وهو ما يأخذ بالعيون والأبصار ويظهر لها الأشياء على غير حقيقتها ، وهو ما يُسمى بالقُمْرة ، ومنه سحر آل فرعون ، كما قال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [سورة طه : ٦٦] يعني العُصيّ والحِبال وهي ليست كذلك ، لكن عملوا حيلاً وأشياء خفية تجعلها كأنها حيات وأنها تتحرك ، وهذا هو عمل المشعوذين الآن في السيرك[(**)] وغيره .

(*) أخرجه أبو داود في « سننه » ٥ / ٢٧٦ (٥٠٠٩) ، وصححه الألباني .

(**) سئل شيخنا حفظه الله عن حضور ما يسمى بالألعاب البهلوانية ، وما يُسمى بالسيرك هل هذا جائز أم لا ؟ فأجاب : هذا سحر ولا يجوز حضور السحر إلا بإنكار المنكر ومنعه ، والأخذ على يد من يفعله ، وأما الحضور بدون إنكار فلا يجوز ، هذا رضا بالشرك ، ورضا بالكفر . أ.هـ.

=

والكهانة(١) ، والسحر في اللغة عبارة عما خفي ولطف سببه ، ولهذا جاء في الحديث : « إن من البيان لسحرا »(٢) ، هذا من التشبيه البليغ شبهه بالسحر ، لكونه بالبيان يحصل منه ما يحصل من السحر قال أبو محمد المقدسي في « الكافي » : السحرُ(٣) عزائم ورقى ومنه ما يؤثر في القلوب والأبدان فيُمرض

وهو من هـذا النوع من السحر التخييلي ومن القُمرة ، وجمهور العلماء على أن السحر له حقيقة وأنه يؤثر ويقتل ويُمرض ، أما الحنفية والمعتزلة فإنهم ينكرون السحر الحقيقي ويقولون : لا يوجد إلا سحر تخييلي فقط ، وأما الحقيقي فإنهم لا يعترفون به ، وهذا لا شك أنه خطأ ، السحر الحقيقي موجود ولولا أن له حقيقة ما أثّر ولا قتل ولا أمرض ، قال ﷻ : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] دلّ على أن السحر يضرّ ، والتخييلي لا يضر البدن ولا يضر العقل ، وإنـما هو شيءٌ على الأعين فقط ، فـدلّ على أن السحر له حقيقة ، وأما التخييلي والشعوذة هذا شيء آخر ، وهذا ليس حقيقياً ، وإنما هو تخييلي فقط ، ومنه ما يستعمله المشعوذون والذين يدّعون الوَلاية يشعوذون على الناس بالخوارق التي يسمونها كرامات للأولياء ، وهي إنما هي من عمل الشياطين وليست من كرامات الأولياء ، مثل أن يُظهر للناس أنه يمشي على الماء ، أو يظهر للناس أنه يدخل النار ، أو أنه يأكل الجمر ، أو أنه يطعن نفسه بالسكين ، أو أنه يطرح نفسه تحت السيارة وتمر عليه ولا تضره ، أو أنه يجرّ السيارة بشعرة ، أو ما أشبه ذلك من التدجيلات والشعوذات التي يعملها المشعوذون في الأندية وغيرها ، هذا هو السحر التخييلي والقُمرة ، وعلى كل حال السحر عملٌ شيطاني بنوعيه وعملٌ باطل ، والواجب على المسلمين أن يمنعوا وقوع السحر في المجتمعات ، وأن يطبقوا الحكم الشرعي على السَّحرة حتى يريحوا المسلمين منهم .

وقوله : « باب ما جاء في السحر » : يعني من الأدلة على حكمه ، وحكم فاعله من الآيات والأحاديث .

(١) والكهانة سيأتي لها باب خاص وهو ادّعاء علم الغيب .

(٢) « البيان » يعني : البلاغة والكلام الفصيح « لسحراً » يعني : يجذب الأسماع ويجذب القلوب إلى المتحدث لفصاحته وبلاغته فهو سحرٌ لغوي .

(٣) هذا تعريفه في الشرع .

ويقتل ويُفرِّق بين المرء وزوجه[(١)] .

قال تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾[(٢)] [سورة الفلق : ٤] .

يعني السواحر اللاتي ينفثن في سحرهنّ ، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه ، واختلفوا هل يكفر الساحر أو لا ؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر[(٣)] وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد ، قال أصحابه : إلا أن يكون سِحْرُه بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر[(٤)] ، ومما يدل على أنه كفرٌ[(٥)] قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] فدلّ على أن السحر يضرّ ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] فدل على أن السحر يؤثر في القلوب بالبغضاء ، ويفرق بين الزوجين ، هذا دليل على أن له حقيقة وأنه ليس خيالاً .

(٢) وكذلك من أدلة السحر الحقيقي قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [سورة الفلق : ٤] وهنّ السواحر اللاتي يعقدن العُقد في الخيوط وينفثن فيها ويستعنّ بالشياطين ، فيؤثر ذلك فيمن عُمل له السحر ، إما بموت وإما بمرض وإما بكراهية لمحبوبه .

فدل على أن السحر له حقيقة ، ولو لم يكن له حقيقة لما أمر الله بالتعوّذ منه .

(٣) وهذا هو الصحيح ، والله سماه كفراً في عدة مواضع من الآيات التي في سورة البقرة .

(٤) هذا ليس بصحيح ، السحر كفرٌ مطلقاً ولا تفصيل فيه ، والسقي والتدخين هذا لا يضرّ بنفسه وإنما يضر بعمل الشيطان ، فالساحر لا يتوصل إلى السحر والعمل بالسحر إلا بواسطة الشياطين ، ليس بالدخان ولا بسقي شيء ، ولا مجرد هذه الأمور ، وإنما هذه الأمور مظاهر فقط ، وأما الحقيقة فهو استعانة بالشياطين ، فلذلك كان كفراً .

(٥) مما يدل على أن السحر كفرٌ مطلقاً بدون تفصيل هذه الآية .

تَكْفُرْ ﴾[(١)] [سورة البقرة : ١٠٢] .

(١) فسمي تعلُّم السحر كفراً مطلقاً ، ولم يفصِّل بين نوع ونوع(*) .

(*) ذكر المصنف ﷺ في أول هذا الباب دليلين في حكم السحر ، ولم يتناولهما الشارح ﷺ بالتعليق .
وقد علق عليهما الشيخ صالح الفوزان حفظه الله ، وهما : « وقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٤] ، وقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [سورة النساء : ٥١] فقال : « وقول الله » أي : وباب قول الله ، وهو من العطف على المضاف إليه ، أي : وباب قول الله تعالى ، يعني : تفسير قول الله تعالى .
وهذه الآية - الأولى- في آخر سياق آيات السحر التي ذكرها الله في سورة البقرة عن اليهود ، قال تعالى : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠١] ، أي : طرحوا التوراة والعمل بها التي فيها أوصاف محمد ﷺ وإثبات رسالته طرحوها ونبذوها واستبدلوها بالسحر ، الذي هو من عمل الشياطين ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] ، في وقت سليمان أو عهد سليمان كانت الشياطين تعمل السحر ونسبوه إلى سليمان عليه السلام ، وهو لا يليق بالأنبياء ؛ بل لا يليق بالمؤمنين عموماً فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟! ولهذا قال : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ فعبّر عن السحر بالكفر ﴿ وَمَا كَفَرَ ﴾ أي : وما استعمل السحر، فدلّ على أنّ السحر كفر ﴿ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ فدلّ على أن تعلُّم السحر وتعليمه كفر ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ يعني لا تتعلم السحر فدلّ أن تعلُّم السحر وتعليمه كُفر ، ثم ذكر سبحانه وتعالى أن مَنِ اشتراهُ : يعني استبدل السحر بالتوراة - والشراء : معناه الاستبدال - ﴿ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ ، ﴿ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ يعني في الجنة ، ﴿ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ يعني من نصيب ، فدلّ أن السحرَ كفرٌ ، لأن الكافر هو الذي ليس له في الجنة نصيب ، وأما المؤمن فإن له في الجنة نصيباً ولا يُحرم من الجنة إلا الكافر ، فدلّ على أن السحر كفرٌ يمنع من دخول الجنة - والعياذ بالله - . ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ [سورة البقرة : ١٠٣] دلّ على أن السحر ينافي الإيمان ، والذي ينافي الإيمان كفر .
والآية الثانية: في اليهود ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [سورة النساء : ٥١] ، والجبت : هو السحر ، كما قاله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ومعنى ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ ﴾ أنهم يعملون السحر ، ويتخذونه ، فهذا إيمانٌ بالسحر - والعياذ بالله - مع أنهم أهل كتاب وعلماء فهُم مع علمهم لم ينفعهم علمهم وأخذوا السحر وآمنوا به - والعياذ بالله - . أ.هـ .

وقال عمر في قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [سورة النساء : ٥١] الجبت : السحر(١) .

والطاغوت : الشيطان . وتقدم كلام ابن القيم ﷺ في حد الطاغوت(٢) ، وأن له أفراداً منها : عبادة غير الله(٣) ، فالمعبود طاغوت كما دلت عليه الآيات(٤) ، ومنهم الكُهَّان ، ومن يحكم بغير الحق(٥) أو يأمر بها يخالف الحق ،

(١) هذا تفسير عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للآية : أن الجبت المراد به السحر ، وأن اليهود يؤمنون بالسحر ، فهذا كفر بالله ﷻ .

(٢) ذكر ذلك العلامة ابن القيم في « زاد المعاد » فقال : (الطاغوت مأخوذ من الطغيان : وهو ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ، والطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة : إبليس لعنه الله ، ومن عُبد وهو راض ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه ، ومن ادّعى علم الغيب ، ومن حكم بغير ما أنزل الله)(*) .

(٣) الطاغوت له أفراد ، وليس نوعاً واحداً ، واختلاف المفسرين كما يقول العلماء ليس هو اختلاف تضاد إنما هو اختلاف تنوع ، كل منهم يذكر معنىً من معاني الآية ، فتكون الآية عامة للمعاني فيأخذ كل مفسر بمعنىً يفسر به الآية ولا يُقال : إن الآية ليس لها تفسير إلا هذا ؛ بل هذا من تفسير الآية .

(٤) المعبود طاغوت إذا رضي بذلك ، أما إذا لم يرض فهذا غير طاغوت ، فالمسيح ﷺ عُبد من دون الله ، وهو لا يرضى بهذا ، كذلك الأولياء والصالحون الذين عُبدوا من دون الله وهم لم يرضوا بهذا وينهون عن هذا ، فهؤلاء ليسوا طواغيت .

(٥) ومن الطواغيت : الكهّان ؛ لأنهم يدّعون علم الغيب ، ومن ادَّعى علم الغيب فهو

(*) عرَّف الإمام ابن القيم ﷺ الطاغوت بأنه : (كل ما تجاوز العبد حده من معبود ، أو متبوع ، أو مطاع ، فطاغوت كل قوم : من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله ، فهذه طواغيت العالم) .
إعلام الموقعين عن رب العالمين ١ / ٤٠ .
وأما رؤوس الطواغيت فقد ذكرهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ في « ثلاثة الأصول » ص ٢٤ ، وانظر : « الدرر السنية في الأجوبة النجدية » ١ / ١٣٦ .

=

أو يرضى به وغير ذلك .

قوله : « الطواغيت كُهَّان »[(١)] أراد أن الكُهَّان من الطواغيت[(٢)] . قوله : « كان ينزل عليهم الشيطان »[(٣)] أراد الجنس لا الشيطان ، الذي هو إبليس خاصة[(٤)] ، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ، ويخبرونهم بما يسترقونه من السمع ، فيصدقون مرة ، ويكذبون مئة[(٥)] .

طاغوت ، ومن يحكم بغير ما أنزل الله فهو طاغوت أيضاً ؛ قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ [سورة النساء : ٦٠] .

(١) هذا تفسير آخر للآية ، التفسير الأول : أن الطاغوتَ المراد به الشيطان ، يعني جنس الشياطين ، وليس هو خاصّ بإبليس ، وكل شيطان فإنه طاغوت سواء كان من الجن أو من الإنس ، التفسير الثاني : أن الطواغيت كُهَّان كانت تنزل عليهم الشياطين ، وكان العرب يتحاكمون إليهم في الجاهلية ، وهذا من أفراد الطاغوت ، والطاغوت أنواع كثيرة : منها : الشيطان وهو رأس الطواغيت ، ومنها : من حكم بغير ما أنزل الله ، ومنها : من ادّعى علم الغيب إلى غير ذلك ، فلا تنافي بين تفسير الآية بالشيطان ، وتفسيرها بالكُهَّان ؛ لأن الآية تشمل هذا وهذا .

(٢) يعني نوعٌ من الطواغيت ، وليس الطواغيت محصورون في الكهان ؛ بل الكهان نوع من أنواع الطواغيت ؛ لأنهم يدّعون علم الغيب ، ومن ادّعى علم الغيب فهو طاغوت .

(٣) قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴾ [سورة الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٣] ، هؤلاء هم الكُهَّان ، وهم يتعاملون مع الشياطين . الشياطين هي التي توحي إليهم ما يقولونه ويخبرون به الناس .

(٤) قوله : « كان ينزل عليهم الشيطان » يعني جنس الشياطين ، وليس هو إبليس خاصة الذي هو أبو الشياطين .

(٥) كما سبق في باب قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ .. ﴾ [سورة سبأ : ٢٣] .

قوله : وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »(١) كذا أورده

(١) قال ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات » : يعني المهلكات ، وهذه السبع هي أكبر المعاصي ، الأولى : الشرك بالله ﷻ ، الشرك هو أكبر الكبائر وأكبر المعاصي وهو مخرجٌ من الملة ومفسدٌ للدين . والثانية : السحر ، وهو محل الشاهد من الحديث للباب ، أن السحر من السبع الموبقات يعني المهلكات ، فدلّ على ذمّ السحر ، وأنه موبقة من الموبقات ، ومهلكة من المهلكات ، وقوله ﷺ : « اجتنبوا » هذا نهي عن قربان هذه الذنوب باجتناب وسائلها التي تؤدي إليها ، وقوله : « اجتنبوا » أبلغ من قوله لا تفعلوا كذا ؛ لأن الاجتناب معناه أن تترك الشيء وتترك الوسائل التي توصِّل إليه ، والثالثة : قتل النفس التي حرّم الله بغير حق ، وهي نفس المؤمن ونفس المعاهد ، فتحريم قتل المؤمن كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ [سورة النساء : ٩٢] ، وقوله : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٩٣] ، وكذلك قتل الكافر المعاهَد الذي أُعطي العهد والأمان من المسلمين من ولي الأمر أو من أحدٍ من المسلمين فلا يجوز لأحد أن يتعدّى عليه ؛ لأنه معصوم الدم ، حرّم الله قتله ، « ومن قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة »(*) كما في الحديث ، فقتل المعاهد كبيرة من كبائر الذنوب . وقوله : « إلا بالحق » : يعني بالقصاص : النفس بالنفس ، أو الثيّب الزاني الذي يُرجم ، أو المفارِق لدينه التارك للجماعة ، وهو المرتد ، فهذه الأمور الثلاثة يُقتل فيها المؤمن إذا قتل غيره عمداً عدواناً ، فإنه يُقتصُّ منه وإن كان مؤمناً هذا بحقّ ، كذلك إذا زنى وهو مُحصن فإنه يُرجم بالحجارة حتى يموت ، وكذلك إذا ارتدّ عن دينه فإنه يُقتل قال ﷺ : « من بدّل دينه فاقتلوه »(**) ، والرابعة : أكل الربا ، والربا : هو الزيادة في أموال مخصوصة ، وهو نوعان - كما هو معلوم في الفقه - : ربا فضل وربا نسيئة ، الأشياء التي نصّ الرسول ﷺ على تحريم الزيادة فيها وهي الستة

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١١٥٥ (٢٩٩٥) .
(**) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١٠٩٨ (٢٨٥٤) .

المذكورة في حديث عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (*) وما يُلحق بها مما يُقاس عليها بجامع العلة الموجودة فيها ، فإنه يدخله الربا ولا يجوز أكله هذا ربا الفضل ، وربا النسيئة هو التأجيل كأن يبيع دراهم بدراهم غائبة ، يبيع طعام بطعام مؤجل ، يبيع تمر بتمر مؤجل ، يبيع شعير بشعير مؤجل ، يبيع ذهب بذهب مؤجل ، فضة بفضة مؤجلة ، ملح بملح مؤجل ، وكذلك ما يُقاس عليها لا يجوز التأجيل في هذه الأمور بل لابد أن تكون يداً بيد قبل التفرق من المجلس ، الذي يُقدِم على أكل الربا فإنه يكون مرتكباً لموبقة من الموبقات – والعياذ بالله – أي مهلكة ، وتوعّد الله على الربا بأشد الوعيد في القرآن ، والنبي ﷺ حذّر منه في السنة وبيّنه وحذّده للأمة ، ولعن آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه(**) – نسأل الله العافية – ، والذي يستحلّ الربا – يقول الربا حلال – هذا كافر ، وأما الذي يأكله ولا يستحلُّه ، فهذا يعتبر مرتكباً لكبيرة من كبائر الذنوب ، يعتبر فاسقاً وعليه الوعيد الشديد ، والخامسة : أكل مال اليتيم . واليتيم : المراد به من مات أبوه وهو دون البلوغ ؛ لأنه قاصر عن مصالح نفسه وعن النظر لنفسه ، فإذا كان له مال فإنه يُحفظ حتى يبلغ رشيداً ويستلم ماله ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ﴾ [سورة النساء : ٦] ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٠] فلا يجوز الاعتداء على مال اليتيم ، واستغلال ضعفه ، واستغلال صغره فيُتعدّى عليه ويؤكل ؛ بل يُحافظ عليه وينمى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٢] لا بأس أن يُتاجر به ويُنمّيه ويُخرج زكاته حتى يبلغ اليتيم رشيداً ويُسلم إليه ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [سورة النساء : ٦] فيحاسبكم يوم القيامة عن أموال اليتامى ، وتقصيركم فيها أو

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٣ / ١٢١٠ (١٥٨٧) ، ولفظه : « إني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن بيع الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، إلا سواء بسواء ، عيناً بعين ، فمن زاد أو ازداد ، فقد أربى » ، وفيه قصة .

(**) أخرجه أبو داود في « سننه » ٣ / ٦٢٨ (٣٣٣٣) ، والترمذي في « سننه » ٣ / ٥١٢ (١٢٠٦) ، =

وصححه الألباني .

عن وفائكم وتسليمكم لها بالتمام ، والسادسة : التولي يوم الزحف : يعني وقت إلتحام المعركة ، إذا التحمت المعركة بين المسلمين والكفار ، فلا يجوز لمن يطيق القتال أن ينصرف وينهزم ؛ بل يجب عليه أن يقاتل في خط المسلمين ، فإن انصرف فهذا هو التولي يوم الزحف ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ . وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة الأنفال : ١٥ - ١٦] فيجب على من حضر القتال وهو في صف القتال أن يقاتل المشركين ويدافع عن الإسلام والمسلمين ، ولا يجوز له أن يقعد أو أن ينصرف ويترك القتال ، والسابعة : قذف المحصنات : ويراد بقذف المحصنات : رميهنّ بالزنى ، أو رمي إنسان باللواط - والعياذ بالله - فيجب إقامة الحد على القاذف ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النور : ٤ - ٥] والقذف كبيرة من كبائر الذنوب ، ويجب على المسلم أن يحفظ لسانه من القذف ، وأن لا يقذف أحداً بالزنى أو اللواط إلا إذا كان عنده أربعة شهود ، يشهدون بما يقولون عن معاينة أنه رأينا فلان يعمل كذا وكذا ، رأينا ذكره في فرج المرأة لا يكفي أن يقولوا : أنه يزني أو يلوط ، لا يكفي هذا حتى يصف الجريمة ، وذلك للستر على المسلمين ، وأيضاً منع انتشار الفاحشة في المسلمين ، وحفظ الأعراض وتنزيه الألسن عن الكلام المحرم ، وتطهير السمع من هذه القاذورات . والمحصنات : العفيفات عن الزنى ؛ لأن الإحصان له ثلاثة معانٍ : يطلق الإحصان على المزوجات كما قال تعالى لما ذكر المحرمات في النكاح قال : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [سورة النساء : ٢٤] يعني المزوجات ويُطلق الإحصان على العفيفات ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [سورة النور : ٢٣] يعني العفيفات عن الزنى ، ويُطلق الإحصان ويُراد به الحرية ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾ [سورة النساء : ٢٥] ويراد بالمحصنات هنا الحرائر وقال في آخر الآية : ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ يعني نصف ما على الحرائر من الجلد ، فتجلد الأَمَة خمسين جلدة ، والمراد =

المصنِّف ﷺ غير معزو ، وقد رواه البخاري ومسلم .

اجتنبوا : أي ابعدوا ، وهو أبلغ من قوله : دعوا أو اتركوا ؛ لأن النهي عن القربان أبلغ(١) كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾(٢) [سورة الأنعام : ١٥١] قوله : « الموبقات » - بموحدة وقاف - أي : المهلكات ، وسميت هذه موبقات ؛ لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات ، وفي الآخرة من العذاب ، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند البخاري في « الأدب المفرد » مرفوعاً قال : « الكبائر تسع » وذكر السبعة المذكورة « والإلحاد في الحرم وعقوق الوالدين »(٣) .

بالمحصنات هنا العفيفات عن الزنى ، وكما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [سورة المائدة : ٥] المراد بهن العفيفات عن الزنى ، فيجوز للمسلم أن يتزوج الكتابية يهوديةً أو نصرانية إذا كانت عفيفةً عن الزنى ، فهذه هي السبع الموبقات ، وهي من كبائر الذنوب ، وأشدّها الشرك بالله ﷻ ، ثم يليه السحر ، فجعل النبي ﷺ السحر موالياً للشرك ، فدلّ على غلظ أمر السحر - والعياذ بالله - .

(١) نهي عن فعل الشيء وعن فعل الوسائل الموصِّلة إليه .

(٢) ولم يقل : ولا تفعلوا الفواحش ؛ بل قال ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ﴾ يعني اتركوا الوسائل التي تفضي للفواحش .

(٣) الكبائر كثيرة ، هي إلى سبعمئة كبيرة أقرب أو أكثر من سبعمئة ، وقد ذكر منها الحافظ الذهبي في كتابه « الكبائر » ما يزيد على سبعين كبيرة ، وذكر الحافظ ابن حجر الهيتمي المكي في كتابه « الزواجر عن اقتراف الكبائر » ما يزيد على مئتين كبيرة ، وهذا ليس إحصاءً لها ، وإنما هذا بيان لأشدها . والكبيرة ضابطها - كما قال العلماء - ما خُتم بغضب أو لعنة أو نار أو رُتِّب عليه حدٌّ في الدنيا أو وعيد في الآخرة فإنه كبيرة ، وأما ما نُهي عنه ولم يُرتب عليه شيء من هذه الأمور فهذا من الذنوب الصغائر .

قوله : « قال : الشرك بالله » : هو أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله ، ويرجوه كما يرجو الله[(١)] قال العلامة ابن القيم ﷺ :

والشِّركَ فاحْذَرْهُ[(٢)] فَشِرْكٌ ظَاهِرٌ ذَا القِسْمُ ليسَ بِقَابِلِ الغُفْرَانِ[(٣)]

وهُو اتِّخَاذُ النِّدِ لِلرَّحْمَنِ أَيّاً كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانِ[(٤)]

يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدَّيَّانِ[(٥)]

وبدأ به ؛ لأنه أعظم ذنب عُصِيَ الله به ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان : ١٣] . قوله : « والسحر » تقدم تعريفه .

---

(١) هو أن يجعل مع الله إلهاً آخر يصرف له شيئاً من العبادة من الذبح أو النذر أو الدعاء أو الطواف بقبره أو النذر له أو غير ذلك ، وكل من صرف شيئاً من العبادة لغير الله فهو مشرك الشرك الأكبر .

(٢) هذا يسمونه باب الاشتغال ، منصوب على الاشتغال (والشرك فاحذره) لأن العامل اشتغل بالضمير (فاحذره) ويكون المعمول به منصوب بفعل مقدر من جنس المذكور أي : احذر الشرك احذره .

(٣) الشرك على نوعين : شرك ظاهرٌ وهو الشرك الأكبر ، وهو مخرج من الملة ، كدعاء غير الله والذبح لغير الله والنذر لغير الله وغير ذلك من أنواع الشرك . النوع الثاني : شرك أصغر ، لا يخرج من الملة ، لكنه كبيرة عظيمة من كبائر الذنوب ، كالحلف بغير الله وقول : « لولا الله وأنت » ، « لولا الله وفلان » ، والرياء في العبادة والسمعة ، كل هذا من أنواع الشرك الأصغر .

وهذا البيت في الشرك الأكبر ، وهو مخرج من الملة ولا يغفره الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] (ليس بقابل الغفران) .

(٤) وهذا تعريفه (وهو اتخاذ النِّدِّ للرحمن) النِّدُّ يعين المماثل والشبيه ، كأن يدعوه أو يرجوه أو يخافه أو يذبح له أو ينذر له أو غير ذلك .

(٥) هذا الشرك الأكبر .

قوله : « وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق » أي : نفس المسلم المعصوم ، وقتل المعاهد ، كما في الحديث « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة »(١) . وذهب ابن عباس وأبو هريرة إلى أنه لا توبة لمن قتل مؤمناً متعمداً(٢) ، وذهب جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله(٣) ، فإن تاب وأناب وعمل صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ

---

(١) « النفس التي حرم الله » هي نفس المؤمن ونفس المعاهَد ، « إلا بالحق » أي بالثلاث التي بيَّنها الرسول ﷺ .

(٢) هذا يدل على شدة القتل ، حيث إن ابن عباس وأبا هريرة رضي الله عنهما يريان أنه لا توبة للقاتل ؛ بل لابد أن ينفذ فيه الوعيد ، وليس معنى ذلك أنهما يحكمان بكفره ، ولكن يقولون لابد أن يُعذب في النار ولا يقبل المغفرة ولا يقبل التوبة فيه ، ولكن الجمهور على أن القاتل له توبة ؛ لأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا . إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [سورة الفرقان : ٦٨ - ٧٠] استثنى التائب ، ومنهم الذين يقتلون النفس التي حرم الله ، وإذا كان المشرك والكافر تُقبل توبته فالقاتل من باب أولى ؛ لأن القاتل مسلم فهو أولى بقبول التوبة . وهذا هو الصحيح إن شاء الله .

(٣) فيما بينه وبين الله ، أما من ناحية الحكم الشرعي فيُنفَّذ عليه القصاص ، فيجازى في الدنيا ، وأما في الآخرة فأمره إلى الله ، وذكر ابن القيم في « الجواب الكافي » : أن القتل العمد يتعلق به ثلاثة حقوق : حق لله تعالى ، وحق للقتيل ، وحق لأولياء القتيل ، فأما حق الله ﷻ فإنه يسقط بالتوبة ، وأما حق القتيل فإنه يبقى على القاتل إلى يوم القيامة والله ﷻ يتولى شأنهما ، وأما حق الأولياء فيسقط بالعفو أو بأخذ الدية أو بالقصاص إذا اقتصوا سقط حقهم ، صار يبقى عليه فقط حق القتيل ويعوضه الله يوم القيامة بما يشاء من فضله(*) .

(*) انظر : ص ١٤٦ .

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة الفرقان : ٦٨ - ٧٠] .

قوله : « وأكل الربا » أي : تناوله بأي وجه[1] ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾[2] [سورة البقرة : ٢٧٥] الآيات . قال ابن دقيق العيد : (وهو مجرَّب لسوء الخاتمة ، نعوذ بالله من ذلك)[3] . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[4] [سورة آل عمران : ١٣٠] وفي الحديث : « الربا نيف وسبعون حوباً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه »[5] .

قوله : « وأكل مال اليتيم » يعني التعدي فيه ، وعبَّر بالأكل ؛ لأنه أعم

---

(١) يعني ليس خاصاً بالأكل ، بل لو أخذه وتموله أو بنى به بيتاً أو جداراً أو اشترى به سيارة أو سائر الاستعمالات ، وإنما عبَّر بالأكل ؛ لأنه الغالب ، وإلا فيتناول جميع التصرفات .

(٢) هذا يوم القيامة .

(٣) أكل الربا مجرب لسوء الخاتمة ؛ لأن آكل الربا يختم له بالسوء - والعياذ بالله - .

(٤) ﴿ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ : ليس لهذا الوصف مفهوم ، يعني ما يؤكل أنه لا يحرم إلا إذا كان أضعافاً مضاعفة ، وإنما هذا لبيان الواقع فقط ، وإلا فالربا قليله وكثيره حرام .

(٥) الزنى شديد ، والزنى بالمحارم أشد ، والزنى بالأمهات أشد وأنكى ، فالذي يأكل الربا مثل الذي يزني بأمه في الإثم ، وهذا أيسر الربا ، يعني أصغر الربا ، فكيف بأكبر الربا وأكثر الربا ؟!

وجوه الانتفاع[١] ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٠] . قوله : « والتولي يوم الزحف » أي : الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة الأنفال : ١٦] .

قوله : « وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » - وهو بفتح الصاد - المحفوظات من الزنا[٢] ، - وبكسرها - الحافظات فروجهن منه[٣] ، والمراد : الحرائر العفيفات[٤] قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ الآية [سورة النور : ٢٣] .

قوله : وعن جندب مرفوعاً : « حد الساحر ضربة بالسيف » رواه الترمذي ، وقال : الصحيح أنه موقوف[٥] .

---

(١) وليس خاصاً بالأكل ؛ بل لو استعمله في غير الأكل فإنه يتناوله الوعيد .

(٢) المحصنات اسم مفعول المحفوظات ، والمحصنات - بالكسر - أي : الحافظات لفروجهن .

(٣) ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٥] .

(٤) المراد به هنا العفيفات عن الزنى ، أما من كانت معروفة بالزنى أو من كان معروفاً بالزنى وفساده يَعمّ فهذا لا مانع من وصفه بالزنى لأنه معروف عنه هذا ومشتهر .

(٥) يقول الترمذي : الصحيح أنه موقوف يعني : على جندب من كلام الصحابي ، الموقوف ما كان من كلام الصحابي ، فالترمذي رواه مرفوعاً ، ولكنه قال بعده : الصحيح أنه موقوف ، ويراد بجندب هنا : جندب الخير ، قال : « حدُّ الساحر ضربهُ » (بالهاء) أو ضربةٌ (بالتاء) « بالسيف » هذا دلّ على حكم الساحر ، وأنه يُقتل ؛ لأنه كافر ، يُقتل قتل كفر وقتل ردة .

قوله : عن جندب ، رواه الطبراني في ترجمة جندب بن عبد الله البجلي[(١)] قال الحافظ : (والصواب أنه غيره ، وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن ، عن جندب الخير[(٢)] : أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات ، وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول .. فذكره) .

قوله : « حد الساحر ضربة بالسيف » روي بالهاء وبالتاء وكلاهما صحيح . وبهذا الحديث أخذ أحمد ومالك وأبو حنيفة فقالوا : يقتل الساحر[(٣)] . وروي ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وجندب بن عبد الله وجندب بن كعب وقيس بن سعد وعمر بن عبد العزيز[(٤)] . ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر إلا إن عمل في سحر ما يبلغ الكفر به[(٥)] . قال ابن المنذر : وهو رواية عن أحمد ، والأول أولى[(٦)] للحديث والأثر عن عمر ، وعمل به الناس في خلافته من غير نكير .

قوله : وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال : « كتب عمر أن

---

(١) ليس هو من رواية البجلي ، وإنما هو جندب الخير .

(٢) جندب بن كعب الأزدي .

(٣) يُقتل ولا يُستتاب ؛ لأنه وإن أظهر التوبة فإنه لا يكون صادقاً لأنه زنديق ، والزنديق لا تقبل له توبة فيقتل على كل حال ، فإن كان صادقاً في توبته فهذا عند الله يعني ينفذ عليه الحد في الدنيا ، وأما إذا كان تائباً توبة صحيحة فأمره إلى الله ﷻ .

(٤) هؤلاء كلهم يقولون : يُقتل بكل حال ولا يُستتاب .

(٥) هذا خطأ ، والصواب ما قاله الجمهور ، أنه يُقتل على كل حال عملاً بالنصوص ، فالصحابة لم يستفصلوا في هذا .

(٦) الأول هو القتل مطلقاً .

اقتلوا كل ساحر وساحرة فقتلنا ثلاث سواحر »[١] هذا الأثر رواه البخاري كما قال المصنف لكن لم يذكر قتل السواحر .

قوله : عن بجالة - بفتح الموحدة بعدها جيم - ابن عبدة - بفتحتين - التميمي العنبري بصري ثقة .

قوله : « كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة » وظاهره أنه يقتل من غير استتابة ، وهو كذلك على المشهور عن أحمد ، وبه قال مالك ؛ لأن علم السحر لا يزول بالتوبة ، وعن أحمد يستتاب فإن تاب قبلت توبته : وبه قال الشافعي ؛ لأن ذنبه لا يزيد على الشرك ، والمشرك يستتاب وتقبل توبته[٢] ، ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم .

---

(١) هذا الحديث من « صحيح البخاري » عن بجالة بن عَبَدَةَ أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب إلى عُمّاله وإلى أمرائه على الأقاليم : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة(*) . هذا قول الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب ، فأمر بقتل السحرة والسواحر ، فهذا فيه بيان حكم الساحر ، وأنه يُقتل ، وأن هذا ما عمّم به عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أمرائه بأن يقتلوا السحرة فدلّ على وجوب قتل الساحر . قال : « فقتلنا ثلاث سواحر » يعني : طبقنا خطاب عمر فقتلنا ثلاث سواحر ، هذا فعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأمر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فقد قال ﷺ : « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي »(**) .

(٢) الراجح الأول أنه يقتل ولا يستتاب ، لأن الصحابة لم يستتيبوا السحرة ، ولأن السحر

(*) في « صحيح البخاري » ٣ / ١١٥١ (٢٩٨٧) مختصراً ليس فيه الأمر بقتل السحرة ، وأخرج الإمام أحمد في « المسند » ٣ / ١٩٦ (١٦٥٧) الرواية مطولة ، وفيها أمره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقتل كل ساحر وساحرة . لذا علق الشيخ سليمان رحمه الله في « تيسير العزيز الحميد » ص (٣٣٣) على ذلك بقوله : (وعلى هذا فعزو المصنف إلى البخاري يحتمل أنه أراد أصله لا لفظه) .

(**) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٢٨ / ٣٧٥ (١٧١٤٥) وقال الأرنؤوط : حديث صحيح .

=

قوله : وصح عن « حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت »[١] هذا الأثر رواه مالك في « الموطأ » ، وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين .

وقوله : « وكذا صح عن جندب »[٢] أشار المصنف بهذا إلى قتل الساحر ، كما رواه البخاري في « تاريخه » عن أبي عثمان النهدي قال : كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه ، فعجبنا فأعاد رأسه ، فجاء جندب الأزدي فقتله . ورواه البيهقي في « الدلائل » مطولاً ، وفيه : « فأمر به الوليد

لا يزول بالتوبة ، بخلاف الكفر والشرك فإنه يزول بالتوبة[*] .

(١) صحّ عن حفصة أم المؤمنين وبنت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنها : « أنها أمرت بجاريةٍ لها سحرتها فقُتلت » وحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صحابية أمرت بقتل الساحرة وقُتلت ، وهذا دليل آخر على وجوب قتل الساحر .

(٢) كذلك صحّ عن جندب الأزدي أنه قتل الساحر[**] ، وذلك في قصة ؛ هي أن أحد أمراء بني أمية كان يلعب عنده ساحر ويُظهر للناس أنه يقتل الشخص ثم يُرجع رأسه فيقوم الشخص حياً ، يُري الناس أنه فصل رقبته وقطع رأسه ثم يأتي (ويرجع رأسه) ثم يقوم الشخص حياً يعني هذا من باب القُمرة والتخييل ، فدنا منه جندب الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مشتملاً على السيف فقتله ، وقال : إن كان صادقاً فليحيي نفسه ، فقتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحضرة الأمير إنكاراً للمنكر وإظهاراً للحكم الشرعي ؛ فدلّ هذا على وجوب قتل الساحر ؛ لأن جندب صحابي .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - عن الاستدلال بصحة إيمان سحرة فرعون وتوبتهم على قبول توبة الساحر ، كيف الجواب عنه ؟ فقال : الجواب عنه أن هذا شرع من قبلنا ، وقد جاء في شريعتنا أن الساحر يقتل ولا يستتاب . أ.هـ.

(**) أخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » ٢ / ٢٢٢ (٢٢٦٨) .

فسجن »[1] فذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة .

قوله : قال أحمد : عن ثلاثةٍ من أصحاب النبي ﷺ[2] . أحمد هو الإمام أحمد بن حنبل ، أي : صحّ قتل الساحر عن ثلاثة .

---

(١) فأمر بجندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسجن لأنه قتَله عند الخليفة ، والخليفة يرى أن هذا من الافتيات عليه ، ولكن هذا من إنكار المنكر .

(٢) يعني صحّ قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ ، وهم عمر بن الخطاب حيث كتب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، وابنته حفصة أم المؤمنين حيث أمرت بقتل جاريتها ، وجندب الأزدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قتل هذا الساحر الذي كان يلعب عند الأمير . فهؤلاء ثلاثة من صحابة رسول الله ﷺ صحّ عنهم قتل الساحر ، وهذا هو مذهب جمهور أهل العلم ، والأئمة الثلاثة أبي حنيفة ومالك وأحمد ، على أن الساحر يُقتل عملاً بهذه الأدلة ، وأما الإمام الشافعي ﷺ قال : لابد أن يُستفصل ، ويُنظر في نوع السحر الذي يستعمله فإن كان يقتضي الكفر فإنه يُقتل ، وإلا فإنه يؤدّب بغير القتل ، ولكن هذا في الحقيقة مرجوح ، خلاف عمل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٢٥ - باب بيان شيء من أنواع السِّحر

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر . حدثنا عوف ، عن حيّان بن العلاء . حدّثنا قطن بن قبيصة ، عن أبيه ، أنه سمع النبي ﷺ قال : « إن العيافة ، والطَّرق ، والطِّيرة من الجبت » .

قال عوف : « العيافةُ : زَجْرُ الطَّيْرِ ، والطَّرْقُ : الخَطُّ يُخَطُّ بالأَرْضِ » والجِبْتُ : قَالَ الحسنُ : « رَنَّةُ الشَّيْطَانِ » . إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ .

ولأَبِي دَاوُدَ ، وَالنَّسائِيِّ ، وابنِ حِبَّانَ في : « صحيحِهِ » : الـمُسْنَدُ مِنْهُ .

وعن ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال : قالَ رسولُ الله ﷺ : « مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ ؛ فقدِ اقْتبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ ، زَادَ ما زَادَ » . رواه أبو داود ، وإسنادُهُ صحيحٌ .

وَللنَّسَائيِّ مِنْ حديثِ أبِي هُرَيْرَةَ : « مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا ، فقد سَحَرَ ، ومنْ سَحَرَ ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً ؛ وُكِلَ إِلَيْهِ » .

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ ، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ : « ألا هَلْ أُنَبِّئُكُم مَا العَضْهُ ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ ، القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ » . رواهُ مُسْلِمٌ .

وَلَـهُمَا : عنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ : « إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً » .

٢٥- باب بيان شيء من أنواع السحر

قوله : « باب بيان شيء من أنواع السحر »[(١)] .

(١) لما ذكر في الباب الأول حكم السحر وحكم الساحر ناسبَ أن يذكر في هذا الباب أنواع السحر كما جاءت في الكتاب والسنَّة ، لأن من نهى عن شيء فإنه يجب عليه أن يُبيِّنه =

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف ، عن حيان بن العلاء ، حدثنا قطن بن قبيصة ، عن أبيه ، أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت » قال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط بالأرض . والجبت : قال الحسن : رنة الشيطان .

قوله : ولأبي داود والنسائي ، وابن حبان في « صحيحه » المسند منه ، قوله : « المسند منه » لم يذكر قول عوف . قوله : قال أحمد . هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ، ومحمد هو ابن جعفر المشهور بغندر الهذلي البصري ثقة مشهور ، مات سنة ست ومئتين . وعوف هو ابن أبي جميلة - بفتح الجيم - العبدي البصري المعروف بعوف الأعرابي ، ثقة مات سنة ست أو سبع وأربعين ، وله ست وثمانون سنة . وحيان بن العلاء - بالتحتية - ، ويقال : حيان بن مخارق ، أو العلاء البصري : مقبول . وقَطَن - بفتحتين - أبو سهلة البصري صدوق .

قوله : عن أبيه هو قبيصة - بفتح أوله - ابن مخارق - بضم الميم - أبو عبد الله الهلالي ، صحابي نزل البصرة .

للناس حتى يتجنّبوه ، وأما كون الإنسان ينهى عن الشيء وهو لا يبيّنه ولا يوضحه للناس فهذا من القصور في العلم والتعليم . فمن نهى عن الشرك يُبيِّنه ؛ ما هو الشرك وما هي أنواعه ؟ ومن نهى عن الربا يُبيِّن ما هو الربا وما هي أنواعه ؟ ومن نهى عن السحر يُبيِّن ما هو السحر وما هي أنواعه ؟ حتى يكون الناس على بصيرة وعلى بيِّنة ، ومن هذا ما صنعه المؤلف ﷬ في هذا الباب فإنَّه تفسيرٌ للباب الذي قبله وتوضيحٌ له .

قوله : « إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت »[(١)] ، قال عوف :

(١) هذه الأشياء أنواعٌ من السحر ، وهذا الحديث رواه أحمد ﷺ في « مسنده »[(*)] بسنده إلى رسول الله ﷺ موثَّقاً بالرجال الثقات ، عن قبيصة بن مخارق الهلالي الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال : « إن العِيافة والطَّرق والطيرة من الجبت » ذكر ثلاثة أنواع ، والجبت هو السحر كما سبق في الباب الذي قبل هذا أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : الجبت هو السحر في تفسير قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ ﴾ [سورة النساء : ٥١] أي : السحر ، والجبت كلمةٌ عامة تشملُ أشياء منها السحر ؛ بل السحر أعظم أنواع الجبت ، والعِيافة فسَّرها الراوي وهو عوف بن أبي جميلة البصري ، المعروف بعوف الأعرابي .

وهذا الحديث إسناده جيِّد ، وهو يشتمل على شيئين : الشيء الأول : بيان حكم العِيافة والطرق والطيرة وأنها من السحر ، والشيء الثاني : تفسير هذه الأشياء ، وهذا من قِبل الراوي وهو عوف بن أبي جميلة ، والذي من كلام الرسول ﷺ هو أوله ، وأما آخره فهو من كلام الراوي وهو عوف تفسير لهذه الأشياء ، العيافة قال : زجر الطير يعني التطير ، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية يتشاءمون بالطيور إذا رأوها ، أو رأوا أنواعاً منها يتشاءمون بالغراب ، يتشاءمون بالبومة وهي الهامة ، يتشاءمون بنوع الطيران ، إذا رأوا الطيور تطير على صفة معينة عندهم كرهوا ذلك وتراجعوا عما عزموا عليه من سفرٍ وغيره ، يزجرون الطيور : يعني يتشاءمون بأنواعها ، بهيئاتها وأصواتها وطيرانها ، ويتشاءمون مثلاً من نعيق الغراب ومن صوت البومة ويتشاءمون منها إذا رأوها تطير على صفةٍ يكرهونها وهذا هو الطيرة ، تُسمى طيرة وتُسمّى عِيافة ، والطرق : هو الخط يُخط بالأرض ، وذلك من عمل السَّحرة ، أنهم يخطُّون على الأرض ، وينثرون الودِع ، وأغلب من يفعل هذا النساء ، فيقولون : سيحدث كذا ، أو سيحصل كذا ، وهذا من عمل الشيطان ؛ لأنه من ادِّعاء علم الغيب الذي لايعلمه إلا الله وإنما هذا الذي يخطّ يستخدم الشياطين ويصنع لهم ، فيخبرونه بأشياء غائبة عن الناس ، وهذا نوع من السحر ، والطيرة : هي التشاؤم بالطيور - كما سبق - هذه كلها من الجبت ، والجبت هو السحر كما في تفسير عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وهذه أنواع من السحر ، وهي لا تـزال بـاقـية عـند بعض الجهلة أو بعض

(*) انظر : « المسند » ٣٤ / ٢٠٨ (٢٠٦٠٤) .

العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط بالأرض ، والطيرة التفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها وهو من عادة العرب ، وكثير في أشعارهم يقال : عاف يعيف إذا زجر وحدس وظن .

قوله : « والطرق : الخط يخط بالأرض » هكذا فسره عوف ، وهو كذلك . قال أبو السعادات : « هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء » .

قوله : والجبت أي : السحر(١) .

قوله : « قال الحسن : رنة الشيطان »(٢) « قلت » ذكر إبراهيم بن محمد بن مفلح أن في « تفسير بقي بن مخلد » : « أن إبليس رن أربع رنات : رنة حين لعن ،

المنحرفين والمحرِّفين يستخدمونها ويستعملونها ، والطيرة لا تزال عند الناس ، يتطيرون بالأشخاص والطيور ، والأصوات . وكذلك الخطوط في الأرض ونثر الودع ، لا يزال من أمور الجاهلية عند بعض الناس اليوم .

(١) والجبت كلمة عامة ، يُفسَّر بالسحر ، ويُفسَّر برنة الشيطان ويُفسَّر بغير ذلك ، والمفسرون كل منهم يأخذ معنىً من المعاني .

(٢) الجبت تقدم في تفسير عمر أنه السحر ، وفي تفسير الحسن البصري أنه رنة الشيطان : يعني صوت الشيطان ، ورنته هو صوته عند الجزع ، عندما يرى الخير فإنه يجزع ويصوِّت فتجتمع إليه جنوده من الشياطين ، ويدبرون المكر والحِيَل لبني آدم ، وقد جاء أنه رنَّ أربعَ رنات ، رنة حين لُعِن ، ورنة حين أُهبط إلى الأرض وذلك في عهد آدم ﷺ ، ورنة حينَ وُلد رسول الله ﷺ ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب على رسول الله ﷺ(*) ، فكل ما حدث خير للمسلمين فإنه يجزع ويتسخط ؛ لأنه لا يريد الخير ويجتمع إليه جنوده فيتدارسون المكر والكيد لبني آدم .

(*) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في « العظمة » ٥ / ١٦٧٩ ، وأبو نعيم الأصبهاني في « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » ٣ / ٢٩٩ ، من قول مجاهد ﷺ .

ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ ، ورنة حين أنزلت فاتحة الكتاب » . وروى الحافظ الضياء في « المختارة » : الرنين : الصوت ، وقد رنَّ يرن رنيناً ، وبهذا يظهر معنى قول الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] .

قوله : وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد »[2] رواه أبو داود بإسناد

---

(١) الرنة : رنة الشيطان أي : صوته من الحَزَن والجزع ، ولأجل أن تجتمع إليه الشياطين فيتشاور معهم في الكيد والمكر لبني آدم ، ومن صوت الشيطان الأغاني والمزامير ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾ [سورة الإسراء : ٦٤] وصوت الشيطان منه الغناء والمزامير هي صوت الشيطان .

(٢) وهذا أيضاً نوعٌ من أنواع السحر وهو التنجيم ، وهو نسبة الحوادث الأرضية إلى الأحوال الفلكية ، فيقولون : حدث كذا بسبب طلوع النجم الفلاني أو غروب النجم الفلاني ، فينسبون الحظوظ والنحوس إلى النجوم ، فيقولون : فلان نجمه منحوس أو فلان نجمه محظوظ أو غير ذلك . وهذا نوعٌ من السحر ، كما قال النبي ﷺ : « من اقتبس شعبة من النجوم » يعني من تعلَّم شيئاً من التنجيم « فقد اقتبس شعبة من السحر »(*) : دلّ على أنّ التنجيم نوع من أنواع السحر ، وإذا كان نوعاً من أنواع السحر فإنه حرام وشرك ، فيجب أن تُنسب الأمور إلى الله ﷻ ، هو الذي يُدبر الكون ، ويدبر النجوم والأفلاك ، وهو الذي يُجري الحوادث في الأرض ، وتُنسب الأمور إلى قضاء الله وقدره لا إلى غيره ، هذا هو التوحيد . وأما نسبة الأمور إلى غير الله فهذا شرك ، ومن ذلك نسبة الأمور إلى النجوم ، النجوم ليس لها تدبير وليس لها أي عمل إلا ما سخرها الله من أجله ، والنجوم مسخراتٌ بأمره ﷻ ، وفيها مصالح كما ذكر الله زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ [سورة الأنعام : ٩٧] ، ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾ [سورة الصافات : ٦] ،

(*) أخرجه أبو داود في « سننه » ٤ / ٢٢٦ (٣٩٠٥) ، وابن ماجه في « سننه » ٢ / ١٢٢٨ (٣٧٢٦) ، وحسنه الألباني .

صحيح ، وكذا صححه النووي والذهبي ، ورواه أحمد وابن ماجه .

قوله : « من اقتبس » قال أبو السعادات : (قبست العلم وأقبست إذا علمته) . انتهى .

قوله : « شعبة » أي : طائفة من علم النجوم ، والشعبة : الطائفة ، ومنه الحديث : « الحياء شعبة من الإيمان » أي : جزء منه .

قوله : (فقد اقتبس شعبة من السحر »[1] المحرم تعليمه . قال شيخ

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [سورة الملك : ٥] وأيضاً هي رجومٌ للشياطين إذا حاولوا استراق السمع ، فإنهم يُرمون بالشُّهُب من النجوم فتقتلهم أو تطردهم ولا يتوصلون إلى ما أرادوا . هذه فوائد النجوم كما سيأتي في التنجيم باب خاص ، فالذي يقتبس : يعني يتعلَّم التنجيم لهذا الغرض فإنه ساحر ومشرك ، أما الذي يتعلم علم النجوم لأجل الحساب فهذا لا بأس به ، تعلُّم منازل القمر ، وتعلُّم أصول الشمس في بروجها ، يتعلم المواقيت وفصول السنة وأوقات الصلوات ، والصيام ، ووقت بذور الأشجار والزراعة ، هذا مباح ، هذا يُسمى علم التسيير ، هذا من فوائد النجوم وليس فيه شرك ، وإنما هو معرفة الحساب ﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [سورة يونس : ٥] ، ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [سورة الإسراء : ١٢] فهذا لا بأس به وليس فيه شرك ، الحسَّابون الذين يحسبون التوقيت هؤلاء لا حرج عليهم في ذلك ، أما الذين يتعلمون التنجيم للاعتقاد والحظوظ والنحوس - كما يقولون - فهذا هو السحر وهذا هو الشرك بالله ﷻ ، فينبغي أن يُفرَق بين هذا وهذا ، وهذا سيأتي إن شاء الله له باب خاص . وقوله « من اقتبس شعبة من النجوم » : يعني تعلَّم شيئاً من التنجيم المحرم « فقد اقتبس » : أي تعلَّم شيئاً من السحر أو شعبةً من السحر ، « زاد ما زاد » : أي كلما زاد من تعلم هذا السحر فإنه يزيد إثمه ويزيد كفره وشركه .

(١) أي تعلم نوعاً من أنواع السحر .

الإسلام : « فقد صرَّح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [سورة طه : ٦٩] . قوله : « زاد ما زاد » أي : كلما زاد من تعلم النجوم زاد في السحر وفي الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شعبه ، فإن ما يعتقدونه في النجوم من التأثير باطل كما أن تأثير السحر باطل والله أعلم) .

قوله : « وللنسائي من حديث أبي هريرة : من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئاً وكل إليه »(١) . هذا

---

(١) وهذا نوعٌ خامس من أنواع السحر : وهو النفث في العُقد ، وهذا من عمل السَّحرة ، وهذا هو السحر الحقيقي ، أن الساحر يعقد العقد ثم ينفث فيها من ريقه مستعيناً بالشيطان ، ثم يحصل ما يحصل من تأثير السحر بإذن الله في الكون والقدر ، الله خلق كل الأشياء من الخير والشر ، فإذا عمل الساحر هذا العمل ، وعقد العقد ونفث فيها بنيَّة خبيثة واستعانة بالشيطان حصل ما يحصل من تأثير السحر بإذن الله ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] : أي قدره ومشيئته سبحانه ، لا بإذنه الشرعي ؛ لأن الله لم يشرع السحر بل قد نهى عنه ولكن هذا الإذن القدري للكون ، والله تعالى أمر رسوله أن يستعيذ بالله من شر النفاثات في العُقد وهنَّ السواحر ، نفاثات : جمعُ نفاثة ، وهي المرأة التي تعقد العقد في الخيوط ثم تنفث فيها بقصد الإساءة وإيصال الشر إلى الغير ، وهذا اصطلاح بينهم وبين الشياطين فهم يخضعون للشياطين ويستعينون بهم ثم يحصل ما يحصل بتقدير الله سبحانه وقضائه وقدره ، والذي يحصِّن من هذا هو الاستعاذة . فسورة الفلق فيها رُقية وفيها استعاذة من السحر وأهله استعاذة من الحسد ومنه العين ، وهي سورةٌ عظيمة وهي حصنٌ للمسلم ولهذا تُشرع قراءتها بعد الصلوات ، قراءة آية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوذتين بعد كل فريضة وبعد الفجر ثلاث مرات وبعد المغرب ثلاث مرات هذا لأجل التحصن بالله من شرور الخلق . من شر السحر وغيره ، وقوله : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر » : هذا فيه بيان نوعٌ من أنواع السحر ؛ بل هذا هو أشدّ أنواع السحر وهو النفث في العقد .

=

« عقد عقدةً ثم نفث فيها » : مجموع أمرين ؛ العقد لأجل تتعقَّد الأمور ، ثم ينفث فيها من ريقه الخبيث مستعيناً بالشيطان فيحصل من ذلك الضرر على ذلك الغير الذي لم يتحصَّن بذكر الله هذه عقوبة لمن أصيب بالسحر ؛ لأنه لم يتحصَّن بالله ﷻ ولم يستعذ بالله ولم يقرأ هذه السور وهذه الآية العظيمة ويتحصن بها ويورد على نفسه فيُصاب ، فالإنسان إذا برز للعدو ولم يتخذ الوقاية يُصاب ، لكن إذا اتخذ الوقاية من عدوه وتحصَّن فإنه لا يضره العدو ، والتحصن إنما هو بذكر الله ﷻ ، لا ينجيك من شياطين الإنس والجن إلا ذكر الله ، وذلك بالورد الشرعي في الصباح والمساء . « ومن سحر فقد أشرك » من سحر هذه لفظة عموم ، « من سحر » كل من سحر فقد أشرك فدلّ على أنّ السحر كله شرك ، وهذا فيه ردّ على الذين يقولون إن السحر ينقسم إلى قسمين منه ما هو شرك ومنه ما هو محرم وليس بشرك كما يُنسب إلى الإمام الشافعي ، فهذا الحديث ردٌّ على هذا القول ، لأن الرسول لم يستثن شيئاً بل قال : « من سحرَ فقد أشرك » هذا عام في كل أنواع السحر ، وأنه شرك ، لماذا أشرك ؟ لأن السحرة يستعينون بالشياطين وإلا لما نفذ سحرهم ولما أثروا إلا لأنهم استعانوا بالشياطين وعبدوهم من دون الله وخضعوا لهم فعند ذلك يحصل ما يحصل .

« ومن تعلق شيئاً وُكِل إليه » : يعني من علّق قلبه بشيء وخاف منه ورجاهُ وُكِل إليه فإن علَّق قلبه بالله توكل على الله ورجا الله وخاف الله فإن الله يحميه ويقيه ويكفيه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [سورة الطلاق : ٣] ، ومن توكل على غير الله واعتمد على غير الله وعلق قلبه بغير الله وكل إلى ذلك الغير وتخلَّى الله ﷻ عنه وخذله ، والجزاء من جنس العمل . الذين يتعلقون على القبور والأموات وعلى المشعوذين والمخرفين ويتعلقون على السحرة ويخافون منهم ويرجونهم يكلهم الله إلى هؤلاء - والعياذ بالله - فيُصابون بالأمراض والأوهام والهموم والأحزان والخوف من كل شيء ، والقلق من كل شيء عقوبة لهم ، أما من توكل على الله وتعلق قلبه بالله فإن الله يكفيه كل شيء ، « ومن تعلق شيئاً وُكِل إليه » فهذا فيه التحذير من التعلق على غير الله ﷻ قال الله ﷻ : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٥] ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة التوبة : ١٣] علق قلبك بالله خوفاً وخشيةً ورجاءً ورغبةً وأبشر بالخير ولا تلتفت إلى غير الله فيكلك الله إلى غيره ويسلط عليك شياطين الجن والإنس فتذلك وتخوفك ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

=

الحديث ذكره المصنِّف ﷺ من حديث أبي هريرة ، وعزاه للنسائي ، وقد رواه النسائي مرفوعاً وحسَّنه ابن مفلح[(١)] .

قوله : وللنسائي هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان ابن بحر بن دينار ، أبو عبد الرحمن صاحب « السنن الكبرى » و« المجتبى » وغيرهما[(٢)] ، روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلق وكان إليه المنتهى في العلم بعلل الحديث ، مات سنة ثلاث وثلاثمائة وله ثمانون سنة .

قوله : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر » قال تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [سورة الفلق : ٤] : يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك ، والنفث : هو النفخ مع الريق ، وهو دون التفل .

وقوله : « ومن تعلق شيئاً وكل إليه » أي : من علَّق قلبه بشيء يرجوه ويخافه وكله الله إلى ذلك الشيء ، ومن قصر تعلقه على الله وحده كفاه ووقاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [سورة الطلاق : ٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة

يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٥] فهذا أصل عظيم وهو أن من تعلق شيئاً وُكِل إليه ، فإن تعلقت بالله فإن الله ﷻ يحميك ويكفيك ، وإن تعلقت بغير الله خُذلت وخسرت ، ولا أحد يقدر أن يُنجيك مما تقع فيه ، بل تبقى في حيرتك وفي مرضك وفساد عقلك ودينك حتى تتوب إلى الله ﷻ وتستعيذ بالله من شر كل ذي شر من الخلق .

(١) ابن مفلح صاحب « المبدع في شرح المقنع » .

(٢) السنن الكبرى للنسائي ، والمجتبى مختصر منها وهو المطبوع الآن الموجود بأيدي الناس ، وأيضاً السنن الكبرى طُبعت .

المائدة : ٢٣] ، ومن تعلّق قلبه بغير الله في رجاء نفع أو دفع ضر فقد أشرك[١] .

قوله : وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺ قال : « ألا هل أنبئكم ما العَضْه ؟ هي النميمة : القالة بين الناس »[٢] رواه مسلم .

---

(١) التوكل عبادة بل هو أعظم أنواع العبادة ، فمن توكل على غير الله فقد صرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله . وهذا هو الشرك .

(٢) العَضْه : بإسكان الضاد والهاء : السحر ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٩١] أي جعلوه سحراً ، فالمشركون يقولون : إن القرآن سحر ، والنبي ﷺ قال لأصحابه : « ألا أنبئكم – أي : أخبركم – ما العضه ؟ » : أراد أن يبيّن لهم خطر النميمة ، ولكنه ﷺ جاء بصيغة السؤال والاستفهام من أجل أن يتنبهوا ؛ لأن الأمور المهمة ينبغي أن تُلقى على الطلاب بصيغة السؤال حتى يتنبهوا لجوابها ، فهذا فيه التعليم على طريقة السؤال والجواب خصوصاً في الأمور المهمة ، « ما العَضْهُ ؟ » ما هو العضه أي : ما هو السحر ؟ هو النميمة ، والنميمة هي : الوِشاية بين الناس الذي ينقل الحديث بين الناس على وجه الإفتان ، فيذهب إلى فلان ويقول : إن فلان يقول فيك كذا وكذا ويذمك ويتكلم فيك حتى يملأ صدره بالحقد على أخيه ، ثم يذهب إلى الآخر ويقول مثل ذلك حتى يُفسد بين الاثنين ، يُفسد بين الزوج وزوجه ، يُفسد بين الأخ وأخيه ، يُفسد بين الوالد وولده ، يفسد بين المجتمع ، يفسد بين العلماء وبين عامة الناس حتى يخلخل المجتمع ويوقع بينهم العداوة بنميمته – والعياذ بالله – ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ١١] بنميم يعني نميمة ، النميمة كبيرة من كبائر الذنوب وهي نوع من السحر ، لماذا ؟ لأنها تعمل عمل السحر ، فكما أن السحر يفرق بين الناس ويفرق بين الأحبة ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] فكذلك النميمة أشدّ من السحر ، تُحدث من الفُرقة والعداوة ما هو أشدّ من السحر ولذلك قيل في الأثر : « أن النمّام يُفسدُ في ساعة ما يُفسده الساحر في سنة »[*] النميمة أشدّ فساداً من السحر ، والنمامون مجرمون مفسدون في المجتمع ، وهذه حِرفة أهل النفاق وأهل الشر ، وما

(*) انظر : « بهجة المجالس وأنس المجالس » لابن عبد البر القرطبي ١ / ٤٠٣ .

قوله : « ألا أنبئكم ما العضه ؟ » - بفتح المهملة وسكون المعجمة - ثم فسرها بقوله : « هي النميمة القالة بين الناس » فأطلق عليها العضه ؛ لأن النمام يعمل عمل الساحر . وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال : « يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة »(١) .

وقال أبو الخطاب في « عيون المسائل » : (ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس) . قال ابن حزم : (واتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في

أكثرهم لا كثرهم الله ، يفسدون بين الناس بالنميمة ونقل الحديث ، وقد مرّ النبي ﷺ بقبرين وقال : « إنهما ليُعذبان - وأخبر ﷺ - أن أحدهما كان يمشي بالنميمة »(*) . النميمة من أسباب عذاب القبر - والعياذ بالله - وهنا يقول ﷺ : « ألا أخبركم ما العضه ؟ هي النميمة » أي : السحر ، « القالة بين الناس » : الذين ينقلون الحديث والقول ويقولون : فلان قال فيك كذا وكذا ، وفلان قال فيك كذا وكذا حتى يملؤوا الصدور بالعداوة والحقد بين الناس ، الواجب على من سمع شيئاً من الكلام أن يكتمه ، وأن ينصح للمتكلم وينهاه عن الغيبة ، ويبين له حُرمة أعراض المسلمين ، وأما أنه ينقل ما سمع ويبلغه للمقول فيه فهذا هو النميمة - والعياذ بالله - فهذا الحديث فيه بيان نوع من أنواع السحر وهو النميمة ، التي يتساهل فيها الناس ويتفكهون بها في مجالسهم .

(١) إفساد النمام أشد من إفساد الساحر ؛ لأن الساحر يؤثر على شخص أو على عدة أشخاص ، لكن النمام يفسد المجتمع كله ، يمشي بين الناس ويُفسد بينهم بالنميمة ويفسد المجتمع كله ، وقد تقوم الحروب بين الناس بسبب النمام ولهذا قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [سورة الحجرات : ٦] فيجب الحذر من النمامين .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٨٨ (٢١٥) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٢٤٠ (٢٩٢) .

غير النصيحة الواجبة(١) . وفيه دليل على أنها من الكبائر)(٢) .

قوله : « القالة بين الناس » ومنه الحديث : « ففشت القالة بين الناس » أي : كثرة القول وإيقاع الخصومة .

قوله : « ولهما عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان لسحرا »(٣) البيان الفصاحة والبلاغة . قال ابن عبد البر : (تأوّله طائفة على

---

(١) الغيبة إذا كان المقصود منها النصيحة ، تُحذِّر من فلان من أجل ألا يغترّ به الناس هذه نصيحة ، أو استشارك أحد في فلان يشاركه أو يزوجه فتبين له ما فيه من العيوب من باب النصيحة وليس من باب الغيبة ، أو تشتكي على ولي الأمر ظالماً ظلمك وتذكر أنه ظالم وأنه كذاب وأنه كذا من أجل إنصافك منه وأخذ الحق منه فهذا ليس من الغيبة ، هذا من أجل المصلحة . أما إذا كان بغير مصلحة فهذه هي الغيبة المحرمة ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [سورة الحجرات : ١٢] ، كذلك من النصيحة بيان الجرح والتعديل في الرواة هذا لاشك أنه ذكرٌ لمعايبهم ، لكن هذا لمصلحة الأمة ؛ لأجل حفظ الشريعة ، أن يحصل فيها الكذب ، أو يُكذب على رسول الله ﷺ ، فيُبيَّن حالة الراوي وما فيه من الاتهام والبدعة وغير ذلك من أجل أن لا يُغترّ بروايته ، فهذا من باب النصيحة .

(٢) يعني النميمة أنها من الكبائر لأنها إذا كانت من السحر ، فالسحر كبيرة من الكبائر ، كما سبق في الباب الذي قبل هذا : « اجتنبوا السبعَ الموبقات : الشرك بالله والسحر » والنميمة نوع من السحر فتكون من الكبائر ، ولأن الله رتّب عليها الوعيد .

(٣) وهذا أيضاً نوعٌ من أنواع السحر وهو البيان ، والبيان المراد به البلاغة والفصاحة في الكلام ، فالبلاغة والفصاحة نوع من السحر ؛ لأنها تؤثر في عقول الناس والمستمعين فإذا كان المتكلم بليغاً في كلامه فإنه يؤثر على المستمعين ويجذُبهم ، لكن إذا كان البيان يُستخدم في الحق والدعوة إلى الله ﷻ فإنه سحرٌ محمود ، وسُمّي سحراً من باب التأثير فقط وإلا هو في الحقيقة ليس سحراً لكنه من باب التشبيه بالسحر في تأثيره ، فإن كان يؤثر خيراً ويجذب المستمعين إلى سماع الحق والعمل به فهذا خير ، هذا فضل من الله ﷻ ، والرسل عليهم الصلاة والسلام أعطاهم الله البلاغة والفصاحة في الكلام لأجل الدعوة =

الذم ؛ لأن السحر مذموم . وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح ؛ لأن الله تعالى مدح البيان)(١) ، قال : (وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله : هذا والله السحر الحلال) انتهى(٢) ، والأول أصح(٣) ، والمراد به البيان الذي فيه تمويه على

إلى الله ﷺ فهذا بيانٌ محمود ، والخطيب والمتحدِّث والمحاضِر في الإذاعة أو في أي مجال إذا وهبه الله فصاحة وبلاغة واستخدمها في نشر الحق والدعوة إلى الله فهذا عملٌ محمود وهذا خير خصَّه الله به استعمله في طاعة الله ﷺ ، وهذا عمل الرسل عليهم الصلاة والسلام ، خلاف الثرثار والذي لا يُحسن الكلام فهذا يُنفِّر المستمعين ولا يستمعون إلى كلامه ، بل يثقل عليهم كلامه ولا يتلذذون به ، أما إذا استخدم البلاغة والفصاحة للشر والدعاية للباطل والتحذير من الخير فهذا هو السحر المحرَّم ، لأن السحر يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً ، فكذلك الفصاحة والبلاغة قد يستخدمها الإنسان في تنفير الناس من الخير وترغيبهم في الشر ، فيصغون إليه لحُسن كلامه وفصاحة منطِقِه ويؤثر فيهم فيزهدون في الخير ويرغبون في الشر ، هذا هو شأن دعاة الضلال وشياطين الإنس والجن ، ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٢] .

يقول الشاعر(*) :

في زُخرفِ القولِ تَزيينٌ لباطِلِهِ والحقُّ قد يعتريه سوءُ تَعْبِيرِ

الفصيح لو استعمل فصاحته في نشر الشر فهذا هو المذموم وهذا هو السحر المحرم ؛ لأنه قَلَبَ الحقائق وغيَّر الموازين وأفسد الأفهام كعمل الساحر تماماً - والعياذ بالله - ، أما إذا استخدمه في الخير ونشر الدعوة إلى الله فهذا هو المحمود من البيان ، البيان والفصاحة لا يُذمَّان مطلقاً ولا يُمدحان مطلقاً ، بل يُذم منهما ما كان يُستعمل في الشَّر ويُمدح ما كان يُستعمل في الخير .

(١) الصواب أنه ليس للذمِّ مطلقاً ولا للمدح مطلقاً ؛ بل هو بحسب ما يُستعمل ، فإن استُعمل في الخير فهو ممدوح ، وإن استُعمل في الشر فهو مذموم .

(٢) سمَّاه حلالاً لأنه لا يترتب عليه شرّ .

(٣) « والأول أصح » أن الحديث ساقه الرسول ﷺ مساق الذمّ وقصده بالبيان الذي

(*) هو أحمد بن شافع الجيلاني (ت ٥٦٥ هـ) . انظر : « طبقات الحنابلة » ص ١٢٨ .

السامع وتلبيس كما قال بعضهم :

فِي زُخْرفِ القَـولِ تَزيينٌ لِبَاطِلِهِ ... والحـقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ(١)

مأخوذ من قول الآخر :

تقولُ هذا مُجَاجُ النَّحلِ تَـمْدَحُهُ ... وإنْ تَشَا قُلْتَ ذَا قَيءُ الزَّنَابِيرِ(٢)

مَدْحاً وذَماً ومَا جَاوَزت وصْفَهُمَا ... والحقُّ قد يَعْتَرِيه سُوءُ تَعْبِيرِ(٣)

قوله : « إن من البيان لسحراً » هذا من التشبيه البليغ ؛ لكون ذلك يعمل عمل السحر فيجعل الحق في قالب الباطل والباطل في قالب الحق ، فيستميل به قلوب الجهال حتى يقبل الباطل وينكر الحق . وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره ، ويبطل الباطل ويبينه ، فهذا هو الممدوح . وهكذا حال الرسل وأتباعهم ولهذا علت مراتبهم في الفضائل وعظمت حسناتهم .

يُستخدم للشر والدعاية للشر ، وما ضل كثيرٌ من الأمم إلا بسبب دعاة الضلال وفصاحتهم وبلاغتهم ، ودعاة الضلال عندهم فصاحة خصوصاً المنافقون قال الله تعالى : ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [سورة المنافقون : ٤] يعني لفصاحتهم وبيانهم وهم أهل نفاق يريدون الشر .

(١) (زخرف القول) : يُحسِّن القبيح ، (تزيين لباطله) : يعني باطل القول ، (والحق قد يعتريه سوء تعبير) : فالإنسان الذي لا يحسن التعبير ويتكلم قد يُسيء إلى الحق ويكرهه الناس ويستثقلونه بسبب سوء التعبير .

(٢) هذا مثال لجعل الحسن قبيحاً والقبيح حسناً ، العسل مثلاً إذا أردت أن تمدحه قلت : هذا مجاج النحل ، وإذا أردت أن تذمه قلت : هذا قيء الزنابير : وهي الذباب والبعوض ، فهو عسل لكن حسب التعبير ، من قال : أنه قيء الزنانير كان من باب التنفير منه ومن قال : هذا مجاج النحل كان من باب المدح ، دلّ على أن الناس ينظرون إلى التعبير .

(٣) مدحاً في قولك : هذا مجاج النحل ، وذمّاً في قولك : ذا قيء الزنابير .

٢٦ - باب ما جاء في الكُهَّان ونحوهم

روى مُسْلِمٌ في « صحيحه » عن بعضِ أزْواجِ النبيِّ ﷺ ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ : « مَنْ أتى عَرَّافاً ، فسَألَهُ عن شيءٍ ، فصدَّقَهُ ؛ لَـمْ تُقْبلْ لهُ صلاةُ أربعينَ يوماً » .

وعن أبي هريرة ، عن النَّبيِّ ﷺ قالَ : « مَنْ أتَى كَاهِناً ، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ؛ فقدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ ﷺ » . رواه أبو داوُد .

وللأَرْبَعَةِ والحاكِمِ - وقال : « صحيحٌ على شرطهما » - عن أبي هريرة : « مَنْ أتَى عرَّافاً أو كاهِناً ، فصدَّقَهُ بما يقُولُ ؛ فقدْ كفرَ بِمَا أُنزِلَ علَى مُحَمَّدٍ ﷺ » .

ولأبي يَعْلَى - بسندٍ جيِّدٍ - عن ابن مسعودٍ مثلُهُ موقُوفاً .

وعن عمرانَ بن حُصَيْنٍ مرفُوعاً : « ليْسَ مِنّا مَنْ تَطيَّرَ ، أو تُطُيِّرَ لهُ ، أو تكَهَّنَ ، أو تُكُهِّنَ لَهُ ، أو سَحَرَ ، أو سُحِرَ لَهُ ، ومَنْ أتَى كَاهِناً ، فصَدَّقَهُ بما يقُولُ ؛ فقد كَفَرَ بِما أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ ﷺ » . رواه البزَّارُ بإسنادٍ جيِّد .

ورواهُ الطَّبرانيُّ في « الأوسَطِ » بإسنادٍ حَسَنٍ ، من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ ؛ دُونَ قولِهِ : « ومَنْ أتَى ... » إلى آخِرِهِ .

قَالَ البغويُّ : (العَرَّافُ : الَّذي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأمُورِ بِمُقَدِّماتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى المَسْرُوقِ ، وَمَكَانِ الضَّالَّةِ ، وَنَحْوِ ذلِكَ) .

وَقِيلَ : هُوَ الكَاهِنُ . وَالكَاهِنُ : هُوَ الَّذي يُخْبِرُ عَنِ الـمُغَيَّبَاتِ في الـمُسْتَقْبَلِ .

وَقيلَ : الَّذي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ .

وقالَ أبو العَبَّاسِ بنُ تَيْمِيَّةَ : (العَرَّافُ : اسمٌ لِلكَاهِنِ ، وَالـمُنَجِّمِ والرَّمَّالِ ،

وَنَحْوِهِم ، مِـمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمورِ بِهذِهِ الطُّرُقِ) .

وَقَالَ ابنُ عبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ « أبا جَادٍ » ، ويَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ : « ما أَرَى مَنْ فَعَلَ ذلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ » .

٢٦- باب ما جاء في الكُهَّان ونحوهم

قوله : (باب ما جاء في الكهان ونحوهم)(١) .

---

(١) ما جاء : يعني من الأدلة من الكتاب والسنة على أنه لا يجوز الذهاب إلى الكهان ولا تصديقهم ولا العمل بقولهم ونحوهم من العرافين والمنجمين والمشعوذين ؛ لأن هؤلاء يفسدون العقيدة ويشوشون على المسلمين أمور دينهم وعقيدتهم ، فيجب الابتعاد عنهم والإنكار عليهم ، ويجب منعهم من مزاولة هذه الأباطيل التي يأكلون بها أموال الناس بالباطل ويفسدون عقائد الناس ولو تسمّوا بالمعالجين أو تسموا بالأطباء الشعبيين أو غير ذلك من الأسماء ، فهذا لا يغير الحقيقة بأنهم كذبة دجالون ، وأنهم يستخدمون الجن ويستعينون بالشياطين ، فلا يجوز الركون إليهم ، ولا يجوز تسميتهم بالفنانين أو أصحاب الفن أو غير ذلك من التستر عليهم ، أو إفساح المجال لهم في مجتمع المسلمين ؛ بل تجب محاربتهم ومحاصرتهم ومن ثبت عليه تعاطي هذه الأمور فليقدم إلى المحكمة الشرعية للحكم عليه بما يناسبه لردعه ومنعه وكفِّ شره عن المسلمين . فلا يجوز التساهل في هذه الأمور فإنه قد راج في عصرنا الحاضر سوقهم وانتشر باطلهم باسم المعالجين ، وباسم الرقية أنهم يرقون المريض ويجعلون لهم عناوين ويعطون أرقام الهواتف للاتصال عليهم في داخل المملكة وخارجها ؛ بل يتشبهون بالأطباء ويفتحون لهم عيادات طبية ويكون لهم ناس ينظمون المراجعين عليهم مثل ما يكون عند الطبيب ، وهم في الحقيقة كذبة خونة عملاء للشيطان وعملاء للجن ، فيجب الحذر منهم وعدم الاغترار بأساليبهم وأباطيلهم .

والكُهَّان جمع كاهن . والكاهن : هوالذي يدعي علم الغيب وذلك لأنه يأخذ عن الشياطين ؛ ثم يخبر الناس بما تخبره به الشياطين ، فإذا كفر بالله واستجاب للشياطين بما يريدونه منه فإنهم يخبرونه بأشياء لا يعرفها الإنس . والله ﷻ يقول : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن

=

الكاهن هو الذي يأخذ عن مسترق السمع ، وكانوا قبل المبعث كثيراً ، وأما بعد المبعث فإنهم قلُّوا(١) ؛ لأن الله حرس السماء بالشهب .

تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴾ [سورة الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٣] هؤلاء هم الكهان . ويظن بعض الناس أنهم مهرة وأنهم أطباء ، والبعض الآخر يزعم أنهم أولياء الله ، وأن هذه الكرامات ظهرت على أيديهم وهم في الحقيقة أولياء للشيطان ؛ لأنهم خضعوا للشيطان وعصوا الله ، فالشياطين تخدمهم بما يريدون في مقابل كفرهم بالله ، ومقابل تضليل الناس ، وإفساد عقائد الناس ، وهذا ما يريده الشيطان .
وأما العرَّاف : فهو الذي يدعي علم الغيب لا باستخدام الجن وإنما بأمور يعلمها كالحدس والظن والتخمين وهو كذاب ، ويدَّعي معرفة المرض ، ويدَّعي معرفة مكان الشيء المسروق ، وأين يوجد . يعتمد على حدس وتخمين وظن كاذب ، فيظنه الناس صادقاً فيما يقول . وأما المنجِّم : فسبق لنا أنه الذي يعتقد أن النجوم لها تأثير في الحوادث .
فالتنجيم : هو نسبة الحوادث الأرضية إلى الأحوال الفلكية ، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(*) ويزعمون أن النجوم هي التي تسبب أو تؤثر في الحوادث ويعلقون بها الحظوظ والنحوس ويقولون : نجم فلان طيب ، ونجم فلان منحوس إلى آخره .
كل هؤلاء متآمرون على عقيدة التوحيد ، فيجب الحذر منهم والبعد عنهم وتكذيبهم ، وعدم الذهاب إليهم وعدم تصديقهم .

(١) لأن في الجاهلية قبل بعثة الرسول ﷺ كان الكُهَّان كثيرين ولهم رايات عند العرب ، وكل قبيلة لها كاهن يخبرها . فالكُهَّان كثيرون ؛ لأن الشياطين تسترق السمع فتلقيها عليهم ، فلما بعث النبي ﷺ حرست السماء يقول الجن ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا ﴾ أي نستمع ﴿ مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ يعني لاستراق السمع ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ هذا عند مبعث النبي ﷺ ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [سورة الجن : ٩ ، ١٠] فلما بعث النبي ﷺ قلَّت الكهانة التي كان صيتها رائجاً في الجاهلية ومنع الشياطين من استراق السمع ، وحرست السماء واستراح الناس من شر هؤلاء الكهان . وهكذا حين انتشرت عقيدة التوحيد قلَّت الخرافات وقلَّت الكهانة والأمور المحرمة وكل

(*) انظر : « مجموع الفتاوى » ٣٥/ ١٩٢ .

وأكثر ما يقع في هذه الأمة ما يخبر به الجن مواليهم من الإنس عن الأشياء الغائبة مما يقع في الأرض من الأخبار ، فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة . وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون ذلك المخبر لهم عن الجن ولياً لله وهو من أولياء الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[1] [سورة الأنعام : ١٢٨] .

ما جهل الناس عقيدة التوحيد وتكاسلوا عن تعلمها وتعليمها عادت الخرافات إلى المجتمع ولا يحارب ولا يقاوم هذه الخرافات إلا الوحي المنزل على الرسول ﷺ من الكتاب والسنة ؛ فإذا تُرِك الكتاب والسنة راجت الكهانة وراج الشر .

(١) ﴿ ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ بمعنى أن الجني خدم الإنسي ، والإنسي تقرب إلى الجني وعظَّم الجني ، واستمتع بعضنا ببعض بهذه الطريقة الكفرية .

﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾ : الجن والإنس الذين وقعوا في هذا الشرك جميعاً ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٢٩] فالله ولَّى الشياطين على هؤلاء الإنس الذين خضعوا لهم وانقادوا لهم عقوبة لهم ، ولو أنهم تعلقوا بالله وخافوا من الله لأكرمهم الله ﷻ ولمنع عنهم الشياطين ، ومنع عنهم الأشرار ؛ لأن من توكل على الله كفاه .

وقول الشيخ ؒ أن هؤلاء يُظن أن ما يقولونه من باب الكرامات هذا صحيح . الآن الدجالون ومشائخ الطرق الصوفية والقبوريون كلهم على هذا اتخذوا هؤلاء سادة لهم . يسمونهم الأولياء ، هذا ولي لله يعمل كذا ويعمل كذا ، وهو في الحقيقة وليٌّ للشيطان ؛ لأن ما يعمله إنما هو من عمل الشياطين ، إما كهانة ، وإما عرافة ، وإما نوع من استخدام الجن . الأمر خطير في هذا وراجت هذه الخرافات بسبب جهل الناس بعقيدة التوحيد الصحيحة ، وعدم وجود الدعاة إلى الله ﷻ على بصيرة ؛ حتى إن كثيراً من الدعاة الآن أهملوا العقيدة . يقولون : اتركوا العقائد التي تفرق الناس ، وعلموهم الصلاة ، والوضوء ، والصدق في المعاملة والأخلاق الطيبة وأما العقيدة فلا ؛ لأن هذا يفسد

=

قوله : روى مسلم في « صحيحه » عن بعض أزواج النبي ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً »(١) .

الناس عليكم ، فبهذه الطريقة الشيطانية راجت الخرافات وهذا يرضي الشياطين بأن لا نتكلم في العقيدة ولا نبيِّن الشرك وأنواع الشرك ، ولا نحذر من الكهانة ، ولا نحذر من الخرافات ، ولا نحذر من أولياء الشيطان ، ولا نبيِّن أنهم أولياء للشياطين وليسوا أولياء للرحمٰن وبهذه الطريقة حصل ما حصل للمسلمين الآن ، فلابد من الدعوة للتوحيد ولابد من بيان التوحيد ، وبيان الشرك ، وأنواع الشرك ، ولابد من بيان أحوال الكهان وأحوال المشعوذين والدجالين والكذبة ، الذين يدعون أنهم أولياء الله أو يدعى لهم أنهم أولياء لله ﷺ فلابد من كشف هذا الزيف وبيان الحق . أولياء الله كما قال الله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ من هم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [سورة يونس : ٦٢ - ٦٣] هؤلاء هم أولياء الله . أما الكهان والخرافيون والمشعوذون فهؤلاء ليس عندهم إيمان ، وليس عندهم تقوى – والعياذ بالله – لكن لو قيل : قال وليُّ الله ، لا نأخذ بكلامه حتى ننظر في عقيدته وعمله ، فإن كانت عقيدته سليمة وعمله على الكتاب والسنة فهو ولي الله ﷺ ، أما إن كانت عقيدته فاسدة وكانت أعماله قبيحة فهذا ليس ولياً لله . وإنما هو ولي للشيطان . وما يجري على يده من الخوارق هذه خوارق شيطانية ، وأعمال شيطانية شعوذات لا حقيقة لها .

(١) هذا الحديث في « صحيح مسلم » لكن دون قوله « فصدقه » الذي في « صحيح مسلم » : « من أتى عرافاً فسأله لم تقبل له صلاة أربعين يوماً »(*) ، وأما لفظ : « فصدقه » هذا في « مسند الإمام أحمد »(**) وغيره . فالحديث يدل على تحريم الذهاب إلى العرَّاف .

وقوله : « لم تقبل له صلاة أربعين يوماً » : هذا وعيد يدل على تحريم الذهاب إلى العرافين ، فإذا ذهب الإنسان إلى عراف ليسأله عن شيء فإنه لا تقبل له صلاة مدة أربعين يوماً .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ١٧٥١ (٢٢٣٠) ، إلا أنه قال : « أربعين ليلة » .

(**) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٢٧ / ١٩٧ (١٦٦٣٨) ، وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

قوله : عن بعض أزواج النبي ﷺ : هي حفصة ذكره أبو مسعود الثقفي ؛ لأنه ذكر هذا الحديث في الأطراف في مسندها .

قال البغوي(١) : العرَّاف : الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك(٢) .

وقيل : هو الكاهن . والكاهن : هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل .

وقيل : الذي يخبر عما في الضمير . وقال شيخ الإسلام : العرَّاف : اسم للكاهن والمنجِّم والرمَّال ونحوهم(٣) .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل في اسم العراف(٤) .

وهذا عقوبة عظيمة بمعنى أنه ليس له ثواب في صلاته . يصلي أربعين يوماً وليس له أجر ولا ثواب ؛ لأن صلاته غير مقبولة . فهذا وعيد شديد ، فكيف إذا صدقه فالأمر أشد ، يعني إذا صدقه فإنه يكفر بما أنزل على محمد ﷺ - كما سيأتي - .

وقوله : « عن بعض أزواج النبي » : المبهم هو حفصة بنت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم المؤمنين .

(١) هو الإمام الجليل الحسين بن مسعود البغوي المفسِّر المشهور .

(٢) يدَّعي أنها من باب الفراسة ، وهو كذب وتدجيل ، لأنه لا يعلم الغيب ، ولا يعلم مكان الضالة إلا الله ﷻ .

(٣) هذا التعريف أكمل يدخل فيه كل من ادعى شيئاً من علم الغيب بأيِّ طريق كان ، فيشمل العراف ، والكاهن ، والمنجم الذي يتعامل مع علم النجوم ، والرمال الذي يتعامل مع الشياطين بالخط في الرمل ، ونثر الودع ، وغيرهم ، ولا يعلم الغيب إلا الله ﷻ . قد يُطْلِعُ الله على بعض الغيبيات من يختاره ويصطفيه من رسله ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [سورة الجن : ٢٦ - ٢٧] .

(٤) لأنه يدعي علم الغيب .

وقال ابن القيم : (من اشْتَهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفاً وعرافاً)[(١)] .

قوله : لم تقبل له صلاة أربعين يوماً : قال النووي وغيره ما معناه : أنه لا ثواب له فيها ، وإن كانت مجزية بسقوط الفرض عنه . ولابد من هذا التأويل في هذا الحديث ، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة[(٢)] . انتهى ملخصاً .

قوله : وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، عن النبي ﷺ قال : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ »[(٣)] رواه أبو داود .

---

(١) من اشتهر عند العرب بإحكام الزجر : زجر الطير ، والاستدلال بحركاتها وطيرانها وأنواعها يسمونه عرافاً ، وهو في الحقيقة متطيِّر يعمل الطيرة يسمون الطيرة عرافة ، والمعنى واحد ، كلهم من فصيلة واحدة . العراف والمتطير والكاهن والرمَّال كلهم من فصيلة واحدة ؛ لأنهم كلهم يدَّعون علم الغيب .

(٢) يعني ما أمروه ، وما ذكر عن العلماء أنهم أمروه أن يعيد الصلاة أربعين يوماً ، فدلَّ على أن معنى قوله ﷺ : « لن تقبل له صلاة » أي : ليس له ثواب فيها ، وإن كان لا يؤمر بإعادتها .

(٣) عرفنا الكاهن وأنه الذي يدَّعي علم الغيب بواسطة الشياطين الذين يسترقون السمع فيتعامل معهم بطاعتهم بما يأمرونه به من الكفر بالله ﷻ ، والشرك بالله وإفساد دينه ، ثم هم يقدِّمون له خدمة في مقابل ذلك ؛ بأن يخبرونه عن الأشياء التي تخفى عليه بقدر ما يسترقون من السمع ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [سورة الشعراء : ٢٢١] هؤلاء هم الكهان فمن ذهب إلى الكاهن فسأله عن شيء من أموره ثم صدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ ، والذي أنزل على محمد ﷺ هو القرآن والسنة ، دلَّ على أنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن ، بل هما ضدان لا يجتمعان ، لأن القرآن حرم الكهانة وحذر من الكُهَّان ، والذي يذهب إليه ويصدِّقه يكون مكذِّباً للقرآن ؛
=

وفي رواية أبي داود : « أو أتى امرأة » - قال مسدد : « امرأته حائضاً[١] ، أو أتى امرأة » - قال مسدد : « امرأته في دبرها ، فقد برئ مما أنزل على محمد ﷺ »[٢] .

قوله : وللأربعة والحاكم وقال : صحيح على شرطهما عن (   ) : « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ »[٣] هكذا

لأنه لو كان مصدقاً للقرآن لامتنع من الذهاب للكهان فلا يجتمع هذا وهذا ، وليس من شرط هذا أنه يذهب إليهم بنفسه ؛ بل إنه لو اتصل عليهم بالهاتف أو كتب لهم رسالة ، أو خطاباً وأرسله إليهم وجاءه الجواب وصدَّق فالحكم واحد « فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » ، وهذا وعيد شديد يدل على أنه لا يجتمع الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ والإيمان بما يقوله الكاهن .

(١) يعني من أتى امرأته إتياناً محرماً . من أتى امرأته يعني جامعها جماعاً محرماً بأن جامعها في الحيض ، والله ﷻ يقول : ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٢] وأتى امرأته في دبرها فعليه هذا الوعيد « فقد برئ مما أنزل على محمد ﷺ » يعني لو فعل هذه الجرائم التي في الحديث .

(٢) هذا وعيد شديد يدل على أن إتيان المرأة في الحيض أنه كبيرة من كبائر الذنوب ؛ لأن الرسول ﷺ تبرَّأ منه : « أو أتى امرأته في دبرها فقد برئ منه محمد ﷺ » : فدل على أن إتيان المرأة في دبرها كبيرة وفاحشة ؛ لأن الله ﷻ يقول : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٣] والحرث يعني محل النسل وهو القُبل . فأمر الله أن تؤتى المرأة في محل الحرث أي : في محل النسل الذي هو القبل ، وأما الدبر فليس محلاً للحرث وليس محلاً للنسل وإنما هو محل القاذورات والنجاسات ومحل الخبائث ولا ينجب ذرية كما ينجب القُبل .

(٣) هذا مثل الحديث الذي قبله إلا أنه جاء بالعراف فقال : « من أتى عرافاً أو كاهناً » فجعل حكم الاثنين : العراف والكاهن سواء ، وأن من أتاهم وسألهم وصدقهم فإنه يكون قد كفر بما أنزل على محمد ﷺ .

بيض المصنف لاسم الراوي ، وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً .

قوله : « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » قال القرطبي : « المراد بالمنزل : الكتاب والسنة » .

قوله : ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً(١) . أبو يعلى : اسمه أحمد بن علي بن المثنى الموصلي الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره(٢) .

روى عن يحيى بن معين وأبي خيثمة وأبي بكر بن أبي شيبة وخلق ، وكان من الأئمة الحفاظ مات سنة سبع وثلاثمئة . وهذا الأثر رواه البزار أيضاً ، ولفظه : « من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » وفي هذه الأحاديث التصريح بكفره .

قوله : وعن عمران بن حصين مرفوعاً : « ليس منا من تَطَيَّر أو تُطُيِّرَ له أو تَكَهَّن أو تُكُهِّن له أو سَحَر أو سُحِر له ، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ »(٣) رواه البزار بإسناد جيد من حديث ابن

---

(١) الموقوف : ما كان من كلام الصحابي . والمقطوع : ما كان من كلام التابعي .

(٢) مسنده مطبوع الآن بعنوان : مسند أبي يعلى الموصلي .

(٣) هذا الحديث مثل الأحاديث التي قبله ؛ بل فيه زيادة علم ، قال ﷺ : « ليس منا من تَكَهَّن أو تُكُهِّن له أو تَطَيَّر أو تُطُيِّر له أو سَحَرَ أو سُحِرَ له » وقوله : « ليس منا » : هذا براءة ، تبرأ منه الرسول ﷺ ، وهو يدل على شدة الوعيد ؛ لأن الرسول إذا تبرأ من شيء هذا يدل على أن هذا الشيء يكون كبيرة من كبائر الذنوب . والكبائر قد تكون شركاً ، وقد تكون كفراً ، وقد تكون فسقاً . والكبيرة في العقائد تكون شركاً وكفراً . أما الكبيرة =

في المعاصي التي دون العقيدة فهذه تعتبر فسقاً .
قوله ﷺ : « ليس منا » يدل على شدة الأمر وخطورة هذا العمل « من تكهن » : يعني فعل الكهانة « أو تكهن له » : يعني ذهب إلى الكاهن وطلب منه أن يعمل له الكهانة من أجل أن يخبره عن شيء أو يجيبه عن سؤال فسوى الرسول ﷺ بين الفاعل والمفعول له من فعل الكهانة ومن فُعلت له الكهانة . « أو تطير » والتطير : هو التشاؤم بالطيور هذا في الأصل ، فيشمل التشاؤم في كل شيء كأن يتشاءم بالأشياء يعتقد فيها أنها تضره ويترك ما عزم عليه من أجل الطيرة . هذا شرك بالله ﷻ ؛ لأنه خاف من غير الله ﷻ أن يضره فإذا رأى نوعاً من الطيور تطيَّر ، وإذا رأى الغراب ، رأ ى البومة ، أو سمع صوت الغراب أو سمع صوت بعض الطيور يعتقد أنه سيصيبه شيء أو أنه لا ينجح في عمله فيترك ما عزم عليه . هذا شرك بالله ﷻ هذا هو التطير . إذا رأى بعض الأشخاص أو بعض الدواب فإنه أيضاً يتطير ويتشاؤم ويترك ما عزم على فعله ، أو إذا كان يريد السفر يرجع من السفر هذا هو التطير ، وهذا شرك بالله ؛ لأنه يخاف من غير الله ﷻ أن يضره ولا يتوكل على الله ﷻ ويعتمد على الله ، هذا فساد في عقيدته « أو تُطُيِّر له » : يعني فُعِلت الطيرة من أجله قال : يا فلان انظر في الطيور ، انظر في كذا . أخبرني إذا حصل شيء أنا أريد أن أتزوج ، أريد أن أسافر أريد أن أشتري البضاعة الفلانية تطيَّر لي ، وهو لا يحسن الطيرة بنفسه فيسأل المتطيِّر ويطلب منه أن يتطيَّر له فالحكم سواء ، من فعل الطيرة ومن فُعِلت له . « سحر أو سُحِر له » : السحر سبق لنا في باب السحر أنه كفر بالله ﷻ . كذلك من « سُحِر له » يعني طلب من الساحر أن يسحر فلاناً وهذا معناه أنه رضي بالسحر ورضي بالكفر . أو قال له : يا فلان أنا مسحور ، اعمل لي سحراً ينقض السحر الذي عندي . فهذا الحديث يدل على أن هذا حرام لا يجوز للإنسان أن يتعامل بالسحر ؛ لأنه من يتعالج بالسحر فقد أقرَّ السحر . والسحر كفر بالله ﷻ لأنه من عمل الشيطان ، فيكون رضي به وطلبه أن يعمل له سحراً . هذا مشاركة في هذا الكفر - والعياذ بالله - ورضاً به واستعمالاً له ، فلا يجوز الذهاب للسحرة ولا طلب عمل السحر ؛ لأن هذا رضاً بالكفر وطلباً للكفر وموافقة على الكفر .

« ومن أتى كاهناً » : هذا آخر الحديث ، مثل الأحاديث السابقة « فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » : يدل على تحريم الذهاب إلى الكهان وسؤالهم وطلب المعلومات منهم ؛ لأن هذا رضا بالكفر واستعمال للكفر . والمسلم لا يجوز له أن يرضى
=

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا دون قوله : « ومن أتى ... إلخ » .

قوله : « ليس منا » : دليل على نفي الإيمان الواجب ، وهو لا ينافي ما تقدم من أن الطيرة شرك والكهانة كفر .

قوله : رواه البزار : هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار البصري صاحب المسند الكبير ، روى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق ، ومات سنة اثنتين وتسعين ومئتين .

قوله : قال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم : « ما أُرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق »[1] .

بالكفر وأن يستعمل الكفر وأن يشارك الكفرة في أعمالهم ، إذاً ما معنى الإسلام وما معنى التوحيد إذا كان لا يترك هذه الأشياء ؟!

(١) وهذا في باب التنجيم ، سيأتي في باب خاص ، والتنجيم سبق منه شيء ، والمنجِّم : هو - كما سبق - الذي ينسب الحوادث العظيمة إلى الأحوال الفلكية ، وينسب الأمور إلى النجوم فيقول : إذا طلع النجم الفلاني يحصل غلاء في الأسعار ، ويحصل أمراض وأوبئة ، أو إذا غاب النجم الفلاني ترخص الأسعار أو ينزل المطر أو غير ذلك فنسبة ما يجري في الكون إلى طلوع النجوم أو غروبها وأنها تؤثر في الكون هذا كفر بالله ﷻ ؛ لأن الذي يتصرف في الكون هو الله سبحانه فليس للنجوم تصرف في الكون ولا لأحد تصرف في الكون إلا الله ﷻ .

وهذا شرك في الربوبية هذا هو التنجيم ، والمنجمون لهم طرق ومن طرقهم : عمل الطلاسم وهي الحروف يكتبون الحروف المقطعة التي تسمى بالطلاسم ويستدلون بها على كذا وكذا وهذا أيضاً يدخل في هذا الباب ، في باب ادعاء علم الغيب ، « وأبا جاد » الذي يعرفه الناس « أبجدهوز » : حروف الجُمَّل ، فمن استعمل هذه الحروف من أجل ادعاء علم الغيب فهو منجِّم . ومن استعملها لأجل ربط الجمل فقط فقرة (أ) فقرة (ب) فقرة (ج) فقرة (د) فقرة (هـ) كما هي عمليات اليوم يعني يميزون الجمل والفقرات

=

هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعاً ، وإسناده ضعيف .

قوله : ما أرى : يجوز فتح الهمزة بمعنى : لا أعلم . ويجوز ضمها بمعنى : لا أظن . وكتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدّعي بها علم الغيب هو الذي يسمى علم الحروف ، وهو الذي فيه الوعيد ، وأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به .

قوله : وينظرون في النجوم : أي يعتقدون أن لها تأثيراً في باب التنجيم .

وفيه : الحذر من كل علم لا تعلم صحته من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وقد ورد النهي عنها والتحذير من قرب أهلها وسؤالهم وتصديقهم فيما أخبروا به من باطلهم فما أكثر من يغتر بهذه الأمور !

بعضها عن بعض بحروف الجمَّل هذه فلا بأس به . هذا لم يدع علم الغيب ولا يستعملها في العقيدة وإنما يستعملها فقط لربط الجمل .

وقوله : « ما أرى من فعل ذلك » أي كتابة أبا جاد والنظر في النجوم « له عند الله من خلاق » هذا وعيد شديد ، ليس له نصيب من الجنة وليس له دين وهذا دليل على تحريم هذا العمل ؛ لأنه نوع من التنجيم ونوع من ادعاء علم الغيب ، وهو عمل الطلاسم التي تعمل الآن . يعملها المشعوذون حروف مقطعة يكتبونها ويستدلون بها على كذا وكذا ، وهذه حروف ليس عندها خبر وإنما هذه طريقة شيطانية يطيع الشيطان فيما يملي عليه ، فإذا ما مشى على شرط الشيطان ، فإن الشيطان يخبره بالأمر .

٢٧ - باب ما جاء في النُّشرة

عن جابرٍ ، أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ ؟ فقَالَ : « هيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » . رواهُ أحمدُ بسندٍ جيِّدٍ ، وأبُو دَاوُدَ ، وقَالَ : « سُئِلَ أحمدُ عَنْهَا ؟ فقالَ : ابنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هذَا كُلَّهُ » .

وفي « البُخاريِّ » عن قَتَادَةَ : « قُلْتُ لابنِ المُسَيِّبِ : رَجُلٌ بِهِ طبٌّ أو يُؤخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ ؛ أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ قَالَ : لا بَأْسَ بِهِ ؛ إنَّما يُرِيدُونَ بِهِ الإصلاحَ ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ ؛ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ » . انتهى .

ورُوِيَ عَنِ الحَسَنِ ؛ أَنَّهُ قَالَ : « لا يَحُلُّ السِّحْرَ إلَّا ساحِرٌ » .

قَالَ ابنُ القَيِّمِ : (النُّشْرَة : حَلُّ السِّحْرِ عَنِ المَسْحُورِ ، وَهِيَ نَوْعَانِ : حَلٌّ بِسِحرٍ مِثْلِهِ ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الحَسَنِ ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنْتَشِرُ إلى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسْحُورِ ، وَالثَّانِي : النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ ، وَالتَّعَوُّذَاتِ ، والأدْوِيَةِ ، والدَّعَواتِ المُبَاحَةِ ؛ فَهذَا جَائِزٌ) .

٢٧- باب ما جاء في النُّشرة

قوله : (باب ما جاء في النشرة) - بضم النون - كما في القاموس(١) .

---

(١) قوله : باب ما جاء في النشرة : أي من الحديث وأقوال أهل العلم . والنشرة - بضم النون المشددة - مأخوذة من النشر ، وهو التفريق . يقال : نشر الشيء إذا فرقه ، وأما في الشرع : فهو كما قال ابن القيم : حل السحر عن المسحور ، سمي نشرة ؛ لأنه تفريق للسحر عن المسحور ، وتفريق للمرض عنه .

ومناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة ، فإنه لما ذكر في الأبواب السابقة السحر ، وذكر شيئاً من أنواع السحر أراد أن يبين في هذاالباب كيف يعالج المسحور؛ لأن السحر إصابة ومؤثر ويعاني منه المسحور ، فيحتاج إلى علاج ، وأن الله ﷻ ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء ، =

قال أبو السعادات : (النشرة ضرب من العلاج والرقية ، يعالج به من كان يظن أن به مساً من الجن ، سميت نشرة لأنه ينتشر بها عنه ما خامره من الداء ، أي : يكشف ويزال) .

علمه من علمه ، وجهله من جهله ، والناس يريدون العلاج ، فلابد أن يبيِّن لهم العلاج المباح من العلاج المحرم . وقد تقدم لنا أن السحر كفر ، وأن الساحر يجب قتله فبماذا يعالج السحر ؟ لابد من معرفة ذلك لئلا يذهب الناس إلى الأمور المحرمة . فيبين لهم ما يباح وما يحرم في هذا الباب . الناس في أشد الحاجة إلى معرفة هذا ، ولكن ليس كل إصابة تسمى سحراً ؛ لأن الناس يتوهمون أن كل ما أصاب الإنسان في عقله أو في جسمه أو في تفكيره أنه يكون سحراً ليس كذلك ؛ فقد يكون مرضاً عقلياً هذا يعالج عند الطب النفسي ، وقد يكون وسوسة من الشيطان وهذا يعالج بالذكر والورد والاستعاذة بالله من الشيطان ، وقد يكون ذهولاً وصرعاً وهذا يعالج بما يعالج به المصاب بمس الجن ، وقد يكون سحراً . فالحاصل أنه ليس كل ما يحصل من هذه الأمور يكون سحراً .

وهناك دجالون ومحتالون يستغلون مثل هذه المناسبات لاستجلاب أموال الناس بالباطل ، يدجلون على الناس بالكلام الباطل فأرعبوا الناس وأرهبوهم وأخافوهم ؛ بل أوقعوا الفتنة بينهم ، فإنه لما يقول للشخص : فلان سحرك . فلان فعل فيك كذا . فلان غرس فيك الجن ، فإنه سيغضب على هذا الشخص وسيكون بينهم عداوة ، وربما يحدث قتل ، وهم في الحقيقة مشعوذون ودجالون وكذبة يريدون أكل أموال الناس بالباطل ، فالحاصل أن هذا الأمر يجب العناية به ، ويجب التثبت فيه والحذر من هؤلاء الدجالين المحتالين الذين أوقعوا في الناس الرهبة والخوف وأكلوا أموال الناس بالباطل ، وأما إن صح أنه سحر ، وأنه مصاب بالسحر فهذا هو موضع البحث الآن . السحر قد يقع ومنه ما هو حقيقي ، ومنه ما هو تخييلي - كما سبق - فهو واقع وموجود في الناس من قديم ، لكن لابد من التحري . ما كل ما يحصل للإنسان يكون سحراً ، ولا كل من يُذهب إليه يعالج عنده وإنما يذهب إلى أهل الفقه والمعرفة والعقيدة الصحيحة ومعرفة التوحيد ولا يذهب إلى المشعوذين والدجالين ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويحتالون عليهم هؤلاء يجب الحذر منهم . وقد ذكر الشيخ في الباب حديثاً عن رسول الله ﷺ وذكر أجوبة لأهل العلم من أئمة السلف كالإمام أحمد والحسن البصري وابن القيم . فالأمر مهم جداً .

قال ابن الجوزي : (النشرة : حل السحر عن المسحور ، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر) .

قوله : عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة ، وقال : « هي من عمل الشيطان » رواه أحمد بسند جيد ، وأبو داود ، وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله[١] .

---

(١) عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال : « هي من عمل الشيطان » النشرة : حل السحر عن المسحور كما يأتي . سئل عنها رسول الله ﷺ فقال : « هي من عمل الشيطان » ، والمراد بـ(ال) في النشرة هي العهد أي النشرة المعهودة في الجاهلية وهي التي من عمل الشيطان وإذا كانت من عمل الشيطان فهي محرمة ولا يجوز تعاطيها ولا العمل بها فهذا الحديث دليل على تحريم النشرة التي هي من عمل الشيطان ؛ لأنه كما سيأتي في كلام ابن القيم أن الناشر والمنتشر كل منهم يتقرب إلى الشيطان بما يحب . الشيطان يرفع عنهم ما أوقع فيهم من عمله وكيده ومكره ، فيغتر الناس لذلك . فهذا الفعل لاشك أنه محرم وأنه كفر ؛ لأنه سحر ، وحل السحر بسحر مثله لا يجوز ؛ لأن السحر من عمل الشيطان ، وهو كفر بالله ﷻ .

« رواه أحمد بسند جيد » : هذا الحديث في مسند أحمد(*) وهو بسند جيد . ورواه أبو داود في « سننه »(**) . وقال أبو داود : « سئل عنها أحمد فقال : ابن مسعود يكره هذا كله » . سئل أحمد عن النشرة ؛ لأن أبا داود من تلاميذ الإمام أحمد ، وقد روى عنه أحاديث ، وروى عنه مسائل وأجوبة ، وله كتاب مطبوع اسمه مسائل أبي داود يتضمن أجوبة للإمام أحمد رواها عنه تلميذه أبو داود السجستاني صاحب السنن لأن تلاميذ الإمام أحمد كان يدونون أجوبته ويسمونها (مسائل) مثل : مسائل أبي داود . مسائل حنبل . مسائل عبد الله ابن الإمام أحمد . مسائل المروزي تلميذ الإمام أحمد ثم جاء الخلال فجمع أجوبة الإمام أحمد وفتاويه التي أفتى بها . جمعها كلها في جامع واحد يسمى « جامع الخلال »

(*) انظر : « المسند » ٢٢ / ٤٠ (١٤١٣٥) .

(**) انظر : « سنن أبي داود » ٤ / ٢٠١ (٣٨٦٨) .

هذا الحديث رواه أحمد ورواه عنه أبو داود في « سننه » وحسَّن الحافظ إسناده[(١)] .

وهو سفر ضخم يتكون من أربعين مجلداً أو أكثر ، لكنه ضاع ولم يوجد منه إلا قطع وبعض المجلدات .ولو وجد هذا الجامع لكان فيه علم غزير ، ولكن الحمد لله أغلب حفظ الإمام أحمد وما صدر عنه موجود في كتب الأبحاث وكتب المذهب الحنبلي ولكن هذا الجامع لو وجد لكان وثيقة عظيمة في مذهب الإمام أحمد ، ولله في ذلك حكمة ؛ لأنه ﷺ كان يكره أن يُكتب عنه شيء ، وإنما روى أصحابه مذهبه مشافهة ، من الدروس التي يلقيها ومن الأمالي التي يمليها والأجوبة التي يجيب بها . تلقونه عنه تلقياً . وليس للإمام أحمد كتاب إلا المسند والتاريخ يعني ليس له إلا في الحديث والعقيدة والرد على الجهمية . أما الفقه فلم يكتب فيه الإمام أحمد كتاباً مثل ما كتب الشافعي « الأم » ومثل ما كتب الإمام مالك « الموطأ » إنما كانوا يروون عنه مذهبه تلقياً منه ، وهم يدونون ما رووه عنه ، أما هو فلم يكتب مؤلفاً في الفقه من ورعه ﷺ . الحاصل أن أبا داود يقول : سئل أحمد عن النشرة فأجاب بقوله : « ابن مسعود » أي : عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ « يكره هذا كله » أي : يكره حل السحر عن الساحر ، الذي كان معهوداً في الجاهلية كان يكرهه ومعنى يكرهه : يحرمه ؛ لأن الكراهة في عرف الشرع معناها التحريم ، وأما الكراهة في عرف المتأخرين فمعناها كراهة التنزيه ، وفي عرف المتقدمين الكراهة معناها التحريم . فقوله : ابن مسعود يكره أي : يحرم هذا كله ، يحرم النشرة .

والإمام أحمد ﷺ روى عن ابن مسعود هذا الجواب ، وهو تحريم النشرة التي هي حل السحر عن المسحور ، وهذا محمول على النشرة بالسحر مثل ما قال الرسول ﷺ : « هي من عمل الشيطان » فهو محمول على حل السحر بسحر هذا هو المحرم وهو الذي من عمل الشيطان .

(١) الحافظ ابن حجر حسَّن إسناده ، والحسن : ما كان دون الصحيح ؛ بل بعض العلماء يقولون : هو قسم من الصحيح ؛ لأن المتقدمين من المحدثين ينقسم الحديث عندهم إلى صحيح وضعيف وإنما عُرف تقسيم الحديث إلى ثلاثة أقسام : صحيح وحسن وضعيف عند الترمذي ﷺ ومن جاء بعده . وأما الأولون فيدخلون الحسن في قسم الصحيح فيقولون : الحديث ينقسم إلى صحيح وضعيف والصحيح يشمل الحسن .

قوله : « سئل عن النشرة » : الألف واللام في النشرة للعهد ، أي : النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها ؛ هي من عمل الشيطان(١) .

قوله : وفي البخاري عن قتادة : قلت لابن المسيب : « رجل به طب أو يؤخَّذ عن امرأته ، أيحل عنه أو ينشر قال : لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم ينه عنه »(٢) .

(١) وليس كل النشرة فليس السؤال عن النشرة كلها إنما السؤال عن نشرة خاصة وهي النشرة المعروفة في الجاهلية فـ(أل) للنشرة ليس للعموم وإنما (أل) للعهد أي : النشرة المعهودة في الجاهلية .

(٢) وفي البخاري : يعني في « صحيح البخاري » . وجواب سعيد بن المسيب يختلف عن جواب ابن مسعود وهو يقول : « لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم ينه عنه » .

وسعيد بن المسيب الإمام الجليل أحد الفقهاء السبعة ومن أئمة التابعين .

وقوله : « رجل به طب » : يعني سحر ، يسمى السحر طباً من باب التفاؤل كما يقال للديغ سليم من باب التفاؤل .

« أو يؤخَّذ عن امرأته » : يعني يُصرَف عن جماع امرأته . بعض الناس يُصاب عندما يتزوج فلا يستطع جماع امرأته فهذا من عمل السحرة كما قال تعالى : ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] وهذا ما يسمى بالصرف والعطف ، وهو نوع من السحر يعمله السحرة من أجل منع الزوج من الوصول إلى زوجته « أيحل عنه » أي : يحل عنه السحر . « أو يُنشَّر » المعنى واحد ؛ لأن النشرة : هي حل السحر . « قال : لا بأس به » ، وهذا محمول على حله بالرقية الشرعية لا بالسحر ؛ لأنه لا يجوز للمسلم أن يعمل السحر أو يطلب أن يُعمل له السحر . فقد سبق لنا في الباب الذي قبله أن النبي ﷺ قال : « ليس منا من سَحَرَ أو سُحِرَ له » . ليس منا : هذا تبرؤ من الرسول ﷺ « من سحر » أي : عمل السحر « أو سُحِرَ له » أي : من أجله فإذا طلب من الساحر أن يعمل له نُشرة بالسحر ، فقد سُحِر له وتبرأ منه الرسول ﷺ .

قوله : « عن قتادة » : هو ابن دعامة - بكسر الدال - الدوسي ، ثقة فقيه حافظ ، من أحفظ التابعين وأئمة التفسير ، قالوا : إنه ولد أكمه[(١)] . مات سنة بضع عشر ومئة .

قوله : « رجل به طب » - بكسر الطاء - أي سحر ، يقال : طب الرجل - بالضم - : إذا سحر[(٢)] .

قوله : « أو يؤخّذ عن امرأته » - بفتح الواو مهموزاً ، وتشديد الخاء المعجمة ، وبعدها ذال معجمة[(٣)] - أي : يحبس عن امرأته لا يصل إلى جماعها ، والأُخذة - بضم الهمزة - : الكلام الذي قاله الساحر .

قوله : « أيُحل » - بضم الياء وفتح الحاء - مبني للمفعول .

قوله : « أو ينشّر » - بتشديد المعجمة - .

قوله : « لا بأس به » يعني : أن النشرة لا بأس بها ؛ لأنهم يريدون بها الإصلاح[(٤)] وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر[(٥)] .

« فأما ما ينفع فلم ينه عنه » لأن الأصل في المنافع الحل ، والسحر ليس فيه نفع ، بل هو ضرر محض ، فابن المسيب لا يقصد السحر ، وإنما يقصد ما فيه نفع وفائدة ، والسحر ضرر محض ، وهو كفر وشرك .

(١) أكمه يعني ليس له بصر ، وُلِدَ وهو أعمى .

(٢) من باب التفاؤل ، مثل ما يقال لمن لدغته حية أو عقرب : سليم ، من باب التفاؤل .

(٣) معجمة أي : منقوطة ، والمهمل هو غير المنقوط .

(٤) ولا يريدون بها الضرر ، بخلاف الساحر فإنه يريد الضرر بالناس ، وأما الذي يعالج الناس فهذا يريد لهم الخير ، ويريد لهم زوال المرض ، ففيه فرق بين الساحر وبين المعالج .

(٥) ما في شك ، لابد من التأويل هذا ، ولا يحمل كلام ابن المسيب على أنه أباح السحر من =

قوله : وروي عن الحسن[(١)] ، أنه قال : « لا يحل السحر إلا ساحر »[(٢)] هذا الأثر ذكره ابن الجوزي في « جامع المسانيد » .

أجل النشرة .

لا يمكن لسعيد أن يقول : « لا بأس به » عن السحر ؛ لأن السحر حرمه الله ، ورسوله ﷺ وأجمع المسلمون على تحريمه ، فلا يمكن لسعيد بن المسيب الإمام الجليل أن يفتي بحل السحر ، وإنما يفتي بحل السحر بالرقية الشرعية والأدعية والأدوية المباحة . هناك أدوية يعرفها أهل الخبرة : أدوية من النباتات ، أو من المواد المباحة يستعملونها للمصاب بالسحر فيشفيه الله ؛ لأن الله ما أنزل داء إلا وأنزل له شفاء . وإذا كانت هذه الأدوية من الأدوية المباحة لا بأس بها ، أما إذا كانت من الأدوية الشركية أو من الشعوذات ، فهذه حرام .

(١) هو الحسن البصري ، الإمام الجليل التابعي البصري ، نسبة إلى البصرة يعني من سكان البصرة .

(٢) سئل الحسن البصري ﷺ عن النشرة فقال : « لا يحل السحر إلا ساحر » . هذه أجوبة الأئمة بعضهم أجاز وبعضهم منع . فابن مسعود يحرم ، وسعيد بن المسيب يجيز ، والحسن البصري يحرم ويقول : لا يحل السحر إلا ساحر . اختلفت أجوبة الأئمة عنها ولكن هذا الاختلاف ليس هو من باب التضاد والتناقض وإنما كلٌّ منهم يقصد معنى غير ما يقصده الآخر . وابن القيم ﷺ في « زاد المعاد »(*) بيَّن مقاصد هؤلاء الأئمة بأجوبتهم ، فجمع بين كلامهم الذي ظاهره الاختلاف ، فقال ﷺ : النشرة حل السحر عن المسحور هذا تعريفه ، ثم قال : وهو نوعان :

النوع الأول : ما كان بسحر مثله ، وهو النشرة التي كانت في الجاهلية ، كانوا يذهبون إلى السحرة ويطلبون منهم حل السحر ، والسحرة يعملون لهم السحر بإذنهم وطلبهم فيتقرب الناشر - وهو الذي يعمل السحر - والمنتشر - وهو الذي يطلب ذلك من الشيطان - يتقربون إلى الشيطان بما يحب من الشرك والكفر بالله ، والشيطان يرفع عمله عن الإنسان ؛ لأن السحر من عمل الشيطان فإذا تقرب إليه بنو آدم طلباً لرفع السحر فإنه يرفعه لأنه من عمله وهذا هو المحرم إذا ذهب الناس ، إلى الساحر ليحل عنهم

(*) انظر : « إعلام الموقعين عن رب العالمين » ٤ / ٣٠١ ، ولم أقف عليه في « زاد المعاد » ، والله أعلم .

السحر فهذا هو المحرم ، وهذا هو الذي من عمل الشيطان ، وهذا الذي يُحمل عليه قول الحسن البصري ﷺ : « لا يحل السحر إلا ساحر » وهو الذي من عمل الشيطان ، كما في الحديث الذي في أول الباب ، وهو الذي قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إنه يكرهه .

وهذا النوع لاشك في تحريمه . إذاً فلا يجوز الذهاب إلى السحرة وطلب عمل السحر ، أو أن يرفع السحر عن المسحور ، لأن هذا لا يأتي إلا بالكفر والشرك بالله ﷻ والتقرب إلى الشيطان بما يحب .

والنوع الثاني : حل السحر بالرقية والتعوذات ، والدعوات والأدوية المباحة فهذا جائز ويحمل كلام سعيد بن المسيب على الرقية التي ليست فيها سحر وإنما فيها الرقية بالقرآن بأن يقرأ عليه فاتحة الكتاب وتُكرر لأنها رقية عظيمة ، ويقرأ عليه سورة الإخلاص والمعوِّذتين وآيات السحر التي جاءت في القرآن مثل ما في سورة الأعراف : قال ﷻ في قصة موسى ﷺ : ﴿ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ . قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ . وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ . قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [آية : ١١٥ - ١٢٢] ، وكذلك الآيات التي في سورة يونس : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [آية : ٨١ - ٨٢] والآيات التي في سورة طه وهو قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [آية : ٦٩] تقرأ هذه الآيات على المصاب ، أو تقرأ في ماء ، ثم يشرب منه المصاب ، ويصب على جسمه منه ، ويشفى بإذن الله مع صدق النية والإخلاص ، واعتقاد الشفاء من الله ﷻ ، فإذا حصلت هذه الدعوات المباركة ، وهذه الرقية من كتاب الله مع عقيدة سليمة ، ونية صادقة وحسن ظن بالله فإن الله يشفي المريض ؛ لأن هذا توحيد لله ﷻ ودعاء لله ﷻ ، والله وعد أن يستجيب لمن دعاه ، وجعل في القرآن شفاء ورحمة ، ولكن الشأن في صدق النية والإقبال على الله ﷻ من كل من الراقي والمرقي .

ولو أن الناس أخذوا بهذا لكفاهم الله ولتعطل عمل السحرة ولم يكن لهم أيادي بين المسلمين لو أنهم تشافوا بالكتاب والسنة وتوكلوا على الله ﷻ ، واقتصروا على الدواء المباح ما راج للسحرة سوق بين المسلمين ، ولو أن الساحر أُخذ وقتل لارتدع هؤلاء عن
=

والحسن هو ابن أبي الحسن ، واسمه يسار[(١)] - بالتحتية والمهملة - البصري الأنصاري مولاهم[(٢)] ثقة فقيه إمام ، من خيار التابعين ، مات سنة

كفرهم وشركهم ولكن إذا فتح لهم المجال تركوا وصار لهم حماية وصاروا يعيثون في الأرض فساداً حينئذ تكثر الأمراض ويكثر التوهم وتتسلط الشياطين على الناس ويحصل ما حصل الآن عند الناس من هذه الأوهام الفظيعة وهذه الشرور الكثيرة وهذه الإتهامات بينهم ، وهذه الوساس والهموم والأحزان . كل هذا نتيجة التساهل مع السحرة ، فيروج السحر بين الناس . باسم العلاج وهو في الحقيقة ليس علاجاً وإنما هو المرض . فلا يجوز الذهاب للسحرة أبداً ولا يجوز إقرارهم وقد أغنانا الله بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه ، وما أنزل داء إلا وأنزل له شفاء ، فالواجب على المسلمين اللجوء إلى الله سبحانه والرجوع إليه ﷻ ، والتعلق به والتوكل عليه والعلاج بما أباح لنا وأمرنا به ، وترك ما نهانا الله تعالى عنه والابتعاد عنه ولا يرتفع هذا المرض وهذا الشر إلا بذلك ، أما إذا ذُهب إلى النوع الأول انتشر السحر وراج الشر وزاد المرض وحصل ما يحصل من الأوهام عند الناس رجالاً ونساءً ، كما هو معروف الآن فلا يجوز أن يُفتى بأن هذا ضرورة كما يقول بعض الجهال وبعض المتعاملين أن هذا من باب الضرورة . الشرك لا يباح للضرورة ، الكفر لا يباح للضرورة ، الحرام لا يباح ، قال ﷺ : « تداووا ولا تداووا بحرام »[(*)] .

وقال ابن مسعود : « إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم »[(**)] . لا يجوز أن يقال هذا ضرورة فالحمد لله توجد أدوية وعلاجات ربانية تكفي وتغني مع التوكل على الله ﷻ .

وجواب الحسن مبني على النوع الأول : وهو حل السحر بسحر مثله .

(١) واسمه : يعني اسم أبيه .

(٢) مولاهم ؛ لأنه من عتيق الأنصار ، وسمي أنصارياً من باب الولاء لا من باب النسب .

(*) أخرجه أبو داود في « سننه » ٤ / ٢٠٦ (٣٨٧٤) ، وضعفه الألباني ، وقال الأرناؤوط في تخريجه لسنن أبي داود ٦ / ٢٣ (٣٨٧٤) : صحيح لغيره .

(**) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » - كما في « الإحسان » - ٤ / ٢٣٣ (١٣٩١) ، من حديث أم سلمة مرفوعاً ، وقال الألباني : حسن لغيره . « التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ٣ / ٧٣ (١٣٨٨) » .

وأورده البخاري في « صحيحه » ٧ / ١١٠ ، معلقاً من قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

عشر ومئة وقد قارب التسعين .

قوله: قال ابن القيم: (النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان : حل بسحر مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان(١) ، وعليه يحمل قول الحسن(٢) فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب(٣) ، فيبطل عمله عن المسحور(٤) . والثاني :

---

(١) كما في الحديث : « هو من عمل الشيطان » .

(٢) قول الحسن البصري : « لا يحل السحر إلا ساحر » هذا من النوع الأول .

(٣) الناشر : هو الذي يعمل النشرة . والمنتشر : هو الذي يطلب عمل النشرة وكلاهما قد فعل محرماً وكفراً بالله ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « ليس منا من سحر أو سحر له » .
وقوله : « بما يحب » : من الكفر والشرك ؛ لأن الشيطان يحب الكفر والشرك ، ويحب إضلال بني آدم ، وصرفهم عن عقيدتهم قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة ص: ٨٢-٨٣] ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٦ - ١٧] الشيطان لا يريد الخير لبني آدم أبداً ، وإنما يريد الشر به فإذا تقربوا إليه وطلبوا منه حل السحر ، يفرح بهذا ؛ لأنهم لجأوا إليه وأجابوه بما يريد من الكفر والشرك فيرفع السحر عن المسحور ؛ لأن السحر من عمل الشيطان .

(٤) وهذا فيه رد على الذين يقولون : إنهم وجدوا فائدة من العلاج المحرم الذي عند الكهان والمنجمين والمشعوذين ، فنرد عليهم بأن وجود الفائدة ليس دليلاً على الإباحة حتى لا يكون معه ضرر راجح ، فلو كان الشيء منه نفع من وجه وضرر من وجه آخر ، فإن كان الضرر راجحاً أو مساوياً فهذا حرام ، أما إذا كانت المصلحة أرجح والضرر مرجوح ، فهذا مباح . فكونهم يجدون من ذهابهم إلى الساحر شفاء فهذا لا يدل على الإباحة لأن هذا ابتلاء وامتحان والضرر الذي يحصل عليهم أعظم من الفائدة التي يجدونها .
فإبطال عمله عن المسحور هذا فائدة لهم ، لكن ضرره الذي حصل عليهم من الشرك والكفر أرجح من الفائدة . فما كان ضرره أعظم أو مساوياً فإنه لا يجوز في الشرع .

النشرة بالرقية[(١)] ، والتعوذات[(٢)] ، والدعوات[(٣)] ، والأدوية المباحة[(٤)] .

فهذا جائز[(٥)]) . ومما جاء في صفة النشرة الجائزة : ما روى ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال : بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر - بإذن الله تعالى - تُقرأ في إناء فيه ماء ، ثم يصب على رأس المسحور : الآية التي في سورة يونس : ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس : ٨١ - ٨٢] ، وقوله : ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ إلى آخر الآيات الأربع [الأعراف : ١١٨ - ١٢١] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٩][(٦)] .

---

(١) الرقية هي القراءة من كتاب الله على المصاب .

(٢) يُعوِّذه بالتعوذات الواردة عن الرسول ﷺ .
كأن يقول : أعيذك بكلمات الله التامات من شر ما خلق . أعيذك بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ، أعيذك بكلمات الله التامات التي لايجاوزهن بر ولا فاجر .

(٣) مثل أن يقول : اللهم اشفه وعافه . اللهم اذهب ما به . اللهم أبرئه من هذا المرض . ويدعو له ويتضرع إلى الله . ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء : اجعل رحمتك في الأرض واغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك . هذا دعاء عظيم كان النبي ﷺ يدعو به للمريض[(*)] .

(٤) الأدوية المباحة من النباتات ، والأشياء المباحة المجربة التي ليس فيها تحريم ، وليس فيها شيء من عمل الشيطان .

(٥) هذا جائز ؛ لأن الأصل في المنافع الحل .

(٦) هذا فيه إبطال للسحر .

(*) أخرجه أبو داود في « سننه » ٤ / ٢١٨ (٣٨٩٢) ، وضعفه الألباني ، والأرنؤوط في تخريجه لسنن أبي داود ٦ / ٣٩ (٣٨٩٢) .

وقال ابن بطال : في كتاب وهب بن منبِّه : أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر[١] فيدقه بين حجرين ، ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل[٢] ، ثم يحسوا منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به[٣] يذهب عنه كل ما به[٤] وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله[٥] .

(١) هذا من الأدوية المباحة تؤخذ سبع ورقات من السدر الأخضر ، تدق وتوضع في ماء مقروء فيه الآيات ، ثم يشرب منه المريض ، ويصب عليه منه .

(٢) القواقل : يعني قل هو الله أحد ، قل أعوذ برب الفلق ، قل أعوذ برب الناس .

(٣) يحسو منه ثلاث حسوات يعني يشرب منه ثلاث جرعات .

(٤) بإذن الله مع التوكل على الله .

(٥) إذا حبس عن الوصول إلى أهله ، وهو الذي يؤَخَّذ عن امرأته .

٢٨ - باب ما جاء في التطيُّر

وقـول الله تـعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣١] .

وقـولـه : ﴿ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾ [يس : ١٩] .

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله قالَ : « لَا عَدْوَى ، وَلا طِيَرَةَ ، وَلَا هَامَةَ ، وَلَا صَفَرَ » أخرجاهُ .

زادَ مُسْلِمٌ : « ولا نَوْءَ ، ولَا غُولَ » .

ولَـهُمَا : عَنْ أَنَس ؛ قَالَ : قالَ رسُولُ الله ﷺ : « لا عَدْوَى ، وَلَا طِيَرَةَ ، ويُعْجِبُنِي الفَأْلُ » . قَالُوا : وَمَا الفَأْلُ ؟ قَالَ : « الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ » .

ولأبي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ : عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ ، قَالَ : ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ، فَقَالَ : « أَحْسَنُهَا الفَأْلُ ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِماً ، فَإِذَا رأى أحدُكُم ما يَكْرَهُ ؛ فَلْيَقُلِ : اللَّهمَّ لا يَأْتِي بالحَسناتِ إلَّا أنْتَ ، ولَا يَدْفَعُ السَّيِّئاتِ إلَّا أنتَ ، ولا حولَ ولَا قُوَّةَ إلَّا بِكَ » .

وَلَهُ : مِنْ حَدِيثِ ابنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعاً : « الطِّيَرَةُ شِرْكٌ ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ ، ومَا مِنَّا إلَّا ، ولكنَّ الله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ » . رَوَاهُ أبوا داوُدَ ، والتِّرْمِذِيُّ ، وصَحَّحَهُ ، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابنِ مَسْعُودٍ

ولأحمدَ مِنْ حديثِ ابن عمرٍو : « من رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ ؛ فَقَد أَشْرَكَ » . قالوا : فَـمَا كَفَّارَةُ ذلك ؟ قال : « أنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إلَّا خَيْرُكَ ، وَلا طَيْرَ إلَّا طيْرُكَ ، ولَا إلـٰهَ غَيْرُكَ » .

ولَهُ مِنْ حديثِ الفَضْلِ بنِ عَبَّاسٍ : « إنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أمْضَاكَ أوْ رَدَّكَ » .

٢٨- باب ما جاء في التطيُّر

قوله : (باب ما جاء في التطير)(١) أي : من النهي عنه والوعيد . والطيرة

(١) أي : الأدلة على تحريمه وأنه شرك(*) . ومناسبة هذا الباب لما قبله أنه في بيان نوع من أنواع الشرك وهو التطير . والشرك هو ضد التوحيد والكتاب كله في بيان التوحيد ، وبيان ما يضاده وهو الشرك .

فما يضاده وينافيه وهو الشرك الأكبر ، أو ينقصه وهو الشرك الأصغر ، والكتاب كله يدور على هذا الموضوع . فهذا الباب فيه بيان نوع من أنواع الشرك وهو التطير .

والتطير : مصدر تطيّر وأما الطيرة : فهي اسم مصدر للتطير ؛ لأن المفعول المطلق إذا نقصت حروفه عن حروف فعله يسمى اسم مصدر ، أما إذا وافقت حروفه حروف الفعل فإنه يسمى مصدراً .

والطيرة ناقصة حروفها فتسمى : اسم مصدر ، ومعناها التشاؤم ، والمراد : التشاؤم بالأشياء والاعتقاد أنها تؤثر مكروهاً .

وكان التطير من عادة الجاهلية ، يتطيرون بالأشياء ، ويعتقدون فيها تأثير الضرر ، ويخافون منها . وهذا نوع من أنواع الشرك ، لأنه خوف من غير الله سبحانه ، واعتقاد بغير الله ﷻ أنه يضر أو ينفع ، والتطير كان موجوداً في الأمم السابقة ذكره الله عن قوم فرعون أنهم تطيروا بموسى ومن معه ، وذكره الله عن قوم صالح وهم ثمود أنهم تطيروا بصالح ومن معه كما في سورة النمل ، وذكره الله عن المشركين في سورة يس أنهم تطيروا بالرسل الذين جاؤوهم ينذرونهم عن الشرك : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ ﴾ [سورة يس : ١٨] وتطير المشركون بنبينا محمد ﷺ قال الله ﷻ : ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٨] أي : من عند الرسول ﷺ . ومعنى ذلك أن هؤلاء الكفرة في مختلف الأزمان والقرون اتفقوا على التطير بالصالحين من الرسل وأتباعهم ، وظنوا أن الشر إنما يأتي منهم وبسببهم . وهذا انتكاس في الفطر ، فهم

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن الطيرة : هل هي شرك أكبر أم أصغر ؟ فأجاب : بحسب ما يحصل للإنسان : إن كان اعتقد فيها أنها تضر من دون الله هذا شرك أكبر ، وإن اعتقد أنها سبب للشر ، هذا شرك أصغر ؛ لأن الله ﷻ لم يجعلها سبباً . أ.هـ.

=

- بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن - اسم مصدر من تطير طيرة ، وأصله : التطير بالسوانح والبوارح[(١)] من الطير والظباء وغيرها[(٢)] . وكان ذلك التطير يصدهم عن مقاصدهم[(٣)] فنفاه الشرع وأبطله وأخبر أنه لا تأثير له في جلب

اعتقدوا الشر في مصدر الخير وهم الرسل وأتباعهم ، والرسل وأتباعهم من المؤمنين هم سبب للخير في الأرض ، وسبب لصلاح الأرض وأهلها ، وأما الكفر والكفرة فهم سبب للشر وفساد الأرض وفساد أهلها . هذا هو الواقع والأمر كله راجع إلى الله ﷻ ، فهو ينزل الشر بمن يستحقه بسبب فعله السيء جزاء له ، وينزل الخير على من يستحقه بسبب فعله الطيب جزاء له ، والجزاء من جنس العمل . فالمصدر من الله ﷻ كلها الخير والشر ، ولكنه كله يجري لحكمة من الله ﷻ ، فيضع سبحانه الشر فيمن يستحقه وسببه من قِبَل العبد ، ويضع الخير فيمن يستحقه وسببه من قِبَل العبد وهو الطاعة . فالأسباب من قِبَل العباد وأما خلق الخير والشر والإيجاد فهو من الله ﷻ هذا هو الاعتقاد السليم ، وهذا هو الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام .

وأصل التطير : التشاؤم بالطيور في نوعها وفي طيرانها وفي اتجاهاتها ، كانوا يتشاءمون بالطيور فينظرون في نوعها ، وينظرون في طيرانها وتوجهاتها فيتشاءمون في أمورهم ، ثم صار عاماً في كل ما يتشاءم به من الطيور والحيوانات والآدميين وغيرهم . فكل من تشاءم بشيء وتأثر به فقد تطيَّر به .

(١) السوانح والبوارح من الطيور هذا الأصل في الجاهلية .

(٢) كانوا يتشاءمون بالظباء إذا رأوها تسير في اتجاه معين إذا ذهبت في اليمين أو إلى الشمال أو رجعت على الخلف أو ذهبت إلى الأمام يتشاءمون بحركاتها وكذلك الطيور يتشاءمون بحركاتها في الجو إذا تيامنت أو تياسرت أو مضت إلى الأمام أو رجعت إلى الخلف ، وهي السوانح والبوارح . يتشاءمون بحركات الطيور ، وبحركات الحيوانات ، ويتشاءمون بالأشخاص ، فيتشاءمون بالأعور إذا رأوه ، ويتشاءمون بالمصاب بالعاهة إذا رأوه وهكذا ، وهذا شيء موجود في ضعاف الإيمان ولا يزال إلى الآن يتشاءمون بالأشياء . وهي من أمور الجاهلية .

(٣) هذا هو التطير : ما صدهم عن مقاصدهم ، أما ما وقع في قلوبهم ولم يصدهم عن مقاصدهم ، فهذا ليس تطيراً .

نفع ودفع ضر . قال المدائني : (سألت رؤبة بن العجّاج[(١)] ، قلت : ما السانح ؟ قال : ما ولاك ميامنه . قلت : فما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسره والذي يجيء من أمامك هو الناطح والنطيح ، والذي يجيء من خلفك هو القاعد والقعيد)[(٢)] .

قوله : وقول الله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(٣)] [سورة الأعراف : ١٣١] ذكر الله تعالى هذه الآية في سياق قوله :

---

(١) رؤبة بن العجّاج من أئمة اللغة ، له أراجيز كثيرة في اللغة .

(٢) يعني مصطلحات جاهلية مع الطيور والحيوانات .

(٣) هذا في قول فرعون ، كما قصّه الله ﷻ في سورة الأعراف ، فقال ﷻ : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ : فإذا جاءتهم الحسنة المراد بالحسنة هنا : الخصب ونزول الغيث ورُخصُ الأسعار ﴿ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ : يعني نحن نستحق هذا ، هذا بحقنا ولا يعترفون أنه فضل من الله ﷻ ، وإنما ينسبون هذا إلى أفعالهم وإلى أنهم يستحقون هذا الشيء ، وهذا جحود لنعمة الله ﷻ ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ وهي الجدب وانحباس الأمطار وغلاء الأسعار ﴿ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ : من المؤمنين فيقولوا : هذا بسبب موسى ومن معه من المؤمنين هم الذين سببوا لنا هذه الشدة ، يتشاءمون بأهل الخير ويطَّيَّروا : يعني يتطيّرون وأصله : يتطيَّروا ، ثم أبدلت التاء طاء ، وأدغمت الطاء في الطاء وصار يطَّيَّروا : يعني يتشاءمون بموسى ومن معه من المؤمنين ، وينسبون ما أصابهم من السيئة إلى موسى وأتباعه . ويعتقدون أنهم هم سبب الشر - فلا حول ولا قوة إلا بالله - والعكس هو الصحيح ، أن هؤلاء هم سبب الخير ، وأما الشر فسببه الكفر والكفار والفسقة ، لا تهلك المجتمعات إلا بسبب الفسقة والكفرة والمشركين ، ولا تصلح المجتمعات إلا بأهل الخير والصلاح والعبادة والتقوى .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ : ألا إن ما يجري عليهم من الشر هو من الله ، وليس من موسى ولا من أتباعه ، وإنما هو بقضاء الله وقدره ، بسبب ذنوبهم وكفرهم =

﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾[1] الآية [سورة الأعراف : ١٣١] .

والمعنى : أن آل فرعون إذا أصابتهم الحسنة أي : الخصب والسعة والعافية ، كما فسره مجاهد وغيره ﴿ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أي : نحن الجديرون والحقيقون بها ونحن أهلها[2] .

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي: بلاء وقحط ﴿ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ فيقولون : هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم فقال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

ومعاصيهم ، فالسبب من قِبَلِهم ، وأما القضاء والقدر فهو من الله ﷻ . ولا تزال هذه العادة الكفرية في الناس إلى اليوم يتشاءمون بأهل الخير ، ويقولون : هؤلاء رجعيون أخرونا عن التقدم . هؤلاء صاروا حجر عثرة دون الرقي والتقدم والحضارة ، لأن أهل الخير ينهونهم عن المعاصي وعن السيئات التي يزعمون أنها تقدم وحضارة ورقي في زعمهم فهي عادة قديمة ، وهي حديثة ومستمرة في الناس أنهم يتشاءمون بأهل الخير وينسبون إليهم كل شر وكل محذور يقع فيهم ، وما علموا أن هذا بيد الله ﷻ ، وأنه بسبب ذنوبهم ومعاصيهم ، وأن أهل الخير هم سبب للخير ، وسبب للهداية ، وسبب للصلاح . صلاح الأرض ، صلاح الأنفس ، صلاح الأمور ، فلو أنهم اتبعوا أهل الخير لأزال الله ما بهم من الشدة ولرزقهم من واسع فضله ، ولجعلهم خير أهل الأرض .

(١) السيئة : المراد بها القحط والجدب ، والحسنة : هي الخصب والنبات ، ونمو الثمرات والزروع .

(٢) يعني نحن نستاهل هذا الشيء ، وليس لله فيه مِنَّة وإنما هذه لأننا نستحق هذا العمل ، مثل ما قال قارون ، لما آتاه الله الأموال : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [سورة القصص : ٧٨] ، أي : اكتسبته بخبرتي ومهارتي ، وليس لله فضل في ذلك .

قال ابن عباس : طائرهم : ما قضي عليهم وقُدِّر لهم[(١)] وفي رواية : شؤمهم عند الله ومن قِبَلِه أي : إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله[(٢)] . قوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي أن أكثرهم جهال لا يدرون[(٣)] ، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى ﷺ إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبع قوله[(٤)] .

قوله : ﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾[(٥)] الآية : المعنى والله أعلم حظكم

(١) طائرهم : ما قُدِّر عليهم وما كتب عليهم ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [سورة الإسراء: ١٣] أي : ما قدِّر عليه وكتب له في اللوح المحفوظ .

(٢) فهو من الله خلقاً وإيجاداً ، وهو منهم تسبباً وكسباً .

(٣) لأن هذه المقالة إنما تكون من الجاهل ، أما العالم فهو يعلم أن كل الأمور من الله ﷻ .

(٤) وهذا في كل الرسل عليهم الصلاة والسلام ما جاؤوا إلا بالخير والصلاح والفلاح ، وصلاح الأرض وصلاح الثمار ، وصلاح كل شيء إنما هو بسبب دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [سورة الأعراف: ٥٦] ، أي : بعد إصلاحها بالرسل ودعوة الرسل . والإفساد فيها هو بالكفر والمعاصي والشرور .

(٥) لما جاءت الرسل إلى قوم يس ، جاءتهم رسل المسيح الذين أرسلهم إليهم للدعوة إلى الله تطيروا بهم ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ [سورة يس: ١٣] يُقال : إنها إنطاكية في الشام ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [سورة يس: ١٣ - ١٥] هذه مقالة الكفار مع الرسل دائماً وأبداً ، يقولون : لا يمكن أن يكون الرسول من البشر ، لابد أن يكون من الملائكة فهم يستنكرون أن تكون هذه الرسالة في البشر ولا يستنكرون عبادة الحجر . هذا من غرائبهم ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ ﴾ هذا جحود للوحي ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ يقولون للرسل: إن أنتم إلا تكذبون ما أرسلكم ربنا إلينا ، ولا أنزل الله كتاباً ،
=

إنما هذا كذب منكم ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ هذه مقالة الرسل ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ : تشاءمنا بكم وما جئتمونا إلا بِشَرّ ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ ﴾ عن قولكم ودعوتكم إلى الله وأمركم بالتوحيد ونهيكم عن الشرك ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هذا تهديد من الكفار للرسل وهذا في أمم الكفر مضطرد يقابلون الرسل بمثل هذه المقالات الشنيعة ، وقد هددوا نوحاً ﷺ بالرجم أيضاً ، وهذه طريقة الكفار يقابلون الرسل بالقتل رجموا محمداً ﷺ كما في خروجه إلى الطائف يدعوهم إلى الله ، رجموه بالحجارة حتى أدموا عقبه ﷺ . قالت لهم الرسل : ﴿ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أي : إن ما حصل بكم من العقوبات إنما هو بسببكم وبكفركم ، وليس السبب ما دعوناكم إليه ، وما أمرناكم به من الخير والتوحيد والإيمان بالله ﷻ ، وإنما سببه كفركم ﴿ طَٰٓئِرُكُم ﴾ أي ما قُدِّر عليكم ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ أي : بسببكم وبسبب كفركم ، لا بسبب دعوتنا لكم وأمرنا لكم بالتوحيد ونهينا لكم عن الشرك ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ تقولون : هذا بسبب أنا ذكرناكم ودعوناكم إلى الله وكان الواجب عليكم الاستجابة والقبول والتذكر ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ ، فهذه مقالة الكفار متطابقة في كل زمان . كما قالوا لمحمد ﷺ : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ [سورة النساء: ٧٨] تصبهم حسنة وهي نزول المطر والخصب والخير يقولوا : هذه من عند الله ، هذا صحيح هي من عند الله ﷻ ، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي : انحباس في المطر والجدب الذي يكون في الأرض وعدم النبات وعدم الزروع ﴿ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ يا محمد أنت الذي سببت لنا هذا وما جاءنا هذا إلا بسببك . يتشاءمون بالرسول ﷺ . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ الحسنة والسيئة كلها من عند الله ﷻ في قضائه وقدره وليست من عند الرسول ﷺ ، الرسول إنما هو مبلغ وداعية إلى الله ﷻ . وأما الخير والشر وما ينزل من الخير أو ينزل من العقوبات فهذا من الله ﷻ ليس للرسول ولا لغيره من المخلوقين دخل فيه .

﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ : ليس بعضه من الرسول وبعضه من الله كما يزعمون ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا . مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي : بفضله وإحسانه ﷻ والسبب من قِبَل العبد ، وهو العمل الصالح والطاعة ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة
=

وما نالكم من شر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ليس هو من أجلنا ولا بسببنا بل ببغيكم وعدوانكم ، فطائر الباغي الظالم معه فما وقع به من الشرور فهو سببه الجالب له ، وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله[1] .

قوله : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ أي : من أجل أنّا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام ؟! ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ قوله : عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن الرسول ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » أخرجاه : زاد مسلم « ولا نوء ولا غول »[2] . قال أبو السعادات : (العدوى

أي : بسبب فعلك وذنوبك أيها العبد ، وهي من الله ﷻ لقوله : ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٩] فمن حيث القضاء والقدر والخلق هذا من الله ، ومن حيث التسبب هذا من العباد . فالطاعات تسبب الخير ، والمعاصي تسبب الشر من حيث السببية هذا من عند العباد . ومن حيث القضاء والقدر والإيجاد والخلق فهو كله من الله ﷻ ، وهو يفعله لحكمة ﷻ ، يضع الخير فيمن يستحقه ،ويضع الشر فيمن يستحقه .

(١) السبب من قِبَلِ العبد ، والقضاء والقدر والخلق والإيجاد من قِبَلِ الله عدلاً وحكماً وجزاءً .

(٢) نفى الرسول ﷺ في هذا الحديث ستة أشياء يعتقدها أهل الجاهلية .

الأول : « لا عدوى » والعدوى معناه : انتقال المرض من المصاب إلى غيره من الأصحاء ومعنى قوله : « لا عدوى » هذا نفي للعدوى . فهل المراد لا يوجد عدوى ، وأن مجاورة الصحيح للمريض لا تسبب عدوى ؟ لا ، ليس هذا هو المراد . العدوى موجودة ، فمخالطة المريض المرض المعدي يسبب انتقال المرض بإذن الله ﷻ ، وليس مراد النبي نفي هذا ، وإنما مراده لا عدوى على ما كان يعتقده أهل الجاهلية ، وهي أن المرض يتعدى بنفسه بدون تقدير الله ﷻ والذي يعتقد هذا يكون مشركاً .

الثاني : « ولا طيرة » : الطيرة : هي التشاؤم - كما سبق - التشاؤم بالأشياء ، واعتقاد أنها تسبب الشر .

=

الثالث : « ولا هامة » : الهامة : هي الطائر المعروف بالبومة ، وكانوا يتشاءمون بها في الجاهلية ، ولا يزالون يتشاءمون بها ، فإذا وقعت على منزل أحد تشاءم بها وقال : إنه سيموت ، أو يموت أحد من أقاربه أو من أهل بيته ، وإذا سمعوا صوتها تشاءموا بصوتها . فالنبي ﷺ نفى هذا ، وقال : « ولا هامة » أي : ليس لهذا الطائر تدخل فيما يصيب الناس من الموت أو من المرض أو من خراب الديار . هذا طائر مثل الطيور فنفى ﷺ ما كانت تعتقده الجاهلية في هذا الطائر فقوله : « ولا هامة » لا ينفي وجود الهامة وهي الطير ، وإنما ينفي ما يعتقده أهل الجاهلية فيه بأنها تسبب الشر .

الرابع : « ولا صفر » : الصفر : قيل : المراد به شهر صفر ؛ لأنهم كانوا يتشاءمون بهذا الشهر ولا يتزوجون فيه ، ولا يعملون فيه أي عمل ؛ لأنه شهر مشؤوم عندهم ، فيتشاءمون بالزمان أيضاً .

وقيل : المراد به نوع من المرض يصيب المعدة ويظنون أنه يعدي بنفسه . فمن أصابه هذا المرض وجاء أحد عنده فإنه يصاب بالعدوى ، فيكون فرداً من قوله « لا عدوى » في أول الحديث لكن نص عليه ؛ لأن أهل الجاهلية يتشاءمون به . فإذا أصيب أحد بهذا المرض ابتعدوا عنه وظنوا أنه يصيبهم قربه فينفرون منه .

والخامس : في الرواية الثانية : « لا نوء » : وهو النجم ، وهذا يأتي في باب التنجيم أنهم كانوا يعتقدون أنه إذا طلع النجم الفلاني تنزل الأمطار وتهب الرياح ، ويحصل كذا وكذا فينسبون الأشياء إلى النجوم وهذا ما يسمى بالتنجيم وهو نوع من الشرك ، والاستسقاء بالنجوم : اعتقاد أنها تنزل المطر أو أنها تسبب كذا أو كذا طلوعها أو غروبها هذا من اعتقاد أهل الجاهلية . فنزول المطر وغيره من الحوادث التي تجري ليس سببه النجوم وليس هو من تأثير النجوم وإنما هو بقضاء الله وقدره ﷻ والنجوم مخلوقة ، ليس لها من الأمر شيء وهذا يأتي تمام الكلام فيه في باب التنجيم إن شاء الله .

والسادس : « ولا غول » : الغول : بضم الغين هو ما يوجد في الفلوات والبراري .
إذا استوحش الإنسان وكان يسير في الطريق وحده يتراءى له من أعمال الجن ، إما نار تتوقد أمامه ، وإما أصوات تناديه وتزعجه وتكدر عليه وتوحشه ، فهم يعتقدون أن هذا الغول أنه يصيبهم بشر وأنه إذا وجد فإنه علامة شر عليهم ، فالنبي ﷺ نفى هذا وقال :
=

اسم من الإعداء كالدعوى يقال : أعداه الداء يعديه إعداء إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء) . قوله : « ولا طيرة » : قال ابن القيم : (يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً أي : لا تطيروا[١] . ولكن قوله في الحديث : « لا عدوى ولا صفر ولا هامة » يدل على أن المراد النفي[٢] .

وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها ، والنفي في هذا أبلغ من النهي ؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره والنهي إنما يدل على المنع منه قال عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فمرَّ طائر يصيح فقال رجل من القوم : خير خير ، فقال له ابن عباس : لا خير ولا شر[٣] ، فبادره بالإنكار عليه ؛ لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر . وخرج طاوس[٤] مع صاحب له في سفر فصاح غراب ، فقال الرجل : خير ، فقال طاوس : وأيّ خير عند هذا ؟ لا

ليس للغيلان تدخل في ما تنسبونه إليها من الشر والإضلال والهلاك وغير ذلك ، إنما هذا بيد الله ﷻ ، وهذا يُعالج بذكر الله . قال ﷺ : « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان »(*) فإذا أحس بشيء من هذه الغيلان فإنه يبادر بالتسبيح والتهليل والتكبير أو الأذان أو تلاوة القرآن ويذهب عنه هذا ، ويأنس بذكر الله ﷻ ، هذا علاجه .

وأما الغَول - بفتح الغين - فهو السُّكْر الذي يكون بالخمر ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي ليس فيها سُكْر .

(١) إذا كان نهياً فمعناه : لا تطيروا ، وإذا كان نفياً فمعناه : لا وجود للطيرة .

(٢) إذا جاء النهي بصيغة النفي فإنه أبلغ .

(٣) هذا إنكار من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لقول هذا الرجل الذي تشاءم بالطير .

(٤) طاوس بن كيسان من علماء اليمن .

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٢٢ / ١٧٩ (١٤٢٧٧) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وفيه زيادة في أوله وآخره ، وضعفه الألباني في « السلسلة الضعيفة » ٣ / ٢٧٧ (١١٤٠) .

تصحبني) . انتهى ملخصاً[(١)] .

قوله : « ولا هامة » - بتخفيف الميم على الصحيح - قال الفراء : الهامة طير من طير الليل ، كأنه يعني البومة . قال ابن الأعرابي : (كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول : نعت إليَّ نفسي أو أحداً من أهل داري ، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله) .

وقوله : « ولا صفر » - بفتح الفاء - روى أبو عبيدة في « غريب الحديث » عن رؤبة أنه قال : هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس[(٢)] وهي أعدى من الجرب عند العرب . وعلى هذا فالمراد بنفيه : ما كانوا يعتقدونه من العدوى ، وممن قال بهذا : سفيان بن عيينة والإمام أحمد والبخاري وابن جرير[(٣)] .

وقال آخرون : المراد به شهر صفر ، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء وكانوا يُحلُّون المحرم ، ويحرمون صفر مكانه[(٤)] وهذا قول مالك .

---

(١) هذا طاوس ﷺ أنكر على هذا الرجل الذي تشاءم بصوت الطير وطرده من صحبته وقال له : لا تصحبني ، وهذا فيه إنكار المنكر .

(٢) يعني دودة تكون في البطن ، مرض .

(٣) على أنه مرض .

(٤) لأن المحرم من الأشهر الحرم فكانت الجاهلية تفعل النسيء ، وتؤخر التحريم إلى شهر آخر ، فتجعل محرم شهراً حلالاً يستبيحون فيه القتال ، ويجعلون مكانه شهراً محرماً أي : شهراً حراماً وهذا من النسيء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٣٧] . الأشهر الحرم كما هي أربعة لا يجوز التصرف فيها ، ونقلها إلى أشهر أخرى .

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول : إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر ويقولون : إنه شهر مشؤوم ، فأبطل ذلك النبي ﷺ . قال ابن رجب : (ولعل هذا القول أشبه الأقوال)[(١)] .

والتشاؤم بصفر كتشاؤم أهل الجاهلية بشوال بالنكاح فيه خاصة[(٢)] .

قوله : « ولا نوء » سيأتي الكلام عليه إن شاء الله في بابه[(٣)] .

قوله : « ولا غُول » : هو بالضم اسم ، وجمعه أغوال وغيلان وهو المراد هنا . والمعنى بقوله : « لا غول » أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه[(٤)] ومنه الحديث : « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان » أي : ادفعوا شرها بذكر الله تعالى .

قوله : ولهما عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة »[(٥)] .

---

(١) أن المراد به صفر الشهر ، وليس المراد به المرض .

(٢) لا يتزوجون في شوال تشاؤماً بشوال يعني من تزوج في شوال عندهم لا يُوفَّق . وهذا مثل ما يقوله أصحاب البروج الآن . بروج النحس وبروج الحظ ، وينشرون هذه العقائد الكفرية بين المسلمين في الجرائد والمجلات التي تقدم علينا من الخارج .

(٣) في باب ما جاء في التنجيم .

(٤) يعني الجن لا تستطيع أن تضل أحداً أو تهلكه مع ذكر الله ، فمن حصل له شيء في الفلاة أو في الطريق وتغولت عليه الغيلان فإنه يطردها بذكر الله ﷻ .

(٥) هذا مثل الحديث الذي قبله « لا عدوى » على ما كانت تعتقده الجاهلية أن المرض ينتقل بنفسه بدون تقدير الله ﷻ ، وأما أن المرض ينتقل بقضاء الله ﷻ وقدره فهذا شيء معروف ، ونهى النبي ﷺ عن أن يورد مصح على ممرض[(*)] وقال ﷺ : « إذا حدث الوباء

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢١٧٧ (٥٤٣٧) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ١٧٤٣ (٢٢٢١) .

=

قال أبو السعادات : (الفأل مهموز فيما يسر ويسوء ، والطيرة لا تستعمل إلا فيما يسوء[(١)] وربما استعملت فيما يسر)[(٢)] .

قوله : قالوا وما الفأل ؟ قال: « الكلمة الطيبة » : بيَّن ﷺ أن الفأل يعجبه ، فدل على أنه ليس من الطيرة المنهي عنها[(٣)] .

في بلد فمن كان في البلد فلا يخرج ، ومن كان خارج البلد فلا يقدم على البلد »[(*)] . وهذا من باب تجنب الأسباب التي تسبب الإصابة ومن باب الوقاية وتعاطي الأسباب الواقية بإذن الله وتجنب الأسباب التي تسبب المرض ، لكن مع التوكل على الله ﷻ والاعتماد على الله ﷻ . وأما كوننا نتجنب هذه الأشياء فهذا من تعاطي الأسباب الواقية وليس هو تطيراً ؛ ولهذا قال ﷺ : « فر من المجذوم فرارك من الأسد »[(**)] هذا من باب الوقاية وليس هو من باب التطير . « ويعجبني الفأل » : الفأل : هو إحسان الظن بالله ﷻ واعتقاد الخير فإذا سمع كلمة طيبة تفاءل وانشرح صدره ، إذا سمع اسماً حسناً فإنه يتفاءل به خيراً ، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك كان يعجبه الفأل . والفرق بين الطيرة والفأل : أن الطيرة تَوَقُّع للشر . وأما الفأل فهو تَوَقُّع للخير ، والفأل حسن ظن بالله ﷻ ، والطيرة سوء ظن بالله ﷻ ، هذا هو الفرق بينهما . فالفأل لا يدخل في الطيرة وهو محمود ، فدل هذا الحديث على الفرق بين الطيرة والفأل أو التفاؤل .

(١) فيكون الفأل أعم من الطيرة ، الفأل فيما يسر وهذا طيب ، وفيما يسوء وهذا هو الطيرة وهو لا يجوز .

(٢) ربما للقلة .

(٣) لأنه حسن ظن بالله ﷻ وتأميل للخير .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١٢٨١ (٣٢٨٦) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ١٧٣٧ (٢٢١٨) من حديث أسامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، ولفظه : « الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل ، أو على من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » .

(**) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ١٥ / ٤٤٩ (٩٧٢٢) وقال الأرنؤوط : حديث صحيح .

قال ابن القيم : (ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك ؛ بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها . والله تعالى جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته وميل نفوسهم إليه ، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك .

فإذا سمعت الأسماء أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال فأحزنتها وأثار ذلك لها خوفاً وتطيراً وانكماشاً وانقباضاً عما قصدته وعزمت عليه(١) فأورث لها ضرراً في الدنيا ونقصاً في الإيمان ومقارفة للشرك)(٢) .

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : « أحسنها الفال ولا ترد مسلماً(٣) ، فإذا رأى أحدكم ما

(١) وهذا هو الطيرة .

(٢) وأيضاً من الفرق بين الطيرة والفأل : أن الفأل لا يمنع الإنسان من المضي ؛ بل يشجعه على المضي فيما عزم عليه ويفرحه بما يفعل ، بخلاف الطيرة فإنها تمنعه من المضي وتقبض نفسه بالخوف .

(٣) وهذا مثل الحديث الذي قبله . ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ يعني سئل عنها ﷺ فقال : « أحسنها الفأل » فدل على أن الفأل من الطيرة ، ولكنه محمود ؛ لأنه حسن ظن بالله ﷻ . وأما الطيرة فهي سوء ظن بالله ﷻ ، فالحديث الأول أن الفأل كان يعجبه ﷺ ، وفي هذا الحديث أن الفأل هو أحسن الطيرة ، والفرق بينهما أن هذا فيه سوء ظن بالله ﷻ وهو الطيرة ، وهذا فيه حسن ظن بالله ﷻ وهو الفأل .

قوله : « ولا ترد مسلماً » : الطيرة لا ترد مسلماً ، ولا يمتنع عن عمله بسبب الطيرة ، فإذا خرج لعمل أو لسفر ، أو همَّ بأمر ورأى ما يكره فإنه يمضي فيما عزم عليه ولا يرجع ولا يتردد ، هذا هو المسلم . أما غير المسلم فإنه ينفعل مع الطيرة وتردُّه عما عزم عليه

=

يكره فليقل[1] : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك »[2] .

قوله : عن عقبة بن عامر : هكذا وقع في نسخ التوحيد وصوابه : عن عروة بن عامر ، كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما[3] .

وهو مكي اختلف في نسبه ، فقال أحمد : عن عروة بن عامر القرشي . وقال غيره : الجهني . واختلف في صحبته . فقال الماوردي : له صحبة ، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين ، وقال المزي : لا صحبة له تصح[4] .

اعتقاداً بها ، وهذا شرك بالله ﷻ . فالذي يتراجع عن عمله أو عما عزم عليه بسبب الطيرة هذا ليس بمسلم أو هو ناقص الإسلام ، أو ناقص الإيمان ، وأما الذي لا تمنعه الطيرة عما عزم عليه فهذا هو المسلم الذي يتوكل على الله ﷻ ، فإذا خرج ورأى طائراً أو رأى بومة أو رأى شخصاً يكرهه أو سمع صوتاً يكرهه فإن هذا لا يثنيه عن عزمه ولا يرده عما قصد .

(١) « ما يكره » : يعني من الطيرة ؛ لأنه لابد أن يقع في نفس الإنسان شيئاً من الكراهة إذا سمع أو رأى شيئاً أو لاقاه شيء من هذه الأشياء لكن يعالج هذا بالتوكل على الله ﷻ ، ويمضي في طريقه ومع ذلك يدعو الله فيقول هذا الدعاء الآتي .

(٢) نعم هذا الدعاء تعالج به الطيرة فإذا أحس الإنسان في نفسه تكرهاً لشيء من الأشياء فإنه يمضي ويتوكل على الله ، ويدعو بهذا الدعاء : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك . فهذا تعالج به الطيرة ؛ لأن فيه تفويض الأمور إلى الله ﷻ .

وقوله : « لا يأتي بالحسنات » : وهي المحبوبات للنفوس والخيرات ، « ولا يدفع السيئات » : وهي المكروهات والمحاذير إلا الله ﷻ ، وليست الطيرة هي التي تفعل هذا .

(٣) يكون هذا من باب التصحيف في الاسم .

(٤) فيكون الراجح أنه تابعي .

قال ابن القيم : (أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها ، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ، ولكنه خير منها[١] ، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ، ونفع أحدهما ومضرة الآخر) . قوله : « ولا ترد مسلماً » : قال الطيبي : تعريض بأن الكافر بخلافه[٢] . قوله : « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك » : أي : لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات ؛ بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات وتدفع السيئات . والحسنات هنا النعم . والسيئات المصائب[٣] . ففيه نفي تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر وهذا هو التوحيد وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ويعد من اعتقدها سفيهاً مشركاً .

قوله : « ولا حول ولا قوة إلا بك » : والحول : التحول والانتقال من حال إلى حال والقوة على ذلك بالله وحده ، ففيه التبرؤ من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته ، وهذا هو التوحيد في الربوبية ، وهو الدليل على توحيد الألوهية الذي هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة وهو

---

(١) فالفال يفترق عن الطيرة من حيث إن الطيرة سوء ظن بالله والفأل حسن ظن بالله ، ومن ناحية أن الطيرة تمنع المتطير من المضي فيما عزم عليه ، وأما الفأل فهو يشجعه على المضي وعلى فعل ما قصد .

(٢) الكافر بخلاف المسلم ترده الطيرة . أما المسلم وإن وجد شيئاً في نفسه إلا أنه لا يظهر هذا ولا يتراجع عن عمله ، ولا تؤثر عليه الطيرة . هذا الفرق بين المسلم والكافر .

(٣) ليس المراد بالحسنات هنا الطاعات ، والسيئات : الذنوب ؛ بل المراد هنا بالحسنات : النعم والسيئات : المصائب .

توحيد القصد والإرادة وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله .

قوله : وعن ابن مسعود مرفوعاً : « الطيرة شرك الطيرة شرك ، وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل » . رواه أبو داود والترمذي وصححه[١] وجعل آخره من قول ابن مسعود[٢] .

ولفظ أبي داود : « الطيرة شرك الطيرة شرك » ثلاثاً .

وهذا صريح في تحريم الطيرة ، وأنها من الشرك ، لما فيها من تعلق القلب بغير الله .

---

(١) هذا حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعاً إلى النبي ﷺ أن الرسول ﷺ قال : « الطيرة شرك الطيرة شرك الطيرة شرك » ثلاث مرات ، فهذا يدل على أن الطيرة وهي التشاؤم بالأشياء وانحباس الإنسان عن حوائجه وعن أعماله بسبب الطيرة أن هذا شرك بالله ﷻ ؛ لأنه اعتقد في هذه الأشياء أنها توقع به الشر من دون الله ﷻ . هذا وجه كونها من الشرك ، شرك يعني في الربوبية ؛ لأن الله هو الذي يوجد الأشياء ويخلقها سبحانه ويقضيها ويقدرها وليس لأحد مع الله تصرف ، فإذا تأثر بالطيرة ومنعته من أعماله وحبسته عما أراد فهذا شرك بالله ﷻ ، وأكَّده النبي ﷺ ثلاث مرات ، فهذا دليل على أن الطيرة نوع من أنواع الشرك .
قال ابن مسعود : « وما منا إلا » أي : إلا يقع في نفسه شيء من الكراهية إذا رأى أو سمع أو قابل بعض الأشياء يقع في قلبه شيء « ولكن الله يذهبه بالتوكل » على الله ﷻ إذاً فالطيرة تعالج بثلاثة أمور : **الأول** : التوكل على الله ﷻ . **الثاني** : المضي في العمل الذي أراده وعدم التراجع عنه . **الثالث** : الدعاء بأن يقول : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك . ويقول أيضاً – كما يأتي – : « اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إلـه غيرك » فيدعو بهذه الدعوات ، ولن يضره شيء بإذن الله ﷻ .

(٢) وهو قوله : « وما منا إلا » إلى آخره هذا من كلام ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مدرج في الحديث .

قال ابن مفلح : (الأولى القطع بتحريمها ؛ لأنها شرك ، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهة الاصطلاحية[(١)] ؟!)

قوله : « وما منا إلا » : قال أبو القاسم الأصبهاني والمنذري : في الحديث إضمار ، والتقدير : وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك . انتهى .

قوله : « ولكن الله يذهبه بالتوكل » : لكن إذا توكلنا على الله في جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله تعالى عنا بتوكلنا عليه وحده .

قوله : وجعل آخره من قول ابن مسعود : قال ابن القيم : (وهو الصواب فإن الطيرة نوع من الشرك)[(٢)] .

قوله : ولأحمد من حديث ابن عمرو : « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك ، قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إلـٰه غيرك »[(٣)] . هذا الحديث رواه أحمد والطبراني عن

---

(١) الشرك مكروه كراهة تحريم وليس كراهة تنزيه .

(٢) ولا يمكن أن يكون هذا من كلام الرسول ﷺ .

(٣) هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال : « من ردَّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » . مثل الأول ، أن من منعته الطيرة من المضي في طريقه وعمل ما هَمَّ به وتراجع فقد أشرك بالله ﷻ ؛ لأنه اعتقد أن غير الله يخلق ويدبر .
وقوله : « لا خير إلا خيرك » وليس للطيرة « ولا طير إلا طيرك » : يعني أن الأمور بيدك وقضائك وقدرك ولا خير إلا خيرك . الخير بيد الله ﷻ : « ولا إلـٰه غيرك » : أي : لا معبود بحق سواك وليس للطيرة دخل في هذه الأمور ، هذا من تدبير الرب والإلـٰه والخالق ﷻ فإذا مضى وعزم ونفَّذ ولم ينته فهذا عبادة لله ﷻ ، وإذا رجع وامتنع عن حاجته فهذا شرك بالله ﷻ فالمضي توحيد والرجوع شرك .

عبد الله بن عمرو بن العاص ، وفي إسناده ابن لهيعة وبقية رجاله ثقات[١] .

قوله : من حديث ابن عمرو : هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي ، أبو محمد ، وقيل : أبو عبد الرحمن : أحد السابقين المكثرين من الصحابة وأحد العبادلة الفقهاء[٢] مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الأصح بالطائف[٣] .

قوله : « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » : وذلك أن الطيرة هي التشاؤم بالمرئي والمسموع ، فإذا ردته عن سفر أو عمل أو حاجة فقد أشرك ، لما يخامر قلبه من الخوف من ذلك فيكون مشركاً بهذا الاعتبار[٤] .

قوله : « قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك »[٥] . فيه تفويض الأمور كلها إلى الله تقديراً وخلقاً ، والبراءة مما فيه تعلُّق بغير الله تعالى كائناً من كان .

قوله : « ولا إلـٰه غيرك » . أي : لا معبود مستحق سواك[٦] فإذا قال ذلك

(١) ابن لهيعة يقولون : إنه اختلط في آخر عمره ، احترقت كتبه فاختلط ؛ لأنه صار يُحدِّث من حفظه فحصل عنده اختلاط .

(٢) والعبادلة هم : عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) وقعة الحرة التي حصلت في وقته .

(٤) حيث إنه اعتقد بالطيرة أنها تضر فتراجع عن قصده .

(٥) إضافة هذا الدعاء إلى الدعاء الأول .

(٦) أي لا معبود بحق ، وأما ما عداه فهو معبود بالباطل ، كل ما عبد من دون الله فهو معبود بالباطل ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [سورة الحج: ٦٢] .

وأعرض عما وقع في قلبه ولم يلتفت إليه واستمر على فعل ما عزم عليه توكلاً على الله وتفويضاً إليه كفَّر الله عنه ما وقع في قلبه من ذلك .

قوله : وله من حديث الفضل بن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك »[١] : هذا الحديث عند الإمام أحمد من حديث الفضل ابن العباس قال : خرجت مع رسول الله ﷺ فساقه إلى أن قال : « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » . والفضل هو ابن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ . قال ابن معين : قتل يوم اليرموك . وقال غيره : قتل يوم مَرْج الصفَّر[٢] سنة ثلاث عشرة . وهو ابن اثنتين وعشرين سنة . وقال أبو داود : قتل بدمشق وكان عليه درع النبي ﷺ .

قوله : « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » : هذا حدُّ الطيرة المنهي عنها[٣] :

---

(١) الفضل بن العباس بن عبد المطلب هو أكبر أولاد العباس ، ولهذا يقال في العباس يكنى بأبي الفضل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

أن النبي ﷺ قال : « الطيرة ما أمضاك أو ردك » هذه هي الطيرة وهذا هو تفسير الطيرة : ما أمضاك في التشاؤم . الإنسان يستمر في التشاؤم ويمضي في التشاؤم ولا يتراجع عنه هذه طيرة . أو ردك عن حوائجك التي عزمت على فعلها هذا هو تفسير الطيرة من الرسول ﷺ . أما من لم ترده الطيرة عن حاجته ، ولم تثنه عن عزمه فإن هذا ليس طيرة ، هذا يذهبه الله عنه بالتوكل عليه ﷻ .

(٢) يوم مرج الصفر يعني قتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حروب الشام .

(٣) حدها يعني تعريفها ، تعريف الطيرة المنهي عنها أنها : ما أمضاك في التشاؤم أو ردك عن مقصودك .

إذاً يتلخص لنا من هذه الآيات وهذه الأحاديث : أولاً : أن الطيرة شرك ، وثانياً : بيان الطيرة التي هي نوع من أنواع الشرك ، وهي « ما أمضاك أو ردك » . « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » .

ثالثاً : الفرق بين الطيرة والفال : الطيرة شرك ، والفأل توحيد ؛ لأنه حسن ظن بالله ﷻ .

=

أنها ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراد أو يمنعه من المضي فيه كذلك . وأما الفأل الذي كان يحبه ﷺ ففيه نوع بشارة فيسر به العبد ولا يعتمد عليه بخلاف الطيرة فافهم الفرق .

رابعاً : أن حصول شيء من الكراهية في القلب يحصل لكل أحد حتى للمسلم والمؤمن ولكن الفرق : أن المسلم يرفضها ويتوكل على الله ، ولا تضره ، أما غير المسلم فإنه يتأثر بها ويمضي فيها ويتمادى فيها وتؤثر عليه وتضره بإذن الله ﷻ . خامساً : بيان ما تعالج به الطيرة وهو التوكل على الله ، والمضي فيما عزم عليه الإنسان وعدم التراجع ، والدعاء بما علّمه الرسول ﷺ .

٢٩ - باب ما جاء في التَّنجيم

قَالَ البُخاريُّ في « صحيحِهِ » : قَالَ قَتَادَةُ : « خَلَقَ اللهُ هذِهِ النُّجُومَ لِثَلاثٍ : زِينَةً لِلسَّماءِ ، وَرُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ ، وَعَلاَمَاتٍ يُهْتَدَى بِها ، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيها غَيْرَ ذلِكَ ؛ أَخْطأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ » . انتهى .

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ . ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُما .

وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الـمَنَازِلِ أَحْمَدُ ، وإِسْحَاقُ .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « ثلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ : مُدْمِنُ الخَمْرِ ، وَقاطِعُ الرَّحِمِ ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ » . رَوَاهُ أَحمدُ ، وابنُ حِبَّانَ في : « صحيحِهِ » .

٢٩- باب ما جاء في التَّنْجِيمِ

قوله : (باب ما جاء في التنجيم)(١) . قال شيخ الإسلام : (هو

---

(١) قال الشيخ ﷺ : (باب ما جاء في التنجيم) : التنجيم مأخوذ من النجوم وهي الكواكب و(ما جاء في التنجيم) يعني ما ورد من الأدلة على تحريم الاعتقاد بالنجوم بأنها تؤثر في هذا الكون ؛ لأن التدبير والخلق هو لله ﷻ . وأما هذه النجوم فهي كغيرها من المخلوقات ، خلقها الله لحكمة وفائدة ، بيَّنها ﷻ في كتابه فلا يزاد على ما جاء في القرآن مما ذكره الله في هذه النجوم . والتنجيم هو كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ : (هو نسبة الحوادث الأرضية إلى الأحوال الفلكية)(*) فيقال مثلاً : إذا طلع النجم الفلاني أو غاب النجم الفلاني يحصل كذا وكذا في الأرض . إذا طلع أو غرب النجم الفلاني يحصل غلاء

(*) مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٩٢ .

=

الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية)(١) .

قال الخطابي(٢) : (علم النجوم المنهي عنه(٣) : هو ما يدَّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان(٤) ، كأوقات هبوب الرياح ، ومجيء المطر ، وتغير الأسعار . وما في معناها من الأمور(٥)

أو رخص في الأسعار أو ينزل المطر ، أو يحصل مرض ، أو غير ذلك وينسبون هذا إلى النجوم ، وهذا من فعل الجاهلية كما قال ﷺ : « أربع في أمتي من أمور الجاهلية لا يتركونهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة »(*) هذه من أمور الجاهلية ويوجد في هذه الأمة من يعتقد شيئاً من ذلك ، هذا خبر معناه التحريم لهذه الأمور ؛ لأن هذه الأمور تؤثر في عقيدة المسلم ، وهذه النجوم خلقها الله ﷻ كسائر مخلوقاته ، فهي مسخرة مدبرة ﴿ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٤] ، ﴿ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة النحل : ١٢] فهي مسخرات مدبرات ، ليس لها من الأمر شيء أو أنها تخلق أو أنها تحدث شيئاً ، هذا من اعتقاد الجاهلية .

(١) هذا تعريف التنجيم .

(٢) الخطابي : أبو سليمان الخطابي الإمام الجليل ، وكلامه هذا موجود في « معالم السنن »(**) شرح سنن أبي داود ، وهو يوافق كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أن التنجيم : هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية . فالذي ينسب هذا إلى النجوم وطلوع النجوم أو غروبها فهذا هو التنجيم المحرم المخلّ بالعقيدة .

(٣) المنهي عنه ؛ لأن هناك علم لا يُنهى عنه وهو علم الحساب .

(٤) فيستدلون بطلوع النجوم وغروبها على أنه سيحدث كذا وكذا في مستقبل الزمان ، وهذا من ادعاء علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ ، ونسبته للنجوم باطلة .

(٥) تصريف الرياح بيد الله ﷻ ، وهو الذي يصرفها ، وهو الذي يأذن بهبوبها وسكونها هذا من شأن الله ، وليس هو من شأن طلوع النجوم أو غروبها . وغلاء الأسعار ورخصها أو نزول المطر أو غير ذلك . كل هذا بيد الله ﷻ . النجوم ما زالت تطلع وتغرب ولا يحصل هبوب الرياح ولا يحصل نزول مطر ولا يحصل أمراض إلا إذا شاء الله ﷻ .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٢ / ٦٤٤ (٩٣٤) .

(**) ٤ / ٢٢٩ .

التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها[(١)] واجتماعها وافتراقها يدَّعون أن لها تأثيراً في السفليات[(٢)] وهذا منهم تحكم على الغيب[(٣)] وتعاط لعلم قد استأثر الله به فلا يعلم الغيب سواه)[(٤)] .

قوله : قال البخاري في « صحيحه » : قال قتادة : « خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدي بها[(٥)] . فمن تأوَّل فيها غير ذلك أخطأ[(٦)] ، وأضاع نصيبه ، وتكلَّف ما لا علم له به » . انتهى[(٧)] .

---

(١) هذا لا يعلمه إلا الله ولا يعلم بمسير الكواكب في مجاريها إلا هو سبحانه .

(٢) في السفليات يعني في الأرض .

(٣) هذا من ادعاء علم الغيب .

(٤) ما أجمل كلام هذا الإمام . هذا توضيح واضح ، وهو معنى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

(٥) هذا ما دل عليه القرآن بالاستقراء ، فمن يأتي بشيء رابع أو خامس ؟! لا يوجد .

(٦) يعني من نسب إليها شيء غير هذه الثلاث فقد أخطأ ؛ لأنه قال بدون دليل والذي يقول من دون دليل مخطئ .

(٧) هذا ما ذكره البخاري ﷺ معلقاً في « صحيحه » عن قتادة بن دعامة السدوسي تابعي من كبار التابعين ومن أئمة التفسير والفقه ﷺ قال : « خلق الله هذه النجوم لثلاث » : ثلاث حكم هذا بالاستقراء لكتاب الله ﷻ ، « زينة للسماء » : هذه الأولى ، كما قال ﷻ : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ [سورة الصافات: ٦، ٧] وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [سورة الملك: ٥] فإذا نظرت في السماء في الليل رأيت هذه النجوم المضيئة المتلألئة فإن ذلك يعطيك منظراً جميلاً ، فهي زينة زيَّن الله بها السماء ، وأخبر أنها في السماء الدنيا لأن السماوات سبع طباق فهي في السماء الدنيا مما يلي الأرض ولهذا يراها الناس وتتلألأ ، فإذا أظلم الليل ونظرت إلى هذه النجوم أعجبتك زينتها ودلتك على قدرة الخالق ﷻ . « ورجوماً للشياطين » كما قال تعالى :

=

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ﴾ [سورة الملك : ٥] ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [سورة الصافات : ٦ ، ٧] فإن هذه النجوم تنطلق منها الشهب فتصيب الشياطين التي تسترق السمع تحرقهم بإذن الله وهي حراسة للسماء ، كما قال تعالى عن الجن : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا ﴾ : يعني من السماء ﴿ مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ : يسترقون السمع ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [سورة الجن : ٩] وذلك عند بعثة النبي ﷺ حرست السماء وحفظت من استراق السمع . وقد يبقى شيء من ذلك ، لكنه قلَّ جداً بعد بعثة النبي ﷺ ، فهي حراسة للسماء . ورجوماً للشياطين هذه الثانية .

الثالثة : « علامات يهتدى بها » : يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر كما قال ﷻ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [سورة الأنعام : ٩٧] المسافر في الليل لا يرى الجبال ولا يرى الطريق ، لكن يسير على النجوم ويعرف الاتجاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٦] وفي ظلمات البحر . البحر ليس فيه جبال ولا علامات كله سواء . فالبحارة أصحاب السفن والمراكب يعرفون الجهة التي يقصدونها بالنجوم ، فإذا رأوها عرفوا الاتجاه وساروا على هدى ، فهذه هي الحكم التي ذكرها الله الذي خلق هذه النجوم ولا يجوز لأحد أن يضيف إليها حكمة لم يذكرها الله ﷻ ، كأن يقول : هذه النجوم تدل على وقوع الحوادث في الأرض أو أنها تدبر هذا الكون ، فإن هذا قول بلا علم . ولهذا يقول قتادة : « فمن تأوَّل فيها غير ذلك أخطأ » بأنه قال بغير علم « وأضاع نصيبه » : من العلم أو أضاع نصيبه من الجنة إذا اعتقد بهذه النجوم أنها تؤثر في الكون ؛ لأن هذا شرك ، والمشرك ليس له نصيب من الجنة ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [سورة المائدة : ٧٢] « وتكلف ما لا علم له به » وليس عنده دليل على ما قال ، فهذا دليل على أن المسلم لا يجوز له أن يقول بغير علم أو بغير دليل ، لا يتخرص أو يقلِّد أهل الضلال ، وإنما يقول بحسب الدليل في النجوم وفي غيرها مما يتعلق بالأحكام الشرعية في العقيدة أو في الحلال والحرام أو غير ذلك من الأمور الشرعية ، فلا يجوز للإنسان أن يتكلم بغير دليل من كتاب الله أو من سنة رسوله ﷺ فإن فعل هذا فهو من المتكلفين الذين يقولون على الله ما لا يعلمون . والقول على الله بغير علم فوق الشرك ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا

هذا الأثر علقه البخاري في « صحيحه » وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم ، وأخرجه الخطيب في كتاب « النجوم » عن قتادة بلفظ أطول من هذا .

وقول قتادة ﷺ يدل على أن علم التنجيم هذا قد حدث في عصره[١] فأوجب له إنكاره على من اعتقده وتعلّق به[٢] ، وهذا العلم مما ينافي التوحيد[٣] ويوقع في الشرك[٤] لأنه ينسب الحوادث إلى غير من أحدثها وهو الله سبحانه بمشيئته وإرادته ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة فاطر : ٣] . وقال : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[٥] [سورة النمل : ٦٥] .

وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٣] ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [سورة الإسراء: ٣٦] فيجب على الإنسان أن يتوقف عن الأمور التي لا علم له بها وألا يقول - خصوصاً - في أمور الشرع وأمور العقيدة إلا بدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

(١) وهو في عصر التابعين ، فدل على أن هذا الاعتقاد الفاسد قديم ، وهو قديم من وقت النمرود وقوم إبراهيم الذين يعبدون الكواكب .

(٢) وهذا واجب العلماء أنهم ينكرون المنكر ، ولاسيما المنكر في العقيدة ، فيجب على العلماء أن ينكروه إذا حدث ولا يسكتوا عن هذا .

(٣) لأنه اعتقاد في هذه المخلوقات أنها تتصرف في الكون ، وهذا شرك بالله ﷻ ؛ لأنه لا يتصرف في الكون إلا الله ، وهذه المخلوقات هي مدبَّرة ، يجريها الله بحسب أمره ﷻ .

(٤) وهذا مناسبة ذِكْر الشيخ ﷺ لهذه الترجمة في كتاب التوحيد : أن من اعتقد هذا الاعتقاد فإنه يبطل توحيده .

(٥) الأمر كله لله ﷻ ، هو الذي يخلق وهو الذي يرزق ، وهو الذي يحيي ويميت ، وهو الذي ينزل المطر ، وهو الذي يصرف الرياح ، بيده مصاريف الأمور كلها .

قوله : خلق الله هذه النجوم لثلاث : قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾[1] [سورة الملك : ٥] وفيه إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا[2] كما روى ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أما السماء الدنيا فإن الله خلقها من دخان[3] وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً[4] وزينها بمصابيح[5] وجعلها رجوماً للشياطين وحفظاً من كل شيطان رجيم » .

قوله : وعلامات أي : دلالات على الجهات « يهتدى بها » أي : يهتدي بها الناس في ذلك[6] كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٦] . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [سورة الأنعام : ٩٧] أي : ليعرفوا بها جهة قصدهم .

---

(١) الآية فيها فائدتان للنجوم : الفائدة الأولى : أنها زينة للسماء . والفائدة الثانية : أنها رجوم للشياطين التي تحاول استراق السمع .

(٢) ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾ لأن السماوات سبع .السماء الدنيا إلى السماء السابعة ، كل سماء فيها سكان وعمّار .

(٣) قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ [سورة فصلت : ١١] .

(٤) سراجاً : وهي الشمس . وقمراً منيراً فالشمس ضياء وسراج ، وأما القمر فهو نور ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ [سورة نوح : ١٦] .

(٥) وهي النجوم ، فالسماء الدنيا فيها الشمس وفيها القمر ، وفيها النجوم .

(٦) هذه الفائدة الثالثة : أن الله جعل هذه النجوم علامات يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر ، فلولا وجود هذه النجوم لتاه الناس في أسفارهم فلا يدرون أين يتجهون في الظلام ، وهذا شيء واضح معروف .

فإن قيل : المنجم قد يصدق[(١)] !

قيل : صدقه كصدق الكاهن ، يصدق في كلمة ويكذب في مائة[(٢)] وصدقه ليس عن علم ؛ بل قد يوافق قدراً فيكون فتنة في حق من صدقه .

قوله : وكره قتادة تعلم منازل القمر ، ولم يرخص فيه ابن عيينة ، ذكره حرب عنهما . ورخص في تعلم المنازل : أحمد وإسحاق[(٣)] .

---

(١) قد يقع مثل ما قال ، هذا من باب الموافقة ، وليس هو دليل على صدقه ، وإنما وافق كلامه قضاءً وقدراً ، وظن الناس أن هذا يدل على صدقه مثل الكاهن ، قد يصدق بسبب الكلمة التي سمعت من السماء وقوله : « يصدق » هذا بسبب ليس من فعله هو ، وإنما وافق هذا الشيء ، وأيضاً فيه فتنة للناس ؛ لأجل أن يتبيّن الصادق في عقيدته من المنحرف الذي يأخذ هذه الضلالات ، وفيه اختبار للناس .

وهذه شبهة يعتمد عليها هؤلاء الضُّلَّال لابد من الجواب عنها فنقول : صدقه ليس دليلاً على صحة مذهبه ، وإنما لأنه وافق القضاء والقدر ، ولأجل الابتلاء والامتحان .

(٢) وهذه الكلمة ليست من صنعه ، هذه الكلمة التي سمعت من السماء ، والعبرة ليست بكونه يصدق المضلل أو المخرف أو يوافق أو يطابق ، العبرة بالدليل من الكتاب والسنة . أما كونه يصدق في بعض الأحيان فهذا لا يدل على أن ما قاله صحيح ، وأن فعله هذا صحيح .

(٣) علم النجوم أو التنجيم ينقسم عند أهل العلم إلى قسمين : **القسم الأول** : علم التأثير : وهو أن يعتقد أن هذه النجوم تؤثر في الكون فينزل بسببها المطر أو ينحبس أو تغلو الأسعار أو ترخص أو من تزوج في النجم الفلاني يوفَّق ، ومن تزوج في النجم الفلاني يخفق أو غير ذلك من أقوال أهل الجاهلية ، ومن يسير في ركابهم من الناس ، واعتقاد أن النجوم تؤثر فيما يجري على الناس شرك وحرام بإجماع أهل العلم .

القسم الثاني : علم التسيير : وهو معرفة الحساب ، فهذه النجوم لها منازل تسمى منازل القمر ، ثماني وعشرين منزلة : أربع عشرة يمانية وأربع عشرة شامية ينزل القمر في كل ليلة منها منزلة إلى أن ينتهي الشهر . وفي التاسعة والعشرين والثلاثين يستسر يعني يختفي =

القمر في ضوء الشمس ، تسمى ليالي الاستسرار ثم يبعد عن الشمس ، فيعرف نهاية الشهر إذا هلَّ الهلال ، يعني إذا خرج من شعاع الشمس يعرف به بداية الشهور ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٩] فهي يعرف بها مواقيت الحساب ويعرف بها ظل الزوال ومواقيت الصلاة في اليوم والليلة هذا يسمى علم الحساب ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [سورة الإسراء : ١٢] هذه منازل الشمس ومنازل القمر جعلها الله لمعرفة الحساب ، وهذا اختلف العلماء فيه على قولين : **الأول** : أن هذا حرام وقد ذهب إليه قتادة وسفيان بن عيينة فهما يحرمان هذا العلم ، وهو علم معرفة الحساب بالنجوم ؛ لأن هذا وسيلة إلى النوع الأول المحرم .

والقول الثاني : أن هذا لا بأس به ، وهذا من الحكمة في خلق هذه النجوم ، وهذا قول الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه الحنظلي ، شيخ الإمام أحمد .وهذا هو الصحيح ، أنه لا بأس في تعلم منازل القمر ومعرفة الحساب ومواقيت الزراعة ومواقيت غرس الأشجار والبذور ، لأنه لا محظور فيه ، والله جعل للأشياء مواقيت لكن ليست هذه النجوم هي التي تحدث شيئاً في هذا الكون إنما هي مواقيت لمعرفة أوقات الزراعة وغرس الأشجار ، وأيضاً مواقيت للصلوات ومعرفة الشهور ومعرفة الآجال ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٩] فيعرفون بها مواقيت معاملاتهم وتعرف بها النساء العدة ، إن كنَّ لسن من ذوات المحيض ، فهذا لا بأس به وهذا هو الصحيح ؛ لأن معرفة حساب الفلك لا يؤثر في العقيدة . فالفلكيون يحسبون الحساب للصلوات وللأهلة ويضعون في هذا شبكات طويلة بعضهم يضع إلى مئة سنة مثل : تقويم أم القرى ومثل غيره من الحساب الذي يوضع للمستقبل فيستريح الناس ويستفيدون من هذا فما عليهم إلا كل سنة يفردون من هذا التقويم المطول حساب السنة ويطبع في مفكرات ، وتوضع على الجدران وفي المكاتب فيعرف الناس بهذا المواقيت ، هذا لا بأس به ، وهو من المصالح ، والله خلق النجوم لمصالح العباد وهذا شيء جُرِّب وعرف وضبط وليس فيه أي محظور ، ولله الحمد .

وقوله : « أحمد وإسحاق » المراد بهما : أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي بن راهويه .

قال الخطابي(١) : (أما علم النجوم(٢) الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال(٣) وتعلم به جهة القبلة(٤) فإنه غير داخل فيما نهي عنه ، وذلك أن معرفة هذا العلم تصح بالمشاهدة(٥) وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة فإنها من الكواكب رصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به(٦) مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة ويشاهدها على حال الغيبة عنها(٧) فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة ، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم ولا مقصرين في معرفتهم) انتهى .

وروى ابن المنذر عن مجاهد : أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به .

---

(١) سبق كلام الخطابي في التنجيم المحرم ، وهذا كلامه في النوع الثاني وهو المختلف فيه .

(٢) « أما علم النجوم » : هذا بقية كلامه السابق الذي ساق المؤلف أوله .

(٣) زوال الشمس : يعني دخول وقت الظهر .

(٤) جهة القبلة للمسافرين إذا اشتبهت عليهم القبلة في الليل ينظرون في النجوم ويعرفون الاتجاه ، ويعرفون الجهة التي فيها الكعبة يصلون إليها ، يعرفون الشمال والجنوب والغرب والشرق ، ذلك بسبب النظر في النجوم في الليل .

(٥) ليس فيه مساس بالعقيدة ؛ لأنه لا يدعي أن الشمس والنجوم والقمر تؤثر في الكون ، وإنما يقول : إنها علامة على الحساب فقط ، والله جعلها للحساب ، كما في القرآن في سورة يونس ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الآية: ٥] فهذا لا حرج فيه ؛ بل هو من المصلحة .

(٦) ولو كان هذا حراماً لنهوا الناس عنه .

(٧) فيعرف جهة الكعبة .

قال ابن رجب : (والمأذون في تعلمه علم التسيير[١] لا علم التأثير[٢] فإنه باطل محرم قليله وكثيره . أما علم التسيير فيتعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق وهو جائز عند الجمهور) .

قوله : ذكره حرب[٣] عنهما : هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل ، أبو محمد الكرماني الفقيه من أجلة أصحاب الإمام أحمد . روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وغيرهم وله كتاب « المسائل » التي سئل عنها الإمام أحمد وغيره ، مات سنة ثمانين ومئتين .

وأما إسحاق فهو ابن إبراهيم بن مخلد بن يعقوب الحنظلي النيسابوري الإمام المعروف بابن راهويه . روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم . قال أحمد : إسحاق عندنا من أئمة المسلمين . وروى عنه أحمد[٤] والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم . وروى هو أيضاً عن أحمد[٥] مات سنة تسع وثلاثين ومئتين .

قوله : وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر » رواه أحمد

---

(١) معرفة منازل القمر ومنازل الشمس هذا علم التسيير التي تسير فيها الشمس والقمر من أجل ضبط الحساب ومعرفة المواقيت ، هذا لا بأس به .

(٢) علم التأثير هو اعتقاد أن النجوم تؤثر في الكون هذا هو المحرم وهو المخلّ بالعقيدة

(٣) حرب الكرماني من أصحاب الإمام أحمد ، له مسائل رواها عن الإمام أحمد تسمى « مسائل حرب » .

(٤) وروى عنه الإمام أحمد ﷺ ، وهو من شيوخ الإمام أحمد .

(٥) وهو روى عن أحمد ، وأحمد روى عنه ؛ لأنهما متعاصران .

وابن حبان في « صحيحه »(١) : هذا الحديث رواه الطبراني والحاكم وقال :

---

(١) « ثلاثة لا يدخلون الجنة » : وهذا وعيد شديد فإن المؤمن يدخل الجنة ، وإنما يحرم من دخول الجنة غير المؤمن . الله ﷻ حرمه من دخول الجنة بسبب هذه الجرائم ، فدلَّ على خطرها .

الأول : مدمن الخمر : الله ﷻ حرَّم الخمر . والخمر : المراد بها ما خامر العقل وغطاه وأسكر ، فكل مادة تسكر ، فإنها خمر من أي شيء أتخذت ومنه خمار المرأة لأنه يغطي رأسها . فالخمر مأخوذة من الخمار وهو التغطية ؛ لأنها تغطي العقل ، وهي حرام بالكتاب والسنة والإجماع ، ومن استحل الخمر فهو كافر ؛ لأنه مكذِّب لله ولرسوله ولإجماع المسلمين ، أما من اعتقد أنها حرام ، ولكن شربها من باب الشهوة فهو يعرف أنه مذنب وأنها حرام فهذا مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب ، وأوجب الله الحد عليه بأن يجلد . فقد جلد النبي ﷺ في الخمر ، جلد أصحابه ، وأجمع المسلمون على الجلد في الخمر عقوبة للشارب وردعاً له فإذا داوم المدمن على شرب الخمر دل ذلك على عدم مبالاته ، وصار أشد من الذي لا يدمن ولهذا صار عليه هذا الوعيد الشديد أنه لا يدخل الجنة ؛ لأنه أصبح لا تردعه الحدود ، ولهذا جاء في الحديث : أنه إذا شرب الأولى يحد ، وإذا شرب الثانية يحد وإذا شرب الثالثة يحد ، وإذا شرب الرابعة يقتل(*) ، واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية أن الشارب إذا تكرر منه أربع مرات فإنه يقتل عملاً بهذا الحديث ؛ لأنه أصبح لا تردعه الحدود وقتله هو من باب التعزير ؛ وليس هو من باب الردة .وأما وعيد الآخرة فقد توعده الله بأنه لا يدخل الجنة ، فليس معنى هذا أنه كافر ؛ بل هو مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب ، ولكن توعده الله بهذا الوعيد فنحن نورد الحديث ولا نتعرض له بالتأويل ، نورده كما جاء وإن كنا نعتقد أن من لم يستحل الخمر أنه ليس بكافر بل هو فاسق إذا شربها ولم يستحلها وهو معرض للوعيد إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] ، هذه

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ١٣ / ١٨٣ (٧٧٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « من شرب الخمر فاجلدوه ، ثم إذا شرب فاجلدوه ، ثم إذا شرب فاجلدوه ، ثم إذا شرب في الرابعة فاقتلوه » ، وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

=

عقيدة أهل السنة والجماعة عملاً بالنصوص . لكن على كل حال هذا يدل على شدة جريمة المدمن للخمر ، وأنه معرض للوعيد الشديد .

والثاني : قاطع الرحم : الرحم المراد بها القرابة من جهة الأب أو من جهة الأم . القرابة لها حق أوجبه الله ﷻ في الكتاب والسنة ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ [سورة الإسراء: ٢٦] جعل الله له حقاً ﴿ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [سورة النساء: ٣٦] القرابة لها حق سواء كانت من جهة الأم كالأخوال والخالات ، أو من جهة الأب كالأعمام والعمات والإخوة والأخوات إلى آخره جعل لها حق على قريبهم بالصلة والإحسان وسائر ما فيه نفع لهم ودفع الضرر عنهم ، فحقهم ثابت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فالذي يقطع الرحم ولا يؤدي حقها متعرض لهذا الوعيد أنه لا يدخل الجنة وأنه ملعون ، كما قال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [سورة محمد: ٢٢] ، وقد قال الله ﷻ للرحم : « أصل من وصلك وأقطع من قطعك »(*) فالرحم لها حق عظيم فمن قطع رحمه فإنه متوعد بهذا الوعيد الشديد ، مع العلم بأنه لا يكفر بهذا لكن هو متوعد بهذا الوعيد إن شاء الله نفذه فيه ، وإن شاء غفر له ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [سورة النساء: ٤٨] .

والثالث : مصدق بالسحر : السحر - كما تقدم - كفر وشرك ؛ لأن الساحر يخضع للشياطين ، ولا يستطيع عمل السحر إلا بخضوعه للشياطين ، وإذا خضع للشياطين وأطاعهم فقد أشرك بالله ﷻ ، فالذي يصدق الساحر مثله كما قال ﷺ : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ »(**) ؛ لأنه صدق بالباطل وصدق بالكفر والشرك ، فيكون مثل الساحر مصدق بالسحر ، ولا يدخل الجنة ؛ لأن الساحر لا يدخل الجنة قطعاً إلا إذا تاب إلى الله ؛ لأنه كافر مشرك ، فكذلك من صدقه ووافقه على سحره فإنه يكون مثله كما دلت على ذلك الأدلة . لكن ما الشاهد من هذا الحديث في باب التنجيم والحديث هذا في السحر ؟ الشاهد : أن التنجيم نوع من السحر كما سبق « من

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٤ / ١٨٢٨ (٤٥٥٢) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ١٩٨٠ (٢٥٥٤) .

(**) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ١٥ / ٣٣١ (٩٥٣٦) ، وقال الأرنؤوط : حديث حسن .

=

صحيح ، وأقره الذهبي .

قوله : عن أبي موسى : هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حَضَّار - بفتح المهملة وتشديد الضاد - أبو موسى الأشعري ، صحابي جليل مات سنة خمسين .

قوله : « ثلاثة لا يدخلون الجنة » الشاهد للترجمة « ومصدق بالسحر » وفي هذا الحديث كما تقدم في نظائره ، كقوله : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » .

واختار الإمام أحمد ﷺ أن مثل هذه الأحاديث تُمَرُّ كما جاءت من غير تأويل[1] .

اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر »(*) فالمصدق للسحر هذا يدخل فيه المنجم ، والذي يصدق المنجمين ، فإنه يدخل في السحر ؛ لأن التصديق بالتنجيم سحر . وهذا وجه الشاهد من هذا الحديث للباب .

(١) يعني قوله : « لا يدخلون الجنة » مع أنه ما حُكِمَ بكفرهم ، فهذا من أحاديث الوعيد التي تُمر كما جاءت ، مع اعتقاد أنهم لا يُخلدون في النار ، وإن دخلوها فإنهم من أصحاب الكبائر ، وقد يُغفر لهم فلا يعذبون . هذه عقيدة أهل السنة والجماعة في أصحاب الكبائر ، ومنهم هؤلاء . فيكون هذا من باب الوعيد الذي إن شاء الله نفذه وإن شاء غفره ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] فليس معناه أنهم يكفرون ويخرجون من الملة هذا قول الخوارج والمعتزلة الذين يُكَفِّرون بالكبائر ، والأحاديث والأدلة يجب أن يُرَد بعضها إلى بعض ، فلا يؤخذ بطرف ويُترك الطرف الثاني .

(*) سبق تخريجه في باب (بيان شيء من أنواع السحر) .

قال الذهبي في « الكبائر » : (ويدخل فيه تعليم السيمياء وعلمها[١] وعقد المرء وزوجته[٢] ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه وأشباه ذلك بكلمات مجهولة) . انتهى باختصار .

---

(١) نوع من السحر .

(٢) هذا السحر ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] : يحببونه إليها أو يبغضونه إليها . هذا من عمل السحرة .

٣٠ - باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢] .

وعنْ أبي مَالكٍ الأشْعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ : « أَرْبعٌ فِي أُمَّتي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ : الفَخْرُ بالأَحْسَابِ ، وَالطَّعْنُ في الأَنْسَابِ ، والاسْتِسْقَاءُ بالنُّجُومِ ، والنِّيَاحَةُ » . وقالَ : « النَّائِحَةُ إذَا لَـمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا ؛ تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » . رواهُ مُسْلِمٌ .

وَلَـهُمَا : عَنْ زَيْدِ بنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : صلَّى لَنَا رَسُولُ الله ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بالـحُدَيبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ؛ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ . فَقَالَ : « هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم ؟ » . قالُوا : الله ورسُولُهُ أعْلَمُ . قالَ : « قالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي ، وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ ؛ فذلك مُؤمنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ؛ فَذلِكَ كَافِرٌ بِي مؤمنٌ بالكَوْكَبِ » .

ولَـهُمَا مِنْ حديثِ ابنِ عبَّاسٍ مَعْنَاهُ ، وَفِيهِ : « قَالَ بَعْضُهُم : لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا . فَأَنْزَلَ اللهُ هذِهِ الآيات : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ . وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ . لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٥ - ٨٢] » .

٣٠- باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

قوله : (باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء)[(١)] .

---

(١) هذا الباب تابع للباب الذي قبله ؛ لأن الباب الذي قبله (باب ما جاء في التنجيم) وهذا الاستسقاء بالأنواء ، أو الاستسقاء بالنجوم . التنجيم عام في كل ما يعتقد في النجوم من العقائد الباطلة ، وهذا خاص بنوع من أنواع هذه الاعتقادات ، وهو الاستسقاء بالنجوم أي : طلب سقيا الماء أو نسبة المطر إليها ، هذا شرك بالله ﷻ ؛ لأن إنزال المطر من الله ﷻ وهو الذي ينزل الغيث ، وهو الذي يخلق المطر وينزله . ليس للنجوم أي علاقة بنزول المطر . لا علاقة إحداث وخلق ، ولا علاقة تسبب ، وإنما النجوم - كما سبق - خلقها الله زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . وهي مخلوقة من مخلوقات الله ﷻ مسخرة ﴿ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٤] في الآية الأخرى ﴿ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [سورة النحل : ١٢] ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ [سورة فصلت : ٣٧] فهذه المخلوقات لا تدبر شيئاً إلا بأمر الله ﷻ ، والله لم يخلق النجوم لإنزال المطر ، وإنما خلقها لحكم سبق بيانها من القرآن .

والاستسقاء بالنجوم على قسمين : منها ما يكون مخرجاً من الملة وشركاً أكبر ، وهو إذا اعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر وتنزله . النوع الثاني : أن يعتقد أن الذي ينزل المطر هو الله وإنما النجوم سبب لنزول المطر ، وهذا شرك أصغر ؛ لأن الله لم يجعل النجوم سبباً لنزول المطر ، وعادة الجاهلية أنهم يعتقدون أنه إذا طلع النجم الفلاني أو غاب النجم الفلاني أنه ينزل المطر ويقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا . يسمونه النجم ويسمونه النوء .

والأنواء : جمع نوء ، وهو النجم يقال : ناء ينوء إذا طلع من المشرق ؛ لأن الله ﷻ جعل القمر منازل وقدره منازل ثمان وعشرين منزلة ، ويستسر في ليلة أو ليلتين من آخر الشهر كل منزلة لها نجم يعرف به مثل : الثريا والدبران والهقعة والهنعة . ثمان وعشرين منزلاً : أربع عشرة يمانية وأربع عشرة شامية ، ويسير القمر في كل ليلة مع مسار يسمى منزلة من منازل القمر حتى يكمل ثمان وعشرين منزلاً من الشمال إلى الجنوب ثم يختفي في ليلة أو ليلتين لقربه من الشمس يسمى الاستسرار . ليلة إذا كان الشهر تسع وعشرين أو ليلتين إن كان الشهر ثلاثين ، ثم يظهر الهلال بعد ذلك ، ويبدأ الشهر من جديد هذه منازل =

أي : من الوعيد ، والمراد نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء جمع نوء : وهي منازل القمر .

قال أبو السعادات : (وهي ثمان وعشرون منزلة[١] ينزل القمر كل ليلة منزلة منها كما قال تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ [سورة يس : ٣٩] يسقط في المغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة له مع طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق[٢] .

وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر[٣] وينسبونه إلى النجم الساقط ويقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا وإنما سمي نوءاً ؛ لأنه إذا سقط منها الساقط ناء الطالع بالمشرق أي : نهض وطلع) .

القمر ، كل منزلة أو كل مسار من مسارات القمر في ليالي الشهر ، علامته نجم من هذه النجوم . هذه منازل القمر كانوا في الجاهلية يعتقدون أن نزول المطر بسبب هذه النجوم ويقولون : النوء الفلاني صادق ، والنوء الفلاني غير صادق وما أشبه ذلك . هذا من عقائد الجاهلية ، فأبطله الله ﷻ في القرآن ، وأبطله النبي ﷺ في السنة فأخبر الله وأخبر الرسول ﷺ أن المطر إنما هو من أمر الله ﷻ .

(١) منازل القمر ثمان وعشرين قال تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ [سورة يس : ٣٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ [سورة يونس : ٥] .

(٢) النجوم الثمان والعشرين هذه كما سبق أربعة عشر يمانية وأربعة عشر شامية كل ثلاثة عشر يوم يطلع نجم من المشرق ويغيب نجم المغرب الذي يطلع من المشرق يسمونه الرقيب فإذا غاب رقيبه من المغرب طلع هذا من المشرق ، هذه سنة الله ﷻ .

(٣) هذا اعتقاد الجاهلية إذا غاب النجم من جهة الشرق وطلع رقيبه من الغرب ينزل المطر ؛ لأنهم لا يعرفون الله ﷻ فينسبون الأمطار إلى النجوم وطلوعها وغروبها .

قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾(١) الآية ، روى الإمام أحمد

---

(١) هذه في آخر سورة الواقعة قال تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [آية ٧٥ - ٨٢] الشيخ ﷺ أخذ هذه الآية لأنها محل الشاهد ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : تنسبون المطر إلى النجم ، وهذا كذب على الله ﷻ ، هذا إذا أريد بالنجوم ، النجوم المعروفة المخلوقة ، وهذا هو القول المشهور والمختار . والقول الثاني : أن المراد بالنجوم نجوم القرآن ؛ لأن القرآن نزل منجماً بحسب الوقائع والحوادث كان ينزل على النبي ﷺ منجماً في مدة رسالته ﷺ ، وهي ثلاث وعشرون سنة .

والنجوم جمع نجم وهو القرآن . نجوم القرآن التي نزل بها مجزئاً على الرسول ﷺ . ولكن القول الأول هو المشهور : أن المراد بالنجوم : النجوم المخلوقة لا نجوم القرآن ؛ لأن الله أقسم بها والله يقسم بما شاء من خلقه . النجوم مخلوقة والقسم بالمخلوق لا يجوز بالنسبة للناس أما بالنسبة لله ﷻ فهو يقسم بما شاء من خلقه ولا يقسم إلا بشيء له أهمية . النجوم لها أهمية عظيمة وهي أن الله خلقها زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها ، فلذلك أقسم الله بها والمقسم عليه هو القرآن : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ ﴾ هذا جواب القسم ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ هذا رد على الذين كذَّبوا بالقرآن قالوا : إنه من قول البشر ، أو من قول محمد ، أو أنه أساطير الأولين ، أو أنه سحر كما في أقوال أهل الجاهلية ، فالله أقسم أنه قرآن كريم . في كتاب مكنون : الكتاب المكنون : هو اللوح المحفوظ ؛ لأن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ ، تكلم الله به ، ثم كتبه في اللوح المحفوظ ، ونزل به جبريل على محمد ﷺ فهو مكتوب في اللوح المحفوظ ، مكتوب في صحائف الملائكة ، ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ [سورة عبس : ١٣ - ١٥] يعني الملائكة جمع سفير والسفير معناه الرسول ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [سورة عبس : ١٦] مكتوب في المصاحف التي بأيدي الناس ، ومحفوظ في الصدور ، وهو كلام الله بأي اعتبار ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ : يعني مصون ﴿ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ : هذا رد على المشركين الذين يقولون : إن =

والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في « المختارة » عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال : قال ﷺ : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ يقول : شكركم[1] ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا[2] .

روي ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم[3] وهو قول جمهور المفسرين ، وبه يظهر وجه استدلال

القرآن من عمل الشياطين ، وأن الشياطين هي التي تلقيه إلى الرسول ﷺ فجعلوا الرسول مثل الكهان ؛ لأنهم يعرفون أن الكهان يتلقون من الشياطين ، فهم اعتبروا الرسول ﷺ مثل الكهان يتلقى من الشياطين فرد الله عليهم قال : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ : لأن الشياطين أنجاس ، ولا تمس القرآن ولا تقربه ؛ ولأن الشيطان يحترق مع القرآن فلا يقربه وإنما يقربه المطهرون الملائكة عليهم الصلاة والسلام ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، لا كما يقوله المشركون أو الجهمية أو المعتزلة : إنه مخلوق أو إنه من كلام البشر ؛ بل هو تنزيل من رب العالمين هذا جواب القسم . ومع هذا صاروا ينسبون الرزق إلى غير الله ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ : أي تجعلون شكركم للنعم وإضافتها إلى الله ﷻ بدل هذا تكذبون فتجعلون هذه النعم من غير الله هذا كذب وكذلك تكذّبون القرآن الذي أقسم الله أنه قرآن كريم ، وأنه لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه منزّل من رب العالمين ، ومع هذا تكذبون بهذا القرآن العظيم بدل أن تؤمنوا به وتتبعوه وتهتدوا به جعلتم حظكم من هذا القرآن التكذيب – نسأل الله العافية – أو جعلتم حظكم من شكر المطر نسبته إلى غير الله ، هذا كفر بالنعمة والآية شاملة للمعنيين .

(١) يعني بدل الشكر تنسبون النعم إلى غير الله .

(٢) ولا ينسبون هذا إلى الله ولا يقولون : مطرنا بفضل الله ورحمته ، إنما يقولون : مطرنا بالنجم الفلاني ، صدق النجم الفلاني وهكذا .

(٣) أن المراد بالنجوم : نجوم السماء وليس نجوم القرآن هذا هو القول المختار ، اختاره ابن جرير وغيره .

المصنف رحمه الله بالآية[(١)] .

وقال ابن القيم : (أي : تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به يعني القرآن . قال الحسن : تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون . قال : وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب)[(٢)] .

قوله : عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن[(٣)] : الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة »[(٤)] وقال : « النائحة إذا لم تتب

---

(١) أما إذا فسرت النجوم بنجوم القرآن فلا يكون في الآية شاهد للباب ، وإذا فسرت بالنجوم ظهر الشاهد ، وهذا هو الصحيح .

(٢) ابن القيم له كتاب اسمه « أقسام القرآن » كتاب جيد ، يذكر كل قَسَم في القرآن ويتكلم عليه بكلام ما تجده في غيره من الكتب ، ومن ذلك هذا القسم ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ تكلم عليه في كلام طويل وجيد . هذا الكتاب نفيس جداً .

(٣) نسبتها إلى الجاهلية يدل على تحريمها ؛ لأن كل ما كان من أمور الجاهلية فإنه محرم ، ولهذا نهينا عن التشبه بالجاهلية في كل أفعالهم ، تجدون هذا مبسوطاً في كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية « اقتضاء الصراط المستقيم في مشابهة أصحاب الجحيم » ، ومن أصحاب الجحيم : أهل الجاهلية ، تكلم عن أهل الجاهلية وخصال الجاهلية كلاماً طويلاً .

(٤) هذا الحديث فيه أن هذه الأربع من أمور الجاهلية . والجاهلية : ما كان قبل الإسلام وقبل بعثة الرسول ﷺ ، لخلوه من العلم ؛ لأن الجاهلية من الجهل وهو عدم العلم . وقبل بعثة الرسول ﷺ كان الناس في جاهلية ليس عندهم علم قد اندرست الرسالات لبعد العهد ، وصار الناس في جهل دامس وليل مظلم من الجهل ، حتى بعث الله نبيه محمداً ﷺ ، وأنزل عليه الكتاب فزالت الجاهلية والحمد لله ببعثة الرسول ﷺ ، وكانوا في الجاهلية يتخبطون على غير علم ، على غير هدى ؛ يعبدون الأصنام ويستسقون بالنجوم ويأكلون الميتات ويستحلون ما حرم الله ﷻ ويحللون ويحرمون من عند أنفسهم حتى بعث الله نبيه =

محمداً ﷺ والبشرية على وجه الأرض بحاجة ماسة إلى بعثة الرسول ﷺ ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [سورة المائدة : ١٩] وهذا من نعم الله ﷻ أن الله بعث هذا الرسول فجدد دين الرسل ؛ وأزال الله به الجاهلية ، وأورث العلم الغزير والخير الكثير لهذه الأمة إلى أن تقوم الساعة ، فيبعثته ﷺ زالت الجاهلية لكن قد يبقى لها أشياء في بعض الناس . فالجاهلية العامة زالت ، أما الجاهلية الخاصة في بعض الأشخاص هذه قد تكون موجودة ، ومنها ما جاء في هذا الحديث : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية » : « في أمتي » أي : أمة محمد ﷺ « من أمر الجاهلية » ، وهذه الأربع هي : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم والنياحة على الميت . هذه من أمور الجاهلية ومن كانت فيه خصلة من هذه الخصال ففيه جاهلية ، وأخبر النبي ﷺ أنها تستمر ، وأنهم لا يتركون هذه الخصال . لكن ليس من قام به خصلة من خصال الجاهلية يكون كافراً ؛ بل يكون فيه جاهلية حتى يدعها لكنه ليس بكافر . فهذه الأربع كبائر من كبائر الذنوب ، لكن لا تقتضي الكفر ، وإنما تقتضي الفسق ونقص الإيمان ، ولهذا قال : « في أمتي » : أمة الرسول ﷺ . وقال لبعض أصحابه : « إنك امرؤ فيك جاهلية »(*) . قال : فيك جاهلية مع أنه من أصحاب الرسول ؛ بل من أفضل أصحاب الرسول ، دل على أن من كان فيه خصلة من خصال الجاهلية أنه لا يكفر لكن يعتبر هذا من أعظم الذنوب بعد الشرك . وهذا الصحابي الجليل تاب إلى الله وترك هذه الخصلة لما قال له النبي ﷺ : « إنك امرؤ فيك جاهلية » . بسبب أنه قال لعمار بن ياسر : يا بن السوداء ؛ لأن هذا من أمور الجاهلية ؛ ولأن المسلمين إخوة ، ولا فخر للأبيض على الأسود ، ولا للعربي على العجمي إلا بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] وقوله : « الفخر بالأحساب » : الحسب هو ما يمدح به الشخص من الكرم والجود والشجاعة ، وغيرها من الخصال الكريمة ، وكانت موجودة عند العرب لكن لا يجوز الافتخار بأفعال الشخص وأفعال أبيه . لأن هذا يقتضي الكبر ، واحتقار الناس فلا يفخر أحد على أحد بالمنصب أو بالجاه ، أو بالصفات الطيبة لا يجوز للإنسان أن يفتخر بها لكن يحمد الله ويشكره على هذه الخصال الطيبة . « والطعن في الأنساب » : الأنساب جمع نسب ، وهو

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٢٠ (٣٠) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٢٨٢ (١٦٦١) .

ما ينتمي إليه الشخص ، كأن يقول : أنا هاشمي ، أنا قرشي ، أنا تميمي ، أنا كذا وكذا من باب الفخر ، وينتقص أنساب الناس يقول : أنت عبد ، أنت مالك نسب معروف ، أنت أنت . هذا أيضاً لا يجوز . المؤمنون إخوة لا يجوز لأحد أن ينتقص أخاه المسلم ويقول : أنت لست قبيلي أنت خضيري ، أنت عبد ، أنت كذا وكذا ، هذا هو الطعن في الأنساب ، ولا يمنع هذا أن الإنسان يعرف الأنساب ، ويعرف القبائل لا بأس بهذا ، تعلُّم الأنساب ومعرفتها لا من باب الافتخار بها ولا من باب الطعن في أنساب الناس ، إنما هو من باب معرفة النسب لا بأس . والعلماء فيهم نسابون يعرفون الأنساب ، لكن لا يفتخرون بها ولا يطعنون في أنساب الآخرين ولا يعيرونهم . « والاستسقاء بالنجوم » : هذه الثالثة وهي محل الشاهد . والاستسقاء بالنجوم أي : نسبة الأمطار إلى طلوع النجوم أو غروبها كأن يقال إذا طلع النجم الفلاني أو غرب النجم الفلاني يحصل المطر ، وهذا حرام لا يجوز ، المطر بيد الله ، هو الذي ينزله متى شاء ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [سورة الشورى : ٢٨] ولا علاقة لنزول المطر بالنجم أبداً ، وإنما المطر بإذن الله ، قد يطلع النجم ويغيب النجم ولا ينزل مطر ، ولا علاقة لنزول المطر بالمناخات كما يقولون . المطر بيد الله ﷻ . لكن يكون للمطر أوقات ، فقد ينزل في هذه الأوقات وقد لا ينزل . ومعلوم أن المطر عندنا في الشتاء وأن الصيف ليس فيه مطر هذا توقيت وليس نسبة إلى النجوم ، لكن قد يخلف الله هذه العادة . فينزل المطر في الصيف ولا ينزل في الشتاء ، قد ينزل في مكان يقل نزوله فيه ، وقد لا ينزل في مكان يكثر نزوله فيه وأنتم تسمعون الآن بالجفاف في بلاد كانت تنزل عليها الأمطار باستمرار فصاروا يشكون من الجفاف والقحط الجدب ، فمن الذي حبسه ؟! دل على أن المطر ليس اتباع العادات ولا اتباع المناطق ولا اتباع الأوقات إنما هو بيد الله ﷻ هو الذي يصرفه ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [سورة الفرقان : ٥٠] فيحرم هؤلاء وينزل على هؤلاء ، ويمنعه إذا شاء وينزله إذا شاء هو سبحانه ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [سورة الحجر : ٢١] هو بيد الله ﷻ ولا يجوز نسبة المطر إلى غير الله ، لا إلى النجوم ولا إلى المناخ ، ولا إلى أي شيء ، ولا إلى الرياح لا يجوز إلا أن يقال : المطر بإذن الله وبأمر الله فهو نعمة من الله وهو الذي ينزله ، وهو الذي يحبسه ، وهو الذي يصرفه ﷻ ، ولكن =

من نسبه إلى النجوم طلوع النجوم أو غروبها فهذا من أمر الجاهلية ، وتسمية هذه الأربع بالجاهلية : هي دليل على الذنب ؛ لأن كل ما ينسب إلى الجاهلية فإنه مذموم كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٣] ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [سورة الفتح : ٢٦] حمية الجاهلية : تبرج الجاهلية ، هذا كله مذموم كل ما ينسب إلى الجاهلية فإنه مذموم وهذا يدل على أنه يجب على المسلم أن يعرف أمور الجاهلية ؛ لأجل أن يتجنبها ويحذر منها . يعرف ما هي الجاهلية ، وما هي أمور الجاهلية حتى يحذرها .ويحذِّر منها ويبينها للناس . عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول : « إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية »(*) . يقولون : هذا من الآثار ، وهذا من إحياء التراث ، وهذا من كذا وكذا ، ثم تظهر آثار الجاهلية وتندرس سنن الإسلام بسبب الجهل بأمور الجاهلية ، هذه كلمة حكيمة عظيمة من أمير المؤمنين يجب على طالب العلم أن يعرف الجاهلية ويعرف أمور الجاهلية حتى يُحذِّر منها .

والرابعة : « النياحة » : رفع الصوت عند المصيبة وشق الجيوب ولطم الخدود وتعداد محاسن الميت ، هذا من أمور الجاهلية ، هذه هي النياحة وهي كبيرة من كبائر الذنوب ؛ لأن الواجب الصبر والاحتساب ، وترك الجزع والتسخط . كانوا في الجاهلية ينوحون على الأموات ويستأجرون النائحات ، ويحصل عندهم ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، والدعاء بالويل والثبور ، هذا جزع من قضاء الله وقدره ، الواجب الصبر والاحتساب عند المصائب ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٥٥] وقال ﷻ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ [سورة الحديد : ٢٢] أي : في اللوح المحفوظ مكتوبة ، لابد أن تقع مقدرة ﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ وقال ﷻ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة التغابن : ١١] أي : بقدره وقضائه سبحانه ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ

(*) لم أقف عليه مسنداً ، ولكن ذكره شيخ الإسلام في كتابه « منهاج السنة » ٤ / ٥٩٠ وغيره ، وذكره ابن القيم في كتابه « مفتاح دار السعادة » ١ / ٢٩٥ .

=

قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » رواه مسلم .

أبو مالك : اسمه الحارث بن الحارث الشامي صحابي تفرد عنه بالرواية أبو سلام[1] وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا .

قوله : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن » : أي ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك مع كونها من أعمال الجاهلية[2] يدل على أنه يجب على كل مسلم أن يجتنبها[3] والمراد بالجاهلية

قَلْبَهُۥ﴾ قال علقمة : « هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم »(*) تهون عليه المصيبة ، أما إذا جزع وتسخط فإنه لن يرد القضاء والقدر ، وأيضاً هو يتأثر ويتضايق أما المسلم فهو بخير إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر ، وليس ذلك إلا للمؤمن ، كما قال النبي ﷺ(**) أما البكاء عند المصيبة عند الموت فلا بأس به ؛ لأنه شيء لا يملكه الإنسان . البكاء من غير رفع صوت من غير جزع ومن غير كلام سيء . وقد بكى النبي ﷺ عند موت الميت رحمة وحزناً على الميت ، هذا لا بأس به ، لم يصحبه نياحة ورفع صوت أو فعل قبيح ، كشق الثياب أو لطم الخدود أو غير ذلك كما تفعله الجاهلية . فالبكاء جائز ، ولكن النياحة محرمة .

(١) كل (سلّام) – بتشديد اللام – إلا (عبد الله بن سلام) الصحابي فإنه بالتخفيف .

(٢) وكونه يفعلها مع العلم هذا أشد من الجاهل .

(٣) ولا يجتنبها إلا إذا درس أمور الجاهلية ، وقد صنف الشيخ ﷺ رسالة سماها « مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية من الكتابيين والأميين » .

(*) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » ١٢ / ٣٤٥ (٩٥٠٣) .

(**) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٢٩٥ (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » .

هنا : ما قبل المبعث وفاعلها آثم يجب أن ينهى عنها ومتى وجد الشرك وجدت هذه الأمور المنكرة وغيرها من المنكرات[١] .

قال شيخ الإسلام : (أخبر أن بعض أمر (أهل) الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذماً لمن لم يتركه[٢] وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها . ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٣] فإن في ذلك ذماً للتبرج[٣] وذماً لحال أهل الجاهلية الأولى[٤] . وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة[٥]) .

---

(١) لأن الشرك هو أصل الذنوب وأقبح الذنوب ويولد غيره من المنكرات .

(٢) لا يتركه الناس كلهم . وأما الجملة فأمة محمد ﷺ لا تُجمع على ضلالة ، ولا يمكن أن يجمعوا على أمر من أمور الجاهلية لكن يقع فيها بعض الأمة . ولهذا لا يجوز أن يُطلق بعد بعثة الرسول لفظ الجاهلية ، أو الناس في جاهلية ، أو نحن الآن نعيش في جاهلية أشد من الجاهلية التي بعث فيها الرسول ، هذا لا يجوز . بعد بعثة الرسول ﷺ زالت الجاهلية والحمد لله ووجد العلم ، ما دام القرآن والسنة موجودين فليس هناك جاهلية عامة .

(٣) التبرج من أمور الجاهلية ، فلا يجوز للنساء المسلمات أن يتبرجن ، فإذا فعلن ذلك فهذه خصلة من خصال الجاهلية . والتبرج : إظهار المرأة لزينتها إذا خرجت من بيتها ، هذا هو تبرج الجاهلية الأولى .

(٤) الأولى يعني ما قبل الإسلام .

(٥) جاء في القرآن ثلاثة أشياء مضافة إلى الجاهلية ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٣] ، ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٤] ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [سورة الفتح : ٢٦] ، كلها مضافة إلى الجاهلية فهي مذمومة .

قوله : « الفخر بالأحساب » أي : التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم[(١)] وذلك جهل عظيم إذ لا كرم إلا بالتقوى ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] .

ولأبي داود عن أبي هريرة مرفوعاً : « إن الله قد أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان[(٢)] .. » الحديث .

قوله : « والطعن في الأنساب » أي : الوقوع فيها بالعيب والنقص ، ولما عيَّر أبو ذر رجلاً بأمه ، قال النبي ﷺ : « أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » متفق عليه[(٣)] .

فدل على أن الطعن في ا لأنساب من عمل أهل الجاهلية ، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية ، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه[(٤)] قاله شيخ الإسلام ﷺ .

---

(١) مآثر يعني يقول : أبي يعمل كذا وكذا أو أبي شجاع ، أو أنا أعمل كذا . لا يجوز للإنسان أن يفتخر بأعماله أو أعمال آبائه وأجداده .

(٢) الذي يفتخر بآبائه وأجداده وقد يكونون من الكفار هذا إنما يعامله الله بنقيض قصده فيجعله أذل من الجُعل وهو الحشرة المعروفة المكروهة عند الناس ، وهذا معروف عند الناس أن الذي يمدح نفسه أو يمدح آباءه فإن الناس يكرهونه ولو تحملوه في الظاهر ، لكن يكرهونه في نفوسهم ولا يتحملونه أبداً .

(٣) فدل على أنه من افتخر أو طعن في نسب أحد فهذا من أمور الجاهلية ، ولو كان من أفضل الناس .

(٤) قد يفعل الإنسان شيء من أمور اليهود أو أمور النصارى يتشبه بهم في بعض الأومر فلا يقتضي هذا كفره ، لكن يقتضي فسقه ومعصيته .

قوله : « والاستسقاء بالنجوم » تقدم معناه[1] .

فإذا قال قائلهم : مطرنا بنجم كذا وبنوء كذا فلا يخلو : إما أن يعتقد أن له تأثيراً في نزول المطر ، فهذا شرك وكفر لنسبة المطر لغير من أنزله[2] وهو الله وحده . وأما مع إطلاق هذا اللفظ فقد صرح ابن المفلح في « الفروع » بتحريمه[3] وكذلك صاحب « الإنصاف »[4] ولم يذكر خلافاً .

قوله : « والنياحة » أي : رفع الصوت بالندب على الميت وضرب الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك[5] وهي من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة كما في هذا الحديث .

قوله : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها » فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب[6] .

---

(١) معنى الاستسقاء بالنجوم : نسبة المطر إلى النجوم .

(٢) يعني شرك وكفر أكبر ؛ لأنه نسب المطر إلى المخلوق .

(٣) إذا أطلقه ولم يعتقد معناه ، وإنما يعتقد أن المطر من الله لكن نسبه من باب التساهل أو من باب المجاز بزعمه هذا شرك أصغر ، وهو عظيم خطير قد يجر إلى الشرك الأكبر .

(٤) وهو المرداوي في « الإنصاف شرح المقنع » .

(٥) النياحة قد تكون بالقول مثل : رفع الصوت عند المصيبة ، وهي الصالقة ، أو بالفعل وهي حلق الشعر وتسمى الحالقة ، أو بشق الثوب أو بضرب الخد فهذه نياحة بالفعل . هذا من أفعال الجاهلية ويوجد عند بعض البادية شيء من هذه الأمور .

(٦) « النائحة » : هي التي تفعل النياحة بأن ترفع صوتها عند وفاة الميت ، أو تلطم الخد ، أو تشق الجيب . « إذا لم تتب » : التوبة تكفر الذنب مهما كان حتى ولو كان شركاً أكبر أو كفراً أو نفاقاً أو إلحاداً أو زناً أو سرقة أو شرب خمر ، فكل من تاب تاب الله عليه لا يبقى مع التوبة ذنب من الذنوب ، وهذا من فضل الله ﷻ ، ونعمته على عباده ؛ بل إنه يفرح =

قوله : « تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب »(١)

ﷻ بتوبة عبده مع أنه لا ينتفع هو من أعمال عباده ولا من طاعاتهم ، وإنما يريد لعباده الخير هم الذين ينتفعون ، فهو سبحانه يريد لهم الخير ولا يريد لهم الشر ، ولا يريد لهم العقوبة ، فإذا تابوا فرح الله بذلك فرحاً شديداً : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته عليها طعامه وشرابه ضيعها في أرض مهلكة ثم ردها الله عليه »(*) ما ترون إنسان استسلم للموت والعطش وفي أرض مهلكة ، ما عنده أحد وبينما هو كذلك إذا هو براحلته عنده عليها طعامه وشرابه ماذا يكون فرحه ؟! الله أشد فرحاً من هذا . الإنسان بحاجة إلى راحلته لكن الله ليس بحاجة إلى توبة هذا العبد ، وإنما العبد هو المحتاج إليها والله يحب ما ينفع هذا العبد . هذا من لطفه ورحمته ﷻ وقوله : « إذا لم تتب » : دل على أن النائحة لو تابت تاب الله عليها مع قبح فعلها . وقوله : « قبل موتها » : هذا دليل على أن التوبة مقيدة بما قبل الموت ، أما إذا حضرت الغرغرة وبلغت الروح الحلقوم فلا تقبل التوبة حينئذ « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »(**) ، ولذلك قال : « قبل موتها » أما لو تابت وقد نزل بها الموت حينئذ لا تقبل لأن كل واحد يتوب عند الموت ، حتى الكافر والمشرك يتوب عند الموت ، لكن لا تقبل توبته .

(١) « تقام يوم القيامة » : يعني تبعث من قبرها يوم القيامة « وعليها سربال » : أي ثوب . « من قطران » قيل : القطران هو النفط معروف ، المادة المشتعلة ليكون ذلك أشد في اشتعالها – والعياذ بالله – وأنتن لريحها وقيل : القطران : النحاس المذاب يكون ذلك أشد في تعذيبها . « ودرع » : الدرع معروف هو الإجلال الذي يكون على المرأة أو الثوب . القميص يسمى درعاً ، والثوب يسمى درع المرأة . « من جرب » الجرب : هو مرض جلدي معروف يصيب الإبل ، ويصيب الآدميين يتقطع منه الجلد ، وقد يسبب الموت وذلك زيادة في تعذيبها – والعياذ بالله – فهذا فيه وعيد شديد على النائحة ، وأنه يجب عليها أن تتوب إلى الله قبل الموت .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢١٠٤ (٢٧٤٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة ، فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ... » الحديث .

(**) سبق تخريجه في باب (قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾) .

=

السربال : واحد السرابيل وهي الثياب والقمص(١) . هذه سرابيل أهل النار . يعني يلطخن بالقطران حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم ورائحتهن أنتن(٢) .

وروي عن ابن عباس : أن القطران هو النحاس المذاب(٣) .

قوله : وعن زيد بن خالد قال : صلى لنا رسول ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب »(٤) .

الشاهد من الحديث : الوعيد الشديد على النائحة . والنياحة كما سبق من أمور الجاهلية ؛ لأن الواجب الصبر والاحتساب لِقضاء الله وقدره وعدم الجزع والتسخط .

(١) ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [سورة النحل : ٨١] وهي الثياب التي يلبسها الإنسان للدفء والثياب التي يلبسها الإنسان للوقاية من الحرب وهي دروع الحديد .

(٢) لأن القطران مادة مشتعلة إذا أريد به النفط أو النحاس المذاب كله يدل على شدة الحرارة وشدة العذاب .

(٣) ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ [سورة الرحمن : ٣٥] . النحاس : هو الدخان .

(٤) « صلى لنا » : يعني صلى بنا . اللام بمعنى الباء .

« صلاة الصبح » : هي الفجر لأنها إنما تجب عند طلوع الفجر ، فسبب وجود صلاة الفجر هو طلوع الفجر ، لذا سميت صلاة الصبح بصلاة الفجر . « بالحديبية » : اسم موقع قريب من مكة على حدود الحرم من الجهة الغربية قريباً من التنعيم ، وهي الآن على
=

طريق جدة يسمى الآن الشميسي .

« على إثر سماء » : يعني المطر ، يسمى سماء ؛ لأنه نزل من السماء « كانت من الليل » : يعني أن هذا المطر نزل عليهم في الليل وهم في هذا المكان .

« فلما انصرف » : يعني من صلاة الفجر ، يعني لما سلم من صلاة الفجر . « أقبل على الناس » : وهذا هو المشروع للإمام إذا سلم ينصرف يستقبل الناس ولا يبقى مستقبلاً القبلة وهذا فعل الرسول ﷺ ، أراد أن يعظ الناس ، فهذا فيه مشروعية الموعظة بعد الصلاة ، لاسيما إذا صار لها سبب ومناسبة فإن الإمام ينصح ويعظ الناس يذكِّرهم ، وكان النبي ﷺ يعظ الناس بعد الصلاة ، لكنه لا يداوم على هذا ؛ بل يتخولهم بالنصيحة بعد فترة خشية أن يملوا . « هل تدرون ماذا قال ربكم » : هذا من باب إلقاء العلم على طريقة السؤال ؛ لأن هذا أنفع للإنسان أن تسأل أولاً ثم تلقي عليه الجواب ، فذلك أوقع في نفسه مما لو بدأ بإلقاء العلم بدون سؤال .

وقوله : « ماذا قال ربكم » : هذا فيه إثبات الكلام لله ﷻ ، وإثبات القول لله ﷻ ، وأنه يتكلم متى شاء إذا شاء ﷻ .

« قالوا : الله ورسوله أعلم » : لأن هذا فيه رد العلم إلى عالمه فالإنسان لا يتخرص في شيء لا يعرفه ، لا يجوز له يتكلم ؛ بل يقول : الله أعلم ولا يتكلم في مسائل العلم إلا إذا كان يعرفها ، أما إذا كان لا يعرفها فإنه يردها إلى أهل العلم .

قال : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر » : لما تطلعوا إلى الجواب ألقى عليهم الجواب ﷺ لأجل أن يثبت هذا في أذهانهم .

يقول الله ﷻ : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر » : هذا حديث قدسي والحديث القدسي : هو ما يرويه الرسول ﷺ عن ربه . والحديث غير القدسي هو ما كان من كلام الرسول ﷺ ، فالحديث القدسي لفظه ومعناه من الله ، والحديث غير القدسي لفظه من الرسول ﷺ ومعناه من الله . وقوله : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر » : بسبب نزول المطر ، لأن المطر نعمة وابتلاء من الله ﷻ ؛ والناس عند النعم ينقسمون إلى قسمين : شاكر لها ، وكافر بها ، فالذي ينسبها إلى الله ويحمد الله عليها هذا شاكر لها ، والذي ينسبها إلى غير الله هذا كافر بها .

« فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته .. » : من نسب المطر إلى الله وفضل الله وقال : مطرنا بفضل الله ورحمته فهذا مؤمن بالله وأن المطر من الله كافر بالكوكب الذين يقولون
=

زيد بن خالد : الجهني صحابي مشهور مات سنة ثمان وستين وقيل : غير ذلك ، وله خمس وثمانون سنة .

قوله : صلى لنا : أي بنا قال الحافظ : وفيه إطلاق ذلك مجازاً[١] .

قوله : بالحديبية : بتخفيف يائها وقد تثقل[٢] .

قوله : على إثر : بكسر الهمزة وسكون الثاء المثلثة على المشهور[٣] وهو ما يعقب الشيء . قوله : « سماء » أي : مطر[٤] .

قوله : فلما انصرف : أي : من صلاته إلى المأمومين .

قوله : هل تدرون : لفظ استفهام ومعناه التنبيه[٥] .

وفي النسائي « ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة »[٦] . وفيه إلقاء العالم

أنه هو الذي ينزل المطر عند الجاهلية فخالف الجاهلية ، لذلك يستحب للمسلم عند نزول المطر أن يقول : مطرنا بفضل الله ورحمته ، كما كان النبي ﷺ يقول ذلك . « وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا » : يعني سبب المطر هو طلوع النجم أو غروبه فهذا كافر بالله ؛ لأنه نسب النعمة إلى غير الله ﷻ وهذا شرك في الربوبية ، وقد يكون شركاً أكبر إذا اعتقد أن النجم هو الذي أحدث المطر ، وقد يكون شركاً أصغر إذا اعتبر أن النجم إنما هو سبب ، وأن المطر من الله ، وهذا يدل على أن التلفظ بكلمة الكفر يعتبر كفراً ولو لم يعتقد بقلبه . بعض الناس يقول : لا يحكم عليه بالكفر ولو تلفظ بالكفر والشرك ، ولو فعل الكفر والشرك لا يحكم عليه حتى يعلم ما في قلبه . من قال هذا ؟! هذا كلام جاهل نحن نحكم على الظاهر ، وأما القلوب فالله الذي يحكم عليها .

(١) يعني صلى لنا هذا مجاز . الحقيقة صلى بنا .

(٢) يقال : الحديّبية – بالتشديد – أو الحديبية وهذا أشهر بالتخفيف .

(٣) « على إثر » : يعني عقب مطر .

(٤) المطر : سماء ؛ لأنه نازل من السماء .

(٥) تنبيههم فهو يعلم أنهم لا يعرفون ، ومع هذا سألهم من أجل أن يتنبهوا . ففيه إلقاء العلم على الجاهل بطريقة السؤال والجواب .

(٦) يعني الماضية التي ما قبل الظهر يقال : الليلة ، والتي ما بعد الظهر يقال : البارحة .

المسألة على أصحابه ليختبرهم .

قوله : « قالوا : الله ورسوله أعلم » : فيه حسن الأدب للمسؤول إذا سئل عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه وذلك يجب(١) .

قوله : « أصبح من عبادي مؤمن بي » : لأنه نسب الفعل إلى فاعله الذي لا يقدر عليه غيره .

قوله : وكافر : إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً في إنزال المطر فهذا كفر ؛ لأنه شرك في الربوبية والمشرك كافر(٢) .

قوله : فأما من قال : « مطرنا بفضل الله ورحمته » : فالفضل والرحمة صفتان لله تعالى(٣) .

قوله : ولهما من حديث ابن عباس معناه(٤) وفيه قال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ إلى قوله : ﴿ تُكَذِّبُونَ ﴾(٥) [سورة الواقعة : ٧٥ - ٨٢] تقدم معناه قريباً .

---

(١) ولا يجوز أن يتكلم بغير علم ، وما أكثر ما يقول الصحابة : الله ورسوله أعلم .

(٢) من أشرك بالله في أفعاله هذا شرك في الربوبية ، ومن أشرك بالله في عبادته فهذا شرك في الألوهية . كل مشرك كافر ، وليس كل كافر مشركاً ؛ لأن الكفر أعم من الشرك ، لأن الكفر قد يكون بالجحود والتعطيل والإلحاد وإنكار وجود الله ﷻ وأما الشرك مع الإقرار بالله ﷻ فالشرك أخص من الكفر ، والكفر أعم . كل مشرك فهو كافر وليس كل كافر يكون مشركاً ؛ بل قد يكون ملحداً .

(٣) من صفاته ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾ [سورة يونس : ٥٨] صفتان من صفاته .

(٤) لهما : أي البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا معنى حديث زيد بن خالد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ . ويوافقه في المعنى وإن اختلف في اللفظ .

(٥) قال بعضهم جهلاً منه على ما كان في الجاهلية لما نزل المطر قال : لقد صدق نوء كذا وكذا، فنسب المطر إلى النوء ، وهو النجم ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [سورة الواقعة : ٧٥] رداً على هذه المقالة ، وبيان أن المطر من الله ، كما أن القرآن من الله ﷻ ، كذلك المطر كله من الله ﷻ .

٣١ - باب قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]

وقوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] .

عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ : « لا يُؤمِنُ أحَدُكُم حَتَّى أكُونَ أحَبَّ إليهِ مِنْ وَلَدِهِ ، وَوَالِدِهِ ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . أخرجَاهُ .

وَلَـهُمَا : عَنْهُ : قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ ؛ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإيمانِ : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنَّ يُحِبَّ الـمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إلَّا لله ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ » .

وَفِي روايةٍ : « لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإيمانِ حَتَّى ... » إلى آخِرِهِ .

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ؛ قَالَ : « مَنْ أَحَبَّ فِي الله ، وَأَبْغَضَ في الله ، وَوَالَى فِي الله ، وَعَادَى فِي الله ؛ فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ الله بذلِكَ ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإيمانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلاتُهُ وَصَومُهُ - حَتَّى يَكُونَ كذلِكَ ، وَقَدْ صَارَ عَامَّةُ مُؤاخَاةِ النَّاسِ على أَمْرِ الدُّنْيَا ، ذلِكَ لا يُجْدِي عَلَى أهْلِهِ شَيْئاً » رواه ابن جرير .

وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦] ، قال : « الـمَوَدَّةُ » .

٣١ - باب قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾)(١) .

---

(١) هذا الباب في المحبة . والمحبة من أعمال القلوب وهي على ثلاثة أنواع :
النوع الأول : محبة العبادة وهي التي تكون معها ذل وخضوع وانقياد للمحبوب ، وهذه أعظم أنواع العبادة ، فمن أحب مع الله أحداً يخافه ويرجوه ويذل له ويخضع له فقد أشرك بالله الشرك الأكبر ، وهذا ما عليه المشركون عبدة الأوثان من الأصنام والقبور والأضرحة والأشجار والأحجار ما يعبدونها إلا لأنهم يحبونها محبة ذل وخضوع وانقياد وهذا لا يكون إلا لله ﷻ .
قال الإمام ابن القيم ﵀(*) :

وَعِبَادَةُ الرَّحمنِ غَايةُ حُبِّهِ   مَعَ ذُلِّ عابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
وعَلَيْهِمَا فَلَكُ العِبَادَةِ دائرٌ   مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ القُطْبَانِ
ومَدَارُهُ بالأَمْرِ أَمْرِ رسُولِهِ   لا بالهَوَى والنفسِ والشَّيطَانِ

هذا هو تعريف العبادة غاية الحب مع غاية الذل للمحبوب ويتبع هذا جميع الأعمال ، فكل العبادات تدور حول هذين القطبين « غاية الحب مع غاية الذل للمحبوب » .
فمن أحب الله فقد عبده ، ومن أحب غير الله محبة ذل وخضوع فقد عبده مع الله ﷻ ، وهذا معنى الآية الكريمة ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥] .
أي : يحبونهم محبة تساوي محبة الله ، وهذا يدل على أن المشركين يحبون الله ولكنهم لم يخلصوا محبتهم لله ؛ بل أشركوا معه غيره فيها ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ فالمؤمنون والمشركون يحبون الله ، ولكن المشركين يحبون الله ويحبون معه غيره ، وأما المؤمنون فإنهم يحبون الله محبة خالصة لا يحبون معه غيره ، فلذلك صاروا أشدَّ حباً لله ﷻ .

(*) في « الكافية الشافية » ص ٤٣ (٥١٤ - ٥١٦) .

النوع الثاني : محبة الشهوة واللذة ، كمحبة الطعام والشراب والزوجة وسائر المشتهيات ، وهذه محبة طبيعية لا يؤاخذ عليها الإنسان ؛ لأنه ليس معها ذل ولا خضوع للمحبوب .

النوع الثالث : محبة عاطفة وهي كمحبة الوالد لولده ومحبة الولد لوالده ومحبة الأقارب والأرحام وهي محمودة وهي من صلة الأرحام وليس فيها شرك ؛ لأنه ليس معها ذل وخضوع ولا انقياد للمحبوب ، وإنما هي محبة عاطفة وشفقة .

فالنوعان الثاني والثالث هما المحبة الطبيعية التي طُبع عليها الإنسان لا يؤاخذ عليها ، أما محبة العبودية فهي لا تكون إلا لله ﷻ .

ولكن إذا قُدِّمت المحبة الطبيعية على محبة العبادة فإنه يكون ملوماً ومتوعداً ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] فمن قدم محبة الوطن والمال والأزواج والأقارب على محبة الله ورسوله فإنه متوعد وعاص لله .

وهذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين تخلفوا في مكة وتركوا الهجرة محافظة على هذه الأشياء ، وشحوا بأموالهم وأولادهم ومساكنهم وأقاربهم وتركوا الهجرة ، فعاتبهم الله وتوعدهم ؛ لأنهم قدموا محبة هذه الأشياء على محبة الله ورسوله ، فلم يهاجروا ، بخلاف المهاجرين تركوا أموالهم ودورهم وأولادهم ومحبوباتهم وهاجروا إلى الله ورسوله .

فإذا تقدمت هذه المحبوبات الثمانية المذكورة في الآية الكريمة أو غيرها على محبة الله ورسوله صار عاصياً متوعداً بأشد الوعيد من الله ، أما إذا لم يقدمها على محبة الله ورسوله فإنه لا يلام وهذا دليل على صدق إيمانه وإذا قدمها على محبة الله ورسوله فهذا دليل على نقص أو عدم الإيمان . يجب التنبه لهذا .

فالمحبة هي أعظم أنواع العبادات ، والعبادة ليست مقصورة على المحبة فقط كما يقول الصوفية فهم يقولون : إنما يعبدون الله لأنهم يحبونه لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره إنما نعبده لأننا نحبه وهذا ضلال ، ولكن الله يُعبد محبة له وخوفاً منه وطمعاً في جنته ، وهذه هي طريقة الرسل أنهم يحبون الله ويطمعون في جنته ويخافون من ناره ، قال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٥٧] .

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ . وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٥ - ٥٦] .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٩٠] فالعبادة ليست مقصورة على المحبة لأن هذه طريقة الصوفية ، كما أن العبادة ليست مقصورة على الخوف وتسمى طريقة الوعيدية وهي طريقة الخوارج وليست مقصورة على الرجاء فقط وتسمى طريقة المرجئة ، ولذلك قال العلماء : من عبد الله بالمحبة فقط فهو صوفي ، ومن عبد الله بالرجاء فقط فهو مرجئ ، ومن عبد الله بالخوف فقط فهو خارجي حروري ، ولكن المؤمن من يعبد الله بمجموع هذه الأمور بالمحبة والخوف والرجاء والرغبة والرهبة ، فينبغي معرفة هذه الأمور .

ثم أيضاً من أحب الله ، فإن محبة الله ليست مجرد دعوى ، ولكن لها أدلة وعلامات ، فمن أحب الله فإنه يحب ما أحبه الله ويبغض ما يبغضه ﷻ ، فمن يحب ما يحبه الله كالملائكة والمتقين والأولياء والصالحين ، هذا دليل على محبته لله ﷻ . ويبغض المشركين والكفار والمنافقين ؛ لأنهم أعداء الله وأعداء الرسول ﷺ ، هذا دليل على محبة الله ﷻ ، وأما الذي يحب الله ولا يعادي المشركين ولا يقاطعهم فهو كذاب ، والذي يحب الله ويبغض ويعادي أولياءه فهو كذاب ، وكذلك من علامات محبة الله اتباع رسوله ﷺ . قال تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] . فالدليل على محبة الله : طاعة الرسول ﷺ أما الذي يزعم أنه يحب الله ، ولكنه لا يتبع الرسول ﷺ فهو كاذب ، وكذلك الذي يدَّعي أنه يحب الرسول ﷺ ولا يتبعه ؛ بل يرتكب ما نهى عنه فهو كاذب في حبه للرسول ﷺ ، ومن ذلك الذي يُحدث البدع التي نهى عنها الرسول ﷺ فهو دليل على أنه يبغض الرسول ﷺ ، فلو كان يحبه لترك البدع التي نهى عنها مثل : الموالد ، فالمسألة ليست بالادعاء ، وإنما حقائق عليها أدلة وشواهد .

فكذلك من علامات محبة الله أن يكون ما يكرهه ويبغضه الله أبغض إليه من النار والعلقم والسم ومن أي مكروه . « من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك » كما سيأتي في هذا الباب ، وأيضاً في الحديث « ثلاث من كن فيه ، وجد حلاوة الإيمان ؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يُحب

=

قال في « شرح المنازل »[١] : أخبر تعالى أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية[٢] فإن أحداً من أهل الأرض لا يثبت هذا الند بخلاف ند المحبة فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في المحبة والتعظيم »[٣] انتهى .

قلت : وقد وقع الشرك في الربوبية أيضاً في كثير من الخاصة والعامة في آخر هذه الأمة[٤] فاعتقدوا أن هؤلاء الأموات تصرف في الكون ونحو ذلك .

قوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ - إلى قوله - ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[٥] الآية [سورة التوبة : ٢٤] .

المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » فيكره الكفر كما يكره النار . فذكر المصنف في هذا الباب محبة الله وذكر علاماتها الدالة على صحتها وذكر ما ينافي محبة الله ورسوله بالنصوص الدالة على ذلك وهذا الصحيح أن الإنسان لا يأتي بقول إلا وله دليل من الكتاب أو السنة .

(١) مدارج السالكين شرح منازل السائرين لابن القيم ، فكتاب « منازل السائرين » للهروي ، هو في درجات التصوف ، فجاء ابن القيم وشرحه ، وبيّن ما فيه من الحق ورد ما فيه من الباطل ، وكتاب « مدارج السالكين » كتاب نفيس ، فيه مباحث عظيمة .

(٢) فالمشركون يعترفون أن الله هو الخالق الرازق ، وإنما أحبوهم مع الله ﷻ .

(٣) فمقلٌ ومستكثر ، فمنهم ما يصل محبته لغير الله إلى الشرك ويخرج من الملة ، ومنهم من هو دون ذلك ولكن ذلك ينقص إيمانه نقصاً بيّناً .

(٤) يقولون : إن المتصرفين في الكون سبعة أو أربعة يسمونهم : الأقطاب والأوتاد والأغواث ، هذا عند الصوفية ، وهم يتصرفون في الكون مع الله ﷻ ، تعاظم شركهم أعظم من شرك الأولين .

(٥) هذا علامة محبة الله وهي تقديم ما يحبه الله على ما تحبه نفسه فإن عكس فهذا دليل على =

قال ابن كثير : إن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا أي : انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه[1] . في قوله : عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن النبي ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ، ووالده ، والناس أجمعين »[2] أخرجه البخاري ومسلم . قوله : لا يؤمن أي : الإيمان الواجب والمراد كماله[3] حتى يكون الرسول ﷺ أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين وذلك يقتضي تعظيم أمره ونهيه واتباعه

كذبه في المحبة فهو لم يلومهم على محبة هذه الأشياء ، ولكن لامهم على تقديم محبة هذه الأشياء على محبة الله .

(١) ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ : هذا وعيد ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ سماهم الله فاسقين أي : خارجين ، وإن لم يكونوا كافرين لكن هذا فسق معناه الخروج من الطاعة .

(٢) هذه محبة الرسول فكما تجب محبة الله تجب أيضاً محبة الرسول ﷺ وليست مجرد محبة فقط بل تكون محبة الرسول أحب إليه من كل شيء . من ولده ووالده والناس أجمعين ، هذا دليل محبة الرسول ﷺ ، أما من قال أنه يحب الرسول ويقدم هذه الأشياء على محبة الرسول فهو كاذب في دعواه وأيضاً من يقول أنه يحب الرسول ويقيم الاحتفال بمولده فهو كاذب ؛ لأن المولد بدعة والرسول نهى عن البدعة فلو كنت تحب الرسول ﷺ لكرهت هذه البدعة وتجنبتها .

بل ورد في الصحيح « حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين » كما في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : « يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال : لا يا ابن الخطاب حتى أكون أحب إليك من نفسك ، قال : الآن يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلي من نفسي . قال : الآن يا عمر »(*) .

(٣) ليس نفياً لأصل الإيمان ، بل نفي لكمال الإيمان .

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٢٩ / ٥٨٣ (١٨٠٤٧) وقال الأرنؤوط : حديث صحيح .

في ذلك دون من سواه[١] .

ومن كان كذلك فقد أحب الله كما في آية المحبة[٢] قوله : ولهما عنه أي : البخاري ومسلم عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنهُ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما[٣] ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار »[٤] .

---

(١) فمن يبغض الرسول ﷺ فهو كافر ، لأن من نواقض الإسلام بغض الرسول ﷺ ، أو بغض شيء مما جاء به الرسول ﷺ . ومن أحب الرسول ﷺ فهو مؤمن ، ولكن لا يكون مؤمناً كامل الإيمان حتى يكون الرسول أحب إليه من كل شيء بعد الله ﷻ . فعلامة محبة الرسول : تعظيم أمره وتعظيم نهيه ﷺ . أما من قال : إنه يحب الرسول ، ولكنه يتساهل في أوامره أو يتساهل في اجتناب ما نهى عنه فهذا دليل على نقصان محبته للرسول ولا يقدم عليه أحداً كائناً من كان ، فلا يقول : هذا قول شيخي . هذا قول إمامي لأنه لا قول لأحد مع الرسول ﷺ .

(٢) آية المحبة هي ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] .

(٣) « أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » هذا هو الأصل ، ثم يتبع ذلك محبة ما يحبه الله وبغض ما يبغضه الله ، والله يحب المؤمنين ويبغض الكافرين ، فأنت تحب المؤمنين وتبغض الكافرين ، فهذه علامة محبة الله ﷻ .

(٤) فالمؤمن لا يترك دينه ولو حُرِّق ولو قُطِّع ولو عُذِّب ؛ لأنه يكره الكفر كما يكره أن يقذف في النار ، وهذا يدل على أنه لا يجوز للمسلم أن يتنازل عن شيء من دينه من أجل إرضاء الناس ، بل يصمد ويبقى على دينه .

وهذا دليل على أن الإيمان له حلاوة يجد لذتها وطعمها في قلبه ولا توجد هذه الحلاوة إلا بهذه الأمور : « أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله » فإذا كان يحبه لطمع أو دنيا أو غرض عاجل فهو ليس دليلاً على حب الله وإنما يحب الدنيا .

=

قوله : ثلاث أي : خصال قال شيخ الإسلام أخبر الرسول ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك ، واللذة أمر يحدث عقب إدراك الملائكة الذي هو المحبوب أو المشتهى . قال فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله وذلك بثلاثة أمور بتكميل المحبة[1] وتفريغها[2] ودفع ضدها[3] فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفي فيها بأصل الحب[4] بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . قلت : ومن لازم محبة الله محبة أنبيائه ورسله وملائكته وكتبه والصالحين من عباده وكراهة ما يكرهه سبحانه ، ومعاداة أعدائه وموالاة أوليائه فلا يحصل كمال محبة الله الواجبة إلا بكمال ذلك وإيثاره على ما تهواه النفوس مما يخالف ذلك وقوله : « أحب إليه مما سواهما ثنى الضمير هنا لتلازم المحبتين »[5] والله أعلم

وعلامة محبة الله أن يحب ما يحبه الله من الأشخاص والأعمال وأن يكره ما يكرهه الله من الأشخاص والأعمال فإذا وجده فهو وجد حلاوة الإيمان واستقرت في قلبه ، أما إذا نقصت هذه الأمور فهو لم يجد حلاوة الإيمان ، وقد يكون مؤمناً ولكنه لم يجد حلاوة الإيمان حتى يوفي هذه الأشياء .

(١) تكميل المحبة « أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

(٢) تفريغ المحبة « أن يحب المرء لا يحبه إلا لله » وتفريغ المحبة مما يخالفها من المقاصد الدنيوية .

(٣) دفع ضدها أي : « يكره أن يعود للكفر » لأنه يضادها فيدفع الكفر والشرك والمعاصي .

(٤) فلو كان أصل الحب لوحده يكفي لكفى المشركين ؛ لأن المشركين يحبون الله ، لكن لم يخلصوا المحبة لله بل أحبوا معه غيره .

(٥) أي : محبة الله ومحبة رسوله ، لأنه يلزم من محبة الله محبة الرسول ، ويلزم من محبة الرسول محبة الله ، فهما متلازمان .

قوله : « كما يكره أن يقذف في النار » أي : يستوي عنده الأمران قوله : وفي رواية « لا يجد » هي عند البخاري في « الأدب المفرد »[١] ولفظه : « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما »[٢] . قوله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فإنما تُنال ولاية الله بذلك[٣] ولن يجد عبد طعم الإيمان ولو كثرت صلاته وصومه حتى يكون

---

(١) « الأدب المفرد » كتاب للبخاري ، وهو غير الصحيح ، ولم يلتزم فيه الصحة مثل الجامع الصحيح .

(٢) هذا يدل على أن للإيمان طعم وحلاوة ، فمن لم يجد هذا الطعم ، وهذه الحلاوة ، فهذا دليل على نقص إيمانه .

(٣) هذا من علامات محبة الله فهو بمعنى الحديث السابق ، فعلامة محبة الله : أن يحب في الله ، ويبغض في الله ، ويوالي في الله ويعادي في الله ﷺ ، فهذا دليل على محبة الله أما إذا تساوت عنده الناس ما يفرق بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، ولا يفرق بين أولياء الله وأعداء الله ، ولا يفرق بين الدين الحق والدين الباطل ، فهذا دليل على أنه لا يحب الله ، وإن ادعى محبته لله فهو كذاب .

فمن قال : إنه لا يبغض اليهود لدينهم ، ولكن يبغضهم لأنهم مغتصبون ، فهذا لا يحب لله ويبغض لله ، وإنما يحب ويبغض للدنيا ، فلو لم يكونوا مغتصبين ما أبغضهم ؛ بل يكونوا إخوانه . ويقول : نحن مؤمنون وهم مؤمنون ، فهل هذا الكلام يقول مسلم فضلاً عن طالب علم ؟! - نسأل الله العافية - هذه أمور غرائب نسمعها اليوم .

وقول : « وإنما تُنال ولاية الله بذلك » : ولاية الله أي : محبة الله ، من أراد أن ينال محبة الله له فليحب في الله ، ويبغض في الله ، ويوالي في الله ، ويعادي في الله تحصل له ولاية الله ، أي : محبة الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة

كذلك[١] وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً[٢] رواه ابن جرير .

قوله : « من أحب في الله » أي : أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك . قوله : « وأبغض في الله »[٣] أي : أبغض من كفر بالله وأشرك به وعصاه لارتكابه ما يسخط الله وإن كان أقرب الناس إليه[٤] ، كما قال تعالى :

[المائدة : ٥٤] هؤلاء هم الذين نالوا ولاية الله ﷺ ، أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويحبون في الله ويبغضون في الله ، وإنما تنال ولاية الله بذلك .

(١) دل على أن طعم الإيمان لا يُنال بكثرة الصلاة والصيام والأعمال ؛ بل ينال بالولاء والبراء ، هكذا تناول ولاية الله ، فتنبهوا يا عباد الله . الولاء لأهل الإيمان ، والبراء من أهل الكفر والطغيان ، أما من كان لا يعادي ولا يوالي في الله حتى ولو كثرت صلاته وصيامه ، وحجه وعمرته وصدقاته ، وعنده كل الناس سواء فهذا لم يعرف الإيمان . فالإيمان ليس أن تعمل فقط ، ولا أن تقتصر على نفسك ، بل الإيمان ولاء وبراء ، لابد أن توالي أهل الإيمان وتعادي أهل الكفر .

(٢) ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يشكو من حالة الناس في وقته ، وهو كان من أحسن العصور ، فيقول : أكثر موالاة الناس من أجل الدنيا ، فمن أعطاهم من ماله أحبوه ، ومن لم يعطهم لا يحبونه ، وهذا في وقته ، فكيف في الأوقات المتأخرة والأمر ازداد واشتد ، « وذلك لا يجدي » : لا ينفع أهله ، فالذي ليس عنده ولاء ولا براء لله وفي الله هذا لا يجدي عليه دينه شيئاً .

(٣) والحب في الله والبغض في الله يتفاوت فمن الناس من يُحب محبة خالصة ليس معها عداوة وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام والصحابة . ومن الناس من يُبغض بغضاً خالصاً وهم الكفار والمشركون . ومن الناس من يجتمع فيه المحبة والبغض وهو المؤمن الفاسق العاصي يُحب لأجل ما فيه من الإيمان ويبغض لأجل ما فيه من المعاصي فيجتمع في حقه حب وبغض .

(٤) فيبغضهم لأنهم أعداء الله ولو كانوا أقرب الناس إليه ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [سورة الممتحنة : ٤] هذه هي ملة إبراهيم ﷺ .

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [سورة المجادلة : ٢٢] .

قوله : « ووالى في الله » بالمحبة والنصرة بحسب القدرة . وقوله : « وعادى في الله » من كان عدو الله ممن أشرك وكفر وظاهر بالمعاصي فتجب عداوته[1] بما يقدر عليه قوله : « وإنما تنال ولاية الله بذلك » أي : توليه لعبده . وَلاية - بفتح الواو - ، وفي الحديث : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله ، والبغض في الله ﷺ » رواه الطبراني[2] قوله : « ولن يجد عبد طعم الإيمان » أي : لا يحصل له ذوق الإيمان وبهجته ولذته وسروره والفرح به وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك ، قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [سورة يونس : ٥٨] قوله : « وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً » يعني أنه إذا ضعف داعي الإيمان أحب الدنيا وأحب لها وآخي لأجلها وهذا هو الغالب على أكثر الخلق محبة دنياه وإيثار ما يهوونه على ما يحبه الله ورسوله ، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً ؛ بل يضر في العاجل والآجل والله المستعان .

---

(١) الله ﷻ أمر بعداوة الكفار عموماً في قوله : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [سورة المجادلة : ٢٢] ، وأمر الله بمعاداة اليهود والنصارى خصوصاً في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥١] .

(٢) فهذه هي أوثق عرى الإيمان : الحب في الله ، والبغض في الله ، من كان عنده هذه العرى فهو متمسك بالعروة الوثقى .

قوله : وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٦] **قال : المودة[1] أي : التي كانت بينهم خانتهم أحوج ما كانوا إليها ،**

---

(١) هي المحبة التي كانت بينهم في الدنيا انقطعت وانقلبت عداوة .

فالذين عبدوا الأصنام والأحجار والأشجار والأولياء والصالحين ؛ بل الذين عبدوا الجن والشياطين في يوم القيامة تنقلب هذه المحبة إلى بغض .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [سورة الأحقاف : ٥ - ٦] وهنا يقول ﷺ : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٦] وتقطعت بهم الأسباب أي : المحبة بينهم في ا لدنيا صارت عداوة ، قال تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الزخرف : ٦٧] .

بينهم خُلَّة في الدنيا وهي أعلى درجات المحبة يوم القيامة ، وتتحول هذه الخلة يوم القيامة إلى عداوة ويقولون : أنتم أضللتمونا وأهلكتمونا ، أنتم من سببتم لنا دخول النار .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة غافر : ٤٧] .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ الآية [سورة سبأ : ٣١ - ٣٣] هكذا حالهم يوم القيامة خصومة وعداوة وبغضاء .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٢٥] .

يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، هذا مآلهم يوم القيامة .

=

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾(1) الآية [سورة العنكبوت : ٢٥] .

هذه المحبة تنقلب عداوة لأنها ليست على دين الله ، ليس لها أساس ، إنما تبقى المحبة التي كانت في الدنيا على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة . ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٧] .

أهل المحبة على الإيمان في الدنيا يكونون إخوة في الآخرة ، وأما الكفار يكونون أعداءً يوم القيامة ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٨ - ٣٩] هذه طريقتهم في جهنم – والعياذ بالله – فكل من أحب على أمر الشرك والكفر تكون عداوة يوم القيامة فعبدة الأصنام وعبدة الأضرحة والقبور ، وإن تصافوا في الدنيا فإنهم في الآخرة يكونوا أعداء ، ويلعن بعضهم بعضاً ويشمت بعضهم ببعض ، ولا يبقى إلا المحبة لله وبالله ﷺ التي على الأساس الصحيح والعقيدة السليمة والولاء والبراء لله ﷺ . يجب التنبه من هذا ؛ لأن الناس الآن تفرقت بهم الأهواء وتشتت بهم المذاهب وصاروا يعادون ويوالون على الحزبيات وعلى الجماعات وعلى المذاهب لا يعادون ولا يوالون على الحق وعلى الصراط المستقيم وعلى اتباع الحق فيجب أن يكون الحب والبغض لله وفي الله ولا يكون الحب للهوى والحزبيات والجماعات ومن وافقك أحببته ومن خالفك أبغضته ، ليس هكذا ، بل الحب يكون لله وفي الله ، أن تحب أهل الإيمان وتبغض أهل النفاق والطغيان ، هذا هو الأصل والأساس وهذا هو المحور الذي تدور عليه المحبة ، لا على الحزبيات والجماعات والمناهج المخالفة لمنهج الرسول ﷺ .

(1) ما عبدوا الأوثان إلا لمحبتها ، ولو كانوا يبغضونها ما عبدوها . هذه المحبة تكون يوم القيامة عداوة . ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٥] .

٣٢ - باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

وَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة : ١٨] .

وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [العنكبوت : ١٠ - ١١] .

عَنْ أَبِي سَعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعاً : « إن من ضعفِ اليقينِ أنْ تُرْضِي النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّـهِ ، وأَنْ تَحْمَدَهُم عَلَى رِزْقِ الله ، وأَنْ تذمهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره » .

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قَالَ : « مَنِ التمس رضا الله بسخط الناس ؛ رضي الله عنه ، وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله ؛ سخط الله عليه ، وأسخط عليه الناس » رواه ابن حبان في « صحيحه » .

٣٢ - باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا

تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾)(١) [سورة آل عمران : ١٧٥] قال العلامة ابن

---

(١) أي : ما جاء في تفسير هذه الآية وسبب نزولها ، مما يدل على أن الخوف نوع من أنواع العبادة يجب أن يكون خالصاً لله ﷻ ، فلا يُخاف معه أحد أو يُخاف غيره ﷻ ، ومناسبة هذا الباب للذي قبله واضحة ؛ لأن الذي قبله في المحبة وهي نوع من أنواع العبادة وكذلك الخوف ، مما يدل على أن العبادة ليست هي المحبة فقط ؛ بل لابد أن يكون معها خوف ورجاء وخشية لله ﷻ . والمحبة والخوف والرجاء والرغبة والرهبة والتوكل كلها عبادات قلبية من أعمال القلوب ، هذا وجه المناسبة ، لكيلا يفهم أحد أن العبادة مقصورة على المحبة كما تقوله الصوفية ، وإنما العبادة محبة وخوف ورجاء وخشية وتوكل ورغبة ورهبة في القلوب وكذلك أعمال الجوارح وأقوال اللسان . والعبادة واسعة ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ : (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة) ، فالأعمال يشمل أعمال الجوارح وأعمال القلوب ، أعمال القلوب : الخوف ، والخشية ، والرجاء ، وأعمال الجوارح مثل : الذبح والنذر ، والصلاة والركوع ، والسجود والجهاد ، وأقوال اللسان مثل : ذكر الله والتسبيح والتهليل والتكبير والنطق بالشهادتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – فالعبادة واسعة المعاني ، كل ما شرعه الله فإنه يكون من العبادة ، وليست قاصرة على المحبة ، كما تقوله الصوفية وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٥] هذه الآية جاءت في سياق الآيات التي ذكرها الله في وقعة أحد ، في السنة الثالثة من الهجرة بعد غزوة بدر ، وذلك أن المشركين أرادوا الثأر من المسلمين مما أصابهم في وقعة بدر ، فجمعوا جيشاً وجاؤوا غازين رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة ، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون ، والتقى الجمعان عند جبل أحد قريباً من المدينة ، ونَظَّم النبي ﷺ المسلمين وأمرهم ألا يفعلوا شيئاً إلا بما يأمرهم به ﷺ ، ودارت المعركة وانتصر المسلمون في أولها وشرعوا يجمعون الغنائم ، وكان النبي ﷺ قد نَظَّم رماة وضعهم على الجبل يحرسون ظهور المسلمين فظنوا أن المعركة إنتهت وأرادوا النزول من الجبل والنبي ﷺ قال : لا تتركوا الجبل سواء انتصرنا أو هُزمنا لكنهم لما رأوا المسلمين يجمعون الغنائم ظنوا أن

=

المعركة انتهت ، وقالوا : ننزل نجمع الغنائم مع إخواننا ، فنزلوا وخالفوا قول الرسول ﷺ : لا تتركوا الجبل ، فلما رأى المشركون الجبل قد فرغ انقضوا على المسلمين من خلفهم دون أن يشعر المسلمون فصار المسلمون بين جموع المشركين أحاطت بهم ، وهذه نتيجة معصية الرسول ﷺ ، كل هذا لأجل مخالفة أمر الرسول ﷺ . انظروا كيف العقوبة على خيار الخلق لما خالفوا أمر الرسول ﷺ ، فانتهت المعركة وأصاب المسلمين القرح الشديد والقتل والجراح وانصرف المشركون ، فلما ولَّوا مدبرين أراد أبو سفيان أن يهدد المسلمين فأرسل رسولاً يقول : سنرجع عليكم ونستأصل شأفتكم . يهددون المسلمين ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ وبلغ المسلمين لم يزدهم ذلك إلا قوة وإيماناً ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣] أمر النبي ﷺ من حضر المعركة أن يخرجوا وفيهم الجراح ، فخرجوا مع رسول الله ﷺ وترصدوا للمشركين في مكان يقال له حمراء الأسد ، فلما علم المشركون بخروج النبي ﷺ وأصحابه أصابهم الرعب ، وقالوا : ما خرجوا إلا وفيهم قوة ، فوقع الرعب في قلوب المشركين فولوا مدبرين : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ . ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤] رجع المسلمين سالمين من أذى الكفار ، وألقى الله الرعب في قلوب الكفار ، ثم قال ﷻ : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ يعني هذا الذي حصل من المشركين من التهديد وأنهم سيرجعون على المسلمين هذا إنما هو من الشيطان يخوف المسلمين بأوليائه ، وهذا ما يسمونه الآن الحرب النفسية ، يريدون أن يرهبوا المسلمين ، ولكن الله ﷻ ثبَّت المسلمين وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، توكلوا على الله ﷻ ، وأنه لن يضرهم أحد إلا بإذن الله ﷻ ، وخرجوا للقاء المشركين ، وما تواروا في البلد ، بل خرجوا إيماناً بالله ورسوله على ما فيهم من الجراح ، وما فيهم من المصيبة ، لكن الإيمان في قلوبهم ، فلما خافوا الله ﷻ توكلوا عليه ولم يؤثر فيهم تهديد المشركين ، فإن الله ﷻ ألقى الرعب في قلوب أولياء الشيطان من المشركين ، فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم

مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٥] هذا محل الشاهد من الآية ، وفيه دليل على أن الخوف عبادة يجب إخلاصها لله ﷻ(*) وقد ذكر العلماء أن الخوف على قسمين : خوف عبادة وخوف طبيعي .

القسم الأول : خوف العبادة ، وهو أن يخاف الإنسان من الأصنام أو من الأوثان أو من الجن والشياطين أو من الموتى والقبور أن تصيبه ، كما يخاف المشركون من أوثانهم وأصنامهم ، والقبوريون يخافون من الأموات أن يصيبوهم في أموالهم ، وأنفسهم ، وأولادهم ، وأرزاقهم ، وهذا خوف عبادة ، هذا شرك أكبر وهذا ما يسمى بخوف العبادة وخوف السر ، فإذا خافوهم تقربوا إليهم . الآن يذبحون لهم وينذرون لهم ويطوفون بقبورهم ويتبركون بأضرحتهم كل هذا من الخوف من القبور يريدون أن يسلموا من أذاهم ويقولون : لو ما تعمل هذا الشيء تُصاب في نفسك وفي بدنك وفي مالك وفي أولادك فيروِّجون على العوام والطغام هذا الشيء فيخافون من هذه المعبودات ، وكذلك إذا كان الإنسان يخاف الله ﷻ ولا يخاف من الأوثان ولا من الأصنام ولا من القبور ، لكنه يخاف من الناس إذا دعا إلى الله أو أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر ، هذا نوع من الشرك ، لكنه شرك أصغر(**) .

والقسم الثاني : الخوف الطبيعي : وهو أن يخاف الإنسان من السَّبُع أو من الثعبان أو من العدو أن يقتله ، هذا لا يدخل في العبادة هذا خوف طبيعي ، فيأخذ الاحتياط والحذر ، وقد ذكر الله ﷻ عن موسى ﷺ أنه خرج منها أي من مصر لما حصل منه قتل النفس ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [سورة القصص: ٢١] هذا خوف طبيعي ، تخاف من السبع ، تخاف من

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن الخوف من السحرة وخشيتهم ، حيث إن البعض يخافون أن يؤذونه أو يسحرونه ، فهل هذا نقص في التوكل أم لا ؟ وما كيفية علاج ذلك ؟ فأجاب : لاشك أن هذا نقص في التوحيد ، ونقص في التوكل ، فيجب على الإنسان أن يخشى الله ، وأن يخاف الله ﷻ ، وأن يتوكل على الله ، ومن توكل على الله كفاه ، ولا يضره أحد إذا تولاه الله ﷻ ، واعتمد على الله ، وتوكل على الله ، وخاف من الله ، وخشي الله ﷻ . أ.هـ .

(**) سئل شيخنا – حفظه الله – عمن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حياءً من الناس ، هل يدخل في الوعيد المقتضى الوقوع في الشرك الأصغر ، ويستوي مع الخائف ؟ فأجاب : إذا تركه حياء أو مجاملة ، وهو يقدر عليه فإنه يدخل في الذم ، ويكون شركاً أصغر ، وأما إذا تركه لأنه لا يقدر عليه ، فهذا معذور أ.هـ .

=

القيم ﷺ : (ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين جنده وأولياءه لئلا يجاهدوهم ، ولا يأمروهم بمعروف ، ولا ينهوهم عن منكر(١) ، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه(٢) ، ونهانا أن نخافهم) ، قال : (والمعنى عند جميع المفسرين : يخوفهم بأوليائه(٣) قال قتادة : يعظمهم في صدوركم ، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان(٤) ،

العدو المترصد لك على الطريق فتأخذ الحذر والاحتياط والسلاح ، هذا أيضاً لا بأس به ، هذا خوف طبيعي ، ولا يدخل في العبادة .

(١) وهذا موجود في كل وقت ، أن شياطين الإنس والجن يعظمون الكفار ويهونون من شأن المسلمين ، ويقولون : إن هؤلاء عندهم صواريخ وعندهم دبابات وعندهم أسلحة فيخوفون المسلمين ، هذا نهج المنافقين : شياطين الإنس والجن . وطريقة دعاة الضلال في كل زمان وفي كل مكان ، يعظمون من شأن الكفار ويخذلون المسلمين ويهونون من شأن المسلمين ، ويقولون : لا تأمروا بالمعروف ولا تنهوا عن المنكر لئلا يتقدكم الكفار . لا تصادروا الآراء والحريات ، ولا تصرحوا بالعقيدة الصحيحة ، ولا تنكروا على المشركين وعلى أهل الزيغ وأهل الضلال ؛ بل ويدعون إلى التقارب بين اليهود والنصارى والمسلمين ، ويدعون إلى التقارب بين المذاهب الإلحادية مع الإسلام ، ويقولون : كل له رأيه ، عليكم بالتعايش السلمي ، وكلمات من هذا المعنى ، يعني يُعطل الجهاد ، ويُعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتُعطل الدعوة إلى الله ﷺ ، ويُعطل بيان الحق وبيان الباطل ، كل هذا منهج دعاة الضلال اليوم .

(٢) نحن إذا دعونا إلى الله وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر نريد الخير للبشرية ، نريد أن نخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] .

(٣) يوجد معنى آخر للآية لكنه ليس مشهوراً ، وهو أن الشيطان يخوف أولياءه : يعني يخوف الذي ينقادون له ، يوقع في قلوبهم الرعب ، ولكن المعنى الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين : أنه يخوف المؤمنين أعداءه ، وليس يخوف أولياءه هو .

(٤) ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [سورة النساء : ٧٦] .

وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم) ، فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان ، وسبب نزول هذه الآية مذكور في التفاسير والسير[١] .

قوله : « وقول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الآيـة »[٢] [سورة التوبة : ١٨] أخبر تعالى أن مساجد

---

(١) كما وضحنا سابقاً أن سببه في غزوة أحد .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [سورة التوبة : ١٧ - ١٨] لما نفى سبحانه عمارة المشركين للمساجد أثبتها للمؤمنين ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ لأن المشركين يشركون بالله ، ويدعون غير الله ، ويصرفون أنواع العبادة لغير الله ، والمساجد بيوت الله لا يجوز أن يمارس فيها الشرك ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [سورة الجن : ١٨] فيجب أن تطهر المساجد من الشرك ومن البدع ومن المحادثات والخرافات ، وليس من حق المشركين أن يقيموا فيها شركياتهم وخرافاتهم وبدعهم ، فالمشركون ليسوا من أهل المساجد ، وإنما أهل المساجد هم أهل الإيمان الذين يعمرونها بالتوحيد فقوله : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ عمرها بالطاعة والتوحيد ، وعمارة المساجد على قسمين : عمارة حسية : بالبناء ، كما قال تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [سورة النور : ٣٦] تعمر العمارة الحسية بما يليق من غير إسراف ومن غير غلو ؛ إنما تُعمر العمارة اللائقة التي تُكِنُّ المسلمين من البرد ومن الحر ، ومن المطر عمارة قوية لكنها لا تزخرف ويسرف في بنائها ، هذه البناية الحسية وهذه لا تكفي ، إنما هي وسيلة والعمارة الحقيقية الطاعة - هذا هو القسم الثاني - فالمساجد إنما تبنى لأجل الطاعة ، لا تبنى لأجل المباهاة والمفاخرة والآثار

=

الله[(١)] لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر ، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم ، وأخلصوا له الخشية دون من سواه ، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان[(٢)] الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع[(٣)] وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة .

والفن المعماري كما يقولون ؛ أما المشرك فإنه لا يعمر مساجد الله ، لا يُمكَّن المشرك من أن يقيم شركياته وبدعه وخرافاته في المساجد ؛ بل يمنع من هذا إنما يعمرها أهل الإيمان ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ البعث والحساب ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ الشاهد في قوله : ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ فحصر الخشية فيه ﷻ ؛ لأن الخشية نوع من أنواع العبادة ، لا يجوز أن يخشى مع الله أحد ، كما أنه لا يجوز أن يخاف مع الله أحد ، والخوف والخشية نوعان من أنواع العبادة ، وجاء في الحديث : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان »[(*)] .

(١) أضافها إلى نفسه تشريف « مساجد الله ، بيوت الله » من أجل التشريف لهذه المساجد .

(٢) المساجد لا تكون عامرة إلا بالإيمان وإن كانت مبنية بالزخرف والقوة ما دام ليس فيها إيمان ولا صلاة ولا ذكر لله ﷻ فإنها لا تكون عامرة ولو كانت قائمة بالطين والمسلح ، إنما تعمر بذكر الله ﷻ ، هذه العمارة الحقيقية ، وأما عمارة الطين فهذه وسيلة وليست غاية .

(٣) مسجد الرسول ﷺ كان من الحجارة وأعمدته من جذوع النخل ، وسقفه من الجريد ، ومع هذا صار أعظم مسجد في الدنيا بعد المسجد الحرام لماذا ؟ لأنه عامر بالإيمان بالله ﷻ والعلم النافع والعمل الصالح وإن كانت عمارته بالجريد وجذوع النخل حتى إن المطر كان ينزل إلى داخل المسجد ، حتى سجد النبي ﷺ على أثر الماء والطين في جبهته ﷺ ، فعمارة المساجد ليست بالزخرفة وقوة البناء بدون ذكر الله وبدون التوحيد وبدون إقامة الصلاة فيها .

(*) أخرجه الترمذي في « سننه » ٥ / ١٤ (٢٦١٧) وقال : هذا حديث غريب حسن ، وسئل شيخنا – حفظه الله – عن مدى صحته فقال : حسن كما قال الترمذي ، وذكره ابن كثير في أول تفسيره ، وقال : إنه حديث حسن ، أ.هـ .

قوله : ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ قال ابن عطية[1] : (يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة ، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية ، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه) . قلت : لأن النفع والضر إنما يكون بمشيئته وإرادته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وقال ابن القيم ﷺ : (والخوف عبودية القلب ، فلا يصلح إلا لله : كالذل والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب) .

قوله : ﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس يقول : إن أولئك هم المهتدون ، وكل عسى في القرآن فهي واجبة[2] .

قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾[3] [سورة العنكبوت : ١٠] قال ابن القيم : (الناس إذا أرسل إليهم

---

(١) عبد الحق بن عطية كتابه التفسير المشهور(*) طبع الآن والحمد لله ، وهو كتاب عظيم وحافل بتفسير القرآن الكريم .

(٢) كل (عسى) من الله فهي واجبة ، مثل قوله سبحانه : ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ [سورة الممتحنة : ٧] وكل ما جاءت (عسى) مع ذكر الله ﷻ فإنها تكون للوجوب .

(٣) ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ لكن إذا جاءه فتنة واختبار تبيَّن صِدْقه من كَذِبِه ؛ لأن الله لا يترك الناس بدون اختبار ، قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٢ - ٣] فقول : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ يقولها المنافق ، ويقولها المؤمن صادق الإيمان ، ما الذي يميز بينهم ؟ الذي يميز المؤمن الصادق والمنافق ، هو الاختبار : إذا جاء الاختبار تبين المؤمن

(*) اسمه : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / لأبي محمد ، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢) ، حققه : عبد السلام عبد الشافي محمد ، ونشرته : دار الكتب العلمية - بيروت ، وطُبع الطبعة الأولى عام ١٤٢٢هـ .

الذي لا يتزحزح عن إيمانه وعقيدته وصبر وثبت على دينه من المنافق الذي إذا جاءته الفتنة كفر بالله ﷻ وخاف من الناس ولم يخف من الله . الفتن والمواقف هي التي تُبيِّن المؤمنين من المنافقين ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ ، ومثال ذلك : ما حصل على عهد النبي ﷺ لما جاء الكفار يوم أحد ، خرج المسلمون ورجع المنافقون بقيادة عبد الله بن أُبيّ ، وتركوا الرسول ﷺ ، ولما جاءت غزوة الأحزاب ورأى المؤمنون الأحزاب : ﴿ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٢٢] أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فقالوا : ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [سورة الأحزاب : ١٢] ، لما جاءت الهزة وجاء الامتحان تبيَّن النفاق وهذا دائماً وأبداً في كل زمان ، إذ جاءت الشدائد والهزات تكلم المنافقون وأظهروا ما في أنفسهم وثبت المؤمنون ، ولا يقولون إلا الحق ولا يقولون إلا ما فيه خير ولا يغير الامتحان مما في قلوبهم ، بل يزيدهم قوة ويزيدهم إيماناً وثباتاً ، هذه سنة الله ﷻ في خلقه دائماً وأبداً إنه عند الشدائد يتميز المؤمن من المنافق ﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ ﴾ [سورة العنكبوت : ١٠] يعني من أجل الله أصابه أذى من الناس ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ أي : ما يناله من أذى الناس كعذاب الله ، سَوَّى بين ما يصيبه من الناس وما يصيبه من الله ﷻ فينقلب على عقبيه، هذا المنافق . أما المؤمن فإنه يثبت على إيمانه ويصبر على عقيدته ويصبر على ما أصابه ، هذه مواقف أهل الإيمان دائماً وأبداً عند الابتلاء والامتحان ، أما المنافق فإنه يُسَوِّي بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فَيفِرُّ من أذى الناس إلى عذاب الآخرة ، فيكون كالذي استجار من الرمضاء بالنار ، كما قال الشاعر :

المُسْتَجِيرُ بِعَمْرٍو عِندَ كُرْبَتِهِ   كالمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بالنَّارِ (*)

هؤلاء فروا من عذاب الدنيا الذي يصيبهم على يد أعداء الله إلى عذاب الله في الآخرة وعذاب الله أشد . أما المؤمنون فهم يفرون من عذاب الله إلى عذاب الدنيا ، يصبرون على عذاب الدنيا وعلى ما ينالهم ؛ لأن هذا أخف وأسهل فلا يكترثون لما يصيبهم وما ينالهم من أذى الناس ؛ بل يصمدون ويجاهدون ويدافعون ، فمن انتصر في

(*) انظر : ديوان الأخطل ص ٢٢٥ .

الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم آمنا ، وإما أن لا يقول ذلك ، بل يستمر على السيئات والكفر ، فمن قال آمنا امتحنه ربه وابتلاه ، والفتنة : الابتلاء والاختبار ، ومن لم يقل : آمنا فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه ، فلابد من حصول الألم لكل نفس آمنت ، أو رغبت عن الإيمان ، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ، ثم يصير له الألم الدائم[1] والإنسان لابد أن يعيش مع الناس ، والناس لهم تصورات

الدنيا هذه نعمة من الله ، ومن أصابه ما أصابه فهو في سبيل الله ، هو على خير سواء انتصر أو لم ينتصر ، إن انتصر هذه نعمة عاجلة ، وإن لم ينتصر وأصيب فإنه يفوز برضا الله وبالعاقبة الحميدة ، أما ذاك فهو خسر - والعياذ بالله - الذي جعل فتنة الناس كعذاب الله هذا خسر ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [سورة الحج : ١١] ولكن هذا يحتاج إلى إيمان ، يحتاج إلى ثبات ، يحتاج إلى تدبر للقرآن ، ودراسة لسير الأنبياء والمرسلين وما جرى عليهم ، دراسة لسير الصالحين والمؤمنين وما يجري عليهم ، وكيف تكون مواقفهم حتى يقتدي بهم ، وحتى يقتنع أن هذا ليس شيئاً جرى عليه هو فقط ؛ بل جرى على من هو خير منه الأنبياء والمرسلين والمؤمنين والصحابة وأتباع الرسل ، كما جرى على إبراهيم ﷺ خليل الله ، ألقي في النار من أجل دينه ومن أجل عقيدته ودعوته ، وجرى على خير الخلق عليهم الصلاة والسلام فأنت تقتدي وتصبر وتتسلى بما حصل لمن قبلك ، فالشاهد من الآية ﴿ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ يعني يخشى الناس أشد من خشيته لله ﷻ فيترك الإيمان ويترك الدين ويوافق الكفار فيما يريدون وما يطلبون ، حتى يسلم من أذاهم ، أما المؤمن فلا يساوم على دينه أبداً مهما أصابه ؛ بل يعلم أن هذا ابتلاء وامتحان وجرى على خير خلق الله فيثبت على دينه ولو قُتل ، ولو حُرّق يثبت على هذا .

(١) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٢] ، ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٣] ما داموا على الكفر ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [سورة

=

وإرادات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه ، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم - إلى أن قال : فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت أم المؤمنين لمعاوية : « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم وصبر على عداوتهم ، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما كانت للرسل وأتباعهم ثم أخبر تعالى عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة ، وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له هي أذاهم ، ونيلهم إياه بالمكروه ، وهو الألم الذي لابد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم ، جعل ذلك في فراره منه ، وتركه السبب الذي يناله به كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالإيمان ، فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان ، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب ، وهذا من ضعف بصيرته ، فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله ، فجعل ألم فتنة عذاب الناس في الفرار منه بمنزلة عذاب الله ، وغبن كل الغبن إذ استجار من الرمضاء بالنار ، وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد ، وإذا نصر الله جنده وأولياءه ، قال : إني كنت معكم[(١)] والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق) أ.هـ .

قوله : عن أبي سعيد مرفوعاً : « إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس

التوبة : ٥٥] ليس العبرة بالغنى والثروة والتقدم الصناعي ، العبرة بالإيمان ، إذا كانت هذه الأمور معها إيمان فهي نعمة من الله ﷻ ، أما إذا لم يكن معها إيمان فهي استدراج من الله ﷻ ، وستنقلب ناراً تتأجج عما قريب .

(١) ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة العنكبوت : ١٠] فإذا صار المسلمون في رخاء وفي نعمة دخل معهم ، وقال : أنا واحد منكم ، وإذا أصاب المسلمين شدة تخلى عنهم ، هذه طريقة المنافق .

بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا ترده كراهية كاره »(١) هذا الحديث

(١) الإيمان : قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، والنبي ﷺ يقول في هذا الحديث : « إن من ضعف اليقين » واليقين هو أعلى درجات الإيمان ، الإيمان ثم علم اليقين ثم عين اليقين ، الإيمان يتفاضل أعلاه عين اليقين وينقص حتى يصل إلى أضعف الإيمان ، وهذا الحديث يقول فيه ﷺ : « إن من ضعف اليقين » أي من ضعف الإيمان « أن ترضي الناس بسخط الله » : هذا محل الشاهد من الحديث يعني تقدم الناس على رضا الله ﷻ فهذا من ضعف اليقين ، ومن قوة اليقين أن ترضي الله ﷻ بسخط الناس فإذا تعارض رضا الله مع رضا الناس فإن الواجب أن تقدم رضا الله ولو سخط الناس ، أما المنافق فبالعكس إذا تعارض رضى الله مع رضا الناس فإنه يقدم رضا الناس على رضا الله ﷻ ويترك ما يرضي الله ﷻ ، « وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله » الله ﷻ هو الذي يعطي ويمنع ، فإذا أعطاك شيئاً فاحمده سبحانه ولا تحمد الناس ؛ لأن الرزق من الله ﷻ ، لكن إن جرى على يد أحد وتسبب فيه أحد فأنت تشكره على أنه سبب ، لا على أن الرزق منه ، وإنما على ما بذل من السبب وساعدك ، وأما الرزق فهو من الله فأصل الحمد لله ﷻ لكنك تشكر المحسن على قدر إحسانه ، كما قال ﷺ : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله »(*) وقال ﷺ : « من صنع إليكم معروفاً فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أن قد كافأتموه »(**) فالمحسن يشكر على قدر إحسانه ، لكن الشكر الكامل والشكر التام لله ﷻ ؛ لأن الفضل منه ﷻ ، أما الذي يشكر الناس على أن الفضل منهم والرزق منهم فهذا مشرك بالله ﷻ ، إذا ما حصلت على مطلوبك لا تذم الناس ؛ لأن الله ما كتب لك هذا الشيء فلو كتب لك هذا الشيء لحصل فلا تلُم الناس وتذمهم وتسبهم ، بل قل : هذا قدر الله ﷻ ، ولا تدري لعل حبس هذا الشيء الذي أنت ترغبه خير لك ، لا تدري ، فأنت ترضى بقضاء الله وقدره ، هذا سبيل أهل الإيمان ، ثم قال ﷺ : « إن رزق الله لا يجره حرص حريص

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ١٨ / ٢٣٣ (١١٧٠٣) وقاله الأرنؤوط : حديث صحيح لغيره .

(**) أخرجه أبو داود في « سننه » ٢ / ٣١٠ (١٦٧٢) ، وصححه الألباني .

=

رواه أبو نعيم في « الحلية » والبيهقي وأعلَّه بمحمد بن مروان السدي ، وقال ضعيف[١] ، وتمام هذا الحديث : « وأنه بحكمته جعل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » .

قوله : « إن من ضعف اليقين » الضعف يضم ويحرك[٢] ضد القوة : قال ابن مسعود : « اليقين الإيمان كله ، والصبر نصف الإيمان » .

قوله : « أن ترضي الناس بسخط الله » أي : أن تؤثر رضاهم على ما يرضي الله ، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من إيثار رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه الذي يتصرف في القلوب . وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك ؛ لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله ، وتقرب إليه بما يسخط الله ، ولا يسلم من

ولا يرده كراهية كاره » كما قال ﷺ لعبد الله بن عباس : « واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك »(*) فأنت تعتقد أن القضاء والقدر بيد الله وأن الأمور كلها بيد الله وأن المنع والإعطاء بيد الله فتعلق قلبك بالله ﷻ دائماً وأبداً وهذا هو الرغبة إلى الله ﷻ ، ترغب إلى الله وترجوه ولا تعلق قلبك بالناس ، فإن أحسنوا إليك مدحتهم ، مع أنه ليس منهم ، وإنما هو من الله ﷻ ، وإن لم يحصل لك مطلوبك تذمهم ، مع إنه ليس هم الذين منعوه الذي منعه هو الله ﷻ ، فالإنسان يعتدل في أموره .

(١) الحديث ضعيف ؛ لأن في سنده راويين ضعيفين ولكن معناه صحيح ، الآية التي قبله تؤيده ، والشيخ ﷺ عادته أنه يذكر الحديث الضعيف إذا شهد له دليل صحيح ، فيسوقه في الباب بعد أن يسوق الدليل الصحيح لا للاعتماد عليه ، وإنما للاعتضاد فقط .

(٢) ضُعف - بالضم - وضَعف - بالفتح - .

(*) أخرجه الترمذي في « سننه » ٤ / ٥٧٥ (٢٥١٦) ، وصححه الألباني .

هذا إلا من سلمه الله تعالى »[١] .

قوله : « وأن تحمدهم على رزق الله » أي : على ما وصل إليك من أيديهم بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه ، والله تعالى هو الذي كتبه لك وسيَّره لك ، فإذا أراد أمراً قيَّض له أسباباً ، ولا ينافي هذا حديث : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » لكون الله ساقه على أيديهم فتدعو لهم أو تكافئهم لحديث : « من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافئتموه »[٢] قوله : « وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله » لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم فلو قدر لك ساقه القدر إليك ، فمن علم أن الله وحده هو المتفرد بالعطاء والمنع بمشيئته وإرادته ، وأنه الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب ، ومن حيث لا يحتسب لم يسأل حاجته إلا من الله وحده ، ولعل ما منع من ذلك يكون خيراً له ، ويحسن الظن بالله سبحانه ولا يرغب إلا إليه ولا يخاف إلا من ذنبه ، وقد قرر هذا المعنى في الحديث بقوله : « إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا ترده كراهية كاره » .

وقال شيخ الإسلام : (اليقين يتضمن القيام بأمر الله تعالى وما وعد الله به أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره ، فإذا أرضيتهم بسخط الله ولم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم ،

(١) وهذا يخلُّ بالتوحيد .

(٢) فليس المعنى أنك تجحد معروف المحسن ، وإنما تشكره على قدر إحسانه ، لكن لا تنسى الله ﷻ وأنه هو الذي قدر لك هذا وخلقه لك وساقه لك .

وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة ، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم ، وإرضاؤهم بما يسخطه ، إنما يكون خوفاً منهم ورجاءً لهم وذلك من ضعف اليقين ، وأما إذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك ، فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر لك كان ذلك من ضعف يقينك ، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك ، ولكن مَنْ حَمَدَه الله ورسوله منهم فهو المحمود ، ومن ذمَّه الله ورسوله منهم فهو المذموم) .

ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص[1] وأن الأعمال من مسمى الإيمان[2] . قوله : وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال : « من التمس رضى الله بسخط الناس ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله ، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس » رواه ابن حبان في « صحيحه »[3] قوله : « من التمس » أي : طلب ، قال شيخ الإسلام :

---

(١) لأنه قال : « من ضعف اليقين » فدل على أن الإيمان يكون ضعيفاً ، ومفهومه أن الإيمان يكون قوياً .

(٢) وأن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان ، وليست شرطاً للإيمان كما تقوله المرجئة ، وإنما هي داخلة في حقيقة الإيمان ، وأن إيماناً بدون عمل ليس إيماناً ، ولا يصح أن يسمى إيماناً .

(٣) هذا عن رسول الله ﷺ ، وذلك أن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب إليها يطلب منها النصيحة فكتبت له هذا الحديث ، قالت : وعليكم السلام ورحمة الله » ثم روت الحديث ، قال رسول الله ﷺ : « من التمس رضا الله بسخط الناس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضى عنه الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس »(*) ما أحسن هذه

(*) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » كما في « الإحسان » ١ / ٥١٠ (٢٧٦) وصححه الألباني في « صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان » ٢ / ٧٤ (١٥٤٢) .

(وكتبت عائشة إلى معاوية ويروى أنها رفعته[(١)] : « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » هذا لفظ المرفوع ، ولفظ الموقوف : « من أرضى الله بسخط

النصيحة لولاة الأمور ! ولكل مسلم أن يسير على هذا المنهج الذي رسمه رسول الله ﷺ بكلمتين ؛ لأن رسول الله ﷺ أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب ، رسم المنهج الذي يسير عليه الولاة والرعاة وينجحون في حياتهم وفي دنياهم وآخرتهم « من التمس رضا الله بسخط الناس » أنت ترضي الله ﷻ ولو سخط عليك الناس ، لكن أعلم أنهم وإن سخطوا عليك فسيرضون في المستقبل ، إذا خفت الله ﷻ ولم تخفهم والتمست رضا الله ولو سخطوا عليك فإنهم في العاقبة والمستقبل سيرضون عنك وهذا شيء مجرب ، فالمهم هو رضا الله وسخط الله ﷻ ، اجعل نصب عينيك رضا الله وسخط الله ، افعل ما يرضي الله وتجنب ما يسخط الله ﷻ ، والناس يرضون عنك ولو في المستقبل ، وإن كان لك طريق واضح ومنهج سليم مثل هذا ، الناس لا يعترضون عليك أبداً ، لأنك تسير على منهج سليم ، وإن قُدِّر أن أحداً اعترض عليك لهوى أو لنفاق أو لشر فيه فهذا لا عبرة به ، لكن عقلاء الناس وأهل الرأي ما ينقمون عليك هذا الشيء ، إلا إذا صرت مذبذباً ، فالناس ينتقدونك ؛ لأنه ليس لك طريق بيِّن ، فإذا وافقتهم على هواهم رضوا في الظاهر ، لكنهم ينتقصونك ويسخرون منك في الباطن ، ويقولون : هذا ليس له مبدأ ، وليس له طريق يمشي عليه ، هذا إمعة ... إلخ ، فاجعل منهجك هذا الحديث الذي روته أم المؤمنين « من التمس رضا الله بسخط الناس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضى عنه الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس » لأن قلوب العباد بيد الله ﷻ ، فإذا أرضيت الله أرضى عنك الناس ، وإذا أسخطت الله أسخط عليك الناس ، ولهذا قال في الآية التي في أول الباب : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فهذه هي علامة الإيمان : أن الإنسان يخاف الله ولا يخاف في الله لومة لائم ، وعلامة النفاق : أن الإنسان يخاف الناس ويقدم رضاهم على رضى الله ﷻ ، فهذا الباب باب عظيم ، فيه إخلاص الخوف من الله ، وإخلاص الخشية من الله ﷻ والتماس رضى الله وعدم التماس رضى الناس بسخط الله ﷻ .

(١) يعني إلى الرسول ﷺ .

الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذاماً » وهذا من أعظم الفقه في الدين ، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه ، وكان عبده الصالح ، والله يتولى الصالحين ، والله كاف عبده ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً كالظلم الذي يعض على يديه ، وأما كون حامده ينقلب ذاماً فهذا يقع كثيرا ويحصل في العاقبة فإن العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداء عند أهوائهم) انتهى .

٣٣ - بَابُ قَوْلِ الله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢].

وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤] .

وقوله : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وعن ابن عباس ؛ قال : ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣]؛ قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٧٣] » رواه البخاري ، والنسائي .

٣٣ - بَابُ قَوْلِ الله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1] [سورة

(١) قال الشيخ ﷺ : باب قول الله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : تفسير هذه الآية وما جاء في معناها من الأمر بالتوكل على الله .

والتوكل نوع من أنواع العبادة ، بل هو من أعظم أنواع العبادة ، وهذه الأبواب ؛ باب قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، وباب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٥] وهذا الباب ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ ﴾ [سورة المائدة : ٢٣] من أنواع العبادة القلبية من أعمال القلوب ، ولاشك أن من خاف من غير الله ، ومن أحب غير الله ، أو توكل على غير الله ، فإنه يكون مشركاً ؛ لأنه أشرك بالله في عبادته ، أشرك معه شريكاً في المحبة أو الخوف أو التوكل ، وهذا ينافي التوحيد .

والتوكل معناه : التفويض والاعتماد ، توكل على الله أي : فوض أموره إليه واعتمد عليه .

وجاء ذكر التوكل كثيراً في القرآن ، تارة يكون مأموراً به وحده ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ ﴾ ، وتارة يكون مقروناً بالعبادة ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [سورة هود : ١٢٣] والآيات في هذا كثيرة

=

من الأمر بالتوكل والثناء على المتوكلين ، وهذه الآية التي ترجم بها المصنف ، وهي بعض آية من سورة المائدة في قصة موسى ﷺ مع بني إسرائيل لما أمرهم موسى أن يدخلوا الأرض المقدسة خرج بهم من مصر إلى فلسطين ليخلص المسجد الأقصى من سيطرة المشركين عليه ، وأمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة ، وهي أرض فلسطين ، وكان في فلسطين أناس من المشركين لهم قوة وبأس شديد ؛ لذلك تلكأ بنو إسرائيل ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [سورة المائدة : ٢١] أي : المطهرة ، لأنها أرض الأنبياء ، وفيها المسجد الأقصى الذي هو أحد المساجد الثلاثة ﴿ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ؛ لأن ولاية المساجد لاسيما المساجد الثلاثة يجب أن تكون للمؤمنين وللمسلمين ، ولا يجوز أن يتولى عليها الكفار ، يجب على المسلمين أن يخلصوها من قبضة الكفار ولا يجوز للمسلمين أن يتركوا الكفار يسيطرون على بيوت الله ﷺ ، ولاسيما الأرض المقدسة ، أو المسجد الحرام ، أو مسجد رسول الله ﷺ ، أو غيرها من المساجد ، ولكن هذه المساجد الثلاثة يجب تخليصها من الكفار والمشركين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [سورة التوبة : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٤] .

وهنا يقول : ﴿ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾ أي : الله كتب الأرض المقدسة للمؤمنين من بني إسرائيل وغيرهم ، لما كان بنو إسرائيل على الإيمان والتوحيد كانوا هم أهل بيت المقدس ، ولكن لما كفروا بالله وانحرفوا وأشركوا بالله فإنهم ليس لهم ولاية على المسجد الأقصى ولا يحتجون بهذه الآية ﴿ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ كتبها الله لهم لما كانوا مؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٥] من كل أمة ومن كل جيل ، أما الكفار والمشركون فلا يرثون ، فليست هي وراثة من الآباء أو الأجداد ؛ إنما هي من إرث الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وورثة الأنبياء هم المؤمنون في كل زمان ومكان ، فولاية بيت المقدس أو غيره من المساجد إنما هي للمؤمنين سواء كانوا من بني إسرائيل أو غيرهم ، ولهذا خرج موسى ﷺ ليخلص بيت المقدس من الكفار ولا فرق بين أن يكون الكفار من اليهود أو من النصارى أو من غيرهم ، لا يجوز أن يُتركوا يستولون على بيت المقدس .وموسى ﷺ أراد أن ينفذ شرع الله في أن المسجد الأقصى للمسلمين ، وليس للعرب ولا اليهود ولا النصارى ولا لغيرهم ، إنما هو

=

للمسلمين ، ولا خصوصية لبني إسرائيل ، لأنهم لما كفروا بالله فإنهم لا ولاية لهم على المسجد الأقصى ، ولهذا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بقيادة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خلَّصوا بيت المقدس من يد الكفار ومن يد النصارى ، وصار في قبضة المسلمين ، ثم لما استولى عليه الصليبيون من النصارى خلصه صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وأعاده للمسلمين ، ثم في وقتنا الحاضر استولى عليه اليهود ولابد من تخليصه من قبضتهم وطردهم منه ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي : بإيمانكم بصفة الإيمان ؛ لأنهم هم المؤمنون في وقتهم وهم المسلمون في وقتهم ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ أمرهم بالمضي والعزم وعدم التردد ، ولا يجوز للمسلمين إذا كان عندهم قوة أن يتراجعوا أو أن يتنازلوا عن بلادهم وعن مساجدهم .

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٢] يعني أناس أقوياء وعندهم بطش – يُقال إنهم العماليق – ، هذا من هلعهم وخوفهم وعدم توكلهم على الله ﷻ ، خافوا الناس ولم يخافوا الله ﷻ ، وعذرهم البارد الذي واجهوا به كليم الله موسى عليه السلام يدل على خبث اليهود ، وعدم حيائهم من الله ومن أنبيائه .

﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ﴾ يريدون أن يخرجوا منها دون قتال وهذا عذر أقطع من الأول ، وهذا من الضعف والخور والهوان أو من ضرب المستحيل ؛ لأنهم يقولون لموسى : نحن لسنا مقاتلين ، ولكن إن حصل هذا بدون قتال نحن ندخل ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ هؤلاء من صُلَّاحهم ، ومن المؤمنين الصادقين نصحوهم ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ اعزموا واهجموا عليهم ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ إذا هجمتم عليهم أصابهم الرعب ، أما إنهم يخرجون من دون أن تدخلوا عليهم هذا مستحيل .

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ ﴾ : هذا هو محل الشاهد ، فالذي أوقع فيهم الرعب والخوف هو عدم توكلهم على الله ، ولذلك أمرهم بالتوكل على الله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [سورة الطلاق : ٣] ولو أنهم توكلوا على الله ، وأطاعوا نبيهم ، وهجموا على الكفار لنصرهم الله ، ثم زادوا على ما قالوه ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ

=

المائدة : ٢٣]) . قال أبو السعادات يقال : (توكل بالأمر إذا ضمن القيام به) ، وأراد المصنف بهذه الترجمة بالآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله[1] ؛ لأنه من أجمع أنواع العبادة الباطنة[2] .

إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٤] هل هناك مقالة أفظع من هذه المقالة – والعياذ بالله – فموسى ﷺ دعا ربه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٥] ، فعاقبهم الله ﷻ بالتيه قال : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٦] فأصابهم التيه لا يدرون أين يذهبون في البر ، يتيهون في الأرض أربعين سنة لا يأوون إلى بلد ولا يدرون أين يذهبون ، ولكن مع هذا لَطَفَ الله بهم ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، ولما استسقى موسى وطلب لهم الماء أمره الله أن يضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، فمع عتوهم وتمردهم الله ﷻ لم يقطع عنهم رزقهم فصاروا في التيه أربعين سنة ، ومات موسى ﷺ في التيه ودفن هناك ﷺ ، ثم مات هارون ﷺ ، ثم بعد أربعين سنة ظهر فيهم قائد محنك يقال له : يوشع بن نون فقادهم ودخلوا بيت المقدس وفتحوه ، وطردوا منه المشركين ، واستولوا عليه بقيادة يوشع بن نون وهو فتى موسى ﷺ .

الحاصل إنهم لما توكلوا على الله وتأدبوا ، وذهب عنهم الترف والنعومة ، وعاشوا في الصحراء وقويت أجسامهم حينئذ قادهم هذا الرجل الصالح القوي ، وفتح الله لهم وطردوا عدوهم واستولوا على بيت المقدس ، والشاهد من هذا قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ ﴾ قابلوا هذا الرعب وهذا الخوف من عدوكم بالتوكل على الله ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

وفي قوله : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ ﴾ قدم الجار والمجرور ليفيد الحصر ، أي : لا تتوكلوا على غيره ، وعلى الله لا على غيره فتوكلوا ، أي : فوضوا أموركم إليه واعتمدوا عليه .

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ دل أن التوكل شرط للإيمان ، فلا يصح الإيمان إلا بالتوكل ، فهذا يدل على عظمة التوكل ، وأنه شرط في الإيمان ؛ لأن (إن) شرطية ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

(١) فريضة وعبادة يجب إخلاصه لله ﷻ ولا يجوز التوكل على غير الله .

(٢) « الباطنة » يعني : التي في القلب ؛ لأن العبادات تكون على القلب وتكون على الجوارح =

فإن تقديم المعمول يفيد الحصر(١) ، فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة(٢) إلا بكمال التوكل على الله(٣) كما في هذه الآية . قال الإمام أحمد : (التوكل عمل القلب)(٤) . قال ابن القيم في الآية المترجم بها : (فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان(٥) ، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه)(٦) قال شيخ الإسلام : (وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه(٧) فإنه شرك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [سورة الحج : ٣١](٨) والتوكل قسمان :

وتكون على اللسان ، العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة . هذا تعريف شيخ الإسلام ﷺ وهو تعريف جامع مانع لأنواع العبادة الظاهرة على اللسان والجوارح ، والباطنة في القلب .

(١) تقديم المعمول وهو الجار والمجرور ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ على العامل يفيد الحصر ، أي حصر التوكل على الله دون غيره .

(٢) بأنواعه الثلاثة : توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات لا يحصل هذا إلا بالتوكل .

(٣) كمال التوحيد بكمال التوكل ، أما أصل التوكل فلابد منه وإذا فقد أصل التوكل فليس هناك توحيد .

(٤) التوكل من عمل القلب ، ليس من عمل اللسان ولا من عمل الجوارح ، وإنما هو شيء في القلب .

(٥) ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ « إن كنتم » شرطية .

(٦) على الأصل : إذا انتفى أصل التوكل انتفى أصل الإيمان .

(٧) ما رجا أحد مخلوقا أو توكل على مخلوق إلا خاب ظنه ، وذلك كما قال ﷺ : « ومن تعلق شيئاً وكل إليه »(*) .

(٨) ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : سقط من علو ، شبّه التوحيد بالعلو

(*) أخرجه النسائي في « سننه » ٧ / ١١٢ (٤٠٧٩) ، وضعفه الألباني .

=

أحدهما : التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ، كالتوكل على الأموات والغائبين ونحوهم من الطواغيت فهذا شرك أكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه[١] وأما التوكل على الأحياء الحاضرين والسلطان ونحوهم فيما أقدرهم الله عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك فهو شرك أصغر[٢] ، والمباح أن يوكل شخصاً بالنيابة عنه في التصرف فيما له التصرف فيه من أمور دنياه[٣] كالبيع والشراء والإجارة والطلاق والعتاق وغير ذلك[٤] فهذا جائز بالإجماع ، لكن لا يقول : توكلت عليه[٥] بل يقول : وكلته فإنه

والارتفاع والسمو ، وشبه الشرك بالسقوط من العلو ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ ﴾ أي : سقط ﴿ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : من العلو ، ثم هو بين أمرين : إما أن تقطّعه الطير بمخالبها وتمزقه قبل أن يصل إلى الأرض ، وإما أن يصل إلى الأرض لكن يقع في مكان بعيد يحمله الهواء ويقذفه في مكان بعيد سحيق ، هذا المشرك – والعياذ بالله – هذا تشبيه المشرك ، أنه هذا مآله وهذا مصيره .

(١) شرك أكبر ؛ لأنه صرف العبادة إلى غير الله فمن توكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله هذا شرك أكبر كالذين يتوكلون على الأموات وعلى الأضرحة وعلى الأولياء والصالحين أو على الأنبياء والرسل فيما لا يقدر عليه إلا الله من شفاء المرضى وجلب الأرزاق وإنزال المطر وغير ذلك مما يفعله عباد القبور اليوم .

(٢) لا يجوز التوكل على أحد حتى لو كان يقدر أن يعطيك مالا ، يقدر أن يدفع عنك عدوك ، يقدر أن يحميك ، فاجعل التوكل على الله جل وعلا ، ولا مانع أنك تطلب من هذا المخلوق أن ينفعك فيما يقدر عليه . هذا من الأسباب ، واتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل ، بل لابد من الأمرين ، التوكل على الله مع اتخاذ الأسباب .

(٣) هذا باب الوكالة معروف عند المحدثين والفقهاء ، ويوردون فيه الأدلة .

(٤) هذا من عقود الإرفاق ، وهي بذل النفع للموكل ومساعدته ، هذا جائز ؛ بل هو مستحسن لأنه من التعاون .

(٥) لا تقل : توكلت عليك يا فلان ، وإنما تقول : وكلتك لأن التوكل عبادة لا تكون إلا لله ، أما التوكيل فهو تفويض ، وهذا جائز .

لو وكله فلابد أن يتوكل في ذلك على الله سبحانه)[1] .

قوله : « وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة الأنفال : ٢][2] » . قال ابن عباس في الآية : « المنافقون لا يدخل

---

(١) لابد إذا وكَّل وكيلاً أن يتوكل على الله ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [سورة يوسف : ٦٦] أن توكل من يتصرف عنك مع التوكل على الله في أن تحصيل المطلوب لا يقدر عليه إلا الله ، فلا يقدر عليه الوكيل ، لأن الله هو الذي يقدر على تحصيل المطلوب .

(٢) هذه في سورة الأنفال قال الله ﷻ : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ [سورة الأنفال : ١] وهي المغانم ، لمن تكون ؟ ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ الحكم فيها لله ولرسوله ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أمرهم الله بالتقوى بفعل أوامره وترك نواهيه والإصلاح بين الناس إذا حصل نزاع بين المؤمنين فإنه يجب على المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين ، ولا يتركوهم في نزاعهم ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ هذا الخوف ، وهو نوع من أنواع العبادة كما سبق ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : خافت من الله ، إذا وعظوا وذكروا بالله وخوفوا بالله خافوا ، وهذه صفة المؤمنين ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ ﴾ أي : وعظوا به وذكروا وخوفوا به وجلت قلوبهم ، أما المنافق فإنه لا يخاف ولو وعظته ولو خوفته ولو ذكَّرته ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ . سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ . وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى . ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [سورة الأعلى : ٩ - ١٢] ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٥] أما غير المؤمنين فلا تنفعهم الذكرى . ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ إذا تلي عليهم القرآن زادهم إيماناً ، فدل على أن الإيمان يزيد وينقص ، لا كما تقول المرجئة : إن الإيمان شيء واحد في القلب لا يزيد ولا ينقص ، فالإيمان عند أهل السنة : قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، فهذا دليل الزيادة ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ أي : قرئ عليهم القرآن ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ هذا محل الشاهد، وفيها الحصر ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ما قال : ويتوكلون على ربهم ، بل قدم المعمول وهو الجار والمجرور ليفيد الحصر ، فعلى ربهم لا على غيره ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي : يفوضون أمورهم إليه ، وهذا محل الشاهد من الآية الكريمة أن

=

التوكل نوع من أنواع العبادة ، ويجب إفراد الله تعالى به ، وألا يتوكل على غيره ، والتوكل ذكر الشارح كما - سيأتي - أنه ينقسم إلى قسمين :

١ - القسم الأول : توكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، هذا شرك أكبر ، كالذي يتوكل على الأموات ، ويتوكل على المخلوقين فيما لا يقدرون عليه من شفاء المرضى وجلب الرزق ودفع الضرر ، فمن توكل على مخلوق في أمر لا يقدر عليه إلا الله ﷻ هذا شرك أكبر ، كالذين يتوكلون على القبور والأضرحة أن تدفع عنهم الشر ، أو أن تجلب لهم الخير ويعتمدون عليها ، يقول قائلهم : يا فلان - يعني صاحب القبر - « أنا في حسبك » ، « يا رسول الله أنا في حسبك » ، هذا شرك أكبر - والعياذ بالله - لأنه توكل على غير الله وصرف العبادة لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله .

٢ - القسم الثاني : أن يتوكل على العباد فيما يقدرون عليه مثل : أن يتوكل على ولي الأمر أو على تاجر من التجار أن يعطيه شيئاً مما يقدر عليه ، فهذا شرك أصغر .

وأما أن يُوكِّل من ينوب عنه في التصرفات ، فهذا توكيل وليس توكلاً ، ولا يقال للمُفوَّض (متوكل عليه) وإنما يقال (وكيل) ولا تقل : توكلت عليك وإنما تقول : وكلتك ، أنت وكيلي ، النبي ﷺ وكَّل من يشتري له ، ووكَّل من يذبح عنه الهدي ، ووكَّل عماله في قبض الزكوات ، وفي الدعوة إلى الله ، وفي أمور وكلهم بالقيام بها ، فالتوكيل جائز ولا حرج فيه لأن الإنسان لا يستطيع أن يزاول كل أعماله ، قد يكون مريضاً أو عاجزاً أو بعيداً عن الشيء فيوكل من ينوب منابه . هذا من المصالح ولا محظور فيه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ هذا من باب الحصر ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ هذا من صفاتهم ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ هذه ثلاث صفات ، أعلاها : التوكل على الله ﷻ وقال : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ يفيد الحصر لا على غيره ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ هذه صفة رابعة ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ هذه صفة خامسة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ .

وهاتان الآيتان فيهما دليل على أن الإيمان قول وعمل لأن هذه أعمال بعضها أعمال قلوب وبعضها أعمال جوارح ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ هذا عمل قلب ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ هذا عمل قلب ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ هذا عمل قلب ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ هذا عمل جوارح ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ هذا عمل جوارح ، الإيمان إذا يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح .

في قلوبهم من ذكر الله عند أداء فرائضه[١] . ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلون إذا غابوا[٢] ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأدوا فرائضه » . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم[٣] . وقال السدي في قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ هو الرجل يريد أن يظلم ، أو قال : يهم بمعصية فيقال له : اتق الله فيوجل قلبه ، رواه ابن أبي شيبة وابن جرير[٤] .

قوله : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ ﴾ استدل الصحابة والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه[٥] ، قوله : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي : يعتمدون عليه ،

---

(١) المنافقون يصلون ويزكون ويصومون ويجاهدون هذا في الظاهر من أجل تحصيل مصالحهم ، يتظاهرون بالإسلام ، لكن قلوبهم كافرة ليس فيها يقين وهم لا يعملون الأعمال هذه إيمانا بالله ورغبة فيما عند الله ، وإنما يعملونها ليتوصلوا بها إلى مطامعهم الدنيوية لتُحقَن دماؤهم ، وتَسْلَم أموالهم ، ويعيشوا مع المؤمنين وليس في قلوبهم توكل على الله .

(٢) يصلون إذا كانوا مع الناس ، لكنهم إذا غاب الواحد منهم وإذا انفرد الواحد منهم لا يصلون ﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٤] .

(٣) هذا أثر عظيم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يبين فيه الفرق بين المؤمن وبين المنافق .

(٤) علامة المؤمن إنه إذا همَّ بمعصية وذُكِّر بالله ونصح أنه يخاف من الله ﷻ فيترك المعصية خوفاً من الله ﷻ ، وأما المنافق فإنه لا يزيده ذلك إلا كما قال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٦] .

(٥) هذا من تعريف الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وهذه الآية من أدلتهم ﴿ وَإِذَا
=

ويفوضون إليه أمورهم ، فلا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، وهو من أعظم الأسباب في حصول المطالب الدنيوية والأخروية(١) ، وفي الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان تستلزم حصول أعمال الإيمان الواجبة والمستحبة(٢) .

قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(٣) [سورة

تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ .

(١) وليس معنى ذلك أنهم يعطلون الأسباب النافعة ؛ بل يأخذون بالأسباب ، فيجمعون بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب ؛ بل الذي يترك الأسباب ويقول : أنا متوكل على الله هذا عاجز ، عجاز ، مذموم ، والذي يأخذ بالأسباب ولا يتوكل على الله ، هذا مشرك ولهذا يقول العلماء : « الاعتماد على الأسباب شرك وترك الأسباب قدح في الشرع » تنقص للشرع فالمؤمن يجمع بين الأمرين : التوكل على الله والأخذ بالأسباب النافعة ، والنبي ﷺ لما أراد أن يخرج إلى أحد ظاهر بين درعين من الحديد ، هذا سبب من الأسباب ، سبب للوقاية مع أنه نبي الله ورسول الله ، أفضل الخلق ومع ذلك أخذ بالأسباب .

(٢) ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ هذه ثلاثة بعضها في القلب وبعضها ظاهر على الجوارح .

(٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ هذه في آخر سورة الأنفال، والحسب : معناه الكافي ، أي : الله كافيك ، ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ إذا كان النبي وهو أفضل الخلق حسبُه الله ، أي : يتوكل على الله ﷻ ، وهو لا يقدر على شيء إلا ما أعطاه الله ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٨] فإذا كان هذا النبي الذي هو أفضل الخلق ، يقول الله له : ﴿ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ أي : توكل عليه ، ويقول في الآية الأخرى : ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ ﴾ [سورة هود : ١٢٣] ، فإذا كان النبي مأموراً بالتوكل على الله فغيره من باب أولى ﴿ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ الواو عاطفة و﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ معطوف على ضمير المخاطب حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين ، أي : الله يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين فالمؤمنون أيضاً لا يتوكلون إلا على الله ﷻ ،

=

الأنفال : ٦٤] قال ابن القيم : (أي : الله وحده كافيك وكافي أتباع فلا تحتاجون معه إلى أحد) ، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية[١] .

قوله : « وقول الله تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٢] [سورة الطلاق : ٣] قال ابن القيم وغيره : (أي : كافيه ، ومن كان الله كافيه وواقيه ،

والله وكيلهم وكافيهم وحسبهم ، ولا يجوز عطف ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ على لفظ الجلالة ، ويكون الرسول يتوكل على الله وعلى المؤمنين ، هذا غلط ، فالعطف إنما هو على ضمير المخاطب وهو الكاف في محل جر بالإضافة أي : حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين ، هذا محل الشاهد ، أن الله ﷻ هو الذي يُتوكل عليه . يتوكل عليه الرسول ﷺ ، ويتوكل عليه المؤمنون ، ولا يتوكلون على أحد غيره . فدل على عظمة التوكل وأنه نوع عظيم من أنواع العبادة ، والنبي ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »[*] الطير تخرج في النهار ورزقها على الله « تغدو خماصاً » يعني جائعة وترجع « بطاناً » : يعني شبعة ، فلو أن العباد توكلوا على الله لرزقهم كما يرزق الطير .

(١) يعني العطف ، عطف (ومن اتبعك) على ضمير المخاطب وهو الكاف هذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ومن الخطأ عطف (ومن اتبعك) على لفظ الجلالة لأنه يكون معناه حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين فيكون المؤمنون مع الله يكفون الرسول ﷺ وهذا غلط .

(٢) هذه الآية في سورة الطلاق ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ أي : كافيه ، وهذا من باب الجزاء ، فمن توكل على الله كفاه الله جزاءً له ، ومن توكل على غيره وكله الله إلى غيره فيكون خاسراً ومتوكلاً على ضعيف ، أما من توكل على الله فإن الله هو الذي يتولى أمره ويتولى شأنه فهو حسبه أي : كافيه ، فهذا فيه فضل التوكل وثمرة التوكل ، ثمرته : أن الله يكون حسب من توكل عليه ، أي : أن الله يكفيه أموره وما يهمه .

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ١ / ٣٣٢ (٢٠٥) وقال الأرنؤوط : إسناده قوي .

فلا مطمع فيه لعدو[١] ولا يضره إلا أذى لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش[٢] ، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً . قال بعض السلف[٣] : جعل الله لكل عمل جزاءً من نفسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته فقال : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ أي : كافيه[٤] فلم يقل : فله كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال ؛ بل جعل الله سبحانه نفسه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل الله له مخرجاً وكفاه ونصره) ، انتهى .

---

(١) من توكل على الله كفاه عدوه وكفاه ما يحذر ، كفاه من الشرور ؛ لأن الله قادر على كل شيء ، نواصي العباد بيده ﷻ ، ولهذا يقول هود ﷺ لما هدده قومه بشر الأصنام ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ [سورة هود : ٥٤ - ٥٥] شخص واحد تحدى أمة جبارة ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ في الحال لا تتأخروا ، تحداهم ، ما السبب في هذا ؟ ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة هود : ٥٦] فكفاه الله شرهم ، بسبب توكله على الله ﷻ .

(٢) أشياء عادية من عادتها أنها تضر ، كالبرد والحر والجوع والعطش .

(٣) يعني يكيد له أحد ، أو يستطيع أحد من الناس أن يضره وهو متوكل على الله ، هذا لا يكون أبداً ، لكن بشرط أن يكون متوكلاً على الله حقيقة .

(٤) كل عمل له جزاء من جنسه كما قال ﷺ : « الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »(*) فجعل الجزاء من جنس العمل ، وجعل جزاء التوكل أن الله يكفي من توكل عليه .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٠٧٤ (٢٦٩٩) .

قوله : عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : (« حسبنا الله ونعم الوكيل »[(١)] قالها

---

(١) (حسبنا الله ونعم الوكيل) هذه كلمة عظيمة ، (حسبنا الله) أي : كافينا دون غيره ، توكلنا عليه ، نحن في حسبه وفي كفايته ﷻ ، يعني فوضوا أمورهم إليه ، (ونعم الوكيل) : نعم الوكيل الله ﷻ ؛ لأنهم توكلوا على قادر ، وعلى رحيم ، وعلى غني ، وعلى كريم ، فهو يكفيهم ﷻ (نعم الوكيل) « نعم » : هذه كلمة مدح والمخصوص بالمدح مقدَّر ، (ونعم الوكيل) : الله جل وعلا ، هذه الكلمة العظيمة قالها إبراهيم ﷺ حينما ألقي في النار ، كما ذكر الله ﷻ عنه ، أنه أنكر على قومه عبادة الأصنام ودعاهم إلى عبادة الله ، فلم يمتثلوا وتمردوا فلما لم يقبلوا الدعوة فإنه ﷺ كسَّر أصنامهم غيرة لله ﷻ ، وليبيِّن لهم أن هذه الأصنام لا تدفع عن نفسها ، لو كانت آلهة أو كانت تقدر على شيء لدفعت عن نفسها ، فبيَّن لهم بالبرهان الواضح أنها لا تصلح للعبادة لو كانت تقدر على شيء لدافعت عن نفسها ، فكيف تدفع عنهم ! فغضبوا لما كسَّر أصنامهم ، وقالوا : ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء : ٦٨] هذه طريقة الطواغيت من أول الزمان إلى آخره ، أنهم إذا أفحمتهم الحجة ولم يستطيعوا ردها لجؤوا إلى القوة ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ وبزعمهم أنهم سيتمكنون من تحريقه ، لكن لم يتمكنوا ، لماذا ؟ لأن إبراهيم متوكل على الله سبحانه ، فقاموا وجمعوا حطباً عظيماً وأوقدوا فيه النار العظيمة التي ارتفع لهبها في الجو ، حتى إن الطير إذا مرت في الجو سقطت في النار من قوة لهبها ثم أحضروا منجنيقاً وهو آلة يقذفون بها الشيء إلى مكان بعيد مثل المدفعة الآن ، وجاؤوا بإبراهيم فوضعوه في المنجنيق ليقذفوه في النار فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فلما قذفوه في النار قال الله تعالى : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الأنبياء : ٦٩] فأصبحت روضة خضراء برداً وسلاماً ، لم يقل برداً فقط لئلا يضره البرد ؛ بل قال : ﴿وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ هذه نتيجة التوكل على الله ﷻ إبراهيم ما معه قوة وما معه شيء يقاوم هذه الأمة الجبارة العاتية ، وهذا النمرود الملك الجبار ما عنده شيء يقاومهم إلا التوكل على الله ﷻ (حسبنا الله ونعم الوكيل) أما من يقول من الصوفية : إن جبريل عرض له وقال له : ادع الله أن يخلصك ، فقال : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، هذا كذب على خليل الله ، هذا معناه إن الدعاء لا ينفع عند الصوفية ، فالصوفية يرون أن الدعاء لا ينفع وهذا القول من مذهبهم ، بل الدعاء أمره عظيم ، الدعاء عند الشدة والدعاء عند الكرب هذه سنة الأنبياء =

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فهم لا يتركون الدعاء يدعون الله في الرخاء والشدة دائماً وأبداً ، لأنه أعظم أنواع العبادة ، فهذا القول موضوع ومكذوب على إبراهيم ﷺ ، وضعه الصوفية الذين لا يرون أن الدعاء له فائدة (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم فماذا كانت النتيجة ؟ قال الله للنار : ﴿ يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أمرها الله ﷻ فانقادت لأمر الله ﷻ وصارت برداً وسلاماً ونجاه الله منهم ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ نجاه الله منهم نتيجة أنه كان متوكلاً على الله ، ولا يكفي أنه متوكل على الله بقلبه ، بل لابد أن ينطق ، ولذلك قال ﷺ : (حسبنا الله ونعم الوكيل) وقالها محمد ﷺ حينما قالوا له : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٣] ، هذا بعد وقعة أحد ، ولما حصل على المسلمين ما حصل فيها من القرح والابتلاء والامتحان بسبب أنهم خالفوا أمر النبي ﷺ في ترتيب المجاهدين عاقبهم الله ﷻ وأدار الدائرة عليهم ، فقُتل منهم من قُتل وانصرف المشركون راجعين إلى مكة ، ومعهم الأحزاب من القبائل الذين تألبوا على رسول الله ﷺ ، فمر بالمشركين ركب وقالوا لهم : أين تذهبون ؟ قالوا : إلى المدينة ، قالوا : بلغوا محمداً وأصحابه أننا سنرجع إليهم ونستأصلهم عن آخرهم ، فجاء الركب وبلغوا الرسول ﷺ ، فما كان منه ، هو ومن معه إلا أن قالوا : (حسبنا الله ونعم الوكيل) يعني ما يهمنا تهديدهم ؛ لأننا متوكلون على الله ﷻ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ثم أمر ﷺ أصحابه الذين حضروا وقعة أحد خاصة أن يخرجوا فخرجوا وفيهم الجراح ، ولم يخرج معهم غيرهم ممن لم يحضر الغزوة خرجوا ونزلوا في مكان يترقبون العدو ، فلما علم العدو بخروجهم أصابهم الرعب وقال : ما خرجوا إلا وفيهم قوة ، فهربوا إلى مكة ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٤ - ١٧٥] هذه عبرة وعظة عظيمة وفيها أن التوكل على الله حق التوكل له ثمار عظيمة في الدنيا والآخرة ، من توكل على الله كفاه (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) لما توكل رسول الله وأصحابه على الله دفع عنهم كيد عدوهم وألقي الرعب في قلوب أعدائهم فولوا خاسئين ورجع المسلمون منتصرين ومأجورين لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، هذه نتيجة التوكل على الله وعدم الانخذال ، قارنوا بين هذا وقول بني إسرائيل : ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ﴾ [سورة المائدة : ٢٢] ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ

إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾) [سورة آل عمران : ١٧٣] رواه البخاري ، قوله : « حسبنا الله » تقدم معناه .

قوله : (ونعم الوكيل) أي : نعم من توكل عليه المتوكلون ، ومخصوص « نعم » محذوف تقديره : نعم الوكيل الله .

قوله : قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ . قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٦٨ - ٦٩] .

قوله : وقالها محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧١] وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد ، فمر بهم ركب من عبد القيس ، فقال أبو سفيان : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال : هل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وأصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان(١) فقال : « حسبنا الله ونعم الوكيل » وفي الحديث : « إذا وقعتم في الأمر العظيم ، فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل »(٢) .

فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٤] قارنوا بين هؤلاء وهؤلاء أولئك لم يتوكلوا على الله فخذلهم الله ، وهؤلاء توكلوا على الله فنصرهم وأعزهم وأوقع الرعب في قلوب أعدائهم ، هذه ثمرة التوكل على الله ﷻ .

(١) حمراء الأسد : اسم موقع قريب من المدينة .

(٢) هذه مخلِّصة ، إذا وقعت في أمر عظيم من الشدة ومن الكرب فقل هذه الكلمة : « حسبنا الله ونعم الوكيل » مثل ما قالها الخليلان في أعظم شدة وأضيق حال فأنجاهما الله ﷻ .

٣٤ - باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٩] .

وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر : ٥٦] .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ ؟ فَقَالَ : « الشِّرْكُ بِالله ، وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ الله ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله » .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، قَالَ : « أَكْبَرُ الكَبَائِرِ : الإِشْرَاكُ بِالله ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله ، وَالقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله ، وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ الله » . رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ .

٣٤ - باب قول الله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٩٩] .

وقوله: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾(1) [سورة الحجر : ٥٦].

---

(١) قال رحمه الله : باب قول الله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ هذا الباب في الخوف والرجاء وهما نوعان من أنواع العبادة ، ولابد من الجمع بينهما ، فلا يكون الإنسان خائفاً فقط حتى يقنط من رحمة الله وييأس من روح الله ولا يكون راجياً فقط حتى يأمن من مكر الله ومن عذاب الله ؛ بل لابد أن يكون خائفاً راجياً ، وقد جاء الخوف في كثير من الآيات وهي ما تسمى آيات الوعيد ، وجاء ذكر الرجاء في كثير من الآيات وهي ما تسمى آيات الوعد فالخوارج والمعتزلة أخذوا بآيات الوعيد ، وكَفّروا الناس بالكبائر التي دون الشرك وخلّدوهم في النار ، وهؤلاء يقال لهم الوعيدية ؛ لأنهم أخذوا نصوص الوعيد وتركوا نصوص الوعد ، والمرجئة على النقيض منهم أخذوا بنصوص الوعد وتركوا نصوص الوعيد ، فقالوا : لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وتساهلوا في أمر المعاصي والمخالفات ، وقالوا : ما دام الإنسان مؤمناً بقلبه ولسانه فالمعاصي لا تضره ، وهؤلاء هم المرجئة ؛ لأنهم أخرجوا الأعمال عن مسمى الإيمان

=

وأخذوا بطرف من النصوص وهو نصوص الوعد وتركوا الطرف الثاني وهو نصوص الوعيد وهذا ضلال ، والأول ضلال ، والحق هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهو الجمع بين نصوص الوعد ونصوص الوعيد ؛ لأنها كلها من عند الله ﷻ فيقولون : المعاصي تضر ، لا كما تقوله المرجئة أنها لا تضر ، ولكنها لا تخرج من الإسلام أو من الإيمان كما تقوله الخوارج والمعتزلة ، بل هي تنقِّص الإيمان أو تزيل الإيمان بالكلية بحسب نوعية هذه المعاصي ، المعاصي ليست على حد سواء لكن على كل حال ما دامت أنها دون الشرك فإنها لا تخرج من الإيمان ، بل هي تنقِّص الإيمان نقصاً كثيراً أو قليلاً بحسبها ، لا كما تقوله المرجئة من أن الإيمان كامل ولا ينقص بهذه المعاصي والسيئات ، فكلا الطرفين ضال عن الحق ، ولهذا قال : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هذا طريق المرجئة وقال : ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ هذا طريق الخوارج لأن عندهم القنوط من رحمة الله ، فمن زاد في الخوف حتى قنط من رحمة الله ويئس من رحمة الله فهو من الخوارج ، ومن تساهل في الذنوب والمعاصي حتى أمِنَ من مكر الله فإنه من المرجئة ، وأما من جمع بين هذا وهذا ، جمع بين الخوف والرجاء فهذا سبيل أهل السنة والجماعة ، وفيه الجمع بين النصوص وتفسير النصوص بعضها ببعض ، وتخصيص بعضها ببعض ، فإن كلام الله يفسر بعضه بعضاً وكلام الرسول ﷺ يفسر بعضه بعضاً ، فلابد من الأخذ به كله ، كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [سورة آل عمران : ٧] يأخذون بعض النصوص ويتركون البعض الآخر الذي يفسرها ويوضحها ، يأخذون النصوص المجملة والنصوص المطلقة ويتركون النصوص المفصلة والمبينة والمفسرة ، هذا طريق أهل الزيغ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ يأخذون الكلام المجمل والمتشابه الذي يحتاج إلى بيان وإلى تفصيل من النصوص الأخرى لكن يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ؛ وخصومهم الطرف الثاني أخذوا بالمتشابه من نصوص الوعد وتركوا نصوص الوعيد التي تفسرها وتوضحها ، فلما قطعوا الأدلة بعضها عن بعض ضلوا وصار فيهم زيغ وانحراف - والعياذ بالله - ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ هؤلاء هم أهل الوسط أهل السنة والجماعة ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ المحكم والمتشابه ، فيردون المتشابه إلى المحكم ، فيفسره ويبينه ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ هذا طريق أهل السنة

=

والجماعة : الرسوخ في العلم وهو الفهم عن الله وعن رسوله والفقه في دين الله ، وليس الرسوخ في العلم هو حفظ النصوص الكثيرة من غير فهم لها ، هذا ليس رسوخاً في العلم ، وإن كثر الحفظ بدون فقه ودون فهم مراد الله ومراد رسوله فهذا ليس علماً هذا جهل ، فالراسخون في العلم هم الذين فقهوا في دين الله وفسروا كلام الله بعضه ببعض ، وفسروا كلام الرسول بعضه ببعض ، كما قال تعالى : ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ . رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ يعني ربنا لا تزغ قلوبنا كما زاغ الذين اتبعوا ما تشابه منه ، فهذا باب عظيم إذا تأملته ، وكيف أن الشيخ ﷺ جمع بين الآيات والنصوص المتقابلة لأجل أن يفسر بعضها بعضاً كما هي طريقة أهل السنة ، لم يذكر نصوص الوعيد فقط ، ولم يذكر نصوص الوعد فقط ؛ بل جمع بين هذا وهذا ، وهذا من فقهه ﷺ ودقة فهمه وعلمه ، فلابد أن يكون هناك خوف من الله وخوف من العقوبة ، لكنه لا يصل إلى حد القنوط من ﷻ ، واليأس من روح الله ولابد أن يكون هناك خوف من الله وخوف من العقوبة ، لكنه لا يصل إلى حد القنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله ولابد أن يكون هناك رجاء لرحمة الله ، لكنه لا يصل إلى حد الأمن من مكر الله ﷻ ، هذا أصل من أصول أهل السنة والجماعة ، وهو أصل عظيم تضمنه هذا الباب الذي عقده الشيخ ﷺ ، فقوله : ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ هذا إنكار من الله ﷻ ، هذا استفهام إنكار ﴿أَفَأَمِنُواْ﴾ لما ذكر الأمم الكافرة من قوم نوح وعاد وثمود في سورة الأعراف وقوم شعيب وقوم لوط وما أحل الله بهم من الهلاك والعقوبات قال : ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أن الذي حملهم على ما وقعوا فيه من الكفر هو أنهم أمنوا العقوبة ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ والخسار هنا خسارة الكفر ، خسارة الجنة والسعادة في الدنيا والآخرة ، ومكر الله سبحانه ، المكر من الله ﷻ هو : إيصال العقوبة إلى من يستحقها من حيث لا يشعر ، وذلك أن الله يستدرجهم بالنعم ثم يأخذهم على غِرّة هذا هو المكر وهو من الله محمود ؛ لأنه عدل منه ﷻ ، ولا يفعله إلا بمن يستحقه ، أما المكر من المخلوق فهو مذموم ؛ لأنه إيصال للشر والعقوبة إلى من لا يستحقها ، فهذا فرق ما بين المكر من الله والمكر من المخلوق ، وسياق الآيات أن الله ﷻ قال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ . ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ [سورة الأعراف : ٩٤] أولاً : أخذهم بالعقوبات والشدة لعلهم يرجعون ويتوبون فلما لم يُجْدِ بهم ذلك

استدرجهم بالنعم ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ السيئة التي هي الجدب والأمراض وضيق الأرزاق ، والحسنة التي هي الخصب ونزول الأمطار ووفرة الأرزاق ، فلما استدرجهم الله بالنعم لم يشكروه عليها ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ إنا نستحقها وليس فضلاً من الله ﷻ : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ ﴾ يعني كثروا ونموا وقويت شوكتهم ولم يعتبروا بما قد حصل لهم في الأول من النكبات وما حصل لهم في الحال الثاني من الرخاء بل أرجعوا هذا إلى سُنَّة الكون قالوا : ﴿ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ يعني هذا شيء عادي ولم ينسبوه إلى الله ﷻ ، وإنما نسبوا هذا إلى جاري العادة وأن هذا شيء طبيعي ، إنه تارة يأتي وتارة يأتي رخاء ، فلم يعتبروا عند الشدة ولم يشكروا عند الرخاء ، بل إنهم أرجعوا هذا إلى عادة السنين وعادة الدهر ، ولم يرجعوا هذا إلى حكمة الله وإرادة الله ﷻ وأنه يختبر عباده ويبتلي عباده ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ هذه نهايتهم وهذا مكر الله بهم واستدراجه لهم إلى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ . أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ . أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ . أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ هذا الذي ساقه المصنف هنا وهو بعد سياق آيات قبله لكن هذا هو النتيجة ، أن الذي حملهم على هذا : الإصرار على الشرك والكفر وعدم التوبة ، والأمن من مكر الله فلم يخافوا من الله ﷻ ولم يخافوا من عقوبته ولم يشكروا عند نعمته بل ردوا هذا إلى جاري العادة في هذه الدنيا وأنه مرة كذا ومرة كذا ، وهذا أمر لا يجوز للمؤمن أن يتكلم به ، بل يقول : هذا الذي يجري هو بحكمة الله وابتلاء وامتحان من الله سبحانه يبتلي بالنعم ويبتلي بالنقم من أجل أن يرجع العباد إلى ربهم ﷻ ، والإنسان لا يأمن إذا درت عليه النعم أن تكون استدراجاً ، فالنعم إذا كانت مع المعاصي فهي استدراج وإذا كانت النعم مع الطاعة فهي إعانة من الله على الطاعة وإكرام من الله ﷻ ، فإذا أردت أن تعرف هل هذه النعم كرامة من الله أو هي استدراج ، فانظر حال المنعم عليهم إن كانوا على معصية فهذا استدراج ولا يأمنوا أن يؤخذوا في أي لحظة وأن تحل بهم العقوبة في أي لحظة فلا تغرهم هذه النعم ، وإن كانت هذه النعم مع طاعة الله فهي فضل من الله لإعانتهم على طاعة الله وإكرام من الله لهم ، هذا هو الضابط في كون النعمة استدراج أو كونها كرامة من الله ﷻ ، حالة المنعَم عليه ،

=

ثم ذكر عن قصة إبراهيم ﷺ لما جاءته الملائكة في صور آدميين يريدون أن يهلكوا اللوطية الذين كفروا بالله وفعلوا اللواط في الذكران من العالمين ، ارتكبوا جريمة لم يرتكبها من قبلهم ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ﴾ [سورة الأعراف : ٨٠ - ٨١] ، فلما ارتكبوا هذه الفعلة الشنعاء أرسل الله إليهم نبيه لوطاً ﷺ وهو ابن أخي إبراهيم ينهاهم عن هذه الفاحشة الشنعاء ، لكنهم سخروا منه واستهزؤوا به ، فكانت العاقبة أن الله أمر جبريل ﷺ فحمل قُراهم إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم وأتبعهم بحجارة من سجيل ، كانت هذه عاقبتهم ، الحاصل أن هؤلاء الملائكة جاؤوا أضيافاً على إبراهيم ﷺ في صورة رجال من أحسن الرجال وكان من عادة إبراهيم ﷺ إكرام الضيف فبادر بإعداد الطعام لهم : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [سورة الذاريات : ٢٦] وفي آية أخرى : ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [سورة هود : ٦٦] يعني مشوي ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ على عادته مع الأضياف ، لكن الملائكة لا يأكلون فلم يمدوا أيديهم إليه فخاف إبراهيم أنهم أعداء ، ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ [سورة الذاريات : ٢٨] أمنوه وقالوا : لا تخف ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٥٨ - ٦٠] ، وفي هذه - سورة الحجر - أنهم جاءوا وقالوا سلاماً : ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أي : خائفون ؛ لأن الذي لا يأكل هذا دليل على أنه معادي ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ سورة الحجر : ٥٣] وهو إسحاق ﷺ : ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ لأنه بلغ ثمانين سنة لم يولد له ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ هذا بعيد أنه يولد له وهو شيخ كبير وامرأته كبيرة ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ . قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [سورة الحجر : ٥٤ - ٥٦] فهو ﷺ قال : ﴿وَمَن يَقْنَطُ ﴾ هذا من باب النفي ، لا أحد يقنط من رحمة الله مهما بلغ به الحال والشدة إلا القوم الضالون الخارجون عن الحق ، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ هذا هو محل الشاهد أنه لا يقنط من رحمة الله وإن اشتد به الألم وإن اشتد به الحال والضيق ، فإن هذا لا يزيده إلا إعظام الرغبة بالله ﷻ وتوقع الفرج ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [سورة الشرح : ٥ ، ٦] فكل ما اشتد الكرب قرب الفرج ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما يزيدهم شدة الكرب إلا قوة رجاء بالله مثل إبراهيم في هذه الحالة مع

=

كبر سنه قال : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ ويعقوب ﷺ لما فقد أبناءه الثلاثة قال : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ . وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ . قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ . قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٨٣ - ٨٧] اشتد به الحال وعميت عيناه من الحزن وهو كبير السن ، ومع هذا لم ييأس من رحمة الله ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وماذا كان ؟ كان أن الله ﷻ فرج له وأرجع إليه أولاده وقر أعينه بهم واجتمع بهم على أحسن حال ، لكن بعد الصبر والابتلاء والامتحان ، وإبراهيم ﷺ ألقي في النار ومع هذا لم ييأس من رحمة الله ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٦٩] . محمد ﷺ حينما آذاه المشركون هو وأصحابه واضطروهم إلى الهجرة من مكة وهي أحب البلاد إليهم ، وخرج مختبئاً ﷺ هو وأبو بكر وجلس في غار ثور ، وطلبهم العدو حتى وقفوا عليهم ، وقال أبو بكر : يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لأبصرنا قال : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما »(*) . فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أن الله أعمى أبصارهم وصرفهم عنه وأمن من شرهم ، ما ضعف يقينه بربه ﷻ بل قوي يقينه بربه ورجاؤه بربه ولم يقنط مع أنه اشتد به الحال ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [سورة التوبة : ٤٠] هذه نتيجة الصبر : حسن الرجاء بالله ﷻ وعدم القنوط من رحمة الله ، وهذه مواقف الأنبياء ، وقصة أيوب وقصة ذي النون ، قصص الأنبياء كثيرة أنهم كل ما اشتد بهم الحال عظم الرجاء عندهم ولا يقنطون من رحمة الله ﷻ ، وهكذا أهل الإيمان من أتباع الرسل لا يقنطون من رحمة الله ﷻ ، ولا يحملهم الخوف الشديد على القنوط من رحمة الله ، فالآية الأولى في الأمن من مكر الله

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٤ / ١٧١٢ (٤٣٨٦) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ١٨٥٤ (٢٣٨١) .

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٩٩] أراد المصنِّف ﷺ أن الأمن من مكر الله يدل على ضعف الإيمان(١)، فلا يبالي صاحبه بما ترك من الواجبات وفعل من المحرمات(٢)، لعدم خوفه من الله بما فعل أو ترك(٣)، وهذا من أعظم الذنوب وأجمعها للعيوب. ومعنى الآية أن الله ﷻ لما ذكر حال أهل القرى(٤) المكذبين للرسل، بيّن أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من

والثانية في القنوط من رحمة الله وهما على طرفي نقيض، والمسلمون المؤمنون يجمعون بين الخوف والرجاء، فيخافون لكن لا يقنطون، ويرجون لكن لا يأمنون من مكر الله ﷻ، هذا هو الاعتدال، ولذلك يجب على المؤمن أن يكون دائماً بين الخوف والرجاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠] رغباً: هذا هو الرجاء، ورهباً: هذا هو الخوف، فهم يجمعون بين الخوف والرجاء ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [سورة الإسراء: ٥٧] جمعوا بين الأمرين وهذا سبيل أهل الإيمان، الجمع بين الخوف والرجاء إلا أن بعض العلماء يقول: إنه في حالة الصحة يغلب جانب الخوف لئلا يقع في المعاصي؛ لأنه إذا غلب جانب الخوف تجنب المعاصي، وفي حالة المرض يغلب جانب الرجاء، لأنه في حالة المرض لا يستطيع العمل فيغلب جانب الرجاء بالله وحسن الظن بالله ﷻ.

(١) الحقيقة أن هذا الباب عظيم إذا تأملته أنه من أعظم الأبواب في هذا الكتاب.

(٢) وهذا طريق المرجئة.

(٣) يقول: أنا مؤمن وما دمت إني مؤمن لا يضرني شيء من المعاصي ولا من ترك الأعمال.

(٤) القرى: البلدان، سميت قرى من القر وهو الجمع، لأنها تجمع الناس، ومنها قرية النمل لأنها تجمع النمل، فالقرى هي البلدان التي تجمع الناس ولو كانت مدناً كبيرة فهي قرية. أما اصطلاح الناس اليوم والتفريق بين المدينة والقرية هذا اصطلاح حادث، أما في اللغة: القرية هي المدينة، والمدينة هي القرية ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ [سورة محمد: ١٣] ما هي قريته التي أخرجته؟ مكة، سماها الله قرية مع أنها أعظم بلاد الدنيا وأعظم مدن الدنيا.

مكر الله وعدم الخوف منه[١] ، وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنعم فاستبعدوا أن يكون ذلك مكراً[٢] ، قال الحسن : « من وُسِّع عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له »[٣] وقال قتادة : « بغت القوم أمر الله وما أخذ قوم قط إلا عند سلوتهم وغرتهم[٤] فلا تغتروا بالله » . وقال إسماعيل بن رافع : « من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة » رواه ابن أبي حاتم[٥] قوله : ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ

(١) تكذيبهم للرسل وبقاؤهم على الكفر ؛ لأنهم أمنوا من مكر الله ، أمنوا من العقوبة ، وأمنوا من الهلاك وظنوا أن ما هم عليه من رغد العيش وزهرة الدنيا أن هذا لا يعقبه عقوبة ، بل منهم من يقول : هذا دليل على رضا الله عنا مثل ما قال قارون وغيره : (قال هذا لي) يعني هذا أستحقه وإكرام من الله لي ، ولا يظن أن هذا استدراج وأنه ابتلاء وامتحان ، بل يظن أن الله أعطاه هذا لاستحقاقه له .

(٢) هذه حالتنا اليوم وما نحن فيه من النعم من كل وجه ، نحن على نعم عظيمة ما كان يحلم بها أحد من قبلنا من جميع الوجوه فهذا مما يشدد الخوف أن يكون هذا استدراج من الله ﷻ لأنك إذا سبرت أحوالنا مع الطاعات وأحوالنا مع المخالفات وجدت أمراً مخيفاً من المعاصي والسيئات وترك الواجبات فهذا يكون استدراجاً من الله ﷻ ، ولا نأمن العقوبة ليلاً أو نهاراً ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ . أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ . أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأعراف: ٩٧ - ٩٩] فعلينا أن نخاف من هذا الاستدراج وهذه النعم أن يأتينا العذاب بغتة .

(٣) يُمكَر به : يعني يستدرجه ، والإنسان ينظر في حاله ، إن كان على الطاعة فهذه نعمة من الله ﷻ يحمد الله عليها ، وإن كان على معصية فليحذر أن يكون استدراجاً وعقوبة .

(٤) عند هذه الآية ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٩٩] قال قتادة : بغت القوم أمر الله .

(٥) إن من الأمن من مكر الله أنه لا يتوب ، يقول : الله غفور رحيم ، إذا قيل له : صل قال : الله غفور رحيم والدين ليس بصلاة فقط إذا قيل له : لا تحلق لحيتك قال : الدين ليس =

إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ القنوط : استبعاد الفرج واليأس منه ، وهو يقابل الأمن من مكر الله[1] ، وكلا الأمرين ذنب عظيم ، لما في القنوط من سوء الظن بالله .

قوله : ﴿ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ أي : عن الهدي[2] قوله : وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ « سئل عن الكبائر فقال : الشرك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله »[3] هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم

بشَعَر ، وغير هذا من الكلام الذي فيه سخرية في دين الله وفي أوامر الله ﷻ .

(١) يقابله : يعني على طرفي نقيض ، الأمن من مكر الله يقابله القنوط من رحمة الله ، فلا تكن على هذا ولا على هذا ، وإنما التوسط ، ترجو رحمة الله وتخاف من عقاب الله .

(٢) الضالون : يعني عن الهدى ، الضال : هو الضائع الذي يسير على غير طريق .

(٣) هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل ﷺ عن الكبائر من الذنوب ، وهذا الحديث من الأدلة على أن الذنوب منها كبائر ومنها صغائر ، والكبائر كما عرَّفها العلماء : ما رُتِّب عليه حدٌّ في الدنيا ، كحد السرقة وحد القذف ، وحد الزنا وحد المسكر ، أو وعيد في الآخرة بالغضب أو باللعنة أو بالنار أو بالبراءة منه ، كقوله ﷺ : « من غشنا فليس منا »[*] تبرؤ الرسول منه يدل على أن الغش كبيرة ، أو نفي الإيمان « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق وهو مؤمن »[**] نفي الإيمان يدل على أن هذه الجرائم كبائر . هذا هو ضابط الكبيرة ، أما الصغيرة فهي ما نهي عنه ولم يرتب عليه حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة ، وإنما نهي عنه ، والنهي يقتضي التحريم ويقتضي إنه معصية فيدل على إنه من صغائر الذنوب ، ولا يتساهل بصغائر الذنوب ؛ لأنها بريد إلى الكبائر ، لكنها أخف من الكبائر وهي تُكفَّر بالأعمال الصالحة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ١ / ٩٩ (١٠١) .

(**) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٢ / ٨٧٥ (٢٣٤٣) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٧٦ (٥٧) .

ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [سورة النساء : ٣١] وقال تعالى : ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ [سورة النساء : ٣١] ، وقال ﷺ : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر »(*) فالصغائر تُكفَّر بالأعمال الصالحة ، هذا هو الفرق بين الصغائر والكبائر ، والكبائر تتفاوت بعضها أعظم من بعض ، كما في حديث ابن مسعود ، أن النبي ﷺ سئل : « أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك »(**) فالشرك هو أكبر الكبائر ، « قال : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » فقتل النفوس هذا كبيرة من كبائر الذنوب وتوعد الله عليه بالوعيد الشديد ، لكن قتل القريب قريبه كأبيه أو ابنه أو أخيه هذا من أكبر أنواع القتل ، فالقتل مع أنه كبيرة يتفاوت « قال : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك » فالزنا حرام وكبيرة فاحشة ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [سورة الإسراء : ٣٢] فهو كبيرة وفاحشة وساء سبيلا ، ولكنه بعضه أشد من بعض ، فالزنا بذوات المحارم أشد من الزنا بالأجنبيات ، والزنا بزوجة الجار أشد من الزنا بغيرها ؛ لأن الجار قد ائتمنك وله حق الجوار فإذا خنته ووقعت بأهله فهذا الزنا أعظم من الزنا بغير حليلة الجار . وأنزل الله في ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا . يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا . إِلَّا مَن تَابَ .... ﴾ [سورة الفرقان : ٦٨، ٦٩] الآيات ، فذكر هذه الجرائم الثلاث : الشرك وقتل النفس والزنا ، وهنا يقول : أكبر الكبائر الشرك بالله ، والأمن من مكر الله يعني الأمن من عقوبة الله ، يرتكب المعاصي والسيئات ولا يخاف من العقوبة ويقول الله غفور رحيم ، وينسى أنه شديد العقاب ، فالله جمع بينهما في آية واحدة ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [سورة الرعد : ٦] ، ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [سورة غافر : ٣] جمع بينهما فلا تأخذ بطرف وتترك طرفاً ، فالأمن من مكر الله أن يفعل المعاصي

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ١ / ٢٠٩ (٢٣٣) .

(**) متفق عليه : أخرجه البخاري في « صحيحه » ٤ / ١٦٢٦ (٤٢٠٧) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٩٠ (٨٦) .

من طريق شبيب بن بشر . قال ابن معين : ثقة ، وليَّنه ابن أبي حاتم ، وقال ابن كثير : (في إسناده نظر والأشبه أن يكون موقوفاً)(١) .

قوله : « الشرك بالله » وهو أكبر الكبائر ، ولهذا بدأ به(٢) قال ابن القيم ﷺ : (الشرك هضم للربوبية وتنقص للإلهية ، وسوء ظن برب العالمين) انتهى(٣) . قوله : « واليأس من روح الله » أي : قطع الرجاء والأمل من الله تعالى فيما يخافه ويرجوه ، وذلك إساءة ظن بالله وجهل به وسعة رحمته

ولا يخاف من عقوباتها ، هذا رجاء مذموم والعياذ بالله لأنه أمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله هذا الطرف الثاني ، الخوف مطلوب ولكنه لا يصل إلى حد القنوط من رحمة الله ﷻ ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [سورة الحجر : ٥٦] فالإنسان يطمع برحمة الله وإن عظمت ذنوبه ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر : ٥٣] فالإنسان لا يعتمد على جانب الرجاء فقط ؛ لأن هذا يسهل عليه المعاصي ويبعده عن التوبة ، ولا يعتمد على جانب الخوف فقط لأن هذا يقنِّطه من رحمة الله ﷻ ويبعده عن التوبة ، ثم قال : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ إن كنتم تريدون هذا الوعد الكريم فأنيبوا إلى ربكم أي : توبوا من الذنوب والسيئات ، أما أن يقيم الإنسان على السيئات ويقول الله غفور رحيم ، هذا ضلال أو يقول : ليس لي توبة ولا يغفر الله لي ويبقى على المعاصي ، هذا قنوط من رحمة الله - والعياذ بالله - .

(١) أي : على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، والحديث لم يتفق على أنه ضعيف ؛ بل هناك من وثقه ، وأيضاً حتى لو كان موقوفاً على ابن عباس فله حكم الرفع ؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا من رأيه ، هذا ليس للاجتهاد فيه مسرى ، فهو في حكم المرفوع .

(٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] .

(٣) يعني يجمع بين هذه الجرائم الثلاث : أنه هضم للربوبية ، تعجيز لله ﷻ في ربوبيته ، وإدخال شريك معه في التصرف ، ونقص في الألوهية وهي العبادة ؛ لأن العبادة لله ﷻ فإذا أشرك معه أحد ، فهذا تنقص للألوهية ، وسوء ظن برب العالمين ؛ لأنه ظنَّ أن الله ﷻ يرضى بالشرك .

وجوده ومغفرته[١] .

قوله : « والأمن من مكر الله » أي : من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان ، نعوذ بالله من ذلك . وذلك جهل بالله وبقدرته وثقة بالنفس وعجب بها[٢] وهذه الثلاث من أكبر الكبائر فهي كبيرة جداً - نسأل الله اجتنابها - وذكر هذه الثلاث لجمعها للشر كله وبعدها عن الخير كله ، وقد وقع فيها الكثير قديماً وحديثاً - نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة[٣] - » .

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : « أكبر الكبائر : الإشراك بالله[٤] ، والأمن من مكر الله[٥] ، والقنوط من رحمة الله[٦] ، واليأس من روح

(١) فالمسلم يخاف خوفاً لا يحمله على القنوط ، ويرجو رجاء لا يحمله على الأمن من مكر الله .

(٢) الإنسان لا يعجب بدينه وعلمه بل يخاف من الفتن وإن كان من أعبد الناس وأعلم الناس ، فإبراهيم عليه السلام يقول : ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٥] خاف على نفسه من الفتن ، خاف على نفسه من الشرك ، أن يبتلى وأن يمتحن ، وغيره من باب أولى أن يخاف ولا يزكي نفسه ، وكم من عابد وعالم ضل وزاغ بعد أن كان على جانب عظيم من العلم ومن العبادة ضل وانحرف - والعياذ بالله - .

(٣) الشرك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من الله عز وجل ، هذه هي جوامع الشر .

(٤) هذا مثل حديث ابن عباس « أكبر الكبائر الإشراك بالله » وكل الأدلة تدل على أن الشرك هو أكبر الكبائر وأعظم الذنوب .

الإشراك بالله ما معناه ؟ معناه : صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ، كالذبح لغير الله والنذر لغير الله ودعاء غير الله والاستغاثة بغير الله ، كالاستغاثة بالأموات والغائبين والاستنجاد بالمقبورين هذا هو الشرك بالله عز وجل ، عبادة لغير الله عز وجل .

(٥) والأمن من مكر الله ، هذا مذهب المرجئة ، أنهم يقولون : إنه لا يضر مع الإيمان معصية فيستخفون بالمعاصي ويتساهلون فيها ؛ لأنهم يعتمدون على جانب الرجاء والرحمة فقط ، لا يتذكرون العقوبة ولا يتذكرون أن الله شديد العقاب . هذا الأمن من مكر الله .

(٦) وهذا الطرف الثاني المقابل للأمن من مكر الله : القنوط من رحمة الله والاعتماد على

=

الله[1] ، رواه عبد الرزاق : قوله : « والقنوط من رحمة الله » قال أبو السعادات : (هو أشد اليأس) وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه

الخوف فقط وأن الله لا يغفر هذا الذنب ، هذا قنوط من رحمة الله ، ومثال ذلك قصة الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ظلماً وعدواناً ثم أراد أن يتوب فذهب إلى عابد من العباد ، جاهل ، ليس عنده علم لكنه عابد ، فسأله هل له من توبة ؟ قال : لا – هذا قنوط من رحمة الله – فقتله وكمَّل به المئة ، ثم ذهب ويسأل من يفتيه هل له من توبة ؟ فجاء إلى عالم من العلماء ، فقال : إنه قتل مئة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ هذا هو الجواب الصحيح الذي صدر عن علم لا عن جهل ، مهما عظمت الذنوب ، الكفر والشرك والإلحاد والزندقة كلها إذا تاب الإنسان إلى الله توبة صحيحة تاب الله عليه ، فالتوبة تسع كل الذنوب ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر : ٥٣] ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [سورة الأنفال : ٣٨] الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة أو أن الله هو المسيح ابن مريم قال الله ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة المائدة : ٧٤] مع أن مقالتهم من أشنع المقالات ومع هذا لو تابوا تاب الله عليهم ، وقصة الذي قال : والله لا يغفر الله لفلان هذا قنوط من رحمة الله ، فقال الله ﷻ : « من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان إني قد غفرت له وأحبطت عمله »[*] هذا قنوط من رحمة الله ﷻ .

(١) اليأس من روح الله : يعني رحمة الله ، إن الإنسان ييأس من رحمة الله ، فرحمة الله ﷻ تسع الخلق إذا تابوا إلى الله ﷻ ، قال الله ﷻ : ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧] فاليهود والنصارى على شدة كفرهم لو تابوا واتبعوا هذا الرسول لغفر الله لهم ورحمهم ، فرحمة الله واسعة لا يقنط منها مذنب ولا عاصي ، بل يتوب إلى الله ويبشر بالرحمة والمغفرة .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٠٢٣ (٢٦٢١) .

الخوف[١] ، فإذا غلب الرجاء في حال الصحة فسد القلب[٢] قال تعالى :
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[٣] [سورة الملك : ١٢]
وقال : ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[٤] [سورة النور : ٣٧] .

---

(١) هذا في حال الصحة يكون الغالب عليه الخوف من أجل أن يتجنب المعاصي .
(٢) إذا غلب الرجاء في حال الصحة ربما يحمله ذلك على التساهل في المعاصي .
(٣) ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ هذا فيه تغليب جانب الخوف ، ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ يعني في حالة غيبتهم عن الناس .
(٤) فذكر الخوف فقط ، دل على أنه غلّب جانب الخوف .

٣٥ - بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن : ١١] .

قَالَ عَلْقَمَةُ : « هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ ، فَيَعلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ ؛ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ » .

وفي : « صَحيح مُسْلِمٍ » عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ؛ قَالَ : « اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْر : الطَّعْنُ فِي النَّسِبِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ » .

وَلَهُمَا : عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ ، وَدَعا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ » .

وَعَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ ؛ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ ؛ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ ، حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وَقَالَ النبيُّ ﷺ : « إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ ، وإِنَّ اللهَ - تَعَالَى - إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ؛ ابْتَلاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ ؛ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ ؛ فَلَهُ السُّخْطُ » حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ .

٣٥ - بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ

قوله : (باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله)[(١)] قال الإمام أحمد :

(١) قوله : (باب من الإيمان) : أي : من خصال الإيمان ، وقوله : (الصبر على أقدار الله) : الصبر على الأقدار مكمل للتوحيد ، والجزع من الأقدار منقص للتوحيد ، هذا هو المناسبة ، لأن الإيمان له شعب كثيرة ، كما قال ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى ، والحياء شعبة الإيمان »[(*)]

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ١ / ٦٣ (٣٥) .

ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من كتابه(١) ، وفي الحديث الصحيح : « الصبر ضياء » رواه أحمد ومسلم(٢) قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « وجدنا خير عيشنا بالصبر » رواه البخاري(٣) ، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « إن الصبر من الإيمان

فالإيمان شعب كثيرة ، ومنها الصبر على أقدار الله ، وقد عرفنا أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان ، قال ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره »(*) فالإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان ، وأما الصبر على القدر فهو شعبة من شعب الإيمان ، من لم يؤمن بالقدر فليس بمؤمن ، ومن لم يصبر فإن إيمانه ناقص ، والأقدار جمع قدر وهو ما قدره الله وقضاه وكتبه في اللوح المحفوظ ، وكل ما يجري في هذا الكون من خير أو شر ومن نعمة أو نقمة ، ما يحبه العباد وما يكرهونه فإنه بقضاء الله وقدره ، لا يخرج شيء عن قضائه وقدره ، وكل ما يجري في هذا الكون فإنه من أقدار الله ﷻ سواء كان مما يسر أو مما يكره ، والمؤمن إذا عرف أنه لابد له من القضاء والقدر ولا منجاة له مما قدره الله فإنه يذهب عنه التلوم والتحسر ، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وإذا صبر كتب له الأجر ، وإذا جزع كتب عليه الإثم ، فكونه يصبر أحسن له من كونه يجزع ؛ لأن الصبر يكسبه أجراً ، والجزع يكسبه إثماً ، ولا يقدر على التخلص من القضاء والقدر مهما كره ، فهذا باب عظيم وهو تابع للأبواب قبلها : التوكل والمحبة والرغبة والرهبة والخوف والرجاء ؛ لأن الصبر من أعمال القلوب ، وتظهر آثاره على الجوارح ، مثل : المحبة والخوف ، والخشية والرغبة والرهبة والتوكل .

(١) هذا ذكره الإمام أحمد كما رواه عنه أصحابه « في تسعين موضعاً » هذا يدل على عناية الإمام أحمد بالقرآن وذكرت الصلاة في اثنين وثمانين موضعاً ، وذكر الصبر في تسعين موضعاً ، هذا دليل على عنايته بالقرآن ﷺ وكونه ذكر في تسعين موضعاً يدل على أهميته .

(٢) ضياء يعني نور ؛ لأنه يضيء للمسلم الطريق الذي يمشي معه في هذه الحياة ، وعدم الصبر ظلمة ، فإذا كان الصبر ضياء ففقدانه ظلمة .

(٣) يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « وجدنا خير عيشنا بالصبر » ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ١ / ٣٦ (٨) .

بمنزلة الرأس من الجسد ، ثم رفع صوته فقال : إنه لا إيمان لمن لا صبر له »[(١)] ، واعلم أن الصبر على ثلاثة أقسام : صبر على ما أمر الله به ، وصبر عن ما نهى عنه ، وصبر على ما قدَّره الله من المصائب[(٢)] زاد شيخ الإسلام : والصبر عن الأهواء المخالفة للشرع[(٣)] .

قوله : « وقول الله تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[(٤)] وأول الآية :

الأعمال الجليلة والجهاد في سبيل الله إلا بالصبر والتحمل ؛ لأن الصبر يهون عليهم المشاق .

(١) الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا فقد الرأس فقدت الحياة ، وصار الجسد لا قيمة له ولا فائدة منه ، كذلك الإيمان إذا فقد الصبر فليس له قيمة .

(٢) من المصائب خاصة لا من الملذات ، فالملذات لا تحتاج إلى صبر .

(٣) لأن شيخ الإسلام أوذي من أصحاب الأهواء من الفرق الضالة فصبر عليهم وجالدهم ﷺ ونازلهم حتى نصره الله عليهم ، ما حصل على هذا إلا بالصبر ، حبسوه وآذوه وناظروه وضايقوه ، ولكنه صبر حتى أظهره الله عليهم .

(٤) قول الله تعالى في سورة التغابن : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [آية : ١١] .

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ هذا عام لجميع المصائب لا يخرج منها شيء .

﴿مَآ أَصَابَ﴾ ما : اسم موصول أي : جميع المصائب ؛ لأن الأسماء الموصولة من صيغ العموم .

﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾ : هذا عام لجميع المصائب لا يخرج منه شيء ، فليس هناك مصيبة بقضاء الله وقدره ، ومصيبة خارجة عن قضاء الله وقدره .

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ : بإذن الله أي : بقدره وقضائه ، والإذن على نوعين : إذن قدري مثل ما في هذه الآية ، وإذن شرعي ، كما في قول الله تعالى : ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة البقرة : ٢١٣] أي : بشرعه ، ومثل قوله : ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي : السحرة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] أي : بقضائه وقدره لا بإذنه

=

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[1] أي : بمشيئته وإرادته[2] كما قال في الآية الأخرى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ[3] إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [سورة الحديد : ٢٢][4] .

قوله : قال علقمة[5] : « هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم »[6] . هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وروي عن

الشرعي ؛ لأن الله لم يأذن بالسحر شرعاً ، لكنه أذن به قدراً وقضاء .

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ : ما معنى يؤمن بالله ؟ فسره علقمة بن قيس النخعي قال : « هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم » ، فجعل الصبر إيماناً ، فهذا شاهد لقول المصنف ﷺ في الترجمة : (باب من الإيمان الصبر على أقدار الله) فدل على أن الصبر من الإيمان ، وأن الجزع من الكفر .

(١) ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي : بقضائه وقدره ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ : يعني يصبر ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ : يجعل في قلبه يقيناً ويجد في قلبه البر والراحة والطمأنينة ، ويذهب عنه الجزع والتسخط ؛ لأنه يعلم أن هذا في موازين حسناته ، ويعلم أن هذا لابد منه ولو فعل ما فعل لن ينجو منه فما دام كذلك فإنه يصبر .

(٢) وفي آية أخرى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ [سورة الحديد : ٢٢] مكتوبة في اللوح المحفوظ ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ أي : من قبل أن تقع ونخلقها ، البرء هو الخلق والإيجاد ، فهي مقدرة ومكتوبة في اللوح المحفوظ وما كتب في اللوح المحفوظ لابد من وقوعه ، فإذا علم المؤمن هذا اطمأن وصبر .

(٣) ﴿ مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ : الجدب ونقص الثمار والزروع ﴿ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ : مما يقع في أنفسهم من موت أو جراح أو قطع أطراف أو ضرب أو غير ذلك .

(٤) ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أي : كتابة هذه الأشياء كلها وخلقها وإيجادها يسير على الله ﷻ لا يعجزه شيء ، إن الله على كل شيء قدير .

(٥) « قال علقمة » يعني في تفسير هذه الآية .

(٦) يعني ما معنى يؤمن بالله ؟ يعني يصبر على المصيبة . ففسَّر الإيمان بأنه الصبر ، فدل على

=

ابن مسعود و« علقمة » هو ابن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي ، ولد في حياة النبي ﷺ ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وعائشة وغيرهم ، وهو من كبار التابعين وعلمائهم وثقاتهم ، مات بعد الستين ، وفي هذا الأثر دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان ، وفي الآية بيان أن من ثواب الصبر هداية القلب[1] .

قوله : وفي « صحيح مسلم » عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال :

أن الصبر من خصال الإيمان ، كما قال المصنِّف في الترجمة ، وعلقمة : هو علقمة بن قيس النخعي الكوفي من تلاميذ عبد الله بن مسعود ، وروى أيضاً عن الخلفاء الأربعة عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، لأنه ولد في عهد النبي ﷺ ، وهو من كبار التابعين ، وروى عن عبد الله بن مسعود بالكوفة هو والأسود النخعي وإبراهيم النخعي .

قوله « فيرضى ويسلم » فيرضى بها ويسلم الأمر لله ﷻ ويعلم أنه لا مناص له منها ولا حيلة له في التخلص منها فيرضى بقضاء الله وقدره ولا يجزع ولا يتسخط ، فالله ﷻ يقول : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول : « وجدنا خير عيشنا بالصبر »(*) ، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له »(**) . وقد ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن مما يدل على عظم الصبر ومقام الصبر ، فهو من مقامات العبودية العظيمة .

(١) وهذه فائدة عظيمة ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ يجعل في قلبه نوراً وإيماناً وطمأنينة ، هذا من ثمرات الصبر ، وأما الجزع فيجعل الله في قلبه القلق والجزع وعدم الاستقرار .

(*) هذا الأثر علقه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢٣٧٥ ، ووصله الإمام أحمد في « الزهد » ص ٩٧ (٦١٧) .

(**) أخرجه اللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤ / ٩٢٤ (١٥٦٩) .

« اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت »(١)

(١) « اثنتان في الناس » : يعني خصلتان في الناس .

« هما بهم كفر » أي : كفر أصغر لا يخرج من الملة ، لأن الكفر إذا جاء مُنكَّراً فإنه يكون أصغر ، وإذا جاء معرفاً بالألف واللام يكون أكبر يخرج من الملة ، ومنه قوله ﷺ : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة »(*) أي الكفر المخرج من الملة لأنه مُعرَّف بالألف واللام .

« هما بهم كفر : الطعن في الأنساب » : الذي يطعن في أنساب الناس ، يتنقص أنساب الناس ويقول : فلان نسبه وضيع أو يقول : فلان ليس ابناً لفلان ينكر نسبه ويطعن فيه فهذا من أمور الجاهلية وهو كفر من خصال الكفر ؛ لأنه لا يجوز للإنسان أن يتنقص الناس في أنسابهم ويقول : فلان قبيلي وفلان خضيري ... قال الله ﷻ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] فالكرم عند الله ليس بالنسب ، وإنما هو بالتقوى ، فالتقي كريم عند الله ولو كان نسبه ليس بمرتفع ، ما ضرَّ سلمان الفارسي ولا ضرَّ بلال الحبشي ولا ضرَّ عمار بن ياسر رضي الله عنهم ، ما ضرهم كونهم ليس لهم نسب عربي أو نسب قبلي ، ولا ضرّ أبا بكرة الثقفي كونه ليس له نسب قبلي ؛ بل كانوا من خيار أمة محمد ﷺ ، ولا نفع أبا جهل كونه قرشياً ، ولا نفع أبا لهب كونه هاشمياً ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ فلا يطعن بأنساب الناس إلا إنسان ناقص الإيمان ، وفيه خصلة من خصال الجاهلية ، والجاهلية ما كان قبل البعثة وكل أمور الجاهلية مذمومة ولا يجوز أخذ شيء من أمور الجاهلية والتشبه بأهل الجاهلية مذموم ومنها هذه المسألة : الطعن بأنساب الناس ، أما معرفة الأنساب من غير طعن فلا بأس أن الإنسان يعرف الأنساب للمعرفة فقط ، وليس لأجل تنقُّص الناس في أنسابهم .

« والنياحة على الميت » هذا محل الشاهد من الحديث ؛ لأن النياحة تدل على عدم الصبر والنياحة هي رفع الصوت بالبكاء على الميت وإظهار الجزع على موته ، والمفروض الصبر عند المصيبة وحبس النفس عن الجزع لأجل أن يكتب للإنسان الأجر على المصيبة ، أما إذا جزع وتسخط فإنه يأثم بذلك ، والنياحة على الميت من الكبائر ؛ لأن الرسول ﷺ عدَّه

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ١ / ٨٨ (٨٢) .

أي : هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله ، فأطلق الكفر على من قامت به خصلة من هاتين الخصلتين ، لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق ، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً الإيمان المطلق(١) ، ففرق بين الكفر المعرَّف باللام كما في قوله : « ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة » وبين كفر مُنكَّر في الإثبات .

قوله : « الطعن في النسب » أي : عيبه ، ويدخل فيه أن يقال : هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه(٢) .

قوله : « والنياحة على الميت »(٣) أي : رفع الصوت بالندب ، وتعداد

من أمور الجاهلية ، وأيضاً جاء الوعيد على النياحة كما يأتي في الحديث الذي بعد هذا « ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية »(*) النياحة كبيرة من كبائر الذنوب وهي تدل على عدم الصبر وعلى نقصان الإيمان .

(١) ليس من كان به خصلة من خصال الكفر يكون كافراً كفراً مخرجاً من الملة ؛ بل هو كفر أصغر ، لأنه جاء بصيغة النكرة « هما بهم كفر » .

(٢) يجحد أن فلاناً ولد فلان ، هذا من الطعن في أنساب الناس ، والنبي ﷺ يقول : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر »(**) ما ولد على فراش الإنسان يعني من زوجته ما دامت في عصمته فهو من أولاده ولا يخرج منه إذا رمى زوجته إلا باللعان ، والأصل أنه ابنه .

(٣) هذا هو محل الشاهد « النياحة على الميت » لأنها تدل على عدم الصبر .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٤٣٦ (١٢٣٥) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٩٩ (١٠٣) .

(**) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٢ / ٧٢٤ (١٩٤٨) ، ومسلم في « صحيحه » ٢ / ١٠٨٠ (١٤٥٧) .

فضائله لما فيه من السخط على قدر الله المنافي للصبر [١] .

قوله : ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً : « ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » [٢] قوله : « من ضرب الخدود » قال

---

(١) تعداد محاسن الميت : واعضداه ، وانصيراه إلخ هذا هو النياحة ، أما ذكر محاسن الميت لأجل الدعاء له والترحم عليه فهذا لا بأس به من غير غلو ، فقد رثي النبي ﷺ بعد موته ، رثاه حسان بمراثي ولم يُعَدُّ هذا من النياحة ، وما زال العلماء يَرْثُون العلماء إذا ماتوا وليس هذا من النياحة ؛ بل هذا من أجل إظهار فضائلهم ومن أجل الدعاء لهم والاقتداء بهم .

(٢) هذا أيضاً من أنواع النياحة ، ولا يزال يوجد عند بعض المنتسبين للإسلام ، أو المسلمين الذين يغلب عليهم الجهل توجد هذه الأمور : شق الجيوب عند المصيبة ، ولطم الخدود ، تضرب خدها أو وجهها جزعاً .

وقوله : « ودعا بدعوى الجاهلية » : المراد بدعوى الجاهلية : كل العصبيات من دعوى الجاهلية ، فمن تعصب لقبيلة ، أو تعصب لمذهب من المذاهب أو تعصب لشيخ من المشايخ لا يقبل إلا منه ويأخذ قوله مطلقاً أخطأ أو أصاب فهذا من دعوى الجاهلية ؛ لأن المسلم يتبع الحق سواء كان عند قبيلته أو عند غير قبيلته ، سواء كان في مذهبه الذي ينتسب إليه أو في المذهب الآخر ، عند شيخه الذي تتلمذ عليه أو عند شيخ آخر ، رائده الحق ، الحق ضالة المؤمن أينما وجده أخذه فلا يجوز للحنبلي إذا ظهر له الدليل مع الحنفي أو مع الشافعي أو مع المالكي أن لا يأخذ به كذلك أصحاب المذاهب ؛ لأن المقصود اتباع الدليل وليس اتباع المذهب ومعرفة القول الراجح ، وهذا ما عليه المحققون من أهل العلم أنه متى ما اتضح لهم الدليل أخذو به ، ولهذا يقول الإمام الشافعي ﷺ : (أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد)(*) هذا هو الذي عليه أهل العلم والمحققون من الأئمة وأتباعهم : عدم التعصب ، لأن التعصب من خصال اليهود : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ [سورة البقرة : ٩١] يتعصبون ولا يؤمنون بما أنزل عليهم ؛ لأن

(*) الروح لابن القيم ص ٢٦٤ .

الحافظ : (خص الخد لكونه الغالب وإلا فضرب بقية الوجه مثله)(١) . قوله : « ودعا بدعوى الجاهلية » قال شيخ الإسلام : (هو ندب الميت) (٢) وقال ابن القيم : (الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية ، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ(٣) وتفضيل

الذي أنزل عليهم فيه الإيمان بمحمد ﷺ : ﴿ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ هل مما أنزل عليهم قتل الأنبياء ؟ هل في ما أنزل عليهم الكفر بمحمد ﷺ ؟ الذي أنزل عليهم الإيمان بجميع الرسل ، ولاسيما خاتمهم محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فهذا هو التعصب ، وهو دعوى الجاهلية ، ولما تخاصم رجلان أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار في إحدى الغزوات ، فقال أحدهما : ياللمهاجرين وقال الآخر : ياللأنصار ، قال النبي ﷺ : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم دعوها فإنها منتنة »(*) لأن هذا نادى الأنصار وهذا نادى المهاجرين مع أن الجميع أخوة وأمة واحدة . هذا من عصبية الجاهلية أنكرها الرسول ﷺ وسماها دعوى الجاهلية وهي العصبية الممقوتة التي يطرح الحق من أجلها ويؤخذ الباطل من أجل التعصب والحمية ، هذا لا يجوز أبداً في دين الإسلام ، وهو من خصال الجاهلية .

(١) المهم أنه يضرب وجهه أو جسمه من باب الجزع مثل ما يفعل الشيعة يوم عاشوراء يضربون أجسادهم بالسلاسل إظهاراً للجزع على الحسين بزعمهم ، هذا من النياحة ومن أمور الجاهلية .

(٢) « ندب الميت » الندب هو رفع الصوت في تعداد محاسن الميت .

(٣) يدخل في دعوى الجاهلية كل من تعصب لقبيلة أو لمذهب أو لشيخ من المشايخ فلا يأخذ إلا بقوله فهذا من أمور الجاهلية ، واليوم بعض الشباب عندهم هذه النزعة بعضهم يقولون : خذوا من فلان ولا تأخذوا من فلان ويحذرون منه إلا إذا كان الإنسان مبتدعاً

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٤ / ١٨٦٣ (٤٦٢٤) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ١٩٩٨ (٢٥٨٤) ، بنحوه .

=

بعض على بعض ، يدعو إلى ذلك ويوالي عليه ويعادي عليه ، فكل هذا من دعوى الجاهلية) .

وقد يعفى عن الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقاً كما يعفى عن البكاء إذا كان على غير وجه النوح والتسخط . نص عليه أحمد[1] .

قوله : وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا[2] وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة »[3] رواه الترمذي والحاكم ، وحسَّنه الترمذي .

فالمبتدع يحذر منه ولا يؤخذ عنه لكن ما داموا كلهم أهل سنة وأهل حق فما الداعي إلى أن تحذر من أخذ العلم من أهل السنة والجماعة الذين ليس عندهم بدعة ولا مخالفة إلا لمجرد العصبية ؟! هذا من أمور الجاهلية .

(١) يعفى عن بعض ذلك ، البعض مثل ذكر مآثر الميت الحسنة إذا كان هذا من باب إظهار فضله من أجل الدعاء له والترحم عليه والاقتداء به فهذا مثل المراثي المعتدلة التي ليس فيها غلو .

(٢) إثبات الإرادة لله ﷻ وأنها شاملة للخير والشر .

(٣) هذا الحديث واضح أن المصائب خير للمؤمن أولاً : لأنه يصبر عليها ويثاب على الصبر وثانياً : أنها تُكَفَّر بها خطاياه فيسلم من عقوبتها في الآخرة ، الله حكيم عليم بما يجريه على عباده المؤمنين لا بغضاً لهم ، وإنما هو من محبته لهم وإرادته الخير بهم من أجل أن يمحصهم ويخلصهم من ذنوبهم ومن أجل أن يتوبوا إليه ويحاسبوا أنفسهم ويعلموا أن هذه المصيبة وأن هذا المكروه ما أصابهم إلا بذنب فيتوبون من الذنوب ويتراجعون عنها ، تكون موعظة وثواباً وصبراً لهم ، فكل هذه الأمور محبوبة عند الله ﷻ ، وإن كانت مكروهة عند الناس .

« وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه » يفعل الذنوب والمعاصي ويبارز بالكفر والإلحاد والله ينعم عليه ويغدق عليه العطاء في الدنيا من أجل أن تبقى عليه ذنوبه ، ومن أجل أن يزداد من المعاصي ، هذا من الإمهال والاستدراج فيأتي يوم القيامة وعليه الذنوب =

قوله : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا » قال شيخ الإسلام : (المصائب نعمة ؛ لأنها مكفرات للذنوب وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها ، وتقتضي الإنابة إلى الله تعالى[(١)] والذل له[(٢)] والإعراض عن الخلق إلى غير ذلك من المصالح ، فنفس البلاء يُكفِّر الله به الخطايا ، وهذا

والخطايا فيعذب بها في نار جهنم .

بعض الناس يقول : المسلمون الآن فيهم ضعف ، وفيهم وفيهم ، متأخرون ، والدول الكافرة متقدمة في الحضارة والصناعة فنقول : أولاً : المسلمون هم الذين قصَّروا ، فالله أمرهم وقال : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [سورة الأنفال : ٦٠] وهم الذين قصروا وتكاسلوا ولو أنهم بذلوا جهدهم واستعدوا لفاقوا غيرهم من الأمم .

ثانياً : هذا ليس دليلاً على بغض الله لهم ؛ بل هو دليل على محبته لهم من أجل أن يُكفِّر عنهم ذنوبهم ، ومن أجل ألا يتكبروا ويفخروا في الأرض ويفسدوا في الأرض ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [سورة الشورى : ٢٧]

وأما الكفار وإن أعطاهم الله زهرة الدنيا فهذا ليس بغريب ، الله ﷻ يقول : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [سورة طه : ١٣١] فليس عطاء الله لهم محبة لهم بل العكس ، الله استدرجهم وأراد بهم الشر ولم يرد بهم الخير ، الله ﷻ حكيم عليم بتدبيره ، يزوي الدنيا عن عباده المؤمنين من أجل مصلحتهم ، من أجل ألا يتكبروا ولا ينشغلوا عن طاعة الله ولا تلهيهم الدنيا ، ومن أجل أن يخلصهم من ذنوبهم ، الحكم الربانية كثيرة ، ويعطي أعداءه الكفار استدراجاً لهم ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٨] .

فالله يقدر الخير والشر ، ويريد الخير ويريد الشر لحكمة الابتلاء والامتحان .

(١) يعني فيها ثلاث فوائد : أولاً : أنها تكفر بها الذنوب وثانياً : أنها يحصل بها الصبر الذي هو من أعلى مقامات الإيمان وثالثاً : أن الإنسان يؤجر عليها إذا صبر .

(٢) وأيضاً أنها تدعو إلى التوبة ومحاسبة النفس فإن الله إذا أصاب عبداً ، فهذا العبد يعرف أن ما أصابه إلا بذنب فيتوب إلى الله ﷻ .

من أعظم النعم ، فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك ، فتكون شراً عليه من جهة ما أصابه في دينه ، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو جوع حصل له من الجزع والنفاق ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضرراً في دينه . فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة ، لا من جهة نفس المصيبة[1] كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت في حقه نعمة دينية . فهي بعينها فعل الرب ﷻ رحمة للخلق[2] والله ﷻ محمود عليها ، فمن ابتلي فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه وحصل له مع ما كفر من خطاياه رحمة ، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه ، قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ ﴾ [سورة البقرة : ١٥٧] [3] ، وحصل له

(١) جاء في الأثر : « إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك »(*) الله ﷻ يعامل العباد بحسب ما يصلحهم وما يعلمه خيراً لهم في العاقبة .

(٢) فمثلاً قطع يد السارق هذه عقوبة للسارق لكنها خير له ؛ لأنها تردعه عن السرقة في المستقبل وتحمله على التوبة وتردع غيره أيضاً من الناس فلا يقدمون على السرقة إذا رأوا قطع اليد ، نعمة من الله ﷻ وخير من جهة الله ، وإن كانت من جهة العبد عقوبة وفيها ألم ، لكن فيها خير ، لأن الله قدرها ليس من أجل العقوبة المحضة ، وإنما من أجل ما يترتب عليها من المصالح والعواقب الحميدة .

(٣) الصلاة من الله المراد بها : الثناء على عباده في الملأ الأعلى ، فيقال : صلى الله عليه يعني أثنى عليه في الملأ الأعلى .

(*) أخرجه البغوي في « شرح السنة » ٥/ ٢٢ (١٢٤٩) ، وقال الأرنؤوط : إسناده ضعيف .

غفران السيئات ورفع الدرجات ، فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك) ا.هـ مخلصاً .

قوله : وقال النبي ﷺ(١) : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط »(٢) حسنه الترمذي قوله : « إن عظم الجزاء » - بكسر العين وفتح

(١) لم يبين الشيخ راوي الحديث ، وهو أنس رضي الله عنه راوي الحديث الذي قبله ، وسنده واحد وراويه واحد ، فلذلك اعتبر كأنها حديثاً واحداً .

(٢) « إن الله ﷻ إذا أحب قوماً » هذا فيه إثبات المحبة لله ﷻ وأنها صفة من صفاته وأنه يحب عباده المؤمنين ويبغض أعداءه الكافرين .

« الله إذا أحب قوماً ابتلاهم » : أي امتحنهم بالشدائد والمكاره فمن رضي بالقضاء والقدر ولم يجزع فله الرضا من الله ، وهذا فيه وصف الله ﷻ بالرضا أيضاً ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فمن رضي بقضاء الله وقدره رضي الله عنه « ومن سخط » أي : سخط من القضاء والقدر وجزع فله السخط من الله ، وهذا فيه وصف الله بالسخط وأنه يسخط ويغضب ويكره ﷻ ، صفات تليق بجلاله وليس كصفات المخلوقين ، وفي هذا أن الله يوصف بأنه يحب وأنه يسخط وأنه يرضى ، وفيه أن الجزاء من جنس العمل ، وفيه أن ما يقع على العباد من المصائب إنما هو ابتلاء ، فمن صبر حاز الأجر والرضا من الله ، ومن سخط حاز السخط والعقوبة من الله ﷻ .

فهذا الباب بما فيه من الآية والأحاديث يدل على أن الصبر من الإيمان كما قال المصنِّف .

والصبر في اللغة : هو الحبس ، يقال صبره إذا حبسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [سورة الكهف : ٢٨] أي : احبسها مع الضعفاء من المسلمين ، واجلس معهم ولا تجلس مع المتكبرين والكافرين ، وإن كان القصد من الرسول ﷺ تأليفهم ، فالله علم أنهم لا يؤمنون ولا يقبلون فنهى رسوله أن يجالسهم ، وأمره أن يجلس مع ضعفة المسلمين مع صهيب بن عمار وبلال وسلمان رضي الله عنهم ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ لأن المشركين قالوا : ما نجلس معك إلا إذا

=

طردت هؤلاء الضعفاء ، فالله نهاه عن ذلك فقال : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٥٢] وقال هنا : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ أي : أحبسها معهم ، ففيه فضل مجالسة الضعفاء من المسلمين والرأفة بهم وعدم احتقارهم .

وأما الصبر في الشرع فهو ثلاثة أقسام :

١- صبر على طاعة الله ؛ لأن الطاعة فيها مشقة على النفس ، وفيها مكابدة فالإنسان يصبر عليها ويحبس نفسه على الطاعة ، يقوم من الليل يصلي ، يصوم النهار ، يجاهد في سبيل الله ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، هذه فيها مشاق ، يربي أولاده على الخير هذا فيه مشقة لكن يحتاج إلى الصبر ، ومن ليس له صبر لا يستطيع أن يعمل شيئاً من الطاعات ، فالصبر كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الدين بمنزلة الرأس من الجسد ، الجسد إذا لم يكن فيه رأس لم يكن فيه حياة ، والدين الذي ليس فيه صبر ليس فيه إيمان .

٢- الصبر عن محارم الله ؛ لأن النفس تميل إلى الشهوات المحرمة ، تميل إلى الزنا ، تميل إلى جمع المال من الربا ومن الميسر ومن المحرمات ؛ لأنها تحب المال ولا تبالي بالطريق ، فيحبسها عن محبوباتها المحرمة ، وهذا يحتاج إلى الصبر ، لا يترك المحرمات إلا من كان عنده صبر ، وإلا فإن نفسه تنازعه ، وشياطين الجن والإنس يدعونه إليها ويزينونها له ، فيحتاج إلى صبر لكي يحبس نفسه عن المحرمات فالذين يقعون في المحرمات ليس عندهم صبر عنها أو كان عندهم صبر فتركوه .

٣ - الصبر على أقدار الله المؤلمة من المصائب والمكاره التي تصيب الإنسان ، فيحبس نفسه عن الجزع ويرضى بقضاء الله وقدره ، وقال « المؤلمة » لأن أقدار الله غير المؤلمة لا تحتاج إلى الصبر ، فالذي يلائم النفس مثل : الولد والزوجة والطعام والشراب هذه بقدر ، لاشك أنها مقدرة لكنها أصلح للنفس ، لا تحتاج إلى صبر ، لكن أقدار الله المؤلمة هي التي تحتاج إلى صبر ، مثل : موت الولد ، وموت القريب ، وضياع المال ، فيصبر الإنسان على ما يصيبه ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [سورة لقمان : ١٧] والصبر على أقدار الله المؤلمة ثلاثة أنواع : يكف اليد عن لطم الوجه وشق الجيب ، ويكف اللسان عن رفع الصوت بالمصيبة ، ويكف النفس عن الجزع والتسخط على قضاء الله وقدره . هذه أنواع الصبر التي لابد من تحققها .

الظاء فيهما ويحتمل ضمهما مع سكون الظاء -[(١)] .

قال ابن القيم : (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب ، فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها وهو ظاهر) .

قوله : « وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم » وفي الحديث : « سئل النبي ﷺ أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه . وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه[(٢)] .

قوله : « من رضي فله الرضى » أي : من الله « ومن سخط فله السخط » كذلك .

---

(١) عظم - بكسر العين وفتح الظاء - هذه رواية ، والرواية الثانية : عظم - بضم العين وإسكان الظاء - .

(٢) يبتلى الناس على قدر إيمانهم ، فأعظم الناس بلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ لقوة إيمانهم وفي ذلك خير لهم من الله ﷻ ، وقد حصل للأنبياء ما حصل من الابتلاء والامتحان ، فمنهم من آذاه قومه وضايقوه كما ذكر الله ﷻ عنهم وصبروا على هذا ، والله قادر على أن ينصرهم من أول وهلة ، وأن يهلك أعداءهم ، ولكنه تركهم وترك الأنبياء يصارعونهم ويصبرون عليهم من أجل أن يُعظم الله ﷻ أجر الأنبياء ، ماذا حصل عليهم بأبدانهم ؟ إبراهيم ﷺ ألقي في النار ، ويعقوب ماذا حصل عليه من الابتلاء مع أولاده ؟ وأيضاً أيوب ﷺ ماذا حصل عليه من المرض ؟ وذو النون ماذا حصل عليه من الإلقاء في البحر وابتلاع الحوت له ؟ وهم أنبياء أعظم الخلق ، لكن هذا من أجل أن يرفع الله درجاتهم ويكونوا قدوة لأممهم في الصبر والاحتساب ، محمد ﷺ ماذا حصل عليه من الشدائد ومن المضايق ومن أذى الكفار وصبر على ذلك ؟ مع أنه أفضل الخلق ، والله قادر على أن ينصره من أول وهلة ، وأن يهلك أعداءه ، لكن الله ﷻ أراد أن يرفع درجاته وأن يقتدي به أتباعه من هذه الأمة فيصبرون على الدعوة ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويحتسبون الأجر من الله .

٣٦ - باب مَا جَاء في الرِّيَاءِ

وقول الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف : ١١٠] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا : قَالَ اللهُ تَعَالَى : « أنا أغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْركَ مَعِي فيهِ غَيْرِي ؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ » . رَوَاهُ مسْلِم .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا : « ألا أخْبرُكُم بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُم عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ الدجَّالِ ؟ » . قَالُوا : بَلَى . قَالَ : « الشِّرْكُ الخَفِي ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صلاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ » . رواه أحمد .

٣٦ - باب مَا جَاء في الرِّيَاءِ

قوله : (باب ما جاء في الرياء)[١] أي : من النهي عنه والتحذير . قوله :

(١) أي : ما جاء من الأدلة في حكم الرياء ، والرياء مأخوذ من الرؤيا ، والمراد به المراءة بالأعمال الصالحة بأن يقصد العامل أن يراه الناس فيمدحوه ويثنوا عليه وهو نوع من الشرك ؛ لأنه قصد غير الله فهو نوع من الشرك بالنية والقصد لغير الله لذلك يسمى بالشرك الخفي ؛ لأن النيات والمقاصد من أعمال القلوب لا يعلمها إلا الله ﷻ ، وسمي خفياً للتفرقة بينه وبين الشرك الظاهر الذي يرى كالسجود للأصنام والذبح لغير الله ، أو الذي يسمع كدعاء غير الله ﷻ ، فالشرك في الأقوال والشرك في الأفعال ظاهر يراه الناس ، وأما الشرك في النية فهذا شرك خفي لا يعلمه إلا الله ﷻ لذلك قال العلامة ابن القيم :

الشِّركُ فاحْذَرْهُ فَشِركٌ ظاهرٌ ... ذا القِسْمُ ليس بقابلِ الغُفرانِ
وَهُوَ اتِّخاذُ النِّدِ للرَّحْمَنِ أيـ ... ـاً كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إنْسَانِ
يَدْعُوهُ أو يَرجُوه ثُمَّ يَخافهُ ... وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدَّيَّانِ

هذا الشرك الظاهر ، وأما الشرك الخفي فهو الرياء وهو خطير ، وذلك لأن الشرك الظاهر لا يقع فيه إلا المشركون ، ولكن أهل الدين وأهل التقوى والصلاح فلا يقعون في الشرك الظاهر وأما الشرك الخفي فقد يحدث من الصالحين وأيضاً من الطيبين ، ولذلك خافه

=

وقول الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [سورة الكهف : ١١٠][(١)] أي : ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية

الرسول ﷺ على صحابته ، فقال : « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر »[(*)] ، وأيضاً قال ﷺ « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال " قال : قلنا : بلى ، فقال : « الشرك الخفي ، أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه »[(**)] فهذا شرك خطير جداً ، لأنه يقع حتى من الصالحين إلا من عصمه الله تعالى .

(١) يأمر الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ أن يعلن للناس أنه بشر مثلهم ليس له من الأمر شيء ، ولا من الربوبية ، ولا من الألوهية شيء ، فهو بشر وعبد من عباد الله مثلكم في البشرية ، إلا أن الله ميَّزه بالوحي والرسالة فهو عبد الله ورسوله ، هذا فيه الرد على الغلاة الذين يغلون في النبي ﷺ ، ويزعمون أنه يعلم الغيب ويتصرف في الكون ، والذين يرفعون الرسول ﷺ من منزلة البشرية إلى منزلة الربوبية ، كما فعل النصارى مع عيسى ﷺ ، ولكن ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ : ميَّز الله تعالى نبيه بالوحي . والوحي في اللغة : هو الإعلام في خفاء ، وهو يكون بواسطة الملك الموكل بالوحي ، وهو جبريل ﷺ ينزل بالوحي على الرسول ﷺ من عند الله ، كما قال تعالى : ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [سورة الشورى : ٥١] يكون وحي إلهام بدون بواسطة مَلَك مثل : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [سورة القصص : ٧] يعني ألهمناها ، وأيضاً قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [سورة النحل : ٦٨] هذا إلهام من الله إلى النحل أن تعمل هذا العمل العجيب ، وأما وحي الإرسال فهذا لا يكون إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كما قال تعالى : ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ففي هذه الآية أمر بالتوحيد وإفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه ، فالله هو إله واحد لا يجوز أن يشرك معه غيره لا الأنبياء ولا الملائكة ولا الصالحون ولا الأحجار ولا الأشجار ، ولا يشرك معه سبحانه أحد لا في الأعمال ولا في الأقوال ولا في المقاصد والنيات : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي : يرجو ما عند الله ﷻ من الثواب والجنة وقال : ﴿يَرْجُوا۟﴾ لأنه لا أحد يجزم

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٣٩ / ٣٩ (٢٣٦٣٠) وحسنه الأرنؤوط .

(**) أخرجه ابن ماجه في « سننه » ٢ / ١٤٠٦ (٤٢٠٤) ، وحسنه الألباني .

شيء[١] ؛ بل ذلك كله لله وحده لا شريك له أوحاه إلي[٢] ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ويخافه : ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ قال شيخ الإسلام : (أما اللقاء : فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة[٣] وقالوا : لقاء الله يتضمن رؤيته ﷻ يوم القيامة[٤] . وذكر الأدلة على ذلك . قال ابن القيم في الآية : (أي : كما أنه لا إله إلا هو ، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة

لنفسه بالنجاة لا الأنبياء ولا غيرهم ، فكل الخلق يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ، فمن كان يرجو الوقوف بين يدي الله تعالى بعد البعث والنشور ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فالعمل لا يكون صالحاً إلا بشرطين : الشرط الأول : خلوه من الشرك الظاهر والخفي ، والأكبر والأصغر ، والشرط الثاني : إصابة السنة بأن يكون على وفق ما شرعه الله ﷻ ويخلو من البدع ، فإن اختل شرط من هذين الشرطين فالعمل غير صالح ، فإن كان فيه شرك أو كان فيه بدعة فهو غير صالح وهو مردود ولا يقبل من صاحبه ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ هذا نهي وكلمة ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي تعني أي أحد حتى الأنبياء والرسل والملائكة والأولياء والصالحين ، فالله لا يرضى أن يشرك معه أحد لا شركاً ظاهراً ولا شركاً خفياً ، وهو الرياء ، فوجه الشاهد من هذه الآية : ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ هذا يشمل شرك الرياء ؛ لأنه نوع من الشرك ، ولكنه خفي في القلوب لا يعلمه إلا الله .

(١) هذا فيه رد على أهل الغلو ، الذين يغلون في النبي ﷺ .

(٢) وهذا فيه أن الله ﷻ خصه بالوحي ، وهكذا الأنبياء امتازوا على غيرهم من البشرية بأن الله خصَّهم بالوحي .

(٣) المعاينة معناها الرؤية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي : يرجو أن يرى الله ﷻ ؛ لأن الله وعد المؤمنين بأنهم يرون الله في الجنة ، فمن كان يرجو هذا الوعد الكريم ، فليعمل عملاً صالحاً ؛ لأن رؤية الله لا تحصل إلا بالعمل الصالح الذي يؤهل صاحبه لذلك الموقف العظيم .

(٤) أما الكفار فلا يرون الله ﷻ، كما قال تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين ١٥] .

له وحده لا شريك له ، فكما تَفرَّد بالإلهية يجب أن ينفرد بالعبودية . فالعمل الصالح هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة) انتهى . فتضمنت الآية النهي عن الشرك كله قليله وكثيره[1] ، قوله : عن أبي هريرة مرفوعاً : « قال الله تعالى : أنا أغني الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه »[2] ، رواه مسلم . قوله : « من عمل عملاً أشرك معي فيه

---

(١) عن الشرك كله : الأصغر والأكبر ، القليل والكثير ، ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ لأنه يوجد من أهل الضلال من يقول : إن الشرك هو عبادة الأصنام والأشجار والأحجار ، أما الذي يعبد الصالحين والأنبياء والملائكة فهذا ليس بشرك إنما وسيلة إلى الله ﷻ ، فهم يسمون الشرك وسيلة ، وهذا باطل ، فالشرك يعم عبادة الأشجار والأحجار والأصنام ، والشرك بعبادة الأولياء والصالحين .

(٢) أورد المصنِّف في هذا الباب آية من كتاب الله وحديثاً من سنة رسول الله ﷺ عن أبي هريرة فهو الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه ، ففي هذا الحديث نَزَّه الله ﷻ نفسه عن الشرك ، وأخبر أنه لا يقبل العمل الذي فيه شرك فهو غني عن أعمال عباده ، حتى الأعمال الصالحة الله غني عنها ، ولكن نفعها يرجع إلى أصحابها وذكر الشرك هنا من باب التنبيه على خطره ، أي : أنه لا يقبله ﷻ ، فالله يقبل العمل الصالح ويثيب عليه ، ولا يقبل العمل الفاسد فيشترط في العمل أن يكون خالصاً لوجه الله ﷻ ، فإن كان فيه شرك فلا يقبله الله ﷻ وهو مردود على صاحبه ، وهذا قوله « أشرك معي فيه غيري » هذا يعم كل من يشرك به مع الله أياً كان ملكاً أو نبياً أو غير ذلك : « تركته وشركه » أي : ترك الله عمله ولم يقبله ، وفي رواية « وهو للذي أشرك وأنا عنه غني » ، فالعمل الذي فيه شرك لا يقبله الله ولا يثيب عليه صاحبه ؛ لأنه عمل باطل ، وهذا يدل عليه قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٣٦] قيل : معنى الآية أنهم كانوا يقسمون الزرع والأنعام إلى قسمين : قسم يجعلونه لله ، وقسم يجعلونه للأصنام ، فإذا تلف شيء مما هو لله فلا يعوضونه ، وإذا تلف شيء مما هو للأصنام يعوضونه مما هو لله

=

غيري » أي : قصد بعمله غيري من المخلوقين قوله : « تركته وشركه » ، قال الطيِّبي : الضمير المنصوب في قوله : « تركته » يجوز أن يرجع إلى العمل ، قال ابن رجب : (واعلم أن العمل لغير الله أقسام : فتارة يكون رياء محضاً ، كحال المنافقين[1] ، كما قال تعالى : ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة النساء : ١٤٢] ، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام ، وقد يصدر في فرض الصدقة الواجبة ، أو الحج ، أو غيرهما من الأعمال الظاهرة ، التي يتعدى نفعها ، فإن الإخلاص فيها عزيز . وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط ، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة ، وتارة يكون العمل لله[2] ، ويشاركه الرياء ، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه) ، وذكر أحاديث تدل على ذلك ، منها هذا الحديث ، وحديث شداد بن أوس مرفوعاً : « من صلى يُرائي فقد أشرك ، ومن صام يُرائي فقد أشرك ، ومن تصدق يرائي فقد أشرك ، وإن الله ﷻ يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بي ، فمن أشرك بي شيئاً فإن جدة عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به ، أنا عنه غني » رواه أحمد . قال الإمام أحمد فيمن يأخذ جُعلاً على الجهاد : « إذا

ويقولون : إن الله غني ، أما الأصنام فهي فقيرة فإذا نقص حقها يعوضونه من حق الله ، وقيل : إن معنى الآية مثل الحديث أن العمل الذي فيه شرك أن الله لا يقبله ، وهذا مثل الشرك الظاهر والخفي .

(١) رياء المنافقين رياءً محضاً أي : خالص ليس عندهم نية لله ﷻ أبداً ، وهذا النوع من الرياء لا يشك مسلم ببطلانه وأنه حابط .

(٢) هذا هو محل البحث : أن العمل يكون أصله لله ثم يطرأ عليه الرياء .

لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس[١] ، كأنه خرج لدينه ، فإن أعطي شيئاً أخذه » ثم قال : (وأما إذا كان أصل العمل لله ، ثم طرأ عليه نية الرياء ، فإن كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف ، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا ؛ ويجازي على أصل نيته ؟ في ذلك خلاف بين العلماء من السلف ، قد حكاه الإمام أحمد ، وابن جرير ، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يجازى بنيته الأولى ، وهو مروي عن الحسن وغيره .

قوله : وعن أبي سعيد مرفوعاً : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم

(١) هذه قضية أخذ المكافآت على العبادات كالإمامة ، وتدريس العلم والقضاء والإفتاء ، فأخذ الجعل عليها ، وأخذ المكافأة عليها هل يجوز أم لا يجوز ؟ نقول : إن كان قصده المال ، ولو لم يعط المال لم يقم بهذه الأعمال فعمله باطل ؛ لأنه يريد بعمله الدنيا والله ﷻ يقول : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة هود : ١٥ ، ١٦] ولهذا قال الشيخ ﷺ : (باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا) ، فإذا أراد الدنيا في عمل الآخرة فعمله باطل وهو داخل في هذه الآية ، فإن كان ما يقوم بهذه الأعمال إلا من أجل الطمع ولو لم يعط لم يقم بها فعمله باطل ، كذلك الحج من يحج عن غيره يأخذ مالاً مقابل هذا ، فإن كان قصده المال فحجه غير صحيح وهو ممن أراد الحياة الدنيا ، أما إذا قام بالعمل الصالح لوجه الله ويريد ثواب الله ويأخذ ما يعطى تبعاً لا قصداً فهذا لا بأس به ؛ لأنه مستعين به على طاعة الله وهو لم يقصده من الأصل وإنما يأخذه بنية أنه سيستعين به على طاعة الله فهو بحاجة إلى النفقة ، وأنه إذا تفرغ إلى هذه الأعمال انقطع عن الكسب له ولأولاده فإذا أخذه بهذه النية بأن يستعين به على طاعة الله ولم يأخذه طمعاً به فهذا لا بأس به .

ومن خرج للجهاد من أجل الدراهم فهو ليس مجاهداً في سبيل الله ، وإن كان خرج لوجه الله ، ولكن أخذ الدراهم ليستعين بها على الجهاد فلا بأس في ذلك .

عندي من المسيح الدجال[(١)] ؟ قالوا : بلى ، قال : الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته ، لما يرى من نظر رجل »[(٢)] رواه أحمد .

---

(١) خرج النبي ﷺ إلى أصحابه وهم يتحدثون عن الدجال ، والدجال المراد به المسيح الأعور الدجال الذي يخرج في آخر الزمان - نسأل الله العافية - ومعه فتنة عظيمة ويهلك بسببه خلق كثير ، ولا يسلم إلا من سلَّمه الله ﷻ ، يحصل على يده امتحان عظيم للناس ؛ لأن معه جنة ونار ، يأمر السماء فتمطر ، ويأمر الأرض فتنبت ، ويأمر الأرض فتخرج الكنوز التي فيها ، أعطاه الله هذه الأمور من أجل الفتنة والامتحان للناس ، فكثير من الناس - والعياذ بالله - ينجرفون معه إذا رأوا معه هذه الأمور ، فهو يدعي أنه هو الله لأنه يفعل هذه الأفعال فيغتر به الناس .

النبي ﷺ أخبر أنه كذاب وأنه دجال وأنه أعور ، وأن الله ﷻ ليس بأعور ، فعليه علامات تُبيِّن أنه كذاب وأنه دجال ، ومع ذلك ينجرف معه عدد كبير من الخلق ؛ لأن فتنته عظيمة ، ثم ينزل المسيح عيسى بن مريم ﷺ فيطلبه ويقتله ويريح المسلمين من شره ، فالصحابة خافوا مما سمعوه من ذكر الدجال وفتنته ، فخرج عليهم النبي ﷺ وهم يتحدثون عنه ، فقال لهم : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال » قالوا : بلى : فقال لهم : « الرياء » فقد خافه الرسول ﷺ على أصحابه أشد مما يخاف عليهم من المسيح الدجال ، خافه على أفضل الخلق بعد الأنبياء وهم الصحابة فكيف لا نخافه نحن ؟! فيجب على المسلم أن يخاف من الرياء ، ولا يزكي نفسه وأن يبتعد عن الرياء وإذا كان فيه شيء منه فإنه يستعيذ بالله ويتوب ويرجع إليه .

(٢) سمي شركاً خفياً لأنه في القلب في النية والقصد ولا يظهر للناس منه شيء فهو يصلي ويركع ويسجد والناس يظهر لهم أن هذا عمل صالح ولكنه في قلبه لا يريد وجه الله بل يريد مدح الناس فعمله هذا غير مقبول عند الله ﷻ ، والرياء يمكن أن يكون من المنافقين الذين قال الله ﷻ فيهم : ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة النساء : ١٤٢] فيقع الرياء من المنافق النفاق الأكبر ، ويقع الرياء من المؤمن وهذا هو الخوف أن يقع من المؤمن الذي ليس بمنافق كأن يجد في نفسه من حب الثناء وحب الظهور وحب المدح عند عمل الأعمال الصالحة ، فيصلي ويسجد ويتلو القرآن ويحس في =

قوله : « عن أبي سعيد » : هو الخدري ، وتقدم قوله : « الشرك الخفي » : سماه خفياً لأنه عمل قلب لا يعلمه إلا الله ، ولأن صاحبه يظهر أن عمله لله ، وقد قصد غيره ، أو شرَّكه فيه بتزيين صلاته لأجله . ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله ، وكذلك المتابعة . قال ابن القيم : (وأما الشرك الأصغر(١) ، فكيسير الرياء ، والتصنع للخلق ، والحلف بغير الله ، وقول الرجل للرجل : ماشاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، وما لي إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا الله

نفسه شيء من محبة مدح الناس له ، فإذا أحس بحب شيء من ذلك فهذا هو الرياء ، فعليه أن يتوب إلى الله ﷻ(٥) . ذكر الحافظ بن رجب في شرح الأربعين أن الرياء إذا كان مع العمل من أصله واستمر معه حتى نهايته فإنه يبطله والحالة الثانية : أن يكون العمل في أصله خالصاً لوجه الله ثم يطرأ عليه الرياء في أثنائه ، مثال : شخص قام يصلي قاصداً وجه الله ولكن في أثناء الصلاة طرأ عليه شيء من الرياء فإن تاب إلى الله ورفض الرياء فالعمل يستمر صحيحاً ، ولكن إذا استمر معه الرياء لنهاية العمل فهو باطل وقيل : يثاب على أصله فقط ؛ لأن أصله خالص لوجه الله ، ثم طرأ عليه الرياء . فالحاصل أن الرياء خطير يحصل من المنافق ويحصل من المؤمن .

(١) الشرك الأصغر على نوعين : شرك في الألفاظ مثل قول : ماشاء الله وشئت ، والحلف بغير الله ، وشرك في المقاصد في القلب وهو النية لغير الله .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – : ما حكم ترك العمل خوفاً من الرياء ؟ فأجاب : هذا من الشيطان ؛ لأن بعض الشباب وبعض الناس والموسوسين يتركون طلب العلم ، وقد يتركون الصلاة في جماعة ، ويقولون : خوفاً من الرياء ، فالواجب أن يعمل ويخلص العمل لله ، فترك العمل شر ، والشرك شر ، فالواجب ترك الشرك ، وتقوم بالعمل الواجب ، فلا يجوز ترك العمل ، بل تعمل وتطلب العلم ، وتخرج إلى الجهاد ، وتتصدق وتصلي بالليل ، وتتهجد ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر وتخلص لله ﷻ أ.هـ

وأنت لم يكن كذا وكـذا[١] . وقـد يكـون هـذا أكـبر بحـسب حـال قائلـه ومقصده) انتهى .

(١) فإذا جمع بين الله والمخلوق بالواو فإن الواو تقتضي التشريك والمساواة فهذا شرك أصغر بالألفاظ ، وأما إذا جاءت « ثم » مثل : (لولا الله ثم أنت ، ما لي إلا الله ثم أنت) « فثم » تفيد الترتيب ، ولا تفيد التشريك .

٣٧ - بابٌ مِنَ الشِّرْكِ إرادَةُ الإنسان بعَمَلِهِ الدُّنْيا

وَقَوْلُ الله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٥ ، ١٦] .

في : « الصحيح » عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ رسول الله ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَم ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ ، إنْ أُعْطِيَ ؛ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ ؛ سَخِطَ ، تَعِسَ وانتكَسَ ، وإذا شيك فلا انتقش . طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة ؛ كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة ؛ كان في الساقة ، وإن استأذن ؛ لم يؤذن له ، وإن شفع ؛ لم يشفع » .

٣٧ - بابٌ مِنَ الشِّرْكِ إرادَةُ الإنسان بعَمَلِهِ الدُّنْيا

قوله : (باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا)[١] : أراد المصنِّف ﷺ بهذه الترجمة وما بعدما أن العمل لأجل الدنيا[٢] ، كالرياء في بطلان

(١) هذا الباب يشبه الباب الذي قبله فكان في الإخلاص في النية والشرك في النية وهذا في الإخلاص في القصد هل هو يقصد وجه الله أم يقصد طمع الدنيا ؟ وهذا يقولون : أنه أكيس وأعقل من الأول ، فالأول المرائي ما حصَّل أي شيء خاب وخسر ، أما هذا الذي يريد بعمله الدنيا حصَّل شيء من الدنيا وحصل شيء من الطمع فهو أكيس وأعقل من الأول ، لأن الأول ما حصَّل شيء أبدا لا دنيا ولا آخرة - والعياذ بالله - .

(٢) فالإنسان يعمل العمل من أعمال الآخرة لا يريد به وجه الله ، ولكن يريد به طمع الدنيا ، فيأخذ الوظيفة سواء وظيفة الإمام أو وظيفة المؤذن أو وظيفة المعلم لا يريد وجه الله وإنما =

العمل إن استرسل معه ، كما يطلب العلم لتحصيل وظيفة التعليم ، كحال أهل المدارس وأئمة المساجد والمجاهدين ، ونحوهم ، ممن يقصد بعمله الصالح أمر دنيا[1] ، وقد وقع ذلك كثيراً ، حتى إن منهم من يحرص على سفر الجهاد ، لما يحصل له فيه من جهة أمير الجيش ، واجتماعه به ، وأمره له ونهيه ، وقربه منه ، ونحو ذلك قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

يريد طمع الدنيا(*) فلو لم يكن لهذه الوظائف راتب ما دخل فيها ولا قام بها ، فهذا إنما يريد الدنيا ولا يريد الآخرة فأعمال الآخرة يجب أن تكون النية خالصة لوجه الله ولا مانع أن يأخذ ما يعطى ليستعين بذلك على عبادة الله ولكن لا يكون الراتب هو القصد والدافع له ، أما أمور الدنيا فلا مانع أن يأخذ وينوي عليها الأجرة مثل أعمال البناء والزراعة وغيرها من أجل الأجرة ولكن الكلام هنا على أعمال الآخرة ، هذه لا يقصد بها الدنيا .

(١) والعلامة أنه لو لم يكن هناك وظيفة أو راتب ما تعلم ولا جاهد في سبيل الله ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر ولا تولي إمامة المسجد ، هذا هو عبد الخميصة وعبد الخميلة .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - عن بعض أئمة المساجد يكون مدرساً أو غيره من الوظائف يعني أن له مرتباً يكفيه ، فيأخذ مكافأة لأجل إمامته أو أذانه ، فهل فعله هذا جائز ؟ فأجاب : نعم ، هذا جائز ، إن لم يكن قصده المال ، وأعطي فيأخذ ما يُعطى فهذا شيء أباحه الله ﷻ ، المهم القصد : فإن كان قصدك المال تُب إلى الله ، وأخلص النية ، ولا تترك العمل ، وأما إن كان قصدك لله فهذا لا يضرك . أ.هـ

وسئل - حفظه الله - : بعض من الإخوة المدرسين يدخل في الكليات والجامعات الدينية من أجل أن يتوظف مدرس دين ، فهل نيته في دخوله هذه الجامعة ودراسته من أجل الوظيفة والتدريس وأخذ المال على ذلك هل هذا فيه شيء ؟ فأجاب : إن كان دخوله من أجل أن يتولى تدريس العلوم الشرعية ، فهذا طيب ؛ لأن تدريس العلوم الشرعية عبادة مأمور بها ، أما إذا كان قصده الوظيفة والمال ، فيجب أن يتوب إلى الله تعالى من هذا القصد ، ولا يترك طلب العلم ، بل يدرس في الجامعة والمعهد ، لكن يتوب إلى الله من القصد السيء ، ومن إرادة الدنيا أ.هـ .

نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ الآيتين[1] سورة هود : ١٥، ١٦]، قال ابن عباس : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : ثوابها ، ﴿ وَزِينَتَهَا ﴾ أي : مالها : ﴿ نُوَفِّ ﴾ : نوفر لهم ثواب ﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ بالصحة والسرور في المال والأهل والولد ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ : لا يُنقصون ، ثم نسختها ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾[2] الآية - رواه النحاس في « ناسخه » .

وأخرج ابن جرير بسنده المتصل عن شفي بن مانع ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ﷻ إذا كان يوم القيامة نزل ليقضي بينهم[3] وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به رجل قد جمع القرآن ،

---

(١) الله ﷻ يقول : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ ويقول في الآية الأخرى : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ ﴾ [سورة الإسراء : ١٨] قيدها بالمشيئة ﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ فقد يحرم - والعياذ بالله - من الدنيا والآخرة ، فلا يحصل له مقصوده في الدنيا ، ولا يكون له أجر في الآخرة ، وقد يعطى ما نوى في الدنيا ويحرم من الأجر في الآخرة فالخطر عظيم ﴿... ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [سورة الشورى : ٢٠] هذه مثل الآية في سورة هود إلا أن في سورة هود الآية مطلقة وهذه أيضاً مطلقة ولكن في سورة الإسراء مقيدة ﴿ مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ .

(٢) الصحيح أنها ليست ناسخة وإنما مخصصة لها ، وهذه مطلقة ، وآية الإسراء مقيدة ، والتخصيص ليس نسخاً .

(٣) كما قال الله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ فالله يأتي وينزل يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده مجيئاً يليق به ، كما قال تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ

ورجل قتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال[١] فيقول الله تعالى للقارئ : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى يا رب ! قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله له : كذبت ! وتقول له الملائكة : كذبت ! ويقول الله له : بل أردت أن يقال : فلاناً قارئ ، فقد قيل ، ويؤتى بصاحب المال ، فيقول الله له : ألم أوسِّع عليك ، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يا رب! قال : فما عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق . فيقول الله له : كذبت ! وتقول له الملائكة : كذبت ! ويقول الله له : بل أردت أن يقال : فلان جواد ، فقد قيل ذلك ، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله ، فيقال له : فبماذا قُتلت ؟ فيقول : أُمرت بالجهاد في سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت . فيقول الله له : كذبت ! وتقول الملائكة : كذبت ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان جريء ، وقد قيل ذلك » ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال : « يا أبا هريرة ! أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة[٢] قوله : في الصحيح عن

ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ ... أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٨] فهذا دليل على إتيان الله ﷻ يوم القيامة إتياناً يليق بجلاله ، وليس المراد كما يقول أهل التأويل : يأتي أمره أو ينزل أمره ، أو يجيء أمره ، فهذا تأويل باطل .

(١) هؤلاء الثلاثة أعمالهم جليلة : الأول : طالب علم يقرأ القرآن ، والثاني : مجاهد في سبيل الله ، والثالث : كثير الصدقة ، لكن قصدهم الرياء ماذا يكون مصيرهم - والعياذ بالله - مع أن أعمالهم هذه هي أفضل الأعمال ؛ لكن لما دخلها الرياء وطمع الدنيا فسدت .

(٢) هذا خطر عظيم ، فالله ﷻ لا تخفى عليه نياتهم ومقاصدهم ، ولذلك بيَّنها يوم القيامة ، وفضحهم بها .

أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « تعس عبد الدينار عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد الخميلة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يُشَفَّع »[1] قوله : في الصحيح أي : صحيح البخاري . قوله :

(١) تقدم بعض الكلام على هذا الحديث ، وقد ساقه الشيخ ﵀ في باب (من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا) ، ليبين أن الإنسان إذا قصد طمع الدنيا بعمل الآخرة ، أن ذلك يعتبر من الشرك ؛ لأن الواجب إخلاص العمل لله ﷻ ، فإذا دخله نية لغير الله صار ذلك شركاً ، وسماه في هذا الحديث عبداً لهذه الأشياء والتي هي من العروض الدنيوية ، إما ملابس وهي الخميصة ، وإما مفارش وهي الخميلة والقطيفة أو السجادة التي يجلس عليها ، وإما نقود وهي الدراهم والدنانير .

فالذي يعمل الأعمال الصالحة التي ظاهرها أنها لله ، كالجهاد في سبيل الله ، لكن لا يقصد بذلك وجه الله ، وإعلاء كلمة الله ، وإنما يغزو لأجل المغانم ، وتحصيل أعراض الدنيا من الذهب والفضة ، والملابس وغير ذلك ، فهذا ليس له إلا ما قدَّم ، وليس له أجر عند الله تعالى ، وسماه الرسول ﷺ عبداً لهذه الأشياء ، لأنه قصدها في عمله ، ولم يقصد وجه الله (*) .

فإذا كان قصد الإنسان طمع الدنيا بأعمال الآخرة ، فإنه يكون شركاً في العمل ، وهو من الشرك الأصغر ، مثل الرياء في الباب الذي قبله ، هذا مراد الشيخ ﵀ .

وقد دعا النبي ﷺ على من قصد الطمع في الدنيا بأعمال الآخرة بالتعس : وهو الهلاك ،

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – : من تصدق ليكثر ماله ، أو ليشفي الله مريضه ، هل هذا من الرياء ؟

فأجاب : لا ، هذا من إرادة الإنسان بعمله الدنيا ، ليس من الرياء ، كما ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ذكر أربعة أصناف يدخلون في هذه الآية . منهم من عمل عملاً صالحاً يريد به وجه الله ، ولكن لا يريد به ثواب الآخرة ؛ بل يريد أن يُشفى مرضه ، أو يكثر ماله ، فهذا يريد بعمله الدنيا ، فليس له إلا الدنيا فقط ، وليس له في الآخرة أجر أ.هـ .

فقال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ... » ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [سورة محمد : ٨] ، فمعنى تعساً : أي هلاكاً .

« تعس وانتكس » : أي انتكس عن الحق . « وإذا شيك فلا انتقش » : يعني إذا أصابته شوكة لا يقدر على أخذها من العجز ، عقوبة له .

ثم أثنى رسول الله ﷺ على المخلص في عمله وفي جهاده في سبيل الله ، الذي لا يقصد الدنيا ، وإنما يقصد الآخرة ، والدليل على ذلك أنه أشعث رأسه ، مغبرة قدماه في الجهاد ، لم يتفرغ لتصفيف شعره ، وتجميله وتجعيده ، ولم يلبس على رجليه الأحذية الفاخرة ، والخفاف البهية ، وإنما يعلوها الغبار ، وهذا الغبار شرف ؛ لأنه في سبيل الله ﷻ ، هذا غبار المجاهدين ، وهو أثر الجهاد ، فهو شرف وأجر للمجاهد في سبيل الله .

ثم أيضاً لا يهمه أين يكون في الجيش ، في المقدمة أم في المؤخرة ؛ لأن مقصده الجهاد في سبيل الله ، فلا يهمه البروز والظهور ، وإنما يهمه الجهاد في سبيل الله ، ورضا الله ﷻ ، ونَفْع المسلمين ، وهذا دليل على سلامة قصده ، وحسن نيته .

« آخذ بعنان فرسه » : يعني على استعداد دائم ، يترقب الجهاد ، لم ينشغل بالدنيا ونعيمها ، بل هو على أهبة الاستعداد دائماً ، عنده فرسه مسرجها ومهيؤها للجهاد في سبيل الله في أي ساعة يُطلب منه ، يركب فرسه للجهاد ، وهذا له أجر المجاهد ؛ لأنه ينوي الجهاد ويعزم عليه .

ثم أيضاً ليس له قيمة عند الناس ؛ لأنه لا يحب الظهور ، ولا يهمه مجالسة الملوك ، والدخول على السلاطين ؛ بل يهمه أن يكون عمله لله ، فهو وليٌّ من أولياء الله ﷻ ، هو مقدم عند الله وإن كان مؤخراً عند الناس ، ولهذا ، إن استأذن لم يؤذن له » : أي إن استأذن على الملوك والأمراء لم يؤذن له ، لأنه غير معروف ، والأمراء والسلاطين إنما يأذنون للمشهورين والبارزين ، أما المختفون فلا يتنبهون لهم ، وهذا العبد من هذا الصنف ، من الذين لا يُحبون أن يُنتبه لهم ، وهذا دليل على الإخلاص لله تعالى .

« وإن شفع لم يُشَفَّع » : إن توسط عند الناس الذين عندهم حاجات الناس مثل : الموظفين ، والوزراء ، والأمراء ، والسلاطين ، لا تقبل وساطته ؛ لأنه غير معروف ، وهم لا يوسطون إلا المشهورين والأكابر . كل هذه علامات على إخلاص هذا العبد لله ﷻ ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه »(*) ، منهم

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٠٢٤ (٢٦٢٢) .

« تعس » هو - بكسر العين ويجوز الفتح -[١] أي : سقط ، والمراد هنا : هلك ، قاله الحافظ ، وقال أبو السعادات : (يقال : تعس يتعس إذا عثر وانكب لوجهه ، وهو دعاء عليه بالهلاك)[٢] قوله : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم » سماه عبداً له لكونه هو المقصود بعمله[٣] ، فصار عبداً

البراء بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

هذا الذي لا يراه الناس شيئاً إذا كان مخلصاً لله ، فإنه يكون مقدماً عند الله ، لو أقسم على الله لأبره ، وأعطاه ما يريد ، وفي هذا الحث على الإخلاص ، والتواضع ، وعدم الظهور والبروز .

هذا فرق ما بين الرجلين : الذي في أول الحديث الذي يريد الدنيا - عبد الخميصة ، عبد الخميلة ، عبد الدرهم والدينار ، وبين الرجل الذي في آخر الحديث الذي يريد الآخرة ، ففيه الحث على الإخلاص لله ﷻ في أمور العبادة ، وأما أمور الدنيا فيطلبها بالأسباب المباحة ، كالبيع والشراء ، والإجارة ، والزراعة ، لا حرج في ذلك ، بل هو مأمور بهذا ، لكن لا يطلب الدنيا بعمل الآخرة هذا هو المقصود من هذا الحديث ، دع عمل الآخرة للآخرة ، وعمل الدنيا في الدنيا .

(١) تَعِسَ وتَعَسَ .

(٢) يعني الأصل في اللغة : أن تعس معناه : سقط . وأما في الشرع ، فمعناه الهلاك ، وهو المراد في الحديث .

(٣) أي : بعمل الطاعة ، بأن يقصد الدنيا والدرهم ، والخميصة والخميلة بعمل الآخرة ، هذا هو المذموم ، كمن يطلب العلم لأهل الوظيفة ، يتولى الأعمال الدينية من أجل الوظيفة ، يتعلم من أجل الوظيفة ، قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة هود: ١٥ - ١٦] هذا وعيد ، وقد ذكر الشيخ هذه الآية في أول الباب .

أما لو قصد الدينار والدرهم ، والخميصة والخميلة بعمل الدنيا ، بالأسباب المباحة ، فلا بأس في ذلك .

له ؛ لأنه عبده بذلك العمل[١] . قوله : « تعس عبد الخميصة » قال أبو السعادات : (هو ثوب خزٍّ أو صوف معلَّم)[٢] .

والخميلة - بفتح الخاء المعجمة - قال أبو السعادات : (ذات الخمل ، ثياب لها خَمَل من أي شيء كان) ، والمراد كل ما كان من الدنيا نقداً كان أو عَرْضاً[٣] ؛ لأنه ذكر النوعين . قال أبو السعادات : (أي : انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة) . قوله : « وإذا شيك فلا انتقش » أي : إذا أصابته شوكة فلا يقدر على إخراجها بالمناقيش ، قاله أبو السعادات . قال شيخ الإسلام : (فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة وذكر فيه ما هو دعاء عليه بلفظ الخبر ، وهو قوله : « تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه وهذه حال من عبد المال وقد وصف ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن منع سخط[٤] ، فرضاه لغير الله وسخطه لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً

---

(١) بالقصد ، يعني قصده بعمله ، هذه العبودية : ذلَّ له ، وخضع له ؛ لأن العبودية معناها : الذل والخضوع .

(٢) وهو نوع من الألبسة في ذلك الوقت .

(٣) أو عَرْضاً - بسكون الراء - يعني من العروض ، أما العَرَض - بفتح الراء - فالمراد به الزمان ، فإذا قيل : عَرَض فالمراد به الزمان ، وإذا قيل : عَرْض فالمراد به المكان .

(٤) علامته أنه إذا أعطي شيئاً من الدنيا رضي ، رضي على ولي الأمر ، أو الأمير ، أو على غيره من الناس ، وصار يمدحه ، وإن منعه سخط ، فهو يحب ويبغض من أجل الدنيا ، هذا هو الميزان عنده ، وهذا مثل المنافقين الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٥٨] . يعني
=

برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي وإن لم يحصل له سخط[١] ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له : إذ الرق والعبودية في الحقيقة رق القلب وعبوديته[٢] فما استرق القلب واستعبده

يريدون الدنيا ، يوالون عليها ، ويعادون عليها ، حتى خير الخلق وهو محمد ﷺ إن أعطاهم رضوا عنه ، وإن لم يعطهم سخطوا عليه ؛ لأن همهم الدنيا ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٥٩] ، ولو أنهم توجهوا هذا التوجه الشريف لنالوا السعادة في الدنيا والآخرة ، مثل ما عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . فالصحابة لا تهمهم الدنيا ، يجاهدون لله ﷻ ، لكن إذا أعطوا شيئاً أخذوه ؛ لأن الله أباحه لهم ، وإن لم يعطوا لا يصيبهم همٌّ ، ولا شيء ، ومحبتهم لله ورسوله باقية ، لا ينقصها أنهم لم يُعطوا شيئاً من الدنيا .

(١) هذه العلامة الفارقة ، المؤمن لا فرق عنده بين العطاء وعدمه ، إيمانه هو هو ، لا ينقص ولا يضعف ، بل يزيد إيمانه لأنه لا يقصد الدنيا ، وإنما قصده رضا الله ﷻ ، وثواب الآخرة ، هذا قصد المؤمن ، أما المنافق فهو بالعكس يقصد الدنيا إن أعطي رضي ، وإن لم يُعط سخط .

(٢) ولهذا كان النبي ﷺ يعطي ناساً ، وإن كانوا من أبغض الناس إليه ، يخاف عليهم من النار ، لأنه لو لم يعطهم لانتكسوا ، فهو يتألفهم ﷺ ، ويحرم ناساً وإن كانوا من أحب الناس إليه ، يكلهم إلى إيمانهم(*) ، لأنهم يريدون الآخرة ، ولا تهمهم الدنيا ، ومحبتهم لله ولرسوله ﷺ لا تنقص إذا لم يُعطوا .

(*) يقصد بذلك حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس ، فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليَّ ، فقلت : يا رسول الله ، مالك عن فلان ، فوالله إني لأراه مؤمناً ، فقال : « أو مسلماً » ، فسكت قليلاً ثم غلبني ما أعلم منه ، فعدت لمقالتي فقلت : مالك عن فلان ؟ فوالله إني لأراه مؤمناً ، فقال : « أو مسلماً » ، ثم غلبني ما أعلم منه ، فعدت لمقالتي ، وعاد رسول الله ﷺ ثم قال : « يا سعد إني لأعطي الرجل ، وغيره أحب إلي منه ، خشية أن يكبه الله في النار » متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ١٨ (٢٧) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ١٣٢ (١٥٠) ، واللفظ للبخاري .

فهو عبده) إلى أن قال : (وهكذا أيضاً حال من طلب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه وهذه الأمور نوعان : فمنها : ما يحتاج إليه العبد ، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك ، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه(١) فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه ، من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً(٢) ومنها : ما لا يحتاج إليه العبد(٣) ، فهذه ينبغي أن لا يُعلِّق قلبه بها ، فإذا تعلَّق قلبه بها صار مستعبداً ومعتمداً على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ، ولا حقيقة التوكل على الله ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غيره ، وهذا أحق الناس بقوله ﷺ : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة » وهذا عبد لهذه الأمور ، ولو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياها رضي ، وإن منعه إياها سخط(٤) وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله ، ويسخطه

---

(١) يطلبه من الله ، ويرغب إلى الله في ذلك ، ويبذل الأسباب المباحة لنيل الرزق ، ما فيه بأس ، فالله عز جل أمر بطلب الرزق ، قال تعالى : ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [سورة العنكبوت: ١٧] ، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الجمعة: ١٠] ، يعني : اطلبوا الرزق ، ولا تبقوا عالة على الناس .

(٢) فرق بين من استعبد المال ، ومن استعبده المال ، من استعبد المال يستخدمه لحاجته ، وأما الذي يستعبده المال فهو الذي يرضى لأجله ، ويغضب لأجله ، هذا عبدٌ للمال .

(٣) من فضول الدنيا ، لذة الدنيا الزائدة عن الحاجة تسمى فضولاً .

(٤) فالعبد لا يُؤْثر على طاعة الله ورضاه شيئاً ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [سورة =

ما يسخط الله ، ويحب ما أحب الله ورسوله ، ويبغض ما أبغض الله ورسوله ، ويوالي أولياء الله ، ويعادي أعداء الله ، فهذا الذي استكمل الإيمان) أ.هـ ملخصاً . قوله : « طوبى لعبد » روى الإمام أحمد عن حسن بن موسى قال : سمعت عبد الله بن لهيعة ، حدثنا دراج أبو السمح ، أن أبا الهيثم حدثه عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك . قال : « طوبى لمن رآني وآمن بي ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني ، قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » له شواهد في الصحيحين وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبِّه ها هنا آثراً غريباً عجيباً قال وهب[1] : « إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى ، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، زهرها رياض وورقها برود ، وقضبانها عنبر ، وبطحاؤها ياقوت ، وترابها كافور ، ووحلها مسك يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل ، وهي مجلس لأهل الجنة فبينما هم في مجلسهم إذ

التوبة : ٢٤] هذا تهديد من الله ﷻ للذي يُؤْثِر الدنيا على طاعة الله ورضاه ، متوعد بهذا الوعيد « فتربصوا » : أي انتظروا ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ : بالنقمة العاملة ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ هذا وعيد شديد للذي يؤثر الدنيا على رضا الله سبحانه . فيجلس يبيع ويشتري ، ويتخلف عن الصلاة في الجماعة ، هذا عبد للمال ، الله ﷻ يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الجمعة : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [سورة المنافقون : ٩] .

(١) وهب بن مُنبِّه كان من علماء أهل الكتاب في اليمن ، ثم مَنَّ الله عليه بالإسلام ، وهو من أحبار أهل الكتاب .

أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نجباً مزمومة بسلاسل من ذهب ، وجوهها كالمصابيح من حسنها ، ووبرها كخز المرعزي من لينه ، عليها رحال ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب ، وثيابها من سندس وإستبرق ، فينيخونها ويقولون : إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلِّموا عليه ، قال : فيركبونها ، قال : فهي أسرع من الطائر وأوطأ من الفراش خباً من غير مهنة ، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه لا تصيب أذن راحلة منها أذن صاحبتها ، ولا برك راحلة برك الأخرى ، حتى إن الشجرة لتتنحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه ، قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه فإذا رأوه قالوا : اللهم أنت السلام ومنك السلام وحق لك الجلال والإكرام . قال : فيقول ﷻ عند ذلك : أنا السلام ومني السلام وعليكم حقت رحمتي ومحبتي مرحباً بعبادي الذين خشوني بالغيب ، وأطاعوا أمري قال : فيقولون : ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك ، ولم نقدرك حق قدرك فأذن لنا بالسجود قدامك . قال : فيقول الله : إنها ليست دار عبادة ولا نصب ، ولكنها دار ملك ونعيم ، وإني قد رفعت عنكم نصب العبادة فسلوني ما شئتم فإن لكل رجل منكم أمنيته ، فيسألونه حتى إن أقصرهم أمنية ليقول : رب تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا ، رب فآتني مثل كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا ، فيقول الله تعالى : لقد قصرت بك أمنيتك ، ولقد سألت دون منزلتك ، هذا لك مني ؛ لأنه ليس في عطائي نكد ولا قصر يد ، قال : ثم يقول : اعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أمانيهم التي في أنفسهم فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرَّنة على كل أربعة منها سرير

من ياقوتة واحدة على كل سرير منها قبة من ذهب مفرَّغة في كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة ، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين ، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة وليس في الجنة ، لون إلا وهو فيهما ، ولا طيب إلا وقد عبق بهما ، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة ، يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ، ويرى لهما مثل ذلك ، ثم يدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ، ويقولان له : ما ظننا أن الله يخلق مثلك ، ثم يأمر الله الملائكة فيسيرون بهم صفاً في الجنة حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له » أ.هـ قوله : « أشعث » مجرورة بالفتح ، لأنه اسم لا ينصرف للوصف ووزن الفعل . و« رأسه » مرفوع على الفاعلية ، وهو طائر الشعر شغله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالادِّهان وتسريح الشعر[1] . قوله : « مغبرة قدماه » : هو بالجر صفة ثانية لعبد . قوله : « إن كان في الحراسة » أي : حامية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم .

قوله : « كان في الحراسة » أي : غير مقصر فيها ولا غافل .

قوله : « وإن كان في الساقة كان في الساقة » أي : في مؤخرة الجيش يُقلِّب نفسه في مصالح الجهاد وبما فيه حفظ المجاهدين من عدوِّهم ، قال الخلخالي : (المعنى ائتماره بما أمر وإقامته حيث أقيم[2] لا يُفقد من

---

(١) هو مطلوب من الإنسان أن يتجمل وأن يسرِّح شعر رأسه ويدهن ويرجل شعره ، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك ، ولكن هذا الرجل شغله الجهاد في سبيل الله عن نفسه .

(٢) ائتماره بما أمر وإقامته حيث أقيم : يعني أنه يطيع الأمير فيما وضعه فيه من الجيش ولا =

مكانه[١] وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة)[٢] . قوله : « إن استأذن لم يؤذن له » أي : إن استأذن على الأمراء ونحوهم ، لم يأذنوا له[٣] ؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة ؛ لأنه ليس من طلابها[٤] وإنما يطلب ما عند الله ، قوله : « وإن شفع لم يُشفَّع » يعني لو ألجأته الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله ، لم تقبل له شفاعة عند الأمراء ونحوهم[٥] .

وعن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يصام نهارها ويقام ليلها » وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك من طريق محمد ابن إبراهيم بن أبي سُكينة قال : أملى علي عبد الله بن المبارك هذه الأبيات[٦] بطرسوس ،

تهمه الدنيا ، يصير حارساً ، أو يصير في آخر الجيش يتفقد ضعفه ، ويتفقد الذين يتعطلون يحملهم ويساعدهم .

(١) السمع والطاعة لولي الأمر تقرباً إلى الله في مصالح المسلمين .

(٢) لأن الحارس لا ينام بالليل ويتعرض للخطر ، ولكن هذا يسهل على المجاهد في سبيل الله ؛ بل يتلذذ بها لأنها سبيل إلى الجنة .

(٣) إن استأذن في الدخول على الأمراء لم يأذنوا له ؛ لأنه غير معروف عندهم .

(٤) لا يطلب الجاه ولا يطلب الحضرة عند ولاة الأمور .

(٥) لأنه غير معروف ، وليس له جاه عندهم ، لكن هذا لا يضره عند الله ﷻ .

(٦) هذه الأبيات عجيبة من عبد الله بن المبارك ﷺ ، وكان من العلماء الأفذاذ المحدِّثين ، ومن التجار ، جمع الله له بين العلم والثروة والغنى ، وكان من المجاهدين في سبيل الله ، يغزو في سبيل الله ، وكان الفضيل بن عياض من العبَّاد المنقطعين للعبادة في المسجد الحرام ، فعبد الله بن المبارك كتب له هذه الأبيات ، لأن عبد الله بن المبارك شاعر فصيح يقول : نحن في الجهاد أفضل منكم في العبادة في المسجد الحرام ، والمجاهد في سبيل الله أفضل من المعتكف في المسجد الحرام الذي يصلي ويتهجد ويصوم ويطوف بالبيت هذه عبادات عظيمة ؛ لكن الجهاد في سبيل الله أفضل منها .

وودعته للخروج وأنفذها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومئة :

يَا عَابِدَ الحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي العِبَادَةِ تَلْعَبُ[1]
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ[2]
أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتْعَبُ
رِيحُ العَبِيرِ لَكُمْ ونَحْنُ عَبِيرُنَا رَهَجُ السَّنَابِكِ والغُبَارُ الأَطْيَبُ[3]
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ
لَا يَسْتَوِي غُبَارُ خَيْلِ اللهِ فِي أَنْفِ امرِئٍ ودُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ[4]

قال : فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرفت عيناه . وقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصحني ، ثم قال : أنت ممن يكتب الحديث ؟ قلت : نعم ، قال لي : اكتب هذا الحديث ، كِراءَ حَمْلِك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا ، وأملى علي الفضيل بن عياض : قال حدثنا منصور بن المعتمر ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ « أن رجلاً قال : يا رسول

---

(١) يعني أنقص مما عندك ، فهو في عبادة عظيمة ، لكن أنقص من الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله لا يعدله شيء .
(٢) يقول : أنتم تبكون من خشية الله في الصلاة وفي التهجد وهذا طيب مشروع البكاء من خشية الله ، لكن أطيب منه الدم في سبيل الله ، الدم في سبيل الله أفضل من الدموع من خشية الله في العبادة .
(٣) يقول : إن غبار الجهاد في سبيل الله أفضل من أفخر الأطياب عند الناس . الناس يكرهون الغبار ؛ لأنه يضر لكنه إذا كان في سبيل الله فإنه أطيب من أفخر الأطياب .
(٤) الشهيد هو المقتول في سبيل الله لإعلاء كلمة الله .

علمني عملا أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله ، فقال : « هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر ، وتصوم فلا تفطر ؟ » فقال : يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال النبي ﷺ : « فوالذي نفسي بيده لو طُوِّقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله ، أو ما علمت أن فرس المجاهد ليستن في طِولَه فيُكتب له بذلك حسنات »(١) .

---

(١) يقول الله ﷻ : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٩٥ - ٩٦] المجاهد في سبيل الله أفضل من القائم الذي لا يفتر طول الليل يصلي ، والصائم الذي لا يفطر أبداً ، فلو قام أحد من صلاة العشاء إلى الفجر كل ليلة ، وصام كل يوم ما عدل ذلك أجر المجاهد في سبيل الله(*) .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - : ما هي أبواب الجهاد التي ترونها في هذا الزمان وتدلون عليها للعمل فيها ؛ لنيل الثواب العظيم ؛ فأجاب :

الجهاد أنواعه كثيرة ، من أراد أن يطلع عليها يراجع « زاد المعاد » لابن القيم . يكون الجهاد أولاً للشيطان : يجاهد الشيطان وذلك بمعصية أمره ، وفعل نهيه تجاهد الشيطان بفعل ما ينهاك عنه وترك ما يأمرك به .

ثانياً : جهاد النفس : النفس تحتاج إلى الجهاد : لأنها لا تريد العمل ، تريد البطالة تريد الكسل ، تريد النوم ، تبخل بالمال ، تجبن عن القتال في سبيل الله ، فإذا طاوعتها فإنها تتسلط عليك ، وتصير عبداً لها ، عبداً لهواك ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [سورة القصص : ٥٠] ، لابد من جهاد النفس ، بحملها على طاعة الله ومنعها من معصية الله ، وإلا فهي تجاذبك إلى الشر وتبعدك عن الخير ، إلا إذا روَّضتها وعوَّدتها على طاعة الله ﷻ .

يقول الشاعر :

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتها ... وإذا تُرَّد إلى قليل تقنعُ

فإن رغَّبتها وأعطيتها ما تريد راغبة دائماً راغبة ، وإذا رددتها إلى القليل وعوَّدتها على القليل توقفتْ ، وهذا جهاد لا ينقطع أبداً جهاد مستمر ، جهادك مع الشيطان جهادك مع النفس .

الثالث : جهاد العصاة من المسلمين : وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الرابع : جهاد المنافقين : الذين يُدلون بالشبهات ، ويتكلمون بالكلام القبيح ، فهم يحتاجون إلى جهاد لردِّ باطلهم ، والرد عليهم ، وكشف حججهم ، ولا تنسَ أنهم يكونون مثقفين ومتعلِّمين وعندهم قدرة على الكلام : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [سورة المنافقون : ٤] عندهم فصاحة وبلاغة ، عندهم شبه فيما يكتبون وفيما يقولون وفيما يخطبون وفيما يؤلفون ، يحتاجون إلى الجهاد ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة التوبة : ٧٣] فالمنافقون لا يُجاهَدون بالسلاح لأنهم يدَّعون الإسلام ، يصلُّون ويصومون ويتعبدون مع الناس ، لا يُجاهَدون بالسلاح ، يُجاهَدون بالحجة واللسان ، وذلك بردِّ باطلهم وكشف شبهاتهم ، وما أكثرهم اليوم !! ما أكثرهم في الإذاعات ما أكثرهم في الصحف ، والمجلات ، ما أكثرهم في المؤلفات ، يهدمون على المسلمين وعلى الإسلام يأتون بشُبه ، يأتون بكلام ظاهره أنه حجج ولكنه في باطنه باطل ، فهم يحتاجون إلى جهاد .

الخامس : جهاد الكفار وذلك بالسِّلاح ، لإعلاء كلمة الله ﷻ .

هذه أنواع الجهاد ، وكلٌّ له من هذه الأنواع حظ ونصيب ، ما هنا أحد ليس بمجاهد ، يجاهد الشيطان ، يجاهد نفسه ، يجاهد العصاة من المسلمين ، وأقربهم أهل بيته يجاهدهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [سورة التغابن : ١٤] يجاهد أهل بيته ، يجاهد من انحرف من العصاة ، يجاهد المنافقين ، وما أكثر المنافقين اليوم ، يجاهد الكفار إذا قام عَلَم الجهاد مع ولاة أمور المسلمين فلتجاهد معهم إن استطعت أ.هـ .

٣٨ - بَابُ مَن أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرَّم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ : « يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُم حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، أَقُولُ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ، وَتَقُولُونَ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ؟ » .

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ : (عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ ، وَالله تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة النور : ٦٣] ، أَتَدرِي مَا الفِتْنَةُ ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ ، لَعَلَّهُ إِذَا ردَّ بعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ) .

وَعَنْ عَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هذِهِ الآيَةَ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة التوبة : ٣١] ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ . قَالَ : « أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ الله فَتُحَرِّمُونَهُ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ الله فَتُحِلُّونَهُ ؟ » . فَقُلْتُ : بَلَى . قَالَ : « فَتِلْكَ عِبَادَتُهُم » . رَوَاه أَحْمَدُ ، وَالتِّرمِذِي ، وَحَسَّنَهُ .

٣٨ - باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله

قوله : (باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله)(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى :

(١) هذه الترجمة مأخوذة من قوله تعالى عن اليهود والنصارى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة التوبة : ٣١] ولكن ليس فيه ذكر الأمراء ، فالشيخ يشير إلى الآية الأخرى في سورة الأحزاب : ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا =

ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [سورة الأحزاب: ٦٧] يشير إلى هذه الآية في إدخال الأمراء في هذه الترجمة، وهذا من فقهه ﷺ، الأصل وجوب طاعة أولي الأمر من العلماء والأمراء في غير معصية الله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [سورة النساء: ٥٩] فإن أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، كما قال ﷺ: « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »(*) هذا يشمل الأمراء والعلماء، وقال ﷺ: « إنما الطاعة في المعروف »(**) والأحبار: جمع حِبر أو حَبر، وهو العالم من اليهود ويشمل العلماء من غيرهم، والرهبان جمع راهب وهو العابد من النصارى، وذلك لأن الناس في الغالب يطيعون هذين الصنفين: العالم لعلمه، والعابد لعبادته والثقة به، فلذلك يقع منهم في طاعة هؤلاء المحذور في بعض الأحيان، قوله: « فقد اتخذهم أرباباً »: أي معبودين من دون الله ﷻ، فدل على أن طاعة العلماء والأمراء في تغيير الأحكام الشرعية أنه شرك لأنهم اتخذوهم أرباباً، لأن التشريع حق لله ﷻ هو الذي يحلل ويحرم ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ [سورة الشورى: ٢١] سماهم شركاء، قال ﷻ: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٢١] يعني أطعتموهم في تحليل الميتة ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ ﴾ [سورة الأنعام: ١٢١] فكان المشركون يأكلون الميتة ويتلقون هذه الشبهة من المجوس، يقولون: الميتة أولى بالأكل من المذكاة، لأن الميتة ذبحها الله، وأما المذكاة فأنتم تذبحونها، هذا معنى قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ ﴾: مشركو العرب. فسمى كفار المجوس شياطين الإنس ﴿ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ ﴾ فيقولون: كيف لا تحل الميتة، وهي قد ذبحها الله، فتحرمون ما ذبحه الله وتستحلون ما ذبحتم أنتم؟ هذا من قول الشياطين ولا اعتراض على حكم الله ﷻ قال الله ﷻ: ﴿ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ ﴾ في استحلال الميتة ﴿ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾: اتخذتموهم محللين ومحرمين ﴿ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ ﴾ هذا شرك في الطاعة وهو على ثلاثة أقسام: الأول: إن كان الذي أطاعهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال يعلم أنهم قد

(*) أخرجه البغوي في « شرح السنة » ١٠ / ٤٤ (٢٤٥٥)، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » ٢ / ١٠٩٢ (٣٦٩٦).

(**) متفق عليه، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٦ / ٢٦١٢ (٦٧٢٦)، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٤٦٩ (١٨٤٠).

=

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [سورة الأحزاب : ٦٧](1)

قوله : وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول : قال رسول الله ﷺ وتقولون : قال أبو بكر وعمر »(2) وقال

حللوا وحرموا من عند أنفسهم وأنهم خالفوا شرع الله ﷻ ، أحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله ووافقهم على ذلك فإنه مشرك الشرك الأكبر .

الثاني : إذا كان يعلم أنهم أحلوا وحرموا من عند أنفسهم وأطاعهم لا موافقة لهم وهو يعتقد أن التلحيل والتحريم لله ، لكن أطاعهم لهوى في نفسه أو شهوة فهذا كبيرة من كبائر الذنوب ، وهو شرك أصغر ؛ لأنه طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﷻ .

الثالث : أنه لا يعلم أنهم حللوا وحرموا مخالفين لتشريع الله أحسن الظن بهم وأطاعهم عن جهل ، فهذا لا يؤاخذ لأنه معذور بجهله وعدم التعمد ، هذا هو التفصيل في هذه المسألة . إذاً فطاعة العلماء والأمراء ليست جائزة مطلقاً ، ولا محرمة مطلقاً ، بل فيها هذا التفصيل ، مع مراعاة هذا القيد : (في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله) أما أنه لا تجوز طاعة العلماء والأمراء مطلقاً ، فهذه ضلال لا أحد يقول به إلا أهل الضلال الخوارج ومن شابههم . طاعة العلماء والأمراء واجبة بالمعروف قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [سورة النساء : ٥٩] طاعتهم واجبة ما لم يأمروا بمعصية الله ﷻ .

(١) يعني في الترجمة ، الترجمة فيها الأمراء والآية ليس فيها (اتخذوا أمراءهم) فالشيخ رحمه الله يشير بالترجمة إلى الآية الأخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [سورة الأحزاب:٦٧] فطاعة السادة والكبراء في معصية الله ضلال عن السبيل .

(٢) كلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذا قاله بمناسبة أن أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يريان فسخ الحج إلى العمرة الذي أمر به النبي ﷺ ، فكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخليفتان الراشدان أفضل هذه الأمة لا يريان فسخ الحج إلى العمرة ، بل يرون الإفراد ولا يرون العمرة في أشهر الحج من أجل أن لا تنقطع الزيارة عن البيت ؛ لأن الناس إذا اعتمروا في أشهر الحج لا يأتون في بقية السنة فيُهجر البيت فرأيا المنع من فسخ الحج إلى العمرة من أجل أن تكون الزيارة للبيت مستمرة وهذا اجتهاد منهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، لكن الرسول ﷺ أمر

=

بفسخ الحج إلى العمرة ، فلما كان اجتهاد الخليفتين مخالفاً لنص الرسول ﷺ أنكر ابن عباس على من رأى رأيهما هذا الإنكار الشديد فقال : « أقول قال رسول الله » يعني رسول الله أمر بفسخ الحج إلى العمرة لأنهم لما طافوا بالبيت حجة الوداع ، أمر من لم يسق معه الهدي أن يفسخ الحج إلى العمرة ويكون متمتعاً ، وأما من ساق الهدي فيبقى على إحرامه إلى أن يذبح هديه ، وكان رسول الله ﷺ ممن ساق الهدي فبقي على إحرامه قارناً وتأسف ﷺ ، وقال : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولأحللت معكم »(*) فدل هذا على أن فسخ الحج إلى العمرة في أشهر الحج أنه أفضل لمن لم يسق الهدي هذه سنة الرسول ﷺ ، وهذا وجه إنكار ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فإذا كان من ترك السنة وأخذ برأي الخليفتين الراشدين يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء ، فكيف بمن ترك السنة لرأي من هو دون أبي بكر وعمر ، الأمر أشد ، فسخ الحج إلى العمرة اختلف العلماء فيه ، هل هو واجب أو مستحب ؛ أو هو خاص بالصحابة فقط الذين مع الرسول ﷺ وليس عاماً ؟ المسألة فيها خلاف ذكره ابن القيم رحمه الله في « زاد المعاد »(**) مفصلا وكأنه يميل رحمه الله إلى الوجوب ، والجمهور يرون أنه مستحب وليس بواجب ، فوجه الشاهد من هذا أن من أطاع أبا بكر وعمر في مخالفة سنة الرسول فإنه متوعد ، يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء كما نزلت على الأمم السابقة لما خالفوا أمر الله ، هذا يدل على أن الأمر عظيم ، وعلى أنه لا تجوز طاعة العلماء والأمراء إذا خالفوا كتاب الله أو سنة رسوله ولو كانوا مجتهدين ، المسألة في مسألة اجتهاد فكيف بالذي يطيع من ليسوا مجتهدين بل متعمدين للمخالفة من الأمراء والعلماء ويطيعهم ، هذا كما ذكرنا شرك أكبر ، كفر بالله عز وجل وهذا عليه اليهود والنصارى الذين لعنهم الله عز وجل : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [سورة التوبة : ٣١] غلوا فيه عليه السلام حتى قالوا : هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة – تعالى الله عما يقولون ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٣١] ، سمى اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله سماه شركا ، وكيف اتخذوهم ؟ سيأتي تفسير الآية في حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٦ / ٢٦٤٢ (٦٨٠٢) .

(**) انظر : « زاد المعاد » ٢ / ١١٢ – ٢٠٦ .

أيضاً : « أراهم سيهلكون أقول : قال رسول الله ﷺ ويقولون : قال أبو بكر وعمر » . وفي « صحيح مسلم » عن ابن أبي مليكة ، أن عروة بن الزبير قال لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ يأمر الناس بالعمرة في هذه العشر وليس فيها عمرة[1] ، فقال عروة : فإن أبا بكر وعمر لم يفعلا ذلك ، فقال الرجل : « من هاهنا هلكتم ما أرى الله إلا سيعذبكم ، أحدثكم عن رسول الله ﷺ وتخبروني بأبي بكر وعمر » قال الإمام الشافعي ﷺ : (أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد)[٢] .

وقال الإمام مالك ﷺ : (ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ)[٣] .

---

(١) يعني عشر ذي الحجة وليس فيها عمرة كما ذكرنا إنهم لا يرون العمرة في أشهر الحج من أجل أن لا يهجر البيت .

(٢) نعم هذه كلمة الإمام الشافعي « أجمع العلماء » الإجماع حجة قاطعة « أجمع العلماء على أن من استبانت » يعني اتضحت له « سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها » يعني يتركها : « لقول أحد » كائناً من كان ؛ لأن طاعة الرسول ﷺ بعد طاعة الله واجبة وإنما تأتي طاعة العلماء إذا لم تخالف طاعة الله وطاعة رسوله مشروطة بهذا ، فهذه كلمة الإمام الشافعي محمد بن إدريس الشافعي الإمام الجليل أحد الأئمة الأربعة يحكي الإجماع على أنه لا يجوز مخالفة سنة الرسول لقول أحد كائناً من كان إذا استبانت ، أما إذا لم تستبن فقد يكون الإنسان معذوراً ، لكن من استبانت له السنة لم يجز له أن يخالفها لقول فلان أو علان .

(٣) وهذا الإمام مالك بن أنس أيضاً أحد الأئمة الأربعة يقول هذه الكلمة : « ما منا » : معاشر العلماء « إلا راد ومردود عليه » راد على غيره ومردود عليه من غيره ، إلا صاحب هذا القبر » يعني الرسول ﷺ ؛ لأنه قال هذا في مسجد الرسول ﷺ . فدلت كلمة الإمام مالك على أن الرسول ﷺ لا يُردُّ عليه أبداً وإنما يجب قبول ما جاء عنه ﷺ والتسليم له =

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا : « ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ »(١) قوله : وقال الإمام أحمد بن حنبل(٢) : (عجبت لقوم عرفوا

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٦٥] الرسول لا يُرَدُّ عليه لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، ولا يعارض حديثه ﷺ بالآراء والأفكار ، أما العلماء فيجوز الرد عليهم إذا أخطأوا ، وإن كانوا كبار الشأن إذا أخطأوا يجوز الرد عليهم ، وهم يفرحون بذلك ، لأنهم لا ينتصرون لأنفسهم ، وإنما ينتصرون للحق ، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً ، أما الذي إذا رُدَّ عليه يغضب ، هذا دليل على أنه يُعظِّم نفسه ، ولا يُعظِّم السنة – نسأل الله العافية – .

(١) هذا في معنى كلمة الإمام مالك ﷺ « ليس أحد » من الناس كائناً من كان « إلا يؤخذ من قوله » يعني يؤخذ الحق « ويدع » يعني يترك ما خالف الحق إلا رسول الله ﷺ ، فإنه لا يقول إلا حقاً ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [سورة النجم : ٣ – ٤] ﷺ .

(٢) الإمام الثالث من الأئمة الأربعة ، والإمام أبو حنيفة هو أول الأئمة الأربعة لأنه أدرك التابعين ، وقيل : إنه أدرك بعض الصحابة فهو أقدم الأئمة الأربعة وهو يقول : (إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء الحديث عن أصحاب رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء الحديث عن التابعين فهم رجال ونحن رجال)(*) . يعني لا يقدم شيئاً على قول الرسول ﷺ ؛ ولا يقدم شيئاً على قول الصحابة لأنهم تلاميذ الرسول ﷺ وأخذوا عنه ، فلا يعارض قول الصحابي بقول التابعي أو من بعده ، ولكن الصحابة إذا اختلفوا فينظر مَنْ الدليل معه منهم ، وإذا لم يختلفوا إجماعهم حجة ، وإذا لم يظهر للصحابي مخالف من الصحابة فإن قوله حجة أيضاً وهذا عند الأصوليين من أصول الأدلة قول الصحابي بعد القياس . فالأدلة : الكتاب – السنة – الإجماع – القياس – قول الصحابي ، وهناك أدلة مختلف فيها أيضاً غير قول الصحابي ، لكن الغرض الآن قول الصحابي حجة إذا لم يخالفه صحابي آخر ، فقوله حجة ؛ لأنه تلميذ الرسول ﷺ .

(*) نقله ابن القيم في « إعلام الموقعين » ٤ / ٩٤ بألفاظ مقاربة .

الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان والله تعالى يقول : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور : ٦٣] أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة : الشرك ، لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك)[1] قال الإمام أحمد : (نظرت في المصحف فوجدت

---

(١) هذا الكلام للإمام أحمد ﷺ بعد كلام ابن عباس ، والإمام أحمد هو أحمد بن حنبل الشيباني الإمام المحدث المشهور الفقيه ، أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المعروفة الآن ، الذي صبر في المحنة ، وثبت على الحق ، وصبر على العذاب والسجن والضرب ولم يتحول عن الحق ، هذا هو الإمام أحمد بن حنبل ﷺ قال : « عجبت » : هذا استنكار منه « لقوم عرفوا الإسناد » : يعني علماء عرفوا الإسناد ، والإسناد هو : طريق الحديث الوارد عن الرسول ﷺ ، وهو السلسة المتصلة بالرجال إلى الرسول ﷺ رواة الحديث هذا هو السند ، فإذا كان الرجال الذين في السند كلهم ثقات ، وكلهم متقنون للحفظ ، وسَلِمَ الحديث من الشذوذ والعلة فهو حديث صحيح ، فالحديث الصحيح هو ما رواه عدل عن مثله من بداية السند إلى نهايته مع السلامة من الشذوذ والعلل . هذا هو الحديث الصحيح مسلسل بالثقات وإن فقد شرطاً من هذه الشروط فإنه لا يكون صحيحاً إما أن يكون حسناً وإما أن يكون ضعيفاً وإما أن يكون موضوعاً ، ودراسة الأسانيد والعناية بها أمر واجب على العلماء لحفظ سنة رسول الله ﷺ من الدخيل وبيان ما فيها من الصحيح وغير الصحيح . هذا أمر واجب وقام به الأئمة خير قيام جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ، يقول عبد الله بن المبارك ﷺ : « لولا الإسناد لقال كل من شاء كل ما شاء »(*) الإسناد هو الذي يميز الصحيح من غير الصحيح المنسوب إلى رسول الله ﷺ ، فإذا قلت : قال رسول الله ، أو قال أحدهم : قال رسول الله ، نسأل عن السند وينظر فيه هل قاله رسول الله حقاً أو لم يقل ؟ أما مجرد أنك تنسب إلى الرسول شيئاً ولم تذكر السند هذا لا يجوز إلا إذا تأكدت أن الحديث صحيح أو حسن – حسن لذاته

(*) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي / الرامهرمزي ص ٢٠٩ .

أو حسن لغيره - أما إذا كان ضعيفاً لا تقل : قال رسول الله قل : يُروى عن رسول الله ، أو جاء عن رسول الله بدون جزم ، أما أن تقول : قال رسول الله هذا جزم يحتاج إلى صحة . « عرفوا الإسناد وصحته » يعني الإسناد إذا لم يكن صحيحاً فلا ينسب إلى الرسول ﷺ ، كان السابقون من الأئمة عندهم الحديث ينقسم إلى صحيح وضعيف ، ويدخلون الحسن في الصحيح ، فلما جاء الإمام الترمذي ﷺ كان هو أول من جعل الحديث صحيحاً وحسناً وضعيفاً ، ففصل الحسن عن الصحيح ، وجعله في مرتبة متوسطة بين الصحيح والضعيف . هذا من عهد الترمذي ﷺ « يذهبون إلى رأي سفيان » سفيان بن سعيد الثوري الإمام الجليل في علم التفسير وعلم الحديث وعلم الفقه ، وله مذهب فقهي ، لكن لم يكن له تلاميذ حافظوا على مذهبه ودونوه كالأئمة الأربعة ، وإلا فهو لا يقل رتبة عن الأئمة الأربعة ﷺ ومعنى « يذهبون إلى رأي سفيان » يعني رأيه الفقهي ، يتركون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان ، هذا من باب التمثيل وليس خاصاً بسفيان ، والله تعالى يقول ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أمر الرسول ﷺ لأنه مذكور في أول الآية ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [سورة النور : ٦٣] أي : أمر الرسول ﷺ (أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) ثم فسَّر ﷺ الفتنة ، فقال : (أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله) أي : قول الرسول ﷺ (أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك) ، فمن رد قول الرسول ﷺ الصحيح وأخذ برأي غيره مما يخالف الحديث فإنه متوعد بأن يزيغ قلبه ، وهذا في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة الصف :٥] وقال في المنافقين : ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ أي : انصرفوا عن قول الرسول ﷺ وعن القرآن ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة التوبة : ١٢٧] قال سبحانه : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ : أي بالحق ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فمن بلغه الحق وجب عليه أن يأخذ به فإن لم يأخذ به فإنه متوعد بأن يقلب الله قلبه وبصره ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي : بالحق ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١١٠] هذه عقوبة ، هذا هو الزيغ الذي قاله الإمام أحمد ﷺ ، فإذا كان من أخذ بقول سفيان الإمام الجليل واجتهاده وترك الدليل متوعد بهذا الوعيد فكيف بمن =

طاعة الرسول في ثلاثة وثلاثين موضعاً[١] ثم جعل يتلو : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور : ٦٣]) . وسفيان هو الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه ، وكان له أصحاب يأخذون عنه ومذهبه مشهور[٢] وقد عمت البلوى بهذا المنكر الذي أنكره الإمام أحمد[٣] خصوصا فيمن ينتسب إلى العلم والإفتاء والتدريس[٤] وزعموا أنه لا يأخذ بأدلة الكتاب والسنة إلا المجتهد[٥] والاجتهاد قد

أخذ بقول غيره ممن هو دونه ؟! فلا قول لأحد مع قول رسول الله ﷺ أبداً مهما كان ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو ما يقع لهم في الدنيا من القتل والسلب والعقوبات ، أو في الآخرة من العقوبة في النار - والعياذ بالله - .

(١) طاعة الرسول ﷺ في القرآن في ثلاث وثلاثين آية جاءت مقرونة مع طاعة الله ﷻ وجاءت مفردة ، قال تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [سورة النساء : ٨٠] وقال سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة النساء : ٦٤] وقال سبحانه : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [سورة النور : ٥٤] وقال تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة النور : ٥٦] .

(٢) هو سفيان بن سعيد الثوري ، الإمام الجليل ، ويلقب بأمير المؤمنين في الحديث ، ومذهب سفيان موجود في التفاسير ؛ لأنه لم يدون مثل ما دونت مذاهب الأئمة الأربعة(*) تجدونه مبثوثاً في كتب الموسوعات والتفاسير ، وكتاب « الإشراف » لابن المنذر ، و« المحلى » لابن حزم ، و« المغني » لابن قدامة .

(٣) هذا كلام الشافعي .

(٤) يخالفون الأدلة ويقولون بأقوال شيوخهم ، ويقلدونهم ولو خالفوا الدليل .

(٥) زعموا أن الاجتهاد انغلق وسد باب الاجتهاد ، وهذا غلط ، باب الاجتهاد لم يغلق ، فمن توفرت فيه شروط الاجتهاد فالمجال مفتوح أمامه لم يغلق ، وشروط الاجتهاد أن

(*) وقد جمع الدكتور محمد روّاس قلعة جي آراء سفيان الثوري في مجلد سماه « موسوعة فقه سفيان الثوري » ، وطبعته دار النفائس ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

انقطع ، وقد أخطؤوا في ذلك[١] وقد استدل الإمام أحمد ﷺ بقوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » على أن الاجتهاد لا ينقطع[٢] وحكى ابن عبد البر الإجماع على أن المقلِّد لا يكون من أهل العلم[٣] والأئمة لم يقصروا في البيان بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة . قال أبو حنيفة : إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال[٤] وقال : إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه فاتركوا

يكون عالماً بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ وأن يكون عالماً باللغة العربية التي نزل بها القرآن والسنة ، وأن يكون عالماً بالناسخ والمنسوخ ، والمطلق والمقيد ، والعام والخاص ، والمجمل والمفصل ، فإذا توفرت فيه هذه الشروط فهو إمام مجتهد .

(١) أخطؤوا في ذلك ، لأنه يجب الأخذ بالدليل . من تَبيَّن له الدليل أخذ به بشرط أن يكون عالماً بالأدلة ، وعالماً بالناسخ والمنسوخ ، والمطلق والمقيد ، والخاص والعام إلخ .

(٢) « لا تزال طائفة من أمتي على الحق حتى يأتي أمر الله » يعني آخر الزمان ، فدل على أن الاجتهاد لا يغلق ؛ لأنه لا تكون منصورة ولا محمية إلا إذا تمسكت بالدليل . هذا يدل على أن الاجتهاد يبقى ، وأن الله يقيض في كل زمان وفي كل جيل من الأئمة من يجددوا هذا الدين .

(٣) الذي لا يعرف الأدلة وإنما يأخذ أقوال العلماء فقط ، هذا ليس من أهل العلم ، هذا مقلد ، وإنما يكون من أهل العلم من يعرف القول بدليله ، ويعرف الراجح والمرجوح ، هذا هو الذي يُعدُّ من اهل العلم أما الذي يقول : قال فلان وقال فلان ولا يدري عن أدلتهم ولا يدري عن الراجح والمرجوح هذا لا يعتبر عالماً ؛ بل يعتبر مقلداً .

(٤) يعني هم علماء ونحن علماء . وهذه العبارة يأخذها بعض الجهال الآن ، فإذا قيل له : أخطأت في كلامك هذا . يقول : لا ، هم رجال ونحن رجال ، نعم أنت رجل بمعنى أنك ذَكَر وهم ذُكور ، لكن بمعنى أنك عالم وهم علماء ، لا ، أنت لست برجل بمعنى أنك عالم ، وكلمة الإمام أبي حنيفة قالها لأنه إمام وعارف ومتأهل ولا يريد بذلك أن كل =

قولي لكتاب الله تعالى[(١)] قيل : إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفه ؟ قال : اتركوا قولي لخبر رسول الله ﷺ . قيل : إذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال : اتركوا قولي لقول الصحابة . وتقدم قول الإمامين مالك والشافعي[(٢)] فعلى من اشتغل بمصنفات أهل مذهبه أن ينظر في أقوال المخالفين وما استدلوا به فيكون متبعاً للدليل مع من كان معه وبالله التوفيق[(٣)] .

إنسان يراجع العلماء والأئمة ويقول : نحن رجال وهم رجال .

(١) هذه وصية الإمام أبي حنيفة أول الفقهاء الأربعة .

(٢) هذه أقوال الأئمة الأربعة : الإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد ، يتبرؤون من التقليد الأعمى ولا يرضون أن أحداً يقلدهم تقليداً أعمى ، بل يأخذ ما قام عليه الدليل منهم ومن غيرهم .

(٣) لا حرج على الحنبلي إذا كان الدليل مع الشافعي أن يأخذ بقول الشافعي أو الحنفي أو المالكي ولا يمنع هذا أنه حنبلي وكذلك العكس ، الشافعي إذا رأى الدليل مع الحنبلي يأخذ بالدليل ولا ينقص هذا من كونه شافعياً لأن إمامه يأمر بهذا : إمامه الشافعي أو أحمد بن حنبل أو مالك أو أبو حنيفة كلهم يأمرون بهذا ، يقولون : إن اتضح لكم الدليل مع غيرنا فخذوا بالدليل واتركوا قولنا ، فهذا الذي يُقلِّد الإمام على غير بصيرة هذا مخالف للإمام ويزعم أنه موافق للإمام ، لكن مدارك الناس تختلف ، الاجتهاد ليس ممنوعاً مطلقاً ولا جائزاً مطلقاً وإنما فيه تفصيل ، فالذي توفرت فيه شروط المجتهد المطلق هذا يجب عليه الاجتهاد ولا يقلد غيره ، كالأئمة الأربعة ، وأما الذي يقلد أحد المذاهب فهذا يجب عليه إذا كان يعرف الدليل أن يأخذ ما ترجح ، وهذا يسمى مجتهد مذهب ، بمعنى أنه ينظر في أقوال المذهب الذي يتبعه ويمحصها بحسب الدليل ويأخذ ما ترجح بالدليل من مذهبه أو مذهب غيره . والثالث : الذي لا يعرف الترجيح ، هذا يسمى المقلِّد ، يأخذ بقول إمامه ما لم يتبين له أنه مخالف للدليل . والرابع : العامي والمبتدئ ، هذا يجب عليه السؤال ، قال تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنبياء : ٧] فيسأل من يثق بعلمه ودينه ويأخذ بقوله .

وإذا وجد خلافاً بين مذهبه وبين مذهب آخر فإنه يأخذ ما ترجح بالدليل ولو كان من =

قوله : عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [سورة التوبة : ٣١] الآية فقلت له : إنا لسنا نعبدهم قال : « أليس يُحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه ، ويُحِلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه ؟ » فقلت : بلى . قال : « فتلك عبادتهم »[(١)] رواه أحمد ، والترمذي وحسنه .

المذهب الآخر ، وهذا هو الذي عليه الشيخ الإمام المصنِّف محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فإنه يأخذ ما ترجح بالدليل ولا يقلد تقليداً أعمى ، وسار على هذا المنهج أئمة هذه الدعوة ولله الحمد أنهم يأخذون ما ترجح بالدليل من مذهبهم ومن مذهب غيرهم ، كما صرح بذلك الإمام عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في رسالته لما دخل الحجاز كتب رسالة وذكر هذه القاعدة العظيمة أننا نأخذ من أقوال الفقهاء ما قام عليه الدليل ولو كان مخالفاً لمذهب إمامنا هذا هو الذي تبرأ به الذمة [(*)] .

(١) قال الله تعالى في اليهود والنصارى : ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ : أي لعنهم الله ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ : وهم علماؤهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ ﴾ : وهم العباد : ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ وهو عيسى عليه السلام ، والأنبياء أَجَلُّ من الأحبار والرهبان ومع هذا من اتخذهم أرباباً من دون الله كان كافراً ومشركاً ، فكيف بمن اتخذ غيرهم ؟ ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فلما سمع عدي ابن حاتم - وعدي بن حاتم الطائي : أبوه حاتم الطائي الجواد المشهور ، ولما استولى المسلمون على بلاد طيء في عهد النبي ﷺ فرَّ عدي بن حاتم إلى الشام ، وأخذت أخته في الأسر مع السبي ، فلما قدموا

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - : إذا تبيَّن لشخص الدليل ، لكنه خالفه إلى قول مذهبه هل يدخل هذا الشخص في شرك الطاعة ؟ فأجاب : نعم ، إن كان أخذ قول الفقيه وهو يعلم أنه مخالف للدليل ، ولكن أخذه لأنه يوافق هواه ، أو شهوته أو رغبته هذه كبيرة من كبائر الذنوب ، وهو شرك أصغر ، أما إذا كان يعلم أنه مخالف الدليل ، ووافق على هذا وأخذه وهو يعلم أنه خلاف الدليل ، واستباح مخالفة الدليل فهذا شرك أكبر . أ.هـ .

=

قوله : عن عدي بن حاتم أي : الطائي المشهور بالسخاء والكرم[1] ، قدم عدي على رسول الله ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة فأسلم وعاش مائة وعشرين سنة ، وقد أشار المصنف ﷬ بترجمة الباب إلى هذا الحديث وما في معناه ، وفيه دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من

على المدينة عرضت حالها على النبي ﷺ فأكرمها وأعتقها ، فأسلمت وحسن إسلامها ، فكتبت إلى أخيها تستقدمه إلى الرسول ﷺ وتخبره بأن الرسول ﷺ كريم وأنه عفا عنها وأنه لو جاء إليه لأكرمه ، فجاء عدي بن حاتم ودخل على الرسول ﷺ فاستقبله وأكرمه فأعلن إسلامه وحسن إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وصار من قواد الجيوش في سبيل الله وطال عمره في طاعة الله ﷻ - هذا عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، لما سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية وهي في اليهود والنصارى قال : يا رسول إنا لسنا نعبدهم . فَهِم أن العبادة هي الركوع والسجود والدعاء فقط ، ولم يعلم أن العبادة تشمل الطاعة فالعبادة أنواع كثيرة كما قال الشيخ تقي الدين ﷬ : (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة) ليست مقصورة على الركوع والسجود والدعاء وغير ذلك ، قال رسول الله ﷺ : « أليسوا يحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ قال : بلى ، قال : أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ قال : بلى قال : فتلك عبادتهم »(*) فهذا فيه دليل على أن الطاعة في تحليل الحرام وتحريم الحلال أنها شرك ، وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة : أن طاعة العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل عبادة لهم وشرك لهم في الطاعة على التفصيل الذي ذكرناه أولاً . قد يكون شركاً أكبر ، وقد يكون شركاً أصغر ، وقد يكون معذوراً صاحبه .

(١) يعني حاتم أبوه ، مشهور بالسخاء والكرم ومات في الجاهلية .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - : الذين يقومون بتحكيم القوانين الوضعية من المسلمين هل يدخلون في قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؟ فأجاب : لا يخرجون عن هذا ، لكن قد يكون كفراً أكبر ، وقد يكون كفراً أصغر ، وهذا مفصل في كلام أهل العلم . أ.هـ .

دون الله . قال شيخنا في المسائل[١] : (فتغيرت الأحوال وآلت إلى هذه الغاية[٢] فصار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ويسمونها الوَلَاية[٣] وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ، ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين[٤] .

---

(١) شيخنا يعني المؤلف ؛ لأن الشيخ عبد الرحمن حفيد المصنِّف ، أدرك جده ودرس عليه بعض الدراسة .

(٢) يعني تنازلوا حتى عن طاعة الأحبار والرهبان على ما فيها من الذم تنازلوا عنها إلى أسفل منها .

(٣) ولذلك إذا مات من يدَّعون له الولاية بنوا على قبره بَنِيَّة وصاروا يعبدونه ويذبحون له وينذرون له ما يكفي أنهم يطيعونه يوم كان حياً يطيعونه في معصية الله وهذا شرك ما كفاهم هذا ؛ بل لما مات بنوا على قبره وغلوا فيه ، وصاروا يصرفون له العبادة – والعياذ بالله – هذا أشد ممن قال الله فيهم ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ لأن ذلك في طاعتهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال ، لكن الآن صاروا يعبدونهم ويذبحون لهم وينذرون لهم ويطوفون بقبورهم ، وصار أشد من فعل اليهود والنصارى .

ويقولون : الذي لا يطوف بقبورهم ويذبح لهم وينذر لهم هذا معناه أنه يبغضهم والذي يطوف بقبورهم ويذبح لهم وينذر لهم هذا فيه محبة ، هذا فيه الولاية فأنت إذا لم تعمل عملهم سموك عدواً لأولياء الله .

(٤) ثم تغير الحال ولم يقتصر على ما سبق فصاروا حتى لا يعبدون الصالحين ، صاروا يعبدون الكفرة فإذا كان الذي يسمونه ولياً لا يعمل بطاعة الله عبدوه وقالوا : هذا من كرامته ، هذا يأخذ عن الله مباشرة ولا يأخذ عن الرسول ؛ لأنه وصل إلى الله فيعبدونه وهو لا يصوم ولا يصلي ولا يحج ويفعل الزنا والفواحش ، ويقولون : هذا ولي له كرامات انتهى من التحليل والتحريم ، ترقَّى ، وصار لا يتقيد بالتحليل والتحريم ، الحلال والحرام هذا للعوام ، أما هو لما وصل إلى الله فإنه لا يحتاج للتحليل والتحريم ، يفعل ما يشاء ، فآل بهم الأمر إلى هذا الشيء – والعياذ بالله – فهم يعبدون ابن عربي مع =

وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين)[١] . وعن زياد بن حدير قال : قال لي عمر : هل عرف ما يهدم الإسلام ؟ قلت : لا . قال : يهدمه زلة العالم[٢] ، وجدال المنافق بالكتاب[٣] ، وحكم الأئمة المضلين[٤] . رواه

أنه أكفر أهل الأرض ؛ لأنه يقول بوحدة الوجود[*] ، فهو ليس ولياً من أولياء الله ، وإنما ولي من أولياء الشيطان ومع هذا يعبدونه ، والحلاج وغيره ؛ بل يقولون : إن المريد مع شيخه لا يعترض عليه أبداً كالريشة في الهواء وكالميت في يد مغسله ما يعترض على الولي مهما عمل من الفواحش ولا ينكر عليه . هذا أشد أنواع العبادة - والعياذ بالله - .

(١) ولم يقتصر الأمر على طاعة العلماء ؛ بل صاروا يطيعون الجهال ، مع أن طاعة العلماء في معصية الله شرك لكن مع هذا لم يبقوا على هذا ؛ بل صاروا يطيعون الجهال الذين ليس عندهم علم . فالآن إذا سمعوا فتوى من فلان وعلان أخذوها وفرحوا بها وهي تخالف صريح الكتاب والسنة وتخالف إجماع أهل العلم ، يقولون : لا ، هذا مجتهد العصر وهذا إمام أهل العصر ، وهو جاهل لا يعرف شيئاً ولو امتحنته في أدنى مسألة من مسائل العلم ما أفادك بشيء فتحولت الأمور إلى أسوأ .

(٢) زلة العالم خطيرة جداً ؛ لأن الناس يقلدونه ومن هنا يجب على العلماء وطلبة العلم الخوف من الله والتثبت في الفتاوى والتثبت في التحليل والتحريم ؛ لأنهم إذا زلُّوا زلَّ الناس بسببهم .

(٣) أو منافق يدَّعي العلم وهو ليس في قلبه إيمان فيغير الأحكام ويقلِّده الناس ؛ لأنهم يتهمونه بالعلم والإيمان وهو منافق ليس في قلبه إيمان ، وهذا يكثر في آخر الزمان ، يكثر الزنادقة ، والملاحدة ، ويكثر الذين يخرقون الشريعة .

(٤) حكم الجبابرة والأمراء الذين لا يتقيدون بشرع الله ؛ بل يأخذون بالبعثية والشيوعية والقومية والمذاهب الكافرة .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - عن معنى وحدة الوجود ، فأجاب : وحدة الوجود هو أن يرى أن الكون كله هو الله ، لا يوجد خالق ومخلوق ، فمن عبد شيئاً فقد عبد الله ، وجميع المشركين يعبدون الله ، فالذين يعبدون الأصنام ، والأشجار ، والأحجار ، إنما يعبدون الله ؛ لأن الكون كله هو الله . هذه عقيدة ابن عربي في وحدة الوجود ، فلذا قال العلماء : هو أكفر أهل الأرض ؛ لأن هذا القول ما قال به أحد حتى فرعون - نسأل الله العافية - أ.هـ .

الدارمي ، جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون . فكم ضل من ضل ، وزل من زل[(١)] .

(١) هذا باب عظيم ، إذا درسته بعناية وتأملته حصل لك علم بأحوال الناس وتغيراتهم ، فحينئذ لا تغتر بكثير من أحوال الناس وأقوالهم وأهوائهم .

٣٩ - باب قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء : ٦٢] .

وقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة : ١١] .

وَقَوْلِهِ : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

وقَوْلِهِ : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠] .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يكُون هَوَاهُ تَبعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ » . قَالَ النَّوِوِيُّ : حَدِيثٌ صَحِيحٌ ، رُوِينَاهُ في كِتَابِ « الحُجَّةِ » ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ .

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : (كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ : نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ - لأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ لا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ - وَقَالَ المُنَافِقُ : نَتَحَاكَمُ إلى اليَهُودِ ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِناً فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ ، فَنَزَلَتْ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [سورة النساء : ٦٠] .

وَقِيلَ : « نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَالَ الآخَرُ : إِلَى كَعْبِ بنِ الأَشْرَفِ ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا القِصَّةَ ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ : أَكَذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ » .

٣٩ - باب قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ الآية .

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [سورة النساء : ٦٠])(١) .

---

(١) باب قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ إلى قوله تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ هذه الآيات من سورة النساء في موضوع التحاكم إلى غير شرع الله ﷻ ، وهذا الباب مثل الباب الذي قبله (طاعة العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله) إلا أن الباب الذي قبله عام وهذا خاص في الحكم بين الناس في الخصومات ؛ لأن الواجب الحكم بما أنزل الله في جميع الأمور : في التحليل والتحريم ، وفي الفصل في الخصومات ، وفي المذاهب الفقهية ، وفي المذاهب الاعتقادية ، وبين الفرق المختلفة فالله ﷻ أنزل القرآن ليحكم بين الناس كما قال الله ﷻ : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [سورة البقرة : ٢١٣] فيما اختلفوا فيه في جميع الأمور ، والمراد بالكتاب : كل ما أنزله الله من الكتب على الأنبياء ، لاسيما القرآن العظيم ، قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [سورة النساء : ١٠٥] ، ﴿وَأَنِ احْكُم

بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [سورة المائدة : ٤٩] فالواجب على المسلمين أن يتحاكموا إلى كتاب الله فيما تنازعوا فيه في جميع الأمور ؛ لأن الله أنزل الكتاب ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، وهذا من حق الله على عباده فالتحاكم إلى شرع الله عبادة لله ﷻ وهو الذي من حقه أن يحلل ويحرم وأن يحكم بين الناس ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [سورة يوسف : ٤٠] ، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٤] الخلق : هو التدبير ، والأمر : هو التشريع ، فالذي له الخلق هو الذي له الأمر ، وليس للمخلوق أمر ، الأمر لله ﷻ هو الذي يشرع لعباده ويحكم بينهم ، فالحكم بما أنزل الله عبادة لله ﷻ ، وأيضاً هو راحة للخلق ليقطع النزاع بينهم ، وهو حُكْم عدل لا يجور أبداً ؛ لأنه حكم رب العالمين ، وبه يقتنع الناس وتزول خصوماتهم ، فهو يُنهي النزاعات ويُنهي الخصومات بين المؤمنين.

كان جماعة من الناس ادّعوا الإسلام لما رأوا قوة الإسلام وأنهم لا حيلة لهم في التخلص منه ، وأنهم إن لم يدخلوا في الإسلام فإنهم سيُقتلون ، لجؤوا إلى النفاق ، فأظهروا الإسلام وهم باقون على الكفر في باطن أمورهم فسُمّوا بالمنافقين ، هؤلاء لا يريدون التحاكم إلى ما أنزل الله ، وإنما يريدون التحاكم إلى غيره من الأنظمة والقوانين والعوايد القبلية وأحكام الجاهلية ، كالتحاكم إلى الكهان كما كانوا في الجاهلية يريدون هذه الأمور ، ويتهربون من حكم القرآن ، وحُكم الرسول ﷺ ، فأنزل الله على رسوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ ، ألم تر : هذا خطاب للرسول ﷺ ، الهمزة للاستفهام التقريري أي : قد رأيت ما صنعه المنافقون ، إنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، والطاغوت : المراد به الحكم بغير ما أنزل الله ، فكل حكم بغير ما أنزل الله فهو حكم الطاغوت سواء سمي قانوناً ، أو سمي نظاماً أو سمي رسوماً قبلية أو غير ذلك كلهم طاغوت ، مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد فالذي يحكم بغير ما أنزل الله قد تجاوز الحد الذي هو الشرع ، وخرج عن الحد الشرعي فيسمى طاغوتاً من الطغيان ؛ لأنه طغى وخرج ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ : الله ﷻ أمر بالكفر بالطاغوت والإيمان بالله ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦] وهذا هو معنى لا إله إلا الله : الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، فلا يصح لأحد إيمان إلا إذا كفر بالطاغوت ، لكنهم لم

=

قال العماد ابن كثير : (والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم

يكفروا به لما أرادوا التحاكم إليه ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ، الشيطان الذي هو شيطان الجن وهو رأس الطواغيت كما قال الإمام ابن القيم ، فقوله : ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ ، أي : يبعدهم عن الحق ؛ لأن الشيطان لا يريد لبني آدم الخير أبداً ؛ بل يريد أن يخرجهم من الخير إلى الشر ، ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وليس ضلالاً قريباً ، بل يبعدهم نهائيا عن الحق بحيث لا يرجعون إليه ، فلا يكتفي الشيطان بالضلال اليسير ، وإنما يريد لبني آدم الضلال البعيد الذي لا يتمكنون معه من الرجوع إلى الحق ، فشياطين الإنس والجن لا يريدون أن المسلمين يتحاكمون إلى الشرع ، وإنما يريدون الحكم بغير ما أنزل الله ويدعون إلى ذلك دائماً وأبداً فهذا ديدنهم ، ومنهم المنافقون الذين ادعوا الإسلام ظاهراً وهم على الكفر باطناً ، ولهذا قال : ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ والزعم هو الكذب ، فهم يزعمون أنهم آمنوا ولكنهم كاذبون في ذلك وإنما يزعمون زعماً فقط ، فهذا فيه دليل على أن من يريد التحاكم إلى الطاغوت أنه ليس بمؤمن ، وإن قال إنه مؤمن فهذا زعم كاذب ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ، وهو القرآن ، ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ، وهو الكتب السابقة ، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ ، وهو غير ما أنزل الله ﷻ : ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ ، وسيأتي تفسير الآية في آخر الباب .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ ، إذا أمروا بالتحاكم إلى القرآن والسنة ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يَدَّعون الإيمان وهم كاذبون ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ يصدون يعني: يعرضون عمن يدعوهم إلى الكتاب والسنة . وهذا ليس خاصاً في المخاصمات ، بل هو عام في كل ما تنازع فيه الناس ، إذا قيل للمخالف سواء الخلاف في الفقه أو الخلاف في العقيدة أو الخلاف في المقالات أو المناهج أو الأحزاب ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ يعرضون إعراضاً كاملاً ، وصفهم الله أولاً : قال (يزعمون) وهذا تكذيب لهم في دعواهم الإيمان . وثانياً : وصفهم الله بالمنافقين ، والمنافق : هو الذي يدعي الإسلام وهو كافر في قرارة نفسه ، وسيأتي سبب نزول هذه الآية في هذا الباب .

إلى ما سواهما من الباطل(١) . وهو المراد بالطاغوت ها هنا) وكل من عبد شيئاً دون الله بأي نوع كان من أنواع العبادة : كالدعاء والاستغاثة فإنما عبد الطاغوت(٢) ، فإن كان المعبود صالحاً كانت عبادة العابد له واقعة على الشيطان الذي أمره بعبادته وزينها له ، كما قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ . قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سورة سبأ : ٤٠ - ٤١](٣)

---

(١) هذا عام في كل من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى الباطل سواء في الخصومات بين الناس ، أو في المذاهب ، أو في المقالات أو غير ذلك ، كل خصومة يجب أن يُرجع فيها إلى الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [سورة النساء : ٥٩] يعني في أي شيء ، بعض الناس يرى أن المراد بالتحاكم إلى الشرع التحاكم في الخصومات فقط في المحاكم الشرعية ، وهذا جزء من المطلوب ليس كله والمطلوب التحاكم إلى الشرع في كل شيء في الأقوال الفقهية ، والأقوال الاعتقادية ، وفي أي خصام ونزاع يتحاكم إلى الشرع ولا يتحاكم إلى ما سواهما من الباطل ، سواء تحاكم إلى القوانين والنظم ، أو تحاكم إلى العوايد ، أو إلى الكهان ، أو إلى العوارف الذين يكونون في القبائل .

(٢) كما قال الله ﷻ : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة المائدة : ٦٠] أو (عُبُدَ الطاغوت) فالذي يعبد غير الله قد عبد الطاغوت ، فإن كان هذا الذي عبده راضياً بذلك فالمعبود طاغوت ؛ لأنه رضي بأن يعبد من دون الله ، وإن كان لم يرض بذلك فإن الطاغوت هو الشيطان الذي أمره بذلك ولا يكون المعبود طاغوتاً وهو لم يرض بذلك ، فمن الناس من عبد الملائكة ، ومنهم من عبد الأنبياء ، ومنهم من عبد الأولياء والصالحين وهم لا يرضون بذلك ، فلا يقال إنهم طواغيت ، وإنما يقال عبد الشيطان الذي أمرهم بذلك .

(٣) فالله ﷻ يوم القيامة يقول للملائكة الذين عبدهم بعض الناس : ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ تنكر الملائكة فيقولون : ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي : نتزهك عن ذلك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن

=

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ . فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [سورة يونس : ٢٨ - ٢٩] والآية بعدها[١] .

وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه كالطواغيت[٢] أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً كاللات والعزى ومناة وغير ذلك ، مما كان يتخذه المشركون لهم أصناماً على صور الصالحين والملائكة أو غير ذلك[٣] فهي من

دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعني الشياطين التي أمَرَتهم بعبادة الملائكة ، وصارت العبادة لهم لا للملائكة ؛ لأن الملائكة لم يرضوا بذلك ، دلَّ هذا على أن المعبود إذا لم يكن راضياً فإنه لا يكون طاغوتاً ، وإنما الطاغوت الذي أمر بذلك .

(١) أنكروا عبادتهم ؛ لأنهم لم يأمروا بذلك بل كانوا يعبدون الشيطان ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ فالأموات لا يعلمون من عبدهم ولا من دعاهم ولا من استغاث بهم ، وإنما كل هذا من الشياطين الذين يزينون لهم هذه الأمور ، حتى ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الشيطان يتصور عند القبر الذي يُعبد بصورة الميت ، ويخرج على الناس كأنه الميت خرج من قبره ويخاطبهم ويقول : أنا أقضي حوائجكم ، وأنا أتوسط لكم عند الله وهو الشيطان ، لأن الميت ما خرج من قبره ولكن الشيطان تصوَّر بصورته ليغريهم وليزيدهم شراً وربما يسمعون صوتاً من القبر يستجيب لهم ويدعوهم إلى عبادة القبر ، وليس هو صوت الميت ، وإنما هو صوت الشيطان .

(٢) أما إن كان يدعو إلى عبادة نفسه فهو طاغوت ، لأن بعض الزنادقة يقولون للناس : ادعوني وأنا أقضي حوائجكم إذا مت لا يمنعكم من الاتصال بي التراب الذي بيني وبينكم يوصيهم بهذا .

(٣) المعبودات من دون الله ثلاثة أنواع : النوع الأول : عبادة الملائكة ، أو الأنبياء ، أو الصالحين ، وهؤلاء حاشا وكلا أن يرضوا أن يُعبَدوا من دون الله فتكون عبادتهم عبادة
=

الطاغوت الذي أمر الله عباده أن يكفروا بعبادته ويتبروا منه ، ومن عبادة كل معبود سوى الله كائناً من كان ، فالتوحيد هو الكفر بكل ما عبد من دون الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [سورة الزخرف : ٢٦ - ٢٧][1] . فلم يستثن من كل معبود إلا الذي فطره ﷻ[2] وهذا معنى (لا إله إلا الله) كما تقدم ، وكما في قوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا

للشيطان وليست عبادة لهم . النوع الثاني : عبادة من يوصي بأن يُعبد من دون الله كأقطاب الصوفية ، يأمرون أتباعهم بأن يعبدوهم وأن يتكفلوا لهم بقضاء حوائجهم أحياء وأمواتاً ، وهؤلاء طواغيت بأنفسهم ، النوع الثالث : عبادة الأشجار والأحجار والجمادات التي لا توصف بصلاح أو فساد ، مخلوقات جمادات يعبدونها من دون الله ، هذه العبادة ليست في الحقيقة لها وإنها للشيطان الذي أمرهم بعبادة هذه الجمادات وهذه الأشجار والأحجار .

(١) التوحيد يتكون من شيئين : من عبادة الله وترك عبادة ما سواه . لا تكفي عبادة الله ، بل لابد معها من ترك عبادة ما سواه ، والكفر بذلك ، والبراءة منه ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦] قدّم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ، والله ﷻ يقول : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] ، لم يكتف بقول : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ بل قال : ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ لابد من الأمرين وهذا هو معنى (لا إلـٰه إلا الله) لأن لا إلـٰه إلا الله نفي وإثبات ، نفي لعبادة الطاغوت وإثبات العبادة لله ﷻ ، وإبراهيم ﷺ قال لقومه : ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ هذا هو معنى لا إلـٰه إلا الله . التوحيد نفي وإثبات يتكون من ركنين : الركن الأول : الكفر بما يعبد من دون الله والبراءة منه ، الركن الثاني : عبادة الله ﷻ .

(٢) لم يستثن من المعبودات إلا الله لأنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره ، فإبراهيم ﷺ تبرأ من كل معبود غير الله واستثنى الله وحده ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ يعني خلقني وهو الله .

بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة : ٤](١) وكذلك من خالف حكم الله ورسوله بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله(٢) أو مع الجهل بذلك ، أو طلب ذلك أن يُتبَّع عليه أو أطاعه فيما يعلم أنه حق إذا كان المطيع له لا يبالي أكان أمره حقا أم لا ، فهو طاغوت بلا ريب(٣) ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [سورة النساء : ٦٠] لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد كما في آية البقرة(٤) فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن قد نفى ما نفته (لا إله إلا الله)(٥) .

قوله : ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي : بعيدا عن الهدى ففي الآية أربعة أمور :

الأول : أنه من إرادة الشيطان(٦) . الثاني : أنه ضلال(٧) . الثالث : تأكيده

---

(١) هذا معنى لا إله إلا الله ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ هذا معنى النفي . ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ هذا معنى الإثبات ففيها معنى (لا إله إلا الله) .

(٢) هذا من الشرك ؛ لأن الحكم بين الناس حق لله ﷻ ، فمن حكَّم غير الله أو أطاع غير الله في تحليل أو تحريم فقد اتخذه شريكاً لله ﷻ .

(٣) كل معبود أو متبوع أو مطاع بغير طاعة الله فهو طاغوت .

(٤) كما في آية البقرة ، وهي قوله تعالى : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦] والتوحيد على ركنين : الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله .

(٥) إذا لم يحصل الكفر بالطاغوت لم يكن نفى ما نفته لا إله إلا الله من عبادة غير الله .

(٦) أن الحكم بغير ما أنزل الله من إرادة الشيطان .

(٧) الثاني أنه ضلال (يضلهم) .

بالمصدر(١) . الرابع : وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى(٢) . فسبحان الله ما أعظم هذا القرآن وما أنفعه لمن تدبره ، وما أبلغه وما أدله على أنه كلام رب العالمين أوحاه إلى رسوله الكريم ، وبلّغه عبده الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه . وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [سورة النساء : ٦١] ، فإن المنافق يكره الحق وأهله ويهوى ما يخالفه من الباطل ، وهذه حال أهل النفاق قال العلامة ابن القيم ﷺ : (هذا دليل على أن من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين)(٣) قلت : فما أكثرهم لا كثرهم الله .

قال : و(يصدون) لازم وهو بمعنى يعرضون(٤) ؛ لأن مصدره « صدودا » فما أكثر من النصف بهذا الوصف خصوصا من يدَّعي العلم(٥) فإنهم صدوا عما

---

(١) ضلالاً (يضلهم ضلالا) لأن ضلالاً مصدر « ضل » هذا من باب التأكيد .

(٢) كل هذه في الحكم بغير ما أنزل الله ، أولاً : أنه من عبادة الطاغوت ، وثانياً : أنه ضلال مؤكد ، وثالثاً : أنه ضلال بعيد ليس ضلالاً يسيراً .

(٣) الذي إذا قيل له تعالَ نتحاكم إلى المحكمة الشرعية وهو يقول : لا ، نذهب للقانون ، هذا دليل على أنه منافق من المنافقين وإن كان يدَّعي الإيمان فإنه منافق ؛ لأن المؤمن قال الله تعالى فيه : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور : ٥١] أما المنافق إذا قيل له : تعال إلى ما أنزل الله وإلى الرسول يصد ويعرض ويتكبر .

(٤) يصدون : فعل لازم يعني غير متعدي لا ينصب مفعولاً ، ومصدره الصدود ، أما الصد الذي يتعدى فهذا مصدره صداً ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الأعراف : ٤٥] هذا متعدي مصدره صداً .

(٥) كثير ممن يدَّعون العلم إذا قلت لهم : تعالوا إلى الدليل لا يقبلون هذا ؛ بل يصرون على خلافهم وعلى ما قاله أشياخهم وقادتهم ، وإذا قيل لهم : هذا خلاف الدليل لا يعبؤون بهذا ، هذا من التعصب - والعياذ بالله - وهم علماء أو طلبة علم ، الآن لو تقول لعباد

=

توجيه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى أقوال من يخطئ كثيراً ممن ينتسب إلى مذهب من مذاهب الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده فيما يخالف الدليل ، فصار المتَّبع للرسول ﷺ بين أولئك غريباً ، وقد عمت البلوى بهذا(١) .

قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١١](٢) . قال أبو العالية في الآية : يعني لا تعصوا في الأرض ؛ لأن من

القبور أو عباد الأضرحة وهم يدَّعون الإسلام وفيهم علماء كبار : تعالوا نعرض هذه المسألة التي اختلفنا فيها على كتاب الله وسنة رسول الله ونصدُر عن حكم الله ورسوله لا يقبلون هذا ولا يطيعون ؛ بل يبقون على ما هم عليه . هذا علامة النفاق - والعياذ بالله - ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ إذا كان واحد أخذ بفتوى سمعها أو قرأها توافق هواه وفرح بها نقول له : نعرضها على الكتاب والسنة ، هل هذه فتوى صحيحة أم غير صحيحة ؟ لا يقبل منك يقول : فلان أبخس ، فلان عالم ، وهذه مصيبة .

(١) التعصب للمذاهب هذه مشكلة ، تعصب للمشائخ ، تعصب للقادة . الواجب على المسلمين أن لا يكون لهم قدوة إلا رسول الله ﷺ ، وأن يصدُروا عن قول الله وقول رسوله ، ولا يقبلوا قول أحد يخالف قول الله وسنة رسوله ، هذا هو الواجب وما فرَّق الناس هذا التفرق وفرَّق المسلمين هذا التفرق إلا التعصب للمذاهب والآراء والأقوال ، ولو أنهم رجعوا إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لكانوا أمة واحدة ، ولم يحصل بينهم هذا الاختلاف وهذا الانشقاق .

(٢) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي : للمنافقين ﴿ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بالمعاصي والشرك ، والحكم بغير ما أنزل الله هذا فساد في الأرض ، فسمى الله ذلك فساداً في الأرض ﴿ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ، يصرون ويدَّعون أن ما هم عليه هو الصلاح ، وهذا ما يقوله دعاة الباطل الآن . يقولون : نحن ندعوا إلى الرقي والتقدم والحضارة واللحاق بالأمم وهذا في عرفهم إصلاح وهو في الحقيقة إفساد في الأرض ، وتعطيل الأحكام الشرعية ، وإشاعة المعاصي والمحرمات والمخالفات ومحاربة الأحكام الشرعية ، وصرَّحوا بأن =

عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله . ومناسبة الآية للترجمة أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين ، وهو من الفساد في الأرض ، وفي الآية التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى[1] .

قوله : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [سورة الأعراف : ٥٦][2] قال أبو بكر بن عياش في الآية : إن الله بعث محمداً ﷺ إلى أهل الأرض وهم في فساد ، فأصلحهم الله بمحمد ﷺ[3] .

الدين الإسلامي تأخر ورجعية ، وإنه لا يصلح إلا للقرون الماضية ولا يصلح لهذا الزمان ، ولابد من اللحاق بالأمم وركب الحضارة إلى آخره ، ويزعمون أن إفسادهم إصلاح ، وهذا من انتكاس الفطر وخراب القلوب ، إذا اعتقد الإنسان أن الفساد صلاح ، وأن الصلاح فساد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فردَّ الله عليهم بقوله : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ حصر الفساد فيهم ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لعمى قلوبهم وانتكاس فطرهم لا يشعرون بإفسادهم ويظنون أنه الصلاح ، فَسَدَ بصوّرهم فصاروا يعتقدون الحق باطلا والباطل حقا .

(١) يقولون : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ الذي يسمعهم يغتر بهذه المقالة ، هذه زخرفة .

(٢) قال الله تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي والكفر والشرك ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب والطاعات ، وصلاح الأرض هو بهذه الأمور : بالحكم بما أنزل الله ، وبترك الذنوب والمعاصي ، وبلزوم الطاعات ، وباتباع الرسل . هذا صلاح الأرض فلا تردوا الناس إلى الفساد بعد الصلاح .

(٣) قبل بعثة النبي ﷺ كان الناس يعيشون في فساد وفي ظلام دامس وفي شرك وفي تخبط وفي ظلم في جميع أقطار الأرض ، فلما بعث الله محمداً ﷺ أضاء الله الأرض بالتوحيد والشريعة والطاعة لله ولرسوله فعمرت الأرض وصلحت .

فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض[١] قال ابن القيم : (قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله ، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك ، والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع ومتبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا[٢] ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ[٣] فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع ولا طاعة[٤] ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في

(١) كل من دعا إلى ما يخالف الشرع فهو من المفسدين في الأرض ، وإن زعم أنه من المصلحين وأنه يريد التقدم والحضارة والرقي إلخ ، أمور الدين ليس فيها تغيير ولا تبديل ، أما أمور الدنيا والصناعات والأشياء هذه لا بأس الناس يأخذون الأحسن والأصلح في كل زمان ، هذه أمور صناعة وليست عبادات ولا شرع ، فلا بأس في تغييرها ، أما أمور العبادات والشريعة فلا يجوز تغييرها أو استبدالها بغيرها ؛ لأنها صالحة لكل زمان ولكل مكان .

(٢) لا تصلح الأرض إلا بأمرين : **الأمر الأول** : عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه ، **الأمر الثاني** : اتباع الرسول ﷺ وترك اتباع غيره والاقتداء بغيره .

(٣) طاعة العلماء وطاعة ولاة الأمور إذا أمروا بطاعة الله ورسوله فإنهم تجب طاعتهم ، أما إذا أمروا بمعصية فلا تجوز طاعتهم .

(٤) لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق كائناً من كان ، لا يجوز أن يطاع في معصية الله أحد ، لا الوالد ولا السلطان ولا الشيخ والعالم ، لا يطاع أحد ولا الزوج ولا أي أحد له إمرة أن يطاع في معصية الله .

الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعته وطاعة رسوله ، وكل فتنة في العالم وبلاء وشر وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله) (١) انتهى . وبما ذكرنا يتبين مطابقة الآية للترجمة .

قوله : « وقوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٠](٢) » قال

---

(١) خذ مثلاً هذه البلاد كانت قبل دعوة الشيخ في أمر مريج من الفتن والظلم وتسلط الناس بعضهم على بعض ، واختلاف الكلمة وعدم الاستقرار وعدم الأمن وضيق المعيشة ، ولما جاء الشيخ ﷺ ودعا الناس إلى توحيد الله ووجد أتباعاً اتبعوه على ذلك صلحت هذه البلاد وأمنت ودُرَّت عليها الأرزاق واجتمعت كلمتها وزال الخلاف هذا مثال لماذا ؟ لأن دعوة الشيخ موافقة لما جاء به الرسول ﷺ ، فطاعة العلماء إذا وافقوا قول الرسول أمر واجب ، أما إذا خالفوا قول الرسول فلا .

(٢) وقول الله تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ : لما ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة وجوب الحكم بالتوراة التي أنزلها الله على موسى ﷺ أمر أهل التوراة بالحكم بالتوراة وأمر أهل الإنجيل بالحكم بالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى وأمر المسلمين بالحكم بالقرآن ، قال : ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ . أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [سورة المائدة : ٤٩ - ٥٠] ما بعد الإسلام إلا حكم الجاهلية ، أمران لا ثالث لهما ، إما حكم الإسلام وإما حكم الجاهلية . والجاهلية المراد بها : ما قبل الإسلام ، الذي عليه أهل الجاهلية من تحكيم الكهان وتحكيم الأعراف القبلية(*) والسلوم بغير شرع منزل هذا حكم الجاهلية الذين لا يحكمون بالقرآن ، يريدون حكم الجاهلية وحكم الجاهلية هو

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - : هناك بعض الأمور التي يُرجع فيها للعادات والأعراف في الفقه ، فكيف يطلق على كل شيء بأنه جاهلي مع أنه قد يؤخذ به في بعض الأحيان ؟ فأجاب : الذي أمر الله ﷻ أو الرسول ﷺ بالرجوع فيه إلى العرف فلا بأس . قال تعالى : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء : ١٩] وقال النبي ﷺ : « ولهن كسوتهن بالمعروف » فإذا أمر الشارع بالرجوع إلى العرف فلا بأس ، وأما الرجوع إلى العرف بغير أمر الشارع هذا لا يجوز ، من حكم الجاهلية أ.هـ.

ابن كثير : (ينكر تعالى على من خرج على حكم الله المشتمل على كل خير والناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات وكما يحكم به التتار ، من السياسات المأخوذة عن جنكيز خان الذي وضع لهم كتاباً مجموعاً من أحكام اقتبسه من شرائع شتى وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره ، وصار في بنيه شرعاً يقدمونه على الحكم بالكتاب والسنة[1] ، ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا

الكفر ، وكل ما أضيف إلى الجاهلية فهو مذموم مثل : (حكم الجاهلية) ، (تبرج الجاهلية) ، (حمية الجاهلية) . وحكم الجاهلية الذي كانوا يتحاكمون إليه قبل نزول القرآن هو تحاكمهم إلى الكهان ، كل قبيلة فيها كاهن يحكم بينهم ، أو عارفة أو السلوم القبلية ، هذه كلها أحكام الجاهلية فمن رجع إليها وحكم بها فقد حكم بحكم الجاهلية .

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي : يريدون ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ من أحسن ؟ هذا استفهام بمعنى النفي ، أي : لا أحد أحسن حكماً من الله ؛ لأن الله هو الذي خلق الخلق ويعلم مصالحهم ويعلم ما يضرهم فهو يشرِّع لهم ما يصلحهم ، وهو أعلم بذلك ﷻ ، أما الخلق فإنهم قاصرون وتدخلهم الأهواء والرغبات ، فأحكامهم إما باطلة وإما ناقصة لا تفي بالحاجة ، لكن حكم الله تام وعدل وصالح لكل زمان ومكان ، فالذي يدَّعي أن الحكم بالنظام الفلاني أو القانون الفلاني فيه مصالح أو إنه حسن هذا يعارض قول الله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ لأنه لو كان لا يرى أن هذا أحسن من حكم الله لما أخذ به ، ولما حكم به ، ولما دعا إليه .

(١) هذا الذي يسمونه الياسق وهو نظام جنكيز خان قائد التتار ، وكان مخالفاً للشرائع ، وإنما هو شيء جمعه من آرائه ومن آراء غيره ، فصاروا يحكمون به من بعده ومثله اليوم القوانين كالقانون الفرنسي السائد في كثير من البلاد هذا مثل الياسق الذي هو نظام جنكيز خان لا فرق بينهم ؛ لأنه كله من عمل الطاغوت .

يحكم بسواه في قليل ولا كثير) .

قوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة : ٥٠] استفهام إنكار أي : لا حكم أحسن من حكمه ، وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك(١) ، أي : ومن أعدل من الله حكماً لمن عقل عن الله شرعه وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين ، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها ، العليم بمصالح عباده ، القادر على كل شيء ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . قوله : « عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » قال النووي : حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح »(٢) هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي

---

(١) أفعل التفضيل هنا ليس على بابه بمعنى أن ليس فيه طرفين أحدهما أحسن من الآخر ، بل ليس فيه إلا طرف واحد وهو حكم الله فقوله : (ومن أحسن) هذا معناه النفي أي : لا أحد أحسن حكماً من حكم الله ﷻ .

(٢) هذا الحديث ذكره النووي ﷺ في « الأربعين النووية » ، وقال : رويناه في كتاب « الحجة » يعني : قرأنا هذا الحديث في كتاب « الحجة على تارك المحجة » وهو كتاب ألفه قوام الدين الشافعي ، في العقيدة ، وهو مطبوع الآن . طُبع محققاً وهو كتاب جيد وقيم ، وفيه هذا الحديث : « لا يؤمن أحدكم » : هذا نفي من الرسول ﷺ للإيمان ، وهل هو نفي للإيمان كله أو نفي لكمال الإيمان ؟ نفي لكمال الإيمان مثل : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(*) هذا نفي لكمال الإيمان وليس نفياً لأصل الإيمان ومثل : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »(**) هذا نفي لكمال الإيمان ليس معناه أن الزاني

(*) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ١٤ (١٣) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٦٧ (٤٥) .

(**) سبق تخريجه في باب (قول الله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ .

=

الشافعي في « كتاب الحجة على تارك المحجة » بإسناد صحيح كما قال المصنف عن النووي ، ورواه الطبراني وأبو بكر بن عاصم والحافظ أبو نعيم في « الأربعين » التي شرط لها أن تكون في صحاح الأخبار . وشاهده في القرآن(١) قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٦٥](٢) وقوله : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٦](٣) وقوله : ﴿فَإِن لَّمْ

يكفر ويخرج من الإيمان فقد ينفى الإيمان ويراد به نفي الكمال لا نفي الأصل ، وهذا من هذا القبيل « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه » : رغبته ومحبته « تبعا لما جئت به » : لما جاء به الرسول ﷺ ، فهذا علامة الإيمان كون الإنسان يحب ما جاء به الرسول ﷺ ، وعدم محبته لما جاء به الرسول ﷺ هذا دليل على نفي الإيمان ، إذا كره ما جاء به الرسول ، هذه ردة عن الإسلام ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ٩] ، أما إذا لم يكرهه ولكن نفسه تميل إلى غيره فهذا نقص في الإيمان ، والحديث يقول المؤلف إن سنده صحيح عند صاحب « كتاب الحجة » وصححه غيره ، وبعض العلماء يرى أنه حديث ضعيف ، ولكن الحديث إذا اختلف فيه العلماء بعضهم يصححه وبعضهم يضعفه فإنه يحتج به ، وأما إذا أُجمع على تضعيفه فلا يحتج به .

(١) يعني أولاً : أن هذا لم يُجمع على ضعفه ، بل فيه من صححه وثانياً : أنه يشهد له القرآن وهذا مما يقويه .

(٢) ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ هذا يوافق « حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » فإذا كان هواه ليس تابعاً لما جاء به الرسول فقد وجد في نفسه حرجاً وتحرجاً .

(٣) ويشهد له أيضاً قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ وهذا معناه أن لا يبقى في نفسه حرج .

فاتفقا على أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه[١] فنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء : ٦٠][٢] وقيل : نزلت في رجلين اختصما ، فقال أحدهما : نترافع إلى النبي ﷺ ، وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف[٣] ، ثم ترافعا إلى عمر فذكر له أحدهما القصة . فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ : أكذلك ؟ قال : نعم ، فضربه بالسيف فقتله[٤] قوله : « قال الشعبي

إلى محمد ؛ لأنه يعلم أن محمداً ﷺ لا يأخذ الرشوة إنما يحكم بالحق ، فقال المنافق الذي يدَّعي الإسلام : نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة وهو لا يريد الحكم بالحق ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ .

(١) المنافق طلب المحاكمة إلى الكاهن ، والكاهن هو الذي يدعي علم الغيب وكانوا يتحاكمون إليهم في الجاهلية ، فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ سمى الكاهن طاغوتاً والطاغوت كل من حكم بغير ما أنزل الله سواء كان كاهناً أو قانونياً كما يسمونه من رجال القانون فإنه طاغوت .

(٢) يعني الآية ما نزلت في اليهودي ، اليهودي كافر وإنما نزلت في المنافق الذي يدَّعي الإيمان .

(٣) اليهودي كعب بن الأشرف الخصم الألد لرسول الله ﷺ ، الذي شاق الرسول ﷺ أعظم المشاقة . قال أحدهما : نتحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي ، سماه الله طاغوتاً ؛ لأنه يحكم بغير ما أنزل الله .

(٤) لما ذهبا إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وذكرا له القصة ، وأن هذا الشخص لا يريد التحاكم إلى الرسول ﷺ لم يصدق الخصم ؛ بل استنطق المتهم ، هل هذا صحيح أنك لا تريد الحكم عند رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . حينئذ ثبتت ردته فقتله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وأنزل الله هذه

=

هو عامر بن شراحيل الكوفي وتقدم »[١] وفي قصة عمر وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق ، وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى له والإظهار لعداوته فانتقض به عهده[٢] وحل به قتله ، وقصة قتله مذكورة في كتب الأحاديث والسير وغيرها .

الآية : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ......﴾ على كل حال سواء نزلت في السبب الأول أو في السبب الثاني أو فيهما جميعا يمكن أن الآية يكون لها أكثر من سبب فتكون الآية نزلت في الاثنين .

(١) تقدمت ترجمته في باب من حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب .

(٢) كان من اليهود وكان اليهود لهم عهد لكن كعب بن الأشرف هذا نقض العهد وهو من زعمائهم فأمر النبي ﷺ بقتله .

٤٠ - بابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئاً مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَـــوْلِ الله تَعَـــالَى : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد : ٣٠] .

وَفِي « صَحِيحِ البُخَارِيِّ » : قَالَ عَلِيٌّ : « حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُه ؟! » .

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنِ ابْنِ طَاوسٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ : « أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً انْتَقَص لَمَّا سَمِع حَدِيثاً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنْكَاراً لِذَلِكَ ، فَقَالَ : مَا فَرَقُ هؤلاءِ ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ ؟ » انتهى .

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحمن ؛ أَنْكَروا ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ فيهِم : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد : ٣٠] .

٤٠ - بابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئاً مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

قوله : (باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات)[١] . وقول الله تعالى :

(١) قال ﷺ : باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات ، أي : ما حكمه ؟ الجحود معناه : النفي والإنكار أي : باب بيان حكم من نفى وأنكر شيئاً من أسماء الله وصفاته ، وذلك لأن التوحيد ثلاثة أنواع[*] . النوع الأول : توحيد الربوبية وهو إفراد الله تعالى بأفعاله .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - : هل صحيح أن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ﷺ هو أول من قال بأن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام : توحيد الألوهية : وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات ؟ فأجاب : هذا في الحقيقة جاهل ، الذي يقول هذا الكلام لا يقرأ القرآن ؛ لأن أنواع التوحيد الثلاثة في القرآن ، فلو كان يقرأ القرآن ويتدبر لوجد هذا في القرآن ، ثم أيضاً ذكرها قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ابن القيم ﷺ في « مدارج السالكين » ، وذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ قبل ابن القيم في فتاواه ، وذكرها غيره من أئمة العلم ، لكن يظهر أن الذي قال هذه المقالة إما مغرض لأجل أن ينفّر عن دعوة الشيخ ، أو أنه جاهل مركب أ.هـ .

=

والنوع الثاني : توحيد الألوهية وهو إفراد الله تعالى بأفعال العباد التي يتقربون بها إليه مما شرعه لهم . والنوع الثالث : توحيد الأسماء والصفات وهو إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو أثبته له رسوله في سنته من الأسماء والصفات ؛ لأن الله ﷻ يُعرف بأسمائه وصفاته ويسأل ويُدعى بأسمائه وصفاته ، وهي تدل على عظمته وعلى كماله ﷻ ، فلذلك كثر ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية لحاجة الخلق إليها ليعرفوا ربهم بها ويسألوه بها ويتوسلوا بها إليه ﷻ . والواجب الإيمان بها وإثباتها بلفظها ومعناها ، وتوحيد الأسماء والصفات في الحقيقة داخل في توحيد الربوبية ؛ لأنها من أفعال الله ﷻ ، فهي إما صفات ذات : كالوجه واليدين وغير ذلك من صفات الذات ، وإما صفات أفعال : كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والعلو والاستواء والنزول والمشي والإتيان والرضى والغضب كلها صفات أفعال ، فهي في الحقيقة داخلة في توحيد الربوبية ، ولذلك بعض العلماء يجمل فيقول : التوحيد نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات : وهو التوحيد العلمي الخبري ، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات وتوحيد عملي طلبي : وهو توحيد الله ﷻ بالعبادة والتقرب إليه بأنواع العبادة التي شرعها الله ﷻ وهذا ما يسمى بتوحيد القصد والطلب والعمل ، هذا توحيد الألوهية أو توحيد العبادة ولكن لما حصل ظهور الفرق الضالة في أواخر عهد الصحابة ، الذين جحدوا الأسماء والصفات ، أو جحدوا الصفات وأثبتوا الأسماء ، أو جحدوا بعض الصفات ، لما وجدت هذا الفرق وخاضت في أسماء الله وصفاته احتاج أهل السنة والجماعة إلى أن يفردوا هذا القسم ويجعلوه قسماً مستقلاً ليردوا على هؤلاء المبتدعة ، فاحتاجوا إلى التفصيل من أجل ذلك ، وأول من جحد شيئاً من الأسماء والصفات هم الكفار والمشركون الذين أنكروا اسم الرحمن - كما يأتي - وكانوا يقرون بجملة أسماء الله وصفاته ، ثم تطور هذا المذهب الخبيث وورثه الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتوريدية وفرق الضلال ، منهم من أنكر الأسماء والصفات وهم الجهمية ، ومنهم من أنكر الصفات بدون الأسماء ، ومنهم من أثبت الأسماء وبعض الصفات . والواجب إثبات كل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله من غير تشبيه ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل كما يأتي هذا هو واجب المؤمن ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة الذين ثبتوا على الحق وثبتوا على ما جاء في الكتاب والسنة ، وهذه مسألة عظيمة جداً لأن هذا هو الأصل الذي يُبنى عليه الدين فلا يجوز التساهل في هذا الأمر .

=

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة الرعد : ٣٠][1] الآية « سبب نزول الآية

وقوله : (شيئاً) : حتى لو بعضها ، أما لو جحد الأسماء والصفات كلها كالجهمية الأمر أشنع وأشد ، ولهذا يكفرون الجهمية لأنهم نفوا الأسماء والصفات ، فشبهوا الله ﷻ بالناقصات والمعدومات والجمادات ، فإن الذي ليس له أسماء ولا صفات إما معدوم لا وجود له وإما موجود ناقص كالجمادات ، فهم لما كان هذا مذهبهم كفَّرهم علماء أهل السنة والجماعة كما قال ابن القيم(*) رحمه الله :

ولقد تقلَّد كفرَهُم خَمْسُونَ فِي عَشْرٍ مِنَ العُلَمَاءِ فِي البُلْدَانِ

يعني خمسمائة عالم من أهل السنة حكموا بكفر الجهمية :

واللالَكَائِيُّ الإمامُ حكاه عنهم بل قد حَكَاه قَبلَهُ الطَّبَرَانِي

فهم يكفرون الجهمية الذين ينفون الأسماء والصفات لأنهم شبهوا الله بالمعدومات أو بالناقصات – تعالى الله عما يقولون – وسيأتي بيان شبهتم والرد عليها .

(١) ﴿وَهُمْ﴾ أي : المشركون ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ يعني ينفون هذا الاسم ويجحدونه ، وذلك كما وقع منهم في قصة صلح الحديبية لما تصالح النبي ﷺ مع المشركين وأراد أن يكتب ﷺ هذا الصلح بينه وبينهم فطلب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليكتب فحضر فقال له النبي ﷺ : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم أمره بالبداءة بها فقال مندوب المشركين وهو سهيل بن عمرو – قبل أن يسلم يوم إن كان على الشرك – قال : أما الرحمن فلا نعرفه ولكن اكتب باسمك اللهم . فالنبي ﷺ أمر علياً أن يكتب (باسمك اللهم) ، فنزلت هذه الآية ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾(**) وكذلك لما كان النبي ﷺ يصلي في مكة قبل الهجرة كانوا يستمعون إليه وهو يصلي ، وكانوا يسمعونه يقول في سجوده : يا الله يا رحمان ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يزعم أنه يعبد رباً واحداً وهو يدعو إلهين : الله والرحمان ، فأنـزل الله تـعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾(***) أي : أن أسماء الله كثيرة ، وكلها حسنى وكلها يُدعى بها ، ويتوسل إليه بها . وفي الآية في سورة الفرقان

(*) الكافية الشافية ص ٤٩ (٦٣٣ ، ٦٣٤) .

(**) انظر : أسباب النزول ، للواحدي ص ٢٧٣ .

(***) المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .

معلوم ، وهو أن قريشاً جحدوا اسم الرحمن عناداً . قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [سورة الإسراء : ١١٠] فالرحمن اسمه وصفته ، فالرحمة وصفه القائم به[١] ، فإذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائه الذي دل على كماله تعالى فجحود معناه كجحود لفظه[٢] ، فإن الجهمية يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى ، وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة[٣]

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [سورة الفرقان : ٦٠] هذا استنكار ، لأنهم يقولون : نحن لا نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة وهو مسيلمة ؛ لأنه كان يسمي نفسه بالرحمن ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ يعني نسجد لشيء لا نعرفه لأنك أمرتنا به فقط ، هذا استنكار منهم فهذه المواضع الثلاثة فيها أن المشركين ينكرون اسم الرحمن ، وقد رد الله عليهم بهذه الآيات ، فكيف بمن ينكر الأسماء كلها والصفات كلها - والعياذ بالله -هذا أشد من المشركين .

(١) الرحمن اسمه والرحمة صفته ، كل اسم من أسماء الله فإنه يشتق منه صفة من صفاته ، وليست أسماء الله أعلاماً محضة ليس لها معاني ، كما تقوله المعتزلة ، بل أسماء الله لها معان ، كل اسم منها يدل على صفة ، ولذلك صارت حسنى ، أما مجرد الألفاظ التي ليست لها معانٍ فليست حسنى .

(٢) جحود الأسماء والصفات على قسمين : القسم الأول : جحود اللفظ والمعنى كما عليه المشركون الذين جحدوا اسم الرحمن وما عليه الجهمية فإنهم جحدوا ألفاظها ومعانيها ، والقسم الثاني : إثبات اللفظ وجحود المعنى كما عليه المعتزلة الذين يقولون : إن أسماء الله إنما هي ألفاظ فقط وليس لها معانٍ . هذا أيضاً جحود للأسماء ؛ لأن الإقرار باللفظ وجحد المعنى نفي للفظ أيضاً ؛ لأنه لا فائدة فيه . وكلام الله ينزه عن ذلك .

(٣) المعتزلة أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري ، وكان من تلاميذه فلما سُئل الحسن ﷺ عن مرتكب الكبيرة ما حكمه ؟ قال : حكمه أنه مؤمن ناقص الإيمان ، فقال واصل : لا ، ليس مؤمنا هو خارج من الإيمان ، ولكنه لا يدخل في الكفر فهو في =

والأشاعرة[١] ، فلهذا كفرهم كثير من أهل السنة[٢] . قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

وَلَقَد تَقَلَّد كُفرَهُـم خَـمْسُون في عَشْرٍ من العُلَماءِ في البُلْدَانِ
والَلالَكَائِيُّ الإمامُ حَكَاهُ عنهم بَـل حَكَاه قَبْلَه الطبَرانِي[٣]

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم من أهل الكلام[٤] على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسول الله ﷺ من صـفات كمالـه ونعـوت

منزلة بين المنزلتين ثم اعتزل عن مجلس الحسن وانحاز إليه أتباعه فسمو بالمعتزلة (*) لأنهم اعتزلوا أهل السنة باعتزالهم مجلس إمام أهل السنة في وقته وهو الحسن البصري رضي الله عنه .

(١) الأشاعرة الذين ينتسبون لأبي الحسن الأشعري وهو إمام جليل وكان في الأول على مذهب المعتزلة ، ثم إنه تحول عنه إلى مذهب الكُلابية الذي عليه الأشاعرة الآن ، ثم إنه تحول عن مذهب الكلابية إلى مذهب أهل السنة وأخذ بمذهب الإمام أحمد رضي الله عنه فصرَّح بذلك في كتابة « الإبانة عن أصول الديانة » وفي كتاب « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين » وكلا الكتابين موجود ومطبوع وقد صرَّح برجوعه عن مذهب المعتزلة والكلابية إلى مذهب أهل السنة ؛ لكن أتباعه لم يرجعوا ، وبقوا على مذهبه المتوسط الذي هو مذهب الكُلابية ولم يأخذوا بمذهبه الأخير الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة ، فانتماؤهم إليه انتماء باطل وكذب ليسوا أشاعرة وإنما هم كلابية .

(٢) كفروا الجهمية .

(٣) خمسمائة عالم من أئمة أهل السنة حكموا بكفر الجهمية .

(٤) أهل الكلام : المراد بهم أهل المنطق الذين يستدلون بعلم المنطق على علم التوحيد ولا يستدلون بنصوص الكتاب والسنة ، وإنما يرجعون إلى قواعد المنطق . هؤلاء هم علماء الكلام فما خالف علم المنطق من النصوص أولوه أو فوضوه فيجعلون الأصل هو قواعد المنطق ، ويخضعون الكتاب والسنة لقواعد المنطق .

(*) انظر : التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين / للإسفراييني ص ٦٧ ، ٦٨

جلاله ، وبنوا هذا التعطيل على أصل فاسد(١) أصّلوه من عند أنفسهم(٢) ، ولم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين(٣) ،

---

(١) على أصل فاسد هو التنزيه بزعمهم فيقولون : لو أثبتنا هذه الأسماء والصفات وهي موجودة في المخلوقين لشبهنا الله بخلقه ، فالله أخبر أن له وجهاً والمخلوق له وجه ، الله أخبر أن له سمعاً والمخلوق له سمع ، الله أخبر أن له بصراً والمخلوق له بصر ، ولو أثبتنا هذه الأسماء والصفات لشبهنا الله بخلقه فلأجل ذلك نفوها تنزيهاً لله بزعمهم ، ومعنى هذا أنهم كذَّبوا الله ﷻ ، وأنهم أبطلوا ما قاله الله وقاله رسوله وصاروا أعلم من الله وأعلم من الرسول ﷺ ، فهذا التنزيه تنزيه باطل غَلوا في التنزيه - والعياذ بالله - حتى خرجوا فصاروا معطلة ، والمعطل هو الذي ينفي وجود الله ﷻ أو يعطل الله من أسمائه وصفاته ، والتعطيل معناه إخلاء الشيء فهم أخلوا الله ﷻ عن أسمائه وصفاته ، فصاروا معطلة ، وهذا غلو في التنزيه . والتنزيه حق ، ولكن ليس معناه نفي الأسماء والصفات ، وإنما معناه نفي المشابهة بين الله وبين خلقه بأن نقول : إن أسماء الله وصفاته خاصة به ولائقة به وصفات المخلوقين وأسماء المخلوقين لائقة بالمخلوقين ، ولا تشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق ، كما أنه لا تشابه بين ذات الله وذات المخلوق ، قال الله ﷻ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى : ١١] نفى المثلية وأثبت له السمع والبصر ، فدل على أن ليس معنى تنزيه الله : نفي الأسماء والصفات وإنما معناه : أنه لا تُشبَّه أسماء الله بأسماء خلقه ولا صفات الله بصفات خلقه وإنما يقال : صفات الله وأسماء الله خاصة ولائقة به ، وصفات المخلوقين وأسماء المخلوقين خاصة ولائقة بهم ، ولا تشابه بين هذا وهذا وإن اشتركت في اللفظ واشتركت في المعنى ، لكن الحقيقة والكيفية مختلفة بلا شك ، هذه هي القاعدة عند أهل السنة والجماعة فالأصل الفاسد هو التنزيه بزعمهم ، التنزيه الذي غلوا فيه حتى عطَّلوا ، ولو أنهم نَزَّهوا الله ﷻ كما يليق بجلاله وأثبتوا ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ونفوا عن ذلك التشبيه بالمخلوقين لكان هذا حق ، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة .

(٢) حيث قالوا : إن إثبات الأسماء والصفات يقتضي التشبيه فنحن لا نثبتها هذا أصل فاسد فنقول : لا ، إثبات الأسماء والصفات لا يقتضي التشبيه أبداً لأن هناك فرق بين أسماء المخلوقين وأسماء الخالق ، وصفات المخلوقين وصفات الخالق ، فهم لم يعرفوا الفرق ولذلك وقعوا فيما وقعوا فيه .

(٣) هذا هو الذي أوقعهم في الردى أنهم ما فهموا أسماء الله وصفاته على وجهها ، وإنما

=

فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه ثم عطلوه من صفات كماله ، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات(١) ، فشبهوا أولاً ، وعطلوا ثانياً ، وشبهوا ثالثاً بكل ناقص أو معدوم(٢) ، فتركوا ما دل عليه صريح الكتاب ولاسنة ، وما عليه سلف الأمة من إثبات ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته ، إثباتاً بلا تمثيل(٣) ، وتنزيهاً بلا تعطيل(٤) ، كما قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٥) [سورة الشورى : ١١] وقد صنّف أئمة السنة لما حدثت بدعة

فهموا منها ما يليق بالمخلوقين ، فلذلك نفوها عن الله ﷻ .

(١) فشبهوه بالناقصات مثل الحيوانات والجمادات التي لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ، أو شبهوه بالمعدومات التي ليس لها أسماء ولا صفات هذا معدوم ، لا شيء في الوجود ليس له اسم ولا صفة أبداً هذا معناه معدوم ، ولهذا قالوا : المعطل يعبد عدماً لا وجود له ، والمشبه يعبد صنماً لا يعبد الله ؛ لأن الله لا شبيه له ولا مثيل له ولا كفؤ له ﷻ .

(٢) هذه مراحل ضلالهم .

(٣) إثباتاً بلا تمثيل رد على المشبهة .

(٤) هذا رد على المعطلة .

(٥) فنفى عن نفسه المثلية وأثبت لنفسه السمع والبصر ، فدل على أن إثبات السمع والبصر لا يقتضي المثلية والتشبيه ، ففي قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(*) رد على المشبهة ؛ لأن

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ هناك من يقول أن الكاف في قوله : ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾ موقعها من الإعراب أنها زائدة فهل هذا القول صحيح ؟ فأجاب : لا ليس بصحيح ، ليس في القرآن شيء زائد ، فلا ينبغي هذا الكلام ، لكن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ قيل معناها أنها لتأكيد النفي ، مثل : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [سورة الزمر : ٣٦] ، فالأصل فيها (أليس الله كافياً عبده) ولكن جيء بالباء للتأكيد ، وقيل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ المراد بالمثل : الصفة ، أي : ليس كصفته شيء أ.هـ.

=

الجهمية[١] مصنفات كثيرة في الرد عليهم كالإمام أحمد[٢] ، وابنه عبد الله[٣] ، والخلال[٤] ، وأبي بكر الأثرم[٥] ، وعثمان بن سعيد الدارمي[٦] ، وإمام الأئمة محمد بن خزيمة[٧] ، وأبي عثمان الصابوني[٨] ، وخلق من أئمة السنة لا يمكن حصرهم ، وكذلك من بعدهم كأبي محمد عبد الله بن أحمد

هناك من غلا في الإثبات وهناك من غلا في التنزيه ، وكلا الطائفتين ضال ، وفي قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ رد على المعطلة ، وهذه الآية ميزان في جميع أسماء الله وصفاته .

(١) أول ما حدثت الفرق ، فظهرت فرقة القدرية ، وفرقة الخوارج في زمن الصحابة ، وظهرت فرقة الجهمية بعد ذلك في عهد بني أمية حينما ظهر غيلان ، والجعد بن درهم ، والجهم بن صفوان ، وهؤلاء الضلّال في عصر بني أمية .

(٢) الإمام أحمد رد على الزنادقة وكتابه موجود مطبوع « الرد على الزنادقة » .

(٣) ابنه عبد الله صنف كتاب « السنة » .

(٤) الخلال من تلاميذ الإمام أحمد صنف أيضاً كتاب « السنة » .

(٥) وأبو بكر الأثرم من تلاميذ الإمام أحمد أيضاً صنف كتاب « السنة » في الرد على هؤلاء .

(٦) عثمان بن سعيد الدارمي رد على الجهمية في كتاب مطبوع متداول[*] ، وهو رد على بشر المريسي المعتزلي .

(٧) محمد بن خزيمة الإمام المحدث ﷺ إمام الأئمة رد عليهم في « كتاب التوحيد » وفيه إثبات الأسماء والصفات لله ﷻ بالأسانيد الصحيحة والروايات الصحيحة ، وهو كتاب جيد مطبوع ومحقق .

(٨) في كتابه مذهب أهل السنة ، المشهور بعقيدة الإمام الصابوني .

(*) واسمه : نقض عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله في التوحيد ، حققه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه : منصور بن عبد العزيز السماري ، وطبعته مكتبة أضواء السلف بالرياض – الطبعة الأولى ١٤١٩هـ .

موفق الدين(١) ، وشيخ الإسلام ابن تيمية(٢) ، وابن قيم الجوزية(٣) ، ومن في طبقتهم كالعماد ابن كثير(٤) ، والحافظ ابن عبد الهادي(٥) وابن رجب(٦) ، والذهبي(٧) ، وغيرهم من أهل السنة والجماعة ، وكتبهم مشهورة موجودة بين أهل السنة والجماعة فلله الحمد على ظهور الحق ونشره والدعوة إليه والمحافظة عليه .

قوله : قال علي : « حدِّثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يُكَذَّب الله ورسوله ؟ »(٨) وهذا - والله أعلم - قاله حين كثر

(١) ابن قدامة صاحب المغني ألف كتابه « لمعة الاعتقاد » في بيان مذهب أهل السنة والجماعة .

(٢) وهذا مشهور ، شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أفنى عمره في الرد عليهم ونقض قواعدهم وتزييف باطلهم في كتب كثيرة .

(٣) وابن القيم تلميذه في كتابه « الصواعق المرسلة » ، واجتماع الجيوش الإسلامية في غزو المعطلة والجهمية » .

(٤) العماد ابن كثير في « تفسيره » من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية أخذ عنه ولذلك تفسيره تفسير جيد ، وهو على مذهب السلف في الأسماء والصفات .

(٥) تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الحافظ ابن عبد الهادي الإمام الجليل في الحديث ، وله كتاب في الرد على السبكي واسمه : « الصارم المنكي في الرد على السبكي » مطبوع .

(٦) ابن رجب الحنبلي صاحب كتاب « جامع العلوم والحكم في شرح الأربعين النووية » هذا أيضاً كتاب جيد وله « شرح البخاري » وله « القواعد الفقهية في المذهب » وله « شرح الترمذي » وهو من تلاميذ ابن القيم .

(٧) الذهبي الإمام شمس الدين من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، وله كتاب « العلو للعلي الغفار » .

(٨) وفي « صحيح البخاري » عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال : « حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله » الوعَّاظ والقصَّاص لا يتحاشون من ذكر الأخبار سواء أكانت

=

القُصَّاص[١] في خلافته وصاروا يذكرون أحاديث ليست من الأحاديث المعروفة ، ولهذا كثر الوضع بهذا السبب[٢] ، وغير المعروف يحتمل أن

صحيحة أو غير صحيحة ؛ لأنهم يريدون أن يؤثروا على الناس دون نظر إلى صحة الأخبار أو عدم صحتها ، فكل ما سمعوا أو قرأوا يذكرونه في مواعظهم وتذكيرهم ، فعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منعهم من ذلك ، وقال لهم : « حدِّثوا الناس بما يعرفون » بما صح عن رسول الله ﷺ وما هو معروف الثبوت ، ومعروف السند ، وأيضاً الأشياء الصحيحة التي يستغربها الناس ولا يفهمونها ، ولا وصلت إليها عقولهم ولو كانت صحيحة لا يُحدَّثون بها ؛ لأن هذا وسيلة إلى أنهم ينكرون شيئاً صحيحاً ثابتاً ، فالذي يحدِّث الناس بما لا يعرفون بين حالتين : إما أن يأتي بأخبار مكذوبة وينسبها إلى النبي ﷺ ، وإما أن يأتي بأخبار صحيحة ، ولكن فهمها لا يتأتى للعوام وإنما يتأتى لأهل العلم ، فالواجب على المعلم والمدرس والخطيب والواعظ أنه يحدِّث الناس على حسب طبقاتهم ، فيُحدِّث العلماء بما يليق بهم ، ويُحدِّث العوام بما يليق بهم ، هذا هو المنهج التعليمي الصحيح ، أما أنك تخاطب العوام بخطاب العلماء ، أو تخاطب العلماء بخطاب العوام فهذا غير لائق « حدثوا الناس بما يعرفون » لأنك إذا حدثتهم بما لا يعرفون صار هذا سبباً لتكذيب الخبر الصحيح « أتريدون أن يكذب الله ورسوله » وتكونون أنتم السبب . هذه مقالة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول : « ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم ، إلا كان لبعضهم فتنة » قد يكفر بهذا أو يُكذِّب بهذا ، كما قال أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « يكذب الله ورسوله » فيجب على المتحدِّث أن يراعي أحوال المتحدَّث إليهم .

(١) القصاص هم الوعاظ .

(٢) ينبغي على ولاة الأمور أن يمنعوا القصاص من الكلام إلا من عنده علم يوثق بعلمه ، أما كل من هب ودب يقف ويتكلم هذا يخشى منه الفتنة ، يخشى منه ما خشيه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وقته ، وما خشيه معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : لا يقص إلا أمير أو مأمور ، يعني مأذون له لأجل الانضباط فلا يؤذن إلا لأهل العلم .
ولهذا كثر وضع الأحاديث التي يروجها القصاص ؛ لأنهم لا يعرفون الضعيف من الموضوع ؛ إنما همهم التأثير على الناس فقط ولا ينظرون في السند .

يكون فيه ما يصح وفيه مالا يصح[١] ؛ فإذا سمعه من لم يعرفه أنكره[٢] ، وربما كان حقا . فلا ينبغي التحديث إلا بما صح وثبت واشتهر عن المحدثين والفقهاء[٣] ، وما ليس كذلك فلا ينبغي أن يُحدَّث به[٤] لإحتمال أن يكون غير صحيح ، وقد « كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان[٥] ينهى عن القصص ؛ لما فيه من التساهل في النقل ، ويقول : « لا يقص إلا أمير أو مأمور »[٦] .

---

(١) ليس كل حديث وجدته تذكره ، حتى تمحص سنده وتعرف من رواه .

(٢) ربما إن الناس ينكرون ما يقوله القصاص لأنهم جاءوا بغرائب فصاروا لا يثقون بهم ، وربما ينكرون الصحيح بسبب ما ألِفوا منهم من الغرائب .

(٣) لا ينبغي التحديث ، إلا بما صح عن المحدِّثين والمفسِّرين والفقهاء ، فإذا أردت أن تلقي كلمة أو خطبة أو موعظة أو تدرِّس في مجلس ، قبل أن تباشر هذا الشيء حضِّر ما تقول ، وانظر فيما تقول وركِّز واجعل لك عناصر تمشي عليها ، ولا تقل كل ما حضر عندك ، لا يصلح هذا .

(٤) يجب على طالب العلم التثبت فيما يقول وما يلقيه على الناس ، وأيضاً يكون عنده حكمة في خطاب الناس ، يخاطب العوام بما يليق بهم ، ويخاطب طلبة العلم بما يليق بهم ، ويخاطب العلماء بما يليق بهم ، ينزل الناس منازلهم . النبي ﷺ قال لمعاذ : « إنك تأتي قوماً أهل كتاب » يعني عندهم علم وعندهم جدال فاستعد لابد إن الذي يريد أن يتكلم يستعد .

(٥) يعني في خلافته .

(٦) لا يقصّ إلا ولي الأمر وهو العالم الممكن ، أو مأمور : وهو من أُذن له ولا يؤذن إلا لأهل العلم الذين معهم إجازة وليس معناه : حجز الناس عن الخير كما يفهمه بعض الناس ، وإنما من أجل النصيحة للأمة لئلا تنتشر الأحاديث المكذوبة والقصص الواهية والعقائد الفاسدة كلها تنتشر بهذه الطريقة إذا لم تضبط انتشرت هذه الأمور ، فالغرض من هذا ليس منع الخير ، وإنما الغرض من هذا هو التثبت فيما يقوله الواعظ أو المتحدِّث حتى ينفع الناس ، ويكون كلامه صحيحاً .

قوله : وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أنه رأى رجلاً انتفض - لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات ، استنكاراً لذلك - فقال : « ما فرق هؤلاء ؟ يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه »(١) ؟!

(١) هذا الحديث رواه عبد الرزاق بن همام الصنعاني الإمام الجليل - من شيوخ الإمام أحمد وغيره من العلماء - عن عبد الله بن طاوس بن كيسان اليماني ، عن أبيه ، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يحدث الناس ويدرس بما أعطاه الله من العلم ؛ لأنه حبر الأمة وترجمان القرآن فكان يفيض من علمه وفقهه على الناس في مجالسه ودروسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بما منَّ الله عليه به من العلم الغزير ، فذكر حديثاً في صفات الله ﷻ فانتفض رجل عنده لما سمع الحديث وأخذته رعدة من شدة الاستنكار ؛ لأنه من الذين يكذبون بأسماء الله وصفاته فلما سمع هذا الحديث الذي حدَّث به حبر الأمة ظهر عليه الاستنكار والاستغراب فأنكر عليه عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال : « ما فرق هؤلاء ؟ » الفرق : الخوف ، وهذا استفهام إنكاري ، أي : ما هو السبب الذي يصيب هؤلاء عندما يسمعون نصوص القرآن والسنة أنهم « يجدون رقة » أي : خوفاً « عند محكمه » فدل هذا على أن نصوص الصفات من المُحكم وليست من المتشابه ، ففي هذا رد على الجهمية والمعتزلة وأضرابهم الذين يقولون : إن نصوص الصفات من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله يقولون من المتشابه ، فبعضهم يفوضها إلى الله ، ويقول : هذا مذهب السلف ولا يفسرها مع جحد ما ظهر منها من المعنى ، ومنهم من يؤولها بغير معانيها فهم قسمان : قسم يفوِّض ويقول هذا مذهب السلف وقسم يؤولها عن معناها إلى معاني أخرى كاليد بالقدرة والوجه بالذات ، والمجيء بمجيء أمره أو غير ذلك ، ونزول الله بنزول أمره ، لأنهم لا يؤمنون بمعناها ويلتمسون لها معنى آخر ، هذا ما يسمى بالتأويل ويقولون : إن طريقة السلف أسلم وأحكم وطريقة الخلف أسلم وأعلم وأحكم ؛ لأن السلف بزعمهم لم يتعرضوا لتفسيرها فسلموا ، وأما الخلف فإنهم فسروها وأولوها فصاروا أعلم من السلف بذلك هذا ما يقولونه . فابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنكر على هذا الرجل وأضرابه الذين يستنكرون أحاديث الأسماء والصفات ، ويخافون عند ذكرها وينتفضون ويهلكون عند المتشابه . ما

=

هو المحكم وما هو المتشابه الله ﷻ يقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾ [سورة آل عمران : ٧] ثم ذكر انقسام الناس عند المحكم والمتشابه ، فأهل الزيغ أخذوا المتشابه فقط ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ﴾ فالمحكم هو الذي معناه ظاهر ولا يحتاج في تفسيره إلى غيره وأما المتشابه فهو الذي لا يظهر معناه إلا برده إلى غيره كالمطلق والمقيد ، والعام والخاص ، والمجمل والمبين ، والناسخ والمنسوخ ، فأهل العلم الراسخون فيه يردون المتشابه إلى المحكم ؛ لأنه كلام الله ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ فيفسرون كلام الله بعضه ببعض ، وكلام الرسول ﷺ بعضه ببعض ؛ لأن كلام الله لا يتناقض ، وكلام الرسول ﷺ ولا يتناقض ؛ بل يصدق بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، فيردون المتشابه إلى المحكم ويفسرونه به ، ويخافون من طريقة الذين يتبعون المتشابه ويقولون : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا ﴾ لأن الذين في قلوبهم زيغ يأخذون المتشابه فقط ويتركون المحكم ، والمتشابه لا يجوز الأخذ به وحده ؛ بل لابد من ردّه إلى المحكم وتفسيره بالمحكم فهذه طريقة الراسخين في العلم ، وهي الطريقة الصحيحة التي أثنى الله عليها ووصف أهلها بأنهم راسخون في العلم ثابتون ، فهؤلاء يقول ابن عباس : « يجدون رقة » : يعني خوفاً واستنكاراً عند المحكم ، « ويهلكون عند المتشابه » : يأخذون المتشابه ويفرحون به ويقطعونه عن ما يفسره من النصوص الأخرى ﴿ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧] فمما أمر الله به أن يوصل رد المتشابه إلى المحكم ، فهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل فيأخذون المتشابه ويتركون المحكم ، وهذه طريقة أهل الزيغ . وجاء في الحديث : « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم »(*) سمى الله في قوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ ﴾ قال ﷺ « فاحذروهم » أن يضلوكم ، فهذا الرجل الذي عند ابن عباس من هؤلاء ينكر المحكم ويفرح بالمتشابه ثم يهلك بسبب المتشابه ؛ لأنه يضل – والعياذ بالله – ويزيغ عن الحق فيهلك ، هذا من فقهه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ ، فدل على أن نصوص الأسماء والصفات ليست من المتشابه ، وإنما هي من

(*) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٤ / ١٦٥٥ (٤٢٧٣) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٠٥٣ (٢٦٦٥) .

قوله : « وروى عبد الرزاق » هو ابن همام الصنعاني المحدِّث ، محدِّث اليمن ، صاحب التصانيف[(١)] ، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهري[(٢)] ، وهو شيخ عبد الرزاق[(٣)] ، يروي عنه كثيراً[(٤)] ، ومعمر - بفتح الميمين وسكون العين - أبو عروة ابن أبي عمرو راشد الأزدي الحراني ثم اليماني ، من أصحاب محمد بن شهاب الزهري ، يروي عنه كثيراً .

قوله : « عن ابن طاوس » هو عبد الله بن طاوس اليماني[(٥)] ، قال معمر :

المحكم الواضح البيِّن معناه الذي لا يحتاج إلى تأويل ، بل يفسر نفسه ويوضح نفسه - هذا هو المحكم ، فدل على أن آيات الصفات ليست من المتشابه ، وإنها هي من المحكم لماذا الشيخ ذكر أثر ابن عباس بعد أثر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؟ ليبين أنه ليس مقصود علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله : « حدثوا الناس بما يعرفون » أنكم لا تحدثونهم بآيات الأسماء والصفات ؛ لأن آيات الأسماء والصفات معروفة واضحة في القرآن والسنة ، فليست هي من المتشابه الذي نهى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن التحديث به ؛ لأن ابن عباس حدَّث به وأنكر على من توقف عنده والله أمرنا بتدبر القرآن . والقرآن كثيراً ما يشتمل على الأسماء والصفات فليست من المتشابه ، إنها هي من المحكم الواضح ، الرحمن معناه ذو الرحمة ، العليم معناه ذو العلم ، سميع له سمع ، بصير له بصر ، الحي له حياة ، القدير له قدرة ، الحكيم له حكمة ، فأثر ابن عباس يفسر أثر عليّ أنه ليس نصوص الصفات من الذي لا يعرف فلا يحدث به الناس ؛ بل هي من المعروف الذي تعرفه الأفهام ، ولذلك تدرس في المدارس وفي الدروس ؛ لأنها من المحكم . هذا قصد المؤلف ﷺ في إيراد أثر ابن عباس بعد أثر علي رضي الله عن الجميع .

(١) مثل مصنف عبد الرزاق في الأحاديث والآثار » وهو مطبوع .

(٢) صاحب الإمام محمد بن شهاب الزهري الإمام الجليل .

(٣) معمر بن راشد شيخ عبد الرزاق ، ومعمر تلميذ للزهري محمد بن شهاب الإمام الجليل .

(٤) يروى عنه عبد الرزاق كثيراً ؛ لأنه شيخه .

(٥) طاووس هذا من أقران عبد الرزاق الإمام الجليل من أئمة الحديث في اليمن ، طاوس ابن كيسان وابنه عبد الله بن طاوس .

كان من أعلم الناس بالعربية[١] . وقال ابن عيينة : مات سنة اثنتين وثلاثين ومئة .

قوله : « عن أبيه » هو طاوس بن كيسان الجَنَدي - بفتح الجيم والنون - الإمام العالم ، قيل : اسمه ذكوان ، قاله ابن الجوزي . قلت : وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم ، قال في « تهذيب الكمال » عن الوليد الموقري ، عن الزهري قال : « قدمت على عبد الملك بن مروان[٢] فقال : من أين قدمت يا زهري ؟ قال : قلت : من مكة ، قال : من خلفت يسودها وأهلها ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح ، قال : فمن العرب أم من الموالي[٣] ؟ قلت : من الموالي ، قال : فبم سادهم ؟ قال : قلت : بالديانة والرواية . قال : إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسوَّدوا ، قال : فمن يسود أهل اليمن ؟ قلت : طاوس بن كيسان ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي ، قال : فبم سادهم ؟ قلت : بما ساد به عطاء ، قال : إنه لينبغي ذلك ، قال : فمن يسود أهل مصر ؟ قلت : يزيد بن أبي حبيب ، قال : فمن العرب أم الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي ، قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل . قال : فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران . قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي ،

---

(١) أي : عبد الله بن طاوس .

(٢) الخليفة في وقته .

(٣) يعني من العبيد الذين ليس لهم نسب قبلي ، سموا موالي ؛ لأنهم عتقاء ، ومنهم عطاء بن أبي رباح الإمام الجليل .

قال : فمن يسود أهل خراسان ؟ قال : قلت : الضحاك بن مزاحم ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي ، قال : فمن يسود أهل البصرة ؟ قلت : الحسن البصري ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي ، قال : ويلك ومن يسود أهل الكوفة ؟ قال : قلت : إبراهيم النخعي ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال : قلت : من العرب ، قال : ويلك يا زهري فرجت عني والله لتسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها[1] ، قال : قلت : يا أمير المؤمنين إنما هو دين من حفظه ساد ومن ضيعه سقط » .

قوله : « ما فرق هؤلاء » يستفهم من أصحابه يشير إلى أناس ممن يحضرون مجلسه ، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن حصل منهم فرق أي : خوف ، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث انتفضوا كالمنكرين للمعنى[2] ، ولا يتم الإيمان إلا بقبول اللفظ بمعناه الذي دل عليه ظاهراً ، فإن لم يقبل معناه أو رده أو شك فيه لم يكن مؤمناً به فيكون هلاكاً[3] . وقد ظهر من البدع في

---

(١) لأن هذا الدين من أخذ به ساد ، ولو لم يكن من العرب ، فهذا فيه الحث على طلب العلم وعلى التقوى والورع قال الله ﷻ : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] فهؤلاء سادوا الناس لا بنسبهم وإنما سادوا بعلمهم وتقواهم .
والعرب إذا تقاعسوا عن طلب العلم واقتصروا على نسبهم فإن الموالي تتقدم عليهم ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه »(*) .

(٢) لأن في قلوبهم الزيغ - والعياذ بالله - .

(٣) هذا هو الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ،

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٠٧٤ (٢٦٩٩) .

زمن ابن عباس بدعة القدرية[١] ، كما في « صحيح مسلم » وغيره ، فقتل من دعاتهم غيلان ، قتله هشام بن عبد الملك لما أصر على قوله بنفي القدر ، ثم بعد ذلك أظهر الجعد بن درهم بدعة الجهمية فقتل ، قتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بعد صلاة العيد .

قال الذهبي : قال أحمد : حدَّث وكيع ، عن إسرائيل بحديث : « إذا جلس الرب على الكرسي » فاقشعر رجل عند وكيع ، فغضب وكيع وقال : « أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها » أخرجه عبد الله في الرد على الجهمية[٢] ، والواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس ، وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها ، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى[٣] لمعرفة المراد ، والتوفيق بين

تسلم فتسلم لله ولرسوله ، وتؤمن فلا تعترض ولا تتدخل بفهمك وفكرك إذا اعترضت هذا دليل على عدم الإيمان ، الإيمان معناه التسليم والانقياد والتصديق بما أخبر الله به ورسوله أنت عبد مأمور بالاتباع والاقتداء ولا تتدخل باعتراضاتك وأفكارك وتشكيكاتك .

(١) الذين ينكرون القدر .

(٢) إذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ فلا ينكر . « جلس الرب على الكرسي » : الله له كرسي ﷻ ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] ، وجلس ليس معناه كجلوس المخلوقين ، الذي يقع في ذهنه أن جلوس الله مثل جلوس المخلوقين هذا مشبِّه لكن نؤمن بجلوس لله يليق بجلاله ﷻ مثل الاستواء ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٤] استواءً يليق بجلاله ، لا نعرف كيفيته ، ليس مثل استواء المخلوق على المخلوق ، أو استواء المخلوق على الدابة أو على السفينة .

(٣) هذا آفة تلقي العلم عن غير أهله تورث الضلال وتورث الجهل وتورث المفاسد فلابد

=

النصوص ، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً ، ورد المتشابه إلى المحكم ، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان ، فلله الحمد لا نحصي ثناء عليه .

قوله : « ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر : الرحمن[١] أنكروا فأنزل الله فيهم : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾[٢] الآية .

روى ابن جرير ، عن ابن عباس قال : « كان النبي ﷺ يدعو ساجداً : يا رحمن يا رحيم ، فقال المشركون : هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى فأنزل الله : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[٣] [سورة الإسراء : ١١٠] .

من تلقي العلم عن أهله المعروفين به ؛ لأن هذا العلم رواية ونقل ، ليس العلم مجرد اطلاع ومجرد أخذ من الكتب أو أخذ ممن ليس من أهل العلم ؛ بل العلم يحتاج إلى سند ، ولهذا يقول بعض السلف : (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)[*] .

الفوضى وحصل التفرق وحصل التعادي بين طلبة العلم بسبب إنهم ما أخذوا العلم عن أهله ومن مصادره .

(١) هذا في صلاته في المسجد ، وكذلك في الحديبية لما قال : اكتب بسم الله الرحمن قال : ما نعرف الرحمن .

(٢) فدلَّ على أن نفي الأسماء والصفات كفر – والعياذ بالله – .

(٣) تعدد الأسماء لا يدل على تعدد المسمى ، بل يدل على عظمة المسمى .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ١ / ١٤ ، من كلام ابن سيرين ﷺ .

٤١ - باب قول الله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾

قـــول الله تعـــالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل : ٨٣] .

قال مجاهد ما معناه : (هو قول الرجل : هذا مالي ، ورثته عن آبائي) .

وقال عون بن عبد الله : (يقولون : لولا فلان ؛ لم يكن كذا) .

وقال ابن قتيبة : (يقولون : هذا بشفاعة آلهتنا) .

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه : « أن الله - تعالى - قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ... » الحديث ، وقد تقدم : (وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به .

قال بعض السلف : (هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقاً ... ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير) .

٤١ - باب قول الله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾)(١)

---

(١) هذه آية من سورة النحل قبلها قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ . يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٨٢ - ٨٣] هذه السورة ذكر الله فيها أنواعاً من النعم التي أنعم بها على عباده ، ذكَّرهم بها من أجل أن يعبدوه وحده لا شريك له ، ومن أجل إبطال عبادة غير الله ؛ لأن هذه النعم كلها من الله ﷻ فهو المستحق للعبادة ، وأما هذه المعبودات من دونه فليس لها شيء من هذه النعم ، وأول هذه النعم وأعظمها إرسال الرسل أول ما بدأ بذكر إرسال الرسل ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [سورة النحل : ٢] ثم عدد النعم الكثيرة في هذه السورة ، ولذلك تسمى هذه السورة سورة النعم ، ثم قال بعدها : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ

=

ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ فهذا الباب عقده المصنف في بيان أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية ، وكلها أقوال متفقة ؛ لأن الآية عامة ، وكل ما قيل في تفسيرها عن السلف فإنه حق . قوله ﴿ يَعْرِفُونَ ﴾ : أي الكفار والمشركون ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ ما المراد بنعمة الله ؟ في ذلك أقوال : أن المراد بها هو الرسول ﷺ فهو أعظم نعمة . بِعْثته ﷺ أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٤] وكما قال ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الجمعة : ٢] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٧] وعلى المؤمنين خصوصاً . وقيل : المراد بالنعمة جميع ما ذكره الله في هذه السورة ؛ لأن المفرد إذا أضيف يعم فيكون معنى الآية : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ : أي نِعَم الله يعم ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ أي : يعرفون ذلك في قلوبهم وقرارة أنفسهم وينكرونها بألسنتهم ويقولون : هذه من عند أصنامنا أو من عند آبائنا أو هذه بحولنا وقوتنا أو ما أشبه ذلك فيضيفونها إلى غير الله ﷻ إما إلى آبائهم وأجدادهم كقول القائل : (ورثت هذا المال كابراً عن كابر) أو إلى أصنامهم فيضيفون إليها أنها هي التي تعطيهم هذه النعم ، وأنها تهب لهم الأولاد ، وأنها تنزل عليهم المطر وأنها وأنها ، أو إلى كدِّهم وكسبهم هم ، فيقولون : نحن حصلناها بمعرفتنا وحذقنا وكدِّنا كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [سورة القصص : ٧٨] أي : على معرفة مني بوجوه المكاسب ، وأياً كان فإن هذه كفر النعم ، أن تضاف إلى غير من أنعم بها ، وهذا كفر بالربوبية ، وشرك بالله ﷻ ، لأنهم جعلوا هذه الأشياء مشاركة لله في خلقه فهي كفر وشرك ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٨٣] فهذه الآية ساقها المصنف في هذه الترجمة ؛ لأن هذا تنقص للرب ﷻ وهو يخلّ بالتوحيد نسبة النعم إلى غير الله ﷻ شرك يخل بالتوحيد وينقصه وقد يضاد التوحيد ، فمن اعتقد أن هذه النعم من صنع غير الله وخلق غير الله هذا كفر أكبر ، وإن اعتقد أن هذه أسباب فقط وأنها أثرت في إيجاد هذه النعم فهذا شرك أصغر ، فعلى كل حال إضافة النعم إلى غير الله شرك إما أكبر وإما أصغر وهو يقدح في التوحيد ؛ ولذلك ذكر الشيخ ﷺ هذه الترجمة في كتاب التوحيد لأن إضافة النعم إلى غير الله ﷻ شرك وكفر بالله ﷻ ، وأن الواجب أن

=

[سورة النحل : ٨٣] قال ابن جرير : فإن أهل التأويل[١] اختلفوا في المعنى بالنعمة فذكر عن سفيان ، عن السدي : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ قال : محمد ﷺ[٢] وقال آخرون : بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله ، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك ، ولكنهم ينكرون ذلك فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم[٣] ، وأخرج عن مجاهد[٤]﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ قال : هي المساكن والأنعام[٥] وما يرزقون

تضاف النعم إلى الله ، وأن يشكر الله عليها ويحمد عليها ﷻ لأنه إذا أضافها إلى غير الله لم يشكر الله ولم يحمد الله . والله ﷻ يقول : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة النحل : ٥٣] ويقول : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [سورة لقمان : ٢٠] فشكر النعمة عبادة لله ﷻ ، وكفرها شرك بالله ﷻ ، فهذه المسألة عظيمة قد يقع فيها كثير من الناس كما يأتي في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في آخر الباب فيجب التنبه لها .

(١) المراد بالتأويل : التفسير ؛ لأن التأويل في عرف المتقدمين هو التفسير ، خلاف التأويل في عرف المتأخرين يريدون به صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر ، كما فعلوا بآيات الصفات وأحاديثها ، فالتأويل عند المتأخرين غير التأويل عند المتقدمين .

(٢) أن المراد بالنعمة محمد ﷺ ، ولا شك أن بعثته أعظم النعم .

(٣) هذا قول آخر أن المراد بالنعمة جميع النعم التي ذكرها الله في السورة ؛ وهو من إضافة المفرد فيعم جميع النعم المذكورة في هذه السورة من بعثة الرسل وغير ذلك من النعم التي ذكرها الله ، وهذا التفسير صحيح .

(٤) أخرج ابن جرير ، عن مجاهد
مجاهد هو ابن جبر التابعي الجليل من تلاميذ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

(٥) هي المساكن والأنعام ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ [سورة النحل : ٨٠] المساكن نعمة من الله ﷻ يسكن

منها[١] والسرابيل من الحديد والثياب[٢] يعرف هذا كفار قريش ثم ينكرونه[٣] بأن يقولوا : هذا كان لآبائنا فورثونا إياه[٤] .

قوله : « وقال عون بن عبد الله : يقولون : لولا فلان لم يكن كذا »[٥]

فيها الإنسان ويستتر فيها ويدفأ من البرد ويستظل من الشمس ، هذه المساكن نعمة ، ثم هي أيضاً ثابتة ومتحركة ، ثابتة في البلد ومحل الاستيطان ومتحركة معك في السفر ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ : هذه المساكن .

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النحل : ٥ - ٧] فهذه الأنعام فيها نعم خيرات كثيرة لبني آدم .

(١) وما يرزقون منها من الدر والنسل والصوف والوبر واللحوم واللبن وغير ذلك من الفوائد العظيمة .

(٢) السرابيل هي الثياب ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ [سورة النحل : ٨١] مثل الملابس العادية تقي من الحر والبرد من القطن والكتان والصوف وغير ذلك ، والسرابيل التي تقي من القتال وهي الدروع هي ملابس أيضاً ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ يعني الحر والبرد ﴿ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ وهي الدروع ، هذا من نعم الله ﷻ .

(٣) يعرفون أنه من الله لكن لا يشكرون الله عليه ، ويضيفونه إلى غير الله .

(٤) يقولون : الفضل لآبائنا هم الذين تعبوا فيه وورثونا ، ولا يقولون الفضل لله ﷻ ، هو الذي رزق آباءنا هذا الشيء وجعلنا نرثه عنهم ، ينكرون هذا .

(٥) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الإمام الجليل يقول : هو قولهم : لولا فلان لم يكن كذا ، فأضاف النعمة إلى فلان وأنه لولاه ما حصلت ، وهذا كفر بالنعمة وكان الواجب أن يقول : لولا الله ما حصل كذا وكذا ؛ لأنه هو الذي أنعم بها ، وإن كان ولابد أن يجعل لفلان شيئاً من الذكر فليلقل : لولا الله ثم فلان ، كما أمر النبي ﷺ الصحابة بقول : « ما شاء الله ثم شئت »(*) ، أما قوله : لولا فلان لم يحصل كذا ، هذا لا يجوز ، أو قوله : لولا الله وفلان هذا أيضاً لا يجوز أما قوله : لولا الله ثم فلان . هذا لا بأس به لأنه جعل فلاناً

(*) أخرجه النسائي في « سننه » ٧ / ٦ (٣٧٧٣) ، وصححه الألباني .

عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي أبو عبد الله الكوفي الزاهد ، عن أبيه وعائشة وابن عباس ، وعنه قتادة وأبو الزبير والزهري[(١)] ، وثقه أحمد وابن معين ، قال البخاري : مات بعد العشرين ومئة . واختار ابن جرير القول الأول[(٢)] واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها وهو الصواب[(٣)] قوله : وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ : (يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به[(٤)] . قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقاً[(٥)] ، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة

تابعاً لا مؤثراً فيجب أيضاً الدقة في الألفاظ ؛ لأن الإنسان لا يتلفظ بلفظ غير صحيح يؤثر على عقيدته .

(١) يعني هو روى عن هؤلاء وأيضاً روى عنه هؤلاء فهو تتلمذ على أبيه وعلى غيره من علماء وقته ، ثم أخذ عنه تلاميذه .

(٢) أن المراد بالنعمة هو محمد ﷺ ، ولا شك أن الآية عامة واختلاف المفسرين ليس هو من اختلاف التضاد ، وإنما هو من اختلاف التنوع ؛ لأن الآية تعم هذه المعاني ، فكل منهم أخذ بمعنى من معانيها .

(٣) اختار أيضاً ابن جرير أن الآية عامة في كل ما ذكر في السورة من النعم .

(٤) هذا كثير وروده في الكتاب والسنة أنه سبحانه يذم من نسب إنعامه إلى غيره . الواجب أن النعم تضاف إلى الله ويحمد ويشكر عليها ولا تضاف إلى غيره .

(٥) هذا ورد في معناه حديث إلهي - يعني حديث قدسي - أن الله ﷻ يقول : « أنا والجن والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر سواي خيري إليهم نازل وشرهم إليّ صاعد »[(*)] فهذا في معنى ما جاء في هذا الباب فهم إذا مشوا في البحر ، والبحر خطير ؛

(*) أخرجه الطبراني في « مسند الشاميين » ٢ / ٩٢ (٩٧ ٩ ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ٦ / ٣١٠ (٤٢٤٣) ، وضعفه الألباني في « السلسلة الضعيفة » ٥ / ٣٩٣ (٢٣٧١) .

وسئل شيخنا - حفظه الله - عن هذا الحديث هل هو صحيح ؟ فأجاب : نعم هو حديث يُبحث عن سنده ، لكن يكثر ذكره على ألسنة العلماء ، ومعناه ما فيه شك أنه صحيح ؛ لأن الله يخلق ويعبد سواه ، أليس هذا واقعاً ؟ الله خلق المشركين وخلق كل شيء وعبدوا سواه ، والله يرزق ويُشكر سواه ، وهذا واقع أيضاً ، الرزق كله من الله تعالى وأغلب الشكر يصرف لغير الله ﷻ وهذا واقع أ.هـ.

=

كثير)[١] . انتهى . وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام في من نسب النعم إلى غير الله وأسند أسبابها إلى غيره[٢] كما هو مذكور في كلام

لأنهم يمشون على ماء هذا من آيات الله : أن السفن والمراكب تجري على البحر ، وترسو عليه وتقف عليه ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ [سورة الشورى : ٣٢] أي : كالجبال ولا تغوص في الماء ، سخر الله هذا البحر يحملها ، هذا من آياته ﷻ كما سخر الهواء الآن يحمل الطائرات المشحونة بالركاب والأمتعة ، يحملها تيار الهواء سخر لها ذلك ﷻ ، كذلك البحر سخره لتجري الفلك فيه بأمره ولو شاء لسلط عليها الأمواج فقذفتها ، ولو شاء لأسكن الريح فتوقفت عن السير كل هذا بأمره ﷻ ، فالواجب أن يشكر الله على ذلك ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [سورة يونس : ٢٢] وآيات كثيرة في السير في البحار ، وأنه من نعم الله ، وأن الله قادر على أن يهلكهم في هذا البحر ، ولكن رحمته ﷻ اقتضت أن ينجيهم وأن ينقذهم من هذا الخطر فكان الواجب أن يشكروا الله ﷻ لكن بالعكس يسندون هذا إلى غير الله فيقولون : كانت الريح طيبة(*) التي حركت السفينة ، يعني ليست عاصفة وكان الملاح وهو قائد السفينة حاذقاً يعني ماهراً في قيادة السفينة فيضيفون هذا إلى الريح وإلى حذق الملاح ولا يقولون : هذا من الله ويشكرون الله ﷻ على ذلك ، هذا من كفر النعمة أنهم أضافوا هذه النعمة إلى الأسباب ولم يضيفوها إلى مسبب الأسباب وهو الله ﷻ ، هذا من عجب بني آدم .

(١) يقول شيخ الإسلام هذا يجري على ألسنة كثير وهذا خطر ، كثيراً ما يضيف الناس النعم إلى الأسباب ولا يضيفونها إلى الله وهذا خطر عظيم يجب التنبه له ، ويجب على الإنسان أن ينزّه لسانه عن مثل هذا الكلام الذي فيه شرك وفيه كفر وهو لا يدري .

(٢) كلام شيخ الإسلام أعم مما ذكر في الباب أنه عام في جميع النعم التي ينعم الله بها على

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن قول بعض الناس : كانت الريح طيبة من قبيل الوصف ، وكما ذكر ذلك ﷻ في سورة يونس ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [آية : ٢٢] فأجاب : وصف الريح بأنها طيبة ، أو شديدة ، أو ريح عاصف لا شيء في ذلك ، لكن لا يسند إليها النعمة أ.هـ .

=

المفسرين المذكور بعضه هنا[١] ، وذلك من أنواع الشرك كما لا يخفى[٢] .

عباده مما ذكر في هذا السورة وما ذكر في غيرها ، والنعم لا تحصى ولا تعد ، ولهذا قال ﷻ : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [سورة النحل : ١٨] وقال ﷻ : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [سورة لقمان : ٢٠] فالنعم لا تحصى منها ما يعرف ويظهر ، ومنها ما لا يظهر والواجب على المسلم أن يشكر الله على نعمه وألا يضيفها إلى غيره .

(١) يعني الذي ذكر في هذا الباب هو بعض أقوال المفسرين وليس كل كلام المفسرين ، وكله يرجع إلى معنى واحد ، وهو إضافة النعم إلى غير الله ﷻ أياً كانت هذه النعم .

(٢) من أنواع الشرك لأنه جعل لغير الله تدخلاً وتفضلاً في هذه النعم ، فجعله شريكاً لله ﷻ والله ﷻ ، لا شريك له في ربوبيته ولا في إلاهيته ، ولا في أسمائه وصفاته ليس له شريك ، واحد أحد فرد صمد .

٤٢ - باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢]

قَالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الآية : « الأندادُ هُوَ الشِّرْكُ ، أَخْفَى من دَبيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ، وَهُوَ أَن تَقُولَ : والله ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلانُ ، وَحَيَاتِي ، وَتَقُول : لَوْلَا كُلَيْبَةُ هذا ؛ لأتَانَا اللُّصُوصُ ، وَلَوْلا البَطُّ فِي الدَّارِ ؛ لأتَى اللُّصُوصُ ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِه : مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ : لَوْلاَ اللهُ وفُلانٌ ؛ لا تَجْعَلْ فِيها فُلاناً ، هذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ » . رَواهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

وَعنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله ؛ فَقَدْ كَفَرَ ، أَوْ أَشْرَكَ » . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَحَسَّنَهُ ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ .

وَقالَ ابنُ مَسْعُودٍ : « لأَنْ أَحْلِفَ بِالله كَاذِباً ، أَحَبُّ إِليَّ مِنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادقاً » .

وَعن حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لاَ تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللهُ وَفُلانٌ ، وَلكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلاَنٌ » . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

وَجاءَ عَنْ إِبْراهِيمَ النَّخَعِيِّ : « أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ : أَعُوذُ بِالله وَبِكَ ، وَيُجَوِّزُ أَنْ يَقُولَ : بالله ثُمَّ بِكَ » . قَالَ : « وَيَقُولُ : لَوْلاَ اللهُ ثُمَّ فُلانٌ ، وَلا تَقُولُوا : لَوْلَا اللهُ وَفُلاَنٌ » .

٤٢ - باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾)[1]

(١) أي : ما جاء في تفسير هذه الآية ، وأنها شاملة للنهي عن الشرك الأكبر والشرك الأصغر .

قوله سبحانه : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ، لما أمر بالتوحيد في أول الآية قال سبحانه :

=

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ . ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ ، وهذه القاعدة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية أنه إذا جاء الأمر بالتوحيد فإنه يأتي بعده النهي عن الشرك ؛ لأن التوحيد لا يتحقق إلا بترك الشرك ، وعبادة الله لا تصح إلا بترك الشرك ، هذه قاعدة في الكتاب والسنة ، أمر الله ﷻ جميع الخلق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ : هذا عامٌ لجميع الخلق ، ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ : هذا توحيد الألوهية ، توحيد العبادة ، وقال ربكم : ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ؛ لأن الرب هو الذي يستحق العبادة ، والرب معناه : المربي لجميع الخلق بنعمِهِ ورزقه ووحيه وإرسال رسله ، كل هذا يدخل في معنى الرب ﷻ .

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ : الذي يستحق العبادة هو الذي يخلق ، أما الذي لا يخلق فإنه لا يستحق شيئاً من العبادة ، ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٧] ، فالذي لا يخلق لا يستحق العبادة ، وجميع المعبودات التي تُعبد من دون الله كلها لا تخلُق ، حتى أحقر الأشياء ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ [سورة الحج : ٧٣] ، لا يخلقون الذباب ، فكيف بما هو فوق لك ؟ ، الذي يستحق العبادة هو الذي يقدر على الخلق ، ولهذا تحدى الله المشركين الذين يعبدُون من دون الله أن يُبينوا ماذا خلقت آلهتهم ، لما ذكر سبحانه مخلوقاته في أول سورة لقمان قال : ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [آية : ١١] ، ﴿ أَرُونِي ﴾ : هذا تحدي ، ويقول : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [سورة الأحقاف : ٤] لا يقدر أي مشرك أن يقول إن معبوده يخلق شيئاً ، فما دام كذلك بطل الشرك من أساسه ؛ لأن العاجز لا يُعبَد ، إنما يُعبد القادر على الخلق ﷻ .

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١] : إذا تذكرتم هذا فإنكم تتقون عذاب الله ﷻ .

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا ﴾ [سورة البقرة : ٢٢] : ممدودةً ممهدة ، تنامون عليها ، وتجلسون =

عليها ، وتسيرون عليها ، ثابتة تزرعونها ، تُدفنون فيها ، تُخرجون منها ، هي فراشكم ، ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ أي : سقفاً فوق الأرض ، فيه الكواكب وفيه الأفلاك ، وفيه الملائكة ، وفيه ما لا يعلمه إلا الله من العوالم ، ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : من السحاب ، ﴿ مَاءً ﴾ : هو المطر الذي تحيا به الأرض ، تُنبت النبات ، من الذي يُنزل المطر إذا حبسه الله ؟ فلن يستطيع أحدٌ أن ينزله ، مهما بلغت قوة البشر لن يستطيعوا أن يُنشئوا السحاب ، وأن يُمطروا المطر ، هذا من خلق الله وإراداته ﷻ ، ثم أيضاً البراري القاحلة البعيدة التي ليس فيها ماء ولا حولها مياه ، يسوق الله لها السحاب ، فتُمطرها فتُنبت ، وتمسك الماء ويشرب الناس ، من الذي فعل هذا ؟ هل فعلته الأصنام ؟! ، هل فعلته القبور والأضرحة ؟! ، حاشا وكلا ، ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ وإذا شاء حبسه ﷻ ، ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ جميع الثمرات بأنواعها وأشكالها ، التي لا يعلمها ويحصرها إلا الله ﷻ ، جميع النباتات تنبت من ماء واحد ، ومن تربة واحدة ، وهي مختلفة الطعوم والروائح والألوان ، من الذي خلقها سبحانه وفاوت بينها ، ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ [سورة الرعد : ٤] تسقى بماء واحد وهي متجاورة في الأرض في قطعة واحدة ، من الذي فاوت بينها وفرّق بينها مع أن الماء واحد والتربة واحدة ؟ هذه قدرة الله ﷻ .

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ الله قادر على أن يمنع النبات ويمنع الأشجار من أن تثمر ، فمن أين يأكل الناس ؟ لكن بقدرته ورحمته أنبت الأشجار وأخرج الثمار للناس ، ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ لما ذكر الأدلة على توحيده نهى عن الشرك ، ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ جمع ند : وهو الشبيه والنظير والعديل ، لا أحد يشابه الله ، ولا أحد يعادل الله ، ولا أحد يماثل الله ﷻ ، فكيف تجعلون له أمثالاً وشبهاء ونُظراء لا يساوونه ﷻ ؟ ، الشرك تسوية المخلوق بالخالق ، العاجز بالقادر ، هذا من أبطل الباطل ، هذه براهين عقلية وهم يعترفون بها ، يعترفون أن الله هو الخالق الرازق الذي يحيي ويميت وهو الذي ينزل المطر ، يعترفون بهذا كله ، ومع هذ يعبدون معه غيره ممن لا يقدر على شيء ، وهذا من انتكا س الفِطَر وذهاب العقول ، وأنتم تعلمون أنه لا يفعل هذه الأشياء إلا الله ﷻ ، هذا خطاب للمشركين يعلمون أن هذه الأشياء لا يقدر عليها إلا الله ، فكيف يعبدون معه =

[سورة البقرة : ٢٢] الند : المثل والنظير ، وجعل الند لله هو صرف أنواع العبادة أو شيء منها لغير الله[(١)] ، كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم ، ويشفع لهم[(٢)] ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ قال العماد ابن كثير في « تفسيره » : قال أبو العالية : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ قال : عدلاء شركاء[(٣)] ، وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدي وأبو مالك وإسماعيل بن أبي خالد .

غيره ؟ وكيف يسوون به غيره ممن هو عاجز وفقير ومحتاج ، لكن فِطَرٌ منحرفة وعقول فاسدة ، فالله أقام عليهم الحجة ، بما يعترفون به ، وهو توحيد الربوبية ، أقامه حجةً وبرهاناً على توحيد الألوهية ، وهذه طريقة القرآن في سوق الأدلة على التوحيد ، براهين عقلية ، براهين قاطعة ساطعة ليس فيها غموض ، لكن أين العقول التي تفكر ؟ يحكمون العادات والتقاليد على البراهين ، وهذا من أعجب العجب ! ، ويصدّقون دعاة الضلال وشياطين الإنس والجن ويكذِّبون الرسل ، الرسل يدعون إلى التوحيد ، وشياطين الإنس والجن ودعاة الضلال يدعون إلى الشرك ، فيتبعون دعاة الشرك ويتركون دعاة التوحيد ، هذا من انتكاس الفِطَر وذهاب العقول ، ثم يأتي من يقول : هؤلاء جهلة ولا قامت عليهم حجة ، هؤلاء الذين يعبدون القبور جُهال ، والقرآن بهذا الوضوح وبهذا البيان وهم يقرؤونه ، هؤلاء جهال ؟!! إذا كانوا جهالاً فمتى يكونوا علماء ؟!! ، القرآن واضح في هذا ، وهم يقولون هؤلاء جهال !! إلى متى الجهل ؟ الجهل هذا كان قبل بعثة الرسول ﷺ أما بعد بعثة الرسول ﷺ ونزول القرآن ودعوة الرسول فإنه زال الجهل ، ولم يبقَ إلا العناد أو التجاهل ، هذا ليس بحجة ولا بعذر .

(١) هذا هو اتخاذ الند ، اتخاذ الند قد يكون شركاً أكبر ، وقد يكون شركاً أصغر .

(٢) عبدة الأوثان وعبدة القبور كلهم يرجون ويخافون من معبوداتهم كما يرجون ويخافون من الله .

(٣) ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١] يعدلون أي يسوّون غيره به ، يجعلونه عِدلاً له ومعادلاً .

وقال ابن عباس : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه .

وقال مجاهد : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ قال : تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل[(١)] .

قوله : « وعن ابن عباس في الآية : الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل[(٢)] ، وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان

---

(١) الكتب السماوية كلها جاءت بالتوحيد والنهي عن الشرك ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] وكل الرسل أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك ، هذا موجود في التوراة وفي الإنجيل وفي سائر الكتب المنزلة على الأنبياء .

(٢) هذا عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حبر الأمة وترجمان القرآن ، فسّر الأنداد بأنه الشرك ، ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أي : لا تشركوا به أحداً ، هذا هو اتخاذ الأنداد وجعل الأنداد ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ أي أنتم الذين جعلتموهم أنداداً لله ، وإلا فهُم ليسوا شركاء لله ولا أنداداً لله ، لكن أنتم جعلتموهم وادّعيتم لهم هذا .

﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ قال : « هو الشرك » ، والشرك ينقسم إلى قسمين : شرك أكبر وهو شركٌ ظاهر ، وشركٌ أصغر وهو خفيّ .

الشرك الأكبر الظاهر مثل : عبادة الأصنام ، عبادة الأشجار والأحجار والقبور ، هذا شرك ظاهر ، يذبح لهذه الأشياء وينذر لهذه الأشياء ، ويستغيث بهذه الأشياء ، هذا شرك ظاهر واضح ، وشرك أكبر يخرج من الملة ؛ لأنه صرف العبادة إلى غير الله ﷻ ، يقول العلامة ابن القيم :

والشرك فاحذره ، فشركٌ ظاهرٌ ذا القِسمُ ليس بقابل الغفران

=

وهو اتخاذ النِّدِّ للرحمن أياً كان ... من حجرٍ ، ومن إنسانِ
يدعوه أو يرجوه ثم يخافهُ ... كمخافةِ الواحدِ الدَّيَّانِ

هذا هو الشرك الأكبر .

والنوع الثاني : شرك أصغر وهو خفيّ ، سُمّي خفياً ؛ لأنه يخفى على الناس ، ويتساهلون به ، وإن كانوا مسلمين ، وإن كانوا موحدين ، لكن يخفى عليهم ذلك ، هذا الشرك الخفي ، وهو نوعان : شركٌ في الألفاظ ، وشركٌ في النيّات .

الشرك في الألفاظ مثل : الحلف بغير الله ، وقول : ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت ، وما أشبه ذلك ، هذا شرك في الألفاظ ، ليس معه نية وإنما هو شركٌ لفظيّ .

والنوع الثاني : شركٌ في النوايا والمقاصد ، وهو الرياء والسمعة ؛ لأنه في القلوب لا يعلمه إلا الله ، ولهذا قال ابن عباس عن هذا النوع من الشرك الذي هو الشرك الأصغر : « أخفى من دبيب النملة السّوداء على صفاة سوداء في ظلمة الليل » ؛ لأن الناس لا يعرفونه ويتساهلون به ، وهم مسلمون وموحّدون ، لكن يتلفظون بهذه الأشياء ، أو يكون عندهم رياء في قلوبهم ، وهذا هو الذي خافه النبي ﷺ على أصحابه ، قال : « أخوفُ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » ، فسئل عنه فقال : « الرياء ، يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرى من نظر رجلٍ إليه » ، فهذا يقع من المسلم ويقع من الموحّد ، وهو خطير ؛ لأنه يجر إلى الشرك الأكبر ، فيجب معرفته ويجب تجنُّبُ الألفاظ التي فيها شرك ، وتجنبُ النيات والمقاصد التي فيها شرك ، فيخلص لله ﷻ .

فأما الشرك الأكبر فهذا لا يقع من مسلم ، وإن ادّعى الإسلام فهو غير مسلم ، الذي يدّعي أنه مسلم وهو يعبد القبور ويستغيث بالأموات هذا ليس بمسلم ؛ لأنه مشرك من الشرك الأكبر المخرج من الملة ، لكن الشرك الأصغر يحصل من أهل التوحيد والإيمان ، ولذلك يجب عليهم أن يحذروه لأنه خفي ، « أخفى من دبيب النملة السوداء على صفاةٍ سوداء في ظلمة الليل » سوداء في سوداء ، ما يُرى ! النمل أسود والليل أسود والحصاة سوداء ، هذا تمثيل لخفاء هذا الشرك على كثير من الناس ، يتساهلون به ولا يلقون له بالاً ، فيجب الحذر منه ؛ لأنه يجر إلى الشرك الأكبر ، ولأنه وإن كان شركاً أصغر فهو أكبر من الكبائر – كما يأتي – وقول ابن عباس : « أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل » هذا من باب التحذير ؛ لأن هذا الأمر يخفى على كثير من الناس ويتساهلون به ، ويجري على ألسنتهم ، فينبغي الحذر منه .

وحياتي[١] ، وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص[٢] ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص[٣] ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت[٤] ، وقول الرجل :

---

(١) والله وحياتك ، « والله » هذا صحيح ؛ لأنه حلف بالله ﷻ ، لكن يقول « وحياتك » ، تارةً يحلف بالله ، وتارة يحلف بحياة المخلوقين ، وهذا شرك ، هذا حلف بغير الله . سواء قال : حياتي أو حياة المخاطب كله سواء .

(٢) يعني يسندون الأشياء إلى الأسباب ، الكلب لاشك إنه حارس ، أنه ينبه على مجيء اللصوص ، ويتخذ للحراسة ، لكن ليس هو الذي منع اللص من السطو ، الذي منعه هو الله ﷻ ، وإنما الكلب سبب ، أحياناً يكون عندك عشرة كلاب أو مئة كلب ويسطو عليك اللصوص إذا أراد الله ﷻ ، فليس الكلاب وحدها هي التي تحرسك ، وإنما هي سبب قد تنفع وقد لا تنفع إذا جاء القدر ، فيجب على العبد أن يعلق قلبه بالله ﷻ .

(٣) كذلك يتخذون البط أو الببغاوات أو أنواع من الطيور تصوّت إذا استنكرت أحداً فيتنبّه صاحب البيت ، هذه فيها فائدة لا بأس ، لكن لا تسند إليها سلامتك من اللصوص ، وإنما تسنده لله ﷻ ، هو الذي حفظك ، وهو الذي دافع عنك ، وليس البط ! ، أحياناً يُسرق الإنسان وعنده بط إذا أراد الله ﷻ .

(٤) كذلك التشريك في المشيئة « ما شاء الله وشئت » ، والنبي ﷺ عدّل هذا فقال : « قل ما شاء الله ثم شئت » ، ائتِ بثُمّ ؛ لأن الواو تقتضي التشريك ، وأما (ثم) فتقتضي الترتيب والتعقيب ، الواو لمطلق الجمع لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً ، تقول : جاء فلان وفلان بالواو ، أي : اشتركا في المجيء ، ولا ميزة لأحدهما على الآخر في التقدم أو التأخر ، يمكن جاؤوا جميعاً جاء فلان وفلان أي : جميعاً ، لكن لو قلت : جاء فلان ثم فلان ، علمنا أن مجيء الأول مُقدّم ومجيء الثاني متأخر ، ولم يحصل بينهما اشتراك في المجيء ، وإنما هذا بعد هذا ، هذا مقتضى اللغة ، كذلك في المشيئة ، تقول : ما شاء الله ثم شئت ، العبد له مشيئة : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة التكوير : ٢٩] رداً على الجبرية الذين يقولون : أن العبد ماله مشيئة وإنما هو مجبر ، الله أثبت للعباد مشيئة : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، لكن لا تجمع بين المشيئتين بالواو تقول : ما شاء الله وشئت ، فتجمع مشيئة المخلوق مع مشيئة الخالق ، هذا شرك ، ولكن قل : ما شاء الله ثم شئت ، أو ما شاء الله ثم شاء فلان ؛ لأن (ثم) ترتّب .

لولا الله وفلان[١] ، لا تجعل فيها فلاناً[٢] ، هذا كله به شرك »[٣] ، وهذا من ابن عباس تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى[٤] .

قوله : « وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك »[٥] رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم ،

---

(١) كذلك : لولا الله وفلان ، الصحيح أن تقول : لولا الله ثم فلان ، ولا تجمع بين الله وبين فلان بالواو ؛ لأن هذا يقتضي التشريك ، واللفظ الصحيح أن تقول : لولا الله ثم فلان ما حصل كذا وكذا ؛ لأن فلاناً سبب من الأسباب ، قد ينفع وقد لا ينفع ، ولكن تحصيل النتائج هو من الله ﷻ .

(٢) لا تجعل في هذا اللفظ فلاناً بالواو ، ولكن اجعل (ثم) ، أو اجعل (الله) فقط ، تقول : ما شاء الله ، لولا الله ، يكفي هذا ، لكن إذا كان ولابد تذكر فلاناً اذكره بثُمّ .

(٣) هذا كله به ، أي : بالله ، شركٌ ، لأنه شرك في الألفاظ .

(٤) إذا كان هذا الشرك الأصغر ، فكيف في الشرك الأكبر ؟! هذا تنبيه من ابن عباس ، لماذا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فسّر الآية بالشرك الأصغر ؟ ؛ لينبه به على الشرك الأكبر لأنه أشد ، بعض الناس يقول : ما دام ليس عندي شرك أكبر الأمر سهل ، أقول ما شئت نقول : لا ، ولو كان ليس عندك شرك أكبر احذر من الشرك الأصغر أيضاً ، أن يجري على لسانك أو في تخاطبك ، وهذا يتساهل فيه الناس اليوم ، إذا أرادوا يمدحون شخصاً قالوا : والله لولا أنت ما حصل كذا ، لولا فلان ما حصل كذا ، مجهودات فلان ، أعمال فلان .. إلى آخره ، ولا يذكرون الله ﷻ ، كل الثناء لفلان ، وكل الذكر لفلان ، وكأنه هو الذي خلق هذه الأشياء ، فهل يضرك إذا قلت : لولا الله ثم فلان ؟! ، هذا من الله ثم فلان ؟ تحقق توحيدك وتحصل على الغرض وهو مدح صاحبك ، لكن هذا يحتاج تعلُّم ، وتفقه ، كثر الآن في النوادي والخطب والاحتفالات والصحف والمجلات التساهل في هذه الألفاظ ، يبالغون في المدح ، والثناء على الناس ، ويسندون الخير والفضل إلى المخلوقين ، وينسون الله ﷻ .

(٥) قال ﷺ : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » (أو) يحتمل أنها شك من الراوي هل قال الرسول : كفر أو قال : أشرك ، ويحتمل أنها من أصل الحديث ، يحصل منه الأمر هذا =

ويحتمل أن يكون شكاً من الراوي ، ويحتمل أن تكون (أو) بمعنى الواو فيكون قد كفر وأشرك(١) ويكون من باب كفر دون كفر(٢) .

الكفر أو الشرك . والحلف بغير الله شرك وكفر ، لكنه أصغر(*) لا يخرج من الملة إلا إذا عظَّم المخلوق مثلما يعظم الخالق فإنه يكون شركاً أكبر ، فإذا حلف بمخلوق يعظمه كما يعظم الله فإن هذا شرك أكبر ، مثل ما عليه عبَّاد القبور ، فإنهم يحلفون بالله ويكذبون ، لكنهم لا يحلفون بالقبور إلا وهم صادقون ، لأنهم يخافون من القبور أن تصيبهم بسوء ، فإذا قيل له : احلف بالله ، بادر إلى الحلف ، وإذا قيل له : احلف بمن تعظمه من الموتى كالبدوي أو الحسين ينتفض ولا يستطيع يتكلم ، لأنه يخشى أن يصيبه ، فهذا شرك أكبر بلا شك ، والحلف بغير الله من اتخاذ الأنداد ، وإن كان شركاً أصغر .

(١) (أو) تأتي بمعنى الواو ، ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة سبأ : ٢٤] يعني : وإنا وإياكم ، و(أو) تأتي بمعنى الواو أحياناً ، وتأتي بمعنى الشك ، وتأتي بمعنى التخيير ، وتأتي بمعنى الإباحة :

خير أبِحْ ، قَسِّمْ بأو وأبْهِم   واشْكُكْ وإضرابٌ بها أيضاً نُمِي(**)

هذه معاني (أو) في « الألفية » .

(٢) كفر وأشرك ليس معناه أنه خرج من الملة ، لكن معناه أنه حصل عنده شرك أصغر في

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن قول الشاعر : لعمرك إن الموت ... إلى آخر البيت ، هل هذا حلف بغير الله ، وهل يعتبر هذا من الشرك الأصغر ؟ فأجاب : (لعمرك) ليس بحلف ؛ لأنه يجري على الألسنة ، ولا يقصد بها اليمين . أ.هـ.

وسئل عن الحلف بغير الله إذا كان جارياً على اللسان بدون قصد ، واستمر عليها بعد تعليمه هل يأثم بذلك ؟ فأجاب : نعم يأثم بذلك ، لا ينبغي للإنسان أن يتساهل في هذا الشيء ، ويقول : هذا يجري على لساني ، هذا لا يجوز ، يجب عليه أن يحذر ويتجنب هذا الشيء . أ.هـ.

وسئل حفظه الله عن قول : عليَّ الطلاق ، أو عليَّ الحرام هل هو من الحلف بغير الله ؟ فأجاب : هذا يُسمى الحلف بالطلاق ، ليس هو مثل الحلف بالله في أنه شرك ، ولكن سُمي حلفاً ؛ لأنه يجري مجرى الحلف بالله ، وتدخله الكفارة ، فهو يشبه اليمين بالله من حيث الحكم في الكفارة ، ولا يشبه اليمين بالله في أنه شرك . أ.هـ.

(**) انظر : ألفية ابن مالك ص ٤٨ .

قوله : وقال ابن مسعود : « لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً »(١) ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً من الكبائر ، لكن الشرك أكبر من الكبائر وإن كان أصغر كما تقدم .

قوله : « وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » رواه أبو داود بسند صحيح(٢) ، وذلك لأن العطف بالواو يقتضي المساواة ؛ لأنها في

اللفظ ، وهذا يرُد على الذين يقولون الآن : أن الإنسان لو فعل ولو تلفظ ولو قال ما يحكم عليه بالشرك أو الكفر حتى يعتقد بقلبه ، فابن عباس جعل هذا من الشرك وهو في الألفاظ فقط ، بدون نية وبدون قصد في القلب .

(١) الحلف بالله كاذباً كبيرة من كبائر الذنوب ؛ لأنه كذِب والنبي ﷺ يقول : « من حلف بالله فليصدق »(*) هذا من تعظيم الله ﷻ أنه لا يحلف به وهو كاذب ، فالحلف بالله كاذباً هذا ذنب وسيئة وكبيرة من كبائر الذنوب ، لكن الحلف بغير الله أشد « أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً » ؛ لأن سيئة الكذب أخف من سيئة الشرك ، هما سيئتان : الحلف بالله كاذباً هذه سيئة ، والحلف بغير الله سيئة ، لكن الأولى سيئة عمل ، والثانية سيئة شرك ، وسيئة الكذب أخفّ من سيئة الشرك ، فهذا يدل على أن الشرك الأصغر أكبر من كبائر الذنوب ، أكبر من الكذب .

(٢) هذا توجيه الرسول ﷺ ، قال : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » ، نهى عن العطف بالواو ، وأمر بالعطف بثُمَّ ؛ لأن الواو تقتضي التشريك والمساواة ، وأما (ثم) فتقتضي الترتيب والتعقيب ، فهي تبعد الإنسان عن الشرك ؛ لأن العبد له مشيئة ، ولكن مشيئته بعد مشيئة الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة التكوير: ٢٩] « فما شاء الله ثم شئت » يوافق هذه الآية .

الحمد لله ، الله جعل لنا بدائل صحيحة نتخاطب بها ، وتغنينا عن الألفاظ الشركية ،

(*) أخرجه ابن ماجه في « سننه » ١ / ٦٧٩ (٢١٠١) ، وصححه الألباني .

وضعها[١] لمطلق الجمع[٢] بخلاف الفاء وثم ، وتسوية المخلوق بالخالق بكل نوع من العبادة شرك ، وهذا ونحوه من الشرك الأصغر .

قوله : « وجاء عن إبراهيم النخعي[٣] أنه » يكره أن يقول أعوذ بالله

وهذا يوجب على المسلم أن يتعلم التوحيد وأنواع التوحيد ، ويتعلم الشرك وأنواع الشرك حتى يتجنبها ، لا تكفي معرفة التوحيد بدون معرفة الشرك ، لابد من الأمرين ، الله ﷻ يقول : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [سورة النساء : ٣٦] لابد أنك تعرف الأمرين ، ويقول : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦] لابد تعرف ما هو الطاغوت وما هو الكفر به ، وتعرف الإيمان بالله ما هو ، لا يكفي معرفة الحق فقط ، بل لابد أن تعرف أيضاً ما يضادّ الحق ، من أجل أن تتجنبه .

(١) في وضعها يعني : في أصل اللغة كذا .

(٢) لمطلق الجمع لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً .

(٣) إبراهيم النخعي : أحد كبار التابعين ، من تلاميذ عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، جاء عنه : « أنه يكره » والكراهة عند السلف معناها التحريم ، فإذا قال الإمام أحمد : أكره كذا ، فمعناه أنه يحرمه ، أو قال النخعي : أنا أكره كذا ، فمعناه أنه يحرمه . أما عند المتأخرين فالكراهة يُراد بها كراهة التنزيه . وإبراهيم النخعي من التابعين ، فهو يريد بالكراهة التحريم ، « كان يكره أن يقول : أعوذ بالله وبك » ، العوذ : هو الإلتجاء ، عندما تخاف من عدو فإنك تلتجئ إلى الله ، تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أعوذ بالله من هذا العدو ، ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [سورة مريم : ١٨] تعوذ بالله مما تخاف ، هذا عبادة والاستعاذة من أنواع العبادة ، فلا تجمع بين المخلوق والخالق في الاستعاذة ، المخلوق يستعاذ به حسب قدرته ، فيمكن أنك تلجأ إلى شخص لكي يحميك من العدو ، تطلب منه المساعدة إذا كان يقدر على ذلك ، مخلوق حي قادر يسمعك ، تلتجئ إليه ، هذا من الأسباب ، ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ [سورة القصص : ١٥] ، يجوز هذا إذا كان حياً قادراً على أن يغيثك وأن يعيذك لا بأس ، تطلب منه النصرة والغوث ، تطلب منه اللجوء ، هذا من الأسباب ، لكن لا تجمع بين الله وبين المخلوق بالواو فتقول : أعوذ بالله وبك ، فإذا أردت أن تلجأ إلى مخلوق فإنك تقول : أعوذ بالله ثم بك ، هذا هو التوحيد ، أما « أعوذ بالله وبك » هذا شرك ، وفرقٌ بين اللفظين كما سبق .

وبك[١] ، ويجوز أن يقول : بالله ثم بك[٢] . قال : ويقول : « لولا الله ثم فلان ، ولا تقولوا : لولا الله وفلان » ، إبراهيم هو النخعي ، وهذا فيما يقدر عليه الحي الحاضر بخلاف من ليس كذلك[٣] ممن لم يسمع كلاماً ولا يرد جواباً كالأموات والغائبين[٤] .

---

(١) لأنه شرك .

(٢) لأنه لا شرك حينئذٍ ، لأنه عطف بثُمّ التي هي للترتيب والتعقيب .

(٣) يعني الاستعاذة بالمخلوق إذا كان يقدر فيجوز إنك تقول : أعوذ بالله ثم بك ، أما إذا كان المخلوق لا يقدر ، أو كان ميتاً ، أو كان غائباً فلا يجوز الاستعاذة به .

(٤) فلا يجوز الاستعاذة بهم حتى لو قال : أعوذ بالله ثم بك ، يقوله للميت هذا شرك أكبر ؛ لأنه لا يقدر على شيء ، وإنما هذا يقال في حق الحي القادر : أعوذ بالله ثم بك من شر فلان .

٤٣ - باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « لاَ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُم ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ ؛ فَلْيَصْدُقْ ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ ؛ فَلْيَرْضَ ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ ؛ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ » . رَوَاهُ ابنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ .

٤٣- باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

قوله : (باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله)[1] عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال : « لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف بالله فليصدق ، ومن حُلِفَ له بالله فليَرْضَ ، ومن لم يرض فليس من الله » رواه ابن ماجه بسند

---

(١) تقدم الباب الذي قبل هذا والذي قبله النهي عن اتخاذ أنداد لله ﷻ والأنداد هم الشركاء والشفعاء والأمثال والنظراء ؛ لأن هذا من الشرك ، قد يكون شركاً أكبر وقد يكون شركاً أصغر ، ومن ذلك الحلف بغير الله ، فإنه من اتخاذ الأنداد وهو شرك كما قال ﷺ : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك »(*) وفي هذا الباب الوعيد على من لم يقنع بالحلف بالله . الذي يحلف بغير الله هذا شرك الواجب الحلف بالله ﷻ ، ولا يُحلف بغيره . وإذا حُلِف بالله فإنه يجب الرضى والتصديق تعظيماً لله ﷻ . فالمحلوف له يرضى بذلك ويصدق الحالف تعظيماً لما حلف به ، فإذا لم يقنع بالحلف بالله فمعناه أنه تَنَقُّصٌ لله ﷻ ونقص في التوحيد ، وأما الرضى بالحلف بالله فهذا من تعظيم الله ومن كمال التوحيد ، كما أنه يجب على الحالف أن لا يحلف إلا بالله فكذلك يجب على المحلوف له بالله أن يرضى ويقنع تعظيماً لله فإن كان الحالف صادقاً فهو على صدقه ، وإن كان كاذباً فإثمه عليه ، وأما المحلوف له فإنه يرضى لله ﷻ . هذا وجه المناسبة للترجمة في هذا الكتاب أن من لم يقنع بالحلف بالله فهذا نقص في التوحيد ، ومن قنع بالحلف بالله فهذا كمال للتوحيد . وقوله : (باب ما جاء ..) يعني من الوعيد على من لم يقنع بالحلف بالله .

(*) أخرجه الترمذي في « سننه » ٤ / ٩٣ (١٥٣٥) ، وصححه الألباني .

حسن(١) . قوله : « لا تحلفوا بآبائكم » تقدم أنه لا يجوز الحلف بغير الله في

(١) هذا الحديث فيه أربع مسائل كلها للتوحيد : المسألة الأولى : قوله ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم » هذا فيه النهي عن الحلف بغير الله وإنما ذكر الآباء خاصة ؛ لأنهم كانوا يحلفون بآبائهم ، وإلا فالحلف بغير الله لا يجوز سواء بالآباء أو بغيرهم ، ولكنه ذكر الآباء تنبيهاً على ما جرت به عادتهم أنهم كانوا يحلفون بهذا .
المسألة الثانية : فيه وجوب الحلف بالله لمن أراد أن يحلف ، فإنه يحلف بالله ولا يحلف بغيره ، وذلك من التوحيد ؛ لأن الحلف تعظيم للمحلوف به .
والمسألة الثالثة : وجوب الصدق في اليمين « من حلف بالله فليصدق »(*) هذا أمر فيه وجوب الصدق في اليمين وتحريم الكذب في اليمين ، لاسيما إذا حلف في خصومة فإنه يجب عليه الصدق وأن لا يحلف وهو كاذب في الخصومة لأجل أن يأخذ مال أخيه أو لأجل أن يكسب القضية فإنه إذا حلف بالله وهو كاذب فإنه يرتكب جريمتين :
الجريمة الأولى : جريمة الكذب في اليمين ، والكذب كبيرة من كبائر الذنوب في اليمين وغيرها . والجريمة الثانية : أنه يأخذ مال أخيه بغير حق قال ﷺ : « من حلف على يمين وهو فيها كاذب ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان . قالوا وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله قال : وإن كان قضيباً من أراك »(**) القضيب : هو العود ،

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - عن الذي يحلف على أمر يضمره في نفسه هل هذه الحيلة جائزة ؟
فأجاب : هذا لا يجوز ، لأن النبي ﷺ قال : « يمينك على ما يصدقك به صاحبك » فلا يجوز أن تخونه وتخالفه ، وتحلف على شيء آخر غير ما يظهر . أ.هـ.
(**) هذا الحديث مركب من حديثين :
الأول : ما رواه عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين هو فيها فاجر ، يقتطع بها مال امرئ مسلم ، لقي الله ﷻ وهو عليه غضبان » أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٦ / ٨١ (٣٥٩٧) وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .
الثاني : ما رواه أبو أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺ قال : « من اقتطع حق مسلم بيمينه ، حرم الله عليه الجنة ، وأوجب له النار » قالوا : وإن كان شيئاً يسيراً ؟ قال : « وإن كان قضيباً من أراك » يقولها ثلاثاً . أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٣٩ / ٤٩٣ (... / ٥٧) وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

=

حق كل أحد[١] . قوله : « من حلف بالله فليصدق » هذا مما أوجبه الله على عباده ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٢] [سورة التوبة : ١١٩] .

والأراك شجرٌ معروف . فإذا حلف ليأخذ عوداً من أخيه بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان ، فكيف بمن يحلف على أكثر من ذلك من الأموال والأراضي والخصومات ، الأمر أشد .

المسألة الرابعة : من حُلِف له بالله سواء كان في الخصومة أو غيرها إذا حلف لك أخوك بالله فعليك أن تقنع ؛ لأنه ليس بعد الله شيء ، فإذا حلف بالله فقد انتهى وإن كان كاذباً فإثمه عليه وإن كان صادقاً فهو قد حلف لك صادقاً فأنت تعظِّم الله ﷻ وتقنع بالحلف بالله تعظيماً لله ﷻ ، « ومن لم يرض فليس من الله » : هذه براءة ، هذا محل الشاهد من الحديث ومن الترجمة « ومن لم يرض فليس من الله » يعني لم يقنع بالحلف بالله فليس من الله . هذه براءة دل على أن ذلك كبيرة من كبائر الذنوب ؛ لأنه تنقص للتوحيد وتنقص لله ﷻ إذا لم ترض بالله فبمن ترضى إذاً ؟ .

(١) أياً كان المحلوف به . لا يجوز لا بالآباء ولا بالكعبة وبالرسول ولا بالولي ولا بفلان ولا بالأمانة ، لا يحلف إلا بالله .

(٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ : يعني اتخذوا الوقاية بينكم وبين الله من عذابه ، وذلك بامتثال أوامره وتجنب نواهيه لا يقيكم من عذاب الله إلا ذلك . ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ كونوا مع الصادقين الذين صدقوا فيما بينهم وبين الله بالإيمان بالله وتوحيده ، والجهاد في سبيله صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وصدقوا أيضاً فيما بينهم وبين الرسول ﷺ باتباعه وطاعته ومحبته ، وصدقوا أيضاً فيما بينهم وبين الخلق فلم يكذبوا عليهم ولم يغدروا ولم يخونوا ولم يغشوا وإنما يتعاملون بالصدق أمرنا الله أن نكون معهم في صدقهم وأعمالهم فنصدق معهم وفي ضمن ذلك النهي أن تكون مع الكاذبين من المنافقين والفساق وغيرهم وأهل الغدر والخيانة .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾(١)

[سورة النحل : ١٠٥] .

قوله : « ومن حلف له بالله فليرض ومن لم يرض فليس من الله » هذا من حق المسلم على المسلم أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً(٢) ، والحديث يدل على الوجوب ، ومن حقه عليه أن يحسن به الظن إذا لم يتبين كذبه كما في الأثر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً »(٣) . وهو من حسن الخلق ومكارم الأخلاق وكمال

---

(١) ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ﴾ يفتري يعني يختلق الكذب وهو ضد الصدق ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ : وهذا بيان أن الذي يكذب ناقص الإيمان لا يؤمن بآيات الله ؛ لأن آيات الله تنهى عن الكذب ، والذي يكذب هذا لا يصدّق بآيات الله ﷻ ، وبما جاءت به ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ حصر الكذب فأولئك هم الكاذبون ، كأنه ليس هناك من يكذب غيرهم .

(٢) حتى وإن حلف له معتذراً أو حلف له في خصومة إذا توجهت اليمين على من أنكر وحلّفه القاضي فإنه يجب على الخصم أن يُصَدِّق ويَقضي عليه باليمين . قال ﷺ : « البينة على المدعي واليمين على من أنكر »(*) المدعي يُطالَب بالبينة فإذا لم يأت بالبينة تتوجه اليمين على المنكر فإن رضي بها يعني طالب بها الخصم وحَلَف يجب عليه أن ينتهي ، وأن يرضى بالحلف بالله ، لأن هذا هو حقه عليه وهذا تعظيم لله ﷻ وإذا لم يرض فهذا من تنقص الله ﷻ .

(٣) إذا لم ترض بيمينه أتركه مالك عليه إلا اليمين ، لك أن تطالب بها ولك أن تتركها ؛ لأنك أنت المفـرّط لماذا لم تُـشهد عليه ؟ لماذا لم تـقم البينة ؟ فلما لم تقم البينة ولم تُشهد عليه أنت

(*) أخرجه الدارقطني في « سننه » ٤ / ١١٤ (٣١٩٠) ، وضعفه الألباني في « إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل » ٨ / ٢٦٧ .

العقل وقوة الدين(١) .

المفرِّط ما بقي لك إلا اليمين سواء تطلبها أو تتركها . إذا طلبتها وحلف(*) يجب عليك الرضى بالله ﷻ .

(١) هذا من حسن الخلق مع الناس أنك ما تُحَمِّل أقوالهم أشياء ولو كانت أقوالهم تحتمل ، فما دمت تجد فيها للخير محملاً أحملها عليه من باب حسن الظن بأخيك المسلم ، ولا تحملها على السوء إلا إذا لم يكن هناك لها محمل .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – بأنه يوجد من الناس من يحلف بالله ، لكن بدون الإتيان بحرف القسم من أجل التورية ، ويعد ذلك كأنه ليس حلفاً فما رأي فضيلتكم ؟ فأجاب : إذا جرى مجرى اليمين فإنه حلف ، ولو لم يأتِ بأداة القسم ، لأنها تصير مقدَّرة . فإذا قال : « اللـهِ » صارت الواو محذوفة « اللـهِ لأعطينك كذا » فهذا حلف ، لأن الواو مقدَّرة ، والمقدَّر كأنه موجود .

٤٤ - باب قولِ : ما شاء الله وشئت

عن قُتَيْلَةَ : « أَنَّ يَهُودياً أَتَى النَّبيَّ ﷺ ، فَقَالَ : إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ ؛ تَقُولُونَ : مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ ، وَتَقُولُونَ : وَالكعْبَةِ . فأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا : وَرَبِّ الكَعْبَةِ ، وَأَنْ يَقُولُوا : مَا شَاءَ الله ثُمَّ شِئْتَ » . رَوَاهُ النَّسائيُّ وَصَحَّحَهُ .

وَلَهُ أيضاً : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ أَنَّ رَجُلاً قَالَ للنَّبِيِّ ﷺ : مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ ، فَقَالَ : « أَجَعَلْتَنِي لله نِدّاً ؟ ! مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ » .

وَلِابْنِ مَاجَهْ : عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عائِشَةَ لأُمِّهَا ، قَالَ : رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ ، قلتُ : إِنَّكُم لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُم تَقُولُونَ : عُزَيْرٌ ابْنُ الله . قَالُوا : وَأَنْتُم لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُم تَقُولُونَ : مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ . ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى ، فَقُلْتُ : إِنَّكُم لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ : المَسِيحُ ابْنُ الله . قالوا : وَأَنْتُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلا أَنَّكُم تقولونَ : مَا شاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ . فَلَمَّا أَصْبَحْتُ ؛ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ النبيَّ ﷺ ، فَأَخْبَرْتُهُ ؛ قَالَ : « هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَداً ؟ » . قُلْتُ : نَعَمْ . قَال : فَحَمِدَ الله ، وأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأى رُؤْيَا أَخبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبرَ مِنكُمْ ، وَإِنَّكُم قُلْتُمْ كَلِمةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذا وَكَذَا أن أَنْهَاكُم عَنْهَا ؛ فَلَا تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ » .

٤٤ - باب قول ما شاء الله وشئت

قوله : (باب قول ما شاء الله وشئت)[1] عن قتيلة أن يهودياً أتى النبي

(١) هذا من جنس الأبواب السابقة من الشرك الأصغر ؛ لأنه أجملها في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [سورة البقرة : ٢٢] وما جاء في تفسير ابن عباس أجملها والمصنف ﷺ فصَّلها في هذه الأبواب ؛ لأن ابن عباس فسرها بعدة أشياء : بالحلف بغير الله ، بما =

ﷺ فقال : إنكم تشركون تقولون : ما شاء الله وشئت[(١)] وتقولوا : والكعبة[(٢)] فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا :

شاء الله وشاء فلان بـ لولا الله وفلان ، وحياتك وحياتي فسرها بأشياء . المصنِّف فصَّل هذه الأشياء في أبواب جعل الحلف بغير الله في باب ، وجعل من لم يقنع بالحلف في باب ، وجعل قول ما شاء الله وشئت في باب ، من باب التفصيل لهذه الأمور . وفي قوله : « باب قول ما شاء الله وشئت » : يعني أنه لا يجوز لأنها بالواو ، وأنه من الشرك الأصغر في الألفاظ .

(١) تقولون : ما شاء الله وشئت ، وجه الملاحظة العطف بالواو ؛ لأنها تقتضي التشريك ، والنبي ﷺ عدل هذا فقال : « قولوا : ما شاء الله ثم شئت » ؛ لأن (ثم) تقتضي الترتيب والتعقيب وأن تكون مشيئة المخلوق بعد مشيئة الخالق ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة التكوير : ٢٩] فجعل مشيئة المخلوق بعد مشيئة الخالق ﷻ وليست مشاركة لمشيئة الله وإنما هي بعدها ومترتبة عليها فإذا شاء الله شاء المخلوق ، وإذا لم يشأ الله لم يشأ المخلوق ، وفي هذا رد على الجبرية الذين ينفون مشيئة المخلوق ويقولون : ليس هناك مشيئة ولا إرادة إلا لله أما المخلوق فإنه مجبور على أفعاله ليس له فيها اختيار ولا مشيئة وفيه رد على القدرية المعتزلة الذين يقولون : المخلوق له مشيئة مستقلة عن مشيئة الله ﷻ ، وأنه يخلق فعل نفسه ، فهؤلاء غلوا في نفي مشيئة المخلوق ، وهؤلاء غلوا في إثبات مشيئة المخلوق ، وكلا الطرفين ضال ، والحق إثبات مشيئة الله ومشيئة المخلوق ، وجعل مشيئة المخلوق بعد مشيئة الله ﷻ هذا هو الحق ، فإذا جئت بـ(ثم) وافقت قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وإذا حذفت ثم وجئت بالواو فقد أشركت بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق . وهذا من الشرك الأصغر ، الشرك في الألفاظ وإن لم يعتقده المسلم لكن يتجنبه .

(٢) هذا حلف بغير الله ، الرسول أقره أن الحلف بالكعبة شرك مع أن الكعبة بيت الله لكن لا يجوز الغلو فيها لأنها مخلوقة ، كما لا يجوز أن يحلف بها أو يطلب منها الحوائج وقضاء الحاجات ، كما يفعله الجهال والقبوريون الذين يخاطبون الكعبة ويطلبون منها ويستغيثون بها ، فالذي يقول : يا كعبة الله افعلي كذا ، يا كعبة الله أعطيني كذا هذا أشد من الحلف هذا شرك أكبر ، والحلف بها شرك أصغر . الكعبة بيت الله أمرنا الله أن نستقبلها في

=

ورب الكعبة[1] وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت رواه النسائي وصححه[2] .

الصلاة وأن نطوف بها ، وأن ندعوا الله عندها ، أما أننا نطلب منها قضاء الحاجات أو نستغيث بها أو نعتقد أنها تعطي وتمنع وتدبر فهذا شأن المشركين .

(١) رب الكعبة هو الله ورب الكعبة هو رب كل شيء ، أما أن يقولوا : والكعبة هذا لا يجوز . إذا قالوا : ورب الكعبة هذا هو البديل الصحيح ؛ لأن رب الكعبة هو الله ورب كل شيء والكعبة بيت الله أضيفت إليه إضافة تشريف وتكريم من إضافة المخلوق إلى خالقه ، مثل : ناقة الله وبيت الله ، رسول الله . فهذا فيه تحريم الغلو في الكعبة وإن كانت الكعبة بيت الله ﷻ لكن لا يغلى فيها . لا يشرع عندها إلا ما شرعه الله وهو الطواف بها واستقبالها في الصلاة هذا هو المشروع في حق الكعبة أنها بيت للعبادة ، عبادة الله ﷻ ، لا أن تُعبَد هي ، وإنما يُعبد الله عندها ؛ لأنها بيت الله ﷻ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٩٦] أما أن يغلى فيها وأن يستغاث بها ويعتقد فيها أنها تنفع وتضر فهذا من شأن المشركين فإذا كان هذا في الكعبة التي هي بيت من بيوت الله ، فكيف بالذين يغلون في القبور والمقامات ويعظمونها ويحجون إليها ويذبحون عندها وينذرون لها ؟! والعياذ بالله .

(٢) هذا فيه دليل على أن الحلف بغير الله شرك وعلى أن قول : ما شاء الله وشئت شرك ، وأنه ينهى عن ذلك ، وأنه يقبل الحق ممن جاء به وإن كان عدواً ، وفيه أن الإنسان إذا كان فيه هوى فإنه يفهم الحق من أجل أن يُعيِّر خصمه به ويعمى عما عنده من العيوب فهو يرى عيوب الناس ولا يرى عيب نفسه ، فاليهود لم يروا عيب أنفسهم ولاحظوا على المسلمين هذه الكلمة ورب الكعبة وما شاء الله وشئت لأن لهم هوى يقيدون على المسلمين الأخطاء وهذا دأب أهل الضلال دائماً وأبداً تجدهم يقيدون الأخطاء على أهل الخير ، وإن كانت صغيرة وينسون العيوب التي عندهم وإن كانت كبيرة ؛ لأن الهوى أعماهم عن عيوبهم وذكَّرهم بعيوب الآخرين .

وفيه أن الذي ينهى عن الشيء يأتي له ببديل صالح إذا أمكن ، النبي ﷺ لما نهاهم عن قول والكعبة قال : قولوا ورب الكعبة هذا هو البديل الصحيح ، ولما نهاهم عن قول : ما شاء الله وشئت قال لهم : قولوا : ما شاء الله ثم شئت ، فإذا كان الشيء المنهي عنه له بديل صحيح فإن الذي ينهى عن ذلك يأتي بالبديل الصحيح .

=

قوله : قتيلة - بمثناة مصغرة - بنت صيفي الأنصارية صحابية مهاجرة[(١)] . لها حديث في سنن النسائي وهو المذكور في الباب[(٢)] ، ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفي ، وفيه قبول الحق ممن جاء به[(٣)] ، وفيه بيان النهي عن

وهذا الحديث عن « قتيله بنت صيفي الأنصارية أن يهودياً » واحد من اليهود . واليهود هم الأمة المنتسبة إلى موسى ﷺ ، أمة التوراة وهم يُنسبون إلى اليهودية وإن كان عندهم تحريف وعندهم كفريات وشركيات ، لكن نظراً إلى الأصل فهم يقال لهم اليهود ويعاملون معاملة أهل الكتاب وإن كان عندهم انحرافات وضلالات وكفريات وشركيات لكن لا يمنع هذا أن يسموا باليهود . « جاء رجل منهم إلى النبي ﷺ » . واليهود معروفة عداوتهم للرسول ﷺ وللمسلمين لكنهم يتصيدون على المسلمين الأخطاء وإن كانت صغيرة مع ما فيهم من الضلالات والكفريات ، ولكن النبي ﷺ يقبل الحق ولو جاء به عدو ، وجاء به يهودي ؛ لأنه حق . فهذا اليهودي قال للنبي ﷺ : « إنكم تشركون » . أقره النبي ﷺ على هذه الكلمة ولم ينكر عليه « إنكم تشركون تقولون : ما شاء الله وشئت وتقولون : والكعبة » يعني تحلفون بغير الله وتقولون : ما شاء الله وشئت فتجمعون بين المخلوق والخالق في المشيئة . تشركون بينهم لأن الواو تقتضي التشريك . النبي ﷺ أقره على ما قال واعتبر هذا شركاً ونهى أمته عن ذلك لأن ما قاله حق وما دام ما قاله حق فإننا نقبله ونعدل الخطأ الذي عندنا ولو كان الذي قاله عدو لك ؛ لأن الحق ضالة المؤمن .

(١) مهاجرة كيف تكون أنصارية ومهاجرة لأن المهاجرين غير الأنصار هذا يحتاج إلى مراجعة ، إلا أن تكون أنصارية وليست من أهل المدينة ثم هاجرت ، والله أعلم[(*)] .

(٢) لها حديث واحد وهو المذكور هذا .

(٣) لأن الرسول ﷺ قَبِل من اليهود الحق وإن كان عندهم كفر وشرك فإذا جاء الكافر والمشرك بكلمة حق فأننا نقبله .

(*) نقل الحافظ ابن حجر عن ابن عبد البر قوله : (كانت من المهاجرات ، روى عنها عبد الله بن يسار ، ولم أر من نسبها أنصارية ، وقوله من المهاجرات يأبى ذلك) الإصابة في تمييز الصحابة ٨/ ٢٨٤ (١١٦٤٣) .

الحلف بالكعبة وغيرها[(١)] ، مع أنها بيت الله[(٢)] التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة[(٣)] .

وأنت ترى ما وقع مما يخالف ذلك من الحلف بالكعبة ودعائها وكذا مقام إبراهيم[(٤)] ، وقلَّ من يسلم من هذا ممن يحج من أهل الآفاق ، وأهل

(١) النهي عن الحلف بغير الله عموماً الكعبة وغيرها .

(٢) فإذا كان بيت الله لا يجوز الحلف به فغيره من باب أولى .

(٣) قصدها يعني الإتيان إليها ؛ لأنه لا يُحج إلا عند الكعبة ولا يُعتمر إلا عند الكعبة . الله شرع هذا فهي تقصد لأداء العبادة التي أمر الله بها حولها وليست تقصد لذاتها وإنما المقصود هو الله ﷻ وهي مكان عبادة ولا تشد الرحال للعبادة إلا إلى ثلاثة مساجد وهي المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ والمسجد الأقصى هذه يسافر إليها من أجل العبادة ؛ لأن العبادة فيها أفضل من العبادة في غيرها ، أما ما عداها فالأرض كلها سواء قال ﷺ : « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً »(*) فلا يسافر إلى مسجد أو إلى أرض أو إلى أثر من آثار الأنبياء لأن هذا من وسائل الشرك .

(٤) يغلون في الكعبة يحلفون بها الآن ويستغيثون بها يقولون : يا كعبة الله ، ومقام إبراهيم أيضاً يظنون أن إبراهيم موجود فيه وأنه ينفع ويضر ، ولذلك يكتبون الكتب ويدسونها بين الشباك يوم كان عليه الشباك ، والآن صار عليه زجاج ولم يتمكنوا لكن في الأول عندما كان عليه شباك كان الذين لا يحضرون مكة يرسلون رسائل مع الحجاج إلى إبراهيم يتعذرون أنهم لم يأتوا هذه السنة ولا تيسر لهم الحج ويطلبون منه العذر ، ويطلبون منه شفاء المرضى ويطلبون منه حوائجهم وهذا موجود في عباد القبور .
ومقام إبراهيم ﷺ : هو الصخرة التي قام عليها في بناء الكعبة أمرنا الله أن نصلي عنده ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [سورة البقرة : ١٢٥] نصلي عنده فقط ونجعله بيننا وبين الكعبة هذا هو السنة ، أما أننا نتعلق به أو نتبرك به أو نزعم أن إبراهيم موجود فيه ونقدم له الرسائل والدعوات هذا من فعل المشركين .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ١٢٨ (٣٢٨) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٣٧٠ (٥٢١) .

مكة(١) ، كما كان يُفعل بغيرها(٢) .

والكعبة عظمها الله بأن جعل حجها ركناً على من استطاع وشرع العبادة عندها وخصها بالفضل ، فالمشروع إنما هو الطواف بها والصلاة إليها لا الحلف بها ونحوه من الشرك في العبادة ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾(٣) [سورة البقرة : ٥٩] .

قوله : « إنكم تشركون تقولون : ما شاء الله وشئت » ، والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله(٤) .

كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة التكوير : ٢٩] وفي هذه الآية والحديث الرد على القدرية والمعتزلة نفاة

---

(١) هذا في زمان المصنِّف ﷺ يقول : قلَّ من يسلم من هذا ممن يحج من أهل الآفاق الذين يأتون للحج والعمرة ، ومن أهل مكة من المخرِّفين الذين يعملون هذا الشيء .

(٢) من الأمكنة في البلاد الأخرى عند البدوي وعند الحسين وعند عبد القادر وابن عربي ، وغير ذلك .

(٣) ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٥٩] : فبدَلَ أنهم يمتثلون ما أمر الله به عند الكعبة ويقتصرون عليه زادوا وصاروا يحلفون بالكعبة ويتعلقون بها وينذرون لها ويطوفون بها إلى آخر ما يفعلون مثل ما يفعلون عند القبور سواء ، جعلوا الكعبة مثل القبور .

فلولا أن الله قيَّض لبيته ومسجد رسوله من يصونهما ويحميهما لرأيتم العجب العجاب مما يفعل عندهما من عبدة القبور ، ولكن الحمد لله يسر الله من يصونهما ويحميهما .

(٤) العبد له مشيئة وليس كما يقول الجبرية ليس له مشيئة ؛ بل له مشيئة لكنها لا يُغلى فيها كما غلت فيها المعتزلة جعلوها مستقلة . فالجبرية نفوا مشيئة العبد ، والقدرية غلوا فيها وجعلوها مستقلة عن مشيئة الله ، وكلا الطائفتين ضال .

القدر[١] الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله من العبد وما شاءه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر : ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[٢] [سورة الفرقان : ٢] وفي الحديث « أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة » وهو في الصحيحين وغيرهما[٣] .

قوله : وله أيضاً عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلاً قال للنبي ﷺ :

---

(١) على الطائفتين الجبرية والقدرية . الجبرية الذين أثبتوا القدر وغلوا فيه حتى نفوا مشيئة العبد . والقدرية الذين غلوا في مشيئة العبد حتى نفوا القدر فطائفة غلوا في إثبات القدر ، وطائفة غلوا في إثبات مشيئة العبد . والحق الإيمان بالاثنين بالقدر وبمشيئة العبد ، وأنه لا تنافي بينهم .

(٢) والحديث كما ذكر النبي ﷺ أركان الإيمان قال : تؤمن بالله وبملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، وقال لعبد الله بن عباس « واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطئك لم يكن ليصيبك »(*) هذا إثبات القدر .

(٣) الإيمان بالقدر يتضمن أربعة مراتب كما علمتم كما هو في الكتب والعقائد . المرتبة الأولى : الإيمان بأن الله علم كل شيء في علمه الأزلي علم ما كان وما يكون . والمرتبة الثانية : أن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ فما من شيء إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ . والمرتبة الثالثة : أن الله شاء هذه المخلوقات وهذه الكائنات بمشيئته ﷻ شاء الخير وشاء الشر ، وشاء الكفر وشاء الإيمان ، مشيئة عامة لكل ما يقع في هذا الكون لا يقع فيه شيء إلا بمشيئة الله ﷻ . المرتبة الرابعة : الإيمان بأن الله خالق كل شيء فما في هذا الكون شيء إلا وهو مخلوق لله ليس لأحد خلق في هذا الكون . هذه مراتب الإيمان بالقضاء والقدر لا يتم الإيمان بالقضاء والقدر إلا بإثبات هذه المراتب الأربعة وهي مأخوذة من الكتاب والسنة .

(*) سبق تخريجه في باب (قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾) .

« ما شاء الله وشئت » ، فقال : « أجعلتني لله نداً ، بل ما شاء الله وحده »(١) هذا يبين ما تقدم من أن هذا شرك ؛ لأن المعطوف بالواو يساوي المعطوف بالمعطوف عليه ؛ لأن الواو وضعت لمطلق الجمع فلا يجوز أن يجعل المخلوق مثل الخالق في شيء من الإلهية والربوبية ولو في أقل شيء كما تقدم في الرجلين اللذين قرَّب أحدهما ذباباً للصنم فدخل النار ، وفيه أن النبي ﷺ حَمَى حِمَى

(١) هذا رجلٌ قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت . النبي ﷺ أنكر عليه ولم يتركه ، بل قال له : « أجعلتني لله نداً » يعني شريكاً ، فهذا يشهد لتفسير ابن عباس رضي الله عنهما السابق : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [سورة البقرة : ٢٢] أن هذا اللفظ من اتخاذ الأنداد ، « جعلتني لله نداً » يعني شبيهاً ومثيلاً ، لأنه عطف مشيئة الرسول ﷺ على مشيئة الله فجعله شريكاً لله وهذا شرك في اللفظ ثم أرشده إلى العبارة الصحيحة فقال : « قل ما شاء الله وحده » هذا من باب التنبيه إلى الأكمل أن يقول : ما شاء الله وحده ، والجائز كما في الحديث السابق أن يقول : ما شاء الله ثم شئت . هذا هو الجائز . وأما الأكمل فهو الاقتصار على مشيئة الله وحده . فإذا كان النبي ﷺ أنكر على هذا الرجل قول ما شاء الله وشئت مع أن الرسول له مشيئة ، ولكنه أمره أن لا يقول : ما شاء الله وشئت ، لما كان هذا من الشرك الأصغر أنكر عليه فكيف بالذي يقول :

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به ... سواك عنده حلول الحادث العمم
إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ما هذا الغلو – والعياذ بالله – الرسول أنكر هذه اللفظة مع أنه ﷺ له مشيئة لكن هل اللوح والقلم من علم الرسول ؟ هل الدنيا والآخرة ملك للرسول ﷺ ؟ هل لا ينقذ من عذاب الله يوم القيامة إلا الرسول ؟ أين الله ﷻ هذا هو الشرك الأكبر والغلو الفظيع في الرسول ﷺ ، ومع هذا يرددون هذه القصيدة في أعيادهم ومحافلهم ؛ بل ويفضلونها على القرآن – ولا حول ولا قوة إلا بالله – .

التوحيد ، وسد طرق الشرك في الأقوال والأعمال[١] .

قوله : ولابن ماجه عن الطفيل[٢] أخي عائشة لأمها قال : رأيت كأني

(١) النهي عن هذه الألفاظ وإن كان الإنسان لا يقصدها فهذا من باب حماية التوحيد وسد الوسائل التي تفضي إلى الشرك .

(٢) هو الطفيل بن عبد الله بن سخبرة أخو عائشة لأمها ؛ لأن عبد الله بن سخبرة كانت تحته أم رومان زوجته وكان حليفاً لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الجاهلية ، فلما توفي عبد الله بن سخبرة تزوج أبو بكر الصديق امرأته أم رومان فأنجبت له عبد الرحمن بن أبي بكر وعائشة بنت أبي بكر ، فلذلك كان الطفيل أخاً لها من أمها ، هذا الرجل الطفيل أسلم وحسن إسلامه ورأى هذه الرؤيا ، والرؤيا حق يعمل بها وهي جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة ، كما قال النبي ﷺ وأول ما يبدأ به الأنبياء الرؤيا الصادقة فهي جزء من النبوة وهي من المبشرات هذا إذا كانت رؤيا حق ليست أضغاث أحلام وليست من الشيطان ؛ لأن الرؤيا على ثلاثة أقسام : **القسم الأول** : يكون من الشيطان إذا الإنسان نام ولم يذكر الله عند النوم ولم يقرأ آية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوذتين ، ولم يقرأ الورد عند النوم فإن الشيطان يتسلط عليه ويأتيه بالأحلام المزعجة حتى يشوش عليه نومه ومثل هذه الرؤيا لا تصدق ولا يُحدَّث بها لأنها من الشيطان ولا تضر الإنسان قال ﷺ « إذا رأى أحدكم ما يكره فليتحول عن جنبه الذي هو عليه وليتفث عن يساره ثلاث نفثات ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا يحدث بها أحداً فإنها لا تضره »[*] . **القسم الثاني** : أحاديث نفس وهي أضغاث أحلام . الإنسان يفكر في اليقظة في أشياء أو تهمه أشياء فإذا نام جاءته في النوم لأنها منطبعة في نفسه وفي ذات رأسه فتعود إليه في النوم هذه ما لها قيمة هذه أضغاث أحلام لا يلتفت إليها . **القسم الثالث** : الرؤيا التي تجري على يد ملك من الملائكة – ملك الرؤيا – فيُري الإنسان أشياء عجيبة هذه هي الرؤيا الصحيحة ما كان على يد ملك من الملائكة ، ومنها هذه الرؤيا التي رآها الطفيل بن عبد الله بن سخبرة رأى

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢١٦٩ (٥٤١٥) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ١٧٧٢ (٢٢٦١) .

أنه أتى على نفر من اليهود فقال : « إنكم لأنتم القوم »(*) هـذا مدح لهم بالأصل لأنهم كانـوا على دين موسى ﷺ « لولا أنكم تقولون عزير ابن الله » عزير هو رجل من اليهود قيل : إنه نبي وقيل إنه رجلٌ صالح غلوا فيه حتى قالوا : هو ابن الله – والعياذ بالله – ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [سورة التوبة : ٣٠] يسمونه الآن عزرا أو عزير فقالوا : « وإنكم لأنتم القوم » مدح للمسلمين « لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد » فهم أنكروا على المسلمين هذه اللفظة مثل ما أنكرها اليهودي الذي سبق في حديث عبد الله بن عباس ، هم يحفظون العيوب التي عند المسلمين ولكنهم لا ينظرون إلى عيوبهم قال : « ثم أتيت على نفر من النصارى » والنصارى من أتباع الأصل أتباع عيسى ابن مريم ﷺ فكل من انتسب إلى ديانة عيسى فإنه يقال له نصراني ولو كان قد حرَّف وبدل وغيَّر نظراً إلى الأصل ويعامل معاملة النصارى أهل الكتاب « إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله » كما في القرآن ما ذكره الله عنهم . قال : « وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد » اتفقت كلمة اليهود والنصارى على إنكار هذه الكلمة ، والرسول أنكرها أيضاً ﷺ ، وأقر اليهود والنصارى على أن هذه الكلمة شرك لكنه شرك أصغر والحمد لله شرك في الألفاظ ولكنه لا يتهاون بالشرك ولو كان أصغر ولوكان بالألفاظ لابد من إنكاره . ثم إن الطفيل لما أصبح حدَّث بها من حدَّث ؛ لأنها عجيبة ثم جاء إلى النبي ﷺ فأخبره قال : « هل حدَّثت بها أحداً ؟ » قال : نعم . ثم إن النبي ﷺ حمد الله وأثنى عليه هذه من سنته ﷺ أنه كان يبدأ بالحمد لله والثناء على الله ثم يذكر الغرض الذي أراد أن يتكلم به فيبدأ بحمد الله والثناء على الله ﷻ ، هذا

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – : هل يؤخذ من قوله : « إنكم لأنتم القوم » أنه يجوز مدح اليهود والنصارى ؟ فأجاب : هذا مدح لأصل اليهود والنصارى ، الذين كانوا على الحق . فهناك من اليهود والنصارى من هم متمسكون بالدين الصحيح ، وماتوا عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٣ - ١١٤] أما بعد بعثة النبي محمد ﷺ انتهى العمل بدين المسيح ، ودين موسى عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ ، وأمر الإنس والجن باتباع محمد ﷺ لأن الأديان السابقة نُسخت بدين الإسلام . أ.هـ .

=

أتيت على نفر من اليهود(١) فقلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : عزير ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا إنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد(٢) . ثم مررت بنفر من النصارى فقلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد(٣) فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال : « هل أخبرت بها أحداً ؟ » قلت : نعم قال : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا : ما شاء الله

من سنة النبي ﷺ ، ثم قال : أما بعد . هذه كلمة يؤتى بها لفصل الخطاب . خطاب الافتتاحية عن الموضوع الذي يريد أن يتكلم به ولذلك تسمى كلمة فصل وقالوا في قوله تعالى في داود : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [سورة ص : ٢٠] « إن فصل الخطاب هو قول : أما بعد »(*) فإن طفيلاً رأى رؤيا حدّث بها من حدّث وإنكم تقولون كلمة – وهي قول ما شاء الله وشاء محمد – كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها » الذي منع النبي ﷺ أن ينهاهم عنها أنه لم ينزل عليه فيها وحي وقيل : الذي منعه الحياء ﷺ لأنه لم ينزل عليه فيها وحي وإلا لو نزل عليه فيها وحي لم يمنعه الحياء ، ولقذع بها لكن لم ينزل عليه فيها وحي فلذلك كان يمنعه كذا وكذا أن ينكرها عليهم .

(١) والنفر هم الجماعة .

(٢) انظر كيف عميت أعينهم عن قولهم عزير ابن الله ، وأنكروا علينا قول : ما شاء الله وشاء محمد هذا الهوى أين كلمة ما شاء الله وشاء محمد من قول عزير ابن الله ؟! ، لكن الهوى يعمي ويصم .

(٣) وهذا أيضاً مثل ما قالت اليهود تشابهت قلوبهم .

(*) انظر : تفسير ابن أبي حاتم ١٠ / ٣٢٣٧ (١٨٣٣٩) .

وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده »[1] قوله : « عن الطفيل » هو الطفيل بن عبد الله بن سخبرة أخي عائشة لأمها . له حديث عند ابن ماجه ، وهو ما ذكره المصنف ﷺ في الباب ، وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله ﷺ

---

(١) أن هذه الكلمة شرك ؛ لأن الرسول ﷺ أقر أهل الكتاب على تسميتها شركاً فدل على أنها شرك ، لكنه شرك في اللفظ ، وهو شرك أصغر ، وفي هذا دليل على أن الشرك الأصغر قد يصدر من المؤمن خلاف الشرك الأكبر أنه لا يصدر من المؤمن – والعياذ بالله – وفيه قبول الحق ممن جاء به فإن الرسول ﷺ لم يقل : لا أنتم أشد منا . تقولون : عزير ابن الله ، وتقولون : المسيح ابن الله ، ولكنه ﷺ قَبِلَ هذا منهم مع أنهم عندهم شرك وكفر وعداوة للحق ، ومع هذا لما قالوا كلمة الحق قبلها النبي ﷺ ؛ لأن بعض الناس إذا أنكر عليهم بشيء أخذته العزة بالإثم ، وقال : وأنت أشد منا وأنت تقول كذا وكذا ، وأنت تفعل كذا وكذا ولا تقبل الحق وهذه ليست سنة الرسول ﷺ ، سنة الرسول أنه يقبل الحق ولو كان الذي جاء به عنده شرٌ أكبر ، فهو يقبل الحق ، وفيه إنكار المنكر ، لأن النبي ﷺ أنكر « فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد » ، وفيه الإتيان بالبديل الصالح إذا كان هناك بديل ، فإن النبي ﷺ أبدلهم بكلمة ما شاء الله وحده ، وفيه التنبيه على المنع من الغلو في الرسول ﷺ فإنه إذا منعت هذه الكلمة مع أن الرسول له مشيئة فكيف إذا أسند إلى الرسول أشياء ليست من حقه كأن يقال أنه يعلم الغيب ، أو يقال أنه يُنقِذ من النار من دون الله ﷻ ، أو أنه يستغاث به بعد موته ، ويلجأ إليه في المهمات بعد موته ﷺ . هذا أشد وأنكر – والعياذ بالله – مما عليه القبوريون ، وفيه أن اليهود والنصارى يعرفون الشرك الأصغر وبعض العلماء الضلال المنتسبين إلى هذه الأمة لا يعرفون الشرك الأكبر فلا ينهون عن الشرك بالقبور والاستغاثة بالأموات والذبح للقبور وغير ذلك مما ينكرونه وهو شرك أكبر ، واليهود أنكروا الشرك الأصغر وعرفوه فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وفيه العمل بالرؤيا إذا كانت رؤيا صحيحة وأنها قد تكون سبباً لتشريع بعض الأحكام ، هذا في عهد النبي ﷺ ، أما بعد موت النبي ﷺ انتهى التشريع ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [سورة المائدة : ٣] فلا يثبت بالرؤيا حكم شرعي بعد موت النبي ﷺ ، ولكن إذا كانت رؤيا صالحة فإنها يستبشر بها وتفسر ، أما إذا كانت رؤيا مزعجة فإنها تترك ولا تفسر ولا تضر صاحبها .

وعمل بمقتضاها فنهاهم أن يقولوا ما شاء الله وشاء محمد وأمرهم أن يقولوا ما شاء الله وحده ، وقد بلَّغ ﷺ البلاغ المبين ، وأنذر عن الشرك وحذَّر عن قليله وكثيره فانظر إلى ما وقع من الشرك العظيم في هذه الأمة ينادون الميت من مسافة شهر أو شهرين أو أكثر[١] ويعتقدون فيه أنه ينفع ويضر ويسمع ويستجيب من تلك المسافة ، وجعلوا الأموات شركاء لله في الملك والتدبير وعلم الغيب وغير ذلك من خصائص الربوبية ، وتركوا نبيهم وما جاء به وما قاله وما نهى عنه كأنهم لم يسمعوا كتاباً ولا سنة[٢] .

وقد بعثه الله بالنهي عن الشرك كما ترى فما زال يدعو إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له حتى أكمل الله لهم به الدين ، وأتم عليهم النعمة . لكن رجعوا من الكمال إلى الضلال ، ومن سبيل النجاة إلى سبيل الهلاك[٣] .

وهذه وإن كانت رؤيا منام فقد أقرها رسول الله ﷺ ، وأخبر أنها حق[٤] .

---

(١) ينادونهم في البحار إذا شارفوا على الغرق ، بدل أن يخلصوا في الدعاء كما كان المشركون يخلصون في الدعاء هؤلاء يزيد شركهم في حالة الشدة ، ينادون الأولياء والصالحين ويطلبون منهم أن ينقذوهم من البحر ومن الغرق .

(٢) يقولون : الأقطاب والأغواث الذين يتصرفون في الكون ، وهم عندهم أربعة أو خمسة كل له اصطلاح في هذا ، والله ليس له وجود عندهم .

(٣) هذا بعد مضي القرون المفضلة حصل النقص العظيم إلى أن جاءت دولة الفاطمية اليهود الذين ينتسبون إلى فاطمة وهي منهم بريئة ، وهم الباطنية من الشيعة فبنوا على القبور في مصر وغيرها فانتشر هذا في الأمة الإسلامية – إلا من رحم الله – فالبلد الذي ليس فيه قبور مبني عليها لا يعتبرونه شيئاً ولا يذهبون إليها ، والولي الذي ليس على قبره قبة هذا ليس بولي عندهم . هذا كله حدث بسبب فئتين من الناس . الفئة الأولى : الشيعة الباطنية والشيعة غير الباطنية . والفئة الثانية : الصوفية هم أيضاً أشد من نشر الشرك في هذه الأمة . فالشيعة والصوفية طائفتان هم أشد من نشر الشرك في هذه الأمة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٤) فصارت حقاً بإخبار الرسول ﷺ .

٤٥ - باب من سبَّ الدَّهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

وفي « الصَّحِيحِ » عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ؛ قَالَ : « قَالَ اللهُ تَعَالَى : يُؤْذِينِي ابنُ آدَمَ ، يَسُبُّ الدَّهْرَ ، وَأَنَا الدَّهْرُ ؛ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » .

وَفِي رِوَايَةٍ : « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ » .

٤٥ - باب من سبَّ الدَّهْرَ فقد آذى الله

قوله : (باب من سب الدهر فقد آذى الله)[1] وقول الله تعالى :

---

(١) هذا الباب ذكره المؤلف رحمه الله في سياق الأشياء التي تؤثر على عقيدة التوحيد ، إما بالمنافاة وإما بالنقص . فمسبة الدهر تنقص التوحيد ، ولذلك عقد لها هذا الباب وأورد فيه الآية والحديث . قوله : « من سب الدهر » السب معناه : الذم والتنقص ، والدهر المراد به : الوقت والزمان ، أي : من ذم الزمان والوقت فقد آذى الله ؛ فالله ﷻ يكره سب الدهر ؛ لأن مسبة الدهر في الحقيقة مسبة لله ، ولأن الدهر مخلوق وهو زمان لما يجري فيه من الخير والشر ، فهو مجرد ظرف زمان مخلوق لله ﷻ ، هو الذي يُجْرِي فيه ما يكرهه الناس وليس الدهر ، إنما هو الله ﷻ فهو الذي يجري هذه الأمور ويقدرها ، وإنما الدهر وقت وزمان لا يذم ولا يتنقص ؛ لأنه لا دخل له في ذلك . الدهر في حد ذاته نعمة من الله ﷻ لمن استغله في طاعة الله ، واستغله فيما ينفعه ، ولذلك قال الله ﷻ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ . إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر] فالعصر الذي هو الزمان مجال للعمل ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [سورة الفرقان : ٦٢] والأعمال الصالحة إنما تكتسب في هذا العصر ، وفي هذا الوقت ، فالوقت ثمين ونعمة من الله ﷻ ، ومن ضيَّعه فهو خاسر ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [سورة العصر : ٢] ومن حفظه فإنه يكون رابحاً ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ

بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر : ٣] هؤلاء هم الذين انتفعوا بالوقت وحفظوه واستفادوا منه ، فالذم لا يرجع إلى الدهر وإنما يرجع إلى خالق الدهر وهو الله ﷻ وهذا يؤذي الله ؛ لأن الله يكرهه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٥٧] فالله ﷻ يتأذى بالأفعال القبيحة لأنه يكرهها ، كما أنه يحب الأعمال الطيبة ويرضاها ، والله يتأذى ولكنه لا يتضرر ؛ لأن الضرر منفي عن الله ﷻ ، « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضُري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني »[*] ، لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين ، فهناك فرق بين التأذي والتضرر ، فالذين يعملون الأعمال السيئة إنما يضرون أنفسهم ، والذين يعملون الأعمال الصالحة إنما ينفعون أنفسهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ٣٢] فهم لا يضرون الله بسيئاتهم وذنوبهم وإنما يضرون أنفسهم ، لكن الله يتأذى بالأشياء التي لا تتناسب مع جلاله وعظمته ﷻ ؛ لأنه يكرهها ويبغضها . ثم ساق المصنف ﷺ هذه الآية : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [سورة الجاثية : ٢٤] هؤلاء هم مشركو العرب ينكرون البعث ، وإن كانوا يقرون بالربوبية وأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر ، ويعبدون الله ببعض العبادات ولكنهم يشركون به معه غيره ، وأيضاً جمعوا مع الشرك إنكار البعث وهذا كثير في القرآن ، يذكر الله عن المشركين أنهم ينكرون البعث ويستبعدونه يقولون : كيف العظام إذا تفتت وضاعت وصارت رميماً كيف تعاد ؟ يعجّزون الله ﷻ أنه يعيد العظام وهي رميم ؛ لأن العظام إذا تفتت وتكسرت لا تعود مرة ثانية ، أليس الذي أوجدك من العدم يقدر على أن يعيدك ؟ بلى ، هذه إعادة أيسر من البداءة ، فالذي قدر على البداءة قادر من باب أولى على الإعادة ، قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [سورة يس : ٧٨ - ٧٩] من الذي أنشأ العظام من العدم ؟ هو الله ﷻ الذي أنشأها من العدم . ألا يقدر أن يعيد رميمها كما كانت ؟ قادر ﷻ لا يعجزه شيء ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ١٩٩٤ (٢٥٧٧) .

يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [سورة الروم : ٢٧] الإعادة أهون في نظر العقول ، وإلا الله ﷻ ليس عليه شيء عسير ، لكن هذا من باب ضرب المثل للعقول ، أن الذي يقدر على البداءة يقدر على الإعادة من باب أولى ؛ لأن الإعادة أسهل في نظر العقول من البداءة ولهذا قال : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني لا يوجد بعث ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ : ناس يولدون وناس يموتون ، يقولون : هذه سنة الحياة ، وسنة الكون ليس هناك بعث ، ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ أسندوا الإهلاك إلى الدهر ، وهل الدهر هو الذي يهلك أو يحيي ؟! لا ، الذي يهلك ويحيي هو الله ﷻ ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ يعيش الإنسان ويهرم ويشيب ثم يموت ، وسبب الموت هو الهرم ، وليس سببه أن له أجلاً وأنه يموت في أجله وأنه يبعث ، ظنوا أنها حياة ليس بعدها بعث ولا نشور ، قال الله ﷻ : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ ما هو البرهان والدليل على مقالتهم هذه ؟ ما هو الدليل الذي استندوا عليه في نفي البعث ؟ ما عندهم دليل ، إلا أنه عندهم صعب ، ونسوا قدرة الله ﷻ ، ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ والظن لا يبنى عليه عقيدة ، ولا يبنى عليه إيمان ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [سورة النجم : ٢٨] لا يبنى الدين والعقيدة إلا على برهان ودليل . فما هو الدليل على نفي البعث ؟ ليس عندهم دليل ؛ بل الدليل قائم على وجود البعث ، وهذا يدل على أن من أسس شيئاً أو نفى شيئاً فإنه مطالب بالدليل على ما أثبته أو على ما نفاه . « البينة على المدعي » وكل من ادعى دعوة نفياً أو إثباتاً عليه أن يقيم الدليل على دعواه وإلا فإنه كاذب ، المشركون ليس عندهم دليل على نفي البعث يعارض الأدلة التي ذكرها الله ﷻ في القرآن ، ما عندهم دليل إلا الاستبعاد فقط ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سورة سبأ : ٧] يعني : إذا تفرقت عظامكم ولحومكم وصرتم تراباً ﴿ أءذا كنا عظاماً نخرة . قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ [سورة النازعات : ١١-١٢] هذا مستندهم فقط الاستبعاد ، وهم يقيسون قدرة الخالق على قدرة المخلوق إذا كان هذا محالاً في قدرة المخلوقين فإنه ليس محالاً في قدرة الخالق ﷻ ، والله ﷻ لا يعجزه شيء . وعادٌ قالوا لهود ﷺ ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ . إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٣٥-٣٨] هذه طبيعة

الكفار واحدة من أول الخلق إلى آخرهم أنهم يُعَجِّزون الله ﷻ ويقيسون قدرة الخالق على قدرة المخلوق ، يشبهون الله بخلقه ، فالآية تنكر على الذين ينكرون البعث وينسبون الهلاك إلى الدهر ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ هذه مسبة للدهر ، أنه هو الذي يهلك ، وهو الذي يميت ، ولذلك الشعراء يذمون الدهر في أشعارهم ، إذا أصابهم شيء سلطوا الذم على الدهر ويلعنون الدهر ، ويشتمون الساعة التي حصل فيها كذا واليوم الذي حصل فيه كذا . هذا من أمور الجاهلية ، وهذا موجود من بعض الناس اليوم . وهذا ذم يتوجه إلى الله وهو ينقص عقيدة التوحيد ، فالمشركون يعتقدون هذا ، ولكن المؤمن لا يعتقد هذا ، وإنما يجري على لسانه وهو لا يعتقد بقلبه ، لكنه يأثم ؛ لأنه يجب أن ينزه لسانه عن مسبة الدهر ، وألا يذم الدهر بل يذم نفسه . والواجب على الإنسان أن يرجع على نفسه ويحاسبها ، فما أصابه شيء إلا بسبب نفسه ، فيتوب إلى الله ﷻ بدلاً من أن يسب الدهر أو يلعن الشيطان ، الشيطان ملعون – لعنه الله – لكن لعنك للشيطان لا يفيدك شيئاً ؛ بل هذا يفرح الشيطان فيقول : انتصرت عليه وأغويته وأضللته . يقول الشافعي ﷺ(*) :

نَعِيبُ زَمَانَنَا والعَيْبُ فِينَا ... وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

فالعيب ليس في الزمان ، العيب في الإنسان ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] هو يعلم أن هذا من الله سبحانه قدَّره عليه عقوبة له فيرجع على نفسه بالتوبة واللوم لأنها هي السبب ويرجع الأمر إلى الله ، وأن الله هو الذي قدر عليه هذا الشيء عقوبة له وتنبيهاً له ليتوب إلى الله ﷻ . هذا هو واجب المؤمن في المجريات التي تجري عليه وعلى غيره . وليس من سب الدهر وصفه بالشدة ، هذا وصف وليس ذماً تقول : هذا يوم شديد ، يوم عصيب ، ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [سورة هود : ٧٧] ﴿ يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [سورة القمر : ١٩] هذا وصف وليس ذماً ، الله خلق بعض الأوقات شديدة وعصيبة ، وخلق بعض الأوقات مباركة مثل شهر رمضان ، ويوم الجمعة ، ويوم عرفة هذه أوقات مباركة ، وأوقات خير ، ومواسم رحمة . وهناك أوقات خلقها الله شديدة وعصيبة على الناس فهذا من باب الوصف لا من باب الذم ، وساق المؤلف حديث أبي هريرة الحديث القدسي أن الله ﷻ يقول : « يؤذيني ابن آدم » فدل على أن الله ﷻ

(*) انظر : عيون الأخبار لابن قتيبة ٢ / ٢٨٤ .

يتأذى بأفعال عباده التي يكرهها ويبغضها ، وفسره بقوله : « يسب الدهر » لماذا صار أذية لله ؟ لأن الدهر ليس بيده شيء ، فمسبته للدهر مسبة لخالق الدهر ؛ لأن السب والذم يتوجه إلى الخالق سبحـانه لا إلى الدهـر ؛ وأما الدهر فليس بيده شيء ، وليس هو الذي أحدث هذا الشيء ، فالذم يتوجه إلى الله ﷻ « يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار » يعني أنا الذي خلقت الدهر ، وأنا الذي أجري في الدهر ما يكرهه الناس وليس معناه أن الدهر من أسماء الله ، الله لا يقال له الدهر ؛ لأنه فسره بقوله : « أقلب الليل والنهار » ولا يجوز أن يؤخذ من هذا الحديث أن الدهر من أسماء الله اعتماداً على قوله : « أنا الدهر » بل يكمل الحديث ، ولا يجوز قطع الحديث « أنا الدهر أقلب الليل والنهار » لأن « أقلب الليل والنهار » يوضح المقصود ويفسره فمن أخذ من هذا الحديث أن الدهر من أسماء الله فقد غلط كالإمام ابن حزم ﵀ ، وأما قوله : « أنا الدهر » فسره بقوله : « أقلب الليل والنهار » كما في قوله تعالى : ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [سورة النور : ٤٤] وهكذا الأحاديث التي من أمثال هذا الحديث فيها شيء مستغرب في أسماء الله وصفاته يجب أن تقرأ جميعاً من أولها لآخرها ؛ لأن بعضها يفسر بعضاً ، لا نقطع جزءاً من الحديث ونقول : هذا يدل على كذا دون أن نكمل الحديث مثل : « ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن »(*) بعض الطلاب يقول : إن الله يوصف بالتردد أخذاً من هذا النص ، نقول : ما أكملت الحديث ، آخر الحديث يقول « يكره الموت وأكره مساءته » فمعنى ترددت أي : كرهت ، « وما ترددت » يعني ما كرهت شيئاً مثل ما كرهت قبض روح عبدي المؤمن ، فالتردد معناه الكراهة ، والله يوصف بأنه يكره ويبغض ويحب ، فالواجب على طالب العلم أن لا يتسرع في هذه الأمور ويقطع لفظاً من الحديث ويقول : هذا يدل على كذا دون أن يكمل الحديث . أو إذا كان هناك حديثاً آخر يفسره أو آية توضحه لابد من الجمع ؛ لأن كلام الله ﷻ لا يتناقض ، وكلام الرسول لا يتناقض ؛ بل يفسر بعضه بعضاً ويوضح بعضه بعضاً . وفي رواية : « لا تسبوا الدهر » هذا نهي والنهي للتحريم ، وقوله : « يؤذيني ابن آدم » هذا يدل على التحريم لأن الله ﷻ يـقـول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢٣٨٤ (٦١٣٧) بنحوه .

=

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾(١) [سورة الجاثية : ٢٤] قال العماد ابن كثير في « تفسيره » : (يخبر الله تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ، وقالوا : ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾(٢) . أي : ما ثم إلا هذه الدار يموت قوم ويعيش

[سورة الأحزاب : ٥٧] ثم علل النهي بقوله : « فإن الله هو الدهر » فمن سب الدهر(*) فقد سب الله ﷻ ، وهذا محذور عظيم ، فلذلك يجب على العبد أن يمسك لسانه عن مسبة الدهر ومسبة الأوقات وأن يسند الأمور إلى الله ﷻ وأن يحاسب نفسه على ما فرَّط وقصَّر ؛ لأنه ما أصابه شيء إلا بسبب ذنوبه ومعاصيه فيتوب إلى الله ، فهذه الحوادث التي تجري مما يكرهه الناس هي بسبب أفعالهم وهي قدر من الله ﷻ قدَّرها عليهم بسبب أفعالهم عقوبة لهم ، فهي من الله قضاء وقدراً وهي من الخلق تسبباً وفعلاً ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

(١) ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ يعني : المشركين الذين في زمن الرسول ﷺ لما أخبرهم بالبعث استغربوا وقالوا : هذا محال ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ هذا إنكار للبعث يعني ما عندهم إلا دار واحدة وهي دار الدنيا ليس هناك دار أخرى يبعثون إليها هذا بزعمهم ، وليس كل العرب كانوا ينكرون البعث ؛ بل يوجد من العرب من يؤمن بالبعث كما في معلقة زهير بن أبي سلمى وغيره من شُعَّار الجاهلية يذكرون البعث .

(٢) لأن الدهرية على قسمين : ١ – دهرية ملاحدة : ينكرون وجود الخالق ﷻ ويرجعون الأمور إلى الطبيعة فقط . ٢ – دهرية من المشركين يؤمنون بالله ويقرون بتوحيد الربوبية ، ولكنهم ينكرون البعث .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن حديث : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ذكر الله » أليس في هذا سب الدهر ؟ فأجاب : يقول العلماء في معنى « ملعونة » يعني : مذمومة ، وليس معناه اللعن الذي هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، وإنما معناه الذم . الدنيا مذمومة ، مذموم ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، فلاشك أن الانشغال بالدنيا عن الآخرة والاغترار بها مذموم . أ.هـ

آخرون[١] ولا ثم معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد[٢] ، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم وهم ينكرون البداءة والرجعة[٣] ، ولهذا قال عنهم : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ قال سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[٤] أي : يتوهمون ويتخيلون) . قوله : وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار » . وفي رواية : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » قال في « شرح السنة »[٥] : (حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة قال : ومعناه أن العرب كانت من شأنها ذم الدهر وسبه عند النوازل ؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر ، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها[٦] ، فكان مرجع سبها إلى الله ﷻ ، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصفونها فنهوا عن سب الدهر) ، انتهى باختصار . ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة في أشعار المولَّدين[٧] كابن المعتز والمتنبي

---

(١) « أرحام تدفع وأرض تبلع » هذه عبارتهم « أرحام تدفع » يعني مواليد « وأرض تبلع » يعني أموات .

(٢) المنكرون ليس كل مشركي العرب ؛ بل المشركون المنكرون للمعاد .

(٣) الفلاسفة على قسمين : فلاسفة ملاحدة ، وفلاسفة إلهيين : يعني يؤمنون بالرب ، ولكن يكفرون بأشياء كثيرة .

(٤) هذا رد عليهم أنهم ليس لديهم حجة على النفي في قولهم : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ .

(٥) يعني الإمام البغوي في « شرح السنة » وهو كتاب موجود ومطبوع .

(٦) يقولون : يا خيبة الدهر ، يسبون الدهر بالخيبة .

(٧) المولَّدين : الشعراء الذين جاءوا بعد عصر بني أمية . مولَّدين يعني الذين اختلطت لغتهم بالعامية ولا يُستشهد بأشعارهم لأنه دخلها اللحن بخلاف شعراء العرب الأصيلين ، كشعراء الجاهلية وشعراء عصر بني أمية هؤلاء يُحتج بأشعارهم في اللغة ؛
=

وغيرهما[(١)] ، وليس منه وصف السنين بالشدة[(٢)] لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ الآية . قال بعض الشعراء :

إنَّ الليالي مِنَ الزَّمانِ مَهُولةٌ ... تُطوى وتُنْشَر بينَها الأعمارُ
فقِصَارُهُن مَع الهُمُومِ طَوِيْلَةٌ ... وطُوالُهنَّ مَع السُّرورِ قِصَارُ[(٣)]

وقال أبو تمام :

أعوامُ وَصْلٍ كَادَ يُنسِي طيبُهَا ... ذِكرُ النَّوى فكأنَّها أيَّامُ
ثم انبَرتْ أيامُ هَجْرٍ أعقَبتْ ... نَحْوي أَسَى فكأنَّها أعْوَامُ
ثُمَّ انقَضَتْ تِلكَ السنونَ وأهْلها ... فكأنَّها وكأنَّهُم أحْلامُ[(٤)]

لأنها لم يدخلها اللحن وأما من جاء بعدهم يسمى بالمولَّد ، يعني الذي دخله اللحن مثل : شعر المتنبي وأبي تمام والبحتري - يعني شعراء عصر بني العباس - .

(١) ابن المعتز هذا من بني العباس ، تولى الخلافة لكن ما طال وقته ، قُتل وهو من خلفاء بني العباس وكان شاعراً .

(٢) يجوز أن تقول : هذا يوم شديد ، هذا يوم عصيب ، هذه سَنَة شديدة ، كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ [سورة يوسف : ٤٨] وقول لوط ﷺ : ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [سورة هود : ٧٧] لما آذاه قومه ، وقوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ [سورة القمر : ١٩] فيوصف الوقت بأنه شديد وأنه عصيب وأنه عسر ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [سورة القمر : ٨] وليس في هذا مذمة ؛ لأن الله خلقه كذلك خلقه شديداً ، خلقه عصيباً ، كما أنه خلق وقتاً مباركاً ووقتاً طيباً ، فهذه أوصاف وليست بذم .

(٣) ليس هذا من باب الذم هذا من باب الوصف .

(٤) هذا من باب الوصف وليس من باب الذم لها ، أيام جرت عليه أيام سرور ، وأيام جرت عليه أيام محن ، وهكذا الدنيا لا تدوم على حال .

٤٦ - باب التَّسمي بقاضي القضاة ونحوه

فِي « الصَّحِيحِ » عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ » .

قَالَ سُفْيَانُ : « مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ » .

وَفِي رِوَايَةٍ : « أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَأَخْبَثُهُ » . قَوْلُهُ : « أَخْنَعُ » ؛ يَعْنِي : أَوْضَع .

٤٦- باب التَّسمي بقاضي القضاة ونحوه

قوله : (باب التسمي بقاضي القضاة[١] ونحوه)[٢] في الصحيح عن أبي

(١) كذلك من احترام أسماء الله ﷻ وإجلال الله ألا يسمى بها خلقه ، الأسماء الخاصة به سبحانه مثل : لفظ الجلالة لا يجوز أن أحداً يُسمى الله ، حتى الكفار والمشركون والفراعنة ما تسموا بهذا الاسم ، سبحان الله لا أحد منهم قال : أنا الله ، إنما قال فرعون : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ﴾ ، وكذلك الرحمن لا يسمى أحد بالرحمن لا يجوز هذا ، هذا من فعل الجاهلية ، ما تسمى أحد بالرحمن إلا مسيلمة رحمن اليمامة ، يقولون : وكذلك مالك الملك ، أو ملك الملوك ، أو سيد الناس ، رب العالمين ، هذه لا تجوز إلا لله ﷻ ، وكذلك قاضي القضاة لا يجوز أن يطلق على المخلوق ؛ لأن قاضي القضاة هو الله ﷻ ، فهو الذي ترجع إليه القضايا يوم القيامة ويحكم بين الناس ولا معقب لحكمه ﷻ ، فقاضي القضاة معناها الذي لا يعقب عليه ، وليس أحد كذلك إلا الله ﷻ فإنه هو الذي لا يعقب على حكمه ، أما القضاة في الدنيا فيحصل في قضاياهم نظر ونقض ، لأنها اجتهادات يخطئ ويصيب ، فلا يجوز أن يقال : قاضي القضاة ؛ لأن هذا لا يليق إلا بالله هو قاضي القضاة ﷻ ، الذي يقضي بين عباده يوم القيامة ، لكن يقال : رئيس القضاة مثلاً إذا كان هو المرجع ، ويقال : وزير العدل ، وما أشبه هذه الألفاظ ، أما أن يقال : قاضي القضاة هذا يكره ، لأن فيه تنقص للتوحيد .

(٢) مثل : ملك الملوك ، سيد السادات ، سيد الناس ، رب العالمين ، الرحمن ، الله ، هذه لا يجوز التسمي بها ، وهناك أسماء مشتركة يجوز تسمية المخلوق مثل : العزيز ، الملك .

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال : « إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله »(١) ؛ لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله فهو ملك الأملاك ؛ لأنه هو الملك في الحقيقة له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، يتصرف في الملوك وغيرهم بمشيئته وإرادته ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ الآية(٢) [سورة آل عمران : ٢٦] .

فلا ينبغي أن يعظم المخلوق بما يشبه ما يعظم به الخالق ﷻ ، وما كان مثل ذلك فينهى عنه كالذي ترجم به المصنِّف ؛ لأنه لا يصدق هذا المعنى إلا على الله ، فلا يصلح أن يسمى به المخلوق(٣) ؛ لأن كل لفظ يقتضي التعظيم والكمال لا يكون إلا له تعالى وتقدس دون غيره .

---

(١) « إن أخنع » فسَّره في آخر الباب بأنه أوضع يعني : أنقص اسم عند الله أن تسمى بملك الأملاك هذا معناه : ملك الملوك ، فلا يجوز التسمي بهذه الأسماء الفخمة الضخمة ، ولا تطلق على المخلوق الضعيف الناقص هذه الألقاب الكبيرة وهو لا يستحقها .

(٢) المُلك المطلق لله ﷻ ، أما المخلوق يملك ملكاً مقيداً ، يقال : ملك مصر ، ملك الشام ، ملك كذا ، ولا يقال ملك الناس أو ملك الملوك ، هذا لا يجوز إلا لله ﷻ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ . مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ هو ملك الناس سبحانه ، فلا تقل فلان ملك الناس أو ملك الدنيا إنما تقول فلان ملك المملكة الفلانية ملك المملكة العربية السعودية ، ملك العراق ، ملك كذا ، محدود ، ثم هو أيضاً عارض ويزول وقد يخلع ويغصب الملك منه ويؤخذ مثل ما يحصل ، فملك المخلوقين ناقص ومعار ويزول أو يموت صاحبه أما المُلك الحقيقي الباقي الذي لا بداية له ولا نهاية له فهو لله ﷻ ، ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [سورة غافر : ١٦] .

(٣) كل الألقاب الضخمة تكره ومنها ما يحرم .

قوله : « قال سفيان[(١)] : مثل شاهان شاه » عند العجم عبارة عن ملك الأملاك ولهذا مثَّل به سفيان . قوله : « وفي رواية : أغيظ رجل على الله » أغيظ من الغيظ وهو مثل الغضب والبغض فيكون بغيضاً إلى الله مغضوباً عليه ، وهذا من الصفات التي تمر كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل ولا تشبيه ولا تمثيل والله أعلم[(٢)] .

قوله : « وأخبثه » وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله إذا رضي بذلك لتعظيم الناس له بما لا يستحقه وعدم إنكاره وكراهته لذلك[(٣)] .

قوله : « أخنع » يعني « أوضع » وهذا المذكور ينافي كمال التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص فيكون فيه شائبة من الشرك وإن لم يكن أكبر[(٤)] .

---

(١) هو سفيان بن عيينة .

(٢) يعني الغيظ والغضب والكراهة والبغض في حق الله تثبت كما جاءت ولا تؤول مثل ما يفعل المؤولة . ويقال : هذا غيظ يليق بالله وغضب يليق بالله وكراهة تليق بالله ليست كغضب المخلوق ولا كغيظ المخلوق ولا مثل كراهة المخلوق كسائر صفاته سبحانه ، خاصة به ، وإن كان يوجد لفظها في المخلوقين إلا أن هذا خاص بالمخلوقين ، وكلٌّ له صفات تناسبه . الرب له صفات تناسبه والمخلوق له صفات تناسبه وإن اشتركت في اللفظ والمعنى لكنها لا تشترك في الحقيقة والكنه والكيفية ، هذه قاعدة معروفة في الأسماء والصفات .

(٣) إن تسمى به هو فهذا أشد ، وإن سماه الناس به ورضي به فهذا أيضاً لا يجوز ، أما إن سموه وهو لا يرضى بهذا أو ما درى فلا إثم عليه .

(٤) التسمي بهذا لا يقتضي الكفر ، ولكنه يقتضي أنه شرك أصغر ، وأنه مكروه أو محرم ، لكنه لا يصل إلى حد الكفر والشرك .

٤٧ - باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شُرَيْحٍ ، أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الحَكَمِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « إنَّ الله هُوَ الحَكَمُ ، وَإِلَيْهِ الحُكْمُ » . فَقَالَ : إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ ؛ أَتَوْنِي ، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُم ، فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيقَيْنِ . فَقَالَ : « مَا أَحْسَنَ هذَا ! فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ ؟ » . قُلْتُ : شُرَيْحٌ ، وَمُسْلِمٌ ، وَعَبْدُ الله . قَالَ : « فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ ؟ » . قُلْتُ : شُرَيْحٌ . قَال : « فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ » . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَغَيْرُهُ .

٤٧- باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

قوله : (باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك)(1) عن

(١) الله ﷻ له أسماء كثيرة ، أسماء حسنى كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [سورة طه : ٨] وقال ﷻ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٠] ، والأسماء : جمع اسم مأخوذ من السمو وهو الارتفاع ، ومن السِّمة وهي العلامة ، فالاسم ما يُميز المسمى عن غيره ، وأسماء الله ﷻ كلها حسنى بمعنى أنها تدل على معاني جليلة وتتضمن صفات الله ﷻ ، فكل اسم من أسمائه فإنه يتضمن صفة من صفاته ﷻ فكلها حسنى ، منها ما بينها الله في كتابه ، ومنها ما بينه الرسول ﷺ في سنته ، ومنها ما استأثر الله ﷻ به في علمه فلم يبينه لعباده ، فلا يعلم عدد أسمائه إلا هو ﷻ ، وتعدد الأسماء يدل على عظم المسمى ، فيجب احترام أسماء الله أي : تعظيمها وإجلالها وتوقيرها ، وتَحرم إهانتها والاستهانة بها . ومن إهانة أسماء الله : التسمي بها ، وإطلاقها على المخلوق ، فمن تسمى بشيء منها فإنه يجب عليه أن يغيِّر هذا الاسم .

فالواجب شيئان : أولاً : الاحترام . وثانياً : تغيير الاسم من أجل احترام أسماء الله .

هذا ما ذكره الشيخ ﷺ في هذه الترجمة ، فاحترام أسماء الله وتغيير الاسم من أجل احترامها من كمال توحيد الله ﷻ الكمال الواجب .

والمراد بالأسماء التي لا يجوز أن يتسمى بها المخلوق الأسماء الخاصة بالله : كالله لفظ الجلالة ،

=

أبي شريح أنه كان يكنى أبا الحكم ، فقال النبي ﷺ : « إن الله هو الحكم وإليه الحكم » فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم ، فرضي كلا الفريقين ، فقال : « ما أحسن هذا ، فما لك من الولد ؟ » قلت : شريح ومسلم وعبد الله . قال : « فمن أكبرهم ؟ » قلت : شريح . قال : « أنت أبو شريح » رواه أبو داود وغيره(١) .

والرحمن ، ورب العالمين هذه أسماء خاصة به ، لا يجوز أن يسمى بها غير الله ﷻ ، وأما بقية الأسماء تطلق على المخلوق لكن معانيها خاصة بالمخلوق ، لائقة به مثل : السميع ، البصير ، والعزيز ، والملك ، والرؤوف ، هذه يسمى بها المخلوق ، لكن مع الفرق بين أسماء الله وأسماء المخلوق ، فأسماء الله تليق به ، وأسماء المخلوق تليق به . فالاسم الذي يحرم التسمي به هو ما كان مختصاً بالله ﷻ ، وهذا من الإلحاد في أسمائه سبحانه . قال الله ﷻ : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٠] فمن الإلحاد في أسماء الله : تسمية المخلوقات به ، كما قالوا عن العزى – الصنم المعروف – أنها مأخوذة من (العزيز) ، وأن اللات مأخوذة من اسم الجلالة (الله) ، وأن المناة مأخوذة من (المنان) فإطلاقها على المخلوق هذا من الإلحاد فيها ، كذلك من باب أولى : أعظم الإلحاد فيها : إنكارها ونفيها عن الله ، كما فعلت الجهمية ، الإلحاد في أسماء الله نفيها وجحودها ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ﴾ [سورة الرعد : ٣٠] ، وكذلك من الإلحاد فيها : تأويلها على غير معناها الصحيح كما فعلت المعتزلة والأشاعرة من تأويل أسماء الله عن معانيها الصحيحة إلى معانٍ لم يردها الله ﷻ ، فهذا كله من الاستهانة بأسماء الله ﷻ ، وكذلك من الاستهانة بها إلقاؤها في الأرض ، والدوس عليها أو في القاذورات فإن كان من فعل ذلك يقصد الإهانة فهو كافر ، فإذا داس على أسماء الله أو ألقاها في القاذورات أو في المزابل قاصداً ذلك هذا ردة عن دين الإسلام ، وأما إن كان لا يقصد ذلك ولكن لم يتنبه لهذا الشيء فهذا محرم ، ولا يقتضي الردة لأنه لم يفعل هذا قاصداً إهانته وإنما فعله غفلة أو جهلاً منه ، فعلى كل حال أسماء الله يجب احترامها وتعظيمها وتوقيرها وإجلالها .

(١) استدل المؤلف ﷺ في هذه الترجمة بهذا الحديث وهو حديث أبي شريح أنه كان يكنى أبا =

الحكم ، والكنية : ما صُدِّر بأب مثل : أبو عبد الله ، أبو محمد ، أبو خالد أو بأم مثل : أم عبد الله ، أم محمد ، والكنية تكون للتكريم ، وأما اللقب فهو ما أشعر بمدح أو ذم . فاللقب يستعمل للمدح مثل : زين العابدين ، ويستعمل للذم ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ [سورة الحجرات : ١١] إذا كان اللقب يشعر بالذم فإنه لا يجوز استعماله لتنقص الشخص ، وأما الكنية فإنها لا تستعمل إلا للمدح والتكريم ، فهذا الرجل كان يكنى أبا الحكم ، فلما سمع النبي ﷺ ذلك استنكره وقال : إن الله هو الحكم ، وإليه الحكم ، يعني فلا يليق بك أن تتسمى أو أن تتكنى بهذه الكنية . هذا وجه الشاهد من الحديث للترجمة : « إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكم » فلا يجوز التكني بمثل هذه الكنية لأن الحَكَم هو الله ، فأبو شريح بيَّن للنبي ﷺ السبب في هذه التكنية وأنه هو لم يسم نفسه بذلك وإنما الناس أطلقوها عليه لسبب هو أنه كان إذا اختلف قومه في شيء رجعوا إليه فحكم بينهم فرضي كلا الفريقين بحكمه هذا هو الإصلاح بين الناس وهذا أمر طيب ، ولهذا قال ﷺ : « ما أحسن هذا » لأن الله ﷻ يقول : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [سورة النساء : ١١٤] وقال ﷻ : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [سورة الحجرات : ٩ - ١٠] ، الصلح مطلوب ، ولكن الصلح ليس فيه إلزام ، وإنما فيه التراضي ؛ ولهذا قال أبو شريح : رضي كلا الفريقين . أما الصلح الذي يكون معه إلزام لأحد الطرفين فلا يجوز ؛ لأنه ظلم . والصلح يمشي على الرضى والتراضي ، فالذي يحكم بين الناس بغير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويلزمهم بذلك كالقوانين الوضعية أو عوائد البادية وسوالف البادية ، والعوارف القبلية فهذا حكم بغير ما أنزل الله ، وهو من حكم الطاغوت ، والله ﷻ يقول : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٤٤] لأنه لا يجوز للإنسان الإلزام إلا بما هو في كتاب الله أو في سنة الرسول ﷺ ، وأما الصلح الذي يجري بين الناس فهذا لا يصح إلا مع التراضي من الطرفين ، فإن لم يتراضوا فلابد من الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وذلك بالذهاب إلى المحاكم الشرعية ، قال النبي ﷺ : « ما أحسن هذا » لأن هذا من الصلح لقوله : « رضي كلا

قوله : « عن أبي شريح » هو أبو شريح الخزاعي اسمه خويلد بن عمرو[١] ، أسلم يوم الفتح[٢] ، له عشرون حديثاً اتفقا على حديثين وانفرد البخاري بحديث . وعنه[٣] أبو سعيد المقبري ، ونافع بن جبير ، وطائفة ، قال ابن سعد[٤] : مات بالمدينة سنة ثمان وستين .

قوله : « يكنى » الكنية ما صُدِّر بأب أو أم ونحو ذلك كأبي محمد ،

الطرفين » ، والرسول ﷺ استحسنه لهذا ؛ لأنه عن تراضي ، وليس عن إلزام . والصلح لاشك فيه خير ، قال ﷻ : ﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ ﴾ [سورة النساء : ١٢٨] ؛ لأنه يذهب الأحقاد ويذهب الضغائن ويحصل به التراضي فهو خير ، ثم قال ﷺ : « مالك من الولد ؟ » : الولد يشمل الذكور والإناث ، فقال : « شريحٌ ومسلمٌ وعبد الله » ثلاثة . قال : « من أكبرهم ؟ » قال : « شريح » . قال : « أنت أبو شريح » فكناه بابنه الأكبر . فهذا دليل على أن الرجل يكنى بابنه ، فيقال : أبو فلان ، وقد يكنى بذلك وليس له أولاد ، فيجوز أن يكنى ولو لم يكن له أولاد فيقال : أبو فلان فإن كان له أولاد هذا شيء واقع . وفيه أن الكنية تكون بأكبر الأولاد ؛ لأن الرسول ﷺ قال : « من أكبرهم ؟ » فقال : شريح ، قال : « أنت أبو شريح » هذا هو المشروع ، وفي الحديث دليل على إنكار المنكر ؛ لأن الرسول ﷺ أنكر هذا المنكر لما سمعه . وفيه دليل على التماس البديل الصالح ، إذا منعت من شيء وله بديل صالح فإنك تأتي بالبديل ، فإن الرسول ﷺ لما منع التكني بأبي الحكم أتى بالبديل الصالح ، وهو التكني بأكبر الأولاد ، فقال : « أنت أبو شريح » بدلاً من أبي الحكم . فهذا الحديث يدل على احترام أسماء الله ﷻ ، ويدل أيضاً على ما ذكره المصنِّف ﷺ وهو تغيير الاسم من أجل ذلك ، أي : من أجل احترام أسماء الله ، فإن النبي غيَّر هذا الاسم إلى اسم لا محذور فيه .

(١) هذا أحد القولين .

(٢) يعني يوم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة .

(٣) أي روى عن أبي شريح هؤلاء .

(٤) ابن سعد صاحب « الطبقات » .

واللقب ما ليس كذلك كزين العابدين[١] .

وقوله ﷺ : « إن الله هو الحكم وإليه الحكم » أي : هو سبحانه الحكم في الدنيا والآخرة[٢] ، يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزله على أنبيائه ورسله[٣] ، وما من قضية إلا وله فيها حكم[٤] مما أنزله على نبيه من

(١) اللقب ما أشعر بمدح أو ذم كزين العابدين هذا مدح .

(٢) الله هو الحكم ؛ لأنه هو الذي يحكم بين عباده ﷻ فيما كانوا فيه يختلفون ، فيحكم بينهم في الدنيا بما أنزله من القرآن والسنة : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [سورة الشورى : ١٠] ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [سورة النساء : ٥٩] ، الله ﷻ أنزل الكتاب للحكم بين الناس لما اختلفوا فيه في أمور العقيدة ، وأمور العبادة ، وأمور المعاملات ، في جميع النزاعات يجب التحاكم إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ﷺ هذا هو الدستور لا يجوز التحاكم إلى غير شرع الله ﷻ ، وأما في الآخرة فإنه يحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه ، فيقتص للمظلومين من الظالمين .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٣] .

﴿ مَعَهُمُ ﴾ أي : مع الأنبياء ، والكتاب هنا اسم جنس يشمل جميع الكتب السماوية .

(٤) الله ﷻ جعل هذا القرآن حاكماً بين الناس وشاملاً لجميع منازعاتهم فما من قضية إلا في القرآن حكمها ، لكن الناس تضعف مداركهم قد لا يدركون هذه الأحكام من القرآن ولا يتوصلون إليه ، وإلا فالقرآن في حد ذاته شامل لجميع ما يتنازع فيه الناس ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [سورة الفرقان : ٣٣] لكن أفهام الناس تختلف والمطلوب من الحكام العلماء الاجتهاد فإن أصاب له أجران وإن أخطأ فله أجر واحد ، قال ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد »(*) وخطؤه مغفور ؛ لأنه لم يتعمد الخطأ . فالقرآن في حد ذاته وسنة الرسول ﷺ

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٦ / ٢٦٧٦ (٦٩١٩) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٣٤٢ (١٧١٦) .

الكتاب والحكمة[(١)] .

لكن قد يخفى على المجتهد ، فإن المجتهدين وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلابد أن يكون المصيب فيهم واحداً[(٢)] ، فمن رزقه الله قوة الفهم وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء أدرك ما هو الصواب من ذلك[(٣)] .

وقوله : « إليه الحكم » في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[(٤)] . وقال : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ

لاشك أنها مشتملة على حلول مشاكل الناس ، ولكن إن حصل تقصير أو تغرير ، فهو من العباد أنفسهم . الذي يقول : إن القرآن لا يصلح والسنة لا تصلح في هذا الوقت إنما هي لوقت مضى في العصور الماضية هذا كافر بالله ﷻ ، مرتد عن دين الإسلام ؛ لأنه اتهم كتاب الله بالنقص ، واتهم سنة الرسول ﷺ بالنقص ، وعدم الصلاحية ، فالعيب فينا وليس العيب في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ . العيب في أفهامنا وقصورنا وأما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهما كاملان وشاملان لكل شيء .

(١) الكتاب هو القرآن ، والحكمة هي سنة الرسول ﷺ : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [سورة النساء : ١١٣] .

(٢) نعم إذا اختلف المجتهدون في قضية واحدة فليس كلهم مصيبين ، المصيب واحد منهم ؛ لأن الصواب لا يتعدد ، فلابد أن الصواب مع واحد منهم .

(٣) الحق مع أحدهم ومن الذي يعرف هذا ؟ يعرفه من آتاه الله علماً وفقهاً في دين الله فإنه يميز الأقوال ويعادل بينها ويعرضها على الدليل ؛ فلابد أن يتبين له الحق إذا كان عالماً ومنصفاً ليس له هوى .

(٤) وما اختلفتم هذا عام في جميع الخلافات . ثم أكد ذلك بقوله ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : في أي شيء تختلفون فيه فإن حكمه إلى الله . الله حَكَم فيه ويجب الرجوع إلى حكم الله لا إلى غيره .

وَٱلرَّسُولِ ﴾ الآية[(١)] . فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه ، والحكم إلى رسوله هو الحكم إليه في حياته ، وإلى سنته بعد وفاته . قوله : « فإن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين » المعنى - والله أعلم - أن أبا شريح كان مرضياً عندهم يتحرى ما يصلحهم إذا اختلفوا ، فيرضون صلحه فسموه حكماً[(٢)] ، وأماما يحكم به الجهلة من الأعراب ونحوهم من سوالف آبائهم وأهوائهم فليس من هذا الباب[(٣)] لما فيه من النهي الشديد

---

(١) ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ ردوه إلى الله إلى كتاب الله والرسول يوم أن كان حياً ﷺ يرد إليه ، وبعد مماته ﷺ يرجع إلى سنته . قال ﷺ : « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي »(*) وقال ﷺ : « فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين »(**) .

(٢) لأنه منصف ، لا يتحيز وليس له هوى ، وإنما قصده إزالة النزاع بين الناس ، وتسوية النزاع هذا شيء طيب ، الذي يحاول إزالة النزاع بين المسلمين ويتحرى العدل في ذلك هذا له أجر عظيم ، وهذا من الصدقة التي يتصدق بها الإنسان على نفسه كل يوم : « أن تعدل بين كل اثنين صدقة »(***) ، أما الذي يحرش بين الناس ويثير الفتن ويحرض بعضهم على بعض هذا - والعياذ بالله - من المفسدين في الأرض .

(٣) هذا ليس من الصلح ؛ لأنه إلزامي . والإلزام لا يكون إلا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهؤلاء يحكمون بين الناس بالقوانين الوضعية ويلزموهم بها يفرضونها عليهم أو بأعراف البادية كما يفعله البدو يتحاكمون إلى رؤسائهم فيحكمون بينهم بالعوائد فهذا حكمٌ بغير ما أنزل الله ﷻ يلزمون الناس به .

(*) أخرجه الحاكم في « المستدرك » ١ / ١٦٣ ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع الصغير » ١ / ٥٦٦ (٢٩٣٧) .

(**) سبق تخريجه في باب (ما جاء في السحر) .

(***) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١٠٩٠ (٢٨٢٧) ، ومسلم في « صحيحه » ٢ / ٦٩٩ (١٠٠٩) .

والخروج عن حكم الله ورسوله إلى ما يخالفه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1] [سورة المائدة : ٤٤] ، وهذا كثير فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه ، ومنهم من يتبع في ذلك سلفه ويحكم بما كانوا يحكمون به ، وهذا كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس إليه إذا اختلفوا[2] .

قوله ﷺ : « فما لك من الولد ؟ قال : شريح ومسلم وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح » ، فكناه بالكبير وهو السنّة[3] . وغيّر كنيته بأبي الحكم ؛ لأن الله هو الحكم على الإطلاق ، ومنه تسمية الأئمة بالحكام ، فينبغي ترك ذلك والنهي عنه لهذا الحديث ، وهذا قد حدث في الناس قريباً[4] .

---

(١) وليس هذا خاص بالنزاع في مسائل الأموال والخصومات هذا عام في كل الخلافات . خلافات في الأقوال الفقهية والأقوال العقائدية كل خلاف فإنه يجب الرجوع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومن باب أولى مسائل العقيدة ، أو مسائل المذاهب والاجتهادات الفقهية فإنه يجب الرجوع إلى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ، والأخذ بما دل عليه الدليل من أقوال العلماء وأقوال المجتهدين .

(٢) هذا كفر بنص الآية ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٤٤] . ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٦٥] نفى الإيمان عن هؤلاء وحكم عليهم بالكفر .

(٣) السنة أن يُكنى بأكبر أولاده ، ولا يُكنّى بالصغير .

(٤) تلقيب الأمراء بالحكام هذا لا ينبغي ، هذا حدث في القرون المتأخرة ، إنما يقال له : أمير أو خليفة أو سلطان فقط ، أما الحاكم هذا لا يطلق إلا على حاكم الشرع ، وهو القاضي .

٤٨ - باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

وقَوْلِ الله تعالَى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة : ٦٥] .

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ومُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ ؛ دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ : « أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ : مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلاءِ ؛ أَرْغَبَ بُطُوناً ، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُناً ، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ - يَعْنِي : رَسُولَ الله ﷺ وَأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ - . فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بنُ مَالِكٍ : كَذَبْتَ ، ولكنَّكَ مُنَافِقٌ ؛ لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ، فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ لِيُخْبِرَهُ ، فَوَجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ! إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ » . قَالَ ابنُ عُمَرَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقاً بِنَسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ الله ﷺ ، وَإِنَّ الحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ . فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : ﴿ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة : ٦٥ - ٦٦] ؛ مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ » .

٤٨ - باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

قوله : (باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول)[١]

---

(١) هذا باب عظيم ، والهزل معناه ضد الجد ، وهو اللعب والمزاح ، من هزل بشيء أي شيء فيه ذكر الله ﷻ ؛ فإن هذا دليل على نقص توحيد هذا الهازل في ذكر الله ، أو القرآن . لو هزل بالقرآن فضحك من آية من القرآن من باب السخرية أو من باب التنقص ، أو يتنقص الرسول ﷺ . كأن يقول : الرسول ما عنده إدراك . الرسول ما عنده نباهة .
=

أي : فقد كفر[(١)] وقول الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ الآية[(٢)] قال العماد ابن كثير رحمه الله في « تفسيره » : (قال

﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [سورة التوبة : ٦١] يعني أنه يسمع للناس كلهم ، وليس عنده انتباه . أو بأي شيء ، تنقص للسنة أيضاً ، سنة الرسول ﷺ إذا تنقص حديثاً من أحاديث الرسول الثابتة عنه ﷺ وما أكثر ما يقع هذا من تنقص الأحاديث من كثيرٍ من الناس ، وكذلك تنقص العلماء ، من تنقَّص عالماً من العلماء ، أو تنقَّص العلماء عموماً فقد تنقَّص الرسول ﷺ ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء . والمصنف ترك الحكم في الترجمة (باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ﷺ) ما حكمه ؟ حكمه يؤخذمن الآية ، المؤلف لم يذكر الحكم لأنه ظاهر في الآية : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٦٥-٦٦] .

(١) فقد كفر أخذاً من الآية .

(٢) هذا حصل في غزوة تبوك وهي آخر غزوة غزاها الرسول ﷺ ، وكانت تتصف بالشدة من ناحية بُعد المسافة لبعد تبوك عن المدينة ، ومن ناحية الوقت أنها كانت في وقت الصيف في شدة الحر ، ووقت طيب الثمار . وهم متشوقون إلى الثمار . فالله أراد أن يختبر المسلمين ليظهر المؤمن من المنافق . فجاءت غزوة تبوك مختبرة للناس ، حكمة من الله ﷻ والعدو أيضاً هم الروم ، والروم عندهم قوة وبأس ، فهذه الغزوة فيها شدائد كثيرة أولاً : أنها بعيدة المسافة ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ [سورة التوبة : ٤٢] ، المسافة بعيدة يمشون مشياً وعلى الإبل . وكذلك من ناحية الوقت في شدة الحر : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٨١] ، وفي وقت طيب الثمار والناس بحاجة إلى حضور الثمار والأكل منها ؛ لأنهم أهل جوع وأهل فاقة . طابت الثمار والنخيل ، والأعناب ، والحاجة إلى الظل وكذلك العدو أكبر دولة على وجه الأرض في ذاك الوقت وهي دولة الروم ؛ لأن النبي ﷺ بلغه أن الروم يعدُّون العدة لغزو الرسول ﷺ فالرسول ﷺ بادرهم قبل أن يأتوا ، وصرَّح لأصحابه بالغزو، وكان في الغزوات التي قبلها لا يبين لهم أين الوجهة يخرجون معه وهم لا يعلمون وجهتهم ؛
=

لأن هذا من سياسة الحرب ، أن القائد لا يبين لهم ، فكان الرسول إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها إلا هذه الغزوة فقد صرح فيها أنه يريد الروم ، وأنه يريد تبوك فعند ذلك تخاذل المنافقون ، فمنهم من اعتذر ولم يخرج مع الرسول ﷺ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٤٩] ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٤٦] ، فمنهم من اعتذر ولم يخرج وهو ماله عذر إلا الخوف من الروم والرغبة في الراحة والظل والأكل من الثمار ، وعدم تجشم المشقة . ومنهم من خرج مع الرسول ﷺ وحصل منه ما حصل مثل ما ذكر الله في هذه الآية وأما أهل الإيمان فلم يترددوا في الخروج مع الرسول ﷺ ، خرجوا طيبة نفوسهم مغتبطين صابرين محتسبين فتميز المؤمن من المنافق ، فأنزل الله سورة التوبة تسمى الفاضحة ؛ لأنها فضحت المنافقين وهتكت أستارهم ومنهم ومنهم ومنهم ، هي سورة عظيمة بينت ضغائن المنافقين إذا قرأتها تجد فيها العجب العجاب ، وأثنى الله على المؤمنين ثناءً عظيماً ووعدهم بعظيم الأجر والثواب ، الذين صدقوا مع الرسول ﷺ ولم يثنهم المشقة ، ولم يثنهم قوة العدو . الروم عندما علموا أن الرسول ﷺ خرج إليهم ونزل في تبوك أصابهم الرعب ولم يتحركوا من مكانهم ، وجلس النبي ﷺ في تبوك عشرين يوماً ينتظر ، فلما لم يأتوا رجع الرسول إلى المدينة سالماً هو وأصحابه ما نالهم سوء من العدو وكبت الله العدو ، وألقى الرعب في قلوب الروم ، هذه غزوة تبوك وما فيها من الأسرار والحكم والعبر والعظات وقد غزاها رسول الله ﷺ في آخر الغزوات .﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ [سورة التوبة : ٨٣] ، وهذا يدل على أنها آخر غزوة للرسول ﷺ وهي اختبار وامتحان ، فنجح أهل الإيمان وأخفق أهل النفاق الذين يدَّعُون الإيمان وهم كاذبون . وهكذا المحن يتبين فيها المؤمن الصادق من المنافق . أما وقت الرخاء الناس سواء ما يُعرف المؤمن من المنافق كل الناس سواء كلهم يدَّعون الإيمان والإسلام ، لكن يتبين المنافق وقت الشدائد .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ القصة كما يأتي في الباب(*) أن جماعة منهم حينما قفل النبي ﷺ من

(*) انظر القصة في « تفسير ابن كثير » ٤ / ١٧١ .

أبو معشر المدني ، عن محمد بن كعب القرظي(١) وغيره قالوا : قال رجل من المنافقين(٢) : « ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا(٣) ، وأكذبنا

تبوك جلسوا جماعة من ضعاف الإيمان وصاروا يتكلمون ويقولون : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء يعنون رسول الله ﷺ وأصحابه أرغب بطوناً يعني أنهم يحبون الأكل والشره وأكذب ألسناً وأجبن عند اللقاء ، فكان شاب من شباب الأنصار حاضراً وهو عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال للمتكلم : كذبت ولكنك منافق . أنكر عليه ، والبقية سكتوا . المتكلم واحد والبقية سكتوا ، فصار حكمهم حكم المتكلم لأنهم لم ينكروا عليه . عوف بن مالك ذهب إلى الرسول ﷺ مسرعاً ، فوجد الوحي قد سبقه وأنزل الله على رسوله هذه الآية : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٦٥-٦٦] فجاء هذا الرجل الذي تكلم عندما علم أن الرسول بلغه الخبر يعتذر إلى الرسول ، والرسول لم يلتفت إليه ولم يزد أن يقول له : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٦٥-٦٦] ، الرجل تعلق بنسعة ناقة الرسول ﷺ يعتذر ، والرسول لا يلتفت إليه إنما يقرأ الآية ولما حصلت الحادثة أمر الرسول ﷺ بالرحيل لأجل أن يفسد الخطة على المنافقين لئلا يحصل في الناس كلام ، وجاء الرجل وأدرك الرسول وقد ركب الراحلة فما ترك له مجالاً ولا جلس له ولا استقبله ، بل ولا التفت إليه ولا يزيد على تلاوة الآية الكريمة .

(١) القرظي نسبة إلى بني قريظة من اليهود .

(٢) قاله رجل واحد ، والله أسند الحكم للجميع كل أهل المجلس ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ ما قال : ولئن سألته فأسند مقالة الرجل إلى الجماعة الجالسين معه ؛ لأنهم لم ينكروا عليه فدل على أن من لم ينكر المنكر فإنه يكون حكمه حكم فاعل المنكر ، وأن من تكلم بالردة ولم يرد عليه الحاضر فإن حكمه يكون حكمه في الردة ؛ لأنه رضي بذلك .

(٣) يعني يحبون الأكل شرهين هل الصحابة يحبون الأكل ؟ الصحابة يطوون ويصومون ويقاتلون مع رسول الله ، أحياناً ما معهم شيء يأكلون ورق الشجر وأحياناً يأكلون الجراد يقتاتون على الجراد ما معهم غيره وأحياناً يكون معهم عدد من التمرات هؤلاء يقال عنهم : أرغب بطوناً ؟! هذه صفة المنافقين ، ولكن كما يقال : رمتني بدائها وانسلت .

ألسنة[١] ، وأجبننا عند اللقاء »[٢] فرفع ذلك لرسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته[٣] فقال : يا رسول الله ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ ونتحدث ، فقال : ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٦٥ - ٦٦] وإن رجليه لينسفان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ ، وهو متعلق بنسعة[٤] ناقة رسول الله ﷺ .

---

(١) وهل الرسول والصحابة يكذبون ؟ هذه صفات المنافقين . المنافق هو الذي إذا حدث كذب .

(٢) وهل الصحابة جبناء ؟! الذين غزوا مع الرسول ﷺ وجاهدوا معه وفتحوا الفتوح بعده ونشروا الإسلام هؤلاء جبناء ؟! هذه صفة المنافقين هم الجبناء .
فدل على أن من يسب العلماء ويتنقص العلماء ويتكلم فيهم أن حكمه حكم هؤلاء ، والآن ما تعمر مجالس بعض الناس إلا بأكل لحوم العلماء والتفكه فيها ، هذا خطر عظيم - والعياذ بالله - .

(٣) الرسول ﷺ لما وقعت الحادثة بادر بالرحيل من أجل أن يقطع على المنافقين خطتهم وينشغل الناس بالرحيل يمشون ولا يكون هناك مجالس محل كلام وهذا من سياسة الرسول ﷺ .

(٤) أي : الحبل الذي يشد به الرَّحْل .

فالرسول ﷺ لم يقبل اعتذاره ؛ لأن الله لم يقبل عذره وأمره أن يقول له : ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ ﴾ فامتثل الرسول أمر الله ، وقال له ما أنزله الله في حقه ونسب هذا إلى الجماعة مع أن المتكلم والمراجع واحد ؛ لأن الذين لم ينكروا صار حكمهم حكمه - والعياذ بالله - ، وفيه دليل على أن الإنسان إذا تكلم بكلام الكفر يكفر ولو لم يعتقد هذا بقلبه ، وإذا فعل الكفر يكفر والشرك يشرك ولو لم يعتقد بقلبه ؛ لأن هؤلاء يقولون : ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ يعني ما قصدنا هذا بقلوبنا وأيضاً كانوا في الأول مؤمنين ثم ارتدوا ؛ لأن الله قال : ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ فلو كانوا منافقين في الأول ما قال : ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ ؛ لأن
=

قولـه : ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ أي : بهـذا المقـال الـذي استهزأتم به[١] ﴿ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ ﴾[٢] أي : لا يعفى عن جميعكم ولابد من عذاب بعضكم بأنهم كانوا مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة) انتهى .

وقال شيخ الإسلام ﷺ : (وقد أمره الله تعالى أن يقول : ﴿ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ وقول من يقول : إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح[٣] ؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر ، فلا يقال : قد كفرتم بعد إيمانكم ، فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر[٤] ، وإن

المنافق كافر من الأصل ، فدل على أن هؤلاء النفر كانوا مؤمنين فلما تكلموا بهذا الكلام - والعياذ بالله - ارتدوا عن دين الإسلام ، وأما المنافقون فقد قال الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ ﴾ [سورة التوبة : ٧٤] ، ولم يقل بعد إيمانهم ، فالمنافق يقال له : مسلم ؛ لأنه استسلم وانقاد ظاهراً ، ولكن لا يقال له : مؤمن .

(١) بهذا المقال وهم ما اعتقدوا في قلوبهم فدل على أن من نطق بكلمة الكفر وهو غير مكره فإنه يكفر ولو لم يعتقد بقلبه ، وهذا فيه رد على المرجئة الذين يقولون : من فعل الكفر أو تكلم بالكفر لا يحكم عليه حتى يعتقد بقلبه . من قال بهذا ؟ هذا خلاف ما ذكره الله في هذه الآية .

(٢) الذين تابوا منهم رجل يقال له مخشي بن حمير تاب في الحال وهو في المجلس فتاب الله عليه ﴿ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ ﴾ واحد والواحد يسمى طائفة .

(٣) هذا لأن بعضهم يقول : هؤلاء منافقين من الأصل ، ولكن الشيخ تقي الدين يقول : هؤلاء كانوا مؤمنين في الأصل ، ولكنهم ارتدوا لما نطقوا بهذه الكلمة ؛ لأن الله قال : ﴿ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ ولو كانوا منافقين من الأصل ما قال فيهم ﴿ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ .

(٤) هؤلاء المنافقين الأصليين . فدل أن هذه الجماعة ليسوا منافقين في الأول ، هذا فيه خطر عظيم على أهل الإيمان أنهم يتكلمون بكلام ثم يرتدون .

أريد : إنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان ، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك[١] ، ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين) أ.هـ .

وفيه بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به ، وأشدها خطراً إرادات القلوب ، فهي كالبحر الذي لا ساحل له ، ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله وعدم احترامهم لأجله[٢] .

---

(١) ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٤] .

(٢) هذا كما ذكرنا مجالس أكثر الناس اليوم خصوصاً المتعالمين والذين يظهرون الغيرة على الدين فلا تطيب مجالسهم إلا بالكلام في أهل العلم وتنقصهم ، وأنهم ليسوا بشيء ، وأنهم مداهنون وأنهم عملاء للسلاطين وأنهم ... إلخ نسأل الله العافية فيجب الحذر من هذا .

٤٩ - باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت : ٥٠]

قَالَ مُجَاهِدٌ : « هذَا بِعَمَلِي ، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ » .

وَقَالَ ابنُ عبَّاسٍ : « يُرِيدُ : مِنْ عِنْدِي » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص : ٧٨] .

قَالَ قَتَادَةُ : « عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ » .

وَقَالَ آخَرُونَ : « عَلَى عِلْمٍ مِنَ الله أَنِّي لَهُ أَهْلٌ » .

وهذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ : « أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ ثَلاَثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى ، فَأَرَادَ الله أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِم مَلَكاً ، فَأَتَى الأَبْرَصَ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْنٌ حَسَنٌ ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ .

قَالَ : فَمَسَحَهُ ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ ، فَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً ، وَجِلداً حَسناً . قَالَ : فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الإِبلُ أَو البَقَرُ (شَكَّ إِسْحاقُ) . فأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ ، وَقَالَ : بَارَكَ الله لكَ فِيهَا .

قَالَ : فَأَتَى الأَقْرَعَ ، فقالَ : أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إليْكَ ؟ قَالَ : شَعرٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ . فَمَسَحَهُ ، فَذَهَبَ عَنْهُ ، وَأُعْطِيَ شَعْراً حَسَناً . فَقَالَ : أَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : البقَرُ أو الإِبلُ . فأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً ؛ قَالَ : بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا .

قَالَ : فَأَتَى الأَعْمَى ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي ، فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ . فَمَسَحَهُ ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ . قَالَ : فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الغَنَمُ . فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِداً .

فَأُنْتِجَ هذَانِ وَوَلَّدَ هذَا ، فَكَانَ لِهذَا وادٍ مِنَ الإِبِلِ ، وَلِهذا وَادٍ مِنَ البَقَرِ ، وَلِهذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ .

قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي ؛ فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا باللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ ، والجِلْدَ الحَسَنَ ، وَالمَالَ ، بَعِيراً أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي . فَقَالَ : الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ . فَقَالَ لَهُ : كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ ، فَقِيراً ، فَأَعْطَاكَ اللهُ ﷻ المَالَ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا وَرِثْتُ هذَا المَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ . فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِباً ؛ فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ .

قَالَ : وَأَتى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهذَا ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هذَا ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِباً ؛ فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ .

قالَ : وَأَتى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابْنُ سَبِيلٍ ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي ؛ فَلا بَلاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي . فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي ، فَخُذْ مَا شِئْتَ ، وَدَعْ مَا شِئْتَ ، فَوَاللهِ ؛ لَا أَجْهَدُكَ اليومَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ . فَقَالَ : أَمْسِكْ مَالَكَ ؛ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُم ؛ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ » . أَخْرَجَاهُ .

٤٩- باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾

قوله : (باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ

ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ الآية)[1] [سورة فصلت : ٥٠] ذكر المصنِّف رحمه الله عن

(١) أي : باب ما جاء في تفسير هذه الآية من نسبة النعم إلى غير الله عز وجل وعدم شكرها ، فإن هذا ينقِّص التوحيد . وهذا مناسبة ذكر هذا الباب في كتاب التوحيد : أن نسبة النعم إلى غير الله وعدم شكرها نقص في التوحيد ، ونسبة النعم إلى الله جل وعلا والقيام بشكرها هذا مكمل للتوحيد . وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ ﴾ : ضمير الغائب يرجع إلى الإنسان المذكور في قوله تعالى في الآية التي قبلها : ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ [سورة فصلت : ٤٩ - ٥٠] . انظر إلى قوله : ﴿ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ ذكر أن الرحمة من الله عز وجل ، ولكن هذا الإنسان عكس الأمر فلم ينسبها إلى الله وقال : ﴿ هَٰذَا لِى ﴾ ، الله جل وعلا يقول : ﴿ مِّنَّا ﴾ وهذا يقول : ﴿ لِى ﴾ يعني أنا مستحق هذا ، أو أن هذا بسبب عملي وحذقي ومهارتي وما أشبه ذلك من الأقوال التي فيها كفران النعمة وعدم شكرها ، وينكر أنه فضل من الله ؛ بل يقول : هذا حقي وأنا مستحق لهذا ، وليس لله فضل وإن لم يقل هذا بلسان المقال فإنه يقوله بلسان الحال ، إذا قال : إنه كان محقوق بهذا فمعناه أنه لم يعترف بفضل الله جل وعلا ، أو قال : هذا بعملي أو كدي أو كسبي أو غير ذلك من الأمور . فالواجب نسبة النعم إلى الله والقيام بشكرها قولاً واعتقاداً وعملاً ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سورة سبأ : ١٣] ، هذا هو الواجب ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ [سورة فصلت : ٥٠] ، الرحمة جاءت بعد الضراء ، من الذي أزال الضراء وأحل محلها الرحمة ؟ هل يستطيع الإنسان أن يزيل الضراء عن نفسه ؟ لا يستطيع ذلك ؛ بل الله جل وعلا هو الذي يزيله ، والإنسان يعترف أنه عاجز عن إزالة الضراء ؛ بل إذا أصابته الضراء لجأ إلى الله ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [سورة الإسراء : ٦٧] فهو يعرف أنه ما يزيل الضراء ولا يكشف الضراء إلا الله جل وعلا ، حتى المشركون يخلصون في الشدة فيعلمون أنه لا يكشف الضر إلا الله عز وجل ، لكن إذا توسع نسي الضر الذي أنجاه الله منه ونسب هذا إلى نفسه ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٦٧] إذا توسع وزالت عنه الضراء نسي ربه جل وعلا ، وإذا مسه الضر ذكر ربه أما إذا جاء في السعة والنعمة فإنه ينسى ربه ويدعو معه غيره ويشرك =

ابن عباس وغيره من المفسرين في هذه الآية ما يكفي ويشفي في المعنى[(١)] .

قال : قال مجاهد : هذا بعملي وأنا محقوق به[(٢)] ، وقال ابن عباس : يريد من عندي[(٣)] .

وقوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ [سورة القصص : ٧٨] قال قتادة : على علم مني بوجوه المكاسب[(٤)] .

بالله ﷺ وينسب هذا الشيء إلى نفسه وإلى جهده وعمله . صحيح أن الأشياء لها أسباب ولكن لا تنسب إلى الأسباب ، وإنما تنسب إلى الله ﷺ مسبب الأسباب ، وكم من سبب يُعمل ولا يحصل شيء . السبب بذاته لا يُوجد شيئاً ، وإنما الـمُوجِد هو الله ﷺ ، فكم من أسباب بُذلت ، ولم يحصل شيء فهذا دليل على أن السبب ليس بلازم أنه يوجد النتيجة ، فإنما هذا يرجع إلى الله ﷺ مسبب الأسباب . وهذا يكثر على ألسنة الناس الآن من مدحهم لأنفسهم ومدحهم لغيرهم ، وأن هذه الأشياء حصلت بمجهودات فلان وبمهارة فلان وبكذا وكذا ، وفي الصحف والمجلات والإذاعات ثناء على المخلوقين ونسيان لله ﷺ ؛ حتى قل على ألسنتهم الشكر لله ، وأن هذا فضل من الله يُثنى على الإنسان بقدر جهده ولكن لا ينسب الأمر إليه ولا ينسب المحصول إليه وإنما يشكر الله وينسب إلى الله ﷺ ، فيقال : لولا الله ثم فلان ، لولا فضل الله ﷺ ثم فلان . يكون الأمر واضحاً على المنهج السليم ، أما إنه ينسى الله وتنسب الأشياء إلى المخلوق ويُعظَّم ويُطرا ، وكأن ليس لله ﷺ أيّ منّة . هذا كفران للنعمة .

(١) نعم ذكر تفاسير السلف لها ، والتفاسير وإن تنوعت فإنها لا تختلف ؛ لأن الآية تحتملها كلها . وهكذا الاختلاف بين المفسرين ، اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد فكل واحد من المفسرين يأخذ باحتمال من احتمالات الآية فإذا جمعتها وجدت أن الآية تدل عليها كلها .

(٢) هذا الذي حصل بسبب عملي وكدي وكسبي « وأنا محقوق به » : يعني مستحق له . هذا معناه إنكار نعمة الله ﷺ ونسبة هذا إليه .

(٣) المعنى واحد : « يريد من عندي » أي : أن حصوله من عندي وبسببي .

(٤) « على علم مني بوجوه المكاسب » وأني حاذق في التجارة والاقتصاد وعندي خبرة =

وقال آخرون : على علم من الله أني له أهل[1] . وهذا معنى قول مجاهد : أوتيته على شرف[2] . وليس ما ذكروه اختلافاً وإنما هو أفراد المعنى[3] .

قوله : وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى ، فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم مَلَكاً ، فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قد قَذَّرَني الناس به ، قال : فمسحه ، فذهب عنه قذره ، وأعطي لوناً حسناً وجلدً حسناً . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل – أو البقر – شك إسحاق ، فأعطي ناقة عُشَراء ، وقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرع فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عني الذي قذرني الناس به . فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطي شعراً حسناً . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : البقر – أو الإبل – فأعطي بقرة حاملاً قال : بارك الله لك فيها . قال : وأتى الأعمى فقال : أي شيء أحب

اقتصادية ومعرفة بالأسواق وبالعرض فيُرجع هذا إلى حذقه ومعرفته بوجوه المكاسب ولا يعترف لله ﷻ بفضل ومنَّة وكرم، تجد أفقر الناس من المتخصصين في الاقتصاد ، وتجد الذين لا يعرفون الاقتصاد ولا درسوه تجاراً كباراً ، فدل هذا أنه لا يرجع إلى مجهودات البشر وخبرة البشر ، إنما هذا من الله ﷻ ، ولكن مجهودات البشر ومعرفة البشر لا تعدو أن تكون أسباباً قد تترتب عليها مسبباتها وقد لا تترتب .

(١) في قوله : « على علم عندي » نسب العلم إلى نفسه . وأما هذا القول نسب العلم إلى الله ، وأن الله يعلم أني أستحق ولذلك أعطاني ، أو يرجع إلى القول الأول : أنا محقوق به أي : عَلِم الله أني محقوق به فأعطاني إياه ، وهذا لا يختلف عن القول الأول – قول مجاهد – .

(٢) « على شرف » : يعني على جاه وعلى شرف آبائه ونسبه .

(٣) أفراد المعنى ، أي : أن كل قول هو من مضمون الآية .

إليك ؟ قال : أن يرد اللهُ إلي بصري ؛ فأبصر به الناس ، فمسحه فرد اللهُ إليه بصره ، قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطي شاةً والداً ؛ فأنتج هذان وَوَلَّدَ هذا . فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

قال : ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين ، قد انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، والمال ، بعيراً أتبلغ به في سفري ، فقال : الحقوق كثيرة . فقال له : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذُرُك الناس فقيراً ، فأعطاك الله ﷻ المال ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، فقال : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، قد انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك . أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري . فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري ، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله . فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك ، وسخط على صاحبيك » أخرجاه(١) .

---

(١) هذا الحديث في الصحيحين ، وفي هذه القصة العظيمة أن ثلاثة نفر من بني إسرائيل - بني إسرائيل يعني ذرية يعقوب ﷺ ؛ لأن إسرائيل هو يعقوب - أبرص وأقرع وأعمى - أصحاب آفات - فالبرص : هو مرض جلدي يصيب الجلد فيتغير لونه إلى بياض ليس =

حسناً أو إلى سواد ، وغالباً البياض ، وترتفع الأدمة التي خلقه الله عليها ، ولا علاج لهذا المرض ولا يقدر الأطباء على علاجه ولهذا جعل الله شفاء الأبرص من معجزات عيسى ﷺ ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ [سورة المائدة : ١١٠] هذا من معجزات الأنبياء لا يقدر عليها إلا الله ، ولا تكون إلا للأنبياء معجزة . والأقرع : هو الذي لا يملك على رأسه شعر . هذا مشوه لأن الشعر على الرأس جمال ووقاية للرأس ، والثالث : أعمى ، والأعمى معروف ذهب بصره فأرسل الله مَلَكاً تصوَّر بصورة إنسان ، لئلا ينفر منه الناس ؛ لأن الملك لا يأتي للناس بصورته الملكية وإنما يأتيهم بصورة مثل صورتهم . فجاء إلى الأبرص فقال له : ما تريد فقال : أريد لوناً حسناً وجلداً حسناً هذا أهم شيء عنده ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به ، فمسحه الملك فذهب عنه البرص وجاءه لون حسن فقال : أي المال تحب ؟ قال : الإبل أو البقر شكٌّ من الراوي . هذا من دقتهم في الرواية أنهم لا يجزمون إذا كان فيها شك إبراء للذمة . فأعطاه ناقة عُشَراء : وهي التي مضى على حملها ٨ أشهر وقربت إلى الولادة هذه العشراء من الإبل وهي من أنفس الأموال ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ [سورة التكوير : ٤] ، ثم قال له : بارك الله لك فيها ، دعا له الـمَلَك بالبركة في المال ؛ لأن المال إذا لم تنزل فيه البركة فإنه لا ينمو ، فدعا له بالبركة هذا من باب الامتحان . ثم أتى إلى الأقرع فقال له : اي شيء تريد ؟ فقال له : شعر حسن ويذهب عني الذي قذرني الناس به فمسحه فذهب عنه القرع وصار له شعر على رأسه زالت عنه الآفة فقال له : أي المال تريد - زيادة الخير - فقال : أريد البقر أو الإبل فأعطاه بقرة حاملاً بولدها فقال له : بارك الله لك فيها ، ثم ذهب إلى الأعمى فقال : أي شيء تريد فقال : أن يرد الله عليَّ بصري فأبصر به الناس . فالبصر نعمة عظيمة فمسحه ورد الله عليه بصره ثم قال : أي المال أحب إليك قال : الغنم . فأعطاه شاة حاملة وقال له : بارك الله لك فيها فوقعت البركة على هذه الدواب الثلاثة ، وصار لكل واحد منهم وادي . نمت نمواً عظيماً واد من الإبل ، والثاني : واد من البقر ، والثالث : واد من الغنم ، فصاروا أغنياء أصحاء حلت عليهم النعمة ، ولكن ما زالوا الآن في دور الامتحان والاختبار ، ثم جاءهم للمرة الثانية هذا الاختبار ، جاء إلى الأول فقال له : رجل فقير وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال أي : الأسباب أو الحيال - بالياء - جمع حيلة . ولا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك وهذا هو التوحيد لم ينسب هذا إلى السبب بل نسبه إلى الله . أسألك بالذي

=

أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بعيراً أتبلغ به في سفري . قال : الحقوق كثيرة ، فقال له : كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فأعطاك الله جلداً حسناً ولوناً حسناً ، وكنت فقيراً فأغناك الله . ذكَّره بحاله من قبل ، ولكن لم ينتفع بالموعظة ، والعجيب أن الملك جاءه بصورته التي كان عليها ليذكِّره فقال : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت . دعا عليه الـمَلَك . ثم ذهب إلى الأقرع وطلب منه مثلما طلب من الأبرص ورد عليه الأقرع مثل ما رد عليه الأبرص فقال له : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت يعني فقيراً أقرع ، ثم ذهب إلى الأعمى وطلب منه المساعدة وعرض عليه حاله وفقره ، هو ليس بفقير ، هو ملك من الملائكة ولكن هذا من باب الاختبار ، فقال هذا الثالث : قد كنت أعمى ورد الله علي بصري وأعطاني هذا المال فخذ منه ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك بشيء أخذته لله .

هذا الشكر لله ﷻ فقال له الملك - يعني قد انتهى الامتحان وبقيت النتائج - : أمسك عليك مالك فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك . هذه النتيجة . فهذا سَلِم له ماله ورَضِيَ اللهُ عَنهُ بسبب هذا الكلام الطيب وهذا الشكر والاعتراف ، وأما الآخران فسخط الله عليهما ، فالحديث عظيم وفي الصحيحين وفيه فوائد :

أولاً : فيه ذكر القصص الصحيح لمن كان قبلنا لأجل لاعتبار والاتعاظ وليس القصص المجرد للتلهي ، ولا بالقصص المشبوهة ؛ بل القصص الصحيح الثابت الذي في القرآن وفي الحديث الصحيح فإن طالب العلم يذكره للناس ويشرحها لهم للعظة والاعتبار . فالرسول ﷺ قص على أصحابه هذه القصة العجيبة .

ثانياً : وفيه وصف الله ﷻ بأنه يرضى ويغضب وهما صفتان لائقتان به سبحانه كسائر صفاته ليست كصفات المخلوقين . فالمخلوق يرضى ويغضب والله يرضى ويغضب ، ولكن فرق بين صفات الخالق والمخلوق كما هي القاعدة المعروفة .

ثالثاً : ما ساق المصنِّف القصة من أجله وهي وجوب شكر النعم ، وأن كفر النعم يوجب غضب الله ويوجب العقوبة ، وأن شكر النعمة يوجب رضا الله ﷻ . وهذا هو الشاهد من القصة للباب . الله ﷻ يقول : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [سورة إبراهيم : ٧] ، قال ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٨ - ٢٩] ، وقال

وهذا حديث عظيم يبين حال من كفر النعم وحال من شكرها ، قال ابن القيم : (أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة ، فمن لم يعرف النعمة ؛ بل كان جاهلاً بها لم يشكرها ، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً ، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم فقد كفرها ، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرضى به وعنه لم يشكرها أيضاً ، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي عنه واستعملها في محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها[1] ، فلابد في الشكر من علم

سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [سورة النحل : ١١٢] هذه سنة الله ﷻ في الشاكرين أنه يرضى عنهم وهذا أعظم شيء ، رضا الله أفضل النعم وأعظمها ، قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [سورة التوبة : ٧٢] وتوجب البركة وتوجب بقاء المال وزيادته ونموه ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ وأن كفران النعم يسبب غضب الله ويسبب زوال النعم .

(١) الناس أقسام منهم من لا يعرف النعمة ولا يفكر فيما أعطاه الله فلا ينظر إلى ذلك ، وإنما ينظر إلى ما مع الناس ويتأسى ويتحسر أنه ليس مثل فلان وينسى ما أعطاه الله وما أنعم به عليه إنما ينظر إلى النعم التي مع الناس فلا يعرف النعمة ، ومنهم من يعرفها ولكن لا ينسبها إلى الله ، وإنما ينسبها إلى نفسه أو إلى غير الله ﷻ ، ومنهم من يعرفها ويعرف المنعم بها وهو الله ، لكنه لا يخضع لله ولا يستعملها لطاعته ، بل يستعملها لمعاصيه وفيما يغضبه فيستعين بنعم الله على غضب الله ومعاصيه وهذا غير شاكر للنعم . وأما الذي عرفها وعرف المنعم بها وذلّ لله وخضع له واستعملها لطاعته فهذا هو الشاكر ، ولكن هذا قليل ، قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سورة سبأ : ١٣] .

القلب وعمل يتبع العلم وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له) ا.هـ[1] .

قوله : « قد قذرني الناس به » أي : بكراهة رؤيته وقربه منهم[2] .

---

(١) كلام ابن القيم كلام عظيم .

(٢) لأن البرص مكروه عند الناس إذا رأوا الأبرص يتقززون من منظره .

٥٠ - باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف : ١٩٠]

قَالَ ابنُ حَزْمٍ : « اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعبَّدٍ لغَيْرِ الله ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو ، وَعَبْدِ الكَعْبَةِ ... وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، حَاشَا عَبدِ الـمُطَّلِبِ » .

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ ؛ قَالَ : « لَـمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ ؛ حَمَلَتْ ، فَأَتَاهُما إِبْلِيسُ ، فَقَالَ : إِنِّي صَاحِبُكُما الَّذِي أَخْرَجْتُكُما مِنَ الجَنَّةِ ، لَتُطِيعانِّني أَوْ لأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَي أَيِّلٍ فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ ، فَيَشُقُّهُ ، وَلأَفْعَلَنَّ ، وَلأَفْعَلَنَّ ؛ يُخَوِّفُهُما ، سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ ، فَخَرَج مَيِّتاً ، ثُمَّ حَمَلَتْ ، فَأَتَاهُما فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتاً ، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُما فَذَكَرَ لَـهُما ، فَأَدْرَكَهُما حُبُّ الوَلَدِ ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ [الأعراف : ١٩٠] » . رواهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ .

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ : عَنْ قَتَادَةَ ؛ قَالَ : « شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَـمْ يَكُنْ فِي عِبادَتِهِ » . وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ : عَنْ مُـجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] ؛ قَالَ : « أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَاناً » .

وَذُكِرَ مَعْنَاهُ عَنِ الـحَسَنِ ، وَسَعِيدٍ ، وَغَيْرِهِمَا .

٥٠ - باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ الآية

قوله: (باب قول الله تعالى : ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا(١)

(١) هذه قصة آدم وحواء عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ في آخر سورة الأعراف قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم =

مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [آية : ١٨٩] خلق آدم من تراب ، ومن طين ، ومن حمأ مسنون المعنى واحد أصله تراب ، ثم صار طيناً ، ثم صار حماً مسنوناً ، ثم خلق الله منه آدم بقدرته ﷻ من غير أب أو أم ، وأوجده من عدم . من التراب ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهي حواء ، خلقها الله من آدم ، من ضلعه الأيسر وهذا من عجائب قدرة الله ﷻ ، والحكمة في ذلك ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ليسكن الزوج إلى زوجه ، فيحصل السكن والطمأنينة . أما الرجل الذي ليست له زوجة فإنه لا يحصل له السكن الروحي والنفسي ، كذلك المرأة التي ليس لها زوج لا يحصل لها السكون النفسي والراحة ، إنما يحصل هذا بين الزوجين ، وهذا من أعظم مقاصد الزواج ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [سورة الروم : ٢١] ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ : يعني وطئها كما يفعل الزوج مع زوجته ، وهذا من مقاصد الزواج : قضاء الشهوة ، وطلب الولد . والزواج له مقاصد عظيمة كثيرة ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ ﴾ : علقت النطفة في رحمها ﴿ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ : هذا في أول أطوار الحمل للمرأة ، لا تحس به تماماً ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت ﴾ هذا في الطور الرابع ، لما نفخت فيه الروح أثقلت في الحمل وهذه عادة النساء ﴿ دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾ آدم وحواء ﴿ لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ أي : مولوداً سوياً ؛ لأنه في البداية كان يولد لهم أولاد ويموتون ولا يعيشون فطلبا من الله ﷻ ، وهذا فيه الرجوع إلى الله في طلب الحاجات ﴿ دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ أي : مولوداً سوياً يعيش ويبقى ﴿ لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ تعهدا بذلك لله ﷻ ، وهذا فيه شكر النعمة وأن الولد السوي بالخلقة أنه من نعم الله ﷻ : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا ﴾ أي : أجاب دعاءهما ورزقهما مولوداً سوياً أي : نجا من الموت وقت الولادة ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ أي : آدم وحواء ﴿ جَعَلَا ﴾ ما قال : شركاء مطلقاً ؛ بل قال : ﴿ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ يعني في هذا المولود ، ولكن حاشا وكلا على الأنبياء الشرك الأكبر ، وإنما هو شرك جزئي ﴿ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ ما صفة هذا الشرك ؟ وما هو سببه ؟ أما سببه فهو أن الشيطان أتاهما وقال : سمياه عبد الحارث أي : عبِّداه لغير الله والحارث هو الشيطان قيل : كان اسمه الحارث ، ثم إنه لما لُعن وطرد سمي إبليس قال : سمياه عبد الحارث أي : عبِّداه لغير الله وإلا سأعمل كذا وكذا

=

وأجعل له قروناً ثم يشق بطن أمه ثم تموت فلم يطيعاه في الأول فمات الولد ، ثم حملت مرة ثانية وأتاهم وقال مثل ما قال بالأول فأخذهما حب الولد فسمياه عبد الحارث لأجل أن يسلم من الشيطان ، فالله عتب عليهما ذلك ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ هذا هو الصحيح في تفسير الآية ، وهو الذي اختاره ابن جرير والشوكاني . والمؤلف هنا والشارح كلهم مشوا على هذا القول ، وأن المراد آدم وحواء . وذهب آخرون كابن كثير أن المراد ذرية آدم وليس آدم ولا حواء ؛ لأن آدم نبي ولا يقع منه هذا ، وحتى إن ابن كثير قال : لعل هذا من الإسرائيليات ، ولكن الصحيح هو القول الأول من السياق . فالسياق في آدم وحواء ظاهر وصرفه عن آدم وحواء تعسف لكن آخر الآية ﴿ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ هنا المراد به الذرية من باب الالتفات والانتقال من آدم إلى ذريته ، والسياق يقتضي هذا والضمائر كلها بالتثنية ، أي تدل على أن المراد آدم وذريته . أما ما نوع الشرك الذي حصل فهو شرك أصغر ، شرك في الطاعة فقط وليس شركاً في العبادة ولا في التأله ، فمن أطاع مخلوقاً في معصية الله فهذا نوع من الشرك يسمى شرك الطاعة وهو شرك أصغر ، والأنبياء قد تقع منهم الصغائر ، ولكنهم لا يُقرُّون عليها ؛ بل يتوبون منها فهم معصومون من الاستمرار على الصغيرة ، وليسوا معصومين من الوقوع في الصغيرة ، وما ذكر ذنب لنبي إلا وذكرت معه التوبة ، وهذا مطّرد في القرآن . ما ذكر أن نبياً وقع منه ذنب صغير ولم يتب أبداً ، هذا هو الصحيح في معنى الآية . والشاهد منها : أن تعبيد الاسم لغير الله نوع من الشرك كأن يقول عبد الحسين ، عبد الرسول ، عبد الكعبة ، عبد العزى ، وما أشبه ذلك ؛ لأن العباد عباد الله ﷻ . العبودية العامة والعبودية الخاصة . العبودية العامة : هي العبودية التي معناها أنهم خلق لله وملك لله ويتصرف الله ﷻ فيهم ، وهذه تشمل المؤمن والكافر ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [سورة مريم : ٩٣] كلهم عباد الله يتصرف فيهم كيفما يشاء ، ولا أحد يخرج عن أمر الله ﷻ القدري الكوني ، لا أحد يخرج عما يقضيه الله ويدبره عليه لا المؤمن ولا الكافر ولا الملائكة ولا غيرهم . لا أحد يخرج عن أقدار الله ﷻ ، فهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء ﷻ . والعبودية الخاصة هي عبودية الألوهية وهذه خاصة بالمؤمنين . هذه عبادة الألوهية والأولى عبادة الربوبية فقط .فتسمية المخلوق عبداً لغير الله هذا شرك في الربوبية وهو شرك الطاعة . هذا ما قيل في الآية وهذا هو الجواب لمن خالف أنها تعني آدم وحواء ففي

=

﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [1] ﴾) [سورة الأعراف : ١٩٠] **قال الإمام أحمد ﷺ : في معنى هذه الآية : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن إبراهيم ، حدثنا قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ، عن النبي ﷺ قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها - ولد فقال : سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش[2] ، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره » وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا سهل ابن يوسف ، عن عمرو ، عن الحسن ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ قال : كان هذا في بعض الملل ولم**

هذا تحريم تعبيد الأسماء لغير الله ، وأن هذا شرك سماه الله شركاً ؛ ولكنه شرك أصغر أما إذا أريد عبد المسيح أو عبد الحسين أو عبد الكعبة عبادة أي : أنه يعبد الحسين أو يعبد المسيح فهذا شرك أكبر ، ولهذا قال الإمام ابن حزم ﷺ : اتفقوا ، أي : أجمع العلماء على تحريم كل اسم معبد لغير الله حاشا عبد المطلب أي : استثنى عبد المطلب وهو جد الرسول ﷺ ؛ لأن الرسول قال :

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

في غزوة حنين فدل أن عبد المطلب لا يدخل في هذا . ولكن الواقع أن عبد المطلب ليس من التعبيد المحذور ، وإنما عبد المطلب له قصة : وهي أن عبد المطلب اسمه : شيبة بن هاشم بن عبد مناف ، ولكنه كان في زيارة لأخواله بني النجار في المدينة ، فذهب إليه عمه المطلب بن عبد مناف وجاء به من المدينة وهو صغير ، فأصابه سواد بسبب السفر ، تغيَّر لونه صار أسود ، فلما رأوه قالوا : هذا عبد للمطلب يعني مملوك له ، فظنوا أن المطلب جاء بهذا مملوكاً له وعبداً له وما عرفوه أنه من بني هاشم وظنوا أن المطلب اشتراه فقالوا : عبد المطلب فمضى يقال له : عبد المطلب من باب التلقيب لا من باب التسمية .

(١) ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ هذا ليس راجعاً إلى آدم وحواء ؛ لأنه ضمير جمع ، هذا راجع إلى الذرية ، وهذا يسمونه من باب الالتفات ، وهو أسلوب عربي .

(٢) ابتلاء وامتحان .

يكن بآدم » . وعن ابن عباس قال : « كانت حواء تلد لآدم ﷺ أولاداً فتعبِّدهم لله ، وتسميه عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت ، فأتاها إبليس وآدم فقال : أما إنكما لو تسمّيانه بغير الذي تسميانه به لعاش ، فولدت رجلاً فسمياه عبد الحارث ، ففيه أنزل الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ إلى آخر الآية » .

قوله : « قال ابن حزم »(١) هو عالم الأندلس أبو محمد علي بن أحمد ابن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري صاحب التصانيف ، توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة وله اثنتان وسبعون سنة . « اتفقوا على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله كعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب »(٢) قلت : وعبد المطلب هذا جد رسول الله ﷺ وهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وما فوق عدنان مختلف فيه ، ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن

---

(١) ابن حزم هو الإمام الجليل أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري مشهور من الأئمة المشهورين وإن كان يؤخذ عليه شدة اللسان ﷺ ويؤخذ عليه تمذهبه بالظاهرية ، وهو الأخذ بظواهر النصوص دون النظر في معانيها ، والقول بالقياس على العلل والذي خالفه فيه جماهير أهل العلم ، خالفوا الظاهرية وإلا فهو إمام جليل وبحر زاخر ومؤلفاته مشهورة من أعظمها « المحلى » .

(٢) يعني إلا عبد المطلب ؛ لأنه كما ذكرنا آنفاً ليس من باب التسمية ، وإنما من باب التلقيب أنهم لقبوه بعبد المطلب ظنوا أنه مملوك له بسبب سواده الذي رأوه عليه بسبب السفر .

إبراهيم الخليل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ[١] . حكى ﷺ اتفاق العلماء على تحريم كل ما عبِّد لغير الله ؛ لأنه شرك في الربوبية والإلهية ؛ لأن الخلق كلهم ملك لله[٢] ، وعبيد له استعبدهم بعبادته وحده وتوحيده في ربوبيته وإلهيته ، فمنهم من عبد الله وحده في ربوبيته وإلهيته ، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته ، وأحكامه القدرية جارية عليهم ولابد ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [سورة مريم : ٩٣] فهذه هي العبودية العامة ، وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة كما قال الله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ ونحوها .

قوله : « حاشا عبد المطلب » هذا استثناء من العموم ؛ لأنه ليس المقصود منه عبودية الرق ، وإنما هو اسم علق به لما أتى به عمه المطلب من عند أخواله بني النجار من المدينة ، وهو صبي فرأته قريش حين جاء به وقد تغير لونه من السفر فقالوا : عبدَ المطلب ، ثم تبين لهم أنه ابن أخيه هاشم فصارت العبودية في هذا الاسم لا حقيقة لها ولا قصد ، لكن غلب عليه فصار لا يسمى إلا به ، وإلا فاسمه في الأصل شيبة ، وقد صار عبد المطلب معظماً في قريش والعرب فهو سيد قريش وأشرفهم في جاهليته ، وهو الذي حفر زمزم ، وما جرى له في حفرها مذكور في السير ، وكتب الحديث وصارت السقاية له وفي ذريته .

قال شيخنا[٣] في معنى قوله : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ

---

(١) كلنا العدنانيون من ذرية إسماعيل ﷺ . وأما القحطانية من العرب العاربة وهؤلاء يقال لهم العرب المستعربة .

(٢) شرك في الربوبية هذا بلا شك ، وإذا قصد العبودية صار في الألوهية أيضاً .

(٣) يقصد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وهذا ذكره الشيخ في المسائل .

ءَاتَىٰهُمَا ﴾ : إن هذا الشرك بمجرد تسميته لم يقصدا حقيقته التي أرادها إبليس منهما ، وهذا يزيل الإشكال ، وهذا معنى قول قتادة : « شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته » .

٥١ - باب قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ [الأعراف : ١٨٠]

ذَكَرَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] : « يُشْرِكُونَ » .

وَعَنْهُ : « سَمُّوا اللَّات مِنَ الإِلٰـهِ ، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ » .

وَعَنِ الأَعْمَشِ : « يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا » .

٥١ - باب قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾

قوله : (باب قول الله تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ الآية)[1] [سورة الأعراف : ١٨٠] .

---

(١) لما كان هذا الكتاب كتاب التوحيد ، وذكر فيه الشيخ تحقيق توحيد العبادة ، توحيد الألوهية ، ناسب أن يذكر توحيد الأسماء والصفات ؛ لأن التوحيد ثلاثة أقسام : توحيد الألوهية ، توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات . أما توحيد الربوبية فهذا أقر به غالب العالم ولم ينكروه ، والله ﷻ يذكره في القرآن من باب إلزام المشركين ، فإنهم لما اعترفوا بتوحيد الربوبية فإنه يلزمهم أن يعترفوا بتوحيد الألوهية فهذا من باب الإلزام لهم ؛ لأن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية ، وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية . فمن أقرَّ بالألوهية فقد أقر بالربوبية تضمناً ، وأما من أقرَّ بالربوبية فلا يكون مقراً بالألوهية ولكن يلزمه ذلك ، ومن توحيد الربوبية توحيد الأسماء والصفات ، لكن العلماء جعلوه قسماً ثالثاً ؛ لأنه حصل فيه اختلاف من الجهمية والمعتزلة وأتباعهما من الفرق ، فكان لابد من إفراده بالبحث والرد على هؤلاء المخالفين وإلا فإنه في الحقيقة داخل في توحيد الربوبية ، ولذلك بعض العلماء يقول : التوحيد نوعان : توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية فيدخلون توحيد الأسماء والصفات في توحيد الربوبية ، وإنما أفرده =

المتأخرون لما حصل فيه من الاختلاف من بعض الفرق ، فهذا الكتاب جاء يبين توحيد الألوهية ؛ لأنه هو المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب وهو الذي حصل فيه الخلاف بين الرسل وأتباعهم وبين المشركين والكفار من الأمم ، والكتاب يدور على هذا النوع : توحيد الألوهية ، توحيد العبادة ، ولكن لما كان هناك فِرَقاً تخالف في توحيد الأسماء والصفات ناسب أن يعقد المصنف لهذا النوع أبواباً منها هذا الباب ، ومنها ما سبق احترام أسماء الله وتغيير الاسم من أجل ذلك ، والنهي عن التسمي بقاضي القضاة إلى آخره ، هذا كله من نوع توحيد الأسماء والصفات .

وقوله هنا : باب قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ أي : ما جاء في تفسير هذه الآية مما ذكره الشيخ في هذا الباب من بيان معنى الإلحاد في أسماء الله ، فهذه الآية تتضمن معاني جليلة :

المعنى الأول : فيها إثبات الأسماء لله ﷻ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ﴾ هذا إثبات من الرب ﷻ ، ففيه الرد على من نفى أسماء الله وصفاته من الجهمية ومن تبعهم .

المعنى الثاني : فيها أن أسماء الله حسنى ، فليست مجرد أسماء أو ألفاظ كما تقول المعتزلة ليس لها معاني ؛ بل هي أسماء حسنى بمعنى أنها تتضمن معاني جليلة ، وكل اسم منها يدل على صفة من صفات الله ﷻ . فالعليم يدل على العلم ، والحكيم يدل على الحكمة ، والسميع يدل على إثبات السمع ، والبصير يدل على إثبات البصر ، وهكذا كل اسم يدل على صفة من صفات الله ﷻ ولهذا صارت حسنى وليست مجرد ألفاظ بدون معاني .

المعنى الثالث : فيها مشروعية التوسل إلى الله بها . والتوسل : يعني التقرب إلى الله ﷻ بها وذلك بأن يُدعَى بأسمائه ويُتوسل إليه بأسمائه : يا رحمن يا رحيم ، يا حي يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام . فتدعو الله بأسمائه وصفاته ؛ لأن هذا سبب للإجابة ﴿ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ أي : توسلوا إلى الله بها في دعائكم ؛ لأن هذا سبب في الإجابة . والتوسل معناه التقرب والوسيلة : هي السبب الذي يتقرب به إلى الله ﷻ ، وليست الوسيلة ما يقوله المخرفون والقبوريون من أن الوسيلة أن تجعل بينك وبين الله واسطة من الصالحين يتوسط لك عند الله ويشفع لك عند الله تلتجيء إلى المخلوق أن يشفع لك عند الله ويرفع حوائجك إلى الله - تعالى الله عما يقولون - فكأن الله لا يستجيب ولا يسمع ولا يعلم إلا بواسطة هؤلاء الوسائل التي يتخذونها ، كما قال المشركون من قبل ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ

=

أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [سورة الزمر : ٣] كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة يونس : ١٨] ويتخذون وسائط بينهم وبين الله من الملائكة والرسل والصالحين ، يزعمون أنهم يقربونهم ، حتى الأصنام لا يعبدونها لذاتها لأنهم يعلمون أنها أحجار واشجار لكن يقولون : هذه تقربنا إلى الله ، هذه الواسطة بيننا وبين الله - تعالى الله عما يقولون - الله ﷻ يقول : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [سورة غافر : ٦٠] ما قال : ادعوني بواسطة فلان أو علان ؛ بل أمر بدعائه مباشرة ، وإنما الوسائط والشفعاء يتخذون عند المخلوقين ، عند الملوك من الخلق والسلاطين الذين لا يعلمون أحوال الرعية حتى يأتي من يبلغهم ومن يؤثر عليهم فيقبلون شفاعته ووساطته ، أما الله ﷻ فإنه يعلم السر وأخفى ، ويعلم كل شيء ليس بحاجة إلى أن تجعل بينك وبينه واسطة ، وإذا قالوا : إن هؤلاء صالحون ولهم مكانة عند الله نقول : نعم رجال صالحون ولهم مكانة عند الله ، ولكن الله لم يشرع لنا أن نتوسل بهم فصلاحهم وأعمالهم لهم وليست لكم ، ادعوا الله أنتم بأعمالكم ، وتقرَّبوا إلى الله بأعمالكم ولا تتقربوا إلى الله بأعمال غيركم . الله ﷻ يقول : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٣٤] فلا ينفعك صلاح فلان أو صلاح علان ، إنما ينفعك صلاحك أنت ودعاؤك أنت ، وهذا هو الذي يريده الله منك ولم يرد منك أن تجعل بينك وبين الله واسطة ، هذه وسيلة باطلة شركية أو بدعية ما أنزل الله بها من سلطان ، وأما قوله ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [سورة المائدة : ٣٥] وقوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [سورة الإسراء : ٥٧] . الوسيلة : هي التقرب إلى الله بالطاعة ﴿ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ أي : تقربوا إليه بطاعته ﷻ وليس معناها الوسائط التي يظنها القبوريون والمشركون من قبل . فالتوسل على نوعين : توسل ممنوع وتوسل مشروع . **النوع الأول** : التوسل الممنوع : هو هذا التوسل الذي يتخذه المشركون قديماً وحديثاً من جعلهم وسائط بينهم وبين الله من الموتى والصالحين وغير ذلك .

النوع الثاني : التوسل المشروع : وهو التقرب إلى الله ﷻ بما شرع وهو أنواع :

أولاً : التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته كما في هذه الآية ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾

=

[سورة الأعراف : ١٨٠] أي : توسلوا إلى الله بها ، يعني تناديه باسمه يا رحمن يا رحيم ، يا غفار يا رزاق ، يا حي يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام ، تدعوه بأسمائه وتطلب منه حوائجك .

ثانياً : التوسل إليه بالأعمال الصالحة ، أعمالك أنت وليس أعمال غيرك ، كما توسل أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة وسدت عليهم باب الغار ففكروا فاهتدوا إلى أنه لا ينجيهم من هذا إلا التوسل إلى الله بأعمالهم ، فالأول توسَّل ببرِّه بوالديه ، والثاني توسل إلى الله بتركه الحرام بعد ما تمكن منه خوفاً من الله . والثالث توسل بحفظه لأجرة الأجير لما تركها عنده حفظها ونماها له إلى أن جاء ودفعها إليه فاستجاب الله لهم وزحزح عنهم الصخرة وخرجوا(*) . هذا توسل إلى الله بالأعمال الصالحة وهو في القرآن كثير ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾ هذا توسل ﴿ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٣] ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩٣] هذا توسل إلى الله بالإيمان بالله وبرسوله .

ثالثاً : التوسل إلى الله بالفقر والفاقة والحاجة إلى الله بأن تشكو إلى الله حاجتك وفقرك ومرضك ، كما قال أيوب : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٨٣] توسل إلى الله بحالته وبمرضه وبرحمة الله ﷻ . موسى ﷺ قال : ﴿ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [سورة القصص : ٢٤] توسل إلى الله ﷻ بفقره وحاجته إلى الله ﷻ .

رابعاً : التوسل إلى الله ﷻ بالتوحيد مثل ما توسل ذي النون ﷺ وهو في لجة البحر في بطن الحوت ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٨٧] . توسل إلى الله بأمرين : أولاً : التوحيد ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ ثانياً : الاعتراف بذنبه ﴿ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ اعترف بذنبه هذا توسل إلى الله ﷻ .

خامساً : التوسل إلى الله بدعاء الصالحين الأحياء الموجودين بأن تطلب من عبد صالح أن يدعو لك مثل ما توسل عمر بدعاء العباس في الاستسقاء(**) ؛ لأنه عم الرسول ﷺ ،

(*) حديث أصحاب الغار أخرجه البخاري في « صحيحه » ٢ / ٧٩٣ (٢١٥٢) .

(**) أخرجه الطبراني في كتاب « الدعاء » ص ٣٠٠ (٩٦٥) .

وتوسل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيزيد بن الأسود الجرشي(*) يعني بدعاء هؤلاء لأنهم رجال صالحون ودعاؤهم أقرب إلى الإجابة فتطلب من عبد صالح أن يدعو لك هذا لا بأس به ، وقال النبي ﷺ لعمر ؛ لما أراد عمر أن يسافر للعمرة لما ودَّعه الرسول ﷺ قال له : « لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك »(**) لا بأس أنك تطلب من أحد أن يدعولك . هذا من التوسل المشروع دعاء الصالحين الأحياء ، أما الأموات فلا يطلب منهم شيء لادعاء ولا غيره لكن إذا كان عبداً صالحاً يسمع طلبك ويقدر على الدعاء ، تطلب منه أن يدعو لك . فهذه أنواع من التوسل المشروع جاءت بها الأدلة .

المعنى الرابع : في الآية النهي عن الإلحاد في أسماء الله وصفاته ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ اتركوهم هذا وعيد ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ والإلحاد في اللغة : هو الميل ومنه اللحد في القبر ؛ لأنه مائل عن سمت القبر . والإلحاد : الميل في اللغة ، والمراد به هنا الإلحاد في أسماء الله . والإلحاد في أسماء الله أنواع :

النوع الأول : جحدها ونفيها كما تقول الجهمية .

النوع الثاني : جحد معانيها وإثبات ألفاظها وتأويلها بغير معانيها الصحيحة ، كما هو عند المعتزلة والأشاعرة والمؤولة هؤلاء ألحدوا في معانيها أثبتوا ألفاظها ولكنهم نفوا معانيها .

النوع الثالث : أن يدخل فيها ما ليس منها ؛ لأن أسماء الله توقيفية لا يجوز أن يسمى الله إلا باسم أثبته لنفسه في كتابه أو أثبته له رسوله ﷺ في سنته ولا ندخل من عندنا أسماء لله ونخترع من عندنا أسماء لله لم يأت بها كتاب ولا سنة لأن أسماء الله توقيفية . هذا من الإلحاد إدخال شيء فيها زيادة على ما ذكره الله في كتابه وسنة رسوله ، مثل : الموجود أو القديم هذا ليس من أسماء الله ﷻ ، أو الدهر يسمى الله بالدهر وليس من أسمائه الدهر . هذا من الإلحاد وإن قال به من قال من الأئمة مثل ابن حزم رحمه الله من الإلحاد في أسماء الله أن يدخل فيها ما ليس منها .

النوع الرابع : تسمية بعض المخلوقات بها مثل ما قالوا إن اللات مأخوذة من الله والعزى مأخوذة من العزيز ومناة مأخوذة من المنان فاشتقوا لأصنامهم أسماء من أسماء الله هذا

(*) أخرجه الفسوي في « المعرفة والتاريخ » ٢ / ٣٨١ ، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في « الإصابة » ٣ / ٦٣٤ ، والألباني في كتابه « التوسل أنواعه وأحكامه » ص ٤١ .

(**) أخرجه أبو داود في « سننه » ٢ / ١٦٩ (١٤٩٨) ، وضعفه الألباني .

أراد ﷫ بهذه الترجمة الرد على من يتوسل بذوات الأموات[1] ، وأن المشروع هو التوسل بالأسماء والصفات والأعمال الصالحة[2] .

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً[3] من أحصاها[4] دخل الجنة وهو وتر يحب

من الإلحاد في أسماء الله ﷻ .

وسيذكر الشيخ ﷫ بعض كلام السلف في معنى الإلحاد فيها ، وهو يدور على هذه المعاني .

(١) هذا التوسل شرحناه وبينا ما هو حق وما هو باطل .

(٢) ذكر الشارح نوعين من التوسل المشروع :

النوع الأول : توسل إلى الله بالأسماء والصفات وهذا أخذاً من الآية ﴿ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ .

النوع الثاني : التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة ، وهذا أيضاً عليه أدلة من الكتاب والسنة أن تتوسل إلى الله بأعمالك الصالحة وأما أعمال غيرك فلا تتوسل بها ؛ لأنها ليست لك ولا ينفعك صلاح غيرك .

(٣) قال ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً » ، والآية يقول الله فيها ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٠] عامة والنبي ﷺ ذكر في هذا الحديث أن من هذه الأسماء تسعة وتسعين اسماً من أحصاها أي : عرفها ودعا الله بها دخل الجنة . وهذه التسعة والتسعين غير معينة ، لكنها والله أعلم هي الموجودة في القرآن ، ولهذا اجتهد العلماء ﵏ في أخذها من القرآن وشرحوها كما فعل ابن القيم في « النونية » ، وكما فعل غيره وألّفوا في هذا كتباً سموها أسماء الله الحسنى وشرحوها هذا من باب الاجتهاد والأخذ من القرآن ، لكن لم يرد في بيانها حديث ينص عليها ولكن بلاشك أن كل ما ذكره الله في القرآن فهو من الأسماء الحسنى .

(٤) « من أحصاها » ما معنى أحصاها ؟ يعني عدَّها ، وعرف معانيها ، وعمل بها ، تعامل مع الله بموجب هذه الأسماء والصفات ، وليس المراد أنه يعدها ويكتبها فقط ، لكن المراد أنه يعرف معانيها ويعمل بها ويتوسل إلى الله بها هذا معنى إحصائها ، وإلا لو كان القصد مجرد عدِّها أو كتابتها هذا جهل ، ثم أيضاً ليست أسماء الله محصورة في هذه التسعة والتسعين ، والنبي ﷺ لم يحصرها بها ، وإنما هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل =

الوتر »(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان .

وأخرجه الترمذي في « جامعه » عن الجرجاني ، عن صفوان بن صالح ، عن الوليد بن مسلم ، عن شعيب بسنده مثله وزاد بعد قوله : « وتر يحب الوتر » « هو الله الذي لا إلـٰه إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض الباسط ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ،

الجنة ، وإلا فالله له الأسماء لا يعلمها إلا هو ، كما قال ﷺ في دعائه : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك »(*) فدل على أن هناك أسماء استأثر الله بها في علم الغيب ولم يعلمها أحدٌ من خلقه ، ودل على أن أسماء الله لا تعد ولا تحصى ، ولكن منها هذه التسعة والتسعين التي هذه صفتها .

(١) الوتر ضد الشفع ، فالله ﷻ فرد واحد أحد صمد ، وهو يحب الوتر في الأشياء : الوتر في صلاة الليل « يا أهل القرآن أوتروا فإن الله وتر يحب الوتر »(**) الوتر في العبادة ، الوتر حتى في الأكل كان النبي ﷺ يأكل وتراً يعني ثلاث أو خمس أو سبع يعني يقطعها على وتر ، وصلاة الليل يقطعها على وتر ، وفيه إثبات المحبة لله ﷻ ، وأنه يحب محبة تليق بجلاله ﷻ ، فيحب الأعمال الصالحة ويحب عباده الصالحين ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب المحسنين .

(*) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » - كما في « الإحسان » - وصحح إسناده الأرنؤوط .

(**) أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » ٢ / ٢٢٣ (٨٧٧) ، وقال الأرنؤوط : إسناده قوي .

المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدئ ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعال ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المعطي ، المانع ، النافع الضار ، النور ، الهادئ ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » ، ثم قال الترمذي : ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء الحسنى إلا في هذا الحديث(١) .

والذي عند بعض الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج(٢) .

هذا ما ذكره العماد ابن كثير في « تفسيره » ثم قال : (ليعلم أن الأسماء ليست منحصرة في تسعة وتسعين(٣) بدليل ما رواه أحمد عن يزيد ابن هارون ،

---

(١) نعم هذا التعداد للأسماء لم يثبت عن النبي ﷺ وإنما هو مدرج في الحديث من بعض الرواة ، وأغلب هذه الأسماء موجود في القرآن ، لكنه لم يَرِدْ بهذا التعداد وهذا الإحصاء للرسول ﷺ ، وإنما هو من عمل بعض الرواة وأدرج في الحديث ، لكن أسماء صحيحة وأغلبها من القرآن الكريم . فالحديث الصحيح ينتهي عند قوله : « وتر يحب الوتر » .

(٢) مدرج بمعنى ما كان من كلام الراوي ، وليس من كلام الرسول ﷺ . هذا المدرج عند المحدثين .
والإدراج معروف عند الحفاظ ، يكون من باب التفسير للحديث ، وليس هو من نص الحديث ، وإنما هو تفسيرٌ له ويكون من الراوي غالباً .

(٣) لا يقع في ذهنك أن أسماء الله تسع وتسعين فقط بل أسماء الله كثيرة منها هذه التسع والتسعين والرسول ﷺ لم يحصرها فيه ، وإنما أخبر أن من أحصى هذه التسع والتسعين يدخل الجنة ولم يقل : أنه ليس لله غيرها .

عن فضيل بن مرزوق ، عن أبي سلمة الجهني ، عن القاسم ابن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود ، أن النبي ﷺ قال : « ما أصاب أحداً قطٌّ هم ولا حزن ، فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً ، فقيل : يا رسول الله ألا نتعلمها ؟ فقال : بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها »[(١)] . وقد أخرجه أبو حاتم ابن حبان في « صحيحه » .

قوله : وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٠] قال : يشركون[(٢)] .

وقال ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الإلحاد : التكذيب[(٣)] .

قلت : والشرك تكذيب من المشرك بما أنزله الله في كتابه وبعث به

---

(١) يعني هذا الدعاء أن يتعلم هذا الدعاء ويدعو به والشاهد : « أو استأثرت به في علم الغيب عندك » فدل على أن لله أسماء لم يبيِّنها لعباده ؛ بل إنه استأثر بها سبحانه في غيبه الذي لا يعلمه إلا هو .

(٢) الشرك إلحاد ودعاء غير الله إلحاد في أسماء الله ؛ لأن الذي يُدعى هو الله ﷻ ، فإذا دُعي معه غيره فهذا إلحاد ؛ لأنه مال بالعبادة عن مستحقها إلى من لا يستحقها ، والإلحاد هو الميل .
والشرك هو أعظم أنواع الإلحاد ؛ لأنه ميل عن من يستحق العبادة إلى من لا يستحقها .

(٣) يكذب بها هذا النفي وقلنا : إن أول أنواع الإلحاد في أسماء الله نفيها ؛ لأن النافي مكذب بها .

رسوله[١] ، كما جرى من قريش وغيرهم مع النبي ﷺ وأصحابه ، وكما جرى من المشركين من هذه الأمة ، فلم يأخذوا بالآيات المحكمات في تحريم الشرك والنهي عنه ؛ بل كذبوا بالصدق واعتمدوا على الكذب على الله وعلى كتابه ورسوله .

وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد والميل ، قال ابن القيم ﷺ :

وحَقِيقَةُ الإلْحادِ فيهَا المَيْلُ بالـ ... إِشْرَاكِ والتَّعْطِيل والنُّكْرانِ

وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف دلت على كماله ﷻ[٢] .

والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة متقدمهم ومتأخرهم إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل[٣] .

كما قال الله سبحانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى : ١١] ، وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات[٤] يحتذي

(١) هذا وجه تسمية الشرك إلحاداً لأنه مكذب لله ؛ لأن الله أمر بتوحيده ، والمشرك كذَّب الله ﷻ ، فهذا إلحاد . فكل مشرك ملحد ؛ لأنه مكذب لله ولرسوله ولإجماع المسلمين .

(٢) كل اسم يدل على صفة هذا من كمالها وكونها حسنى .

(٣) « إثباتاً بلا تمثيل » رد على الممثلة والمشبهة ، « وتنزيهاً بلا تعطيل » رد على المعطلة من الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، وهذا يدل عليه قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ هذا رد على المشبهة ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ هذا رد على المعطلة .

(٤) وكون هذه الأسماء قد يسمى بها بعض المخلوقين مثل : الملك والعزيز ورؤوف ورحيم فليس معنى ذلك أنها تتساوى في الكيفية والحقيقة ، وإن اشتركت في اللفظ والمعنى لكنها تختلف في الحقيقة والكيفية أسماء الله تليق به وأسماء المخلوقين تليق بهم ، كذلك الصفات لله =

حذوه ، فكما أنـه يجـب العلـم بـأن لله ذاتـاً حقيقـة لا تـشبه شـيئاً مـن ذوات المخلوقين فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين(١) .

فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ، أو تأوّله على غير ما ظهر من معناه فهو جهمي قد اتبع غير سبيل المؤمنين(٢) .

وهي موجودة في المخلوقين مثل : السمع والبصر والعلم فلا يقتضي هذا التشبيه ؛ لأن ما يسند إلى المخلوقين فهو يليق بالمخلوقين ، وما يسند إلى الله فهو يليق بالله ولا تشابه بين ذلك .

(١) نعم الكلام في الصفات مثل الكلام في الذات ، كما أن لله ذاتاً حقيقية فله أسماء وصفات حقيقية لا تشبه ذوات المخلوقين ولا تشبه صفات المخلوقين ، فإذا قال لك المعطل : بيّن لي كيفية صفات الله ﷻ ؟ فقل له : بيّن لي كيفية ذات الله ؟ فإذا قال لك : لا أعرف ذات الله . فقل له : كذلك أنا لا أعرف كيفية صفات الله ؛ لأن كيفية الصفات مثل كيفية الذات ؛ ولهذا لما سأل رجل الإمام مالك ﷺ فقال : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [سورة طه : ٥] كيف استوى ؟ هو لم يسأل عن المعنى سأل عن كيفية الاستواء فقال له مالك : « الاستواء معلوم . يعني معناه معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة »(*) فليس معنى أننا إذا أثبتنا أن لله الأسماء والصفات أننا نعرف كيفيتها وحقيقتها وإن كنا نعرف معناها ففيه فرق بين معرفة المعنى ومعرفة الكيفية . المعنى يُعلم ؛ ولهذا قال مالك ﷺ : الاستواء معلوم وأما الكيفية فلا نعلمها ولهذا قال : والكيف مجهول فهذا فصل في المسألة . إذاً الذي يريد أن يغالط ويسأل عن الكيفية فإنك ترد عليه بأن هذا الأمر لا يعلمه إلا الله ﷻ ، الله ﷻ يقول : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴾ لا يحيط الخلق بالله ﷻ علماً ولا يحيطون بذاته وكيفيته ﷻ .

(٢) فالذين ألحدوا في أسماء الله وصفاته بالنفي لها ، أو بالنفي لمعانيها هؤلاء هم الجهمية ومن سـار في ركابهم من المعتـزلة والأشـاعرة . كل من دخـل في مجال التـأويل وصرف هـذه

(*) أخرجه اللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » ٣ / ٣٩٨ ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » ص ٤٠٨ ، وجوّد الحافظ ابن حجر طريق ابن وهب عند البيهقي . انظر : « فتح الباري » ١٣ / ٤٠٦ .

قال العلامة ابن القيم ﷺ : (فائدة جليلة : ما يجري صفة أو خبراً على الرب تعالى أقسام : أحدها : ما يرجع إلى نفس الذات كقولك ذات وموجود[١] .

الثاني : ما يرجع إلى صفات معنوية كالعليم والقدير السميع والبصير[٢] .

الثالث : ما يرجع إلى أفعاله كالخالق والرازق[٣] .

الرابع : التنزيه المحض ولابد من تضمنه ثبوتاً[٤] إذ لا كمال في العدم المحض كالقدوس ، السلام .

الخامس : ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال على جملة أوصاف لا تختص بصفة معينة ، بل هو دال على معاني ، نحو المجيد العظيم الصمد ،

الصفات عن معناها الصحيح إلى معاني ابتدعوها من عندهم ما أنزل الله بها من سلطان هذا إلحاد ، وأصل البلاء من الجهمية ثم توارثته الفرق التي جاءت من بعدهم .

(١) وهذا لا علم لنا به نثبته لكن لا نعلم كيفيته .

(٢) هذا نعرف معانيه لكن لا نعرف كيفيته .

(٣) صفات الأفعال وهي الخلق والرزق والمشيئة والكلام هذه صفات أفعال ، هذه أيضاً نثبتها لله كما جاءت معترفين بما تدل عليه من المعاني ، لكننا لا نخوض في الكيفية .

(٤) التنزيه المحض يعني الخالص ، تنزيه أسماء الله وصفاته عن مشابهة المخلوقين ، لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [سورة الشورى : ١١] ننزه الله عن صفات المخلوقين ، وعن أسماء المخلوقين ، فإنها تختلف في حقيقتها وكيفيتها ، ولكن ليس المراد بالتنزيه : التنزيه المطلق ؛ بل التنزيه الذي يتضمن إثباتاً مثل : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ هذا نفي لكنه يتضمن كمال الحياة فكل نفي جاء في أسماء الله وصفاته فإنه يتضمن مدحاً وليس هو نفياً محضاً .

فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال(١) ، ولفظه يدل على هذا فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة ، فمنه استمجد المرخ والعفار ، وأمجد الناقة : علفها ، ومنه ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾ [سورة البروج : ١٥] صفة للعرش بسعته وعظمته وشرفه(٢) .

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمنا ﷺ(٣) ؛ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه(٤) .

---

(١) هناك أسماء تتضمن معاني كثيرة مثل : الحي القيوم ، فالحي يتضمن صفات الذات ، كل صفات الذات ترجع إلى الحي . والقيوم يتضمن صفات الأفعال ، فكل أفعال الله ترجع إلى القيوم ، فالقيوم له عدة معاني ، والحي له عدة معاني مثل المجيد يتضمن عدة معاني .

(٢) ذو العرش المجيد قرئ ذو العرشِ المجيدِ بالإضافة بالكسرة على الإضافة ، فيكون الوصف للعرش أنه مجيد ومعنى العرش المجيد : أي : الواسع الذي لا يعلم سعته إلا الله ﷻ .
وقرئ بالرفع ذو العرش المجيد على أنه صفة لله ﷻ ، فيكون المجيد صفة لله .

(٣) كما علمنا ﷺ كيف نصلي على الرسول ؛ لأن الصحابة سألوه قالوا : إن الله علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك ؟ فقال قولوا : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد »(*) فجاء لفظ المجيد في الصلاة الإبراهيمية ؛ لأن لفظ المجيد من الألفاظ المتعددة المعاني الواسعة .

(٤) لسعة المجيد ؛ لأنه كثير العطاء .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢٣٣٨ (٥٩٩٦) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٣٠٥ (٤٠٦) .

فجاء في هذا المطلوب اسم يقتضيه كما تقول : اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ، فهو راجع إلى التوسل بأسمائه وصفاته[1] .

وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه[2] .

ومنه الحديث الذي في « المسند » والترمذي : « ألظوا بياذا الجلال والإكرام »[3] .

ومنه : « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إلـٰه إلا أنت[4] المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام » فهذا سؤال له وتوسل إليه بحمده وأنه لا إلـٰه إلا هو المنان فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته فما أحقَّ ذلك بالإجابة وأعظمه موقعاً عند المسئول[5] وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد .

---

(١) وإذا دعوت الله بالأسماء والصفات فإنك تدعو الله بالاسم المناسب تقول : اللهم اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم ، اللهم ارحمني برحمتك التي وسعت كل شيء ، يا غفور اغفر لي ، يا رحيم ارحمني ، يا تواب تب عليّ تدعو الله بالاسم المناسب لحاجتك ولا تقول : اللهم اغفر لي إنك شديد العقاب ، هذا غير مناسب ، تقول : اللهم انتقم من الكفار وأعداء الدين فإنك شديد العقاب ، إنك عزيز ذو انتقام . هذا الذي يناسب إذا دعوت على أحد من أعداء الله فتأتي بالاسم المناسب ، وإذا دعوت لأحد فإنك تأتي بالاسم المناسب ، ولا تستعمل هذا محل هذا . تنبه لهذا فإن هذا من الفقه في أسماء الله وصفاته ، أنك تستعمل لكل مقام ما يناسبه من الأسماء ؛ لأن هذا أقرب للإجابة .

(٢) ولا تقل : اللهم انتقم من أعدائك الكفار إنك أرحم الرحمين ، هذا لا يناسب الانتقام . قل : إنك عزيز ذو انتقام ، إنك قهار جبار . تأتي بالأسماء الدالة على الانتقام والبطش والجبروت في مقام الدعاء على أعداء الله ورسوله .

(٣) ألظوا يعني أكثروا من الدعاء بهذين الاسمين : ياذا الجلال والإكرام .

(٤) هذا توسل إلى الله ﷻ بأن له الحمد ، وأنه لا إلـٰه إلا هو ، توسل إلى الله بالتوحيد .

(٥) وهو الله ﷻ .

السادس : صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر(١) وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد ، الغفور القدير ، الحميد المجيد ، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن فإن الغنى صفة كمال والحمد كذلك واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر ، فله ثناء من غنائه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما ، وكذلك الغفور القدير ، والحميد المجيد ، والعزيز الحكيم ، فتأمله فإنه من أشرف المعارف)(٢) .

---

(١) نعم هناك أسماء تكون مقترنة لا تدعو بواحد منها ، بل تدعو بها مقترنة وهو الغفور الودود والمناسبة : أن الله يجمع بين هذين الوصفين بين المغفرة والود فهو يغفر للعبد ومع هذا يحبه ، بخلاف غير الله فإنه قد يغفر ويسمع لكن لا يحب من تسامح عنه أما الله ﷻ فإنه مع مغفرته وتوبته على عبده يحبه ويوده . هذا هو السر في الجمع بين هذين الاسمين . وهناك أسماء متقابلة فلا تدعو بواحد وتترك الآخر ، مثل : الخافض الرافع . القابض الباسط ، فلا تقل : يا قابض فقط يا باسط فقط ، بل تدعو بالاثنين : يا قابض يا باسط ، وهكذا أسماء متقابلة : الأول والآخر ، والظاهر الباطن ، لا تأتي بأحدهما في الدعاء ؛ بل تأتي بالاثنين مقترنين .

(٢) العزيز الحكيم . العزيز : هو القوي المنيع . الحكيم : يضع قوته في الموضع اللائق هذا هو الحكمة وهو وضع الشيء في موضعه .

٥٢ - بَاب لاَ يُقَالُ : السَّلاَمُ عَلَى الله

فِي « الصَّحِيحِ » عَنِ ابنِ مسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قَالَ : كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الصَّلاَةِ ؛ قُلْنَا : السَّلاَمُ عَلَى الله مِنْ عِبَادِهِ ، السَّلاَمُ عَلَى فُلانٍ وَفُلاَنٍ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لاَ تَقُولُوا : السَّلاَمُ عَلَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلاَمُ » .

٥٢ - بَاب لاَ يُقَالُ : السَّلاَمُ عَلَى الله

قوله : (باب لا يقال السلام على الله)(١) في الصحيح عن ابن مسعود

---

(١) لأن هذا من باب الدعاء ، والله ﷻ يدعى ولا يدعى له ؛ لأنه غني عن ذلك السلام : معناه الدعاء بالسلامة من الآفات ، وهذا لا يليق بالله ﷻ وإنما يُدعى للمخلوقين فيقال : السلام عليك أو السلام عليكم ، أي : الدعاء لهم بالسلامة هذا من ناحية . الناحية الثانية أن السلام من أسماء الله ﷻ . السلام كما جاء في آخر سورة الحشر ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ [سورة الحشر : ٢٣] فهو من أسماء الله ، وعلى هذا المعنى إذا أريد اسم الله فيقال : السلام عليكم : أي اسم الله عليكم بمعنى بركته عليكم وحفظه لكم وحمايته لكم ، والله ﷻ هو السلام . والسلام من أسمائه وهو أيضاً المسلِّم لعباده من الآفات والمحاذير . فهو السلام ويطلب منه السلام ﷻ . فلا يناسب قول (السلام على الله من عباده) ولهذا جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنهُ في الصحيح قال : كنا قبل أن يفرض علينا التشهد نقول « السلام على الله من عباده ، السلام على جبريل وميكائيل ، فقال ﷺ : « لا تقولوا السلام على الله من عباده ، فإن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله والصلوات والطيبات(*) ثم علمهم التشهد ، كما يعلمهم السورة من القرآن ، فالتحيات لله : التعظيمات ، والله ﷻ يُحيي بمعنى يُعظَّم ولا يسلم عليه ، فرق بين التحية والسلام ، التحية هي التعظيم ، والسلام هو الدعاء بالسلامة . والتعظيم لائق بالله ﷻ ؛ لأنه العظيم الذي له العظمة ، وأما السلام على الله فهذا لا يليق به ﷻ ؛ لأنه غني عن الدعاء و(السلام على) : بمعنى الدعاء هذا وجه سياق المصنف ﷺ لهذا الباب في كتاب التوحيد : أن السلام على الله فيه إساءة أدب مع الله سبحانه ، وهذا مما ينقص التوحيد ، فلذلك عقد له هذا الباب .

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٢٨٧ (٨٠٠) .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال « كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة[١] قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان ، فقال النبي ﷺ : « لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام »[٢] ، هذا الحديث رواه البخاري ومسلم[٣] وأبو داود وغيرهم عن ابن مسعود ، وفي هذا الحديث النهي عن ذلك ، وقد كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة استغفر ثلاثاً وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام[٤] .

وفي الحديث : أن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم ﷻ[٥] قوله : « فإن الله هو السلام » أي : هو تعالى سالم من كل نقص ، ومن كل تمثيل ، فهو الموصوف بكل كمال المنزَّه عن كل عيب ونقص ، قال في « البدائع » :

---

(١) يعني يصلون خلفه صلاة الجماعة .

(٢) « لا تقولوا » : هذا نهي ، والنهي يقتضي التحريم ، ثم بين السبب لهذا المنع ، فقال : « فإن الله هو السلام » فلا يُدعى له سبحانه ، وإنما يُدعى ويطلب منه السلام ، ويطلب منه السلامة .

(٣) إذاً يكون معنى قول الشيخ : في الصحيح ، يعني في الصحيحين يعني الحديث الصحيح المتفق عليه بين الشيخين .

(٤) كان ﷺ إذا انصرف من الصلاة بعد أن يستغفر ثلاثاً يقول : اللهم أنت السلام هذا ثناء على الله ﷻ « أنت السلام ومنك السلام » فالله ﷻ هو الذي يهب السلام لعباده ، ويسلمهم من الآفات والنقائص ، فالسلام منه ﷻ ومن لم تحصل له السلامة من الله فإنه لم يسلم .

(٥) إذا سلم عليهم ﷻ كما جاء في الحديث : « أن الله ﷻ يتجلى لأهل الجنة فيقول : السلام عليكم فيقولون : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، فلا يقولون : وعليكم السلام ؛ لأن هذا بين المخلوقين وإنما يقولون : اللهم أنت السلام ومنك السلام هذه تحيتهم لربهم ﷻ ، وأما تحيتهم فيما بينهم ، فكما قال الله ﷻ : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ .

السلام ، اسم مصدر وهو من ألفاظ الدعاء يتضمن الإنشاء والإخبار[١] فالجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الإنشائية وهو معنى السلام المطلوب عند التحية[٢] وفيه قولان مشهوران ، الأول : أن السلام هنا هو الله ﷻ ومعنى الكلام : نزلت بركته عليكم ونحو هذا[٣] . فاختير في هذا المعنى من أسمائه ﷻ اسم السلام دون غيره من الأسماء . الثاني : أن السلام مصدر بمعنى السلامة[٤] وهو المطلوب المدعو به عند التحية ، ومن حجة أصحاب هذا القول أنه يأتي منكراً[٥] فيقول المسلِّم : سلام عليكم ، ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذا .

ومن حجتهم : أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى ، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً أو دعاء[٦] قال ابن القيم ﷺ : (وفصل الخطاب أن يقال الحق في مجموع القولين فكل منهما معه بعض الحق والصواب في

(١) الإنشاء هو الدعاء والإخبار عن الله بأنه هو السلام .

(٢) إذا قلت لأحد : السلام عليكم معناه أنك تدعو له بالسلامة ، أو أنك تقول : اسم السلام عليك ، وهو الله ﷻ وذلك يقتضي نزول البركة على العبد من الله ﷻ .

(٣) أي : نزلت بركة السلام وهو الله عليكم .

(٤) سلم تسليماً : هذا مصدر صلوا عليه وسلموا تسليماً ، وتقول (سلم سلاماً) : هذا اسم مصدر ؛ لأن المفعول المطلق إذا نقصت حروفه عن حروف فعله فإنه يسمى اسم مصدر أما إذا وافقت حروفه حروف فعله فهذا يسمى بالمصدر .

(٥) سلام عليكم أي : دعاء لهم بالسلامة ، أما إذا أريد اسم الله فإنه يُعرَّف فيقال : السلام عليكم ، فإذا قلت : السلام عليكم فمعناه ، اسم الله السلام عليك ، وإذا قلت : سلام عليك ، فمعناه أنك تدعو له بالسلامة ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [سورة يس: ٥٨] ، واسم الله لا يأتي منكراً .

(٦) هذا على المعنى الثاني : أن المراد به الدعاء بالسلامة .

مجموعهما ، وإنما يتبين ذلك بقاعدة وهي : أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يتوسل في كل مطلب ويسأل بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله[١] ، حتى إن الداعي متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه[٢] فإذا قال : رب اغفر لي وتب عليّ إنك التواب الغفور ، فقد سأله بأمرين وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه . فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله وهو السلام الذي تطلب منه السلامة[٣] وهو مقصود المسلم ، فقد تضمن سلام عليكم اسماً من أسماء الله تعالى وطلب السلامة منه . فتأمل هذه الفائدة وحقيقته : البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب[٤] وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه . فمن ذلك : قولك : سلمك الله ، ومنه : دعاء المؤمنين على الصراط . اللهم سلِّم سلِّم ، ومنه : سلم الشيء لفلان أي : خلص له وحده ، كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ [سورة الزمر : ٢٩][٥] أي : خالصاً له وحده لا

---

(١) فإذا دعوت لنفسك بالمغفرة أو لأحد تقول ، اللهم اغفر لي أو اغفر له إنك أنت الغفور الرحيم ، تأتي بالاسم المناسب ، اللهم تب عليه أو تب عليّ إنك أنت التواب الرحيم .
تأتي بالاسم المناسب لمطلوبك وحاجتك وكذلك هنا السلام لما أنك تريد له السلامة فإنك تأتي باسم الله السلام تقول : السلام عليك أي سلَّمك الله .

(٢) متوسل باسمه إليه ، فله الأسماء الحسنى فادعوه بها بالتوسل إلى الله .

(٣) هذه هي المناسبة : أنت تدعو لنفسك أو لصاحبك بالسلامة فتأتي باسم السلام ، مثل : إذا دعوت بالمغفرة تأتي باسم الغفور .

(٤) هذا معنى السلام : أي السالم من الآفات والنقائص والعيوب .

(٥) هذا خالص ليس فيه اشتراك .

يملكه معه غيره ، ومنه السَّلم ضد الحرب[١] ، لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ، ولهذا بني فيه على المفاعلة ، فيقال : المسالمة مثل المشاركة ومنه : القلب السليم ، وهو النقي من الدغل والعيب[٢] وحقيقته : الذي قد سلم لله وحده فخلص من دغل الشرك وغله[٣] ، ودغل الذنوب والمخالفات ؛ بل هو المستقيم على صدق حبه وحسن معاملته وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته[٤] ومنه : أخذ الإسلام فإنه من هذه المادة ؛ لأنه الاستسلام والانقياد له والتخلص من شوائب الشرك ، فسلم لربه وخلص له كالعبد الذي سلم لمولاه ، ليس له فيه شركاء متشاكسون ؛ ولهذا ضرب الله سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه وللمشرك به)[٥] .

---

(١) ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ [سورة الأنفال : ٦١] والسَّلْم هو الصلح ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [سورة محمد : ٣٥] يعني الصلح .

(٢) القلب السليم الخالص من الشرك ، الخالص من الحقد والحسد ، والقلب السليم هو السالم من جميع الآفات وأعظمها الشرك بالله ﷻ ، ومن النيات الباطلة والمقاصد السيئة .

(٣) القلب السليم أعظمه أن يكون خالصاً من الشرك الأكبر والأصغر .

(٤) ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء : ٨٨ – ٨٩] .

(٥) المشرك بالله مثل العبد الذي يملكه عدة شركاء هذا يكون في قلق وهَمّ لأنه لا يدري من يرضي منهم . والموحد هذا الذي ليس فيه شركاء لله ﷻ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [سورة الزمر : ٢٩] أي : خالص لربه ، هذا هو الموحد ؛ لأنه مخلص لله ﷻ ولخالقه ، يعرف رضاه ويعرف طاعته فلا يستوي هذان المملوكان الخالص والمشترك لا يستويان في تعامل الناس ، هذا من باب ضرب المثل ، ولله المثل الأعلى .

٥٣ - باب قول : اللهم اغفر لي إن شئت

فِي « الصَّحِيحِ » عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ : اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ . اللهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ . لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ ؛ فَإِنَّ اللهَ لاَ مُكْرِهَ لَهُ » .

وَلِمُسْلِمٍ : « وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ ؛ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ » .

٥٣ - باب قول : اللهم اغفر لي إن شئت

قوله : (باب قول اللهم اغفر لي إن شئت)(١) . قوله : « لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم المسألة ، فإن الله لا مكره له »(٢) بخلاف العبد فإنه قد يعطي السائل مسألته لحاجته إليه أو

---

(١) فإنه لا يجوز قول : اللهم اغفر لي إن شئت ؛ لأن اللفظ لا يجوز في حق الله ﷻ - وسيأتي التعليل - ؛ بل يقول : (اللهم اغفر لي) ولا يقول (إن شئت) .

(٢) النبي ﷺ نهى أن يقول : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت(*) وذلك

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - عن كيفية توجيه دعاء النبي ﷺ للمريض : « طهور إن شاء الله » ، فأجاب : هذا ليس بدعاء ، هذا إخبار ، فالرسول ﷺ يتفاءل أن هذا المرض تطهير للمريض ، وهذا التفاؤل من باب الإخبار وليس من باب الدعاء ، لم يقل ، اللهم اشفه إن شئت ، أو طهره إن شئت ، بل هذا من باب الإخبار والتفاؤل ؛ لأن المرض قد يكون تطهيراً ، وقد يكون عقوبة ، فالحكمة تختفي في المرض ، حكمة الله لا يعلمها إلا هو ، والإنسان لا يجزم بأن يقول : هذا المرض طهور ، بل يقول : إن شاء الله ، من باب التفاؤل أ.هـ .

وسئل - حفظه الله - عن كيفية توجيه دعاء النبي ﷺ للأموات : « وإنا بكم إن شاء الله لاحقون » ، فأجاب هذا يقولون : إنها إما للتحقيق ، كقوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة الفتح : ٢٧] ، لا من باب التعليق .

وقيل : إنا بكم إن شاء الله لاحقون على الإيمان ؛ لأن الإنسان لا يدري بما يختم له ، وقد لا يلحق بهم ، وقد يكون مع الكفار ولا يلحق بالمؤمنين . فالإنسان لا يجزم لأنه لا يدري عن الخاتمة ، فلذلك يقول : إن شاء الله ، فهذا ليس من باب الدعاء ، وقول (إن شاء الله) لا تأتي في الدعاء فقط ، أما غيره فلا بأس ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة الكهف : ٢٣ - ٢٤] فهذا ليس دعاء : هذا إخبار أ.هـ .

لخوفه أو رجائه[١] فيعطيه مسألته وهو كاره فاللائق بالسائل للمخلوق أن

لأمرين : الأمر الأول : أنه لو قال إن شئت فهذا معناه أنه ليس حريصاً على الطلب إن حصل وكان بها لا ليس بلازم ، وهل أحد يستغني عن الله ﷻ ؟ لا أحد يستغني كالذي يقول لشخص أعطني كذا إن شئت ، يعني إذا ما أعطيتني أنا استغني عنه فهذا فيه فتور في الطلب وكأن العبد مستغن إن حصل له المغفرة والرحمة وإلا فليس بحاجة .

والأمر الثاني : « فإن الله لا مكره له » ، وإنما تقول هذا اللفظ لمن يعطيك الطلب وهو كاره الله ﷻ يعطيك الطلب فضلاً منه وإحساناً ومِنَّة ولا أحد يُكرِهه إنما تقول : يا فلان أعطني كذا إن شئت يعني إن كنت ترغب هذا الشيء ولا يشق عليك ؛ لأن المخلوق ضعيف وقد يشق عليه هذا الشيء أو يكره أن يبذل هذا الشيء فأنت لا تريد إكراهه ؛ بل تعطيه الحرية أن يفعل أو لا يفعل ــ الله فليس كذلك ﷻ ؛ لأنه يعطيك ولا مكره له .

فهذا فيه : تنزيه الله ﷻ عن الإكراه الذي ينتفي بالمشيئة « بإن شئت » .

وفيه أيضاً : أن العبد محتاج إلى الله فلا يستغني عن الله ويقول : إن شئت أعطني وإن شئت لا تعطيني كأنه مستغن عن الله ﷻ ، ففيه هذان المعنيان اللذان لا يليقان بالله ﷻ ، فإذا قال هذا فهذا فيه نقص في التوحيد ، كما أن فيه تنقص لله ﷻ ، وذلك يخل بالتوحيد ، لذلك عقد المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد . وفي الرواية الثانية : يعظم الرغبة يعني تطلب من الله بدون تحديد ولا تستعظم المسألة مثلما تستعظمها من المخلوق ، فالله ﷻ أطلب منه ما شئت قليل أو كثير ، أطلب الكثير ولا تقتصر على القليل ؛ لأنه غني حميد ولا ينقصه شيء ﷻ ، ولهذا جاء في الحديث : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى فإنه أعلى الجنة ووسط الجنة وفوقه عرش الرحمن »(*) فتطلب من الله أعلى المطالب لأنه غني حميد ، غني كريم ، فلا تطلب منه الشيء القليل كما تطلب من المخلوق تخاف تشق عليه إذا طلبت منه شيئاً كثيراً ، أما الله ﷻ أطلب منه ما شئت وهذا لا يشق عليه ﷻ .

(١) الله ﷻ لا يقاس بخلقه ، فإن العبد قد يعطي السائل يريد أن يكسبه ، أو يشتغل عنه . فالناس لهم أهداف في عطاياهم ، قلَّ منهم من يعطي لوجه الله ، إنما يعطي لرغبته هو ، يريد أن يخدم عنده ، أو يريد أن يمدحه ، أو يحتاج إليه فيعطيه هذه المرة ليصير له عنده معروف يرده عليه إذا احتاجه هذا بين الناس ، أما الله ﷻ كل هذه المعاني لا تليق به ﷻ .

(*) أخرجه الترمذي في « سننه » ٤ / ٥٨٢ (٢٥٣٠) وصححه الألباني .

يعلق حصول مسألته على مشيئة المسئول[١] مخافة أن يعطيه وهو كاره ، بخلاف رب العالمين ، فإنه يعطي عبده ما أراده بفضله وبكرمه وإحسانه ، فالأدب مع الله سبحانه أن لا يُعلِّق مسألته بربه بشيء لسعة فضله وإحسانه وجوده وكرمه ، وفي الحديث : « ليعزم المسألة » ، وفي الحديث : « يمين الله ملأى ، لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ... الحديث » .

قوله : « ولمسلم وليعظم الرغبة » أي : في سؤاله ربه حاجته فإنه يعطي العظائم[٢] كرماً وجوداً وإحساناً « فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه »[٣] أي : ليس ما أعطى عبده مما سأله بعظيمٍ عنده ، لكمال فضله

---

(١) المخلوق لا بأس أن تقول : أعطني كذا إن شئت تلافياً لما يحصل له من الكراهية والمشقة تقول له : إن شئت تعطيه الإختيار ، بخلاف الخالق ﷻ ، فلا حاجة له إلى هذا .

(٢) الله ﷻ دائما يتنزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر من كل ليلة فيقول : « هل من سائل فأعطيه »(*) لأنه جواد ، هو الذي يبدأ خلقه فيقول : « هل من سائل فأعطيه ، يحب من عباده أن يسألوه ويحب أن يعطيهم ، هذا من كرمه ﷻ وهو غني عنهم وهم بحاجة إليه .

(٣) قوله : « وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » الله ﷻ يعطي الكثير والكثير ، يعطي بلا حد يرزق بغير حساب لا حد لجوده سبحانه ولا حد لكرمه وفضله ، فاطلب منه ما شئت من الخير ، وأعلى المطالب الجنة فاطلبها من الله ولا تقل : والله لا استحق هذا أنا مقصر ، أنا مذنب أنا كذا ؛ بل اسأل الله ، واطلب من الله ما شئت غني حميد سبحانه ليس مثل المخلوق تستحي منه وتطلبه بطريقة فيها حياء وخجل ؛ لأن المخلوق مخلوق يشق عليه هذا الشيء أما الله ﷻ فهو يفرح ، المخلوق يكره سؤالك وإن أعطاك ، يكره هذا ويشق عليه أما الله ﷻ يفرح بسؤالك .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ١ / ٥٢٢ (٧٥٨) .

وجوده ، وقد قال بعض الشعراء في مخلوق يمدحه :

ولهذا يقول الشاعر(*) :

اللهُ يَغْضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ   وبُني آدمَ حِين يُسال يَغْضَبُ

المخلوق يغضب إذا سألته ويعطيك مجاملة وهو كاره ، وإذا كررت عليه ربما يغضب عليك ولا يعطيك المرة الثانية ، أما الله ﷻ كلما كررت عليك فإنه يفرح لذلك ويحب هذا ويحب من عباده الملحِّين في الدعاء والمكثرين من الدعاء ، فإذا شعرت بأن الله ﷻ يشق عليه شيئاً أو أن شيئاً يكبر عليه سبحانه ولا يعطيه فقد تنقصت الله ﷻ وهذا نقص في التوحيد ، أما إذا عظمت رغبتك في الله واعتقدت أن الله ﷻ لا ينقصه شيء ، وأنه جواد كريم ، وألححت عليه في الدعاء ، وطلبت منه المطالب العالية الرفيعة ، فإن ذلك مما يحبه الله ﷻ ، من كماله سبحانه وغناه وكرمه وإحسانه ، ففيه فرق بين الخالق والمخلوق فلا تستعمل ما تستعمله مع المخلوق من الحياء والخجل والتقاصر ، لا تستعمله في حق الله ﷻ ، حتى ولو كنت مذنباً ، ولو كنت عاصياً فإن الله يغفر الذنوب جميعا ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر : ٥٣] المخلوق لو أسأت إليه وعفى عنك في الأول ، ثم أسأت إليه في الثانية وتكرر منك الخطأ ربما لا يعفو عنك ، لكن الله ﷻ كلما تبت إليه تاب عليك ولو تكررت ذنوبك ولو عظمت خطاياك فإنه سبحانه يتوب ويغفر إذا صدقت معه في التوبة والاستغفار ولو كانت ذنوبك بلغت عنان السماء إذا استغفرت الله غفر لك ، ولهذا جاء في الحديث القدسي « يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني لغفرت لك ولا أبالي »(**) « بلغت عنان السماء » : السحاب . إذا استغفرت الله صادقاً غفرها الله لك بخلاف المخلوق فإنك إذا أخطأت في حقه وتكرر منك الخطأ فإنه لا يغفر لك المرة الثانية ولا يعفو عنك . أما الله ﷻ فإنه يغفر ويتوب ولو تكرر الذنب ولو تكرر الخطأ ، لكن بشرط الصدق في التوبة والصدق في الاستغفار ولا تقول إني أذنبت في الأول وتبت ثم رجعت . بل تب إلى الله مرة ثانية وثالثة ورابعة وألف وألفين وكلما أذنبت . استغفر الله والله غفور رحيم ﷻ .

(*) هذا البيت للأصمعي . انظر : الدر الفريد وبيت القصيد / للمستعصمي ٢ / ٤٣ (٩٧) .

(**) أخرجه الترمذي في « سننه » ٥ / ٥١٢ (٣٥٤٠) ، وصححه الألباني .

وَتَعْظُمَ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا ... وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ العَظِيمِ العَظَائِمِ[(١)]

والله وتعالى أحق بكل مدح وثناء[(٢)] .

---

(١) هذا في مدح المخلوق : أن العظائم صغيرة ، عنده فهذا المتنبي يمدح مَلِكاً ويقول هذا من باب المثال ، أن الناس على شكلين : الصغير تعظم عنده الصغائر والعظيم تصغر عنده العظائم ، فآخر البيت هو اللائق بالله ﷻ ؛ لأنه هو الذي تصغر عنده العظائم ، هذا في حق الله أليق من المخلوق .

والآخر يقول[(*)] :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُه

هذا أيضاً مدح للمخلوق هذا يمدح مخلوق وهذا المدح يليق بالله ﷻ ؛ لأن الله ﷻ كريم لا يغيضه شيء مما عنده ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة المنافقون : ٧] .

(٢) هذه قاعدة : كل كمال ثبت للمخلوق لا يستلزم نقصاً فإن الله ﷻ أحق به ، ولله المثل الأعلى .

(*) هذا أمدح بيت قالته العرب ، وهو لزهير بن سلمى ، انظر : الشعر والشعراء / لابن قتيبة ١ / ١٣٩ .

٥٤ - باب لا يقول : عبدي وأمتي

في « الصحيح » عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقل أحدكم أطعم ربك ، وضئ ربك ، وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي وأمتي . وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي » .

٥٤ - باب لا يقول : عبدي وأمتي

قول : (باب لا يقول عبدي وأمتي) [(١)] في الصحيح عن أبي هريرة

---

(١) هذه الأبواب متشابهة كلها يشبه بعضها بعضاً ، كلها من باب : تعظيم الله ﷻ والتأدب معه ، وأنه لا يقال في حقه ما يقال في حق المخلوقين وكل هذه الأبواب متشابهة ، ولذلك ساقها المصنف على نسق واحد لأنها يشبه بعضها بعضاً .
فإن قلت : لماذا لم يسقها في باب واحد ؟ نقول : فرَّقها لأجل التسهيل على المتعلم لكي يحفظها ويتقنها ، أما لو ساقها جميعاً في باب واحد يشق حفظها وفهمها ، والعلم يؤخذ شيئاً فشيئاً ، هذه سياسة تعليمية ، أن العلم لا يؤخذ دفعة واحدة ، وإنما يؤخذ شيئاً فشيئاً .
وهذا الباب أيضاً من احترام أسماء الله ﷻ وتعظيم الله : أن السيد الذي يملك العبيد لا يقول : عبدي وأمتي ؛ لأن هذا لا يليق إلا بالله ﷻ ، فإن الناس عبيد لله ﷻ ، ولكن يقول : فتاي وفتاتي وغلامي ، قال الله تعالى عن موسى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ [سورة الكهف : ٦٠] قال : فتاه ويقول للأمة : فتاتي ، ولا يقول : أمتي أو عبدتي ويقول في العبد : غلامي هذا من ناحية المالك والسيد ، ومن ناحية المملوك يقول لمالكه : سيدي ومولاي ، ولا يقول : ربي ؛ لأن المولى يطلق على المالك ويطلق على المعتق الذي له الولاء على عبده ، ويطلق على المناصر ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٠] والوَلَاية : المناصرة والموالاة فيقول : مولاي إذا أراد أن يخاطب مالكه يقول : سيدي ؛ لأن السيد يطلق على المخلوق ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [سورة يوسف : ٢٥] « قوموا إلى سيدكم »[(*)] « أنا سيد ولد آدم »[(**)] فالعبد يقول : سيدي ، والمرأة تقول

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١١٠٧ (٢٨٧٨) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٣٨٨) (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
(**) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ١٧٨٢ (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقل أحدكم أطعم ربك[(١)] وضئ ربك[(٢)] ، وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي[(٣)] ، هذه الألفاظ المنهي عنها وإن كانت تطلق لغة[(٤)] ، فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد[(٥)] ، وسداً لذرائع الشرك لما فيها من

لزوجها : سيدها أي : مالك عصمتها والقائم عليها ومولاي معناه الذي له الولاء والملك عليّ ، وهو الذي يتولى شئوني .

ففيه نهي عن الألفاظ التي فيها إساءة في حق الله ﷻ واستعمال الألفاظ التي لا محذور فيها ، والمعنى واحد لكن لما كانت هذه الألفاظ فيها إيهام ، وفيها إساءة أدب مع الله تتجنبها وتأتي بألفاظ سليمة .

(١) اطعم ربك : أي ناوله الطعام .. ولا يقول العبد لمالكه : ربي ولا يقول أحد للعبد : أطعم ربك أو أعط ربك (*) ؛ لأن هذا فيه إساءة أدب مع الله ؛ لأن الربوبية المطلقة لله ﷻ .

(٢) وضئ ربك : أي احضر له ماء الوضوء أو أعنه على الوضوء .

(٣) فوجّه كلاً من المالك والمملوك إلى اللفظ المناسب الذي يخاطب به الآخر .

(٤) تطلق لغة على المخلوقين ، ولكن يكره شرعاً إطلاقها عليهم ، وإن كانت جائزة من ناحية اللغة العربية ، لكن من ناحية الشرع تكره .

(٥) نعم هذا هو المناسبة لكتاب التوحيد أن في تركها تحقيقا للتوحيد وفي استعمالها نقص للتوحيد .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – : هل يجوز قول : ربي بمعنى سيدي ، لأن يوسف ﷺ قال لأحد الغلامين اللذين استفتياه في رؤياهم : ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [سورة يوسف : ٤١] ، فأجاب : وأصرح من هذا ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، يعني عند الملك فهذا يجوز ، ليس حراماً ، وإنما من باب كراهة التنزيه أنه لا يستعمل هذا الشيء . وهذا في شرع من قبلنا ، ما دام أن رسولنا ﷺ نهانا عن هذا ، حتى ولو خالف من قبلنا ، فنحن لا نقوله عملاً بقول نبينا ﷺ فما جاء عن الأمم السابقة ونهانا عنه الرسول ﷺ فإننا نتركه .

والقاعدة في الأصول : أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه أ.هـ .

التشريك في اللفظ[١] ؛ لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم[٢] فإذا أطلق على غيره ما يطلق عليه تعالى وقع الشبه في اللفظ ، فينبغي أن يجتنب هذا اللفظ في حق المخلوق من ذلك[٣] ، فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذا اللفظ ، وهو قوله : سيدي ومولاي[٤] وكذلك قوله : « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي » لأن العبيد عبيد الله والإماء إماء الله ، قال الله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [سورة مريم: ٩٣] .

(١) تشريك في اللفظ لا في المعنى والحقيقة حتى الألفاظ التي فيها إخلال بالتوحيد يتجنبها الإنسان مثل ما سبق : لولا الله وأنت ، ماشاء الله وشئت ، هذه تتجنب ، لأنها شرك في اللفظ لا في العقيدة ولا في النية .

(٢) الربوبية حق لله ﷻ .

(٣) ينبغي بمعنى يستحب ، وليس بمعنى : يحرم .

(٤) هذا بالنسبة للمملوك .

٥٥ - باب لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل بالله ؛ فأعطوه ، ومن استعاذ بالله ؛ فأعيذوه ، ومن دعاكم ؛ فأجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفاً ؛ فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه ؛ فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » .

رواه أبو داود ، والنسائي بسند صحيح .

٥٥ - باب لا يرد من سأل بالله

قوله : (باب لا يرد من سأل بالله)[1] ظاهر الحديث : النهي عن رد

(١) مناسبته في كتاب التوحيد أنه يجب احترام أسماء الله ﷻ ، والسؤال بالله أي : الاقسام بالله ، فإذا قال : أسألك بالله فمعناه أقسم عليك بالله ؛ لأن الباء للقسم ، والله ﷻ يقول : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [سورة النساء : ١] وقوله: ﴿ تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾ هذا دليل على جواز السؤال بالله تعالى ، لأن الله ذكر ذلك وأقرَّه ودل على جواز السؤال بالله وأن من سئل بالله فإنه يشرع له أن يعطي السائل ؛ لأن ذلك تعظيم لله ﷻ ، وهذا من كمال التوحيد وعدم إعطاء السائل بالله نقص في التوحيد ؛ لأنه لما جعل الله ﷻ في سؤاله ، وأقسم به فإن إبرار المقسم بالله من تعظيم حرمات الله ﷻ ، وقد فسَّر العلماء ﷭ حكم إجابة من سأل بالله قالوا : تارة يكون واجباً ، وتارة يكون مستحباً ، فإذا كان السائل مضطراً ومحتاجاً والمسؤول قادر على تحقيق طلبه وأن ذلك لا يضره فإنه يجب إعطاؤه من أجل احترام وتعظيم الله ﷻ ، والمسألة الثانية إذا سأل السائل شيئاً له فيه حق مثل سائل يسأل من بيت المال فإن كل مسلم له حق في بيت مال المسلمين ، فإذا سأل بالله فيجب أن يعطى لأنه يسأل حقاً له ففي هاتين المسألتين يجب أن يجاب السائل بالله(*) .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن قول الشارح ﷫ عند قول النبي ﷺ : من سأل بالله فأعطوه » قال : (ويأثم المسؤول في منعه ، فيؤخذ من ماله أضعاف ما مَنَع على وجهٍ يكرهه) فما رأيكم في قوله : (فيؤخذ من ماله أضعاف ما منع) ؟ فأجاب : الظاهر أنه يقصد أنه يُعاقب ، فإذا منع السائل فلم يعطه شيئاً وهو محتاج إليه فإن الله يعاقبه ، ويذهب من ماله أكثر مما منع . لأنه منع من أجل البخل بماله ، وحِفظ ماله ، لكن قد يعاقبه الله فيذهب من ماله أكثر مما منع أ.هـ .

=

السائل إذا سأل بالله ويحتمل أن يكون المراد فيما لا مشقة فيه على المسؤول ولا ضرر(١) ، فيكون من باب مكارم الأخلاق ومعالي الشيم ، وربما كان السائل محتاجاً أو مضطراً ، فيجب أن يعطى ما سأله ، ويأثم المسؤول في منعه ، فيؤخذ من ماله أضعاف ما منع على وجه يكرهه ، فباعتبار هذه الأمور ينبغي لمن أعطاه الله نعمة أن يؤدي حق الله فيها ، ويعطي من سأله من فضول نعمة الله عليه(٢) ، خصوصاً إذا سأل بالله تعالى ، فيكون إعطاؤه تعظيماً لمن سأله به ، وهو الله ﷻ(٣) .

قوله : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول ﷺ : « من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد

وأما إذا كان السائل غير محتاج أو كان المسؤول يشق عليه إعطاء السائل فإن إجابته ليست واجبة إنما هي من باب المستحب .

(١) لابد أن لا يكون على المسؤول ضرر وأن يكون السائل محتاجاً لما سأل .

(٢) كما مر في حديث الثلاثة الأبرص والأقرع والأعمى الذين جاءهم السائل ، وسألهم وأبدى لهم الحاجة ، وهو مَلَك جاءهم في صورة إنسان ، فرده الأقرع والأبرص فغضب الله عليهما ، وأعطاه الأعمى فرضي الله عنه .

ومعنى « من فضول الله عليه » أي : الزائد عن حاجته ، وهذا من محاسن الأخلاق ، وإذا أعطاه مما يحتاجه فهذا من الإيثار وهذا أفضل من التكرم ، كما قال تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [سورة الحشر : ٩] .

(٣) كما قال تعالى : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ فهذا أمر من الله تعالى . والأرحام منصوب على أنه مفعول أي : اتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وقرئ بالجر (والأرحامِ) وهي قراءة ضعيفة أي : معناها أنهم كانوا يتساءلون بالأرحام أي : يقولوا أسألك بالله والرحم .

كافأتموه »[(١)] رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح .

---

(١) هذا الحديث فيه أربعة مسائل : الأولى : من استعاذ بالله ، الثانية : من سأل بالله ، المسألة الثالثة : من دعاكم لزيارة أو حضور وليمة ، المسألة الرابعة : من صنع إليكم معروفاً وكل مسألة لها حكم :

المسألة الأولى : « من استعاذ بالله فأعيذوه » واستعاذ أي : لجأ إلى الله وعاذ بالله فإنك تتركه ، لأن هذا من تعظيم الله ﷻ ، ولما دخل النبي ﷺ على امرأة تزوجها قالت : أعوذ بالله منك ، فقال الرسول ﷺ : لقد عذت بمعاذ ، الحقي بأهلك ، فلما استعاذت بالله أعاذها الرسول ﷺ ، وكانت المرأة جاهلة ومغروراً بها ، فقد قيل لها ، أنك إذا قلت له هذه الكلمة فإنه سيحبك فهي قالت هذه الكلمة لا لأنها تبغض الرسول ﷺ أو أنها لا تحب الزواج منه ، لكن قالتها لأنها ظنت أنها تحببها إليه فقد غرر بها من قبل النساء ، لكن الرسول ﷺ احترم هذه الكلمة فهو أحق من يعظم ربه ﷻ ، فلما عاذت بالله أعاذها الرسول ﷺ وطلقها فقال لها : « ألحقي بأهلك » وهذا يدل على مشروعية إعاذة من استعاذ بالله ما لم يكن هذا المستعيذ عليه حق ويريد التخلص من الحق الواجب عليه فإنه لا يجوز أن يعاذ خصوصا إذا كان عليه حد من حدود الله ، واستعاذ حتى لا يقام عليه الحد فلا يجوز أن يعاذ ؛ لأن هذه الاستعاذةغير جائزة فإذا كان المستعيذ ليس عليه حق لأحد واستعاذ من شيء مكروه فإنه يعاذ تعظيماً لله ﷻ .

المسألة الثانية : وهي محل الشاهد للباب وهي « من سأل بالله فأعطوه » أي : إذا قال : اسالك بالله كذا وكذا فإنه يشرع لك أن تعطيه ، والسائل له حق حتى لو لم يسأل بالله ، ولكن إذا سأل بالله تأكد حقه تعظيماً لله ﷻ ، وهذا من كمال التوحيد .

المسألة الثالثة : « إذا دعاكم فأجيبوه » أي : إذا دعاكم لزيارة ، أو دعاكم لحضور مأدبة عنده فإنه يشرع إجابته وأحياناً تجب إجابته إذا كانت الوليمة وليمة زواج إن لم يكن هناك مانع ؛ لقول الرسول ﷺ : « شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويترك الفقراء ، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله ﷺ »[(*)] فوليمة الزواج يجب حضور الدعوة

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ١٩٨٥ (٤٨٨٢) ، ومسلم في « صحيحه » ٢ / ١٠٥٥ (١٤٣٢) ، واللفظ للبخاري .

إليها إلا في مسألتين : الأولى : إذا دعا دعوة عامة ما خصص كأن جاء إلى مجلس أو إلى مسجد أو أعلن في صحيفة عن دعوة وليمة فهي دعوة عامة لا يجب الحضور إن شاء حضر وإن شاء لم يحضر فهذه تسمى دعوة الجَفَلَة أي : لم يخصص فيها أحد . والمسألة الثانية : إذا كانت الوليمة فيها منكر ، ولا يستطيع إزالته فإنه لا يجوز له الحضور ، والسكوت عن المنكر ؛ لقول الرسول ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر »(*) فإذا كانت الوليمة بها منكر وكان لا يقدر على إزالة المنكر فإنه لا يحضر أما إذا كانت الوليمة خالية من المنكر ، وعيَّنه بالدعوة فإنه يحضر حتى ولو كان صائماً إذا كان صيام تطوع فإن شاء أكل وأفطر وإن شاء دعا وانصرف تطييباً لخاطر الداعي وهذا من حق المسلم على المسلم كما قال رسول الله ﷺ حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فَعُدْه ، وإذا مات فاتبعه »(**) .

المسألة الرابعة : « من صنع إليكم معروفاً » أي : أسدى إليكم معروفاً وصنع لكم جميلاً فكافئوه أي : ردوا عليه معروفه واصنعوا له معروفاً يماثل ما صنعه لكم مكافأة له(***) لقوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [سورة الرحمن : ٦٠] حتى الكافر إذا صنع معروفاً مع المسلم فإنه يكافئه ، كما قال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة : ٨] فكيف بالمسلم إذا صنع لك معروفاً فإنك تكافئه أي : اصنع له من المعروف مثل ما صنع لك فلا تجحد معروفه ولا تنكر فضله أو تتركه بدون مكافأة فهذا من اللؤم فلا يليق بالمسلم أن يكون بهذه الصفات ، فإن لم تجد ما تكافئه به وعجزت عن مكافأته فهناك شيء لا يعجز عنه

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ١ / ٢٧٧ (١٢٥) ، وقال الأرنؤوط : حسن لغيره .

(**) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ١٧٠٥ (٢١٦٢) .

(***) سئل شيخنا – حفظه الله – : كيف الجمع بين قول النبي ﷺ « من صنع إليكم معروفاً فكافئوه » وبين نهيه ﷺ عن إهداء الشافع الذي يشفع لك هدية ، وأنه من أبواب الربا ؛ فأجاب : هذا معروف غير الشفاعة ، يخصص « من صنع إليكم معروفاً » يعني : غير الشفاعة ، أما الشفاعة فلا يجوز أخذ الهدية عنها ؛ لأن الشفاعة عقد إرفاق وإحسان إلى الناس ، يُقصد بها الثواب من الله ﷻ ، فيخصص . أ.هـ .

=

قوله : « من استعاذ بالله فأعيذوه » : تعظيماً لله تعالى ، وتقرباً إليه بذلك ، وقوله : « ومن دعاكم فأجيبوه » : هذا من حقوق المسلم على المسلم ، ومن أسباب الألفة ، وسلامة الصدر ، وإكرام الداعي ، قوله : « ومن صنع

أحد وهو الدعاء بأن تدعو له بالخير ، فالدعاء مقامه عظيم ، قد يستجاب دعاءك له فيكون أنفع له من إذا كافأته بعرض دنيوي ، فالدعاء مقامه عظيم ولكنه لا يكفي لمن عنده استطاعة ولكنه عوض عن عدم الاستطاعة فقد قال الرسول ﷺ : « من صنع إلى أخيه معروفاً فقال له : جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء »(*) فلا تترك الصنيعة بدون مكافأة إما بمثلها أو أحسن منها أو على الأقل بالدعاء لصانع المعروف ولا يليق بالمسلم أن يصنع إليه المعروف ولا يكافئ عليه لا بمثله ولا بدعاء ولا بشيء فهذا لؤم وهذا ليس من صفات المسلم .

« فإن لم تجدوا ما تكافؤه » هكذا وردت في الرواية والأصل ما تكافئونه لأنه فعل مضارع تجرد عن الجازم والناصب فيرفع بثبوت النون فالفعل المضارع إذا تجرد عن الناصب والجازم يرفع بثبوت النون فالأصل « فإن لم تجدوا ما تكافئونه » ولكن سقطت النون لا يدري هل هي من الناسخ فيكون هذا من باب اللحن أو أنها سقطت للتخفيف فعلى كل حال الأصل « تكافئونه » فقد جاءت في بعض روايات بثبوت النون .

« تُروا » بضم التاء أي : تظنوا أن قد كافأتموه » وأما بفتح التاء « تَروا » معناها حتى تعلموا أن قد كافأتموه .

فهذا الحديث حديث عظيم فيه أربع هذه المسائل ، وهي مكارم الأخلاق ، ومن فضائل الإسلام بين المسلمين وغيرهم ، والشاهد منها قوله : « من سأل بالله فأعطوه »(**) فهذا مطابق لقول المصنف رحمه الله : « لا يرد من سال بالله » .

(*) أخرجه الترمذي في « سننه » ٤ / ٣٣٣ (٢٠٣٥) ، وصححه الألباني .

(**) سئل شيخنا – حفظه الله – : من سأل بالله ولم يُعطه ، فهل عليه كفارة ؟ فأجاب : ليس عليه كفارة ، إذا حلفت على واحد لا يتمثل لك ، فلا يلزمك كفارة إذا خالفك ؛ لأن لفظ اليمين لم تنعقد ، وإنما إذا حلفت على واحد تقدر أنك تؤثر عليه مثل ابنك – لك عليه سُلطة – هذا هو الذي تلزمك الكفارة إذا خالفك . أ.هـ .

إليكم معروفاً فكافئوه » أي : ينبغي المكافأة على المعروف ، وهو من مكارم الأخلاق ، وفيه السلامة من البخل ، وما يذم به » ، قوله : « فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له » : فيه أن الدعاء يقوم مقام المكافأة في حق من لم يجـد مـا يكافئ به ، قوله : « حتى تـروا » : بـضـم التـاء ، أي تظنـوا ، وفي روايـة أبي نهيك ، عن ابن عباس : « من سألكم بوجه الله فأعطوه » .

٥٦ - باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة » . رواه أبو داود .

٥٦ - باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

قوله : (باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة)(١) ذكر فيه حديث

---

(١) هذا الباب مثل الباب الذي قبله فيه احترام جناب الله ﷻ وتعظيم أسمائه وصفاته ؛ لأن ذلك من تحقيق التوحيد . ووجه الله صفة من صفات الله الذاتية ، فإن الله ﷻ له صفات ذاتية وصفات فعلية : صفاته الذاتية : كالوجه واليدين والعينين وما جاء عن أن الله يوصف بهذه الصفات ، وصفات فعلية مثل : الخلق والرزق والإحياء والإماتة والنزول والاستواء والعلو والمجيء والإتيان يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن : ٢٦ - ٢٧] وجه ربك : أضاف إلى الله هذه الصفة ، ووصف هذا الوجه بصفتين : الجلال والإكرام ، كما قال تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وجاء في الأحاديث الصحيحة إثبات الوجه لله ﷻ ، فيجب إثباته لله كما يليق بجلاله ، وليس كوجوه المخلوقين كما يتوهم من يتوهم من أهل الضلال وليس يديه ولا أصابعه ﷻ كأيدي أو كأصابع المخلوق ، فصفات الله تليق به وإن كان لها نظير في صفات المخلوقين من ناحية اللفظ ومن ناحية المعنى لكن من حيث الكيفية فإنها تختلف صفات الخالق عن صفات المخلوقين ، كما قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى : ١١] فإذا سأل بوجه الله فلا يسأل به الأمور الحقيرة ، كمن سأل حطام الدنيا كأن يقول : أسألك بوجه الله أن تعطيني القلم أو أي متاع من الدنيا فهذا تحقير لصفات الله ﷻ ، وإنما تسأل به أعظم المطالب وهي الجنة أو ما يوصل إلى الجنة من الأعمال الصالحة ، فوجه الله شيء عظيم فلا يسأل به إلا الشيء العظيم ، أما السؤال بوجه الله للأشياء الحقيرة فهذا فيه تنقص لله .

وينبغي أن نتنبه أن الصفة لا تُسأل ولا تُدعى مثل ما يقول الجهال : يا وجه الله أو يا رحمة الله أو يا قدرة الله فهذا لا يجوز إنما يُدعى الموصوف ويتوسل إليه بالصفة كما قال تعالى :

=

جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، رواه أبو داود ، قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يسأل بوجه الله إلا الجنة) [1] وهنا سؤال . وهو : أنه قد ورد في دعاء النبي ﷺ عند منصرفه من الطائف حين كذبته ثقيف ، دعا بالدعاء المأثور : « اللهم أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملَّكته أمري ، إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل عليَّ غضبك ، أو ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله »[2] .

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف : ١٨٠] فتوسلو إليه بها فقل : برحمتك استغيث ، ومن عذابك استجير فارحمني برحمتك أنت أرحم الراحمين فالصفة يدعى بها ولا تدعى لأنها تابعة للموصوف . فلا يقال : يا وجه الله أو يا قدرة الله ومثل هذه الأشياء فإنه حرام ، شديد التحريم وبعض العلماء يرى أنه يكفر ، فهناك فرق بين الطلب من الصفة والطلب بها ، فالطلب منها لا يجوز ؛ لأن هذا معناه أنها غير الله ، وصفات الله ليست غيره ؛ بل هي تابعة لله ﷻ أما الطلب بها أي التوسل إلى الله بها فمشروع .

(١) الحديث ضعيف هذا لا شك فيه ، فكيف أورده المصنف ؟ أورده المصنف لأنه يدخل تحت أصول وله شواهد ، فالضعيف إذا كان له شواهد ويدخل تحت أصول ثابتة فإنه يستدل به ، أما إذا كان ليس له شواهد ولا يدخل تحت أصول ثابتة فإنه لا يحتج به . وفي هذا الحديث تعظيم صفات الله واحترام أسماء الله وهذه أصول عظيمة ثابتة .

(٢) هذا الدعاء المشهور بدعاء الطائف ، عندما مات أبو طالب عم الرسول ﷺ الذي كان يحميه ويرد عنه كيد أعدائه ، وماتت زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي كانت تؤازره وتسري عنه ما يصيبه من الهموم والأثقال ، ماتوا في عام واحد فتسلط عليه المشركون في مكة فخرج إلى الطائف بلاد ثقيف يدعوهم إلى الله لعلهم يستجيبون له ويجد عندهم المكان الذي يؤويه من أذى قريش ، ولكنهم ردوه رداً قبيحاً وأغروا سفهاءهم وعبيدهم =

والحديث المروي في الأذكار : « اللهم أنت أحق من ذكر ، وأحق من عبد » وفي آخره : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض » ، ونحوه في الأحاديث المرفوعة ، فيحتمل أن هذا فيما يكرهه العبد لا فيما يحبه ويتمناه ويحتمل غير هذا[1] ، والله أعلم .

يرمونه ﷺ بالحجارة حتى أدموا قدميه ﷺ ، فلما بلغ وادي نخلة راجعاً صلى الفجر وقرأ القرآن فسمعته الجن فأعجبهم القرآن وآمنوا به ودعوا قومهم له ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [سورة الأحقاف : ٢٩] وأيضاً قال تعالى : ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [سورة الجن : ١] ودعا الرسول ﷺ ربه بهذا الدعاء العظيم والشاهد منه « أعوذ بنور وجهك » فهنا استعاذ بنور وجه الله من أذى الكفار ، والحديث الذي في الباب « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة » فكيف أن الرسول ﷺ استعاذ بوجه الله من أذى الكفار مع أن وجه الله لا يسأل به إلا الجنة ؟ والجواب : أن هذا مما يوصل إلى الجنة وهو سؤال الرسول ﷺ أن يعصمه الله من أذى الكفار ، وأن يمكنه من إظهار هذا الدين ، فإذا كان الشيء المسؤول يوصل إلى الجنة فلا بأس .

(١) أي : أن الاحتمال الظاهر والصحيح أن هذا مما يؤدي إلى الجنة ، فنصرة الرسول ﷺ وظهور الإسلام وقمع الكفار هذا مما يؤدي إلى الجنة .

٥٧ - باب ما جاء في الـ (لو)

وقول الله تعالى : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [سورة آل عمران : ١٥٤] .

وقوله : ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [سورة آل عمران : ١٦٨] .

في « الصحيح » عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺ قال : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجزن ، وإن اصابك شيء ؛ فلا تقل لو أني فعلت كذا ؛ لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

٥٧ - باب ما جاء في الـ (لو)

قوله : (باب ما جاء في اللو)[1] أي : من الوعيد والنهي

---

(١) الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان ، كما قال الرسول ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »[*] أن تؤمن بأن ما يحدث في هذا الكون من خير أو شر ، ومن محبوب أو مكروه ، أن كله من قضاء الله وقدره ، فالمصائب والأمراض والفقر وتسلط الأعداء كله بقضاء الله وقدره لحكمة منه ﷻ والواجب على المسلم عندما يصيبه ما يكره أن يؤمن بأن هذا بقضاء الله وقدره ولا يتحسر ويتلومَّ ، أي : يقول : لو فعلت كذا ما حدث كذا فعند المصائب والمكاره لا يجوز الإتيان بلو ؛ بل يجب أن يؤمن بالقضاء والقدر فلا يدري ما الخيرة فيه ، فلعل الخيرة فيما أصابه كما قال تعالى : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] فيجب على المسلم عند

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ١ / ٣٦ (٨) .

عنه عند الأمور المكروهة(١) . كالمصائب إذا جرى بها القدر ،

المكاره والمصائب أن يرضى بالقضاء والقدر ، فلا يتأسف أو يتحسر أو يقول : لو فعلت كذا وكذا ، فالقضاء والقدر لابد أن يقع ولو فعلت ما فعلت ، القضاء لا يدفعه أفعالك ، وقول لو في باب اللوم للقضاء والقدر فيه تنقص للتوحيد ، وفيه ضعف إيمان بالقضاء والقدر ، وذلك مما ينافي التوحيد أو ينقص التوحيد ، فالواجب التسليم لله ﷻ عند المقادير ، وأن يرضى بذلك ويسلِّم ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٥٦] فالاحتجاج بالقدر عند المصائب هذا مطلوب ، أما الاحتجاج بالقدر على المعاصي فهذا حرام ولا يجوز ؛ لأن المعاصي من فعلك أنت الواجب أن تتركها ولا تقول أنها قدرت عليك لأنها لم تقدر عليك إلا بسبب فعلك أنت فالواجب أن تترك هذه المعاصي وتترك أسبابها والوصول إليها ولا تقل أنها مقدرة ؛ لأن القدر ليس عذراً لك ، أما المصائب التي ليس لك فيها اختيار وليس لك فيها تدبير فتسندها إلى الله ﷻ وترضى وتسلم فهذا هو سبيل المؤمنين ، وهذا الباب هو من هذا القبيل أن نرضى بالقضاء والقدر وهو من مكملات التوحيد أو من أصول التوحيد ومن أركان الإيمان .

واللو : كلمة (لو) أدخل عليها المصنف (ال) وهي لا تدخل إلا على الأسماء ، لا تدخل على الحروف (ولو) حرف ، لكن هذا من باب التسامح في التعبير وإلا أصلها (لو) بدون (ال) ، و(لو) حرف امتناع لامتناع ، فيقال مثلا : (لو جاء زيد لأكرمته) فامتنع إكرامه لامتناع مجيئه ، أما (لولا) فهي حرف امتناع لوجود ، مثال : (لولا الله ما اهتدينا) فلولا وجود فضل الله وكرم الله ما حصلت لنا الهداية فهو حرف امتناع لوجود .

(١) عند الأمور المكروهة لا عند الأمور المحبوبة ، كقول الرسول ﷺ « لو استقبلت من أمري ما استدبرت »(*) فهذا أمر محمود(**) .

(*) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٢ / ٦٣٢ (١٦٩٣) ، ومسلم في « صحيحه » ٢ / ٨٨٣ (١٢١٦) .

(**) سئل شيخنا – حفظه الله – هل استخدام (لو) في الأمور المستقبلة يدخل في النهي ؟ فأجاب : إذا كانت في أمور الخير فلا بأس ، مثل : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدى » أ.هـ .

ونحوها » . قوله : وقول الله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [سورة آل عمران : ١٥٤][1] قاله بعض

(١) عندما أصاب المسلمين ما أصابهم في غزوة أحد ، واستشهد منهم سبعون شهيداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يرض المنافقون بقضاء الله وبقدره وقالوا : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [سورة آل عمران : ١٥٤] وأخذوا يلومون الرسول ﷺ ، وأنه خرج بهم وهم لا يريدون الخروج ؛ بل كانوا يريدون أن يقاتلوا في المدينة ، قيل : قائل هذه المقالة هو عبد الله بن أُبيّ وهو رأس المنافقين فجعل قتلهم بسبب أنهم لم يستشاروا وهل هذا صحيح أن الموت والقتل يرجع إلى تصرفات الناس ؟ هذا غير صحيح فالموت والقتل بيد الله ﷻ ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٤] فبقاؤكم في المدينة أو في بيوتكم لن ينجيكم من الموت ، فإذا قدر الله عليكم الموت لخرجتم من بيوتكم ، والموت يأتيكم حتى وأنتم في بيوتكم ، ولو ما خرجتم ، كما قال تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [سورة النساء : ٧٨] فحصول الموت وحصول القتل ليست بسبب تصرفات الآدميين إنما بسبب قضاء الله وقدره لكن هؤلاء لا يؤمنون بالقدر فالآية فيها النهي عن كلمة (لو) . ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا ﴾ فجعلوا الأمر إليهم وليس لله ﷻ ، وهذا معناه أنهم لم يؤمنوا بالقضاء والقدر وأن ما حصل في وقعة أحد أمر مقدر من الله عز وجل ، وإنما بسبب مخالفة الرسول ﷺ والصحابة لرأيهم وخروجهم للقتال ، ولا يعارض هذا قوله ﷺ : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدى » ولكن هذا من باب بيان الأفضل أي : أن الرسول ﷺ يقول : لو علمت فضل التمتع قبل أن يتبين له ﷺ لما سقت الهدى الذي يمنعني منه ؛ لأن أفضل الأنساك التمتع فهذا من باب بيان الأفضل والتأسف على فعل الخير ، فالإنسان يلوم نفسه إذا فاتته الطاعة أو فاته الخير أو قيام الليل أو الجهاد في سبيل الله ، يلوم نفسه على فعل الخير ، فهو لا يقول قضاء وقدر ويترك الطاعة بل يلوم نفسه أنها قصرت في جانب الله فهذا محمود من المسلم .

المنافقين[1] يوم أحد . لخوفهم وجزعهم وخورهم . قال ابن إسحاق : فحدثني يحيى ابن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الزبير ، قال : قال الزبير : « لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الخوف أرسل الله علينا النوم ، فما منا رجل إلا ذقنه في صدره »[2] قال : فوالله إني لأسمع قول معتِّب بن قشير ، ما أسمعه إلا كالحلم : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا . فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل الله ﷻ : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ لقول مُعتِّب[3] . رواه ابن أبي حاتم . وقال مجاهد ، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبي ، يعني أنه هو الذي قال ذلك » قوله : في - الصحيح -

---

(١) هو المعتب بن قشير المنافق ، وأضافه الله إلى المنافقين ؛ لأن سيرتهم واحدة فينسب قول الواحد منهم إلى مجموعهم .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٤] .

﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ وهو النوم ، ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً﴾ وهم أهل الإيمان وهم في أشد الخوف ؛ لأنهم مؤمنون بالله ﷻ وراضون بقضاء الله وقدره ومغتبطون أيضاً بالجهاد والشهادة ؛ وذلك لأن مآلهم إلى الجنة والشهادة ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وهم المنافقون فلم يستطيعوا النوم من شدة الخوف فهم يريدون الدنيا ، لا يريدون الموت .

(٣) فمن المحتمل أن يكون قول المعتب أو قول عبد الله بن أُبيّ ولكن يقال أن عبد الله بن أُبيّ رجع من الطريق ولم يحضر غزوة أحد ، فالظاهر أنه قول المعتب والله أعلم .

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا ، كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » . اختصر المصنف هذا الحديث وتمامه : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » إلى آخره . قوله : « احرص على ما ينفعك » أي : في دنياك وأخراك . وخص ما ينفع دون ما ليس كذلك مما فيه ضرر أو عدم نفع ، وذلك لا يخرج عن الواجب والمستحب والمباح إذا كان نافعاً[1] ، قوله : « واستعن بالله » : لأنه لا يحصل له ذلك إلا إذا كان مستعيناً بالله[2] . قوله : « ولا تعجزن » : نهاه عن العجز[3] ، لأنه مما يذم به عقلاً وشرعاً ، فما أكثر ذلك في الناس ، فكم فوَّت الإنسان على نفسه من الخير[4] ، وهو يقدر عليه ، أما إذا رغب فيه واستعان بالله فإنه يحصل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . « قوله : « وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل : قدر الله » لأن ما قدَّر يكون ، فيجب الإيمان بالقدر والتسليم ، وأرشده إلى أن يقول : « قدر الله » أي : هذا قدر الله ، والمبتدأ محذوف وتقديره : « هذا قدر الله وما شاء فعل » ؛

(١) أي كل ما فيه نفع فاحرص عليه ومفهومه كل ما فيه ضرر فاتركه ولا تقربه .

(٢) لا يكفى أن تحرص على ما ينفعك بل مع الاستعانة بالله ﷻ فلابد من الأمرين فعل السبب والتوكل على الله ﷻ .

(٣) العجز المراد به الكسل ، وليس المراد به عدم القدرة فالعجز نتيجة عدم القدرة معذور صاحبه .

(٤) كأن يترك الإنسان قيام الليل وأن يترك صيام التطوع ويترك الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله كله من باب الكسل والخمول وتفوت عليه أعمال الخير .

لأن أفعاله تعالى إنما تصدر عن حكمة وعلم ، وفضل وعدل ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف : ٤٩] قوله : « فإن لو تفتح عمل الشيطان »[١] أي : لما فيها من التأسف على ما فات والحزن ، فيأثم في ذلك[٢] ، وذلك من عمل الشيطان .

---

(١) تفتح عمل الشيطان : أي من الوساوس والأحزان .

(٢) يأثم ويشقى في نفسه ، ويصبح في همٍّ وقلق واضطراب .

٥٨ - باب النهي عن سب الريح

عن أُبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا الريح ؛ فإذا رأيتم ما تكرهون ؛ فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به » . صححه الترمذي .

٥٨ - باب النهي عن سب الريح

قوله : (باب النهي عن سب الريح)(١) عن أبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن

---

(١) الريح مخلوقة يأمرها الله ﷻ ويدبرها ويسخرها ، وتجمع على رياح ، فالرياح تأتي من الجهات ، ريح الشمال وريح الجنوب وريح الصبا وهي الشرق ، وريح الدبور وهي الغرب ، تارة تهب من هنا وتارة من هناك والذي يصرفها هو الله جلا وعلا ، فمن آياته سبحانه تصريف الرياح ، والرياح تأتي بالخير وتأتي بالشر بأمر الله ﷻ فهي أسباب منها ما يثير السحاب ويسوقه ، ومنها ما يلقحه ، ومنها ما يمزق السحاب ويفرقه ، ومنها ما يلقح الأشجار والثمار ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾ [سورة الروم : ٤٨] ، ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ ﴾ [سورة الحجر : ٢٢] ومنها ما يأتي بالعذاب كما أهلك الله قوم عاد بالريح العقيم ، ومنها ما يأتي بالنصر ، قال ﷺ : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور(*) أي : الرياح . الله ﷻ أرسل على الأحزاب ريحاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾ [سورة الأحزاب : ٩] فهي خلق من خلق الله مسخرة مدبرة مأمورة ، وهي من آيات الله ﷻ ، والواجب إسناد الأمور إلى الخالق الذي خلقها ودبرها لا إسناد الأمور إلى المخلوقات المأمورة والمنهية والمدبرة هذا هو التوحيد ، أما إسناد الأمور والحوادث إلى المخلوقات هذا شرك ونقص في التوحيد ، فيجب أن تنسب الأمور إلى الله ﷻ ، وهو ﷻ يجري الخير

(*) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ١ / ٣٥٠ (٩٨٨) ، ومسلم في « صحيحه » ٢ / ٦١٧ (٩٠٠) .

=

رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به » صححه الترمذي[(١)] ؛ لأن الريح خلق من خلق الله مدبر ، وإنما تهب بمشيئة الله

والشر لحكمة لا لعبث بل لحكمه وغاية محمودة ولا يُجري شيئاً عبثاً في هذا الكون ، فلا يجوز أن يوجه اللوم إلى الريح إذا حصل من آثارها شيء يكرهه الإنسان في نفسه أو في مواشيه أو في حرثه أو في دنياه أو غير ذلك ، لا ينسب هذا إلى الريح ويسبها ويشتمها ويلعنها ؛ لأن هذا ينصرف إلى الله ﷻ وهذا الذم وهذا السب ينصرف إلى الله ؛ لأن الذي خلقها ودبرها وأمرها هو الله ، فسب الريح إخلال بالتوحيد ، ولذلك ذكر المصنِّف هذا الباب النهي عن سب الريح أي : ذم الريح وشتمها وإن كانت الريح قد يحصل منها ضرر ، وقد يكون منها ريح باردة أو حارة أو ريح شديدة وريح تؤثر على المزارع وعلى المنتجات وعلى المراكب في البحر ، الله جعل الريح لمصالح عباده ﷻ منها ما يُسيِّر المراكب في البحر ومنها ما يُعثِّر المراكب في البحر ويُهيِّج البحر ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ وقعوا في الشده وعاينوا الهلاك ينسون الأصنام والمعبودات ويخلصون الدعاء لله ﷻ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يعني الدعاء لا يدعون معه غيره في هذه الحالة ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ عاهدوا الله ﷻ ، فلما أخرجهم وأنجاهم نكثوا العهد مع الله ﷻ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة يونس: ٢٢ - ٢٣] أي : طبيعة الإنسان إلا من هدى الله ﷻ ، الحاصل أن هذه الريح من أمر الله ومن آيات الله ، ولا يجوز سبها ؛ لأن سبها يكون سباً لمن خلقها وأرسلها ، هي لا تفعل شيئاً باختيارها مثل بني آدم الظلمة الطغاة ، هم يفعلون الأشياء باختيارهم وإرادتهم ، لكن الريح مُدبَّرة مأمورة تجري بأمر الله ﷻ فلا يتوجه إليها ذم أو لوم أو سب أو غير ذلك .

(١) ذكر الشيخ ﷺ هذا الحديث في موضوع الريح عن أبيّ بن كعب وهو أبو المنذر أُبيّ بن كعب الأنصاري ، أقرأ الصحابة لكتاب الله ﷻ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن النبي ﷺ قال : « لا تسبوا الريح » هذا نهي من الرسول ﷺ عن سب الريح وذمها ؛ لأنها خلق من خلق الله لا

=

يتوجه إليها ذم ، وإذا ذمها توجه الذم إلى الذي أرسلها وخلقها وهذا نقص في التوحيد ، أو أنه يعتقد أن الريح تخلق مع الله وتدبر مع الله ، وهذا أيضاً شرك فسب الريح فيه محذوران :

أولا : أنه سب الله ﷻ .

وثانياً : إذا اعتقد أن الريح هي التي تتصرف هذا شرك بالله ﷻ : « لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون » فتوجهوا إلى الذي يملكها ويرسلها أن يعطيكم خيرها ، ويكفيكم شرها هذا هو العلاج ، أما سب الريح فلا يجدي شيئاً ، لأن الريح تأتي بالخير وتأتي بالشر ، كما قال ﷺ ، تأتي بالخير من إثارة السحاب وسوقها وتأليفها وتلقيحها وتسيير السفن في البحر وغير ذلك وتأتي بالشر ، وتأتي بالهلاك وإتلاف المحاصيل والمزارع وهدم المباني إذا سلطها الله ﷻ فهي تأتي بالخير وتأتي بالشر « فإذا رأيتم منها ما تكرهون » : خفتم أن هذه الريح يُصيبكم منها ضرر فتوجهوا إلى الله الذي أرسلها ودبرها ؛ لأنه لا أحد يستطيع أنه يقاوم هذه الريح ، والريح لن تتوقف لو لمتموها وسببتموها لن تتوقف هي ماضية بأمر الله ﷻ ، فتوجهوا إلى الله بالدعاء ، وهكذا شأن المسلم إذا رأى ما يكره يتوجه إلى الله بالدعاء هذا هو التوحيد « فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح » ، دل على أن الريح تكون خيراً « وخير ما فيها » يعني ما تحمله من النفع « وخير ما أمرت به » من الذي أمرها ؟ هو الله ﷻ « ونعوذ بك من شرها » دل على أنه يكون فيها شر بإذن الله ﷻ « وشر ما فيها » ما تحمله من العذاب « وشر ما أمرت به » الله أمرها ﷻ ، فاسألوا الذي أرسلها أن يمنع عنكم مضارها وأن يعطيكم من منافعها ، هذا هو الحل الصحيح بدلاً من ذم الريح(*) .

وهكذا كان يفعل ﷺ ، كان إذا جاءت الريح يسأل الله من خيرها وأن يكفي المسلمين شرها وكان يظهر عليه التأثر ﷺ حتى يفرج الله هذا الخوف ، لعلمه بالله ﷻ وأن هذه الريح قد تكون عذاباً .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن التفريق بين لفظ الريح ، والرياح ، وأن الأولى إذا وردت فهي للشر ، والثانية للخير ، فهل هذا التفريق صحيح ، مع أنه يتعارض مع حديث الباب ، فأجاب : لا ، ليس هذا التفريق بصحيح . الريح والرياح سواء ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [سورة الروم : ٤٨] ، وفي آية أخرى : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [سورة يونس : ٢٢] ، فلا فرق بين الجمع والإفراد ، وأما حديث : « اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً » هذا لم يثبت عن الرسول ﷺ . أ.هـ .

وقدرته ، فيرجع السب إلى من خلقها وسخرها ، وأرشد النبي ﷺ أمته إلى أن يقولوا ما ذكر في الحديث ، وهو سؤاله تعالى من خيرها وخير ما فيها والاستعاذة به من شرها وشر ما فيها ، وقد شرع الله لعباده أن يسألوه ما ينفعهم ، ويستعيذوا به من شر ما يضرهم ، وأن يكون ذلك منهم عبودية لله وحده ، وطاعة له وإيماناً به ، وهذه حال أهل التوحيد والإيمان خلافاً لحال لأهل الشرك والبدع .

٥٩ - باب قول الله تعالى : ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران : ١٥٤]

وقوله : ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [سورة الفتح : ٦] .

قال ابن القيم في الآية الأولى : (فُسِّرَ هذا الظن بأنه - سبحانه - لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل . وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته .

ففُسِّر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ ، وأن يظهره على الدين كله ، وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح .

وإنما كان هذا ظن السوء ؛ لأنه ظن غير ما يليق به - سبحانه - وما يليق بحكمته ، وحمده ، ووعده الصادق .

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره ، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ؛ فـ ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص : ٢٧] .

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده .

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا ، وليتب إلى الله ، وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء .

ولو فتشت من فتشت ؛ لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ؛ فمستقل ومستكثر ، وفتش نفسك ؛ هل أنت سالم ؟
فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا) أ.هـ.

٥٩ - باب قول الله تعالى : ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآية [سورة آل عمران : ١٥٤]

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾)(١) [سورة آل عمران :

---

(١) هذا الباب باب عظيم فيه وجوب حسن الظن بالله ﷻ ؛ لأن هذا هو التوحيد والنهي عن سوء الظن بالله ﷻ لأن هذا منافي للتوحيد ، ثم ذكر أول آيتين آية من سورة آل عمران في قصة المنافقين يوم أحد ، والآية الثانية في سورة الفتح وهي قوله : ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ (آية : ٦) .

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [سورة الفتح : ١٢] والآيتان في المنافقين وموقفهم يوم أحد ، وموقفهم يوم الحديبية وصلح الحديبية وغزوة خيبر ، هكذا المنافقون دائماً وأبداً عند الشدائد يظهر نفاقهم وعند الرخاء يتملقون للمسلمين ويظهرون أنهم منهم ، فإذا جاءت الشدة انكشف نفاقهم وعداوتهم لله ولرسوله وللمسلمين ، ففي وقعة أحد لما حصل على المسلمين ما حصل من المصيبة واستشهد من المسلمين سبعون شهيداً وجرح منهم من جرح ظهر نفاقهم ، وأهل الإيمان قوي إيمانهم ولم يتكلموا إلا بخير .

وأما أهل النفاق فإنهم تكلموا بالقبائح ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٤] وأول الآية ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ﴾ أي : بعد النكبة التي أصابتكم ﴿أَمَنَةً﴾ ما هي الأمَنة ؟ نعاس ، شيء من النوم ، لأن النوم أمان ولا ينام إلا إنسان آمن ، أما الإنسان الخائف ما ينام أبداً ، فهذا مما فرق الله به بين المؤمنين والمنافقين ، المؤمنون أصابهم النوم ؛ لأنهم مؤمنون بالله مطمئنون في إيمانهم لا تزحزحهم الشدائد والكربات

=

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ من المؤمنين وقد مرت بكم قصة الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الباب الذي سبق أنه ذكر أنهم أصابهم النوم ، فما منهم من أحد إلا وذقنه في صدره ، فسمع كلمة المعتِّب بن قُشير المنافق أنه يقول هذا الكلام القبيح ، سمعه وهو بين النائم والمستيقظ رضي الله عنه ، ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ لم يقل طائفة منكم ، وفي الأول ﴿ يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ خطاب للمؤمنين ﴿ وَطَآئِفَةٌ ﴾ لم يقل منكم يعني من غيركم ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ هذا الذي أذهب عنهم النوم وهو الخوف ؛ لأنهم لا يثقون بالله ﷻ وبوعده ، ولا يرضون بقضاء الله وقدره وأن ما أصابهم مقدر ولابد أن يقع ، وأنه لا ينجي منه الحذر ، وأن الله له الحكمة في ذلك ، فهَمَّتهم أنفسهم لأنه ليس عندهم هذا الشعور الإيماني ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ الجاهلية : من الجهل وهو ما كان قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام زالت الجاهلية العامة وبقي بعض الجاهلية في بعض الناس ، لكن الجاهلية العامة زالت ولله الحمد بنزول الوحي وبعثة الرسول ﷺ ، ولا يكون هناك جاهلية عامة أبداً إلى أن تقوم الساعة ، يكون هناك جاهلية في بعض الناس في بعض البلاد في بعض القبائل ، وكل ما كان من أمور الجاهلية فهو قبيح ، وقد ظهر هذا الظن القبيح على ألسنتهم ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ ما نسبوا ما أصابهم إلى الله ورضوا بقضاء الله وقدره ، وإنما قالوا : إن ما حصل هو بسبب محمد وأصحابه لو أنهم أطاعونا ما حصل هذا الشيء لكن استبدوا بالأمر وتركوا رأينا فحصل ما حصل يعني معناه أنهم ينكرون القدر وأن ما أصاب الرسول ﷺ وأصحابه ليس قضاء وقدراً ، وإنما هو بسبب أنهم لم يأخذوا برأينا ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ الأمر ليس لمحمد ولا لغيره ولا لزيد ولا لعمرو ، الأمر لله ﷻ ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ كرروا هذا الظن القبيح لو كان لنا من الأمر والمشورة شيء ما قتلنا هاهنا ، لو أطاعنا رسول الله ﷺ وأصحابه ما حصل هذا القتل ، فكأن القتل راجع إلى آرائهم وإلى مشورتهم فلا يؤمنون بقضاء الله وقدره وإن آمنوا بقضاء الله وقدره فهم لا يؤمنون بحكمة الله وأن الله أجرى هذا لحكمة ، يقولون : هذا لا يصلح، لا يجوز ، هذا ظلم ، لماذا المؤمنون يُقتلون ؟ ولا ينتصرون ؟ لو كانوا على إيمان صحيح ما قُتلوا ؟ لو أن محمداً رسول الله حقاً لما حصل عليه ما حصل ؟ كما قالوا
=

١٥٤] وهذه الآية ذكرها الله تعالى في سياق قوله في ذكر وقعة أحد : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ﴾(١)، يعني :

في وقعة بدر : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ [سورة الأنفال: ٤٩] هذه كلمات المنافقين دائما .

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٤] كون الإنسان في بيته لا يحميه من الموت ، لو قدر الله أنه يُقتل سيخرج من بيته ، يُساق إلى مصرعه ، فبقاؤكم في البيوت لا يحميكم من الموت ، إما أن يأتيكم الموت وأنتم في بيوتكم ، وإما أنكم تخرجون إليه وتبرزون له ، قال تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [سورة النساء : ٧٨] ولو كنتم في بروج مشيدة ومحمية وحصون ما يمنعكم هذا من الموت إذا قدر الله ، إما أن ينزل عليكم وأنتم في حصونكم ، وإما أن تخرجوا أنتم من هذه الحصون وتبرزوا للموت ، هذا هو الإيمان بالقضاء والقدر وهذا هو التوحيد .

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ : هذا ظن الجاهلية - والعياذ بالله - أما ظن أهل الإيمان وأهل العلم فهو الظن الحسن بالله ﷻ ، حسن الظن بالله مهما كان الأمر ، يعلمون أن ما أصابهم فإنه لحكمة ولصالحهم سواء كان خيراً أو شراً ، إن كان خيراً فهو نعمة من الله وإن كان شراً وعقوبة فإنه تمحيص وتطهير للمسلمين وتنبيه لهم على أخطائهم حتى يستدركوها ولئلا يعجبوا بأنفسهم ، وليتميز المؤمن من المنافق ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٩] فلو كان الأمر نعمة دائمة ورخاءً دائم ونصر دائم ما تميز المنافق من المؤمن لكن إذا جاءت الشدائد انحاز المنافقون وظهروا وتكلموا ، وهذا في كل زمان ومكان وما هو واقع الآن يدل على هذا ، الآن كلام المنافقين وكلام الأشرار كثير في المسلمين كثير في أهل الخير وأهل العلم وأنهم وأنهم ، الكلام في ولاة أمور المسلمين كله من النفاق .

(١) ﴿ طَائِفَةً مِّنكُمْ ﴾ : يعني من المؤمنين هم أهل الثبات والتوكل على الله والإيمان الصادق ، هؤلاء أصابهم النعاس ولا ينعس إلا إنسانٌ آمن مع أنهم في المعركة وفي وسط الدماء ووسط القتلى وبين الأعداء ومع هذا يأخذهم النعاس .

أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق ، وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله ﷺ وينجز له مأموله(١) ولهذا قال : ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ ، يعني : لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف(٢) ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٤](٣) كما قال تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ [سورة الفتح : ١٢](٤) وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة(٥) ، قال العلامة ابن القيم(٦) ﷺ : (وقد فُسِّر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأنه

---

(١) وإذا ما وقع ذلك لا يعني أن الأمر انتهى وانقطع الدين ولن يرجع .

(٢) لأنهم ما عندهم إيمان يذهب عنهم الجزع .

(٣) هذا الذي أذهب عنهم النوم أنهم يسيئون الظن بالله .

(٤) هذا ظن المنافقين ، لما ذهب الرسول ﷺ إلى غزوة تبوك قال المنافقون : يظنون أن الروم مثل العرب ، كأنهم يؤتى بهم مقرنين في الأصفاد ، يظنون أن غزو الروم مثل غزو العرب .

(٥) قال أبو سفيان لما وقف : أفيكم محمد ؟ أفيكم أبو بكر ؟ أفيكم عمر ؟ النبي ﷺ قال لهم : اسكتوا لا تجيبوا إلا أن عمر لم يصبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال : كل هؤلاء أحياء وقد بقي لك ما يسوؤك ، فلما قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، قال الرسول ﷺ : أجيبوه ، قالوا : ماذا نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم .

(٦) ابن القيم ﷺ تكلم على غزوة أحد في كتابه « زاد المعاد في هدي خير العباد » في ذكر غزوات الرسول ﷺ وما فيها من الفقه والحكم ، ولما جاء على غزوة أحد تكلم فيها بكلام طويل يكتب بماء الذهب من حسنه ودقته وفقهه ﷺ من ذلك ما ذكره المصنف هنا ، ذكر منه جملة مختصرة والباقي ترجعون له في زاد المعاد ترون العجب العجاب مما بَرَّز به هذا الإمام ﷺ .

لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل(١) وفُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته(٢) ، ففسر بإنكار حكمته وإنكار القدر أن يتم أمر

---

(١) فُسِّر بأن الله لا يظهر هذا الدين ، وأن هذا الدين سيضمحل مثل غيره من المذاهب والمبادئ الهدامة يظهر شيء ثم يطفو ، يظنون أن الرسول مثل غيره من المتنبئين الكذبة أو الرؤساء ، أنهم وإن ظهروا في بعض الأحيان وصار لهم قوة لكن يتلاشى أمرهم ويذهب ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [سورة الطور : ٣٠] انتظروا هذا شاعر مثل غيره من الشعراء يموت ثم يموت شعره ، هكذا ظنوا بالرسول ﷺ ، فهذا الرسول أمره سيضمحل مثل غيره من المذاهب والمبادئ والدعوات ، هذا ظنهم بالله وبرسوله ، وهذا موجود الآن ، أن الدين تقاليد بالية وعادات قديمة ورجعية وكذا وكذا ، يتكلمون الآن بهذا الكلام في كتبهم وفي صحفهم وجرائدهم ، كل قوم لهم وارث .

(٢) ذكر هنا ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن أمر الرسول سيضمحل ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [سورة الفتح : ١٢] ، سيضمحل هذا الرسول ويُقتل ويُقتَل من معه .

الأمر الثاني : فسروه أن ما جرى ليس بقضاء الله وقدره ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ يعني ما في قضاء وقدر ، الأمر راجع إلى تصرفات الناس ، وهذا إنكار للقدر .

الأمر الثالث : وفسر بإنكار الحكمة ، وأن ما جرى من المصيبة التي حصلت على المسلمين في أحد ليس لحكمة إلهية ، وإنما هو أمر خال من الحكمة ، وكأنه عبث من الله تعالى ، كيف أن الله تخلى عن رسوله وعن عباده المؤمنين ومكّن الكفار شيء من التمكين بزعمهم ، يقولون : هذا ليس بحكمة . الحكمة أن المسلمين دائماً يكونون منتصرين ، وأن الكفار دائماً مهزومون ومنحطون ، الله تعالى حكيم يداول الأمور ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٠] لو أن الإسلام منتصر دائماً ما كفر أحد ؛ لأنهم يريدون النصر ويريدون العز فالله يجري ما يجري من المكروه ليثبت أهل الإيمان ، وأما أهل النفاق فإنهم يتراجعون عند أول هزة وينكشف أمرهم وهذا من حكمة الله ﷻ ، يجري على أهل الإيمان مصائب وعلى الأولياء مصائب ، لا لأن الله يبغضهم أو أنه يريد أن يهلكهم ، =

رسوله[1] ، وأن يظهره على الدين كله ، وهذا هو ظن السوء ، الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة « الفتح » وإنما كان هذا ظن سوء ؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه ، وما يليق بحكمته ، وحمده ووعده الصادق فمن

ولكن ليمحصهم ولينبههم على أخطائهم حتى يتداركوها ولأجل أن يميز المؤمن من المنافق ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٧] وأيضاً ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، فما يجري على المؤمنين تمحيص ، وما يجري على الكفار محق وإزالة ، فالله تعالى له حكمة فيما يجري من الخير والشر ، وليس أن الأمور تجري بدون حكمة أو أنها تجري على العادة والمألوف فقط ، إنما هي لحكمة إلهية عظيمة ، مما يدلكم على هذا أن هذا الدين منذ جاء به النبي ﷺ إلى أن تقوم الساعة رغم أن أهل الأرض كلهم ضد هذا الدين ، وكلهم يريدون القضاء عليه مع ما عندهم من القوة والإمكانيات ومع هذا الدين ثابت ثبات الجبال لا يتزحزح ولم يتغير منه شيء كما أنزل على محمد ﷺ فأهل السلاح وأهل القوة ما قضوا عليه بقوتهم وأهل الكذب والتدجيل الذين كذبوا على الإسلام وكتبوا عن الإسلام وشوهوا الإسلام ما حصلوا شيء ، الدين ثابت ، الذين كذبوا على الرسول ووضعوا الأحاديث واختلقوا الأحاديث ونسبوها إلى الرسول ما دخلت في سُنَّة الرسول ﷺ بل عُزلت عزلاً تاما وأصبحت سُنَّة الرسول ﷺ محفوظة محروسة ، الذين كرهوا القرآن وقالوا أساطير الأولين ما استطاعوا يغيرون حرفاً من القرآن ولن يغيروا ، لأن الله يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩] .

(١) ثلاثة تفاسير : إنكار الحكمة ، وأن ما يجري ليس لحكمة ولو كان لحكمة ما انتصر الكفار وانهزم المسلمون هكذا يقولون .

أو أنه ليس بقضاء الله ، لو أن الله قضى وقدر ما انهزم المسلمون ولم ينتصر الكفار ، فدل أن الأمر ليس فيه قضاء وقدر ، هذا تعجيز لله تعالى ، أو سلموا بأنه قضاء وقدر وأنه لحكمة ولكن قالوا : هذا يدل على أن أمر الرسول سينتهي ولا يبقى ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [سورة الفتح : ١٢] يعني هالكين بظنكم هذا .

ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق[١] ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره[٢] ، أو أنكر أن يكون قدَّره لحكمة بالغة[٣] يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ، فذلك ظن الذين كفروا ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [سورة ص : ٢٧][٤] .

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم[٥] ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده[٦] فليعتن اللبيب والناصح لنفسه

---

(١) يعني ينقطع الحق ويفنى ، وهذا ظن بالله ظن السوء .

(٢) أن ما جرى ليس بقضاء الله وقدره ، وإنما هو من فعل العباد وتصرفات العباد دون قضاء من الله وقدر ، هذا ظن بالله ظن السوء وعجَّز الله ، زعم أن الله عاجز وأنكر ركناً من أركان الإيمان وهو ركن الإيمان بالقضاء والقدر .

(٣) أو أنه قدَّره لكن لا لحكمة ، لو كان عند الله حكمة ما انتصر الكفار على المسلمين بزعمه ، فدل هذا على أنه لغير حكمة - تعالى الله عما يقولون - ، الله يصيب المسلمين لحكم عظيمة منها : تمييز المنافق من المؤمن ، ومنها : تطهير المسلم من الذنوب والمعاصي ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة آل عمران : ١٤١] ومنها : أن يثبت الحق ؛ لأنه إذا جاء الحق عن جهاد وعن جلاد وعن مداولات هذا أثبت له وأبقى له .

(٤) نعم أهل الإيمان أثبتوا القضاء والقدر والحكمة لله ﷻ ، أهل الكفر منهم من أثبت القضاء والقدر ونفى الحكمة ، ومنهم من أثبت الحكمة ونفى القضاء والقدر ، فلابد من جمع الأمور الثلاثة : إثبات القضاء والقدر ، وإثبات الحكمة لله ﷻ .

(٥) يقول : هذا يوجد في الناس ، هذا الظن ليس في ناس مضوا وانقضوا في وقعة أحد أو في صلح الحديبية ، بل هذا مستمر في الناس منهم من يظن بالله ظن السوء .

إذا وقع على نفسه شيء يظن بالله ظن السوء ، يتهم الله ﷻ بالظلم والجور ولا يتهم نفسه بالإساءة والذنب ولا يحاسب نفسه ويتوب إلى الله ؛ بل يقول : أنا ما أستحق هذا .

(٦) لا يعرف هذا الأصل العظيم وهو الإيمان بالقضاء والقدر والإيمان بالحكمة البالغة لله

=

بهذا(١) وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء(٢) ، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له(٣) ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا فمستقلٌّ ومستكثر(٤) وفتِّش نفسك هل أنتم سالم ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وإِلاَ فإِنِّي لاَ إِخَالكَ نَاجِيَاً(٥))

ﷻ إلا من عرف الله وعرف أسماءه ، فمن أسماء الله : الغفور ، التواب ، الرحيم ومن أسمائه : شديد العقاب ، الجبار ، عزيز ذو انتقام . فمن عرف أسماء الله وصفاته فإنه حينئذ لايشكل عليه هذا الأمر ؛ لأن هذا هو مقتضى أسماء الله وصفاته .

(١) لأن الإنسان لا يزكي نفسه فيقول هذا الكلام في ناس ذهبوا ، لا ، هذا ليس بتاريخ قد مضى ، بل هذا موجود ومضطرد في الخلق إلى أن تقوم الساعة ، ففتش نفسك قد يكون فيها ظن بالله ظن السوء .

(٢) حاسب نفسك وفتش نفسك فيما يجري عليك وما يجري على غيرك هل أنت ممن يحسن الظن بالله ؟ أو أنت ممن يسيء الظن بالله ﷻ في هذه الأمور ؟

(٣) نعم هذا باقي في الناس ، منهم من يلوم القدر ويتعنت عليه فيتهم الله ﷻ في أحكامه بالجور والظلم وعدم الحكمة .

(٤) يقترح على الله أنه ليس من المناسب أن يكون كذا وإنما المناسب أن يكون كذا وكذا ، ويعترض على الله ﷻ ، منهم من يأخذه سوء الظن بالله ﷻ مثل ما أخذ المنافقين والمشركين ، ومنهم من يكون عنده إيمان ولكن يعتريه شيء من سوء الظن بالله ولو كان يسيراً(*) .

(٥) نعم فتش نفسك هل أنت سالم من سوء الظن بالله ؟ حاسب نفسك عند القضاء والقدر وما يجري في هذا الكون هل أنت ممن يرضون عن الله ، ويرضون عن قضاءه وقدره ، ويؤمنون بحكمته وأنه ما يجري شيء إلا لحكمه ؟ أو أنـه عنـدك شيء من سوء الظن بالله

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – عن قول بعض الناس عندما يسأل عن شخص فيقال : إنه مريض ، فيقول : ما يستاهل ، فهل هذه الكلمة من سوء الظن بالله ؟ فأجاب : نعم هذه كلمة قبيحة ، كأنه اعتراض على الله ﷻ . المريض من صالحه المرض ، أنه يتوب ويرجع إلى الله ، وينكسر الكبر في نفسه والعُجب ، وتمحيص لذنوبه أيضاً . أ.هـ .

=

قوله : ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾[1] [سورة الفتح : ٦] قال ابن جرير في

ﷻ ، فإن كان عندك شيء من سوء الظن بالله فتب إلى الله ﷻ ، وهذا إنما يحصل فيمن تفقه في دين الله ودرس كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ودرس السيرة النبوية ودرس التاريخ ، حتى يعلم الحكمة في أفعال الله تعالى ، ونظر فيما جرى على الناس من المداولات والمغالبات ونظر هل الباطل مع ظهوره بعض الأحيان يستمر أو لا ؟ وهل الحق مع إصابته وامتحانه هل هو زال أم بقي ؟ ينظر هذا وينظر الإسلام على مدار التاريخ هل تغير ؟ هل نقص ؟ هل أحد تصرف فيه بعدما حفظه الله ﷻ ؟ هذا من حكمه ﷻ ينظر للكفار الذين أعطوا قوة وهيلمة هل بقيت دولتهم ؟ هل استمرت ؟ فالإنسان يتأمل في الأحداث وما يجري في هذا الكون حتى يدله ذلك على قوة الإيمان وصحة اليقين ، إذا فسّر الأحداث تفسيراً صحيحاً فإنه يستفيد منها فقراءة التاريخ هي لأجل هذا ، لا لأجل التسلية ، أو لأجل تقطيع الوقت ، قراءة التاريخ من أجل الاعتبار ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [سورة يوسف : ١١١] الإطلاع على أخبار الأمم والشعوب هذا فيه فوائد عظيمة ليس للتسلى فقط ، وتقطيع الوقت أو الاطلاع فقط بل للاعتبار والاتعاظ ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة الأنعام : ١١] ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الحج : ٤٦] فالذين يذهبون للآثار لا يذهبون للاتعاظ والاعتبار وإنما يذهبون للإعجاب بأهل الحضارات وأهل العصور الأولى وأنهم أهل حضارة وأهل قوة فقط ، فلا يعتبر بما جرى لهم وآل أمرهم إليه وهذه آثارهم لم تغن عنهم ، لو يعتبر هذا الاعتبار لاستفاد ، أما أنه يذهب للإعجاب بها والثناء على أهل هذه الحضارة والقوة فهذا يزيده شرا .

(١) قال الله ﷻ : ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا . وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [سورة الفتح : ٥ - ٦] قدم المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات ليدل هذا على أن خطر المنافقين أشد من خطر المشركين والمشركات ، ودل على أن النساء فيهن منافقات - والعياذ بالله - كما أن النساء فيهن مؤمنات ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ
=

« تفسيره » : (﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ ﴾ [سورة الفتح : ٦] أي : الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك ، ولن يظهر كلمته ، سيجعلها العليا على كلمة الكافرين به ، وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع) . وقال ابن كثير : (﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ ﴾ [سورة الفتح : ٦] أي : (يتهمون الله في حكمه ، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ ﴾ [سورة التوبة : ٩٨]) .

وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ ﴾ في آية آل عمران : ظن الجاهلية ، وفي هذه الآية ظن السوء ، ليس ظن الحسن وإنما هو ظن سيء يسيئون الظن بالله وأنه لا ينصر رسوله ولا يعلي كلمته وأن هذا الذي جاء به محمد لا يثبت ولا يبقى ، وسينكشف في يوم من الأيام ، فلذلك لم يخرجوا مع الرسول ﷺ يوم الحديبية وغزوة خيبر ، تخلفوا عن الرسول ﷺ ، ﴿ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ ﴾ الذين تخلفوا وما خرجوا معه ، يعتذرون ﴿ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ﴾ [سورة الفتح : ١١] ليس الأمر كما تقولون : شغلتكم أموالكم وأهلوكم ؛ بل الذي منعكم النفاق وسوء الظن بالله ﷻ ، ﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا ﴾ قالوا أنهم هالكين لن يرجعوا سيقتلهم الكفار هذا ظنهم والعياذ بالله ﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾ [سورة الفتح : ١٢] هذه حالة المنافقين مع الشدائد ومع مواقف الإيمان يمتازون وينحازون عن المؤمنين ويظهر نفاقهم وشرهم في كل زمان ومكان .

٦٠ - باب ما جاء في منكري القدر

وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : « والذي نفس ابن عمر بيده ، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ، ثم أنفقه في سبيل الله ؛ ما قبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر » ، ثم استدل بقول النبي ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » رواه مسلم .

وعن عبادة بن الصامت ، أنه قال لابنه : يا بني ! إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . فقال : رب ! وماذا أكتب ؟ قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات على غير هذا ؛ فليس مني » .

وفي رواية لأحمد : « إن أول ما خلق الله تعالى القلم ، فقال له : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » .

وفي رواية لابن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : « فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره ؛ أحرقه الله بالنار » .

وفي « المسند » و« السنن » عن ابن الديلمي ؛ قال : « أتيت أُبيّ بن كعب ، فقلت : في نفسي شيء من القدر ؛ فحدثني بشيء ، لعل الله يذهبه من قلبي . فقال : لو انفقت مثل أحد ذهباً ؛ ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا ؛ لكنت من أهل النار . قال : فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت ؛ فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ » . حديث صحيح ، رواه الحاكم في « صحيحه » .

٦٠ - باب ما جاء في منكري القدر

قوله : (باب ما جاء في منكري القدر)(١) أي : من الوعيد ، قوله : قال

---

(١) أي : من الوعيد الشديد ، وبيان حكمهم ، والقدر : هو ما قدره الله ﷻ في الأزل وكتبه في اللوح المحفوظ مما يجري في هذا الكون من أول الخليقة إلى آخرها فما يجري شيء إلا وقد قدره الله تعالى وكتبه في اللوح المحفوظ وشاءه وخلقه ﷻ . والإيمان بالقضاء والقدر هو أحد أركان الإيمان الستة التي وردت في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مجيء جبريل ﷺ إلى الرسول ﷺ وسؤاله وأصحابه حاضرون كما يأتي . فهو أحد أركان الإيمان الستة التي من لم يؤمن به فقد جحد ركناً من أركان الإيمان ، ومن جحد ركناً من أركان الإيمان لم يكن مؤمناً ، فالقضاء والقدر من أفعال الله ﷻ وتدبيراته ، وقد ذكر العلماء أن الإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربع مراتب :

المرتبة الأولى : أن الله علم كل شيء في الأجل قبل أن يخلق السماوات والأرض ، علم ما كان وما سيكون ﷻ .

المرتبة الثانية : أنه كتب ذلك في اللوح المحفوظ فما من شيء يقع إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ .

المرتبة الثالثة : أن الله شاء حدوث هذه الأشياء ، حدثت ووقعت بمشيئته وإرادته ﷻ .

المرتبة الرابعة : أن الله ﷻ خلق هذه الأشياء التي تقع ، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الزمر : ٦٢] ، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات :٩٦] فالإيمان بالقضاء والقدر يتضمن هذه المراتب الأربع ، من جحد واحدة منها لم يكن مؤمناً بالقضاء والقدر(*) .

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يحدث عندهم شيء أو إشكال في هذا الأمر ، ولم يبحثوا فيه لقوة إيمانهم واعتمادهم على سنة الرسول ﷺ ، وتركهم للبحث فيما لا فائدة لهم فيه ، ولكن في أواخر عهد الصحابة نبتت نابتة في العراق أنكرت القضاء والقدر ومن أولهم : معبد الجهني ، وعمرو بن عبيد وغيرهم من أقطاب القدرية ، وورث هذا عنهم المعتزلة ،

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – : هل يجب الإيمان بمراتب القضاء والقدر على وجه الترتيب ؟ فأجاب : لابد من هذا ، نقول : هي على وجه الترتيب : أولاً : العلم ، ثانياً : الكتابة في اللوح المحفوظ ، ثالثاً : المشيئة والإرادة أنه لا يقع شيء إلا بمشيئة الله وإرادته ، رابعاً : الخلق أنه لا يحصل شيء إلا بخلق الله ﷻ وإيجاده ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الزمر : ٦٢] أ.هـ .

ورثوا هذا المذهب الخبيث فأنكره من حضر من الصحابة كما يأتيكم في الباب ، أنكروا هذا المذهب الخبيث ، لكنه نمى وترعرع وتبناه من تبناه من الأشقياء وباؤوا بالخسران المبين ولم يتوصلوا إلى شيء ، وليس لهم من حجة يعتمدون عليها لا من الكتاب ولا من السنة ، بل الحجج ضدهم ولكن يقولون : كيف أن الله يقدر الكفر والمعاصي ويعذب عليها ، هذا بزعمهم ظلم من الله - تعالى الله عن ذلك - لأنهم لم يفهموا أسرار الله في خلقه ، فنقول لهم : إن الله لا يعذب على القضاء والقدر ؛ إنما يعذب العباد على أفعالهم التي فعلوها باختيارهم وبإرادتهم ، فهم فعلوا الكفر بإرادتهم وقدرتهم وفعلوا المعاصي والسيئات بإرادتهم واختيارهم ومشيئتهم لا أحد أجبرهم عليها وهم يقدرون على تركها ، ويقدرون على فعل الطاعات والله لا يعذبهم على القدر وإنما يعذبهم على أفعالهم فيجازي المحسنين بإحسانهم ويجازي المسيئين بإساءتهم ، ولا يعذب أحداً على غير فعله ، ولا يعذب أحداً بفعل فعله بغير اختياره ، المكره لا يعذب وكذلك المجنون والصغير والذي ليس عنده عقل ولا إرادة ولا اختيار هذا أيضاً لا يعذب ، إنما يعذب من فعل المعاصي باختياره وقدرته ومشيئته وهو يقدر على تركها لو أراد ، فهذا عدل منه ﷻ أنه يعذبهم بأفعالهم ، ولكنه قدرها عليهم لحكمة منه ﷻ ، فهي بقضاء الله وقدره وهي بأفعالهم وإرادتهم ، فهم من هذه الناحية معذبون على أفعالهم وعلى إرادتهم ، وأما القضاء والقدر فهذا من شأن الله تعالى ولا يُسأل عما يفعل ﷻ ، إنما يسألون على أفعالهم : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٣] ولو كان القضاء والقدر حجة لأحد لكان حجة لإبليس فإن إبليس احتج بالقضاء والقدر ، ولم ينفعه ذلك ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الأعراف : ١٦] هذا ليس حجة وإنما لو تاب إلى الله ورجع تاب الله عليه ، ولكنه لم يتب بل إنه احتج بالقضاء والقدر .

وآدم ﷺ لما عصى اعترف بذنبه وتاب إلى الله ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف : ٢٣] آدم لم يحتج بالقضاء والقدر ؛ بل أرجع اللوم إلى نفسه واعترف بذنبه فغفر الله له ، فهذا هو واجب العبد ، أنه إذا أذنب وأخطأ يرجع على نفسه باللوم ، ويتوب إلى الله عز وجل ، لا أنه يحتج بالقضاء والقدر على طريقة إبليس ولم تنفعه ، بل زادته من الله بعداً ولعنة ، هذا هو الواجب على العبد أنه يعمل الطاعات والحسنات ويترك السيئات ولو وقع في الذنوب والمعاصي فعنده باب التوبة يتوب إلى الله لا أنه يحتج

=

ابن عمر : « والذي نفس ابن عمر بيده ... » حديث ابن عمر هذا أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن يحيى بن يعمر ، قال : « كان أول من تكلم في القدر بالبصرة معبد الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفّق الله لنا عبد الله بن عمر داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ فقلت : أبا عبد الرحمن ، إنه ظهر قِبَلنا أناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم[1] ، يزعمون ألا قدر[2] ، وأن الأمر أنف[3] فقال :

بالقضاء والقدر هذا لا يجديه شيئاً ؛ بل الذي يجديه أنه يعترف بذنبه ويتوب إلى ربه والله يتوب على من تاب ، الله ما أغلق الباب دونه بل فتح له الباب وأمره بالتوبة ووعده أن يتوب عليه ويمحو عنه الذنوب ، فإذا أذنب واحتج بالقضاء والقدر أضاف ذنباً إلى ذنب ، وإذا أذنب وتاب إلى الله فإن الله يتوب عليه هذا هو واجب العبد في هذه القضية العظيمة ولا يدخل الإنسان في السؤال عن القضاء والقدر ؛ لأنه لن يصل إلى نتيجة لأنه سر ، القضاء القدر سر الله تعالى في خلقه ، فلا يخاصم ربه ويدخل مع الله في جدال ، بل يرجع إلى العمل الصالح والتوبة من الذنوب ، هذا الذي ينفعه ويجديه ، وأما تساؤلاته عن القضاء والقدر ولماذا ولماذا ؟ هذا لن يجدي شيئاً ، ولن يصل إلى نتيجة ؛ لأن الله أخفى هذا الشيء عن عباده .

(١) يعني يدَّعون العلم .

(٢) يعني متعالمين لم يتمكنوا من العلم ، ومع هذا يتكلمون في أمور عظيمة يتهيب الكلام فيها الراسخون في العلم ، وهؤلاء يتخوضون فيها ، وهذه علامة الضلال - والعياذ بالله - ومن قلة الحياء من الله ﷻ أن إنساناً مبتدئاً في طلب العلم يخوض في مسائل عظيمة في أصول العقيدة .

(٣) يعني أن الأمر ما قُدِّر سابقاً ، وإنما الأمر حادث جديد لم يسبق أنه قُدِّر .

إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم[1] ، وأنهم برءاء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر[2] ثم قال : حدثني عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : « كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد[3] حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبته ، ووضع كفيه على فخذيه[4] ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، قال : الإسلام ؟ أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ،

---

(١) كما تبرأ منهم رسول الله ﷺ ، فالمسلمون يتبرأون ممن تبرأ منهم رسول الله ﷺ ، ورسول الله تبرأ ممن ينكرون القدر فنحن نتبرأ منهم .

(٢) فمن لم يؤمن بالقدر فإنها تحبط أعماله وهذا دليل على كفره ؛ لأنه أنكر ركناً من أركان الإيمان ، أرأيت لو أنه أنكر الرسل يكون مؤمناً ؟ لا ، كذلك إذا أنكر القدر ؛ لأن القدر ركن من أركان الإيمان ، كما أن الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان .
فابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما بلغه ظهور القدرية الذين ينكرون القدر حلف بالله فقال : « والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم » - أي الذين ينكرون القضاء والقدر « مثل أحد ذهباً » : كالجبل العظيم ، والذهب أنفس الأموال « ثم أنفقه في سبيل الله » : في طاعة الله في الجهاد في سبيل الله ، أعظم المصارف في سبيل الله ، ثم جحد بالقضاء والقدر لم يقبله منه .
هذا دليل على كفر منكري القضاء والقدر وأن هذا يحبط أعماله كالصدقة وغير الصدقة ، ثم ابن عمر لم يأت بهذا من عنده ، وإنما استدل بقول الرسول ﷺ .

(٣) وهذا من العجب أنه شديد بياض الثياب وشديد سواد الشعر ، ما عليه غبار من علامات السفر ، ومع هذا ما يعرفه أحد منهم .

(٤) هذا فيه بيان آداب طالب العلم أمام المعلم وأنه يجلس بأدب ويسأل المعلم بأدب ، هذا جبريل جلس إلى رسول الله ﷺ مجلس المتعلم ليعلم أصحابه كيف يطلبون العلم .

وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً[١] . قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه[٢] . قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره[٣] ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[٤] قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الساعة قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل[٥] قال : فأخبرني عن

---

(١) هذه أركان الإسلام وهي الأعمال الظاهرة خمسة أركان .

(٢) هذا عجب ثان أيضاً من هذا الرجل هو جاء يسأل ويقول للرسول : صدقت ، وهذا دليل على أنه عالم ، لأنه لو لم يكن عالماً لم يقل للرسول ﷺ : صدقت .

(٣) هذه أركان الإيمان ، فالإيمان يتكون من هذه الأركان الستة وآخرها أن تؤمن بالقدر خيره وشره ولابد من اجتماع أركان الإيمان وأركان الإسلام فلا يكون الإنسان مسلماً حتى يكون مؤمناً ، ولا يكون مؤمناً حتى يكون مسلماً لابد من اجتماع الأركان الظاهرة مع الأركان الباطنة .

وهذا هو الدليل على الباب : أن الرسول ﷺ عدَّ الإيمان بالقدر خيره وشره ركناً من أركان الإيمان الستة (تؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) فمن جحد القضاء والقدر فهو كمن جحد اليوم الآخر ، وكمن جحد الرسل ، وكمن جحد الكتب ، وكمن أنكر الله ﷻ ولم يؤمن به .

وجه الشاهد من قول ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، واستدلاله بهذا الحديث : أن من أنكر القضاء والقدر حبط عمله ؛ لأنه أنكر ركناً من أركان الإيمان .

(٤) الإحسان هو المرتبة العليا ، أولاً الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان هو أعلاها ، هذه درجة المقربين ، أن تعبد الله كأنك تراه على اليقين التام ، فإن لم تكن تراه فإنك تعبده على أنه هو يراك فتخافه وتخشاه .

(٥) يعني قيام الساعة متى ؟ أخبرني عن وقت قيامها ، قال ﷺ : مَا المسؤول عنها وهو الرسول بأعلم من السائل وهو جبريل ، فالرسول ﷺ وجبريل والملائكة والرسل كلهم لا يعلمون وقت قيام الساعة لأن هذا مما اختص الله تعالى به علمه .

أماراتها ؟[(١)] قال : أن تلد الأمة ربتها[(٢)] وأن ترى الحفاة العراة العائلة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان[(٣)] قال : فانطلق فلبثنا ملياً[(٤)] ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : إنه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم »[(٥)] .

قوله : وعن عبادة بن الصامت ، حديثه هذا رواه أبو داود ، ورواه الإمام

---

(١) أي : العلامات التي إذا وقعت تدل على قربها ، وهذه يعلمها الرسول ﷺ ويعلمها أهل العلم كما بينها لهم رسول الله ، كما قال تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [سورة محمد : ١٨] يعني علاماتها ، فلها علامات في آخر الزمان يعرفها الناس ، ويعرفون بها قرب قيام الساعة .

(٢) هذه علامة : أن تلد الأمة ربتها أي : سيدتها ، تلد المملوكة مالكتها أي سيدتها . كيف يكون ذلك ؟ قال بعضهم : معنى ذلك ، أنه يكثر العقوق في آخر الزمان فتصبح البنت كأنها سيدة لأمها في العقوق والتكبر والتعالي عليها ، وقال بعضهم : إن معنى هذا أنه يفشي التسري في آخر الزمان ، وتملك المملوكات حتى يطأ السيد أمته فتنجب منه بنتاً ، فالبنت تكون سيدة لأمها ؛ لأن الأم مملوكة والبنت حرة هذا معنى أن تلد الأمة سيدتها .

(٣) هذا والله أعلم قد وقع الآن وهو انتشار العمران في الأرض وأن البادية والأعراب استوطنوا المدن ودخلوا في التجارات والوظائف ، وصاروا وصاروا يبنون العمارات والأدوار الشاهقة وهم كانوا في الأول رعاة يتبعون الأغنام ، ويسكنون بيوت الشعر .

(٤) طلع الرجل من عندهم ، فلبثوا ملياً : وقتاً . ثم قال : أتدرون من السائل ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم وفي رواية أنه قال : اطلبوا الرجل ، فخرجوا يطلبونه فلم يجدوه فقال : إنه جبريل ، وجبريل يأتي إلى الرسول ﷺ في صورة رجل لا يأتيه في صورة مَلَك لأن خلقة الملائكة عظيمة لا يطيق البشر رؤيتهم ، ولم يره الرسول ﷺ على خلقته إلا مرتين : مرة في بطحاء مكة ، ومرة ليلة المعراج حينما عُرج به إلى السماء .

(٥) هذا الحديث فيه فوائد عظيمة الشاهد منه للباب أنه ذكر أن الإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان الستة .

أحمد بكماله قال : حدثنا الحسن بن سوار ، حدثنا ليث ، عن معاوية ، عن أيوب بن زياد ، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة ، حدثني أبي ، قال : (دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت : يا أبتاه وصني واجتهد لي ، قال : أجلسوني ، ثم قال : يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، قلت : يا أبتاه وكيف أعلم ما خير القدر وشره قال : أن تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك[1] يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم[2] فقال له : اكتب فجرى في تلك

---

(١) هذا عباده بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد السابقين الأولين إلى الإسلام ، كان في سياق الموت فجاءه ابنه فقال : يا أبت أوصني قال : أجلسوني ، فأجلسوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال : يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك لم يكن ليصيبك ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ ... إلخ . هذا فيه : أن من لا يؤمن بالقضاء والقدر لا يجد طعم الإيمان ، وفيه نفي الإيمان عمن لم يؤمن بالقضاء والقدر . وطعم الإيمان هي الراحة القلبية والطمأنينة النفسية التي يجدها المؤمن عندما يصيبه شيء فإنه لا يكترث ، بل يعلم أن هذا قضاء وقدر ويرضى بهذا ويُسلِّم ، هذه فائدة الإيمان بالقضاء والقدر أن من آمن به وجد طعم الإيمان ، وهي الطمأنينة والراحة النفسية ، وأنه يصبح مطمئن القلب قرير العين ، إن أصابته سراء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر لإيمانه فلا يبطر عند النعمة ولا يكفر عند النقمة ، طمأنينة ثابتة في قلبه هذه فائدة الإيمان بالقضاء والقدر ، ومفهوم ذلك أن من لم يؤمن بالقضاء والقدر فإنه يفقد هذا الطعم وهذه الطمأنينة ، بل يصبح في قلق وفي همٍّ وفي غم وحزن لا يشكر عند نعمه ولا يصبر عند نقمة ؛ لأنه مضطرب الاعتقاد مضطرب القلب .

ثم استدل عبادة بحديث رسول الله ﷺ ، وهذه طريقة الصحابة الراسخين في العلم أنهم يذكرون الدليل على ما يقولون ولا يأتون بشيء من عند أنفسهم .

(٢) القلم مخلوق من مخلوقات الله ﷻ ، خلقه الله للكتابة يكتب بأمر الله ، فأول ما خلقه الله =

قال له : اكتب قال : وما أكتب قال : اكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، فهذا فيه دليل على أن كل شيء يحدث في هذا الكون من أوله إلى آخره أنه مكتوب في اللوح المحفوظ ، وأنه ليس اعتباطاً وإنما هو شيء سابق مقدر مكتوب لابد من وقوعه شئنا أم أبينا ولو اتخذنا جميع الاحتياطات لمنعه ما قدرنا ، المقدر لابد أن يقع ، فإذا آمنت بذلك اطمأنت نفسك وارتاح ضميرك وزاد يقينك بالله ﷻ . فهذا فيه أن القلم مخلوق ، وأنه كتب بأمر الله ولكن ما معنى قوله : (أول ما خلق الله القلم) ؟ هل القلم هو أول المخلوقات ؟ هذا ظاهر الحديث إذا روي : أول ما خلق الله القلم ، مبتدأ وخبر . أول : مبتدأ ، القلم : خبر فيكون القلم أول المخلوقات . وأما على قراءة : أول ما خلق الله القلم ، فهذا فيه أن الله أمر القلم حينما خلقه فقال له : اكتب وليس هو أول المخلوقات ، بل المراد الإخبار بأن الله أمر القلم بالكتابة أول ما خلقه فيكون ليس هو أول المخلوقات ، فيكون الكلام جملة واحدة « أول ما خلق الله القلم قال له : اكتب » هذه جملة واحدة . أما على الرواية الأولى : « أول ما خلق الله القلم » هذه جملة مستقلة « قال له : اكتب » هذه جملة ثانية ، وعلى التقدير الثاني ، الكلام كله جملة واحدة « أولَ ما خلق الله القلم قال له : اكتب » وفي رواية « إن أول ما خلق الله القلم قال له : اكتب » جملة واحدة ، فيكون المعنى : أن الكتابة تزامنت مع خلق القلم ، وليس معناه الإخبار أن القلم هو أول المخلوقات ، بل أول المخلوقات هو العرش كما قال سبحانه : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ . وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [سورة هود : ٦ - ٧] فدل على أن العرش سابق لخلق السماوات والأرض ، سابق لخلق القلم ، فأول ما خلق الله العرش قبل السماوات والأرض وقبل الكتابة ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ وفي الحديث الآخر : أن الله ﷻ أمر القلم بالكتابة قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء(*) هذا في الحديث الصحيح . فدل الحديث على أن العرش قبل السماوات والأرض وأن السماوات والأرض قبل القلم هذا ما تدل عليه الأدلة .

ولهذا يقول العلامة ابن القيم في « النونية »(**) :

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٠٤٤ (٢٦٥٣) ولفظه : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء » .

(**) الكافية الشافية ص ٦٧ (٩٩٠ - ٩٩٣) .

الساعة ما هو كائن إلى يوم القيامة »[١] ، يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار)[٢] رواه الترمذي بسنده المتصل إلى عطاء بن أبي رباح ، وفي هذا الحديث : بيان شمول علم الله وإحاطته بما كان ويكون[٣] ، كما في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [سورة الطلاق : ١٢] الآية[٤] والآيات في إثبات القدر كثيرة ، وقد استدل العلماء على إثبات

والنَّاسُ مختَلِفُونَ في القَلَم الَّذِي ... كُتِبَ القَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كَانَ قَبلَ العَرشِ أَوْ هُو بَعدَهُ ... قَولَانِ عِندَ أَبِي العَلَا الهَمَذَانِي
والحقُّ أَنَّ العرشَ قَبْلُ لأَنَّهُ ... قَبْلَ الكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَركَانِ
وكِتَابَةُ القَلَمِ الشَّرِيفِ تَعقَّبتْ ... إِيجَادَهُ مِنْ غَيرِ فَصْلِ زَمَانِ

هذا معنى « إن أول ما خلق الله القلم قال له : اكتب » فالمراد أن الله لما خلق القلم أمره بالكتابة مباشرة (تعقبت إيجاده من غير فصل زمان) بين خلق القلم وبين الكتابة - هذا كلام ابن القيم ﷺ وهو الصحيح .

(١) هذه إحدى مراتب القدر وهو الإيمان بالكتابة لأن ما يجري كله مكتوب في اللوح المحفوظ بأمر الله ﷻ .

(٢) هذا دليل على أن من أنكر القضاء والقدر أنه من أهل النار ، ولو أن أحداً من القدرية تاب إلى الله قبل الموت تاب الله عليه .

(٣) لأن الله علم ما كان وما يكون ثم أمر القلم فكتبه ، فكيف يأمر القلم بكتابة شيء لم يعلمه ﷻ .

(٤) هذا فيه دليل على أن الأراضين سبع .

﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ : أمْر الله ﷻ وهو القضاء والقدر ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ : هذا فيه مرتبة العلم ، وأنها محيطة بكل شيء مما جرى وما يجري إلى قيام الساعة .

القدر بشمول القدرة والعلم ، كما في الآية[١] قال الإمام أحمد ﷺ : القدر : قدرة الرحمن . وقال بعض الأئمة[٢] في نفاة القدر : (ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن جحدوا كفروا) [٣] قوله: وفي المسند والسنن : عن ابن الديلمي[٤] ، هو أبو بُسر - بالسين المهملة والباء المضمومة - فيقال : أبو بشر - بالشين المعجمة وكسر الباء - وبعضهم صحح الأول ، واسمه : عبد الله بن فيروز ، ولفظ أبي داود قال : « لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم[٥] ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً

---

(١) مادام أن الله علم هذه الأشياء فهو قدرها سبحانه فيلزم من إنكار القدر إنكار علم الله ، ويلزم من إثبات العلم إثبات القدر ، فمن أنكر القدر فقد أنكر العلم ، ومن أقر بالعلم وأنكر القدر فهو متناقض ، فلابد من إثبات الأمرين : العلم والقدر لهذا يقول الإمام الشافعي ﷺ : (ناظروهم بالعلم) ، يعني ناظروا القدرية بالعلم ، يعني احتجوا عليهم بالعلم ، (فإن نفوه كفروا) : إن نفوا علم الله كفروا ، (وإن أقروا به خصموا) .

(٢) وهو الشافعي ﷺ .

(٣) إن أقروا بأن الله علم كل شيء يلزمهم أن الله قدَّر كل شيء ، وإن نفوا علم الله بكل شيء كفروا بالله ﷻ .

(٤) ابن الديلمي هو عبد الله بن فيروز الديلمي نسبة إلى الديلم - جبل الديلم بالمشرق - أحد كبار التابعين وكان فارسياً ، هاجر أبوه (فيروز) إلى اليمن ، ولم بُعث الرسول ﷺ آمن به وأسلم ، فلما ظهر الأسود العنسي الذي يدَّعي النبوة باليمن قتله فيروز (أبو عبد الله) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٥) لأنه يعذبهم على تقصيرهم ؛ لأن أحداً لا يقوم بشكر الله ﷻ على نعمه مهما عمل من الطاعات فإنها لا تقابل نعمة واحدة من نعم الله عليك ، ولكن الله يتفضل ﷻ بمنه وكرمه فيدخل المحسنين الجنة بفضله ﷻ لا بأعمالهم ، أعمالهم لا توازن شيئاً من نعم الله عليهم ، لو حاسبهم الله على أعمالهم ما قابلت نعمة واحدة من نعم الله ﷻ ، ولكنه يدخلهم الجنة بفضله . والعمل الصالح سبب لدخول الجنة فقط .

لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر[١] وتعلم أن ما اصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك[٢] ، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار »[٣] فأتيت عبد الله ابن مسعود فقال مثل ذلك[٤] ، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك[٥] ،

(١) هذا مثل كلام ابن عمر : « لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما تقبله الله منه » كلام أبيّ بن كعب وكلام ابن عمر تطابقا في أن من لم يؤمن بالقضاء والقدر يحبط عمله ولو أنفق مثل أحد ذهباً ، هل أحد يقدر أن ينفق مثل أحد ذهباً ؟ لكن هذا من باب ضرب المثال ، أن هذا المال الكثير النفيس لو أنفق في سبيل الله ما نفع صاحبه وهو لا يؤمن بالقضاء والقدر بل يحبط عمله ، وهذا فيه دليل على أن إنكار القدر يحبط الأعمال ، ودلَّ على أنه كفر .

(٢) إذا قلت : ما معنى الإيمان بالقضاء والقدر ؟ هذا تفسيره جاء في الحديثين : أن الإيمان بالقضاء والقدر أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وهذا ما قاله النبي ﷺ لابن عباس في وصيته له لما أوصى ابن عباس قال له : « يا غلام إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ... إلى أن قال : واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك رفعت الأقلام وجفت الصحف »(*) هذه وصية الرسول ﷺ لابن عمه ابن عباس وهذا هو معنى الإيمان بالقضاء والقدر : أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، لابد أن يصيبك ما دام أنه مقدَّر ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو أنك فعلت كل الأسباب لتحصل شيئاً وهو ما قُدِّر لا يمكن أبداً ، فلا تتأسف وتقول : فاتني هذا الشيء وما حصلته ، هذا قضاء وقدر ، ولو قُدِّر لك لحصلته .

(٣) هذا أيضاً من الأدلة على كفر منكري القضاء والقدر ، وأن من مات على إنكار القضاء والقدر صار من أهل النار . هذه ألفاظ متظافرة في هذه الأحاديث تدل على أن إنكار القضاء والقدر كفر « لا يؤمن » « لا يجد طعم الإيمان » « أحرقه الله بالنار » « فليس مني » كل هذه ألفاظ تدل على كفره .

(٤) سأله مثل ما سأل أبيّ بن كعب والجواب طابق جواب أبيّ بن كعب .

(٥) قال مثل ما قال أبيّ ومثل ما قال ابن مسعود ثم أتى زيد بن ثابت فسأله فقال مثل ما قاله الثلاثة .

(*) سبق تخريجه في باب (قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ... ﴾) .

ثم أتيت زيد بن ثابت قال : فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك[(١)] وأخرجه ابن ماجه ، وهذه الأحاديث وما في معناها حجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم ، ومن مذهبهم : تخليد أهل المعاصي في النار[(٢)] ، وهذا الذي

---

(١) هؤلاء أربعة من صحابة رسول الله ﷺ كلهم تطابقت أقوالهم وفتواهم (أُبيّ بن كعب ، عبد الله بن مسعود ، حذيفة بن اليمان ، زيد بن ثابت) كلهم توافقوا على هذه الفتوى وقبلهم ابن عمر وعبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تطابقت أقوالهم وهم من كبار صحابة رسول الله ﷺ ، وهذا فيه دليل على مسألة عظيمة : أن من أشكل عليه شيء يرجع إلى أهل العلم ، ولا يرجع إلى المتعالمين وإلى الجهال ، أو يرجع إلى أهل الضلال ويسألهم ؛ بل يسأل أهل العلم الراسخين الأتقياء ، فهؤلاء ذهبوا إلى صحابة رسول الله ﷺ وهم أعلم أهل زمانهم وأتقى أهل زمانهم ، فالأولان جاءا من العراق إلى ابن عمر يسألونه في مكة فقال : « والذي نفسي بيده ... إلخ » .

وهذا عبد الله بن فيروز يسأل هؤلاء الصحابة الأجلاء ، فدل على أن أصول العلم وأصول الإيمان وأصول الدين أمر مهم يُرجع فيه إلى أهل العلم وإلى الأكابر من أهل العلم والرسوخ في العلم ، ولا يرجع فيه إلى الجهلة أو إلى المتعالمين أو إلى علماء الضلال أو علماء الزيغ فلا يرجع إلى هؤلاء في مثل هذه الأمور المهمة . والآن نجد أن طائفة من المتعالمين صاروا يجترون مسائل الإيمان ويناقشونها ويؤلفون فيها مؤلفات ، هل العمل من الإيمان ؟ أو خارج الإيمان ؟ أو .... أو ... فهذا من الضلال ، ومن مبادئ الشر ، فالواجب الرجوع إلى كتب أهل العلم القديمة والرجوع إلى أهل العلم والرسوخ في العلم في هذه المسائل وألا نجعل مسائل العقيدة ومسائل الإيمان ألوكة في ألسنة الناس يتلاوكونها في المجالس ، هل العمل من الإيمان ؟ أو خارج الإيمان ؟ أو هي شرط في الإيمان ؟ أو أو ... إلخ هل الإيمان هو التصديق ؟ كل هذه أمور لا يجوز الخوض فيها ؛ لأنها أمور مفروغ منها ومدروسة ومسجلة في كتب أهل العلم ، فلا يجوز لنا الآن أن نجعلها مجالاً للتساؤلات والتشكيكات ونسأل فيها ما هبَّ ودبَّ .

(٢) شاركوا الخوارج في تكفير أصحاب الكبائر وتخليدهم في النار ، وأهل السنة كما تعلمون يقولون : أصحاب الكبائر دون الشرك تحت المشيئة إن شاء الله غفر لهم وإن شاء عذبهم ، وإذا عذبهم فإنه لا يخلدهم في النار .

اعتقدوه من أكبر الكبائر ، وأعظم البدع ، وكثير منهم وافقوا الجهمية في نفي صفات الرب تعالى وتقدس[١] .

(١) زادوا المعتزلة أيضاً على شرهم إنكارهم للقدر وتخليد العصاة من المؤمنين في النار زادوا على هاتين الجريمتين ما هو أعظم منهما وهو إنكار أسماء الله وصفاته ، فهم أخذوا هذا عن الجهمية .

٦١ - باب ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ؛ فليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة » أخرجاه .

ولهما : عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله » .

ولهما : عن ابن عباس رضي الله عنهما ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل مصور في النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفس بعذب بها في جهنم » .

ولهما : عنه مرفوعاً : « من صور صورة في الدنيا ؛ كلف أن ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ » .

ولمسلم : عن أبي الهيَّاج ، قال : قال لي عليّ : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ : ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبرا مشرفا ؛ إلا سويته » .

٦١ - باب ما جاء في المصورين

قوله : (باب ما جاء في المصورين)[1] ، أي : من الوعيد ، وقد ذكر

---

(١) يعني من الوعيد الشديد . والتصوير هو من إيجاد الصورة ، والصورة هي الشكل فصورة الشيء شكله والله ﷻ هو الذي صور المخلوقات ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [سورة التغابن : ٣] ومن أسمائه سبحانه : المصور ، فالتصوير من أفعال الله ﷻ ، والذي يصور الصور يريد بذلك محاكاة ومشابهة الصورة التي خلقها الله ﷻ ، فهو بفعله يحاول مشابهة الله ومضاهاة الله في خلقه وفعله ﷻ وهذا إساءة أدب مع الله ﷻ وهو نقص في التوحيد هذا من ناحية ، من الناحية الثانية أن الصور أو التصوير وسيلة إلى الشرك ، كما حدث في الأمم السابقة . فإن قوم نوح إنما حدث فيهم الشرك بسبب الصور التي نصبوها لما مات جماعة من الصالحين : ود وسواع ويغوث ونسرا أسماء رجال صالحين في =

قوم نوح ، كما جاء عن ابن عباس في « صحيح البخاري »(*) . فلما ماتوا حزنوا عليهم حزناً شديداً فجاءهم الشيطان وقال لهم : صوروا صورهم وانصبوها على مجالسهم حتى إذا رأيتموها تتذكرونهم وتتذكرون أحوالهم فينشطكم ذلك على العبادة ، فقاموا وفعلوا ذلك وصوروا هذه الصور ونصبوها ذكريات لهؤلاء الصالحين ، ومضى الجيل الأول ولم تعبد هذه الصور ؛ نظراً لوجود العلماء الذي ينكرون الشرك فلم يجرؤ الشيطان مع وجود العلماء على إغراء الناس بالشرك ؛ لأنهم يبطلون كيدهم ، فلما مات العلماء ونُسخ العلم أو نسي العلم وجاء جيل من الجهال جاءهم الشيطان قال لهم : إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها وبها كانوا يسقون المطر فعبدوها من دون الله ، فحدث الشرك في الأرض من ذلك التاريخ . هذا أول شرك حدث في الأرض بعد آدم ﷺ ، فبعث الله نبيه نوحاً ﷺ ينهاهم عن الشرك ويأمرهم بعبادة الله وحده ولكنهم أبوا ؛ لأنه تمكن الشرك من قلوبهم فأبوا أن يطيعوا نبيهم نوحاً ﷺ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [سورة نوح : ٢٣] هذه صور الصالحين صارت أصناماً تعبد من دون الله ، فصار التصوير وسيلة من وسائل الشرك يستخدمها الشيطان للوصول إلى ذلك لا سيما صور المعظمين من العلماء والرؤساء والملوك إذا نُصبت وعُلقت فإن الفتنة بها أشد ، وهذا هو الذي هلك به قوم نوح وكذلك في عهد إبراهيم ﷺ كانوا يعبدون التماثيل ، والتماثيل هي الصور المنحوتة على أشكال ذوات الأرواح ولهذا قال لهم ﷺ ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء : ٥١] التماثيل هي الصور المنحوتة على أشكال الآدميين أو غيرهم من ذوي الأرواح ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء : ٥٢ - ٥٣] ما عندهم حجة إلا أنهم وجدوا آباءهم فقلدوهم تقليد الأعمى ، وكذلك في بني إسرائيل لما أضلهم السامري فجمع الذهب الذي كان معهم من حلي بني إسرائيل ضاقت حيلتهم به ماذا يصنعون به فجاء هذا الخبيث فجمعه وصاغه على شكل عجل له خوار ، يعني له صوت يدخل الهواء من جانبه ويخرج من جانبه فيصير له صوت كخوار العجل ﴿فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [سورة طه : ٨٨] .

(*) انظر : ٤ / ١٨٧٣ (٤٦٣٦) .

=

فنسي موسى وراح إلى ربه ؛ لأن موسى ﷺ ذهب إلى موعد الله الذي واعده على رأس أربعين ليلة أن يكلمه ، وأوصى أخاه هارون واستخلفه عليهم وحدث ذلك في غيبة موسى ونهاهم هارون ﷺ ، وقال لهم : ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [سورة طه : ٩٠] والخبيث يقول : ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [سورة طه : ٨٨] ، موسى يبحث عن ربه وهو معكم موجود هذا هو . فلما نهاهم هارون ﷺ لم يمتثلوا ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [سورة طه : ٩١] رجع موسى وحصل ما حصل من غضبه عليهم وإنكاره عليهم ، ثم أحرق هذا العجل وذرّاه في اليم ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا . إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة طه : ٩٧ - ٩٨] الشاهد من هذا أن الشرك حدث في بني إسرائيل بسبب التصوير الذي على صورة العجل فتنهم ، فالفتنة في الصور شديدة أهلكت الأمم السابقة فكيف نتساهل نحن في أمر الصور والتصوير ، ونجعله من جملة الفنون الدراسية ، هذا من الجهل والغرور ومن كيد الشيطان . الواجب أن يُحارب التصوير وأن يُقضي عليه وأن يُمنع ولا فرق فيه بين صورة وصورة . الصورة المنحوتة التي لها ظل ، والصورة المرسومة باليد التي ليس لها ظل ، والصورة الملتقطة بالآلة الفوتوغرافية ، كلها صور وكلها تصوير وكلها المحظور منها واحد وكلها مضاهاة لخلق الله ، فلا يجوز عملها وبيعها وشراؤها ونصبها على المجالس أو على الميادين أو على الأمكنة ، ولا يقال : الناس على وعي وعلى معرفة فلا يمكن أن يعبدوها ؛ لأنه يأتي جيل من بعدهم مثل ما حصل لقوم نوح فيعبدونها من دون الله ، فإذا أُقر المبدأ وأقر الشيء في أول الأمر يتطور ، وإذا منع من الأصل استراح الناس منه ، ولذلك حرّم العلماء التصوير واعتبروه من كبائر الذنوب للوعيد الشديد عليه ، وحرّموا صنعة الصور وبيعها وحرّموا اقتناءها للذكريات أو للفن وتعليقها أو الاحتفاظ بها على أي شكل كانت ، والصور كما صح في الحديث تمنع دخول الملائكة في البيت الذي فيه صورة . ملائكة الرحمة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة حتى تخرج الصورة وتطمس ، النبي ﷺ لما أراد أن يدخل بيته رأى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد سترت سهوة يعني فرجة في الجدار بقرام يعني بقماش فيه تصاوير ، فالنبي ﷺ تغيّر وأبى أن يدخل حتى هُتك الستر وقُطّع ، وجُعل وسائد فدخل ﷺ بعد ما

=

أزيلت الصور(*) ، ولما دخل الكعبة عام الفتح وجد فيها صورة إبراهيم وصورة إسماعيل على الجدار من الداخل فطلب دلواً من ماء زمزم فغسلها وأزالها(**) . هذا هو الواجب في هذا الأمر الخطير الذي تساهل فيه كثير من الناس اليوم ؛ بل مستغربين إذا نهو عن ذلك فيقولون : هذا فن من الفنون وهذا مهارة من المهارات وهذه للذكريات وللزينة يعلقونها على الجدران لتعظيم الأشخاص ، كل هذا منكر عظيم ومحرم شديد التحريم وإن فعله من فعله ، الحق لا يتغير بفعل الناس ، المنكر منكر ولو استباحه الناس ، ولا فرق في التصوير بين أن يكون منحوتاً على شكل تماثيل ، أو يكون مرسوماً على لوحات ، أو على الأوراق ، أو أن يكون ملتقطاً بآلة فوتوغرافية ، وهذه أشد ؛ لأنها تنقل الصورة على ما هي عليه فهي أدق فإذا حمضت ولونت صارت الفتنة بها أشد . لكن أهل العلم في هذا الوقت أفتوا بجواز التصوير الضروري الذي يتخذ للبطاقة الشخصية أو لرخصة القيادة أو جواز السفر ، بحيث أنك ما تتمكن من الحصول على مطلوبك وعلى ما تحتاجه إلا بها هذا من باب الضرورة ، والله تعالى يقول : ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام : ١١٩] فهذا من باب الضرورة ، والضرورة تقدر بقدرها ولا يتوسع فيها ، هذه رخصة وضرورة يكتفي بما تدعو إليه الضرورة ، وأما التصوير للفن أو التصوير للزخرفة أو للنقوش أو للفنون أو لغير ذلك فهذا كله محرم شديد التحريم ويجب إزالته ؛ لأن النبي ﷺ أمر بإزالة الستر وهتكه وأيضاً قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته »(***) وهذا يأتي في الباب « لا تدع صورة » هذا عام في كل الصور « إلا طمستها » يعني أزلت معالمها بحيث

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢٢٢١ (٥٦١٠) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٦٦٧ (٢١٠٧) .

(**) أخرجه أبو داود في الطيالسي في « مسنده » ٢ / ١٧ (٦٥٧) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : دخلت على رسول الله ﷺ في الكعبة ، ورأى صوراً قال : فدعا بدلو من ماء فأتيته به فجعل يمحوها ويقول : « قاتل الله قوماً يصورون مالا يخلقون » ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع الصغير وزيادته » ٢ / ٧٩١ (٤٢٩٢) .

(***) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٢ / ٦٦٦ (٩٦٩) .

=

النبي ﷺ العلة ، وهي المضاهاة بخلق الله[(١)] ؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر[(٢)] ، فلا يجوز أن يشبه بشيء من خلقه سبحانه لما فيه من المضاهاة بخلق الله[(٣)] .

تصبح كأنها شجرة وليست صورة حيوان ، وذلك بطمس رأسها أو قطعه أي : إزالته هذا هو الشأن مع الصور ، وإن تساهل فيها الناس فالحكم الشرعي لا يتغير ، والمحرم لا يتحول إلى مباح لفعل الناس ، هو حرام ، وخطره باقٍ ، فيجب إخلاء البيوت من الصور إلا الصور الضرورية التي لا يستغني الإنسان عنها في معاملاته وفي حاجاته التي فرضها النظام عليه . أما الصور التي للذكريات والصور التي للزينة أو ما أشبه ذلك فيجب إزالتها إلا الصور التي تمتهن الصور التي تمتهن وتداس ويجلس عليها في البساط أو الفراش هذه زالت مهمتها وأصبحت غير مقصودة ومهانة ، ولكن مهما أمكن تجنبها فيزول ضررها بأحد أمرين : إما بإتلافها وطمسها ، وإما بامتهانها وجعلها فرشاً يُجلس عليها ويُمشى عليها بحيث تصبح لا قيمة لها أو الصورة التي تأتي في المعلبات هذه لا قيمة لها ، والناس ما يقصدونها لكن كونه يطمسها إذا أراد أن يستبقي الوعاء وأن يستعمله ، كونه يطمسها لا شك أنه أبرأ للذمة وأحوط للدين .

فقول : (باب ما جاء في المصورين) أي : من الوعيد ، وكذلك ما جاء في الذين يستعملون الصور ويستخدمونها للزينة أو غير ذلك .

(١) يعني مشابهة .

(٢) إيجاد الأشياء من عدم هذا الخلق . والأمر الذي هو الشرع فهو الذي يشرع لعباده ، لأن التشريع حق لله ﷻ ، فليس لأحد حق التشريع .

(٣) لا يجوز للإنسان أن يحاول يتشبه بخلق الله بالتصوير ، أما التصوير لغير ذوات الأرواح فهذا أفتى الجمهور بجوازه ، وممن أفتى به ابن عباس رضي الله عنهما كتصوير الأشجار والحدائق والآليات والبحر والجبال وكل مالا روح فيه فلا مانع من تصويره ، لأن الأحاديث التي في الباب تدل على أنه خاص بذوات الأرواح يقال لهم : « أحيوا ما خلقتم » كلف أن ينفخ فيها الروح فدل على أن التصوير خاص بذوات الأرواح وخاص بما فيه حياة[(*)] .

(*) ورد في متن كتاب « التوحيد » خمسة أحاديث في تحريم التصوير ، ولم يذكر الشيخ عبد الرحمن ابن حسن رحمه الله سوى الحديث الأخير فقط وهو حديث أبي الهياج الأسدي ، الذي يرويه عن علي =

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وقد تناول الشيخ صالح الفوزان - حفظه الله - هذه الأحاديث الأربعة بالتعليق والتوضيح ، وأنقلها هنا إتماماً للفائدة :

الحديث الأول :

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة » أخرجاه .

التعليق : هذا الحديث من الأحاديث القدسية التي يرويها النبي ﷺ عن ربه ﷻ ، أنه ﷻ قال ، وهذا فيه إثبات الكلام لله ﷻ ، وأنه يتكلم كما هو مذهب أهل السنة والجماعة رداً على الجهمية ومن أخذ بقولهم من المعتزلة وغيرهم أن الله ﷻ قال : « ومن أظلم ممن » أي : لا أحد وهذا معناه النفي ، أي : لا أحد أظلم أي : أشد ظلماً « ممن ذهب يخلق كخلقي » المراد به المصور وإلا فلا أحد يخلق مثل خلق الله ، وإنما المراد المصوِّر الذي يحاول أن يخلق كخلق الله في إيجاد الصورة التي تشبه الصورة التي خلقها الله ثم تحداهم الله ﷻ وصفهم بأنهم أظلم الناس ، وهذا يدل على شدة التحريم ، ثم تحداهم ﷻ ، وقال : « فليخلقوا حبة » هذا تحدي ممكن يصور صورة تشابه الإنسان أو تشابه الحيوان أو تشابه الحشرات لكن هل يستطيع أن يخلقها ، يخلق هذا الإنسان إنساناً حقيقياً أو هذه البهيمة بهيمة حقيقية ينفخ فيها الروح لا يستطيع ذلك ، وهذا من باب التحدي لهم إلى يوم القيامة « فليخلقوا حبة » المراد بالحبة حبة الحنطة أو الشعير ، أو الحب الذي فيه النبات ، فهذا الحب فيه حياة ولو لم يكن فيه حياة لما نبت إذا جاءه الماء ففيه حياة ، لكنها حياة نمو ، ليست حياة حركة ؛ لأن الحياة على قسمين : حياة نمو ، وهذه تكون في الأشجار ونحوها ، وحياة حركة وهذه تكون في ذوات الأرواح فالحب فيه حياة وفيه مادة فهل الذي يصور الحبة يستطيع أن يوجد فيها الخصائص من الحياة ومن الغذاء ومن الطعم لا يستطيع « يخلقوا حبة أو يخلقو ذرة ». الذرة أصغر المخلوقات ، صغار النمل ، وهذه الذرة التي تراها من أصغر المخلوقات فيها من عجائب الخلق ما لا يعلمه إلا الله ﷻ من السمع والبصر والإدراك والحواس ، وهي أصغر شيء ، هل يستطيع الإنسان أن يخلق ذرة . الله ﷻ تحداهم أن يخلقوا ذبابة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ . مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [سورة الحج : ٧٣ - ٧٤] فالخالق هو الله ﷻ لا أحد يخلق ويشارك الله في الخلق ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [سورة الرعد : ١٦] ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن

دُونِهِۦ ﴾ [سورة لقمان : ١١] الخلق خاص بالله ﷻ ؛ لكن الإنسان من شقاوته وفضوليته يحاول أن يضاهي الله ﷻ « فليخلقوا حبة أو يخلقوا ذرة أو يخلقوا شعيرة » ، هذا تحدي لهم وتهديد لهم وتعجيز لهم فالواجب عليهم أن يمتنعوا من هذا الشيء ؛ لأن هذا ظلم وأشد الظلم ومضاهاة لخلق الله ﷻ فالحديث هذا فيه تحريم التصوير لأمرين : الأمر الأول : أنه أظلم الظلم والشيء الثاني : أنهم يضاهون بذلك خلق الله ﷻ ، والله ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى : ١١] .

الحديث الثاني :

و« لهما » عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله .

التعليق : هذا الحديث أيضاً من الأحاديث التي تدل على تحريم التصوير ، وأن التصوير كبيرة من كبائر الذنوب ، وأن المصور هو أشد الناس عذاباً يوم القيامة من ناحية أنه يكلف شيئاً لا يستطيعه ، فيقال له : أحيي ما خلقت يعجز يوم القيامة ويؤمر بأن ينفخ الروح في الصورة ولا يستطيع ، فهو أشد الناس عذاباً من هذه الناحية أنه كُلِّف شيئاً لا يطيقه أحد تعذيباً له ، وأيضاً أنه في يوم القيامة تُحضر الصور التي صورها في الدنيا ويجعل له في كل صورة روح يُعذَّب بها في النار ، فيجعل له عدة أنفس يعذب بها بعدد الصور التي صورها ، وهذا عذاب شديد - والعياذ بالله - ولذلك صار المصوِّر أشد الناس عذاباً يوم القيامة من هذه الناحية وإلا فإن الكفار والمشركين لاشك أنهم أشد الناس عذاباً من ناحية الكفر والشرك ، لكن هذا أشد من ناحية التصوير ، فهو أشد الناس عذاباً لأنه يُكلَّف مالا يطاق ؛ ولأنه يعذب عذاباً متعدداً بعدد الصور التي صورها ، فلو أن المصورين تصوَّروا هذا الوعيد واستحضروه لكفوا عن أمرهم ، لكنهم غافلون عن هذا أو لا يؤمنون به إن كانوا لا يؤمنون به فالأمر أشد هذا كفر ، وإن كانوا غافلين عنه فهذا لاشك أنه ضياع وضلال .

الحديث الثالث :

و« لهما » عن ابن عباس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل مصوِّر في النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم » .

التعليق : « كل مصوِّر في النار » : « كل » هذا عموم يَعِمُّ كل مصور : سواء صوَّر بالنحت أو

=

بالرسم أو بالالتقاط بالآلة ، الرسول جاء بلفظ عام ، فمن أراد أن يخصص شيئاً من التصوير أنه جائز فعليه بالدليل الذي يخرج من هذا العموم . « كل مصور في النار »إذا جاء من يتبجح ويقول : إن التصوير الضوئي أو الفوتوغرافي حلال ، وأنه لا إثم فيه قلنا له : هات الدليل ، الرسول ﷺ يقول : « كل مصور في النار » وأنت تقول : الذي يأخذ بالآلة ويلتقط بالآلة أنه مصوِّر ، وأن الذي يتجه هذا أنه صور وتصوير ، فما الذي يخرجه من هذا العموم ؟ « كل مصور في النار » هات ما يخصص هذا الدليل ، أما الفلسفات والتشدقات هذا لا قيمة له . الواجب على الإنسان وخصوصا طالب العلم أن يتقي الله ويحترم كلام الرسول ﷺ « كل مصور في النار » هذا نوع من الوعيد الشديد ، والنوع الثاني أشد « يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم » وهذا تغليظ للعذاب عليه – والعياذ بالله – .

الحديث الرابع :

ولهما عنه مرفوعاً : « من صوَّر صورة في الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ » .

التعليق : « من صور صورة في الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح » يوم القيامة هل أحد يستطيع أن ينفخ الروح إلا الله ﷻ ، الروح لا يستطيع إيجادها في المخلوق إلا الله ﷻ وهو الذي يجعلها فيه بواسطة الملك ينفخها فيه ثم يقبضها سبحانه بالوفاة ، ثم تعاد إليه في القبر والمحشر ، فالروح من أمر الله ﷻ ولا أحد يدري ما حقيقة هذه الروح لا من الأولين ولا من الآخرين ، أعجزت البشرية هذه الروح لا يعلمون ما هي الروح ، ولا ما هي حقيقتها ولا كيف اتصالها بالبدن ولا كيف خروجها من البدن ، هذه من عجائب خلق الله ﷻ ، هل يستطيع الإنسان أن يوجد هذه الروح وينفخها في الصورة حتى تقوم وتتحرك وتأكل وتشرب هذا لا يستطيعه ، ولكن هذا من باب التعجيز والتعذيب له يوم القيامة – نسأل الله العافية – فعلى المسلم أن يتوب إلى رشده ويستحضر هذا الموقف الرهيب يوم القيامة الذي لا مفر منه ، فهذه أربعة أنواع من الوعيد أولاً : أن المصوِّر أشد الناس ظلما . ثانياً : أنه أشد الناس عذاباً يوم القيامة . ثالثاً : أنه يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في النار يوم القيامة . رابعاً : أنه يُكلف أن ينفخ الروح فيها في كل الصور التي صورها من باب التعجيز له والتكليف بما لا يطيقه تعذيباً له وفضيحة له يوم القيامة ، وعلمنا أن التصوير يحرم لعلتين أو أكثر . العلة الأولى : أن فيه مضاهاة لخلق الله ﷻ . والعلة الثانية : أنه وسيلة إلى الشرك كما حصل في قوم نوح . والعلة الثالثة : إذا كان تصويراً للنساء وإظهاراً لمحاسن النساء فإنه فيه نشر للفساد ودعاية للإباحية ، الذين ينشرون صور النساء الجميلات على مجلاتهم أو على بضائعهم فهذه دعاية للإباحية ، ودعاية للفساد عن طريق التصوير .

قوله : ولمسلم عن أبي الهَيَّاج الأسدي ، قال : « قال لي علي : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ ألَّا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته »[1] قوله : « عن أبي الهياج » ، هو الأسدي حيان بن

(١) الإمام مسلم ﷺ روى في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي من التابعين وهو كاتب علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمير المؤمنين قال : قال لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « ألا أبعثك » أي : أرسلك . البعث معناها الإرسال والتفويض « على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » : هذه هي المهمة التي بعث الرسول ﷺ بها أمير المؤمنين ابن عمه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « ألا يدع صورة » ألا يترك أي صورة سواء كانت تمثالاً أو رسماً باليد أو فوتوغرافية « إلا طمستها » الطمس معناه إزالة الرأس ، أو إخفاء ملامحه بالحبر أو التلطيخ يلطخ بصبغة أو بشيء بحيث تخفي معالمه نهائياً ، هذا هو الطمس طمس الصورة فإذا طمس وجه الصورة أو قطع رأسها وأزيل زال المحذور ؛ لأن الصورة في الوجه ، فإذا زال الوجه صارت الصورة ماها قيمة ، هذا هو طمس الصورة إزالة الرأس نهائياً أو طمس الوجه بحيث لا يبقى له ملامح . هذا هو الواجب على المسلمين أن يطمسوا الصور التي في بيوتهم ، أو الصور التي يقدرون على طمسها في أي مكان إذا كان عندهم قدرة وإذا لم يكن عندهم قدرة فليبينوا للناس تحريمها ووجوب إزالتها « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده » ، هذا لأصحاب السلطة ، « أو بلسانه » ، وهذا لأهل العلم الذين ليس لهم سلطة ، لكن عندهم علم يبينون للناس بالموعظة والنصح والإرشاد والفتوى وبيان أن هذا لا يجوز ، هذا من الإنكار باللسان ، فإذا لم يكن عنده سلطة ولا علم ولا يقدر يتكلم فإنه ينكر المنكر بقلبه يصير مبغضاً له ومبتعداً عنه وهذا أقصى ما يستطيع ، كل إنسان يستطيع أن يطمس ما في بيته ؛ لأن له سلطة عليه ، وأما الصور التي خارج البيت فهذه إن كان من أهل السلطة التي لا تحاسب إذا طمسها وأزالها من قِبَل ولي الأمر فإنه يزيلها ، وإن لم يكن له سلطة فإنه ينكرها بلسانه وإن لم يكن له إمكانية باللسان ينكرها بقلبه ويبغضها ويبتعد عنها « ولا قبراً مشرفاً » انظروا كيف جمع بين الصورة والقبر ؛ لأن كل منهما من وسائل الشرك . القبر المشرف من وسائل الشرك والصورة من وسائل الشرك . والمشرف معناه : المرتفع لأن رفع القبور إما بالبناء وإما بالتراب أكثر من الحاجة سبب لعبادتها من دون الله ﷻ فإذا تميَّز القبر عن غيره ببناء

=

أو رفع بالتراب والتحجير عليه بحيث يصبح مرتفعاً أو بالكتابة عليه أو بتجصيصه فهذه كلها وسائل من وسائل الشرك ومن الغلو في القبور ، لأن القبور الهدي فيها أن تدفن بترابها وأنها ترفع عن الأرض بقدر شبر حتى تُعرف أنها قبور فلا تمتهن ولا يزاد عن الشبر ، كما كان قبر النبي ﷺ ، وكما كانت قبور أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، كانت مرفوعة عن الأرض قدر شبر حتى يعرف أنها قبور ، ولا تمتهن ولا تداس ، ولا يزاد على ذلك ؛ لأن ذلك من وسائل الشرك وهذا هو القبر المشرف يعني المرتفع لماذا ؟ لأن هذا غلو في الميت يؤدي إلى الشرك به والذبح له والنذر كما حصل عند القبور الآن المبنية والأضرحة المبنية . والقبور المميزة عن غيرها بين المقابر صارت أوثاناً تعبد من دون الله ، والشارع جاء بسد الطرق المفضية إلى الشرك . إذا كانت القبور سواء ما لفتت النظر فإذا صار بعضها متميزاً يلفت النظر وصار محلاً للغلو واعتقاد أنه ينفع ويضر من دون الله ﷻ ، فانظروا كيف جمع بين الصورة والقبر المشرف ، لأن كلا منهما من وسائل الشرك ، وانظروا كيف جاءت هذه السنة من طريق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي يغلو فيه الشيعة ويعظمونه ويعبدونه من دون الله وهو يروي هذا الحديث عن رسول الله ﷺ وبلَّغه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . هذا دليل على أنه لا غلو في أحد لا في أهل البيت ولا في غيرهم ، والمسلمون على حد سواء كلهم عباد الله كلهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ولا يُدْعى أحد من دون الله ولا يُعبد أحد أو يُعتقد فيه أنه ينفع أو يضر كل الخلق : الأنبياء والأولياء والصالحون وغيرهم ليس لهم من الأمر شيء الأمر كله لله ﷻ ، والعبادة حق لله ﷻ فهذا حديث عظيم ، الذين يبنون على القبور هؤلاء شرار الخلق ، كما قال ﷺ لما ذكرت له أم سلمة وأم حبيبة ما رأتا في بلاد الحبشة من الكنائس التي فيها الصور قال : « أولئكِ إذا مات فيهم العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئكِ شرار الخلق عند الله ﷻ » وفي الحديث الآخر : « إن من شرار الخلق من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يبنون المساجد على القبور » هؤلاء هم شرار الخلق ؛ لأنهم دعاة إلى الشرك وعبادة غير الله ﷻ ، فلا يجوز الغلو في القبور ، ومن مظاهر الغلو البناء عليها واتخاذها مساجد يُصلى عندها ، وقد سبق بيان باب ما جاء فيمن غلا في الأولياء والصالحين ، وأن الغلو في قبورهم وسيلة من وسائل الشرك ، وما جاء فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده ؟!

الشاهد من هذا الحديث للباب : « لا تدع صورة إلا طمستها » هذا فيه الأمر بطمس

=

حصين و« علي » هو أمير المؤمنين .

قوله : « ألا أبعثك[(١)] على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » فهذا ما صح عن النبي ﷺ من إنكار هذه الأمور وإزالتها : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾[سورةالبقرة: ٥٩] فأكثروا التصوير واستعملوه وأكثروا البناء على القبور وزخرفوها[(٢)] وجعلوها أوثاناً . وزعموه ديناً[(٣)] وهو أعظم

الصور ، وهذا موقفنا من الصور أننا نطمسها وإذا كانت في بيوتنا نتلفها ونخرجها من البيوت ، ونجعل بيوتنا خالية من الصور إلا ما دعت الضرورة إلى الاحتفاظ به ويكون مخفياً لا يكون ظاهراً ، مما دعت الضرورة إلى الاحتفاظ به للمعاملات التي أصبحت لا يحصل عليها إلا بالصورة ، وأما ما عدا ذلك فلا يجوز الاحتفاظ بالصورة ويجب إتلافها فإذا كان لك سلطة طمستها في بيتك أو خارج البيت ، وإذا لم يكن لك سلطة فإنك تبين وتنصح للناس فتقوم الحجة عليهم .

(١) ألا أبعثك : أي ألا أكلفك بما كلفني به رسول الله ﷺ .

(٢) ارتكبوا المحظورين : التصوير فأكثروا منه وتسابقوا فيه وجعلوه حرفة ومهنة يتعيشون من ورائها أو يأخذون الجوائز عليها أو يبيعونها ويأكلون ثمنها غير مبالين بأمر النبي ﷺ بطمسها وإتلافها ، والجريمة الثانية : البناء على القبور وما أكثره اليوم في كثير من الأمصار ، وكان في هذه البلاد أيضاً ، ولكن الله منَّ عليها بدعوة الشيخ الإمام مصنف هذا الكتاب فأزال ما فيها من المباني التي على القبور وبقيت ولله الحمد البلاد سليمة من هذه الجريمة النكراء وقبورها على السنة التي بُعث بها رسول الله ﷺ كل هذا بسبب دعوة التوحيد ولله الحمد والمِنَّة . أما ما عدا هذه البلاد فالمساجد التي ليس فيها قبور ليس لها قيمة عند كثير من الناس ، المساجد العادية السنية ليس لها قيمة عند كثير من الناس ، إنما يقصدون ويذهبون إلى المساجد التي فيها قبور .

(٣) يقولون : إن هذا هو الدين ، والذي ينكره هذا خارج عن الدين ويبغض الرسول ويبغض الأولياء والصالحين ؛ لأن حب الرسول وحب الصالحين عندهم هو البناء على القبور وفعل ما نهى عنه الرسول ﷺ هذا حب الرسول وحب الصالحين ، لكن الحقيقة أن حب الرسول وحب الصالحين إتباعهم والاقتداء بهم ومحبتهم في القلب أكثر من محبة غيرهم لا الغلو فيهم .

المنكرات[1] وأكبر السيئات، تعظيماً للأموات وغلواً وعبادة لغير الله بأنواع التي هي حق الله تعالى على عباده .

قال العلامة ابن القيم ﵀ : (ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما نهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم، رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له[2] بحيث لا يجتمعان أبداً)[3] .

---

(١) عند هؤلاء المنكوسين هو أعظم الحسنات، وهو عند الله وعند رسوله أعظم السيئات .
وأول ما ظهر البناء على القبور في المسلمين بعد القرون المفضلة، لما ظهرت دولة الشيعة في المشرق في بني بويه بنوا على القبور، وكذلك الفاطميون في مصر والمغرب لما استولوا على المغرب وعلى مصر وعلى الحجاز بنوا على القبور، ومن ذلك التاريخ انتشر البناء على القبور عن طريق الشيعة وقلدهم الصوفية، وصاروا يبنون على القبور .

(٢) قوله : أكثر الناس، وليس كل الناس، ولله الحمد كما قال النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله »(*) وذلك لبقاء الدين وبقاء الحجة ستبقى طائفة على الحق - بإذن الله - كما أخبر النبي ﷺ ، وأكثر الناس يكونون على الضلال .

(٣) الرسول ﷺ نهى عن بناء القبور، وهؤلاء يبنون عليه، الرسول ﷺ نهى عن إسراج القبور وهؤلاء يوقدون عليها الشموع والقناديل، الرسول ﷺ نهى عن الكتابة على القبور وهؤلاء يكتبون عليها إلى غير ذلك من المحاذير التي نهى عنها الرسول ومن أراد أن يستوفي كلام ابن القيم في هذا الموضوع فليراجع كتاب « إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان » يجد كلاماً مبسوطاً مفصلاً جميلاً مأخوذاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في بيان هدي الرسول في القبور وهدي المشركين .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٣ / ١٥٢٣ (١٩٢٠) .

٦٢ - باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى : ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ ﴾ [سورة المائدة : ٨٩] .

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للكسب » . أخرجاه .

وعن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : أشيمط زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته ؛ لا يشتري إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه » . رواه الطبراني بسند صحيح .

وفي « الصحيح » عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم (قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ؟) ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن » .

وفيه : عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن النبي ﷺ قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » .

وقال إبراهيم : (كانوا يضربوننا على الشهادة ، والعهد ، ونحن صغار) .

٦٢ - باب ما جاء في كثرة الحلف

قوله : (باب ما جاء في كثرة الحلف)[١] ، أي : من النهي عنه والوعيد ،

(١) أي : وما جاء في ذلك من الوعيد ؛ لأن كثرة الحلف تدل على التساهل باليمين ؛ وهذا نقص في التوحيد فهذا مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد : أن التساهل في الحلف نقص في التوحيد ؛ لأن كثرة الحلف تدل على عدم المبالاة لأنه لو كان يعظم اليمين ويخاف منها لما كررها وأكثرها .

وقول الله تعالى : ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[1] [سورة المائدة : ٨٩] قال ابن جرير : (أي : لا تتركوها بغير تكفير) ، وذكر غيره عن ابن عباس : يريد لا تحلفوا[2] . وقال آخرون : ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ عن الحنث ، فلا تحنثوا ، والمعنى يعم القولين[3] .

قوله : عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للكسب[4] أخرجاه ، أي : البخاري

---

(١) قال الله تعالى لما ذكر كفارة اليمين في سورة المائدة قال : ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ آية (٨٩) احفظوا أيمانكم قيل معناه : لا تحلفوا هذا نهي عن الحلف إلا عند الحاجة ويكون الإنسان صادقاً إذا احتاج وحلف وهو صادق يحلف وأما لم تدع حاجة إلى الحلف فإنه لا يحلف وقيل المعنى : احفظوا أيمانكم أي : كفِّروا إذا حنثتم فيها ، لا تتركوها بدون تكفير ، والمعنى ، يشمل النهي عن كثرة الحلف ، ويشمل النهي عن ترك اليمين إذا نقضت بدون تكفير .

(٢) لا تحلفوا : لا تكثروا من الحلف .

(٣) يعني الأقوال في تفسير الآية ثلاثة : (احفظوا أيمانكم) أي : لا تحلفوا إلا عند الحاجة ، لا تكثروا من الأيمان ، مثل ما تحفظ مالك عن التبذير والإسراف ، تحفظ أيمانك فلا تنفق إلا بقدر الحاجة ، والقول الثاني : إذا حلفت وخالفت اليمين فكفر عنها ولا تتركها بدون كفارة هذا هو حفظها ، والقول الثالث : احفظوها عن الحنث ، يعني إذا حلفت فبر بيمينك ولا تنقضها بل استمر عليها وهذا يقيده ما سبق أنه إذا رأى المصلحة في نقض اليمين فإنه ينقضها ويكفر لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٤] فإذا حلف لا يصل رحمه أو حلف لا يبر بوالديه لم يجز له الوفاء باليمين ، بل يجب عليه نقض اليمين والتكفير ، وإذا حلف على ترك مستحب فإنه يستحب له أن ينقض اليمين وأن يكفر عنها ولا يستمر عليها .

(٤) هذا الحديث الصحيح متفق على صحته فيه أن النبي ﷺ قال : « الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للكسب » هذا من باب الذم الحلف يعني اليمين « منفقة للسلعة » النفاق معناه الخروج فهي تخرج السلعة من يد صاحبها بدل أن تبور بيده لأنه إذا حلف وثق به الزبائن =

ومسلم ، وأخرجه أبو داود والنسائي ، والمعنى أنه قد يحلف على ثمن السلعة بزيادة على ما اشتريت به أو سيمت به ، فيأخذها المشتري لظنه أنه صدق[(١)] ، وهذا وإن كان فيه زيادة فهو يمحق البركة ، كما جاء في الحديث ، والواقع يشهد بصحته ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته[(٢)] ، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب[(٣)] .

قوله : وعن سلمان أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : أشيمط زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله

فأخذوها ثقة بالحلف فلا يبقى عنده سلع ، فيتخذ اليمين وسيلة لنفاق السلع من عنده وهذا يدل على تهاونه باليمين « ممحقة للكسب » هي وإن نفقت من عنده واشتريت من عنده وحصل له مطلوبه من عدم كساد السلع لكن لا يحصل له بركة في ذلك الكسب ، بل يكون كسباً لا بركة فيه وماذا يستفيد إذاً إذا لم يكن هناك بركة ؟ حتى ولو كثر بيعه إذا لم يكن في ذلك بركة فإنه لا يستفيد بل يتضرر فيجعل الله كسبه غير مبارك فلا يستفيد شيئاً هذه عقوبة عاجلة عاقبة الله بعكس ما يريد ، هو يريد كثرة الكسب ولكن الله عاقبه بأن نزع البركة من كسبه فصار كسبه لا فائدة فيه عقوبة له ، وهذا محل الشاهد من الحديث « ممحقة للكسب » هذا وعيد يدل على تحريم كثرة الحلف .

(١) يعني يحلف أنها سيمت كذا وكذا وهو كذاب أو اشتراها بكذا وكذا وهو كذاب من أجل أن يُغري الزبون فيأخذها هذا معنى « منفقة للسلعة » ينفقها ويزينها بعين الزبون باليمين .

(٢) وهذا شيء مجرب أن الذين يجمعون المال من طريق محرم أنهم لا ينتفعون به يحرمون من الانتفاع به أو إنه تسلط عليه آفة وتتلفه ويصبحون فقراء معوزين ، كثيراً هذا ما يقع في الناس الذين يجمعون الأموال من طريق محرم لا يبارك لهم فيها .

(٣) أي : الذي يجمع الأموال من الربا وإن تجمعت عنده المليارات لكنها ممحوقة ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٦] فلا يستفيد منها ولا ينتفع بها وإنما يتحمل آثامها وعقوباتها ، ومن محقها أنه إذا تصدق منها لا تُقبل صدقته إذا تصدق منها أو تبرع منها لا تقبل منه هذا من محق البركة .

بضاعته ، لا يشتري إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه »[1] رواه الطبراني بسند

---

(١) هذا الحديث عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » هذه ثلاث عقوبات : « لا يكلمهم الله » لأن الله ﷻ يكلم المؤمنين في الآخرة إكراماً لهم ، يكلمهم في عرصات القيامة ، ويكلمهم في الجنة إكراماً لهم وهذا حرمه الله فلا يكلمه ، وهذا فيه إثبات الكلام لله ﷻ ، وأنه يتكلم إذا شاء كيف شاء ﷻ ، صفة من صفاته الفعلية الثابتة له ، ففيه رد على الجهمية والمعتزلة الذين ينفون صفة الكلام عن الله ﷻ « ولا يزكيهم » : لا يطهرهم ، التزكية معناها : التطهير لا يطهرهم من الآثام والذنوب عقوبة لهم ، العقوبة الثالثة : « ولهم عذاب أليم » موجع مؤلم فهذه عقوبات ثلاث على هؤلاء الثلاثة ، من هم ؟ هذا أمر خطير جداً بيَّنهم الرسول ﷺ فقال : « أشيمط زان » هذا هو الأول أشيمط تصغير أشمط وهو الذي بدأه الشيب صغَّره تحقيراً له ؛ لأن التصغير يأتي لأغراض منها التحقير ، وهو المراد هنا « زان » يفعل الزنى - والعياذ بالله - والزنى جريمة كبيرة من كبائر الذنوب توعد الله عليها بأشد الوعيد ، ولها آثار سيئة في المجتمع من ضياع الأنساب والأخلاق وانتشار الأمراض ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [سورة الإسراء : ٣٢] فاحشة متناهي في القبح وساء سبيلا ، فالله ﷻ ركَّب الشهوة في بني آدم لمصلحة النسل ، ولكنه ﷻ نَظمها ولم يتركها بدون تنظيم يضمن السلامة من آفاتها هي شهوة عارمة لو تركت لصار لها آثار سيئة وقبيحة الله ﷻ نظَّمها بالنكاح الشرعي ، خلق للرجال أزواجاً من أنفسهم وأمرهم بالنكاح حماية لأعراضهم وأعراض النساء وطلباً للذرية التي فيها بقاء النسل ، فإذا أهدرت هذه الطاقة وصرفت في سبيل قبيح لزم عليها أضرار كثيرة - والعياذ بالله - منها كثرة أولاد الزنى ، وضياع الأنساب وفي هذه جناية على المواليد حيث لا يُعرف نسبهم فيعيشون عيشة الهوام ؛ لأنه ليس لهم نسب ويُورِّث الأمراض الفتاكة كما تعلمون الآن من انتشار المرض الخبيث مرض الإيدز هذا بسبب الاستمتاع غير المباح انتشر هذا المرض وليس له علاج - والعياذ بالله - وهدد العالم الآن ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ ما قال : لا تزنوا قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ يعني لا تعملوا الأسباب الموصلة إلى الزنا فكيف بالزنا نفسه ؟ فقطع الأسباب الموصلة إليه لقبحه ، أمر بالحجاب ونهى عن السفور ؛ لأن السفور وسيلة إلى

=

الزنا ، نهى عن خلوة الرجل بالمرأة التي لا تحل له ؛ لأن هذا وسيلة إلى الزنى ، نهى عن سفر المرأة بدون محرم ، لأن هذا وسيلة إلى الزنا ، نهى عن الاختلاط بين الرجال والنساء ؛ لأن هذا وسيلة إلى الزنا ، فسدَّ الطرق التي تفضي إلى الزنا مما يدل على خطورته ، فقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ لأن الله إذا قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ﴾ فمعناه ترك الشيء وترك الأسباب الموصلة إليه ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ والفاحشة ما تناهى قبحه وعظم خطره ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ لما يحدثه من الأضرار على الزاني وعلى غيره ، ولذلك رتَّب عليه الحد ، إذا ثبت الزنا بالبيِّنة أو بإقرار الزاني فإن كان بكراً لم يسبق له أن وطئ زوجته في نكاح صحيح فهذا يجلد مئة جلدة ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة النور : ٢] فأمر بجلده بمئة جلدة وأن يكون هذا علانية يراه الناس فضيحة له وردعاً له ولغيره ونهى عن التساهل في إقامة الحد ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ وإن كان الزاني ثيباً وهو من سبق وطئ زوجة بنكاح صحيح ، فهذا يرجم بالسنة المتواترة عن رسول الله ﷺ قولاً وفعلاً ، وبالقرآن الذي نسخ لفظه وبقي حكمه ، هذا مما يدل على شناعة هذه الجريمة القبيحة ، فالزنا جريمة قبيحة متناهية في القبح ، سماه الله فاحشة من كل أحد ، ولكن إذا كان الزنا ممن شاب وظهر عليه الشيب فهو أقبح ؛ لأن من ظهر عليه الشيب تضعف فيه الشهوة ، وكونه يزني في هذا السن فهذا دليل على أن الزنا غريزة فيه وطبيعة فيه ، لا من أجل غلبة الشهوة ، فزناه أقبح من زنا الشاب ؛ لأن الشاب قد تغلبه الشهوة لكن هذا ليس عنده داعي للزنا لأنه كبير في السن فزناه أقبح لذلك صار عليه هذا الوعيد لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم ، ثلاث عقوبات عظيمة . الثاني : « عائل مستكبر » الكِبْر حرام وكبيرة من كبائر الذنوب ، والله لا يحب المستكبرين والكبر هو التعاظم على الناس ، قال ﷺ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس »(*) بطر الحق : يعني دفع الحق ورد الحق « وغمط الناس » تنقص الناس هذا هو الكبر ، الذي يدفع الحق ولا يريده ولا يحب الحق هذا فيه كبر مستكبر عن الحق ، مستكبر عن عبادة الله ، مستكبر عن الصلاة ، مستكبر عن أمور العبادة ؛ لأنه يرى نفسه أرفع من هذا لا يصلي في المسجد ؛ لأنه يرى أنه

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ١ / ٩٣ (٩١) .

صحيح ، وسلمان : لعله سلمان الفارسي أبو عبد الله[1] أسلم مقدم النبي

أرفع من الناس ولا يخالط الناس ويخرج معهم ؛ لأنه في نفسه عظيم وكبير هذا من بطر الحق ، الواجب عليه أن يتواضع لله ﷻ وأن يؤدي العبادة وأن يصلي مع الجماعة في المسجد وإذا بلغه الحق من كتاب الله أو سنة رسوله يتقبله على الرأس والعين ؛ لأنه عبد مأمور ومنهي فكيف يترفع على الحق ويرد الحق ؟ و« غمط الناس » أي : تنقصهم يرى أنه أكمل منهم وأفضل منهم وأن له منزلة عالية على الناس يتكلم فيهم وينتقصهم أو حتى ولو لم يتكلم إذا كان في نفسه أن فلاناً ناقص أو فلاناً ما يصل إلى درجته حتى ولو كان هذا في نفسه فإذا أظهره فالأمر أشد . الواجب على المسلم أن يتواضع لله ﷻ ويتواضع لإخوانه المسلمين ، لكن الكبر إذا كان ممن ليس عنده سبب للكبر أشد وهو العائل ، العائل هو الفقير فقير ليس عنده شيء يحمله على الكبر ، لأن الغني يمكن إذا صار عنده مال إن ذلك يحمله على الكبر ، لكن هذا ليس عنده شيء يحمله على الكبر ؛ لأنه عائل فقير فدل على أن الكبر غريزة وسجية فيه ليس له سبب ؛ لأنه فقير - فهذا تكبره أشد من تكبر الغني لأنه تكبر بدون سبب أما الغني فتكبره لسبب وهو كثرة المال عنده وإن كان الكبر محرما في حق الاثنين لكن تحريمه في حق الفقير أشد . الثالث - وهو محل الشاهد للباب - : « رجل جعل الله بضاعته » يعني الحلف بالله « بضاعته » لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه هذا الشاهد من الباب كثرة الحلف والباب : (باب ما جاء في كثرة الحلف) ، الذي يستعمل اليمين في بيعه وشرائه ويكثر منها هذا دليل على تهاونه بها وهذا نقص في توحيده وعليه هذه العقوبات الثلاث : لا يكلمه الله يوم القيامة ولا يزكيه وله عذاب أليم لكثرة الحلف ، والله ﷻ يقول : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ [سورة القلم: ١٠] والحلَّاف : كثير الحلف فيجب على المسلم أن يكون قليل الحلف ، يقل من الأيمان تعظيماً لها ، ولا يحمله حب ترويج سلعته على أن يكثر من الحلف للزبائن ، لأن هذا دليل على عدم احترامه لليمين بالله ﷻ ، وأنه آثر الدنيا على الآخرة فهذا محل الشاهد من الحديث في الباب .

(١) لأنه مشهور إذا أطلق سلمان فالمشهور أنه سلمان الفارسي الصحابي الجليل رضي الله عنه ، نسبة إلى فارس لأنه جاء من بلاد فارس .

ﷺ المدينة وشهد الخندق[١] ، روى عنه أبو عثمان النهدي ، وشرحبيل بن السمط ، وغيرهما ، قال النبي ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » « إن الله يحب من أصحابي أربعة[٢] : علياً وأبا ذر وسلمان والمقداد » أخرجه الترمذي[٣] توفي سلمان في خلافة عثمان ، ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي ، قوله : « لا يكلمهم الله » : هذا وعيد شديد في حقهم ؛ لأنه قد تواتر أنه يكلم أهل الإيمان ويكلمونه في عرصات القيامة[٤] .

والأدلة على ذلك في الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه[٥] ، وفيه الرد على الجهمية والأشاعرة نفاة الكلام[٦] قوله : « ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » وهذا من تمام العقوبة عليهم ، وفي هذا الوعيد الشديد ما يزجر من له عقل

---

(١) وهو الذي أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق في غزوة الأحزاب ونفع الله بهذا الرأي .

(٢) قوله : « سلمان منا أهل البيت » أي : من قرابة الرسول ﷺ وهذا يدل على فضله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأنه عتيق للرسول ﷺ اشتراه النبي ﷺ فأعتقه ، ومالُ القوم منهم .

(٣) هذا يحتج به الشيعة الآن على أن الصحابة كفروا كلهم إلا هؤلاء الأربعة ما كفروا : علي وسلمان والمقداد وأبو ذر ، يقولون : هؤلاء لم يكفروا والباقون كفروا ، قبحهم الله .

(٤) يعني قبل دخول الجنة ، والعرصات : جمع عرصة وهي الساحة والمكان .

(٥) أن الله يتكلم ﷻ .

(٦) الجهمية ومن أخذ برأيهم من المعتزلة والأشاعرة ، إن الجهمية يقولون : أنه خلق الكلام في غيره فكلام غيره كلام له - تعالى الله عما يقولون - وعلى هذا يكون الكلام القبيح والكلام الفاحش كلاماً لله ﷻ - تعالى الله عما يقولون - كل ما يتكلم به الناس عند الجهمية فهو كلام الله ؛ لأن الله هو الذي خلقه ، والمعتزلة كذلك أخذوا برأي الجهمية ، أما الأشاعرة فإنهم يثبتون الكلام النفسي ، وأما الكلام الذي هو القرآن فهذا يقولون حكاية عن كلام الله حكاه جبريل أو محمد ﷺ ، فمعناه من الله ، أما لفظه فإنه من جبريل أو من الرسول ﷺ ، فهذا كله كلام باطل ، القرآن كلام الله لفظه ومعناه من الله ﷻ .

عن هذه الأعمال السيئة ونحوها .

قوله : « أشيمط زان » صغره تحقيراً لـه[١] ، وذلـك لأن داعـي المعصية ضعف في حقه ، فدل على أن الحامل له على الزنا محبتـه المعصية والفجـور وعدم خشيته لله[٢] ، وكذلك العائل المستكبر ليس له ما يحمله على الكـبر ، فدل على أنه خُلقٌ له[٣] فعظمت العقوبة في حقه لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميم ، الذي هو من أكبر المعاصي قولـه : « ورجـل جعـل الله بـضاعته » بنصب الاسم الشريف يعنـي اليمـين بـالله ﷻ ، جعلـه بـضاعة لـه لكثـرة استعماله[٤] قوله : « وفي الصحيح » أي : صحيح مسلم ، وأخرجه أبو داود والترمذي ، ورواه البخاري بلفـظ : « خـيركم » قولـه : عـن عمـران بـن

(١) التصغير يأتي للتحقير أحياناً مثل : رويجل ، ويأتي أحياناً للتعظيم مثل : دويهية ، يعني الموت كما قيل : (دُوَيْهِيَةٌ تُصْفَرُّ مِنْها الأَنَامِلُ)(*) ، هذا من المتضادات ، ويكون للتقليل مثل تقول : دريهمات ، يعني قليلة .

(٢) ما غلبت الشهوة لأنه كبير السن شَابَ وكان الأليق به الورع والتقوى والاستعداد للموت ، ولكنه يزني في هذا السن ، هذا دليل على أنه يحب الزنا لا أنه عن شهوة ، وإنما هو عن حب للزنا – والعياذ بالله – :

(٣) « العائل » : الفقير ، فالفقير إذا تكبَّر فهو أشد من التاجر إذا تكبَّر ، وإن كان كله حرام ، وكله كبيرة ، لكن الكبائر تتفاوت .

(٤) « جعل الله » أي : الحلف بالله واليمين بالله ، كما في قوله : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٤] أي : لا تجعلوا الإيمان مانعة لكم من فعل الخير .

(*) هذا شطر بيت قاله الشاعر لبيد بن ربيعة العامري :

وكلُّ أُناسٍ سوف تدخُلُ بينهم دُوَيْهِيَة تصفرّ مِنْها الأَنَامِلُ

قال ابن الأنباري : فصغَّر الداهية معظماً لها لا محقراً لشأنها . الأضداد ص ٢٩٢ .

حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : « خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم - قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً[(١)] ، ثم إن بعدكم قومٌ يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن »[(٢)] .

(١) مرتين فتكون القرون ثلاثة ، أو ثلاثاً فتكون القرون أربعة ، والراجح أنها ثلاثة .

(٢) هذان الحديثان حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الذي بعده - أن النبي ﷺ بما أطلعه الله عليه من الغيب المستقبل - وهذا من علامات نبوته ﷺ - قال : « خيركم قرني » خير هذه الأمة القرن الذي فيهم رسول الله ﷺ وهم الصحابة ، والقرن : يراد به الجماعة من الناس أو الأمة من الناس ، ويطلق القرن على الزمان يقال : قرن من الزمان يعني مئة سنة من الزمان فقوله ﷺ : « خيركم قرني » أي : الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . فهذا دليل على فضل الصحابة ، وأنهم أفضل القرون ، ولا أحد يلحق بهم في الفضل مهما عمل من الأعمال فلا يلحق بالصحابة ، قوله ﷺ : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »[(*)] وذلك لسابقتهم في الإسلام وصحبتهم لرسول ﷺ وجهادهم معه ، ففضائلهم لا ينالها أحد بعدهم ، وهم يتفاضلون بينهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ؛ لكن هم في الجملة لا أحد يساويهم في الفضيلة ، وهذا فيه دليل على فضل الصحابة كلهم ، كل من صحب رسول الله ﷺ فله هذا الفضل وله هذه الخيرية وأنه خير ممن جاء بعده ، ولكن هم يتفاضلون بينهم بلاشك ، المهاجرون أفضل من الأنصار ، وأهل بدر أفضل من غيرهم ، وأهل بيعة الرضوان ، وأهل فتح مكة والخلفاء الأربعة أفضل من غيرهم ، وبقية العشرة الذين شهد لهم الرسول ﷺ بدخول الجنة أفضل من غيرهم ، فهم يتفاضلون بينهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، أما بالنسبة لغيرهم فلن يلحقهم أحد من الأمة مهما بلغ من العمل والصلاح « ثم الذين يلونهم » وهم التابعون ، قرن التابعين الذين تعلموا على أصحاب رسول الله ﷺ وأدركوهم . التابعون يأتون بعد الصحابة في الفضيلة « ثم الذين يلونهم » وهم

(*) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١٣٤٣ (٣٤٧٠) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ١٩٦٧ (٢٥٤٠) .

=

قوله : « خير أمتي قرني » لكثرة الخير فيهم وقلة الشر ، وشدة الإنكار على من خالف الحق وابتدع ، كالخوارج والقدرية والجهمية ونحوهم[1] ، « ثم الذين يلونهم » فضلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة العلم والعلماء ، وأما القرن الثالث فظهرت فيهم البدع ، لكن أنكرها العلماء ، وتصدى كثير منهم لإنكارها والرد على من قالها ، وهم كثيرون .

قوله : « فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً » هذا شك من راوي الحديث عمران بن حصين ، ثم ذكر ما وقع بعد الثلاثة من الجفاء في الدين وكثرة الأهواء[2] ، فقال : « ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون »[3] لاستخفافهم بأمر الشهادة ، وعدم تحريهم الصدق ،

أتباع التابعين ، لأنهم أدركوا التابعين وأخذوا عنهم ، ولأن هذه القرون لم تظهر فيها البدع والمحدثات بل كانت السنة ظاهرة ، وإذا حدثت بدعة أنكروها ، فكانت البدع خفية في زمانهم مقهورة والسنة ظاهرة في عهدهم وإنما انتشرت البدع والشرور بعد القرون المفضلة ، قال عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « لا أدري ذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة » يعني هل تكون القرون ثلاثة ؟ الصحابة ، التابعون ، أتباع التابعين . أم هي أربعة ؟ أربعة قرون ، شك عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هل القرون المفضلة ثلاثة القرون هذه متيقنة لكن هل هناك قرن رابع ؟ الله أعلم هذا لم يثبت ، وحديث ابن مسعود أيضاً مثل حديث عمران في الثناء على القرون المفضلة .

(١) الخوارج والقدرية ظهروا في أواخر عصر الصحابة ، فالخوارج ظهروا في خلافة علي ومعاوية ، فهذه الفرق ظهرت لكنها مردوعة وخفية ولا يظهر شرها .

(٢) وكل ما تأخر الزمان يزيد الشر ؛ لقوله ﷺ : « لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه »(*) .

(٣) بعد مضي القرون المفضلة يأتي أناس تتغير أحوالهم عن حالة السلف وإن كان يوجد فيهم من أهل الخير ولكن الغالب ؛ لأن بعد القرون المفضلة ظهرت البدع وظهر الأشرار والنفاق وإن كانت لا تخلو القرون كلها من الخير ؛ لقوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٦/ ٢٥٩١ (٦٦٥٧) .

وذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم ، وقوله : « ويخونون ولا يؤتمنون »(١)

على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله »(*) الخير موجود ولله الحمد في الأمة وإن كثر الشر بعد القرون المفضلة « يأتي قوم يشهدون ولا يستشهدون تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته » هذا من التساهل في الأيمان والشهادات وهذا نقص في التوحيد إذا تساهل الإنسان في اليمين وتساهل في الشهادة فإن هذا دليل على نقص توحيده ، وكونه يشهد قبل أن يستشهد قبل أن تطلب منه الشهادة هذا دليل على جراءته على الشهادة إذ لو كان متحفظاً وخائفاً لم يبادر بالشهادة حتى تطلب منه ، فإذا طلبت منه فإنه يجب عليه أداء الشهادة ، لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٣] هذا إذا طلبت منه وعنده شهادة يعلمها صحيحة أما إذا لم تطلب منه فلا يبادر بها ؛ لأنه إذا بادر بها من غير طلب فهذا دليل على تساهله بها .

(١) « ويخونون ولا يؤتمنون » : الصفة الثانية : تظهر فيهم الخيانة وهو عدم الأمانة ، الأمانة في السلف صدر الأمة متوفرة ولكن بعدهم تقل الأمانة وتفشو الخيانة . الخيانة في المعاملة ، والخيانة في العهود ، والخيانة في حفظ الأسرار وغير ذلك ، والخيانة كبيرة من كبائر الذنوب ، قال الله ﷻ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال : ٢٧] وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [سورة المعارج : ٣٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [سورة النساء : ٥٨] والأمانة كل ما استحفظ عليه الإنسان من مال أو من سر أو من استشارة أو غير ذلك هذه أمانة ، والودائع التي تودع عند الإنسان هذه أمانات ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ والآية نزلت في الولايات ، يأمر الله ولاة الأمر أن ينيطوا المسؤوليات بالمتأهلين لها الذين يقومون بها ، فالآية في الوظائف أن تُوكل من يقوم بها على الوجه المطلوب ، وهذا سبب النزول وهي عامة في جميع الأمانات حتى الودائع تدخل في هذا ، « أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من

(*) سبق تخريجه في باب (ما جاء في المصورين) .

خـانك »(*) ، فـهؤلاء الذين يأتـون بعد القـرون المفضلة تـقل فيهم الأمانة وتكثر فـيهم الخيانة يتساهلون في الأمانات ويتخذون الأمانة مغنماً كما في الحديث(**) ولا يعظمون شأن الأمانات ، وهذا شيء ظاهر في الناس ، وقد قال ﷺ : « أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون منه الصلاة(***) وفي الحديث الصحيح(****) أنه تقل الأمانة في آخر الزمان حتى يقال : إن في بني فلان أميناً ، يعني يـصبح الأمـين نادراً في الناس ، هـذا من علامات الساعة تغلب الأهواء والشهوات على الأمانة « يخونون ولا يؤتمنون » لا يأمنهم الناس إذا عرفوا بالخيانة صاروا الناس ما يأمنوهم ، بينما كانوا في الصدر الأول لا أحد يتهم أخاه بالخيانة أبداً كانوا أمينين ولا أحد يخاف من الخيانة ، لكن في آخر الزمان لا يأتمن الناس بعضهم بعضاً لأنهم جربوا عليهم الخيانة فصاروا لا يأتمنونهم لا في البيع ولا في الشراء ولا في المعاملات ولا في جميع الشؤون ، الناس لا يأتمنون إلا من عرفوه بالأمانة أما من جربوا عليه الخيانة فإنهم لن يأتمنوه بعد ذلك « وينذرون ولا يوفون » ينذرون الطاعات والعبادات ولا يوفون بها ، بل يستثقلونها ويتهاونون بالنذر ، والنبي ﷺ يقول : « من نذر أن يطيع الله فليطعه »(*****) هذا واجب ، وقال الله تعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [سورة الإنسان : ٧] في وصف الأبرار وقال سبحانه : ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٠] وقال تعالى : ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [سورة

(*) أخرجه أبو داود في « سننه » ٣ / ٨٠٤ (٣٥٣٤) ، وصححه الألباني .

(**) أخرجه الترمذي في « سننه » ٤ / ٤٢٨ (٢٢١٠) ، وضعفه الألباني ، وهو من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً ولفظه : « إن فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء ، فقيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : إذا كان المغنم دولاً ، والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرماً .... » الحديث .

(***) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » ٧ / ٢٥٦ (٣٥٨٣٤) موقوفاً على ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » ٤ / ٣١٩ (١٧٣٩) .

(****) يقصد حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً : « أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال » إلى أن قال : « فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً .... » الحديث . متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢٣٨٢ (٦١٣٢) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ١٢٦ (١٤٣) .

(*****) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٦ / ٢٤٦٣ (٦٣١٨) .

يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم « وينذرون ولا يوفون » أي : لا يؤدون ما وجب عليهم ، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم قوله : « ويظهر فهيم السمن » لرغبتهم في الدنيا وشهواتهم ، وقلة الإيمان باليوم الآخر ، وفي حديث أنس : « لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم » قال أنس : سمعته من نبيكم ﷺ ، فما زال الشر يزيد في الأمة حتى ظهر فيهم الشرك والبدع في كثير منهم ، حتى فيمن انتسب إلى العلم ، ويتصدر للتعليم والتصنيف ، فحدث التفرق والاختلاف في الدين ، وحدث الغلو في أهل البيت من بني بويه[1] في المشرق لما كان لهم دولة ، وبنوا المساجد على

الحج : ٢٩] فإذا نذر الإنسان طاعة وجب عليه الوفاء بالنذر فإن كان ينذر ولا يوفي فهذا من هذا الصنف الذين وصفهم رسول الله ﷺ بأنهم ينذرون ولا يوفون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [سورة التوبة : ٧٥ - ٧٦] هذه من صفات المنافقين فدل عهذا على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان نذر طاعة وإن كان نذر معصية فلا يجوز الوفاء به ، بل يجب تركه ، لقوله ﷺ : « ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » وإن كان نذراً مباحاً ، فهذا يخير بين فعله أو كفارة يمين « ويظهر فيهم السمن » مع هذه الصفات الذميمة يظهر فيهم السمن ؛ لأنهم يكون عندهم رغبة في الدنيا والأكل والشرب والرفاهية وينسون الآخرة ولا يتعبون أنفسهم بالجهاد والصيام والصلاة والتهجد بالليل ، لا يهمهم إلا الراحة والأكل والرفاهية ، ولا يكون عندهم نَصَبٌ في العبادة أو تعب في الطاعة كما كان عند الصالحين ، فلذلك يظهر فيهم السِمَن، فالسِمَنُ صفة ذم إذا كان سببه الرفاهية والتكاسل عن العبادات ، الشاهد من الحديث : أنهم « تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته ويشهدون ولا يستشهدون » ، فهذا دليل على تساهلهم في اليمين والشهادة ، وهذا نقص في التوحيد ، ولذلك أورده المصنف في هذا الباب .

(١) « بني بويه » دولة شيعية لما استولت بعد العباسيين على الأمر في المشرق أظهروا التشيع وناصروا الإلحاد وقمعوا أهل السنة .

القبور[١] وغلوا في أربابها ، وظهرت دولة القرامطة[٢] وظهر فيهم الكفر والإلحاد في شرائع الدين ، ومذهبهم معروف ، وظهر فيهم من البدع ما يطول عَدُّه ، وكثر الاختلاف والخوض في أصول الدين ، وما زال أهل السنة على الحق[٣] ولكن كثرت البدع والأهواء حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، نشأ على هذا الصغير ، وهرم عليه الكبير .

قوله : وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته »[٤] في هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة من غير شك .

---

(١) الشيعة في المشرق بنو « بويه » ، وفي المغرب الفاطميون كل هؤلاء صار لهم دولة وظهر الشر ، ولا تزال آثارهم في الأمة إلى الآن من البناء على القبور ، والغلو في أهل البيت وغير ذلك من آثارهم القبيحة ومنهم القرامطة والإسماعيلية كلهم من فرق الشيعة المنحرفة الضالة .

(٢) القرامطة من الفاطميين ، شيعة باطنية .

(٣) هذا استدراك ؛ لأنه وإن كثر الشر فإن الخير باقٍ ولله الحمد ، وله من ينصره ومن يؤيده ، والواجب على المسلم أن ينضم إلى أهل الحق وإن كانوا قليلين ويكون معهم ، ولا ينظر إلى أهل الباطل وإن كانوا كثيرين وأقوياء .

(٤) حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يؤكد أن القرون ثلاثة ؛ لأنه ذكر ثلاثة قرون ، فهذان الحديثان يدلان على فضل القرون الثلاثة : قرن الصحابة ، ثم يليه قرن التابعين ، ثم يليه قرن أتباع التابعين ، فهؤلاء هم القدوة للأمة ، وهم السلف الصالح ومن جاء بعدهم وسار على نهجهم فإنه لاحق بهم ، ومن خالفهم فإنه يكون متخلفاً عنهم ، فهذا فيه فضل السلف على الخلف في العلم والعمل والاتباع ، ففيه رد على من يقول : إن طريقة السلف أسلم وأحكم وإن طريقة الخلف أسلم وأعلم وأحكم ، هذا غلط وهذا الغالب إنه من المتكلمين ومن أهل الأهواء .

السلف أعلم قرون الأمة وهم أحكمها وهم أسلمها ؛ لأن السلامة لا تكون إلا مع =

قوله : « ثم يجيء قوم » إلخ . وذلك لضعف الإيمان والرغبة في الدنيا ، وأخذها بالقلوب وكثرة المعاصي والذنوب ، قوله : وقال إبراهيم : « كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار »[1] هكذا حال السلف

العلم ، وهذا يقول : الخلف أعلم والسلف أسلم ، نقول : هذا تناقض ؛ لأن السلامة لا تحصل إلا مع العلم فالسلف أسلم وأعلم وأحكم ممن جاء بعدهم بثناء الرسول ﷺ عليهم وشهادته لهم بالخيرية المطلقة ، فالذي يقول : إن الخلف أعلم من السلف هذا كذاب ومخالف لقول الرسول ﷺ ، وقد صنَّف الحافظ ابن رجب رسالة مستقلة سماها : « فضل علم السلف على علم الخلف » وهي رسالة جيدة في الموضوع .

(١) « قال إبراهيم » : إبراهيم النخعي من كبار التابعين من تلاميذ ابن مسعود رضي الله عنه « كانوا يضربوننا » كانوا أي : السلف الصالح ، ويضربون الصبيان الصغار « على الشهادة والعهد » إذا شهد الصبي ضربوه من أجل أن يتجنب الشهادة وإذا حلف ضربوه من أجل أن يتجنب اليمين ويعظمها ، يعرف أن اليمين لها حرمة والشهادة لها حرمة فلا يتساهل فيها ، وهذا من التربية أن السلف كانوا يربون أولادهم على تعظيم الشهادة وتعظيم اليمين ، وفيه : أن الطفل يُضرب ، وأن الضرب مشروع لأجل التأديب ولأجل التربية ، فولي الصغير إذا حصل منه مخالفة لا يكفي إنه ينهاه ، بل يضربه لأنه لا يدرك معنى النهي فإذا ضربه أدرك معنى الألم وعرف أنه أخطأ فلا يعود مرة ثانية لهذا الشيء ويكرهه ، ويغرس الكراهة في قلبه للأشياء المخالفة ، فهذا فيه أن الضرب وسيلة من وسائل التربية لا كما يقوله الأوروبيون ومن تتلمذ عليهم أن الضرب لا يجوز وأنه قسوة وأنه وأنه إلخ ، بل الضرب وسيلة قوية لتربية الأولاد ، لكنه يكون ضرباً يتناسب مع الأولاد ، لا يكون ضرباً مبرحاً ، والله ﷻ جعل للزوج أن يضرب زوجته إذا نشزت ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ [سورة النساء : ٣٤] هذا أيضاً من التربية ، وقال ﷺ : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر »(*) فجعل الضرب على ترك الولد الصلاة في سن العاشرة ؛ لأنه قارب البلوغ فالضرب في الإسلام مشروع لأجل التربية والتأديب وليس هو من وسائل الوحشية ، بل هو من

(*) أخرجه أبو داود في « سننه » ١ / ٣٣٤ (٤٩٥) ، وقال الألباني : حسن صحيح .

الصالح محافظة منهم على الدين الذي أكرمهم الله به ، فلا يتركون شيئاً مما يكره إلا أنكروه ، وفيه تمرين الصغار على دينهم بالتعليم .

وسائل الرحمة بالطفل ، قال الشاعر(*) :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُ ومَنْ يَكُ حَازِماً　　فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً عَلى مَنْ يَرْحَمُ

فالوالد يرحم ولده ، لكن يضربه عند المخالفة ، ولا يتنافى هذا مع رحمته ، بل هذا من رحمته لأنه يؤديه ويجنبه ما يضره ، فالتأديب رحمة .

(*) انظر : « نهاية الأرب في فنون الأدب » لشهاب الدين النويري ٧ / ٢٩١ .

٦٣ - باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [سورة النحل : ٩١] .

وعن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية ؛ أوصاه بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً ، فقال : « اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلُّوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين ؛ فادعهم إلى ثلاث خصال (أو : خلال) ، فأيتهن ما أجابوك ؛ فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك ؛ فأقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك ؛ فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها ؛ فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله تعالى [الذي يجري على المؤمنين] ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء ؛ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا ؛ فاسألهم الجزية ، فإن هم أجابوك ؛ فأقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا ، فاستعن بالله وقاتلهم .

وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ؛ فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه ، وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ؛ فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ؛ فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا » رواه مسلم .

٦٣ - باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ

قوله : (باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه)(١) وقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [سورة النحل : ٩١](٢) . قال العماد ابن كثير : (وهذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء

---

(١) الذمة : هي العهد : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [سورة التوبة : ١٠] الإل معناه : القرابة ، والذمة العهد ، ذمة الله : عهد الله ، ذمة رسوله : عهد رسوله ﷺ وهذا الباب قوله : (باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله) أي : من المنع ، من إعطاء ذمة الله وذمة رسوله ، وهذا الباب من الأبواب السابقة في الأيمان ؛ لأن العهد من الأيمان ، لكنه يمين خاص ، ولذلك أفرده المصنف في هذا الباب ؛ لأن الاستهانة بذمة الله وذمة رسوله نقص في التوحيد ، والوفاء بذمة الله وذمة رسوله إكمال للتوحيد ، فلذلك عقد المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد .

(٢) معنى قول الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ : هذا أمر من الله ﷻ بالوفاء بعهد الله ، إذا عاهد المسلم عهداً فإنه يجب عليه الوفاء بعهده ؛ لأن الوفاء بالعهد من احترام حق الله ﷻ ، ونقض العهد من تنقص حق الله ﷻ ومن صفات المؤمنين الوفاء بالعهود ، ومن صفات المنافقين الغدر بالعهود .

قال ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »(*) وقد جاء الوعيد الشديد على الغدر بالعهود ، وأن من غدر بالعهد فإنه يوم القيامة يجعل له لواءً تشهيراً به ، ويقال : « هذه غدرة فلان بن فلان »(**) .

(*) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٢ / ٨٦٨ (٢٣٢٧) ، ومسلم في « صحيحه » ١ / ٧٨ (٥٨) .

(**) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢٢٨٥ (٥٨٢٤) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٣٦٠ (١٧٣٥) .

فالواجب على المسلمين الوفاء بالعهود والأيمان والعقود ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [سورة المائدة : ١] ، فالإسلام دين وفاء وليس دين غدر وخيانة ، فإذا عاهد الإنسان ربه وجب عليه الوفاء ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [سورة التوبة : ٧٥ - ٧٦] وعاهد إماماً من أئمة المسلمين فإنه يجب عليه الوفاء بالعهد مع الإمام ولا يخون ، وليس من لازم عقد العهد للإمام أن كل واحد يعاهد ؛ بل إذا عاهد أهل الحل والعقد لزم البقية الوفاء ، « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم »(*) وهم يد على من سواهم ، فإذا تمت البيعة لإمام من أئمة المسلمين وجب على الرعية جميعاً الوفاء بهذا العهد ؛ لأنهم أمة واحدة ، وكذلك العهد مع الدول ، العهد الذي يكون بين المسلمين والكفار يجب الوفاء به ، فلا يجوز نقض العهد مع الكفار قبل تمامه إلا إذا هم نقضوا أو أخلوا بشروط العهد فإن المسلمين في حِلٍّ من عهدهم ، أما إذا وفوا بعهدهم ولم ينقضوا وجب على المسلمين الوفاء لهم بالعهد حتى تنتهي مدتهم وهذا في حق الإمام وفي حق الرعية لا يجوز لهم أن يخونوا العهد مع الكفار إذا كان بينهم وبين المسلمين عهد ، فيجب الوفاء به وعدم الغدر وكذلك العهود التي بين الناس بعضهم مع بعض فيجب الوفاء في العهود التي بين الأفراد بعضهم مع بعض ولا يجوز التهاون في العهود والمواثيق ؛ بل يجب الوفاء بها ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة : ٧] .

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ : هذا عام في جميع العهود ، سواء كان عهدكم مع إمام ، أو كان عهدكم مع الكفار ، أو كان عهدكم فيما بينكم ، فيجب الوفاء بالعهد ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [سورة الإسراء : ٣٤] ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ [سورة النحل : ٩١] يعني العهود لأن الأيمان التي هي الحلف - هذا مر بنا - أنه إذا كان الأفضل نقضها فإنها تنقض ويأتي بالتي هي خير ويكفِّر عن يمينه إذا حلف على ترك شيء وفِعلُه خير فإنه يفعله ويكفر عن يمينه وإذا حلف على فعل شيء وفعله شر ، فإنه يتركه ويكفر عن

(*) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٦ / ٢٦٦٢ (٦٨٧٠) ، ومسلم في « صحيحه » ٢ / ٩٩٤ (١٣٧٠) .

بالعهود والمواثيق ، والمحافظة على الأيمان ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ .

وهذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق(١) ، لا الأيمان الواردة على حث ومنع)(٢) .

قوله : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾ تهديد ووعيد(٣) قوله : « عن بريدة » هو ابن الحصيب الأسلمي ، وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه ، قوله : « كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية(٤) أوصاه بتقوى

يمينه ، ويأتي بالذي هو خير هذا سَبَق ، فالمراد هنا بالأيمان العهود ، وليس المراد بها هنا الحلف ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ ﴾ : أي العهود ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ : أي بعد إبرامها وتمامها ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ : الواو للحال ، أي : والحال أنكم إذا عاهدتم فقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، فلا تخونوا العهد ، فإن الله هو الكفيل به ، ويتولى عقوبة من نقضه ، لأنكم إنما عاهدتم الله ﷻ والناس وثقوا بكم لله ﷻ ، فإذا خنتم فقد تنقصتم حق الله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ الشاهد من الآية : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾ : دل على أنه لا يجوز نقض العهود والمواثيق من غير مسوّغ شرعي .

(١) أيمان خاصة ليست أيمان الحلف ، فإن أيمان الحلف سبق لنا أنها يجوز أو يستحب أو يجب نقضها إذا كان نقضها أحسن من المضي فيها .

(٢) وهي الأيمان المحلوف بها .

(٣) لا يخفى عليه عملكم في العهود والمواثيق ، فإن وفيتم فلكم الجزاء من الله وإن غدرتم فعليكم العقاب من الله ، لأن الله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم .

(٤) عن بريده بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه صحابي جليل ، « أن رسول الله ﷺ كان » : يعني كانت سيرته ، « إذا أمّر أميراً على جيش » لقتال الكفار ، « أو سرية » والسرية هي القطعة من الجيش ، هذا دليل على أن الجهاد من صلاحيات إمام المسلمين هو الذي يأمر به ، وهو الذي يجند الجنود من أجله ، ويختارهم ويؤمّر عليهم أميراً ولا يتركهم يذهبون بدون أمير يرجعون إليه في حل مشكلاتهم ، فالإمام هو الولي العام ، والأمير على الجيش =

الله تعالى »[1] فيه من الفقه تأمير الأمراء ووصيتهم[2] . قال الحربي : السرية : الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها ، والجيش : ما كان أكثر من ذلك ، وتقوى الله : التحرز من عقوبته بطاعته[3] .

قوله : « ومن معه من المسلمين خيراً »[4] أي : ووصاه بمن معه أن يفعل

أو السَّرية هو الولي الخاص ، وتجب على الجيش وعلى السرية طاعة أميرهم ، لقوله ﷺ : « من يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني »(*) ، لأنه نائب عن ولي الأمر فطاعته طاعةً لمن أمره وهو ولي الأمر والنبي ﷺ يقول : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد »(**) سواء إمارة عامة أو إمارة خاصة يجب السمع والطاعة ، فهذا فيه أن تنظيم الجهاد من صلاحيات ولي الأمر ، وأنه هو الذي ينظم الجيوش والسرايا ، وفيه دليل على تأمير الأمراء على الجيوش ، بل إن المسافرين إذا سافروا فإنه يشرع لهم أن يؤمروا أميراً ينهي نزاعاتهم وخلافاتهم .

(١) أوصاه في نفسه « بتقوى الله » وبمن معه من المسلمين خيرا ، هذا فيه أن ولي الأمر إذا أمَّر الأمير على الجيش أو السرية فإنه يوصيه بتقوى الله وهي فعل أوامر الله وترك نواهيه ؛ لأن الأمير قدوة فيكون قدوة حسنة .

(٢) فيه من الفقه أن أمور الجهاد من شأن ولي الأمر ، وأن ولي الأمر إما أن يقود الجيش بنفسه ، كما كان النبي ﷺ يقود الجيوش بنفسه ، وإما أن يُؤَمِّر عليهم أميراً ينوب عنه .

(٣) والتحرز هو : التوقي من العقوبة ، وما الذي يقيك العقوبة ؟ هو الطاعة .

(٤) « وبمن معه من المسلمين خيراً » : بأن يرفق بهم وينظر في مصالحهم ولا يعنفهم أو يشق عليهم ، بل يكون رفيقاً بهم ، ناظراً في مصالحهم ودافعاً للضرر عنهم ، ويحل مشاكلهم بالعدل والقسط .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١٠٨٠ (٢٧٩٧) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٤٦٦ (١٨٣٥) .

(**) أخرجه أبو داود في « سننه » ٥ / ١٣ (٤٦٠٧) ، والترمذي في « سننه » ٥ / ٤٣ (٢٦٧٦) بدون لفظ « تأمر عليكم » ، وصححه الألباني ، وقد أخرجه بلفظه البيهقي في « السنن الكبرى » ١٠ / ١١٤ .

معهم خيراً من الرفق بهم ، والإحسان إليهم ، وخفض الجناح لهم ، وترك التعاظم عليهم(١) قوله: « اغزوا باسم الله »(٢) أي : اشرعوا في الغزو مستعينين بالله مخلصين له(٣) فتكون الباء في بسم الله للاستعانة بالله والتوكل عليه هنا(٤) .

قوله : « قاتلوا من كفر بالله »(٥) هذا العموم يشمل جميع أهل

(١) يكون كواحد منهم لا يترفع عليهم وينظر في مصالحهم ويدفع الضرر عنهم ويرفق بهم في المسير والنزول ولا يشق عليهم .

(٢) قال : « اغزوا بسم الله » : يعني إذا أَمَّر الأمير وأوصاه فإنه يقول : اغزوا بسم الله هذا فيه مشروعية البدء ببسم الله في الأمور الهامة والغزو من أهم الأمور ، ومعنى بسم الله : أي استعانة بالله تعالى وتبركاً باسمه ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [سورة الرحمن : ٧٨] فبسم الله الرحمن الرحيم معناها : الاستعانة والتبرك باسم الله ﷻ .

(٣) هذا فيه أن الأمور المهمة تبدأ ببسم الله .

(٤) والتقدير : أستعين بالله أو أتبرك ببسم الله المقدر ، لأن الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره : أستعين بالله أو أتبرك ببسم الله .

(٥) هذا بيان الحكمة من الجهاد في الإسلام وهو أنه لأجل إزالة الكفر والشرك ؛ لأن الله خلق الخلق لعبادته فإذا عبدوا غيره فإنه يجب دعوتهم إلى عبادة الله فإن رجعوا وإلا فإنهم يُقاتلون لئلا يفسدوا في الأرض وينشروا الكفر ويتسلطوا على المسلمين هذا هو الغاية من الجهاد ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ۝ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ [سورة التوبة : ١٤ - ١٥] القتال سبب للتوبة قد يؤسرون بالقيود ثم يتوبون ويسلمون ويدخلون الجنة كما قال ﷺ : « عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل »(*) يعني يؤسرون ويؤتى بهم أسارى بسلاسل الحديد ثم يتوبون إلى الله فيدخلون الجنة ، وفي الحديث : « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما

(*) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٣٦٦/ ٤٦٥ (٢٢١٤٨) ، وقال الأرنؤوط : صحيح لغيره .

=

الكفر المحاربين من أهل الكتاب وغيرهم[١] ، واستثنى منهم من له عهد[٢] وكذلك الذراري والأولاد والنساء[٣] والرهبان فلا يُقتلون[٤] .

الآخر كلاهما يدخلان الجنة »[*] ، كافر يقتل مسلماً ويدخل القتيل الجنة ثم يتوب الكافر ويدخل الجنة ، هذا فضل الله ﷻ .

وفي هذا دليل على أن القتال إنما هو لإزالة الكفر والشرك ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] هذا هو المقصود وهذا فيه صلاح البشر وفلاحهم ، إذا قوتل من يكفر بالله من أجل كفره وشركه لأجل نشر التوحيد وعبادة الله وترك عبادة ما سواه وقمع الجبابرة والطواغيت الذين يتحكمون في عباد الله بغير حق ، هذا لمصلحة البشرية وليس هو قسوة ، وليس هو لأجل سفك الدماء ، وليس هو لأجل سلب الأموال هذا هو المقصود بالجهاد في سبيل الله فالمسلمون من الصحابة والتابعين قدموا أنفسهم وأموالهم في هذا لأجل إعلاء كلمة الله والخير للبشرية ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] وماذا حصل من نتائج الجهاد من الفتوح ونشر الإسلام وإزالة الظلم وإزالة الكفر ونشر العدل بين الناس ؟ ماذا حصل من الجهاد في سبيل الله من الثمرات العظيمة من أين ظهر هؤلاء العلماء في المشارق والمغارب ؟ إلا نتيجة الجهاد في سبيل الله ، من أين وجد هذا العلم العظيم الذي لا يوجد مثله في الديانات ؟ إلا ثمرة الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله ﷻ .

(١) من كفر هذا عام ، كل من كفر سواء من أهل الكتاب أو من غيرهم من الوثنيين .

(٢) استثنى من الكفار من له عهد فإنه لا يقاتل إلا بعد نهاية عهده ، أو أن يكون منه غدر وخيانة ، أما ما دام قائماً بالعهد ووافياً بالعهد فإنه يوفى له بالعهد .

(٣) وكذلك يستثنى من لا يقاتل من الذراري والنساء وكبار السن هؤلاء لا يقاتلون ولا يحملون السلاح ولا ينشرون الكفر لأنهم لا يقدرون على نشر الكفر ، فكفرهم قاصر على أنفسهم .

(٤) الرهبان : جمع راهب ، وهو العابد الذي تفرغ للعبادة من النصارى ، هذا يترك ؛ لأنه ليس منه ضرر من الناس ، ضرره على نفسه فقط .

(*) متفق عليه : أخرجه البخاري في « صحيحه » ٤ / ٢٤ (٢٨٢٦) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٥٠٤ (١٨٩٠) .

قوله : « ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا »[1] الغلول : الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها[2] قال تعالى : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦١] والغدر : نقض العهد[3]

(١) هذه نواهي ، نهاهم عنها الرسول ﷺ وممارسات لا تجوز في الجهاد ؛ لأنها ظلم وليس فيها إلا الضرر ، والرسول ﷺ بعد أن أمرهم بالغزو في سبيل الله أن يكون قصدهم في سبيل الله لا يكون قصدهم شيء آخر ، اغزوا في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، القتال لأجل إزالة الكفر والشرك ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [سورة التوبة : ٥] ثم لما أمرهم بهذه الأوامر نهاهم عن أشياء تُخِلُّ بالجهاد وتُنفِّر عن الإسلام وليس فيها مصلحة .

« ولا تغلوا » الغلول : هو الأخذ من الغنيمة قبل القسمة ؛ لأن الغنيمة لجميع المجاهدين لا يختص بها أحد ، بل تقسم عليهم ، فمن أخذ منها شيء من غير إذن الإمام ، فإن هذا غلول ، وهو كبيرة من كبائر الذنوب ، قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦١] فقد أخبر النبي ﷺ : أن من غل شيئاً فإنه يجيء به على عاتقه يوم القيامة يحمله بعيراً أو بقرة أو شاة أو غير ذلك[*] يحمله ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ « ولا تغدروا » هذا محل الشاهد أي : لا تغدروا بالعهود إذا أُعطيتم عهداً فعليكم الوفاء به « ولا تمثلوا » : لا تمثلوا بجثث الكفار إذا قتلتموهم فلا تمثلوا بهم بقطع أعضائهم ، وقُطع أنوفهم وآذانهم وأطرافهم ، هذا تمثيل لا يجوز .

(٢) يعني قبل القسمة ، أما إذا قسم له وأعطي نصيب فهذا حلال ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ [سورة الأنفال : ٦٩] .

(٣) « ولا تغدروا » الغدر : نقض العهود ، فالمسلم إذا أعطى عهدا فإنه يجب عليه الوفاء بعهد الله ﷻ .

(*) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١١١٨ (٢٩٠٨) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٤٦١ (١٨٣١) .

خلال[١] - » الرواية بأو التي هي للشك والمعنى واحد .

قوله : « فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم »[٢] منصوب بأجابوا[٣] قوله : « ثم ادعهم إلى الإسلام » كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم « ثم ادعهم » بزيادة « ثم »[٤] .

يستعمل الرفق والتدرج مع الناس دعوة إلى الإسلام أولاً ، ثم الجزية ، ثم القتال آخر شيء ؛ لأنهم إذا أبوا الدخول في الإسلام وأبوا بذل الجزية فقد مردوا على الكفر ، ونشر الكفر في الأرض ، فلا يتركوا ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] ولو بقوا لنشروا الكفر ولفتنوا المسلمين عن دينهم ، كما هو واقع الآن لما عطل الجهاد في سبيل الله ، ماذا فعل الكفار بالمسلمين ؟ الكفار ما كفوا عن المسلمين إذا لم يقاتلهم المسلمون في سبيل الله ، هم يقاتلون المسلمين كما هو واقع الآن ، ولا تأخذهم شفقة ولا رحمة بالمسلمين ، فما تمرد الكفار الآن على المسلمين إلا لترك الجهاد في سبيل الله .

(١) هذا شك من الراوي ، والخصال والخلال بمعنى واحد ، لكن هم ﷺ يتحفظون في الألفاظ فإذا شكوا في اللفظ جاءوا بـ (أو) التي للشك لئلا ينسبوا إلى رسول الله ﷺ ما لم يقله وإن كان المعنى واحد وهذا فيه وجوب التحري في الرواية ، وإذا لم يتيقن اللفظ النبوي فإنه يأتي بالشك .

(٢) يعني إن أجابوا إلى الإسلام فاقبل منهم وكف عنهم ، وإن أجابوا إلى بذل الجزية فاقبل منهم وكف عنهم .

فالذين يقولون أن الإسلام دين قسوة ودين جبروت ودين عنف ودين إرهاب قبحهم الله ، الإسلام دين رحمة ودين رفق وليس هو دين عنف ولا دين إرهاب ، بل دين رحمة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٧] حتى الكفار يزال عنهم الجبابرة والطواغيت ويصيرون تحت حكم الإسلام ويبذلون الجزية أليس هذا من الرحمة ؟ ويبقون تحت حكم الإسلام آمنين مطمئنين هذا من الرحمة ، ويزال عنهم الطغاة والجبابرة الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب .

(٣) منصوب بأجابوا : أجابوك إلى أيتهن ، فأيتهن منصوب على نزع الخافض ؛ لأن الأصل أجابوك إلى أيتهن ثم حذفت (إلى) التي هي حرف الجر فنصب على نزع الخافض .

(٤) « ثم ادعهم » يعني كلمة (ثم) هذه لا مكان لها من الإعراب فهي زائدة وجاءت في بعض الأحاديث محذوفة .

قوله : « ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين »[١] يعني المدينة إذ ذاك[٢] ، وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن وهو في بلد الشرك[٣] وكذلك إذا ظهرت المعاصي في بلده[٤] نص عليه الفقهاء في كتبهم . قوله : « فإن هم أبوا أن يتحولوا منها »[٥] يعني أن من أسلم ولم

---

(١) إذا أسلمت هذه القبيلة التي غزوتها فإنك تدعوهم للتحول بالهجرة من بلادهم إلى بلاد المسلمين ، حتى يكونوا مع المسلمين ويجاهدوا مع المسلمين ، وهذا من باب الاستحباب .
والهجرة : هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ، وهي واجبة إلى أن تقوم الساعة ، أو الانتقال من البادية إلى الحاضرة من بادية الإسلام إلى حاضرة الإسلام هذه هجرة أيضاً ؛ لأن البقاء في البادية جفاءً وبعداً عن العلم وبعداً عن الجهاد في سبيل الله ، والانتقال إلى الحاضرة فيه تعلم العلم النافع وفيه التفقة في دين الله ، وفيه الجهاد في سبيل الله ﷻ ، فالهجرة إما إن تكون من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام وهذا واجب مع القدرة ، وإما أن تكون من البادية إلى الحاضرة وهذا هو المقصود في هذا الحديث ، المقصود هو النوع الثاني : أنهم ينتقلون من البادية ومن الأعراب إلى حاضرة الإسلام ويتفقهوا ويجاهدوا في سبيل الله ، وهذه ليست واجبة .
الهجرة الأولى : الانتقال من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام هذه واجبة ، أما الهجرة الثانية وهي الانتقال من بادية الإسلام إلى حاضرة الإسلام هذه مستحبة إن فعلها فهو خير ، وإن تركها فلا حرج عليه ، لأنه في بلاد الإسلام بادية الإسلام تابعة لحاضرة الإسلام .

(٢) يعني في ذلك الوقت دار الهجرة هي المدينة ، أما بعد فتح مكة فصارت دار الهجرة هي بلاد الإسلام في المدينة وفي مكة ، وفي أي مكان .

(٣) هذه هجرة واجبة : الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام لمن لا يقدر على إظهار دينه .

(٤) إذا كان في بلد مسلم لكن تظهر فيه المعاصي والمخالفات فيستحب أن ينتقل منه إلى بلد نقي من الذنوب والمعاصي ، وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(٥) إذا أبوا أن يتحولوا من البادية إلى الحاضرة فاتركهم ؛ لأنهم تركوا شيئاً مستحباً ، ولم يتركوا واجباً ؛ لكن أخبرهم أنهم تجري عليهم أحكام الإسلام وهم في مكانهم ، ولكن ليس لهم من الغنيمة شيء ؛ لأنهم لم يجاهدوا مع المسلمين .

يجاهد ولم يهاجر من البداوة لم يعط له من الخمس ولا من الفيء شيء »[(١)] .

قوله : « فإن هم أبوا فأسألهم الجزية »[(٢)] فيه حجة لمالك وأصحابه والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر عربياً كان أو غيره ، كتابياً كان أو غيره[(٣)] وقد اختلف في القدر المفروض من الجزية[(٤)] فقال مالك : أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعون درهماً على أهل الورق ، وقال الشافعي : دينار على الغني والفقير ، وقال أبو حنيفة : على الغني ثمانية وأربعون درهماً ، والوسط أربعة وعشرون درهماً ، والفقير اثنا عشر درهماً ، وهو قول أحمد ابن حنبل[(٥)] وعند مالك وكافة العلماء على الرجال الأحرار البالغين دون غيرهم[(٦)] .

---

(١) لأنه لم يشارك فلا يعطى المسلم من الأعراب أو من البادية من الغنيمة ومن الفيء شيء إلا بأحد أمرين : إما أن يهاجر ، وإما أن يقاتل مع المهاجرين ، فإذا لم يهاجر ولم يقاتل مع المهاجرين فليس له شيء .

(٢) فإن أبوا الإسلام فاعرض عليهم الجزية والجزية : هو المقدار من المال يدفعه سنوياً في مقابل تركه وعدم قتله ودخوله تحت حكم الإسلام ويبقى على دينه ، لكن يبقى تحت حكم الإسلام من حيث السلطة ، ومن حيث فصل الخصومات ومنع مظاهر الشرك والكفر .

(٣) لعموم هذا الحديث ، والقول الثاني : أنها تؤخذ من كفار العجم فقط لا من كفار العرب هذا قول أبي حنيفة ، والقول الثالث : تؤخذ من أهل الكتاب والمجوس فقط ، ويكون الحديث مخصص بالآية .

(٤) الصحيح أن مقدار الجزية موكول إلى اجتهاد الإمام ، ليس فيها تحديد من الرسول ﷺ فهو موكول إلى اجتهاد الإمام ، فيحمل كل واحد من الذميين بقدر استطاعته .

(٥) والصحيح أنه يرجع فيها إلى اجتهاد الإمام هو الذي يقدرها .

(٦) « على الرجال الأحرار البالغين » : الرجال يخرج النساء ، والأحرار يخرج الأرقة من الكفار ، والبالغين يخرج الصغار من الكفار ليس عليهم جزية .

وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين لا ممن نأى بدره[١] ويجب تحويل النائي إلى بلاد المسلمين أو حربهم .

قوله : « وإذا حاصرت أهل حصن »[٢] إلى آخره ، فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول : إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد[٣] ، وهو المعروف من مذهب مالك وغيره .

قوله : « وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه »[٤] الذمة : العهد ، وتخفر : تنقض ، يقال : أخفرتُ الرجل : نقضتُ

---

(١) وإذا عاهدناهم فإن كانوا في بلادنا أخذنا منهم الجزية وإن كانوا مقيمين في بلادهم وبيننا وبينهم عهد لا نأخذ منهم الجزية لأنهم ليسوا تحت حكمنا .

(٢) الحصار : هو تطويق مكان العدو بحيث لا يخرج منه أحد ، ولا يدخل إليه أحد ، ولا يدخل إليه مال ولا قوة ولا شيء ، والحصن : هو البناء الذي يتحصن المقاتلون بداخله من العدو ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحشر : ٢] ويسمى بالقلاع أيضاً .
قد يكون القتال في الميدان ، وقد يكون القتال من وراء الحصون ، وهذا هو المقصود هنا وهذا لا يكون في البوادي وإنما يكون في الحواضر ، حواضر المشركين هم الذين يتحصنون بالحصون ، وأما البوادي ، بوادي الكفار فإنهم لا يكون عندهم حصون .

(٣) قوله : « فإنك لا تدري تصيب حكم الله فيهم أو لا » مع إنه مجتهد ، فالمجتهد لا يجزم إنه مصيب ؛ بل يتحرى الدليل ؛ لأنه يوجد من الأصوليين من يقول : كل مجتهد مصيب ، فهذا غلط ، ليس كل مجتهد مصيب ، المصيب واحد ، لأن الحق لا يتعدد ، وهو مع أحد المجتهدين ، فإذا ظهر لنا الدليل قلنا : الحق مع من وافق الدليل ، وإذا لم يظهر لنا الدليل قلنا كل واحد محتمل أنه مصيب .

(٤) هذا هو محل الشاهد من الحديث : إذا حاصرت أهل حصن وطلبوا منك أن تعاهدهم لأجل أن يستسلموا ويخرجوا من حصونهم ، فلا تجعل لهم ذمة الله أي : عهد الله وعهد رسوله ، ولكن اجعل لهم ذمتك فقل : عهدي أنا يقول الأمير أو القائد : أعطيكم عهدي وميثاقي أنا ، ولا أعطيكم عهد الله وعهد رسوله ﷺ ما المانع ؟ قال : « فإنكم إن تخفروا =

عهده ، وخفرتهُ(١) ؛ لأنه لا يؤمن على من أعطى ذمة أن يخفرها . فخفر ذمته أهون من أن يخفر ذمة الله تعالى(٢) .

ذممكم وذمم أصحابكم » والإخفار : معناه الغدر والخيانة يقال : أخفره أي : غدر بعهده وخانه .

(١) خفرته : من الثلاثي ، وأخفرته : من الرباعي من أخفر ، فالإخفار مذموم ، والخفر هذا لا بأس به من الحماية ومنه يقال : الخفير : هو الذي يحمي الإنسان ويحمي الطريق ، وخفر السواحل يعني حفظها .

(٢) لأن المعاهد على خطر إنه يغدر ، ليس بمعصوم من الغدر ، فما دام أنه يُخشى أنه يغدر فكونه يغدر بذمته هو أهون من أن يغدر بذمة الله وذمة رسوله ، فهذا من ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما وإن كان الكل حراماً ، لكن بعضه أشد من بعض .

٦٤ - باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله ﷻ : من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك » رواه مسلم .

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد ، قال أبو هريرة : « تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته » .

٦٤ - باب ما جاء في الإقسام على الله

قوله : (باب ما جاء في الإقسام على الله)[1] ، ذكر المصنِّف فيه حديث

(١) الإقسام هو : الحلف ، أي : ما جاء في الحلف على الله ، وهذا فيه تفصيل - كما يأتي - ولذلك الشيخ ﷺ لم يذكر الحكم ؛ لأن المسالة فيها تفصيل :

فالحلف على الله إن كان يقصد به أن الله لا يفعل الخير في عباده فهذا لا يجوز ؛ لأنه سوء أدب مع الله ، وسوء ظن بالله ﷻ ، وهذا يُنقص التوحيد ، وهذا وجه ذكره في كتاب التوحيد .

أما إن كان الإقسام على الله بمعنى أن الله ﷻ - يفعل الخير في عباده[*] ، يحلف على الله أن يفعل الخير بعباده فهذا ليس بمذموم ؛ لأنه حسن ظن بالله ﷻ وهو وارد وجائز ، وقد قال ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره »[**] .

(*) سئل شيخنا - حفظه الله - : هل يجوز لأي أحد من الصالحين أن يقسم على الله في فعل خير لعباده ، أم أن ذلك مخصوص لأحد معين ؟ فأجاب : الأصل أن هذا جائز ، وهو من حسن الظن بالله ﷻ . أ.هـ .

(**) متفق عليه ، أخرجه البخاري في « صحيحه » ٢ / ٩٦١ (٢٥٥٦) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٣٠٢ (١٦٧٥) .

جندب[1] بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله ﷻ : ومن ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك »[2] رواه مسلم .

---

(١) جندب بن عبد الله : جندَب - بفتح الدال ، ويجوز الضم - جندب بن عبد الله البجلي ، صحابي جليل .

(٢) هذه الرواية مختصرة في صحيح مسلم وجاء تفصيلها في حديث عند غير مسلم أن هذا الرجل كان ممن كان قبلنا من الأمم السابقة ، وأنه كان رجلاً عابداً ، وكان يرى رجلاً عاصياً يفعل المعاصي فينصحه ، ثم لما تكرر من الرجل فعل المعاصي أخذت هذا العابد ، الغيرة الشديدة فقال : والله لا يغفر الله لفلان ، والله لا يدخله الجنة ، هذا لاشك أنه أساء الأدب مع الله ﷻ فإن الله - سبحانه - رحيم بعباده يغفر الذنوب إذا كانت دون الشرك ، ولو كانت كبائر ، يغفرها - سبحانه - إذا شاء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] الله يغفر لعباده ، إذا سلموا من الشرك فإن الله يغفر لهم ، أو يعذبهم بذنوبهم ، ثم يدخلهم الجنة بعد ذلك ، فالموحد يرجى له الخير والمغفرة وإن كان عنده ذنوب ، وإنما الذين يقولون إن صاحب الكبيرة لا يغفر له وأنه خالد في النار هذا مذهب الخوارج ، وهو مذهب باطل ، فهذا الرجل لما تكلم بهذا الكلام الذي فيه تحكم على الله ﷻ وسوء ظن بالله ، الله ﷻ غضب عليه ، وإن كان دافعه الغيرة ، لكن الغيرة لها حدود - إذا تجاوزت حدودها فإنها غير سائغة ، إذا بلغت القنوط من رحمة الله ﷻ هذه غيرة باطلة ، فقال الله - سبحانه - ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٦] يحلفون ، الألية هي الحلف « قال الله تعالى » هذا فيه إثبات الكلام لله ﷻ « من ذا الذي يتألى علي » هذا استفهام إنكار ، ويتألى علي يعني يحلف علي أن لا أغفر لفلان ، مع أن الله وعد بالمغفرة ، والتوبة لأهل الإيمان ، وإن كان عندهم ذنوب دون الشرك ، فالله يغفر لمن يشاء ﷻ فلا أحد يمنع الله ويحجر على الله ويمنع فضل الله على عباده ، كأن تقول : والله لا يرزق الله فلاناً ، والله لا يغفر الله لفلان ، إلى غير ذلك من الأمور التي تحجر فيها على الله أن يتفضل على عباده ، هذا سوء ظن بالله ، وفيه إعجاب بالنفس أيضاً وإعجاب بالعمل ، قال الله : « إني قد غفرت له » هذا مقتضى فضل الله ﷻ أنه يغفر الذنوب وإن كانت كبائر

=

ما دامت أنها دون الشرك « إني قد غفرت له وأحبطت عملك » هذه الكلمة أحبطت عمل هذا الرجل ، كلمة واحدة من غضب الله أحبطت عمل هذا الرجل »(٥) فالله غفر للمسيء ؛ لأن الرجل لما أكثر عليه قال : خلني وربي يغفر لي ، خلني وربي ، فالرجل لم يقنط من رحمة الله ، فقال له : والله لا يغفر الله لك – نسأل الله العافية – فقال الله : « من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان » فقد وعد الله أنه يغفر دون الشرك « إني قد غفرت له ذنوبه » هذا فضل من الله ﷻ : « وأحبطت عملك » بماذا أحبط عمله ؟ بهذه الكلمة التي فيها تألي على الله ﷻ فهذا فيه خطر اللسان ، وأن الكلمة من غضب الله قد تحبط عمل الإنسان كله كلمة واحدة ، فيجب على العبد أن يحفظ لسانه من الكلام السيء ، وأن إنكار المنكر لا يكون بمثل هذه الطريقة تقنيط الناس من رحمة الله ، وتعنيفهم ، بل يكون بالترغيب والترهيب ، ولا يكون بالترهيب فقط ، ولا بالترغيب فقط وإنما يكون بالجمع بين الأمرين الترغيب والترهيب ، هذا هو طريق الدعوة إلى الله وإنكار المنكر بالترغيب والترهيب ، فلا تقنط العاصي من رحمة الله ، ولا تؤمنه من عذاب الله ومن مكر الله ، بل ترغبه وترهبه ، هذه الطريقة المستقيمة ، فمن أخذ جانب الترهيب فقط هذا مخطئ ، ومن أخذ جانب الترغيب فقط فهو مخطئ ، ومن جمع بينهما فهو الحق والصواب ، وهكذا ينبغي للدعاة وللآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن يتوخوا الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، ولا تكون طريقتهم العنف والشدة ، وتقنيط الناس من رحمة الله ، فإن هذا ينفر الناس بل يكون بترغيب الناس في الخير ، وتخويفهم من الشر .

وفي هذا أنه لا يُشهد لمعين بالجنة أو النار ، إلا من شهد له رسول الله ﷺ ، وإنما نرجو للمحسن ونخاف على المسيء هذا مذهب أهل السنة والجماعة .

الشاهد من الحديث : أن الله أنكر على من يتألى عليه أن لا يغفر لفلان « أن لا يغفر » هذا هو الشاهد ، فيه إساءة أدب مع الله ، وقنوط من رحمة الله وهذا ينقص التوحيد .

(*) سئل شيخنا – حفظه الله – : هل يُعذر الشخص إذا قال كلمة من سخط الله ، وهو لا يقصد ؟ فأجاب : هذا يُعلَّم ، إن كان قالها عن جهل يُبين له ، ويعذر بالجهل ، أما إذا قالها وهو يعلم ، فهذا لابد له من التوبة فلا يُعذر بالجهل ؛ لأنه يعلم ، هذا في الأمور الخفية ، أما الأمور الظاهرة مثل مسألة الشرك والتوحيد ، ووجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحريم الربا ، هذه أمور ظاهرة معلومة ضرورة ، لكن الأمور الخفية يُعذر الإنسان فيها بالجهل ، إذا كان مثله يجهل . أ.هـ .

قوله : « يتألى » أي : يحلف ، والألِيَّة بالتشديد : الحلف[١] ، وصح من حديث أبي هريرة . ورواه أبو داود عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة ، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر ، فوجده يوماً على ذنب فقال له : أقصر ، فقال : خلني وربي أبعثت علي رقيباً ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة[٢] فقبضت أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد : أكنت بي عالما أو على ما في يدي قادراً ؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي[٣] ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار » قوله : « في حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد » يشير إلى قوله في هذا الحديث : « إن أحدهما مجتهد في العبادة »[٤] ، وفيه معنى قوله ﷺ « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن

---

(١) الألية بالتشديد الحلف ، أما الإلية بالتخفيف هذه ذَنَب الخروف أو الشاة .

(٢) أعوذ بالله ، لما قال الرجل : خلني وربي يعني الرجل المذنب لم يقنط من رحمة الله ، وأن الله يغفر له ذنوبه فأخذت هذا الغيرة فقال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة – نسأل الله العافية – .

(٣) وهذا فيه أن الأعمال بالخواتيم ، فهذا الرجل خُتم له بشر فدخل النار ، هذه الكلمة التي فيها الجرأة على الله مات عليها فدخل النار ، والرجل المذنب مات على الرجاء برحمة الله وحسن الظن بالله ، فغفر الله له .

(٤) الاجتهاد في العبادة طيب ، لكن لابد أن يكون مع فقه ، أما الاجتهاد في العبادة بدون فقه يوقع صاحبه في الخلل ، مثل ما أوقع هذا الرجل ، فلابد أن يكون الاجتهاد في العبادة مع فقه في دين الله ﷺ : حتى لا يزل الإنسان .

تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه »[١] .

---

(١) الكلمة من سخط الله ﷻ يكتب الله لصاحبها سخطه إلى يوم يلقاه ، وفي حديث آخر : « يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب »(*) وقال لمعاذ : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم »(**) فالكلام له خطورة ، الإنسان الذي لا يحبس لسانه عن الكلام السيء في حق الله أو في حق المخلوقين ربما يهلكه لسانه .

(*) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٥ / ٢٣٧٧ (٦١١٢) ، ومسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٢٩٠ (٢٩٨٨) .

(**) أخرجه الترمذي في « سننه » ٥ / ١٣ (٢٦١٦) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني .

٦٥ - باب لا يستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! نهكت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلكت الأموال ؛ فاستسق لنا ربك ، فإنا نستشفع بالله عليك ، وبك على الله ، فقال النبي ﷺ : « سبحان الله ! سبحان الله ! » . فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : « ويحك ! أتدري ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه » . وذكر الحديث . رواه أبو داود .

٦٥ - باب لا يستشفع بالله على خلقه

قوله : (باب لا يستشفع بالله على خلقه)[1] وذكر الحديث ، وسياق

(١) وهذا أيضاً من منقصات التوحيد ، باب لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه ، والاستشفاع معناه : طلب الشفاعة ، فلا يجوز أن تطلب من الله أن يشفع لك عند أحد من الخلق ، لماذا ؟ لأن الشافع أقل مرتبة من المشفوع عنده ، فإذا استشفعت بالله إلى أحد من خلقه فمعناه أنك جعلت المخلوق أعظم من الخالق وهذا تنقص لله ﷻ فلا يجوز أن تقول : يا الله أسألك أن تشفع لي عند فلان أن يعطيني كذا وكذا ، هذا يجوز بين المخلوقين تقول لمخلوق : اشفع لي عند فلان يقضي حاجتي ، أو ينهي معاملتي هذا جائز بين المخلوقين ، بل هو محمود وفيه أجر إذا كانت الشفاعة حسنة ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [سورة النساء : ٨٥] فإذا كانت الشفاعة حسنة فإن الشافع يؤجر وهذا بين المخلوقين بعضهم مع بعض ، وكذلك مع الله أن تتخذ شافعاً عند الله يدعو لك تقول : أشفع لي عند الله بالدعاء ، ادع الله لي ، فالدعاء شفاعة ، إذا طلبت من أحد أن يدعو الله لك فقد استشفعت به إلى الله ﷻ ، فالشفاعة عند المخلوقين جائزة إذا كانت حسنة ، والشفاعة عند الله أيضاً جائزة إذا كانت بطلب الدعاء ، دعاء الشافع من الله ﷻ أن يقضي حاجة فلان أن يغفر له ، أن ينزل المطر هذا جائز .

أما العكس وهو أن تجعل الله شافعاً عند المخلوق فهذا هو المحرم وهو المذموم ، وهذا

=

أبي داود أتم مما ذكره المصنِّف ، ولفظه : عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، عن جده[1] قال : « أتى النبي ﷺ أعرابي فقال : يا رسول الله جهدت الأنفس وضاع العيال ونهكت الأموال ، وهلكت الأنعام فاستسق لنا[2] فإنا نستشفع بك على الله[3] ونستشفع بالله عليك[4] ، فقال النبي ﷺ : ويحك[5] أتدري ما تقول ؟ وسبح رسول الله ﷺ[6] ، فما زال

منقص للتوحيد إذاً فالشفاعة ثلاثة أقسام :

الأول : الشفاعة بين المخلوقين بعضهم مع بعض ، وهذه جائزة بشرط أن تكون بطلب شيء مباح .

الثاني : شفاعة المخلوق عند الخالق بمعنى أنه يدعو لأخيه أن الله يغفر له ، أن الله يشفيه من المرض ، أن الله يرزقه ، أو للجميع أن الله يسقيهم الغيث ، ويرحم العباد ، فهذا مشروع وجائز .

الثالث : أن يجعل الله شافعاً إلى الخلق ، هذا هو الحرام ، وهو المخلُّ بالتوحيد ؛ لأن المشفوع عنده أكبر من الشافع .

(١) هو مطعم بن عدي القرشي .

(٢) هذا لا بأس جائز ، هذه شفاعة عند الله بالدعاء ، يطلب من الرسول أن يدعو الله لهم بالسقيا وهذا كان يفعله الصحابة ، يأتون إلى النبي ﷺ فيشكون إليه الجدب والقحط وتأخر المطر ، فيستسقي لهم ﷺ بمعنى أنه يدعو الله لهم فيسقون .

(٣) هذا لا بأس به أيضاً « نستشفع بك على الله » يعني نطلب منك أن تدعو الله تستسقي لنا هذه شفاعة عند الله ﷻ ، الشفاعة معناها الدعاء .

(٤) هذا هو الممنوع ، جعلوا الله شافعاً عند الرسول ﷺ ، الرسول أشرف الخلق ﷺ لكن الله أعظم وأعظم فلا يجوز أن يتخذ الخالق شفيعاً إلى المخلوق ، مهما بلغ المخلوق من الفضل .

(٥) « ويحك » هذه كلمة ذم ، ويلك ويحك .

(٦) الرسول ﷺ لا يقر على منكر أبداً فلما قال : « نستشفع بالله عليك » تغير ﷺ وسبح الله تنزيهاً لله عن ما قاله هذا الأعرابي لأنه تنقص الله ﷻ .

يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه(١)، ثم قال: ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه(٢)، شأن الله أعظم من ذلك(٣)، ويحك أتدري ما الله؟ إن عرشه على سماواته لهكذا(٤)، وقال بأصابعه مثل القبة عليه(٥)، وأنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب(٦). قال ابن بشار في حديثه:(٧) «الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته».

قوله: «ويحك» كلمة تقال للزجر.

قوله: «أتدري ما الله» فيه إشارة إلى قلة علمه بعظمة الله وجلاله(٨).

---

(١) تغيرت وجوه الصحابة لما رأوا الرسول ﷺ تأثر من مقالة هذا الأعرابي.

(٢) بعد أن أنكر عليه ﷺ بيّن له الصواب، وهكذا ينبغي للداعية والمعلم أنه ينكر المنكر ثم يبين للمخطئ خطأه «أتدري ما الله» هذا بيان للخطأ أن هذا الأعرابي ما قدر الله حق قدره، فبين له خطأه ثم أرشده إلى الطريقة الصحيحة.

(٣) أعظم من أنه يتخذ شفيعاً عند المخلوق، فهذا دليل على أن من استشفع بالله على المخلوق فقد تنقص الله.

(٤) العرش هو أعظم المخلوقات، كما جاء في آخر باب في الدرس الآتي - إن شاء الله - عظمة العرش وأنه سقف المخلوقات، وأن المخلوقات كلها بالنسبة إليه لا شيء، والله فوق العرش، هو أعظم من كل شيء ﷻ فكيف يُجعل العظيم شفيعاً عند المخلوق.

وقوله: (على سماواته): الكرسي أعظم من السماوات والأرض، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥] والعرش أعظم من الكرسي، والله أعظم من كل شيء ﷻ.

(٥) لأن العرش محيط بالمخلوقات.

(٦) مع أن العرش أعظم المخلوقات فالله أعظم من العرش، ولهذا للعرش أطيط يعني صوت من الثقل والتحمل من عظمة الله ﷻ.

(٧) محمد بن بشار هو بندار.

(٨) ما حمل الأعرابي على هذا، هذا فيه خطر الجهل على الإنسان كونه لا يتعلم العقيدة ولا يدرسها يقع في مثل ما وقع فيه هذا الأعرابي، ففيه الحث على تعلم العقيدة ومعرفتها

=

قوله : « إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه » ؛ لأن الأمر كله بيده تعالى ، ليس في يد المخلوق منه شيء ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، تعالى وتقدس ، وفي هذا الحديث الرد على الجهمية وإثبات العلو(١) ، وهذا الحديث رواه أبو داود ورضيه على عادته فيما كان عنده صحيحاً أو حسناً وسكت عليه(٢) ، وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته ، فإنما هو بدعائه ﷺ(٣) ودعاؤه مستجاب(٤) وأما بعد وفاته فلا يجوز الاستشفاع به كما تقدم تقريره في باب الشفاعة وما قبله ، والله تعالى نهى عن اتخاذ الشفعاء في مواضع

حتى لا يقع في الخطأ فيها . العقيدة يزهد كثير من الناس اليوم بدراستها ويقولون : الناس مسلمون ، لماذا تدرسونهم العقيدة وهم مسلمون ؟! المسلمون يجهلون ، هذا أعرابي مسلم ومع هذا وقع في هذا الخطأ العظيم الذي أنكره عليه الرسول ﷺ فما كل مسلم يعرف العقيدة لابد من دراستها .

(١) الرد على الجهمية الذين ينفون العلو ، ومن قال بقولهم من المعتزلة والأشاعرة وسائر الفرق المنحرفة التي تنفي علو الله على خلقه ، فهذا الحديث فيه إثبات علو الله على خلقه ، وفيه : أن العرش فوق المخلوقات وأن الله فوق العرش ، ففيه : إثبات علو الله على خلقه ، رداً على الجهمية الذين يقولون : إنه في كل مكان - تعالى الله عما يقولون - .

(٢) ما سكت عليه أبو داود رحمه الله فهو يرتضيه ؛ لأنه من عادته أن يعقب على الحديث إذا رواه وفيه شيء من الضعف يُبيِّن هذا ، فإذا سكت ، هذا دليل على أنه رضيه .

(٣) لذلك لم ينكر الرسول ﷺ على الرجل قوله : « استشفع بك على الله » ؛ لأن هذا في حياته ﷺ وهو قادر ﷺ أن يدعو الله وأن يستسقي للناس ، فلما مات ما كان الصحابة يستشفعون بالرسول ولا يطلبون منه الدعاء وهو ميت ، وإنما كانوا يدعون الله ويستسقون ، كما كان النبي ﷺ يفعل ويطلبون من أهل الفضل أن يدعو الله بالسقيا كما طلب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من العباس عم الرسول ﷺ أن يدعو الله .

(٤) كذلك يوم القيامة الأمم تستشفع بالرسول ﷺ في فصل القضاء ؛ لأنه حي حاضر يطلبون منه الدعاء .

كثيرة من القرآن[١] ، ونفاها في حق من سألها من غير الله[٢] .

(١) اتخاذ الشفعاء إن كان المقصود به طلب الدعاء منهم وهم يقدرون على الدعاء فهذا لا بأس ، أما اتخاذ الشفعاء من الأموات فهذا لا يجوز ، وإذا صاحب هذا عبادة للأموات ذبح لهم أو نذر لهم أو استغاثة بهم فهذا شرك أكبر ، هذا استشفاع معه شرك أكبر .

(٢) فالله نفى الشفاعة إلا بإذنه ﷻ ، ومن اتخذ الشفعاء على نحو ما يفعله المشركون والقبوريون من أنهم يذبحون للأموات وينذرون لهم ويستغيثون بهم ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [سورة يونس: ١٨] هذا شرك أكبر مخرج من الملة .

٦٦ - باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حِمَى التَّوحيد وسدِّه طُرُقَ الشِّرك

عَنْ عَبدِ الله بنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه ، قَالَ : « انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عامِرٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَقُلْنَا : أَنْتَ سَيِّدُنَا . فَقَالَ : « السَّيِّدُ اللهُ ﷻ » . قُلْنَا : وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً ، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً . فَقَالَ : « قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ » » . رواهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ .

وَعَنْ أَنسٍ رضي الله عنه : أَنَّ نَاساً قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا ! وَسَيِّدَنَا وَابنَ سَيِّدِنَا ! فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنزَلَنِي اللهُ ﷻ » . رواهُ النَّسائي بسندٍ جيِّدٍ .

٦٦ - باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حِمَى التَّوحيد وسدِّه طُرُقَ الشرك

قوله : (باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حِمى التوحيد وسدِّه طرق الشرك)[1] حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص ، وقد اشتمل هذا الكتاب - على اختصاره - على أكثر

---

(١) هذا الباب مكمل للأبواب السابقة ؛ لأن النبي ﷺ حَمَى حِمَى التوحيد ، الحمى ما حول الشيء ، تسمى حمى ويسمى حَرِيماً له وحِماً له ، النبي ﷺ حمى ما حول التوحيد لئلا يُفضي هذا إلى نقص التوحيد ، فإذا كان الرسول حمى ما حوله فكيف بحماية التوحيد نفسه ؟! الرسول حمى التوحيد كما في الباب الذي سبق (باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد) وهنا يقول (حِمَى التوحيد) وهو ما حول التوحيد . الجَنَاب : معناه الجانب فالرسول ﷺ حمى التوحيد ، وحمى جانب التوحيد ، ولم يكتف بهذا بل حمى ما حول التوحيد مما يدل على عظم العقيدة وعظم التوحيد ، وسد الطرق التي تفضي إلى الشرك والإخلال بالعقيدة .

ذلك[١] ، والنهي عما ينافي التوحيد أو يضعفه ، يعرف ذلك من تدبره[٢] .

وعرف ما تضمنه باباً باباً . قوله في حديث أنس : أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، فقال : « أيها الناس ، قولوا بقولكم[٣] أو بعض قولكم[٤] ، ولا يستهوينكم الشيطان »[٥] ، كره ذلك لئلا يكون وسيلة إلى الغلو فيه والإطراء ، كما تقدم في قوله : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله »[٦] . وهذا من كمال نصحه للأمة وشفقته عليهم ، حذرهم مما يكون ذريعة إلى الغلو فيه .

---

(١) يعني أن كتاب التوحيد اشتمل على حماية التوحيد من أوله إلى آخره .

(٢) من تدبَّر هذا الكتاب ودرسه عرف أنه كله في حماية التوحيد من الشرك ، وبيان التوحيد ومكملاته ، وبيان الشرك الذي يُناقض التوحيد أو ينقص التوحيد ، هذا موضوع الكتاب كله .

(٣) قولوا بقولكم المعتاد ، ولا تقولوا : يا سيدنا ، يا خيرنا ، يا أفضلنا ؛ بل قولوا : يا رسول الله ، يا نبي الله ، يا أبا القاسم ، هذا الذي كان يُخاطب به النبي ﷺ .

(٤) أو بعض قولكم ، حتى قولكم لو تركتم منه شيء كان أحسن . هذا منه ﷺ تعليم للأمة أنها لا تغلوا في حقه ﷺ .

(٥) « ولا يستهوينكم الشيطان » : يعني لا يوقعكم في الهوى الذي يُهلك الإنسان .

(٦) الرسول ﷺ لا يقبل المدح في وجهه خشية من الغلو ، وكذلك نهى الناس أن يقبلوا المداحين فقال : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب »[*] لأن هذا يبعث على تعاظم الممدوح وإعجابه بنفسه فلا يجوز المدح في الوجه ؛ لأنه يحمل على الكذب والتملق ، وأيضاً يبعث في الممدوح الإعجاب في نفسه ويرى أن له مكانة فوق الناس ، فالمدح في الوجه لا يأتي بخير .

(*) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٤ / ٢٢٩٧ (٣٠٠٢) .

وقوله : « أنا محمد عبد الله ورسوله »(١) فأعلى مراتب العبد هاتان الصفتان : العبودية الخاصة والرسالة(٢) ، وللنبي ﷺ أكملهما ، وقد أخبر تعالى أنه وملائكته يصلون عليه ، وأمر أمته أن يصلوا عليه ، وأثنى عليه بأحسن ثناء وأبلغه ، وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع له ذكره ، فلا يذكر في الأذان والتشهد والخطب ، إلا ذكر معه صلوات الله وسلامه عليه(٣) . وأما إطلاق السيد(٤) ، فقد ذكر ابن القيم رحمه الله في « بدائع

---

(١) « أنا محمد » سموني باسمي عبد الله ورسوله فهو عبد ورسول هذه صفاته ﷺ عبد الله وليس له من المُلك شيء ، وليس له من الألوهية شيء ، وإنما هو عبد ﷺ وقد وصفه الله بالعبودية ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [سورة البقرة : ٢٣] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [سورة الفرقان : ١] ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ [سورة الإسراء : ١] سماه عبداً ، وسماه رسولاً ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [سورة المائدة : ١٩] (رسولنا) سماه رسولاً ، وقال ﷻ : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٢] ﴿ يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة يس : ١ - ٣] الله سماه عبداً وسماه رسولاً فادعوا الرسول بما سماه الله به : عبد الله ورسوله ، ولا تقولوا : سيدنا .

(٢) هذا أشرف ما يوصف به الرسول ﷺ أنه عبد الله وأنه رسول الله .

(٣) قرن اسمه مع اسمه ﷻ فلا يُذكر الله إلا ويُذكر الرسول ﷺ في الأذان ، وفي الخطب ، وفي التشهد الأخير من الصلاة أوالتشهدين : التشهد الأول والتشهد الأخير قال الله ﷻ : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [سورة الشرح : ٤] هذا هو رفع الذكر وهذا يكفي في حقه ﷺ .

(٤) يعني هل يجوز أن يقال للشخص : يا سيدنا أو يا سيد ؟ هذا فيه خلاف بين العلماء ، فمنهم من منع منه لهذا الحديث ، وهو قول مالك لا يقال في حق الرسول السيد ؛ لأنه نهى عن ذلك .

القول الثاني : أن هذا جائز ؛ لأن الرسول ﷺ قال للحسن بن علي رضي الله عنهما : « إن ابني =

الفوائد » ما نصه : (اختلف العلماء في جواز إطلاق السيد على البشر فمنعه قوم ، ونقل عن مالك ، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له : أنت سيدنا ، فقال : « السيد الله »)(١) . وجوزه قوم ، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار :

هذا سيد ، وسيُصلح الله به بين طائفتين من المسلمين »(*) هذا الحسن بن علي ، وصفه الرسول بأنه سيد ، وقال عن الحسن والحسين : « سيدا شباب أهل الجنة »(**) وقال للأنصار لما جاء سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ راكباً على الحمار قال : « قوموا إلى سيدكم »(***) فدل على جواز إطلاق السيد في الأصل ، وإنما كره النبي ﷺ مواجهته بذلك خشية من الغلو ، والرسول ﷺ قد يمنع من الشيء الجائز إذا كان يُفضي إلى محرم ، فلما كان يخشى عليهم من الغلو في حقه منع من قول سيد ، وإلا فالأصل أنه جائز ، هذا هو الجمع بين الأحاديث .

(١) قولهم : « أنت سيدنا » قالها وفد بني عامر عندما قدموا على النبي ﷺ في عام الوفود ، في السنة التاسعة من الهجرة بعد فتح مكة ، وكانوا على عادة العرب إذا واجهوا الرؤساء والأكابر صاروا يمدحونهم وظنوا أن الرسول ﷺ مثل رؤساء العرب أنه يقبل المدح ، لكن الرسول ﷺ لا يقبل المدح يخاف على الناس من الغلو ، فلا يجوز الغلو في المدح حتى للرسول ﷺ ، قال ﷺ : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم » لا تغلوا في مدحي كما أطرت النصارى ابن مريم حتى قالوا : هو ابن الله أو ثالث ثلاثة – تعالى الله عما يقولون – قال : « السيد الله » منعهم من إطلاق هذه اللفظة حماية للتوحيد لئلا يغلو في الرسول ﷺ وإن كان لفظ السيد جائزاً ، لكن لما خاف عليهم الغلو منعهم من ذلك . فالشيء وإن كان مباحاً في أصله إذا كان يُفضي إلى محذور فإنه يُمنع لئلا يُفضي إلى الغلو في الرسول ﷺ كما أنه في الحديث – الذي مر بنا – أنه كان في عهد النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقالوا : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق قال : « إنه لا يُستغاث بي وإنما يُستغاث

(*) أخرجه البخاري في « صحيحه » ٢ / ٩٦٢ (٢٥٥٧) .

(**) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ١٧ / ٣١ (١٠٩٩٩) وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح .

(***) متفق عليه . أخرجه البخاري في « صحيحه » ٣ / ١١٠٧ (٢٨٧٨) ، ومسلم في « صحيحه » ٣ / ١٣٨٨ (١٧٦٨) .

« قوموا إلى سيدكم » وهذا أصح من الحديث الأول . قال هؤلاء : السيد أحد ما يضاف إليه[(١)] ، فلا يقال للتميمي : سيد كندة . ولا يقال للملك : سيد البشر ، قال : وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم ، وفي هذا نظر[(٢)] ، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في منزلة الملك والمولى والرب لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق) انتهى . قلت : فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى قول الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ : إنه السيد الذي كمل فيه جميع أنواع السؤدد . وقال أبو وائل : هو السيد الذي انتهى سؤدده[(٣)] .

بالله »[(*)] فهذا من باب سد الطرق وإلا فالاستغاثة بالرسول فيما يقدر عليه جائز ، ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ [سورة القصص : ١٥] فالاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه جائزة ، لكن لما خاف عليهم من الغلو نهاهم عن ذلك فقال : « إنه لا يُستغاث بي » وهنا قال : « السيد الله » منعهم من هذه اللفظة سداً للغلو ، فأين الذين يقولون :

يا أكرمَ الخلقِ مَالي من ألوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عِندَ حُلولِ الحادثِ العَمَمِ
إنْ لَـم تَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذاً بِيدي ... فَضْلاً وإلا فَقُلْ يَا زَلَّةَ القَدَمِ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدنيا وضُرَّتِها ... ومِنْ عُلومِكَ عِلمَ اللَّوحِ والقَلَمِ

هذا هو الغلو - والعياذ بالله - بل هذا هو الشرك الأكبر ، فهذا الذي خافه الرسول ﷺ على أمته الغلو في مدحه ﷺ ؛ لأنه مظنة أن الناس يغلون فيه ﷺ لعظم مقامه ﷺ وإذا كان هذا في حق الرسول ففي حق غيره من باب أولى ، لا يجوز الغلو في الشخص ، والإسراف في المدح .

(١) يقال : سيد بني تميم يعني هو من بني تميم ، لكنه مُقَدَّم عليهم .
(٢) الرسول ﷺ أطلقه على الله قال : « السيد الله » .
(٣) الصحيح أن إطلاق السيد على المخلوق جائز في الأصل ، لكن إذا خُشي فيه من الغلو فإنه يُمنع ، أما إذا لم يُخْشَ من الغلو فلا بأس بذلك ، والرسول ﷺ إنما منع منه خشية الغلو .

(*) سبق تخريجه في باب (ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين) .

٦٧ - باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧]

عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ قَالَ : « جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ الله يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ ، فَيَقُولُ : أَنَا المَلِكُ . فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ؛ تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الحَبْرِ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الزمر : ٦٧] » .

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ : « وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ : أَنَا المَلِكُ ، أَنَا اللهُ » .

وَفِي رِوَايَةٍ لِلبُخَارِيِّ : « يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ » . أَخْرَجَاهُ .

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابنِ عُمَرَ مَرْفُوعاً : « يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا المَلِكُ أَيْنَ الجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبْعَ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا المَلِكُ ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ ؟ » .

وَرُوِيَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : « مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمٰنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُم » .

وَقَالَ ابنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنِي يُونُسُ ، أَخْبَرَنَا ابنُ وَهْبٍ ؛ قَالَ : قَالَ ابنُ زَيْدٍ : حَدَّثَنِي أَبِي ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ » .

قَالَ : وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ » .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ؛ قَالَ : « بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالمَاءِ خَمْسُ مِئَةِ عامٍ ، وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ ، لَا يَخْفَى عَلَيهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُم » . أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ ، عَنْ عَاصِمٍ ، عَنْ زِرٍّ ، عَنْ عَبْدِ الله . وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ المَسْعودِيُّ عَنْ عَاصِمٍ ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ ، عَنْ عَبْدِ الله . قَالَهُ الحَافِظُ الذَّهبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ ، قَالَ : « وَلَهُ طُرُقٌ » .

وَعَنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ؟ » . قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إلى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ ، وبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ والعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ كَما بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ ، والله تَعالَى فَوْقَ ذلِكَ ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْه شَيْءٌ مِنْ أَعْمالِ بَني آدَمَ » . أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ .

٦٧ - باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ الآية

قوله : (باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ الآية [سورة الزمر : ٦٧])[1] أي : من الأحاديث

---

(١) هذا هو آخر باب من أبواب كتاب التوحيد ، وهو باب عظيم ، وخاتمةٌ لهذا الكتاب عظيمة ؛ لأن هذا الباب يشتمل على ما اشتمل عليه الكتاب من أوله إلى آخره ؛ وذلك أن الكتاب كله يدور على إثبات توحيد الألوهية والنهي عن الشرك وبيان أنواعه – الشرك الذي هو ضد التوحيد – فالكتاب يشتمل على توحيد الألوهية ومكملاته ، وبيان الشرك =

الذي يضاد التوحيد أو يُنَقِّصه، وهذا الباب يشتمل على ذلك:

فقوله ﷻ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي: ما عظَّموه حق تعظيمه.

وهذا يشمل المشركين في توحيد العبادة؛ فمن أشرك بالله ﷻ فإنه ما قدر الله حق قدره؛ لأن الله سبحانه لا شريك له، ومن أشرك به أحداً من خلقه فقد تنقص الله سبحانه وما قدَرَه أي: ما عظَّمه ﴿ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظَّمه حقّ تعظيمه.

وكذلك من جحد الأسماء والصفات لله ﷻ أو أوّلها بغير معناها، وصرفها عن ظاهرها وعَطَّل الله منها فما قدَر الله حقّ قدره؛ حيث إنه نفى عنه ما أثبته لنفسه مما يدل على كماله وعظمته من أسمائه وصفاته ﷻ.

وكذلك من نفى القدر فإنه ما قدر الله حق قدره، من نفى أن يكون الله قدر الأشياء وأرادها وخلقها؛ فقد عَجَّز الله سبحانه وجعل المخلوق يُشارك الله في الخلق، فهذا ما قَدَر الله حقّ قَدره.

وكذلك من نفى البعث والحساب والجنة والنار فهذا ما قدر الله حق قدره؛ لأنه وصف الله بالعبث وأنه خلق الخلق عبثاً، وليس لأعمالهم نتيجة، لا أهل الخير ولا أهل الشرّ، إذا لم يكن هناك بعث وحساب وجزاء؛ فإن النّاس يعملون الخير ويعملون الشر وليس لذلك نتيجة ولا فائدة؛ هذا من باب العبث، فما قدَر الله حقَّ قدره. وكذلك من عَطَّل كتاب الله فلم يحكم به، على نفسه وعلى الناس، واستبدله بالأدلة العقلية والمنطقية، وعَطَّله من الاستدلال وجعل مكانه الأدلة العقلية والقواعد المنطقية، أو عَطَّله من المحاكم فلم يحكم به بين النّاس فيما اختلفوا فيه فحكم بينهم بالقوانين الطّاغوتيّة، فما قدر الله حقّ قدره، حيث عَطَّل كتابه سبحانه الذي أنزله ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وكذلك كل من عصى الله، خالف أمره، وارتكب ما نهى عنه، وترك ما أوجب الله عليه فما قَدَر الله حق قَدْرِه، إذ خالف أمره وارتكب نهيه، فكل هؤلاء ما قدروا الله حق قدره، فهم داخلون في هذه الآية.

وهذه الآية جاءت في ثلاثة مواضع من كتاب الله في سورة الأنعام: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [آية: ٩١] وجاءت في آخر سورة الحج: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [آية: ٧٣-٧٤]. وجاءت في سورة الزمر وهي التي ساقها المؤلف هنا ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ

=

والآثار في معنى هذه الآية . قال العماد ابن كثير رحمه الله : (ما قدر المشركون الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه[١] ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته) . قال السدي : « ما عظموه حق عظمته » . وقال محمد بن كعب : « لو قدروه حق قدره ما كذبوه »[٢] . وقد وردت أحاديث كثيرة تتعلق بهذه الآية . الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف[٣] .

بِيَمِينِهِۦ ﴾ [آية : ٦٧] وذكر في هذا الباب ما يُفسّر هذه الآية من الصحيحين وغيرهما ، ولهذا قال : باب ما جاء في قوله تعالى : يعني ما جاء من الأحاديث التي تُفسّر هذه الآية الكريمة .

(١) ومن عبد معه غيره فقد ساوى المخلوق بالخالق ، فتنقص الله ﷻ .

(٢) ما كذّبوا رسله ؛ لأن من كذّب الرسول فقد كذّب الله ﷻ ، وكثير من الجهّال والمغرورين بفكرهم وعقلهم يُكذّبون بالأحاديث إذا لم توافق أهواءهم أو لم تدخل تحت تصورهم ، أو تُخالف القواعد التي قعّدوها ، يكذبون بها ويقولون : لو صحّت عن الرسول ﷺ فمعناها غير حقّ ، يخالف العقل ، يخالف المنطق ، يُخالف كذا ، يا سبحان الله ! هذا تكذيب لله ﷻ .

(٣) ما ذُكر في هذا الباب وفي غيره ، الطريق فيها طريق السّلف ، وهو الأسلم والأعلم والأحكم ، وهو أن تُسلّم لله ﷻ ما جاء فيها ، وتعتقد ما فيها وأنه حق ولو لم يتصورها عقلك ، ولو لم تفهمه ، أنت أقصر وأضعف من أن تُدرك كل ما جاء عن الله وعن رسوله ، هل أنت تُحيط بهذا الكون ؟ هل أنت تعلم ما كان في الماضي وتعلم ما يكون في المستقبل ؟ أنت قاصر ضعيف ، فعليك الإيمان ، المهم صحّة الحديث ، فإذا صحّ نعلمُ أنه حق ، سواء فهمناه أو لم نفهمه نسلّم لله ﷻ ، الله ﷻ يقول : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [سورة يونس : ٣٩] يعني حقيقته ووقوعه في المستقبل ، فإذا جاء تأويله صدّقوه حينئذ ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٣] هؤلاء الذين كذبوا في الدنيا وقالوا : هذا لا يتصوره العقل ، ولا يوافق الفكر ، إذا وقع هذا الذي أخبر الله عنه فإنهم حينئذ يدركون أنهم أخطأوا ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ يعني ما ينتظرون ، ﴿ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾ يعني حقيقته إذا وقع ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟
=

قوله : عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : « جاء حبر من الأحبار[1] إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد[2] ! إنا نجد[3] أن الله يجعل السماوات على إصبع ،

أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٣] ويقول ﷻ ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٦٧] الإنسان لا يكذِّب ولا يشك ولا يتردد فيما صحّ عن الله ورسوله ، ماضياً أو مستقبلاً ، يؤمن بذلك ويسلم له ، هذا هو الإيمان بالغيب ، أما الذي لا يؤمن إلا بالمُشَاهَد وبالذي يراه هذا ماله فضل ، لأنه واقع أمامك لا تنكره ، لكن الإيمان هو الإيمان بالغيب بما مضى وما يستقبل .

(١) الـحَبر : هو العالِـم من اليهود ، يُقال : حَبر ، ويُقال : حِبر ، فأغلب ما يُطلق الحَبر على العالم من اليهود : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [سورة التوبة : ٣١] والحَبر يُطلق على العالِم سواء كان من اليهود أو من غيرهم ، ولكن الغالب أن هذا اللفظ يُستعمل عند اليهود .

(٢) اليهود يجحدون رسالته ﷺ ، فلا يقولون : يا رسول الله ، أو يا نبي الله ! وإنما يُخاطبونه باسمه فيقولون : يا محمد ، أو يقولون : يا أبا القاسم ! لأنهم لا يعترفون برسالته ظاهراً وإن كانوا يعترفون بها باطناً حسداً من عند أنفسهم ، وإلا فهم يعلمون أنه رسول الله ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٤٦] ، فهذا الحبر من اليهود نادى رسول الله ﷺ باسمه ، ولم يقل : يا رسول الله .

والمشروع أن يُدعى ﷺ برسالته أو نبوته ، قال تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [سورة النور : ٦٣] بل يُقال : يا رسول الله ، يا نبي الله !

الله ﷻ ما ناداه باسمه في القرآن ، بل يقول : « يا أيها الرّسول » ، « يا أيها النّبيّ ! » ، وإذا جاء في مقام الإخبار فإنه يأت باسمه مثل : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [سورة الأحزاب : ٤٠] ، ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ [سورة محمد : ٢] ، ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] إذا جاء في مقام الإخبار يأت باسمه ، وأما إذا جاء في النداء : فإنه يُناديه بالرسالة أو بالنبوة ؛ تعظيماً له ﷺ ، وهذا من حقوقه ﷺ ، ومن توقيره واحترامه أنه يُدعى بما منَّ الله به عليه من الرسالة والنبوة .

(٣) يعني في كتابنا وهو التوراة . والتوراة : كتاب عظيم أنزله الله على رسوله وكليمه موسى ابن عمران ﷺ فهو في أصله كتاب عظيم ، لكن اليهود حرّفوه وغيّروا فيه كثيراً .

والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع (١) ثم يقول : أنا الملك (٢) ، فضحك النبي ﷺ

---

(١) هذا فيه ذكر الأصابع الخمسة لله ﷻ ؛ خمسة أصابع ، ويحمل على كل إصبع يوم القيامة قِسماً من هذه المخلوقات العظيمة ، فكل هذه المخلوقات يحملها الله على أصابعه ، وهذا يدل على عظمته ﷻ ، وقوته وقدرته ﷻ . فالسماوات السبع على عظمها - كما يأتي في وصفها وضخامتها - يجعلها كلها على إصبع من أصابعه سبحانه ، والأرضين السبع على إصبع على ضخامتها وسعتها وانبساطها ، وكل الشجر الذي في الكون يجعله على إصبع من أصابعه سبحانه ، والماء كله : البحار والأنهار والآبار وكل المياه التي في السماوات والأرض يجعلها الله على إصبع ، والثرى : يعني التراب على إصبع ، الرّمال كلها والأتربة كلها على وجه الأرض ، يجعلها الله على إصبع ، وباقي المخلوقات مما لم يرد فيما سبق يجعله الله على إصبع .

إذاً كل المخلوقات يحملها الله على أصابعه الخمسة وهذا يدل على عظمته ﷻ ، وما ذلك على الله بعزيز ، الذي خلقها وأوجدها يقدر على أن يحملها ﷻ . وهذا فيه إثبات الأصابع لله ﷻ ، وأنها خمسة ، وليست كأصابع المخلوق بل هي أصابع تليق بعظمة الله ﷻ .

(٢) « ثم يقول : أنا الملك » أي : المنفرد بالملك ، هذا يوم القيامة تعود الأملاك لله ﷻ ، فلا يبقى هناك مِلك إلا الله ﷻ : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [سورة غافر : ١٦] يقول ﷻ : لمن الملك اليوم ؟ فلا يتكلم أحد ، ثم يُجيب نفسه ﷻ : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [سورة آل عمران : ٢٦] الملك كله لله ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الملك : ١] في الدنيا : قد يُعطي الله الملك لبعض خلقه ، ولكنه ملك مؤقت يزول ، إما أن يزول عن صاحبه وهو حي ، وإما أن يموت صاحبه وينتقل إلى غيره ، فلا ملك يستقر في هذه الدُّنيا ، وإنما هو ملك موهوب ومؤقت أيضاً ، والمالك الحقيقي هو الله ﷻ ، وفي يوم القيامة لا يبقى لأحد مُلك ، ملوك الدنيا كلهم يصيرون كسائر الناس ، يتساوى النَّاس يوم القيامة ، الملوك والصعاليك والأغنياء ، والفقراء يتساوون يوم القيامة ، ما لأحد على أحد ميزة .

حتى بدت نواجذه ، تصديقاً لقول الحبر[1] ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ الآية[2] [سورة الزمر : ٦٧] وهكذا رواه البخاري ومسلم[3] والنسائي من طرق عن الأعمش به ، وقال البخاري : حدثنا سعيد بن عفير قال : حدثنا الليث ، حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر ، عن ابن شهاب ،

---

(١) النبي ﷺ ضحك فرحاً ؛ فهذا فيه الفرح بالحق ، ضحك ﷺ فرحاً بهذا الحق الذي وافق ما في القرآن ، واعترف به هذا الحبر ، فهذا دليل من أدلة نبوة محمد ﷺ ؛ لأن هذا موجود في كتابه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [سورة الزمر : ٦٧] فوافق ما في التوراة ما في القرآن ؛ لأن كلا من التوراة والقرآن من عند الله ﷻ .
والنبي ﷺ كان إذا أعجبه الشيء يضحك ضحكاً يتبسم ﷺ ، وإذا بالغ في التبسم بدت نواجذه : يعني أوائل أضراسه ﷺ ؛ لأنه ما كان يُبالغ في الضحك ويُقهقه كما يفعل بعض الناس ، وإنما كان ضحكه ﷺ تبسُّماً ، وإذا بالغ بدت نواجذه ﷺ ، وكما ذكر الله عن سليمان ﷺ ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [سورة النمل : ١٩] يعني النملة .

(٢) ليُبيِّن ﷺ أن ما عند هؤلاء اليهود في كتابهم هو عندنا في كتابنا ؛ لأن كتابنا ولله الحمد مهيمنٌ على الكتب قبله ، حاكمٌ عليها .

(٣) في رواية لمسلم : « والجبال والشجر على إصبع » ، جمع بين الجبال والشجر على إصبع واحد ، وهذا يدل على العظمة أيضاً . قال : « ثم يهزهن » يهز الجبال والشجر – على عظمها وكثرتها يهزها – هذا يدل على قوته ﷻ وقدرته . « فيقول : أنا الملك أنا الله » : يعني لا مَلِك غيري ، أنا الله : والله معناه المعبود . الله : ذو الألوهية أي : العبودية على خلقه أجمعين ، الله والإلـه معناه المعبود ، لأن الألوهية معناها العبادة ، فإلـه معناه معبود ، والله ذو الألوهية : أي العبودية على خلقه ، فالله هو الملك وحده وهو المعبود بحق وحده ، أما ما عُبِد من دونه فهو باطل ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ [سورة الحج : ٦٢] .

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ، فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » تفرد به من هذا الوجه . قوله : « ولمسلم عن ابن عمر[(١)] مرفوعاً : « يطوي الله ﷻ السماوات ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرض بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ »[(٢)] كذا في رواية مسلم . قال

---

(١) الحديث الذي سبق برواياته عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وهذا عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

(٢) هذا مذكور في الآية : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [سورة الزمر : ٦٧] وفي الحديث يُفسِّر هذا أنه يطوي السماوات بيده اليمنى ويطوي الأرضين بيده الشِّمال ، تسمى شِمالاً وهي في الحقيقة يمين ؛ لأن كلتا يديه يمين ﷻ ؛ كما صح في الحديث : « وكلتا يدي ربي يمين »[(*)] فشماله يمين خلاف المخلوق ، فإن شماله غير يمينه ، أما الله ﷻ فكلتا يديه يمين وإن كانت إحداهما تُسمى شِمالاً وهي يمين أيضاً هذا في حق الله ﷻ .

« ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » أنا الملك : كما في الرواية الأولى أي : المنفرد بالملك ، ولا أحد يقول أنا لي الملك الفلاني ؛ لأن الأملاك انتهت في الدنيا ، فصار الناس كلهم فقراء إلى الله ﷻ ، كلهم متساوون لا فرق لأحدٍ على أحد يوم القيامة ، الأغنياء والفقراء والملوك والصعاليك والعلماء والجهال والجن والإنس والملائكة وبنو آدم كلهم عباد الله ﷻ ، وليس لأحد ملك . ثم يقول : أين الجبارون ؟ الذين كانوا في الدنيا يتجبرون على الناس ويبغون على النّاس ، أين ذهب جبروتهم ؟ لماذا لم يُقاوموا في هذا الموقف ؟ أين الجبارون الذين يتجبرون على الناس بغير الحق ويظلمون الناس في الدنيا ؟ يَذِلُّون يوم القيامة ويضْعُفُون ولا يبقى معهم جنود ولا يبقى معهم قوة ، ولا يبقى معهم أي شيء حتى الثياب ما عليهم ثياب ، يبعثون حُفاة عراة غُرلاً - يعني غير

(*) أخرجه الترمذي في « سننه » ٥ / ٤٢٢ (٣٣٦٨) ، وقال الألباني : حسن صحيح .

الحميدي : وهي أتم . قلت : وهذه الأحاديث وما في معناها – وهي كثيرة جداً – تدل على عظمة الله وكماله وعظيم قدرته ، وفيها الرد على الجهمية والأشاعرة ونحوهم أيضاً(١) .

وكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله يدل على كماله وعظمته وجلاله(٢) ، وأن العبادة لا تصلح إلا له سبحانه وبحمده(٣) ، لا يصلح منها

مختونين – كلهم كذا ، أين ملكهم ؟ أين جبروتهم ؟ أين طغيانهم ؟ ذهب كل هذا وبقي الخلق كلهم ضعفاء فقراء إلى الله ﷻ ، ولا أحد يُنجيه إلا عمله الصالح .
أين المتكبرون ؟ الذين كانوا يملؤون الدُّنيا ضجيجاً ويرهبون النَّاس ويبطشون ويفتكون ، ويأخذون الأموال ويأخذون البلاد ، أين يذهبون يوم القيامة ؟ يُصبحون فقراء ، حتى اللباس ما عليهم لباس ، يُبعثون عراة يوم القيامة حتى يُكسوا بعد ذلك .

(١) في نفيهم علو الله تعالى على عرشه ، ونفيهم الصفات ، ونفيهم الأصابع واليد والكفّ ، كل هذا رد عليهم لأنهم ينفون الصفات . العلو ينفونه ويقولون : الله في كل مكان ، وينفون الصفات الذاتية كالوجه واليدين والكف والأصابع ، يقولون : هذا تجسيم ، بل هذا هو ما ذكره الله عن نفسه ﷻ وهو أعلم بنفسه ، وأخبر عنه رسوله ﷺ ، وهو أعلم بالله ﷻ ، وأنتم تقولون هذا تجسيم ؟ يعني تردون على الله وعلى رسوله ؟ هذا تجسيم عندكم وفي عقولكم ، أما في الواقع هو حق ، والتجسيم ما جاء نفيه ولا إثباته في كتاب الله ﷻ ، (التجسيم) هذه قاعدة وضعها المتكلمون مالها أصل .
وقوله : « وفيها الرد على الجهمية » الجهمية هم أصل البلاء وأصل الشر ، وهم أنكروا الأسماء والصفات ، وتبعهم المعتزلة ، وتبعهم الأشاعرة والكلّابيّة والماتريدية ، وكل من نفى الأسماء والصفات أو نفى بعضها فإنه على هذا المنهج الضال المخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

(٢) لاشك في ذلك ، كل ما ذكره الله عن نفسه أو ذكره عنه الرسول ﷺ فهو حق يجب الإيمان به ، ولا نقول هذا تجسيم ، أو هذا تشبيه أو هذا أو هذا ، الحكم على النصوص بأفهامنا وعقولنا وقواعدنا القاصرة ، هذا لا يجوز ؛ بل الواجب العكس أننا نحكم على القواعد وعلى المفاهيم نحكم عليها بالنصوص ، لا أننا نحكم على النصوص بالقواعد والمفاهيم الخاطئة .

(٣) إذا كان الله بهذه العظمة ، وأنه أعظم من كل شيء وأن المخلوقات بالنسبة إليه حقيرة
=

شيء لـمَلَك مقرّب ولا نبي مرسل ولا لمن دونهما[١] .

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ﷺ : (وهـذا كتـاب الله مـن أولـه إلى آخره وسنة رسوله ﷺ وكلام الصحابة والتابعين ، وكلام سائر الأئمة مملـوء بما هو إما نص أو ظاهر[٢] أن الله تعالى فوق كل شيء ، وأنه فوق العرش فوق السماوات مستو على عرشه ، وذكر ما يدل على ذلك من الكتـاب والسنة) . وقال الأوزاعي : « كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن الله - تعـالى ذكـره - فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة) . وقال أبو عمر الطَّلمنكي في كتاب « الأصول » : (أجمع المسلمون من أهل السنة عـلى أن الله مـستو عـلى عرشـه بذاته ذكره الذهبي في كتاب « العلو »)[٣] . وقال أبو عمر الطَّلمنكي في هـذا الكتاب أيضاً : (أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه بالحقيقة لا على المجاز)[٤] .

ثم قال في هذا الكتاب : (أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قولـه : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [سورة الحديد : ٤] ونحـو ذلـك مـن القـرآن أن ذلـك

صغيرة ؛ فإنه هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ، وما عداه فهو مخلوق ضعيف لا يستحق شيئاً من العبادة .

(١) لا لملك من الملائكة ولا لنبي من الأنبياء ولا للأولياء والصالحين ، العبادة حق لله ﷻ ، لا يصلح أن يُدعى مع الله أحد .

(٢) هذا الكلام ذكره شيخ الإسلام في مقدمة « الرسالة الحموية » ، وهذه المقدمة عظيمة ، هي قاعدة الاعتقاد .

(٣) والمعطلة يقولون : استوى على العرش يعني استولى على الملك ، الاستواء معناه الاستيلاء ، والعرش معناه الملك - تعالى الله عما يقولون - .

(٤) نعم استوى على العرش حقيقة ، والعرش مخلوق غير السماوات .

علمه[١] ، وأن الله فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء) . هذا لفظه في كتابه[٢] ، وقال الحافظ الذهبي : (وأول مقالة سمعت مقالة من أنكر أن الله تعالى فوق العرش هو الجعد بن درهم[٣] ، وكذلك أنكر جميع الصفات ، فقتله خالد بن عبد الله القسري ، وقصته مشهورة ، وأخذ هذه المقالة عند الجهم بن صفوان إمام الجهمية فأظهرها واحتج لها بالشبهات ، وكان ذلك في آخر عصر التابعين ، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل : الأوزاعي ، وأبي

(١) هذا رد على الحلولية الذين يقولون : إن الله في كل مكان ، هذا يخالف ما أجمع عليه أهل السنة والجماعة قاطبة من تفسير الآية بالعلم ، « وهو معكم » : يعني بعلمه ، والمعيّة واسعة لها عدّة معانٍ ، هي لمطلق المقارنة ، سواء المقارنة بالبدن أو المقارنة بالعلم أو المقارنة بالإحاطة ، أنت تقول : نسير والقمر معنا ، ما معناه ؟ هل هو معك إلى جنبك ؟ لا . معناه أنه في السماء ، ولكن نوره وضياؤه يسير معك وهو في السماء ، إذا كان هذا في المخلوق فالخالق من باب أولى ﷻ . أنه في السماء ، وعلمه في كل مكان .

(٢) هذه إجماعات ذكرها الثقات عن أهل السنة والجماعة ، على أنهم أثبتوا علو الله على عرشه فوق مخلوقاته ، وفسّروا معيته للمخلوقين بأنها علمه ، ليس المراد منها الاختلاط بالخلق ، هذا تفسير لها بما لا يجوز في حق الله ﷻ ، وهذا إجماع ، والإجماع حجة قاطعة من خالفها كفر .

(٣) الجعد بن درهم في آخر عصر بني أميّة ، أنكر علو الله على عرشه ، وأنكر كلام الله ، وقال : إن القرآن مخلوق ، وأن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يُكلّم موسى تكليماً ، فلما أظهر هذه المقالة قتله خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى ؛ لأنه ملحد ، وكانوا يقتلون الملاحدة والزنادقة لئلا يغيروا عقائد المسلمين ، وكان هذا فيه موافقة من أهل العلم في وقته ، وشكروه على هذا العمل لما قتل هذا الزنديق وهذا الملحد كفاً لشره ، ثم تبنى هذه المقالة من بعده الجهم بن صفوان فنسبت إليه ، وقيل : الجهمية ، وإلا في الأصل هي الجعدية ، ثم انتشرت في الناس ، ولكن والحمد لله قاومها أهل الحق ، وأهل السنة ، قاوموا هذه المقالة وبيّنوا زيفها ، ودحضوها بالأدلة النقلية والعقلية ، حتى تبينت أنها مقالة ضالة زائفة ، وأنها مقالة كفرية فمن اعتقدها فهو كافر .

حنيفة ، ومالك والليث بن سعد ، والثوري ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، ومن بعدهم من أئمة الهدى[١] ، كالإمام أحمد وخلق من أهل السنة) .

قال الإمام الشافعي : (لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها ، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر ، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل[٢] ، ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه كما نفى عن نفسه[٣] ، فقال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى : ١١]) أ.هـ من فتح الباري .

قوله : « وعن العباس بن عبد المطلب »[٤] ساقه المصنِّف مختصراً والذي في

---

(١) وحاصروها وبينوا بطلانها ، وهذا من فضل الله أنه ما تظهر مقالة ضلال إلا ويقيض الله لها من يردها ويبطلها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩] فيقيِّض الله لأهل الباطل من يرد عليهم من أهل الحق ، ويبين بطلان ما هم عليه .

(٢) إن كان مقلداً ويظن أنه صحيح ، وإلا فيبيَّن له فإن أصر على ما هو عليه يُحكم بكفره ، أما من كان يقول هذه المقالة وهو عالم أنها غير صحيحة فهذا كافر ؛ لأنه مكذِّب لله ولرسوله ، فعلماؤهم ودعاتهم يُكفَّرون ، وأما جهالهم وعوامهم فإنهم يُبين لهم ، فإن رجعوا فالحمد لله ، وإلا فإنهم يُكفَّرون .

(٣) ولا يلزم من إثبات الصفات التشبيه كما يقوله أهل الضلال ؛ بل صفات الله لا تشبه صفات المخلوقين ؛ بل إن صفات المخلوقين أيضاً لا تتشابه ، فكيف صفة الخالق تشبه صفة المخلوقين ؟

(٤) هذا حديث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، المشهور بحديث الأوعال ، وهو حديث ضعيف في سنده ، لكن تقويه الأدلة الأخرى ، وتشهد له ، فضعفه منجبر بالأدلة الأخرى(*) .

(*) ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قبل رواية العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عدة روايات ، ولم يعلِّق عليها الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله وقد تناولها الشيخ صالح الفوزان – حفظه الله –

=

بالتعليق والبيان ولذا نقلته هنا لإتمام الفائدة :

قال المصنف ﷺ : « وروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : « ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم » .

التعليق :

السَّماوات السبع في كف الرحمن ﷻ ، هذا فيه إثبات الكف لله ﷻ ، والأرضون السبع في كف الرحمن ، كما سبق في الحديث يطوي السماوات بيمينه والأرضين بشماله ، وتُصبح السماوات على عظمتها وسعتها كالخردلة ، والأرضين تصبح كالخردلة بالنسبة لنا ، هذا من باب التقريب للناس بالمثال ، من باب ضرب الأمثلة التي تُوضح حقارة المخلوقات بالنسبة إلى الله ، وعظمة الله سبحانه ، وأن المخلوقات تُصبح بالنسبة إلى الله ، كالخردلة في كفِّ أحدنا ، هذا ليس من باب تشبيه المخلوق بالخالق ، وإنّما هو من باب التقريب للناس في صِغَر الأشياء بالنسبة إلى الله ، تصغر بالنسبة إلى الله ، كما تصغر الخردلة في كفِّ أحدنا ، هذا تشبيه للصِّغر بالصِّغر وليس هو تشبيه للمخلوق بالخالق ﷻ .

قال المصنف ﷺ : « وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : حدثني أبي قال : قال رسول الله ﷺ : ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس » .

التعليق :

هذا وما بعده فيه بيان نسبة صِغر بعض المخلوقات إلى بعض وأن بعضها أعظم من بعض ؛ فأعظم المخلوقات على الإطلاق العرش ، ثم من بعده الكرسي ، ثم من بعد الكرسي السماوات والأرض ، والله أعظم من كل شيء ﷻ .

السماوات السبع على سعتها وعظمتها ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [سورة الذاريات : ٤٧] السماوات واسعة ، هذه السماوات السبع بالنسبة للكرسي كسبعة دراهم في ترس ، سبعة دراهم من الفضَّة ، الدراهم معروفة ، لو وُضعت في تُرس يعني في قاع من الأرض ، ماذا تكون نسبتها إلى القاع ؟ ضئيلة جداً .

وقيل أن المراد بالترْس : ما يجعله المقاتل دونه يتترس به ، وهو على شكل الصّحن يكون من الحديد المقوىّ أو الفولاذ ، يجعله المقاتل أمامه يتترس به من السهام ، هذا الترْس الذي هو الصَّحن - على هذا التفسير - لو وضعت فيه سبعة دراهم ماذا تكون نسبتها إلى هذا الصحن الواسع ؟ هذا إذا فسرناه بالترس ، أما إذا فسَّرناه بالقاع فهو أوسع أيضاً ، وما نسبة الدّراهم إذا

=

أُلقيت في هذا الصحن أو في هذا القاع ؟ تكون ضئيلة ، كذلك السماوات بالنسبة للكرسي ، وهذا يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ والكرسي غير العرش ، العرش أعظم من الكرسي .

قال المصنف ﷺ : « قال : وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة من الأرض » » .

التعليق :

العرش أعظم من الكرسي ، والكرسي أعظم من السماوات ، وكلها بالنسبة إليه كسبعة دراهم أُلقيت في ترس ، والكرسي على عظمته أصغر من العرش ، والكرسي بالنسبة للعرش كحلقة أُلقيت في أرض فلاة ، حلقة من الحديد أُلقيت في أرض فلاة ، ماذا تكون نسبة الحلقة إلى الفلاة ؟ تكون ضئيلة جداً ، كذلك الكرسي على سعته يكون بالنسبة للعرش كحلقة في أرض فلاة .

قال المصنف ﷺ : « وعن ابن مسعود قال : « بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمئة عام ، وبين كل سماء وسماء خمسمئة عام ، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمئة عام ، وبين الكرسي والماء خمسمئة عام ، والعرش فوق الماء ، والله فوق العرش ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم » » .

التعليق :

هذا في بيان المسافات بين الأرض والسماء الدُّنيا ، والمسافة بين السَّماء الدُّنيا والسماء الثانية ... إلى آخر سبع سماوات .

فالمسافة بين الأرض والسماء الدُّنيا خمسمئة عام ، والمسافة بين السماء الدُّنيا وما فوقها خمسمئة عام إلى السابعة ، كل سماء وسماء بينها خمسمائة عام ، وكثِف كل سماء يعني سمكها خمسمئة عام ، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمئة عام ، وفوق الكرسي بحر ما بين أسفله وأعلاه خمسمئة عام ، وفوق البحر العرش ، قال تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [سورة هود : ٧] هذا بحر غير البحر الذّي في الأرض ، هذا بحرٌ في السّماء لا يعلم عظمته إلا الله ﷻ . فالمخلوقات حينئذٍ : أولاً : الأرض ، وبينها وبين السَّماء الدُّنيا خمس مئة عام ، ثانياً : السَّماوات السبع ، ثالثاً : الكرسي ، رابعاً : البحر ، خامساً : العرش ، والله ﷻ فوق العرش .

وهذا فيه إثبات علو الله ﷻ فوق مخلوقاته ، كما وردت بذلك الأدلة من الكتاب والسُّنّة والفطرة تدل على علو الله فوق مخلوقاته ، ومع علوه فوق مخلوقاته لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء ، فهو مع علوه عالم بكل ما يكون في هذا الكون ، لا يخفى عليه شيء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سورة آل عمران : ٥] ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [سورة الحديد : ٤] يعني بعلمه

« سنن أبي داود » عن العباس بن عبد المطلب قال : « كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال : ما تسمّون هذه ؟ قالوا : السحاب قال : والمزن قالوا : والمزن قال : والعنان قالوا : والعنان ، قال أبو داود : ولم أتقن العنان جيداً قال : هل تدرون ما بُعد ما بين السماء والأرض ؟ قالوا : لا ندري قال : إن بعد ما بينهما إما واحدة أو ثنتان أو ثلاث وسبعون سنة[1] ، ثم السماء فوقها كذلك - حتى عدد سبع سماوات -

(١) هذا فيه واحد وسبعون أو اثنان وسبعون وثلاث وسبعون سنة ، لكن في الأحاديث الأخرى خمسمئة سنة ، والجمع بين هذا : قالوا هذا باختلاف السير ؛ السير بعضه سريع فتكون المدة يسيرة ، وبعضه بطيء فتكون المدة طويلة ، باختلاف السير .

سبحانه وإحاطته ، وهو معنا بعلمه وهو فوق سماواته على عرشه ، ولا يتنافى علوه مع إحاطته وعلمه بما في هذا الكون ، فليس هو كالمخلوق إذا ارتفع وبَعُد يخفى عليه ما تحته ، الله ﷻ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فهذا فيه إثبات علو الله على عرشه كما صرّح الله بذلك في سبع آيات من القرآن ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ سبعة مواضع ، وفيه إثبات علم الله المحيط بكل شيء ، وأنه لا يتنافى علوه مع علمه سبحانه بكل شيء كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الحديد : ٣] سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة الحديد : ٤] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة المجادلة : ٧] فهذه المعيّة معيّة علم ، ولهذا يقول الإمام أحمد ﷺ : « بدأ الآية بالعلم - ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض - وختمها بالعلم - إن الله بكل شيء عليم - فدل على أن المراد بالمعيّة العلم » انظر : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ٨ / ٣٧٨ . وهذا ما عليه السلف قاطبة ، ما عليه أهل السّنة والجماعة قاطبة ، أنه مع الخلق بعلمه ﷻ ، وليس معهم بذاته وأنه مختلط بهم - تعالى الله عن ذلك - كما تقوله الحلولية .

ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهم العرش[(١)] ، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم الله ﷻ فوق ذلك »[(٢)] . قال الحافظ الذهبي : (رواه أبو داود بإسناد حسن ، وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه : « بُعد ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام » . قال : ولا منافاة بينهما ؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلاً ، ونيف وسبعون سنة على سير البريد) .

قلت : وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما ، مع ما يدل عليه صريح القرآن ، فلا عبرة بقول من ضعَّفه[(٣)] .

---

(١) يعني حملة العرش .

(٢) هذا الحديث تشهد له الأحاديث والروايات التي قبله ؛ أن السماوات فوق الأرض ، وأن الكرسي فوق السماوات وأن البحر فوق الكرسي ، وأن العرش فوق البحر ، وأن الله فوق العرش ﷻ ، وهذا يدل على عظمة الله ﷻ ، ويدل على أنه عال على خلقه ﷻ ، فهو في العلو ﷻ ، هذه صفة ذات ، علوه صفة ذات ، وأما استواؤه على العرش صفة فعل يفعله متى شاء ﷻ ، ولهذا رتّبه بثمّ قال ﷻ . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [سورة الحديد : ٤] الاستواء فعل يفعله سبحانه متى شاء ، يستوي على العرش وينزل آخر الليل إلى سماء الدّنيا فيقول : هل من سائل ... إلخ ، فهو ﷻ مستو على عرشه وعال فوق مخلوقاته وينزل إلى سماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله ﷻ ، كل هذا نُثبته لله كما جاء ، ولا نحكم على الله نقول : هذا لا يصلح لله ، هذا كذا ، ونكذِّب الأحاديث كما يفعله أهل الضلال الذين لا يؤمنون بما جاء عن رسول الله ﷺ ، ولا يُسلِّمون ويتدخلون بعقولهم وأفكارهم ، الإيمان أن تُسلِّم لله ورسوله ، ودائماً تتهم عقلك بالقصور عن الإدراك ، تتهم فهمك بأنه قاصر لا يتسع لهذه الأشياء ، هذه أخبر عنها رسول الله ﷺ ، فنحن نؤمن بها ، ولا نتدخل فيها بعقولنا ولا بأفهامنا القاصرة ؛ بل نثبتها كما جاءت ونعلم أن الله أعظم من كل شيء ﷻ .

(٣) نعم هو ضعيف في سنده ، لكنه صحيح بالمتابعات ، والضعيف قد يرتقي إلى درجة الحسن لغيره .

وقد ابتدأ المصنِّف ﷺ هذا المصنَّف العظيم ببيان توحيد الإلهية ؛ لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد(١) ، وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد ، فقام هذا الشيخ ﷺ ببيان لتوحيد الذي دعت إليه الرسل ونهوهم عما كانوا عليه من الشرك المنافي لهذا التوحيد . فالدعوة إلى ذلك هي أهم الأمور وأوجبها لمن وفقه الله لفهمه ، وأعطاه القدرة على الدعوة إليه والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله في عبادته(٢) ، فقرر هذا التوحيد ، كما ترى في هذه الأبواب ، ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات(٣) ؛ لأن أكثر العامة لم يكن لهم التفات إلى هذا العلم الذي خاض فيه من ينتسب إلى العلم(٤) ، وأما من ينتسب إلى العلم فهم أخذوا عمن خاض في هذه العلوم ، وأحسنوا الظن بأهل الكلام ، وظنوا أنهم على شيء ، فقبلوا مذهبهم وما وجدوه عنهم ، فقرروا مذهب الجهمية ، وألحدوا في توحيد الأسماء والصفات ، وخالفوا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وما عليه سلف الأمة ، وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين(٥) .

---

(١) توحيد الألوهية ، وأول باب : باب : كتاب التوحيد وقول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦].

(٢) فيجب الدعوة إلى التوحيد ، والنهي عن الشرك ، ما يكفي الدعوة إلى التوحيد بل لابد من النهي عن الشرك ؛ لأنك لما تدعوا إلى التوحيد ولا تبين الشرك يظنون أن ما هم عليه توحيد ، فإذا بينت أن هذا شرك عرفوا التوحيد والشرك .

(٣) يعني به هذا الباب الذي يدل على إثبات الأسماء والصفات .

(٤) الذي هو علم الأسماء والصفات ، خاض فيه كثير من الفرق بالباطل والضلال ، وربما أن كثيراً من الناس تنطلي عليهم أقوال هؤلاء الضّلال .

(٥) فتجد أن أحدهم متبحراً في الفقه والحديث والتفسير واللغة ، لكنه في التوحيد صفراً =

وما زال أهل السنة متمسكين بذلك ، لكنهم قلُّوا ، فهدى الله هذا الإمام إلى معرفة أنواع التوحيد ، فقررها بأدلتها ، فلله الحمد على توفيقه وهدايته إلى الحق حين اشتدت غربة الإسلام ، فضلّ عنه من ضلّ من أهل القرى والأمصار وغيرهم ، وبالله التوفيق . فقد اجتمع في هذا المصنَّف أنواع التوحيد الثلاثة التي أشار إليها العلامة ابن القيم ﷺ بقوله :

والعِلمُ أقْسَامٌ ثَلاثٌ مَا لَهـا ... مِنْ رَابعٍ والحقُّ ذُو تِبْيَانِ
عِلْمٌ بأَوصَافِ الإلٰـهِ وفِعْلِهِ ... وكَذَلكَ الأسْمَاءُ للرَّحْمَنِ
والأَمْرُ والنَّهيُ الّذِي هُو دِينُهُ ... وَجَزاؤُهُ يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي[1]

وصلى الله على سيد المرسلين وإمام المتقين ، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ما عنده شيء يعبد القبور ويستغيث بالأموات ، وهو عالم في الفقه وعالم في التفسير والحديث لكن يسير مع الدهماء في العقيدة ولا يكفر ، هؤلاء علماء ضلال .

(١) البيت الأول « علم بأوصاف الإلٰه وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن » هذا القسم الأول ، القسم الثاني : « الأمر والنهي » الذي هو الحلال والحرام ، « وجزاؤه يوم المعاد الثاني » هذا القسم الثالث يعني ما يكون يوم القيامة ، الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه .

فهرس الموضوعات

الموضوع **رقم الصفحة**

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة